



كتاب
العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل

لأبي القاسم أحمد بن محمد البلوي الإشبيلي
(575 - 657 هـ)

دراسة وتحقيق:
الدكتور محمد مفتاح

كتاب
العطاء الجزيل
في كشف غطاء الترسيل



هذا الكتاب من إصدارات
الرابطة المحمدية للعلماء
العنوان البريدي: الرابطة المحمدية للعلماء، شارع لعلو، لوداية - الرباط
الموقع الإلكتروني: www.arrabita.ma
البريد الإلكتروني: info.arrabita@gmail.com
الهاتف: 00 212 5 37 70 57 48
الفاكس: 00 212 5 37 70 57 49



مركز ابن أبي الربيع السبتي
للدراسات اللغوية والأدبية
شارع أحمد الحريزي، 4 - تطوان
البريد الإلكتروني: assabti.arrabita@hotmail.fr
الهاتف: 00 212 5 39 99 91 87
الفاكس: 00 212 5 39 99 97 67

السلسلة : ذخائر في اللغة والأدب (3)

العنوان : كتاب العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل
لأبي القاسم أحمد بن محمد البلوي الإشبيلي
(575-657هـ)

دراسة وتحقيق : محمد مفتاح

تقديم : أحمد عبادي

التدقيق الفني : محمد فوزار

خطوط الغلاف : محمد المعلمين

تصميم الغلاف : آمال محفوظ

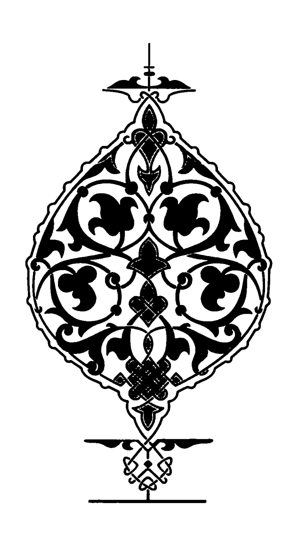
تصفيف وتنضيد : هاجر الفتوح

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تمثل بالضرورة رأي الناشر

الإيداع القانوني : 2019MO3599

ردمك : 978-9954-619-83-4

الطبعة الأولى : 1441هـ / 2020م





تطلب هذه الطبعة من الكتاب من دار الأمان للنشر والتوزيع ووكلائها المعتمدين داخل المغرب وخارجه بصورة حصرية

دار الأمان للنشر والتوزيع
رقم 4، ساحة المامونية، الرباط - المملكة المغربية
البريد الإلكتروني: darelamane@menara.ma
الهاتف: 76 32 72 37 5 212 00 - **الفاكس:** 55 00 20 37 5 212 00

وكلاء التوزيع:

- مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء - المغرب
الهاتف: 31 29 44 522 212 00
الفاكس: 35 29 44 522 212 00

- المعرض الدائم للرابطة المحمدية للعلماء - المغرب
شارع فيكتور هيكو رقم: 53 مكرر - حي الأحباس - الدار البيضاء
الهاتف: 57 86 44 522 212 00 / 51 20 54 522 212 00

- مكتبة التدمرية، الرياض - السعودية
ص ب 26173 . الرمز البريدي: 11486
الهاتف والفاكس: 06 47 492 0966/ 30 71 493 0966

- دار ابن حزم للطباعة والنشر - لبنان
ص.ب. 14/6366 - بيروت
الهاتف والفاكس: 74 19 70 / 27 02 30 9611 00

- دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر
19 شارع عمر لطفي، موازي عباس العقاد - مدينة نصر
الهاتف والفاكس: 06 47 294 966 00 / 30 71 394 966 00

- مكتبة عالم المعرفة - الجزائر
حي الصومام، عمارة 17 المحل 7، باب الزوار.
الهاتف: 37 45 24 21 213 00





كتاب
العطاء الجزيل
في كشف غطاء الترسيل

لأبي القاسم أحمد بن محمد البلوي الإشبيلي
(575 - 657 هـ)

دراسة وتحقيق :
الدكتور محمد مفتاح



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا الأمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا أول كتاب أُلِّفَ في المختارات النثرية في الأندلس، كتبه، في ثلاث سنوات، عالم إشبيلي كبير، عاش مدة طويلة في مراكش، اسمه أبو القاسم أحمد بن محمد البلوي، جمع فيه نصوصا، كثيرٌ منها لا يوجد في غير هذا الكتاب، ومنها رسائل نثرية مشرقية، لعبد الحميد الكاتب وغيره. ما كانت ليطلع عليها الناس اليوم، لولا صاحب هذا السِّفر - رحمه الله تعالى -.

ومن هذه النصوص أيضا، نصوص موحدية نادرة، اختارها المؤلف بذوقه الرفيع، واطلاعه الواسع، جَلَّت قدرته على التمييز بين ضروب الكلام. وتلك قدرةٌ عَدَّهَا القدماء قدرةً مساوية للقدرة على القول، وهي القدرة على إصابة الاختيار. حتى قال البغدادي في «الخزانة» عن أبي تمام: "...وَله كتاب الحماسة الَّذِي دلّ على غزارة علمه، وَكَمَال فَضله، وإتقان مَعْرفَته بِحسن اخْتِيَاره. وَهُوَ فِي جمعه للحماسة أشعر مِنْهُ فِي شعره"

ولنا أن نضيف إلى هذه القدرة، قدرته على قول الشعر، فقد كان فيه متمكنا، سريع البديهة، بارعا في الترسل، في زمن كانت طبقة الكُتَّاب فيه ذات شأن. فقد ذكر ابن صاحب الصلاة، أن هذه الفئة نالت في عهد يعقوب المنصور من الأموال، وصلاح الأحوال، ما لم تنله في عهد آخر.

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب، ودراسته، وإخراجه للناس، أحد كبار محققي التراث الأندلسي في بلدنا الكريم، وهو فضيلة الدكتور محمد مفتاح، فأجاد في ذلك حفظه الله، وقدم للكتاب بدراسة مفيدة، على صعوبة ذلك، لقلة المصادر التي ترجمت للرجل، ولضياع قسم كبير من الكتاب. فقد ضاع منه أربعة عشر بابا من أوله.



وهي أمور لم تمنع المحقق - جزاه الله خيراً - من الاجتهاد في كتابة ترجمة للبلوي، وعصره، وأسرته، وبيان أهمية الكتاب، وخطورة ما فيه، وضرورة الاطلاع عليه لمن أراد أن يطلع على أحوال العصر الموحدي من جهات الاجتماع، والسياسة، والثقافة، والأدب، والعلاقات الإنسانية.

أسأل الله تعالى أن يجعل ثواب هذا العمل النفيس، في ميزان حسنات مولانا أمير المؤمنين، وأن يحفظه بما حفظ به أولياءه المخلصين، راعي العلم والعلماء في هذا البلد الكريم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء

مقدمة

لم يكن اختياري موضوع هذه الرسالة من قبيل الصدفة بل جاء نتيجة لسببين رئيسيين: سبب ذاتي وسبب موضوعي.

أما السبب الذاتي فيتلخص في اعتقادي الجازم بأن التراث العربي الأندلسي هو تراث مشترك بين أمتين كونتا حضارة تفتخر بها الإنسانية كما أن هذا التراث كان رابطة قوية تربط بين شعبين عريقين هما الشعب العربي والشعب الإسباني، ومن ثم يجب أن يكون هذا التراث جسرا نعبر به من الماضي إلى الحاضر حيث يمكننا أن نتخذ مما خلفه أسلافنا وأسلافكم وسيلة للتعاون المثمر في هذا العصر وفي العصور اللاحقة أو الآجلة. كما أنني أعتقد أن الاضطلاع بتحقيق التراث الأندلسي ودراسته يجب أن يتم من قبل أبناء الأمتين اللتين أنتجتاه؛ وتلك مهمة يجب أن ينجزها المهتمون بهذا التراث من أبناء البلدين.

أما السبب الموضوعي فيتلخص في كوني وجدت الكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه ودراسته يضيف إلى المكتبة العربية جديدا. فهو كتاب غني بالنصوص النثرية، سواء تعلق الأمر بالنصوص المشرقية أم الأندلسية والمغربية؛ فهو يحتوي على عدة رسائل من النثر الفني ومن أرفع وأحسن ما خلفه كتاب العرب عبر مختلف العصور في المشرق والأندلس.

ولا شك أن هذه النصوص التي حصلنا عليها بواسطة هذا الكتاب ستكون مجالا خصبا للباحثين والمهتمين بالدراسات العربية الأندلسية والمشرقية. وأنها ستغير كثيرا من الأحكام التي قدمت؛ وخاصة عن العصر الموحدي، الذي يحتوي الكتاب على نصوص هامة عنه؛ سواء تعلق الأمر بالجانب السياسي أو الاجتماعي أو الفني. هما السببان اللذان جعلاني أقدم على تحقيق الكتاب ودراسته. ومن ثم فقد سلكت في سبيل ذلك المسلك التالي:



لقد قسمت البحث إلى قسمين رئيسيين: قسم للدراسة وهو مهم في نظري رغم إيجازه، وقسم للتحقيق.

أما القسم الأول: لقد تعرضت فيه للبلويين في الأندلس؛ فتحدثت عن نسبهم وانتمائهم، ثم ركزت على دخولهم إلى الأندلس وانتشارهم في مدنها حيث وجدت أن أغلب هؤلاء كانوا بالوسط والغرب والجنوب ولم أعثر على أي من هؤلاء بشمال شبه الجزيرة، كما تعرضت للمناصب الإدارية التي كانوا يتولونها مبرزا الدور الذي لعبه هؤلاء على الصعيدين الثقافي والسياسي باعتبارهم من البيوتات المهمة في الأندلس.

ثم تطرقت بعد ذلك للحديث عن مصادرترجمة البلوي مقسما إياها إلى مصادر قديمة ومصادر حديثة.

وقد وجدت أن الترجمتين الأصيلتين اللتين احتفظ بهما الزمان هما: ترجمة ابن عبد الملك المراكشي في «**الذيل والتكملة**» وترجمة ابن سعيد المغربي في اختصار القدح. غير أن الترجمة الهامة فيهما هي الترجمة الأولى باعتبار أن «**ابن عبد الملك**» كان تلميذا وفيا للبلوي حيث عاش بجانبه مدة طويلة ليس في حلقات الدرس فحسب بل خارج جنبات الأقسام الدراسية فكان يستفيد منه في كل لحظة وحين؛ ومن ثم تكون لديه رصيد هام من المعلومات عن شيخه وظفه في كتابه.

أما ابن سعيد فكان قد اتصل بالبلوي في إشبيلية وصحبه مدة؛ ومن ثم فقد أفرد له ترجمة هامة في «**اختصار القدح**» وإن لم يكن قد ذكره في كتبه الأخرى. وتكمن أهمية هذه الترجمة في كونها أشارت إلى بعض أشعار البلوي؛ ونماذج من نثره وإشارات طفيفة إلى حالته العائلية والنفسية. ثم بينت المصادر الحديثة التي أشارت للبلوي؛ واعتبرت أن جل هذه المصادر نقلت عن المصدرين السالفين.

وهكذا وجدت أنه مذكور في «**الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**» والترجمة التي أوردها ابن إبراهيم في كتابه هذا منقولة بالحرف عن نسخة «**الذيل والتكملة**».



أما الكتاب المحدثون أو المعاصرون فقد وجدت أنهم اعتمدوا كليا أو جزئيا على المصدرين الأولين. وهكذا نبهت على الترجمة التي خصه بها الدكتور محمد بن شريفة في مقدمة «**الذيل والتكملة**» والتي أفردها له الدكتور إحسان عباس في كتابه عن عبد الحميد الكاتب والترجمة التي خصه بها الأستاذ عبد الوهاب بن منصور والأستاذ إدريس العلوي البلغيثي.

وقد نبهت في الختام إلى عدم تنبه كثير من الباحثين لأهمية كتاب «**العطاء**» في بناء ترجمة الرجل حيث أغفله جل هؤلاء مع أن الكتاب يحتوي على معلومات هامة عن حياته وعلاقاته الشخصية، ويتضمن جزءا مهما من شعره ورسائله؛ ومن ثم فقد استفدت منه ولأول مرة في بناء ترجمته وتقويم شخصيته.

ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن المؤثرات العامة في حياته مشيرا إلى أن المصادر كلها سكتت عن الحديث عن أسرته وعن طفولته، لكنني مع ذلك أشرت إلى نسبه وبعض أفراد أسرته كأخيه الأكبر الذي كان له الحظ الأوفر في تربيته، وخاله القرمادي الذي استفاد البلوي كثيرا من علمه وأخلاقه. ثم تحدثت عن تنقلاته ورصدت تلك التنقلات، فوجدت أنها لا تعدو بالأندلس خاصة أن تتجاوز إشبيلية - جيان- مربلة وإصطبونة. ثم تحدثت عن العلاقات التي كونها بإشبيلية، وعن المناصب التي تولاها بها أو خارجها: حيث علمت من خلال الأخبار القليلة عنه أنه ولي الكتابة بكل من إشبيلية وجيان والقضاء بمربلة وإصطبونة.

ثم تحدثت عن حياته بالمغرب، خاصة بمدينة مراكش وضواحيها؛ وعلمت أنه دخل هذه المدينة أكثر من مرة وأنه قد أصيب بمرض هناك كاد يودي بحياته لولا العناية التي أولاه به صديقه وشيخه ابن عياش الذي أنقذه بواسطة الأطباء الذين أوفدهم لفحصه وتطبيبه.

ثم بينت أنه أقام هناك يدرس العلوم التي كان قد حذقها؛ كما أشرت إلى أنه أصيب بفاقة شديدة في أخريات أيامه، فذهب إلى حاجة لتعليم أبناء أحد البرابرة مقابل أجر زهيد لم يكفه إلا لأيام قلائل، وأنه عاد بعد ذلك يتعيش من عقد الشروط وكتابتها.



وهكذا تبين لي أن البلوي عاش في آواخر حياته سيء الحظ، حيث لم يحظ بعطف أي أحد سواء من أقربائه أو أصدقائه أو تلامذته.

وبعد ذلك تعرضت لشيوخه وتلامذته، وتتبعت هؤلاء في المصادر التي بين يدي فوجدت أنه درس علوما مختلفة فتنوعت ثقافته تبعا لتنوع ثقافة شيوخه الذين كان يجلهم ويجلونه. وذكرت أنه كان لا يني يستفيد من شيوخه، وحتى من بعض تلامذته كما يذكر «ابن عبد الملك».

ثم تعرضت لتلامذته الذين كانوا يقدرونه وأبرزت أن أشهر هؤلاء ابن عبد الملك المراكشي الذي يعتبر الناقل الأول لأخباره وأشعاره ومؤلفاته. كما نبهت على أن عدد هؤلاء سواء أكانوا شيوخا أم تلامذة يفوق ما وجدناه بكثير وذلك استنادا إلى ما ذكره تلميذه ابن عبد الملك صاحب «الذيل والتكملة».

ثم تحدثت عن شاعرية البلوي مبرزا أن معاصريه قد أشادوا بشاعريته، وأنه كان يمارس الشعر ممارسة المطبوع عليه؛ وأنه كان باستطاعته ألا يكلم الناس إلا بالشعر إن أراد، ولكن المصادر لم تحتفظ لنا بكثير من إنتاجه الشعري فليس هناك سوى نتف قليلة مذكورة في: **الذيل** و**في اختصار القدح** ومما تجدر الإشارة إليه أن اغلب القصائد التي وصلتنا مذكورة في العطاء سواء تعلق الأمر بغرض المدح أم الرثاء أم غيرهما، ثم ذكرت بعض الأغراض الشعرية التي برز فيها كالمدح والرثاء، أما المدح فقد خص به بعض الولاة وبعض الأصدقاء، وهكذا وجدناه مدح أبا العلاء إدريس والخليفة المعتضد بالله الملقب بالسعيد؛ كما مدح صديقه أبا مروان الباجي؛ ثم أبرزت أن الصفات التي كان البلوي ينعت بها ممدوحيه هي صفات تقليدية ترد عادة في قصائد المدح العربي ومن ثم لم نلحظ أن البلوي قد أتى بجديد يذكر في هذا الغرض.

ثم تطرقت للحديث عن غرض الرثاء وبينت أن البلوي كان له القدح المعلى في هذا الغرض وأن جل ما وصلنا من شعره في هذا الجانب رغم قلته يعبر عن ذلك. ثم



أشرت إلى القصائد أو المقطعات التي وصلتنا وهي: قصيدة واحدة في رثاء صديقه أبي عبد الله الباجي وقصيدة في رثاء السيد أبي محمد الموحدي وثلاث قصائد في رثاء ولي نعمته أبي إسحاق إبراهيم.

ثم تعرضت لشعره الذاتي الذي عبر فيه عن همومه وقلقه وهو شعر يدل على أن البلوي كان يعاني أزمات حادة وأنه يئس من الأنام حيث لم يجد من يفضي إليه بأسراره سوى كتبه التي كان يسار إليها بما لديه فتجيبه وإن كانت خرساء.

وأثناء حديثي عن نثره افتتحت ذلك بالحديث عن الكتابة والكتاب في عصر الموحدين مبرزا أهمية الكتابة في هذا العصر، وتشجيع الخلفاء للكتاب بل وتوجيههم أحيانا باعتبار أنهم كانوا من مثقفي العصر أيضا وليسوا من ساسته فحسب.

ثم حددت أقسام نثره فوجدت أن رسائله يمكن أن تصنف إلى رسائل رسمية ورسائل إخوانية:

أما الرسائل الرسمية فقد حددت مصادرها حيث وجدت أن جل هذه الرسائل قد ورد في كتابين مخطوطين هما: العطاء الجزيل ومخطوط الأستاذ المنوني الذي يعتبر المصدر الأساس لهذه الرسائل.

ثم حللت مضامين هذه الرسائل مبرزا أهميتها في الجانب السياسي حيث وجدت أن أغلبها قد تطرق إلى العلاقة بين المسيحيين وبين المسلمين آنذاك، وأن الهدنة كانت تعم في أغلب الأحيان بالرغم مما كان يحدث من تجاوزات في بعض الأوقات سواء من جانب المسيحيين أو المسلمين، ثم تطرقت أثناء تحليل مضامين بعض الرسائل إلى الجوانب الاقتصادية التي كانت تسود الأندلس عامة وإشبيلية خاصة في تلك الحقبة الزمنية.

كما تعرضت أثناء الحديث نفسه إلى بعض الجوانب الاجتماعية، ثم تعرضت لرسائل البلوي الإخوانية وقسمتها حسب مضامينها إلى رسائل الهدايا ورسائل التعزية ورسائل الوصف مبرزا أهمية هذه الرسائل وقيمتها الأدبية والفنية.



ثم تحدثت بعد ذلك عن مؤلفات البلوي وبينت أن تنوع ثقافته كان سببا أساسيا في تنوع مؤلفاته مشيرا إلى أسماء بعض هذه المؤلفات، معتقدا أن الجانب الأدبي كان يطغى على شخصيته؛ ومن ثم لم يذكر لنا مترجموه سوى مؤلفات في هذا الجانب.

وبعد ذلك تحدثت عن كتاب العطاء الجزيل فذكرت أن للكتاب اسمين: **تشبيب الإبريز والعطاء الجزيل**، وأن مؤلفه كان في بداية الأمر قد أطلق عليه الاسم الأول ثم أثناء اكتماله وتحريره أضاف له اسمه الثاني.

ثم تحدثت عن بواعث تأليفه مشيرا إلى أنه كان قد جمعه باقتراح من محمد بن سهيل القضاعي وأن أبا إسحاق إبراهيم هو الذي حثه على إتمام إنجازه وإخراجه من مسودته للناس.

ثم تعرضت لمنهجه في الكتاب وبينت أنه قد بنى اختياراته في الكتاب على اعتبارين:

1- اعتبار فني.

2- اعتبار زمني.

ثم تعرضت للحديث عن المصادر التي اعتمدها في مؤلفه مبرزا بعض هذه المصادر؛ ومحددا أنها تتنوع بتنوع موضوعات الكتاب، وأنه لم يكتف بالمؤلفات الأندلسية بل كان يملك مصادر مشرقية نادرة استفاد منها في تحرير مؤلفه.

ثم وصفت النسخة الخطية الوحيدة التي وصلتنا وصفا دقيقيا تعرضت فيه لرقم النسخة وعدد صفحاتها وسطورها واصفا خطها مبرزا أنه قد وقع بها ترميم لا ندري مكانه أو زمانه.

ثم ختمت ذلك بالحديث عن الأبواب الباقية من الكتاب، وهي تبتدئ من الباب الخامس عشر إلى العشرين يليها باب خاص بالزوائد التي ألحقها المؤلف بكتابه وهو باب خاص بالرسائل الموحدية، وهي جلها رسائل لم ترد في المصادر التي نملكها عن هذا العصر.



أما التحقيق فقد أردت من خلاله أن أنجز الكتاب على صورة ترضي الناس، وترضي صاحبه؛ ومن ثم فقد حاولت قراءته قراءة متأنية سليمة - قدر المستطاع - حتى تعطى النصوص التي يحتويها صورة عن الحياة الأدبية في المشرق أوالأندلس خلال عصر المؤلف أو قبله.

وقد بذلت في ذلك جهدي وطاقتي حيث عرضت كثيرا من تلك النصوص على مؤلفات أخرى محاولا ترميم الكتاب الذي تعسر قراءته على المتخصص بله غير المتخصص.

كما شرحت بعض الغوامض والمبهمات من الألفاظ والعبارات اللغوية عارضا كل ذلك على اللسان «لسان العرب».

كما ترجمت لبعض الشخصيات الواردة في المؤلف مما يفيد الباحثين، ويوضح المغمور منها للمتلقي.

كما رصدت الأمثال الواردة بالكتاب موضحا مصادرها وبعض معانيها، كما أشرت إلى الأشعار وأصحابها، والأحاديث النبوية ومصادرها، ثم ذيلت الكتاب بفهارس عامة تكون مفاتيح للاستفادة من الكتاب وأبوابه.

وختاما، فإني أعترف أنه لولا العناية التي لقيتها من أستاذتي ماريا خيسوس فيغيرا ما كنت لأنجز هذا البحث.

فقد وجدت في إشرافها نعم الإنسانة، ونعم الأستاذة بعلمها وثقافتها، والإنسانة بدماثة أخلاقها وطيب سلوكها.

فلها شكري العميق بما طوقتني به من فضل وما غمرتني به من توجيه.

الدكتور محمد مفتاح

كتاب

العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل

لأبي القاسم أحمد بن محمد البلوي (ت:575-657هـ)

قسم الدراسة



البلويون في الأندلس

ينتسب البلويون سواء تعلق الأمر ببلويي المشرق أو الأندلس أو المغرب إلى قبيلة «بلي» العربية اليمنية وهم ولد بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، فهي إذن قبيلة جنوبية كانت تسكن في القديم منطقة مأرب وذلك بدليل قول الشاعر اليمني الملثم بن قرط البلوي[1]:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الحَـيَّ كَـانُوا بِغِبْطَـةٍ ... بِمَـأْرِبِ إِذْ كَـانُوا يُحلُّونَهَـا مَعَـا

بَلِـيٌّ وَبَهْـرَاءُ وَخَـوْلَانُ إِخْـوَةٌ ... لعمـرو حـافٍ فَـرع قـد تَفَرَّعَـا

غير أن الهمذاني وهو المؤرخ العالم بالتوزيع الجغرافي للقبائل اليمنية العارف بها حق المعرفة يجعل منازل بلي إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة[2].

كان البلويون كثيري الترحال والتنقل يشاركون في الحروب التي يخوضها المسلمون في جميع البقاع، ومن هنا يمكن أن نعتبر البلويين الداخلين إلى الأندلس كانوا قد وفدوا عليها، أثناء الفتح الإسلامي ثم انتشروا بعد ذلك في مناطق متعددة وأماكن متفرقة من بلاد الأندلس.

وقد حاولنا أن نتتبع البلويين المقيمين بالأندلس من خلال بعض كتب التراجم والطبقات فوجدنا أن توزيعهم الجغرافي كان على الشكل التالي:

المكان	العدد	المصادر
قرطبة	4	التكملة1/ 130، التكملة 1/ 292، الديباج المذهب 2/ 179، الذيل 4/ 69.

(1) منتخبات في أخبار اليمن، ص:9.

(2) وداد القاضي: بشر بن أبي كبار البلوي، ص: 25.



ألمرية	3	الإحاطة 2/ 382، الإحاطة 3/ 218، أزهار الرياض 1/ 309.
طرطوشة	1	التكملة 2/ 495، الذيل والتكملة 6/ 16.
مالقة	2	أدباء مالقة ص: 122، وكذلك ص: 208.
جيان	1	الديباج المذهب 354.
شاطبة	1	الذيل والتكملة 6/ 302.
إشبيلية	3	الذيل والتكملة 1/ 1 ص: 106، برنامج شيوخ الرعيني 112.
غرناطة	1	تاج المشرق، ص: 16.
لبسة	2	الإحاطة «نصوص جديدة» ص: 173و221.
جزيرة شقر	1	الذيل والتكملة 6/ 79.
إلبيرة	1	الإحاطة «نصوص جديدة»ص:226.
برجلة	1	الذيل والتكملة 1/ 1 ص: 449.
وادي آش	2	ثبت البلوي، ص 17و20.

من خلال الجدول السابق يتبين أن استقرار البلويين لم يكن بمكان واحد بل كانت تحركاتهم تتم من مدينة إلى أخرى ومن منطقة إلى منطقة ومن ثم وجدنا بعض البلويين القرطبيين يرحلون إلى شذونة أو إشبيلية وبعضهم الآخر كان من باجة ثم تركها ودخل قرطبة كما وجدنا أيضا أن بعضهم من طرطوشة وقد رحل إلى مرسية وأن الذين سكنوا مالقة كان أصلهم من إشبيلية. ويستفاد من الجدول السابق أيضا أن الرقعة الجغرافية التي كان البلويون يتحركون فيها هي وسط شبه الجزيرة وشرقها



وغربها وجنوبها. أما الشمال فإننا لم نعثر على أي ترجمة لأي بلوي من شمال شبه الجزيرة وذلك في المصادر التي اتخذناها مقياسا لتحركاتهم وتنقلاتهم.

وقد كان جل البلويين القاطنين بالأندلس ينتمون إلى بيوتات عريقة في المجد والسيادة والشرف مما مكنهم من تولي مناصب مهمة في الدول التي كانوا يعاصرونها وخلال فترات زمنية متعددة ومتنوعة غير أن المناصب التي كانوا يتقلدونها غالبا بناء على الجدول السابق هي منصب القضاء؛ مما يدل على أن الرصيد الثقافي الذي كان لدى أغلبهم هو الشريعة الإسلامية، والفقه، والأحكام، والعلوم الدينية، ولعل اهتمام أغلب البلويين بالفقه المالكي وتبحرهم فيه هو الذي ساعدهم على تولي مثل تلك المناصب، خاصة إذا علمنا أن الأندلس ظلت فترة وجيزة على مذهب الإمام الأوزاعي ثم تحولت إلى مذهب الإمام مالك الذي مكث خلال حقبة طويلة هو المذهب الرسمي للدولة في الأندلس.

غير أن البلويين لم يكونوا فقهاء فحسب بل كان من بينهم الطبيب والمقرئ والأديب والشاعر والعروضي؛ ويبدو أن الصفة الثانية التي كانت تغلب على البلويين بعد الفقه هي الأدب والشعر؛ فقد وجدنا في تراجم بعضهم أنه كان يتعاطى لقرض الشعر ويميل فيه إلى التوليد[1] بمعنى أنه كان من أنصار مدرسة التجديد كما أن البعض الآخر كان على العكس من ذلك يميل إلى الشعر المطبوع[2] غير المتكلف ولكنه كان يميل في شعره إلى الوسط فلا هو بالجيد ولا هو بالضعيف. وإذا انتقلنا إلى الجانب الأسري والثقافي إلى الجانب الأخلاقي والاجتماعي فإننا نجد أن البلويين في عمومهم كانوا يتمتعون بخصال حميدة كالزهد والورع والفضل والبر وحسن السيرة[3]. مما دفع بالكثير من مؤلفي الطبقات وكتب التراجم إلى الثناء عليهم وإبراز هذا الجانب من شخصيتهم.

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة، 2/ 382.
(2) المصدر السابق، 3/ 218.
(3) أدباء مالقة، «مخطوط» لابن عسكر، ص: 122.



مصادر ترجمة البلوي

لم يكن البلوي مشهورا في عصره شهرة بالغة كما أنه لم يكن مغمورا[1] بل عرف من قبل المعاصرين وشهدوا له بالتبريز والفطنة والذكاء، وسرعة البديهة، والقدرة الفائقة على نظم الشعر وتدبيج الرسائل. غير أن ترجمته وتفاصيل حياته ظلت محصورة لدى فئة قليلة من معاصريه بحيث لم نجد له ذكرا في كتب الطبقات والتراجم المتأخرة، ولعل مرد ذلك أن كتابه في «فن الترسل»[2] لم يذع بين الناس ولم يستفد منه أحد من الذين اهتموا بتراجم الرجال وإنتاجهم فظل محدود التأثير قليل الانتشار ولعل السبب نفسه هو الذي جعل كثيرا من المعاصرين من مستشرقين وعرب لا يولون الرجل أهمية بل إن كثيرا منهم لم يذكروه ضمن مثقفي العصر الموحدي الذين كان لهم تأثير جلي واضح في النهضة الأدبية والفكرية. وهكذا أهمله ليفي بروفنسال، هويثي ميرندة، وإحسان عباس، وحكمت علي الأوسي، ومحمد عبد الله عنان وغيرهم من كبار الباحثين الذين لهم إسهام وافر ودراسات قيمة عن عصر الموحدين وفي جوانب متعددة من الحقول المعرفية التي كان يزخر بها هذا العصر.

ولكننا بالرغم من هذا الإهمال الذي لقيه البلوي خلال حياته وبعد مماته سنحاول أن نرصد بإيجاز المصادر التي ترجمت له سواء تعلق الأمر بالأصول القديمة أو الدراسات الحديثة والمعاصرة معتمدين في ذلك على الترتيب الكرنولوجي.

(1) الذيل والتكملة 1/ 2-453.

(2) إدريس العلوي البلغيثي: فن الترسل في عصر الموحدين، ص: 318 وما بعدها.



أ- المصادر القديمة:

❖ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة[1].

لعل الترجمة الوحيدة التي عَرَّفَتْ بالبلوي وألقت الأضواء الكاشفة عن بعض مراحل حياته وتكوينه الثقافي هي تلك التي احتفظ لنا بها صاحب الذيل والتكملة[2] والسبب في ذلك عائد إلى كون ابن عبد الملك يعتبر من تلامذة البلوي الأوفياء ومن المقربين لديه والعاطفين عليه بل يمكن اعتباره من أصدقائه على الرغم من فارق السن بينهما. لقد أفرد ابن عبد الملك ترجمة مطولة لشيخه ذكر فيها نسبه وشيوخه الذين درس عليهم في الأندلس وكذا شيوخه الذين أجازوه من المشارقة والأندلسيين كما ذكر بعض تلامذته الذين أخذوا عنه بالأندلس والمغرب. وقد عبر ابن عبد الملك في هذه الترجمة عن انطباعه الشخصي حول نفسية البلوي التي قال عنها: إنها كانت تتميز بالرقة والرهافة وسرعة الدمعة، كما ذكر مهنته التي كان يَمْتَهِنُهَا بمراكش وهي «عقد الشروط» وقد تحدث المؤلف أيضا عن ارتباط البلوي ببعض ولاة الموحدين بالأندلس وتقلده لمنصب الكتابة لكثير منهم، كما ذكر مؤلفاته وإنتاجاته الفكرية سواء تلك التي أتمها في حياته أو التي توفي قبل إتمامها، كما تحدث عن شعره وسرعة بديهته فيه مستشهدا بقصيدته التي أنشدها بين يدي المعتضد بالله «الملقب بالسعيد»[3] الذي تولى الحكم بعد وفاة أخيه الرشيد وهي من القصائد الغر المتميزة بالجودة والاتقان. وفي ختام الترجمة أبرز ابن عبد الملك الحرمان الذي أصاب شيخه في أواخر حياته وكيف تنكر له بعض تلامذته ومنهم أبو الحسن الرعيني[4] بالرغم من أنه كان بلديه؛ وقد انتفع به كثيرا في طريقته التي اشتهر بها وهي الكتابة عن السلطان.

---

(1) حول ابن عبد الملك، انظر مقدمة محمد بن شريفة للجزء 8 من الذيل والتكملة.

(2) الذيل والتكملة 1/ 2-453.

(3) البيان المغرب، 359.

(4) برنامج شيوخ الرعيني: المقدمة.



❖ ابن سعيد المغربي: اختصار القدح المعلى[1]:

لم يترجم ابن سعيد لصديقه البلوي في كتاب المغرب في حُلى المغرب كما أنه لم يذكره في «الغصون اليانعة» ولا في «رايات المبرِّزين» غير أنه أفرد له ترجمة في اختصار القدح[2] ويمكن اعتبار هذه الترجمة بعد ترجمة ابن عبد الملك أوفى ترجمة وصلتنا عن الرجل وعن ظروف حياته. ويذكر ابن سعيد في غضون هذه الترجمة نسب البلوي مختصرا كما يتحدث عن شهرته في صناعة الكتابة وعن منصبه الذي تولاه في إشبيلية لبعض سادات بني عبد المؤمن، كما أن المؤلف تحدث عن الشؤم الذي أصاب البلوي في أواخر حياته مشيرا إلى بعض مؤلفاته وخاصة كتابه الذي صنفه في رسائل كتاب عصره[3].

ثم تحدث ابن سعيد عن شاعرية البلوي الفذة مشيرا إلى قصيدته التي أنشدها بحضرة أبي العلاء إدريس[4] حينما وصله الخبر بقتل البياسي[5] الذي كان قد أضرم في الأندلس نار الفتنة. كما أورد ابن سعيد ضمن ترجمة البلوي جملة من أشعاره الذاتية، وأشاد بطول نفسه وقدرته على الإبداع وممارسة الشعر، كما اختار له فصولا من رسائله في الشكوى والتي عبر البلوي من خلالها عن حالته النفسية والاجتماعية[6].

---

(1) محسن حامد العيادي: ابن سعيد حياته وتراثه الفكري والأدبي.

(2) اختصار القدح المعلى، ص: 120.

(3) لقد وهم ابن سعيد في ذلك، حيث ذكر أن الكتاب يحتوي على رسائل الكتاب المعاصرين للبلوي والحقيقة أنه يضم رسائل لغيرهم.

(4) الحلل الموشية، ص: 163.

(5) البيان المغرب، قسم الموحدين.

(6) الذيل والتكملة، 8/ 1/ 10-11.



ب- المصادر الحديثة:

❖ **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام[1].**

لقد خصص ابن ابراهيم كتابه للأعلام الوافدين على مراكش من غير المغاربة، كما ترجم فيه لمجموعة من الشخصيات المراكشية، وبما أن البلوي كان على شرط كتابه فقد أفرد له ترجمة مطولة نقلها بالحرف دون زيادة أو نقصان عن كتاب «الذيل والتكملة»، غير أنه أفصح عن مصدره الذي أخذ عنه في مقدمة الترجمة. وكنا نعتقد أنه سيضيف جديدا في ترجمته للبلوي غير أنه لم يضف أي جديد، كما كنا نرجح أننا سنجد ترميما للخروم التي وقعت في ترجمة البلوي في «الذيل والتكملة» المطبوع ولكن شيئا من ذلك لم يحدث مما يدل على أن المؤلف اعتمد على نفس نسخة الذيل «قسم الأحمدين» الذي حققه الدكتور محمد ابن شريفة.

ج- الدراسات المعاصرة:

لقد أشرت في بداية الحديث عن مصادر ترجمة البلوي إلى أن الباحثين المعاصرين الذين كتبوا دراسات قيمة عن الموحدين في جوانب متعددة من الحقول المعرفية لم يهتموا بالبلوي اهتمامهم بغيره من الشخصيات الموحدية غير أننا وجدنا بعض هؤلاء وفي أيامنا القريبة قد أفردوا البلوي بعنايتهم وأجروا له ذكرا في بعض مؤلفاتهم ومن هؤلاء:

❖ **الدكتور محمد بن شريفة[2]:**

أثناء الترجمة القيمة التي كتبها الدكتور محمد بن شريفة لابن عبد الملك المراكشي في مقدمة الجزء الثامن من الذيل وقد تعرض للبلوي باعتباره من شيوخ ابن عبد الملك الأوائل الذين درس عليهم بمستقره وأخذ عنهم مباشرة في بلده مراكش.

---

(1) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، 2/ 178.
(2) أستاذٌ لأَجْيَالٍ من الدارسين المغاربة وشيخ الباحثين العرب في الدراسات الأندلسية.



وقد اعتمد المؤلف في بناء هذه الترجمة على كتاب الذيل والتكملة نفسه، فتحدث عن صلة ابن عبد الملك بشيخه وعن المعارف التي أخذها عنه مشيرا إلى مؤلفاته وعن رواية التلميذ لشعر أستاذه، وعما ابتلي به البلوي في آخر حياته من فاقة وحرمان، كما تحدث عن مؤلفه «العطاء الجزيل» مشيرا إلى وجود قسم منه بالخزانة الحسنية[1] ومنوها بقدرة البلوي على فن الترسل ومشيرا إلى تأثر ابن عبد الملك بطريقته في الكتابة باعتباره كان من الملازمين له والمختصين بمصاحبته[2].

❖ **الدكتور إحسان عباس:**

في مؤلف الدكتور إحسان عباس «عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله»[3] إشارة مقتضبة للبلوي ولعل القارئ يتساءل ما علاقة البلوي بعبد الحميد؟، ولكن سؤاله وتعجبه سينجلي حينما يعلم أن الكتاب الذي ألفه إحسان عباس يرجع في أصوله - كما يقول هو نفسه- إلى البلوي[4]؛ ذلك أن أبا القاسم البلوي احتفظ في كتابه «العطاء الجزيل» بمجموعة من رسائل عبد الحميد النادرة التي لا توجد في مصدر آخر من المصادر الأندلسية أو المشرقية. وقد جمع إحسان عباس هذه الرسائل، وأضاف إليها رسائل أخرى لم ترد فيه، وقدم لها بدراسة قيمة عن عبد الحميد الكاتب مشيرا في مقدمته إلى المصدر الذي استخرج منه هذه الرسائل الجديدة معرفا- بإيجاز- بالكتاب وصاحبه[5].

وقد اعتمد إحسان عباس في صفحاته القليلة التي كتبها عن البلوي على الترجمتين الواردتين في كل من الذيل واختصار القدح.

---

(1) الذيل والتكملة 8/ 1- 12.

(2) المصدر السابق.

(3) عبد الحميد بن يحيى الكاتب، ص:8.

(4) المصدر السابق.

(5) المصدر السابق، ص: 10-15.



❖ عبد الوهاب بن منصور:

جمع الأستاذ عبد الوهاب بن منصور كتابا عرف به بأعلام المغرب العربي، وقد خص البلوي في القسم الرابع بترجمة وافية[1] وقد مزج المؤلف في هذه الترجمة بين ما ورد في الذيل وما ورد في اختصار القدح. وقد نقل من المصدرين المذكورين جملة من أخبار الرجل وأشعاره وقدرا صالحا من نثره.

❖ إدريس العلوي البلغيثي:

في رسالة جامعية كتبها ادريس العلوي عن فن الرسائل في العصر الموحدي[2] أفرد الباحث للبلوي ترجمة تعتبر- في نظري - أوفى ما كتبه المعاصرون عن شخصيته وتراثه الفكري والأدبي. وقد استفاد الباحث في بناء ترجمة الرجل من المصدرين الأساسيين «الذيل والتكملة»، و«اختصار القدح المعلى»، كما استفاد في جزء يسير منها من كتاب «العطاء الجزيل»، وقد تعرض الباحث في هذه الترجمة لأسرة البلوي ونسبه وبعض شيوخه مع الحديث عن ثقافته والتنويه بملكته الفذَّة وموهبته الفنية الرفيعة كما أنه انتقى من المصدرين المذكورين طائفة صالحة من شعره وفصولا من رسائله القصيرة[3]. محللا بعضها تحليلا جزئيا تعرض فيه لبعض المعاني التي تنطوي عليها تلك الرسائل مبرزا قيمتها الفنية والتاريخية، ومنوها بأسلوب البلوي وقدرته على الكتابة[4]. ومما تجدر الإشارة إليه أن البلوي قد ذكر عرضا في بعض المصادر والمراجع، فهو مذكور في نفح الطيب حيث اختار له المقري أربعة أبيات في شكوى الزمان وأهله. كما ورد ذكره في مَلْءِ العيبة أثناء حديث ابن رشيد عن سند لأحد الشيوخ. كما أشار إليه أستاذنا وشيخنا الكبير محمد المنوني في المصادر العربية

(1) أعلام المغرب العربي، 4/ 146.
(2) فن الترسل في عصر الموحدين، ص: 168.
(3) إدريس العلوي البلغيثي، فن الترسل في عصر الموحدين، ص: 321.
(4) المصدر السابق، ص: 323.



لتاريخ المغرب معرفا بنسخة الكتاب ومنوها بقيمته الأدبية والتاريخية كما وردت الإشارة إليه في رسالة الدكتور عبد الله العمراني أثناء حديثه عن البلويين بالأندلس. ولم يذكره من المستشرقين سوى أستاذتنا الجليلة ماريا خيسوس فيكيرا في بحثها القيم عن مصادر تاريخ الموحدين[1].

نستفيد من كل ما سبق أن الترجمتين الأصيلتين اللتين احتفظ لنا بهما الزمان هما الواردتان: في: «الذيل والتكملة» و«اختصار القدح المعلى»، وأن الدارسين المحدثين والباحثين المعاصرين قد اعتمدوا جزئيا أو كليا على هذين المصدرين، ولم يلتفت أحد من هؤلاء إلى قيمة الكتاب «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل» في بناء ترجمة البلوي فهو يحتوي على معلومات هامة تفيد الباحث في إبراز شخصية الرجل وأخلاقه، كما أن الكتاب يكشف عن علاقات البلوي بمعاصريه من الطبقة العليا كالولاة والقواد والأمراء والكتاب أو من الطبقة الدنيا من عامة الشعب. كما أنه يحتوي على نماذج هامة من رسائله وأشعاره التي يستطيع الباحث من خلالها أن يُقَوِّمَ قدرات البلوي الفنية من خلالها ويضعه في منزلته التي كان يحتلها بين كتاب عصره.



(1) FUENTES ALMOHADES.



المؤثرات العامة في حياته

❖ في الأندلس:

ذكر ابن عبد الملك نسب البلوي فقال: هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن علي القضاعي الاشبيلي كان سلفه القدماء يسكنون قرطبة ثم نزحوا إلى إشبيلية ولا ندري متى كان هذا النزوح كما أننا لا نملك أخبارا عن أسبابه ودوافعه، غير أن مترجميه ذكروا أنهم كانوا يعرفون في قرطبة ببني علي، نسبةً إلى جدهم الأول[1].

وليست بين أيدينا أخبار عن أسرته الكبيرة أو الصغيرة فقد سكتت المصادر عن ذكر والده كما أنه لم يشر إليه في كتابه، مما يدل على أنه لم يكن من مثقفي عصره ويؤيد ذلك أن توجيه البلوي نحو الفكر والثقافة لم يكن من قبل أبيه بل كان بمبادرة من أخيه الأكبر[2]. وقد كان أخوه هذا من كبار عاقدي الشروط بإشبيلية ومن صدور العدول المبرِّزين بها من أثبت الناس على شهادة وإن طال أمرها[3] كامل المعرفة بالفقه والفرائض والمواريث والحساب والعروض[4]، فقد أخذ البلوي كل هذه العلوم عن أخيه فأصبح مبرزاً فيها مثله، كما أخذ بعض المعارف والعلوم عن خاله أبي العباس أحمد ابن عمر القرمادي[5] مما يدل على أن والدة المؤلف كانت من أسرة آل القرمادي وهي من الأسر المشهورة في إشبيلية.

وكما أننا لا نملك معلومات كافية عن أسرته الكبيرة فإننا أيضا لا نتوفر على أخبار ومعلومات إضافية عن أسرته الصغيرة وليست هناك سوى إشارات طفيفة وغامضة

---

(1) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام 2/ 180.

(2) الذيل والتكملة 5/ 1- 309.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر السابق.

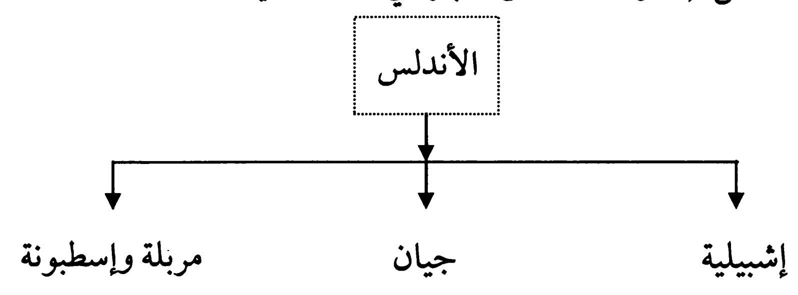
(5) المصدر السابق، 1/ 1- 348.



أحيانا عن أحوال أسرته فقد ذكر هو نفسه في سياق رسالة له أن ربة الدار قد جارت عليه في أقوالها وأفعالها[1] وأنه حزن لهذا الجور حتى غدا لا يهنأ له عيش ولا يطمئن له بال فساء حاله ظاهرا وباطنا ولا ندري ما يقصده البلوي من هذا الجور غير أننا نستنتج منه أنه لم يكن هني البال مع أسرته خاصة إذا علمنا أنه يشكو في رسالة أخرى من مقاطعة الأهل له وأنه كان يكاتبهم من بلاد الغربة «أي من صحراء المغرب» فلا يردون عليه جوابا[2].

وإذا تجاوزنا حياة البلوي الأسرية فإننا نجده قد عاش حياة اجتماعية مليئة بالأحداث والتقلبات وأنه قضى مراحل حياته كلها مترددا بين الأندلس والمغرب وذلك تبعا لارتباطه السياسي وتوجهه الإديولوجي.

أما بالأندلس فإننا وجدنا صدى أخباره في المدن التالية:



لقد كانت مدينة إشبيلية المقر الأساس لصاحبنا ففيها قضى طفولته وشبابه، ويبدو أنه كان في مراحل حياته الأولى نشيطا مرحا حيث كون صداقات متعددة مع أبناء بلده وغيرهم فكان يخرج معهم للمنتزهات على الوادي الكبير فيتناشدون الشعر ويتسامرون بألوان من النثر[3] وفي المدينة نفسها اتصل بمجموعة من الوافدين عليها

(1) اختصار القدح، ص: 120.

(2) العطاء الجزيل، لوحة 50.

(3) المصدر السابق، لوحات متعددة.



وكان من بين هؤلاء شيخه وصديقه ابن عياش[1] كاتب الخلافة الموحدية في أيام المنصور والناصر والمستنصر الذي كان يشار إليه بالبنان لبراعته وفصاحته. ويبدو أن البلوي كان قد تدرب على يد ابن عياش في صنعة الكتابة وفن الترسل كما أنه ارتبط بواسطته بالبلاط الموحدي وخاصة للولاة الذين ترددوا على إشبيلية حيث تولى مهمة الكتابة في زمن شبيبته لمجموعة من هؤلاء: كأبي زيد بن عبد المؤمن، وأبي موسى المعروف بالعادل، وأبي عمران بن أبي موسى، وأبي اسحاق ابن أبي يعقوب، وأبي اسحاق بن أبي يوسف المعروف بالأحول[2]. وبالرغم من أنه كتب لهؤلاء جميعا فإن الأخبار التي لدينا تدل على أنه ارتبط بهذا الأخير ارتباطا وثيقا حيث مكث كاتبا له مدة ثمانية عشر شهرا أي منذ دخوله لإشبيلية لأواخر سنة 610هـ إلى حين وفاته سنة 612هـ. وقد تأثر البلوي لوفاة صديقه أبي إسحاق بالغ التأثر فرثاه بقصائد فريدة وكتب في تعزيته رسائل نادرة[3].

ويبدو أن إشبيلية عرفت تنصيب عدد من الولاة الموحدين الذين كانوا لا يعرفون الاستقرار الدائم بهذه المدينة ولا شك أن هؤلاء الولاة كانوا يوصون بالبلوي خيراً، ومن ثم أصبح من المقربين لديهم ولو لم يكن قد تقلد لديهم منصب الكتابة، وهكذا وجدناه بين المدعوين لحضور حفل التهنئة الذي أقامه أبو العلاء إدريس بالقرب من الوادي الكبير بعد وصول البشارة بقتل البياسي[4]. كان البلوي من بين الشعراء الذين أنشدوا قصائدهم في هذا الحفل وقد نالت قصيدته إحسان الوالي كما استحسنها العامة والخاصة وأصبح الإشبيليون يلهجون بها ويحفظونها عن ظهر قلب.

ويظهر لي أن أحد هؤلاء الولاة بعد أن خَبَرَ سيرةَ البلوي وعرف أخلاقه وحسن معاملته وثباته على الحق والعدل عينه قاضيا بمدينتي مربلة وإسطبونة يستفاد ذلك

(1) الذيل والتكملة، 6/ 384.
(2) أعلام المغرب العربي، 4/ 146.
(3) العطاء الجزيل، صفحات متفرقة.
(4) البيان المغرب، 272-273.



من رسالة بعثها له أبو الحكم بن عذرة جواباً على رسالة تعزية كان قد خاطبه بها وهو مقيم بهاتين المدينتين[1]. ولا شك أن البلوي كان قد سلك في خِطته هذه مسلكا حسنا مما دفع الناس إلى تقريظه والثناء عليه معبرين عن شكرهم لسلوكه وذكائه وفضله وامتلاكه لزمام المعاني وقد كان من بين المادحين له أبو الحكم بن عذرة الذي قال في حقه:

واسْلَمْ وَدُمْ يَا أَيُّهَا القَاضِي الرَّضِي ... فِي خُطَّةٍ تَقْضِي لَكُمْ بِبَقَائِهَا
مَا لَاحَ نَجْمٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ ... أَوْ حَنَّ ذُو جفنٍ إِلَى إِغْفَائِهَا[2]

غير أن البلوي لم يرض بهذا المنصب الذي أسند له ولم يرد أن يمكث فيه لسبب من الأسباب التي نجهلها وطلب إعفاءه ثم عاد إلى مدينة إشبيلية.

بعد عودة البلوي إلى إشبيلية استدعاه أبو زيد عبد الرحمن الموحدي ليكون كاتبه الخاص فلبى طلبه وانتقل إلى مدينة جيان حيث ظل هناك من سنة 607هـ إلى سنة 610هـ. وفي هذه الأثناء صدرت عن البلوي رسائل رسمية وصلتنا منها رسالة واحدة كتبها عن والي جيان أبي زيد المذكور إلى ملك قشتالة وطليطلة وغشكونية يُذَكِّرُه فيها بالعهود المبرمة بينه وبين الموحدين[3]. ويبدو أن إقامة البلوي بجيان لم تدم طويلا بسبب الصراع الذي كان قائما بين المسيحيين والمسلمين المجاورين لهم، وبسبب المناوشات الدائمة التي كانت تدور بين الطرفين ففضل الانتقال مرة أخرى إلى مدينة إشبيلية ومنها إلى مراكش.

❖ البلوي في المغرب:

لم يكن البلوي دائم الاستقرار بالأندلس بل كان يتنقل بينها وبين المغرب محاولا أن يتقلد منصب الكتابة لدى أحد الخلفاء الموحدين الذين كانوا يقربون الكُتَّاب

(1) العطاء الجزيل، الزوائد.
(2) المصدر السابق، الزوائد.
(3) انظرها في المصدر السابق.



الأندلسيين لبلاطاتهم ويعتنون بهم أشد الاعتناء؛ غير أن البلوي لم يفلح في ذلك إذ لم نعثر في كتب الطبقات التي ترجمت له على خبر يفيد أنه تقلد منصب الكتابة لخليفة من الخلفاء بالرغم من أنه عاصر مجموعة كبيرة منهم وشاهد أحداث الدولة الموحدية وتقلباتها السياسية منذ نعومة أظفاره إلى حين وفاته.

وعلى الرغم من أن البلوي لم يجد في المغرب ما يلبي طموحاته ورغباته فقد تردد عليه مرات متعددة وخلال فترات مختلفة؛ ويبدو أن أول زيارة له للمغرب كانت في أيام الناصر أبي عبد الله بن المنصور[1]. حيث دخل مراكش واتصل فيها بشيخه أبي عبد الله بن عياش الذي كان قد تعرف عليه من قبلُ في مدينة إشبيلية[2]. وخلال هذه المدة التي أقامها في كنف أستاذه وصديقه المذكور عرض له مرض شديد كاد يودي بحياته لولا احتفاء ابن عياش به وإحضاره لمَهَرَةِ الأطباء للنظر في علاجه وتدبير علته[3]. ويبدو أن البلوي خلال إقامته الأولى بمراكش كان يتصل بالوافدين الأندلسيين على هذه المدينة خاصة أولئك الذين كانوا يَرِدُون من إشبيلية يجالسهم ويسألهم عن حالهم ويشفع لهم في أمورهم ويتوسط لهم في سبيل قضاء مآربهم.

بعد رحلة البلوي الأولى إلى مراكش عاد إلى إشبيلية موطنه الأصلي ولا ندري متى كانت عودته غير أن ابن عبد الملك يشير إلى ذلك قائلا «وقدم مراكش في أيام الناصر وانقطع إلى ابن عياش واختص به فكان في كنفه إلى أن فَصَل عن مراكش إلى الأندلس»[4].

ويعود البلوي مرة أخرى إلى مراكش ضمن وفد إشبيلية الذي قدم لمبايعة الخليفة المعتضد بالله الملقب بالسعيد[5] والذي تمت بيعته سنة 650هـ مما يفيد أن البلوي كان

(1) الأعلام، 2/ 180، البيان المغرب، ص: 60.
(2) الذيل والتكملة، 6/ 385.
(3) المصدر السابق، 6/ 385
(4) المصدر السابق، 6/ 358.
(5) المصدر السابق، 1/ 2-457، البيان المغرب، ص: 65.



قد دخل مراكش في هذه السنة. ولعل ورود البلوي ضمن هذا الوفد له دلالة خاصة حيث نستفيد منه أن الرجل كان صاحب مركز اجتماعي هام، وأنه كان من وجهاء قومه وخاصتهم حيث لا يقع الاختيار في مثل هذه المناسبات إلا على من توفرت فيه مثل تلك الصفات؛ ويدلنا أيضا على أن البلوي كان من بين الشعراء الذين وقع عليهم الاختيار لإنشاد الشعر بين يدي الخليفة وكان لا ينشد الشعر في هذه المناسبات إلا من شُهد له ببراعة النظم وجودة القريحة، وقد كان البلوي يمتاز بالصفتين معا. ويذكر تلميذه ابن عبد الملك أنه أنشد الخليفة أثناء حفل تنصيبه قصيدة بديعة نالت إعجاب الحاضرين ثم أَتْبَعَهَا بخطبة رائعة أظهر فيها البلوي قدرته على الارتجال وتفوقه في مجالي النثر والشعر.

ويستفاد من أخباره أنه مكث بمدينة مراكش خلال هذه المرحلة غير أن الأيام لم تساعده على بلوغ أمله إذ أدركته فاقة شديدة «اضطر من أجلها إلى الانتقال إلى حاحة من أعمال مراكش وبواديها القريبة لتعليم العربية لبعض بني أحد رؤساء البربر»[1]. وبعد سبعة أشهر من القلق والغربة عاد البلوي إلى مراكش، وبيده نزر يسير من المال الذي كان قد منحه إياه ذلك الرئيس البربري، أقام به أوده على تقتير مدة قصيرة، ثم عاد إلى حالة الفقر الأولى وظل يرتزق مما يعود عليه من عَقْدِ الشروط.

ولما ورد على مراكش سنة 655هـ الواعظُ محمد بن أبي بكر بن رشيد البغدادي تعرف على البلوي وتحقق من فضله وعلمه وأدرك ما آل إليه أمره من سوء حال، فصيره في كفالته وأجرى له جراية أقام بها أوده «وكان ذلك من أقبح ما جرت به الأقدار من موجبات النقد على صنفه وجيرانه من المنتمين إلى العلم والمرتسمين به وغيرهم من رؤساء حضرة مراكش»[2]، فقد كان البلوي الجار الجنب القريب لأبي الحسن الرعيني وكان تلميذه وبلديه وبطريقته في الكتابة انتفع حتى غدا الكاتب

(1) الإعلام، 2/ 182، أعلام المغرب العربي، 4/ 147.
(2) الإعلام، 2/ 182.





الرسمي لجملة من الخلفاء الموحدين ومع ذلك لم تجر له على يده منفعة ولا نال من قبله فائدة[1].

وهكذا ظل البلوي يعيش في أخريات أيامه قلقا يعاني من شظف العيش وسوء الحال وعقوق الخلان والأصحاب إلى أن وافاه الأجل المحتوم مُغَرَّباً عن وطنه الأصلي سنة 657هـ.

❖ **شيوخه وتلامذته:**

لم يترك لنا البلوي فهرسة للشيوخ الذين درس عليهم أو أجازوه إجازة عامة أو خاصة، كما أن أخبار طفولته ومرحلة صباه قليلة شحيحة حيث لم تذكر المصادر التي ترجمت له شيئا عن تلك المرحلة، غير أننا باستقراء كتب الطبقات والتراجم تمكنا من ضبط بعض الشيوخ الذين تلقى عنهم العلم أو أجازوه سواء من المشارقة أو الأندلسيين. ويبدو أن البلوي كان قد وجد في أحد أفراد عائلته من يوجهه نحو الدرس والتحصيل، ونعني بذلك أخاه الأكبر أبا الحسن علي[2]؛ الذي أخبرنا البلوي أنه أدخل عليه أبا القاسم ابن بشكوال وهو بعد في المهد ابن أربعين يوما واستجازه له فكتب له إجازة وضعها بيده على صدره ودعا له بخير[3].

ويدلنا هذا الخبر على أن أول شيخ أجاز البلوي إجازة مجردة هو أبو القاسم ابن بشكوال صاحب كتاب «الصِّلَة» كما يدلنا أيضا على أن البلوي يعد آخر من روى عنه بهذا النوع من الإجازة[4].

(1) الذيل والتكملة 1/ 2 - 259.
(2) الذيل والتكملة 5/ 1 - 310، صلة الصلة، ص: 130، التكملة: ترجمة رقم 1896، برنامج شيوخ الرعيني، ص: 112.
(3) الذيل والتكملة، 1/ 2 - 454.
(4) سير أعلام النبلاء، 21/ 141.



وحينما كبر البلوي وجد التوفيق مفتح الأبواب في شتى العلوم من عَرُوضٍ وحساب وفرائض وهندسة وحديث وآداب وقراءة ومهارة في عقد الشروط وقدرة على نظم الشعر وكتابة الرسائل. ولم يكن التوفيق ليحالفه لولا نبوغه وذكاؤه ولولا جلوسه إلى شيوخ كبار وحضوره لحلقات الدرس التي كانت تعقد بإشبيلية من قبل هؤلاء الشيوخ الذين كانت تزخر المدينة بهم في هذا العصر.

ويبدو أن البلوي كان حريصا على العلم لا يأنف أن يستفيده من الصغير والكبير، يُقَيِّدُ منه ما شاء أن يقيد ويحفظ منه ما شاء أن يحفظ ولذلك تنوعت ثقافته وتعددت معارفه بتنوع الشيوخ الذين درس عليهم وبتعددهم ومن هؤلاء الشيوخ:

- **أبو العباس أحمد بن مضاء القرطبي**[1] الذي كان بارعا في فن التصريف من العربية عالما بالنحو كاتبا بليغا شاعرا مجيدا متحققا من العلوم العقلية والنقلية كما كان طيب النفس كريم الأخلاق حسن اللقاء جميل العشرة كامل المروءة أخذ عنه جملة من الطلبة بالأندلس والمغرب ودرس عليه أبناء عبد المومن بن علي[2] مدة وانتفعوا بعلمه وفضله. درس البلوي على شيخه هذا تصانيفه ومن بينها كتابه **«المشرق»**[3] وأجاز له رواية بعض أشعاره.
- **أبو العباس أحمد بن عمر بن أحمد بن عبد الملك اللخمي القرمادي**[4] وهو خال البلوي؛ ذكر ابن عبد الملك أن له رحلة إلى المشرق حج فيها وسمع بالاسكندرية عن السِّلفي.
- **أبو عبد الله بن عياش**[5] وهو من كُتَّابِ الدولة الموحدية المرموقين روى عن الإمام السهيلي وابن حبيش وكان يتصرف في الكتابة تصرفاً بارعاً ويحفظ جملة من

(1) مقدمة كتاب: الرد على النحاة، تحقيق د. شوقي ضيف.
(2) الحلل الموشية لابن سماك، ص: 56.
(3) المشرق هو الكتاب الذي طبعه شوقي ضيف باسم الرد على النحاة.
(4) الذيل والتكملة 1/ 1- 348.
(5) التكملة 2/ 605، الذيل والتكملة 6/ 384.



الأشعار، وقد اتصل به البلوي بمدينة إشبيلية ثم بمدينة مراكش وكانت بينهما علاقة متينة وطيدة وقد انتفع البلوي بطريقته في الكتابة.

- **أحمد بن محمد بن مقدام الرعيني**[1] الإشبيلي كان شيخا مقرئا عارفا بتجويد القرآن، حافظا للأحاديث راوية لها، متصفا بالعدل والنزاهة فيما ينقله أو يرويه، حافظا للأحاديث راوية لها متصفا بالعدل والنزاهة فيما ينقله أو يرويه، حافظا للأداب يستظهر شعر «سقط الزند» لأبي العلاء المعري متصفا بالزهد والفضل. وكان البلوي يجله ويقدره وقد روى عنه وحدث تَلَامِذَتَه بأخباره.

- **محمد بن سعيد بن رزقون الإشبيلي**[2] كان محدثا ثقة فيما يرويه عالما بأصول الفقه وأحكام القضاء ماهرا في عقد الشروط والوثائق دارسا للآداب كاتبا مجيدا شاعرا محسنا حسن المشاركة في الطب، قضى عمره في تدريس الحديث وإسماعه، كما أنفق وقتا طويلا في تعليم الأدب وكان يجمع بين الثقافة المتنوعة وبين دماثة الخلق، وحسن التودد إلى الناس، وخاصة طلبته الذين كانوا يتلقون عنه العلم.

- **يوسف بن أحمد بن عيادي التميمي**[3] اشتهر بمشاركته في أصول الفقه وتدريسه لكتاب «التنقيحات» لِلنَّهْرَوَرْدِي؛ وكان شغوفا بالأدب كاتبا مجيدا له حظ من قرض الشعر وبَصَرٌ بالفلسفة كما كان يتمذهب بالمذهب الشيعي ويجاهر بالمغالاة فيه. دخل إشبيلية ثم انفصل عنها إلى مراكش صحبة أبي عمران بن أبي موسى بن عبد المومن.

- **عبد الله بن أحمد بن جمهور**[4] **القيسي الإشبيلي** كان سلفه من جند الشام النازلين بشرق إشبيلية روى عن ابن حبيش، وابن فرقد، وابن ملكون، وابن العربي، وابن

---

(1) الذيل والتكملة 1/ 1-384، التكملة 1/ 97، جذوة الاقتباس 1/ 72.
(2) الذيل والتكملة 6/ 203، التكملة 2/ 540، الديباج المذهب 2/ 259، تذكرة الحفاظ رقم 1360.
(3) الذيل والتكملة، 8/ 1- 426.
(4) التكملة 2/ 872، الذيل والتكملة 4/ 174.



الجد؛ كما أخذ عن أبي الحسين بن عظيمة. واشتهر بمعرفته باللغة وبعقد الشروط، كما كان له حظ من علم الأنساب والتاريخ؛ وكان إلى جانب ذلك متميزا بصلاحه وفضله ودماثة خلقه درس عليه البلوي واشترك معه في الأخذ عن بعض الشيوخ.

- **أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري**[1] روى عن أبي سليمان بن حوط الله. وكان من الفقهاء المتصفين بالحفظ، العاقدين للشروط المبرزين في معرفتها الضابطين لأحكامها.

وقد ذكر ابن عبد الملك إلى جانب هؤلاء جملة من الشيوخ الذين أخذ عنهم كأبي الحسين بن عظيمة الذي قرأ عليه البلوي القرآن بالقراءات السبع، وأبي اسحاق بن الشرفي وأبي الحجاج بن الحسين بن عمر. كما ذكر جملة من الشيوخ الذين أجازوه ومن بينهم عبد الرحمن بن محمد الشراط من الأندلسيين، وأبو الطاهر الخشوعي من المشارقة[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن البلوي بعد أن اكتملت شخصيته واستوى عوده وتنوعت ثقافته شارك في مجال التدريس وندب نفسه لنشر العلوم والمعارف فتلقاها عنه مجموعة من التلاميذ النجباء سواء بإشبيلية حيث أقام مدة طويلة من مرحلة حياته الأولى أو بمراكش التي مكث بها في مرحلة حياته الأخيرة.

وقد ذكر ابن عبد الملك أن كثيرا من شيوخه وجماعة من أصحابه أو من يتنزل منزلتهم[3]؛ قد قرأوا على البلوي كثيرا من الحديث والآداب. وذكر أيضا أنه قرأ عليه - هو نفسه - القرآن الكريم برواية ورش وتدرب على يَدَيْهِ في علم العروض، وصناعة الحساب والفرائض، وأنه أجازه إجازة عامة أكثر من مرة؛ وعلى هذا الأساس يكون ابن عبد الملك من تلامذة البلوي الذين لازموه، وأنه كانت له

(1) الذيل والتكملة، 1/ 1- 527.
(2) المصدر السابق، 2/ 1- 454.
(3) المصدر السابق، 1/ 2- 454



خصوصية به ولم تكن صلته بشيخه مقتصرة على حلقة درسه وإنما كان يسايره ويذاكره خارج الحلقة، ويجالسه في دكانه الذي كان يتصدى فيه لعقد الشروط. كما كان ابن عبد الملك الراوية الأول لشعر البلوي يستفاد ذلك من قوله: «أنشدني كثيرا من شعره ما لا أحصيه كثرة وشاهدت من ارتجاله إياه وسرعة بديهته ما أَقْضِي منه العجب»[1]. ويبدو أن صحبة ابن عبد الملك لشيخه كانت حوالي 650هـ بمدينة مراكش وأنها قد استمرت إلى حين وفاة البلوي سنة 657 هـ[2].

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن عبد الملك المراكشي يعد المصدر الأساسي في بناء ترجمة البلوي باعتباره شيخه الأثير الذي استفاد منه كثيرا من المعلومات وظفها في كتابه «الذيل والتكملة»، ويستفاد مما هو مبثوت في هذا الكتاب من معلومات أنه روى عنه كثيرا من الأخبار. كما يستفاد أيضا من خلال الأخبار التي أوردها ابن عبد الملك في كتابه عن شيخه أنه كان من تلامذته الأوفياء، ولذلك نجده رثى لحاله حينما أصابته فاقة في أخريات أيامه وأنه كان ينحى باللائمة على بعض تلامذته الذين لم تُجْرِ الأَقدار على يدهم خيراً بالرغم من انتفاعهم به وهو يعني بذلك أبا الحسن الرعيني[3] الذي يعد من تلامذة البلوي الأوائل الذين انتفعوا كثيرا بطريقته في الكتابة، فأصبح لهم صيت ذائع وشهرة بالغة واكتسبوا جاهاً عريضا؛ وقد اتصل الرعيني بالبلوي في إشبيلية ودرس عليه، وتدرب بين يديه على أساليب الكتابة حتى صار من العلماء المرتسمين فيها؛ وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يُجْرِ له ذكرا في «برنامجه» مع أنه على شرطه. ولا ندري سبب ذلك وعلته إلا أن يكون قد وقع بين التلميذ وشيخه ما يدعو إلى إسقاطه من كتابه.

ومن تلامذة البلوي أيضاً عمر بن محمد بن أحمد القيسي[4] وهو «خال ابن عبد الملك المراكشي» الذي أثنى عليه وذكر أنه كان أديبا بارع الكتابة، متصفا بحسن

---

(1) نفسه.
(2) د. محمد بن شريفة «مقدمة الذيل والتكملة»، 8/ 1/ 11-13.
(3) مقدمة برنامج شيوخ الرعيني، الذيل والتكملة 5/ 1- 323.
(4) الذيل والتكملة، 8/ 1-235.



الخلق ودماثته، إذ كان منزله مجمع الفضلاء والنبلاء من الناس يغلب عليه طابع الحياء، كثير المواساة للناس، انتفع كثير من النَّاسِ بِجَاهِهِ ومَالِه، فأكثروا الثناء عليه والتمجيد لأخلاقه وحلمه وعلمه وفضله. وقد أخذ عن البلوي بمدينة مراكش وانتفع بعلمه كثيرا.

ويعد من تلامذته أيضا أحمد بن فرج بن أحمد بن محمد اللخمي[1]، لم يأخذ عن البلوي ببلده إشبيلية وإنما درس عليه في مراكش بعد سنة 650هـ ولا شك أنه كان قد انتفع بشيخه في علمين أساسيين وهما: الأدب والحديث؛ إذ تذكر الأخبار أن اللخمي كان قد فاق أقرانه في هذين النوعين من العلم، وأنه كان إلى جانب علمه وثقافته حسن الأخلاق طيب العشرة جميل الصحبة.

ويعتبر أبو الحسن الماجري الكفيف[2] من تلامذة البلوي الذين أخذوا عنه بمراكش؛ وكان حافظا للحديث راوية له، موسوعي الثقافة جمع بين الرواية والدراية، وبين المعقول والمنقول، ألف في المنطق كتابا سماه «أسهل الطرق إلى فهم المنطق» وهو أول تأليف مغربي في هذا النوع من العلوم[3]. كما ألف الناسخ والمنسوخ في الحديث وغير ذلك من المصنفات التي تدل على غزارة علمه وتنوع ثقافته.

هؤلاء هم تلامذة البلوي الذي تمكنا من معرفتهم والوقوف على تراجمهم في كتب الطبقات. ولا شك أن عددهم يفوق ذلك بكثير، يستفاد ذلك من عبارة ابن عبد الملك التي أوردها ضمن ترجمته والتي قال فيها: «وروى عنه جماعة من أصحابنا ومن يتنزل منزلة شيوخنا»[4]. إن العبارة السالفة الذكر تشعرنا بأن الآخذين عن البلوي أكثر من العدد الذي توصلنا إليه بكثير، غير أن اختصار «ابن عبد الملك» وإيجازه في الحديث

(1) الذيل والتكملة، 1/ 1-359، نفح الطيب 3/ 282. درة الحجال 1/ 16.
(2) انظر مقالا عنه للدكتور محمد بن شريفة في مجلة المناظرة. ع:2، ص: 27 -56.
(3) المصدر السابق.
(4) الذيل والتكملة 1/ 2- 454.



عن تلامذته حجب عنا العديد منهم؛ خاصة إذا علمنا أن الزمن امتد بالبلوي طويلا وأنه عُمِّرَ وأَسَنَّ، ولم يبلغه أجله إلا بعد اثنين وثمانين سنة. ولعل تلك المدة الزمنية كانت كافية لكي يتصل بمجلسه وحلقة علمه ودَرْسِه كثير من الراغبين في الاستفادة من الشيوخ؛ يضاف إلى ذلك أنه استقر بمركزين أساسيين من مراكز العلم خلال الحقبة الموحدية وهما: مدينة «إشبيلية» ومدينة «مراكش» حيث كان يقصدهما الطلاب من كل الجهات للتزود بالعلوم والمعارف والأخذ عن الشيوخ.



شاعرية البلوي:

كان البلوي كاتباً بليغاً ذاعت شُهْرتهُ في الأوساط الأَدَبِيَّةِ بِالأندلس والمغرب؛ غير أنه لم يكن كاتباً فحسب بل كان إلى جانب ذلك شاعراً مشاركاً تفتقت شاعريته منذ صغره حيث ذكر تلميذه «**ابن عبد الملك**» أنه نظم في شبيبته قصائد بديعة وخاطب بها صديقه **أبَا بَكْرٍ بن مَهِيب**[1] وعمره لا يتجاوز العشرين. وقد أشاد معاصروه بشاعريته وممارسته للقريض إذ يحدثنا «**ابن سعيد المغربي**» أنه أثناء لقائه إياه بإشبيلية أنشده قصائد طويلة تدل على طول نفسه وشدة معالجته للشعر وممارسته له، ونبوغه فيه[2] فاق به بعض أقرانه. كما نجد «**ابن عبد الملك**» وكان ملازما للبلوي يشيد أيضا بشاعريته، ويذكر أنه استمع لكثير من قصائده وأشعاره في مناسبات متعددة وأغراض متنوعة؛ كما يذكر أنه كان كثير الارتجال للشعر قوي البديهة، وهاتان الصفتان تدلان على أن البلوي كان شاعرا مطبوعا يسلك في قريضه طريقة الشعراء المطبوعين لا يتكلف في قوله للشعر بل يأتيه طوعا. ولعل الذي ساعد البلوي على ذلك ممارسته لقراءة الكتب الأدبية مع صفاء ذهنه وقوة ذاكرته؛ يضاف إلى كل هذا طبعه الميال إلى الأدب والشعر؛ وقد كان البلوي يعتد بهذه الصِّفَاتِ كلها ويفخر بها حيث كان يقول:«لو شئتُ ألا أتكلمَ في حاجة تعرض لي مع أحد وأحاوره إلا بكلام منظوم لفعلت غير متكلف ذلك»[3].

بالرغم من شهادة معاصريه ومن تلاهم بتفوق البلوي في قول الشعر وبغزارة إنتاجه فيه فإننا لا نتوفر من شعره إلا على نسبة قليلة متفرقة في بعض المصادر التي ترجمت له، أو في بعض مقدمات رسائله التي احتفظ لنا بها هو نفسه في كتابه العطاء الجزيل[4] مما

---

(1) التكملة 2/ 659.

(2) اختصار القدح المعلى، ص: 120.

(3) الذيل والتكملة، 1/ 2- 457.

(4) العطاء الجزيل، خواتم الأبواب المتبقية كلها.



يجعلنا لا نستطيع أن نتمثل شاعريته تمثلا حقيقيا ويجعلنا أيضا لا نستطيع أن نلم بمختلف جوانب تلك الشاعرية ونصدر حكما نطمئن إليه كل الاطمئنان. ولكننا مع ذلك سنحاول أن نقدم نظرة موجزة عن شاعريته من خلال النصوص القليلة المتبقية؛ وإن كنا نعتقد أن النتف التي سلمت لنا من شعره لا تمثل الصورة الحقيقية لشاعريته، كما أنها لا تصور الوجه الحقيقي للشاعر كما عرفه أصدقاؤه وتلامذته، وكما صوره لنا معاصروه.

ومما لا شك فيه أيضا أن البلوي كان قد نظم قصائد في مختلف الأغراض التقليدية التي عرفها الشعر العربي عبر مسيرته التاريخية الطويلة من مدح وفخر وغزل ورثاء ووصف وإخوانيات؛ غير أننا لا نملك من شعره اليوم سوى أبيات من قصائد المدح، وبعض قصائد الرثاء، أضف إلى ذلك مقطعات شعرية عَبَّرَ فيها عن ذاته وعن المحن التي اعْتَرَتْه، كما عَبَّرَ من خلالها عن القلق والاضطراب الذي انْتَابَهُ في أُخْرَيَات حياته. ولكي تتضح الصورة الحقيقية لشاعرية البلوي فإننا سنتحدث عن الأغراض التي أبدع فيها وهي:

❖ المدح:

يعد المدح الغرض الرئيس في الشعر العربي لأنه مصدر عيش بعض الشعراء وباب رزقهم ولهذا السبب قيل: إن ثلثي الشعر العربي مدح، وعلى أساسه أقام بعض النقاد نظريتهم في بناء القصيدة العربية. ولم يكن المدح بابا للرزق فحسب بل كان أيضا بابا للشهرة والذيوع إذ لم يستطع كثير من الشعراء أن يشتهروا إلا بعد مدحهم للملوك أو الولاة والأمراء وعلية القوم بل إن فحولة الشاعر لا تكتمل - في نظر كثير من النقاد - إلا إذا طرق هذا الباب وإن لم يدفعه دافع التكسب؛ ومن ثم كان لزاماً على البلوي أن يشارك الشعراء في هذا الغرض، وأن يمدح من يستحق المدح من الخلفاء والولاة والأمراء أو من الأصدقاء الذين كانوا يبادلونه الود والصداقة وقد كان لديه منهم عدد كثير.



ويبدو أن أول قصيدة مدحية قالها البلوي، وذاعت شهرتها بين الناس، هي تلك التي نظمها في مدح أبي العلاء ادريس حينما كان واليا على إشبيلية سنة 623هـ. ويظهر أنها قد نالت إعجابه فوقع اختياره عليها من بين القصائد التي قدمت له في تهنئته بعد تغلبه على أبي عبد الله البياسي الثائر ووصول البشائر بخبر قتله[1]. وعلى الرغم من شهرة القصيدة وحفظ الناس لها وتداولها بين طبقات المجتمع الإشبيلي فإننا لا نملك سوى شطر واحد من مطلعها يقول فيه البلوي:

يَا هَبَّةَ السَّعد هُزِّي قُبَّةَ الوَادِي[2]

أما القصيدة الثانية فهي التي نظمها في مدح الخليفة المعتضد بالله الملقب بالسعيد[3] كان قد أنشده إياها أثناء وصول وفد إشبيلية ومثوله بين يديه لتهنئته بصيرورة الأمر إليه بعد وفاة أخيه الرشيد. ويذكر ابن عبد الملك أن البلوي كان قد أنشد الخليفة قصيدتين بَدِيعَتَيْنِ وخُطْبَتَيْنِ رَائِعَتَيْنِ؛ ولم يحتفظ لنا الزمان من كل ذلك إِلَّا بِأَبْيَاتٍ قليلةٍ من قصيدةٍ مَدْحِيَّةٍ واحدةٍ اختار منها ابن عبد الملك ما يُنَاسِبُ ذَوْقَه.

يفتتح البلوي القصيدة بزف البشرى إلى الناس في كل البقاع والأصقاع، وهي بشرى ستعقبها بشائر أخرى، لأن الخليفة الجديد سَيَهْدِي البشر إلى طريق الحق والخير بفضائله وخصاله الحميدة، ولا شك أن الرعية ستنام في إمارته قريرة العين لأنه سيكون الساهر الأمين على شؤونها العامة والخاصة كما أنه سيكون المؤنس لها في وحشتها وغربتها فهو قمر قد أشرق على رعيته بعد وفاة الرشيد[4] كما يشرق القمر الحقيقي في ليل مظلم:

الحَمْدُ للهِ بُشْرَى بَعْدَهَا البُشَرُ ... خَلِيفَةٌ بَشَرٌ يُهْدَى بِهِ البَشَرُ

(1) البيان المغرب، ص: 271.
(2) اختصار القدح المعلى، ص: 120.
(3) البيان المغرب، ص: 359.
(4) الذيل والتكملة 1/ 2، الحلل الموشية، ص: 167.



نَامَــتْ رَعِيَّتُــهُ فِــي حُجْــرِ إِمْرَتِــهِ وَفِــي رِعَايَتِهَــا مِــنْ شَــأْنِهِ الــسَّهَرُ
وَأَشْـرَقَ الأُنْـسُ مِـنْ بَعْـدِ الرَّشِـيدِ بِـهِ كَأَنَّمَـا هُـوَ فِـي لَيْـلِ الأَسَـى قَمَـرُ[1]

ثم يصف فضائل الخليفة الجديد وهي كثيرة تفرقت لدى غيره واجتمعت فيه، فهي تشبه فضائل الخلفاء الراشدين الخليفة في صدقه كأبي بكر الصديق دلت على ذلك سريرته وأخبر عنه طبعه ومخبره كما أنه سيكون في فتوحاته للمعاقل والحصون كعمر بن الخطاب وستتوالى تلك الفتوحات تترى وستأتي متتابعة. وهو في حيائه البادي على وجهه ومحياه كعثمان بن عفان، وهو في شجاعته وبطولته كعلي بن أبي طالب إذ يعد سيف الله الذي يشقى به كل من عاند أو خالف دعوته سواء من كان من قومه أو من كان من غيرهم وهو وحده يغني عن جيشه في معاركه، فلا يبالي أثناء دخوله للمعارك أقل جيش أعدائه أم كثر وهو شمسٌ إذا أرسلتْ أشعة نورها على الأرض أغنت الناس عن نور النجوم الصغيرة:

فَــضَائِلُ الخُلَفَــاءِ الرَّاشِــدِينَ لَــهُ مجموعــةٌ فيــه مــن آياتهــا الكــبرُ
كأنَّمَــا نَحَــلَ الــصديق شــيمته في الصدقِ فَالخُبْرُ صدقٌ منهُ وَالخَبَرُ
تَــأْتِي الفُتُوحَــاتُ في أيامــه نَــسَقًا كَأَنَّمَــا هُــوَ فِــي أَيَّامِــهِ عُمَــرُ
وَمِــنْ فَــضَائِلِ عُثْمَــانَ الحيــاء لَــهُ عَلَــى مُحَيَّــاهُ مِــنْ أَنْــوَارِهِ أَثَــرُ
لَــهُ الوَصِــيُّ[2] سَــمِيًّا وَهْــوَ يُــشْبِهُهُ فِـي سَـيْفِهِ فَبِـهِ يَـشْقَى الأُلَـى كَفَـرُوا
سَــيْفٌ غَــدَا فِــي يَــدِ القَهَّــارِ قَائِمُــهُ لَايَكْهَـمُ السيف أَمْضَتْ حَدَّهُ القَدَرُ
يُغْنِــي اسْــمُهُ إِنْ نَــضَاهُ عَــنْ عــساكرهِ فَـلَا يُبَـالي أَقَـلَّ الجَـيْشُ أَمْ كَثُـرُوا
كَالــشَّمْسِ تُغْنِــي إِذَا ذَرَّتْ أَشِــعَّتَهَا عَنِ المَصَابِيحِ حيثُ النُّورُ مُنْتَشِرُ[3]

---

(1) نفسه.
(2) الوصي: يقصد به علي بن أبي طالب.
(3) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، 2/ 181.



لا يكتفي البلوي بمدح فضائل الخليفة «السعيد» فحسب بل يبالغ في مدحه ويعتبر المدائح التي تلقى فيه من القصائد التي يتقبلها الناس بصدر رحب حيث يكررونها حفظا ودراسة كما يكررون ويحفظون سور القرآن الكريم، لأنهم يعتقدون أن تلك المدائح تكشف عن محاسن الخليفة وبذلك تبدو صورته لديهم كَعَرُوسةٍ باهيةِ الحسن رائعةِ الجمال ثم يتخيلون أن الأئمة الذين سبقوه قد حضروا في شخصه وذلك بإحيائه لسنتهم وسيره على سيرتهم ونهجهم:

تُتْلَى مدائحُهُ وَالمؤمنونَ بها ... كأنَّما هِيَ إِذْ تُتْلَى لَهُمْ سُوَرُ
كَأَنَّمَا هيَ إِذْ تُجْلِي مَحَاسِنَهُ ... عَرَائِسُ الحسن قد راقت لها صُورُ
لمَّا رَأَيْنَاهُ خِلْنَا عِنْدَ بَهْجَتِهِ ... أَنَّ الأَئِمَّةَ من آبائِهِ حَضَرُوا[1]

ثم يتطرق البلوي بعد ذلك في قصيدته إلى تقديم فروض الولاء والطاعة من قبل وفد إشبيلية الذي جاء مبايعا ومهنئا للخليفة الجديد بتوليه للسلطة، فيذكر أن هذا الوفد قد جاء مستجيرا بالخليفة مستعصما به لائذا إليه بعدما صَالَ النصارى على المسلمين بالأندلس في عقر دارهم، وأحاطوا بهم من كل جانب فأصبحوا قليلي العدد إلا أنهم بفضل إمارة الخليفة الجديد ونصرته لهم سَيُصْبِحُون كثيري العدد إذ الخليفة سيعزز جانبهم ويرفع من معنوياتهم، ولذلك فهم متيقنون بأن النصر سيكون حليفهم لأن إرادة الخليفة مستمدة من إرادة الله ومن تكن تلك صفته لا شك أنّه إِن أَمر بشيء نُفِّذَ أو طمح إلى غاية نالها:

وَافَاكُم وَفْدُ حمص[2] المستجيرُ بِكُمْ ... وَقَدْ أَعَزُّو بكمْ وعداً وَقَدْ نُصِرُوا
صَالَ العدو عليهم في جُوارهم ... حَتَّى لَقَلُّوا فمذ أُمِّرْتُمْ كَثُرُوا
وَأَيْقَنُوا أَنَّ نَصْرَ الله نَصركم ... فالفتح مُرْتَقَبٌ والنَّصر مُنْتَظَرُ

(1) الذيل والتكملة 1/ 2- 458.
(2) حمص: المقصود بها إشبيلية.



إرادةُ الله تمــضي مــا تريــد بهــا إذا أمــرت فالفلــك الــدوَّار مُــؤْتمر[1]

ويحتفل البلوي في قصيدته بالإطراء المتزايد ويخلع على الخليفة الجديد صفات الهدى والدين، باعتباره محيي رسمه، وباعتبار أنه يسير على نهج مؤسس الدعوة الموحدية المهدي ابن تومرت[2]، ويهنئ الشريعة الإسلامية التي أصبح الخليفة حارسها الأمين وروحها وسمعها، فبأمره غَدَا دعاةُ الحق والدين منتصرين على الكفار لأنه يرميهم بشواظ من نار، وذلك لأنه معتضد ومُؤَازَرٌ من قبل الله مستنصر به، فهو كالسهم يرمي به اللهُ على أعداء دينه؛ وطائفة التوحيد وجماعتهم هي القوس والوترُ بيده:

يَهْنِـي الـشَّرِيعَةَ أَنْ أَصْـبَحْتَ كَافِلَهَـا فَـالرُّوحُ أَنْـتَ لَهَـا وَالـسَّمْعُ وَالبَـصَرُ

بِـأَمْرِكُمْ حَـاطَ سِـرْبُ الـدِّينِ نَاصِـرَهُ تُحْيِـي العِبَـادَ وَتَحْمِـيهِم وَتَنْتَـصِرُ

مَعْنَى الهُدَى عـصبةُ التوحيـدِ ظَاهره وَأَنْـتَ لَا شَـكَّ مَعْنَاهَـا إِذَا اعْتَبَـرُوا

رَمَـى بِـكَ اللهُ أَهْـلَ الكُفْـرِ تَـسْحَتُهُمْ وَأَنْــتَ مُعْتَــضِدٌ بِــاللهِ مُنْتَــصِرُ

فَــاللهُ رَامٍ وَأَنْــتَ الـسَّهْمُ فِـي يَـدِهِ وَالقَـوْسُ طائفـةُ التَّوْحِيـدِ وَالـوَتَرُ[3]

والقصيدة كما يبدو محكمة السبك، جيدة الأسلوب والتعبير، قوية المعاني، واضحة الدلالة؛ وهي من القصائد الغر الطوال التي دبجها البلوي في المدح. ولكن الملاحظة التي تتبادر إلى ذهن القارئ حينما يتمعن في معانيها هي أن البلوي قد خلع على الخليفة صفاتٍ مبالغا فيها لا تُخْلَع على سائر البشر. ولا شك أن الموقف كان يستدعي ذلك، وأن المناسبة دفعت به إلى إبراز ما يكنه أهل إشبيلية -وضمنهم الشاعر- من محبةٍ وولاءٍ للخليفة الجديد وما يضمرونه للدَّعوة الموحدية من إخلاص وما يؤملونه فيها وفي الخليفة ذاته من نصرة وخلاص؛ خاصة وأنهم كانوا يعيشون في قلق دائم واضطراب شديد بسبب الهجومات المتكررة التي كانت تحوط

(1) الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، 2/ 181-182.
(2) أخبار المهدي بن تومرت للبيدق، ص: 11-34.
(3) الذيل والتكملة 1/ 2/ 458-459.



بهم من قبل جيرانهم وبسبب الصراعات السياسية والحربية التي كانت تشهدها الأندلس؛ كما أن الشاعر البلوي أراد من خلال هذه القصيدة أن يظهر قدرته الفنية أمام تلك الجموع المحتشدة التي أتت مهنئة الخليفة من كل الأصقاع والبقاع؛ ويبدو أن الشاعر كان صادقا في عاطفته تُجاهَ الموحدين ودَعْوَتِهِم وأنه لم يُضْفِ عَلَيْهِمْ من الصفات، سوى تلك التي عهدنا أغلب الموالين لهم يضفونها عليهم؛ وهي وإن بَدَتْ لنا حالياً مبالغاً فيها فإنها باعتبار العصر عادية.

لَمْ يمدح البلوي الولاة والأُمراء والخلفاء فحسب بل مدح أصدقاءه؛ ولم نعثر له في مدح أصدقاءه إلا على أبيات قالها في أبي مروان الباجي[1] الذي كان قد وَفَدَ على إشبيلية من مدينة مراكش لحضور جنازة أخيه، وقد وردت هذه الأبيات ضمن افتتاحية قصيدة بعثها إليه البلوي يعزيه في وفاة أخيه الأكبر الخطيب أبي عبد الله وذلك سنة 606هـ[2].

في هذه الأبيات يذكر البلوي أن قدوم صديقه إلى إشبيلية، قد أعاد الأُنس إلى النفوس التي كانت قد اشتاقت لرؤيته خاصة نفوس الذين تربطهم به رابطة القرابة أو رابطة الصداقة؛ كما يذكر أن إشبيلية نفسها أضحت مشرقة النواحي بطلوعه عليها، وأنَّ أَرْضَهَا وَتُرَابَهَا قد فاحت مِسْكاً وعطراً برُؤْيَتِهِ والتَّمَلِّي بطلعته، وأَن الزهور قد أينعت على الرغم من أن الفصل الذي كان قد ورد فيه هو فصل الصيف فكأنه بحلوله قد حل معه فصل الربيع:

قُدُومُكَ أَيُّهَا الحِبْرُ الرَّفِيعُ ... أَعَادَ الأُنْسَ فَابْتَهَجَ الجَمِيعُ
وَأَضْحَتْ حِمْصُ مُشْرِقَةَ النَّوَاحِي ... بِوَجْهِكَ حِينَ حَانَ لَهُ طُلُوعُ
وَفَاحَتْ أَرْضُهَا بِشَذَاكَ حَتَّى ... كَأَنَّ تُرَابَهَا مِسْكٌ يَضُوعُ

(1) الذيل والتكملة، 5/ 2- 687.
(2)المصدر السابق، 5/ 2- 686.



وَأَيْنَعَـتِ الأَزَاهِـرُ وَهْـوَ صَـيفٌ كَأَنَّـكَ إِذَا أَتَيْـتَ أَتَـى الرَّبِيـعُ[1]

وبعد هذه الافتتاحية التقليدية ينتقل للتعبير عما انْتَابَهُ من سُرورٍ وفرح، ثم يضفي عليه بعض الصفات التي كانت تميزه عن غيره من الشخصيات في عصره؛ ومن هذه الصفات - الأخلاق الحسنة - الدين المتين - الحسب والنسب - الثقافة وقدرة التحصيل.

ويبدو من خلال الصفات التي مدح البلوي بها صديقه أنها تَرِدُ في الشعر العربي عامة؛ فهي صفات تقليدية لا جديد فيها؛ ولكن الشاعر كان صادقا فيها غير مجانب للحق والحقيقة يؤيد ذلك أن أغلب الذين ترجموا لِلْبَاجِي يُحَلُّونَهُ بنفس الصفات ويضفون عليه نفس الخصال:

خُلِقْـتَ لِمَلْـكِ أَفْئِـدَةِ البَرَايَـا فَأَنْـتَ لِكُـلِّ ذِي أَمَـلٍ شَـفِيعُ
لَـكَ الـذِّكْرُ الجَمِيـلُ بِكُـلِّ أَرْضٍ بِـأَخْلَاقٍ لَهَـا حُـسْنٌ بَـدِيعُ
لَـكَ الـدِّينُ المَتِـينُ لَـكَ المَعَـالِي لَـكَ التَّحْـصِيلُ وَالحَـسَبُ الرَّفِيـعُ
وَمَـا جَـارَاكَ فِـي شَـأْوٍ خَطِيـبٌ فَإِنَّـكَ وَحْـدَكَ طَـالِعٌ الطَّلِيـعُ[2]

❖ الرثاء:

يعتبر الرثاء من الأغراض التي طرقها البلوي وبَرَّزَ فيها وليس بين أيدينا قصائد مستقلة في هذا الغرض، بل كل ما وصلنا منه هو عبارة عن مقطعات وقصائد وردت ضمن رسائل التعزية المبثوثة في كتاب «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل»[3].

ولم يَرْثِ البلوي أحدا من أقربائه أو ذويه، بل رثى أصدقاءه كما رثى الولاة والأمراء الذين ارتبطت حياته بهم وخاصة صديقه ووليه الحميم إبراهيم المعروف

(1) العطاء الجزيل، ص: 176.
(2) المصدر السابق، ص: 177.
(3) المصدر السابق، ص: 180- 182- 184.



بالأحول[1]، الذي تأثر البلوي بوفاته، وخلد ذكره بقصائد رثائية رائعة معبرة، تدل على تأثره العميق لوفاته وحزنه الشديد على مفارقته.

وقَبْلَ أن نحددَ مضامينَ هذا الشعر فإننا نُشيرُ إلى أن القصائد التي وصلتنا في هذا الغرض هي التالية:

القصائد	الأفراد
1	في رثاء صديقه أبي عبد الله الباجي وتعزية أخيه.
1	في رثاء السيد أبي محمد الموحدي وتعزية والده أبي موسى.
3	قصائد في رثاء ولي نعمته أبي إسحاق إبراهيم الموحدي والي إشبيلية.

أما القصيدة الأولى؛ فقد وردت ضمن رسالة تعزية بعثها البلوي لأبي مروان الباجي الذي ورد لحضور جنازة أخيه من مدينة مراكش[2]. أما المَرْثِيُّ فهو أبو عبد الله محمد ابن أبي عُمَر اللخمي الإشبيلي كان متصفا بالوقار والتدين والانقباض؛ ولي الخطبة والقضاء ببلده إشبيلية، وتوفي بها سنة 606هـ كما يقول ابن الأبار في التكملة[3].

وقد افتتح البلوي قصيدته في رثائه بأبياتٍ مَدَحَ بِهَا أخاه باعتباره كان قد خَلَفَه، وباعتبار أن البلوي بعث إليه بهذه الأبيات مُعَزِّيـًا له ومُسَرِّيًا عن همه وحزنه. ثم تخلص البلوي بعد ذلك إلى التعبير عن فداحة المصاب بفقد من فقد مُذَكِّراً بما دَهَى الناس من حزن عليه، فأضحى شمل سرورهم متصدعـًا بعد أن كان مجتمعـًا؛ يقول معبرا عن ذلك:

عَلَى أَنَّ المُصَابَ بِلَا امْتِرَاءٍ   بِفَقْدِ أَخِيكُمْ جَلَلٌ شَنِيعُ

(1) البيان المغرب، ص: 266.
(2) المصدر السابق، ص: 266.
(3) التكملة، 2/ 637.



وَأَضْـحَى النَّـاسُ يَوْمَئِـذٍ جَمِيعـاً ... وَشَـمْلُ سُـرُورِهِمْ بَـدَدٌ صَـدِيعُ[1]

ثم انتقل البلوي إلى تَعْدَاد مناقب المرثي، مُركزاً على ما كان يتصف به من تواضع، وخشوع، وتدين، وتقوى، وهي صفات المتقين الذين يخشون الله في السر والعلن؛ وتلك كانت مزايا الباجي بحق:

وَنَـادَى الـدِّينُ وَالهَفِـي عَلَيْـهِ ... أَرَى التَّقْـوَى خَلَـتْ مِنْهَـا الرُّبُـوعُ
مَـضَى البَـاجِي فَنَـادَى أَهْـلُ حِمْـصٍ ... فَقَـدْ ذَهَـبَ التَّوَاضُـعُ وَالخُـشُوعُ[2]

ويَعْقُبُ تِلْكَ الأَبْيَاتِ أَبْيَاتٌ أُخْرَى حِكَمِيةٌ؛ أبرز فيها الشاعر أن اللهَ قد هَدَى الإنسان للتقوى، ولكنه غافل يرى الناسَ أمام أعينه يذهبون صباحَ مساءَ وهو مع ذلك لا يَرْعَوِي عَنْ غَيِّهِ وَضَلَالِه:

هَـدَانَا اللهُ لِلتَّقْـوَى وَإِنَّـا ... لَنَـا فِـي حَـوْضِ غَفْلَتِنَـا كُـرُوعُ
وَيُوقِظُنَـا الحِمَـامُ بِكُـلِّ حِـينٍ ... وَنَحْـنُ لِطُـولِ غَفْلَتِنَـا هُجُـوعُ[3]

ويختم قصيدته بالتفجع على صديقه. وذِكرِ مكانتِهِ من نفسه، داعيا لأخيه الأَكْبَرِ بطول العمر:

فَكَـمْ أَبْكِـي عَلَيْـهِ بِكُـلِّ دَمْـعٍ ... وَلَا تُجْـدِي عَلَـى مَيْـتٍ دُمُـوعُ
وَمَـدَّ اللهُ عُمْـرَكَ فِـي سُـرُورٍ ... وَدَامَ لِعِـزِّكَ المَجْـدُ المَنِيـعُ
فَمَـا فُقِـدَتْ مَعَـانٍ أَنْـتَ فِينَـا ... خَلِيفَتُهَـا وَدَاعِيهَـا الـسَّمِيعُ[4]

ويظهر من خلال ما تبقى من هذه القصيدة الرثائية، التي مزج فيها البلوي المدح بالرثاء، أنها جيدة السّبك، حسنة النّظم، سهلة الألفاظ بديعة التركيب.

---

(1) العطاء الجزيل: 178.
(2) المصدر السابق: ص: 179.
(3) المصدر السابق: ص: 178.
(4) المصدر السابق: ص: 179.



أما القصيدة الثانية؛ فهي عبارة عن مقطعة صغيرة بعث بها البلوي إلى السيد أبي موسى الموحدي يعزيه بابنه أبي محمد، وليس فيها من الرثاء سوى بيت واحد، أما باقي الأبيات فهي عبارة عن مدح لأبي موسى المعزى به. وقد ركز البلوي في بيته المَعْنِيِّ على بعضِ صِفَاتِ المَرْثِيِّ فذكر عِلمَهُ وَفَضْلَهُ وديانته، ثم دعا لوالده بالبقاء وطول العمر:

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الأَعْلَى الذِي شُهِرَتْ ... منهُ الدِّيانة في أَقْصَى قُرَى الصِّينِ
مَاذَا يَقُولُ المُعَزِّي وهو مُقْتَبِسٌ ... مِنْ نُورِ عِلْمِكَ يَا ذَا الفَضْلِ وَالدِّينِ
مَا مَاتَ مَنْ أَنْتُمُ البَاقُونَ بَعْدَهُمُ، ... وَسَائِرُ السَّادَاتِ الغُرِّ المَيَامِينِ[1]

الملاحظ في هذه المقطعة وفي غيرها من قصائد الرثاء، أن البلوي يركز دائما على المُعَزَّى بِهِ مُوَاسِياً له ومعبراً عن أسفه وحزنه؛ بينما لا يتحدث عن المُعَزَّى إلا قليلا.

أما القصائد الأخرى فهي التي رَثَى بها والي إشبيلية الذي توفي سنة 612هـ[2] وتعتبر من أجود ما قاله البلوي في هذا الغرض. ولعل العلاقة التي كانت تربطه بأبي اسحاق هي التي جعلته يبدع في نظمه؛ فهي علاقة متميزة إذ استكتبه الوَالِي المذكور مدةَ إقامَتِهِ بإشبيلية، وسَاعَدَه ماديًا وأدبيًا على تأليف كتابه «العطاء الجزيل» حيث أمده بجملةٍ من الرسائل والذخائر التي كانت بحوزته، ودعاه إلى إدراجها في كتابه؛ كل ذلك دفع بالبلوي إلى أن يتذكر ما أَسْدَى له صاحبه من خيرٍ ومعروف، وأَنْ يحزن لفقده ويتأسف لموته وأَنْ يخلد ذكراه بمراثيه.

وقد حدد البلوي تاريخ هذه القصائد الثلاثة؛ فذكر أنه نظم الأولى في اليوم الثالث من دفن سيده وهو يوم السبت 28 شعبان 612هـ، والثانية في اليوم السابع من دفنه وهو يوم الأربعاء؛ وأما الثالثة فقد نظمها في اليوم الثالث عشر من دفنه وذلك يوم وصول ابن الفَقِيدِ من بَطَلْيُوس[3].

(1) العطاء الجزيل، ص: 186.
(2) البيان المغرب، ص: 77.
(3) العطاء الجزيل، ص: 182.



والبلوي يستهل القصيدة الأولى، بإبراز حزنه العميق على وفاة مَنْ كان له سنداً في حياته، معبراً عما اعتراه من ألم مُمِضٍّ، واصفاً هَوْلَ المُصَابِ وفَدَاحَتَهُ؛ ومُذكراً بِمَنْ حَزِنَ النَّاس تفجعًا لمَوْتِهِ، وَمَنْ كَادَتِ الأرض تتزلزل حسرةً على فقده؛ يقول في هذا الصدد:

سُلِبَ العَزَاءُ فَكُلُّنَا مَحْزُونُ ... خَطْبٌ تَهُونُ لَهُ الخطوب الجُونُ
تَبْكِي السَّمَا وَالأَرْضُ فِيهِ تَفَجُّعًا ... وَيَبِيتُ يَشْكُوهُ التُّقَى وَالدِّينُ
سَلْ بِالبَسِيطَةِ هَلْ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا ... تُخْبِرْكَ مِنْهَا سَهْلَةٌ وَحُزُونُ(1)

ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى تعداد مناقب الميت؛ فيذكر بلاغته وفصاحته التي كانت تقرع الأسماع، وقراءته للحديث والسيرة النبوية التي كان يحيي بها الفروض الدينية، كما يذكر إحسانه ومعروفه وَنَواله الذي كان يسح به على الناس، لا فرق عنده في ذلك بين قَوِي أو ضعيف.

أَيْنَ التَّهَلُّلُ في المَجَالِسِ مِنْكُم ... يُبْدِيهِ وَجْهٌ وَاضِحٌ وَجَبِين
أَيْنَ القِرَاءَةُ فِي مَقَامِكَ سِيرَة ... يحيي بِهَا المَفْرُوضُ وَالمَسْنُون
أَيْنَ الطَّعَامُ تعدُّهُ لجَمَاعَة ... فِيهِ لَهَا الاحْسَانُ وَالتَّحْسِين
مَنْ للنَّوَالِ يَسُحُّ فِينَا غَيْثُه ... حَتَّى لَيَسْتَغْنِي بِهِ المِسْكِين(2)

ويختم القصيدة بالدعاء لقبره الميمون معبرا عن التقصير في التعبير مشيرا إلى أن لسانه قد أخرس، فلا يكاد يبين من شدة الحزن وعمق الأسى.

مَوْلَايَ هَادِي نَفْثَةٌ مَا قُلْتُهَا ... إِلَّا وَذِهْنِي بِالأَسَى مَجْنُون
عُذْرِي يَلُوحُ عَلَى تبَلُّدِ خَاطِرِي ... خَرَسَ اللِّسَان فَلَا يَكَادُ يَبِين

---

(1) العطاء الجزيل، ص: 182.
(2) المصدر السابق، ص: 183.



يَـا قَبْـرَ سَـيِّدِنَا الكَـرِيم مَـزَاره　　　صَـلَّى الإلـهُ عَلَيْـكَ فَهْـوَ مُعِـين[1]

أما القصيدة الثانية التي أنشدها لنفسه -كما يقول- ودمعه يفيض فيضا[2]؛ فقد افتتحها بدعوة الناس إلى البكاء على الهمام الذي مضى ومطالبتهم بتحية ضريحه اهتماما به وحبا له، معبرا عن حزنه العميق الذي فجر دموعه وفطر قلبه وحرم النوم عن عينيه:

قِفُـوا لـي نبـك مـن ذكـر الهمـام　　　ونـور الفـضل في أعلـى الـشّمامِ

قِفُـوا حَيُّـوا الـضريح معـي اهتمامـا　　　فقـد أعيـى الـسمو علـى غرامِـي

أَسَـيِّدَنَا فُجِعْنَـا فِيـكَ طُـرّاً　　　بِـسُلْطَانِ الأَسَـى حلـف احتكـامِ

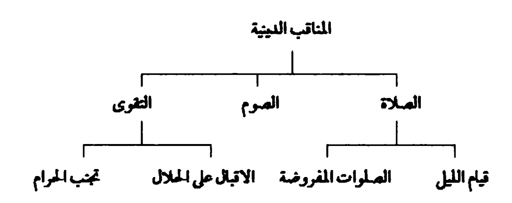
دُمُـوعُ العَـيْنِ مِنَّـا في انتشـارٍ　　　وَحُـزْنُ القَلْـبِ مِنَّـا فِـي انْفِـصَامِ

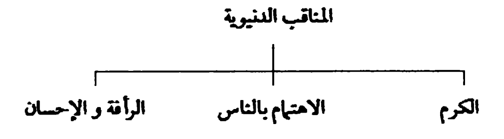
ومـن عَجَـبٍ غَرِيـقٌ فِـي بِحَـارٍ　　　وَيَـشْكُو بِاحتـدامٍ وَاضْـطِرَامِ

سَـطَا سَـهْمُ الرَّزِيَّـةِ فِـي قُلُـوبٍ　　　هِـي الأَهْـدافُ وَالأَقْـدَارُ رَامِ

فَيَـا عَيْنِـي وَفِـي العَيْنَـيْنِ سُـهْدٌ　　　حَـرَامٌ بَعْـدَهُ طَعْـمُ المَنَـامِ[3]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى تقديم السلام على قبره؛ معددا مَنَاقِبَهُ وخصالَه التي تميز بها وهي مناقب دينية ودنيوية:





---

(1) نفسه، ص: 183.

(2) المصدر السابق، ص: 186.

(3) المصدر السابق، ص: 186.



ويختم قصيدته بأبيات في الحكمة وجَّهَ فيها نداء عاماً بوجوب الاتعاظ بالموت التي هي مآل كل حَيٍّ والاستعداد لها بعين بصيرة ونفس مطمئنة، يقول في هذا الصدد:

أَسَادَتَنَا يَخُصُّكُمُ نِدَائِي وَإِنْ نَادَيْتُ عَامّاً لِلأَنَامِ

هِيَ الدُّنْيَا وليستْ دَارَ خُلدٍ وَعُمْرُ المرءِ فِيهَا لانْصِرَامِ

فَطُوبَى لِلأُلَى نَظَرُوا بِعَيْنِ الـ بَصِيرةِ فَاسْتَعَدُّوا لِلْحِمَامِ[1]

ويظهر من خلال القصيدة أن البلوي كان وفياً لسيده إبراهيم وفاء لا حد له لأنه كان ملاذه الذي يلوذ إليه وملجأه الذي يأوي إليه فكان لا يعتصم بأحد سواه بعد الله ذلك ما عبر عنه في القصيدة ذاتها حينما قال:

وَيَا مَنْ كَانَ لِي ظِلًّا وعِزًّا فكَانَ بِهِ وبالله اعْتِصَامِي[2]

أما القصيدة الثالثة فقد نظمها البلوي يوم وصول وَلَدِ إبراهيم من بَطَلْيوس بعد أن مرت على وفاة والده ثلاثة عشر يوما. وقد افتتح البلوي قصيدته بنداء المثنى على عادة الشعراء القدامى من الجاهليين وغيرهم، وهو نداء تقليدي يطلب فيه الشاعر من صاحبيه أن يَمُرَّا على قبر المرثي، حتى يقضي بانهمار دموعه ما عليه من حقوق الأكابر الذين حوتهم أرض إشبيلية، كما يود منهما أن يساعداه على حزنه الذي ألم به بتخفيفهم من وطأته، وإن لم يتمكنا من ذلك فسينتصر بدموعه التي ستكون له خير نصير على ذلك. والشاعر من شدة الحزن والأسى قد نفذَ صبره، فبدا له أن القصر قد غدا خالياً مقفرا وأنه رسم داثر، وذلك عندما سأله عن صاحبه فأخبره بأنه قد تبدل من سكنى القصور بسكنى القبور:

خَلِيلَيَّ عُوجَا ساعةً بالمقابر يقضي بها دمعي سوق الأَكَابِرِ

---

(1) العطاء الجزيل، ص: 189.

(2) المصدر السابق، ص: 190.



خليليَّ إنْ لَـمْ تُـسْعِدَانِي على الأَسـى — فحسبيَ دَمْعِي فَهو في الحُزْنِ نَاصِرِي
أَسَـــيِّدَنَا غُيبـــتَ عَنِّـــيَ في الثَّـــرَى — فمـن لـي بقلـبٍ بَعْـدَ فَقْـدِكَ صَـابِرِ
كَفَـى حزنـاً أَنِّـي أَرَى القَـصْرَ خَاليـاً — كَـــأَنِّيَ مِنْـــهُ في الرُّسُـــومِ الـــدَّوَاثِرِ
أُســـائلُ فيـــه عـــنكم فيقـــال لـــي — تبـدلَ بعـد القـصر سُكْنَى المَقَـابِرِ[1]

ثم يتطرق الشاعر إلى الحديث عن الزمان الذي قضاه بجانب سيده إبراهيم هادئ البال مسرورا، يجتني من محاسنه وكرم أياديه فتغدو أيامه كأنها روض ناضر مشرق، وكيف تبدل الأمر بعد وفاته حيث غدر الزمان به، فغدا روض أنسه شاحبا وزهر أيامه ذابلا يقول في هذا الصدد:

لَقَدْ كَانَ رَوْضُ الأُنْسِ لِي بكَ نَاضِراً — فَمَـا لِـي أَرَاهُ بَعْـدَكُمْ غَيْـرَ ناضـر
وَكَانَ زَمَانِي قَدْ وَفَى لِي بِوَجْهِكُم — فَيَا قُرْبَ مَا أَضْحَى زَمَانِيَ غَادِرِي[2]

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى تعداد مناقب إبراهيم وصفاته الحميدة التي كان يتمتع بها، وهي صفات وخصال تدل على أن المرثي كان شديد التدين متعلقا بالله أشد التعلق، قواما صواما سالكا سبيل المؤمنين قولا وعملا، يقول في ذلك:

فَمَـنْ بَعْـدَكُمْ للـصَّومِ يَهْـوَى وِصَـالَهُ — إذا شـكت الحِرْبَـاءُ حَـرَّ الهَـوَاجِرِ
وَمَـــنْ لِقِيَـــامِ اللَّيْـــلِ يَعْـــشَقُ طُولَـــهُ — فَيحـسبُ أَنَّ الفَجْـرَ طَلْعَـةُ فَـاجِرِ[3]

ثم ينادي بعد ذلك أهله وذويه وأقاربه، فيدعوهم إلى التحلي بالصبر حتى يفوزوا بالأجر الذي وعد الله به عباده المؤمنين، مذكرا إياهم بأن الذي يرد حوض الموت لن يعود ولو كان كبير قومه أو من سراتهم، ويقدم لهم الدليل على ذلك بوفاة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقول في هذا الشأن:

(1) العطاء الجزيل، ص: 191.
(2) المصدر السابق، ص: 193.
(3) المصدر السابق، ص: 193.



أَسَــادَتَنَا صَــبْراً تَفُــوزُوا بِــأَجْرِه | فَمَـا وَارِدٌ حَـوضَ المَنُـونِ بِـصَادِرِ
وَهَلْ بَعْدَ مَوْتِ المُصْطَفَى مِنْ تَجَلُّدٍ | أَلَا إِنَّمَـا الـدُّنْيَا سَـبيلٌ لِعَـابِرِ [1]

ويختم القصيدة بمخاطبة أقرباء الميت من أبنائه وغيرهم مبرزا شعوره نحوهم، مادحا إياهم، معترفا لهم بأن الذي مات وترك بعده ذخائر من العز والسؤدد فكأنه حي يرزق، مبرزا بأن الميت وإن كان بدرا قد هوى، فقد عوض بأبنائه النجوم الزواهر، وإن كان ياقوتة قد سقطت من عقدها فحسب المنى بقاء ذويه والمنتمين إليه ممن يعدون بمثابة الجواهر. وأخيرا يدعو لضريح الميت بالرحمة والرضوان وبالسقيا والامتنان ودخول جنة الرحمن؛ يقول في ذلك:

وما مـاتَ مـن أنـتم لَنَـا بَعْـدَ مَوْتـه | ذخـائرُ عِـزٍّ دمـتُم مـنْ ذَخَـائِرِ
فإِنْ كَانَ بَدْرٌ مِنْهُم في التُّرْبِ قَدْ هَوَى | فَقَـدْ عَوَّضُـونَا بِـالنُّجُومِ الزَّوَاهِـرِ
وَإِنْ سَـقَطَتْ ياقوتـةٌ مـن نِظَامِهـا | فحسب المنـى فيـه بقـاءُ الجـواهرِ
عَلَيْـكَ صَـلَاةُ الله يَـا سَـاكِنَ الثَّـرَى | وَرُحْمَـاكَ دأبـًا إِنـهُ خَيـرُ غَـافِرِ [2]

تلك هي أشعار البلوي التي نظمها في الرثاء، وهي تدل على صدق عاطفته ووفائه كما تدل على جودة شعره وحسن سبكه.

❖ الشعر الذاتي:

لا شك أن البلوي قد اعترضته في حياته طوارق وأزمات، وأنه لم يكن كغيره من بني عصره محظوظا لدى الخلفاء الموحدين فتشاءم من الدنيا وناسها، وعبر عما أصابه بأبيات شعرية كان قد أنشدها لابن سعيد المغربي[3] أثناء إقامته بإشبيلية؛ ونرجح أن يكون ذلك بعد وفاة إبراهيم الموحدي «المعروف بالأحول»، الذي كان حفيا به عطوفا

(1) العطاء الجزيل، ص: 194.
(2) المصدر السابق، ص: 194.
(3) اختصار القدح المعلى، ص: 120.



عليه. ولا شك أن أحوال صاحبنا قد اختلت بعد ذهابه وفقدانه إياه، فغدا يشكو ما أصابه من اكتئاب وحزن لا يجد من يؤنسه في وحشته من البشر أحدا، ولا من يفضي إليه بأسراره سوى كتبه التي كان يحاورها في صمت فتجيبه وإن كانت خرساء، ويشكو لها ألمه فتسري عنه وإن كانت لا تنطق؛ قال معبرا عن ذلك في هذه الأبيات:

لِمَنْ أَشْكُو مُصَابِي مِنَ البَرَايَا ... وَلَا أَلْقَى سِوَى رَجُلٍ مُصَابِ
أُمُورٌ لَوْ تَدَبَّرَهَا حَكِيمٌ ... لَعَاشَ مَدَى الزمانِ أَخَا اكْتِئَابِ
أَمَا فِي الدَّهْرِ مَنْ أُفْضِي إِلَيْه ... بِأَسْرَارِي فَيُؤْنِسُ بِالجَوَابِ
يئستُ من الأَنَامِ فَمَا جَلِيسٌ ... سَرى عَنِّي الهمومَ سِوَى كِتَابِي(1)

ويبدو أن البلوي قد اعترته محن شديدة فخذله أصحابه كما خذله أقرباؤه وذويه، فغدا يشكو الزمان وأهله.

ومن شعره الذي عبر فيه عن ذاته أيضا، أبيات قالها في الشيب بعد أن أحس بأنه قد خالط رأسه قبل أوانه، وأن شبابه قد ولى دون أن يقضي من مرحلته تلك ما كان يجب أن يقضي من تمتع واطمئنان بال، وهو يتأسف على ذلك ويرى أن بعد الحبيب وقرب العدو الحاسد والصديق اللئيم، أخف عليه من طلوع الشيب بِفَوْدَيْهِ قَبلَ أَجَلِهِ يقول في هذا الصدد:

لَبُعْدُ حَبِيبٍ إِذَا مَا حَصَلْ ... وَقَدْ فَنِيتْ فِي رضاهُ العِلَلْ
وَقُرْبُ عَدُوٍّ عَلَى فَجْأَةٍ ... حسودٍ حقودٍ كثيرِ الحِيَلْ
وَلُؤْمُ صَدِيقٍ عَلَى غَفْلَةٍ ... أَوَانَ إِلَيْكَ سَعَى وَارْتَحَلْ
فَأَحْوَجَكَ الدهرُ يوماً له ... وَقَدْ نَفَشَتْ بِمُنَاهُ الدُّوَلْ
أَخَفُّ عَلَى نَاظِرِي طلعةً ... مِنَ الشَّيْبِ إِنْ جَاءَ قبلَ الأَجَلْ

(1) اختصار القدح المعلى، ص: 120، نفح الطيب، 3/ 325.



وَوَلَّـى الـشبابُ وَلَـمْ أَقْـضِ مِـن ... زيارتـــهِ وَرِضَـاهُ الأَمَـلْ
فَطُـوبَى بِمَـنْ مُتِّعَـتْ نَفْـسُهُ ... بِـهِ ثُـمَّ فِـي ذَيْلِـهِ قَـدْ رَفَـلْ[1]

تلك هي أشعار البلوي؛ ولا شك أنها لم تردنا كاملة، إذ ذكر تلميذه «ابن عبد الملك» أنه كان سريع القول قوي البديهة؛ ومن تكن هذه صفته لا بد أن يكون إنتاجه غزيرا كثيرا، غير أننا نستفيد مما بقي، أن شعر البلوي يميل إلى السهولة والبساطة حيث كان لا يتكلف في قوله؛ وأنه شاعر مطبوع يسير على مذهب الأوائل.



(1) اختصار القدح المعلى، ص: 121، أعلام المغرب العربي، 4/ 149.



نثر البلوي

❖ الكتابة والكتاب في عصر الموحدين:

اهتم الموحدون بالكتابة والكتاب خلال فترة حكمهم، وجعلوهم في الطبقة العليا من بين الطبقات التي كانت تزخر بها دولتهم؛ ومن ثم وجدناهم يَحْظَوْنَ برعاية خاصة طيلة مدة الحكم الموحدي. وقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن هذه الفئة قد نالت في عهد يعقوب المنصور من الأموال وصلاح الأحوال ما لم تنله في زمان آخر(1).

ولم يكن الموحدون يغدقون المال على هذه الطبقة فحسب، بل كانوا يشاركون في توجيهها بحكم مركزهم السياسي والفكري، وبحكم التعليم المتواصل الذي كان أبناء الخلفاء الموحدين يتلقونه في بلاطاتهم؛ ومن ثم وجدنا الخليفة المنصور يشارك في إسداء النصيحة للكتاب ويدعوهم إلى الإيجاز بدل الإطناب؛ قال ابن عذاري: «ولما وصل المنصور إشبيلية ووصل معه وفود من سائر بلاده ومنتهى طاعته بالتهاني من النظم والنثر، قال المنصور الفتح أعظم من الإطناب في وصفه، وأمر الكاتب أبا الفضل ابن أبي الطاهر وأكد عليه أن يوجز الكتب في هذا الفتح غاية الإيجاز، ولا يسلك في العبارة عنه مسلك شيء مما تقدم من أوصاف الفتوحات، وأن يَنْحُو فيه منحى كتاب الصحابة رَضِوَاللَّهُعَنْهُمْ»(2). ويبدو من خلا ل النص الذي أورده ابن عذاري، أن المنصور كان قد لمح أن الكتاب يطنبون في وصف الفتوحات، فأشار عليهم برأيه في تغيير أسلوب الكتابة وطريقتها، ودفعهم إلى الاختصار خاصة إذا تعلق الأمر بالإخبار بفتح وذلك جريا على طريقة الصحابة في كتبهم التي كانوا يبعثون بها إلى ولاة الأقاليم وعمالها.

وقد شارك الخُلَفَاءَ في الاعتناء بهذه الطبقة الولاةُ، سواء تعلق الأمر بولاة المغرب الأوسط أو الولاة الذين كانوا بالأندلس؛ فقد ذكرت بعض المصادر أن هؤلاء الولاة

(1) المن بالإمامة، ص: 236.

(2) البيان المغرب «قسم الموحدين»، ص: 221.



كانوا يستدعون الكُتَّابَ من منطقة إلى أخرى، ومن مدينة إلى مدينة وذلك حتى يتمكنوا من إخبار الحضرة العلية بما يجد من أحداث سواء على الصعيد السياسي أم العسكري أم الاجتماعي؛ فقد ذكر ابن صاحب الصلاة في هذا الشأن أن أبا اسحاق المسوفي، استدعى الكُتَّابَ والمَشَارِف من إشبيلية للذهاب إلى قرطبة، فنزحت إلى هناك جماعة كبيرة مشهورة من كُتَّابِ إشبيلية وأعيان جهاتها، وكان من بين أولئك الذين كتبوا غير أنه تخلى عن منصبه لأسباب لم يذكرها.

❖ رسائل البلوي الرسمية:

يبدو أن إشبيلية كانت تحظى بعناية خاصة من قبل الموحدين، يعود ذلك إلى كونها كانت سباقة للدخول في طاعتهم قبل غيرها من مدن الأندلس، ومن ثم اهتم بها الخلفاء أكثر من غيرها، فكانوا لا يولون عليها إلا من كان صالحا من أبنائهم أو من يرونهم أهلا للقيام بشؤونها السياسية والاجتماعية. وهكذا تعاقب على ولاية إشبيلية مجموعة من السادة الموحدين، كان من بينهم أبو إسحاق إبراهيم الأحول الذي ولاه عليها المستنصر بالله سنة 611هـ[1].

ويذكر البلوي في خاتمة كتابه «العطاء الجزيل» أنه عندما وصل أبو إسحاق السالف الذكر إلى إشبيلية عَيَّنَه كاتباً له وظل في مهمته ثمانية عشر شهرا[2]. وقد صدرت عنه خلال هذه المدة مجموعة هامة من الرسائل والمكاتبات الرسمية، التي كان يبعث بها «إبراهيم» إلى الحضرة الإمامية بمراكش لإِخْبَارها بما يجري بالأندلس.

وقد وصلتنا مجموعة هامة من رسائل البلوي هذه مُتَضَمَّنَةً في مصدرين هما: «العطاء الجزيل» و«مخطوط مبتور الطرفين» يُجْهَل اسمه[3]. وسنحاول تلخيص مضامين هذه

(1) البيان المغرب، ص: 266، الحلل الموشية، ص: 161، المعجب، ص: 236.
(2) العطاء الجزيل، ص: 379.
(3) يوجد المخطوط في خزانة الأستاذ محمد المنوني؛ وقد سمح لنا بتصويره والاستفادة منه. ولذا فنحن نسجل له شكرنا وتقديرنا الخالصين.



الرسائل الهامة التي تكشف -لأول مرة- بتفصيل دقيق عما كان يسود الأندلس والمغرب، خلال عهد الخليفة المستنصر من أحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية؛ وسنعتمد في تحليل مضامين هذه الرسائل على المصدرين السَّالِفَيْن؛ مبتدئين برسائل المخطوط الخاص باعتبارها تمثل نسبة كبيرة مما خلفه البلوي؛ وهي هذه:

الرسالة الأولى: بعد المقدمة التقليدية التي يفتتح بها البلوي رسائله الرسمية، يخلص إلى الموضوع مباشرة حيث يخبر الخليفة - على لسان إبراهيم - بأن أحوال إشبيلية وما جاورها من المدن، جارية على الصلاح الشامل وأن الأمن يسود البلاد والعباد. كما يخبره بأن الناس جميعا قد استبشروا بالإِنْعَام الذي أنعمه الخليفة عليهم، فغدوا لزراعة مناطق الثغور وغيرها باذلين في ذلك جهدهم متمنين النجاح في قصدهم. كما يبلغ الحضرة الإمامية ما علمه من أخبار النصارى وأحوالهم، فيذكر له أن الناس كانوا يتقولون بارتباط صلح بين صاحب «**قشتالة**» وصاحب «**ليون**»، ثم ورد خبر من مدينة «**ماردة**» مفاده أن صاحب «**ليون**» وابن صاحب «**قشتالة**» قد اقتتلا، فانتصر لكل واحد منهما فريقه فقتل من الجانبين ما يزيد عن «خمسين» رجلا، وقد استبشر المسلمون بهذا الخبر واطمأنت نفوسهم وتهللت وجوههم، فغدوا وهم لخليفتهم داعون ولأمانته وعهده راعون.

الرسالة الثانية: في هذه الرسالة يخبر والي إشبيلية أبو إسحاق إبراهيم بأن أحوال جهته جارية على الصلاح المستدام والرخاء العام، وأنه قد استلم كتاب الخليفة الذي يوصيه فيه بتأكيد أسباب الهدنة بين المسلمين والنصارى، ومباشرة أمور الرعايا بإنصاف المظلوم منهم وتأمين الخائف، وأنه قد تلقى هذا الكتاب وسيعمل على تنفيذ أوامره المطاعة. كما يخبر الوالي المذكور خليفته بأنَّ بعض أهل الدعارة كانوا قد عاثوا في بعض الجهات فسادا، فأرسل في طلبهم من يطاردهم في عقر دارهم حتى تهدأ الأحوال ويسود الأمن في البلاد، وقد تم ذلك فعلا فغدا شمل هؤلاء المفسدين مشتتا وانقسموا «بين قتيل ذاهبٍ وطريدٍ هاربٍ ونازلٍ تائبٍ»[1].

(1) خاص في خزانة المرحوم الأستاذ المنوني.

ويبدو من سياق الرسالة كذلك أن الخلافة الموحدية كانت ترغب في شراء منازل بعض الأندلسيين الضعفاء، ثم تنازلت عن ذلك فأصدرت الأمر للوالي المقيم بإشبيلية بأن يخبر الرعية بما عزمت عليه، فأخبرهم وعندما علم الناس بذلك استبشروا واطمأنت نفوسهم فأصبحوا الأمر الخليفة المطاع ذاعنين وبالدعاء له مسارعين.

الرسالة الثالثة: تتحدد مضامين هذه الرسالة فيما يلي:

1- الإخبار بأن أحوال جهات إشبيلية في صلاح تام وخير عام.

2- إنعام الخليفة الموحدي على والي إشبيلية بإضافة مدينة «بطليوس» وثغورها الجوفية إلى نفوذه، وبالتفاوض مع الشيخ «أبي عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن» فيمن سيعينه على تلك الجهات.

3- مطالبة الخليفة للوالي بأخذ الاحتياط على المخازن. ويبدو من سياق الرسالة أن الخليفة الموحدي خلال هذه الحقبة كان يعتني أشد الاعتناء بالأندلس عامة، وبإشبيلية خاصة لمجاورتها للثغور المسيحية، كما يبدو أيضا أن المراسلات كانت مستمرة بين الوالي المذكور وبين الخليفة.

الرسالة الرابعة: يبدو من مضمون الرسالة أن الخليفة الموحدي كان قد بعث كتابه إلى والي إشبيلية مشتملا على «العلامة» التي هي القطب الذي يحرك فلك المصالح ويديره، فتبرك بهذا الكتاب وأخبر خليفته بأنه لن يدخر وسعا في تطبيق أوامره، ويَبْدُو من سياقها كذلك أن الخليفة يؤكد على الوالي بأن يرعى السلم مع صاحب قشتالة، وأن ينبه الناس في كل الجهات وخاصة الحدود المتاخمة للمسيحيين، وأن يحفظوا عهودهم ويقفوا عند حدودهم وبذلك تقوم الحجة على النصارى، ويعلموا أن المسلمين يفون بمواثيقهم وعهودهم.



الرسالة الخامسة: في هذه الرسالة يخبر والي إشبيلية الحضرة الموحدية، بأن أحوال جهته سارة بما توالى عليها من الغيث المدرار، وأن نفوس الرعية في طمأنينة وتمهيد قرار بما مَنَّ الله عليهم من إذعان الأعداء والكفار، كما يقدم شكره للخليفة الذي أنعم على ابنه بتقديمه على مدينة «بطليوس» وسائر ثغورها، معترفا بهذا الفضل السابغ ومذكرا بأن ابنه نشأة من نشأة الخليفة ومملوك من مماليكه، وأن هذا التقديم إنما هو اختبار له وتجريب.

الرسالة السادسة: بعد المقدمة المسهبة التي يفتتح بها البلوي رسائله الرسمية، يخلص إلى موضوع الرسالة التي تتحدد مضامينها فيما يلي:

1- لا شك أن الخليفة كان قد أصر على والي إشبيلية في التعرف على أنباء النصارى، وأمره بتكليف أهل الثغور بالإعلام بما يجد هناك من أخبارهم، ومُوَاصَلَةِ الإعلام بما يرد من حقيقة أنبائهم، ولذلك فإن الوالي المذكور يخبر الخليفة بالمفاتنة الواقعة بين النصارى وبالانقسام الساري في صفوفهم.

2- كما يخبره بأنه قد نفذ الأمر الذي صدر إليه في شأن «**كومية**»، وأنه أحضر مزوارهم وجماعتهم وحذرهم من عاقبة اعتدائهم وخوفهم من الجزاء الذي ينتظرهم إن هم تمادوا في غيهم وفسادهم.

ويظهر من خلال الوصايا الصادرة عن الحضرة إلى الوالي، أن الموحدين كانوا يتشددون في السهر على أمور الناس ومصالحهم، وأنهم كانوا يعتنون بالأندلس عامة وإشبيلية خاصة لمجاورتها للنصارى.

3- ويبدو من سياق الرسالة أيضا أن الخليفة كان قد أنعم على ابن آخر لوالي إشبيلية، فقدمه على «بني رياح» وطلب منه أن يسكن مدينة «شريش»، وقد أدرك «أبو إسحاق إبراهيم» ما في هذا التقديم من تشريف، ومن ثم فهو يخبر الحضرة المراكشية بالسرور الذي انتابه وَوَلَدَهُ، مُذَكِّراً بأنه قد ألقى إليه من الوصايا ما يجعله بها يسلك الطرق الحميدة ويتبع المناحي السديدة.



الرسالة السابعة: لا شك أن المراسلات بين حضرة مراكش وولاية إشبيلية كانت متواصلة، وأن الخليفة الموحدي كان يتطلع دوما لمعرفة أخبار هذه الجهة إن على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي. ومن ثم كان والي إشبيلية يبعث رسائل جوابية لإخبار الحضرة المراكشية بما يقع، يبدو ذلك واضحا جليا من خلال هذه الرسالة، التي يخبر فيها ابراهيم الخليفة بأن منطقة الثغور تعاني أزمة اقتصادية بسبب قلة الطعام وغلاء السعر في مختلف المواد، ولولا أن الله قد أغاث الناس «بالبلوط» فاتخذوه قوتا لهم ولِدَوَابِّهِمْ لكانت قد حلت الكارثة بالبشر والأنعام.

الرسالة الثامنة: يظهر من سياق هذه الرسالة أن والي إشبيلية يخبر الخليفة بأمد الصلح المبرم بين المسلمين والنصارى، الذي لم يبق منه سوى شهرين وأنه يكاتبه ويتطلع إلى معرفة رأيه في هذ الجانب السياسي الهام، لأنه لا يقطع أمرا إلا بمشورته ولا يتخذ قرارا إلا بإذنه، كما أنه يتطلع إلى لقاء الخليفة برغبة أكيدة خاصة بعدما علم أنه عقد العزم على زيارة الأندلس لمعرفة ما يجري بها وتفقد أحوالها.

الرسالتان التاسعة والعاشرة: فيهما أخبار بأن والي إشبيلية كان يتطلع إلى مشاهدة الخليفة، ولكنه لا يستطيع التحرك من بلده إلا بإذن خاص منه، وقد بلغه إسعاف بذلك تحقيقا لرغبته فاغتبط به أشد الاغتباط.

الرسالة الحادية عشرة: يظهر من مضمون الرسالة أن والي إشبيلية يخبر حضرة مراكش بظهور ناكث غادر بجهته، وقد ظهر فساده للعيان وابتدر الناس بالشكوى منه بسبب الفتنة التي سببها، وكان هذا المشاغب يؤذي الناس جميعا لا يفرق في ذلك بين مسلم أو نصراني، ونهي عن فعله، ودعي إلى الرجوع عن فساده وغيه، فلمْ يزده الدعاء إلا استكبارا؛ حيث نهض إلى جماعة من رعاة النصارى كانوا تحت ظلال السلم المعقودة بينهم وبين المسلمين، فرماهم وغنمهم ثم دخل مدينة «**بطليوس**» بواحدٍ وعشرين أسيراً من هؤلاء. غير أن الوالي اقتص منه، وسرح النصارى المأسورين خوفا من نكث العهود والمواثيق المبرمة بينهم وبين المسلمين، وخوفا



من حدوث فتنة أو ضرر من قبل النصارى المجاورين للمسلمين. وعندما علم المسلمون أن عدوهم المفسد قد استؤصلت شأفته فأصبحوا داعين لخليفتهم بالنصر والتمكين مستمسكين ببيعته التي أمر بها الدين. أما الروم فقد بلغهم الخبر ورأوا كيف يحفظ السلم عند المسلمين فاغتبطوا بذلك، وزادهم الأمر ارتباطا بالسلم حيث اختلط رعاتهم برعاة المسلمين، حتى غدا الفريقان يَرْعَوْنَ في مرعىً واحد.

ويبدو من مضمون الرسالة أيضا أن الوالي يخبر الخليفة بما لديه من معلومات عن النصارى، وأنه علم بواسطة جواسيسه بأن «ابن الرنق» و«صاحب ليون» قد تعاقدا بينهما على السلم، وقد اختلف الناقلون في أمدها ومدتها. كما أنه يحذر الخلافة العلية من نكث النصارى لعهودهم، وذلك حينما علم بأن «ابن الرنق» كان يود توجيه رسوله إلى الحضرة عندما علم بأن «اذفونش» كان قد عزم على إرسال «ابن حريق» رسولا إلى الحضرة نفسها، فلما تخلى الثاني عن عزمه تبعه الأول؛ وهذا أمر معهود من النصارى وهو من خداعهم ومكرهم كما يقول صاحبُ الرسالة.

الرسالة الثانية عشرة: تعد هذه الرسالة أول رسالة مؤرخة حيث ذكر في ختامها أنها بعثت إلى الحضرة في 20 صفر سنة 611هـ ويفهم من خلال سياق هذه الرسالة المؤرخة أن أحوال جهة إشبيلية كانت سيئة اقتصاديا بسبب ندرة الطعام وقلة الدقيق، وأن الناس كانوا يشتكون من هذا الأمر فكانت الحضرة الإمامية تزودهم بالأقوات بين الفينة والأخرى، تفاديا للضرر الذي قد يحدث بهذه المنطقة واستجلابا للنفوس والقلوب. ويبدو من سياقها كذلك أن الجانب السياسي كان حسنا وذلك بسبب الصلح الذي كان قد أبرم بين المسلمين وبين النصارى، وبسبب الهدنة المعقودة بين الجانبين مما طمأن نفوس الرعايا القاطنين بهذه الجهة، لا فرق في ذلك بين سكان الثغور أو سكان المواسط.

الرسالة الثالثة عشرة: يفهم من سياق هذه الرسالة أن الخليفة كان قد أنعم على والي إشبيلية وعلى أبنائه بنعم كثيرة وهو يشكره على التنويه والتقدير الذي لقيه منه،



كما يفهم من مضمونها أيضا أنه كان قد وقع خلاف بين والي إشبيلية وبين بعض سكانها، الذين حاولوا الخروج عن طاعته وتعكير صفو الجو بينه وبين الرعية في هذه الجهة، وقد تألم الخليفة حينما علم بذلك فتوعدهم وهددهم تأنيسا لواليه إبراهيم وتسكينا للنفوس والقلوب، مما جعل الوالي المذكور تطمئن نفسه ويقر قراره ويقدم شكره للخليفة.

الرسالة الرابعة عشرة: مما لا شك فيه أن المراسلات التي كانت تدور بين حضرة مراكش وولاة الأقاليم، كانت مضامينها تختلف بحسب المناسبات والوقائع والأحداث، يتبين ذلك من هذه الرسالة التي يستفاد منها أن والي إشبيلية كان قد علم بواسطة كتاب الحضرة بتردد الموحدين وخروجهم إلى المغرب الأوسط، لتأنيس الرعايا والبحث عن شؤونهم وقضاياهم، وتلك كانت عادة الموحدين في العناية بمناجح الأمور والالتفات لمنافع العباد والبلاد، لأنهم مختصون بالعدل والإحسان والفضل والجود والكرم والامتنان وحسن الرأي المبني على هدي القرآن والسنة، وذلك يدعوهم لكي يحوطوا الرعية ويكلأوهم بأعينهم لأنهم أمانة لديهم.

ويفهم من سياق الرسالة كذلك أن هذه الرحلة الموحدية كانت موفقة، وأن أولئك الذين خرجوا لتفقد أحوال المغرب الأوسط قد عادوا إلى أوطانهم وأوليائهم المشتاقين إلى رؤيتهم. وتَجْمَعُ الرسالةُ بين الإِخْبار والدعاء للحضرة وأوليائها الذين سهل الله عودتهم فرجعوا مصاحبين بالسعد والظفر في أمورهم.

الرسالة الخامسة عشرة: يفهم من سياق هذه الرسالة، أن الخلافة الموحدية قد عرفت خلال عهد «المستنصر» بعض المناوئين بالمغرب الأقصى ممن نكثوا بيعة الخليفة وادعوا لأنفسهم[1]، ولا شك أن هذا الداعي هو الذي ظهر ببلاد جزولة سنة 612هـ، حيث انتسب إلى الفاطميين وادعى أنه من ذرية أبي عبد الله الشيعي، وقد

---

(1) البيان المغرب «قسم الموحدين»، ص: 266.





تمكن الخليفة الموحدي بواسطة أنصاره أن يقضي على دعوته، فقتل وعلق رأسه على باب فاس كما يقول ابن عذاري[1].

والرسالة التي كتبها إبراهيم للحضرة، تبرز أن الخليفة كان قد أخبره بما حدث وطلب منه أن ينشر الخبر بين رعاياه بالأندلس، حتى يكونوا على علم بما جرى ويجددوا بيعتهم للخليفة. ومن مضمون الرسالة يفهم أيضا أن إبراهيم كان قد بَثَّ البشرى في أرجاء البلاد كلها، حتى تعم الفرحة والمسرة جميع الناس القاصي منهم والداني، ويأخذ الجميع من فهم معانيها والابتهاج بما تضمنه سعد الخلافة من الخير الجزيل فيها، ليزداد الذين آمنوا إيمانا ويشاهدوا نور الحق عيانا.

الرسالة السادسة عشرة: بعد مقدمة مسهبة في الدعاء للحضرة الإمامية يخلص الكاتب إلى الموضوع الرئيسي، حيث يخبر والي إشبيلية خليفته بمراكش بأن أحوال جهاته ترتع من الخيرات في جميم، وتقطف من المسرات كل شامل عميم، وأن الناس جميعا يعيشون في أمن وأمان بفضل الهدنة التي تمد عليهم رواقها، وبفضل السعادة الإمامية التي تدلي لهم بحجتها وبرهانها وتقطفهم ثمر السرور المتزايد؛ ومما كان قد أثمره سعد هذه الخلافة ما وقع بين النصارى من الفتنة التي اضطرمت نارها، وقد علم الوالي نبأ هذه الفتنة من خلال الكتاب الذي ورد عليه من مدينة «بطليوس»، فبعث منه نسخة إلى الخليفة ليبين له ما يدور بين النصارى من تناحر وتنافر وما يجري بينهم من شقاق، كما أخبر الوالي خليفته بابتهاج جميع المسلمين بالأندلس عند سماعهم هذه الأخبار.

الرسالة السابعة عشرة: يستفاد من مضمون هذه الرسالة أنه كان قد ورد على إبراهيم كتاب من الخليفة المستنصر، يتضمن بعض مصالح الرعية حيث يأمره بنقل العرب إلى الأماكن الخالية القصية، فتلقى إبراهيم هذا الكتاب بالتعظيم والشكر؛ وبادر إلى امتثال أوامره لأنه يرى أن ما تشير به الحضرة العلية هو الصواب، ولذلك

(1) البيان المغرب «قسم الموحدين»، ص: 266.





فهو لا يتجاوزه ولا يعدوه ومِنْ ثَمَّ فهو يعلم الخليفة بأنه قد أنفذ في الحين إلى «أبي العباس أحمد ابن عمر الصنهاجي»، للتشاور معه في هذا الأمر الخطير والاجتماع به من أجل التحاور حول هذه القضية الهامة، وقد لبى الشيخ المذكور ما طلب منه، وبعث برسالة جوابية إلى والي إشبيلية الذي أنفذ الأمر إلى حضرة مراكش ليقف الخليفة على مقتضاه.

وقد كتب البلوي عن والي إشبيلية مجموعة من الرسائل، كان قد بعثها إلى بعض وزراء الدولة الموحدية، الذين كان لهم شأن كبير ودور خطير في تسيير السياسة الموحدية ومن هذه الرسائل:

الرسالة الأولى: لم يفصح البلوي عن الوزير الذي بُعثتْ له هذه الرسالة، غير أن مضمونها يتلخص في كون أن إبراهيم يخبر هذا الوزير عن أحوال جهاته التي ظهر صلاحها وتساوى في الأمان والدعة ليلها ونهارها، وأن البلاد مطمئنة هادئة وأصول البركة الإمامية ثابتة وفروعها عالية باسقة، وسعادة الخلافة ترسل النعم على العباد، فلا عين لعبيدها إلا وهي قريرة ولا نفس إلا وهي مسرورة. ويخبر الوالي المذكور الوزير السالف الذكر بأن الزرع قد بسط الله الآمال بكثرته وصلاحه في هذه السنة، وأعطى الله منه للناس حظا وافرا لأنهم كانوا قد استكثروا منه في كل مكان، وأنفقوا في سبيل صلاحه ورعيه كُلَّ مَا لديهم من غال وكُلَّ ما عز وهان، وتنافسوا في ذلك تنافس الواثقين فتملأ بهم السهل والجبل، وكان من صنع الله الجميل أن جادهم الله بالغيث المدرار، فبدت الأرض في زي حسن يسر الناظرين جمالها، وذلك بفضل بركة الخلافة السعيدة ويمنها وسعادة مقامها.

الرسالة الثانية: كتبها ابراهيم إلى الشيخ أبي سعيد بن أبي محمد بن أبي إسحاق الذي كان قد وصله كتاب منه يأمره فيه بما يلي:

مخاطبة «كومية» بكتاب عزيز وأن يحضروا لقراءته وأن يحملوا على اتباع ما فيه من مقاصد. وهذا الكتاب لم يصل لِوَالي إشبيلية إلا وهو مفضوضُ الختام، وقد زعم



مزوارهم أي رئيسهم أنه قد قرأ الكتاب عليهم، وأن ذلك يغني عن إعادته قراءته عليهم مرة ثانية، فصنفه الوالي المذكور وأوضح له مقتضى الغرض الإمامي في جميع أنحائه.

وقد أشار الوزير في كتابه المذكور إلى ضرورة تعاون «إبراهيم» مع الشيخ أبي عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن، واستشارته في كل الأمور التي تهم تسيير شؤون البلاد.

ويفهم من مضمون الكتاب أيضا أن الخليفة كان قد أنعم على إبراهيم بفائدة السهم الذي يوجد بمخازن إشبيلية، ولا شك أن الشيخ أبا عبد الله المذكور آنفا هو الذي كان أمينا على هذا المخزن، حيث نجد الرسالة تذكر أنه هو الذي خوطب في هذا الشأن.

ومما أخبر به الكتاب أيضا تعيين القاضي أبي الحسن علي ابن أبي القاسم بن المَالَقِي قاضيا على مدينة «شريش»، ويبدو أنه كان قد نحي من منصبه أو أقيل منه، فتوسط له الشيخ المذكور لدى الخليفة فأعاده لمنصبه؛ يتجلى ذلك واضحا من مضمون الرسالة وأسلوبها.

الرسالة الثالثة: بعد مقدمة مسهبة في الدعاء للحضرة والسلام عليها وشكرها وشكر نعمها والتضرع إلى الله في مجاراتها، يخلص الكاتب إلى الموضوع الأساس حيث يخبر بعض وزراء الدولة الموحدية بعودة الوفد الذي كان قد ورد على الحضرة، وبأن جميع أعضائه يجددون شكرهم وامتنانهم للخليفة الذي أسبغ عليهم من نعمه ما لا يعد ولا يحصى.

الرسالة الرابعة: كتبت هذه الرسالة لوزير موحدي لم يفصح البلوي عن اسمه، وهو يخبره بوصول كتابه -صحبة كتاب الخليفة - الذي يبشره فيه بإنعام الخليفة على ابنه بتقديمه على مدينة «بطليوس» وسائر ثغرها الجوفي، مطالبا إياه أن يمتثل الأمر المطاع وأن يذهب على الوجه الذي يرضي الله والخليفة؛ ويظهر من جواب إبراهيم أنه كان قد تلقى هذه النعمة بالشكر والامتنان، وأنه قدم لولده من الوصايا



والنصائح ما يجعله أهلا لتحمل المسؤولية التي كلف بها، خاصة وأن الإمام كان قد طلب من القائمين على إشبيلية وشوؤونها، أن يمنحوه مرتبا مساويا لمرتب إخوانه الذين سبقوه في هذا المنصب.

الرسالة الخامسة: بعد المقدمة التقليدية في الدعاء للخليفة بالنصر والتأييد، يخلص الكاتب «البلوي» إلى الهدف الأساس من الرسالة فيقول:

«لقد ثبتت سعادة الخلافة الإمامية وامتد شأوها، وغدت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء. وقد طلعت في سماء السعادة الإمامية بشرى كانت من أعظم البشائر، وذلك بما كان من الفتح المبين الذي أشرق به وجه الإسلام، وذلك بما بلغني من خبر موت صاحب قشتالة». وكان قد تقدمته مسرة أخرى وبشرى عظمى ألا وهي هلاك «دياقه لبس» رئيس خُدَّام الملك المذكور، والذي كان يعتد به اعتداده بساعده وعضده. ثم يبين والي إشبيلية للخليفة الموحدي ووزيره أن هذا الخبر الذي بَشَّرَهُ به لا يشك في صدقه ولا يمترى في شأنه، حيث وصلته مخاطبات في هذا الشأن من حصون شتى وجهات متعددة.

الرسالة السادسة: بعد مقدمةٍ قصيرةٍ - على غير عادة البلوي- في الدُّعَاءِ لِلْحَضْرَةِ الإمَامية وشكر نعمها وآلائها، يتبين من سياق الرسالة أن والي إشبيلية كان قد وصله كتاب من أحد الوزراء الموحدين، يدعوه فيه إلى الاعتناء بمحتسب كان قد عين بهذه المدينة، ويلتمس من الوالي أن يدفع له مرتبه الذي يستعين به على تسيير أحواله وشؤونه. وقد نفذ الوالي ما أمر به وبعث رسالة جوابية في هذا الشأن.

الرسالة السابعة: بعد مقدمة قصيرة في الدعاء للحضرة وإبراز ما لله من عناية بها وتكفل بتسيير شؤونها، يخبر والي إشبيلية وزراء الحضرة الإمامية أنه قد وفد نصراني من بلده فأنبأه بما يجري بين النصارى، وبالرغم من أن الرسالة لا تفصح عن الأنباء التي ورد بها هذا النصراني، فسياقها يدل على أنه بشر المسلمين بالخلافات الحادة، والصراعات الواقعة بين «صاحب قشتالة» و«صاحب ليون».



الرسالة الثامنة: بعد مقدمة مسهبة في الدعاء للحضرة الإمامية وشُكْرِها وإبراز ما أنعم الله عليها وما صنع لها من صنع جميل، يخبر والي إشبيلية الخلافة الموحدية العلية بالبشرى التي عمت الأندلس، حينما علم الناس بقتل الشقي الذي لجم «بجزولة»[1] وقد كان الأندلسيون يعلمون علم اليقين بصحة هذا الخبر عن طريق العقل، فأرادوا التأكد منه عن طريق النقل، ولما ورد الخبر بذلك وتواتر بواسطة مراسلة الحضرة، تأكدوا من صحته واستبشروا به وزادهم إيمانا بالبيعة الميمونة. وكان من السعد الذي أشرقت آياته وظهرت علاماته أنْ وصل الكتاب ليلة الجمعة، فتمم الله بذلك فضل هذا اليوم حيث جمع الأمة من الحواضر والبوادي لسماع البشرى وحشرها في الجامع الكبير في يوم مشهود، فضج الناس بالدعاء والشكر عند سماع ما تضمنه الكتاب وطار بهم السرور، وتيقن الجميع أن الله ينصر أنصاره، ويخذل من ناواه ويأخذ منهم ثأره؛ ثم احتفل الناس بهذا اليوم وكان أول من سبق لذلك جماعة الموحدين ثم تلاهم جماعة أهل الأندلس على اختلاف طبقاتهم. ثم يسترسل البلوي في إبراز غرور ذلك الشقي الذي قابل القدرة الإلهية بعناده وعتوه، فأعجزته وشك في أمر الموحدين، والشك في أمر دعوتهم يقابلُ شكَّ الانسان في وحدانية الله وذلك أَمْرٌ مُحال.

وينهي الرسالة بإخبار الوزير بأنه قد بعث الكتب بهذا الفتح العظيم إلى جميع الجهات الأندلسية، فعمت البشرى كل ثغر وحصن وحلت على القريب والبعيد، وتيقن الناس بأن الدعوة المهدية في ظهور مستمر إلى يوم القيامة والنشور، ويختم الرسالة بالدعاء للحضرة الإمامية في أن يضاعف الله سرورها وأن يكسر شَأْفَةَ عِدَاهَا.

بالإضافة إلى تلك الرسائل الواردة في مخطوط أستاذنا محمد المنوني والتي سبق أن لخصنا بإيجازمضامينها، نجد البلوي قد كتب مجموعة أخرى من الرسائل عن والي إشبيلية تهم سياسة الدولة الموحدية، سواء تعلق الأمر بالسياسة الخارجية أو

(1) البيان المغرب، ص: 266.



بالسياسة الداخلية. ومن هذه الرسائل تلك التي كتبها من إشبيلية عن إبراهيم إلى القمط اربل بن القمط نونه، وهو يخبره فيها بوصول رسوله أبي الحجاج بن مزاح مع أبي اسحاق ابن الفخار، وقد تعرف ما عنده من موالاة للموحدين والاستناد إليهم، وأنه قد طلب منه الاعتناء بمبعوثه والاهتمام به، فأجابه إبراهيم بأنه كان سيفعل ذلك ولو لم يوصه بالأمر، لأنه يرعى المودة ويحفظ العهد وتلك عادته وجبلته. وعليه فإن رسوله سيكون مكرما أثناء مقامه وسيعتني به أشد الاعتناء حتى يعود إلى وطنه.

ثم كتب البلوي عن إبراهيم أربع رسائل وجه اثنتيْن منها إلى كل من الشيخ أبي سعيد بن أبي محمد والقائد أبي القاسم بن مثنى، واثنتان لم يذكر لمن بعثهما ولعله كان قد أرسلهما إلى الخليفة الموحدي المستنصر[1].

وهو في هذه الرسائل يعرض لجانب من الجوانب التي تهم الأوضاع السياسية في عصر الموحدين، والعلاقة التي كانت تربطهم بالأندلس وما كان يجري على يد مجموعة منهم في هذه البلاد من اعتداء وظلم وفساد. ويبدو أن أهل «كومية» الذين كانوا قد انتشروا بالأندلس خلال هذه الفترة، وبخاصة في إشبيلية وما جاورها من مدن وقرى وأرياف، كانوا قد أطلقوا أيديهم في الفساد وأربوا الناس واضطهدوهم تارة بالتخويف وتارة بالاستغلال البشع، مما دفع الأندلسيين إلى رفع شكواهم إلى الخليفة يعبرون فيها عن الظلم الذي اعتراهم والرعب الذي هالهم.

وقد بلغتنا رسالة واحدة كتبها البلوي عن والٍ آخر من ولاة الموحدين هو أبو زيدٍ عبد الرَّحْمَن بن عبد المومن، وكان وَالِيـًا بِجَيَّان وَصَحِبَهُ البَلَوِيُّ إلى هذه المدينة، وكتب له مدة إقامته بها ويبدو أن ذلك كان حوالي سنة 607هـ.

ويبدو من سياق الرسالة أن أبا زيد كان قد بعث هذه الرسالة إلى ملك «قشتالة وطليطلة وغشكونية»، يخبره فيها بالعهود المبرمة بينه وبين الموحدين، تلك العهود

(1) البيان المغرب، ص: 263.





التي يجب المحافظة عليها والوفاء بها، ويحق العقاب على كل من قدح فيها أو اعتدى عليها.

ولكن المسلمين علموا أن عددا من خيل النصارى ورجلهم قد ضربوا أحواز «شقورة» وغيرها من الحصون التي تعود إلى «جَيَّان»، وأخذوا عددا من أسارى المسلمين ودوابهم مع جملة من البقر والغنم، وعاثوا في هذه الجهات فسادا مجاهرين بالمفاتنة مشعلين نار المحاربة، كأنهم ليس لهم ملك يحكمهم فيخافون منه أو يستحيون.

ثم يقول البلوي مذكراً المكتوبَ لهُ: «وقد علم المسلمون أن أصحاب هذه الفعلة هم من رجالكم وقَوْلُ مَنْ قَالَ إنهم من أَرَغُون غير سائغ لأن الأرض التي دخلوا منها هي أرضكم. وقد كشفنا بالبحث عن حقيقة الفاعلين فوجدنا أنه لم يكن فيهم من «أرغون» إلا نحو خمسين فارسا خاصة، وسائر المئين من الرجالة والفرسان وذلك نحو 1400 راجل و 150 فارسا إنما كانوا من بلادكم. ونحن إذ نكاتبكم في هذا الشأن نود أن تعرفونا بالأمر فإما أنكم ما تزالون على شرط السلم فيحافظ عليها من الجانبين، وإما أنكم نكثتموها فنرفع الأمر للحضرة في هذا الشأن».

تلك هي الرسائل الرسمية التي وصلتنا وهي كما يبدو صادرة في عمومها عن والي إشبيلية أبي إسحاق إبراهيم الأحول، الذي كان يخبر مراكش بما يجري في الأندلس من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية. وقد كشفت الرسائل التي وصلتنا في هذا الشأن عن بعض القضايا الهامة التي يستحق للدارس أن يتعمق في بحثها، بموازنتها مع ما ورد في بعض المصادر العربية أو المسيحية.

❖ رسائل البلوي الإخوانية:

كان البلوي شديد الارتباط بأصدقائه وإخوانه، محبا لهم، عاطفا عليهم، مقدرا لعلمهم وأخلاقهم، مستفيدا منهم، لا يتوانى في مكاتبتهم والاستشارة معهم في قضاياه



وشؤونه، وقد عثرنا له على مجموعة من الرسائل الهامة التي تبادلها مع إخوانه وأصدقائه، أغلبها موجود في كتاب العطاء الجزيل[1]. وقليل منها ذكره ابن سعيد في كتابه اختصار القدح المعلى[2]. وهي تتناول موضوعات مختلفة وأغراضا متنوعة مما يتناسب وهذا اللون من التعبير؛ وهكذا نجد البلوي كتب في الاستهداء والتعازي والوصف والشكوى، وغير ذلك من الموضوعات التي سنتحدث عنها أثناء تحليل مضامين هذه الرسائل.

ويمكن تصنيف رسائل البلوي الإخوانية من حيث أغراضها إلى رسائل:

❖ **الإهداء:**

كتب البلوي رسالتين يطلب فيهما من إخوانه وأصدقائه أن يزودوه بما لديهم من نثر وما يملكونه من فن القول. الأولى لم يفصح لمن كتبها والثانية ذكر أنه بعثها إلى شيخه «أبي عبد الله بن عياش».

افتتح البلوي رسالته الأولى بإبراز قيمة الهدايا المتبادلة بين الناس، مبينا أن خير ما يهديه الأديب لصديقه هي قراطيس الأدب ذاكرا أنه قد سمع بغزارة طبع صديقه وذلاقة لسانه وحسن بيانه، فأبدى رغبته في أن يبعث له من كلامه شعرا كان أو نثرا، شاكرا له على تفضله بذلك.

أما التي بَعَثَهَا لشيخه ابن عَيَّاش فقد ذكر أنه اجتمع مع بعض طلبة الأندلس، وجرت بينهم مباراة في التفضيل والترجيح بين كُتَّابِ زمانهم، فأبدى كل واحد منهم رغبته في تفضيل من يرى أنه أحق بذلك ولم يصدق أحد منهم بتبريز «ابن عياش» في ميدان النثر والكتابة، ولهذا طلب البلوي منه رسالتين ليستدل بهما على رسوخ شيخه في فن الكتابة، وسبقه في ميدان النثر ولِيُقِيمَ الحجة على مناوئيه ومُنَافِسِيه.

---

(1) العطاء الجزيل، صفحات متفرقة، 37- 41- 170.

(2) اختصار القدح المعلى، ص: 122- 123.



وكتب عنه وعن صديقه الشيخ أبي القاسم بن حسان[1] الكلبي رسالة في نفس الموضوع، إلى «أبي زيد عبد الرحمن ابن يخلفتن الفازازي»، يطلب منه أن يبعث لهما موشحة من سبعة أبيات بعدما علما بوجودها لديه، وتشوقا إلى الاطلاع عليها ورغبا في اقتنائها.

ولما بلغت الرسالة إلى «أبي زيد الفازازي» أجاب البلوي وصديقه معتذرا عن ذلك برسالة مطولة فما كان من البلوي إلا أن رد عليه برسالة أخرى ملحا في طلب الموشحة، ويبدو من خلال هذه الرسالة، أن البلوي كان معتزا بصديقه مفضلا إياه معترفا ببَرَاعَتِهِ في البلاغة والبيان مميزا له عن باقي كتاب عصره؛ ومن ثم فقد أتت الرسالة مشحونة بأوصاف دقيقة لشخصية الفازازي الأدبية.

❖ **الإسعاف:**

كتب البلوي في هذا الشأن رسالة عن الفقيه «أبي الحسين همام» إلى «أبي محمد بن الخليفة المنصور». وهو بعد مقدمته التقليدية التي يفتتحُ بهَا رَسَائله وبَعْد الإطراء المتزايد للمكتوب له، وإبراز ما قدمه «الفقيه» من خدمة للحضرة الإمامية يخلص إلى الغرض المطلوب، حيث يفصح بأنه يتضَرَّعُ إلى أبي محمد بأن ينعم على الفقيه المذكور بمكان لم يذكر اسمه في قرية من القرى القريبة من إشبيلية، وأن يتركه يستفيدُ منه ورغبته في ذلك أكيدة وثقته لإسعاف مولاه إياه سديدة، ويختم البلوي رسالته هذه بالسلام على الحضرة.

❖ **الاستدعاء:**

كتب البلوي رسالة إلى الشيخ القاضي العالم «أبي حفصٍ عمر السلمي» يطلب لقاءه ليستشير معه في بعض أموره، ويسترشد برأيه ويستهدي بحسن بصيرته. ولعل

(1) التكملة، 1/ 116، الذيل والتكملة، 1/ 1- 86.



البلوي كما يظهر من سياق الرسالة، كان قد عرض له مشكل طارئ فأراد أن يعرف رأي صديقه وشيخه في هذا المشكل الذي استعصى عليه حله وحده. وهو يطلب من هذا الشيخ تعجيل اللقاء إذ كان البلوي على أهبة السفر أثناء كتابة الرسالة.

وكتب البلوي في نفس الغرض رسالة عن الشيخ «أبي زكرياء ابن أبي الربيع» إلى الشيخ «أبي العباس بن أبي الغمر»، بمناسبة يوم عنصرة يستدعيه فيها لحضور الحفل البهيج الذي يقيمه أهل إشبيلية على الوادي الكبير. وفيها يخبر الشيخ أبو زكرياء صديقه بخروج الناس إلى شاطئ الوادي الكبير للمؤانسة، والاستمتاع بمشاهده الخلابة وأجوائه الساحرة التي تجمع بين طرفي نقيض، طرف الجد وطرف الهزل، فمن الناس من يقصد شاطئ الوادي للاستشفاء، ومنهم من يأتيه للتأمل والعبرة، ومنهم من يقصده لحضور مجالس اللهو. وهو يغري صديقه بالحضور إلى الوادي لكي يشاركه بهجته، خصوصا وأنه يعلم امتلاكه لقبة مشهورة، تقوم على أساس المسرة وتفوق قصري الخَوْرَنْقِ والسَّدِيرِ في حُسْنِهَا وبَهَائِهَا.

❖ **العتاب:**

كتب البلوي في هذا الغرض رسالة جوابية إلى صديق، كان قد بعث له يلومه اعتمادا على تَقَوُّلِ بعض الوشاة. وقد حاول البلوي أن يبرئ نفسه من الاتهام الذي وجهه إليه صديقه، مبينا أن الوشاة أرادوا تفريقهما وأن العداة حاولوا تمزيق حبل الصداقة المبرم بينهما، ثم يدعو صديقه إلى عدم الإصغاء لتلك الأقوال الكاذبة فما هي إلا أقوال زور وبهتان، كما يلتمس منه الرجوع عن رأيه الذي بناه على أحكام خاطئة. ويهب به أن يدرك أن ولاءه وإخلاصه لا يفسدهما الباطل، وأن وده لا تغيره الشوائب ولا تطرأ عليه النوائب. وقد مزج البلوي في أسلوبه بين العتاب الخفيف والسخرية المغلفة، وذلك لأنه كان يقدر صديقه الذي بعث له هذه الرسالة.

ثم كتب رسالة ثانية يعاتب فيها عشيرته وأقرباءه بأنهم لم يكاتبوه منذ مدة طويلة، وقد صدرت منه إليهم مخاطبات متكررة ومراسلات متعددة، فما أجابوه «ولا سروا





عنه كربته بالرغم من أنهم يعلمون بغربته». ويظهر من سياق الرسالة أن البلوي كتبها لأهله من الصحراء المغربية، وأنه كان يشعر هناك بالوحدة والانفراد، كما كان يَشْعُر بالغربة والانقطاع، ولذلك فهو يعبر عن اشتياقه لوطنه وأهله وتطلعه إلى مراسلاتهم التي كانت تسري عن حزنه ووحدته. والبلوي بالرغم من عتابه العنيف لأقربائه، فإنه قد بين لهم أن وُدَّهُ ثابتٌ راسخٌ، مستشهدا بقول الشاعر:

إِذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ

ثم كتب رسالة أخرى يجيب فيها صديقا له عاتبه على بعض كلامه، حيث يخبره بوصول كتابه الذي تلقاه تلقي المحب المكرم وتعلق بشكر أغراضه الجميلة، ثم يبرز له أن وده مرصوص البناء وأن ثناءه على معارفه لا يغيره تقادم الزمان أو بعد المكان، كما يذكر له أنه ندم على مخاطبته بشيء من الدعابة والهزل في الكتابة، ولم يدرك أنه يتألم لأدنى سبب يخاله قادحا في عود الصفاء بينهما، ويختم الرسالة بطمأنة صديقه الذي يدعوه إلى وجوب المحافظة على الصداقة التي تجمع بينهما، والتي يجب أن لا تنفصم عراها أو تنفصل.

ثم كتب رسالة أخرى لصديق له، يتبين من خلال سياقها أنه يضمر له ودا وحبا بالرغم من محاولة الأعداء التفريق بينهما وبالرغم من بعدهما ونزوح شخصيهما، فالإخلاص لصديقه ثابت في قلبه راسخ في اعتقاده، لكنه مع ذلك يعاتبه على سفره دون إخباره فلم يقض ما عليه من واجب بتوديعه ومصافحته.

ويكتب رسالة أخرى يعاتب فيها شخصا اسمه أبو عبد الله، كان قد شارك الكُتَّابَ في مهمتهم فَأَبى إلا أن يَشْمَخ بأنفه ويزهو بنفسه؛ فكاتبه البلوي محاولا أن يحد من شموخه هذا، وأن يرده إلى أصله داعيا إياه بأن يتواضع في سلوكه وأن يلتزم بأدَبِ المكاتبة.

وكتب رسالة إلى صديقه أبي عبد الله بن مَهِيب[1]، الذي كان قد خاطبه برسالة تبين له من خلال فصولها أنه يعنفه، ولم يكن سبب ذلك سوى تأوله لألْفَاظٍ صدرت عن

(1) التكملة 2/ 658، الإحاطة 2/ 418.



البلوي في رسالة سابقة كان قد بعثها له. وهو يبين لصديقه أنه كان من الواجب عليه أن يأخذ تلك الألفاظ على محملها الأصلي، وأن يَحْمِلَ المَعَانِي عَلَى دَلَالَتِهَا الأصلية؛ لأنه يعلم مقدار حبه له، وتقديره إياه، ويدرك أنه ينزهه عن الشيم التي لا تليق به، ويعتقد كل الاعتقاد أنه الصديق حقا ولكن ظنه خاب فيه حينما جاهره بالحرب الكلامية، فأبى أن يكيل له من صاعه مُفَضِّلاً تحملَ ما صَدَر عَنْ صَدِيقِهِ في حَقِّهِ من لَوْمٍ وَعِتَابٍ، والرسالة مؤرخة بـ سنة 603هـ.

❖ **التعازي:**

كتب البلوي في هذا الغرض رسائل متنوعة، وأول رسالة عثرنا عليها في «العطاء الجزيل» هي التي كتبها في تعزية أبي إبراهيم بن الناصر[1]. وفيها يذكر ما أصاب الناس من حزنٍ على فقده وتفجع على موته وتأثر لفقدانه، غير أنه إذا كانت الموت غاية كل حي، فإنه من واجب اللبيب الأريب أن يتسلح على ذلك بالصبر والسلوان.

أما الرسالة الثانية فقد كتبها عن وَالِي إشبيلية «إبراهيم»، يعزي الحضرة الإمامية في القائد ابن مُثنى الذي كانت له خدمةٌ مشكورة في ظل الدولة الموحدية وسوابق كريمة في عهدها، وهو يبرز حزنه الشديد على فقده وتأثره العميق لمفارقته.

وبعد وفاة سيده «أبي إسحاق إبراهيم الأحول»، كتب البلوي نيابة عن ولده عثمان رسالة إلى الحضرة الإمامية، يخبرها فيها بتاريخ وفاته، ويعرفها بما حدث وذلك بُعَيْدَ انفضاض الناس من دفنه. ويبدو من خلال الرسالة أن ابن الفقيد كان يتطلع إلى خلافة والده على ولاية إشبيلية، يتجلى ذلك من خلال أسلوب الإطراء المتزايد الذي حلى به الخليفة، والأوصاف التي منحه إياها وعبارات الشكر التي عَبَّرَ بها.

وقد بعث «عثمان» السالف الذكر في نفس الوقت رسالة إلى الشيخ أبي سعيد يخبره بوفاة والده إبراهيم، الذي كانت تربطه به رابطة قوية من الود والصداقة

(1) البيان المغرب، ص: 266.





والإخلاص، معلما إياه بأنه سيسير على سنن أبيه في المُوَالَاةِ للحضرة والاعتماد على أوامرها العلية. وكتب البلوي رسالة إلى صديقه أبي مروان الباجي يعزيه في وفاة أخيه أبي عبد الله[1]، وقد افتتحها بقصيدة طويلة عبر فيها عن وفائه لِلْمُعَزَّى وتَأَسُّفِهِ وحَسْرَتِه على المُتَوَفَّى؛ مذكرا بالمصائب الدنيوية التي تحل بالناس، ومعلما بأن مآل كل حي إلى فناء وأن الدنيا لا تهب إلا ريثما تأخذ ولا تَسُرُّ إلا ريثما تُحْزِن؛ ولذلك فعلى الإنسان أن يتسلح بالصبر والتقوى للتغلب على كوارث الدهر ومصائب الزمان.

ثم كتب البلوي بعد ذلك فصلا من تعزية السيد «أبي موسى» في وفاة ولده «أبي محمد». وقد استهل البلوي الرسالة بأبيات شعرية، مدح فيها «أبا موسى» ثم تعرض لمَنَاقِبِ الميِّتِ الذي كان يتمتع بخصال حميدة، جعلت ذكره بين الناس مشهورا وأمره مذكورا، مما دفعهم إلى إسالة الدموع عليه حسرة وأسى، بحيث لم يطيقوا صبراً على فقده، ولم يُعَزِّهِمْ فيه سوى ما رأوه من وفاة سيد الأنام محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولعل أهم الرسائل التي كتبها البلوي في هذا الغرض هي التي صدرت عنه في حق ولي نعمته، أبي إسحاق إبراهيم الذي كان قد توفي سنة 612هـ. وقد خلد البلوي ذكره بمجموعة هامة من رسائل التعزية، عبر فيها عن حزنه العميق ولوعته الشديدة التي اعترته بعد فقدانه فقد كان له خير سند ومعين؛ وبفقده فقد كل شيء فأضحت حياته مضطربة بعد أن كانت مستقرة بجانبه.

❖ الوصف:

يَذْكُرُ البلوي أن أول رسالة كتبها في حياته هي هذه وكان ذلك سنة 594هـ حيث لم يتجاوز عمره الثامنة عشرة، وقد كتبها في وصف مجلس ضمه مع أصدقائه وكان قد حضر فيه شيخه وأستاذه أبو عبد الله ابن عيّاش[2]؛ كاتب الخلافة الموحدية.

(1) الذيل والتكملة 5/ 2-686.
(2) المصدر السابق، 6/ 384.



وهو يصف في هذه الرسالة كُلَّ ما دار في هذا المجلس الرائع الذي كان قد أقيم بجانب كنيسة الماء، كما يصف المكان الذي يتميز بعذوبة مائه وصفاء هوائه، ثم يعرج على وصف ما دار في هذا المجلس من أكل وشراب؛ ويخلص بعد ذلك إلى الحديث عما جَرَى بين الإخوان من حوار كان واسطة العقد فيه «ابن عياش» الذي كان يجاذبُهم بحديث عذب كشهدِ النَّحْلِ، ويلقي عليهم من بديع كلامه شعرا ونثرا ما هو كالسحر أو أدق؛ ولقد رام البلوي تشبيهه فما وجد له شبيها ولا مثيلا. ثم يخلص إلى وصف كنيسة الماء وبروجها المرتفعة التي تطاول السماء، وحصونها الدالة على علوها وشُمُوخِهَا مما جعلها تقف أمام الأعداء صامدة، فلم تتناولها يد الخطوب ولا طمع فيها أي واحد ممن أشعل نار الفتنة والحروب.

أما الرسالة الثانية التي كتبها في هذا الغرض فهي التي يصف فيها رمانة، وقد أنشأها البلوي بتكليف من شيخه ابن عياش بمحضر جماعة من أصدقائه، وهي من الرسائل المرتجلة مما يدل على قدرة البلوي وتمكنه من فن القول؛ ولعل أستاذه ابن عَيَّاش كان يمرنه على ذلك حتى يتمكن من ولوج باب الكتابة الرسمية.

وقد أجاد البلوي - وهو بعد صغير السن - في وصف هذ الفاكهة الطيبة، التي كانت بساتين الأندلس عامة وإشبيلية خاصة تزخر بها. وقد شبهها البلوي تشبيهات دقيقة فهي كحق بلور مملوء بياقوت، أو نهود عذارى لونها لون المرجان الأحمر؛ وهي قد غذيت بنمير الماء وربيت بنبيه الهواء. ثم يختم الرسالة بقصيدة شعرية في وصف الرمانة نفسها. وقد جمع البلوي في رسالته الوصفية بين الشعر والنثر مما يؤكد قدرته على الإبداع في الفنين معا.

وآخر رسالة له في هذا الغرض هي التي أنشأها في وصف حال فقيه من قراء كتاب الله، أصابه ضِيقٍ وضُرّ بسبب وجوده في مكان أهله ضعاف الدخل، لا يستطيعون دفع مرتبه. وقد شرح البلوي - بطريقة دقيقة - حال هذا الفقيه الذي يملك قدرة فائقة على إقراء القرآن الكريم وتجويده، ولكنه قد يتخلى عن ذلك بسبب قلة ذات يده.



ويلتمس البلوي من الخليفة الموحدي أن يساعده على الاستمرار في مهمته ووظيفته، وأن يخصص له مرتباً يعول به أبناءه ويسد له حاجاته.

تلك هي رسائل البلوي في جانبيها الرسمي والإخواني، وهي تتميز بتنوع موضوعاتها ومزجها بين السجع والكلام المرسل الخالي من الصور البلاغية. غير أن ما تتميز به تلك الرسائل، هو التعبير عن الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تسود الأندلس في مراحل تاريخية متعددة.

❖ **مؤلفات البلوي:**

كانت ثقافة البلوي متنوعة المشارب متعددة النواحي، غير أنه اشتهر بتفوقه في علمي الحساب والهندسة باعتبارهما العِلْمَانِ اللَّذان يُستخدمان في عَقْدِ الشروط، وقد كان البلوي مُبرِّزاً في هذا الجانب، وكان قد أخذ هذه الفنون عن أخيه الأكبر أبي الحسن علي[1]، كما أخذ عنه غير ذلك من العلوم، فاشتهر البلوي بالأدب وما يتصل به من عروض وقوافي، ولم يذكر كل الذين ترجموا له أو تحدثوا عنه شيئا من مؤلفاته في النوع الأول من العلوم التي كان قد اشتهر بها، غير أنهم ذكروا بعض مؤلفاته في النوع الثاني وهي:

1- مختصر في العروض سماه «المقطوف من تدقيق الميزان لعلم العروض والأوزان»[2].

2- مطول في العروض سماه «المعطوف من تحقيق العيان للفرش والمثال في غاية البيان»[3]، وقد ذكر البلوي أنه قصد بكتابه الأول فتح الباب للطلاب في هذا العلم، وأنه قصد بالثاني تمكين الأفهام وتحقيق الأحكام لمن أراد أن يتقن هذا الفن.

(1) صلة الصلة، ص: 130، برنامج شيوخ الرعيني، ص: 112، الذيل والتكملة 5/ 1- 310.
(2) الذيل والتكملة 1/ 22- 456.
(3) المصدر السابق.



3- وبما أن كل مُؤَلِّفٍ في علم العروض لا بد له أن يشير إلى علم القوافي، فقد ألف البلوي في هذا الجانب كتابا سماه «المقتضب في القوافي»[1]. اقتداء بهؤلاء المؤلفين وسيرا على منهاجهم.

4- ثم ألف البلوي مختصرا آخر في العروض سماه «عمدة الاقتصار وزبدة الاختصار». وكان البلوي قد ألف هذه الكتب العروضية جميعها تلبية لرغبة رئيس الطلبة أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن العراقي[2]. وذلك في عهد الخليفة المعتضد الموحدي.

5- ويبدو أن البلوي كان قد شرع في أواخر حياته في تأليف كتاب أدبي هام، انتقى فيه الأشعار واختارها بحسب فنونها سماه «روض الأديب والمنزه العجيب» وكان يقصد أن يضاهي به كتاب «الحماسة المغربية» لأبي العباس الجراوي، غير أنه لم يكمل منه إلا نحو الثلث فعجز لكبر سنه عن إتمامه.

6- ونظم البلوي في صغر سنه مربَّعَاتٍ بديعة، أكبرها تشتمل على ثلاثة وعشرين مربعا عرضا، وثمانية وعشرين طولا يتخرج منها نظم ونثر وموشحة وزجل، وكان قد خاطب بها جَمِيعَهَا صديقه أبا بكر محمد بن مفضل بن مهيب اللخمي[3].

7- كتابه في فن الترسل الذي جمع فيه نثر طائفة هامة من الكتاب المشارقة والأندلسيين من مُعَاصِرِيهِ وغيرهم. وهو الكتاب الذي نقوم بدراسته وتحقيقه.



(1) نفسه.
(2) البيان المغرب، ص: 370- 371، «مزوار الطلبة» في عهد المعتضد.
(3) الإحاطة 2/ 418.



العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل

❖ اسم الكتاب:

يذكر البلوي أنه كان قد أطلق في بداية الأمر على كتابه اسم «تشبيب الإبريز والمزيد الأحق بالتبريز على ما جاء من الترسيل في كتاب ابن غمر المسمى بالوجيز»[1]. ونحن نستشف من هذا الاسم أن مُؤَلِّفَهُ ذَيَّلَ به كتاب «ابن غَمْر» وأنه لم يورد فيه من الرسائل ما ورد في كتابه تفاديا للتكرار، وتجنبا لإعادة ما ليس من حقه أن يعاد. ولا شك أنه بعمله هذا يكون قد وفى بالشرط الذي ذكره في صدر الكتاب[2].

ثم ذكر البَلَوي أنه عندما انتهى من تأليفه واكتمل بين يديه، رأى أنه قد فتح بابا جديدا في صنعة الترسل وأنه وَضَعَهُ لطلاب هذا الفن يستنيرون به ويسترشدون، فزاده درجة في التفضيل فسماه «العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل»[3]. وعلى هذا الأساس يكون لكتاب البلوي اسمان، وقد شبهه مؤلفه باختياره له هذين الاسمين بالثوب الذي يطرزه صاحبه برسمين[4].

❖ بواعث تأليفه:

يقول ابن عبد الملك المراكشي[5] أن البلوي جمع كتابه في الترسيل باقتراح من محمد بن عبد الرحمن بن سهيل القضاعي؛ وحينما أتمه رفعه إليه فأثابه عليه بمال جسيمٍ وأثواب فاخرة. أما البلوي فيصرحُ أنه ابتدأ جمعه في شعبان سنة 610هـ، وختمه في شعبان سنة 613هـ، ولم يكن اشتغاله فيه خلال المدة المذكورة متصلا بل

---

(1) الذيل والتكملة 1/ 1-455.

(2) انظر عنه مقال الدكتور محمد بن شريفة في مجلة الأكاديمية.

(3) العطاء الجزيل، ص: 381.

(4) المصدر السابق، ص:381.

(5) الذيل والتكملة1/ 2-455، و6/ 359.



كان مقطعا منفصلا، بسبب السفر والاغتراب أحيانا، أو بسبب ملل أو هم شاغل أو كسل أحيانا أخرى، ثم يذكر أن معظم ما في هذا الكتاب كان قد جمعه في الثمانية عشر شهرا التي استخدمه فيها أبو إسحاق إبراهيم[1] كاتبا بإشبيلية، وحين علم بشروعه في هذا المجموع قوي عزمه على إنهائه وتأكد سعيه في إخراجه وإتمامه، غير أن القدر لم يمهله حتى يرى الكتاب قد أنجز، حيث توفي قبل أن ينهي البلوي كتابه.

وحينما علم الفقيه الطبيب الأديب أبو إسحاق ابن الحجر[2] بخبر تأليفه للكتاب، وقع منه موقعا حسنا فحثه على إتمامه ووظف له ناسخا يستخرج منه كل جزء اكتمل. ويرى الدكتور إحسان عباس بناء على ما أورده ابن عبد الملك من خبر أن الكتاب قد مر بمرحلتين، فقد يكون البلوي كتبه أولا «لأبي إسحاق ابن الحجر» ثم صنع منه نسخة «لابن سهيل» أو العكس، وأرى أن هذا الاستنتاج قد يكون فيه بعض التمحل، فقد يكون البلوي شرع في تأليف كتابه باقتراح من ابن سهيل فعلا، و حينما أنجزه قدم له نسخة منه ثم قدم نسخة أخرى لابن الحجر فأجازه عليه وأثابه كما ذكرنا.

❖ منهجه ومصادره:

لم يذكر البلوي شيئا من منهجه ومصادره في النسخة التي بين أيدينا، ولعله يكون قد فعل ذلك في الجزء الأول، إذ عادة المؤلفين أن يذكروا شيئا من هذا القبيل في مقدمة مؤلفاتهم. وبما أن القسم الأول ضائع فإننا سنعتمد على تحديد شيء من ذلك بواسطة القراءة المتأنية التي قمنا بها للكتاب.

أما من حيث المنهج فإن البلوي قد بنى اختياراته التي أوردها في الكتاب على اعتبارين:

1 - اعتبار زمني. 2 - اعتبار فني.

---

(1) العطاء الجزيل، ص:379.
(2) المصدر السابق، ص:380.



أما من حيث الاعتبار الزماني، فإنه يبدأ الأبواب كلها بمختارات للأقدم زمانا فالذي يليه، ويفتتح كل باب بذكر رجاله أولا ثم يشرع في الاختيار مبتدئا بالكُتَّابِ المشارقة ثم الأندلسيين، ويختم كل باب بجملة من رسائله. وقد اختار لنفسه منها مجموعة هامة لم نعثر عليها في مصدر آخر، مما يجعلنا نطمئن إلى أن دارس النثر في عصر الموحدين عامة ونثر البلوي خاصة لا يمكنه أن يستغني عن هذ الكتاب.

أما الاعتبار الفني، فيبدو من خلال الرسائل المختارة التي قدم البلوي من خلالها صورة حقيقية عن الأساليب الرفيعة التي تزخر بها الآداب العربية في المشرق والمغرب، وكذلك من خلال أعلام الكتابة الفنية الذين اختار لهم، حيث استقطب الكِتَابُ جملةً هائلة من الكُتَّابِ المشهورين في المشرق والمغرب، الذين ذاع صيتهم وانتشرت رسائلهم وكتاباتهم بين الناس.

أما المصادر التي اعتمد عليها فإنه أشار إلى شيء من ذلك في خاتمة الكتاب، حيث ذكر أن أبا إسحاق إبراهيم كان قد أخرج له من خزانته «جملة من الرسائل الكبائر المذخورة عنده في الأعلاق والذخائر وأمره بإيرادها في أثناء أبواب الكتاب، حتى تحل الفرائد منها محل القلوب من الضلوع والأحناء»[1].

ولا شك أن الرسائل التي دفعها له والي إشبيلية كانت متعلقة بالمكاتبات الرسمية؛ أما الرسائل الإخوانية فقد اعتمد فيها على مراسلاته لأصدقائه، حيث كان يطلب منهم أن يزودوه بما لديهم من مكاتبات حتى يتمكن من إدراجها في كتابه، كما كان يستعير منهم المؤلفات التي تعينه على تحقيق ما يلبي رغبته في هذا المجال، كما عبر عن ذلك هو نفسه. ومِمَّا يُفِيدُنَا على أن البلوي اعتمد على بعض المصادر المشرقية التي كانت بين يديه ما أورده في الكتاب من رسائل لعبد الحميد الكاتب، تلك الرسائل التي لم ترد في مصدر آخر، وهَذَا يدل أيضا على أن البلوي كان يملك نسخة

---

(1) العطاء الجزيل، ص: 380.





من رسائل عبد الحميد وأنه اعتمد عليها، كما اعتمد على شرح مقامات أبي القاسم الحريري للشريشي، وكتاب الذخيرة لابن بسام، ومجموع رسائل صفوان بن إدريس، وغير ذلك من مجاميع الرسائل والمصنفات الأدبية المشرقية والأندلسية، التي كانت تزخر بها مكتبته أو مكتبات أصدقائه الذين كان لا يتحاشى أن يستعير منهم كتبا للاستفادة منها والاعتماد عليها في تحرير مؤلفه.

❖ **وصف النسخة الخطية:**

النسخة الوحيدة التي نعرفها لهذا الكتاب هي المحفوظة بالخزانة الحسنية بالرباط، وتحمل رقم 6148، ويقع الكتاب في 172 لوحة وهي مرقمة ترقيما حديثا يضاف إليها 23 صفحة أخرى وهي «الزوائد»، التي ألحقها المؤلف بأبواب الكتاب. وبذلك يصل مجموع لوحات النسخة إلى 205، وفي كل صفحة 31 شطرا، ومعدل الكلمات في السطر الواحد 15 كلمة. والنسخة مكتوبة بخط أندلسي دقيق حسن الضبط، ولكن الخط يتغير ويختلف في الصفحات: 81 إلى 98.

ولعل ما في هذه الأوراق كان قد رمم من قبل أحدهم، مما يدل أن للكتاب نسخة ثانية اعْتُمِدَ عليها في هذا المجال غير أنها محجوبة عنا اليوم، كما أننا لا نستطيع تحديد الزمن الذي تمت فيه عملية الترميم.

والكتاب مقسم على أبواب النثر، ويبدأ الباقي منه بالباب الخامس عشر ومعنى ذلك أنه قد ضاع منه 14 بابا، لعلها تكون الجزء الأول أو الجزأين الأولين من الكتاب.

أما الأبواب الباقية فهي:

1- **الباب الخامس عشر:**

- في الإهداء والاتحاف والاستزارة والاستجداء والاعتذار والإسعاف.

2- **الباب السادس عشر:**

- في العتابِ والتَّقْرِيعِ والذم والتشنيع.



3- **الباب السابع عشر:**

- في التعازي في أنواع المصائب والتفجع عند النوائب.

4- **الباب الثامن عشر:**

- في الأوصاف.

5- **الباب التاسع عشر:**

- في الهزل والمُدَاعبة والتهكم في المكاتبة.

6- **الباب الموفي عشرين.**

- في العيون من سائر الفنون[1].

ثم يلي هذه الأبواب قسم خاص بالزوائد التي تلحق بأبواب الكتاب وهي خاصة برسائل موحدية، وهي كلها رسائل جديدة لم ترد في مصدر آخر من المصادر التي بين أيدينا، سوى رسالة واحدة وردت في المجموع الذي نشره ليڤي بروڤنسال[2].



(1) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 12.

(2) مجموع رسائل موحدية، تحقيق ليفي برفنسال، ص: 85.



مضمون الكتاب: محاولة للتحليل

لم يحتفظ لنا الزمن من كتاب أبي القاسم سوى بجزئه الثاني الذي يبتدئ من الباب الخامس عشر، وينتهي بالباب الموفى عشرين، الذي ألحق به بابا آخر عنونه المؤلف «بباب الزوائد»، جمع فيه مجموعة من الرسائل الموحدية خاصة، وهي من الرسائل المتعلقة بالفتوحات التي وقعت في زمنهم والإخبار بها، وهي موجهة إلى بعض الطلبة والأعيان والشيوخ والعامة سواء في المغرب أو في الأندلس.

ويستهل البلوي أبواب الكتاب بذكر الكُتَّابِ أولا وتعداد أسمائهم، ثم يشرع في اختيار رسائلهم وتلك عادته في جميع أبواب الكتاب. وليس في الكتاب ما يدل على منهج المؤلف في الاختيار، غير أن قارئه يلاحظ أنه يقتصر في كل باب على أعلامه من المشرق والأندلس، معتمدا في ذلك على الترتيب الزمني أولا فهو يبدأ بالأقدم فالذي يليه، كما يلاحظ أنه يسلك في هذا الترتيب مسلكا فنيا معتمدا فيه على أهمية الرسالة شكلا ومضمونا.

وسنحاول من خلال قراءتنا للكتاب، أن نقدم نظرة موجزة عنه وعن مضامينه مقسمين الرسائل التي أوردها في كل باب إلى قسمين:

1- الرسائل المشرقية.

2- الرسائل الأندلسية.

- **الباب الخامس عشر:**

❖ الرسائل المشرقية:

افتتح البلوي هذا الباب بفصل من رسالة للحسن ابن وهب، يطلب فيها من أحد أصدقائه أن يكاتبه ويزوده بما لديه من خطاب أو جواب أو مكاتبة. ثم أعقبها برسالة أخرى يعتذر فيها لأحد أصدقائه عن تخلفه من المجيء إليه، وهذا الاعتذار ناشئ من كونه لا يريد أن يكلف صاحبه ما لا طاقة له به.



ثم أورد رسالتين لأبي القاسم الهمذاني صاحب المقامات، الأولى يطلب فيها من صديق له أن يجود عليه بمال كان في حاجة إليه، والثانية أجاب فيها صديقا له كان قد وبخه وعنفه فأَلَانَ لَهُ جانبه لأنه يتصف بالحلم والصبر، ويأمر صاحبه في ختامها بأن يتلطف في طلب حوائجه حتى تُقضى له.

ويختار بعد ذلك رسالة «لأبي الفتح ابن العميد»، يطلب فيها من أحدهم أن يزوده بالمدام في ليلة كان قد انتظم فيها مع أصحابه انتظام الثريا في السماء، ويدعوه أن يُعَجِّلَ بذلك وإلا أصبحت حاله كحال «بنات نعش» في التفرقة والابتعاد؛ والذي يلفت النظر في هذه الرسالة أن والد أبي الفتح وهو «ابن العميد» الكاتب المشهور، حينما علم بالأمر وقرأ الرسالة التي كتبها ولده سر بها ووقع له بمال كثير[1].

ثم ينتقل بعد ذلك إلى اختيار رسالة لأبي إسحاق النيجرمي يصف قلما كان قد أهداه إلى صديق له يسمى أبو عمران ابن رياح، وقبل أن يدفع بالهدية إلى صاحبها أطنب الكاتب في وصف القلم المهدى، معتبرا إياه من الرسائل التي تجلب إلى الناس حِكَمَ الأولين ومشبها إياه تشبيهات دقيقة، وهو بإدراكه أن القلم وسيلة يجب أن تكون لدى الكاتب الممارس الفذ، وبما أن صديقه يتحلى بهذه الصفة فقد آثره به وفضله على نفسه، لأنه يدرك تمام الإدراك أن هذا القلم إن أهداه إلى صديقه، عاد إلى مَعْدِنِهِ كما يعود الدر إلى البحر أو الصدف المصقول إلى النحر.

❖ الرسائل الأندلسية:

اختار البلوي لمجموعة هائلة من الكتاب الأندلسيين في هذا الباب، ويفتتحه بالكاتب المشهور أبي حفص ابن برد الأصغر[2]. حيث يختار له ثلاث رسائل في موضوع واحد:

---

(1) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر 3/ 132.
(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1/ 1-486.



- **الأولى**: في الاستزارة حيث يطلب من أحدهم أنْ يُقْدِمَ عليه في يوم كان قد اجتمع فيه مع أصدقائه يتنادمون ويستمعون للغناء والطرب.

- **والثانية**: تسير في نفس الاتجاه السابق حيث يطلب من أحد أصدقائه (أو صديقاته) أن يزوره بالليل، لأنه أخفى للزائر والمزور معا.

- **وأما الثالثة**: فيطلب فيها من صديق له أن يلتحق به إلى مجلس الأنس الذي عقده مع أصدقائه، وهو مجلس يتصف بالمرح والسرور ويتمتع فيه ابن برد وأصدقاؤه بالخمر والغناء، وهو مجلس يؤنس الموحش ويُطَيِّبُ نَفْسَ المهموم.

ثم يختار البلوي لأبي الوليد الحميري[1] فصلين من رسالتين، الأولى في وصف فصل الربيع وفيه يقدمُ الحميري تشبيهات دقيقة وأوصافا بديعة للزهور والرياحين. وأما الفصل الثاني فيجمع فيه بين الوصف لنور الربيع وطيب جوه، وبين طلب من أحد أصدقائه للحاق به من أجل تجديد أيام الأنس التي ذهبت وولت، تلك الأيام التي لا يروق مجتلاها إلا في جو الربيع.

ثم اختار رسالة لأحمد بن محمد بن حجاج بعثها لصديق عزيز عليه يذكره فيها بمحبته له، ويطلب منه أن يقبل هديته التي بعثها له مصاحبة مع تلك الرسالة.

ويختار لأبي محمد عبد الغفور رسالة وفصلا منها، وهو يُذَكِّرُ فيها صديقه بالهدية التي بعثها له ويعتبرها ليست بذات قيمة، ولكنها باعتبارها وردت من صديق ودود فإنه لا شك يتمنى أن يقتنيها ويدخرها، ثم يفصح بعد ذلك عن الهدية وهي عبارة عن قدر من السفرجل. وفي أثناء الرسالة وصف دقيق لهذا النوع من الفاكهة التي بعثت لهذا الصديق، ويختم الرسالة بالتعبير عن الود والصداقة التي تربطه بصاحبه ويتمنى له المزيد من التقدم والنُّضْرة والجمال.

---

(1) البديع في وصف الربيع، ص: 36-39، والذخيرة 2/ 1-125.



ثم يورد البلوي رسالة «لأبي عبد الرحمن بن طاهر» وهو يعتذر فيها لأبي بكر بن عبد العزيز الذي كان قد زف ابنته إلى المستعين بالله، ويذكر أنه لم يتمكن من حضور الزفاف لأسباب قاهرة، ولكنه مع ذلك يذكر صاحبه بمقدار فرحته وسعادته بهذا النبأ، الذي سرى في نفسه سريان الماء الزلال في الأرض القاحلة، ويتمنى في الختام أن يقبل منه عذره.

وبعد ذلك يختار لأبي المطرف ابن الدباغ ثلاث رسائل:

- **الأولى**: يطلب فيها من صديق أن يبعث له خمرا، حيث لم يجدها في محلات الشراء وهو يَعْلَمُ أن صديقه يملك منها قدرا غير يسير، ولذلك فهو يطلب منه أن يهديه شيئا منها شاكرا إياه في ختام الرسالة.

- **أما الثانية**: فهي استدعاء لأحد أصدقائه إلى حضور مجلس أنس، وخلال الرسالة وصف دقيق لذلك المجلس، الذي جمع بين الأصدقاء الذين يتمتعون بالسماع للغناء وبتعاطي شرب الراح.

- **والثالثة**: في نفس الغرض السابق، حيث يفتتحها بوصف اليوم الذي اجتمع فيه الأصدقاء يتنادمون ويستمعون للغناء، ويلتمس من صديق له أن يحضر حتى تكتمل مسرة إخوانه بطلوعه عليهم، وهو عادة ما يثني على أولئك الذين يستدعيهم ويصف حالتهم النفسية.

ثم يورد لابن السقاط[1] رسالتين:

- **الأولى**: في وصف فرس كان قد أهداه لأحدهم، وهو يصف خفة الفرس ونشاطه وسرعته مشبها إياه في ضموره بظبي وفي سرعته ببرق ملتهب، ويتمنى لصديقه أن يضمه إلى جياده التي يتخذها للحرب والطعان.

---

(1) قلائد العقيان، ص: 198-199.

– والثانية: يستدعي فيها أحد أصدقائه لمجلس أنس، وهو مجلس قد ضم جملة من الندماء الذين يستمعون إلى الغناء الحجازي، ويتمتعون بمعاقرة الكؤوس من أيادي سقاة كالظباء بهاء وحسنا، ويختمها بدعوة هذا الصديق إلى الحضور لأنه يرى أن أنس أصدقائه لن يكتمل إلا بوصوله.

ثم يختار رسالة لابن حسداي[1] يستدعي فيها «أبا عبد الرحمن بن طاهر» لحفل زفاف المستعين بالله، الذي كان قد تزوج ببنت «أبي بكر بن عبد العزيز». وهو يصف من خلالها المودة التي كانت تربط بين الرجلين بالرغم من بعد المسافة بينهما، كما يأمل أن يحضر صاحبه هذا الحفل البهيج، الذي لن يكتمل إلا بوصوله وحضوره بجانبه. وقد سبق أن علمنا أن ابن طاهر لم يحضر الحفل لأسباب عاقته عن ذلك واعتذر برسالة مطولة.

بعد هذه النماذج التي اختارها البلوي للأندلسيين وهي في أغلبها وعمومها لكُتَّابِ عصر الطوائف المشهورين، ينتقل بصفة مباشرة إلى العصر الموحدي دون أن يورد أي نص لأي كاتب مرابطي، ولعل السبب في ذلك يعود إلى الصراع الذي كان محتدما بين المرابطين والموحدين، منذ المهدي بن تومرت[2] مؤسس الدولة الموحدية إلى آخر حاكم لها، وحتى لا يُغْضِب الكاتب أصدقاءه الموحدين فإنه لم يختر لكتاب المرابطين ولم يورد من رَسَائِلِهِمْ شيئاً ذا بال، اللهم ما أورده من رسائل للفتح بن خاقان والقاضي عياض[3].

أما الكاتب الموحدي الذي افتتح به هذا الباب فهو شيخه «أبو عبد الله محمد بن عياش»، ولعل تقديره لهذا الكاتب وصداقته التي ربطته به، هي التي جعلته يبدأ به مباشرة أضف إلى ذلك أن ابن عياش كان صاحب طريقة خاصة في الكتابة، سلكها من جاء بعده أو من عاصره من الكتاب لاستحسانهم لها[4].

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 3/ 1-457.
(2) أخبار المهدي بن تومرت للبيدق.
(3) التعريف بالقاضي عياض بقلم ولده محمد، تحقيق: الدكتور محمد بن شريفة.
(4) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 264.



والنص الذي أورده البلوي لأستاذه في الإسعاف خال من الافتتاحية التي كان الكتاب الموحدون يبدؤون بها رسائلهم عادة. ولعل البلوي قد أتى بالنص مختصرا فلم يذكر المقدمة التي افتتح بها شيخه هذا النص؛ ويبدو من خلال الرسالة أن الموحدين كانوا يبعثون بالغزاة إلى الأندلس، ثم يطلبون منهم الرجوع إلى وطنهم وحدهم دون الموحدين المقيمين هناك. ومن خلال الرسالة أيضا، يبدو أن الذي كان يكلف بالإشراف على عملية العبور هو مزوار الطلبة(1).

وفي الرسالة توجيه إلى هؤلاء بأن يتغافروا مع الأندلسيين المقيمين بالجزيرة، وأن يعبروا المجاز أو المضيق وهم برآء من الإثم أعرافهم نقية وأجورهم موفورة.

ويختار البلوي لِصَفْوَانَ بن إدريس رسالتين:

- **الأولى**: يصف فيها أنه استعار من صديق له بغلة ليركبها، ثم يصف المركوب وما يتميز به من خفة في السير وسرعة في الحركة.

- **والرسالة الثانية**: في مناقضة الرسالة الأولى.

ثم يورد رسالتين «لأبي زيد عبد الرحمن بن يخلفتن الفازازي»:

- **الأولى**: كتب بها إلى «البلوي» وشيخه أبي القاسم ابن حسان(2)، وهي رسالة كان قد كتبها في زمن شبيبته وتعد من كلامه الأول، ولذلك فهو يعتذر لصديقه على ركاكة معانيها ويدعو صديقه ابن حسان أن يَمْنَحَهَا للبلوي الذي طلبها منه.

- **أما الرسالة الثانية**: فهي جواب عن رسالة كان قد بعث بها إليه البلوي يطلب منه موشحة مكونة من سبعة أبيات؛ وهو يفتتحها بمدح البلوي وأصدقائه واصفا إيَّاهم بالذكاء والفطنة وجودة البلاغة، ومتهما نفسه بالتقصير في النظم والنثر داعيا أصدقاءه إلى الاغضاء عن هذا التقصير(3).

---

(1) البيان المغرب قسم الموحدين، ومزوار الطلبة يعني به رئيسهم.

(2) الذيل والتكملة 1/ 1-86، ترجمة رقم 102.

(3) انظر كتاب«أبو زيد الفازازي» للدكتور عبد الحميد الهرامة.

ثم ينتقل البلوي إلى «أبي بكر ابن مغاور الشاطبي» فيورد له مجموعة هامة من الرسائل، غالبيتها في الهدايا ووصفها أو طلبها. وهو في **الرسالة الأولى** التي اختارها له يطلب بردة من أحد أصدقائه، ولعله أحد السادة العظماء والملوك الأفذاذ الذين ارتبط بهم، ويتمنى أن تكون تلك البردة رائقة المنظر نفيسة تليق بمكانه ومكانته. وهو يعتذر في ختامها؛ فَلَعَلَّهُ يكون قد جشم صديقه مسلكاً صعباً، أو مُرْتَقًى لا قبل له به، ولكنه مع ذلك يأمل أن يبلغ مناه لما يعرفه من صدق مودة صاحبه وحسن نيته وإرادته.

أما الثانية، فيطلب فيها من صديق له أن يزوده بعمامة يكون بها نسيج وحده بين الأنام، وهو يشبهها بمنظر العشيقة في رقتها، وعذوبة نسجها لو رآها «أحيحة بن الجلاح» لطلبها بدلا من عمته التي كان يعتم بها، ولو أوردها عليه تمكن أن ينال الرياسة في قومه.

أما **الرسالة الثالثة** فيطلب فيها من أحد أصدقائه، أن يبحث له عن بعض الأهب (الجلود التي تصنع منها الألبسة) التي تكثر ببلاده، حتى يتمكن من صنع لباس منها. ولا شك أن الجمال الصحراوية التي كانت كثيرة بالمغرب، كانت تستعمل من جلودها وأوبارها ملابس كالبَرَانِس والجلابيب وغيرها، وهي عادة لا تزال إلى يومنا هذا، حيث يعتبر البُرْنُسُ المصنوع من أوبار الجمالِ أحسن البرانس وأتقنها. ويبدو أن المغاربة منذ القديم كانوا يصنعون ملابسهم من أَوْبَارِ جمالهم، ويظهر من الرسالة أنها موجهة من الأندلس إلى المغرب وإن كان الكاتب لم يحدد مكان الإرسال.

وأما **الرسالتان الرابعة والخامسة**؛ فكلتاهما تتحدثان عن رغبة الكاتب في شراء بغلة فارهة، وهو يلح فيها على صديق له أن يبحث له عن صنف جيد من الجياد، ويقتني له واحدة منها وهو يَعِدُهُ بأن يؤدي له الثمن ناجزا دون نقص بعد شرائها، ويشكر صديقه في ختام الرسالة بما طوقه به من فضل وامتنان وإحسان.

وأما **الرسالة السادسة** فهي تتضمن موضوعين: الأول، طلب الكاتب من صديقه أن يبحث له عن جارية تكون صورتها شبيهة بصورة القمر أو بظبية تعطف في خمر،



وتكون قابلة للتعليم ليستْ بالعجوز ولا بالصبية القاصر. أما الموضوع الثاني، فهو طلبه من أحدِ أصدقائه أن يبعث له ثوبا جيدا مِقْدَارُهُ ثلاثون ذراعـًا يصلح لصنع العمائم، وذلك قصد تقديمه هدية لشيخ له كان يُعِزُّهُ وَيُجِلُّهُ ويضعه في منزلة والده، والمبعوث له نفسه كان يعتز بهذا الشيء حيث جاء في خاتمة الرسالة ما يفيد ذلك ويستشف من قوله: «وأنتم لا غرو له أرعى، وإِلَى مَا يَجِبُ لِصِلَتِهِ أَدْعَى»[1].

وأما **الرسالة الأخيرة** فقد كانت جوابا على رسالة أخرى، كان قد بعث له بها صديقه الذي طلب منه شراء فرس له، ويبدو أنه لم يَعْثُر على ذلك النوع الذي وصفه له ابن غيَّاث لأن الأوصاف التي حددها له، والنعوت التي طلب منه أن تكون متوفرة في ذلك النوع من الجياد لم يتمكن صديقه من إيجادها. وهكذا نجد ابن غياثٍ يجيبه برسالة أخرى في نفس الغرض، متنازلا عن تلك الأوصاف ومعتبرا إياها من باب أسلوب الكُتَّاب الذين ينمقون رسائلهم؛ ولكن الواقع الاجتماعي والاقتصادي يقتضي عكس ذلك. وهو يتنازل طالبا من صديقه أن يبحث له عما لا يُسْتَهْجَنُ أو يستكره من الجياد فحسب، دون التدقيق في الأوصاف والنعوت، شاكرا صديقه في الختام على تهممه واعتنائه.

ثم يورد البلوي بعد ذلك رسالتين «لأبي عمر بن حفصون» وهو من أصدقائه كما يبدو من التحلية التي حلاه بها في بداية الرسالة. أما الرسالة الأولى فهي على شكل مقامة بَدْءًا وعرضا وخاتمة، يفتتحها «ابن حفصون» بوصف حالته ودخوله لإشبيلية التي يتعرض لها بوصف دقيق، حيث يعتبرها مصر الأمصار وفلك الأنوار الذي عليه المدار، ويبرز كيف أسست على تقوى من الله ورضوان، ويَذْكُر نهرها الكوثري الذي صفا ماؤه ولذ شرابه فهو يفوق الرافدين «دجلة والفرات» بل ويغيض ملتقى البحرين. وبعد هذا الوصف ينتقل إلى ذكر الأسواق التي زارها والمصنوعات التي

(1) العطاء الجزيل، ص:29.



تشتهر بها؛ وبِتَخَلُّص دقيق ينتقل إلى سوق المطاعم الذي صُففت فيه المأكولات من جميع الأصناف، وزُركشت فيه الأطباق بكل ما لذ وطاب، فوقعت عينه على «المُجَبَّنَةِ» وقبل أن تبوح له بسرها واسمها، يصفها وصفا دقيقا، حيث يشبهها تشبيهات لا يمكن لأي كان أن يتأتى له ذلك إلا إذا كان حاذقا لصناعة الكتابة مبرزا في أسلوب النثر الفني، ويستشهد على ذلك بأبيات شعرية تبرز مقدار حذق ابن حفصون لصناعة الكتابة ودقته في الوصف والتعبير. وينهي الرسالة/ المقامة التي كتبها على شكل حوار، بالتأسف على عدم تمكنه من خطبة العروس المجتلاة «أي المجبنة» لأنه لا يملك عَقْداً على نَقْد، ولكنها وَجَّهَتْهُ كي يستطيع خطبتها باللجوء إلى الوالي الموحدي أبي عبد الرحمن ابن أبي إسحاق[1]، كي يمنحه مالا لشرائها ولقد تم له ذلك فعلا، يستفاد ذلك من خاتمة الرسالة حيث ورد فيها مايلي: «فأعطاه السيد الأجل أبو عبد الرحمن ديناراً ليشتري به ما ذكر»[2].

وبعد أن تمكن من شراء المجبنة واستطاع الوصول لخطبتها بفضل كرم «أبي عبد الرحمن» بعث لهُ رسالة شاكرا إياه، وقد افتتح رسالته بوصف الدينار الذي سلمه إياه معقبا بوصف حالته مع المجبنة، وقارئ الرسالة على عجل لا يستطيع أن يميز هل كان الكاتب يصف مجبنة أم يصف امرأة، فقد كانت متمنعة ثم أسلست له القياد بعد أن أقرت بذنبها واعترفت بأنها كانت مخطئة في تمنعها، فبذلت له ما كانت قد أخفته وأخذ في ارتشاف لعسها في الظلام حتى قضى أَرَبَهُ منها وبرد ظمأه من طيب مراشفها. وتلك الأوصاف التي منحها الكاتب للمجبنة تنطبق تمام الانطباق على المرأة. ثم يختم الرسالة بمدحه «لأبي عبد الرحمن» الذي جاد عليه بما لم يَجُد به عليه أحد، وهو مدح يتسم بتملق شديد واستعطاف ينم عن تَوَدُّدٍ مُبَالَغٍ فيه، غير صَادِرٍ عن عاطفة صادقة.

ويختم البلوي هذا الباب بنماذج من رسائله التي تحدثنا عنها أثناء تعرضنا لنثره.

---

(1) العطاء الجزيل، ص:30.

(2) المصدر السابق، ص:33.



- **الباب السادس عشر:**

❖ الرسائل المشرقية:

يفتتح البلوي هذا الباب برسالة لعلي بن الحسين[1]، بعثها جوابـاً عن رسالة أخرى كان قد بعثها له أحدهم يُعَنِّفُه فيها لكونه تزوج إحدى مواليه، وقد أثبت لـه مـن خـلال الرسالة أنه لـم يرتكب إثما ولا فعلا حراما، واستشهد على ما فعله بما فعله الرسول حين تزوج صفية بنت حي بن أخطب سيد بني النضير، بعد أن أصدقها عتقها، فأسلمت وحسن إسلامها وهو يبين له أن الإسلام قطعَ كلَّ خسيسةٍ وإِثْمَ كُلّ نقيصة، فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر حرام اقترفه أو إثم ارتكبه.

ثم يورد رسالة لمُعاوية بن أبي سفيان[2] يُعَنِّفُ فيها ولده يزيد، ويعاتبه على أفعاله التي بلغه أنه ارتكبها، ومما ذَكَرَهُ من هذه الأفعال أنه كان يتعاطى للمسكرات والمحرمات، ويجمع حواليه أوباش الناس وأراذِلهم بالرغم من أنه من ذوي الجاه والسلطان، وهذا أمر لا يليق به. فهو يحط من قدره ويُنْزِلُ من قيمته، ثم يوضح معاوية لابنه بأن هذه الأعمال وسوس له بها الشيطان وهو للإنسان عدو مبين. وفي ختام الرسالة ينصحه بالعدول عن ارتكاب مثل هذه الموبِقَات لأنها تبعده عن الدين، وينهاه عن التمادي في الغي وارتكاب الذنوب والآثام، طالبا منه عدم الانسياق أو الانصياع للعاطفة، وأن يحكم عقله في كل أمر يريد القيام به.

ثم أورد رسالة لعبد الملك بن مروان[3]، يعاتب فيها عليَّ بن الحسين لكونه تزوج إحدى مواليه وترك من هنَّ خير منها من النساء القرشيات اللائي يرتبط بهن من حيث النسب ويصلحن أن يكن زيجات لأبناء الشرفاء وأصهارا لهم. وقد سبق لعلي بن الحسين أن رد على هذه الرسالة بما يراه صوابا ويعتقده مناسبا[4].

---

(1) زهر الآداب 1/ 63، جمهرة رسائل العرب 2/ 19.
(2) صبح الأعشى في صناعة الإنشا 5/ 387-388.
(3) زهر الآداب 1/ 63.
(4) انظر ما سبق، ص: 40.



واختار البلوي بعد ذلك للْحَسَنِ بنِ وَهْب ثلاث رسائل:

- **الأولى:** في عتاب صديق له كان قد أوقف عنه المكاتبة دون ذنب ارتكبه في حقه.

- **والثانية:** جوابا على رسالة عتاب بعثها له أحد أصدقائه.

- **أما الثالثة:** فخاطب بها «مُحمد بن علي القمي» الذي ارتبطت بينه وبين الكاتب صداقة متينة ومودة قوية، ولكنه عاداه لأمر بَلَّغَهُ إيَّاه أحد الوشاة فصدقه. ويطلب ابن سهل من صديقه أن يعيد تلك الرابطة التي كانت بينهما وأن يحسن به الظن، وأن لا يثق بأولئك الذين يسعون للفساد بين الإخوان. ويعتذر عن الحضور إليه لأسباب قاهرة مذكرا إياه بأنه لو تمكن من الحضور والمثول بين يديه، لاستطاع أن يبرئ نفسه من التقول الذي نمي عنه، والقول الكاذب والزور الذي رمي به.

ثُمَّ اخْتَارَ لعبد الحميد الكاتب جملةً من الرسائل أو فصول منها تعتبر من أجود ما كتبه وأكثره أصالة، والذي يلفت النظر أن الرسائل التي أوردها البلوي «لعبد الحميد» في كتابه هذا، سواء في هذا الفصل أم في غيره من الفصول لم ترد في أي مصدر آخر من المصادر التي بين أيدينا سواء أكانت مشرقية أو مغربية، مما يؤكد أن الأندلسيين كانوا يتوفرون على نصوص مشرقية نادرة، وأن بعض المصادر الأندلسية قد احتفظت بكثير من تلك النصوص التي ضاعت أصولها[1].

أما الرسالة الأولى التي أوردها لعبد الحميد فقد كتبها عن مروان[2]، في صدام وقع بين «عمرو بن سعيد» وهو من قرابة أمير المؤمنين وبين ابن هبيرة وهو من ولاته. ويستشف من الرسالة أن عمرو بن سعيد كان قد سافر بنفسه إلى مروان، وحكى له ما لحقه من ابن هبيرة من ظلم وتعسف واستهانة بحقه. ولذلك فإن مروان يعاتب ابن هبيرة ولا يتعدى درجة العتاب خشية ألا يقتصر سوء تصرفه على عَمْرٍو وَحْدَهُ بل

(1) عبد الحميد بن يحيى وما تبقى من رسائله، ص: 192، العقد الفريد 4/ 228.

(2) العطاء الجزيل، ص:45.



يصيب غيره من شباب قريش، ومروان بن الحكم لم يتنكر لواليه ولم يغلظ له القول، كما أنه لم يعنفه تعنيفا شديدا لأنه يعتبره العين الساهرة والرجل الذي يجلب له قلوب الرعية، ولكنه مع ذلك لم يعرف السبب الذي حدا به لإبداء جفوته نحو عمرو بن سعيد، فقد يكون تصرف نحوه من قبل بما حمله على رد السيئة بمثلها.

وتؤكد الرسالة أن أمير المؤمنين مروان كان وصولا لذوي رحمه وهذا يكسبه محبة الذابين عنه من بني أمية، وعمرو أحد أولئك القرابة المَـاتَّة بل هو أحد القرابة الذين كان لهم بلاء جميل في ولاية أمير المؤمنين، بل إنه أضاف إلى ذلك البلاء طاعة لينة، ولذا على ابن هبيرة أن يحذر من استصغار ذوِي لُحْمَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِ أمير المؤمنين، ولا سيما من حسنت نيته وصحت بصيرته فيهم.

ويكتب عبد الحميد[1] رسالة عتَابٍ إلى أخ له كان قد جفاه من غير ذنب، وهو يوضح له أنه متردد بين وفائه له وعدم وفائه؛ لأنه رأى منه في أول الأمر أنه كان قد ابتدأه باللطف فأطمعه في لقائه، ثم أعقبه بِجَفَاءٍ نَفَّرَهُ منه، ولذلك فهو لا يدري بأي الرأيين يأخذ بالأول أم الثاني.

ثم أورد البلوي لنفس الكاتب رسالة وجهها مروان إلى ابنه عبيد الله[2] يعاتبه فيها، لأنه أغضب زوجته عائشة وكانتْ هي بدورها قد بعثت رسالة إلى أبيه تشكوه فيها من سوء معاملته وقبح عشرته؛ وتكشف الرسالة عن رأي سيء في النساء عامة غير مستغرب في ذلك العصر، فهن رقيقات ضعيفات الطبائع قليلات الصبر يغلب عليهن الشيطان وهن على عوج وضعف في العقول، ولهذا يحتَجْنَ إلى حسن مداراة وصبر، ومروان لا يرى أن من حق ابنه تنفير عائشة زوجته وإغضابها بالميل إلى الجواري، لأنهن لا يُؤْتَمَنَّ على أنفسهن ولا يوثق بهن؛ خاصة وأنه قد رشحه لولاية العهد وأحله

---

(1) عبد الحميد بن يحيى وما تبقى من رسائله، ص: 192، العقد الفريد 4/ 228.

(2) نسب قريش، ص: 167، تاريخ الطبري 2/ 1895.



أسمى منزلة وهي منزلة سياسة الأمة الاسلامية جمعاء، فماذا يقول الناس عنه إذا عجز عن سياسة امرأة واستصلاحها.

ثم إن عائشة لا تُقَاسُ بعِلْج الإماء اللواتي لا يُؤْتَمَنَّ على أنفسهن وفي استصلاح زوجه بربها وإرضاء لها واكتساب جمال في الدنيا، فهي ابنة هشام وحسب عبيد الله ذلك فهي من محتد شريف وفرعها يشبه فرعه وأصلها يوازي أصله. وفوق كل هذا وذاك فإن أمير المؤمنين ربط رضاه عنه برضاها. وقد كتب لها أمير المؤمنين يخبرها بغضبه بتصرف ابنه وما صدر عنه نحوها وذلك حتى تطمئن وتعلم أن هناك ناصرا يناصرها. ويقرن سخطه على ولده بسخطها عليه. ويختم ذلك كله بتهديده بسلب ما في يديه وتحكيم زوجته عائشة بكل ما تحكم عليه بالرغم منه أو برضاه. ولسنا نعرف الحل الذي توصل إليه الزوجان[1]. ولكن يبدو أن الأحداث المتوالية غطت على هذا الحدث وأمثاله، حيث أصبح عبيد الله يصارع من أجل النجاة بنفسه غير آبه ولا ملتفت إلى عائشة أو غيرها.

وبعد عبد الحميد يختار البلوي لأبي الفضل بن العميد مجموعة من الرسائل في العتاب والذم. الأولى بعثها إلى أبي عبد الله الطبري[2]. وهو يخبره فيها بأنه كان يريد اللقاء به لأنه يعتبره من الإخوان الذين يساندونه في النوائب؛ ولكنه بعد أن تغيرت أحواله معه وانقلبت سيرته من حسن الإخاء والمودة إلى سوء الاعتقاد أصبح الآن وقد كشفت عن عينيه غشاوة الهوى الذي كان يُكِنُّهُ له وذلك لأنه وجد منه منكرا ولقي منه أمرا مستكبرا، ولذلك ولَّى عنه وقد أصبح قلبه مملوء رعبا ورهبا ونفسه لا تتطلع إلى مثل هؤلاء الأصدقاء.

ويبدو من الرسالة الموالية أن صديقه «أبا عبد الله الطبري» كتب له رسالة اعتذار عما صدر منه، ولكن هذا الاعتذار لم يجد قَبُولاً لدى صديقه «ابن العميد»، لأنه قرأه

(1) عبد الحميد بن يحيى وما تبقى من رسائله، ص: 77.
(2) زهر الآداب 3/ 875.



فلم يجد بين طياته سوى مخايل الكذب وسوء الأخلاق، كما أنه وجد من خلال ذلك أن ذنب صديقه لا يمكن أن يغفر لأنه قام باقتراف ذنب كبير.

ثم كتب إليه ابن العميد رسالة أخرى يخاطبه فيها وقد عاد لا يحتمل الإغفاء عن أفعاله لأن قلبه أصبح مَصْدُوراً ولم تبق له بقية في التصبر لأنه قديما كان يقبل الأصدقاء - ومنهم أبو عبد الله الطبري - على عِلَّاتِهم ويصفح عن أخطائهم وهَنَاتِهِم، ولكنه بعد ذلك أصبح مغلوبا على أمره، لا يستطيع أن يغضي عما صدر عن صديقه من الجفاء حتى أصبحَ جسمه من ذلك متباعدا عنه، نابيا له بسبب ظلمه إياه وهجره له وصده عنه.

وهو يشبه صفات صديقه في هذه الرسالة بالدهر في القطيعة والعقوق، وفي إظهار ما يسر الانسان وإخفاء ما يسوؤه وفي التقلب والتبدل، وفي نشر حبائل الزور ونصب أشراك الغرور، وفي إخلاف الوعد والرجوع في الموهوب، وفي البدء بالشر وتكذيب الظنون والميل عن النباهة إلى الخمول، وفي النميمة والغيبة والمشي بالسوء بين الناس، وفي تنقيص العلماء الأفاضل والحط من قيمتهم، إلى غير ذلك من المساوئ التي ترد من الدهر متفرقة وهي في صديقه مجتمعة[1].

ثم بعث له رسالة أخرى وقد ذكر دعواه في العلوم[2]، وهي رسالة ساخرة تنم عن قدرة «ابن العميد» على التعبير بالرمز الملفوف بالسخرية والاستهزاء. فهو يفتتح الرسالة بفرضية منطقية يقول له فيها: افرض أنك كنت أفلاطون فأين ما سننته في السياسة، فقد تصفحنا كتابه فلم نَجِدْ فيه دعوة إلى قطيعة صديق، لو حسبتك أرسطو فأين الذي رسمته من الأخلاق، فقد قرأناه فلم نر فيه ما يدعو إلى العقوق.

وأما الهندسة فهي تبحث في المقادير ولا يمكن أن يعرفها إلا من عرف مقدار نفسه، وهكذا يربط له بين كل علم من العلوم التي ادعى أنه حاذق فيه وبين طبيعة

---

(1) زهر الآداب 3/ 877.
(2) المصدر السابق 3/ 878.





نفسه ويمثل له بأنواع ثلاثة من العلوم العربية: وهي «الآداب والنحو والعروض»، ويربط بين هذه العلوم وبين شخصية صاحبه في أسلوب ساخر لا مثيل له.

ثم يورد البلوي فصلا آخر من هذه الرسالة، والظاهر أن ابن العميد كان قد غضب على صديقه أشد الغضب ووجد عليه أشد الوجد، فهو يكيل له التهم ويحط من قدره وقيمته بأسلوب فيه لمز وسخرية كبيرين. ولا شك أن الذي حز في نفس ابن العميد هو تقلب صاحبه عليه بعد أن كان قد أَخْلَصَ لَهُ الوُدَّ واختاره صديقا، وبعد أن ضيع وقتا في ذلك الغرس الذي أراد له أن يكون غرسا جيدا، تنتج عنه صداقة وفية ولكنه وجد تربة لن توافق «فلم تتفتح أزهاره ولم تجن ثماره»[1]. وهو يتأسف على نفسه وطبعه وكيف أشكل عليه الأمر في اختيار الصديق، لأنه يعتبر أن الصداقة في الزواج يجب أن يكون فيها تآلف بين الزوجين، وموافقة في الطبع والشكل والخلق، ولكن ارتباطه بأبي عبد الله الطبري هو من قبيل ارتباط النقيض؛ فهما متباعدان خَلْقًا وخُلُقًا طَبْعًا وطبيعةً، فهما «كطرفي ضدين وبينهما ما بين أمرين متباعدين»[2].

ثم أورد البلوي رسالة لبديع الزمان الهمذاني «صاحب المقامات» كتبها لبعض إخوانه في شَأْنِ رَجُل وُلِّيَ شؤون الأَشْراف دون أن يصرح باسمه. وهو يَذْكُرُ لصديقه أنه عليه ألا يحسد من ولي هذا الأمر، لأنه سيكون إِشْرَافًا على هلاكه من قبل الأتراك، وعليه أيضا ألا يغتر بهذا المنصب الذي أسند إليه، فربما يكون وَبَالاً عليه لأن عقله غير سليم، وعليه أن ينظر إلى سرائره وباطنه وأن يتخلى عن ظاهره؛ ويود من صديقه ألا يتشبه به من حيث أخلاقه، ثم يذكر له أن ما عنده خير مما عند ذاك، فعليه أن يشكر الله على ما أعطاه وأن يرضى بعيشته التي يحياها وإلا ظل طول الدهر مكتئبا حزينا عملا بقول الشاعر:

---

(1) العطاء الجزيل، ص: 52.

(2) المصدر السابق، ص: 52.



إِنَّ الغَنِـيَّ هُـوَ الرَّاضِـي بِعِيشَتِهِ   لَا مَـنْ يَظَـلُّ عَلَـى الأَقْـدَارِ مُكْتَئِبَـا[1]

وبعد ذلك يورد البلوي رسالة «لأبي الخطاب العبدكاني» أجاب بها «الصابي» وهي رسالة تنم عما كان يدور بين الأصدقاء من المداعبة في المكاتبة، والرسالة تصف كَبشاً كان قد أهداه أحدهم إلى صديق له؛ يقول العَبْدَكَاني: لقد وصلتني رقعتك ففضضتها ووجدت خَطَّهَا مشرقاً ولَفْظَها مُونِقاً ومعانيها غَريبة وبلاغتها عجيبة، غير أن القول فيها قصَّر عن الفعل لأنك ذَكَرْتَ «حَمَلاً جعلته بصفتك وبيانك جَمَلاً ولمَّا رأيته وجدته كبشاً هزيلا ذميماً قصير القامة عاري العظام جامعا للعيوب والمثالب»[2]. فلو ألقي إلى السبع لعافه وكرهه أو رمي للذئب لقلاه.

ثم يورد لنفس الكاتب رسالة ثانية أجاب بها بعض أصدقائه، وهو يبين له أنه لم يكن منصفا في الحقائق التي أوردها، وأن أسلوبه يتميز بالتهديد والغلظة والوعيد، وأنه سوف يجيبه على ذلك بما يؤدي إلى الإفهام والاحتجاج.

وبعد ذلك يورد له رسالة ثالثة في ذم أهل الخلاف، ويصف شخصا كان شرف بولائه وإنعامه، فلما وصل إلى ما وصل إليه من الرفعة والنباهة اخْتَالَ واستكبر وأصبح غَادِراً، يشعل نار الفتنة وينحرف مع المخالفين والمناوئين كأنه طغى واستكبر؛ فلما علم ما آل إليه أمر صاحبه من الرجوع إلى الفسطاط مسرورا، سُقِطَ في يده وفكر في عظيم جرمه، ولا شك أنه سيكون من الذين تتناولهم الأيدي وتنوشهم السيوف ويذهب معه من يلقي عليه القبض من الأعداء.

ويختم هذا الباب من رسائل المشارقة برسالة «لمحمد بن مكرم» بعثها لصديق له يعاتبه، ويبين له أنه كان صاحب فضل عليه، ولكنه تقبل هذا الفضل بنكران وهو يتمنى من صديقه أن يرجع عن غيه وأن يؤوب إلى رشده؛ فإن تم له ذلك دامت الصداقة بينهما وإلا فالقطيعة والهجران هما اللذان سيحلان محلها.

---

(1) العطاء الجزيل، ص:58، رسائل بديع الزمان الهمذاني، ص: 85.
(2) نهاية الأرب 10/ 128.



❖ الرسائل الأندلسية:

يفتتح البلوي هذا الباب برسالة لأبي العباس ابن رشيق بعثها إلى Gandesa برشلونة وهي رسالة تهديد ووعيد يظهر من خلالها أنه كان بينهما عهد وأن Gandesa قد تَغَافَلَتْ ونقضت عهدها غادرة به، حيث أصبحت لا ترى له حقا عليها. وهو يكاتبها منذراً إياها بقطع اليد منها، وأنه تجرد بكل ما لديه لمحاربتها - إن هي تمادت في ذلك - ويبين لها أن هذا الأمر ليس عليه بعسير خاصة وأن المسافة التي تفصل بينهما ليست بعيدة، وهو لا يخشى ذلك لأنه قطع المسافات الطويلة لغيرها لمحاربته، فكيف لا يقطعها وليس بينه وبينها سوى بياض يوم وسواد ليلة.

ثم يورد مجموعة من الرسائل لأبي حفص ابن برد[1]، الأولى بعثها لصديق يعاتبه فيها ويبين له أن الصداقة التي كانت تربطهما أصبح جوها مظلما وزهرها ذابلا، بسبب ما اقترفه في حقه من ذنب وهو يكاتبه بالرغم من أن فكره لا يسعفه في ذلك، بسبب اللوم الذي وصله عنه والعتاب الشنيع الذي بلغه من قِبَلِه، وهو يدعوه إلى إبداء حجته في هذه القطيعة، حتى يعود إلى مواخاته وإلا كانت النتيجة قطع حبل المودة وإفسادها كما يفسد الزرع توالي الماء[2].

ثم يختار البلوي لنفس الكاتب رسالة بديعة في ذم مؤاخ[3] وهي تفصح عن أسلوب ابن برد الساخر، حيث يفتتحها بإبراز بعض صفات هذا الشخص وهي صفات ذميمة، منها أنه بخيل أفعاله رثة لا يفي بوعد ليس له حياء، فهو دائم التجهم كأنه «قفل ضاع مفتاحه» و«ليل مات صباحه»[4]، جاهل ليس له عقل لا يثني عليه ولا يذكره أحد بمدح، لم ينل من نعم الله شيئا فكأنها نسيته وهو غير وفي لأصدقائه

---

(1) المغرب في حلى المغرب1/ 88.
(2) العطاء الجزيل، ص:59.
(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1/ 1- 504.
(4) المغرب في حلى المغرب 1/ 89.



وإخوانه، فهو إذن «شر بقعة لغرس المودة وبذر الإخاء»[1]، ونظرا لهذه الصفات التي ذكر فهو قد كرهه وقلاه معتبرا إياه كأنه ميت لا وجود له.

وينتقل بعد ذلك إلى اختيار رسالة لأبي عبد الله محمد ابن مسعود، يخاطب بها ولدا له وقد بلغه عنه أنه مال إلى شرب الخمر ومجالسة الأشقياء فهو يتوعده ويحذره قائلا:

لقد فاز يا بني من استمسك بالدين واعتصم بحبل القناعة وتحصن بالعفاف والكفاف ولم يزاحم الأقدار، وقد أوغلت يا بني في البلاد، ومع ذلك لم تتذكر شوق أبيك المحزون القلب عليك.

ثم يتطرق إلى تهديده ووعيده ساخرا منه ومن فعله طالبا منه أن يشرب العسل الذي يكثر بتلك المنطقة التي زارها بدل شربه للخمر، وعليه أن يتناول في طعامه السمك الذي لا يعدمه بتلك الجهة. كل هذه الصفات التي أطلقها ابن مسعود أتت بأسلوب فيه سخرية كبيرة واستهزاء شديد.

ثم يورد البلوي لابن حيان[2] رسالتين في وصف شخصين:

- في **الأولى** منهما يطلق ابن حيان العنان لقلمه في وصف حالة شخص، وفي نعته بصفات سيئة منها أنه بعيد عن الفطنة، غبي مشاكس، بجسمه رائحة، يطلق لسانه في أعراض الناس فاحتقروه، يضاف إلى ذلك أنه وسخ الثياب والأظافر، يدني غائطه من مائدته لا يتقذر شيئا البتة.

- أما **الثانية**[3] فهي في وصف شخص آخر ينعته فيها بصفات دنيئة منها: أنه كان لا يرعى حقوق الجار بالرغم من ثروته، يعاتب الأصدقاء ليس له باع في العلم والفضل شرس الأخلاق معتد بنفسه، يعتقد أنه قد ملك القضاء بسبب مصاهرته لبني

(1) العطاء الجزيل، ص:60.
(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1/ 2-586.
(3) المصدر السابق1/ 2 -592.



ذكوان[1]. وأنه سيطر على الإمارة فارتقى في الغي ذرى شاهق ثم هوى إلى الحضيض، وهو لا يقضي أيامه في الجد بل يمضيها بين الشراب والسماع للغناء وتعمير المجالس بأصدقاء السوء والنميمة الذين يجلبون له أخبار الناس، ويبدون له معايبهم من أجل قليل من المال يمنحه لهم، أضف إلى ذلك أنه يقضي أوقاته بين الموائد - أي في الأكل - معطلا للفروض المسنونة عليه، فلا يصلي لا في بيته ولا في المساجد.

وبعد ذلك يختار لأبي عبد الله البزلياني[2] رسالتين الأولى بعثها لأبي جعفر بن عباس يلومه فيها حيث زاره ولم يوفه حقه قائلا: نحن نعلم أنه من المروءة إن أتى زائر إلى بيت صديق أن يكرمه، ولكنك تكبرت والمتكبر يبدو للناس صغيراً إذ لا يرفع قدر الإنسان بالكبر بل بالتواضع، ولقد أتيتك زائرا فكأنني جئتك راغبا وودت مصافحتك فما مددت يدك إلي ولا نهضت لمعانقتي، وأشرت بالحاجب كأنك لا تعرفني وتلك من شيم اللؤماء وليست من شيم الكرماء.

وفي فصل منها يتعجب من كونه نسبه إلى الشعوذة وهي صفة به ألصق، كما نسبه إلى اللحن في النطق وهي عادة به أليق. ثم يتهمه بقصور باعه في الأدب لأنه لا يملك رسائل أو أشعارا أو مؤلفات وآثارا، وأنه لن يحصد من وراء حسده وشره سوى الندم.

ثم يورد البلوي رسالة «لأبي عبد الرحمن بن طاهر»[3]، يعاتب فيها الفتح بن عبيد الله المعروف «بابن خاقان» وينصحه قائلا: عليك أن تقتصر في أمورك على الأشياء المهمة، وأن تكون مقتصدا في مواهبك معتدلا في مذاهبك وألا تجود بإسراف وتبذير إذ لو كان مقدار البحر ملكك مالا لنفد، كما أنه يبين له أنه بذل له الشيء الكثير من أجل أن ينال حظوة عالية، لكنه امتطى غارب الكبر ولم يجبه إلى ما أراد ولذلك فهو ينصحه بأن يكف من رسنه وأن ينهض من وسنه[4].

---

(1) انظر مقالا لإحسان عباس، قدمه في مهرجان ابن حيان بالرباط حول بني ذكوان.
(2) الذخيرة 1/ 2-635.
(3) خريدة القصر وجريدة العصر 2/ 313.
(4) قلائد العقيان، ص: 76.



ثم يورد رسالة لأبي بكر بن القصيرة يراجع بها «الفتح ابن عبيد الله» صاحب كتاب «القلائد»، وهو يفتتحها بالثناء عليه حيث يعتبره قائد البلاغة في عصره لا يشق له غبار، وكان من الأحق بزمانه أن يبوئه مكانة عليا، ولكنها الحظوظ مقسومة لا ينال منها كل بحسب ما يملك، وفي خاتمتها يعاتبه على خلقه الذي يميزه الكبر والزهو، ويطلب منه أن يتخلى عن ذلك حتى ترتفع قيمته لدى أصدقائه وينال حظوة لديهم، لأن الكبر لا يرفع من صاحبه بل يحط من قيمته وقدره.

ويختار في هذا الباب رسالة «لأبي محمد عبد الغفور»[1] خاطب بها بعض أهل عصره كان قد سمع قول الوشاة وأخذ برأيهم في نفي الكتابة عنه، وهو يلوم صاحبه ويبين له أن أولئك الذين نفوا عنه الكتابة لا يعرفون حق الكاتب وقدره، ويبرز له أنه من الذين يعتد بهم في باب الكتابة وأنه قد رضع الأدب منذ نعومة أظفاره، ويختمها بدعوة عدول صاحبه عن هذا الرأي الذي سمعه من الوشاة، وأن يكذب تلك الأقاويل التي نقلت عنه زورا وبهتانا[2].

وينتقل البلوي بعد ذلك مباشرة إلى رسائل الكتاب الموحدين ويفتتح اختياره برسالة «لصفوان بن إدريس»[3] كتبها عن «عبد الرحمن بن إدريس بن عبد المومن»[4]، حينما كان واليا على مرسية وهي رسالة مهمة تكشف عن حقائق خطيرة في المجال السياسي، وخاصة في مجال العلاقة بين الموحدين والمسيحيين في تلك المرحلة. ويفهم من الرسالة أن ألفونس بن شانجه كان قد بعث برسالة على يد رسول له إلى الأمير عبد الرحمن، يدعوه فيها إلى نبذ الدعوة والثورة ضد الخليفة ويحثه على ذلك، ويوضح له أنه سيلقى منه مساعدة عسكرية إن هو فعل ذلك. ولكن الأمير لم يستجب لطلبه ويبين له أنه إنما يريد بفعله هذا أن يفرق بين المسلمين وأن ينشر

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 1-326.
(2) المصدر السابق 2/ 1-326.
(3) انظر مقدمة زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، تحقيق الدكتور محمد بن شريفة.
(4) البيان المغرب، ص:76.



بينهم العداوة والبغضاء، وأنه لن يستجيب لهذه الدعوة لأنها تدعو إلى الخلاف، والمسلمون إذا بايعوا رجلا واحدا فإنهم لا يميلون عنه ولا يَزْوَرُّون ولا يعتقدون سوى بإمام واحد، وأن الدعوة قد سرت في قلوبهم مسرى النار في الهشيم. وفي ختام الرسالة يهدده بأنه إذا أخبر الخليفة بهذا الأمر فلن يتردد في غزوه بجيوش جرارة لا قبل له بها، ولن يستطيع دفعها أو ردها مهما جمع من جيوشه الخاصة أو من جيوش قومه، بل قد تكون نهايته على يد الموحدين إن هو تمادى في غيه وزوره ومينه.

ثم يورد له رسالة كتب بها إلى بعض أهل إشبيلية وكان قد كتب ينقد على «أبي الوليد»[1] بعض أحكامه الشرعية، وهو يلوم هذا الشخص لكونه ركب مركبا صعبا وجرى من يمكن مجاراته في الأصول والفروع، وأنه بفعله هذا دل على جهله وسوء خلقه وقلة علمه، وأنه أراد أن يجاري البحر الزخار الطامي فلم يستطع وغلبته أمواجه، ذلك لأن «أبا الوليد» عالم لا يجارى ولا يبارى متمكن من الأصول الشرعية ضارب فيها بسهم معلى، ومن أراد أن يجاريه يكون بمثابة المجنون أو النائم الذي يحلم بما لا يصدقه الواقع. ويظهر من خلال الرسالة أن «صفوان ابن إدريس» كان يكبر أبا الوليد لعلمه ومعرفته، وأنه مطلع على أحوال عصره الثقافية وما يجري بين العلماء من جدال وحجاج في المسائل الدينية، أو غيرها من المسائل التي كان يقع حولها الخلاف وأنه يقيم الحق مكانه ويرده إلى نصابه.

ثم يورد لصفوان أيضا رسالة ثالثة جوابية كتبها لبعض أصدقائه كان قد عاتبهم، حينما بلغه عنه خبر حمله إليه بعض الوشاة. والكاتب من خلال الرسالة يبرئ نفسه من التهم الموجهة إليه، ويوضح لصديقه أن طبعه صادق خالص، وأن تلك الطائفة التي بلغته الخبر الكاذب إنما تريد أن توقع بين الإخوان والخلان، وهي طائفة شامتة تسعى بالفساد فعليه إذن ألا يعتد لأقوال أولئك، وأن يأخذ الخبر اليقين من صاحبه التي يبلغه إياه دون زيادة أو نقصان.

---

(1) لعله أبو الوليد بن رشد بل هو، انظر كتاب أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة حول ابن رشد.



ثم كتب صفوان رسالة أخرى إلى «أبي بكر بن يحيى بن إبراهيم المرسي» يعاتبه فيها بل ويذمه، وقد استهلها صفوان بقصيدة رائعة يتبين من خلالها مقدار قدرته على صياغة الكلام نثرا وشعرا، وأنه يبرز في الشعر الذي يرتجله والذي يتروى في صنعته وحياكته، كما أنه يفوق أقرانه في الاطناب والإيجاز، ولا ينكر عليه هذه الصفات التي يمتلكها سوى متعجرف حسود يريد أن يساجل الرجال فيتجاوز قدره ولا يصل إلى قدرهم، وفي الرسالة نفس من الفخر بالذات والاعجاب بالنفس، وفيها ما يدل على الصراع الذي كان يقع بين المتأدبين في كل عصر ومصر، وهو صراع تفرضه الطبيعة البشرية والواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه.

ثم يورد له رسالة مسهبة يرد بها على أحد الذين انتقدوا عليه رسالته التي سماها «بالارتحال والتعريس»[1]، ويظهر من خلال الرسالة أن الناقد شاطبي وأنه كان يدعي منزلة في الأدب والعلم ولكنها لم تصل إلى مرتبة صفوان بن إدريس.

يفتتح الرسالة بأقوال الناقد نفسه، حيث يوضح أنه أراد أن يبارز أسدا وظن أنه يستطيع ذلك لكنه ورط نفسه في هذه المبارزة.

ومن جملة ما انتقده عليه أنه كنى عن شاطبة بأم صخر وأن اسمه «صفوان» وهو الحجر الذي يوافق اسمها. ويرد عليه ابن إدريس بقوله: إن صفوان عند علماء اللغة كناية عن البحر وليس عن الحجر ويحتج على ذلك ببيت شعري لابن مرج كحل[2] وهو من فحول شعراء الجزيرة. ثم ينتقد عليه كونه غضب لأنه لم يلق من يكرمه حينما دخل شاطبة وأنه لم يجد من يرعاه هناك.

وأخيرا يصف شاطبة بأنها مدينة اتخذت الصنم مسرحا لعبادتها، وتركت المسجد وراء ظهرها، وهذا لمز من صفوان وإشارة إلى كون أبناء هذه المدينة لا يقيمون

---

(1) الذيل والتكملة 4/ 140.

(2) برنامج شيوخ الرعيني، ص: 208.



للدين الإسلامي وزنا، وأن الصنم لديهم مفضل على المسجد. ثم يختم الرسالة بكثير من الأوصاف الدينية التي اشتهر بها سكان شاطبة، مستدلا على بعض تلك الأوصاف بأبيات شعرية لأبي جعفر بن عاصم[1] يهجو بها شاطبة وأهلها.

ثم يورد البلوي بعد ذلك رسالة أخرى للكاتب نفسه بعثها لصديقه أبي عمرو بن حسون[2]، يعاتبه فيها حيث بلغه أنه مال إلى الراحة والكسل بعد أن كان قد أخذ يشتغل بالعلم والدراسة. وهو يبين منذ مطلع الرسالة أن صديقه كان قد أقدم على الطلب مجتهدا فيه غير مقصر، ولكنه بعد ذلك انحرف عن الطريق السوي وهو طريق العلم بعد أن اقترب من الإشراف على النباهة فيه. وهو يحثه على العودة إلى سلوك هذه السبيل التي تصلح له ويصلح لها، وأن يتجنب قول كل حاسد مغرور ولو امتطى في سبيل ذلك بياض النهار وسواد الليل، ثم ينصحه ويبين له أن العلم لا ينال إلا بالتجلد والصبر، وأن طريقه شائكة لا يسلكها إلا من كان قوي العزيمة، ولا ينال مقصده منه إلا من كان مثابرا غير يائس، وفي الختام يعتذر له عن هذا العتاب الخفيف الذي لا يرجو من ورائه سوى النصيحة والخير.

ثم يورد البلوي بعد ذلك رسالة لابن مبشر لم يصرح فيها بالمرسل إليه، ولكن يفهم منها أنه يلوم أحدهم على فراره من الحرب واتصافه بالجبن والخور، في حين يدعي البطولة والرجولة وهو يتهمه بذلك مشبها إياه بربات الحجال «النساء»؛ لأنهن لا يستطعن المقاومة أو دخول المعركة، ويستفاد من الرسالة أنه كان قد وصله لوم المرسل إليه فخاطبه بهذا القدر معنفا إياه ومصورا قلة شهامته ورجولته، معتبرا إياه بعيد الهمة عن المساجلة وأنه لا يستطيع الخوض في ذلك، بل يستطيع فقط الدفاع عن نفسه أثناء نزول الموائد للأكل.

---

(1) زاد المسافر، ص: 88.

(2) المصدر السابق، ص: 60.



ثم يورد بعد ذلك رسالة لأبي بكر بن المرخي[1] وجهها إلى صديق له يعرف بابن البنته، ويفهم من سياقها أنها جواب عن رسالة أخرى كان قد بعثها له صديقه يعاتبه فيها على إبطائه في مكاتبته، كما يفهم منها أيضا أن ابن المرخي هذا كان يقدر صديقه ويعترف له بالسبق في الفضل والخير والأخلاق الحسنة وأنه كان صديقه الأود تربطه به علاقة حميمية.

والرسالة موجهة من حضرة مراكش حيث كان يقيم ابن المرخي الذي يعاتب صديقه الذي لم يكاتبه بالرغم من معرفته بمكان إقامته، في حين كان هو يجهل مكان إقامة صديقه أما وقد أصبح مقامه معروفا فإنه سيوالي عليه رسائله ومكاتباته واحدة تلو الأخرى، وفي الرسالة إشارة إلى أن ابن المرخي يعاتب صديقه على كونه يكاتب بعض الأصدقاء دون البعض الآخر، ولكنه مع ذلك يعذره في ذلك لأنه غريب بأرض البادية ليس له ولي ولا نصير.

كما يفهم من الرسالة أن ابن المرخي بعث إلى أبي سليمان ابن داود كتابا خاصا يوصيه فيه بصديقه ابن البنته ويعرفه بفضله وقدره.

وبعد ذلك يورد البلوي رسالة موحدية هامة كتبها ابن عبد الحميد[2] إلى أبي بكر بن توندوت، وهي رسالة لوم وتشنيع يظهر من خلال سياقها أن ابن توندوت كان في بداية الأمر يسير في ركاب الموحدين، ويخطب ودهم ويحارب بجانبهم ثم نقض بيعته لهم فخرج عن طاعتهم مفضلا الرضوخ للمرابطين والدعوة لهم. والكاتب يحذره من مغبة الأمر إن هو تمادى في غيه، ويدعوه إلى الرجوع للدعوة الموحدية لأنها الملجأ الذي يمكن له أن يجد فيه مأواه والملاذ الذي يمكن أن يلوذ إليه. وفي ختام الرسالة يدعو الكاتب ابن توندوت إلى التوبة والانابة خاصة وأنه قد سبقت له

(1) تحفة القادم، ص: 174.
(2) العطاء الجزيل، ص:106.



خدمة في ظل الدعوة الموحدية، ولا شك أنه سيجد الاستجابة والعفو من لدن الخليفة الذي يعفو عن الظالمين والخارجين عن طاعته والمخالفين لدعوته.

وقد اختار البلوي بعد ذلك رسالة لأبي الحجاج يوسف ابن عتبة يهجو فيها ابن بكساس، ويعاتبه عتابا عنيفا يظهر في ثنايا سطورها أن الكاتب كان مقتدرا عالما بأسرار البلاغة، متمكنا من أدواته الكتابية، عارفا بفن السخرية في المكاتبة، ولا شك أن الرسالة تظهر ماكان بين هاذين الكاتبين من تنافس، وأن الثاني منهما كان قد بعث برسالة إلى ابن عتبة يهجوه فيها، فكانت السبب الذي دفعه إلى الرد عليه بهذه الرسالة.

وهو ينعته فيها بأقبح النعوت وأسوأ الأوصاف، ويتهمه بالتقصير في النظم والنثر وأنه يحاول تقليد الفحول فلا يستطيع، وشبهه في محاولاته تلك بالغراب الذي أراد تقليد صوت الحمام ومشيته فلم يتمكن من ذلك، كما شبهه بالطائر المعروف «بِالحَدَأَةِ» الذي يحاول أن يصيد أمرا ذا بال، ولكنه لا يصيد سوى الفئران وتلك صفة ابن بكساس.

ويختم البلوي كعادته هذا الباب بمجموعة من رسائله المتنوعة الأغراض.

- **الباب السابع عشر:**

❖ الرسائل المشرقية:

خصص البلوي هذا الباب لرسائل التعازي التي بعثها الكتاب إلى أصدقائهم أو من يعدون في مرتبتهم، ويفتتح هذا الباب برسالة للرسول ﷺ[1] بعثها إلى معاذ ابن جبل[2] يعزيه في ابن له، غير أن الناسخ قدم الرسالة مفردة قبل أن يذكر البلوي رجال هذا الباب كعادته، وذلك تأدبا مع الرسول وتعظيما لاسمه الكريم. ومما تجدر الإشارة إليه أن الناسخ يؤاخذ البلوي على إدراجه اسم النبي ﷺ مع الكتاب ويعتبر ذلك تقصيراً في حقه وغفلة من البلوي.

(1) التعازي والمراثي، ص: 148، صبح الأعشى، ص:150.
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد 3/ 583، الاستيعاب 3/ 1402.



وفي الرسالة تعبير رقيق عن البلوى التي أصابت معاذ بن جبل في وفاة ابنه وفلذة كبده، وقد بين له الرسول أن الأهل والأموال إنما هي ودائع منحها الله للإنسان إلى وقت معلوم وأجل محدود معدود، ثم يستردها متى أراد، ويدعو الرسول معاذ بن جبل إلى الصبر والاحتساب، فهما وسيلتان إلى ميل الأجر والثواب عند رب العالمين، أما الجزع فإنه يحبط العمل ويذهب الثواب كما أنه لا يرد ميتا ولا يدفع حزنا، فما على المرء إذن سوى أن يطيع ربه وينجز ما وعده، حتى يذهب عنه أسفه وحزنه.

ثم يورد البلوي بعد رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسالتين لعبد الحميد الكاتب[1]:

- **الأولى** كتبها عن مروان بن محمد إلى أخيه يعزيه في الحكم بن مروان ويدعوه إلى التسليم للقضاء والقدر والتجمل بالصبر والخشية، والرجوع إلى الله في هذه المصيبة وفي ختام الرسالة يدعو الكاتب للميت بأن يغفر الله ذنوبه، ويتجاوز عن سيئاته ويضاعف له حسناته.

- **أما الثانية** فهي مبعوثة من عبد الحميد[2] نفسه إلى مروان يعزيه في أخيه، وهو يصور له فيها كلوم الدنيا ومصائبها وفجائعها التي تنتاب الناس في قضايا عديدة، جريا عل قضاء الله وقدره، ويبين له أن الهلع والجزع في مثل هذه الحوادث لا يردان فائتا، كما يبرز له أن أعظم ما يذهب الرزايا والمصائب هو الصبر على المكروه والرجوع إلى الله، وفي ختام الرسالة يدعو للميت بالثواب، وللخليفة بأن يصرف عنه السوء والمكروه.

ثم يورد بعد ذلك رسالة لأبي إسحاق الصابي[3] يعزي محمد ابن العباس في وفاة ابنة له وكانت أكبر ولده، وهو يبرز فيها أن مصائب الدنيا ليست سوى أبواب مفتوحة تؤدي إلى الثواب، كما أنه يبين له تألمه وحسرته على هذا الحدث الفاجع الفاجئ والملم الفادح، وفي الختام يبين للوزير أن الله وإن كان قد أخذ منه ابنته تلك فقد

(1) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 194.
(2) المصدر السابق، ص: 195.
(3) الأدباء الصابئة في العصر العباسي، ص: 51-117.



عوضه من الولد ما يؤنس صدره وينور مجلسه، كما عوضه عن لوعته تلك بالعز القاهر والسلطان المتظاهر.

وفي ختام الرسالة يدعو للمتوفاة بالسعادة في الدار الآخرة، وللوزير بالمنح غير الامتحان وباللم غير التشعيث والتفريق، وبالزيادة غير النقصان في الأهل والولد والأموال.

وبعد ذلك يورد البلوي ثلاث رسائل لأبي الفضل الميكالي[1]:

- **الأولى** كتبها إلى ناصر الدولة يعزيه في بعضهم، وهو يذكر في فصل منها أن الأقدار السارية بين البشر تنقسم إلى قسمين: منها ما هو مكروه ومنها ما هو محبوب، كما يبين له أن المصيبة التي نزلت به قد قرحت الأكباد وسودت وجوه المعالي والمكارم، إذ الميت كان يتسم بصفات العدل والدين وهما صفتان قلما توجدان في إنسان غيره، ولولا وجود الأمير الذي اجتمعت حوله الكلمة لما كان لهذا الجرح من أسى أو لهذا الكلم من تضميد.

- **والرسالة الثانية** كتبها الميكالي إلى أبي العباس بن أبي الطيب يعزيه، وفي فصل منها يذكر أن المصيبة التي نزلت بصاحبه مؤلمة ممضة، ولكنها نزلت بساحة من تلقاها بصدر رحب، ومن يصبر على الملمات حتى لا يحبط الجزع أجره وثوابه اقتداء بما جاء به الشرع والدين.

- أما **الرسالة الثالثة** فقد كتبها الميكالي إلى أبي عمرو البحتري يعزيه، وهو يذكر في فصل منها بعض فضائل الميت وصفاته التي كان يتمتع بها، ومن تلك الصفات نباهة الذكر ودلالة القدر، ثم يذكر أنه في الوقت التي اكتملت لديه المناقب والمفاخر واعترى ذروة المجد كالنجوم الثواقب اختطفته المنون، فمحي أثره وانقطع عمله ولذلك فالفضل خاشع لفقده والكرم خالي المكان من بعده[2].

---

(1) زهر الآداب 3/ 745.

(2) المصدر السابق 4/ 1141.



ثم يختار البلوي رسالة لبديع الزمان الهمذاني[1] كتبها إلى بعض أصدقائه وإخوانه يعزيه في وفاة والده، والرسالة من خلال سياقها تبدو وكأنها وصية حسنة من بديع الزمان لصديقه، وهو يفتتحها بالمصاب الجلل الذي أصاب صديقه ولكنه جدير بالصبر عليه والعزاء فيه، ثم تعقب هذه الافتتاحية وصية هامة من البديع بعدم الإسراف في الإنفاق ومخالطة أصدقاء السوء، حتى لا يضيع المال الذي جمعه له والده ويتلف الإرث الذي خلفه له بعد أن كد من أجله طول حياته، على أنه يوصيه أيضا بألا يقتر على نفسه وألا يبخل على أهله وأسرته وذوي رحمه وأقربائه، بل عليه أن يتوسط الأمرين فلا إفراط ولا تفريط ولا إسراف ولا تقتير بل قصد بين الطريقين.

ويختار البلوي بعد ذلك لعمرو بن مسعدة[2] رسالة يعزي فيها الأمير العباسي المأمون في العباس بن الفضل، وهو يفتتحها بذكر عظم المصيبة التي ألمت به والرزية التي دهته، ولكنها مصيبة تصغر بالصبر الذي يثيب الله عليه المؤمنين ويجازيهم عليه أحسن الجزاء، كما يذكر مناقب العباس وفضائله وأن المأمون سيجد في الخليفة ما يؤنس وحشته ويفرج كربته. وفي الختام يعبر الكاتب عن شعوره أمام هذا الحادث الجلل والمصاب الذي ألم، وهو شعور من تقرح قلبه وفوض أمره إلى الله، لعلمه بأن كل النفوس ذائقة الموت وأن كل الناس إليه يرجعون.

أما الحسن بن وهب[3] فقد اختار له البلوي رسالتين:

- **الأولى** يعزي فيها علي بن بنان، والثانية يجيب فيها من عزاه في ابنة له. يفتتح الأولى بدعوة المعزى به إلى الصبر على هذه الفجيعة، والتسليم لقضاء الله وقدره وتفويض الأمر إليه وشكره على النعم والنقم، ثم يتحدث عما أوقع هذا الحادث في نفسه من ألم وحزن، لأن العلاقة بينه وبين هذا الكاتب كانت علاقة ود وصداقة،

(1) نفسه، 4/ 1150.
(2) وفيات الأعيان 3/ 145، أمراء البيان 1/ 191.
(3) الأغاني 8/ 357، الاعلام 2/ 226.



وهو من الذين يرعون الود والعهد ويشارك أصدقاءه في الأفراح والأتراح. ثم يدعو لصديقه بطول العمر ودوام العافية ويطلب منه أن يحمل تعزيته هذه لجميع أقرباء الميت، حتى يكون قد أدى ما عليه من واجب وحتى تطمئن نفسه وتسكن.

- أما **الرسالة الثانية** فقد أجاب بها الحسن بن وهب أحد أصدقائه الذي كان قد بعث له بتعزيته في وفاة ابنة له، وهو يعترف بما تضمنه الكتاب المبعوث من موعظة حسنة، كما أنه يعلم علم اليقين أن وفاة وحيدته بالرغم من أنه أحزنه وأقلقه فإنه يعلم أن الرجوع إلى أمر الله خير من الجزع على ما فات وأنه يرغب إليه سبحانه أن يجزل ثوابه عليها ويعوضه بجميل الخلف بعدها.

❖ الرسائل الأندلسية:

يفتتح البلوي باب التعزية برسالة لأبي العباس أحمد بن رشيق[1]، وكان قد بعثها إلى الموفق[2] يعزيه في وفاة القاضي الجوهري. ويذكر الكاتب صاحبه بالفاجعة التي ألمت به والمصيبة التي طرأت عليه، ولكنها مصيبة وإن عظمت وجلت فإن بقاء الموفق يلينها وسلامته تهينها. ثم يتحدث ابن رشيق عما ألم به بعد وفاة القاضي من حزن، وما نزل به من كرب لأنه كان يشاركه في القيام بالحقوق والواجبات ويعضده في خدمة الأمير ودولته.

وفي الختام يهون الأمر لصاحبه مستدلا بأن التوبة تمحو الذنوب وإن كبرت وتعفو آثارها وإن كثرت، ثم يطلب من الله أن يلهمه مثوبة متينة الأسباب سليمة من الاضطراب قائمة بالحدود وافية بالعهود[3]، كما يختم الرسالة بالدعاء لصاحبه بالسلامة وطول العمر.

---

(1) جذوة المقتبس، ص:115، أعلام المغرب العربي، ص:50.
(2) العطاء الجزيل، ص: 136.
(3) المصدر السابق، ص:137.



ولابن رشيق رسالة ثانية كتبها نيابة عن ولديه العباس وعبيد الله إلى الموفق[1] يعزيانه في موت القاضي الجوهري، ويتبين من خلال الرسالة أن الولدين يعترفان بفضل الموفق عليهما، إذ كانا قد نشآ في حضنه وتحت كنفه ولذا فهما لم يشاركانه في مصابه ويحزنان لحزنه.

كما أورد البلوي لابن رشيق رسالة ثالثة يجيب بها الموفق يذكره فيها بفضله ونعمه التي أسبغها عليه ومننه التي طوق بها عنقه ولذلك فهو يشاركه في لوعته وحزنه ويعترف بالتقصير في ذلك مهما أطنب، ولكنه يعلم أن أخلاق الموفق وحلمه سيجعلانه يتجاوز عن تقصيره.

ثم يختار البلوي رسالة لأبي جعفر اللمائي[2] كتبها إلى أبي جعفر بن عباس يعزيه في أبيه، وهو يعترف بأنه إذا كان لا يجيد التأبين فإنه يجيد البكاء والحنين، وأنه حينما علم بخبر موت الوزير تروع قلبه وجنانه ولم يطق الصبر؛ لأن الميت كان بدرا قد أفل وهلالا قد استقل، وأنه كان قد طوقه بالبر والإحسان ولذا فهو يبكي لفقده دما بدل الدموع، وفي ختام الرسالة يعزي أبا جعفر ويلتمس منه الصبر لينال الأجر والثواب فهو الطريق الموصل إليها.

ويختار البلوي لابن عمر الباجي[3] مجموعة من الرسائل في التعزية بعث الأولى منها إلى أبي عامر يعزيه في وفاة ابنه المعتز بالله، وهو يذكر فيها أنه يشاركه في هذا الحدث الجلل الذي أصابه والفجيعة التي ألمت به وهو مصاب له وقع في النفوس والقلوب، وهو لا يستطيع عليه صبرا لشدة الحزن والأسى. ويقتطف من نفس الرسالة فصلا يذكر فيه صاحبه بأمر الله الذي لا راد له ولا منزع لقضائه العادل، ويدعو صاحبه إلى الصبر والاحتساب للقدر النازل به حتى ينال بذلك ثواب الله وجزاءه.

---

(1) جذوة المقتبس، ص: 115 و 331.

(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 1-186.

(3) المصدر السابق.



وفي رسالة أخرى -ولعلها مكتوبة إلى السابق- يتحدث عن مشاركته لصديق له في عظيم مصابه الذي يعد فقده بمثابة فقد السمع و البصر، ومن رمي به فكأنه رمي بالحوادث والغير. ولكنه يدعوه للرجوع إلى الله الذي يعتصم به العارفون ويرجع إليه المسلمون، كما يدعوه إلى الصبر والاحتساب وهو خليق بذلك لأنه يعلم أن كل نفس ذائقة الموت وأن الناس كلهم إلى الله يرجعون.

ثم يورد البلوي رسالة لأبي عبد الرحمن بن طاهر[1] بعثها إلى المعتصم بالله صاحب ألمرية، عندما كان رئيسا بها وهو يصف له فيها ما أوقعه النصارى من حيف وعيث ببلاد الأندلس، حيث أصبحت يرثى لها بعد أن أصابها ما أصابها من الدمار على يد كل من فِرْدِلَنْد. الذي كان قد نزل بقلعة أيوب وغرسية الذي نزل بسرقسطة ورذمير الذي نزل بوشقة، والمسلمون في كل هذه الجهات تنهب أموالهم وتزهق أرواحهم لا حول لهم ولا قوة ولا قدرة لهم على رد المكروه، سوى اللجوء إلى الله وحده الذي يلجأ إليه في تلافي الأمة وكشف ما أصابها من ضرر تلك الغمة.

وبعد ذلك يختار البلوي رسالة لأبي بكر بن عبد العزيز كان قد بعثها لصديقه محمد بن القاسم[2]، الذي نكبه أمير المسلمين نكبة أصابته من جرائها غمة شديدة، والكاتب يذكر صديقه بأحكام الدنيا المتقلبة التي لا تدوم على حال ففيها سرور وفرح وحزن وألم، ثم يدعوه إلى عدم الأسى والحزن لأن أدبه وعلمه يرفعانه ويعليان من شأنه، كما يطلب منه أن يعتبر نكبة أمير المسلمين له ضربة من ضربات الدهر لا بد أن تنكشف وتنجلي، بإكرامه له مرة أخرى وبإرجاعه إلى منصبه الذي كان يحتله ومكانته التي كان يتميز بها، بالرغم من أنه يعلم أن صاحبه قد ترك الدنيا رافضا لها يائسا من مذهب السائرين على صواها.

---

(1) نفسه 3/ 1 - 86، قلائد العقيان، ص: 66.

(2) قلائد العقيان، ص: 187.



ومن إنشاء أبي عبد الله اللوشي[1] يختار المؤلف رسالة كتبها إلى أمير المسلمين يعزيه في قادة المرابطين الأشاوس، وهو الأمير مزدلي الذي قد جرت بينه وبين السيد القمبيطور مناوشات حربية في مدينة بلنسية.

والكاتب يقرر في رسالته إلى أمير المؤمنين أن الرزء الذي حل به عظيم، ولكنه إن أخطأه وتعداه وبقي هو يحمي ديار المسلمين كان في ذلك الخير كله، كما يعبر عن الألم الذي نزل به إلى حد أن نفسه أصبحت محترقة وعيونه كأنها من كثرة الدموع مغرورقة، وذلك لما كان يتمتع به المتوفى من خصال حميدة، وخاصة صفة الجهاد التي كانت من أدل صفاته وأعظما، ثم يدعو في ختام الرسالة للميت بحسن الشهادة وللأمير بالصبر والسلوان.

ثم يختار المؤلف رسالتين لعماد الدين الأصفهاني[2]، يعزي فيها المسلمين جميعا في وفاة صلاح الدين الأيوبي. وهي رسالة كان من المفروض أن تدرج ضمن رسائل الكتاب المشارقة.

وبعد ذلك يورد البلوي رسالتين لأبي بكر بن مغاور الشاطبي[3]، **الأولى** لعله بعثها لأحد أصدقائه يعزيه في وفاة أبيه، **والثانية** يعزي في الرئيس أبي الحجاج يوسف ابن عيسى. وهو يفتتح الأولى بالدعاء للإمام المعصوم والاسترضاء عن الخليفة الإمام على عادة كتاب الموحدين، ثم يوالي حديثه عن المفقود الذي كان بمنزلة والده ويدعو له بالتوبة والغفران ويذكر المعزى بألا يجزع أو يحزن لأن الجزع والحزن لا يردان فائتا، كما أن الأسف لا يرجع الميت من قبره، ولو كان الأمر كذلك لسالت الدموع من العيون دما، ولكن الموت كما قال بديع الزمان -وخشن حتى لان- فعلى الإنسان أن يتأدب بأدب الصابرين المؤمنين حتى ينال الأجر الجزيل والثواب الجميل.

---

(1) قلائد العقيان، ص: 254.

(2) الفتح القسي في الفتح القدسي، ص: 488.

(3) انظر كتاب ابن مغاور الشاطبي للدكتور محمد بن شريفة.

أما الرسالة الثانية فهي على شكل خطبة تأبين مما يرتجله الناس على قبر الميت بعد دفنه، وهو يستهلها بالحمدلة والتصلية ثم يعدد خصال الفقيد ومناقبه ويذكر أن الإنسان الميت لا ينفعه بعد وفاته سوى عمله الصالح، وأن حسابه من قبل ربه سيكون على تلك الأعمال، ولا شك أن أبا الحجاج ممن سيحاسب حسابا يسيرا لفضله وفضائله ولخصاله التي كان يتمتع بها. ثم يدعو الناس إلى الصبر على المحزون والتسليم للقضاء والقدر، ويدعو في ختام الرسالة لأقربائه بدعوات طيبات صالحات، ثم يشكر الذين حضروا الدفن على تجشمهم للمشاق في سبيل حضور هذه الجنازة المباركة.

أما شيخ الكتاب الموحدين قاطبة أبو عبد الله بن عياش[1]، فيختار له المؤلف رسالة كتبها نيابة عن الخليفة إلى جماعة الموحدين والطلبة والكافة المتواجدين بإشبيلية، يعزيهم في وفاة أبي إسحاق الأحول الذي كان واليا عليها ما بين610هـ إلى 612هـ.

في بداية الرسالة يذكر الخليفة - بقلم ابن عياش- أهل إشبيلية باهتمامه المتزايد بهم وعنايته بمدينتهم رغم بعد المسافة بينها وبين الحضرة، ثم يعلمهم بأنه قد وصله خبر وفاة أبي إسحاق ثم يدعوهم إلى الاتصاف بالأمانة والخلق الحسن، وأنه كانت تربطه بآل إشبيلية رابطة حسنة فيتأنسون به ويتوددون، ولا شك أنهم أحق من يتقبل التعزية فيه ومن يستقبلها بصدر مكلوم وقلب مجروح، ثم يعلمهم بأنه قد عين لهم واليا آخر سيكون خير خلف لخير سلف، وعليهم أن يترقبوا مقدمه ويكونوا خير مساعدين له في أموره حتى تستقيم الأحوال بتلك الجهات، وتسير الأمور على خير ما كانت عليه في الحال والمآل.

ثم أورد البلوي بعد ذلك رسالة لأبي عمرو بن غياث الشريشي[2] يعزي بها من توفي له أحد أقربائه، وهو يدعوه إلى الصبر على النوائب والأرزاء حتى ينال ثواب الله

(1) الذيل والتكملة 6/ 384.
(2) العطاء الجزيل، ص:169.



الذي يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب. ثم يعدد مناقب الميت ويذكر مصائب الدنيا التي نزلت بقوم سابقين مضوا بدون رجعة. ويعزي في ختامها أقرباء المتوفى وأهله ذاكرا أن مآل الجميع سيكون إلى ما آل إليه، وأن مصير كل حي إلى ارتحال داعيا من الله ألا يصيبهم بمكروه، وأن يختم عليهم بصالح الأعمال كما بدأها في أول الأمر.

ويختم البلوي باب التعازي بجملة من رسائله التي دبجها يراعه وكتبتها أنامله، أغلبها في تعزية ولي نعمته أبي إسحاق إبراهيم الأحول الذي كانت تربطه به علاقة وطيدة، وهو يتلهف على موته ويذرف الدموع على فقده. وقد حللنا هذه الرسائل أثناء حديثنا عن نثر البلوي.

- **الباب الثامن عشر:**

خصصه البلوي لرسائل الوصف على اختلاف أنواعها ومواضيعها.

❖ الرسائل المشرقية:

يفتتح البلوي هذا الباب برسالتين لعبد الحميد ابن يحيى الكاتب[1] الأولى منهما في وصف طغيان نهر الفرات، والثانية في وصف جارية كان قد طلب الخليفة من عبد العزيز بن عمر بن هبيرة شراءها وإرسالها له.

في الرسالة الأولى يصور الكاتب كيف أن نهر الفرات قد هاجت أرجاؤه على المناطق المجاورة، فدك الأراضي والتلاع وهدم المنازل والديار وأغرق المواشي والخيام وأصبح لا يمر بشيء قائم البنيان إلا هدمه، فغدوا خائفين وجلين منه لما رأوه من هائل مصبه وإقبال تياره. ولقد أصبح الخليفة حينما وصله خبرطغيان هذا النهر الجارف مرتاعا وجلا، وطلب من الناس التهيؤ للأمر وأخذ الحيطة والحذر حتى لا يصبحوا كمن ضربهم سيل العرم.

(1) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 10.



أما الرسالة الثانية فهي في وصف جارية[1] ويفتتحها الكاتب بقوله، لقد طلب أمير المؤمنين من عبد العزيز بن عمر بن هبيرة أن يشتري له جارية، تكون قد نبتت في بيت من العرب تأدبت بأدبهم ويجب أن تكون رزينة حليمة، منطقها رخيم دقيقة الخصر طويلة الشعر ممتلئة الساقين واسعة العينين، قارئة كاتبة تنشد من الشعر بعضه وتقوم بخدمة الأمير بما يحتاج إليه، أمينة على السر مجيبة للدعوة قليلة الأهل، وفي ختام الرسالة يطلب الخليفة من المشتري أن يحدد الثمن الذي اشتراها به حتى يؤديه له ناجزا كاملا غير منقوص.

❖ الرسائل الأندلسية:

يفتتح البلوي هذا الباب برسالتين لأبي عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط[2]، **الأولى** خاطب بها ابن دري **والثانية** في وصفه قصيدة أهداها لصديق. **أما الأولى** فيصف فيها حال صديق له كان شاعرا، وقد أخبره بعضهم بأنه صاحب منظوم جيد رائق، ولذلك فهو يبعث له قصيدة حبرها من بنات فكره يثني بها على فضله وعلمه، مع الاعتراف أنه مقصر في التعبير لأنه أهدى الدر إلى ناظمه وخلع الوشي على منمنمه. **أما الثانية** فهي أيضا في وصف قصيدة بعثها لصديق له بعد ليلة أنس، وهو يذكر أنها من القصائد الغر رقيقة اللفظ جيدة السبك، ويطلب من صديقه أن ينشدها على أبي عامر ابن شهيد[3] ويكلفه بمعارضتها على نفس القافية والوزن.

ثم يختار لأبي عامر بن شهيد[4] ثلاث رسائل في الوصف **الأولى** في وصف برغوث، **والثانية** في وصف ثعلب، **والثالثة** في وصف الماء وصفائه.

ومما لا شك فيه أن ابن شهيد كان يجيد الوصف شعرا ونثرا، ولذلك وجدنا البلوي يختار له هذه الرسائل ليبرز قدرته على التحليل الدقيق والوصف البارع.

(1) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 197.
(2) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1/ 1-438.
(3) المصدر السابق1/ 1-271.
(4) المغرب في حلى المغرب 1/ 83، والذخيرة 1/ 1- 271.



ففي وصف البرغوث يعطينا ابن شهيد لهذا المخلوق العجيب صفات دقيقة بواسطة التشبيهات التي يصفه بها، فهو أسود كأنه زنجي أو ليل حالك أو نقطة مداد يعب حين يشرب ويثب حين يمشي، لا يخرج إلا بالليل ويدخل على الرؤساء والجبابرة كما أنه يستحل دم كل مسلم ويهتك ستر كل حجاب، ولا يحفل ببواب «شره مبثوث وعهده منكوث وهكذا كل برغوت»[1].

وفي وصف الثعلب يقدم لنا ابن شهيد صورة عن دهائه وفتكه وعن انتهازه للفرص متى وجدها مع حسن اختياره لطعامه وشرابه فلا ينقض إلا على الدجاج أو الحمام ولذلك فهو يشبه «بقراط» في إدامه و«جالينوس» في اعتدال طعامه[2].

أما رسالته في وصف الماء فهو يقدم من خلالها وصفا دقيقا لصفائه وعذوبته من خلال التشبيهات التي يعطينا إياها: فهو أزرق كعيون القطط، أو كلسان شمعة في صفاء الدمعة إذا رفع عن إنسان مات عطشا، وإن قدم له حميت به نفسه وطابت.

ويختار بعد ذلك لأبي محمد عبد الغفور[3] رسالتين:

الأولى منهما في وصف طبق من السفرجل كان قد أهداه لصديق له يخلص له الوداد، وهو يقدم لنا وصفا دقيقا للسفرجل من خلال تشبيهاته له، فهو في شكله كثدي العذارى أو كأقداح مملوءة بماء الذهب يفوق في نكهته نكهة التفاح والعنب، ولعل ثمرة من هذا النوع يحق للإنسان أن يقضمها ويشد عليها أنامله، وبعد وصفه لهذه الثمرة يختم الرسالة بوصف دقيق للصداقة التي تربطه بصاحبه.

أما **الرسالة الثانية** فهي في وصف المطر الذي نزل بعد أن أصاب الناس قحط شديد، وهو يستهلها بوصف عظمة الله وقدرته على إنزال الغيث بعد القحط، وتلك

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1-1/ 1-2، المغرب في حلى المغرب 1/ 83، اليتيمة 2/ 46.
(2) العطاء الجزيل، ص:214.
(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 1-341.



نعمه ينعم بها على الخلق، فمن الواجب عليهم أن يشكروها لأن الماء يحيي الأرض بعد مواتها، فيستبشر الناس به خيراً ويفرح له كل أعجم وناطق، ويشفى به غليل كل قلب عطشان صاد.

ثم يتحفنا البلوي برسالة للفتح بن عبيد الله المعروف بابن خاقان صاحب كتاب «القلائد» وهي أول رسالة يختارها المؤلف لكاتب مرابطي. وهو يصف فيها الأدب الذي يعد في نظره من أجمل ما التحفته همم الناس، لأنه هو الذي يطلق اللسان من عقاله وينطق الإنسان من صواب مقاله، كما يشمل النثر والنظم اللذان تتحلى بهما صدور الملوك وتزين بهما مجالسهم ومنتدياتهم.

ويختار البلوي بعد ذلك رسالتين لأبي عبد الرحمن ابن طاهر، **الأولى** منهما يخبر فيها المنصور بن أبي عامر بالسيل الذي أصاب مدينة مرسية وهد أسوارها وجرف ديارها. وهو من خلال الرسالة يبرز أن السيل كان عظيما قويا، أذهل الأذهان وشغل البيان وأنطق اللسان، حيث ملأ السهل والجبل ودك المنازل والحصون وأصاب الناس والأنعام. ثم توقف بقدرة قادر فكان ذلك من معجزات الخالق حيث غيض الماء لحينه، ولكن بعد أن غير المعالم والآثار وخرب المنازل والديار.

وأما **الرسالة الثانية** فقد بعثها أيضا إلى المنصور بن أبي عامر، وهو يصف فيها صقورا كان قد أرسلها له ويذكره بأنه حصل عليها بواسطة عارف بوكونها وأوكارها، مجرب لأحسنها وأفرهها ولذلك فهي من الصقور المجربة الجيدة، تصيد الطيور بسرعة فائقة وتنقض عليها كالبرق الخاطف، ثم تعود إلى يد صاحبها وهو يطلب من المنصور أن يقبلها منه هدية وأن يكاتبه بعد وصولها.

ثم يختار البلوي لأبي جعفر بن أحمد[1] رسالة في وصف مشموم ورد كان قد أهداه له أحد أصدقائه، فيصف الورود التي اشتمل عليها إذ احتوى المشموم على الأبيض

(1) خريدة القصر 3/ 438.





والأحمر وغير ذلك من الأنواع، وكل هذه الورود تشبه في لونها نور الصبح وحمرة الشفق، ثم يذكره برائحتها التي تشبه المسك وعبيره، ثم يختمها بشكر صاحبه على هديته مفصحا عن حسن خلقه ومشبها أخلاقه بصفات ما أهدى له من الورد.

ومن إنشاء أبي القاسم بن السقاط[1]، يختار المؤلف رسالة يصف فيها فرسا أهداه إلى أحد أصدقائه، وهو جواد أصيل يسبق الجياد في وسط الحلبة منكباه يزاحمان منكب الجوزاء، كما أنه يشبه الظبي في شكله ولونه والنجم أو البرق في عدوه وسرعة انقضاضه، وختاما يطلب من صاحبه أن يضمه إلى جياده وأن يتخذه ليومي رهانه وجلاده.

أما الكتاب الموحدون فيختار البلوي في هذا الباب لثلاثة منهم يعدون من أبرع الكتاب في الوصف وهم: ابن مغاور الشاطبي، وأبو بحر صفوان بن إدريس، وثالث لم يفصح عن اسمه.

أما ابن مغاور فأول رسالة له في الوصف هي تلك التي يصف فيها كلب ماشية وهو من الكلاب التي تهر إذا سمعت الأصوات، سريع العدو حاد الأنياب يبصبص حينما يشعر بالضيف، ويكشر عن أنيابه حينما يحس باللصوص، ويسهر حينما ينام الرعيان فإن أغفلوا عن الماشية حرسها، وإن رأى ذئبا صاده لا تجده إلا أمام الغنم أو وراءها كامنًا، فكأنما كان جده لأصحاب الكهف والرقيم ثامنا، ثم ذكر ابن مغاور لصاحبه أنه اختاره له من الجراء البينة الأصل التي تجرح الخنازير بأسنانها فتفر من مكانه إلى مكانها. وفي الختام يبين لصاحبه أن اقتناء مثل هذه الكلاب جائز في الشرع.

وفي رسالة أخرى يصف وطواطا «طائر الليل» ويذكر أنه لا يملك ريشا، فهو ليس من ذوات القوادم والخوافي، كما أنه ليس بذي أضلاف يكشر عن أنياب كأنه سبع بالرغم من أنه يحلق في السماء كالطير، وهو لا يبيض بل يفرخ كما أنه لا يدح بل ينفخ، يبصر في الليل ولا يرى في النهار، ويهجم على ذوات الإبر كأنما يطلبهن بثأر

(1) قلائد العقيان، ص: 198.





فإن رضيه خادماه له كان له ذلك، وإلا فرأيه أصوب وحجته أقرب ويبدو من ختام الرسالة أنه كان قد بعثها مداعبا بها أحد أصدقائه.

ثم أورد له البلوي رسالة مطولة في وصف ذئب حينما أمر بإخراجه ابن مردنيش[1]، من مدينة شاطبة متشفعا بوزير لأمير المؤمنين الخليفة الموحدي، ويتبين من خلال الرسالة ومن سياقها أنه يرمز بهذا الذئب الموصوف إلى ابن مردنيش نفسه.

يستهل الكاتب رسالته بوصف بعض مزايا الوزير وخصاله، مدركا أنه يستطيع بسياسته الحكيمة أن يميز بين الحق والباطل، وأن يعرف ما لفق ضده من قول ليس سوى زور وبهتان. ثم ينتقل إلى استعراض حالته وكيف خرج بعد أن اشتدت الغوغاء بين الناس، فطلب منه أن يخرج من المدينة راحلا عنها، ليس له أنيس يقطع الفيافي والقفار وحيدا على قدمين ليس له مركوب يستعين به، مما جعله يلقى في سفره نصبا شديدا وأثناء عبوره للفيافي والقفار لقي ذئبا ضاريا دامي الأظفار، وهو مشهور بتلك الأقطار، فظن أن أجله قد حضر بعد أن كشر له عن أنيابه كأنها الرماح يريد الانقضاض عليه ومباغتته، ولم ينجه منه سوى خنجر كان بيده فأجهز به عليه وأثبته في حنجرته فسقط صريعا، وعاين من تخبطه منظرا شنيعا. وبعد ذلك تركه يلبس الرهج «الغبار»، وركب إلى الوزير يطلب منه إنصافه فوجد لديه ما أمله، لأنه من الذين يعتقون الرقاب ويفكون الأسرى وييسرون ما ينال الناس من عسر، ولهذه الأسباب لجأ ابن مغاور إليه طالبا منه أن يتوسط له لدى الخليفة الهمام الفاضل، الذي سيرد له حقه من الذين ظلموه وأخرجوه من منزله ووطنه، وبذلك تستريح نفسه ويقر قراره.

ثم أورد له البلوي رسالة بعثها إلى صديق له لم يفصح عن اسمه وكان مولعا بالتين الصهابي، فيذكر فيها أن الله كسى الشجر أوراقا وجعل لعباده فيها أرزاقا، ولم يترك

(1) العطاء الجزيل، 224.





الناس هملا أو سدى بل نفعهم بشجرة تعين الناس ببرها فتساقط عليهم رطبا جنيا، كما أنها تقيهم البرد والحر، ثمرها يسيل له لعاب الجائع وظلها يستر الخائف الحائر. ويختم الرسالة بأبيات شعرية يصف فيها هذا النوع من التين.

وبعد ذلك يختار البلوي لصفوان بن إدريس[1] رسالة في وصف دابة سيئة، وهي رسالة على شكل مقامة تخيلها الكاتب وأحسن التعبير فيها عن ذلك الحيوان، فهي بغلة كليلة ترغو إلى الشعير رغاء البعير لا تستطيع السير، كسولة خلقها سيء تقعد ولو ضربت بالسوط.

وبعد ذلك يختار له البلوي رسالة في وصف المطر الذي كان مصاحبا ببرق وريح ورعد، وكان صفوان قد بعثها لصديق له، وهو يذكره بأنه بعد مفارقته نظر إلى السماء فوجدها قد تلبدت بالسحاب الثقال، فخاف من عيونها أن تدمع ورب محذور يقع وخدن يصيبه ما يتوقع[2]، فلما وصل إلى منطقة «القناطر» صاحبت السحابة بروق ورعود ثم أنزل الله من السماء ماء مدرارا فلبست الأرض خضرتها وازينت، ولكن صفوان ظل يواصل سيره إلى أن بلغ منطقة «قطرال» فبات هناك في جوار أناس أفاضل، يتجاذب معهم أطراف الحديث إلى طلوع الصبح، فرحل متجها إلى مرسية حيث وجد بها أخا ينتظره، وقد طال مقامه فأراد الهجرة والخروج، إلا أن وصوله إليه قبل رحيله كفاه«مؤنة المشقة وأراحه من قطع تلك الشقة»[3]. أما الرسالة الأخيرة من رسائل الكتاب الموحدين في هذا الباب فهي لكاتب لم يصرح البلوي باسمه، وهي في وصف ديك حيث يذكر صاحب الرسالة أنه كان يملك ديكا مليح الصورة على رأسه تاج من الذهب، كأنه تاج ملك يشبه الطاووس في حلته، عيناه كأنهما قطعة عقيق من شدة الاحمرار له ملقط كأنه صيغ من عنبر أو زمرد أخضر، كان إذا شعر في الجو بطائر رفرف ينذر عشيرته

---

(1) العطاء الجزيل، ص:230.

(2) المصدر السابق، ص:234.

(3) المصدر السابق، ص: 235.



ويخبر ذريته وأهله، خوفا من عقاب أو باز، والكاتب يصف أنه كان كلفا به محبا له حب الوالد لمولوده معجبا بصفاته إعجاب المتمثل بآياته.

- **الباب التاسع عشر:**

خص البلوي هذا الباب لرسائل الهزل والمداعبة والتهكم في المكاتبة، ولم يختر فيها للمشارقة سوى رسالة واحدة لأحمد بن سعيد الأصفهاني الكاتب يداعب أحد أصدقائه.

❖ الرسائل الأندلسية في هذا الباب:

الرسالة الأولى التي اختارها البلوي في هذا الباب هي لأبي جعفر أحمد بن عباس[1]، يجيب بها أبا المغيرة بن حزم، مداعبا إياه واصفا له الرجل الذي بعث له معه خطابا، وصفا يدعو إلى التندر والضحك فهو رجل طويل القامة على شاشيته وسخ وفي لسانه ومنطقه لكنة، ثيابه تشبه ثياب راهب تائه يمشي متباعد الساقين وعلى رأسه عمامة كأنها صنعت في زمن العمالقة، ويلبس طيلسانا رثا كأنه طيلسان ابن حرب، وخفين باليين كأنهما حذاءا يهودي في تآكل نعليهما.

وقد أجاب أبو المغيرة ابن حزم[2] صديقه أبا جعفر أحمد بن عباس برسالة مماثلة، غير أنه أنكر تلك الأوصاف التي أطلقها على صاحبه وعدها من باب الدعابة والهزل.

ثم يختار البلوي لأبي محمد بن عبد الغفور[3] رسالة يداعب فيها أحد أصدقائه، وكان قد مدح له امرأة وحضه على تزوجها وكانت امرأة ذميمة الخلقة، فأخذ الكاتب يصف هيأتها وشكلها ويذم منظرها ويطلب من صديقه أن يأخذها لنفسه بدلا من أن يقدمها لأصدقائه.

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1/ 2-643، المغرب في حلى المغرب 2/ 205.
(2) الذخيرة 1/ 2-648.
(3) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 1-345.



ويختار أيضا لأبي بكر بن قزمان[1] رسالتين: **الأولى** يداعب فيها صديقا له كان قد تزوج ودخل بعقيلته التي راقته وراقها، **والثانية** بعثها جوابا عن رسالة كان قد بعث له بها أحد الأصدقاء وهو يداعبه من خلالها ويذكر له أنه لا يشك في قوته وفحولته، كما أنه لا يظن بصاحبه سوءا إن كبا فرسه أو نبا سيفه.

أما **الرسائل الموحدية** في هذا الباب فقد خصصها البلوي كلها لصفوان بن إدريس[2]، الذي كان في طليعة الكتاب المداعبين خلال هذا العصر، فلا شك أن البلوي كانت قد وقعت بين يديه رسائله وأخباره، فانتقى منها في كتابه هذا مجموعة انفرد بها دون سواه.

في **الرسالة الهزلية** التي بعثها صفوان لصديقين يذكر لهما أنهما زاراه فأبرما حبل مسرته، وأنسا بيته بطلوعهما عليه وحليا الصقع الذي نزلا به فكلاهما إلف إلى قلبه حبيب إلى نفسه، غير أنه يلومهما عن عجزهما لزيارته وتأخرهما عنه، علما بأنهما يثنيان عليه ويحفظان له من الود ما لا عد له ولا حصر.

وفي رسالة ثانية يبلغ صفوان أمانة لوزير كان صديقا له بإخباره بواسطة القلم الذي ينوب في رأيه عن اللسان، أن أحدهم قد بلغه منه كتاب يسلم فيه على الوزير ولكنه كتاب كله هزل ودعابة، وقد أدرك من خلال قراءته للخطاب الموجه إليه أن ذلك الشخص لا ينطوي في نفسه على حب لصاحبه، وأنه وردت في رسالته عبارات فيها تنويه ولكنها تحمل بين طياتها لمزا وتعريضا، بحيث لا يمكن أن تفسر العبارات الواردة في الرسالة تفسيرا جديا بل يجب أن تؤول وتأويلها يؤدي إلى ضدها.

أما **الرسالة الثالثة** التي أوردها البلوي لصفوان فقد وجهها لصديقه أبي عبد الله بن حامد[3]، يخبره فيها بأن أبا علي الذي كان مقدما لدى الوزير أبي الحجاج قد غدا

---

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 2-781.

(2) انظر المقدمة التي كتبها أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة لكتابه: أديب الأندلس أبو بحر التجيبي عمر قصير وعطاء غزير.

(3) الذيل والتكملة 4/ 190، ترجمة رقم 156.



منبوذا لديه ولدى جميع أصدقائه وخلانه، فلا يجد منهم أحدا يسأل عنه أو يقترب منه. وفي الختام يطلب صفوان بن إدريس من ابن حامد أن يقدم لصديقه عزاءه لعله يكسر بذلك سيف هجره، ويسلي عنه كربته التي أصابته ولعله يعود كما كان من قبل فتطيب نفسه وتطمئن جوارحه.

أما الرسالة التي أوردها البلوي لصفوان بعد ذلك، فكان قد وجهها إلى أبي الحسن علي بن حريق[1]، يجيبه فيها عن رسالة كان قد بعث له بها وهو يفتتحها بقصيدة طويلة معبرة المعاني، يمدح فيها ابن حريق ويصفه بتوقد الذهن وسرعة الخاطر، وبالبيان الذي يغني عن كل بيان واللسان الذلق الذي ليس يشبهه لسان، إذا نطق أسكت الحاضرين بدر كلامه، وإن كتب أعجز الكتاب ببيانه وأسلوبه، كما أن وجود شبيه له منعدم ونادر كالأبلق العقوق، ولهذا فصفوان يجله ويقدره ويعتبره من أصدقائه المخلصين الأوفياء، غير أنه يلوم الدهر الذي فرق بينهما مما جعل كل واحد منهما يحن إلى صاحبه ويشتاق لرؤيته. ثم يتعرض صفوان ضمن رسالته إلى الخطاب الذي وجهه له صديقه ابن حريق، فيصفه وصفا دقيقا ويضفي على صاحبه الذي كتبه حللا موشية من الأوصاف منها: أنه بارع التصرف في المنظوم والمنثور، لا يجاريه أحد في أسلوبه ولا يستطيع أن يركب طريقه في البلاغة والبراعة، ولهذا عدل صفوان عن مراجعته في بداية الأمر خوفا من العجز والتقصير.

أما آخر رسالة «لصفوان» في هذا الباب فهي تلك التي كتبها مداعبا أحد أصدقائه وكان يلقب «بالكلبة»، فخرج في سحرة يوم فعضه كلبان[2]. يفتتح صفوان هذه الرسالة ببيت شعري لعدي بن زيد العبادي[3] مضمنه أن ظلم الأقارب يكون شديدا على الإنسان أشد من وقع السيف البتار، ثم يذكر صفوان أنه كان يسمع بحسد

---

(1) زاد المسافر، ص:64، الذيل والتكملة 5/ 275.

(2) العطاء الجزيل، ص:252.

(3) ديوانه، ص: 208.



القريب للقريب، فكان لا يصدق القول ويعتقد أن ذلك أمر شاذ غريب، إلى أن علم بما وقع لصاحبه مع هذين الكلبين اللذين أجهزا عليه وبادراه بأنيابهما، دون تخوف أو تهيب منه كأنهما لم يسمعا باسمه «الكلبة» فصدق الخَبَرُ الخُبْرَ وعلم أنه ليس للإنسان من جنسه صديق أو حبيب.

ثم يلتمس من صاحبه أن يصبر لذويه «الكلبان» وإن قَطَعُوه وقَطَّعُوه، لأنه ليس من خلق الإنسان أن يقابل الجهل بالجهل بل عليه أن يغفر لهم وألا يعاقبهم على سوء فعلهم، وأن يعرض عنهم ويعظهم وأن يصبر على الإيجاع لأن من حسن خلق المرء موافقة الغرباء ومصالحة النسباء[1]، ومن قبيح خلقه مشاجرة أولي الأرحام لأن الذي يريد مداواة الداء بالداء يكون مثله مثل الذي يطفي النار بالحلفاء، وفي الختام يطلب صفوان من العلي القدير أن يزيح عن صاحبه غماء روعه، وأن يصلح بينه وبين أبناء نوعه ويجعل الائتلاف قرة عينه، فالله وحده هو الكفيل بأن يؤلف بينها قلوب، لا يستطيع الإنسان أن يؤلف بينها ولو أنفق ما في الأرض جميعا.

- **الباب الموفي عشرين:** وقد خصصه البلوي للرسائل النادرة في سائر الفنون.

❖ الرسائل المشرقية:

افتتح البلوي هذا الباب كعادته برسائل عبد الحميد بن يحيى الكاتب[2]، الذي لا نشك أنه كان يمتلك نسخة من رسائله، دليلنا على ذلك أن الرسائل الواردة في الكتاب سواء في هذا الباب أو الأبواب السالفة، والتي تصل إلى أربع عشرة رسالة كل هذه الرسائل لم نعثر عليها في مصدر آخر سواء منها المشرقية أو الأندلسية، ومما يقوي زعمنا ويكاد يؤكده أن المغاربة والأندلسيين، كانوا يهتمون منذ العصور الأولى بالتراث المشرقي اهتماما جعلهم يحذون حذوه محاولين في بعض الأحيان تقليده وفي أحيان أخرى

(1) العطاء الجزيل، ص:261.
(2) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 46.



تجاوزه، ولعل هذا الاهتمام هو الذي دفع البلوي إلى اختيار هذه الرسائل، وذلك لاعتبارات زمنية لا سيما إذا علمنا أن عبد الحميد كان إمام الصناعة الكتابية في المشرق، حتى قيل فيه«بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد»[1].

أول رسالة اختارها البلوي لعبد الحميد في هذا الباب هي تلك التي كتبها عن مروان إلى نصر بن سيار، يطلب منه أن يواجه ثورة أبي مسلم الخرساني بكل حزم وعزم، وألا يترك أمره ينتشر بين الناس فتكون الطامة الكبرى، وقد افتتح عبد الحميد رسالته هذه بالتذكير بظهور شيطان مريد يريد أن ينشر الفتنة بين الناس، ويجلب إلى دعوته الأشرار منهم مكرما لأهل الخمول منتحلا ولاية الصالحين، وهو مفارق لهم يغطي أمر دعوته بالرفق واللين حتى يتمكن من استدراج الناس إليه، ويتمكن من الغلبة والظهور ولا شك أن ذنوبه وذنوب من معه ستسلمه وتسلمهم إلى الخزي والعار.

ثم يؤكد مروان في رسالته أنه من الواجب على نصر بن سيار ومن بجانبه من المناصرين للدولة، ألا يتركوا هؤلاء وأن يعملوا بكل عزم على اجتثاث دابرهم لأنهم إن تركوهم نموا وتكاثروا، ولا شك أن الله سينصرهم لأنهم قائمين على الحق وسيخذل من هم قريبوا عهد بعبادة النيران والأوثان، ثم يبين لهم مروان أن الموت في سبيل إظهار الحق خير من الحياة مع هؤلاء المناوئين على ضلال، ثم يدعو لهم في ختام الرسالة بالعاقبة الحسنة والعزة المظفرة والرحمة الدائمة، طالبا من الله أن يمتعهم بعافية الأبدان وسلامة الأديان وطاعة الرحمن[2].

أما **الرسالة الثانية** فهي التي كتبها عبد الحميد إلى أخ له يخبره بمولود له، وكان أول مولود رزقه الله إياه يقول فيها: إنه لم يتعرف موهبة خص بها أعظم وأسرى من هبة ولد، يأمل أن تبقى حياته مذكورة ببقائه وأن يخلفه ويشفع له عند ربه في خلواته أثناء

---

(1) يتيمة الدهر 3/ 158، وفيات الأعيان 5/ 104، البداية والنهاية 10/ 55.
(2) العطاء الجزيل، ص:266.



حجه وصلاته، ثـم يبين أنه قد سر به حيث أنس وحدته، وهوتارة يعانقه وأخرى يحاول مس جسده ولمسه، ويطلب من الله العلي القدير أن يحفظه من مكاره السوء وأن يجلب عليه العافية حتى يشاكل الله نعمة البقاء فيه بنعمة الولادة. وفي الختام يشكر الله الذي امتن عليه بهذا المولود، طالبا منه تعالى أن يوصل له ذلك بالزيادة وطول العمر فهو الوهاب لاشريك له.

ثم كتب عبد الحميد رسالة أخرى إلى أخ له يذكر فيها أنه مرتاح البال، قد صان وجهه وأراح بدنه وأكرم عن الدنايا والخطايا نفسه، وأنه يرضى بالقليل دون الكثير من حطام الدنيا، حتى صار قليل ما هو فيه كثيرا، لا تدخله مشقة البعد ولا ذلة السفر أو الغربة، وأنه مسرور بقرابته وأهله وولده.

أما عبد الحميد - الذي بعث له الرسالة - فهو يصور أنه في تعب دائم كثير الأسفار المملة من أجل نيل حطام الدنيا، لا يقر له قرار ولا يسكن في منزل ولا دار وهو يغبط أخاه على حياته المستقرة وينعى على نفسه كثرة التطواف والترحال.

أما الرسالة الرابعة التي اختارها البلوي لعبد الحميد[1] في هذا الباب، فهي التي كتبها نيابة عن الخليفة، وقد وجهت إلى الناس في أرجاء الدولة، يعلمهم فيها بأن أمير المؤمنين قد أدى فريضة الحج وحضر المشاهد وقضى المناسك ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى، وهنالك رأى عز الإسلام فوجد بهذا المكان من حجيج الآفاق والأمصار جماعات لم ير مثلها في الكثرة والعدد، فامتلأ صدره سروراً وحمد الله على هذه الروح الدينية المتأججة التي تحمل أصحابها على الاستعانة بتعب البدن، وعلى بذل الأموال للقيام بحج البيت طاعة لله واتباعا لسنة رسوله عَلَيْهِٱلسَّلَامُ. وتصف الرسالة كيف خرج أمير المؤمنين إلى عرفات ووقف متضرعا إلى الله، ثم أفاض إلى منًى على أحسن ما تكون عليه الإفاضة، وقد تم كل ذلك من دون أن ينغص أمر أحد من رجالة

(1) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 80.



المسلمين أو ركبانهم، بل كلهم أدوا الفريضة في ظل العافية والسلامة وكذلك كان حظ أمير المؤمنين، وهو يسأل الله أن يجعله حجا مبروراً وعملا مقبولا، وأن يستجيب لدعائه في خاصته وعامته، ويوفقه للخير ويرزقه العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

ثم كتب عبد الحميد[1] رسالة أجاب فيها على لسان أمير المؤمنين من أخبره بدخول شهر رمضان، والخليفة يسأل الله الذي بلغه هذا الشهر المبارك وأدخله عليه بالعافية والسلامة أن يعينه على قيامه، ويرزقه من تقبل عمله واستجابة دعائه وتكفير سيئاته، ومغفرة ذنوبه وخطاياه فيه ما يوجب له به رضوانه ودخول جنته[2].

كما أورد البلوي رسالة أخرى لنفس الكاتب صادرة عن مروان بن محمد أثناء ولايته «بأرمينية»، يخبر فيها أمير المؤمنين بنفر من «القدرية» الذين كان قد أرسلهم معه في الجند الذي صاحبه، ومروان يشكو من هؤلاء سوء نيتهم وينعى عليهم أقوالهم وأفعالهم، لأنه رأى منهم ما لا يرضي الله تعالى فهم يوهنون قدرته وينقضون عرى الإسلام جهاراً دون خوف أو حياء، وقد رأى مروان أن يخبر الخليفة بذلك حتى يرى رأيه الصائب فيهم. ومما لا شك فيه أن هذه الرسالة تكشف بحق عن مشكلة من المشاكل العقدية الكبرى التي واجهت الدولة الأموية، وكادت تقضي على وحدة الجماعة ألا وهي مشكلة العلاقة بين الفعل الالهي والفعل الإنساني أو ماعرف في التاريخ الإسلامي «بمشكلة القول في القدر»[3].

أما الرسالة الأخيرة التي أوردها البلوي في هذا الباب لعبد الحميد الكاتب، فهي التي بعثها إلى ابن البحتري[4] حينما سخط عليه مروان ونعى عليه بعض أفعاله، ويبدو من خلال سياق الرسالة أن الخليفة قد وصله خبر عن أعمال مشينة لابن

---

(1) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص:273.

(2) العطاء الجزيل، ص: 274.

(3) عبد الحميد وما تبقى من رسائله، ص: 126-127.

(4) تاريخ الطبري 14/ 106.



البحتري لم يرضها، فوجد عليه قلبه وهو يهدده ويتوعده إن لم يرجع عن تلك الأعمال، ويدعوه إلى تقديم الاعتذار للخليفة حتى يهدأ غضبه ويسكن روعه.

وقد اختار البلوي لسالم[1] مولى سعيد بن عبد الملك، رسالة كتبها عن هشام بن عبد الملك وجهها إلى سعيد[2] يقول فيها: لقد بلغ أمير المؤمنين كتابك وفهم ماذكرت من تسليط خالد عليك لسانه في مجلس العامة، مستحقراً لقدرك ومستصغراً قرابتك لأمير المؤمنين وإمساكك عنه، تعظيما لأمير المؤمنين وكذلك يفعل آل سعيد في مثل هذه المواقف صمت من غير إفحام وأحلامكم تزن الجبال رزانة، وقد شكر أمير المؤمنين فعلك وجعل أمر خالد إليك إما أن تعزله وإما أن تقره على ماهو عليه، وسيمضي أمير المؤمنين فعلك بالعزل إن عزلته وبالإقرار إن أقررته. ثم يطلب من سعيد أن يكاتب أمير المؤمنين فيما بدا له طالبا أمرا أو متحدثا عن شيء، فسيجد التنفيذ لديه حاضرا لأنه يرعى حقوق أهل بيته وينفذ أوامرهم.

ثم أورد البلوي رسالة لمعن بن زائدة[3] إلى بعض أصدقائه الذين أفرطوا في شكره، وهو يذكر له أن بعض أهل الأدب قالوا إفراط المرء في شكر النعمة توبيخ وأنه قد حاز النعمة بالشكر، ثم يدعوه بالأدب الذي يستوجب منه الإخاء أكثر مما يناله من الإحسان. وقد أجابه ذلك الصديق معبرا عن عجزه عن شكر النعم التي أسداها له، ولكنه مع ذلك لا يقدم له من الثناء إلا ما هو في طاقته، وبذلك تنهمر نعم معن عليه وتغمره عطاياه.

وآخر رسالة مشرقية في هذا الباب هي التي اختارها البلوي للحسن بن وهب[4] كتبها نيابة عن أمير المؤمنين يطلب فيها من أحمد بن الخطيب أن يهدم داره التي بناها

---

(1) الإعلام، 3/ 98.

(2) تاريخ الطبري 2/ 1649، الوزراء والكتاب 68.

(3) وفيات الأعيان 2/ 108، تاريخ بغداد 13/ 235، أمالي المرتضى 1/ 161.

(4) الفهرست 177، معجم الأدباء 3/ 221، تهذيب بن عساكر 4/ 252، إعتاب الكتاب 132.



«بجرجرايا» على غير تقوى من الله، لأن المال الذي وظفه في بناء تلك الدار، كان قد أخذه من حرام، والبناء الذي يبنى على هذه الصورة يكون حريٌّ بأن يهدم.

❖ الرسائل الأندلسية:

أول رسالة اختارها البلوي للأندلسيين في هذا الباب هي لأبي حفص ابن برد[1]، وجهها إلى ابن جهور يذكره فيها بمحاورة جرت بين خمسة ألوان من الرياحين، تم في ختامها تفضيل الورد على غيره من ألوان النواوير والأزهار.

ويجب أن نشير هنا أن هذا النوع من المحاورات لم يقدر للأدب المشرقي أن يعرفه، وإنما تتلمذ فيه على أدباء الأندلس وظهرت صفحة النثر الفني الأندلسي في القرن الخامس ساحرة باهرة بهذا الإطار الرائق من القول[2].

وقد ناقض أبو الوليد الحميري[3] الرسالة السالفة برسالة أخرى، بعثها إلى المعتضد بن عباد وفيها ينكر على ابن برد تفضيله للورد مع أن نور البهار أحق بالتفضيل وفضله باد للعيان بدو النهار، وقد شبهه علماء الشعراء وحكماء البلغاء بالعيون بينما يشبه الورد بالخدود وأشرف الحواس العين وليس الخد حاسة، ثم يستدل على القياس الفاسد ببيت لابن الرومي وموازنة الخدود بالعيون من هذا القبيل فللعيون التفضيل على كل حال.

ثم اختار البلوي لأبي محمد بن الحاج[4] خطبة في نزول الغيث بعد القحط، التي أشار فيها إلى أن الله الواحد الدائم ينزل للناس الغيث بعد القنط، ويرسل الرياح اللواقح لكي تبكي السحب السوافح، ومع ذلك فالناس في غفلة لا يشكرون رب العباد ولا يستغفرون له، بل ينهمكون في المعاصي والمآثم ولا يغيرون أثر الجرائم، ولهذه الأسباب وغيرها

---

(1) العطاء، ص: 278.

(2) ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ص: 138.

(3) البديع في وصف الربيع، ص: 58.

(4) قلائد العقيان، ص: 163، المغرب في حلى المغرب 2/ 167، خريدة العصر 2/ 147.



أصيب الناس بالجدب بعد القحط فذوى الزرع وغارت المياه وحارت الماشية، لكن رحمة الله انتشرت بعد ذلك ممتدة الاطناب فأظهر الله نعمته في أثناء السحاب فسحت وهطلت، ولبثت أياما حيث عمت السهول والحزون والجبال والوديان، فغدت الوجوه مستبشرة، والأرض منيرة نيرة والمواشي والبهائم راضية والمنازل حالية. وفي ختام الخطبة بل الرسالة يطلب ابن الحاج من الناس أن يوالوا ألسنة الجد والاجتهاد في شكر الله وحمده وأن يكثروا من الاستغفار بالليل والنهار، فبالاستغفار تزول الكوارث والمحن وتنقضي الخطايا والإحن.

ثم أعقب البلوي اختياره برسالة لأبي عمر الباجي[1] في نفس الموضوع السابق، وهي رسالة على نمط الخطبة السالفة يذكر فيها الباجي أن لله منحا يبسطها لعباده إنعاما وتنبيها، فهو الذي ينزل الغيث بعد القنط أوبعد إمساك السقيا وتوقف المطر، وحينما ترجف الأكباد طمعا وتذهل القلوب فزعا ينشر رحمته ويبسط نعمته لعباده، فتغدو الأرض وقد ارتوت وتأخد زينها بعد بؤس، فما على الناس بعد ذلك إلا شكر الله على نعمه ومننه التي يمن بها على الخلق أجمعين.

ثم أورد البلوي رسالة أخرى في نفس الموضوع لأبي محمد بن عبد الغفور، وهو يعارض بها رسالة أبي الوليد الباجي السالفة الذكر ورسالة أبي القاسم بن الجد[2].

ومن خلال الرسالة نتبين أن الكاتب يعيد ويكرر أفكار الباجي ومعانيه بأسلوب بديع وبيان منقطع النظير.

ثم اختار البلوي بعد ذلك رسالة لأبي حفص عمر بن صاحب الصلاة [3] في الموضوع ذاته وهو يعبر فيها عما أصاب الناس من قحط، وكيف أمسك الله الغيث عن عباده مدة

(1) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 2/ 1- 196.
(2) المصدر السابق 2/ 1- 342.
(3) الذيل والتكملة 5/ 2-472.



فغدت الأرض مغبرة مجدبة إلى أن تداركهم الله بإنزال المطر، الذي أحيا الأمال في النفوس فعادت مطمئنة مستبشرة برزق ربها ورحمته، وبذلك أصبح زمانهم جديدا وزارعهم سديدا، فهم بذلك يحمدون الله على تلك المنة العظمى التي أجزلها لهم والمنحة الكبرى التي منحهم.

ويختم هذا النوع من الرسائل التي كتبت كلها في موضوع واحد برسالة لأبي عمرو عثمان بن علي بن عثمان بن الإمام[1] الإستجي، وقد وجهها إلى صديق له يعرف بأبي القاسم ويفتتح ابن الإمام رسالته بذكر صفات صديقه الحميدة، فيثني عليه ثم ينتقل إلى الاسترسال في وصف حالة الناس والأرض بعدما أصابهم جدب وقحط وكيف أصبحوا في ضيق مما أصابهم الله به، وكيف أن الأرض أصبحت مسودة مغبرة والأنعام تشكو مما لا قبل لها به، ثم يبين كيف أن الله أرسل رحمته على عباده بإنزال الغيث الذي أحيا النفوس وأعاد الاستبشار إلى الوجوه بله القلوب. ويختم الرسالة بالحمد والشكر لله على نعمه التي لاتنضب، ومننه التي لاتنقطع على الخلق دون تمييز بين صالح أو طالح، وبذلك يتأكد قوله تعالى «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ».

ثم اختار البلوي بعد ذلك رسالة للقاضي عياض[2]، يُحمل فيها الفتح بن خاقان تحية للرئيس أبي عبد الرحمن ابن طاهر[3] وفصلا من رسالة له لم يذكر فيها اسم المرسل إليه.

وهو في الرسالة الأولى يثني على صاحبه الفتح بن خاقان ويحليه بتحلية جيدة، فهو وحيد عصره في الكتابة يتسنم فيها مركزا عاليا، ولذلك فهو يحمله أمانة تبليغ هذه التحية إلى الوزير الطاهر بن الطاهر داعيا إياه بتبليغ سلامه المشفوع بصريح الحب والوداد.

أما الفصل الذي اقتطفه من رسالته الأخرى فهو يعبر فيه صراحة أنه لابد لكل عصر من رجال يحلون عاطله وينشرون فضائله، ولكل مجال من رجال ينهضون بأعبائه

(1) التكملة ترجمة رقم 1683، الذيل والتكملة 5/ 1- 135.
(2) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، القاضي عياض الأديب لعبد السلام شقور.
(3) قلائد العقيان، ص: 258.



ويهيمون في كل واد بأنبائه، على الرغم من أن سوق الأدب أصبحت في هذا العصر كاسدة وناره خامدة[1].

ثم أورد البلوي في هذا الباب رسالة فريدة لأبي حسن القرشي العامري[2]. وقد وجهها إلى قبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي الرسالة الدينية الوحيدة واليتيمة التي اختارها البلوي في هذا الكتاب.

ويذكر القرشي في مقدمة رسالته أنه وجهها إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شافعا ذلك بأوصافه، إذ بين أنه منقذ الناس من الحيرة يقتبسون من نوره ومن رسالته السمحة التي جاء بها وأمر بتبليغها، والكاتب يتأوه اشتياقا للرحلة إلى قبره الشريف غير أنه لم يستطع القيام برحلة إلى المقام الكريم لعوائق عاقته وشواغل منعته، ولكنه مع ذلك يتذكر بقلبه ونفسه الحجاج ومناسكهم بدءا من الطواف بالبيت ووقوف بعرفات إلى نزول بالمزدلفة. وفي ختام الرسالة يطلب القرشي من الله العلي القدير متوسلا إليه أن يكرمه بالوفادة على قبره الشريف، وأن يوفقه بالاستفادة منها كما وفق غيره من المسلمين طالبا منه تعالى أن يبلغه مقصده وينيله مطلبه.

بعد الرسائل السالفة التي اختارها المؤلف لكتاب مشارقة وأندلسيين، ينتقل إلى الكتاب الموحدين مفتتحا هذا الباب برسائل ابن مبشر وهي عديدة ومتنوعة أغلبها في موضوع طلب رفع الظلم عن العامة، أوعن الذي أصابهم جور من العمال أو الولاة أو القضاة الموحدين، وهذا يدل على أن بعض الجهات الموحدية كانت الفوضى ضاربة بها أطنابها.

وجه الكاتب رسالته الأولى إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن الموحدي[3] يطلب فيها أحد من نالهم جور وظلم من عتيق بن مكسور الجنب[4]، كان قد أطلق

(1) أزهار الرياض 4/ 4.
(2) الذيل والتكملة 5/ 1-287.
(3) المن بالإمامة، ص: 206.
(4) الذيل والتكملة 8/ 1-286.



يده في المسلمين بعد أن نال حقهم وملأ قلوبهم ذعرا وارتياعا، مما جعل الناس يشتكون من تصرفه وسوء معاملته طالبين من الخليفة إنصافهم والأخذ بيدهم من سوء تصرفه ومعاملته.

أما الرسالة الثانية، فقد كتبها بن مبشر عن رجل قُتل أخوه ظلما فرفع قضيته إلى الخليفة أبي يعقوب الموحدي[1]، شارحا له النازلة كيف حدثت وكيف أن أخاه قد قتل من قبل شريك له، ففر ثم عاد يتوعد الأخ الثاني الطالب بثأره ويتهدده ومن ثم فهو يطلب من الخليفة أن يبعث إلى طلبة الموحدين، كي يتمكنوا من القبض عليه ومحاكمته حتى يعم الأمن في البلاد بين الناس والعباد.

ثم كتب ابن مبشر رسالة إلى الأمير أبي يعقوب على لسان أحد الرعايا وهو يشكو فيها من ظلم أصابه من إخوته، ويفتتح الرسالة بالدعاء للخليفة والترضية على الإمام المهدي ثم يذكر أن المشتكي قد جار عليه إخوته أثناء اقتسامهم للميراث، فلم يفرضوا له فريضة بل هضموا حقه ولم يسلموه حصته كاملة، وهو يلتمس من الخليفة أن يحكم بينه وبين إخوته حتى يأخذ حقه كاملا غير منقوص، ثم يختم الرسالة بالدعاء للخليفة.

أما الرسالة الثالثة، فقد كتبها ابن مبشر على لسان أحد الرعايا الذين أصابهم جور وظلم من بعض التجار، والكاتب بعد الدعاء للإمام المهدي وخليفته الناصر يعرض شكواه ويفسر حالته، فيذكر أنه اعْتُدِيَ عليه من قبل بعض التجار فطلبوا منه أن يؤدي نصيبه في سوق السماط، وقدر هذا النصيب ثلاثمائة دينار مع العلم أنه لم يكن تاجرا بهذا المكان، ولم يختلط بأهله قط ومن ثم فقد رفع أمره إلى الخليفة، ويتمنى أن ينصفه بإبطال هذا الباطل الذي ألزم به، وأن يرد عليه حقه ثم يختم الرسالة بالدعاء للخليفة شاكرا فضله وعدله.

---

(1) الحلل الموشية، ص: 157.





ثم يكتب رسالة أخرى إلى أبي يعقوب الموحدي وهي موجهة من امرأة أصابها ظلم من قبل زوجها، والكاتب بعد الحمدلة والترضية للإمام المعصوم والدعاء للخليفة يتعرض لوصف حالة هذه الزوجة، التي كان زوجها يعاشرها معاشرة سيئة حيث كان يتمادى في إضراره لها، وقد طلبت منه أن يطلقها واختلعت منه بمال كثير ولكنه لم يجبها إلى طلبها ولم يرد مفارقتها، بالرغم من أن الناس يشهدون على سوء معاملته لها وقبيح عشرته معها، وهي تطلب من الخليفة الموحدي أن يكشف عنها بأساءها وشدتها، ويرفع عنها السوء الذي أصابها داعية للخليفة بالنصر والتأييد في العاجل والآجل.

ويوجه ابن مبشر - نيابة عن بعض الرعايا - رسالة إلى أحد القضاة يطلبون منه أن يأخذ لهم حقهم من شخص كان قد قدمه القاضي على ميراثهم، فاهتضم حقوقهم ونالهم منه عسف وخسف كثير، فغدوا لا يعرفون مبلغ مالهم وهم يخافون من ضياعه خاصة وأن الموكل عليهم قد وعد بخدمته في المخزن، فعند ذلك لا يستطيعون مطالبته بمالهم خوفا منه وحرجا من سطوته وسلطته.

ثم يرفع ابن المبشر رسالة أخرى إلى قاض من القضاة الموحدين على لسان جماعة من الناس، كان قد قدم عليهم شخص سيء السيرة والأخلاق، وهم يطلبون من القاضي أن يرفع أذاه عنهم وأن يقصيه من خدمته تلك، حتى تعود الحقوق إلى نصابها ويدخل الناس تحت العدالة التي يجب أن تكتنفهم في ظل الخلافة الموحدية.

ويكتب ابن مبشر رسالة إلى أحد القضاة وهي موجهة من فقيه عرف بحسن سيرته وتدينه، لكنه أصيب بقول زور وبهتان فسجن ظلما وعدوانا من قبل بعض المحتسبين، بعد أن ظن أنه قد باع «حلقات» مغشوشة في سوق السقاطين لحداد هناك، فسجن الرجلان معا لكن الحداد أطلق سراحه بينما ظل هو يرسف في قيده. وهو يرغب من القاضي أن ينظر في أمره وأن يتوخى في ذلك السداد والصواب حتى يعود الحق إلى نصابه، والفقيه المظلوم تحت ظل العدل ويكتنفه باب من أبوابه.



ثم كتب ابن مبشر رسالة أخرى إلى أحد القضاة يلتمس منه فيها أن ينظر في شأن طالب حافظ للقرآن رمي بإفك وزور، فسجن وطال حبسه فهو يتوسل إلى القاضي المذكور أن يرفق به ويرحمه ويخرجه من سجنه.

ثم كتب رسالة أخرى إلى أحد القضاة على لسان زوجة أساء زوجها معاشرتها واستطال عليها بالضرب والشتم، فما هو بممسك بإحسان ولاهو مسرح بمعروف.

وقد طلبها أن تتخلى له عن مال جسيم ففعلت، ولكنه أبى تطليقها أو فراقها وهي تستنجد بالقاضي العادل وترجو منه أن يفكها من هذا الزوج الظالم.

وبعث رسالة أخرى إلى أحد القضاة - على لسان امرأة - يطلب منه أن ينظر في حالها بعد أن رميت بالإفك والزور وسجنت، حتى غدا سجنها كأنه قبر لها وهي تلتمس من القاضي ومن عدله وقسطه أن يعجل سراقها وأن يرفق بحالها.

ثم وجه رسالة أخرى إلى أحد القضاة من امرأة قد مطلت في ميراث لها من قبل زوجة أبيها التي ادعت كذبا وزورا أن في بطنها حملا ترجو نزوله، ولذلك فالميراث سيكون لها وحدها إن حصل ذلك، ولكن المشتكية تعلم أن زوجة أبيها لا جنين في بطنها، وأنها تدعي ذلك فحسب حتى تفوت عليها ميراثها وهي تطلب من القاضي أن يرسل إليها من النساء من يستطعن الكشف عن حقيقتها ومعرفة مدى صحة دعواها من كذبه، فإذا تم له ذلك أمكنه أن يفصل بينهما بالعدل والإحسان وأن يرد الحق إلى أصحابه.

ثم وجه ابن مبشر رسالة أخرى لقاض وهي من أحد الرعايا يلتمس فيها من القاضي المذكور أن يسرحه من سجنه بعد أن طالت مدته فيه، وأن يخرجه من هذا الخناق الذي طوق به وهو يعترف بأنه كان قد أذنب في حق صهره، وأنه تائب من ذلك توبة نصوحا مقلع عن خلقه السيء عائد إلى الطريق المستقيم.

وختاما يوجه الكاتب نفسه إلى أحد القضاة الفقهاء رسالة من أحد الرعايا كان قد سجن وأدب بسبب ضربه المبرح لمملوكة كانت لزوجته، وهو يلتمس من القاضي



المذكور أن يمن عليه بتسريحه من سجنه وأن يوليه من فضله وامتنانه ما يرد به وحشته أنسا وعسره يسرا، داعيا للقاضي بطول العمر «يقيم الحقوق ويميز البر من العقوق»[1].

ثم اختار البلوي لأحد كتاب الموحدين المشهورين وهو ابن مغاور الشاطبي[2] رسالة يصف فيها دخول شهر رمضان، وهو يعدد فضائل هذا الشهر المبارك ومزاياه مستشهدا بما قال فيه الحق سبحانه على لسان نبيه المصطفى، في حديث قدسي شريف «عمل ابن آدم كله له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»[3]. ثم يبين الكاتب كيف شرف الله الصيام وفضله على جميع شرائع الإسلام، داعيا إلى وجود صيامه دون نفاق أو رياء احتسابا لثواب الله وتنزيها للنفس وسائر أعضاء الجسم من أدران المادة وأوساخها، تقربا إلى المولى وحينذاك يدخل العبد الصائم إلى قبة الفوز والنجاة وينال الرضا في الدنيا والآخرة.

بعد ذلك انتقل البلوي إلى رسائل صفوان بن إدريس[4] التي اختار منها مجموعة وافرة، ويبدو من خلال هذه المختارات أنه كان يملك مجموع رسائله وأنه كان معجبا بنثره إعجابا شديدا، فلم يختر لأحد من معاصريه أو سابقيه عددا مماثلا من الرسائل والمكاتبات التي اختارها لصفوان. وهو يفتتح هذا الباب برسالة سماها صفوان: «شرك العقول ومسرح الأنس المعقول»[5]، وكان قد وجهها إلى صديق له لم يفصح عن اسمه بعد أن تركه بمرسية وسافر هو مع والده إلى شاطبة حينما تولى قضاءها وذلك سنة 582هـ.

---

(1) العطاء الجزيل، ص:308.
(2) زاد المسافر، ص: 79، التكملة، ص: 578، معجم أصحاب الصرفي، ص:243، المغرب في حلى المغرب 2/ 385، تحفة القادم، ص: 28-29.
(3) حديث شريف.
(4) زاد المسافر.
(5) العطاء الجزيل، ص:310.



ويستهل صفوان هذه الرسالة بالحديث عن الجيران الذين خلفهم وراءه بعدما سافر، فيذكر صفاتهم وما كانوا يتميزون به من مجد ورفعة ويضفي عليهم من التحلية ما يفهم منه أنهم كانوا من الطبقة العليا من الناس علما وأدبا وخلقا، ولذلك فهو يتأسف على فراقهم ويتحسر على الأيام التي قضاها بجانبهم مسرورا هنيء البال مرتاح الضمير، وينحى باللائمة على الدهر الذي فرق بينه وبينهم. وفي ختام الرسالة يذكر أنه حينما دبجها أثناء إقامته بشاطبة أسمعها للوزير الكاتب أبي بكر بن مغاور، فتلقاها بحسن الإصغاء واستقبلها بالثناء الحسن، وحين فراغه منها ترامى على يديه فقبلها فسأله صفوان عن ذلك فقال له: «بيعة المعترف المسلم»[1]، وطلب منه أن يذيع الرسالة لجودتها وحسن سبكها.

ثم اختار البلوي لصفوان رسالة أخرى يظهر من سياقها أنه يخبر الخلافة الموحدية بوجود شخص بين أظهر الناس سيء الأخلاق سئم الناس أهاجيه وسوء معاملته، والكاتب يتمنى أن يقتص الخليفة منه ويأخذ للناس حقهم من سلوكه وفعله، وهو لايصرح في رسالته باسمه بل يرمز له معددا صفاته الدنيئة.

تلك هي أهم الأبواب التي اشتمل عليها الكتاب وهو بذلك يمثل حسب ما توصلنا إليه أهم مصدر للرسائل الديوانية والإخوانية التي تربو في عددها على خمسين ومائتي رسالة لأزيد من تسعة وستين كاتبا من مختلف العصور الأدبية مشرقا ومغربا كما أن هذا المجموع يمثل أهم ما أنتجته قرائح عدد هائل من الكتاب في فن الترسل.

والكتاب يمثل بحق مصدرا مهما من المصادر الأدبية الأندلسية، وينطوي كما يقول أحد الدارسين[2] على قيمة تاريخية هامة تتجلى في كبريات الأحداث التي وقعت في شتى العصور من عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى العصر العباسي في المشرق وانتهاء بالعصر الموحدي في المغرب والأندلس.

(1) العطاء الجزيل، ص: 312-314.

(2) إدريس العلوي البلغيتي، مجاميع فن الترسل، ص: 60.



وختاما يمكننا القول بأن هذا المجموع الذي حققناه بل أنقذناه من الضياع والتلاشي يعتبر من المجاميع الأندلسية النادرة التي تحتفظ بقيمتها التراثية المتميزة.

❖ عملي في تحقيق الكتاب:

بعد الاطلاع على النسخة الوحيدة الفريدة التي تحتفظ بها الخزانة الحسنية كنا نعود إليها بين الحين والآخر في نفس الخزانة رغم أننا كنا نتوفر على مصورة لها؛ ذلك أننا لاحظنا أن المصورة وحدها لا يمكن أن تفك لنا ألغاز الكتاب فكنا نتردد على الخزانة الحسنية العامرة بين الحين والآخر من أجل إخراج النصوص وفك طلاسمها لصعوبة النص من جهة وقدم ورقه وتآكله من جهة أخرى. وهكذ عمدنا إلى كتابة النص من المخطوط ثم حاولنا ترميمه بواسطة الرجوع إلى المصادر والمراجع العديدة التي ساعدتنا في تقويم نصوصه وضبطها. وأهم هذه المصادر هي أمهات كتب الأدب واللغة ومجاميع الكتاب ودواوين الشعراء، كما عمدنا إلى التعريف بالكتاب الذين عرض المؤلف لرسائلهم وإنتاجهم الفكري؛ كما شرحنا ما أشكل من اللغة المضمنة له النصوص وما ورد فيها من أمثال وتضمينات.

كما خرجنا الآيات والأحاديث الواردة في تلك النصوص وترجمنا للأعلام من الكتاب والشعراء الذين ورد ذكرهم في المخطوط وعددهم ليس بقليل؛ وأشرنا في هوامش الكتاب إلى المراجع التي استعنا بها في الضبط والشرح والتحقيق.

وأخيرا وضعنا للكتاب فهارس عامة ومتنوعة للموضوعات والكتاب وللأشعار والأعلام.

كما ضبطنا النص بالشكل التام حتى يسهل على القارئ والمتلقي الاستفادة من الكتاب بصورة يكون بها مطمئنا وواثقا من العمل الذي يقرأه ولتفتح له مجال البحث والاستزادة.

كتاب

العطاء الجزيل في كشف غطاء الترسيل

لأبي القاسم أحمد بن محمد البلوي (ت: 575-657هـ)

قسم التحقيق

الباب الخامس عشر

في الإهداء والإتحاف والاستدعاء والاستزارة والاستجداء والاعتذار والإسعاف



رِجَالُهُ:

الحَسَن بْنُ وَهْب - أَبُو القَاسِم الهمذَاني - بَدِيعُ الزَّمَان - أَبُو الفَتْح بْنِ أَبِي الفَضْلِ بْنِ العَمِيد - أَبُو العَيْنَاء - أَبُو إِسْحَاق النَّيْجَرمِي - أَبُو العَبَّاس بْنُ رَشِيق - ابْنُ بُرْدٍ الأَصْغَر - أَبُو الوَلِيد المُلَقَّبُ بِحَبِيب - أَبُو عُمَرَ بْن حَجَّاج - أَبُو مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الغَفُورِ - أَبُو عَبْد الرَّحْمَان بْنِ طَاهِر - أَبُو المُطَرِّف بْنِ الدَّبَّاغ - أَبُو القَاسِمِ بْنِ الجَدِّ - أَبُو القَاسِمِ ابْنِ السَّقَّاط - أَبُو الفَضْلِ ابْنِ حسدَاي - عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَيَّاش - أَبُو بَحْر صَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيس - أَبُو زَيْد بْنِ يَخْلفْتن الفَازَازِي - أَبُو بَكْر بْنِ مُغَاوِر الشَّاطِبِي - ابْنُ حَفْصُون - أَحْمَد بْنُ مُحَمَّد البَلَوِي.

فَمِنْ إِنْشَاءِ الحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ: فَصْل:

ولمَّا سَبَقَنِي أَهْلُ الوَسَائِلِ بِكَتْبِ إِخْوَانِكَ إِلَيْكَ سَبقْتُهُمْ إِلَى حُسْنِ الظَّنِّ بِكَ. فَخَفَّفْتُ عَنْكَ مَا...كتبهُمْ فلَمْ أَسْتَعِنْ عَلَيْكَ إِلَّا بِكَ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ إِلَى نَفْسِكَ أَفْضَلُ وَسِيلٍ وأَكْرَمُ شَفِيعٍ فَإِنْ رَأَيْتَ - جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ - أَنْ تَصْرِفَنِي بِسُرْعَةِ الإِنْجَازِ وتَغْسِلَ بِإِنْجَازِكَ عَنِّي وَضَرَ الإِعْوَازِ وتُزَوِّدَنِي مِنَ ... الإِمْكَانِ، فَعَلْتَ.

وَلَهُ فِي اعْتِذَار:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ وَأَدَامَ كَرَامَتَكَ أَنَا أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - مِنَ التَّخَلُّفِ وَلَوْ جِئْتُكَ مَا اعْتَذَرْتُ مِنَ المَجِيءِ لأَنِّي لَمْ أَكُنْ آمُلُ بِلُقْيَاكَ بُرْءاً مِنَ التَّعَبِ بِلِقَاءِ مَنْ يَسُوءُ أَدَبُه وَيُطِيلُ جُلُوسَه وَيُكَلِّفُكَ مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِه. واللهُ يَعْلَمُ أَنِّي ما ... بِتَخَلُّفِي عَنْكَ. فَأُحِبُّ مِنْكَ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - أَنْ تُعَرِّفَنِي بمَآلِكَ حِينَ كِتَابِي حَتَّى كَأَنِّي لَمْ ... يَجُوزُ أَنْ أَصِيرَ إِلَيْكَ فِي وَقْتِ انْتِصَافِ النَّهَارِ عِنْدَ خِفَّةٍ مِنَ العِلَّةِ. وَقَلَّدْت مَنْ يَحْضُرُ بِالبَابِ فَعَلْت. إِنْ شَاءَ اللهُ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، وَقَدَّمَنِي قِبَلَكَ، والسَّلَامُ.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي القَاسِمِ الهَمَذَانِي إِلَى البَدِيعِ[1]:

قَدْ كَتَبْتُ لِسَيِّدِي حَاجَةً إِنْ قَضَاهَا وَأَمْضَاهَا ذَاقَ حَرَارَةَ[2] العَطَاء. وَإِنْ أَبَاهَا وَفَلَّ شَبَاهَا[3] لَقِيَ مَرَارَةَ الاسْتِبْطَاءِ؛ فَأَيُّ الجُودَيْنِ أَخَفُّ عَلَيْهِ[4] أَجُودُهُ بِالعِلْقِ[5] أَمْ جُودُهُ بِالعِرْضِ وَنُزُولُهُ عَنِ الطَّرِيفِ[6] أَمْ عَنِ الخُلُقِ الشَّرِيفِ؟.

وَمِنْ إِنْشَاءِ بَدِيعِ الزَّمَانِ جَوَاباً لأَبِي القَاسِمِ الهَمَذَانِي[7]:

جُعِلْتُ فِدَاكَ هَذَا طَبِيخٌ، كُلُّهُ تَوْبِيخٌ، وثَرِيدٌ كُلُّهُ وَعِيدٌ، وَلُقَمٌ، إِلَّا أَنَّهَا نِقَمٌ، وَلَمْ أَرَ قِدْراً أَكْثَرَ مِنْهَا عَظْماً، ولا آكِلًا أَكْثَرَ مِنِّي كَظْماً، وَلَمْ أَرَ شُرْبَةً أَمَرَّ مِنْهَا طَعْماً وَلَا شَارِباً أَتَمَّ مِنِّي حِلْماً، مَا هَذِهِ الحاجَة؟ وَلْتَكُنْ حَاجَتُكَ مِنْ بَعْدُ أَلْيَنَ جَوَانِبَ، وَأَلْطَفَ مَطَالِبَ، تُوَافِقُ قَضَاءَهَا وَتُرَافِقُ ارْتِضَاءَهَا. إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الفَتْحِ بْنِ أَبِي الفَضْلِ بْنِ العَمِيد... عَنْ وَالِدِهِ أَبِي الفَضْلِ[8]:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - قَدِ اغْتَنَمْتُ اللَّيْلَةَ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ يَا سَيِّدِي وَمَوْلَايَ رَقْدَةً مِنْ عَيْنِ الدَّهْرِ، وانْتَهَزْتُ فُرْصَةً مِنْ فُرَصِ العُمْرِ، وانْتَظَمْتُ مَعَ أَصْحَابِي فِي سِمْطِ الثُّرَيَّا، فَإِنْ لم تَحْفَظْ عَلَيْنَا النِّظَامَ، بِإِهْدَاءِ المُدَام، عُدْنَا كَبَنَاتِ نَعْشٍ وَالسَّلَامُ.

---

(1) انظر الرسالة في رسائل بديع الزمان، ص: 97، زهر الآداب 3/ 732.

(2) في الزهر: (حلاوة).

(3) شباة كل شيء حد طرفه وقيل حده وجانبه (اللسان).

(4) خرم بالأصل والتصويب من زهر الآداب.

(5) العلق: المال الكريم والنفيس سمي كذلك لتعلق القلب به.

(6) الطريف والطارف من المال: المستحدث وهو خلاف التالد والتليد.

(7) الرسالة توجد ضمن: رسائل بديع الزمان، ص: 97.

(8) انظر اليتيمة: 3/ 182.



وَمِنْ إِنْشَاء أَبِي إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بْنِ عُبَيْدِ اللهِ النَّيْجَرَمِي فِي القَلَمِ إِلَى أَبِي عِمْرَانَ بْنِ رَبَاحٍ[1].

لَمَّا كَانَ القَلَمُ مَطِيَّةَ الفِكْرِ لِلْبَيَانِ، ومُخْرِجَ الضَّمِيرِ لِلعيانِ، ومُسْتَنْبِطَ مَا تُوَارِيهِ ظُلَمُ الجِنَانِ، إِلَى نُورِ البَيَانِ، وَمُزِيحَ الفِطَنِ العَوَازِبِ، وَجَالِبَ الفِكَرِ الغَرَائِبِ، ولِسَانَ الغَائِبِ، وَبَزَّ الكَاتِبِ، وَمَكْتَبَ السَّائِبِ، وَمُفَرِّقَ الحَبَائِبِ، وَعِمَادَ السَّلْمِ وَزِنَادَ الحَرْبِ، وَيَدَ الحِدْثَانِ، وَخَلِيفَةَ اللِّسَانِ، وَرَأْسَ الأَدَوَاتِ الَّتِي خَصَّ اللهُ بها الإِنْسَان، وَشَرَّفَهُ بِهَا عَلَى سَائِرِ أَصْنَافِ الحَيَوَان، وَمَرْكَباً لآلَةٍ تقَدَّمَتْ كُلَّ آلةٍ، وَحِكْمَةً سَبقَتْ فِي الإِنْسَانِ كُلَّ حِكْمَةٍ، وَقِيَاماً[2] لِهَنْدَسَةٍ عَقْليةٍ وَمُصَوِّراً لعَقْلِ العَاقِلِ، وَجَهْلِ الجَاهِلِ.

النَّاقِلُ إِلَيْنَا حِكَمَ الأَوَّلِينَ، وَحَامِلُهَا عَنَّا إِلى الآخَرِينَ، الحَافِظُ عَلَيْنَا أَمْرَ الدُّنْيَا والدِّين، أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللهُ بأَمْرِهِ فَسَبَّحَهُ[3] وَمَجَّدَهُ وَحمِدَهُ وَسَجَدَ لَهُ وَكَانَ لَهُ فُرْسَانٌ خُلِقَ لَهُمْ وَكُنْتَ عَمِيدَهُمْ، وَأَقْرَانٌ قُصِرَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ صِنْدِيدَهُمْ، وَمَيْدَانٌ كُنْتَ زَيْنَهُ، وَمِضْمَارٌ كُنْتَ عَيْنَهُ، وَحَلْبَةٌ كُنْتَ سَابِقَهَا، وَمُعْجِزَهَا، وَغَايَةٌ كُنْتَ مَالِكَهَا وَمُحْرِزَهَا. وَرَمَتْ بِي الأَيَّامُ إِلَى مَعْدِنِهِ الَّذِي أَتَى بِهِ[4]، وَعُنِيتُ بِطَلَبِه فَظَفِرْتُ مِنْهُ بِقِدْحٍ فَذٍّ أَوْحَد، فَرْدٍ فِي مَنْبِتِهِ، قَدْ تَسَاعَدَتْ عَلَيْهِ السُّعُودُ فِي فَلَكِ البُرُوجِ حَوْلاً كَامِلاً، يُؤَلِّفُهُ مُخْتَلِفُ أَرْكَانِهَا وَطِبَاعِهَا، وَمُتَبَايِنُ أَنْوَائِهَا وَأَنْحَائِهَا، وَتُؤَيِّدُهُ بِقُوَاهَا وَجَوَاهِرِهَا، حَتَّى غَذَتْهُ عِرْقاً فِي الثَّرَى مُعْرِقاً، وَأَرْضَعَتْهُ نَاجِماً، وَسَقَتْهُ مكعباً، وَأَرْوَتْهُ مقضباً، وَأَظْمَأَتْهُ مُكْتَهِلاً، وَلَوَّحَتْهُ مُسْتَحْمِداً، وَجَلَّلَتْهُ بَهَاءَهَا، وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ عُنْوَانَهَا، وَأَوْدَعَتْهُ أَعْرَاقَهَا وَأَخْلَاقَهَا[5]، حَتَّى إِذَا شُقَّ بَازِلُهُ، وَرَقَّتْ شَمَائِلُهُ، وابْتَسَمَ مِنْ غِشَائِه، وَنَادَى مِنْ لِحَائِهِ،

(1) انظر: زهر الآداب 3/ 671.
(2) الزهر: (وقواما).
(3) الزهر: (بأمره وسبحه).
(4) الزهر: (كلفت به).
(5) الزهر: (أعراقها وأوراقها).



وَتَعَرَّى عَنْهُ حَرُّ المصِيفِ[1]، بانْقِضَاءِ الخَرِيفِ، وَانْكَشَفَ عَنْ لَوْنِ البِيضِ المَكْنُون، والصَّدَفِ المَخْزُون [وَدُرِّ][2] البِحَار، وَفتاقِ الجُمَّار[3] رِيىءَ مِنْهُ يَقَقُ[4] العَاجِ، بِنَقْبةِ الدِّيبَاجِ[5] وَقَمِيصِ الدُّرِّ[6] بِطِرَازِ النَّسَّاجِ، فاجْتَمَعَتْ لَهُ زِينَةُ الأَيْدِي [البَشَرِيَّةِ] إِلَى[7] الأَيْدِي العُلْوِيَّةِ، وَالأَنْسَابِ الأَرْضِيَّةِ، إِلَى الأَنْسَابِ السَّمَائِيَّةِ[8] فَلَمَّا قَادَتْهُ السَّعَادَةُ إِلَيَّ، وَرَأَيْتُهُ نَسِيجَ وَحْدِهِ فِي الأَقْلَامِ، رَأَيْتُ أَوْلَى النَّاسِ بِهِ نَسِيجُ وَحْدِهِ فِي الأَنَامِ. آثَرْتُكَ بِه مُؤْثِراً النَّصَفَةَ[9] عَالِمـاً أَنَّ زَيْـنَ الجِيادِ فُرْسَانُهَا، وَزَيْـنَ السُّيُوفِ أَقْرَانُهَا، وَزَيْـنَ بِـزَّةٍ لَابِسُهَا، وَزَيْنَ أَدَاةٍ مُمَارِسُهَا، فَالآنَ أَعْطَيْتُ لِلْقَوْسِ بَارِيَهَا[10]، وَزِنَادَ المَكَارِمِ مُورِيَهَا، والصَّمْصَامَةَ مُصْلِتَهَا، وَالقَنَاةَ مُعْمِلَهَا[11] وَحُلَّةَ المَجْدِ لَابِسَهَا.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي حَفْص بْنِ بُرْد الأَصْغَر في الاسْتِزَارَة[12]:

اليومُ يومٌ بَكَتْ أَمْطَارُهُ، وَضَحِكَتْ أَزْهَارُهُ، وَتَعطَّلَتْ شَمْسُهُ، وَتَعَطَّرَ نَسِيمُهُ، وَعِنْدَنَا بُلْبُلُ هَزِجٍ، وَسَاقٍ غَنِجٍ، وَسُلَافَتَانِ: سُلَافَةُ إِخْوَانٍ، وَسُلَافَةُ دِنَانٍ، قَدْ تَشَاكَلَتَا فِي

---

(1) الزهر: (وتعرى عن خز المصيف).

(2) خرم بالأصل: والتصويب من الزهر.

(3) الزهر: (وفتات).

(4) اليقق المتناهي في البياض وشدة النصاعة.

(5) الزهر: (دعا منه نفق العاج بنقبة الديباج).

(6) الزهر: (الدرر).

(7) خرم بالأصل: والتصويب من الزهر.

(8) الزهر: السماوية.

(9) الزهر: (للصنيعة).

(10) فيه إشارة إلى المثل العربي «أعط القوس باريها» ومنه قول الشاعر:

يَا بَارِيَ القَوْسِ بَرْياً لَسْتَ تُحْسِنُهُ ... لَا تُفْسِدَنْهَا وَأَعْطِ القَوْسَ بَارِيَهَا

(11) الزهر: (معلمها).

(12) ترجمة ابن برد في: الذخيرة، 1/ 1 – 502، الجذوة، ص: 107، بغية الملتمس ترجمة رقم: 354، المغرب في حلى المغرب، 1/ 86، المطمح، ص: 24، معجم الأدباء 2/ 106، نفح الطيب 3/ 545 وفي صفحات متفرقة منه.



[الطِّبَاع][1] وَازْدَوَجَتَا فِي إِثَارَةِ السُّرُورِ، فاخْرِقْ إلينَا سُرَادِقَ[2] الدَّجْنِ[3] تَجِدْ مَرْأَى لَم يَحْسُنْ[4] إِلَّا لَكَ، وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِكَ.

وَلَهُ[5]:

الزِّيَارَةُ فِي اللَّيْلِ أَخفَى، وَبِالزَّائِرِ وَالمَزُورِ أَحْفَى، وَقَدْ سَدَلَ حِجَابه، وَوَقَعَ غُرَابه، وَتبَرْقَعَتْ نُجُومُهُ بِغُيُومِهِ، وَتَلَفَّحَتْ كَوَاكِبُهُ بِسَحَائِبِهِ، فَاهْتِكْ إِلَيْنَا سِتْرَه، وَخُضْ نَحْوَنَا تَجْرَه، وَلَكَ الأَمَانُ مِنْ عَيْنِ وَاشٍ تَرَاكَ، وَشَخْصِ رَقِيبٍ يَلْقَاكَ، والبَدْرُ صِنْوُكَ، فَإِنْ طَلَعْتَ مَعَهُ عَلَيَّ ذُعِرَ الخَافِقَانِ، وَالشَّمْسُ تِرْبُكَ. فَإِن صَاحَبْتَهَا إِلَيَّ اسْتَرَابَ[6] الثَّقَلَانِ[7] فَاجْعَلْ لَيَالِيَ السِّرَارِ[8]، مَوَاقِيتَ الازْدِيَارِ، وَأَيَّامَ الانْكِسَافِ، سَاعَاتِ الائْتِلَافِ.

وَلَهُ[9]:

لَمْ نَلْتَحِقْ مُذْ عَرَّيْنَا مَرْكَبَ اللَّهْوِ وَأَخْلَيْنَا رَبْعَ الأُنْسِ، وَقَصَصْنَا جَنَاحَ الطَّرَبِ، وَعَبَسْنَا فِي وُجُوهِ اللَّذَّاتِ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَخِفَّ إِلى مَجْلِسٍ قد نُسِجَتْ فِيهِ الرَّيَاحِينُ

---

(1) خرم بالأصل: والتصويب من الذخيرة.
(2) السرادق: الحاجز الذي يحيط بالبناء من حائط أو مضرب أو خباء.
(3) الدجن: ظل الغيم في اليوم المطير الذي يخيم فتصيب الأرض ظلمة. والمعنى (التحق بنا قاطعا حاجز الظلام المخيم).
(4) خرم بالأصل: والتصويب من الذخيرة.
(5) الرسالة انظرها في: الذخيرة 1/ 1- 502.
(6) خرم بالأصل: والتصويب من الذخيرة.
(7) الثقلان: هما الإنس والجن سميا بذلك لتفضيل الله لهما على سائر المخلوقات.
(8) ليالي السرار: هي الليالي الأخيرة التي يختفي فيها الهلال ويستتر قال الشاعر:

نَحْنُ صَبَّحْنَا عَامِراً فِي دَارِهَا
جُرْداً تَعَادَى طَرَفَيْ نَهَارِهَا
عَشِيَّةَ الهِلَالِ أَوْ سِرَارِهَا

(9) انظر: الرسالة في الذخيرة 1/ 1- 503.



بالدَّواوين(1) والمَجَامِرُ بِالمَحَابِرِ وَالأَطْبَاقُ بِالأَوْرَاق، وَتَنَازُعُ المُدَام بتَنَازُعِ الكَلَامِ، وَاسْتِمَاعُ الأَوْتَارِ باسْتماع الأَخْبار، وَسَجْعُ البَلابل، بِسَجْعِ الرَّسَائِلِ. كَانَ أَشْحَذَ لِذِهْنِكَ [وَأَصْقَلَ] لِفِكْرِكَ وَآنَسَ لِخَاطِرِكَ، وَأَطْيَبَ لِنَفْسِكَ وَأَفْرَجَ لِهَمِّكَ وَأَرْشَدَ لِرَأْيِكَ.

وَنَحْنُ مِنْ مَنْزِلِ أَبِي فُلَان، بِحَيْثُ نَلْتَمِحُ(2) سَنَاكَ، وَنَتَنَسَّمُ رَيَّاكَ، وَقَدْ رَاعَنَا اليَوْمُ بِاكْفِهْرَارِ وَجْهِه، وَمَا ذَرَّ مِنْ كَافُورِ ثَلْجِه، فادَّرَعْنَا لَهُ بسُطُور، وانْغَمَسْنَا بينَ جُيوبِ السُّرُور، وَرَفَعْنَا لِبَنَاتِ الزِّنَادِ رَايَاتٍ حمْرًا(3)، وَأَجْرَيْنَا لِبَنَاتِ الكُرومِ خَيْلاً شُقْراً(4)، وَأَحْبَبْنَا أَنْ تَشْهَدَ جَيشَ [الشِّتَاءِ] كَيْفَ يُهزَمَ، وأَنْفَاسَ البَرْدِ كَيْفَ تُكْظَمَ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الوَلِيد إِسْمَاعِيل بْن مُحَمَّد المُلَقَّبِ بِحَبِيب فَصْل إِلَى أَبِيهِ(5):

لمَّا خُلِقَ الرَّبِيعُ مِنْ أَخْلَاقِكَ الغُرّ، وَشرقَ زَهْرُهُ مِنْ شِيَمِكَ الزُّهْرِ، حَسُنَ لَكَ عَيْنُ مَنْظَرِه، وَطَابَ فِي كُلِّ سَمْعٍ مَخْبَرُه(6)، وتَاقَتِ النُّفُوسُ إِلَى الرَّاحَةِ فِيه، وَمَالَتْ إِلى الإِشْرَافِ عَلَى بَعْضِ مَا يَحْتَوِيه، مِنَ النَّوْرِ الذي كَسَا الأَرْضَ حُلَلاً، لَا يَرَى النَّاظِرُ فِي أَثْنَائِهَا كَلَلاً(7). فَكَأَنَّهَا نُجومٌ نُثِرَتْ على الثَّرَى، وَقَدْ مُلِئَتْ مِسْكاً وَعَنْبَرًا، إِنْ تَنَسَّمْتَهَا فَأَرِجَة أو تَوَسَّمْتَهَا فَبَهِجَة، تَرُوقُ العُيُونَ أَجْنَاسُهَا وتُحْيِي النُّفُوسَ أَنْفَاسُهَا:

فَالأَرْضُ فِي بُرْدَةٍ مِنْ يَانِعِ الزَّهَرِ ... تُزْرِي إِذَا قِسْتَهَا بِالوَشْيِ وَالحِبَرِ
قَدْ أَحْكَمَتْهَا أَكُفُّ المُزْنِ وَاكِفَةً ... وَطَرَّزَتْهَا بِمَا تَهْمِي مِنَ الدُّرَرِ
تَبَرَّجَتْ فَسَبَتْ مِنَ العُيُونِ هَوًى ... وَفِتْنَةً بعدَ طولِ السِّتْرِ والخَفَرِ(8)

(1) خرم بالأصل: والتصويب من الذخيرة.
(2) الذخيرة: نلتمس.
(3) الذخيرة: حمراء.
(4) الذخيرة: شقراء.
(5) انظر: الرسالة في البديع في وصف الربيع، ص: 28، والذخيرة 2/ 1- 125.
(6) في البديع والذخيرة: خبره.
(7) في البديع والذخيرة: خللا.
(8) الأبيات من بحر البسيط.



فَأَوْجِدْنِي بِمَعَالِيكَ سَبِيلاً إلى إِعْمَالِ بَصَرِي فيها، لِأَجْلُوَ بَصِيرَتِي بِمَحَاسِنِ نَوَاحِيهَا. فَالفَضْلُ عَلَى أَنْ يَكْمُلَ أَوَانُه، وَيَنْصَرِمَ وَقْتُهُ وَزَمَانُهُ، فَلَا تُخْلِنِي مِنْ بَعْضِ التَّشَفِّي مِنْه، لأُصْدِرَ نَفْسِي مُتَيَقِّنَةً عَنْه، فَعَهْدِي بِمِثْلِ ما سَأَلْتَهُ بَعِيد، وشَوقِي إِلَيْهِ شَدِيدٌ، والنُّفُوسُ تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحَدِيد[1] وَمَنْ أَجَمَّهَا فَهُوَ السَّدِيدُ الرَّشِيد.

وَلَهُ[2]:

قَدْ عَلِمَ سَيِّدِي أَنَّ بِمَرْآهُ يَكْمُلُ جَذَلِي، وَيَنْدُو أَمَلِي، وَقَدْ حَلَلْتُ محلًّا عُنِيَ الجَوُّ بِتَحْسِينِهِ، وَانْفَرَدَ الرَّبِيعُ بتَحْصِينِهِ، فكَسَاهُ حُلَلاً من الأَنْوَارِ، بِهَا يَنْجَلِي صَدَأُ البَصَائِرِ وَالأَبْصَارِ. فَمِنْ مَكْمُومٍ [يَعْبَقُ مِسْكُهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ مَسْكُهُ، وَمِنْ بَادٍ يَروقُ مُجْتَلَاهُ، وَيَفُوقُ مُجْتَنَاهُ، في مِرْآةِ وَرِيِّه. فَتَفَضَّلْ بِالخُفُوفِ نَحْوِي وَتَعْجِيلِ اللِّحَاقِ بِي][3] لِنُجَدِّدَ لِلأُنْسِ مَغَانِيَ قد دَرَسَتْ، وَنَفُكَّ من السُّرُورِ مَعَانِيَ قَدْ أَشْكَلَتْ، وَنَشْكُرَ لِلرَّبِيعِ، مَا أَرَانَا من البَدِيعِ. إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاء أَبِي عُمَر أَحْمَد بْنِ مُحَمّد بْن حَجّاج[4]:

لَوْ قُرِنْتُ - أَيَّدَهُ اللهُ بِذَوِي التَّأْمِيلِ لَفَضلْتُ، أَوْ وُزِنْتُ بِذَوِي المَحَبَّةِ لَرَجَحْتُ، وهلْ شَاهَدَ لي - مَكَّنَ اللهُ سُلْطَانَهُ وَأَعْلَى شَانَه - سِوَى مَا [عَلِمَ مِنْ] فَارِطِ تَأْمِيلِي، وَسَالِفِ انْقِطَاعِي وَتَعْوِيلِي:

(1) في الحديث الشريف: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد» وهو أن يركبها الرين بمباشرة المعاصي والآثام. اللسان (صدأ).

(2) انظر: الرسالة في كتاب البديع في وصف الربيع، ص: 30، والذخيرة 2/ 1 - 126، وكذلك نفح الطيب 3/ 427.

(3) خرم بالأصل: وقد رممنا الرسالة من المصادر المذكورة سابقا.

(4) انظر ترجمته في المغرب في حلى المغرب 1/ 256 رقم: 179، وقد سقطت ترجمته من جميع نسخ الذخيرة.



أَيَّـامَ كُنْـتُ كَمَـنْ يَـدْعُو لخَالِقِـهِ وَيَرْتَجِيـهِ وَغَيْـرِي عَابِـدُ الـوَثَنِ[1]

طَبِيعَةٌ جُبِلْتُ عَلَيْهَا، وَفَضِيلَةٌ نَزَعْتُ إِلَيْهَا؛ وَإِنِّي لَمَّا كَانَ عِنْدِي مِنْ نِعَمِهِ، يَنَابعُ كَرَمِهِ، كُنْتُ إِذَا أَهْدَيْتُ إِنَّمَا أُهْدِي هِبَاتِهِ، وَأُبْدِي عَطِيَّاتِهِ، وَبَعَثْتُ[2] أَيَّدَهُ اللهُ مَا تَضَمَّنَ تَفْسِيرهُ مُدْرَجَة رُقْعَتِي هَذِه. وضَرَاعَتِي [إلى عُلَاه][3] في الأَمْرِ بِتَقَبُّلِهِ[4] تَشْرِيفاً لي وَتَنْوِيهاً بِي عَلَى عَادَتِهِ الكَرِيمةِ مِنْ إِعْلَاءِ[5] شَانِي، وتَرْفِيعِ مَكَانِي إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي مُحَمَّد عَبْد الغَفُور بْن أَبِي القَاسِم بْن عَبْد الغَفُور[6]:

رُبَّمَا كَانَ من الأَلْطَافِ مَا لَا سَبَبَ لَهُ إِلَّا تَنْفِيق كَتْبَةٍ[7] كَاسِدَة، وَتَسْوِيق سِلْعَةٍ فاسِدَة، لَا أَنَّ المُلْطِفَ أَحْوَجُ بِسُوءِ عِشْرَةٍ إِلَى تَقْوِيم، أَوْ غِلَظِ قِشْرَةٍ إِلَى تَرْقِيق أَدِيم، وَلَا أَنَّ المُهْدَى يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوع[8]، فَيُمَتِّعُ[9] بِالفَرَحِ لَهُ أَوِ التَّرَح عَلَيْهِ عَيْناً مِنَ الهُجُوعِ، لَا هُمَّ[10] إِلَّا أَنْ يَكُونَ طُلُوعُ ذَلِكَ الشَّيْءِ النَّزْرِ، مِنْ وَدُودٍ بَرٍّ، أَوْ مَوْدُودٍ رَفِيعِ القَدْرِ، فَهُوَ أَوْفَرُ مَا يُقْنَى وَأَبْعَدُ مَا يُتَمَنَّى.

---

(1) البيت من بحر البسيط.

(2) المغرب: (وقد بعثت - أعزه الله - لما يحمل فقري قدرته).

(3) خرم بالأصل: والتصويب من المغرب.

(4) المغرب بقبوله.

(5) المغرب: (من منازعه الكريمة لإعلاء).

(6) انظر ترجمة الكاتب في الذخيرة، 2/ 1 - 325، قلائد العقيان، ص: 160، رايات المبرزين، ص: 12، المغرب 1/ 241.

(7) الذخيرة: (كتب).

(8) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ اِلاَّ مِن ضَرِيعٍ، لا يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِے مِن جُوعٍ﴾. سورة الغاشية، الآيتان: 6 و7.

(9) الذخيرة: (فيمنع).

(10) لاهم: لغة في اللهم.



وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا:

فَالمَوَدَّاتُ مَا خَلَتْ مِنْ تَهَادٍ مُكَرَّرَة، كَطَبِيخ خَلَا(1) مِن اللَّحْمِ يُدْعَى مُزَوَّرَة(2)، والمُهْدَى بينَ يدَيْ هَذِهِ الأَحْرُف، عِدَّة(3) كَذَا مِنْ سَفَرْجَل، وَتَصْحِيفُهُ عِنْدِي سَفَرٌ حَلّ(4) وَإِذَا سفرَ عن ثَغْرِهِ جَلّ. فَالظَّفَرُ بِطَارِقِ الهَمِّ محلٌّ يُشبهُ صُورَ العَذَارَى ضُمِّخَتْ بالعَبِيرِ، وتُديهنَّ في التَّقْيِيسِ والتَّقْدِير، كَأَنَّمَا لَبِسَتْ مِنَ الحَرِيرِ سَرقاً(5) أوْشَكَتْ بِأَلْوَانِهَا وَجْداً قَدْ بَرَّحَ بِهَا وَأَرَقاً، كَأَنَّمَا [سَرَقَتْ] الثُّدِيُّ طَوَابعَ مِسْكٍ أَحَمَّ(6)، ضَمَّتْ عَلَيْهَا حَوَائِجَهَا ثُمَّ(7) خَافَتِ الذَّمَّ، أَقْدَاحُ غَرَب، عُلَّتْ بِمَاءِ ذَهَب، طُبِعَ مِنَ العَبِيرِ(8) نَوَاهَا، وَنَابَ عَنْ شَذَاهَا [الفَائِحِ لِلشَّرْبِ سَاطِعُ شَذَاهَا](9) ولَرُبَّمَا فَضلتْ شَهِيَّ التُّفَّاحِ، وَفتكَتْ بِأَدْوَاءِ المِعَدِ فَتْكَةَ السَّفَّاحِ(10).

وإِنَّ فَاكِهَةً تُشْبِهُ الثُّدِيَّ، وَتَشْرَكُ في بَعْضِ صِفَاتِهَا الهَدِيَّ، لَجَدِيرَةٌ بِأَنْ تَحْفَظَهَا عِنَاقاً، وَلَا تَعْدِلَ بوَاحِدَةٍ مِنْهَا عَنَاقاً، بَلْ يَجْعَلُ فِدْيَةَ قَضْمِهَا أَنْ تُشَدَّ وَثَاقاً، وَتَضْرِبَ أَعْنَاقاً.

---

(1) الأصل: خلاء.

(2) المزورة: نوع من الحساء الخالص الذي لا لحم به، قال البحتري:

وَجَدْتُ وَعْدَكَ زُوراً فِي مُزَوَّرَةٍ ... حَلَفْتَ مُجْتَهِداً أَحْكَامَ طَاهِيهَا

انظر: التحف والهدايا، ص: 127، ديوان البحتري.

(3) الذخيرة: عدد.

(4) الذخيرة: سفرجل.

(5) السرق: شقاق الحرير وهو أجوده. قال الأخطل:

يَرْفُلْنَ فِي سَرقِ الفِرِنْدِ وَقَزِّهِ ... يَسْحَبْنَ مِنْ هُدَّابِهِ أَذْيَالَا

(6) الأحم: الأسود من كل شيء.

(7) الذخيرة: اذ

(8) الذخيرة: العنبر.

(9) خرم بالأصل: والتصويب من الذخيرة.

(10) يقصد بالسفاح الخليفة العباسي المعروف بأبي العباس السفاح.



وإنَّ مَحلَّكَ مِنْ نَفْسِي لَخَصِيبُ جَنابِ الصَّفَاءِ، نَقِيُّ جِلْبَابِ الوَفَاءِ، فَصِيحُ طَيْرِ الثَّنَاءِ[1]، واللهُ يُلْحِقُهُ مِنَ التَّمْهِيدِ ظِلَالاً، ويَزِيدُ يَانِعَ رَوْضِهِ نَضْرَةً وَجمَالاً، حَتَّى لَا تكْرَى عُيُونُ أَزْهَارِهِ، وَلَا تَعْيَا أَلْسِنَةُ أَطْيَارِهِ، وَلَا يَعْرَى مِنْ وَرَقٍ عُودُهُ، ولا تَخْشَى مِنْ حَلِّ نِظَامٍ عُقُودُهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَان مُحَمَّد بْن طَاهِر مُعْتَذِراً عَنِ الوُصُولِ لِزفَافِ بِنْتِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ إِلَى المُسْتَعِينِ بِاللهِ[2]:

نِعْمَةُ اللهِ قَدْ أَغْرَقَتْنِي مُدُودُهَا، وَأَثْقَلَتْنِي لَوَاحِقُهَا وَوُفُودُهَا، وافَانِي كِتَابُهُ العزيزُ دَاعِيًا إلى المَشْهَدِ الأَعْظَمِ، وَالمَحْفَلِ الأَكْرَمِ، الّذي أَلْبَسَ الدُّنْيَا إِشْرَاقًا، وَالمَجْدَ إِبْرَاقًا، فَأَلْفَى الدُّعَاءُ مِنِّي سَمِيعًا، لاَ سِيَمَا وَقَدْ قَلَّدَتْنِي الشَّرَفَ وَالسُّؤْدَدَ والبِرَّ جَمِيعًا، [وسَمَا لِنَاظِرِي فِيهِ إِلَى حَيْثُ النُّجُومُ شَوَابِك][3] والمَعَالِي أَرَائِك. إِلَّا أَنَّهُ أَيَّدَهُ اللهُ أَتَمُّ نَظَراً، وَأَوْضَحُ تَدَبُّراً، [مِنْ أَنْ يُلْحِقَ بِخَاصَّتِهِ الزَّلَل، ويُوقِعَ عَلَيْهِم الخَلَل، وقد عَلِمَ أَنَّ الأيامَ تَرَكْنَ بَالِي كَاسِفًا، وَخَطْوِي وَاقِفًا، فَكَيْفَ يَسُوغُ أَن أَلْقَاهُ بِذِهْنٍ كَلِيل، وَفِكْرٍ عَلِيل، إِذَنْ فَقَدْ أَخْلَلْتُ بِأَيَادِيهِ، وَمَا أَجْلَلْتُ رَفِيعَ نَادِيه، وأُقْسِمُ القَسَمَ البَرَّ بِحَيَاتِهِ- أَطَالَهَا اللهُ - مَا كَانَ مِنْ وَطَرِي أَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْهُ وَلي فِيهِ الآمَالُ العَرِيضَة، والقِدَاحُ المُفِيضَة، وفي يَدَيَّ مِنْهُ مَوَاعِدُ زُهْرُ النِّظَام، وَمَوَاهِبُ زُرْقُ الجِمَام[4]. وَإِذَا عَرَفَ الحَقِيقَةَ رَأَى العُذْرَ وَاضِحًا، والسرَّ لَائِحًا، وعَسَى أَن يلَاحظَ سَعْد، وَيَسْتَنْجِزَ لِلْمُنَى وَعْد، وَيَنْفَسِحَ خَاطِرٌ، وَيَهْتَدِيَ حَائِرٌ، فَيَقِفَه بِبَابِهِ مُلَازِمًا، وَيَخِرَّ عَلَى بِسَاطِهِ لَاثِمًا، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(1) الذخيرة: فصيح جيب الصناعة والولاء ودادا لا يبلغ مداه ولا تويس هواجر البعد ثناه.

(2) انظر ترجمته في البغية ترجمة رقم: 23، الذخيرة 3/ 1 24، القلائد، ص: 58، المغرب 2/ 248، الذيل والتكملة 5/ 590، الحلة السيراء 2/ 116، الخريدة 3/ 363 الترجمة رقم: 100، المعجب، ص: 180، اعمال الأعلام، ص: 202.

(3) خرم بالأصل: والتصويب من الخريدة.

(4) خرم بالأصل: والتصويب من الخريدة.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي المُطَرِّفِ بْنِ الدَّبَّاغِ يَسْتَدْعِي خَمْراً[1]:

أَوْصَافُكَ العَطِرَة، وَمَكَارِمُكَ المُشْتَهِرَة[2]، تُنَشِّطُ سَامِعَهَا مِنْ غَيْرِ تَوْطِيَة في بَسْطِ[3] ما عَرَضَ مِنْ أُمْنِيَةٍ، فَلِلرَّاحِ مِنْ قَلْبِي مَحَلٌّ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ سَلْوَة، وَلَا تَعْتَرِضُهُ جَفْوَة، إِلَّا أَنَّ مَعِينَهَا قَدْ جَفَّ، وَقَطِينَهَا[4] قَدْ خَفَّ. فَمَا تُوجَدُ لِلسِّبَاءِ[5] وَلَوْ بِحُشَاشَةِ الحَوْبَاءِ[6]، فَصِلْنِي مِنْهَا بما يُوَازِي قَدْرِي، ويَقُومُ لَهُ شُكْرِي، فَإِنَّ قَدْرَكَ أَرْفَعُ مِنْ أَنْ تَقْضِيَ حَقَّهُ زَاخِراتُ البِحَارِ، ولَوْ سَالَتْ بِذَوْبِ النُّضَارِ لَا بِصَافِيَةِ العُقَارِ.

وَلَهُ يَسْتَدْعِي إِلَى مَجْلِسِ أُنْسٍ[7]:

يَوْمُنَا[8] تَجَهَّمَ مُحَيَّاهُ، وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَبَرْقَعَتْ شَمْسَهُ الغُيُومُ، وَنَثَرَتْ صَبَاهُ لُؤْلُؤَهُ المَنْظُومُ، وَمَلَأَ الخَافِقَيْنِ دُخانُ دَجْنِهِ، وَطَبَّقَ بِسَاطَ الأَرْضِ هَمَلَانُ جَفْنِه، فَأَعْرَضْنَا عَنْهُ إِلَى مَجْلِسٍ كالصَّبَاحِ المُسْفِرِ، وَجِلْبَابُهُ كالرِّدَاءِ المُحَبَّرِ، وحَلْيُهُ يُشْرِقُ فِي تَرَاكِيبِه، وَنَدُّهُ يَعْبَقُ[9] فِي جَوَانِبِه، وَطَلَائِعُ أَنْوارِهِ تَظْهَرُ[10]، وَكَوَاكِبُ إِينَاسِه تُزْهِر، وأَبَارِيقُهُ

---

(1) انظر ترجمته في الذخيرة 3/ 1- 251، القلائد، ص: 106، المغرب 2/ 440، الخريدة 3/ 387.

(2) الذخيرة: المنتشرة.

(3) الذخيرة والقلائد: (في اقتفاء ما عرض).

(4) القطين: المقيمون بالأرض أو المكان لا يكادون يبرحونه، قال الشاعر:

خَفَّ القَطِينُ فَرَاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا ... وَأَزْعَجَتْهُمْ نَوَى فِي صَرْفِهَا غِيَرُ

(5) السباء: الشراء والمعنى لا يمكنني أن أشتريه لعدم وجوده.

(6) الحوباء: النفس ممدودة ساكنة الواو قال رؤبة بن العجاج:

وَقَاتِلِ حَوْبَاءَهُ مِنْ أَجْلِي ... لَيْسَ لَهُ مِثْلِي، وَأَيْنَ مِثْلِي

(7) انظر الرسالة في الذخيرة 3/ 1- 304، الخريدة 3/ 391.

(8) الذخيرة: (وله من أخرى في الاستدعاء، يا سيدي ومن أبقاه الله قشيبة أثواب عزه محمية ساحات حرزه يومنا يوم تجهم).

(9) الذخيرة: يتضوع من.

(10) الذخيرة: تتمرمر.



تَرْكَعُ وَتَسْجُدُ، وَأَوْتَارُهُ تُنْشِدُ وتُغَرِّدُ، وبُدُورُهُ تَسْتَحِثُّ أَنْجُمَهَا مُجِيبَة، وتُقَبِّلُ أَنْمُلَهَا مُفَدِّيَة، وَسَائِرُ نَغَماتِهَا، خُذْ وَهَاتِهَا، وَأَمَلُنَا[1] أَنْ تَحُثَّ خُطَاكَ، حَتَّى يَلُوحَ سَنَاكَ، وَنَشْتَفِي بِمَرْآكَ.

وَلَهُ[2]:

طَلَعَ عَلَيْنَا هذَا اليَوْم يَكَادُ يُمْطِرُ مِنَ الغَضَارَةِ صَحْوُهُ[3]، وَيَقْبِسُ[4] مِنَ الإِنَارَةِ جَوُّهُ، وَيُحْيِي الرَّمِيمَ اعْتِدَالُهُ، وَيُصْبِي الحَلِيمَ جَمَالُهُ، فَلَفَّتْنَا زَهْرَتُه، وَنَظَمَتْنَا بَهْجَتُهُ، فِي رَوْضَةٍ أَرْضَعَتْهَا السَّمَاءُ أَشَابِيبَهَا، وَنَثَرَتْ عَلَيْهَا كَوَاكِبَهَا، وَوَفَدَ عَلَيْنَا[5] النُّعْمَانُ بِشَقِيقِهِ[6]، وَاحْتَلَّ فِيهَا الهِنْدُ بِخَلُوقِهِ[7] وَبَكَرَ إِلَيْهَا بَابِلُ بِرَحِيقِهِ[8]، فالجَمالُ يُثْنِي لِحُسْنِهِ طَرْفَه، وَالنَّسِيمُ يَهُزُّ لأَنْفَاسِهِ عِطْفَه، وتَمَنَّيْنَا أَنْ يَتَبَلَّجَ صُبْحُكَ مِن خِلَالِ فُرُوجِهِ، وَتَحُلَّ شَمْسُكَ فِي مَنَازِلِ بُرُوجِهِ، فَتُطْلِعَ[9] عَلَيْنَا الأُنْسَ بِطُلُوعِكَ وَتُهدِيهِ بِوُقُوعِكَ[10]، ولَنْ تَعْدِمَ نُوراً يَحْكِي شَمَائِلَكَ طِيباً وبَهْجَة، وَرَاحاً تَخَالُهَا[11] خِلَالَكَ

---

(1) الذخيرة: وأقصى أملنا، الخريدة: وأملها.

(2) انظر الرسالة في الذخيرة 3/ 1 - 305، القلائد، ص: 109، الخريدة 3/ 392.

(3) مقتبس من قول أبي تمام:

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ ... صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الغَضَارَةِ يُمْطِرُ

(4) الذخيرة: ويعشى.

(5) الذخيرة: عليه، الخريدة: عليها.

(6) شقائق النعمان: نبت وسمي بذلك لأن النعمان بن المنذر نزل على شقائق رمل قد أنبتت زهراً أحمر فاستحسنها وأمر أن تحمى، ولذلك سميت باسمه.

(7) الهند بخلوقه: أي بطيبه وذلك لاشتهار الهند بهذه الصفة.

(8) بابل برحيقه: يعني بخمرته لاشتهار بابل بالسحر والخمر، قال الشاعر:

بِبَابِلَ لَمْ تُعْصَرْ، فَجَاءَتْ سُلَافَةً ... تُخَالِطُ قِنْدِيداً، وَمِسْكاً مُخَتَّمَا

(9) الذخيرة: (فإن رأيت أن تطلع).

(10) وتهدي الفرح بوقوعك.

(11) الذخيرة: (تخال).



صَفَاءً ورِقَّة، وَأَلْحَاناً تُثِيرُ أَشْجَانَ الصَّبِّ، وَتَبْعَثُ إِطْرَابَ القَلْبِ، وَنَدَامَى تَرْتَاحُ إِلَيْهِم الشَّمُول، وتَتَعَطَّرُ بأَرَجِهِم القَبُول، وَيَحْسُدُ الصُّبحَ[1] عليهمُ الأَصِيلُ، وَيَقْصُرُ بِمُجَالَسَتِهِم اللَّيْلُ الطَّوِيلُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ السَّقَّاطِ فِي إِهْدَاءِ فَرَسٍ[2]:

قَدْ بَعَثْتُ[3] إِلَيْكَ - أَيَّدَكَ اللهُ - بِجَوَادٍ يَسْبِقُ الحَلْبة وَهُوَ يَرِيثُ[4] ويَتَمَهَّل، مَتَى مَا تَرَقُّ العَيْنُ فِيهِ تَسَهَّل. يَزْحَمُ مَنْكِبَ الجَوْزَاءِ بِكَ مَنْكِبُهُ، وَتَزِلُّ[5] عَنْهُ حِينَ تَرْكَبُهُ، إِنْ بَدَا قُلْتَ ظَبْيٌ ذُو غَرَارَة، يَعْطُو إِلَى عَرَارَة، أَوْ عَدَا قُلْتَ انْقِضَاضَةُ شِهَاب، أَوْ اعْتِرَاضَةُ بَارِقٍ ذِي الْتِهَاب، فَاضْمُمْهُ إِلَى أَرْيِ[6] جِيَادِكَ، واتَّخِذْهُ لِيَوْمَيْ رِهَانِكَ وَجِلَادِكَ. إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَلَهُ يَسْتَدْعِي إِلَى مَجْلِسِ أُنْسٍ[7]:

يَوْمُنَا - أَعَزَّكَ اللهُ - يومٌ [نَقبتْ][8] شَمْسُه بِقِنَاعِ الغَمَام، وذَهَبَتْ كاسُهُ بِشُعَاعِ المُدَام، ونَحْنُ من قَطْرِ[9] الوَسْمِيِّ[10]، في رداءِ الهَدِيِّ[11]، وَمِنْ نَظِيرِ النُّوَارِ، عَلَى

---

(1) الذخيرة: (الضحى).
(2) انظر ترجمته في القلائد، ص: 171، المغرب1/ 428، الخريدة 3/ 443.
(3) الخريدة: بعثنا.
(4) الخريدة: يرسف.
(5) الخريدة: وينزل.
(6) الآري: محبس الدابة ومربطها.
(7) انظر الرسالة في الخريدة، ص: 445.
ومما جاء في صدرها: (ومن رسائله المعسولة وفضائله المقبولة مما تهش إليه كل نفس مكاتبته في استدعاء صديق إلى مجلس أنس).
(8) خرم بالأصل: والتصويب من الخريدة.
(9) الخريدة: قطار
(10) الوسمي: مطر أول الربيع وهو بعد الخريف لأنه يسم الأرض بالنبات فيصير فيها أثرا في أول السنة.
(11) الخريدة: هدي.



نَضَائدِ النُّضَار، وَمِنْ نَوَاسِمِ الزَّهْرِ، في لَطَائِفِ[1] العِطْرِ، ومن غُرِّ[2] النُّدْمَان، بَيْنَ زَهْرِ البُسْتَان، وَمِنْ حَرَكَاتِ الأَوْتَارِ، خِلَالَ نَغَمَاتِ الأَطْيَار، وَمِنْ سُقَاةِ الكُؤُوس، وَمعَاطِي المُدَام، يُقَدَّمُ مِنْ أَنْمُلاتٍ كَالشُّموسِ[3] وعَوَاطِي الآرَام؛ فَرَأْيُكَ في مُصَافَحَةِ الأَقْمَارِ، وَمُنَافَحَةِ الأَنْوَارِ، وَاجْتلاءِ غُررِ الظِّبَاء الجَوَازِي، وَالْتِقَاءِ نَحْوَ[4] الغِنَاءِ الحِجَازِي مُوَفَّقاً إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الفَضْلِ بْنِ حَسْدَاي يَسْتَدْعِي أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَانِ ابْنِ طَاهِرٍ لِعُرْسِ المُسْتَعِينِ بِاللهِ بِبِنْتِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ[5]:

مَحَلُّكَ -أَعَزَّكَ اللهُ- بَيْنَ الجَوَانِحِ ثَابِتٌ وَإِنْ نَزَحَتِ الدَّارُ، وعِيَانُكَ في أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ بَادٍ وَإِنْ شَحَطَ المَزَار، وَالنَّفْسُ فَائِزَةٌ مِنْكَ بِتَمَثُّلِ الخَاطِرِ بِأَوْفَرِ الحَظِّ، وَالعَيْنُ نَازِعَةٌ إِلَى تَمَتُّعٍ مِنْ لِقَائِكَ بِظَفَرِ اللَّحْظِ. فَلَا عَائِدَةٌ أَسْبَغُ بُرْداً، وَلَا مَوْهِبَةٌ أَسْوَغُ وِرْداً، مِنْ تَفَضُّلِكَ بِالخُفُوفِ[6] إِلَى مَأْنَسٍ يَتِمُّ بِمُشَاهَدَتِكَ الْتِئَامُهُ، وَيَتَّصِلُ بِمُحَاضَرَتِكَ انْتِظَامُهُ، وَلَكَ فَضْلُ الإِجْمَالِ، وَالإِمْتَاعُ مِنْ ذَلِكَ بِأَعْظَمِ الآمَال. فَأَنَا -أَعَزَّكَ اللهُ- عَلَى شَرَفِ سُؤْدَدِكَ حَاكِم، وعلى مَشْرَعِ سَنَائِكَ حَائِم. وَحَسْبِي ما تَتَحَقَّقُهُ من نِزَاعِي وَتَشَوُّقِي، وَتَيَقَّنُهُ مِنْ تَطَلُّعِي وتَتَوُّقِي، وَقَدْ تَمَكَّنَ الارْتِيَاحُ بِاسْتِحْكَامِ الثِّقَةِ، وَاعْتَرَضَ الانْتِزَاحُ بِارْتِقَابِ الصِّلَة. وَأَنْتَ -وَصَلَ اللهُ سَعْدَكَ- بِسَمَاحَةِ شِيَمِكَ، وَبَارِعِ كَرَمِكَ، تُنْشِي لِلْمُؤَانَسَةِ عَهْداً، وَتُورِي بِالمُكَارَمَةِ زَنْداً، وَتَقْتَضِي بِالمُشَارَكَةِ شُكْراً حَافِلاً وَحَمْداً، لا زِلْتَ مُهَنَّئاً بِالسُّعُودِ المُقْتَبِلَة، مُسَوِّغاً اجْتِلَاءَ الأَمَانِي المُتَهَلِّلَة.

---

(1) الخريدة: لطائم.

(2) خرم بالأصل: والتصويب من الخريدة.

(3) الخريدة: بين مشرقات شموس.

(4) وانتقاء ذرر الغناء.

(5) انظر ترجمته في الذخيرة 3/ 1- 457، المغرب 2/ 441، المطرب، ص: 196، القلائد، ص:183، الخريدة 2/ 450، طبقات الأمم، ص: 77، طبقات الأطباء 2/ 50، بدائع البدائه، ص: 367، نفح الطيب 1/ 535.

(6) الذخيرة: بالخفوف وأصلا مسعدا إلى مأنس.



وَمِنْ إِنْشَاءِ صَاحِبِ القَلَمِ الأَعْلَى أَبِي عَبْد اللهِ بْن عَيَّاش فِي الإِسْعَاف[1]:

وَإِلَى هَذَا - وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَكُمْ وَكَرَامَتَكُمْ- فَمَا زِلْنَا نَرْتَادُ لِمَنْ بَقِيَ فِي تِلْكُمُ الجَزِيرَةِ مِنْ غُزَاةِ المُوَحِّدِينَ أَعَزَّهُمُ اللهُ، وَقْتاً يَنْقَلِبُونَ فِيهِ إِلَى أَوْطَانِهِمْ، وَيَرُدُّهُمُ اللهُ فِيهِ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ. والآنَ فَقَدْ بَلَغَ الوَقْتُ الَّذِي كَانَ يُنْتَظَرُ[2] لَهُمْ، واللهُ يَكْتُبُ فِي صُحُفِ الأَبْرَارِ نِيَّتَهُمْ وَعَمَلَهُمْ. فَإِذَا وَصَلَكُمْ كِتَابُنَا هَذَا- وَصَلَ اللهُ تَوْفِيقَكُمْ وكَرَامَتَكُمْ- فَاسْتَحْضِرُوا مِزْوَارَ[3] كُومِية وَغُزَاتِهِمْ وَاقْرَأُوا كِتَابَنَا هَذَا عَلَيْهِمْ وَانْهُوا مُضَمَّنَهُ كُلَّهُ إِلَيْهِم، واعْلِمُوهُم بِأَنَّهُمْ حَيْثُ جَعَلَهُمْ الله مِنَ التَّقْدِيم، وَأَنَّهُمْ مِنَ المُبْدَأِ بِهِمْ فِي كُلِّ خَيْرٍ عَنِ التَّخْصِيصِ وَالتَّعْمِيمِ. وَمَيِّزُوهُمْ تَمْيِيزاً لَا تَدْخُلُهُ دَاخِلَة، وَلَا تَغُولُ صِحَّتَهُ غَائِلَة، وَحَذِّرُوهُم مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِم غَيْرُهُم مِنْ إِخْوَانِهِمْ السَّاكِنِينَ هُنَالِكُمْ. وَفَاصِلُوا بينَهُمْ فَصْلاً لا يَقَعُ بِهِ الْتِبَاسٌ، وَلَا يَعْرِضُ مَعَهُ إِشْكَالٌ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا لَهُمْ إِلى جَزِيرَةِ طَرِيفٍ بَعْدَ أن يَتَغَافَرُوا مَعَ أَهْلِ البِلادِ، وَيَخْتِمُوا بِخَيْرِ عَمَلِ مَا تَقَدَّمَ لَهُمْ مِنَ الجِهَادِ، ولَا تَنْفَصِلْ عَنِ المَجَازِ حَتَّى تُمَكِّنَ إِجَازَتَهُمْ عَلَى مَا شَرَطْنَا مِنَ الصِّحَةِ، وَهُمْ بِيضُ الصَّحَائِفِ، بُرَآءُ مِنَ المَأْثَمِ، أَيْدِيهِم مَقْبُوضَةٌ وَأَعْرَاضُهُمْ نَقِيةٌ، وأُجُورُهُم عَلَى اللهِ وَاقِعَة. وَعَرِّفُوا مَنْ هُنَالِكُمْ مِنْ غُزَاةِ[4] العَرَبِ بِأَنَّ العَهْدَ وَاحِدٌ وأَنَّهُمْ يُجِيزُونَ فِي مَوْضِعِهِمْ عَلَى مَا أَمَرْنَا بِهِ مِنْ عَدَمِ الاخْتِلَاطِ، وَعَلَى مَا نُوثِرُ لَهُمْ مِنَ العَمَلِ الصَّالِحِ،

---

(1) ابن عياش هو محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمان بن عبيد الله التجيبي برشاني سرقسطي الأصل، سكن مراكش وتصرف بتصرف ملوكها. ولد سنة 550هـ وتوفي سنة 618هـ، انظر في ترجمته الذيل والتكملة6/ 384، التكملة، ص: 605، الاعلام.

(2) خرم بالأصل: ولعل الصواب ما أثبتنا.

(3) مزوار: اللفظ من الأصل البربري أمزوار أو أمزوارو. يقول ابن خلدون: إن اللفظ كان يطلق ليدل على الحاجب، ويرى صاحب السلوة أنه يطلق على رئيس الجماعة المتميزة ونقيب الأشراف.

(4) يطلق لفظ غازي على كل مشارك في الجهاد، ويرى ابن القطان أنها تدل على كل صنف من أصناف الموحدين. ويضعهم في المرتبة الرابعة عشرة، ويعزو كتاب الأنساب تسمية هذا الصنف بالغزاة بمعناه الاصطلاحي إلى الخليفة المنصور الموحدي. انظر وثائق لم تنشر من تاريخ الموحدين، ص: 48. نظم الجمان، ص: 120، الحلل الموشية ص: 109.



والتَّزَوُّدِ[1] بالثَّناء الجَمِيلِ. والدُّعَاءُ المَقْبُولُ- إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- مُنْجِدُكُمْ وَمُعِينُكُمْ. والسَّلَامُ الكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ.

كُتِبَ فِي الثَّالِثِ عَشَرَ لِشَعْبَانَ المُكَرَّمَ سَنَةَ سِتَّ عَشْرَةَ وسِتِّ مَائةٍ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَحْرٍ صَفْوَانَ بنِ إِدْرِيس رَحِمَهُ اللَّهُ **يَسْتَعِيرُ بَغْلَةً مِنْ أَحَدِ الأَصْحَابِ**[2]:

إِنِّـي هَزَزْتُـكَ هَـزَّ الـصَّارِمِ الخَـذِمِ وَبَيْنَنَـا كُـلُّ مَـا تَدْرِيـهِ مِـنْ ذِمَـمِ[3]

هَـذِهِ أَعَزَّكَ اللهُ هَزَّةُ [المُتَضَارِبِ] لِعَضُدِ... [المَضَارِب][4] وَإِنَّما يُدفَعُ لِلْعَظِيمَةِ العَظِيم، ويُدَّخَرُ لِلْحَوَائِجِ مَنْ [خِلَالُهُ] التَّوْقِيرُ والتَّعْظِيمُ.

وإِنَّمَـــــا تُرْعَـــــــى.... والأَبُّ وَيَسْقُطُ الطَّيْـرُ حَيْـثُ يُنْثَـرُ الحـبُّ[5]

* * *

وَحَــاجَتِي سَــابِحٌ كَالنَّــارِ فِي صَـعَدٍ أَوِ ابْـنُ أُخْـتٍ لَـهُ كَالمَـاءِ فِي صَبَبِ[6]

وَرُبَّمَـا... وَارْتَفَـعَ يَتَعَـاطَى خَـوْضَ تِلْـكَ الـسُّيُولِ...[7] فَخَيْـرُ جَلِيسٍ فِـي الزَّمَـان كِتَابُ[8]... لَهُ مِنْ مَوْكِبٍ نَبِيه، أَهْوَنُ لِلطِّيَاتِ وَأَسْرَعُ لِلسَّيْرِ، وَكَأَنِّي عَلِمْتُ فِيهَا الغَيْبَ

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه

(2) صفوان بن إدريس كاتب موحدي مشهور صاحب كتاب زاد المسافر، توفي سنة 598هـ وهو لم يبلغ سن الأربعين. انظر ترجمته في الذيل والتكملة 4/ 1 – 140، التكملة، ص: 876، معجم الأدباء 4/ 269، فوات الوفيات 1/ 192، مطالع البدور 1/ 118، نفح الطيب، 6/ 365، بروكلمان 5/ 131.

(3) البيت من بحر البسيط.

(4) خرم بالأصل: ولعل الصواب ما أثبتناه.

(5) البيت من بحر البسيط. انظر: «ريحانة الكتاب»، 2/ 308. من قصيدة بشار بن برد مطلعها:

حَيِّيَـا صَـاحِبَيَّ أُمَّ العَـلَاءِ وَاحْـذَرا طَـرْف عَيْنِهَـا الحَـوْرَاء

(6) البيت من البسيط.

(7) خرم بالأصل.

(8) مقتبس من قول المتنبي:

أَعَـزُّ مَكَـانٍ فِـي الـدُّنَا سَـرْجُ سَـابِحٍ وَخَيْـرُ جَلِـيسٍ فِـي الأَنَـامِ كِتَـابُ

انظر ديوانه، ص: 479، والذخيرة 1/ 2-838.



فَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ[1]. وَإِنْ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ فَقَالَ: البَغْلُ لا يُعْقِبُ ولَا يُنْجِبُ، وفَائِدَتُهُ بِعَدَمِ حَيَاتِه تَحْتَجِبُ، فَقَدْ كَانَ يَحْيى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيِّداً وَحَصُوراً[2]، وَبَقِيَ ذِكْرُهُ في الذِّكْرِ الحَكِيمِ مَحْصُوراً. فَإِنْ عَوَّلَ كُلَّ التَّعْوِيلِ عَلَى ذَمِّه، فَقَالَ: هُوَ يَفْخَرُ بِخَالِهِ لَا بعَمِّهِ، فَالخَالُ أَحَدُ الأَبَوَيْنِ، قَوْلَةٌ لَا زُورٌ وَلَا مَيْن، وَخَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا، وَهَذِهِ حِجَاجٌ قَدْ طُوِيَ بِسَاطُهَا؛ فَاسْمَحْ بِهَا أَعَزَّكَ اللهُ سَلِسَةَ القِيَاد، بَيِّنَةَ الانْطِبَاعِ والانْقِيَاد، تَحْثُو التُّرَابَ في وُجُوهِ الجِيَاد، يَقُولُ رَاكِبُهَا، وَقَدْ اسْتُقِلَّتْ مَرَاكِبُهَا[3]:

وَلَوْ كَانَ البِغَالُ كَمِثْلِ هَذِي ... لَفُضِّلَتِ البِغَالُ عَلَى الجِيَادِ[4]

والسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ.

وَلَهُ:

وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُ إِخْوَانِهِ مُنَاقَضَةَ هَذِهِ الرِّسَالَة فَكَتَبَ في إِثْرِهَا: كَتَبْتُ -أَعَزَّكَ اللهُ- وَآمَالِي عَلَيْكَ تَفِدُ، وَإِلَى كَعْبَةِ مَكَارِمِكَ تَسْعَى وَتَحْفِدُ[5]:

وَحَاجَتِي سَابِحٌ كَالنَّارِ في صَعَدٍ ... أَوِ ابْنُ أُخْتٍ لَهُ كَالمَاءِ في صَبَبِ[6]

---

(1) مقتبس من قوله تعالى:﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾، سورة الأعراف، الآية: 188.

(2) مقتبس من سورة آل عمران التي جاء فيها: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. آل عمران، الآية: 39.

(3) البيت من بحر الوافر.

(4) تلاعب بقول المتنبي:

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمِثْلِ هَذِي ... لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ

(5) حفد الرجل: معناه خف وأسرع.

(6) البيت من بحر البسيط.



لأَنَّهُمْ إِنْ عَدُّوا المَفَاخِرَ وَحَسِبُوهَا، تَلَوْتُ لَهُمْ ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]. فَحَسْبُ المُجَادِلِ المُرْتَابِ، أَنَّ اللهَ قَدَّمَ الخَيْلَ فِي الكِتَابِ، فَمَا المُخْتَزَنُ وَالمُدَّخَر، وَمَا قَدَّمَ اللهُ تَعَالَى لَا يُؤَخَّر، كَفَاهَا شَرَفاً أَنَّ الخَيْرَ فِي نَوَاصِيهَا مَعْقُودٌ[2] واليُمْنَ بِقَوَدِ شُقْرِهَا مَقُود، وَقَدْ جَرَى المَثَلُ عَلَى لِسَانِ كُلِّ طَائِرٍ وَسَابِح، بِأَعَزِّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِح[3] وَمَنْ تَشَبَّعَ بِمَا لَمْ يَمْلِكْ كُذِّبَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ. مَتَى أَنْجَحَ البَغْلُ فِي حَرْب، أَوْ أَبَلَّ فِي طَعْنٍ أَوْ ضَرْبٍ، هَلْ البِغَالُ إِلَّا مَرَاكِبُ أَهْلِ الخَوَرِ، وَمَوَاطِنُ ذَوَاتِ الدَّلِّ وَالحَوَرِ، وَقُصَارَى البَغْلِ إِذَا عَمِرَ بَيْتُ فَخْرِهِ الخَالِي، أَنْ يَقُولَ: الفَرَسُ خَالِي[4]، فَلِمَ يُتَوَخَّى الفَرْعُ وَيُتْرَكُ الأَصْلُ، وَهَلْ يَتَسَاوَى الفَسْلُ وَالفَصْلُ؟ أَلَيْسَ الصُّبْحُ لِذِي نَاظِرٍ مُسْتَبِيناً؟[5] أَوَ لَيْسَ مَنْ عَدَلَ عَنِ الأَعْلَى إِلَى الأَسْفَلِ غَبِيناً؟ وَمَنْ يَفْعل ذَلِكَ ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾[6]، فَإِنْ احْتَجَّ مُحْتَجٌّ فِي مِعْرَاضِ المَيْنِ، فَقَالَ: الخَالُ أَحَدُ الأَبَوَيْنِ، فَالخَالُ لَا يُورَثُ وَلَا يَرِثُ[7] فَلَا تَعْبَأْ بِالمُنَاقِضِ وَلَا تَكْتَرِثْ، وَلِمَ لَا أُقَدِّمُ مَنْ حَقُّهُ التَّقْدِيمُ، وَأَمِيلُ إِلَى مَا مَالَ إِلَيْهِ الحَدِيثُ والقَدِيمُ[8]، وَأَنْحَرِفُ إِلى العَتِيقِ عَنِ الهَجِينِ، وَأَنْسَلُّ مِنَ النَّازِلِ انْسِلَالَ الشَّعْرَةِ مِنَ العَجِينِ:

---

(1) سورة النحل، الآية: 8.

(2) فيه إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة»

(3) من قول المتنبي:

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ ... وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الأَنَامِ كِتَابُ

(4) في الأمثال: «قيل للبغل من أبوك؟ قال: الفرس خالي». انظر مجمع الأمثال 2/ 48.

(5) مقتبس من المثل العربي «تبين الصبح لذي عينين».

(6) فيه تضمين لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً﴾. سورة النساء، الآية: 112.

(7) من المعلوم أن الخال لا يرث في المذهب المالكي، قال مالك في الموطأ: «الأمر المجتمع عليه عندنا الذي لا اختلاف فيه والذي أدركت عليه أهل العلم في بلدنا أن ابن الأخ للأم والعم أخ الأب للأم والخال والجدة أم أبي الأم وابن الأخ للأب والأم والعمة والخالة لا يرثون بأرحامهم شيئا». الموطأ، ص: 425.

(8) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.



وَالخَيْـلُ وَاللَّيْـلُ وَالبَيْـدَاءُ تَعْرِفُنِـي　　　وَالحَرْبُ وَالضَّرْبُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَـمُ[1]

فَاسْمَحْ بِهِ- أَعَزَّكَ اللهُ- سَنِيَّ الذَّرَى، يُقَيِّدُ البَرْقَ إِذَا جَرَى، وَإِنْ قُدْتَهُ مُهْراً كَرِيماً فَبِالحَرَى. وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الأَوْحَدِ الأَمْجَدِ الفَقِيهِ أَبِي زَيْدٍ الفَازَازِي أَعَزَّهُ اللهُ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ وَإِلَى سَيِّدِي الشَّيْخِ الفَقِيهِ الحَسِيبِ الفَاضِلِ الأَمْجَدِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ حَسَّانَ- أَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ- وَكُنْتُ فِي ....أَطْلُبُ مَا بَلَغَهُ أَنَّهُ اسْتَقَرَّ عِنْدِي مِنْ كَلَامِهِ[2]:

أَيُّهَا الجَمْعُ المُتَّحِدُ شِيَماً، المُتَّفِقُ فَضْلاً وَكَرَماً، لَا رُمِيَ سِلْكُ انْتِظَامِكُمْ بِالبَتَاتِ، وَلَا مُنِيَ شَمْلُ الْتِئَامِكُمْ بِالشَّتَاتِ.

....[3]

أَوْلَى الأُمُورِ بِسَتْرٍ　　　شَيْءٌ رَكِيكُ المَعَانِي

فَاتَ الطَّبِيبَ احْتِيَالاً　　　وَفَاقَ طَوْرَ المَعَانِي

مَدْحُ الكِرَامِ يُسَاوِي　　　بِهِ نَسِيبُ الغَوَانِي

أَبَا فُلَانٍ، فَأَحْسِنْ　　　بِبَذْلِهِ لِفُلَانِ

---

(1) البيت من بحر البسيط للمتنبي من قصيدته الميمية.

(2) كاتب موحدي مشهور اشتغل مع كثير من ولاة الموحدين بالأندلس إلى أن طرده المأمون من وظيفته وأعاده إليها بعد أن استعطفه واشتهر بقصائده العشرينية في مدح النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظر ترجمته في: التكملة ترجمة 1641، برنامج شيوخ الرعيني، ص: 101، تحفة القادم، ص: 191، صلة الصلة - قسم الغرباء الملحق بالذيل والتكملة القسم الثاني، ص: 542، بغية الوعاة 2/ 91، الإحاطة3/ 517، بروكلمان 5/ 131. كتاب الأنساب «مخطوط» الخزانة العامة رقم 1285 ك ورقة .134، وله شعر في البيان المغرب «قسم الموحدين».

(3) خرم ومحو بمقدار خمسة أسطر بالأصل لم نتمكن من قراءة ما جاء بها.



وكَتَبَ إِلَيْنَا أَيْضاً جَوَاباً عَلَى مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِ بِهِ فِي اسْتِدْعَاءِ مُوشّحةٍ لَهُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ:

يَا سَادَتِي الَّذِينَ جَمَعَتِ المَحَاسِنُ أَسْمَاءَهُمْ، وَأَطْلَعَتِ النَّيِّرَة فَلَكَهُمْ وَسَمَاءَهُمْ، لَا زَالَ رَبْعُكُمْ مَطِيراً، [وَقَدْرُكُمْ][1] خَطِيراً، وَذِكْرُكُمْ فِي كُلِّ مَعْلُوَّةٍ مُسْتَطِيراً. وَصَلَتْنِي مِنْكُمْ سَحَاءَةٌ[2] طَابَقَتِ الفَصْلَ أَزْهَاراً، وَشَابَهَتْهُ [أَضْوَاءاً وَأَنْوَاراً][3]، فَعَجِبْتُ مِنْ لَيْلِ نِقْسٍ أَطْلَعَ صَبَاحاً، وَمِنْ رَوْضِ طِرْسٍ أَنْبَتَ أَقَاحاً، عَلَى حِينِ كَلَّ لِسَانُ الإِحْسَانِ، [وَفَاقَتْ][4] سِهَامُ الأَفْهَامِ، وَانْقَشَعَتْ مَوَاطِرُ الخَوَاطِرِ، وَانْتَكَثَتْ مَرَائِرُ الضَّمَائِرِ، وَلَمْ يَبْقَ ذِهْنٌ إِلَّا نَضَبَ حِسْيُهُ[5]، وَلَا فِكْرٌ إِلَّا طَفَلَ[6] مَسْيُهُ، فَغَايَةُ النِّحْرِيرِ عَلَى هَذَا التَّحْرِيرِ، هَجْعَةُ كَلَالٍ، وَضَجْعَةُ مَلَالٍ، وَإِنَّ طَبْعاً يَتَدَفَّقُ عَلَى جُمُودِ الطِّبَاعِ، وَذِهْناً يَتَأَلَّقُ أَوَانَ خُمُودِ الشُّعَاعِ، أَحَقُّ ذِهْنٍ بِأَنْ أَمْسَحَ عِطْفَهُ، وَأَسْتَمْنِحَ عَطْفَهُ، وَأُقَدِّمَهُ وَأُصَلِّي خَلْفَهُ.

فَأَمَّا مَا عَرَضَ بِهِ السَّادَةُ - أَعْلَى اللهُ أَقْدَارَهُمْ- مِنْ بَعْثِ المُوَشَّحَةِ الَّتِي قَصَدْتُ بِهَا الشُّكْرَ لَا الذِّكْرَ، فَكَيْفَ وقَد كَسَبَتْنِي رُؤْيَةُ الفُضَلَاءِ العُقَلَاءِ أَمْثَالِكُمْ حُنْكَة، وَبَقَّتْ عَلَيَّ مِنَ العَقْلِ والتَّمْيِيزِ مُسْكَة، أَوَ لَيْسَ مِنْ دَلَائِلِ السَّمْعِ الأَعْوَجِ، والذِّهْنِ الأَهْوَجِ، إِبْدَاءُ تُرْبٍ لِتِبْرٍ، وَإِهْدَاءُ خَزَفٍ إِلَى دُرٍّ. وَأَنَا أُحَاشِيكُمْ، وَأَرْبَأُ بِرِقَّةِ حَوَاشِيكُمْ، عَنِ الإِسْعَافِ، إِلَى نَظْمٍ سَفْسَافٍ، وَإِخْلَادٍ[7] إِلَى لَفْظٍ غَيْرِ مُسْتَجَادٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ سَيِّدِنَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اسْتِحْسَانٌ يَغُرُّكُمْ [وَاسْتِمْلَاحٌ][8] يَنْخَدِعُ بِه غِرُّكُمْ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الإِغْضَاءَ سَجِيَّتُهُ،

---

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(2) السحاءة: ما أخذ من القرطاس وقد تدل عليه نفسه كما تدل على الكتاب.
(3) خرم بالأصل: ولعل الصواب ما أثبتناه.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) الحسي: حفرة قريبة القعر قيل أنه لا يكون إلا في أرض أسفلها حجارة وفوقها رمل. جاء في الحديث الشريف: «أنهم شربوا من ماء الحسي».
(6) طفل مسيه: أشرف على الغروب والانتهاء.
(7) خرم بالاصل ولعل الصواب ما أثبتنا.
(8) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتنا.



وَالإِرْضَاءَ عَلَى كُلِّ حَالٍ طَوِيَّتُهُ، والكُرَمَاءُ الَّذِينَ هُوَ قَائِدُ زِمَامِهِم، [وَإِمَامُهُمُ] المُسْتَحَقُّ وابْنُ إِمَامِهِمْ، [يَجْزُونَ] عَلَى القُلِّ بِالكُثْرِ، وَيَقُومُونَ لِلْمُقَصِّرِ المُجْتَهِدِ بِبَسْطِ العُذْرِ. فاعْفُونِي مِنْ هَذِهِ الخُطَّةِ وَاكْفُونِي [تَجَشُّمَ] هَذِه الضَّغْطَةَ. أَبْقَاكُمْ اللهُ لِلزَّلَّاتِ سَاتِرِينَ، وَبِالمَأْثُورَاتِ مُسْتَأْثِرِينَ. بِمَنِّهِ وَعِزَّتِهِ. والسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُغَاوِرٍ الشَّاطِبِيِّ(1):

سَلَامُ اللهِ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَى حَضْرَةِ [السَّيِّدِ الأَجَلِّ الهُمَام الأَعَزِّ الأَفْضَل] أَبِي عِمْرَانَ بْنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَدَامَ اللهُ لَهُم بَسْطَتَيْ [التَّأْيِيدِ وَالتَّمْكِينِ]. تَحِيَّةً تُوَافِيهِ بِأَبَرِّ سَلَام، وتَرْفُلُ فِي مِثْلِ حُلَّةِ ابْنِ حَارِثَةَ ابْنِ لَام(2) وتُمَاثِلُ فِي القَبُولِ بُشْرَى زَكَرِيَّاءَ بالغُلَامِ، وفَوْزَ قَلَمِهِ بالكَفَالَةِ بَيْنَ الأَقْلَام. إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ لِلثَّنَاءَ عَلَى مَنْصِبِ سَيِّدِنَا وابْنِ سَيِّدنا في السَّنَاءِ رِوَاقًا، وَصَيَّرَ مِنَنَهُ في أَعْنَاقِ الأَقْرَبِينَ أَطْوَاقًا، فَلَبِسَتْ بِهِ حَضْرَةُ الخِلَافَةِ لِلْغِبْطَةِ مُطْرَفَهَا، واتَّخَذَتْ بحَمِيدِ مَقَالِهِ فيهَا زِينَتَهَا وَزُخْرُفَهَا وَأَنَارَتْ بِشَرَفِ نِيَابَتِهِ عَنْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ شُرُفَهَا. فَأَفَاءَ عَلَى عَبِيدِهِ الطَّلَبَةِ ظِلَالَ جنَانِهِ، وَأَحَاطَ بِهِمْ مِنَ القَبُولِ عَمِيمُ إِحْسَانِهِ(3) وصَالَتِ الرِّيحُ كُلَّ مَصَال، عَلَى سِرَاجِ ابْنِ أَبِي الخِصَال(4) فَلَمْ يَطُلْ لَهَا بِهِ عَبَث، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهَا مُتَلَبَّث، هُنَالِكَ كَتَبَ فِي الفَرْوَةِ مَا كَتَب، وَعَذَلَ ذَا الشَّبَابِ عَلَى لُبْسِهَا وَعَتَب، وَسَأَلَهَا لِمِثْلِهِ مِمَّنْ شَارَفَ الكَبْرَة، وَأَسَالَ عَلَى شَيْبَتِهِ العَبْرَة، وَعِنْدَمَا احْتَلَّتِ الشَّمْسُ مِنَ القَوْسِ أَقْصَى مَنْزِلَةِ الانْحِطَاطِ، وَاسْتَوْلَى لَيْلُهَا عَلَى أَمَدِ الشَّطَاط، وَاشْتَكَى غولُ النَّهَارِ

---

(1) شاطبي سمع من أبيه وأبي علي الصدفي وكان في زمانه من كبار الكتاب والأدباء المشاهير بالأندلس وله حظ من قرض الشعر ومشاركات في الفقه وله ديوان يسمى «نور الكمائم وسجع الحمائم» غير أنه مفقود. انظر ترجمته في التكملة، ص: 578، تحفة القادم، ص: 25، معجم أصحاب الصدقي، ص: 243، شذرات الذهب 4/ 289، زاد المسافر ص: 79، المغرب 2/ 385.

(2) يقصد أوس بن حارثة بن لام. انظر الكامل، ص:133. وخزانة الأدب 9/ 401.

(3) خرم بالأصل بمقدار خمسة أسطر ونصف لم نتمكن من قراءتها.

(4) كاتب مرابطي مشهور له رسائل مجموعة، انظر: عن حياته ورسائله المقدمة التي كتبها الدكتور محمد رضوان الداية أثناء تحقيقه لهذه الرسائل.



بِالقِصَرِ، مِثْلَ شَكْوَايَ فِي ظُلَامَةٍ بِالخُسَر، لَمْ أَسْتَمِلْ إِلَّا بِسُحْقٍ نُسِلَ إِطْرَافُهُ وَتَهَدَّل، لَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُ مَيْسُونَ بِنْتِ بَجْدَلَ[1] أَخْلَقُ مِنْ طَيْلَسَانِ ابْنِ حَرْبٍ[2] أَوْ فَرْوَةِ ابْنِ سَارَة[3] فِي الغَرْب، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِتَشَرُّمِهَا مِنَ الأَصْوَافِ وَالأَوْبَار، كَمَا رُوِيَ فِي الأَخْبَارِ عَنْ تَشَرُّمِ مُصْحَفِ كَعْبِ الأَحْبَار[4]، قَدْ قَضَى التَّمْزِيقُ مِنْهَا كُلَّ وَطَر، وَلَقِيَ لَابِسَهَا الصِّرَّ عَلَى خَطَر، وَتَكَادُ تَنْدَقُّ بِنُزُولِ المَطَر. وَمَا أَحْوَجَنِي مَعَ سِنِّي فِي هَذَا اللَّيْلِ المَمْطُولِ، إِلَى لِحَافٍ سَابِغِ العَرْضِ وَالطُّول، يُسَكِّنُ مِنَ اللَّحْيَيْنِ مُضْطَرِبًا وَيَقْضِي لِلْمُتَمَطِّي فِي سِعَتِهِ أَرَبًا، وَحِينَ أَنَافَتْ هَذِه البُغْيَةُ عَلَى أُمْنِيَتِي، وَلَمْ يَبْلُغْ أَمَلِي فِيهَا عَمَلِي وَلَا نِيَّتِي، لَمْ أَرَ لِلنِّعْمَةِ فِيهَا إِلَّا مَنْ هُوَ بِالصَّنِيعَةِ العُظْمَى لِي أَمْلَك، وَفِي سَبِيلِ المُحَافَظَةِ عَلَى نَفْسِي وَدِينِي أَسْلَك. السَّيِّدُ الَّذِي التَمَسُّكُ بِطَاعَتِهِ نَجَاةٌ وَعِصْمَة، وَالمَلِكُ الَّذِي لَيْسَ فِي سُؤَالِ نَوَالِهِ وَصْمَة، وَالهُمَامُ الَّذِي تُشَرِّفُ خِلْعَهُ اللَّابِس، وَيَكُونُ عِلْقُ السُّؤْدَدِ فِيهَا أَنْفَسَ النَّفَائِس، وَهَلْ رَاقَتْ حُلَّةُ النُّعْمَانِ[5] إِلَّا عَلَى أَوْسٍ، وَمَا كَسَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا لِيُكْسَى مِنْ ثِيَابِ الفِرْدَوْسِ.

---

(1) هي ميسون بنت بجدل بن أنيف من بني كلب كانت من التابعيات وهي زوج معاوية بن أبي سفيان وأم ابنه يزيد والكاتب يشير إلى بيتها الذي تقول فيه:

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

انظر شعراء الأعراب، ص: 66.

(2) يعني بطيلسان ابن حرب ذلك الذي أنشد فيه الحمدوي قصائد متعددة منها قوله:

طَيْلَسَانٌ لابْنِ حَرْبٍ جَاءَنِي ... قَدْ قَضَى التَّمْزِيقُ مِنْهُ وَطَرَهْ

أَنَا مِنْ خَوْفِي عَلَيْهِ أَبَداً ... سَامِرِيٌّ لَيْسَ يَأْلُو حَضَرَهْ

انظر زهر الآداب، ص: 552، جمع الجواهر، ص: 156، شعراء بصريون، ص: 127.

(3) انظر كتاب ابن صارة الشنتريني للدكتور حسن الوراكلي. له في فروته أشعار طريفة منها:

أودت بِيَدِي فُرَيْوَةَ أَرْنَبٍ ... كَفُؤَادِ عُرْوَةَ فِي الرِّقَّةِ

(4) التشرم: هو التمزق، والإشارة إلى ما ورد في الخبر أن كعب الأحبار أتى عمر بن الخطاب بكتاب قد تشرمت نواحيه فيه التوراة.

(5) النعمان: هو النعمان بن المنذر وأوس: هو أوس بن حارثة بن لأم الطائي استحق حلة النعمان لأنه كان أجود العرب في وقته. الكامل 133، خزانة الأدب 9/ 401.



وَإِنْ يَكُنِ العَبْدُ لَا غَرْوَ قَدِ ارْتَقَى فِي هَذِهِ المَأْرُبَةِ إِلَى المَصْعَدِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَيْهِ حَاسِراً بَصَرُهُ[1] وَمَدَّ إِلَيْهِ خَطْواً لَا يَلْحَقُ ضَيْقُهُ وَلَا قِصَرُه، وَلَوْ رَجَعَ عَلَى ضَلْعِهِ فِي خُمُولِهِ وَقَاسَ شِبْرَهُ بِفِتْرِهِ فِي مَأْمُولِهِ، وَأَسْنَدَ إِلَى مَوْضُوعِهِ خَبَرَ مَحْمُولِهِ، لَكَانَ أَقْيَسَ بِمَذْهَبِهِ فِي مَرْكَبِهِ مَا يَلِيقُ بِأَدَبِهِ، لَكِنْ مَا قَدَّمَهُ آنِفاً مِنَ المَيْلِ عَلَى جَانِبِ [اللِّينِ][2] وَالكَرَمِ، يُحِلُّهُ فِي أَمْنٍ مِنَ النَّقْدِ عَلَيْهِ وَحَرَم، مَعَ مَا يَتَرَجَّاهُ مِنْ قَبُولِ السَّيِّدِ الأَجَلِّ وَالحُظْوَةِ لَدَيْه، مَا [يُتَوَسَّدُ] بِهِ أَبْرَدَيْه، وَيُجْمَعَ لَهُ بَيْنَ بُلُوغِ التَّأْمِيلِ وَالصَّفْحِ الجَمِيل. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَا رَبَّ سِوَاهُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ. وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ:

سَلَامٌ عَلَى حَضْرَةِ الوَلِيِّ الأَجَلِّ الكَاتِبِ الأَكْرَمِ الأَفْضَل وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ تَحِيَّةً تُمَاثِلُ كَرَمَهُ العِدَّ، وَتَسْتَنْفِذُ فِي وَاجِبِ بِرِّهِ الوُسْعَ وَالجِدَّ. أَمَا [إِنَّ السَّخَاءَ][3] يَنْتَمِي مِنْهُ إِلَى جُودٍ وَسَاع، [وَالسَّنَاءَ][4] مِنْ سَجَايَاهُ لَا يَبْلُغُهُ مَع جُهْدِهِ سَاع، وَالدُّنْيَا بِمَا فِيهِ مِنَ العَلْيَا عَلِيمَةٌ وَشُهْرَةُ فَضْلِهِ فِيهَا أَعْرَفُ مِنْ يَوْمِ حَلِيمَةَ[5]، فَجَدِيرٌ أَنْ [تَنْطِقَ][6] عَنْهُ أَلْسِنَةُ العُلَى، وَتُطَوِّقَ مِنْهُ طُلَى الأَبْرَارِ حُلَى، وَيَجْعَلُهُ المَجْدُ تَاجاً عَلَى مَفْرِقِهِ، وَيَفْخَرُ [بِمَحَامِدِهِ][7] المَغْرِبُ عَلَى مَشْرِقِه. وللهِ مَا ضَرَبَ عَلَى صُحْبَتِهِ مِنْ سُرَادِقِهِ، وَنَطَقَ الوَلَاءُ بِفَصِيحِ لِسَانِهِ فِي إِحْسَانِهِ [إِلَيَّ وَصَادِقِهِ][8] وَأَثْنَى عَلَى مَا تَكَنَّفَنِي فَضْلُهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ.

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. سورة الملك، الآية: 4.
(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(3) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) فيه إشارة إلى المثل العربي «ما يوم حليمة بسر» وهي «حليمة بنت الحارث بن أبي شمر» انظر: مجمع الأمثال 2/ 322 رقم 3814.
(6) خرم بالأصل.
(7) خرم بالأصل.
(8) خرم بالأصل.



فَإِنِّي أُحْصِي نَوَافِلَهُ الجَمَّةَ عَدًّا، وَهَلْ بَيْتِي إِلَّا كَبَيْتِ الحُطَيْئَةِ بْنِ مَوَاهِبَ بْنِ سُعْدَى، أَرُوحُ فِي آثَار [حِبَائِهِ الغَمْر][1] وَأَغْتَدِي، وَأَتَعَمَّمُ بِمَا يَمْنَحُ مِنَ [الآلَاءِ وَأَرْتَدِي][2] وَيَبْدَأُ بِالجَدْوَى وَإِنْ كُنْتُ لَا أَجْتَدِي، واللهُ يُمْتِعُ مِنْهُ مُؤَثَّلَ مَجْدِه، بِنَسِيجِ وَحْدِهِ، فَيَجْعَلَ خِدْمَتَهُ مُقْتبَلَ [جِدِّهِ وَعَهْدِهِ][3]، وَأَعْظَمَ قَصْدِهِ وَوُكْدِهِ، ولَمَّا أَوْرَدَنِي [.......][4] مِثْلَ مَنْظَرِ العَشِيق، وَفِي الرِّقَّةِ كَدِينِ ابْنِ رَشِيق[5] لَوْ رَآهَا أَبُو أُحَيْحَةَ[6] سَمَتْ لَهُ بِهَا هِمَّة، ثُمَّ لَمْ يَجِدْ سِوَاهَا عِمَّة، وَحِينَئِذٍ تَجْمَعُ به بَيْنَ قُرَيْشٍ لِشَمْلِ الفَضْلِ نِظَامًا، وَتَخْلَعُ عَمَائِمَهَا [لَهُ إِعْظَامًا][7]، وَسَيِّدِي الأَجَلُّ أَدَامَ اللهُ بُقْيَاه، وَوَصَلَ عُلْيَاه. يُطْلِعُ بِتَعْمِيمِي إِيَّاهَا تَاجًا عَلَى سَنَائِه، وَيَجْعَلُهَا [نَاطِقَةً][8] بِتَقْرِيظِهِ وَثَنَائِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَهُوَ حَسْبنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ. وَمِنْ تَحِيَّتِي عَلَى حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ مَا تَصْفُو أَبْرَادُهُ وَتَتَوَالَى مَعَ الآنَاءِ أَوْرَادُهُ، ثُمَّ السَّلَامُ الكَرِيمُ العَمِيمُ عَلَيْهِ كَثِيراً أَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ.

وَلَهُ:

سَلَامٌ عَلَى الشَّيْخِ الأَجَلِّ الوَزِيرِ المَاجِدِ الأَفْضَلِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ. تَحِيَّةً يَتَشَرَّفُ إِلْمَامُهَا لِذُرَاهُ وَتُغْرَسُ مِنَ القَبُولِ فِي رَطْبِ ثَرَاهُ، وَيُحْمَدُ فِيهَا العَزْمُ عِنْدَ

---

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) خرم أصاب الكلمتين ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) خرم بالأصل.

(4) خرم بالأصل بمقدار ثلاثة أسطر ونصف لم نتمكن من قراءتها.

(5) لعله يقصد به «صاحب كتاب العمدة» و«قراضة الذهب» المعروف بابن رشيق القيرواني والإشارة إلى قوله:

إِنِّي لَقِيتُ مَشَقَّة ... فابْعَثْ إِلَيَّ بِشُقَّةْ
كمِثْلِ وَجْهِكَ حُسْنًا ... ومِثْلِ دِينِي رِقَّةْ

(6) يقصد به: أبا سعيد بن العاص بن أمية وهو الملقب بذي التاج.

(7) خرم بالأصل.

(8) خرم بالأصل.



صُبْحِهِ سُرَاهُ[1] وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ حَمْدَ مَنْ رَجَاهُ فِي أُولَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَاسْتَوْزَعَهُ شُكْرَ مَا مَنَّ بِهِ مِنْ عَائِدَةِ عَوَائِدِهِ وَأَجْرَاهُ والصَّلاة عَلَى محمَّد نَبِيِّهِ المُبْتَعَثِ بِمَا أَظْهَرَهُ عَلَيْهِ فِي آيَاتِهِ الكُبْرَى وَأَرْدَاه، وَعَلَى آلِهِ وَعِتْرَتِهِ الأُلَى اعْتَصَمُوا مِنَ الدِّينِ القَيِّمِ بِأَوْثَقِ عُرَاهُ.

وَالاسْتِرْضَاءِ لِلْإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ، القَائِمِ بِمَا أَلْهَمَ مِنْ تَقْوَاهُ وَأَرَى مِنْ هُدَاهُ، وَلِخَلِيفَتِهِ النَّاصِرِ المَنْصُورِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُتَمِّمِ كَلِمَتِهِ وَمُبِيدِ عِدَاه، وَمُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِعِزَّةِ أَمْرٍ يَتَّصِلُ بِيَوْمِ الدِّينِ مَدَاه، وَيُحْكِمُ فِي أَوْرِدَةِ المُلْحِدِينَ مُدَاهُ.

فَإِنَّ الكِتَابَ مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش حَرَسَهَا اللهُ وَأَنَّسَهَا، وَالمُتَجَدِّدُ بِهَا مِنْ خَفْضِ الدَّعَةِ، وَشَمْلِ السَّعَة مَا يَتْلُو نَدَاهُ سَدَاه[2]، وَيُوَشِّحُ الخَيْرَاتِ سُدَاه[3]. وَنَحْمَدُ بِحَمْدِ اللهِ مُرَاحَهُ وَمَغْدَاه. وَلَمَّا كَانَ الوَزِيرُ الأَجَلُّ -أَعَزَّهُ اللهُ- فِي مُؤَثَّلِ مَجْدِه، نَسِيجَ وَحْدِه، وَالفَضْلُ يَجْعَلُ اخْتِصَاصَهُ بِهِ عِنَايَةَ وَكْدِهِ وَجِدِّه، وَيُصَوِّرُ إِلَيْهِ أَهْوَاءَ القُلُوبِ المُخْتَلِفَات، وَيُصَيِّرُ أَشْتَاتَ آرَائِهَا بِالإِجْمَاعِ عَلَيْهِ مُؤْتَلِفَات، اسْتَهْدَيْتُ مِنْهَا أَعْلَاقَ النَّفَائِسِ وَأَلْيَنَ المَلَابِسِ [وَهَا أَنَا قَدْ][4] طَمِحَتْ هِمَّتِي إِلَى ثَوْبٍ يُلَفَّقُ مِنْ أُهُبٍ[5] مُتَفَرِّقَاتٍ شَوَارِدِ، لَيْسَ لَهَا إِلَّا أَوْشَالُ[6] الصَّحْرَاءِ مَوَارِد، وَأَوْبَارٍ مِثَالَ الخَزِّ جِنْسا،

---

(1) فيه إشارة إلى المثل المعروف: «عند الصباح يحمد القوم السرى».انظر مجمع الأمثال 2/ 5، رقم 2382.

(2) السَّدَى الأولى: يعني الندى القائم الذي يسقط أثناء الليل ومنه قول الشاعر:

فَأَنْتَ النَّدَى فِيمَا يَنُوبُكَ وَالسَّدَى ... إِذَا الخَوْدُ قَدَّتْ عُقْبَةَ القِدْرِ مَالَهَا

(3) السُّدَى: معناها نسيج الثوب وهو خلاف لحمته ومنه قول الشاعر:

إِذَا أَنَا أَسْدَيْتُ السَّدَاةَ فَأَلْحِمَا ... ونِيرَا فَإِنِّي سَوْفَ أَكْفِيكُمَا الدَّمَا

(4) خرم بالأصل.

(5) الأهب: جمع إهاب على غير قياس، وهي الجلود من البقر والغنم والوحش لم تدبغ.

(6) الوشل: الماء القليل الذي يقطر من الصخور أو الجبال، قال الشاعر:



لَكِنَّهَا أَلْيَنُ مَسّا، وَأَبْعَدُ أَنْ تَأْلَفَ أُنْسا، تَسْكُنُ القِفَافَ[1] وَالرِّمَالَ التِي لَا تَطَأُهَا إِلَّا ذَوَاتُ الأَخْفَافِ، وَعَجَباً لِتِلْكَ الأَجْلَاد، مَعَ كَثْرَةِ الأَعْدَادِ، هِيَ لَطَائِفُ تُسْتَمَال، مِنْهَا نُفُوسُ الأَقْيَال[2]، وَالأَمْلَاك بِهَدَايَا أَفْنَاكِ، فَيَخْتَصُّونَ بِهَا اسْتِيثَاراً، وَمِنْ شَرَفِهَا أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا دِثَاراً، وَسَيِّدِي الأَجَلُّ الأَسْنَى، وَعَارِفٌ مِنِّي الحُسْنَى، يَتَفَضَّلُ عَلَيَّ بِفَائِدَةٍ، هِيَ مِائَة إِهَابٍ لَا وَاحِدَة[3]، وَيَحْتَمِلُ سَرْوُهُ شَطَطَ هَذِهِ الكُلْفَةِ، وَيَجْعَلُ دَالَّتِي عَلَيْهِ قُرْبَةً إِلَيْهِ وَزُلْفَة، فَيَسْتَرِقُّ مِنِّي شُكْراً، وَيَفْتَرِعُ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِكْرا. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى لَا رَبَّ سِوَاهُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ:

سَلَامٌ عَلَى الشَّيْخِ الأَجَلِّ الوَلِيِّ الحَفِيِّ الأَفْضَلِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ تَحِيَّةً تُوَافِيهِ[4] بِأَبَرِّ سَلَامٍ وَتُضَاهِي بُشْرَى زَكَرِيَّاءَ بِالغُلَامِ، وَالحَمْدُ للهِ الّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ بِمَا أَوْلَى مِنْ إِنْعَامٍ، وَوَالَى مِنْ فَضْلٍ عَام، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَأَمِينِهِ المُبْتَعَثِ بِمُعْجِزِ الكَلَامِ، وَعَلَى أَهْلِهِ وَعِتْرَتِهِ الأُلَى تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالإِسْلَام. وَرِضْوَانُ اللهِ عَلَى الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الَّذِي (أَقَامَ)[5] لِلْهُدَى مَا طُمِسَ مِنْ أَعْلَام. وَلِخَلِيفَتِهِ النَّاصِرِ المَنْصُورِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مِنْ أَمْرٍ تَدْرُسُهُ أَلْسِنَةُ الأَنَامِ وَالأَقْلَام، وَتُقْطَعُ فِي سَعْدِهِ مَسَافَةَ عُمْرُهَا اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَبَعْدُ:

فَالكِتَابُ مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش حَرَسَهَا اللهُ وَأَنَّسَهَا وَقَدْ وَرَدَ كِتَابُكُمُ الأَثِير، مُضَمّناً أَنَّكُمْ تَكْرَعُونَ مِنْ مَشْرَبِهِ فِي صَفْوِ نَمِير، وَبَدَا لَكُمْ أَلَّا نَقْطَعَ المُكَاتَبَة، وَنُوَاصِلَ

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا وَشَلاً بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا

(1) القفاف: ما ارتفع من أرض ولم يبلغ أن يكون جبلا.

(2) الأقيال: الملوك عامة، وقيل تطلق ويراد بها ملك من ملوك حمير خاصة.

(3) الجملة غامضة لم نتبين معناها (اللسان أهب).

(4) خرم بالأصل.

(5) خرم بالأصل.



المُراسَلَةَ وَالمُجَاوَبَة، وَتَسْتَحِثُّونَنَا عَلَى أَنَّكُمْ بِحَقٍّ تَرْغَبُونَ فِي كِفَاءِ مَالَنَا مِنَ الأَوْطَارِ وَلَا سِيَّمَا نَفَائِسُ الأَعْلَاقِ وَمُهِمَّاتِ الأَخْطَارِ. وَقَدْ طَمِحَتْ نَفْسِي إِلَى مَطِيَّة، سَنِيَّةٍ ثَنِيَّة. فَابْعَثْ -أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَكَ- مَنْ يَبْذُلُ فِي شِرَائِهَا جِدَّه، وَيَتَحَمَّلَ ذَلِكَ العِبْءَ حَدَّه. فَإِنْ ابْتَعْتَهَا فَأَشْخِصْ ثِقَةً إِلَيَّ بِهَا، وَيَصِلُكَ وَشِيكاً ثَمَنُهَا.

وَأَمَّا مَا تَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الجِهَةِ مِنْ غَرَضٍ، فَأَنَا أَنْهَضُ - بِحَوْلِ اللهِ- إِلَى الوَاجِبِ مِنْهُ وَالمُفْتَرَضِ. واللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَلَهُ:

سَلَامٌ عَلَى الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُشَرَّفِ الأَشْرَفِ الأَفْضَلِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ تَحِيَّةً [تُمَاثِلُ](1) سَنِيَّ فَضْلِهِ، وَمَا يَتَفَيَّأُ عَلَى الأَوْلِيَاءِ مِنْ وَارِفِ ظِلِّهِ. وَبَعْدَ الحَمْدِ للهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ بِعَظِيمِ امْتِنَانِهِ وَوَاسِعِ طَوْلِه، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ المُبْتَعَثِ بِمَا عَجَزَ الإِنْسُ وَالجِنُّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ(2) وَعَلَى آلِهِ وَعِتْرَتِهِ المُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ وَالاسْتِرْضَاءِ لِلْإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ القَائِمِ بِالهِدَايَةِ إِلَى وَاضِحِ سُبُلِهِ وَلِخَلِيفَتِهِ النَّاصِرِ المَنْصُورِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُنْتَهِضِ بِمَا مَلأَ البَسِيطَةَ شَامِلَ قِسْطِهِ وَعَدْلِهِ، وَمُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِعِزَّةِ نَصْرٍ يَسْتَمْتِعُ الإِيمَانُ فِيهِ بِنِظَامِ شَمْلِهِ.

فَإِنَّ الكِتَابَ مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش حَرَسَهَا اللهُ وَأَنَّسَهَا، وَالمُتَجَدِّدُ بِهَا الأَمْنُ الَّذِي تَطْمَئِنُّ الكَافَّةُ إِلَى خَفْضِهِ وَشَمْلِه، وَتَحْظَى بِسَعَادَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مِنْهُ بِالخَيْرِ كُلِّهِ، وَلَدَيَّ مِنَ المُحَافَظَةِ عَلَى تَعْظِيمِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ وَمُتَعَيِّنِ بِرِّهِ، مَا أُبَالِغُ فِي مَوْصُولِ الاهْتِمَامِ بِهِ وَمُسْتَمَرِّهِ، وَجَدِيرٌ بِهِ فِيمَا يَنْتَمِي إِلَى السَّنَاءِ مِنْ كَرِيمِ مَنْصِبِهِ، أَنْ يَسْتَأْثِرَ مِنَ

---

(1) خرم بالأصل.

(2) يشير في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء، الآية: 88.



الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ بِالأَخَصِّ بِهِ، فَيَتَبَسَّطُ الوَلِيُّ الحَمِيمُ فِي المَأْرَبِ عَلَيْهِ، وَيُوَجِّهُ آمَالَهُ فِي المَطَالَبِ إِلَيْهِ، وَيَسْتَنِيمُ إِلَى الثِّقَةِ فِي سَعَةِ حِلْمِهِ وَاحْتِمَالِهِ، وَيَتَسَحَّبُ فِي اسْتِرْسَالِهِ وَإِدْلَالِهِ عَلَى يُمْنِ نَقِيبَتِهِ وَإِجْمَالِه، وَيَتَوَسَّدُ أَبْرَدَيْهِ، وَيَرْجُو تَسَنِّي بُغْيَتِهِ لَدَيْه، وَيَأْمَلُ انْقِيَادَ أَرَبِهِ طَوْعَ الكَرِيمَتَيْنِ يَدَيْه. وَإِنَّ احْتِيَاجِي مُتَصَدٍّ إِلَى مُدَرَّعٍ مُقْرِفٍ[1] النِّتَاجِ، بَيْنَ صَهَّالٍ وَسَحَّاجٍ[2]، رَابِعٌ فَاره، يَنْبَعِثُ سَيْرُهُ غَيْرُ كَارِه، يَحُثُّ الخُطَى، حِينَ يُمْتَطَي، سَلِيلُ حُجْرِهِ يَسْبِقُ إِلَى وَكْرِهِ القَطَا، بَغْلاً أُحْضِرَتْ رَوَاضِعُهُ لِلانْثِنَاء، وَسَلِمَتْ قَوَائِمُهُ مِنَ الانْحِنَاءِ وَالانْثِنَاء، أَوْ مَطِيَّةً سَفْوَاءَ[3] لَهَا حَمِيدُ خِبْرَةٍ وَحُسْنُ رُوَاء، يَتَمَثَّلُ مَنْ حَازَ مِنْهَا العِلْقَ الأَنْفَسَ:

إِذَا حَمَلْتُ بِزَّتِي عَلَى عَدَسْ
عَلَى الَّتِي بَيْنَ الحِمَارِ وَالفَرَسْ
فَلَا أُبَالِي مَنْ غَزَا وَمَنْ جَلَسْ[4]

وَالشَّيْخُ الأَجَلُّ أَدَامَ اللهُ اعْتِلَاءَهُ وَوَالَى آلَاءَهُ، يَتَوَخَّى مِنْ ارْتِيَادِهَا وَابْتِيَاعِهَا مَا اسْتَنَدَ الرَّجَاءُ فِيهِ إِلَى اهْتِمَامِهِ، وَوَثِقَ مِنْ مُرَادِهِ بِكَمَالِهِ وَتَمَامِهِ، وَبِكَوْنِ أَهْلِ فُلَانَة هَذَا الوَقْت بِفُلَانَه، تَتَّفِقُ البُغْيَةُ فِي وُجُودِهَا بِفَضْلِ اللهِ وَتَسَنُّهْ؛ وَمَهْمَا تَيَسَّرَ -بِحَوْلِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ- وِجْدَانُهَا وَشِرَاؤُهَا وَعَرَّفَنِي بَعْدَ إِيقَافِهَا لَدَيْهِ مَبْلَغَ ثَمَنِهَا فَأَبْعَثُ ثِقَتِي - إِنْ شَاءَ اللهُ- وَشِيكًا إِلَيْهِ، فَيَتَسَلَّمُهَا مِنْهُ بَعْدَ إِزَاحَةِ الثَّمَنِ مُوَفًّى عَلَيْهِ، بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَحَوْلِهِ. وَإِنَّهَا لَبُغْيَةٌ يُضِيفُ سَيِّدِي التَّفَضُّلَ بِهَا إِلَى عَمِيمِ إِحْسَانِهِ، وَمَا يُطَوِّقُنِي بِهِ مِنْ حُسْنِ

---

(1) المقرف الذي دانى الهجنة من الفرس وغيره وقاربها. هكذا في الأصل ولعلها «مُبْرَدَع».

(2) السحاج: الذي يسرع في مشيه ويكثر الجري، قال الشاعر:

عَلَى أَثَرِ الجُعْفِيِّ دَهْرٌ وَقَدْ أَتَى ... لَهُ، مُنْذُ وَلَّى يَسْحَجُ السَّيْرَ أَرْبَعُ

ولأبي العلاء كتاب سماه «الصاهل والشاحج». والسحاج والشحاج بمعنى.

(3) السفا: خفة شعر الناصية في الخيل والذكر أسفى والأنثى السفواء.

(4) الأبيات لبشر بن سفيان الراسبي، وعدس الموجود في الأبيات اسم من أسماء البغال. اللسان (عدس).



امْتِنَانِهِ، وَتِلْكُمْ أُمْنِيَةٌ [تَرُومُهَا][1] نَفْسِي، وَأَنْتُمْ بِسُرُورِكُمْ تَرُدُّونَ بِالتَّمَكُّنِ مِنْهَا نَافِرَ أُنْسِي. إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَلَهُ أَيْضاً:

سَلَامٌ عَلَى الشَّيْخِ وَرَحْمَةُ اللهِ. تَحِيَّةٌ تُعَاوِدُ ابْنَ دَهْمَانَ صِبَاهُ، وَيَتَضَوَّعُ بَطْنُ نَعْمَانَ بِصِبَاهُ وَسَلَاماً [يَحُلُّ لَهُ الغَوْلُ حُبَاهُ][2] وَيَغْبِطُ بِمَا أَحْظَاهُ مِنَ البِشْرِ وَحَبَاه. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ بِمَا وَالَاهُ مِنْ طَوْلِهِ العَمِيمِ وَأَوْلَاه، حَمْدَ مَنِ اعْتَبَرَهُ نَصِيرَهُ وَمَوْلَاهُ وَالْتَمَسَ رِضَاهُ بِمَا اعْتَقَدَهُ مِنْ وَحْدَانِيَّتِهِ وَتَوَلَّاه. وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَمُصْطَفَاهُ المُبْتَعَثِ بِمَا أَوْضَحَ نُورَ الدِّينِ القَيِّمِ [وَجَلَّاهُ][3] وَعَلَى أَهْلِهِ وَعِتْرَتِهِ [الأُلَى آتَاهُمْ اللهُ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَوَفَّاهُ][4] وَرِضْوَانُ اللهِ عَلَى الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ... وَلِخَلِيفَتِهِ وَسَلِيلِ طَائِفَتِهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُسْتَنٍّ نَهْجِ هُدَاهُ ... وَمُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا [وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِعِزَّةِ أَمْرٍ يَتَّصِلُ إِلَى مَدَاهُ وَيَحْكُمُ فِي أَوْرِدَةِ المُعْتَدِينَ مَشْحُوذٌ مُدَاهُ][5].

فَالكِتَابُ مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُشَ حَرَسَهَا اللهُ وَأَنَّسَهَا وَالمُتَجَدِّدُ بِهَا مِنْ صُنْعِ اللهِ الَّذِي يَشْفَعُ بِالمَزِيدِ فِيهِ حُسْنَاهُ، وَيَجْعَلُ شُكْرَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَفْضَلِ الامْتِنَانِ فِيهِ وَأَسْنَاهُ مِنَ المُحَافَظَةِ عَلَى مُوَاخَاةِ الفَقِيهِ الأَجَلِّ مَا تُوجِبُهُ فِيهِ نَفْسُ الحُظْوَةِ وَتَقْتَضِيهِ حُقُوقُ المَبَرَّةِ لَهُ دُونَ سِوَاهُ، وَمُجَاذَبَةِ أَهْدَابِ التَّدَبُّرِ لِمُؤَانَسَةٍ ارْتَشَفْنَا دَرَّةَ أَخْلَافِهَا وَتَعَاطَيْنَا حَلَالَ سُلَافِهَا، نَشْرَبُ مِنْ غَمْرِ نَهْرِ المَعَارِفِ وَنَمْتَاح، وَنَتَدَمَّحُ[6] لِأَرْوَاحِ مُلَحِ الآدَابِ وَنَرْتَاح،

---

(1) خرم بالأصل.
(2) خرم بالأصل.
(3) غير واضحة بالأصل.
(4) خرم بالأصل.
(5) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(6) دمح الرجل: طأطأ رأسه خضوعا وإجلالا.



[نِعمُنَا][1] أَغْرَاضٌ بِالتَّفَهُّمِ مُحَصَّلَة، وَأَلْفَاظٌ عَلَى قُدودِ المَعَانِي مُفَصَّلَة [نَتَفَقَّهُ][2] فِيمَا حَوَتْ مِنَ الكَمَالِ السَّبْعَ المَثَانِي[3] إِذَا تَقَهْقَهَ النَّدَامَى لِصَوْتِ المَثَالِثِ وَالمَثَانِي[4] [وَنَبْحَثُ] فِيهَا مَا يَتَنَازَعُهُ الجَدَلُ، وَلَا يُحَرَّفُ القَوْلُ فِيهِ وَلَا يُبَدَّلُ؛ وَعَسَى الَّذِي يُعِيدُ فِي ذَاوِي الغُصْنِ مَاءَهُ، وَيَرُدُّ إِلَى البَدْرِ بَعْدَ مُحَاقِهِ نَمَاءَهُ أَنْ يَنْظِمَ ذَلِكَ الشَّمْلَ بَعْدَ انْتِشَارِهِ، وَيُنْعِشَ الأُنْسَ بِهِ مِنْ عِثَارِهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بِمَنِّهِ وَلَطِيف صُنْعِهِ-.

وَإِلَى هَذَا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ أَحَلْتُ عَلَى تَهَمُّمِ الوَلِيِّ الحَفِيِّ مَا كَرُمَ سَجَايَاهُ بِالجِدِّ فِيهِ أَجْدَر، وَإِلَى مَا تَتَحَرَّى الإِرَادَةُ مِنْ تَسَنِّيهِ أَبْدَر، وَأَصْحَبْتُهُ مِنْ رِجَالِي مَنْ اسْتَرْعَيْتُهُ مَجْدَهُ، وَاسْتَنَمْتُ فِيهِ إِلَى الأَثَرَةِ عِنْدَهُ، وَتَوَكَّفْتُ مِنْهُ مُقْتَادَ البُغْيَةِ فِي زِمَام، وَبِتَنَاوُلِ المَأْرِبَةِ مِنْ طَرَفِ ثُمَام، وَبِحَسَبِ ثِقَتِي بِهِ أَتَسَحَّبُ مُدِلًّا عَلَيْهِ، وَأُسْنِدُ البَحْثَ فِي لُبَانَةٍ تَاقَتِ النَّفْسُ فِيهَا إِلَيْهِ، لِيَرْتَادَ لِي هُنَالِكَ وَلِيدَةً غُلَامِيَّةً كَمَا نَعَتَ بَشَّارٌ فَطْمَتَهُ[5] فِي الحُسْن، وَقَسَّمَهَا بَيْنَ البَدْرِ وَالكَثِيبِ وَالغُصْنِ، كَصُورَةِ القَمَرِ، وَالظَّبْيَةِ العَاطِفَةِ فِي الخَمَرِ، يُصَلِّي الحِبُّ مِنْهَا إِلَى قِبْلَة، وَتُضَاهِي الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا المَأْمُونُ بِالقُبْلَة[6]، وَيَقْبَلُ حِذْقَهَا التَّعْلِيم تَفْصِيلاً وَجُمْلَةً، كَالمُهْرَةِ الضَّامِرِ، لَمْ تَلْحَقْ بِأُمِّ عَمْرٍو وَلَمْ تَكُنْ بِأُمِّ عَامِرٍ[7]، فَإِنْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ الصُّقْعِ إِمْكَانُهَا، وَعُرِفَ مَكَانُهَا، وَمَبْلَغُ ثَمَنِهَا، فَاعْمَلْ وَجْهَ

---

(1) خرم بالأصل.

(2) خرم بالأصل.

(3) السبع المثاني يعني بها القرآن الكريم أو سورة الفاتحة منه.

(4) المثاني والمثالث: يعني بها أصوات المغنين ومجالس الطرب واللهو.

(5) انظر ديوانه. وهي التي يقول فيها:

دُرَّةٌ بَحْرِيَّةٌ مَكْنُونَةٌ ... مَازَهَا التَّاجِرُ مِنْ بَيْنِ الدُّرَر

عَجِبَتْ فَطْمَةُ مِنْ نَعْتِي لَهَا ... هَلْ يُجِيدُ النَّعْتَ مَكْفُوفُ البَصَر

(6) يشير هنا إلى عريب المامونية. انظر إشارة المامون أو غيره لها بقبلة في الأغاني 21/ 70-71.

(7) أم عمرو يقول فيها الشاعر:

إِذَا ذَهَبَ الحِمَارُ بِأُمِّ عَمْرٍو ... فَلَا رَجَعَتْ وَلَا رَجَعَ الحِمَارُ

وأم عامر هي كنية عن الضبع.



النَّظَرِ فِي الظَّفَرِ بِهَا. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنِّي احْتَجْتُ إِلَى مَا تَعَرَّى مِنْ لَبُوسِهِ ظُهُورُ الرِّجَالِ، وَيُحَاكُ مِنْهُ وَشْيُ البُرُودِ مِنَ الخَالِ، أَغْلَى مِنْ جِنْسِ الدِّمَقْسِ وَأَلْيَنُ مِنْ حُلَّةِ عَمْرٍو فِي اللَّمْسِ. لَوْ رَآهُ هِشَام اسْتَأْثَرَ مِنْهُ بِالعِلْقِ الثَّمِينِ أَوْ لَبِسَهُ [مُزَيْقِيَا][1] كَفَّ عَنْ تَمْزِيقِهِ كَفَّ الضَّنِينِ، فَيَصْنَعُ مِنْهُ عمامَتَانِ مُسْتَجَادَتَانِ أَحْسَن مِنْ مَنْظَرِ العَشِيقِ، وَأَرَق مِنْ دِينِ ابْنِ رَشِيقٍ، إِحْدَاهُمَا مِمَّا يُشَكَّلُ لِلْعِمَّةِ عَلَى اللِّمَّةِ فَوْقَ عَشْرةِ أَذْرُعٍ أَوْ قَيْدَهَا، وَالثَّانِيَةُ تُضَاعِفُ عَلَى مِثْلِ الأُولَى مَزِيدَهَا، لِفَضْلَةِ العُثْنُونِ وَالعَذَبَةِ، فِي لِبْسَةِ ذَوِي الأَسْنَانِ مِنَ الطَّلَبَةِ، أُوثِرُ بِهِ شَيْخَنَا وَمَحَلَّ أَبِينَا فُلَانًا، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا [نَرْتَجِي][2] فِيهِ مِنْ حُقُوقِ الخِدْمَةِ، فَنَخْفِض لَهُ جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ[3]، وَأَنْتُمْ لَا غَرْوَ لَهُ أَرْعَى، وَإِلَى مَا يَجِبُ لِصِلَتِهِ أَدْعَى، [وَهَذَا المُدْرَجُ][4] طَيَّ هَذَا المُهْرِق، يَتَصَفَّحُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ مَا هُوَ إِلَى قَضَاءِ البُغْيَةِ فِيهِ أَسْبَقُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وعُذْراً إِلَيْهِ فِي الإِطَالَةِ عَلَيْهِ اعْتِمَاداً عَلَى إِغْضَائِهِ وَاحْتِمَالِهِ، وَثِقَةً بِكَرَمِ سَجَايَاهُ وَحَمِيدِ خِلَالِهِ.

وَلَهُ:

وَالمُتَجَدِّدُ بِهَا شَامِلُ الدَّعَةِ وَعَاكِفُهَا، وَمُتَضَاعِفُ الخَيْرَاتِ وَمُتَرَادِفُهَا وَلَدَيَّ مِنْ مُوَالَاتِكُمْ مَا أُحَافِظُ عَلَى كَرِيمِهِ، وَأُقَابِلُهُ بِحَفِيلِ [البُرُورِ][5] وَعَمِيمِهِ، وَأَعْرِفُ لِفَضْلِكُمْ فِيهِ حَقَّ سَبْقِهِ وَتَقْدِيمِهِ. وَقَدْ وَرَدَ كِتَابُكُمُ المَبْرُورُ مُودَعًا مِنْ [تَهَمُّمِكُمْ

---

(1) مُزَيْقِيَا: هو لقب عمرو بن عامر بن مالك ملك من ملوك اليمن وهو جد الأنصار، قيل إنه سمي بذلك لأنه كان يمزق كل يوم حلة ويخلعها على أصحابه ويقول:

أنا ابنُ مُزَيْقِيَا عَمْرٍو، وَجَدِّي ... أَبُوهُ عَامِرٌ، مَاءُ السَّمَاءِ

(2) خرم بالأصل.

(3) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾. سورة الإسراء، الآية: 24.

(4) خرم بالأصل.

(5) خرم بالأصل.



المَشْكُورُ](1) مَا يَعْتَرِفُ شُكْرِي مَعَ احْتِفَالِهِ فِي وَاجِبِهِ بِالقُصُورِ وَاحْتِمَالَ مَا ذَكَرْتُمُوهُ فِي ارْتِيَادِ الفَرَسِ الَّذِي أَوْعَبَتِ(2) المُخَاطَبَةُ نَعْتَهُ وَحِلْيَتَهُ، وَأَوْلَى تَهَمُّمِكُمْ طَلَبَهُ وَبُغْيَتَهُ، فَلَمْ يُمْكِنْ وِجْدَانُهُ عَلَى تِلْكَ الأَوْصَافِ الكَامِلَةِ، وَالنُّعُوتِ التِي هِيَ لِلْمَحَاسِنِ بِأَسْرِهَا شَامِلَةً، وَذَلِكَ لَا جَرَمَ فَرَسٌ لَا يُلْفَى، لِأَنَّ وَصْفَهُ فَاقَ وَصْفَ الشِّيَاتِ وَاسْتَوْفَى، لَكِنَّ المُكَاتَبَةَ اقْتَضَتْ أَنْ أُبَيِّنَ الصِّفَةَ، بِحَسَبِ مَا يَجِبُ لِلْكَاتِبِ مِنْ مَادَّةٍ وَمَعْرِفَةٍ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَمْكَنَ، وَيعْرِضُ عَمَّا يُسْتَكْرَهُ وَيُسْتَهْجَن. فَإِذَا لَقِيتُمْ فَرَساً تَسْتَحْسِنُونَ الأَغْلَبَ مِنْ صِفَاتِهِ، سَلِيلِ الأَرُومَةِ مِنْ شِيَاتِه، ابْتَعْتُمُوهُ بِقِيمَتِه، وَبَعَثْتُمُوهُ لَنَا ثُمَّ بَعَثْتُ لَكُمْ بِقَسِيمَتِه، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَفِي المُدْرَجِ طَيَّ هَذَا الكِتَابِ تَقِفُونَ عَلَى مَا يُوجِبُ شَرْحهُ البَيَان، وَيُقِيمُ التَّفْصِيلَ بِمَا يَجِبُ لَهُ مَقَامَ العِيَان.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الكَاتِبِ السَّرِيِّ الأَدِيبِ الأَبْرَعِ، الصَّاحِبِ الأَسْبَقِ إِلَى إِحْرَازِ اليَرَاعَةِ فِي مَيْدَانِ البَرَاعَةِ الأَسْرَعِ، أَبِي عُمَرَ ابنِ حَفْصُون لَا زَالَ ذَا جَانِبٍ مَرْعِيٍّ مَصُون:

قَالَ مَنْ جَالَ وَجَابَ، واقْتَعَدَ غَوَارِبَ الاغْتِرَابِ، لَمَّا شَدَدْتُ عُرَى الاعْتِزَامِ، [وَقَيَّدْتُ ظَنَابِيبَ](3) الإِقْدَامِ، إِلَى حِمْصَ(4) مِصْرِ الأَمْصَارِ، وَمِشْكَاةِ الأَنْوَارِ، والفُلْكِ الذِي لِكَوَاكِبِ الحُسْنِ عَلَيْهِ مَدَار، مَحَطِّ الرَّوَاحِلِ، وَمَجْمَعِ الشُّعُوبِ وَالقَبَائِلِ، وَمَنْزِلِ كُل مَلِكٍ حُلَاحِلٍ(5)، أَلْفَيْتُهَا قَاعِدَةً مُهِّدَتْ عَلَى الرِّضَا قَوَاعِدُ أَرْكَانِهَا، وَأُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مَشِيدُ بُنْيَانِهَا(6) إِلَى مَا خُصَّتْ بِهِ مِنْ وَادٍ سَلْسَلٍ كَوْثَرِيِّ المَنْهَلِ، قَدْ لَذَّ شَرَابُهُ

---

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) أوعبت: فصلت القول واستوعبته. (اللسان).

(3) خرم بالأصل.

(4) حمص: يعني بها مدينة إشبيلية وقد كانت تشبه بحمص الشام.

(5) الحلاحل: السيد في عشيرته الشجاع الركين في مجلسه، الرزين: قال امرؤ القيس:

يَا لَهْفَ نَفْسِي إِنْ خَطِئْنَ كَاهِلَا ... القَاتِلِينَ المَلِكَ الحُلَاحِلَا

(6) يشير في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. سورة التوبة، الآية: 110.



وَأَرْبَى عَلَى البَدْرِ حَبَابُهُ، [يُنَشِّفُ][1] الرَّافِدَيْنِ[2] وَيُغَيِّضُ مُلْتَقَى البَحْرَيْنِ[3]، فَعِنْدَمَا تَفَيَّأْتُ ظِلَّ رِوَاقِهَا، وَجُلْتُ جَوَلَانَ الهَائِمِ في أَسْوَاقِهَا، أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُهَا الأَلْسُنُ، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[4].

فَطَفِقْتُ أُجِيلُ اللَّحْظَ في رَقْمِ رَاقِمٍ، وَنَظْمِ نَاظِمٍ، ومُلَح زجَاج، وتَرْصِيعِ الآبنُوسِ بالسَّاج[5].

فَحِينَ لَمْ يَبْقَ لِي مِنْ مَصْنُوعَاتِ البَنَانِ، إلَّا صَنَائِعَ أَسْوَاقِ الدُّخَان، رَأَيْتُ الاجْتِيَازَ بأَسْوَاقِ المَطَاعِمِ، مِمَّا يَأْبَاهُ الأَكَارِم، والمُرُورَ بِتِلْكَ الأَسْوَاقِ، خَارِجاً عَنْ حَدِّ المُرُوَّةِ وَكَرَم الأَخْلَاقِ، ثُمَّ أَمَرَتْنِي النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ[6] بالدُّخُولِ في هَذَا الشَّان، وَقَالَتْ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الخُرُوجَ عَنِ الأَوْطَانِ دَاعٍ إلى الامْتِهَانِ، وَمَعَ هَذَا فَمِنْ أَيْنَ يُعْرَفُ في خَلْقِ اللهِ فُلَان، فَصَدَّقْتُهَا إِذْ أَخْبَرَتْ، وَأَطَعْتُهَا فِيمَا بِهِ أَمَرَتْ، فَدَخَلْتُ سُوقاً قَدْ صُفِّفَتْ أَطْبَاقُهُ، وَأَشْرَقَتْ بِنُجُوم المَأْكَلِ آفَاقُهُ، وَتَحَلَّتْ بِأَبْهَى مِنَ النُّهُودِ لِيَدِ القَاطِفِ، وَأَشْهَى مِنَ الرِّيقِ البَرُودِ[7] لِفَمِ الرَّاشِفِ، وَلَحَظْتُ خِلَالَهَا مَا تَوَدُّ السَّمَاءُ لَوْ طَلَعَتْ بِهَا شَمْساً، والأَقْلَامُ لَوْ مَنَحَتْهَا طِرْساً، كَأَنَّهَا مِرْآةٌ يَسْتَغْرِقُ شُخُوصَ الوَرَى مَاؤُهَا، وَيُعْشِي العُيُونَ ضِيَاؤُهَا، فَحِينَ زَهَتْ عَلَيَّ بِإِعْجَابِهَا، وَقَدْ شُغِفْتُ بِبَيَاضِهَا وَحُمْرَةِ جِلْبَابِهَا، سَأَلْتُهَا عَنِ انْتِسَابِهَا فَقَالَتْ وَيْحَكَ: أَوَ مَا تَعْرِفُنِي؟ أَنَا مُنْتَهَى الآمَالِ والمُنَى، وَشَقِيقَةُ الشَّمْسِ فِي السَّنَاءِ

---

(1) خرم بالأصل.

(2) الرافدان: يعني بهما دجلة والفرات.

(3) في القرآن الكريم ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾. سورة الرحمن، الآيتان: 17-18.

(4) سورة الزخرف، الآية: 71.

(5) الساج: خشب يجلب من الهند وله رائحة طيبة تشبه رائحة ورق الجوز ومفرده (ساجة).

(6) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. سورة يوسف، الآية: 53.

(7) البرود بفتح الباء البارد، قال الشاعر:

فَبَاتَ ضَجِيعِي فِي المَنَامِ مَعَ المُنَى ... بُرُودَ الثَّنَايَا وَاضِحَ الثَّغْرِ أَشْنَبَ



السَّنَاءِ والسَّنَى[1]، قَسَماً لَقَدْ خَضَعَتْ لِي رِقَابُ الأُمَمِ شَوْقاً وحُبّاً، وَعَنَتْ لِي وُجُوهُ الأَنَامِ شَرْقاً وَغَرْباً[2] وَوَدَّتِ العُيُونُ أَنْ أَكُونَ [ضِيَّةَ][3] حَدَقِهَا، والسَّمَاء أَنْ أَحُلَّ شَفَقاً بِأُفُقِهَا، يُصْدَعُ مِنِّي دُجَى السَّغَبِ بِمِصْبَاح، وَيُقَابَلُ مُبْهَمُهُ بِمِفْتَاح:

أَنَا أَحْلَى مِنَ الوِصَالِ وَأَشْهَى ... مِنْهُ لِلْمُدْنِفِ الكَئِيبِ المَشُوقِ
صِيغَ جِسْمِي مِنْ جَوْهَرٍ فَكَسَتْهُ ... رَاحَةُ الحُسْنِ حُلَّةً مِنْ عَقِيقِ[4]

أَنَا التِي أَشْفِي مِنَ الجَوَى، وَأَحْرِقُ بِشِهَابِي عِفْرِيتَ الطَّوَى[5]، وَأُعِيدُ ذَابِلَ النُّفُوسِ يَانِعاً بَعْدَ مَا ذَوَى:

أَنَا الشَّمْسُ الَّتِي يَجْلُو سَنَاهَا ... دُجَى [السَّغْبِ][6] المُبَرِّحِ بِالقُلُوبِ
أَنَا أَشْهَى جَنًى وَأَلَذُّ طَعْماً ... لَدَى المُشْتَاقِ[مِنْ وَصْلِ][7] الحَبِيبِ[8]

أَنَا المُجَبَّنَةُ؛ فَقُلْتُ أَوَّاه أَنْتِ واللهِ حَبِيبَةُ النَّفْسِ، [لَوْلَا أَنِّي][9] لَا أَرْبِطُ عَلَى فَلْسٍ، فَقَالَتْ: إِذاً واللهِ لَسْتَ مِنْ حَالِي، فَلَا تَطْمَعْ فِي خِطْبَةِ أَمْثَالِي، إِلَّا إِنْ انْتَصَرْتَ بِفَاضِلٍ مِعْوَان، وَعَارِضٍ هَتَّان، وَكَهْفٍ مَانِعٍ مِنْ طَوَارِقِ الحِدْثَانِ، مِثْلِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَان[10] فَعِنْدَ ذَلِكَ اهْتَزَزْتُ هِزَّةَ مَن ادَّكَر،وَهَزَّنِي الشَّوْق إِلي مَنْ فَضْلُهُ وَكَرَمُهُ لَا يُنْكَر[11]. فَأَعْطَاهُ السَّيِّدُ الأَجَلُّ الأَكْرَمُ الأَوْحَدُ الأَفْضَلُ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَانِ بنِ السَّيِّدِ

(1) السناء والسنى: الرفعة والضياء.
(2) فيه إشارة إلى قوله تعالى:﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾. سورة طه، الآية:111.
(3) خرم بالأصل.
(4) البيتان من بحر المديد.
(5) الطوى: الجوع.
(6) خرم بالأصل.
(7) خرم بالأصل.
(8) البيتان من بحر الوافر.
(9) خرم بالأصل
(10) هو ولد السيد أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن عبد المومن الذي كان واليا على إشبيلية.
(11) خرم بالأصل.



المُعَظَّمِ المرْحُوم أَبِي إِسْحَاقَ بنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَدَامَ اللهُ عَلَاءَهُمْ وَأَبْقَى بَرَكَتَهُمْ، دِيناراً لِيَشْتَرِيَ بِهِ مَا ذَكَرَ.

فَكَتَبَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ:

مَوْلَايَ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَكُم، وَوَصَلَ سُعُودَكُم. لمَّا وَصَلَ المُنِيرُ الغُرّة، المُشْرِقُ الأَسِرَّة، وَرَأَيْتُ أَسْطَارَ صَفَحَاتِهِ، وَنَشَقْتُ رَيَّا نَفَحَاتِهِ، وَصَلَتْ بَعْدَمَا هَجَرَتْ، وَأَقَرَّتْ بِالذَّنْبِ وَاسْتَغْفَرَتْ، وَتَلَتْ عَلَيَّ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾[1]، فَتَلَوْتُ عَلَيْهَا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[2]. ولمَّا رَأَتْ مِنِّي دَهْشَةَ مَنْ هَلَكَ مَا لَمْ يَكُنْ مَلَكَ ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[3]، فَهَزَزْتُ كَتِفَيَّ وَنَظَرْتُ مِنَ الزَّهْوِ فِي عِطْفَيَّ، وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهَا فَارْتَشَفْتُ مِنْهَا فِي الغَلَس، أَعْذَبَ مِنَ اللَّعَسِ، وَبَرَّدْتُ مِنْهَا [الظَّمَا]، بِأَبْرَدَ مِنَ اللَّمَا، فَلِلَّه هِي، فَمَا أَطْيَبَ مَرَاشِفَهَا، وَأَرْطَبَ مَعَاطِفَهَا. بَارَكَ اللهُ فِيهَا وَفِي مَنْ أَهْدَاهَا، وَضَاعَفَ لَهُ النِّعَمَ مَرَاحَ الأَيَّامِ وَمَغْدَاهَا.

فَمِثْلُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ تَأْتِهِ أُمْنِيَةٌ إِلَّا وَرَضِيَهَا وَأَرْضَاهَا، وَلَا أَبْقَى حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ إِلَّا قَضَاهَا[4]، وَأَمَّا وَقَدْ جَنَيْتُ جَنَا عَلَمِي، فَقَدْ آنَ أَنْ أَنْشُرَ بِمَدْحِكُمْ أَذْيَالَ مُفَوَّفِي وَمُعْلَمِي، وَأَنْشَدَ:

لَوْ أَنَّ نَفْسِيَ لُجُّ البَحْرِ أَوْ قَلَمِي ... كُلُّ البَنَاتِ، وَقُسّاً[5] مِقْوَلٌ لِفَمِي

---

(1) سورة يوسف، الآية: 97.

(2) سورة يوسف الآية: 92.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

(4) من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف، الآية: 68.

(5) قس: هو قس بن ساعدة الأيادي المشهور بفصاحته وبيانه.



وَقَامَ عَبْدُ الحَمِيدِ[1] اليَوْمَ يَعْضُدُنِي وابْنُ العَمِيدِ[2] عَلَى مَا بَذَّ مِنْ أُمَمِ
والحَيْفَظَانُ[3] وَسَحْبَانُ[4] اللَّذَانِ هُمَا قَدْ أَحْرَزَا قَصَبَاتِ السَّبْقِ فِي الكَلِمِ
وَرُمْتُ شُكْراً لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعَمٍ لَظَلْتُ أُعْزَى مِن الإِفْحَامِ لِلْعَجَمِ
للهِ مِنْكَ لِيَوْمِ الرَّوْعِ قَسْوَرَةٌ[5] وَلِلْعُفَاةِ غَمَامٌ وَاكِفُ الدِّيَمِ
أَمَّلْتَ يُمْنَى النَّدَى جُوداً وَطُلْتَ عَلَى الـ أَمْلَاكِ فِي الفَضْلِ والأَفْضَالِ وَالشِّيَمِ
فَمَنْ يَلُذْ بِحِمَاكَ حَلَّ فِي حَرَمٍ لَا يَتَّقِي جَوْرَ دَهْرٍ خَاتِرِ الذِّمَمِ
لَا زَالَ تَاجُ العُلَى يُعْلَى بِمَفْرِقِكُمْ مَا صَاحَبَتْ لِلسُّهَى نَعْشٌ[6] وَلَمْ تَرِمِ

واللهُ يُعْلِي مَجْدَ مَوْلَايَ مَحْرُوساً، وَمَغْنَاهُ لِلْعُفَاةِ مَأْنُوساً، وَيُدِيمُ أَيَّامَهُ، وَيُثَبِّتُ فِي بِسَاطِ السَّعْدِ أَقْدَامَهُ، بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ. وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ العَمِيمُ عَلَى مَقَامِهِ المُقَدَّسِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

قَالَ أَحْمَد بْن مُحَمَّد البَلوِي -عَفَا اللهُ عَنْهُ- وَمِنْ إِنْشَائِي فِي هَذَا البَابِ إِلَى بَعْضِ الإِخْوَانِ أَطْلُبُ مِنْ كَلَامِهِ:

الهَدَايَا أَكَّدَ اللهُ وُدَّكُمْ دِمَنٌ [تَرْتَعِي][7] القُلُوبُ مِنْهَا خَصِيباً، وَتَسْتَزِيدُ بِهَا النَّفْسُ مِنَ المِقَةِ عَلَى النَّصِيبِ نَصِيباً، وَخَيْرُ مَا اسْتَهْدَاهُ الأَدِيبُ اللَّبِيبُ، وَتَعَاطَاهُ المُحِبُّ والحَبِيبُ، قَرَاطِيسُ أَدَبٍ تَسْتَأْنِسُ وَحْشَ...... فَمَا لِي أَيُّهَا الوَلِيُّ أَسْمَعُ مِن طَبْعِكَ بِمَا

(1) عبد الحميد: هو الكاتب الأموي المشهور الذي أورد له البلوي رسائل متعددة.
(2) ابن العميد كاتب عباسي مشهور وهو الذي قيل فيه «بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد».
(3) الحيفظان: لعله مثل سحبان من أهل الفصاحة والبيان (لم أعثر على ترجمة فيما بين يدي من مصادر).
(4) سحبان: هو سحبان وائل المشهور بفصاحته وبيانه وكثرة خطبه.
(5) القسورة: اسم جامع للرماة الشجعان لا واحد له من لفظه وهي لا تطلق إلا عليهم خاصة.
(6) السهى: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش وهي سبعة كواكب، وفي المثل العربي: «أريها السهى وتريني القمر».
(7) خرم بالأصل.



يَغِيضُ الأَنْهَارَ، وَيَفُلُّ حَدَّ الغَرْبِ ولَا أُبْصِرُ الأَزْهَارَ، وَأَسْمَعُ الحَمْحَمَةَ والصَّهِيلَ، وَلَا أَرَى الغُرَرَ وَالتَّحْجِيلَ، وَهَا أَنَا قَدْ [أَبْدَيْتُ مِنْ رَغْبَتِي فِي[1] اسْتِدْعَائِهَا عرامـاً[2]، وَتطَاوَلَ لَيْلِي شَغَفاً بِالإِسْعَافِ وَغَرَاماً. فَابْعَثْ فَدَيْتُكَ عَتِيقاً مِنْ تِلْكَ [الخَيْلِ][3]، وَأَطْلِعْ عَلَيَّ اللَّيْلَ فِي الصَّبَاحِ لِيَقْرُبَ لِيَ الصَّبَاحُ فِي اللَّيْلِ. أَدِرْ كُؤُوسَ الشُّكْرِ عَلَى تِلْكَ الأَزْهَارِ والرَّيَاحِينِ، وَاجْعَلْ لِلْقَلْبِ والعَيْنِ مِنْ أَزْهَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ[4]؛ واللهُ يَجْعَلُ لِي وُدَّكُمْ سُلَّماً، وَيَنْشُرُ عَلَى البَسِيطَةِ مَجْدَكُمْ عَلَماً.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً إِلَى سَيِّدِي وَعِمَادِي وَشَيْخِي الَّذِي إِلَيْهِ إِسْنَادِي كَاتِبِ الخِلَافَةِ الأَعْلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ عَيَّاشٍ أَطْلُبُ مِنْ كَلَامِهِ:

سَيِّدِي رَضِيَ اللهُ عَنكُمْ كُنْتُ الآنَ فِي إِسْتَارٍ[5] مِنَ الطَّلَبَةِ الأَنْدَلُسِيِّينَ فَكَانَتْ بَيْنَنَا مُجَارَاةٌ فِي مَيْدَانِ التَّفْضِيلِ وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ كُتَّابِ هَذَا الزَّمَانِ، رَكِبْتُ لَهَا سَابِقَةً مِنْ سَوَابِقِكُمْ فَبَرَّزَتْ فِي المِضْمَارِ، وَتَرَكْتُ مَنْ خَلْفِي كَرَاكِبِ الحِمَارِ، فَظَنَّ أَنَّهَا رَمْيَةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ[6] وَأَلَّا عَشِيرَةَ لَهَا مِنَ الكِرَامِ. وَطَفِقَ يَسْتَنْجِدُ كُلَّ يَعْسُوبٍ[7] وَيَحْمُومٍ[8] وَيَجْنُبُ كُلَّ أَعْوَجِيٍّ[9] لَهُمُوم. فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ تَأَخَّرْتُ عَنْهُ تَأَخُّرَ اللَّيْثِ لِلْوُثُوبِ وَالهُجُومِ، وَجِئْتُ إِلَيْكُمْ لِأَطْلُعَ شَمْساً عَلَى تِلْكُم النُّجُوم. فَيَا سَيِّدِي إِنْعَاماً بِإِحْدَى الحُسْنَيَيْنِ، رِسَالَةَ

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(2) العرام: الشوق الملح لشدة الاحتياج.
(3) خرم بالأصل.
(4) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ سورة البقرة، الآية: 35.
(5) الإستار: بكسر الهمزة من العدد: الأربعة، قال جرير:

إِنَّ الفَرَزْدَقَ وَالبَعِيثَ وَأُمَّهُ ... وَأَبَا البَعِيثِ لَشَرُّ مَا إِسْتَارِ

أي يترأسهم، وهو شر الأربعة.
(6) من حكم المجانين قال ابن عبد ربه «وقد يأتي لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يسمع بمثله كما قالوا: رب رمية من غير رام». العقد الفريد 6/ 162.
(7) اليعسوب: أمير النحل وذكرها. وقد كثر استعماله فأصبح يطلق على كل رئيس.
(8) اليحموم: الفرس ويطلق على فرس للنعمان بن المنذر.
(9) الأعوج: فرس سابق ركب صغيرا فاعوجت قوائمه وهو من الخيل الكريمة الأصيلة والنسبة إليه أعوجي. انظر أنساب الخيل لابن الكلبي.



اسْتِنْزَالِ جُشَم أَوْ رِسَالَةَ تَأْنِيسِ أَهْل مَيُورْقَة، وَتَرْجِعُ إِلَيكُمُ الآنَ في أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ عَيْن، واللهُ يُبْقِيكُم لِلْحَقِّ يُظْهِرُ، وَلِلْبَاطِلِ يَقْهرُ، والخَدِيمُ بِعِنَايَتِكُمْ يُشْهرُ، والسَّلاَم.

وَكَتَبْتُ إِلَى الشَّيْخِ الفَقِيهِ القَاضِي الأَجَلِّ العَالِمِ الفَاضِلِ المَرْحُومِ أَبِي حَفْصِ بْنِ عُمَرَ(1) -رَحِمَهُ اللَّهُ- أَطْلُبُ لقَاهُ مُسْتَشِيراً:

المُسْتَشِيرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْكُمْ- مُعَانٌ، وَلَكُمْ في الحُكْمِ والمَرَاشِدِ نَادٍ رَحْبٌ وَمَعَانٌ، ولِقَاؤُكُمْ فِيهِ نُورٌ مُبِينٌ تَعْشُو إِلَيْهِ البَصَائِرُ والأَبْصَارُ، وَيَحْسُدُهُ أَهْلُ الأَمْصَارِ وَالأَمْصَارُ، قَدْ أَثْبَتَ اللهُ فِيهِ مَشْرَعاً لِلْمُسْتَرْشِدِ يَسْتَوْضِحُ مَعَالِمَ الهِدَايَةِ [بِوَأْيِه](2)، وَرَفَعَ فِيهِ الطُّورَ لِلْمُسْتَفِيدِ يُنَاجِيهِ فِيهِ مَنْ يُسْتَشْفَى بِرَأْيِه. وَهَذَا الخَدِيمُ قَدْ أَنِسَ مِنْ جَانِبِ هَذْيِهِ نَاراً(3)، وَأَمَّ مِنْهُ عَلَماً فَارِعاً وَمَنَاراً، وَوَقَفَ مَوْقِفَ ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(4) لِيَعْتَمِدَ فِيمَا يَسْتَشِيرُ فِيهِ عَلَيْكَ.

وَلَمَّا كَانَتِ الاسْتِعَانَةُ عَلَى الحَاجِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالكِتْمَانِ(5)، وَكَانَ أَخْذُ مَا أَتَانَا الرَّسُولُ مَعْقِدَ الإِيمَانِ(6)؛ رَسَمَ الخَدِيمُ هَذِهِ الحُرُوفَ، لَعَلَّ بُقْعَةً مِنْ ذَلِكَ النَّادِي [الكَرِيمِ](7) تَسْمَحُ بِانْفِرَادِ المُسْتَشِيرِ والمُسْتَشَارِ، وَتَمْنَحُ بِذَلِكَ جَزِيلَ الفَرَجِ والاسْتِبْشَارِ،

---

(1) أبو حفص عمر السلمي أغماتي سكن مدينة فاس وهو فقيه مشاور حافظ للفقه والنحو شاعر ناثر ولد سنة 530 توفي 603هـ بمدينة إشبيلية، انظر ترجمته في التكملة رقم 1831، صلة الصلة رقم 130، الذيل والتكملة، قسم الغرباء 8/ 1 – 222، الغصون اليانعة، ص: 91، زاد المسافر، ص:101، رفع الحجب المستورة 1/ 110، جذوة الاقتباس، ص: 565، أزهار الرياض2/ 361، نفح الطيب في مواطن متفرقة.

(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه. والوأي هو الوعد.

(3) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ...﴾. سورة القصص، الآية: 29.

(4) سورة الأعراف، الآية: 143.

(5) فيه إشارة إلى الحديث النبوي الشريف «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

(6) فيه قبس من قوله تعالى:﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

(7) خرم بالأصل.



وَتُفْحِمُ [الكَاشِحَ][1] وَلَوْ كَانَ فِي فَصَاحَةِ قُسٍّ وَشِعْرِ بَشَّار[2]. وَالخَدِيمُ الآنَ يَشْكُو الانْحِفَازَ، فَإِنْ أَمْكَنَ تَعْجِيلُ اللِّقَاءِ فَقَدْ فَازَ؛ واللهُ يُبْقِي سَيِّدِي لِفَضْلٍ يُسْدِيهِ، وَمُشْكِلٍ يُوَضِّحُهُ وَيُبْدِيهِ، وَالسَّلَامُ الحَفِيلُ عَلَى سَيِّدِي وَعِمَادِي وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَتَبْتُ عَنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المَاجِدِ الأَجَلِّ أَبِي زَكَرِيَّاءَ بْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المَرْحُومِ أَبِي الرَّبِيعِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ إِلَى الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُكَرَّمِ أَبِي العَبَّاسِ بْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المَرْحُومِ أَبِي الغَمْرِ أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ فِي يَوْمِ عَنْصَرَة:

حَرَسَ اللهُ عَلَاءَكُمْ، وَحَفِظَ وَلَاءَكُمْ، يَوْمُنَا هَذَا يَوْمُ أُنْسٍ رَاقَتْ مَبَاسِمُه، وَرَقَّتْ نَوَاسِمُه، طَلَعَتْ فِيهِ بُدُورُ السَّمَاءِ، فِي أَفْلَاكِ المَاءِ، وَتَلَاعَبَتْ فِيهِ الأَطْرَابُ [بِالأَلْبَابِ][3] تَلَاعُبَ الأَفْعَالِ بِالأَسْمَاءِ، وَزَارَ فِيهِ الشَّطُّ، مَنْ كَانَ مَزَارُهُ عَنْهُ قَدْ شَطَّ، وَتَوَفَّرَتْ فِيهِ دَوَاعِي [الرَّائِحِ][4] وَالغَادِي، عَلَى إِيثَارِ الوَادِي عَلَى النَّادِي، وَجَمَعَ اللهُ فِيهِ بَيْنَ الخَلِيعِ والرَّاهِبِ، «وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ»[5]. فَمِنْهُمْ مَنْ قَصَدَهُ لِلْأُنْسِ وَالطَّرَبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْنِي فِيهِ عَلَى بِنْتِ بسْطَامَ ابنِ قَيْسٍ[6] وَابْنَةِ العِنَبِ[7].

---

(1) خرم بالأصل.

(2) بشار بن برد شاعر عباسي مشهور ، انظر ترجمته في الشعر والشعراء 2/ 643. أما قس: فقد اشتهر بالبيان والفصاحة في الجاهلية.

(3) خرم بالأصل.

(4) خرم بالأصل.

(5) هذا الشطر يوجد ضمن بيتين في كتاب «معالم الكتابة»، ص: 111.

فُؤَادِي وَطَرْفِي سِجْنُهُ وَرَقِيبُهُ ... وَأَحْسَبُهُ بِاللَّمْحِ فِي النَّاسِ يَنْهَبُ
وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ ... وَلِي كُلَّ يَوْمٍ فِيهِ بِالحُسْنِ مَذْهَبُ

وأول من استعمله أبو فراس الحمداني:

وَمِنْ مَذْهَبِي حُبُّ الدِّيَارِ لِأَهْلِهَا ... وَلِلنَّاسِ فِيمَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِبُ

(6) بِسطام: ليس من أسماء العرب وإنما سمى قيس بن مسعود ابنه بسطاما باسم ملك من ملوك الفرس والكاتب يشير إلى ابنته ولا نعرف اسمها. (اللسان). «بسطم»، جمهرة أنساب العرب، ص: 226.

(7) ابنة العنب: يقصد بها الخمر وسميت بذلك لأنها تعصر منها.



وَمَنْ أُخْبِرَ -أَعَزَّكُمُ اللهُ- عَنْ ذَلِكَ المَنْظَرِ الرَّائِقِ، وَوُصِفَ لَهُ مَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الخَلَائِقِ، تَاقَ إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ، والاطِّلَاعِ عَلَيْهِ، وَقَدْ وُصِفَتْ لِي مَحَاسِنُ قُبَّتِكُمُ الغَرَّاءِ، المُؤَسَّسَةِ عَلَى البَهْجَةِ والسَّراءِ، المُزْرِيَةِ بِالخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ[1]، المُزْدَانَةِ بِالحَقِيقِ بها مِنْكُمْ وَالجَدِيرِ، المُصِيخَةِ بِأُذْنِهَا لِتَسْمَعَ أَسْرَارَ الغَدِيرِ، وَقَى اللهُ كَمَالَهَا عَيْنَ العَائِنِ، فَقُلْتُ: لَيْسَ [المُخْبرُ][2] كَالمُعَايِنِ، وَلَا بُدَّ فِيهَا اليَوْمَ من لُقْيَا تُؤَكِّدُ حُرْمَةَ الرَّضَاعِ، وتُجَدِّدُ حَقَّهَا المَرْعِيَّ غَيْرَ المُضَاعِ، وتَحْظَى بِالأَنْوَاعِ مِنَ اللَّهْوِ وَالإِينَاسِ، وتُنَزِّهُ بِالنَّهَارِ في خَيَالِ حَقِيقِيٍّ من النَّاسِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. والله يَحْرُسُ ما بَيْنَنَا مِنْ كَرَمِ الخلَّة، ويُبْقِيكُمْ سِرَاجاً لِلْكُرَمَاءِ الجِلَّة، وَالسَّلَام.

وَكَتَبْتُ عنِ الفَقِيهِ أَبِي الحُسَيْنِ هَمَّام رَحِمَهُ اللهُ:

حَضْرَةُ العَلَاءِ وَالجُود، والفَضْل المُشْتَهِرِ فِي الوُجُودِ، حَضْرَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الهُمَامِ المُكَرَّمِ الأَوْحَد الأَعْلَى المُوَقَّرِ [الأَمْجَدِ][3] الأَسْعَد المُؤَيَّد الأَسْمَى. أَبُو مُحَمَّد بْنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ المنْصُورِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدَيْنَا الخَلِيفَتَيْنِ بن أَمِيرِ أَمِيرَيْ المُؤْمِنِينَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَأَدَامَ تَأْيِيدَهُمْ، وَوَصَلَ سُعُودَهُمْ، وَضَاعَفَ مِنْ إِحْسَانِهِ وَامْتِنَانِهِ مَزِيدَهُمْ؛ وَأَعَانَ عَلَى مَا يَجِبُ مِنْ [تَمْجِيدِهِمْ][4] وَشُكْرِ نِعْمَتِهِمْ مِنْ أَرِقَّائِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ.

عَبْدُ حَضْرَتِهِم السَّامِيَةِ، المُتَقَلِّبُ في نِعْمَتِهِم النَّامِيَةِ، المُسْتَمْطِرُ سُحْبَ رَحْمَتِهِم الهَامِيَةِ، المُعْتَرِفُ عَلَى القُرْبِ وَالبُعْدِ مِنْ بِحَارِ مَكَارِمِهِمُ الطَّامِيَةِ[5]، المُزْدَلِفُ[6] إِلَى

---

(1) الخورنق: قصر من قصور النعمان بظهر الحيرة والذي بناه له هو «سنمار» الذي قتله فأصبحت العرب تضرب به المثل. أما السدير: فهو قصر عظيم بالعراق من إنشاء ملوك بني لخم، قال الشاعر:

فَإِذَا سَكِرْتُ فَإِنَّنِي رَبُّ الخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ

شرح الحماسة للمرزوقي الحماسية رقم: 174.

(2) خرم في الأصل.

(3) خرم بالأصل.

(4) خرم بالأصل.

(5) الطامية: الممتلئة، من طما الماء إذا ارتفع وعلا وملأ البحر أو النهر.

(6) المزدلف: الآوي الملتجئ.



اللهِ بِعَقِيدَةِ نَفْسِهِ المُتَطَارِحَةِ عَلَى حُبِّهِمُ المُتَرَامِيَة، المسْتَظْهِرُ عَلَى الزَّمَنِ بِلَحْظَتِهِمِ المَحْظِيَةِ، وَحُرْمَتِهِمُ الحَامِيَةِ.

عَبْدُهُمْ فُلَانٌ: سَلَامُ اللهِ وَتَحِيَّاتُهُ عَلَى حَضْرَةِ السِّيَادَةِ والكَرَمِ، الطَّائِفُ بِهَا الآمِلُونَ طَوَافَ الحَجِيجِ بِالحَرَمِ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ:

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ؛ فَكَتَبَ العَبْدُ كَتَبَ اللهُ لِحَضْرَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا عُلُوَّ المِقْدَارِ، وَمُطَاوَعَةَ الأَقْدَارِ وَوَصَلَ لَهَا مَا عَوَّدَهَا [مِنَ الإِعْلَاءِ][1] وَالإِظْهَارِ، وَتَعَرَّفَ السَّعَادَةَ فِي الإِيرَادِ وَالإِصْدَارِ، مِنْ إِشْبِيلِيَةَ حَرَسَهَا اللهُ وَخِدْمَتُهُ بِظَهْرِ الغَيْبِ لِحَضْرَةِ [ذَلِكَ][2] الجَلَالِ خِدْمَةَ مَنْ تَفَيَّأَ مِنْ رَحْمَتِهَا وَارِفَ الظِّلَالِ، وَنَالَ مِنْ إِحْسَانِهَا وَنِعْمَتِهَا كُلَّ مُنَالٍ، وَكَرَعَ[3] مِنْ مَوْرِدِ جُودِهَا الَّذِي جَلَّ عَنْ مُبَارَاةِ الدَّبُورِ والصَّبَا والجَنُوبِ وَالشَّمَالِ[4]، وَامْتَطَى صَهْوَةَ الفَخَارِ بِالانْعِدَادِ فِيمَنْ شَرَّفَهُ اللهُ بِاللَّحْظِ مِنْهَا والإِقْبَالِ، وَجَعَلَ مِنَ الوَسَائِلِ النَّافِعَةِ فِي الدَّارَيْنِ التَّعْظِيمَ لَهَا والتَّمْجِيدَ فِي كُلِّ حِينٍ وَالانْقِطَاعَ لِخِدْمَتِهَا عَلَى كُلِّ حَال. وَأَمَّا شُكْرُ العَبْدِ لأَيَادِيهَا الكَرِيمَةِ وَنِعَمِهَا العَمِيمَةِ فَشُكْرٌ لَا يَنْضَبِطُ وَلَا يَنْحَصِر، وَلَا يَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ مَعْلُومٍ وَلَا يَقْتَصِر، وَاللهُ [يُوزِعُ][5] العَبْدَ شُكْرَ إِنْعَامِهَا، وَيُنْهِضُهُ لِخِدْمَةِ [مَقَامِهَا وَيَفْسَحُ لَهُ فِي تَعْدَادِ أَيَّامِهَا؛ بِمَنِّهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ][6].

وَلَمَّا أَسْعَدَ اللهُ العَبْدَ لِخِدْمَةِ تِلْكَ الحَضْرَة......[7] [وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ المَنْصُورِ الإِمَامِ لَا تُبَارِيهِ الرِّيح... وَلَوْ تَوَاطَأَ عَلَى اسْتِجْدَائِهِ الأَنَامُ وَالأَنْعَامُ، وَلَا تُسْتَعْظَمُ لَدَيْهِ

---

(1) خرم بالأصل.

(2) خرم بالأصل.

(3) كرع: يقال كرع في الماء يكرع كروعا إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإناء، قال الأخطل:

يَـرْوِي العِطَـاشَ لَهَـا عَـذْبٌ مُقَبَّلُـهُ ... إِذَا العِطَـاشُ عَلَـى أَمْثَالِـهِ كَرَعُـوا

(4) الدبور والصَّبَا والجنوب والشمال أربعة أنواع من الرياح تهب كل واحدة منها من جهة معينة.

(5) خرم بالأصل.

(6) خرم بالأصل.

(7) خرم بالأصل بمقدار سطر ونصف.



الهِبَاتُ العِظَامُ. وَأَخْلِقْ لِعَبْدٍ هَذِهِ العَقِيدَةُ دِينُه، وهَذَا اليَقِينُ لِتِلْكَ الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ يَقِينُهُ، أَلَّا تُصدَّقَ بهِ فِي إِنْعَامِهَا آرَاؤُهُ وَظُنُونُهُ][1] والعَبْدُ يَمُدُّ يَدَ الضَّرَاعَةِ إِلَى ذَلِكَ الفَضْلِ الَّذِي تَقْصُرُ عَنِ اسْتِيفَاءِ وَصْفِهِ قُوَّةُ اليَرَاعَةِ وَالبَرَاعَةِ فِي الإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِالمَوْضِعِ الَّذِي بِقَرْيَةِ كَذَا. وَفَضْلُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- كَفِيلٌ بِقَضَاءِ الرَّغَائِبِ، وَنُجْحِ المَسَاعِي وَالمطَالِبِ، وَمَا ذَلِكَ بِعَزِيزٍ عَلَى إِحْسَانِهِمْ، وَلَا بِبِدْعٍ مِنْ امْتِنَانِهِمْ، فَكَمْ أَوْلَوْا مِنَ الفَضَائِلِ، وَكَمْ لَهُمْ مِنْ صَنِيعَةٍ فِي الوُجُودِ لهَا شِيَةُ الأَبْلَقِ[2] الجَائِلِ. وَإِنَّ ثِقَةَ العَبْدِ بِإِسْعَافِ مَوْلَاهُ إِيَّاهُ فِي الغَرَضِ لَتُغْنِي عَنْ إِطَالَةِ الكَلَامِ فِي الرَّغْبَةِ فِي ذَلِكَ. وَهَا هُوَ العَبْدُ مُتَطَلِّعٌ لِهُبُوبِ نَفَحَاتِ إِنْعَامِهِمْ، مُسْتَسْقٍ كَرِيمَ غَمَامِهِمْ، [واللهُ][3] تَعَالَى يُدِيمُ تَأْيِيدَهُمْ، وَيَصِلُ سُعُودَهُمْ.

وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ الحَفِيلُ العَمِيمُ عَلَى حَضْرَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا المُنْعِمِ المُفْضِلِ المُحْسِنِ كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً فِي الإِسْعَافِ:

مِنْ إِبْرَاهِيمَ[4] بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى القُومِط الزَّعِيم إربل بنِ القُومِط نُونُّه[5] وَفَّقَهُ اللهُ وَأَرْشَدَهُ. أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ كَمَا يَجِبُ لِوَحْدَانِيَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ المُصْطَفَى وَعَلَى آلِهِ والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المعْلُوم وَارِث شِيمة النَّبَوِيَّةِ وَخِلَالِهِ، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المُرْشِدِينَ الذِينَ مَشَّوْا أَمْرَهُ العَزِيزَ إلى غَايَةِ كَمَالِهِ، والدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوب ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِتَيْسِيرِ آمَالِهِ، وَتَعْرِيفِهِ النَّصْرَ الأَغَرَّ وَالفَتْحَ الأَسْنَى

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(2) الأبلق: الفرس الذي يكون محجلا إلى الفخذين.
(3) خرم بالأصل.
(4) إبراهيم: هو أبو إسحاق إبراهيم الأحول الذي ولي على قرطبة سنة كما ولي على إشبيلية وبها توفي سنة 612.
(5) المن بالإمامة، ص: 370، التعليق رقم5، وكذلك أشباخ: 271.



في كَافَّةِ أَحْوَالِهِ. فَكَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ -حَرَسَهَا اللهُ- ولَا جَدِيدَ إِلَّا فَضْلُ اللهِ الأَكْمَلُ، وَصُنْعُهُ الأَجْمَلُ، وَبَرَكَةُ أَمْرِهِ العَزِيزِ الَّتِي تَعُمُّ وَتَشْمَلُ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ كَثِيراً.

وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمْ فَوَقَفْنَا عَلَى مَا ضَمَّنْتُمُوهُ مِنْ جَمِيلِ الأَغْرَاضِ. وَوَصَلَ رَسُولُكُمْ الوَزِيرُ أَبُو الحَجَّاجِ بْنُ مزَاحٍ -وَفَّقَهُ اللهُ- صُحْبَةَ الوَزِيرِ الحَكِيمِ الأَثِيرِ الأَكْرَمِ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ أَبِي الحَجَّاجِ ابْنِ الفَخَّارِ[1] -تَوَلَّى اللهُ تَوْفِيقَهُ- فَتُعُرِّفَ مِنْ قِبَلِهِ أَيْضاً مَا عِنْدَكُمْ فِي مُوَالَاةِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمْ اللهُ- وَالاسْتِنَادِ إِلَيْهِمْ مِنْ جَمِيلِ المَقْصَدِ وَسَتَجِدُونَ بَرَكَةَ ذَلِكَ عِنْدَ المقَامِ الإِمَامِيِّ العَلِيِّ، أَفَاضَ اللهُ أَنْوَارَهُ، وَنَصَرَ أَنْصَارَهُ، فَإِنَّ عَادَتَهُ فِي الإِحْسَانِ إِلَى مَنْ أَسْنَدَ إِلَيْهِ، وَأَوْرَدَ النَّصِيحَةَ عَلَيْه، فَقَدْ عَرَفَهَا القَرِيبُ والبَعِيدُ، وَقَامَ عَلَيْهَا الدَّلِيلُ وَالشَّهِيدُ[2]. وَأَمَّا مَا أَشَرْتُمْ إِلَيْهِ مِنْ طَلَبِ الاعْتِنَاءِ بِرَسُولِكُمْ المَذْكُورِ، فَكَذَلِكَ كُنَّا نَفْعَلُ لَوْ لَمْ تُؤَكِّدُوا ذَلِكَ، فَإِنَّ الَّذِي عِنْدَنَا مِنْ رَعْيِ مِثْلِكُمْ مِنْ ذَوِي الأَغْرَاضِ الجَمِيلَةِ جَمِيلٌ، وَسَيُصَاحِبُ رَسُولَكُمُ المَذْكُورَ فِي هَذِهِ الحَرَكَةِ التَّهَمُّمُ المُوَالِي والرَّعْيُ المَوْصُولُ بِحَمْدِ اللهِ ومَشِيئَتِهِ، وَكُلُّ مَا قَدَّرْتُمْ مِنْ حُسْنِ المقْصَدِ، فَإِنَّهُ مَشْكُورٌ لَكُمْ. واللهُ يُعَرِّفُ الخَيْرَ وَالخِيَرَةَ فِي كُلِّ مَا يَقْضِيهِ، ويُعِينُ الجَمِيعَ عَلَى مَا يُرْضِيهِ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، لَا رَبَّ غَيْره، ولَا خَيْرَ إِلَّا خَيْره.

---

(1) عن ابن الفخار، انظر البيان المغرب «قسم الموحدين»، ص: 28.

(2) الشهيد: معناها ها هنا الشاهد والحجة والدليل، وقد ترد في اللغة بهذه الصيغة والمعنى.



وَكَتَبْتُ عَنِّي وَعَنِ الشَّيْخِ الفَقِيهِ الحَسِيبِ الأَجَلِّ الأَفْضَلِ أَبِي القَاسِمِ ابْنِ حَسَّانَ[1] إِلَى الشَّيْخِ الكَاتِبِ الزَّاهِدِ الأَفْضَلِ أَبِي زَيْدٍ بْنِ يَخْلفْتِنَ الفَازَازِي[2] نَطْلُبُ مِنْهُ مُوَشَّحَةً لَهُ مِنْ سَبْعَةِ أَبْيَاتٍ:

يَا عَالِمَ الفَضْلِ الَّذِي بَهَرَتْ أَنْوَارُهُ، وَشُهِرَتْ مَآثِرُهُ وَآثَارُهُ، وَبَحْرَ الأَدَبِ الَّذِي طَمَا عُبَابُهُ، وَسَمَا حَالاً عَلَى حَالٍ حَبَابُهُ[3]، حُرِسَ طِرْفُ بَلَاغَتِكُمْ [الذَّيَّالُ][4]، وَحُفِظَ مِنَ النَّقْصِ إِلَى[5] الكَمَالِ طَبْعُكُمْ السَّيَّالُ، وَشَكَرَ فَضْلَكُمْ الَّذِي كُلُّ امْرِئٍ إِلَيْهِ بِطَبْعِهِ مَيَّالٌ... وَمِنَ الجَوِّ حُسْناً يشوقُ مُحَيَّاهُ... فِي سَمَاءِ التَّوْشِيحِ مَا يُضَاهِي الدَّرَارِي فِي عَدَدِهَا وَيَسْتَوْلِي... اقْتَرَحَتْهَا نُفُوسُ جَمِيعِنَا اقْتِرَاحَهَا أَسْنَى مُتَمَنَّاهَا وَهَا نَحْنُ الآنَ نَرْتَقِبُهَا [ارْتِقَابَ النَّاسِ لِهِلَالِ الفِطْرِ][6] وَنَسْتَدْعِيهَا مِنْ فَضْلِكُمُ اسْتِدْعَاءَ المُجْدِبِينَ [لانْهِمَالِ][7] القَطْرِ. وَفَضْلُكُمْ يُمْتِعُ بِحُسْنِهَا [العُيُونَ الحَسِيرَةِ][8] وَيَكْتَفِي مِنَ الرَّغْبَةِ الطَّوِيلَةِ فِي ذَلِكَ بِهَذِهِ العِبَارَةِ القَصِيرَةِ. لَا زِلْتُمْ مُهْدِينَ لِلدُّرِّ أَوْ مَشْكُورِينَ عَلَى طَبْعِكُمْ الحُرِّ، وَخُلُقِكُمْ الغُرِّ، وَالسَّلَامُ.

---

(1) أبو القاسم بن حسان الكلبي كان صديقا للبلوي، انظر: تحفة القادم، ص: 50.

(2) أبو زيد: هو أبو زيد عبد الرحمان بن يخلفتن الفازازي، كاتب بليغ وشاعر مجيد، ولد بقرطبة حوالي سنة 550 وتوفي بمراكش سنة 627. انظر عنه برنامج شيوخ الرعيني، ص: 101، التكملة 2/ 585، مخطوط كتاب الأنساب رقم 1285 ك.

(3) مقتبس من قول الشاعر الجاهلي امرئ القيس:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حبَابِ المَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

ديوانه.

(4) خرم بالأصل.

(5) خرم بالأصل.

(6) خرم بالأصل.

(7) خرم بالأصل.

(8) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.



وَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أيضاً في ذَلِكَ جَوَاباً لَمَّا كَتَبَ إِلَيْنَا مُعْتَذِراً:

يَا رَافِعَ أَعْلَامِ البَلَاغَةِ وَرَايَاتِهَا، وَصَاحِبَ مُعْجِزَاتِ البَرَاعَةِ وَآيَاتِهَا، وَجَاذِبَ القُلُوبِ إِلَى حُبِّهِ بِزِمَامِ الاهْتِمَامِ، وَرَاكِبَ الأُسْلُوبِ الَّذِي لَا مُعَارِضَ لِعُرُوضِهِ ولَا ضَرِيبَ لِضَرْبِهِ فِي نِثَارٍ وَلَا نِظَامٍ. لَا زَالَتْ سَعَادَتُكُمْ مَدَى الأَيَّامِ مُعْتَادَة، وَعَادَتُكُمْ فِي الإِنْعَامِ مُرْتَادَة، وَلَا بَرِحَ مَجْدُكُمْ رَفِيعاً، وَجِدُّكُمْ فِي كُلِّ لُبَانَةٍ شَفِيعاً. عَنَّ لَنَا الغَرَضُ الَّذِي عَلِمْتُمْ والأَمَلُ، فِي الْتِمَاسِ المُوَشَّحَةِ الَّتِي هِيَ شَمْسُ الأَدَبِ وَفِكْرُكُمْ الحَمَلُ[1]، فَجَهَّزْنَا الرَّغْبَةَ إِلَيْكُمْ فِي جَحْفَلٍ لَجِبٍ، وَرَجَوْنَا أَنَّ سَنَاهَا غَيْرُ مُحْتَجِبٍ، فَمَا رَاقَنَا إلا إِلْمَامُ مَا زَفَفْتُمْ بِفَضْلِكُمْ مِنَ العُرُبِ الأَبْكَارِ، مِنْ بَنَاتِ الأَفْكَارِ، وَمَا أَهْدَيْتُمْ مِنَ [الأَشْعَارِ] الَّتِي لَا[2] يُنْتِجُ مِثْلَهَا مَرَاغُ النَّاسِ فِي الأَسْحَارِ. فَتَلَقَّيْنَا ذَلِكَ تَلَقِّيَ عَرَابَة رَايَةَ المَجْدِ[3] وَارْتَحْنَا بِهِ ارْتِيَاحَ قَيْسٍ لِهُبُوبِ النَّسِيمِ مِنْ نَجْد[4] وَطَفِقْنَا [نَرْتَعُ][5] مِنْ جَمَالِهِ فِي رِيَاضٍ مَوْشِيَّةِ الرُّبَا، وَنَكْرَعُ مِنْ سَلْسَالِهِ فِي عُيُونٍ نَمْنَمَتْ مُتُونَهَا أَكُفُّ الصِّبَا، وَنَعْلَقُ بِهِ عَلَاقَةَ الغَوَانِي بِالصَّبَا، وَنَهْتَزُّ لِخَطِّهِ الرَّائِقِ، وَلَفْظِهِ الفَائِقِ طَرَبا، وَرَأَيْنَا كَيْفَ يُسْتَخْرَجُ الدُّرُّ مِنَ البُحُورِ، فَيُنْظَمُ فِي

---

(1) الحمل: برج من بروج السماء وهو من أول البروج يليه السرطان ثم البطين ثم الثريا.

(2) خرم بالأصل.

(3) مقتبس من قول الشاعر:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الأَوْسِيَّ يَسْمُو ... إِلَى الخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ القَرِينِ
إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لمجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ

وعرابة المذكور ينتمي إلى الأنصار وكان قد التقى بالشماخ بن ضرار وأكرمه، فمدحه بهذين البيتين: انظر ديوان الشماخ، ص: 97، الشعر والشعراء، ص: 235.

(4) يشير إلى قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى ولعل محبوبته التي تغنى بها في شعره كانت من نجد، قال في بعض أشعاره:

أَلَا حَبَّذَا نَجْد وَطِيب تُرَابِهِ ... وَأَرْوَاحُهُ إِنْ كَانَ نَجْدٌ عَلَى العَهْدِ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ المُحِبَّ إِذَا دَنَا ... يُمَلُّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الوَجْدِ

انظر ديوانه، ص: 113.

(5) خرم بالأصل.



النُّحُورِ، وكَيْفَ يَلُوحُ الفَضْلُ والعقْلُ عَلَى تِلْكَ السُّطُورِ، فَعَكَفْنَا عَلَى تَقْبِيلِ حُرُوفِهِ، وكَلفْنَا بِتَطْوِيلِ الشُّكْرِ لمعْرُوفِهِ.

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنَّكُمْ -حَسَّنَ اللهُ ظَنَّكُمْ- حَلَّأْتُمْ[1] بِتَوَقُّفِكُمْ فِي المَطْلُوبِ الظِّمَاءِ، وَنَسَبْتُمْ إِلَى حَضِيضِ الأَدَبِ العُلْوَ مِنْ نَظْمِهِ وَالسَّمَاءِ. وادَّعَيْتُمْ عَلَيْهِ بِالنُّزُولِ عَنِ السُّرُوجِ، وَهُوَ الَّذِي تَوَغَّلَ مَا شَاءَ فِي العُرُوجِ[2] وَلَمْ يَقْنَعْ لِنَفْسِهِ بِمَحَلٍّ مِنْ تِلْكَ البُرُوجِ[3] حَتَّى تَسَنَّمَ الأَفْلَاكَ، وَنَظَمَ الإِدْرَاكُ فِي جِيدِهِ الأَسْلَاكَ، وَتَوَاضَعْتُمْ، عَلَى ثِقَةٍ لَمَّا عَلَوْتُمْ، وَمَا حَقُّنَا أَنْ نَتْلُوَهُ عَلَيْكُمْ مِنَ التَّقْرِيظِ أَوْرَدْتُمْ [عَلَيْهِ مَا][4] تَلَوْتُمْ، وَمَا لَا غِنَى لَنَا عَنْهُ حَاشَيْتُمُونَا مِنْهُ وَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لَيْسَ الكِبْرِيتُ الأَحْمَرُ[5] بِمَوْجُودٍ، وَلَا التَّهَائِمُ فِي السَّيْرِ كَالنُّجُودِ، وَمَا عُولِيَتِ الجَوْزَاءُ بِنَشَازٍ[6] أَوْ غُولِيَتِ اللَّقْوةُ[7] الحَدَّاءِ بِبَازٍ، وَأَيْنَ مِنَ الحِسْيِ[8] الرَّكِيِّ[9]، تَبَرُّضُ الثَّمدِ البَكِيِّ، وَأَيْنَ البَحْرُ فِي الطُّمُوِّ مِنَ الثِّمَادِ[10]، وَالحَيَوَانُ فِي النُّمُوِّ مِنَ الجَمَادِ، وَأَيْنَ مِنْ قَرْنِ الشَّمْسِ[11] قَرْنُ الهَبَاءِ[12] وَأَيْنَ مِنْ سُمْكِ السَّمَاءِ المُكَوَّنَةِ

---

(1) حلأ الإبل عن الماء طردها أو حبسها عن الورود، قال إبراهيم الموصلي:

يَا سَرْحَةَ المَاءِ قَدْ سُدَّتْ مَوَارِدُهُ ... أَمَا إِلَيْكَ سَبِيلٌ غَيْرُ مَسْدُودِ
لِحَائِمٍ حَامَ حَتَّى لَا حَوَامَ لَهُ ... مُحَلَّأٍ عَنْ سَبِيلِ المَاءِ مَطْرُودِ

(2) العروج: الصعود والارتقاء ومنه قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾؛ أي تصعد.
(3) البرج: واحد من بروج الفلك وهي اثنا عشر برجا كل برج منها منزلتان.
(4) خرم بالأصل.
(5) الكبريت الأحمر: يقال إنه من الجواهر ومعدنه خلف بلاد التبت وهو من المعادن النادرة، ولذلك يقال: «أندر من الكبريت الأحمر».
(6) النشاز: المتن المرتفع من الأرض.
(7) اللقوة: العقاب السريعة الاختطاف.
(8) الحسي: الماء القليل.
(9) الركي: البئر التي تكون كثيرة الماء.
(10) الثماد: الحفرة التي تكون قليلة الماء.
(11) قرن الشمس: أولها عند الطلوع وأعلاها وقيل أول شعاعها.
(12) قرن الهباء: لعله يقصد بذلك قرن الفلاة الذي هو أولها أيضا.



سُمْكُ الخِبَاءِ، هَذَا ذُو أَطْنَابٍ تُلَفَّقُ، وَأَوْتَادٍ تُزَحْزَحُ فِي تُرْبِهَا وَتُغْلَقُ، وَتِلْكَ بَعِيدَةُ المَنَالِ، مَصْنُوعَةٌ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، رُفِعَتْ عِبْرَةً لِلْمُرَاقِبِ، وَزُيِّنَتْ بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ. النَّاقِدُ -أَعَزَّكُمُ اللهُ- أَنْصَفُ، وَحَبْلُ التَّمْيِيزِ أَحْصَفُ، مِنْ أَنْ يُسَمِّيَ الدُّرَّ بِالخَزَفِ[1]، أَوْ يُقَاسَ بِالصَّدَفِ، فَلَيْسَ الوَشْيُ الرَّفِيعُ كَالخَزَفِ[2]، وَلَا الدُّهْمَةُ[3] كَالبَلَقِ[4]، وَلَا الأَمْنُ فِي طُرُقِ الإِذْلَالِ وَالاسْتِرْسَالِ كَالفَرَقِ[5]، وَمَا مِثْلُنَا فِي هَذِهِ القَضِيَّةِ إِلَّا كَمِثْلِ غَوَّاصِينَ عَلَى الدُّرِّ، مُتَنَافِسِينَ فِي اقْتِنَاءِ النَّفِيسِ مِنْهُ وَالحُرِّ، سَمِعُوا بِبَحْرٍ قَرِيبٍ يَحْتَوِي مِنْهُ عَلَى كُلِّ غَرِيبٍ فَقَصَدُوهُ وَأَمُّوهُ، لِيُصَوِّرُوا مَا [وَجَدُوا][6] مِنْ لُؤْلُؤِهِ وَيَضُمُّوهُ، فَبَيْنَا هُمْ مِنْهُ عَلَى الشَّطِّ، مُتَضَائِلِينَ لِعِظَمِ قَدْرِهِ تَضَاؤُلَ النُّقْطَةِ لِلْخَطِّ، إِذْ قَذَفَ إِلَيْهِم مَوْجُهُ الَّذِي يَجِيءُ وَيَذْهَبُ، بِقِطْعَةٍ عَظِيمَةٍ مِنَ العَنْبَرِ الأَشْهَبِ... فِي عِظَمِهَا وَوَجَبَ.

فَالقَوْلُ بِتَفْضِيلِكُمْ -وَالحَمْدُ للهِ- إِجْمَاعٌ مُنْعَقِدٌ، وَالكُلُّ بِصِحَّتِهِ مُعْتَقِدٌ... الفَاضِلُ المُنْعِمُ الأَعْلَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَدَامَ أَيَّامَهُمْ وَشَكَرَ إِحْسَانَهُمْ الشَّامِلَ وَإِنْعَامَهُمْ... شَاهِداً عَلَى انْفِرَادِكُمْ بِالانْطِبَاعِ، وامْتِدَادِ البَاعِ، فَإِنَّ الَّذِي عِنْدَهُمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنَ الوُصُولِ فِي ظِلِّ عِلْمٍ وَالإِدْرَاكِ، لِلْغَايَةِ الَّتِي لَيْسَ لأَحَدٍ مَعَهُمْ فِيهَا اشْتِرَاك، والإِيثَار لِلتَّحْقِيقِ، والتَّشْقِيقِ فِي صَحِيحِ النَّظَرِ وَالدَّقِيقِ، يَقْتَضِي فِي تَقْلِيدِهِم التَّرْجِيح، وَيُعْطِي التَّثْبِيتَ لِمَا اعْتَقَدْنَاهُ فِيكُمْ وَالتَّصْحِيح.

وَقَد ابْتَغَيْنَا فِي بَحْرِ سُؤَالِكُمْ مَنْجَاة ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾[7]، وَوَفِّ لَنَا النَّيْلَ، وَانْظُرْ بِعَيْنِ الإِشْفَاقِ إِلَيْنَا، وَتَصَدَّقْ [عَلَيْنَا][8]، وَلَعَلَّكُمْ تَتَغَمَّدُونَ فِي

(1) الخزف الأولى ما عمل من الطين وشوي بالنار فصار فخارا.
(2) الخزف هنا: نوع من الثوب.
(3) الدهمة: السواد والأدهم الأسود.
(4) البلق: التحجيل الذي يكون في الفرس وهو اختلاط البياض مع السواد.
(5) الفرق: الخوف والفزع.
(6) خرم بالأصل.
(7) سورة يوسف، الآية: 88.
(8) خرم بالأصل.



الإِلْحَافِ الهَفْو، وَتتَعَمَّدُونَ تأْوِيلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1] لَا زِلْنَا لِلْحَقِّ مُؤْثِرِينَ، وَمِنَ الإِحْسَانِ مُكْثِرِينَ، وَلِلْقُلُوبِ بِكَرَمِ شَمَائِلِكُمْ مَالِكِينَ، وَعَلَى أَوْضَحِ أُسْلُوبٍ مِنْ فَضَائِلِكُمْ سَالِكِينَ، وَالسَّلَامُ.



(1) سورة البقرة، الآية: 217.

البَابُ السَّادِسُ عَشَرَ

في العتاب والتقريع والذم والتشنيع



رِجَالُهُ:

عَلِيّ بنُ الحُسَيْن بْنِ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان رَحِمَهُ اللَّهُ - عَبْد المَلِك بْنُ مَرْوَان-الحَسَن بْنُ وَهْب-عَبْد الحَمِيد ابْنِ عَامِرٍ أَبُو الفَضْل بْن العَمِيد-بَدِيعِ الزَّمَان-أَبُو الخَطَّاب العَبْدَكَانِي- أَبُو الحَسَن بْن سَعِيدٍ الأَصْفهَانِي- مُحَمَّد بْن مُكَرَّم- أَحْمَد بْن يُوسُف-أَبُو العَبَّاس ابْنُ رَشِيق- أَبُو الحَسَن بْن بَسَّام-أَبُو حَفْصٍ بْنُ بُرْد الأَصْغَر- أَبُو عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُود- أَبُو مَرْوَان بْن حَيَّان-أَبُو عَبْدِ اللهِ البَزْلَيَانِي- أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ طَاهِر-أَبُو بَكْرٍ بْنِ القَصِيرَة-أَبُو المُطَرِّف بْن الدَّبَّاغ أَبُو مُحَمَّدِ بْن عَبْدِ الغَفُور- أَبُو بَحْرٍ صَفْوَان بْن إِدْرِيس-ابْنِ مُبَشّر- ابْنِ عَبْدِ الحَمِيد- أَبُو بَكْرِ بْنِ أَبِي الحَكَمِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ-أَبُو الحَجَّاجِ ابْن عُتْبَة- أَحْمَد بْنِ مُحَمَّد البَلَوِيِّ.

فَالَّذِي كَتَبَ بِهِ عَلِيّ بْن الحُسَيْنِ بْن عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إِلَى عَبْدِ المَلِكِ بْن مَرْوَانَ جَوَاباً[1]:

أَمَّا بَعْدُ: فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تُعَنِّفُنِي فِيهِ بِتَزْوِيجِي مَوْلَاتِي وَتَزْعُمُ أَنَّ لِي فِي قُرَيْشٍ مَنْ [أُمَجَّدُ بِهِ فِي الصِّهْرِ][2] وَأَسْتَنْجِدُ بِهِ الوَلَدَ وَلَيْسَ فَوْقَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْتَقًى فِي مَجْدٍ وَلَا بَعْدَهُ مُسْتَزَادٌ فِي [شَرَفٍ][3] وَإِنَّمَا كَانَتْ مِلْكَ يَدِي خَرَجَتْ مِنِّي إِلَى اللهِ بِأَمْرٍ التَمَسْتُ بِهِ ثَوَابَه ثُمَّ ارْتَجَعْتُهَا عَلَى سُنَّتِهِ وَمَنْ كَانَ طَرِيقَهُ دِينُ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. فَلَيْسَ مُخَالِفُهُ [فِي أَمْرٍ] مِنْ أَمْرِهِ وَقَدْ قَطَعَ[4] اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بالإِسْلَامِ كُلَّ خَسِيسَةٍ وَإِثْمَ كُلِّ نَقِيمَةٍ.

---

(1) الرسالة في زهر الآداب 1/ 63، نسبها للحسين بن علي وقد بعثها إلى معاوية بن أبي سفيان.

(2) خرم بالأصل.

(3) خرم بالأصل.

(4) خرم بالأصل، وفي زهر الآداب: «وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة، ووضع عنها النقيصة، فلا لوم على امرئ إلا في أمر مأتم وإنما اللوم لوم الجاهلية».



وَكَتَبَ مُعَاوِيَة بْن أَبِي سُفْيَان إِلَى ابْنِهِ يَزِيد وَقَدْ عَتَبَ عَلَيْهِ[1]:

[أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَدَّتْ أَلْسِنَةُ التَّصْرِيحِ إِلَى إِذْنِ العِنَايَةِ بِكَ مَا فَجَعَ الأَمَلَ فِيكَ وبَاعَدَ الرَّجَاءَ مِنْكَ، إِذْ مَلَأْتَ العُيُونَ بَهْجَةً وَالقُلُوبَ هَيْبَةً وَتَرَامَتْ إِلَيْكَ آمَالُ الرَّاغِبِينَ][2] وَهِمَمُ المُتَنَافِسِينَ وَسَحَبَتْ[3] بِكَ فِتْيَانُ قُرَيْشٍ [وَكُهُولُ أَهْلِكَ فَمَا يَسُوغُ لَهُمْ ذِكْرُكَ إِلَّا عَلَى الجَرَّةِ المَهُوعَةِ وَالكَظِّ الجَشِنِ][4] اقْتَحَمْتَ البَوَائِقَ وانْقَدْتَ لِلْمَعَايِرِ[5] وَاعْتَضْتَهَا مِنْ سُمُوِّ الفَضْلِ وَرَفِيعِ القَدْرِ فَلَيْتَكَ يَزِيدُ إِذْ كُنْتَ لَمْ تَكُنْ سُرِرْتَ يافِعاً نَاشِئاً وَأُثْكِلْتَ كَهْلاً ضَالِعاً. فَوَاحَزَنَاهُ عَلَيْكَ يَزِيدُ وَيَا حَرَّ قَلْبَ[6] المُثْكَلِ، بَلْ مَا أَشْمَتَ فِتْيَانَ بَنِي هَاشِمٍ، وَأَذَلَّ فِتْيَانَ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ عِنْدَ تَفَاوُضِ المَفَاخِرِ وَدِرَاسَةِ المَنَاقِبِ. فَمَنْ لِصَلَاحِ مَا أَفْسَدْتَ وَرَتْقِ مَا فَتَقْتَ؟ هَيْهَاتَ خَامَشَتِ الرَّزِيَّةُ[7] وَجْهَ الصَّبْرِ بِكَ وَأَبَتِ الجِنَايَةُ إِلَّا تَحَدُّثاً[8] عَلَى الأَلْسُنِ وَحَلَاوَةً عَلَى المَنَاطِقِ، مَا أَرْبَحَ فَائِدَةً نَالُوهَا وَفُرْصَةً انْتَهَزُوهَا، انْتَبِه يَزِيدُ لِلْغَفْلَةِ[9] وَشَاوِرِ الفِكْرَ، وَلَا تَكُنِ المَوْعِظَةُ إِلَى سَمْعِكَ أَسْرَعَ مِنْ مَعْنَاهَا إِلَى عَقْلِكَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي وَسْوَسَهُ[10] لَكَ الشَّيْطَانُ حَتَّى حَسُنَ عِنْدَكَ قَبِيحُهُ وَاحْلَوْلَى لَكَ مُرُّهُ أَمْرٌ شَارَكَكَ فِيهِ [السُّوقَةُ][11] وَنَافَسَكَ بِهِ الأَعْبُدُ، لَا لِأَثَرَةٍ تَدَّعِيهَا أَوْجَبَتْهَا لَكَ الإِمْرَةَ أَضَعْتَ بِهَا مِنْ قَدْرِكَ وَأَمْكَنْتَ بِهَا مِنْ نَفْسِكَ فَكَأَنَّكَ شَانِي نَفْسِكَ، فَمَنْ لِهَذَا كُلِّهِ.

(1) الرسالة في صبح الأعشى 6/ 387-388 قال في تقديمها: «ومن ذلك ما كتب به معاوية بن أبي سفيان في خلافته إلى ابنه يزيد وقد بلغه مقارفته اللذات وانهماكه على الشهوات».
(2) خرم بالأصل وقد رممناه من صبح الأعشى.
(3) صبح الأعشى: وشحت.
(4) خرم بالأصل وقد رممناه من صبح الأعشى.
(5) صبح الأعشى: أما الأصل ففيه وانفدت المعاير.
(6) صبح الأعشى: صدرة.
(7) صبح الأعشى: الدربة.
(8) صبح الأعشى: تحدرا.
(9) صبح الأعشى: للفظة.
(10) صبح الأعشى: «واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان وزخرفة السلطان مما حسن عندك قبحه».
(11) صبح الأعشى: السواد.



اعْلَمْ يَزِيدُ أَنَّكَ طَرِيدُ المَوْتِ وَأَسِيرُ الحَيَاةِ، بَلَغَنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ[1] المَجَالِسَ[2] وَالمصَانِعَ والمَلَاهِيَ وَالمزَامِيرَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[3] وَأَجْهَرْتَ بِالفَاحِشَةِ حَتَّى اتَّخَذْتَ[4] سَرِيرَتَهَا عِنْدَكَ جَهْراً.

اعْلَمْ يَا يَزِيدُ أَنَّ أَولَ مَا يَسْلُبُكَهُ[5] السُّكْرُ مَعْرِفَةُ مَوَاطِنِ الشُّكْرِ للهِ تَعَالَى عَلَى نِعَمِهِ المُتَظَاهِرَةِ، وَآلَائِهِ المُتَوَاتِرَةِ، وَهِيَ الجَرْحَةُ العُظْمَى وَالفَجِيعَةُ[6] الكُبْرَى، وَتَرْكُكَ الصَّلَوَاتِ المَفْرُوضَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَهُوَ أَعْظَمُ مَا يُحْذَرُ مِنْ آفَاتِهَا[7] ثُمَّ مَا يَتْلُوهَا مِن اسْتِحْسَانِ العُيوبِ، وَرُكُوبِ الذُّنُوبِ، وَإِظْهَارِ العَوْرَةِ وَإِبَاحَةِ السِّرِّ[8]. لَا تَأْمَنْ نَفْسَكَ عَلَى سِرِّكَ فَمَا خَيْرُ عَيْشٍ هَكَذَا[9]. فَادْرَأْ عَنْ نَفْسِكَ، وَقَصِّرْ عَنْ فِعْلِكَ، فَمَا خَيْرُ لَذَّةٍ تُعْقِبُ النَّدَمَ، وَتُعَفِّي الكَرَمَ. وَقَدْ تَوَقَّفَ أَمِيرُ المؤْمِنِينَ بَيْنَ شَطْرَيْنِ مِنْ أَمْرِكَ لِمَا يَتَوَقَّعُهُ من غَلَبَةِ الآفةِ، وَاسْتِهْلَاكِ الشَّهْوَةِ؛ فَكُنِ الحَكَمَ عَلَى نَفْسِكَ، وَاجْعَلِ المَحْكُومَ إِلَيْهِ ذِهْنك تَرْشَدْ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَلْيَبْلُغْ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَا يَرُدُّ شَارِداً مِنْ نَوْمِهِ فَقَدْ أَصْبَحَ نُصْبَ الاغْتِرَارِ[10] مِنْ كُلِّ مُؤَانِسٍ وَدَرِيئَةَ الأَلْسُنِ الشَّامِتَةِ؛ وَفَّقَكَ اللهُ فَأَحْسِنْ.

---

(1) صبح الأعشى: اتخذت.

(2) صبح الأعشى: المصانع والمجالس.

(3) سورة الشعراء، الآيتان: 128- 129.

(4) بالأصل حتى تجد ولعل الصواب ما أثبتناه من صبح الأعشى.

(5) صبح الأعشى: سلبكه.

(6) صبح الأعشى: الفجعة.

(7) صبح الأعشى: وهو من أعظم ما يحدث من آملها.

(8) بالأصل إباحة السرق. وقد أثبتنا ما في صبح الأعشى.

(9) صبح الأعشى: فلا تامن نفسك على سرك ولا تعقد على فعلك.

(10) صبح الأعشى: الاعتزال.



وَكَتَبَ عَبْدُ المَلِكِ بْن مَروَان إِلَى عَلِيّ بْن الحُسَيْنِ بْن عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[1]:

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ تَزَوَّجْتَ مَوْلَاتِكَ وَتَرَكْتَ[2] أَكِفَّاءَكَ مِنْ نِسَاءِ قُرَيْشٍ[3] مِمَّنْ [تُمَجَّدُ بِهِ][4] فِي الصِّهْرِ وَتَسْتَنْجِبُهُ لِلْوَلَدِ فَلَا لِنَفْسِكَ نَظَرْتَ وَلَا عَلَى وَلَدِكَ أَبْقَيْتَ وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ فَصْل مُعَاتَبَة فِي حبْس كِتَاب:

أَدَامَ اللهُ بَقَاءَكَ فِي كَنَفِ حِرْزِهِ وَحَاطَكَ بِحِرَاسَتِهِ وَوِقَايَتِهِ. إِنَّ أَوَّلَ مَا يَظْهَرُ مِنَ الحَاضِرِ بِشْرُهُ، وَمِنَ الغَائِبِ كِتَابُهُ، وَقَدْ قَطَعْتَ كُتُبَكَ لِغَيْرِ مَا جُرْمٍ كَانَ مِنَّا وَلَا إِسَاءَةٍ أَوْجَبَتْ الوَفَاءَ عَلَيْنَا، وَإِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَا نَثِقُ بِهِ مِنْ مَوَدَّتِكَ، بَسَطْنَا عُذْرَكَ، وَصَرَفْنَا إِلَى الخَيْرِ أَمْرَكَ، إِذْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْنَا بَسْطُ عُذْرِكَ عِنْدَ غَيْرِنَا، بَلْ لَهُ أَنْكَرَ عَلَيْكَ مِثْلَمَا أَنْكَرْنَا... صِحَّةَ مَوَدَّتِنَا وَخَالِصَ [وِدَادِنَا][5] وَانْثِيَالِ أَسْبَابِ الأُلْفَةِ بَيْنَنَا واللهُ يُبْقِي وَيُعِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ:

يَخْفَى عَلَى أَهْلِ الفِطْنَةِ وَالرِّقَّةِ.................. عَلَى مَا اسْتَحَقَّه. وَكَانَ عَتْبُكَ أَبْقَاكَ اللهُ............ فِيهَا مِنْ وَلِيٍّ مِثْلِكَ يُعَاتِبُهُ إِذا عُتِب، وَيُجَازِيهِ إِذَا رَضِيَ أَوْ غَضِبَ، وَلَعَلَّ الدَّارَ تَجْمَعُنَا عَلَى الحَالِ الَّتِي نَهْوَى وَنَتَمَنَّى فَنَقْضِي وَطَرَنَا.... وَتُجْمَعُ الحُجَّةُ وَتَسْتَحْيِي العَيْنُ مِنَ العَيْنِ، وباللهِ تَيْسِيرُ ذلكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

---

(1) الرسالة في زهر الآداب 1/ 63، وفي مقدمتها كتب ما يلي: «وكان لمعاوية عين بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش، فكتب إليه أن الحسين بن علي أعتق جارية له وتزوجها فكتب معاوية إلى الحسين». وهكذا نجد أن نسبة الرسالة لمعاوية في زهر الآداب بينما نسبت عند البَلَوي لعبد الملك بن مروان.

(2) في الأصل تزوجك وتركك.

(3) زهر الآداب: أكفاءك من قريش.

(4) خرم بالأصل. والتصويب من الزهر.

(5) خرم بالأصل.



وَلَهُ إِلَى مُحَمَّد بْنِ عَلِيّ القُمِّي:

أَنْتَ -جُعِلْتُ فِدَاكَ- فَتَى العَسْكَرِ وَمَعْدِنُ [الحَزْمِ][1] وَمَوْطِنُ الأَدَبِ، وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُهُ، فَالخُرُوجُ عَنْ مَوَدَّتِهِ خُمُولٌ، فَضْلاً عَنِ الدُّخُولِ فِيهَا، وَأَنَا وَأَنْتَ أَخَوَا مَوَدَّةٍ وَأُخُوَّةُ الوُدِّ أَحْسَنُ مِنْ رَحِمِ القَرَابَةِ. وَلَيْسَتْ بَيْنَنَا إِحْنَةٌ، وَلَا بَيْنَنَا طَرِيقُ البَغْضَاءِ، فَكَيْفَ رَمَيْتَ -يَا جُعِلْتُ فِدَاكَ- بِسِهَامِكَ أَمْ كَيْفَ امْتُحِنْتُ بِعَدَاوَتِكَ. وَمَنْ أَنْتَجَ تَشَرُّرَكَ مَعَ جَوْدَةِ طِبَاعِكَ وَرَجَاحَتِكَ، وَلَكِنَّهُ كَمَا قَالَ القَائِلُ:

بَلَى قَدْ تَهُبُّ الرِّيحُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا ... وَتَقْدَحُ فِي العُودِ الصَّحِيحِ القَوَادِحُ[2]

وَهَذَا -جُعِلْتُ فِدَاكَ- إِنْ كَانَ نَهْياً عَلَى القَصْدِ إِلَى صَدِيقِكَ، فَقَدْ دَخَلْتَ فِيمَا حَاوَلْتَ لِإِخْرَاجِي عَنْهُ بِالقَصْدِ إِلَيَّ. وَمِثْلُكَ لَا يَنْهَى عَنْ خُلُقٍ وَيَأْتِي مِثْلَهُ[3] وَالقَائِلُ يَقُولُ:

فَدَعْ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ ... فَعَارٌ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ[4]

وَأَنَا -جُعِلْتُ فِدَاكَ- أَطْلُبُ إِلَيْكَ مَوَدَّتَكَ، وَأَبْسُطُ العُذْرَ فِي كَذِبٍ نُمِيَ إِلَيْكَ، وَأَرْغَبُ إِلَيْكَ -جُعِلْتُ فِدَاكَ- فِي الإِمْسَاكِ عَنِّي وَعَنْ تَهْجِينِي، بَلْ أَسْأَلُكَ تَزْكِيَتِي وَتَقْرِيظِي، إِذَا كَانَ ذَلِكَ وَاجِباً عَلَيَّ، بِالحَقِّ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ بَيْنَنَا وَقَدْ بَلَغَنِي مَا يَجْرِي فِي مَجْلِسِكَ مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ وَأَهْلِ الكَذِبِ وَلَوْ حَضَرْتُكَ -وَحَيَاتِكَ العَزِيزَة عَلَيَّ- لَنَطَقْتُ وَصَمَتُوا، وَلَسَبَقْتُ وَتَخَلَّفُوا، وَلَصَدَقْتُ وَكَذَبُوا. وَلَوْلَا مَا عَلِمْتَهُ مِنْ عُذْرِي لَمْ أُؤَخِّرْ إِتْيَانَكَ، وَالأَخْذَ بِحَظِّي مِنْ قُرْبِكَ، وَأَرْجُو أَنْ يَأْذَنَ اللهُ فِي ذَلِكَ قَرِيباً إِنْ شَاءَ اللهُ وَالسَّلَامُ.

---

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) البيت من بحر الطويل.

(3) مقتبس من قول الشاعر المتوكل الليثي:

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

وَابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

انظر العقد الفريد2/ 311 و335.

(4) البيت من بحر الوافر.



وَمِنْ إِنْشَاءِ عَبْدِ الحَمِيدِ عَنْ مَروان إِلَى ابْن هُبَيْرَةَ فِي ذَوِي قَرَابَتِه[1]:

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ عَرَفْتَ رَأْيَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فِي ذَوِي أَرْحَامِهِ وَسُرْعَتَهُ إِلَيْهِمْ وَعَطْفَهُ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ اللهَ أَعْطَاهُ مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ مَا كَانَ عَلَيْهِ خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَاءِ اللهِ وَإِنَّ عَمْرو بنَ سَعِيدٍ قَدِمَ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَذَكَرَ لَهُ اسْتِهَانَتَكَ بِحَقِّهِ وَسُوءَ أَذَاتِكَ لَهُ وَقِلَّةَ نَصِيبِهِ مِنْكَ، فَسَاءَ ذَلِكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَلَمْ يَدْرِ مَا يَضَعُهُ مِنْكَ، وَكَرِهَ إِهْمَالَ عِتَابِكَ فِيهِ وَمَلَامَتَكَ عَلَيْهِ. وكَانَ لَهُ بَلَاءٌ جميلٌ فِي وِلَايةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ لَا أَظُنُّكَ تَجْهَلُهُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَفْوَتَهُ بِشَيْءٍ عَلِمْتَهُ أَرَدْتَ مُكَافَاتَهُ لَمْ يَصِلْ عِلْمُهُ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ «...»[2] بِبَيَانِ أَمْرِ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ وَلِمَ نَالَتْهُ جَفْوَتُكَ وَمَا دَعَاهُ إِلَى الاسْتِزَادَةِ مِنْكَ فَإِنَّ لَهُ قَرَابَةً قَرِيبَةً مَعَهَا بَلَاءٌ جَمِيلٌ وَطَاعَةٌ لَيِّنَةٌ لَمْ يُثَبْ عَلَى واحِدٍ مِنْهُمَا؛ وَقَدْ كَانَ أَمير المُؤمنينَ بَارّاً لأَهْلِ الطَّاعَةِ، وَاصِلاً لأَهْلِ لُحْمَتِهِ وَقَرَابَتِهِ. فَأَوْصِلْ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عِلْمَ حَالِكَ فِي هَذَا الأَمْرِ الَّذِي امْتَعَضَ مِنْهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ وأَنْكَرَهُ لَكَ وَمِنْكَ، فَإِنَّ الحَالَ الَّتِي يُعَاتِبُكَ عَلَيْهَا أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ حَالٌ يَخَافُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْكَ عَاماً لِغَيْرِهِ مِنْ نُظَرَاءِ شَبَابِ قُرَيْش، فَتَعْظُمَ بِهِ المُصِيبَةُ فِي طُولِ الغَفْلَة مِنْكَ وَأَنْتَ عَيْنُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَجَفْنُهُ وَالنَّاظِرُ لَهُ والجَارُّ إليه وَالمُسْتَمِيلُ لِقُلُوبِ رَعِيَّتِهِ، وَهَذَا جُرْحٌ أَمْرُهُ رَحِيبٌ رَغِيبٌ، وَعَيْثٌ عِقْدُهُ عَظِيمٌ، لَهُ مَحَلٌّ عِنْدَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ... لأَنَّ أَميرَ المُؤْمِنِينَ لَا يَرْضَى لَكَ أَبَداً أَمْراً... تَكُونُ عَلَيْهِ [...رق] وَجَمَاهِير أُمُورِهَا؛ فَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ بِأَنْ... وَأَجْمِلْ ... فَإِنَّ اللهَ إِنَّمَا أَبْلَاكَ بِالمُنَاصَحَةِ لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، وَبَلَغَ بِكَ مَدَى ... الشِّيَمِ فِي الطَّاعَةِ، وَأَنْتَ بالحَقِّ والصِّدْقِ والطَّاعَةِ أَسْعَدُ وَلَدَيْهِ بِهَذِهِ أَجْزَلُ وَأَصْدَقُ، واللهَ يَسْأَلُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْدِلَ بِكَ إِلَى مَرَاشِدِ الأُمُورِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ بِحَيْثُ ما أَمَّلَ مِنْكَ وَرَجَاهُ فِيكَ؛ فَإِيَّاكَ وَاسْتِصْغَارَ أَحَدٍ مِنْ ذَوِي لُحْمَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ حَسُنَتْ

---

(1) عمر بن هبيرة بن سعيد بن عدي الفزاري كان أميرا على الشام، وقد امتاز بشجاعته وبسالته. انظر الأعلام، 5/ 68.

(2) ليس في الأصل أي فراغ والكلام بدون فراغ أو كلمة منقطع.



نِيَّتُهُ وَصَحَّتْ بَصِيرَتُهُ فِيهِمْ، وَاسْتَعِنْ باللهِ عَلَى كلِّ أَمْرٍ أَرَدْتَهُ أَوْ تَنَاوَلْتَهُ، فَإِنَّ الرُّشْدَ بِيَدِهِ وَإِلَيْه، وَلَا قُوَّةَ لخَلْقِهِ إِلَّا بِهِ.

وَكَتَبَ إِلَى أَخٍ لَهُ[1]:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَاقَنِي الشَّكُّ فِي أَمْرِكَ عَنْ عَزِيمَةِ[2] الرَّأْيِ فِيكَ، ابْتَدَأْتَنِي بِاللُّطْفِ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ مِنْكَ جَفَاءٌ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، فَأَطْمَعَنِي أَوَّلُكَ فِي لِقَائِكَ، وَأَيْأَسَنِي آخِرُكَ مِنْ وَفَائِكَ، وَأَعْلَقْتَ قَلْبِي مِنْ مِقَتِك مَا وَلَهَتْ لهُ نَفْسِي وَصَبَتْ إِلَيْهِ، فَلَمْ أَجِدْ سَبِيلاً سَهَلَّتْ بِي إلى الاسْتِغْنَاءِ بِكَ، وَلَا رَأْياً مُشَجِّعاً لِي عَلَى قَطِيعَتِكَ، فاعْتِبْ مِنْ كَثَب، فَذُو الإِعْتَابِ مِنْ ذَنْبٍ كَمَنْ لَمْ يُذْنِبْ. وَقَانَا اللهُ وإِيَّاكَ فِتْنَةَ الخلَّةِ وَعَصَمَنَا وَإِيَّاكَ بِوَفَاءِ أَهْلِ الدِّينِ. وَالسَّلَام.

وَكَتَبَ إِلَى عُبَيْدِ اللهِ بْن مَرْوَان فِيمَا شَكَتْهُ عَائِشَةُ امْرَأَتُهُ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَنْزَلَكَ مِنْ خَلِيفَتِهِ وَمِنْ جَمِيعِ أُمَّتِهِ، بِمَكَانٍ يَحِقُّ عَلَيْكَ صَوْنُهُ، وَالإِنْمَاءِ إِلَى الزِّيَادَةِ فِيمَا أَنْعَمَ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ وَرَاءَ وِلَايَةِ عَهْدِ المُسْلِمِينَ مَنْزِلَةٌ، يَرْجُوهَا طَامِعٌ فِي فَضْلِ وِلَايَةِ عَهْدِ اللهِ في بِلَادِهِ، وَأَنْتَ مِنْهَا بِمَرْأَى وَمَسْمَع، وَكَأَنْ قَدْ احْتَاجَ إِلَيْكَ المُسْلِمُونَ، وَأَنْتَ قَدْ ضَعُفْتَ عَنْ أَمْرِ نَفْسِكَ أَنْ تَسْتَصْلِحَ مِنْهَا تَقْوِيمَ امْرَأَتِكَ وَمُدَارَاتِهَا، حَتَّى انْتَشَرَ عَنْكَ وَعَنْهَا بِسُوءِ المُدَارَاةِ من كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا لِصَاحِبِهِ أَمْرُكُمَا، وَهُنَّ النِّسَاءُ وَرِقَّتُهُنَّ وَضُعْفُ نَحَائِزِهِنَّ[3] وَقِلَّةُ صَبْرِهِنَّ وَشِدَّةُ غَلَبَةِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِنَّ، ثُمَّ هُنَّ بَعْدَ ذَلِكَ مُعْوَجَّات، يَمِيلُ بِهِنَّ بَعْضُ نَقْصِ الآرَاءِ وَسُوءِ المُدَارَاةِ وَوَهْيِ العُقُولِ، فَلَمْ تَعْتَزِمْ عَلَى الصَّبْرِ مُدَارِياً لَهَا، وَلَمْ تَعْمَلْ بِالحَزْمِ آخِذاً بِهِ، وَكَانَت ابْنَةُ عَمِّكَ أَنْجَبَ وَلَداً،

---

(1) نسبت الرسالة في البيان والتبيين2/ 84- 85، لعبد الله بن معاوية وكذلك في العقد الفريد 4/ 228، وزهر الآداب1/ 84-85.

(2) قرأها الأستاذ إحسان عباس عزمة وبالأصل ما أثبتناه. وقد أورد الرسالة ضمن مؤلفه عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله، ص: 192.

(3) النحائز: جمع نحيزة وهي الطبيعة أو الجبلة. قال الأزهري: نحيزة الرجل طبيعته.



وَأَشَدَّ تَحَنُّنـًا وَأَوْلَى بِكَ، غَالِبَةً عَلَيْكَ أَوْ ذَاهِبَةً بِكَ، مِنْ عِلْجٍ إِماءٍ غَيْرِ مَأْمُولَاتٍ وَلَا مَأْمُونَات، قَدْ وَلَدَتْهُنَّ أُمَّهَاتٌ غَيْرُ مُنْجِبَاتٍ وَلَا مُسْلِمَاتٍ، فَإِنْ أَدَّيْنَ مَا اسْتُودِعْنَ، نَزَعَ بِهِنَّ سوءُ مشابهِ الخُؤُولَةِ وَفُسُولَةِ الأُصُولِ، وَإِنْ تَخَسَّرَتْ نِعْمَةٌ رَاجِعَةٌ، لَمْ تَنْزَعْ بِهِنَّ عُرُوقٌ فِي صَالِحٍ وِرَاثَةٍ يَسْكُنُ إِلَيْهِ وَلَدٌ وَيَنْزِلُ بِهِ أَحَد، فلا تُؤْثِرْ عَلَى ابْنَةِ عَمِّكَ مَنْ لا يُؤْتَمَنُ عَلَى نَفْسِهِ، ولَا فِي غَدٍ يُوثَقُ بِهِ، فَإِنَّ فِي لُطْفِهَا مِنْ مَحَاظِي البِرِّ، وَالزِّيَادَةِ فِي الصِّلَةِ والنَّمَاءِ فِي العَدَدِ، وَالرِّضَى لِلرَّبِّ، وَالجَمَالِ فِي الدُّنْيَا، مَا يَرْجِعُ بِكَ الرُّشْدُ إِلَيْه، غَالِبـًا لَكَ عَلَى الغَوَايَةِ المُرْدِيَةِ وَالشَّيْنِ فِي الدُّنْيَا مَعَ الوَتْغِ فِي الدِّينِ، وَاجْتِنَاءِ النَّذَالَةِ المَوْصُولَةِ بِخُمُولِ الهِمَّةِ وَضَعَةِ المَنْزِلَةِ لَدَى الجَمِيعِ الَّذِينَ هُمْ لَكَ أَهْلُ لَوْمٍ عَلَى التَّقْصِيرِ بِعَائِشَة ابْنَةِ هِشَامٍ الَّتِي مَحْتِدُهَا شَرِيفٌ، فَرْعُهَا فَرْعُكَ، وَأَصْلُهَا أَصْلُكَ، وَرِضَاهَا مِمَّا تَسْتَجِرُ بِهِ رِضَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَنْكَ، فَمَتَى تَسْتَخْلِفْ مِنَ الحَزْمِ المَعْرُوضِ عَلَيْكَ بِمِثْلِ هَذِهِ الخِصَالِ الَّتِي زَيَّنَكَ اللهُ بِهَا؛ إِنْ لَزِمْتَهَا مُؤْثِراً لَهَا وعَمِلْتَ بِهَا رَاغِبـًا فِيهَا، فَقَدْ كَتَبَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى عَائِشَةَ يُعْلِمُهَا مَبْلَغَ غَضَبِهَا مِنْهُ فِي المَشَقَّةِ عَلَيْهِ، وَأَنَّكَ فِي شُعْبَةٍ مِنْ سُخْطِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مَا سَخِطَتْ عَلَيْكَ، مَقْرُونـًا رِضَاهَا عَنْكَ بِرِضَايَ إِذَا رَضِيتْ، فاحْتَلْ لِنَفْسِكَ، مِنْ مَوْجِدَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فَإِنْ أَنْتَ غَفَلْتَ أَوْ أَمَّلْتَ غَفْلَتِي عَنْهَا وَعَنْكَ، لَمْ يَأْتِكَ إِلَّا نَازِلٌ بِكَ مِنْ غَضَبِي عَلَيْكَ يَسْتَلِبُ[1] مِنْكَ جَمِيعَ مَا فِي يَدَيْكَ بِقَوْلِهَا، فَتَكُونُ هِيَ الحَاكِمَة فِيهِنَّ مَا أَحَبَّتْ عَلَى كُرْهِك، بِرَغْمِكَ أَوْ بِرِضَاكَ ... أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ... مِنَ المَخَاوِفِ وَتَنْجُو مِنَ المَعَاطِبِ ... يَأْمُلُ أَنْ يُوَفِّقَكَ [اللهُ] لِلْخَيْرِ وَالسَّلَام.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الفَضْلِ [ابْنِ العَمِيدِ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ الطَّبَرِي][2]:

وَصَلَ كِتَابُكَ فَصَادَفَنِي قَرِيبَ عَهْدٍ بانْطِلَاقٍ مِنْ عَنَتِ الفِرَاقِ، [وَأَوْقَفَنِي مُسْتَرِيحَ الأَعْضَاءِ والجَوَانِحِ مِنْ حَرِّ الاشْتِيَاقِ][3] فَإِنَّ الدَّهْرَ جَرَى عَلَى حُكْمِهِ المَأْلُوفِ فِي

(1) قرأها الدكتور إحسان عباس «يسلب».
(2) الرسالة وردت في زهر الآداب3/ 875-876.
(3) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.



تَحْوِيلِ الأَحْوَالِ، وَمَضَى عَلَى رَسْمِهِ المَعْرُوفِ في [تَبْدِيلِ الأَبْدَالِ][1] وَأَعْتَقَنِي مِنْ مخالَّتِكَ عِتْقاً لَا تَسْتَحِقُّ بِهِ وَلَاءً، وَأَبْرَأَنِي مِنْ عُهْدَتِكَ بَرَاءَةً لَا تَسْتَوْجِبُ مَعَهَا دَرَكاً ولا اسْتِثْنَاءً، وَنَزَعَ من عُنُقِي رِبْقَةَ الذُّلِّ في إِخَائِكَ بِيَدَيْ جَفَائِكَ، وَرَشَّ عَلَيَّ مَا كَانَ يَحْتَدِمُ في ضَمِيرِي مِنْ نِيرَانِ الشَّوْقِ مَاءَ السُّلُوِّ، وَشَنَّ عَلَيَّ مَا كَانَ يَلْتَهِبُ فِي صَدْرِي مِنَ الوَجْدِ مَاءَ اليَأْسِ، وَمَسَحَ أَعْشَارَ قَلْبِي[2]، فَلَأَمَ فُطُورَهَا بِجَمِيلِ الصَّبْرِ، وَشَعَبَ أَفْلَاذَ كَبِدِي، فَلَاحَمَ صُدُوعَهَا بِحُسْنِ العَزَاءِ، وَتَغَلْغَلَ بِمَسَالِكِ أَنْفَاسِي، فَعَوَّضَ نَفْسِي من النِّزَاعِ إِلَيْكَ نُزُوعاً عَنْكَ، ومِنَ الذَّهَابِ فِيكَ رُجُوعاً دُونَكَ، وَكَشَفَ عَنْ عَيْنَيَّ ضَبَابَاتِ مَا أَلْقَاهُ الهَوَى عَلَى بَصَرِي، وَرَفَعَ عَنْهَا غَيَابَاتِ مَا سَدَلَهُ الشَّكُّ دُونَ نَظَرِي، حَتَّى حَدَرَ النِّقَابُ عَنْ صَفَحَاتِ شِيَمِكَ، وَسَفَّرَ عَنْ وُجُوهِ خَلِيقَتِكَ؛ فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا مُنْكراً، وَلَمْ أَلْقَ إِلَّا مُسْتَكْبِراً، فَوَلَّيْتُ مِنْهَا فِرَاراً وَمُلِّئْتُ رُعْباً[3] فَاذْهَبْ فَقَدْ أَلْقَيْتُ حَبْلَكَ عَلَى غَارِبِكَ، وَرَدَدْتُ إِلَيْكَ ذَمِيماً عَهْدَكَ.

وَفِي فَصْلٍ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ:

وَأَمَّا عُذْرُكَ الذِي رُمْتَ بَسْطَهُ فَانْقَبَضَ، وَحَاوَلْتَ تَقْرِيرَهُ وَتَمْهِيدَهُ[4] فَاسْتَوْفَزَ وأَعْرَضَ، وَرَفَعْتَ بِضَبْعِهِ فَانْخَفَضَ، فَقَدْ وَرَدَ وَلَقِيتُهُ بِوَجْهِ مَنْ يُوثِرُ قَبُولَهُ عَلَى رَدِّهِ، وتَزْكِيَتَه عَلَى جُرْحِهِ، فَلَمْ يَفِ بِمَا بَذَلَهُ لَكَ مِنْ نَفْسِه، وَلَمْ يَقُمْ عِنْدَ ظَنِّكَ به. فَأَنَّى وَقَدْ غَطَّى[5] التَّذَمُّمُ وَجْهَهُ، وَلَفَّ الحَيَاءُ رَأْسَهُ، وَغَضَّ الخَجَلُ طَرْفَه، فَلَمْ يَتَمَكَّنْ[6] مِن

---

(1) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.

(2) أعشار القلب انقسامه إلى أجزاء عشرة من فرط الوجد، قال الشاعر:

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبِي ... بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

انظر شرح المعلقات، ص: 49، وديوان امرؤ القيس.

(3) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾. سورة الكهف، الآية: 18.

(4) الزهر: وحاولت تمهيده وتقريره.

(5) مقتبس من قول الشاعر عروة بن أذينة: «غَطَّى هَوَاكِ وَمَا أَلْقَى عَلَى بَصَرِي».

(6) الزهر: تتمكن.



اسْتِكْشَافِهِ، وَوَلَّى فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِيقَافِهِ. وَمَضَى يَعْثُرُ فِي فُضُولِ مَا يَغْشَاهُ مِنْ كَرْبٍ، حَتَّى سَقَطَ فَقُلْنَا: لِلْيَدَيْنِ[1] وَلِلْفَمِ[2]، ثُمَّ أَمَرْتُ بِمُطَالَعَةِ مَا صَحِبَهُ فلمْ أَجِدْهُ إِلَّا تَأَبَّطَ شَرّاً[3]، أَوْ تَحَمَّلَ وِزْراً.

وَلَهُ إِلَيْهِ مِنْ رِسَالَةٍ[4]:

أَنَا أُخَاطِبُ الشَّيْخَ سَيِّدِي -أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ- مُخَاطَبَةَ مُحْرَجٍ يَرُومُ التَّرْوِيحَ عن قَلْبِهِ، وَيَزِيغُ التَّفْرِيجَ مِنْ كَرْبِهِ، وَأُكَاتِبُهُ مُكَاتَبَةَ مَصْدُورٍ يُرِيدُ أَنْ يَنْفُثَ بِبَعْضِ مَا بِهِ، وَيُخَفِّفَ بِالشَّكْوَى[5] مِنْ أَوْصَابِهِ[6]، وَلَوْ بَقِيَتْ فِي التَّصَبُّرِ بَقِيَّةٌ لَسَكَتُّ، وَلَوْ وَجَدْتُ في أَثْنَاءِ وَجْدِي فُرْجَةً يَتَخَلَّلُهَا تَجَلُّدٌ لَأَمْسَكْتُ؛ فَقَدِيماً لَبِسْتُ الصَّدِيقَ على عِلَّاته، وَصَفَحْتُ لَهُ عَنْ هَنَاتِهِ[7]، وَلَكِنِّي مَغْلُوبٌ عَلَى العَزَاءِ، وَمَأْخُوذٌ عَنْ عَادَتِي في الإِغْضَاءِ، فَقَدْ سَالَ[8] عَلَيَّ مِنْ جَفَائِكَ مَا تَرَكَ احْتِمَالِي جُفَاءً[9]، وَذَهَبَ فِي نَفْسِي مِنْ ظُلْمِكَ مَا انْتَسَفَ[10] حِلْمِي فَجَعَلَهُ هَبَاءً[11]، وَتَوَالَى عَلَيَّ مِنْ قُبْحِ فِعْلِكَ فِي هَجْرٍ يَسْتَمِرُّ على نَسَقٍ، وَصَدٍّ مُطَّرِدٍ مُتَّسِقٍ، مَا لَوْ فُضَّ عَلَى الوَرَى، وَأُفِيضَ عَلَى البَشَرِ لامْتَلَأَتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ، وَضَاقَتْ مِنْهُ صُدُورُهُم. فَهَلْ أَقْدِرُ عَلَى أَلَّا أَقُولَ، وَهَلْ أَمْلِكُ أَلَّا أُعَاتِبَ، وَهَلْ أَشْكُوكَ إِلى الدَّهْرِ حَلِيفَكَ عَلَى الإِضْرَار، وعَقِيدَكَ عَلَى الإِفْسَادِ، وَأَشْكُوهُ إِلَيْكَ، فَإِنَّكُمَا وَإِنْ كُنْتُمَا

---

(1) الزهر: لليد.

(2) قوله: لليدين وللفم: مثل يقال عند الشماتة بسقوط إنسان. مجمع الأمثال: 2/ 207.

(3) فيه إشارة إلى شاعر جاهلي يلقب بهذا اللقب وهو ثابت بن جابر كان من الشعراء البؤساء، انظر ترجمته في: الشعر والشعراء، ص: 229، الأغاني21/ 149، ومصادر أخرى.

(4) الرسالة وردت في زهر الآداب3/ 877.

(5) الزهر: الشكوى.

(6) الأوصاب: الأتعاب والمشقات.

(7) الهنات: الأخطاء والزلات التي يرتكبها الفرد.

(8) الزهر: فقد سل من جفائك.

(9) الجفاء: النبو والتباعد.

(10) الزهر: انزف.

(11) الهباء: الغبار المتطاير.



فِي قَطِيعَةِ الصَّدِيقِ، رَضِيعَيْ لِبَان، وَفِي اسْتِيْطَاءِ مَرْكَبِ العُقُوقِ شَرِيكَيْ عِيَان، فَإِنَّهُ قَاصِرٌ عَنْكَ فِي دَقَائِقَ مُخْتَرَعَة، أَنْتَ فِيهَا نَسِيجُ وَحْدِكَ، وَقَاعِدٌ عَمَّا تَقُومُ بِهِ مِنْ لَطَائِفَ مُبْتَدَعَة، أَنْتَ فِيهَا وَحِيدُ عَصْرِك، وَأَنْتُمَا مُتَّفِقَانِ فِي ظَاهِرٍ يَسُرُّ النَّاظِرَ، وَبَاطِنٍ يَسُوءُ الخَاطِرَ[1]، وَفِي تَبَدُّلِ الأَبْدَالِ، وَالتَّحَوُّلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَال، وفي بَثِّ حَبَائِلِ الزُّورِ، وَنَصْبِ أَشْرَاكِ الغُرُور، وفي خَلْفِ المَوْعُودِ وَالرُّجُوعِ فِي المَوْهُوبِ، وفي فَظَاعَةِ اهْتِضَامِ ما يُعير، وَشَنَاعَةِ ارْتِجَاعِ ما يمنح، وَقَصْدِ مُشَارَّةِ الأَحْرَارِ، والتَّحَايُلِ عَلَى ذَوِي الأَخْطار، وفي تَكْذِيبِ الظُّنُونِ، وَالمَيْلِ عَلَى [النَّبَاهَةِ][2] لِلْخُمُولِ، إِلَى كَثِيرٍ مِنْ شِيَمِكُمَا التي أُسْنِدْتُمَا إِلَيْهَا، وَسُنَّتِكُمَا الَّتِي [تَعَاقَدْتُمَا عَلَيْهَا، فَأَيْنَ هُوَ مِمَّنْ لَا يُجَارَى فِيهِ نَقْضُ عُرَى العُهُودِ ونَكْث قُوَى العُقُود؟][3]. وَأَنَّى هُوَ عَنِ النَّمِيمَةِ وَالغِيبَةِ، ومَشْيِ الضَّرَّاءِ في الغِيلَة، وَالتَّنَفُّقِ بِالنِّفَاقِ في الحِيلَة؛ وَأَيْنَ هُو مِمَّن ادَّعَى ضُرُوبَ البَاطِلِ، والتَّحَلِّي بِمَا هُوَ مِنْهُ عَاطِل، وَتَنَقُّصِ العُلَمَاءِ وَالأَفَاضِل، هَذَا إِلى كَثِيرٍ مِنْ مَسَاوٍ مَنْثُورَة أَنْتَ نَاظِمُهَا، وَمَخَازٍ مُتَفَرِّقَةٍ أَنْتَ جَامِعُهَا، [أَنْتَ أَيَّدَكَ اللهُ إِنْ سَوَّيْتَهُ بِنَفْسِكَ، وَوَزَنْتَهُ بِوَزْنِكَ][4] أَظْلَمُ مِنْهُ لِذَوِيهِ، وأَعَقُّ مِنْهُ لِبَنِيهِ، وَهَبْكَ عَلَى الجُمْلَةِ [قَدْ زَعَمْتَ - مُفْتَرِيًا عَلَيْهِ - أَنَّهُ أَشَدُّ مِنْكَ قُدْرَة][5] وَأَعْظَمُ بَسْطَةً وَأَتَمُّ مَضَرَّة[6] وَأَطْلَقُ فِي الإِسَاءَة، وَأَمْضَى فِي كُلِّ نِكَايَةٍ شَبَاةً، وَأَحَدُّ في كُلِّ عَامِلَةٍ شَدَاةً، وَأَغْبَنُ في كُلِّ مَكْرُوهٍ مُتَغَلْغَلًا، وَأَلْطَفُ[7] إِلَى كُلِّ مَحْذُورٍ مُتَوَصَّلًا، وَإِنَّ الدَّهْرَ الَّذِي لَيْسَ بِمُعْتِبٍ لِمَنْ يَجْزَعُ[8]، وَإِنَّ العُتْبَى مِنْكَ مَأْمُولَةٌ،

---

(1) الزهر: الخابر.
(2) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.
(3) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.
(4) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.
(5) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.
(6) الزهر: نصرة.
(7) الزهر: وألف.
(8) فيه إشارة إلى أبي ذؤيب الهذلي وهو يرثي أبناءه بقصيدة يقول فيها:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهِ تَتَوَجَّعُ ... وَالدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ

انظر العقد الفريد 3/ 253.



وَمِنْ جِهَتِكَ مَرْقُوبَة، وَهَيْهَاتَ! فَهَلْ تَوَهَّمَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَا رُوحٍ وجُثْمَانٍ، مُصَوَّراً في صُورةِ إنْسَانٍ، ثُمَّ كَاتَبْتُهُ أَسْتَعْطِفُهُ عَلَى الصِّلَةِ، وَأَسْتَعْفِيهِ مِنَ الهَجْرِ، وَأُذَكِّرُهُ مِنَ المَوَدَّةِ، وَأَسْتَمْلِيهِ[1] إلَى رِعَايَةِ المِقَةِ، وَأَسْتَعْدِيهِ[2] عَلَى مَا أَشَاعَهُ الفِرَاقُ في نَفْسِي مِنَ اللَّوْعَةِ، وَأَضْرِبُهُ بِالبِعَادِ في صَدْرِي مِنَ الحُرْقَةِ، أَكَانَ يَسْتَحْسِنُ مَا اسْتَحْسَنْتُهُ مِنَ الاضْطِرَابِ عِنْدَ جَوَابِي، وَيَسْتَجِيزُ مَا اسْتَجَزْتُهُ مِنَ الاسْتِخْفَافِ بِكِتَابِي.

وَلَهُ فَصْلٌ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ وَقَدْ ذَكَرَ دَعْوَاهُ فِي العُلُومِ[3]:

وَهَبْكَ أَفْلَاطُون[4] نَفْسهُ فَأَيْنَ مَا سَنَنْتَهُ في السِّيَاسَة، فَقَدْ قَرَأْنَاه، أَتَجِدُ فِيهِ إرْشَاداً إِلَى قَطِيعَةِ صَدِيق، وَأَحْسَبُكَ أَرسْطَاطَالِيس[5] بِعَيْنِهِ، أَيْنَ مَا رَسَمْتَهُ مِنَ الأَخْلَاق؟ فَقَدْ رَأَيْنَاهُ فَلَمْ نَرَ فِيهِ هِدَايَةً إِلَى شَيْءٍ مِنَ العُقُوقِ، وَأَمَّا الهَنْدَسَةُ فَإِنَّهَا بَاحِثَةٌ عَنِ المَقَادِير، وَلَنْ يَعْرِفَهَا إِلَّا مَنْ جَهِلَ مِقْدَارَ نَفْسِهِ، وقَدرَ الحقَّ عَلَيْه ولَه؛ وبَلَى لَكَ فِي رُؤَسَاءِ الآدَابِ العَرَبِية مَنَادِيحُ وَمُضْطَرَبُ؛ وَلَسْنَا نُشَاحُّكَ في ذَلِك، لَكِنَّهُ يُتَحَقَّقُ مِنَ الغَرِيب، بِالغَرِيبِ مِنَ القَوْلِ دُونَ الغَرِيبِ مِنَ الفِعْل؛ فَقَدْ أَغْرَقْتَ فِي الذَّهَابِ بِنَفْسِكَ إِلَى حَيْثُ لَا تَهْتَدِي للرُّجُوعِ عَنْه. وأَمَّا النَّحْوُ فَلَمْ تُدفَعْ عَنْ حِذْقٍ فِيه، وبَصَرٍ بِهِ، وَقَدْ اخْتَصَرْتَهُ أَوْجَزَ اخْتِصَارٍ، وَسَهَّلْتَ سَبِيلَ تَعَلُّمِهِ عَلَى مَنْ يَجْعَلُكَ قُدْوَةً، وَيَرْضَى بِكَ أُسْوَةً، فَقُلْتَ: الغَدْرُ والبَاطِلُ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مَرْفُوعٌ، والصِّدْقُ والحَقُّ وَمَا صَاحَبَهُمَا، وَالعَدْلُ والوَفَاءُ وَصَاحِبُهُمَا مَخْفُوضٌ، وَقَدْ نُصِبَ الصَّدِيقُ عِنْدَكَ، وَلَكِنْ غَرَضاً يُرْشَقُ بِسِهَامِ الغَيْبَة، وَعَلَماً يُقصَدُ بِالوَقِيعَة، وَلَسْتُ بِالعَرُوضِ ذَا لَهْجَةٍ فَأَعْرِفَ قَدْرَ حِذْقِك فِيه، إِلَّا أَنِّي لَا أَرَاكَ تَتَعَرَّضُ لِكَامِلٍ وَلَا وَافِرٍ، وَلَيْتَكَ سَحَبْتَ فِي بَحْرِ المُجْتَثِّ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْهُ إِلَى شَطِّ المُتَقَارِبِ.

---

(1) الزهر: وأستميل به.

(2) الزهر: وأستعد على.

(3) الرسالة وردت في زهر الآداب3/ 878.

(4) فيلسوف يوناني مشهور له كتاب «الجمهورية».

(5) فيلسوف يوناني مشهور.



وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا:

وَهَبْنِي سَكَتُّ لِدَعْوَاكَ سُكُوتَ مُتَعَجِّب، وَرَضِيتُ رِضَى مُتَسَخِّط، أَيَرْضَى الفَضْلُ اجْتِذَابَكَ بِأَهْدَابِهِ، مِنْ يَدَيْ أَهْلِيهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَحْسَبُكَ لَمْ تُزَاحِمْ خِطَابَهُ، حَتَّى عَرَفْتَ ذِلَّةَ نَفْرِهِ وَقِلَّةَ نَصْرِهِ، فَاصْدُقْنِي هَلْ أَنْشَدكَ:

لَـوْ بِأَبَـانَيْنَ جَـاءَ يَخْطُبُهَـا ... ضُـرِّجَ مَـا أَنْـفُ خَاطِـبٍ بِـدَمِ[1]

وَلَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ حُلًى تَصَدَّيْتَ له، وَأَنْتَ لَوْ تَتَوَّجْتَ بِالثُّرَيَّا وَتَقَلَّدْتَ قِلادةَ الفَلَك، وَتَمَنْطَقْتَ بِمِنْطَقَةِ الجَوْزَاء، وَتَوَشَّحْتَ بِالمَجَرَّةِ لَمْ تَكُنْ إِلَّا عُطْلاً، وَلَوْ تَوَشَّحْتَ بِأَنْوَارِ الرَّبِيعِ الزَّاهِرِ، وَسَرَّجْتَ في جَبِينكَ غُرَّةَ البَدْرِ البَاهِر، ما كُنْتَ إلا غُفْلاً[2]، لَا سِيَّما مَعَ قِلَّةِ وَفَائِك، وَضَعْفِ إِخَائِكَ، وظُلْمَةِ مَا تَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ خِصَالِكَ، وَتَرَاكُمِ الدُّجَى عَلَى ضَلَالِكَ، وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا أَعَرْتُكَ مِنْ ودِّي، ولَكِنْ أَيّ سَاعَةِ مَنْدَم، بَعْدَ إِفْنَائِي الزَّمَانَ فِي ابْتِلَائِكَ، وَتَصَفُّحِي حَالَاتِ الدَّهْرِ فِي اخْتِيَارِك، وَبَعْدَ تَضْيِيعِي مَا غَرَسْتُه، ونَقْضِي مَا أَسَّسْتُه، فَإِن الوِدَادَ غَرْسٌ إذَا لَمْ يُوَافِقْ ثَرَى ثَرِيّاً، وَجَوّاً غَذِيّاً، وَمَاءً رَوِيّاً لَمْ يُرْجَ زَكَاؤُه، وَلَمْ يَجْرِ نَمَاؤُهُ، وَلَمْ تُفَتَّحْ أَزْهَارُهُ، وَلَمْ تُجْنَ ثِمَارُهُ، وَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ مَلَكَ الضّلال قِيَادِي حَتَّى أَشْكَلَ عَلَيَّ مَا يَحْتَاجُ المَمْزُوجَانِ وَلَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ المُتَآلِفَانِ [وَهُمَا مُمَازَجَةُ طَبْعٍ، وَمُوَافَقَةُ شَكْلٍ وَخَلْقٍ، وَمُطَابَقَةُ خِيمٍ[3] وَخُلُقٍ، وَمَا وَصَلَتْنَا][4] حَالٌ تَجْمَعُنَا عَلَى الائْتِلَافِ، وَتَحْمِينَا[5] مِنَ الاخْتِلَافِ، [وَنَحْنُ فِي طَرَفَيْ

---

(1) البيت من بحر المنسرح: وهو لمهلهل بن ربيعة أخي كليب بن ربيعة وقبله قوله:

أَنْكَحَهَـا فَقْـدُهَا الأَرَاقِـم فِـي ... جَنْـبٍ، وَكَـانَ الحِبَـاءُ مِـنْ أَدَم

وأبانان: جبلان وهما الأبيض والأسود؛ فالأول يوجد في بني فزارة والثاني لبني والبة بن الحارث بن ثعلبة. انظر الشعر والشعراء1/ 117، الروض المعطار، ص: 7.

(2) الزهر: عطلا.

(3) الخيم: بالكسر الطبائع والسجايا.

(4) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.

(5) الزهر: وحمتنا.



ضِدَّيْنِ][1] وبَيْنَ أَمْرَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ، وإذَا حَصَّلْتَ الأَمْرَ وَجَدْتَ أَقَلَّ مَا بَيْنَنَا مِنَ البِعَادِ، [أَكْثَرَ مِمَّا بَيْنَ الوِهَادِ والنِّجَادِ، وَأَبْعَدَ][2] مِمَّا بَيْنَ البَيَاضِ وَالسَّوَادِ، وَأَيْسَرُ مَا بَيْنَنَا مِنَ النِّفَار أَقَلَّ مَا بَيْنَنَا مِنَ النَّضَار، وَأَكْثَرَ مِمَّا بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهار[3]، وَالإِعْلَانِ وَالإِسْرَارِ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ بَدِيعِ الزَّمَانِ الهَمَذَانِي [إِلَى رَجُلٍ وَلِيِّ الأَشْرَافِ][4]:

فَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ -أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ- مِنْ أَمْرِ فُلَانٍ أَنَّهُ وَلِيُّ الأَشْرَاف، وَإِنْ يَصْدُقِ الطَّيْرُ يَكُنْ إِشْرَافًا عَلَى الهَلاك، بِأَيْدِي الأَتْرَاكِ، فَلَا تَحْزُنْكَ وِلَايَتُه، فَالحَبْلُ لَا يُبْرَمُ إِلَّا لِلْفَتْل، ولا تُعْجِبْكَ خِلْعَتُهُ فَالثَّوْرُ لَا يُزَيَّنُ إِلَّا لِلْقَتْلِ، وَلَا يَرُعْكَ نِفَاقُه، فَأَرْخَصُ مَا يَكُونُ النِّفْطُ إِذَا غَلَا، وَأَسْفَلُ مَا يَكُونُ الأَرْنَبُ إِذَا عَلَا، وَكَأَنِّي بِهِ وَقَدْ شَنَّ عَلَيْهِ جِرَانُ العَوْدِ[5]، شَنَّ المَطَرِ الجَوْدِ، وَقَيَّدَ لَهُ مَرْكَبُ الفُجَّار، مِنْ مَرْبَطِ النَّجَار، وَإِنَّمَا جُرَّ لَهُ الحَبْلُ، لِيُصْفَعَ كَمَا صُفِعَ مِنْ قَبْلُ، وَسَتَعُودَ تِلْكَ الحَالَةُ إِحَالَة، وَيَنْقَلِبُ ذَلِكَ الحَبْلُ حِبالَه، فَلَا تَحْسَدِ الذِّيبَ عَلَى الإِلْيَةِ يُعْطَاهَا طُعْمَة، وَلَا تَحْسِبِ الحَبَّ يُنْثَرُ لِلْعُصْفُورِ نِعْمَة، وَهَبْهُ وُلِّيَ إِمَارَةَ مَا بَيْنَ البَحْرَيْنِ أَلَيْسَ مَرْجِعُهُ ذلكَ العَقْل، وَمَصِيرُهُ ذَلِكَ الفَضْلُ، ومَنْصِبُهُ ذَلِكَ الأَصْلُ، وعُصَارَتُهُ ذَلِكَ النَّسْلُ، وقَعِيدَتُهُ تِلْكَ الأَهْلُ، وَقَوْلُهُ ذَلِكَ القَوْلُ، وَفِعْلُهُ ذَلِكَ الفِعْلُ، فَكَانَ مَاذَا؟ أَلَيْسَ قَدْ سُلِبَ أَكْثَر ممَّا أُعْطِي[6]، وَمَا عُدِمَ أَكْثَرُ[7] مِمَّا غَنِم، مَا لَكَ تَنْظُرُ إِلَى ظَاهِرِهِ وَتَعْمَى عَنْ بَاطِنِهِ؟ أَكَانَ يُعْجِبُكَ أَنْ تَكُونَ قَعِيدَتُهُ فِي بَيْتِكَ، وَبَغْلَتُهُ مِنْ

---

(1) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.

(2) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.

(3) خرم بالأصل ولعلها (وأيسر ما بيننا من النفار أكثر مما بين الليل والنهار وأقل مما بين النضار).

(4) الرسالة توجد في: رسائل بديع الزمان، ص: 85، زهر الآداب3/ 887- 888، وقد قدم لها بقوله: «وكتب إلى بعض إخوانه في أمر رجل ولي الأشراف».

(5) جران العود: مقدم عنقه من مذبحه إلى منحره، وقد لقب به بعض الشعراء العرب من قبيلة نمير وهو عامر بن الحارث بن كلفة وذلك لقوله يخاطب امرأتيه:

خُذَا حَذَراً، يَا جَارَتَيَّ فَإِنَّنِي ... رَأَيْتُ جِرَانَ العَوْدِ قَدْ يَكَادُ يَصْلُحُ

انظر ترجمة جران العود في الشعر والشعراء 2/ 605، خزانة الأدب4/ 197.

(6) الزهر: أوتي.

(7) الزهر: أوفر.



مِنْ تَحْتِكَ، أَمْ كَانَ يَسُرُّكَ أَنْ تَكُونَ أَخْلَاقُهُ فِي إِهَابِكَ، وَبَوَّابُهُ عَلَى بَابِكَ، أَمْ كُنْتَ تَوَدُّ أَنْ تَكُونَ وَجْعَاؤُهُ فِي إِزَارِكَ، وَغِلْمَانُهُ فِي دَارِكَ، أَمْ كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ فِي مَرْبَطِكَ أَفْرَاسُه، وَعَلَيْكَ لِبَاسُه، وَرَأْسُكَ رَأْسُهُ؟ جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا عِنْدَكَ خَيْرٌ مِمَّا عِنْدَه؛ فاشْكُرِ اللهَ وَحْدَهُ عَلَى مَا أَتَاكَ، وَاحْمَدْهُ عَلَى مَا أَعْطَاكَ ثُمَّ أَنْشَدَ:

إِنَّ الغَنِيَّ هُوَ الرَّاضِي بِعِيشَتِهِ ... لَا مَنْ يَظَلُّ عَلَى الأَقْدَارِ مُكْتَئِبَا[1]

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الخَطَّابِ قِطْعَةً مِنْ رِسَالَةٍ أَجَابَ بِهَا الصَّابِي عَنْ أَبِي العَبَّاسِ بْنِ سَابُور المُسْتَخْرَجِ إِلَى أَبِي الحَسَنِ بْن سَبْرَةَ عَنْ رُقْعَةٍ وَرَدَتْ مِنْهُ فِي صِفَةِ حَمَلٍ أَهْدَاهُ[2]:

وَصَلَتْ رُقْعَتُكَ، فَفَضَضْتُهَا عن خَطٍّ مُشْرِق، وَلَفْظٍ مُونِق، وَعِبَارَةٍ مُصِيبَةٍ، وَمَعَانٍ غَرِيبَةٍ، واتِّسَاعٍ فِي البَلَاغَةِ يَعْجِزُ عَنْهُ عَبْدُ الحَمِيدِ فِي كِتَابَتِه[3]، وَسَحْبَانُ[4] في خَطَابَتِهِ، وَتَصَرُّفٍ بَيْنَ جِدٍّ أَمْضَى مِنَ القَدَرِ، وهَزْلٍ أَرَقَّ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ، وَتَقَلُّبٍ فِي وُجُوهِ الخِطَابِ، الجَامِعِ لِلصَّوَابِ. إِلَّا أَنَّ الفِعْلَ قَصَّرَ عَنِ القَوْلِ، لِأَنَّكَ ذَكَرْتَ حَمَلاً، جَعَلْتَهُ بِصِفَتِكَ جَمَلاً، فَكَانَ المُعَيْدِيَّ تَسْمَعُ بِهِ لَا أَنْ تَرَاهُ[5]. وَحَضَرَ فَرَأَيْتُ كَبْشاً مُتَقَادِمَ المِيلَادِ، مِنْ نِتَاجِ قَوْمِ عَادٍ[6]، قَدْ أَفْنَتْهُ الدُّهُورُ، وَتَعَاقَبَتْ عَلَيْهِ العُصُور، فَظَنَنْتُهُ إِحْدَى الزَّوْجَيْنِ اللَّذَيْنِ جَعَلَهُمَا نُوحٌ فِي السَّفِينَةِ[7] وَحَفِظَ بِهِمَا جِنْسَ الغَنَمِ لِذُرِّيَتِهِ، صَغُرَ عَنِ الكِبَرِ، وَلَطُفَ عَنِ القِدَمِ، فَبَانَتْ دَمَامَتُه، وَقَصُرَتْ قَامَتُه، وَعَادَ نَاحِلاً ضَئِيلاً، بَالِياً هَزِيلاً، بَادِيَ السَّقَامِ، عَارِيَ العِظَامِ، جَامِعاً لِلْمَعَايِب، مُشْتَمِلاً عَلَى المَثَالِبِ، يَعْجَبُ

(1) البيت من بحر البسيط، انظر روضة العقلاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ص: 131.
(2) الرسالة وردت في زهر الآداب 1/ 147، نهاية الأرب10/ 128، نور الطرف ونور الظرف للحصري، ص: 371-372 وهي أطول مما هنا.
(3) يقصد به عبد الحميد الكاتب وقد سبق أن عرفنا به.
(4) سحبان وائل: خطيب عربي مشهور بفصاحته وبيانه.
(5) مثل عربي مشهور يقولون فيه: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه». انظر مجمع الأمثال.
(6) عاد: قبيلة وهم قوم هود. وعاد الأولى هم الذين ينتسبون إلى عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله. وأما عاد الأخيرة فهم بنو تميم.
(7) الزوجان الاثنان من جنس أوغيره قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾. سورة هود، الآية: 40.



العَاقِلُ مِنْ حُلُولِ الحَيَاةِ به، وتَأَتِّي الحَرَكَةِ فِيه، إِنَّهُ عَظْمٌ مُجلَّد، وَصُوفٌ مُلَبَّد، لَا تَجِدُ فَوْقَ عِظَامِه سَلَبـاً، ولا تُلْفِي يَدُكَ مِنْهُ إِلَّا خَشَباً، لَوْ أُلْقِيَ إِلَى السَّبُعِ لأَبَاهُ، وَلَوْ طُرِحَ لِلذِّيبِ لَعَافَه وقَلَاه، قَدْ طَالَ لِلْكَلَأِ فَقْدُه وبَعُدَ بِالمَرْعَى عَهْدُه؛ لَمْ يَرَ القَتَّ إِلَّا نَائِما، وَلَا عَرَفَ الشَّعِيرَ إِلَّا حَالِماً.

ومن إِنْشَاءِ العَبْدَكَانِي[1]:

وَصَلَ كِتَابُكَ فَرَأَيْتُكَ قَدْ حَلَّيْتَهُ بِزَخَارِفِ أَوْصَافِك، وَأَخْلَيْتَهُ مِنْ حَقَائِقِ إِنْصَافِك، وَكَثَّرْتَ فِيهِ الإِنْحِيَاءَ عَلَى خَصْمِكَ، فِي غَيْرِ بُرْهَانٍ أَتَيْتَ بِهِ عَلَى ادِّعَائِكَ وَزَعْمِكَ، وَقَابَلْتَ مَا اجْتَهَدْنَا فِي الأُمْنِيَةِ مِنَ القَوْلِ وَالإِبَانَةِ لَكَ عَنْهُ فِي الحُجَّةِ بِفَظَاظَةٍ اسْتَعْمَلْتَهَا، وَغِلْظَةٍ جَرَّدْتَهَا، وَتَرْهِيبٍ وَتَهْيِيبٍ قَدَّمْتَهُمَا، وَإِيعَادٍ وَتَهْدِيدٍ أَثْبَتَّهُمَا، وَمَصَارِعِ بَغْيٍ خَوَّفْتَنَاهُمَا، وَعَوَاقِبِ عَدَاءٍ وَظُلْمٍ حَذَّرْتَنَاهُمَا، وَسَنَقُولُ فِي جَوَابِ كُلِّ بَابٍ مِنْهُمَا بِمَا [إِنْ قَصَّرَ][2] عَنْ غَرَضِنَا فِي الانْتِفَاعِ، بَلَّغَ لَنَا مُرَادَنَا مِنَ الإِفْهَامِ وَالاحْتِجَاجِ. وَباللهِ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِنَا نَسْتَعِينُ وَعَلَيْهِ فِيهَا نَعْتَمِدُ وَنَتَوَكَّلُ.

وَلَهُ فِي ذَمِّ أَهْلِ الخِلَافِ:

وَإِنَّ فُلَاناً كَانَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِنَا، أَعْتَقَ رَقَّهُ إِنْعَامُنَا، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ إِكْرَامُنَا، وَشَرَفِهِ وَلَاؤُنَا، وَحَسُنَ عِنْدَهُ بَلَاؤُنَا [وَاقْتَنَيْنَا لَهُ الأَمْوَالَ][3]، وَسَبَّبْنَا لَهُ الأَعْمَال، وَأَوْطَأْنا عَقِبَهُ الرِّجَال، فَلَمْ تَقَعِ النِّعْمَةُ مِنْهُ عِنْدَ شَاكِرٍ، وَالصَّنِيعَةُ عِنْدَ مُحْتَمَل. فَلَمَّا رَفَعَ اللهُ بِمَكَانِنَا خَسِيسَتَهُ، وَبَلَّغَهُ مِنْ شَرَفِ الذِّكْرِ، وَنَبَاهَةِ القَدْرِ، وانْبِسَاطِ اليَدِ، مَا كَانَتْ هِمَّتُهُ تَعجِزُ عَنْهُ، وآمَالُهُ تقصرُ [دَرَكاً لَهُ][4] أَشَرَهُ[5] ذَلِكَ وَأَبْطَرَه[6]، وَأَطْغَاهُ وَأَحْقَرَه، فَاخْتَالَ ذَاهِباً

---

(1) هو أبو الخطاب العبدكاني وقد سبق التعريف به.
(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(3) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) أشر: بطر وتاه معجبا بنفسه وثروته.
(6) أبطر: طغى بالنعمة وتجبر بها.



وَاسْتكْبَرَ عَالِيًا، وغَدَر بَاقِيًا، وَسَاقَ عَاصِيًا، وَأَوْضَعَ فِي الفِتْنَةِ لَنَا حَرْبًا، ولأَعْدَائِنَا حِزْبًا، لِمَنْ يَنْحَرِفُ عَنَّا يداً، وَلِمَنْ مَالَ إِلَيْنَا صَدّاً، عَنْ غَيْرِ سَبَبٍ أَوْجَبَهُ وَلَا أَمْرٍ دَعَا إِلَيْهِ فَكَانَ كَمَا قَالَ اللهُ في كِتَابِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[1] وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]. فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ الخَبَرُ بِمَا هَيَّأَ اللهُ لَنَا مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الفُسْطَاطِ[3] عَلَى الحَالِ السَّارَّةِ لِأَوْلِيَائِنَا، القَاتِلَ لأَعْدَائِنَا، سُقِطَ فِي يَدَيْهِ، وَفَكَّرَ فِي غَلِيظِ جُرْمِهِ وَجِنَايَتِهِ، فَأَدَاهُ الخَوْفُ الّذِي اسْتَشْعَرَهُ، وَالإِشْفَاقُ الَّذِي خَامَرَهُ، إِلَى أَنْ يَرْكَبَ عَظِيماً مِنَ [الذَّنْبِ][4] وَكَاشَفَ بِالمَعْصِيَةِ ... أَعْدَاءَ نِعْمَتِنَا ... ذَوِي العَدَاوَةِ لَنَا. وَنَرْجُو بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَمَا لَمْ يَزَلْ -تَقَدَّسَ اسْمُهُ- يُجْرِيهِ عِنْدَنَا مِنْ جَمِيلِ عَادَاتِهِ...

وَمِنْ إِنْشَاءِ مُحَمَّد بْن مُكَرَّم[5]:

قَدْ عَاتَبْتُكَ حَتَّى بَدَا لِي أَنَّ العِتَابَ يَلِجُكَ وَيُغْرِيكَ، واحْتِمَالَهُمَا يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكَ وَإِذَا ذَلِكَ يُفْسِدُكَ وَيُطْغِيكَ، وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ الصَّدِيقِ عَلَيَّ أَنْ أُزَكِّي لَهُ نَفْسِي إِلَّا فِيمَا يَعْرِفُ فِيهِ فَضِيلَتِي، وَيُوجِبُ عَلَيْهِ شُكْرِي، وَخَاتِمَةُ الاعْتِذَارِ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ صِدْقِي إِيَّاكَ عَمَّا عِنْدِي، فَإِنَّكَ لَا تَحْدُثُ لَكَ نَشْوَةٌ إِلَّا حَدَثَتْ لِي عَنْكَ سَلْوَةٌ، وَلَا يَزْدَادُ أَمَلِي فِي إِنَابَتِكَ ضُعْفاً إِلَّا ازْدَادَتْ نِيَّتِي فِي قَطِيعَتِكَ قُوَّةً وَإِنِّي لَا أَقْبَلُ العُتْبَى ولَا أَخْتَارُ المُرَاجَعَةَ حَتَّى يُسْلِمَنِي اليَأْسُ مِنْكَ إِلَى العَزَاءِ عَنْكَ، فَإِنْ تَنْزَعَ فَبِصَفْحٍ لَا تَثْرِيبَ فِيهِ [وَإِنْ تَمَادَيْتَ][6] فَبِهِجْرَانٍ لَا وَصْلَ بَعْدَهُ؛ وَالسَّلَامُ.

---

(1) سورة العلق، الآية: 6-7.
(2) سورة الشورى، الآية: 25.
(3) الفسطاط: اسم لمصر القديمة سميت بفسطاط عمرو بن العاص، الروض المعطار، ص: 441.
(4) خرم بالأصل.
(5) كاتب له أخبار مع أبي العيناء وأبي علي البصير كان وزيرا للمعتز، معجم الشعراء، ص: 396، الوافي بالوفيات 5/ 53.
(6) خرم بالأصل.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي العَبَّاسِ بْن رَشِيق:

إِلَى القُمْطِيشَة ببرْجلُونة: أَمَّا بَعْدُ: لَا غَيَّرَ اللهُ إِلَّا عَلَى مَنْ تَغَيَّرَ عَهْدُه، فَإِنَّكِ قَدْ تَعْلَمِينَ أَنِّي لَا أَحْتَاجُ فِيكِ وَفِي بَلَدِكِ وَرِجَالِكِ إِلَى مَنْ يُخْبِرُنِي، وَلَا أُضْطَرُّ فِي خُلْفِكِ وَطَمَعِكِ وَخِدَاعِكِ إِلَى مَنْ يُعَرِّفُنِي، وَقَدْ حَبَسَنِي عَلَى احْتِمَالِكِ، وَوَقَفَنِي عَلَى صِحَّةِ خَبَالِكِ، عَهْدٌ كَانَ بَيْنَنَا، أَرَدْتُ أَلَّا أَجْبُرَه، وَذِمَامٌ نَوَيْتُ أَلَّا أَغْدُرَه، وَقَدَّرْتُ أَنَّكِ مَنْ تَرَيْنَ لِي حَقّاً لَا تَرَاهُ لِغَيْرِي. حَتَّى رَأَيْتُكِ قَدْ اسْتَعْمَلْتِنِي فِي مَا غَلَبَ عَلَيْكِ مِنْ شَرِّ مُعَامَلَتِكِ، وَجَعَلْتِنِي مِمَّنْ تَأْكُلُ وَتَمْطُلُ، حَتَّى مَرَّ بِي عَامَانِ، وَبَدَّدْت عَلَيَّ عَظِيماً مِنَ المَالِ.

وَكِتَابِي هَذَا، مُنَابَذَةٌ لَكِ، وَنَذِيرٌ بِقَطْعِ اليَدِ مِنْكِ، وَقَدْ احْتَسَبْتُ أَهْلِي عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسَلَوْتُ عَنْهُمْ بِالانْتِصَافِ مِمَّنْ جَنَى عَلَيَّ، وانْتِهَاكُ حُرْمَةِ مَنْ مَدَّ يَداً إِلَيَّ. وَأَنَا أَقُولُ لَكِ بِاللهِ العَظِيمِ لَئِنْ لَمْ تَقْطَعِي شُغْلَكِ كُلَّهُ لِشُغْلِي، وَتَتَجَرَّدِي لِجَمِيعِ أَهْلِي وَوَلَدِي، وتَكْفِيهِم لِي بِمَالِكِ، لَأُبَدِّدَنَّ عَدَدَكِ، وَأَهْتِكَنَّ بَلَدَكِ، وَلَأَجْعَلَنَّ الخَوْفَ شِعَارَكِ، وَالتَّرَقُّبَ دِثَارَكِ، وَلَأُعَرِّفَنَّكِ مِنِّي بِمَا تَجَاهَلْتِ عَنْ عِلْمِهِ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ. فَتَأَهَّبِي لِذَلِكَ كَيْفَ شِئْتِ، فَلَسْتُ مِمَّنْ يَأْتِيكِ سِرّاً، وَلَا مِمَّنْ يَهَابُكَ جَهْراً، وَسَتَعْلَمِينَ كَيْفَ عَوَاقِبُ الاسْتِخْلَافِ، والتَّنَكُّبِ عَنْ طَرِيقِ الإِنْصَافِ، وَتَعْلَمِينَ ما بَيْنَ العَافِيَةِ والبَلَاءِ، وَبَيْنَ الهُدْنَةِ والفِتْنَةِ، وَتَعْلَمِينَ لِأَيِّ مَعْنىً أَعْرَضْتُ عَنْكِ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكِ إِلَّا بَيَاضُ يَوْمٍ وَسَوَادُ لَيْلَةٍ، وَقَطَعْتُ البِحَارَ والأَكَامَ إِلَى غَيْرِكِ. وَحَسْبِيَ اللهُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1] وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي حَفْصٍ ابْنِ بُرْدٍ الأَصْغَرِ[2]:

أَظْلَمَ لِي جَوُّ صَفَائِكَ، وَتَوَعَّرَتْ عَلَيَّ أَرْضُ إِخَائِكَ، وَأَرَاكَ جَلْدَ الضَّمِيرِ عَلَى العِتَابِ، غَيْرَ نَاقِعِ الغُلَّةِ مِنَ الجَفَاءِ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي أَقْصَى بَهْجَةَ ذَلِكَ الوُدِّ[3]

(1) سورة الشعراء، الآية: 226.

(2) سبق التعريف به في (ص:154)، الرسالة في الذخيرة1/ 1 – 501، المغرب في حلى المغرب 1/ 88.

(3) الذخيرة أقسى مهجة ذلك الود.



وَأَذْبَلَ زَهْرَ ذَلِكَ العَهْدِ؟ عَهْدِي بِكَ، وَصِلَتُنَا تَفْرَقُ[1] مِنْ اسْمِ القَطِيعَة، وَمَوَدَّتُنَا تَسْمُو عَنْ صِفَةِ العِتَابِ وَنِسْبَةِ الجَفَاء، وَاليَوْمَ هِيَ آنَسُ بِذَلِكَ مِنَ الرَّضِيعِ بِالثَّدْيِ، وَالخَلِيعِ بِالكَاسِ وَهَذِه ثُغْرَةٌ [إِنْ لَمْ تَحْرُسْهَا المُرَاجَعَةُ وَتُذْكَ فِيهَا عُيُونُ الاسْتِبْصَارِ][2] تَوَجَّهَتْ مِنْهَا الحِيَلُ عَلَى هَدْمِ مَا بَنَيْنَا، وَنَقْضِ مَا اقْتَنَيْنَا، وَتِلْكَ نَاعِيَةُ الصَّفَاءِ، وَالصَّارِخَةُ بِمَوْتِ الإِخاءِ.

لَا أَسْتَبِدُّ -أَعَزَّكَ اللهُ- مِنَ الكِتَابِ إِلَيْك، وإِن رَغِمَ أَنْفُ القَلَم، وانْزَوَتْ أَحْشَاءُ القِرْطَاسِ، وَأُخْرِسَ فَمُ التَّفَكُّرِ[3] فَلَمْ يَبْقَ فِي أَحَدِهَا إِسْعَافٌ لِي[4] عَلَى مُكَاتَبَتِكَ، وَلَا بَشَاشَةٌ عِنْدَ مُحَاوَلَةِ مُخَاطَبَتِكَ، لِقَوَارِصِ عِتَابِكَ، وَقَوَارِع مَلَامِكَ، الَّتِي قَدْ أَكَلَتْ أَقْلَامَك، وَأَغْضَتْ كُتُبَكَ، وَأَضْجَرَتْ رُسُلَكَ، [وَضَمِيرِي طَاوٍ لَمْ يَطْعَمْ تَجَنِّياً عَلَيْك، وَنَفْسِي وَادِعَةٌ][5] لَمْ تَجْنِ ذَنْباً إِلَيْك، وَعَقْدِي مُسْتَحْكَمٌ لَمْ يَمْسَسْهُ وَهَنٌ فِيك، وأَنَا [الآنَ على طَرَفٍ مِنْ إِخَائِكَ مَعَك، فإِمَّا أَنْ تَبْهَرَنِي[6] بِحُجَّةٍ فَأَتَنَصَّلَ عَنْكَ، وَإِمَّا أَنْ تَفِيءَ[7] بحقيقةٍ فَأَسْتَدِيمَ خُلَّتَك، وإِمَّا أَنْ تَأْزِمَ[8] على فَأْسِك، فَاقْطَعْ حَبْلِي مِنْك، كَثِيراً مَا يَكُونُ عِتَابُ المُتَصَافِيَيْنِ حِيلَةً تُسْبَرُ المَوَدَّةُ بِهَا، وتُسْتَثَارُ دَفَائِنُ الأُخُوَّةِ عَنْهَا، كَمَا يُعْرَضُ الذَّهَبُ عَلَى اللَّهَبِ، وَتُصَفَّقُ[9] المُدَامُ بالفِدَامِ[10]، وَقَدْ يَخْلُصُ الوُدُّ عَلَى العَتْبِ خَلَاصَ الذَّهَبِ [عَلَى السَّبْكِ][11] فَأَمَّا إِذَا أُعِيدَ وأُبْدِي، وَرُدِّدَ وَوُولِيَ، فَإِنَّهُ يُفْسِدُ غَرْسَ الإِخَاءِ، كَمَا يُفْسِدُ الزَّرْعَ تَوَالِي المَاء.

---

(1) الفرق: الخوف وتفرق تخاف.
(2) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(3) الذخيرة: الفكر.
(4) الذخيرة: إسعاف.
(5) خرم بالأصل. والتصويب من الذخيرة.
(6) الذخيرة: أن تدلي.
(7) الذخيرة: أن تنبيء.
(8) يقال أزم الفرس على فأس اللجام بمعنى قبض.
(9) يقال: صَفَقَ وصَفَّقَ القدح حَوَّلَهُ من دن إلى دن وملأه.
(10) الفدام: المصفاة التي تستعمل في تصفية الخمر.
(11) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.



وَلَهُ[1]:

خَلَّيْتُ عَنْهُ يَدِي، وَخَلَّدْتُ قِلَاهُ خَلَدِي، بِيضُ الأَنُوقِ[2] مِنْ رِفْدِهِ أَمْكَنُ وَصَفَا المُشَقَّرِ مِنْ خَدِّهِ أَلْيَنُ، مَنْزُورُ النَّوَالِ، رَثُّ الفَعَالِ، أَحَادِيثُ وَعْدِهِ لَا تَعُودُ بِنَفْعٍ، وَلَا هِيَ مِنْ غَرَبٍ وَلَا نَبْعٍ، مُطَحْلَبُ الوَجْهِ، مُهَرَاقُ مَاءِ الحَيَاءِ، مُظْلِمُ الخَلْقِ، دَبُورِيُّ الرِّيحِ، مُقْشَعِرُّ الوَجْهِ، طَاشَتْ عِنْدَهُ الصَّنِيعة، وَضَاعَتْ فِيهِ اليَدُ، عَلَى وَجْهِهِ مِنَ التَّعْبِيسِ قُفْلٌ ضَاعَ مفْتَاحُهُ، وَلَيْلٌ مَاتَ صَبَاحُهُ، غَنِيٌّ مِنَ الجَهْلِ، مُفْلِسٌ مِنَ العَقْلِ، تَتَضَاءَلُ النِّعَمُ لَدَيْهِ، وَتَقْبُحُ مَحَاسِنُ الإِحْسَانِ عَلَيْهِ، لَمْ تُنظمْ[3] عَلَيْهِ قَطُّ خَرز ثَنَاء[4]، ولَا اسْتَحَقَّ أَنْ يَلْبَسَ بِزَّةَ مَدِيحٍ، غِرْبَالُ حَدِيثٍ، كُلَّمَا أَجَالَ قدْحاً كَانَ غَيْرَ فَائِزٍ أَوْ رَمَى سَهْماً جَاءَهُ غَيْرَ صَائِبٍ، كَبِدُ الزَّمَانِ عَلَيْهِ قَاسِيَة، ونِعَمُ اللهِ لَهُ نَاسِيَة، شَرُّ بُقْعَةٍ لِغَرْسِ المَوَدَّةِ وبَذْرِ الإِخَاءِ، قَصِيرُ عُمْرِ الوَفَاءِ لِلإِخْوَان، عَوْنٌ عَلَيْهِمْ مَعَ الزَّمَانِ، هُوَ كَدَرُ الدُّنْيَا وَسَقَمُ الحَيَاةِ مُرَبٍّ لِلأَطْفَالِ الإِحَنِ، مُحْيِي لِأَمْوَاتِ الدِّمَنْ، رَقَدْتُ مِلْءَ عَيْنِي فِي فرْشِ القِلَى لَه، وَشَرِبْتُ زُلَالَ مَاءِ العَزَاءِ عَنْهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمّد بْنِ مَسْعُود[5] مِنْ رُقْعَةٍ خَاطَبَ بِهَا ابْنَهُ إِذْ تَوَجَّهَ إِلَى الغَرْبِ وَقَدْ بَلغَهُ خَلْعُ عذَارِهِ فِي البِطَالَةِ وَالشُّرْبِ:

فَازَ يَا بُنَيَّ مَنْ اسْتَشْعَرَ البِرَّ والتَّقْوَى، وَاسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى[6]، وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِ القَنَاعَةِ والرِّضَا، وَتَحَصَّنَ بِالعَفَافِ، وَتبَلَّغَ بِالكَفَافِ، وَلَمْ يُزَاحِمْ الأَقْدَارَ، وَلَا غَالَبَ

(1) الرسالة: في الذخيرة1/ 1- 504 -505، المغرب في حلى المغرب 1/ 89.
(2) في المثل العربي: «أعز من بيض الأنوق». والأنوق: الرخمة وعز بيضها أنه لا يظفر به والمعنى أن كرم هذا: الشخص بعيد المنال قد يظفر الإنسان ببيض الأنوق ولا يظفر بكرمه. انظر مجمع الأمثال2/ 44، الزمخشري1/ 245، العقد الفريد3/ 73.
(3) الذخيرة: ينظم.
(4) المغرب: ذر.
(5) كاتب أندلسي كان كثير الهزل في نظمه ونثره سلك مسلك ابن حجاج العراقي، انظر ترجمته في الذخيرة1/ 1-549، المغرب في حلى المغرب 1/ 134، مسالك الأبصار (نسخة باريز، ج:11 ورقة 400). والرسالة توجد في الذخيرة.
(6) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. سورة لقمان، الآية:21.



اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَلَشَدَّ يَا بُنَيَّ مَا أَوْغَلْتَ فِي البِلَادِ، واسْتَوْطَأْتَ في غُرْبَتِكَ خُشُونَةَ المِهَادِ، وَتَوَرَّطْتَ مُوحِشَ المَجَاهِلِ، وَتَوَرَّدْتَ آجِنَ[1] المَنَاهِلِ:

تَجَاوَزْتَ فِي هَذَا وَذَلِكَ مَا بِهِ ... أُمِرْتَ وَلَمْ تَقْنَعْ مِنَ البُعْدِ بِالدُّونِ
وَلَمْ تَتَذَكَّرْ شَوْقَ أُمٍّ حَزِينَةٍ ... عَلَيْكَ وَشَيْخٍ هَائِمِ القَلْبِ مَحْزُونِ
بِمَاذَا يفِي هَذَا وَذَلِكَ لَوْ حَوَتْ ... يَمِينُكَ أَوْ حَازَتْ خَزَائِنَ قَارُونِ

فَأَخْبِرْنِي يَا تَاجِرَ البَحْرَيْنِ، وسِمْسَارَ العِرَاقَيْنِ، وَدَلِيلَ الحِجَازَيْنِ، وَخِرِّيتَ الفَلَاتَيْنِ، وَابْنَ عَظِيمِ القَرْيَتَيْنِ، أَتْعِسْ بِكَ مِنْ خَرَّاجٍ وَلَّاجٍ، مَاضٍ عَلَى السُّرَى والإِدْلَاجِ، جَرِيءٍ عَلَى اللَّيْلِ الدَّاجِ، كَالسِّرَاجِ الوَهَّاجِ، والعَارِضِ الثَّجَّاجِ، وَصِفْ لِي مَوْقِعَ الشَّمْسِ فِي العَيْنِ الحَمِئَةِ، وَكَيْفَ كَانَ مَخْلَصُكَ مِنْ تِلْكَ البِلَادِ الوَبِئَةِ، وَكَيْفَ رَأَيْتَ مَدِينَةَ يُونُس وَجَنَّةَ إِرَم، والبُرْكَانَ المُؤْنِسَ وَجَزِيرَةَ الغَنَمِ[2]، والزَّاوِيَةَ وَصَخْرَةَ العُقَاب، وَبِئْرَ الهَاوِيَة وَكَنِيسَةَ الغُرَابِ[3]، وَهَوْلَ العُرْف، والمَعْدِنَ وَذَلِكَ الجُرْف، وَمَبِيضَ العَنْقَاءِ، وَالفَلَاةَ الخَرْقَاء يَوْمَ البَلْقَاء، وَالثَّنِيَّةَ الخَلْقَاء، وَمَرْسَى الزَّرْقَاء، وَإِيوَانَ كِسْرَى وَكَفْر تُوثَا[4]، وَالهَرَمَيْنِ والمَنَار[5]، وَجَبَلَ اللُّكَام[6] وَالغَار، وَغَانَةَ السُّودَانِ[7]، وَغَرَائِبَ البُلْدَانِ، وَفَيْفَاءَ بَنِي تَمِيم، وَالكَهْفَ والرَّقِيم[8] وَحَلْقَ وَادِي الأَشْبُونَة، وَمَدِينَةَ جَيْبُونَة[9].

---

(1) الإِجَن: الماء المتغير اللون والطعم.

(2) جزيرة الغنم: وردت عند الحميري أثناء حديثه عن أشبونة، حيث قال: «إن الفتيات المغرورين خرجوا إليها وهي تقع في جنوب بحر الظلمات»، الروض المعطار، ص: 61.

(3) انظر الروض المعطار، ص: 33.

(4) كفر توثا: من كور نصيبين من ديار ربيعة وهي مدينة مشهورة بآبارها العذبة، الروض المعطار، ص: 499.

(5) يقصد بالمنار منار الاسكندرية، انظر رحلة ابن جبير، ص: 41.

(6) جبل يقع قرب مدينة دمشق وقيل إنه لاصق بها، الروض المعطار، ص: 241.

(7) غانة من بلاد السودان بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، البكري، ص: 174، صبح الأعشى، 5/ 284.

(8) قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾. وقد اختلف في تفسير الرقيم، انظر تفسير القرطبي.

(9) اختصر المؤلف الرسالة وبها زيادة في الذخيرة 1/ 1 - 550.



وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا:

وَعَلَيْكَ يَا بُنَيَّ بِالشَّجَرَةِ الجَامِعَة واللُّبَان، مِنْ عُيُونِ ذَوِي الحَسَدِ والشَّنَآنِ، فَأَيْنَ مِنْكَ الحَيَّةُ النَّضْنَاض، وَسُلَيْكُ بْنُ السُّلَكَةِ[1] والبَرَّاض[2]، أَوَ مَا سَمِعْتَ أَنَّ السَّفَرَ الطَّوِيلَ، يَرُدُّ خَشَبَةَ البُدِّ إِلَى عُوَيْدِ قِنْدِيل؟.

صَحَّ عِنْدِي أَنَّ العَسَلَ فِي تِلْكَ الجِهَةِ[3] مُمْكِنٌ غَيْرُ غَالٍ، وَمُنْحَطٌّ غَيْرُ عَالٍ، فَتَنَاوَلْ إِقَامَتَهُ وَتَرْكِيبَهُ، وَأَتْقِنْ صِنَاعَتَهُ وَتَرْبِيبَه[4]، لَقَدْ نَسِيتُ يَا بُنَيَّ أَنْ أَبْعَثَ لَكَ بِنُسْخَةٍ فِي تَرْبِيبِ العَسَلِ المَشْرُوبِ، مُطَابِقَةً لِلْمَرْغُوبِ الْتَقَطْتُهَا مُغْتَنِماً عَنْ فُلَانٍ اليَهُودي كَانَ انْتَخَبَهَا لِلْمَنْصُورِ بنِ أَبِي عَامِرٍ [وَأَصْحَابِهِ كَعِيسَى بنِ سَعِيدٍ[5] وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْلَمَة. وَلَسْتَ بِحَمْدِ اللهِ دُونَهُمْ، فَنَجَابَتُكَ قَدْ ظَهَرَتْ، والدُّرَّةُ قَدْ نَدَرَتْ، وَمَخَايِلُ][6] السُّعودِ طَالِعَة، وَآيَاتُ الفَلَاحِ سَاطِعَة، كَمَا سُمِّيَ اللَّدِيغُ سَلِيماً، وَسُمِعَ عَنْ طُهْرِ الإِوَزِّ قَدِيماً. كَانَتْ تِلْكَ النُّسْخَةُ فِي طِيبِهَا يَا بُنَيَّ غَايَة، وَفِي لَذَّتِهَا نِهَايَة، وَلَسْتَ تَعْدَمُ فِي الجِهَةِ عِوَضاً مِنْهَا، فَابْحَثْ عَنْهَا فَخَيْرُ المَالِ يَا يَحْيَى[7] مَا هَبَطَ من الأَنْبُوط، وَصُفِّيَ عَلَى القَنُّوطِ. وَلَقَدْ صَحَّ عِنْدِي [عَنْكَ بَعْضُ ذَلِكَ، وَالأَلْمَعِيُّ ذُو تَنْجِيم، وَلَا تَعُدَّ هَذَا تَعْدِيداً عَلَيْكَ، وَلَا كَرَامَةَ، لِلشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

---

(1) شاعر من بني كعب بن سعيد بن زيد مناة، وهو من الشعراء الصعاليك، انظر الشعر والشعراء 1/ 281.

(2) البراض هو ابن قيس الكناني وقد ذكر أبو تمام فتكته فقال:

وَالفَتَى مَنْ تَعَرَّقَتْهُ اللَّيَالِي ... وَالفَيَافِي كَالحَيَّةِ النَّضْنَاضِ

كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِي ... فَتْكَةٌ مِثْلُ فَتْكَةِ البَرَّاضِ

وفيه قيل المثل العربي: «أفتك من البراض». انظر ديوان أبي تمام، ص: 166، الكامل للمبرد1/ 359، أما المثل فهو في مجمع الأمثال للميداني1/ 332.

(3) الذخيرة: في تلك الجهة.

(4) الرب: السلافة التي تستخرج من العنب.

(5) الذيل والتكملة: 5/ 2- 494، ترجمة 905.

(6) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.

(7) الذخيرة: يا بني.



فَاشْـرَبْ عَلَـى وُدِّي وَقُـمْ صَـافِنـًا ... فِعْـلَ المُحِـبِّ الوَامِـقِ الـذَّاكِرِ
وَلَا تكُـنْ تَـشْرَبُ إِلَّا عَلَـى ... حُـسْنِ أغَـانِي خَلَـفِ الزَّامِـرِ
وَزِدْ جَفَـاءً لَا تَكُـنْ نَاسِـيًا ... فَهُـوَ مِـنَ الْمُـسْتَطْرَفِ النَّـادِرِ
وَخُـذْ عَلَـى الرِّيـقِ مِـن أَسْبَابِهِ ... جُـوَارِشَ الأَوَّلِ وَالآخِـرِ[1]
حَتَّـى تُـرَى طَـاوِي الحَـشَا ... قُـرَّةَ عَـيْنِ الـشَّامِتِ الـسَّاخِرِ[2]

والبَلَدُ بِكَثْرَةِ الصَّيْدِ مَوْسُوم، والحُوتُ الطَّرِيُّ هُنَاكَ غَيْرُ مَعْدُوم، وَاللِّين[3] جَار الَّذِي عَلَيْهِ المَدَارُ مُوَافِق، وَالصَّاحِبُ مُشَاكِلٌ مُطَابِق.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي مَروان ابْنِ حَيَّانَ[4]:

نُعِيَ إِلَيْنَا فُلَانٌ، وَكَانَ فِي غَفْلَتِهِ، وَبُعْدِ فِطْنَتِهِ، وَغَبَاوَةِ شَاهِدِهِ، وَفَجَاجَةِ شَمَائِلِهِ، وَشَكَاسَةِ خَلَائِقِهِ، آيَةً مِنْ آيَاتِ خَالِقِهِ، مِنْ رَجُل نَسْمَةُ رَيْب، وَقَرَارَةُ خَرْب[5] عَلَى لِسَانِهِ نَمْلَةٌ تَدِبُّ عَلَى أَعْرَاضِ النَّاسِ، لا يُرَاعِي لِأَحَدٍ ذِمَّةً، فَصَارَ مَشْنُوءاً إِلَيْهِمْ مُرْهَقاً فِي دِينِه مَحْرُوماً، لَمْ يَرْتَفِعْ لَهُ حَالٌ، وَلَا فَارَقَهُ إِقْلَالٌ، وَلَا أُتِيح[6] لَهُ مَرْفقٌ إِلَّا مِنْ حَيْثُ يَرْتَشِيهِ لِتَلْقِينِ خَصْمٍ أَوْ تَوْهِينِ عَقْدٍ أَوْ دَفْعِ حَقٍّ بِمُشَاغَبَةٍ أَوْ بَهْتِ خَصْمٍ بِمُعَانَدَةٍ، لَهُ فِي ذَلِكَ نَوَادِرُ مَحْفُوظَةٌ. وَكَانَ مَعَ هَذِهِ المَسَاوِئِ وَسِخَ الثِّيَابِ، ذفرَ المُرُوءَة، مكحلَ

---

(1) جوارش: نوع من الحلاوات.
(2) الأبيات من بحر االسريع.
(3) الذخيرة: «واللبرجا» انظر تعليق الدكتور إحسان عباس على هذه اللفظة.
(4) ابن حيان مؤرخ مشهور له كتاب المقتبس وقد حققت منه أجزاء وكتب عنه ملشور أنطونيه MelchoR Antuña، رسالة جامعية، كما كتب عنه المستشرق الكبير غرسيه غومس Garcia Gamez بحثا في مجلة الأندلس. وانظر مقدمة كتاب المقتبس الذي حققه الدكتور محمود مكي والبحوث التي قدمت في ندوة ابن حيان بالرباط. والرسالة في الذخيرة 1/ 2/ 586-587.
(5) الذخيرة: حرب.
(6) الأصل: لولا.





الأُظْفُور، وَضِرَ الطَّوْق، دَانِيَ الغَائِطِ مِنَ المَائِدَة، لَا يَتَقَذَّرُ شَيْئًا البَتَّة. وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ لَاعَنَ زَوْجَهُ بِالأَنْدَلُسِ، فَرَأَى النَّاسُ[1] العَمَلَ فِي اللِّعَانِ بِالعِيَانِ.

وَلَهُ فَصْلٌ[2]:

وَنُعِيَ إِلَيْنَا فُلَانٌ، وَكَانَ مَعَ ثَرْوَتِهِ مُضَاعَ الجَارِ، مَمْطُولَ الغَرِيم، عَاتِبَ الصَّدِيقِ، مُكَرَّهًا إِلى الأَنَامِ، مَعْضُوضًا بِأَنْيَابِ المَلَامِ، مُقَدَّمًا في صُدُورِ الأَمْثَالِ بِبَسْطَةِ الرِّزْقِ، عَلَى ضِيقِ البَاعِ فِي العِلْمِ وَالفَضْلِ، وَالاتِّسَاعِ فِي الجَهْلِ، فَلَا يَحْفَظُ مِنَ الفِقْهِ مَسْأَلَةً، وَلَا يُوَثِّقُ مِنَ الشُّرُوطِ عَقْداً، وَلَا يَتَخَلَّصُ فِي التِّلَاوَةِ مِنْ سُورَةٍ، وَلَا يَفِيضُ فِي الأَدَبِ بِبَيْتِ شِعْرٍ، ثُمَّ يَأْوِي بِجَهْلِهِ إِلَى حَرَجِ صَدْرٍ وَغَالِبِ نَزَقٍ يُنَازِقُ الذُّبَابَةَ شَرَاسَةً. سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الجَهُولُ أَنَّهُ قَاضٍ لَمَّا نَاسَبَ الذَّكَاوِنَةَ[3] وَأَوَّلُ مَنْ ظَفِرَ مِنْ قَلَانِسِهِمْ بِطَوِيلَةٍ فَنَبَذَ مِسْحَاةَ الفِلَاحَةِ، وَأَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ الغَثْرَاءُ[4] فَخَالَ أَنَّهُ إِمَامُ الأَئِمَّةِ، المُسَيْطِرُ[5] عَلَى الإِمَارَةِ، فَارْتَقَى فِي الغَيِّ ذُرَى شَاهِقٍ زَلَّتْ مِنْهُ قَدَمُه، فَهَوَى فِي الحَضِيضِ أَسْرَعَ مِنْ رُقِيِّه، غَرَّهُ ابنُ عَمِّهِ الشَّهير البَطَالَة، السَّفِيهُ المَاجِنُ مِنْ رَجُلِ دَدٍ[6] لَمْ يَكُنْ قَطُّ مِنَ الجِدِّ فِي صَدَرٍ، وَلَا وِرْدٍ، دَنُّ شَرَابٍ، وَوَثَنُ صِحَابٍ[7]، دَفْتَرُهُ الدَّفُّ، وَتَسْبِيحُهُ السُّخْفُ، وأُنْسُهُ بِكَأْسٍ وَقَيْنَةٍ، وَدَرْسُهُ بِنَمِيمَةٍ وَغِيبَةٍ، وَقَضْمُهُ لُحُوم الغَافِلِين، وَرَأْيُهُ رَأْي المُسْتَهْزِئِين. إِنَّمَا أَرَبُهُ بَطْنُه وَفَرْجُه، وَهَمُّهُ عَيْبَتُهُ وَخرجُه، وَبِطَانَتُهُ كُلُّ بَطَالٍ مَاجِن، وَمَأْفُونٍ عَائِب، يَرْضَوْنَ مِنْهُ بِالكِسْرَةِ والعِرْقِ، جَرِئٌ عَلَى تَمْزِيقِ أُهُبِ الخَلْقِ، يَتَجَسَّسُونَ لَهُ عَنْ أَخْبَارِهِمْ ويُبْدُونَ إِلَيْهِ مَعَايِبَهُمْ بِها يُعَمِّرُ مَجْلِسَهُ وَيَنْفِي سَاعَاتِ كَسَلِهِ،

---

(1) الذخيرة: فأرى الناس، انظر تعليق الدكتور إحسان عباس على من أول من لاعن زوجه بالأندلس.

(2) الرسالة في الذخيرة 1/ 2/ 592 - 593.

(3) يقصد بهم أبناء ذكوان. انظر بحث الدكتور إحسان عباس الذي قدمه في ملتقى ابن حيان.

(4) الغثراء: السوداء.

(5) الذخيرة: المستظهر.

(6) الدد: اللعب واللهو. جاء في الحديث: «ما أنا من دد ولا الدد مني».

(7) الذخيرة: «قحاب».



وَبِنَوَادِرِهَا يَهُزُّ مزهرَهُ وَيُرْسِلُ النَّقِيرَ عَلَيهِ رِيَاحُ ضُلُوعِهِ، فَيَا لَكَ مِنْ شَوْقٍ وَلَا فَضْلٍ[1] وَإِرْهَامٍ مِنْ غَيْرِ هَطْلٍ يَقْطَعُ دَهْرَهُ بِتَعْمِيرِهِ المَوَائِدَ، وَتَعْطِيلِهِ المَسَاجِدَ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ اللهِ البَزْلَيَانِي إِلَى أَبِي جَعْفَرَ بْنِ عَبَّاس وَقَدْ زَارَهُ فَلَمْ يُوَفِّهِ حَقَّهُ[2]:

[كُلَفُ المُرُوءةِ أَبْقَاكَ اللهُ صَعْبَةٌ إِلَّا عَلَى الكِرَام، وطرقُ الجَفَاء رَحْبَةٌ لِسُلُوكِ][3] اللِّئَام، وَالأَحْمَقُ يَرَى البِرَّ خُسْرَانًا، وَيَعْتَقِدُ [إِكْرَامَ الوَافِدِينَ نُقْصَانًا، فَيَمْنَحُ الكَثِيرَ مِنْ][4] عِرْضِه، وَيَمْنَعُ اليَسِيرَ مِنْ عَرَضِه، وَيَلْبَسُ دِرْعًا وَهُوَ مَهْتُوكٌ بِالطَّعْن، وَيَجْعَلُ الكِبْرِيَاءَ رِدَاءً وَهُوَ مُطَرَّزٌ بِاللَّعْن، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَاءُ الله الَّذِي مَنْ جَاذَبَهُ إِيَّاهُ قَصَمَه، وَالتُّقَى حَبْلُ اللهِ الَّذِي مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ عَصَمَه. وَمَا يَتَكَبَّرُ مُتَكَبِّرٌ إِلَّا مِنْ جَهْلِهِ، وَعُجْبُ المَرْءِ أَحَدُ حُسَّادِ عَقْلِه، وَالمُتَكَبِّرُ فِي النُّفُوسِ صَغِير، والمُتَوَاضِعُ فِي الصُّدُورِ كَبِير، والرَّفِيعُ مَنْ تَرَفَّعَ عَنِ الدَّنَاءَات، وَالوَضِيعُ مَنْ ادَّعَى لِنَفْسِهِ وَاجِبًا وَضَيَّعَ الوَاجِبَات. وَجِئْتُكَ زَائِرًا، فكَأَنِّي جِئْتُكَ آمِلًا، وَأَرَدْتُ مُصَافَحَتَكَ فَمَا مَدَدْتَ يَدًا، وَطَلَبْتُ مُعَانَقَتَكَ فَخِلْتُكَ مُقْعَدًا، وَبَعْدَ أَنْ هَمَمْتَ بِالنُّهُوضِ أَقْعَدَكَ الكَسَل، كَأَنَّكَ خُمْصَانَةٌ[5] أَثْقَلَهَا الكَسَل[6]، وَجَعَلْتَ تُشِيرُ بِالحَاجِبِ وَتلْوِي الشَّفَة، وَتَدَّعِي بِالجَهْلِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْرِفَة. فَمَاكَانَ ضَرَّكَ حِينَ أَخْلَلْت، لَوْ أَجْلَلت، وَمَا كَانَ يَسُوءُكَ حِينَ نَاظَرْتَ لَوْ أَجْمَلْت، وَمَا كَانَ يَنْقُصُكَ حِينَ حَكَمْتَ لَوْ عَدَلْت، زَعَمْتَ أَنِّي أَخْطَأْتُ فِي كتبِ «سحنِ الوجه بالسين»، وطمستَ طرقَ المَخَارِجِ لِي وَهِيَ تَسْتَبِين، وهذه اللُّغة كُلُّهَا قَدْ طَلَبْتُها فَلَمْ أَجِدْ فِيهَا «صَحْنَ الوَجْهِ» بِالصَّاد، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَسْتَعِيرَ «صَحْنَ الدَّارِ»

(1) الذخيرة: فيا لك من شق بلا فصل.
(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني. أصله من مالقة وفد على بني عباد وخدمهم ثم قتل على أيديهم. انظر الذخيرة 1/ 2-624، والمصادر المذكورة هناك. والرسالة في 1/ 2-633.
(3) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(4) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(5) خمصانة: ضامرة البطن.
(6) في الذخيرة: «الكفل».



لِلْوَجْهِ فَلَا يَبْعُدُ أَنْ أَجْعَلَ «السَّحْنَ» جَمْع سَحْنَةٍ وَهُوَ أَقْرَبُ وَأَعْرَف، وَإِنْ قُلْتَ إِنَّ الأَكْثَرَ اتَّفَقُوا عَلَى كِتَابِهِ بِالصَّادِ، فَإِنَّ لِمِثْلِي أَنْ يَخْتَارَ فِي كَلَامِ العَرَبِ مَا أَرَادَ. وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي[1] مِنْ زَلَّةٍ، وَلَا أَعْصِمُهَا مِنْ ظُهورِ خلَّة، فَالأَدِيبُ يَجْعَلُ لِلْأَدِيبِ مَخْرَجاً، وَلَا يَجْعَلُ بَابَ العُذْرِ لَهُ مُرْتَجاً[2].

وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا[3]:

وَمِنَ العَجَبِ أَنْ تَنْسُبَنِي إِلَى الشَّعْوَذَةِ وَهِيَ حِصْنُكَ إِذَا غَلَبْت، وتُلَحِّنَنِي فِي النُّطْقِ وَهِيَ عَادَتُكَ إِذَا كَتَبْت، ولَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُهَا وَلَقَدْ جَهِلْتُهَا وَتَرَكْتُهَا وَمَا عَرَفْتُهَا وَكَمَا أَنَّ بَرَكَةَ الأَشْجَارِ فِي الأَنْوَارِ، فَكَذَلِكَ بَرَكَةُ الأَدَبِ فِي الرَّسَائِلِ وَالأَشْعَارِ، فَأَيْنَ رَسَائِلُكَ وَأَشْعَارُكَ، وَمُؤَلَّفَاتُكَ وَآثَارُكَ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ: غَلَبكَ عَلَى الحَقِّ أَهْلُه، وَنَفَاكَ عَنْهُ جَهْلُه، وَكَفَاكَ مَا طَارَ لَهُ مِنْ حُسْنِ الذِّكْر، وَطِيبِ النَّشْر، ولِمِثْلِهِ فَاعْمَلْ، وعَلَى مَا كَتَبْتَ مِنْهُ فَتَوَكَّلْ، فَسَتَحْصُدُ الَّذِي زَرَعْت، وتَعْلَمُ عَاقِبَةَ ما صَنَعْت.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ طَاهِرٍ[4] عَنْ أَمِيرِ بَلَنْسِيَةَ يَعْتِبُ الفَتْحَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ:

أَنَا -أَعَزَّكَ اللهُ- عَلَيْكَ شَحِيح، وَلَكَ فِيمَا تَأْتِيهِ وَتَحْتَذِيه نَصِيح، وَمَنْ يُسَاعِد[5]، وَالأَيَّامُ تَعُوقُ وَتُبَاعِد، فَأَقْصِرْ مِنْ هَذه الهِمَّة، واقْتَصِر مِنْ أُمُورِكَ عَلَى المُهِمَّة، الَّتِي تَفْجَأُ مَعَ الأَوْقَات، وَلَا تَلْجَأْ فِيهَا إِلَى مِيقَات، وَاقْتَصِدْ فِي مَوَاهِبِكَ، وَاقْصِدْ إِلَى العَدْلِ فِي مَذَاهِبِكَ، وَلَا تُكَلِّفْ فِي الجُودِ بِسَرَف، وَلَا تَقِفْ مِنَ التَّبْذِيرِ عَلَى شُرَف، فَلَوْ أَنَّ

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. سورة يوسف، الآية ص: 53

(2) الإرتاج: الإغلاق والانسداد وباب مرتج أي مغلق.

(3) الرسالة في الذخيرة1/ 2-635.

(4) أبو عبد الرحمان: هو محمد بن أحمد بن إسحاق بن طاهر كان والده من أعلام تدمير وآل طاهر كانوا ذوي بيت عامر كانت وفاته سنة 507هـ انظر بغية الملتمس ترجمة رقم 23، القلائد، ص: 64، المغرب في حلى المغرب2/ 247، الذيل والتكملة5/ 590، الخريدة3/ 363.

(5) الخريدة: فالزمان لا يساعد.



البَحْرَ لَكَ مَشْرَبٌ، وَالتُّرْبَ مُكْتَسَبٌ، لَنَفِدَا مَعاً، وَلَمْ يَسُدَّا مَوْضِعاً، وَلَوْ كَانَ النَّجْمُ لَكَ مِصْعَداً، والفُلْكُ مَقْعَداً، لَمَا ثَنَيْتَ إِلَى ذَلِكَ عِنَاناً، وَلَا ارْتَضَيْتَهَا لِهِمَّتِكَ مَكَاناً، وَقَدْ خَطَبَتْكَ الحُظْوَةُ سِرّاً وَجَهْراً، وَبَذَلَتْ لَكَ فِي الإِمْرَةِ أَسْنَى مَرَاتِبِهَا مَهْراً، فَارْتَدَيْتَ زَهْواً، وَامْتَطَيْتَ بَأْواً[1] لَا تَتَرَبَّصُ عَلَى مُسْدِيهَا، وَلَا يَخْتَصُّ بِإِجَابَتِكَ مُنَادِيهَا، وَقَدْ كَانَ يَجِبُ أَلَّا تَرْغَبَ عَنْ رَاغِبٍ، وَلَا تَنْكُبَ عَنْهُ إِلَى شَغْبِ شَاغِبٍ، فَأَيْنَ تُرِيدُ أَنْ تَنْزِل، وَمَا الَّذي تَرْتَضِي وَتَسْتَجْزِل، وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيْكَ الأَمَانِيُّ فَمَا تَأَمَّلْتَهَا، وَخُلِعَتْ عَلَيْكَ مَلَابِسُهَا فَمَا اسْتَمَلْتَهَا، والَّذي أَحُظُّكَ عَلَيْهِ أَنْ تَكُفَّ مِنْ رَسَنِكَ[2] قَلِيلاً، ومِنْ وَسَنِكَ مُسْتَطِيلاً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ القَصِيرَةِ[3] فَصْلٌ فِي مُرَاجَعَتِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ:

وَافَتْنِي - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ - أَحْرُفٌ كَأَنَّهَا الوَشْمُ فِي الخُدُود، تَمِيسُ فِي حُلَلِ إِبْدَاعِهَا كَالغُصْنِ الأُمْلُود، وَإِنَّكَ لَسَابِقُ هَذِهِ الحَلْبَةِ لَا يُدْرَكُ غُبَارُكَ فِي مِضْمَارِهَا، وَلَا يُضَافُ سِرَارُكَ إِلى إِبْدَارِهَا، وَمَا أَنْتَ فِي أَهْلِ البَلَاغَةِ إِلَّا نُكْتَةُ فلكِها، وَمُعْجِزَةٌ تَشْرُفُ الدُّوَلُ بِتَمَلُّكِهَا، وَمَا كَانَ أخلقكَ بِملْكٍ يُدْنِيك، وَمُلْكٍ يَقْتَنِيك، وَلَكِنَّهَا الحُظُوظُ لَا تَعْتَمِدُ مَنْ تَتَجَمَّلُ بِهِ وتَتَشَرَّف، وَلَا تَقِفُ إِلَّا عَلَى مَنْ تَوَقَّف، وَلَوْ أَنفقتْ بِحَسَبِ الرُّتَبِ لَمَا ضَرَبَتْ عَلَيْكَ إِلَّا قِبَابَهَا، وَلَا عَطَفَتْ عَلَيْكَ إلا أَثْوَابَهَا، وَأَمَّا مَا عَرَضْتَهُ فَلَا أَرَى إِنْفَاذَهُ قِوَاماً وَلَا أَرَى أَنْ تَتْرُكَ عُيُونَ رَأْيِكَ نِياماً، وَلَوْ كَفَفْتَ عَنْ هَذَا الخُلُق، وَانْصَرَفْتَ عَنْ تِلْكَ الطُّرُق، لَكَانَ الأَلْيَقَ بِك، وَالأَذْهَبَ مَعَ حُسْنِ مَذْهَبِكَ.

---

(1) البأو: العظمة والكبر والفخر.

(2) الرسن: الحبل، قال ابن مقبل يصف فرسه:

هَرِيتٌ قَصِيرُ عِذَارِ اللِّجَام ... أَسِيلٌ طَوِيلُ عِذَارِ الرَّسَنْ

(3) ابن القصيرة: هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي وهو من أشهر كتاب الدولة المرابطية توفي سنة 508هـ انظر في ترجمته: الصلة، ص: 104، الذخيرة2/ 1 - 239، المغرب في حلى المغرب 1/ 350، إعتاب الكتاب، ص: 222، القلائد، ص: 117 -123، المعجب، ص: 227، الوافي بالوفيات 3/ 128، الخريدة3/ 383، الذيل والتكملة 6/ 227، المحمدون من الشعراء، ص: 484، الإحاطة2/ 516، نفح الطيب 4/ 361.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي المُطَرِّف ابْنِ الدَّبَّاغ إِلَى ابْنِ حَسْدَاي[1]:

كُنْتُ عَهِدْتُكَ لَا تَمْتَنِعُ مِنْ مُدَاعَبَةِ مَنْ يُدَاعِبُكَ، وَلَا تَنْقَبِضُ عَنْ مُرَاجَعَةِ مَنْ يُخَاطِبُكَ، فمِنْ أَيْنَ حَدَثَ هَذَا التَّعَالِي، وَمَا سَبَبُ هَذَا التَّغَالِي، عَرِّفْنِي -جُعِلْتُ فِدَاكَ - مَا الَّذِي عَدَاكَ، وَلَعَلَّكَ رَأَيْتَ الحَضْرَةَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَاضٍ فطَمِعْتَ في القَضَاءِ وَجَعَلْتَ تَأْخُذُ نَفْسَكَ بِأُهْبَتِه، وَتَتَرَشَّحُ لِرُتْبَتِهِ، وأَنْتَ الآنَ لَا أَشُكُّ تَتَفَقَّهُ في الأَحْكَام، وَتَتَطَلَّعُ شَرِيعَةَ الإِسْلَام، وَهَبْكَ تَحَلَّيْتَ السَّمْت، وَتَهَيَّأْتَ لِذَلِكَ الدَّسْت، مَا تَصْنَعُ فِي قِصَّةِ السَّبْتَ[2]. دَعْ هَذَا التَّخَلُّقَ وَارْجِعْ إِلَى أَخْلَاقِك، وَعُدْ فِي إِطْرَاقِك، وَتَجَاهَلْ ما قَبلَكَ جَاهِلٍ، وَتَحَامَقْ مَعَ الحَمْقَى وَأَنْتَ عَاقِل، فَلَا تُنْعِ لَذَّةَ الاسْتِرْسَال، وَلَا تَبِعِ الدُّنْيا بِخِدْمَتِكَ في سَائِرِ الأَحْوَال، فَمَا أَشْبَهَ أَحْوَالَهَا[3] بِإِقْبَالٍ وَكَثْرَتَهَا بالإِقْلَال.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي مُحَمَّد عَبْدِ الغَفُورِ بْنِ ذِي الوِزَارَتَيْنِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الغَفُورِ[4]:

لَوْلَا عِدَى غَاظُوا الصَّدِيـ ... قَ بِنَفْيِهِمْ عَنِّي الكِتَابَهْ
لَمْ أُوذِ سَمْعَكَ بِالهُرَا ... ءِ وَلَا انْحَرَفْتُ عَنِ المَهَابَهْ

لَعَمْرِي -وَإِنْ كَانَ نَفَى مَنْفِيًّا وَتَقَرَّعَ صَدِيقًا حَفِيًّا- لَرُبَّ أَعْجَمَ ضَجِرَ فَأَفْصَحَ، وَأَجْذَمَ عُيِّرَ فَقَدَحَ، وَإِنْ لَمْ يُسْتَأْ لَنَا بَعْدَ الإِفْصَاحِ، وَمَا شَقَّ مِنْ كَلِمَةِ[5] التَّحَامُلِ فِي الاقْتِدَاحِ، لَمْ يُؤْمَنَا عَلَى ذِكْرِ مَيْت، وَإِحْرَاقِ بَيْت؛ فَلِلَّهِ مَنْ احْتَالَ لِتَخَلُّصِهِ، وَلَمْ يُعْجَبْ بِتَخَصُّصِهِ، وَدَفَعَ بِيَدِ جَلَدِه، فِي صَدْرِ حُسَّدِهِ، وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ بَلَاغٌ لو أَرْضَيْتُ بِهِ مُتَنَقِّصًا، ولَمْ يَرِنِي بِالاقْتِصَارِ عَلَيْهِ مُتَخَرِّصًا، في الكِتَابَةِ مُتَلَمِّصًا، إِذْ لَعَلَّهُ

(1) الرسالة في القلائد، ص: 122، والخريدة 3/ 390.
(2) يشير بذلك إلى أنه كان يهوديا قبل إسلامه واليهود يقدسون ذلك اليوم؛ أي السبت. انظر الروض الأنف1/ 270.
(3) القلائد والخريدة: أدبارها.
(4) الذخيرة: جاء في مقدمة الرسالة: له من رقعة خاطب بها بعض أهل عصره وافتتحها بهذين البيتين: الذخيرة 2/ 1- 326. من مجزوء الكامل.
(5) الذخيرة: كلفة.



مِمَّنْ يَظُنُّ الإِيجَازَ حَصَراً وانْقِطَاعـاً، ولا يَعْتَقِدُ الإِجَادَةَ مَعَ الإِسْهَابِ شَيْئًا مَوْجُوداً وَلَا مُسْتَطَاعـاً. لَا جَرَمَ أَنِّي بِحُكْمِ هَذِهِ التَّقِيَّـة سَأُطِيلُ قصَصـاً، وأَتَطَلَّبُ فِيمَا لَمْ يَصْرِفْ[1] مِنَ القَوْلِ قَنْصـاً، لِيَعْلَمَ مِنْ نَاف، ومنْ جِلْفٍ جَاف، بَلْ مِنْ نَزْرٍ حَقِيرٍ خَاف، أَنَّنِي مِنْ كُتَّابِ وَقْتِه، وَإِنْ رَغِمُ أَنْفُ مَقْتِه، واللهِ مَا عَرَفْتُهُ إِلَى اليَوْم، وَلَعَلِّي سَأَعْثُرُ عَلَيْهِ فِي النَّوْم، فَاعْرِفْه: مِنْ أَرْعَنَ نَاقِصِ الوَزْنِ وَالصَّرْفِ فَاصْرِفْه، بَسْمَةً مِنَ الهُونِ تَشْغَلُهُ بِنَفْسِهِ، وتُخْمِلهُ[2] في رمْسِه واللهُ يُفْنِيهِ، وَلَا يُعَرِّفْنِيهِ، وَيُنَزِّهُ عَنْ شَخْصِهِ الوَضِرِ الدَّنِسِ عَاثِرَ مَلَامِي[3]، وَمِنْ عِرْضِهِ القَذِرِ النَّجِسِ طَاهِرَ كَلَامِي.

وَكَأَنِّي بِفَارِسِ هَذِه الصِّنَاعَة، ومَالِكِ أَزِمَّةِ هَذِهِ البَلَاغَةِ والبَرَاعَة، قَدْ سَمِعَ هَذَرِي، وَضَحِكَ مِنْ ضَجَرِي، وَعَجب مِنْ كَرِيمَةِ وُدِّه، وَعَقِيلَةِ عَهْدِه، مِنْ مُخَاطَبٍ[4] بِسُخْفِ مُخَاطَبٍ، فِي لَيْلٍ مِنَ الجَهْلِ حَاطِبٍ، لَمْ يَأْتِ خِطْبَتَهَا مِنْ بَابِهَا وَلَا رَفَقَ فِي طِلَابِهَا، وَهَيْهَاتَ لِمُرْتَقِبِ الشِّعْرَى، مِنْ مُلَابَسَةِ الكَرَى، ولِمِثْلِ أَمَلِي فِي ذَلِكَ السَّماء، مِنْ تَقْصيري في الاخْتِفَاء، ولَكِنَّ صَدْرَ التَّحْذِيرِ، بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَى الضَّمِير، فَمَتَى سَمَحَ لِغَيْرِهِ بمكَانِـه، فَقَدْ صَرَمَ الحَبْلَ[5] قَبْلَ أَوَانِـه، وَكلفَ نُضْجاً وَلَاتَ حِينَ إِبَّانِـه، وَسَأُمْهِرُهَا مِنْ جَمِيلِ الثَّنَاءِ مَهْراً، لَا تَشُمُّهُ زَهْراً وتَخْتِمُهُ نُجُومـاً زُهْراً، وتَرِدُهُ كَوْثَراً، وَتَحْمَدُهُ عَيْنـاً وَأَثَراً، وَتَجْمُلُ[6] مِنْ بَهَائِهِ تَاجـاً تَعْنُو الشَّمْسُ لِضِيَائِهِ، وَتَغْرِقُ فِي لُجَّةِ آلَائِهِ، فَيَكُونُ بِدْعـاً مِنَ المُهُورِ، وَيَفْخَرُ ظَهْرُهُ [عَلَى سَائِرِ الظُّهُورِ، بِمُقْتَضَى مَا الْتَزَمْتُ شُرُوطَ الوَفَاءِ فِيهِ، وَحَرَمْتُ مِنْ غَدْرِ بَنِي الأَيَّامِ][7] صِحَّةَ مَبَانِيهِ وَلَوْ اكْتَفَيْتُ بِمَا مَضَى

---

(1) الذخيرة: يطرق.

(2) الذخيرة: وتخجله.

(3) الذخيرة: سهامي.

(4) الذخيرة: خاطب.

(5) الذخيرة: صرم فجاء.

(6) الذخيرة: وتحمل.

(7) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.



عَلَيْهِ سَلَفُنَا الكَرِيم، وَتَبِعْتُ وَلَمْ تَرُمْ مَرْكَزَهَا مِنْهُ أَعْظُمُهُ البَالِيَّةُ الرَّمِيم، مِنْ صَفَاءِ وُدٍّ يُعْدِي الجَارَ فَضْلاً عَنِ البَنِينِ، وَوَفَاءِ عَقْدٍ يَثْنِي النَّارَ عَنْ أَنْ تَحْرِقَ بِالطَّبْعِ أَوْ بِالمُمَارَسَةِ عَدَدَ سِنِينَ، أَحْرَزْتُ مِنَ الفَضْلِ نِصَاباً تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاة، وَحَوَيْتُ مِنَ الفَضْلِ قصاباً لَا تُدْرِكُهَا الكُفَاة، وَلَا تَبْلُغُها العُفَاة، عَلَى أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَغْرَبُ مِنْ عَقْلٍ يَمْتَارُ مِمَّا فِي يَدَيْهِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلى صَدَقَةٍ عَلَيْه، وَلَا مِنْ فَضْلٍ يَتَجَاوَزُ غَلْوَةَ سَهْمٍ، فَضْلاً عَنْ غَايَةِ شَهْمٍ. وَكُنْتُ قَدِ اسْتَغْنَيْتُ بِمَا أَصَّلُوا، وَلَمْ أَقْطَعْ بِهَذَا الاسْتِئْنَافِ مَا وَصَلُوا، إِلَّا أَنِّي وَجَدْتُ نَسَبَ أَدَبِهِ قَدْ كَلَّ، وَرَسْمَ سَبَبِهِ قَدِ اضْمَحَلَّ، وَالكَلَالَةُ فِي الأَدَابِ، أَمَسُّ مِنْهَا فِي الأَنْسَابِ[1]، فَاعْتَمَدْتُ بِهَذِهِ النَّأْمَةِ سَدَادَ خَلَلٍ، وَعِمَارَةَ طَلَلٍ، وَشَائِعُ مَجْدِهِ كَانَ أَوْلَى بِهَذِهِ الرُّتْبَةِ مِنَ التَّهَمُّمِ، وَأَهْدَى إِلَى سُنَنِ التَّفَضُّلِ وَالتَّكَرُّمِ، إِذْ كَانَ أَفْصَحَ[2] فِي القَوْلِ طَلَقاً، وَأَحْسَنَ فِي دُرِّ كَلِمِه العَذْبِ سَرْداً وَنَسَقاً، فَكَيْفَ تَزِلُّ لِي عَنْ صَهْوَةِ الانْتِدَاءِ، وَتُوَفِّرُ عَلَيَّ خُطَّةَ الاقْتِدَاءِ، هَذَا إِذَا قَدِرْت، وَمَا أَرَاهَا إِلَّا كَأُخْتِهَا قَدْ تَعَذَّرَتْ، لَيْسَ إِلَّا بِمَكَانِي[3] مِنَ الحِرْمَانِ وَالخُمُول، وَكُلُّ عُذْرٍ يُدْفَعُ بِهِ فِي نَحْرِ هَذَا الصِّدْقِ فَغَيْرُ مَقْبُول.

وَقَدْ حَطَبْتُ وَخَطَبْتُ، وَسَبَبْتُ بَلْ ضَرَبْتُ، وَتَكَاتَبْتُ حَتَّى كَتَبْتُ، وَلَوْ خَطَطْتُ فِي صَفْحَةِ البَدْرِ بِأَنْمُلِي العَشْرِ، أَوْ فِي غُرَّةِ الشَّمْسِ، بِالمَعْهُودَةِ الخَمْسِ، وَصُغْتُ لَفْظاً لِلرُّقْعَتَيْنِ، مَحَاسِنَ الجَدِيدَيْنِ، لَقِيلَ رَمَى الغَرَضَ فَكَاد، وَلَوْ نَسَجَ عَلَى مِنْوَالِ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ[4] لَأَجَادَ. وَفُلَانٌ إِذَا نَقَلَ الأَقَاوِيلَ تَوَسَّطَ، وَإِذَا رُفِعَ إِلَى فِطْرَتِهِ الفَطِيرَةِ تَوَرَّطَ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يُرَاجِعَ بِالقَبُول، وَبِمَا لَدَيْهِ من الرَّأْيِ الحَسَنِ الجَمِيلِ بِشَرْطِ العُدُولِ، عَنِ التَّفْرِيطِ المُخْجِلِ، وَاللَّفْظِ المُشْتَرَكِ المُحْتَمل، وَاعْتِقَاد تَجْرِيحِي فِي الصِّنَاعَةِ بِمُجَرَّدِ التَّبْصِيرِ،

---

(1) قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾، سورة النساء الآية: 175.

(2) الذخيرة: أفسح.

(3) الذخيرة: لمكاني.

(4) الذخيرة: فلان وفلان.



وَتَنْزِيهِ خَطْوِهِ الوَسَاعِ فِيهَا عَنْ مُعَارَضَةِ خَطْوِي القَصِيرِ، وَلَّى عَلَى مَوْضُوعَيْنِ[1] مِنْ إِيثَارِهِ، وَطَارَ اسْمِي الوَاقِعِ بِيُمْنِ جوارِه. عَمَرَ اللهُ رَبْعَهُ بِالتَّأْمِيلِ، وَسَمْعَهُ بِالتَّكْرِيمِ وَالتَّبْجِيلِ، وَصَارَ[2] هَذَا الزَّمَانُ صعدِ كُلِّ عَقْلٍ، وَفِي مَا أَتَوَكَّفُ مِنْ جَوَابٍ كَرِيمٍ مِدْوسُ إِمْهَاءٍ وَصَقْلٍ، وَأَزَالَ جَاهِلَ شَبَحِي لِمَا عَلَيْهِ مِنَ الأَقْذَاءِ، حَتَّى أَجْتَلِيَ صُورَةَ حَقِيقَتِهِ فِي رَوْنَقِ الجَلَاءِ، وَحَبَّذَا تَعْجِيلُهُ قَبْلَ اسْتِيَاءِ العُجْبِ القَبِيحِ، وَتَكَاثُفِ حُجُبِ الغيِّ عَلَى مَتْنِ الصَّفِيحِ، فَيَعِزُّ صِقَالُهُ، وَيُعْجِزُ انْتِقَالُهُ، فَرَأْيُكَ فِي ذَلِكَ مُسَدَّداً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَحْرٍ صَفْوَانَ بْنِ إِدْرِيسَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى إِذْفُونْشَ[3]:

مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَ الله أَمْرَهُمْ إِلَى إِذْفُونْشَ بْنِ شَنْجُه[4] مَلِكِ قَشْتَالَةَ وَطُلَيْطُلَة وَفَّقَهُ اللهُ وَهَدَاهُ وَأَرَاهُ وَجْهَ رُشْدِه:

أُنْظُرْ بِعَقْلِكَ إِنَّ العَيْنَ كَاذِبَةٌ ... وَاسْمَعْ [بِحِسِّكَ][5] إِنَّ السَّمْعَ خَوَّانُ
وَلَا تَقُلْ كُلُّ ذِي عَيْنٍ لَهُ نَظَرٌ ... إِنَّ الرُّعَاةَ تَرَى مَا لَا تَرَى الضَّانُ[6]

كَتَبْنَاهُ مِنْ مُرْسِيَةَ -حَرَسَهَا اللهُ- وَنَحْنُ نَحْمَدُ اللهَ الَّذِي حَفَّ الجَنَّةَ بِالمَكَارِهِ وَالنَّارَ بِالشَّهَوَاتِ[7]، وَأَمَرَنَا بِالْتِزَامِ طَاعَةِ أُولِي الأَمْرِ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ آيَاتِه البَيِّنَاتِ، وَقَرَنَ طَاعَتَهُمْ

(1) الذخيرة: دل على موضعي.
(2) الذخيرة: وصدأ.
(3) مرت ترجمته .
(4) البيان المغرب قسم الموحدين صفحات: 145- 152- 202.
(5) خرم بالأصل.
(6) البيتان من بحر البسيط، وهما للأعمى التطيلي في ديوانه 218 من قصيدة مطلعها:
تَنَاصُرُ الشَّيْبِ فِي فَوْدَيْهِ خِذْلَانُ ... إِنَّ الزِّيَادَةَ فِي النُّقْصَانِ نُقْصَانُ
(7) ينظر في هذا إلى الحديث النبوي الشريف: «حفت الجنة بالمكاره والنار بالشهوات». وقد نظم أحد الشعراء هذا الحديث وضمنه في شعره فقال:
قَالَ لِي إِنَّ رَقِيبِي ... سَيِّءُ الخُلْقِ فَدَارِهْ
قُلْتُ دَعْنِي وَجْهُكَ الجَنَّةُ حُفَّتْ بِالمَكَارِهْ
السرقات الأدبية، ص: 165.



بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ مِنْ جَمِيعِ الحُدُودِ وَالجِهَاتِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[1]. فَطَاعَةُ الأَئِمَّةِ المُهْتَدِينَ مِنْ أَكَدِ الوَاجِبَاتِ وَنُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ الصَّادِعِ بِنُورِ الحَقَائِقِ ظُلَمَ المُشْكِلَاتِ، المُسَوِّي بَيْنَ الضَّعِيفِ وَالقَوِيِّ فِي مَجَالِسِ الحُكُومَاتِ، المُنْتَصِفِ مِنْ نَفْسِه لِأُولِي التَّشَكِّي وَالمَظْلُمَاتِ، كَحِكَايَةِ عُكَاشَةَ عَنْهُ حِينَ [أُشْعِرَ بِوُرُودِ مَنْهَلِ الوَفَاةِ][2] وَعَنْهُ رَوَيْنَا «مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَة واستذلَّ الإِمَارَةَ لَقِيَ اللهَ وَلَا وَجْهَ عِنْدَهُ»[3] فِي صَحِيحِ المُسْنَدَاتِ.

وَنَسْأَلُهُ الرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ مِنَ الهَنَاتِ وَالزَّلَّاتِ، المَهْدِيِّ المَعْلُوم بِصَحِيحِ الدَّلَالَاتِ، وَثُبُوتِ العَلَامَاتِ، وعن خَلِيفَتَيْهِ اللَّذَيْنِ تَأَلَّقَتْ بِإِرْشَادِهِمَا أَنْوَارُ الهِدَايَاتِ، وَجَرْيًا عَلَى تِلْكَ السُّبُلِ النَّبَوِيَّةِ إِلَى مُنْتَهَى [الآمَادِ][4] وَالغَايَات.

فِي هَذَا الكِتَابِ مَا تَنْبَنِي عَلَيْهِ أُصُولُهُ، وَتَرْتَبِطُ بِهِ قَوَانِينُهُ البُرْهَانِية وَفُصُولُه، مِنْ أَنَّ المَلِكَ - أَرْشَدَهُ اللهُ- فِي نِهَايَةِ الاحْتِيَاجِ إِلَى تَطَبُّبٍ يُصْلِحُ مِنْ دِمَاغِهِ مَا فَسَدَ، وَيُنَقِّي من مَوادِّ عَقْلِهِ مَا تَزَيَّفَ وَكَسَد، حَتَّى يُمَيِّزَ بَيْنَ العَقْدِ وَالحَل، وَلَا تَصْدُرَ عَنْهُ مُخَاطَبَاتٌ ضُحْكَةَ التَّرْحَال وَالحَل، كَكِتَابِهِ الَّذِي صَدَرَ عَنْهُ إِلَيْنَا، وَوَرَدَ بِهِ رَسُولُهُ الفَسْلُ[5] عَلَيْنَا، فَمِنْ مُضَمَّنِهِ أَنَّا أُنْزِلْنَا غَيْر مَنْزِلَتِنَا، فِي أَن سُووِيَ فِي مَجْلِسِ الأَحْكَام بَيْنَنَا وَبَين خَصْمِنَا، واعْتَقَدَ المَلِكُ -هَدَاهُ الله- أَنَّ ذَلِكَ مِنْ تَدْنِيسِنَا فِي النَّاسِ وَوَصْمِنَا، وَذَلِكَ مُنْكَرٌ مِنَ القَوْلِ، وخِلَافٌ لأَمْرِ ذِي القُوَّةِ وَالحَوْل. فَإِنَّ إِمَامَنَا بِالجَرْيِ عَلَى السَّنَنِ السَّوِيِّ، فِي رُتْبَةٍ يُسَاوِي بِهَا بينَ الضَّعِيفِ وَالقَوِيِّ، وَيُقِيمُ [حَقَّ] المُحِقِّ، وَيَقْطَعُ دَابِرَ الغَوِيِّ. قَدْ رَفَعَ اللهُ عَنِ المَيْلِ رُتْبَتَهُ وَمِقْدَارَه، وَقَرَنَ بِالتَّوْفِيقِ التَامِّ، وَالتَّسْدِيدِ العَامِّ إِيرَادَهُ وَإِصْدَارَه، وَجَعَلَهُ كَمَا كَانَ الفَارُوقُ[6] لَا يُبَالِي عَلَى مَنْ دَارَ الحَقُّ فَأَدَارَه، والله

(1) سورة النساء، الآية: 58.
(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(3) حديث نبوي.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) الفسل: الخبيث الماكر.
(6) يقصد به عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأنه فرق بين الحق والباطل.



تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِذَلِكَ عِبَادَهُ المُقَرَّبِينَ فَقَالَ: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[1] فَالمُسَاوَاةُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَصْمِنَا بِالحَقِّ تَنْوِيهٌ لَنَا وَتَشْرِيف، واسْتِخْدَامٌ فِيمَا يُرْضِي اللهَ تَعَالَى وَتَصْرِيف.

وَمِنْ مُضَمَّنَاتِ كِتَابِك، أَنَّا إِنْ مَشَيْنَا إِلَيْك، وَخَلَعْنَا الطَّاعَةَ عَلَيْكَ، مَكَّنْتَنَا مِنَ الرِّجَالِ وَالبِلَاد، وَشَاطَرْتَنَا -بِزَعْمِكَ- فِي الطَّارِفِ وَالتِّلَادِ[2]، وَهَيْهَاتَ إِنَّمَا رويت أن تُذْكِي بِنَا عَلَى المُسْلِمِينَ حَرَّ الجِلَاد، فَامْتَنَنْتَ كَمَا ظَنَنْت، وَأَنْعَمْتَ فِيمَا زَعَمْتَ، وَلَكِنَّكَ تَحَيَّلت، فِي الذِي خَيَّلْت، وَمَكَرْت، فِيمَا ذَكَرْت، وَلِنَفْسِك يَا بْنَ البَغِيِّ بَغَيْت، وَأَسْرَرْتَ الحَسْوَ حِينَ ارْتَغَيْت[3]، رُوَيْدَكَ، لَا تَصْرِفْ عَلَيْنَا كَيْدَك، وَعَلَى رِسْلِك، فَلَا حَاجَةَ لَنَا إِلى امْتِرَاءِ رُسْلِك، وَحَنَانَيْكَ، إِنْ كُنْتَ ذَا طِبٍّ فطبَّ لِعَيْنَيْكَ، دِينُنَا - وَالحَمْدُ للهِ- أَمْتَنُ وَأَقْوَى، وَسَجِيَّتُنَا أَشَدُّ انْقِيَاداً لِلتَّقْوَى؛ وَلَبِئْسَ مَا نَدَبْتَنَا أَنْ نَبْتَدِرَ إِلَيْهِ وَنَتَغَنَّمَ، وَيَا قُبْحَ مَا دَعَوْتَنَا أَنْ نَرْكَبَ مِنَ الغُرُورِ وَنَتَسَنَّمَ، فَنَكُونَ كَمَنْ ﴿أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾[4]، وَهَلْ تَتَسَاوَى الأَسِنَّةُ والزِّجَاج[5]؟ أَوْ يَتَمَاثَلُ العَتْبُ وَالحِجَاج؟ أَوْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ وَالحَجّاج؟[6] وَمَتَى تَطَابَقَتِ اللُّصُوصُ فِي الحَرَمِ وَالحُجَّاج؟ ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[7] وَهَذَا قَوْلٌ يَلِيقُ بِكُمْ -مَعْشَرَ النَّصَارَى- مِنْ جِهَةِ انْحِلَالِكُمْ، واسْتِبَاحَتِكُمْ لِمَحْضِ الحَرَامِ وَاسْتِحْلَالِكُم، لأَنَّكُمْ مَعْشَرَ الأَعْلَاجِ الأَجْلَاف، مُسْتَسْهِلُونَ لِمَا

(1) سورة النساء، الآية: 135.

(2) الطارف من المال المستفاد حديثا، أما التليد والتالد فهو المال ذو الأصل القديم.

(3) مجمع الأمثال، الجزء الثاني، ص: 313، والمثل بالصيغة التالية «يسر حسوا في ارتغاء».

(4) سورة التوبة، الآية: 109.

(5) الزج: حديد أسفل الرمح وتجمع على زجاج بالكسر.

(6) يشير الكاتب إلى عمر بن عبد العزيز الخليفة الورع الذي توفي سنة 101هـ وكذلك إلى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان واليا على الكوفة في عهد عبد الملك بن مروان وقد اشتهر بشدة سفكه للدماء، انظر مروج الذهب 3/ 192، تاريخ ابن الأثير 5/ 22.

(7) سورة فاطر، الآية: 12.



نَسْتَصْعِبُ مِنَ التَّقَاطُعِ وَالاخْتِلَاف، وَنَحْنُ إِذَا بَايَعْنَا رَجُلاً وَاحِداً لَا نَزْوَرُّ عَنْهُ وَلَا نَمِيلُ، وَلَا يَطْمَحُ بِنَا إِلَى الخِلَافِ عَلَيْهِ رَجَاءٌ ولَا تَأْمِيل، وَإِنَّمَا نَحْنُ بِوُلَاةِ الحَقِّ مُعْتَقِدُون، وَأَثْوَاب الاتِّفَاقِ مُشْتَمَلُون وَمُرْتَدُون، وَعَنْ أَسْبَاب التَّقَاطُعِ مُنْقَلِبُونَ وَمُرْتَدُّون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1] وَمِنْ بَيْنِ تَخَلُّفِكَ وَفَسَالَتِك، مَا شَهِدَ بِهِ عَلَيْكَ تَنَاقُضُكَ أَثْنَاءَ رِسَالَتِك، حَيْثُ وَصَفْتَنَا أَوَّلاً بِالعَدْلِ وَالدِّين ونَعَتَّنَا بِالسِّيَاسَةِ للرَّعِيةِ والتَّهْدِين، ثُمَّ دَعَوْتَنَا أَنْ نَخْلَعَ عَنِ الطَّاعَةِ يَداً، وَمَا نَرَاكَ اعْتَقَدْتَ ذَلِكَ عَلَيْنَا إِلَّا نِعْمَةً وَيَداً:

أَعِدْ نَظَراً يَا عَبْدَ قَيْسٍ لَعَلَّمَا ... أَضَاءَتْ لَكَ النَّارُ الحِمَارَ المُقَيَّدَا[2]

فَيَا للنَّاسِ لَلْعَجَبِ العُجَابِ، هَذِهِ غَايَةُ الظُّلْمِ الَّذِي لَيْسَ بِمُنْقَشِعٍ وَلَا مُنْجَاب، أَجَلْ فَإِنَّك فِي تِلْكَ الرِّسَالَةِ مِنَ الامْتِنَان وَالإِنْعَام، كَإِلِّ[3] السَّقْبِ من [رَأْلِ] النَّعَام، [وَمَا أَنْتَ][4] إِلَّا الإِفْكُ جَاءَ بِزُورِهِ وَمَيْنِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَصِمَّنَا بِدَرَنِهِ وشَيْنِه، وَهَذَا هُوَ الصَّغَارُ بِعَيْنِه[5]، ضَعُفَ المَطْلُوبُ والطَّالِب[6]، وَخَاسَ [مَنْ] بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعالِب[7]. وَإِلَى هَذَا أَيُّهَا الفَاجِرُ المَغْرُور، الَّذِي جَرَى مِنْهُ مَجْرَى الدَّمِ شَيْطَانُه الغَرُور، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ

---

(1) سورة الزخرف، الآية: 22.

(2) البيت من بحر الطويل، وهو للفرزدق. انظر ديوانه، ص: 213، وشرح شواهد المغني 1/ 318.

(3) الإل: المشي المسرع. هذا عجز بيت لحسان وتمامه:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ ... كَإِلِّ السَّقب مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ

(4) خرم بالأصل.

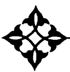
(5) صدر بيت وتمامه:

هَذَا هُوَ الصَّغَارُ بِعَيْنِهِ ... لَا أُمَّ لِي إِنْ كَانَ ذَاكَ وَلَا أَبُ

(6) مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، سورة الحج، الآية: 71.

(7) مأخوذة من قول بعض الصحابة:

أربٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ ... لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ



﴿ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(1) هِيَ سِجْنُ المؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ فَإِنَّمَا تَخَيَّل فِي فَاسِدِ ظَنِّكَ أَنْ تَنْقُلَنَا مِنْ سِجْنِنَا إِلَى جَنَّتِك، أَوْ مِنْ جَنَّتِنَا إِلَى سِجْنِكَ فنكُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾(2).

فَقِفْ فِي حَالَتَيْ وِرْدِكَ وَصَدَرِكَ وَقْفَةَ العَيْرِ، وَغُضَّ الطَّرْفَ [إِنَّكَ مِنْ نُمَيْر(3)، وَمَنْ لَكَ بِبَاهِلَةَ(4) بَلْهَ عُمَيْر. لَسْنَا وَالحَمْدُ لِلَّهِ مِمَّنْ يُقَعْقَعُ لَهُ بِشَنَان(5)، وَيُقَادُ إِلى مَيْدَانِ البَاطِلِ بِزِمَامٍ مِنَ الغُرُورِ وَعِنَان؛ وَمِنْ أَوْجَبِ مَا يُصَرَّحُ لَكَ بِهِ الآن، أَنَّ هَلَاكَكَ قَد أَزِفَ وَآن، لأَنَّا إِذَا أَخْبَرْنَا سَيِّدَنَا الإِمَامَ بِكِتَابِكَ الذَّمِيم، وَذَكَرْنَا لَهُمْ جُرْمَكَ عَلَى فَسَادِ ذَاتِ بَيْنِنَا بِالجِدِّ الصَّمِيم، أَمَدُّونَا لِغَزْوِكَ بِجُيُوشٍ تَرْجِعُ عَنْهَا خَاسِئَةً عُيُونُ النَّاظِرِين، فَإِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَتِكُمْ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾(6). فَتَنَبَّهْ وَنَبِّهْ مَنْ وَرَاءَكَ وَجَمِّعْ مَحَاشَكَ يَا يَزِيد(7)، وَنَادِ فِي قَوْمِكَ هَلْ مِنْ مَزِيد(8) إِنْ نَفَعَ المَزِيد؛ فَكَأَنَّكَ بِجُيُوشِ اللهِ تُبَادِرُكَ مُبَادَرَةَ السَّيْلِ الحَدُورِ فِي التَّسَرُّعِ وَالتَّصْمِيم، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾(9) فَاجْعَلْ هَذَا الكِتَابَ حَاجِزاً بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، وَاطْوِ عَنَّا زُورَكَ وَمَيْنَكَ، فَلَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَصَلَبْنَا رَسُولَكَ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ،

(1) سورة آل عمران، الآية: 185، وسورة الحديد، الآية: 20.

(2) سورة الحج، الآية: 11

(3) مقتبس من قول جرير:

وَغُضَّ الطَّرْفَ أَنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْباً بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

ديوانه، ص: 75.

(4) باهلة: قبيلة يضرب بها المثل في اللؤم، انظر كتاب حمد الجاسر «باهلة المفترى عليها».

(5) الشن: القربة الخلق وتجمع على شنان وفي المثل: «لا يقعقع لي بشنان»، قال النابغة:

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ ... يُقَعقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنّ

(6) سورة الصافات، الآية: 177.

(7) من قول النابغة:

جَمِّعْ مَحَاشَكَ يَا يَزِيدُ فَإِنَّنِي ... أَعْدَدْتُ يَرْبُوعاً لَكُمْ وَتَمِيمَا

(8) مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. سورة ق، الآية: 30.

(9) سورة الذاريات، الآية: 42.



وَلَأَرَيْنَاكَ فِيهِ بَطْشَةَ أَبِي الأَشْبَالِ بِالسَّخْلِ[1] وَلَكِنْ إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ عُدْنَا لَهَا، وَنَالَهَا مِنَ النَّعْلِ مَا يَحُلُّ عُقَدَهَا إِذَا نَالَهَا[2]، وَقَدْ أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

وَكَتَبَهُ فِي مُنْتَصَفِ ذِي القِعْدَةَ عَامَ أَرْبَعَةٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَة.

وَكَتَبَ أَيْضاً يَرُدُّ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ إِشْبِيلِيَّةَ[3] وَقَدْ كَتَبَ يَنْقُدُ عَلَى القَاضِي أَبِي الوَلِيدِ[4] بَعْضَ أَحْكَامِهِ:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5] ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[6]. أَجَلْ أَيُّهَا الجَارِي فِي مَيْدَانِ الهَذَيَانِ مِلْءَ عِنَانِهِ، المُقَعْقِعُ لِمَنْ لَيْسَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ بِشِنَانِه[7] السَّاكِتُ أَلْفاً، النَّاطِقُ خَلْفاً[8]، الَّذِي تَبَدَّلَ مِنْ نَصِيبٍ خَصِيبٍ، وَمَتَاعٍ، ذِي امْتِنَاعٍ، بِحَظٍّ، فَظٍّ، وَسَهْمٍ، جَهْمٍ، بَرَاقِشُ بِجَهْلِهَا دَلَّتْ عَلَى أَهْلِهَا[9]، والدُّرَيْصُ أَضَلُّ نَفَقَه[10]، فَلَا أَرْشَدَهُ اللهُ وَلَا وَفَّقَه.

---

(1) أبو الأشبال: الأسد. والسخل: جمع سخلة هي ولد الشاة من المعز والضأن.

(2) مثل عربي معروف. ومنه قول الشاعر:

إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ عُدْنَا لَهَا ... وَكَانَتِ النَّعْلُ لَهَا حَاضِرَهْ

(3) لعل هذا الإشبيلي هو أبو الحسن علي ابن خروف الحضرمي الإشبيلي وهو من تلاميذ ابن رشد. ذكر ابن عبد الملك أنه كان كثير العناية بالرد على الناس ورد على بعض شيوخه ومنهم ابن رشد. الذيل 5/ 320. برنامج الرعيني، ص: 81.

(4) يشير إلى الفيلسوف أبي الوليد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة المتوفى سنة 595هـ.

(5) سورة البقرة، الآية: 43.

(6) سورة الصف، الآية:3.

(7) انظر الصفحة السابقة، الهامش رقم:5.

(8) مثل معروف انظر الميداني.

(9) في المثل العربي:«على أهلها دلت براقش» ويروى على أهلها تجني براقش، قال الشاعر:

لَمْ تَكُنْ عَنْ جِنَايَةٍ لَحِقَتْنِي ... لَا يَسَارِي وَلَا يَمِينِي جَنَتْنِي

بَلْ جَنَاهَا أَخٌ عَلَيَّ كَرِيمٌ ... وَعَلَى أَهْلِهَا بَرَاقِشُ تَجْنِي

اللسان: «برقش».

(10) مثل عربي يضرب لمن أخطأ حجته. الميداني والتاج.



أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ، وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تُجْرِ لَهُ فِي رُقْعَتِكَ ذِكْراً، والصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَرُبَّمَا لَمْ تُعْمِلْ فِيهَا فِكْراً، والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِّ وَلَا أَدْرِي لِمَ نَبَذْتَهُ ظِهْرِيّاً[1] وَالدُّعَاءِ لِخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ومَا اقْتَنَيْتَ مِنْهُ أَثَاثاً وَلَا رِيّاً[2]. حَسْبُكَ أَنْ جِئْتَ بِفَصْلٍ، فَسْلٍ، وَسِفْرٍ، صِفْرٍ أَوْعَبْتَ بِهِ الشَّرَّ فِي زَادِكَ[3]، وَنَبَّهْتَ عَلَى صِفْرِ مَزَادِكَ، وَأَوْرَدْتَ الهَذَيَانَ نَسَقاً، وَكُنْتَ كَمَنْ أَسَاءَ رَعْياً فَسَقَى[4] وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي رَبَأَ بِقَدْرِ الحَمْدِ وَالصَّلَاة والرِّضَا وَالدُّعَاء، عَنْ أَنْ يُدَنِّسَهَا دَرَنُ ذَلِكَ الوِعَاء، وتَبّاً لَهَا مِنْ رُقْعَةٍ أَرْهَقَتْكَ مِنْ أَمْرِكَ عُسْراً ﴿وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[5] فَدَعْنَا مِنْ أَمْرِ عُبَيْد، وَخِلَافِهِ لِشِيَمِ عَمْرِو بْنِ عُبَيْد، وَانْظُرْ إِلَى وِفَاقِكَ لِشِيَمِ ابْنِ قُرَيْعَةَ وَابْنِ عُبَيْد، جَعْجَعْتَ وَمَا طَحَنْت، وَتَخَيَّلْتَ أَنَّكَ تُعْرِبُ مِنْ حَيْثُ لَحَنْتَ، وجِئْتَ بتَقْسِيمٍ وَتَفْصِيلٍ، كِلَاهُمَا لَا يَرْجِعُ إِلَى رَوِيَّةٍ وَلَا تَحْصِيلٍ.

أَمَّا مَا وَقَعَ عَلَيْهِ إِصْفَاقُ ذَلِكَ الفَرِيقِ وَإِجْمَاعُه، فَحَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُه، لَيْتَ شِعْرِي مَاذَا عَلَى الحَقِّ مِنْ قَوْمٍ أَبْدَوْا عِنَاداً، وَأَوْرَوْا فِي تَلَهُّبِ الشَّمْسِ زِنَاداً، تَعْساً لَهُمْ هَلَّا الْتَزَمُوا الاقْتِصَاد، وَعَلِمُوا أَنَّ العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أَنْ تُصَاد[6]، وَتَرَكُوا الأَخْذَ فِي أُسْلُوبِ التَّعْلِيل، وَمَا دَرَوْا أَنَّ النَّهَارَ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الدَّلِيلِ[7]، أَلِلْقَاضِي أَبِي الوَلِيدِ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾. سورة آل عمران، الآية:187، سورة هود، الآية:92.

(2) من قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَـٰثًا وَرِءْيًا﴾. سورة مريم، الآية: 74.

(3) من قول الشاعر الخريمي:

الخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ ... وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَبْتَ مِنْ زَاد

(4) مثل عربي مشهور. نشوة الطرب2/ 788.

(5) سورة الطلاق، الآية:9.

(6) مقتبس من قول أبي العلاء المعري: (شروح سقط الزند6/ 553).

أَرَى العَنْقَاءَ تَكْبُرُ أَنْ تُصَادَا ... فَعَانِدْ مَنْ تُطِيقُ لَهُ عِنَادَا

(7) قال المتنبي:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الإِفْهَامِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيل



يَعْرِضُونَ؟ وَلِأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَةِ يَعْتَرِضُون؟ وَهَلْ ذَلِكَ فِي مَا تَقْتَضِي حَقِيقَةُ النَّظَرِ، إِلَّا كَمَا تَعَاطَى الفَرَزْدَقُ مُسَاجَلَةَ الأَخْضَر[1]، والحُرُّ يُرْمَى بِهِ الرَّجَوان[2]، وَعَرَارٌ لَا يُرَادُ بِهِ الهَوَان[3]، مَنْ عَاشَ رَجَباً رَأَى عَجَباً[4] كَيْفَ يُجَارَى البَرْقُ بِسُكَّيْتٍ يحجلُ في قيد الفَشَل، أو يُكاثَرُ مَاءُ البَحْرِ بِصُبَابَةِ الوَشَل، أم كيف يروع الأسد بِفَزِّ الغَيْطَلَة، أو تفاخرُ زَمْزَمُ بالبِئْرِ المُعَطَّلَة. وأَمَّا الَّذِينَ جَالُوا فِي تَصْرِيحٍ، صَرِيحٍ، وَتَعْرِيضٍ، عَرِيضٍ، فَتِلْكَ ضَرِيبَةٌ مُرِيبة... تعليلا وتَوْجِيهاً، فبرأهُ اللهُ ممَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً، الحَقُّ أَبْلَجُ، والبَاطِلُ لَجْلَج، وفي الصَّبَاح يُجِنُّ الظَّلَامُ وَيَكْفُرْ، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[5].

وَأَمَّا أَنْتَ يَا مَنْ يَنْتَحِلُ هذيان البعير ويقتل في الذروة والغارب وليس له بعير فَقَدْ جِئْتَ فِي نَقْضِ تِلْكَ الثَّلَاثِ مَسَائل بِفُصُول، لَا عَنْ فُرُوعٍ أُخِذَتْ وَلَا مِنْ أُصول، وَلَعَلَّكَ أَخَذْتَ عِلْمَكَ عَنْ زُفَر، الَّذِي أَجَازَ الوُضُوءَ بِالنَّبِيذِ فِي السَّفَر[6] لَا مَاءَكَ أَبْقَيْتَ، وَلَا دَرَنَكَ أَنْقَيْت، بِفِيكَ الكِثْكِث[7]، مَا لِحِجَاجِكَ كَمَا تَقُولُ مُنْكِث، هَلَّا أَفْصَحْتَ بِالحَقِّ وَبَرْهَنْتَ

---

(1) الأخضر هو الفضل بن العباس بن عتبة اللِّهبي وهو الذي يقول:

وَأَنَا الأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي ... أَخْضَرُ الجِلْدَةِ فِي بَيْتِ العَرَبِ
مَنْ يُسَاجِلْنِي يُسَاجِلْ مَاجِداً ... يَمْلأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الكُرَبِ

(2) جاء في أساس البلاغة وفي مثل: لا يرمي به الرجوان، وأصله الدلو يرمي به رجوا البئر قال زهير بن أبي سلمى:

مَطَوْتُ بِدَفْنِ الأَرْضِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... أَخُو سَبَبٍ يُرْمَى بِهِ الرَّجَوَانِ

(3) عَرار بفتح العين هو ولد عم بن شأس الأسدي وفيه يقول والده:

أَرَادَتْ عَرَاراً بِالهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ ... عَرَاراً لَعَمْرِي بِالهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمْ
فَإِنَّ عَرَاراً إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ ... فَإِنِّي أُحِبُّ الجَوْنَ ذَا المَنْكِبِ العَمَمْ

(4) من المثل العربي المعروف: «عش رجبا تر عجبا». مجمع الأمثال رقم 1284.

(5) سورة الكهف، الآية: 29.

(6) أجاز ذلك بعض الحنفية، وقد ذكر هذه المسألة ابن رشد في البداية.

(7) الكثكث: دقاق التراب وفتات الحجارة ويقال: «بفيه الكثكث»، كأنه دعاء يقصد به الذم.



عَلَيْه، أَمْ أَنْتَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[1]، وَقَدْ ادَّعَيْتَ أَنَّكَ حَطَطْتَ رَحْلَكَ لَيْلاً، وَالنَّوْمُ يَسْحَبُ عَلَى جُفُونِكَ ذَيْلاً، ولو أَنِّي حَمَلْتُكَ على صِدقِ الكَلَام، لَثَنَيْتُ عنكَ أَعِنَّةَ المَلَام، وَلَأَخَذْتُ بما وَرَدَ في صَحيحِ المَسْنُون، مِنْ رَفْعِ القَلَمِ عَنِ النَّائِمِ وَالصَّبِيِّ وَالمَجْنُونِ[2]، وَلَقُلْتُ لَعَلَّهُ إِنَّمَا كَتَبَ ذَلِكَ التَّخْلِيطَ في المَنَام، فَارْتَقَى أَتْمَكُ[3] غَارِب فِي الهَذَيَانِ وَسَنَام، وَجعْجَعَة عن الشِّمَالِ وَاليَمِينِ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾[4]. لَكِنِّي لَا أَنْسُبُكَ لِشَيْءٍ مِنْ صِدْقِ المَقَالِ، وَلَا أَعْبأُ بِمَا هُنَالِكَ مِنَ القِيلِ وَالقَالِ، فَأَنَّى لَكَ بِالإِعْفَاءِ، مِنْ هَذَيَانِ ذَلِكَ الإِغْفَاءِ، أَوْ بِالإِقَالَةِ، مِنْ هَذْرِ تِلْكَ المَقَالَةِ، لَكِنْ خُذْهَا عَلَى ظَهْرِ الغَيْبِ، وَبُؤْ بِشِسْعِ نَعْل كُلَيْب[5] وَإِنْ شِئْتَ فَكُنْ مِمَّنْ اشْتَمَلَ ببرودِ ذلك المَذْهبِ الفَسْلِ وَارْتَدَى ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[6] ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[7].

وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ الإِخْوَانِ وَقَدْ عَتَبَ عَلَيْهِ المَكْتُوب إِلَيْهِ لِكَلَامٍ بَلَغَهُ عَنْهُ:

أَدَامَ اللهُ مُدَّتَكَ تُفَرِّقُ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ، وَتُبَاينُ الحَالِي من العَاطِلِ، وَتَميِّزُ المُغْرِي مِنَ النَّصِيح، بِذِهْنٍ يُجْلِسُ الأَعْجَمَ فِي مَحَلِّ فَصِيح، وَيَسْرِي إِلَى مَيتِ الصِّدْقِ بِقُوَّةِ المَسِيح، وَلَا زَالَ مَجلسُكَ مَسْرحاً لِحُسْن الذِّكْرِ وَمَجَالاً، وَمَيْدَاناً تُقَالُ فِيهِ غَرَائِبُ الفَضْلِ ارْتِجَالاً، حَتَّى لَا تَصْطَفِي لِوَحْيِ الأَخْبَارِ إِلَّا رُوحاً أَمِيناً، وَلَا تَدَّخِرُ لِتِلْكَ الأَسْرَارِ إِلَّا عِلْقاً ثَمِيناً، وَلَا تَقْبَلُ مِنْ حَلَّافٍ هَمَّازٍ حَلِفاً ولا يَمِيناً.

سَلَامٌ تَنفحُ منه رَوَائِحُ الخلُوصِ طَيِّبَةَ العَبَق، وَتَرْكَبُ إِلى مَعَاطِب الوَفَاءِ طَبَقاً عَنْ طَبَق، مِنَ المُسْتَظْهِرِ بِوِدَادِكُم، المُعْتَرِضِ شَجَى فِي لَهَوَاتِ أَضْدَادِكُمْ:

---

(1) سورة فصلت، الآية: 5.
(2) مقتبس من الحديث الشريف: «رُفِعَ القَلَمُ عَنْ ثَلَاثَة».
(3) أتمك: السنام، كيفما كان وقيل المرتفع منه وتمك السنام اكتنز وناقة تامك عظيمة السنان.
(4) سورة يوسف، الآية:44.
(5) مثل عربي انظر عنه نشوة الطرب2/ 628.
(6) سورة طه، الآية: 134.
(7) سورة طه، الآية:46.



أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِيَ بِغْضَةً لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْل ذلِكَ شَافِعُ[1]

فَمَنْ عَذِيرِي مِنْ طَائِفَة، بِالتَّوْرِيشِ[2] طَائِفَة، ذَاتِ أَمَارَة[3] بِالسُّوء أَمَّارَة[4] زَخْرَفَتْ بِأَمرٍ يَقْتَضِي خَرْقَ المُعْتَادِ، وَزَحَفَتْ بِمُحَالٍ مِنْ هذا المثل دُونَهُ خَرْطُ القَتَادِ[5]، جَذَبَتْهَا مِنْ سُوءِ النِّيَّةِ أَشْطَان، وَأَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَتِهَا فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَان، وَهَلْ هِيَ إِلَّا قَالَةٌ وَرَاءَهَا العَيب، وَكِتَابٌ مِلْؤُهُ شَكٌّ وَرَيْب، وَيَا عَجَباً حَتَّى كُلَيْب[6]، مَا شِئْتَ مِنْ غُوَيْرٍ[7] وَكُسَيْر، وكَلَام أَلْسِنَةٍ ﴿حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾[8]، صَرَفُوا إِلَى نَقْضِ المُبْرَمَاتِ آمَالَهُم، وَوَافَوْا عَلَى الشَّرِّ شِبَاهَهُمْ وَاحْتِمَالَهُم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[9] هَيَّؤُوا لِطَيَرَانِ الهَذَيَانِ جَناحاً كَسِيراً، وَرَأَوْا وَبِئْسَ مَا رَأَوْا أَنْ يَجْعَلُوا التَّبْرِيزَ تَقْصِيراً، فَارْتَدَّ طَرْفُ تَوَهُّمِهِمْ عَنْ سَمَاءِ التَّقْصِيرِ حسيراً[10]، فَإِذَا رَأَيْتَهُمْ يَسْتَدِرُّونَ ظَنَّ السَّوْءِ وَيَمْتَرُونَ، وَيَأْرِشُونَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لَا يَفْتُرُون ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[11] وَالمُبَلِّغُ أَحَدُ الشَّاتِمَيْنِ[12]، قَوْلَة لَا زَوْرٌ وَلَا مَيْن، وَأَنَا أَقُولُ لِتِلْكَ الفِئَة وَإِنْ

---

(1) البيت من بحر الطويل، وهو للنابغة من قصيدة مطلعها:

عَفَا ذُو حُسًا مِنْ فَرْتَنَى فَالفَوَارِعُ فَجَنْبَا أَرِيكٍ فَالتِّلَاعُ الدَّوَافِعُ

(2) التوريش: التحريش والإفساد بين الناس.

(3) أمارة: علامة.

(4) أما أمارة الثانية فهي بمعنى تأمر ويشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. سورة يوسف، الآية:53.

(5) هذا من المثل: دونه خرط القتاد.

(6) من قول الفرزدق:

فَيَا عَجَباً حَتَّى كُلَيْبٌ تَسُبُّنِي كَأَنَّ أَبَاهَا نَهْشَلٌ أَوْمُجَاشِعُ

(7) الغورة والغوير: ماء لكلب في ناحية السماوة وفي المثل «عسى الغوير أبؤسا» وربما تكون من المثل:عوير وكُسير.

(8) سورة الأحزاب، الآية: 19.

(9) سورة الأحزاب، الآية: 19-20.

(10) مقتبس من قوله تعالى:﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ سورة الملك، الآية:4.

(11) سورة يونس، الآية: 59.

(12) مثل عربي مشهور ومعروف.



وَإِنْ ارْتَفَعَ فِي الزُّورِ مَنَارُهَا، وَانْطَبَعَ بِسِيمَا الإِفْكِ وَالتَّقَوُّلِ دِينَارُهَا، سَمْنُهَا فِي أَدِيمِهَا[1] وَنِجَارُهَا نَارُهَا، إِنَّمَا هِيَ آنِيَةٌ رَشَحَتْ بِمَا تَحْوِيهِ، وَأَلْسِنَةٌ أَعْرَبَتْ عَمَّا تُجِنُّهُ صُدُورُهَا وَتَطْوِيهِ، بَلَغَتْ بِالقُوَّةِ وَالحَوْلِ، وَرَمَتْ فِي الحَنِيفِيَّةِ بِالبَقَرَةِ عَلَى رَأْسِ الحَوْلِ، وَإِنْ تَمَاهَلْتَ لَهُمْ أَيُّهَا القَلْبُ السَّلِيم، وَأُوذِيتَ كَمَا أُوذِيَ مُوسَى الكَلِيمُ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2]، فَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليَقِينُ[3]، وَمِثْلُكَ مَنْ أَفْصَحَ بِإِبْطَالِ المُحَالِ فَأَسْمَعَ، وَأَصَاخَ لِدَاعِي الفَضْلِ وَاسْتَمَع، وَأَنَا... إليك من فَسْلٍ يُخَادِعُ، وَوُجُوه قُرُودٍ تَبْتَغِي مَنْ تُجَادِعُ.

وَكَتَبَ أَيْضاً إِلَى [الحَكِيمِ] أَبِي بَكْرِ بْنِ يَحْيَى بْنِ إِبْرَاهِيمَ المُرْسِي][4]: [الكامل]

أَيَّ المَكَارِمِ والعُلَى لَمْ أُحْرِزِ ... أَمْ أَيَّ وَعْدِ فَضِيلَةٍ لَمْ أُنْجِزِ
وَلِيَ المَفَاخِرُ، قَضُّهَا بِقَضِيضِهَا ... أُعْزَى إِلَيْهَا أَوْ لِمَجْدِي تَعْتَزِي
نَامَ الأَنَامُ عَنِ العَلَاءِ وَلَيْتَنِي ... أَحْرَزْتُ مِنْهَا مِلْءَ رَغْبَةِ مُحْرِزِ
هَلْ فِي البَرِيَّةِ مُنْكِرٌ لِفَضَائِلِي ... أَوْ طَاعِنٌ فِي مَجْدِيَ المُتَعَزِّزِ
أَعْشَيْتُ سَبَّاقَ البَيَانِ وَرُبَّمَا ... أَعْطَيْتُ رَاحَتَهُ عِنَانَ مُبَرِّزِ
يَمْضِي فَيُعْشِي للبُرَاقِ غُبَارُهُ ... وَعَجَاجُهُ، وَلَعَلَّهُ لَمْ يَحْفِزِ
قُدْتُ القَوَافِيَ شُرَّداً أَوْ ذُلَّلاً ... تَنْحَطُّ لِي، وَلِمَنْ عَدَانِي تَنْتَزِي
فَأَنَا إِذَا أَطْنَبْتُ أَبْرَعُ مُطْنِبٍ ... وَإِذَا أَنَا أَوْجَزْتُ أَبْلَغُ مُوجِزِ
وَيَهُبُّ فِكْرِي لِلْوَلِيِّ بِسَجْسَجٍ[5] ... وَيَهُبُّ فِكْرِي لِلْعَدُوِّ بِهَزْهَزِ[6]

(1) هذا من المثل:«سمنكم هريق في أديمكم».
(2) سورة البقرة، الآية: 136.
(3) في المثل: «عند جهينة الخبر اليقين»، مجمع الأمثال1/ 394.
(4) الصواب حذف بن فالمذكور اسمه يحيى وكنيته أبو بكر،انظر برنامج الرعيني ص:64 فترجمته هناك.
(5) السجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبر، وفي الحديث «أنهار الجنة سجسج» أي معتدل لا حر فيه ولا قر.
(6) الهزهزة: تحريك الرأس، وتطلق ويراد بها البلايا والحروب بين الناس.



وَلَرُبَّمَا فُقْتُ الوَرَى بِمُفَقَّرِي ... وَلَرُبَّمَا جُزْتَ المَدَى بِمُرَجَّزِي
وَشَدَخْتُ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ عَجَائِبِي ... وَسَحَبْتُ ذَيْلَ السَّبْقِ غَيْرَ مُعَجَّزِ
يَا مَنْ يُلَاحِظُنِي بِطَرْف مُنْكَرٍ ... أَيَكُونُ نُورُ الصُّبْحِ غَيْرَ مُمَيَّزِ؟
يَا حَسْرَتِي لِقَصِيدَةٍ أَرْسَلْتُهَا ... نَحْوَ الحَكِيمِ بِكُلِّ سِحرٍ مُعْجِزِ
أَرْسَلْتُهَا مُسْتَهْزِئًا مِنْ سُخْفِهِ ... أَبْغِي لَدَيْهِ وَعْدَ غَيْرِ المُنْجِزِ
أَبْغِي مُرَاجَعَةً وَأَعْلَمُ أَنَّهَا ... لَهْوُ المُقِيمِ وَضُحْكَةُ المُسْتَوْفِزِ[1]
[فَبَدَا عَلَيْهِ بِهَا][2]: فَخَارُ تَعَزُّزٍ ... هَيْهَاتَ مِنْ وَغْدٍ فَخَارُ تَعَزُّزِ
يَا لَائِمًا يحْيَى عَلَى تَقْصِيرِهِ ... هَلْ تَكْتَفِي شَاةٌ بِلَيْثٍ مُجْهِزِ؟
وَلَقَدْ غَدَوْتُ مِنَ البَيَانِ مُخَوَّلاً ... فِي حَيْثُ أَضْحَى مِنْهُ أَعْوَزَ مُعْوِزِ
إِيهِ أَبَا بَكْرٍ نِدَاءَ تَعَرُّضٍ ... جَمِّعْ مِحَاشَكَ يَا مُجَعْجِعُ وَابْرُزِ[3]
فَإِذَا رَأَيْتَ قُصُورَ بَاعِكَ فِي العُلَى ... أَلْقِ القِيَادَ لِأَلْمَعِيٍّ هِبْرِزِ[4]
واعْلَمْ بِأَنَّ الشِّعْرَ لَيْسَ حِيَاكَة ... وَاللَّهْذَمَ اللمَّاعَ ليس بمَرْكَزِ
يَا هَلْ يُسَاوِي عَاقِلٌ غَسَقَ الدُّجَى ... وَعُبَابَهُ الطَّامِي، بِنُقْطَةِ مَرْكَزِ

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا المُسَلِّطُ الَّذي هُوَ أَحَقُّ العَالمِ بالتَّعْنِيفِ وَأَوْلَاه، والخَصِيُّ الذِي يَفْخَرُ بِمَتَاعِ مَوْلَاه، الذي أَعْظَمَ المُحَقَّرَ وَأَكْبَر، وعَبَس وَبَسَرَ[5] ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، وَنَظَمَ الهَذَيَانَ وَنَثَرَ، وَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤثَر، فَلَشَدَّمَا جَمَحَ بِكَ حِمَارُكَ، وَطَالَ انْقِيَادُكَ

---

(1) المستوفز: المسرع في مشيه
(2) خرم بالأصل
(3) مقتبس من قول النابغة:
جَمِّعْ مِحَاشَكَ يَا يَزِيدُ فَإِنَّنِي ... أَعْدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُمْ وَتَمِيمَا
والمحاش بالكسر القوم يجتمعون من القبائل يحالفون غيرهم.
(4) الهبرز: الأسد، وتطلق على المقدام في كل شيئ.
(5) مقتبس من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾. سورة المدثر، الآية: 22.



لِلأَمَانِي الكَاذِبَةِ وَإِيثَارُكَ، وَلَمْ تُدْرِك بالمُنَى ثِمَارُكَ، فَإِنَّكَ تَعَاطَيْتَ مَجَالَ الرِّجَال، وَسِجَالَ الارْتِجَالِ، فَلَشَدَّمَا جَاوَزْتَ قَدْرَكَ صَاعِداً، وَلَشَدَّمَا قربَتْ عَلَيْكَ مِنَ الأَنْجُمِ مَعَاهِداً وَإِلَّا فَالحَقُّ أَجْلَى وَأَوْضَح، وَالدَّرَنُ بِالمَاءِ يُنْضَح، رُمْتَ اقْتِحَامَ طَرِيقِي، وَلَسْتَ مِنْ فَرِيقِي، وَأَرَدْتَ اتِّبَاعِي، وَأَيْنَ انْطِبَاعُكَ من انْطِبَاعِي، وَقُوَّةُ طِبَاعِكَ مِنْ رِقَّةِ طِبَاعِي، وَقِصَرُ بَاعِكَ مِنْ طُولِ بَاعِي، وَعَلَى التَّحْقِيقِ فَلتشْرقَنَّ[1] سَائِمَتُكَ بِرِيقِ سِبَاعِي، فَاسْتَغْنِ عَنِ الإِسْرَاجِ والإِلْجَام، وَانْجُ نَجَاءَ الحَارِثِ بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ[2]، فَمَا أَنْتَ بِمَرْسُومٍ فِي دِيوَانِ الجِيَادِ وَلَا مَثْبُوت، لَكِنْ بَيْنَ مُقَصِّرٍ أَوْ مَكْبُوتٍ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[3] وَأَنَا الَّذِي ارْتَجَلَ، فَأَخْجَل، وَاقْتَحَمَ، فَأَفْحَم، وَرَوَى، فَرَوَى، وَبَرَزَ، فَبَرَّزَ، فَهَلَّا حِينَ كَبَا عَنْ جَوَادِي زَنْدُك، ونكسَ عَلَى صَعْدَةِ التَّوْفِيرِ بَنْدُكَ، ضَرَعْتَ إِلَيَّ عَلَى عَادَتِكَ، فِي إِبْدَائِكَ وَإِعَادَتِك، فَجَاوَبْتُ نَفْسِي عَنْ نَقْسِي[4]، وَنَحَلْتُهُ إِيَّاكَ، وَلَمْ أَدَعْ فِي المَعَاطِس دفَرَ[5] رَيَّاك فَلِيَ المَقُولُ، الأَطْوَلُ، وَالسَّاعِدُ، المُسَاعِدُ:

أَنَـا الَّـذِي نَظَـرَ الأَعْمَـى إِلَـى أَدَبِـي ... وَأَسْـمَعَتْ كَلِمَـاتِي مَـنْ بِـهِ صَـمَمُ[6]

---

(1) الشرق بالماء والريح ونحوهما كالغصن بالطعام، قال عدي بن زيد:

لَـوْ بِغَيْـرِ المَـاءِ حَلْقِـي شَـرِقٌ ... كُنْـتُ كَغَـصَّان بِالمَـاءِ اعْتِـصَارِي

(2) يشير إلى قول حسان بن ثابت في الحارث بن هشام:

إِنْ كُنْـتِ كَاذِبَـةَ الَّـذِي حَـدَّثْتِنِي ... فَنَجـوْتِ مَنْجَـى الحَـارِثِ بْـنِ هِـشَامِ

تَـرَكَ الأَحِبَّـةَ أَنْ يُقَاتِـلَ دُونَهُـمْ ... وَنَجَـا بِـرَأْسِ طِمِـرَّةٍ وَلِجَـا مِ

(3) سورة العنكبوت، الآية: 41.

(4) نقسي: مدادي؛ أي ما كتبت ودبجت.

(5) الدفر: النتن خاصة ولا يكون الطيب فيه البتة.

(6) البيت من بحر البسيط وهو للمتنبي. ديوانه، 323.



لَكِنْ أَنْتَ بِتَهَوُّرِكَ وَجُنُونِكَ، وَضُرُوبِكَ الحَسَدِيَّةِ وَفُنُونِكَ، أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ عَنْ وَجْهِ التَّحْقِيقِ مِنَ السَّافِرِينَ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] وَهَاكَهَا وَالوَقْرُ[2] أرفقُ منها بِأُذُنَيْكَ، فَإِنْ كُنْتَ ذَا طِبٍّ فَطِبَّ لِعَيْنَيْكَ:

وَإِنْ تَغْضَبُوا مِنْ قِسْمَةِ اللهِ بَيْنَنَا فَلَلَّهُ إِذْ لَمْ يُرْضِكُمْ كَانَ أَبْصَرَا[3]

وَلَهُ أَيْضاً الرِّسَالَةَ الَّتِي سَمَّاهَا: رِسَالَةُ «الزَّنْدِ الوَارِي فِي الرَّدِّ عَلَى النَّاقِدِ المُتَوَارِي» وَهِيَ هَذِهِ:

تَجِيشُ بِلَا شَيْءٍ شُيُوخُ مُحَارِبٍ وَمَا خِلْتُهَا كَانَتْ تَرِيشُ وَلَا تَبْرِي
ضَفَادِعُ فِي ظَلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ البَحْرِ[4]

مَثَلُكَ أَيُّهَا الغَاوِي مِنْ غَيْرِ نَبَأ، مَثَلُ المُعْرِضِينَ مِنْ أَهْلِ سَبَأ سَاعَدَهُمْ سِرْبٌ عفُور، وَاكْتَنَفَتْهُمْ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[5]، فَصَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّه، وَحقَّقَ فِي طُغْيَانِهِمَ مَا ظَنَّهُ، فَمَالَ عَنْ جَانِبِ ظِلٍّ غَيْرِ مُنْصَرِم، إِلَى كَنَفِ هَجِيرٍ كَالهَجْرِ مُضْطَرِم، وَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ[6]، أَوْ كَمِثْلِ قَرْيَةٍ كَانَتْ فِي مَحَطِّ رَحلِ الإِمْكَانِ، ومَلْقَى [رَكْبِ][7] سعدٍ يَسْتَنْبِطُ الماءَ مِن وَهَجِ البُرْكانِ، آمنةً مُطمئنةً يَأْتِيها رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كلِّ مَكَان، فَتَلَقَّتْ واجبَ الشُّكْرِ بالسِّينِ وَسَوْفَ، وَتَجَرَّدَتْ عَنْ أَمْثَالِ ثِيَابِ بَنِي عَوْف، فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوْفِ[8]، أَوْ كمثلِ قُبَّرَةٍ بِمَعْمَرٍ، سارحةً بينَ بَرْدِ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 89.

(2) ثقل في الأذن والسمع.

(3) البيت من بحر الطويل وهو لجميل بن معمر العذري في ديوانه وحماسة أبي تمام.

(4) البيتان من بحر الطويل وهما للأخطل برواية «تنق بلا شيء». العقد الفريد 2/ 468.

(5) سورة سبأ، الآية: 15.

(6) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾. سورة سبأ، الآيتان: 15-16.

(7) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(8) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ سورة النحل، الآية 112.



النَّدَى وظلِّ الخَمَر[1] خَلَا لها الجَوُّ، وامتدَّ أَمَامَهَا الدَّوُّ، فَبَاضَتْ وَصفرَتْ، واطمَأَنَّتْ وما نَفرتْ، وَوَرَدَتْ وَرَادَتْ، ونقرتْ مَا أَرَادَتْ[2] وقالتْ: إِنِّي وَإِنِّي، وكثيراً ما يورِّطُ صاحبَهُ التَّظَنِّي، حَتَّى إِذَا تَمَثَّلَ لَهَا العُقَاب، وَتَصَوَّرَ لَهَا فِي نَفَثَاتِهِ العِقَاب، عَلِمَتْ أَنَّ جَسَدَهَا بِحَدِّ كَلَامِهَا كَلِيم[3]، وتَلَتْ تُوَبِّخُ نَفْسَهَا ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[4] أَوْ كَمِثْلِ الهِرِّ، انْتَفَخَ وَهَر، وَرَدَّدَ ضُغَاءَهُ وَازْمَهَر، وَأَطَاعَ الغلَّ والحَسَدَ، فَقَالَ لَهُ: بَارِزِ الأَسَدَ، فَبَيْنَا هُو يَسْتَأْسِدُ، وَرَأْيُهُ فَاسِد، زَأَرَ الضِّرْغَام، وَالْتَقَى هُنَاكَ الشَّمَم والرغَام[5]، وَاخْتَلَطَ الهَمَلُ وَالمَرْعِي، وَنُعِي النَّاعِي وَالمَنْعِي، فَلَاذَ الهِرُّ بِالحُجْرَةِ وَالكُوى، وَقَالَ لِأَبِي غُبْشَان[6] عَلَيْكَ بالأَعْلَامِ والصُّوَى، وَأَيْقَنَ أَنَّهُ لا يُعْجِمُ بِالغَرْبِ[7] عود النَّبْعِ، وأن التَّطَبُّعَ عيالٌ على الطَّبْعِ، أَوْ كَمَثَلِ رَاكِبِ الكَوْدَنِ[8] العَاثِرِ، الذي لا يبينُ منه غيرُ رَسْمٍ دَاثِرٍ، أَجْرَاهُ بِالخَلَاءِ[9]، فَظَنَّهُ مِنَ النُّبَلَاء.............................. .. ..

.... وَبَعْدُ: أَيُّهَا الشَّاطِبِيُّ المُتَوَارِي عَلَيْنَا، الذِي حَسِبَتْ جَهَالَاتُهُ الصَّخْرَ لَيْنا، فَمَا أَظُنُّكَ شَعُرْتَ، أَيَّ نارٍ أَسْعَرْتَ، وَلَا إِخَالُكَ عَقَلْتَ، أَيَّ قيدٍ اعْتَقَلْتَ، وَلا أَحْسبُكَ عَلِمْتَ، بِأَيِّ حَدٍّ كلِمْتَ، أَعَرَفْتَ، بِمَا هَرَفْتَ، أَمْ قَدَرْتَ، بِما أَقْدَرْتَ، لَا

---

(1) الخمر: ما واراك من الشجر والجبال يقال توارى الصيد عني في خمر الوادي.

(2) مقتبس من قول طرفة بن العبد:

يَا لَكِ مِنْ قُبَّرَةٍ بِمُعَمَّرِ ... خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي

وَنَقِّرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِي ... قَدْ رُفِعَ الفَخُّ فَمَاذَا تَحْذَرِي

لَا بُدَّ يَوْماً أَنْ تُصَادِي فَاصْبِرِي

ديوانه، ص: 46.

(3) الكليم: الجريح وهو من كلمه يكلمه فهو كليم ومكلوم.

(4) سورة يوسف، الآية: 76.

(5) الشمم: الرفعة، والرغام: رمل مختلط بتراب ويدل على الذل والهوان لمن عفر جبينه به.

(6) أبو غبشان الخزاعي يقرب من المثل في الحمق والندامة.

(7) الغرب: الراوية التي يحمل عليها الماء وقيل هي الدلو العظيمة.

(8) الكودن: البرذون ويقال أيضا للفيل، قال الشاعر:

خَلِيلَيَّ عُوجَا مِنْ صُدُورِ الكَوَادِنِ ... إِلَى قَصْعَةٍ فِيهَا عُيُونُ الضَّيَاوِنِ

(9) مقتبس من المثل العربي: «كل مجر بخلاء يسر» مجمع الأمثال.



أَعَرَفْتَ، بِمَا هَرَفْتَ، أمْ قَدَرْتَ، بِما أَقْدَرْتَ، لَا جَرَمَ أَنَّكَ عَثَرْت، فِيمَا نَثَرْتَ، وَهَذَرْتَ، حَيْثُ اعْتَذَرْتَ، وَفَسَلْتَ، حينَ فَصلْت، وثقلْت، فيما نَقَلْت، وَتَقَطَّبْتَ، حِينَ خَطَبْت، وَقَصَّرْت، لمَّا انْتَصَرْت، وتَوَرَّطْت، فيما أَفْرَطْت، وَزَوَّرْتَ فِي الَّذِي صَوَّرْتَ:

كَالبَحْرِ يَشْتمُهُ الغَرِيقُ وَمَوْجُهُ   مِنْ فَوْقِهِ مُتَلَاطِمُ التَّيَّارِ(1)

[أُحَذِّرُكَ] وَأُعْلِمُكَ، أَنَّكَ طَغَى بِكَ قَلَمُك، وَصَوَّرَ لَكَ الغَاوِيَانِ فِكْرُكَ وَإِبْلِيس، وَهْمًا كُلُّهُ - لَوْ سَاعَدَ النَّظَرُ - تَزْوِيرٌ وَتَدْلِيسٌ، فَانْبَعَثْتَ تَرُدُّ عَلَى فَصْلٍ من رسالةِ الارْتِحَالِ والتَّعْرِيسِ، وَتَدْخُلُ بِالعَيْرِ على لَيْثِ العِرِّيس(2) وَقَدْ كَانَ طَالَ تَرَقُّبِي وَانْتِظَارِي، أَنْ يَنْهَضَ ذَلِكَ العَيْرُ نَحْوَ هَذَا الضَّيْغَمِ الضَّارِي، فَأَقُولُ، وَأَصُولُ، وَأَضْرِبُ بِالبَوَارِقِ وَهِيَ نُصُولُ. زَعَمُوا أَنَّهُ من جُمْلَةِ مَا زَيَّفْتَ، حِينَ جُرْتَ عَلَى نَفْسِكَ وَتَحَيَّفْتَ، كِنَايَتِي عَنْ شَاطِبَةَ بِأُمِّ صَخْر، وَخَلْعِي عَنْهَا بِذَلِكَ تَمِيمَةَ الفَخْر، فَشمخَ بِأَنْفِكَ الأَجْدَعِ القَلَقُ وَالضَّجَر، وَاحْتَجَجْتَ بِأَنَّ اسْمِي صَفْوَانُ وَهُوَ الحَجَر، بُعْدَكَ وَوَيْلَكَ، أَعْلَى هذهِ الأَرْضِ تَسْحَبُ ذَيْلَك، لَشَدَّمَا بَاعَدْتَ بين الدُّرَّةِ وَالنَّحْر، وَغَفَلْتَ عَنْ كِنَايَتِي بِأَبِي بَحْر، وَهَلْ صَفْوَانُ هَا هُنَا إِلَّا البَحْرِ؛ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِصَفَائِهِ، فَنَبِّهْ طَرْفَكَ الضَّرِيرَ مِنْ سِنَةِ إِغْفَائِهِ، عَذَرْتُكَ فَإِنَّ عِلْمَ اللُّغَاتِ، مِنَ المُطَّرِحَةِ لَدَيْكَ وَالمُلْقَاة، أَلَمْ تَسْمَعْ صُمَّ سَمْعُكَ، وَلَا لُمَّ جَمْعُكَ، إلى قولِ قريعِ الجَزِيرَةِ وَفَحْلِهَا، المَشْهُورِ بِابْنِ مَرْجِ كُحْلِهَا(3):

قَرِيضِي رَائِقٌ بِكَ لَائِقٌ   لأَنَّكَ بَحْرٌ وَهْوَ دُرٌّ وَمَرْجَانُ(4)

وَفِي مُرَاجَعَتِهِ أَقُولُ، عَلَى مَا يُوجِبُهُ الإِشْفَاقُ المَعْقُولُ، وَيَقْتَضِيهِ النَّصُّ اللُّغَوِيُّ المَنْقُولُ:

---

(1) البيت من بحر الكامل.

(2) العريسة والعريس: الشجر الملتف وهو مأوى الأسد والحيوانات، وفي المثل: «كمبتغي الصيد في عريسة الأسد».

(3) شاعر أندلسي مشهور ترجمته في: التكملة، ص: 636، برنامج شيوخ الرعيني ص: 208، الذيل والتكملة6/ 115-116، 6/ 210، المحمدون من الشعراء، ص: 204.

(4) البيت من بحر الطويل.



صَدَقْتَ، إِذَا لَمْ يُصْفِ صَفْوَانُ وُدَّهُ فَلَيْسَ بِصَافِي الوُدِّ فِي النَّاسِ إِنْسَانُ
هَلِ النُّونُ فِي صَفْوَانَ إِلَّا مَزِيدَةٌ، مِنَ الصَّفْوِ وَالإِخْلَاصِ يُشْتَقُّ صَفْوَانُ[1]

وَأَمَّا كِنَايَتِي بِأُمِّ صَخْرٍ حِينَ كَنَيْت، فَغَيرَ مَا تَعْنِي بِهِ عَنَيْت، إِنَّمَا كَنّيْت عَن أَكُفِّ بَنِيهَا بِالصَّخْرِ، وَضَرَبْتُ ذَلِكَ مَثَلاً لِبُخْلِهِم وَلَا فَخْرَ، عَلَى أَنَّ الصَّخْرَ لِبَعْضِهَا بِالجُودِ اشْتِهَار، ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[2] ثُمَّ إِنَّهُ صَعَّرَ خَدَّكَ العِنَاد، وَوَرِيتَ بِهِ لِحَمْيِ ذِمَارِكَ زِنَاد، فَقُلْتَ إِنَّ صَخْرَهَا مَظِنَّةُ اعْتِزَازِكُمْ، ومأمنٌ من غَلَبَتِكُمْ وَابْتِزَازِكُمْ، فَفَضَّلْتَ بذلك الصَّخْرَ عَلَى التُّرَابِ، وَكُنْتَ كَمَنْ قَايَسَ بَيْنَ الغَمْرِ[3] وَالسَّرَابِ؛ وَالمَعَاذُ مِنْ جَهْلِكَ وَالاسْتِجَارَة، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[4] فَمَا قِيَاسُكَ مَا يكونُ به العَذَابُ مَعْقُوداً، وَيَكُونُ لِلنَّارِ وَقُوداً، إِلَى جَوْهَرٍ خَلَقَ اللهُ منهُ رُسُلَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، وَأَوْدَعَهُ إِلَى الحَشْرِ أَنْبِيَاءَهُ المُصْطَفَيْنِ وَأَصْفِيَاءَهُ؛ وَكَفَى عَلَيْكَ مِن تَسْجِيل، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾[5]، وَأَيُّ قِيَاسٍ بالكِتَابِ العَزِيزِ مَعْضُود، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[6] والبُرْهَانُ فِي هَذَا البَاب، مُمْتَدُّ العَلَائِقِ وَالأَسْبَابِ.

أَمَّا مَا أَشَرْتَ إِلَيْهِ مِنْ أَنِّي غَضِبْتُ لِعَدَمِ إِكْرَامِكُم، فَذَلِكَ - وَالحَمْدُ للهِ - من جُرْأَتِكُمْ على الإِفْكِ وَاجْتِرَامِكُم، عَلِمَ اللهُ أَنِّي مَا ... عَنِ الاسْتِنْزَال، فِي قَبُولِ كَرَامَاتِ الأَفْسَالِ بِالإِنْزَال.

---

(1) البيت من بحر الطويل.
(2) سورة البقرة، الآية: 73.
(3) الغمر: الماء الكثير.
(4) سورة البقرة، الآية: 23، سورة التحريم، الآية: 6.
(5) سورة الفيل، الآية: 4.
(6) سورة هود، الآية: 81-82.



وَمَا غَضِبْتُ إِلَّا لِأَبِي أَحْمَدَ بْنِ أُمَيَّة[1]، الَّذِي لَقِيَنِي كَأَنَّهُ وَلِيدُ بَنِي أُمَيَّة[2]، وَقَدْ كَانَ أَبِي أَيَّامَ تَوَلِّيهِ يُعَظِّمُهُ، وَيُعْلِيهِ فِي سِلْكِ خَاصَّتِهِ وَينظمُه، فَكَان إِذْ ذَاكَ إِذَا وَاجَهْتُهُ اسْتَبْشَرَ، وَمَدَّ بِسَاطَ الانْبِسَاطِ [وَنشَرَ] فَلَمَّا لَقِيتُهُ بعد [....] ذلك الوعد، فَأَطْرَقَ إِذَا مَرَرْتُ بِهِ مُتَجَهِّماً، وَكَأَنِّي إِذَا حَيَّيْتُهُ خَاطَبْتُه عَمَّا لَا يَعْلَمُ مُسْتَفْهِماً، حَتَّى كَأَنَّهُ لَوْ رَدَّ السَّلَامَ أَلْزَمَ المَلَامَ، وَلَوْ أَظْهَرَ الإِقْبَال، أَلِفَ الخَبَالَ. فَعَلِمْتُ أن ما تَقَدَّمَ من البِرِّ كَانَ بِسَبَبِ الخِطَّة، وَمَا تَأَخَّرَ مِنَ الجَفَاءِ بِسَبَبِ الدَّرَجةِ المُنْحَطَّة. عَلِمَ اللهُ ما سَرَّنَا التَّقْدِيمُ فَيَسُوءُنَا التَّأْخِير، وَلَقَدْ تَسَاوَى الأَوَّلُ مِنْهُ مَا عِنْدَنَا وَالأَخِير. وَأَمَّا عَدَا هذا الرَّجُل فإِنِّي ما تَذَكَّرْتُهُ، فَأَقُولُ ذَمَمْتُه أو شَكَرْتُه، وَلَوْلَا أَنَّ هَذَا الرَّجُلَ تَعَرَّضَ لِنَظَرِي، مَا أَعْمَلْتُ فِكْرِي وَلَا نَظَرِي:

فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَن انْتُمُ　　　وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ الأَعَاصِرِ[3]

وَأَمَّا مَا هَذَيْتَ بِهِ مِنْ أَنَّا لَسْنَا لِلْكَرَامَةِ بِأَهْل، فَحُجَّةُ ذِي بَلَادَةٍ عن فَهْمِ المَكَارِمِ وَجَهْل، أَهَا هُنَا غرت، لقد حَقُرْتَ وَصَغُرْتَ، هَذَا مَكَانُ المَثَلِ الذي جَرَى، في التَّغْلِبِيِّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى[4]:

كَأَنَّ عُبَيْدَ اللهِ لَمْ يَلْقَ مَاجِداً　　　وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ المَكْرُمَاتِ تَكُونُ

فَقُلْ لِأَبِي يَحْيَى مَتَى تُدْرِكِ العُلَا　　　وَفِي كُلِّ مَعْرُوفٍ عَلَيْكَ يَمِينُ[5]

---

(1) هو جعفر بن أحمد بن أمية المكنى بأبي أحمد شاطي تولى الأحكام ببلده لأبي الحسن القسطلي كان فقيها مشاوراً بصيراً بالمسائل. التكملة، ص:243.

(2) وليد بني أمية هو الوليد أبي يزيد بن عبد الملك الذي وصف نفسه في شعره بالجبار العنيد.

(3) البيت من بحر الطويل، وهو ضمن ثلاثة أبيات لزياد الأعجم في شرح الحماسة للأعلم 2/ 1059، رقم 814.

(4) مقتبس من قول الشاعر:

وَالتَّغْلِبِيُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى　　　حَكَّ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الأَمْثَالَا

تَلْقَاهُمْ حُلَمَاءَ عَنْ أَعْدَائِهِمْ　　　وَعَلَى الصَّدِيقِ تَرَاهُمُ جُهَّالَا

العقد الفريد5/ 297.

(5) البيتان من بحر الطويل، وهما لبشار بن برد من شعر له في عبد الله بن قزعة، ديوانه 4/ 211.



اعْلَمْ: أَيُّهَا الجَاهِلُ بِالمَكَارِمِ، المُسْتَرِيحُ مِنْ تَعَبِ الأَكَارِمِ، أن كُلَّ ضَيْفٍ جَلَّ أَوْ قَلّ، وَاجِبٌ أنْ يُضْطَلَعَ بأَعْبَاءِ كَرَامَتِهِ ويُسْتَقَلّ، ولله دَرُّ هَمَّامٍ أَوْ هُمَيْم، المُتَبَرِّي مِنَ الضَّيْمِ وَالذَّيْم[1]، حَيْثُ بَاتَ لِكَرَائِمِ مَالِهِ مُسْتَهِنًا، وَرَفَعَ لِنَارِهِ مَوْهِنا، فَأَتَاهُ أَطْلَس[2] لِذَنَبِهِ سَاحِبًا، عَسَّال[3] لَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبًا، ذِئْبٌ عُقِدَ عَلَى الكَيْدِ زُنَّارُه، وَجَازِرٌ فِي شِدْقِهِ شَفْرَتُه وَنَارُه، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَاسَمَهُ زَادَه، وَرُبَّمَا وَفَاهُ عَلَى نَفْسِهِ وَزَادَه، وَقَالَ يَذْكُرُ طُرُوقَهُ وَمَسْرَاه، وَيَصِفُ كَيْفَ أَكْرَمَ ذَرَاه:

وَأَطْلَسَ عَسَّالٍ وَإِنْ كَانَ صَاحِبًا ... رَفَعْتُ لِنَارِي مَوْهِنًا فَأَتَانِي

فَلَمَّا دَنَا قُلْتُ ادْنُ دُونِي إِنَّنِي ... وَإِيَّاكَ فِي زَادِي لمُشْتَرِكَانِ

فَظَلْتُ أَقُدُّ الزَّادَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ... عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانِ

وَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَكَشَّرَ ضَاحِكًا ... وَقَائِمُ سَيْفِي فِي يَدِي بِمَكَانِ

تَعَشَّ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونُنِي ... تَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِيبُ يَصْطَحِبَانِ

فَإِنَّكُمَا يَا ذِيبُ وَالغَدْرُ كُنْتُمَا ... أُخَيَّيْنِ كَانَا أُرْضِعَا بِلِبَانِ[4]

وَنَاهِيكَ مِمَّنْ يَتَحَفَّظُ بِسَيْفِهِ، مِنْ غَدْرِ ضَيْفِهِ، وَعَلَى ذَلِكَ فَمَا أَدَّتْهُ المَعْرِفَةُ بِغَدْرِهِ، إِلَى النُّزُولِ عن رُتْبَتِهِ فِي الكَرَمِ وَقَدْرِهِ، وَسِرُّ هَذَا الأَمْر، لَيْسَ فِي أَكْلِ التَّمْرِ، وَأَيْنَ خُلُقُكَ لَا كَان؛ مِن قَوْلِ مرّة بنِ مَحْكَان[5]:

---

(1) الذيم: العيب. وهو من ذامه ذيما وذاما، وهمام هو الفرزدق الشاعر.

(2) الأطلس: الأسود الوسخ؛ ويقال ذئب أطلس: في لونه غبرة إلى السواد وكل ما كان على لونه.

(3) عسل الذئب يعسل عسلانا: مضى مسرعا واضطرب في عدوه.

(4) الأبيات من بحر الطويل، وهي من شعر مشهور للفرزدق.

(5) البيت ضمن ثلاثة أخرى قالها الشاعر في الأضياف ورواية الثاني منهما:

أُدْعَى أَبَاهُمْ وَلَمْ أُقْرَفْ بأمهم ... وَقَدْ هَجَعْتُ وَلَمْ أَعْرِفْ لَهُمْ نَسَبَا

الشعر والشعراء 2/ 576، الأغاني 2/ 348، ذيل الأمالي، ص: 179.



أُدْعَى أَبَاهُمْ وَقَدْ أَلْقَوْا ... وَقَدْ عَمَرْتُ وَلَمْ أَعْرِفْ لَهُمْ نَسَبًا[1]

وَقَدْ صَحَّ عِنْدَ المُتَلَفِّعِ وَالسَّافِرِ، أَنَّ قِرَاكُمْ مَعْشَرَ الشَّاطِبِيِّينَ عَلَى المُقِيمِ والمُسَافِرِ، حَرَامٌ كَأَلْبَانِ إِبِلِ تَعِلَّةَ بنِ مُسَافِرٍ[2]، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَوْ حَلَّ أَحَدُكُمْ بِفِنَائِي لاشْتَدَّ خوفًا مِنْ قَصْعَتِي وَإِنَائِي:

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً ... وَانْشُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أَغْرَقُ[3]

وَأَمَّا مَا بَلَغَنِي أَنَّكَ احْتَجَجْتَ به عَلَيَّ، وَصَوَّبْتَ بِهِ سِهَامَ التَّعَقُّبِ إِلَي، مِنْ وِلَايَةِ أَبِي وَخَالِي، لِذَلِكَ المَكَانِ الخَالِي، فَالثَّوَابُ مَحَلُّ الأَذْهَاب، وَالحُسَامُ يَسْكُنُ فِي الإِهَابِ، وَلَوْلَا شَرْطُ الوَقَارِ، لَقُلْتُ: قَدْ يُلْفَى شَرَفُ العُقَار، فِي الدَّن وَالقَار[4]:

يَا هَذِهِ لَا تُفَنِّدِينِي ... رُحْتُ فِي مَنْزِلٍ هَجِينِ

لَيْسَ اتِّضَاعُ المَحَلِّ مِمَّا ... يَقْدَحُ فِي مَنْصِبِي وَدِينِي

فَالشَّمْسُ عُلْوِيَّةٌ وَلَكِنْ ... تَغْرُبُ فِي حَمْأَةٍ وَطِينِ[5]

[وَأَمَّا مَا] أَوْطَأَكَ خَمْرَةَ الاهْتِمَام، وَقُلْتَ عِنْدَ سَمَاعِهِ صَمِّي صَمَام، مِنْ بُرْهَانِي عَلَى الصَّنَمِ[6] وَالجَامِع، فَذَلِكَ أَوْضَحُ من البَرْقِ اللَّامِعِ، حَسْبُكَ مِنْ مَدِينَةٍ اشْتَمَلَتْ عَلَى

---

(1) البيت من بحر البسيط.

(2) يشير إلى قول بعضهم:

أَلْبَانُ إِبْلِ تَعِلَّةَ بْنِ مُسَافِرٍ ... مَا دَامَ يَمْلِكُهَا عَلَيَّ حَرَامُ

(3) البيت من بحر الكامل، من قصيدة للمتنبي مطلعها:

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ ... وَجَوًى يَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

(4) القير والقار؛ لغتان: وهو صعد يذاب فيستخرج منه شيء أسود تطلى به الإبل والسفن والأواني.

(5) فيه إشارة إلى قوله تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾. سورة الكهف، الآية:84. والأبيات من مخلع البسيط، وهي للشاعر الأندلسي المعروف بالشريف الأصم. زاد المسافر: 84.

(6) صنم شاطبة مشهور بها وهو بنيان قديم كان قد تركه الروم بها وقد وَصَفَه أحد الشعراء الأندلسيين فقال:

بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا الرُّومِ مُعْجِبَةٌ ... أَبْدَى البُنَاةُ مِنْ أَمْرِهَا حَكَمَا



الصَّنَمِ اشْتِمَالَ الصَّمَّاء، وَأَثْبَتَتْهُ فِيهَا إِثْبَاتَ الرّي في المَاء، وَنبَذَتْ جَامِعَهَا بِالعَرَاءِ، وَتعَرَّتْ عَنْهُ تَعَرِّي الأَفْعَالِ مِنْ أَقْوَالِ الشُّعَرَاء[1] أما إِنَّ الدَّلِيلَ وَاضِح، عَلَى أَنَّ أَمْرَ ذَلِكَ الصَّنَمِ فَاضِح، وَأَن إِلَّهُ من وُدٍّ وَسُوَاعَ[2]، كإِلِّ الأَجْنَاسِ من الأَنْوَاع، وَأَنَّهُ كَانَ لِقُدَمَاءِ ذَلِكَ البَلَدِ يَعْبُدُونَهُ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللهَ لَا يَقْطَعُ أَمْراً دُونَه، فَكَمْ طُلَّ[3] إِزَاءَهُ قَبْلَ الإِسْلَام، من عَتِيرَةٍ[4] ذُبِحَتْ عَلَى الأَزْلَامِ، وَكَمْ شُهِدَ بِفِنَائِهِ مِنْ بيعَة، وَقِيلَ طَوْراً بالعِلَّةِ وَطَوْراً بِالطَّبِيعَةِ، فَمَا لِأَوَائِلِكُم إِذْ جَاءَ الإِسْلَام، وَاسْتَحْكَمَ أَمْرُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لَمْ يَسْلُكُوا مِنْ إِقَامَةِ الوَاجِبِ سَمْتا فَذَرَوْا أَعْلَامَهُ ﴿فَاعاً صَفْصَفاً لاَّ تَرىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾[5] لَعَلَّهُمْ عَطَفَهُمْ عَلَيْهِ ذِمَام، بِمَا كَانَ لِقُدَمَائِهِمْ بِهِ إِلْمَام، فَأَبْقَوْهُ رَعْياً لِذَلِكَ العَهْدِ القَدِيمِ، وَلَهَجُوا بِهِ لهجَ النَّدِيم بِالنَّدِيمِ:

أَلَا لَـيْسَ فِعْـلُ الأَوَّلِـينَ وَإِنْ عَـدَا ... عَلَـى سُـوءٍ فِعْـلِ الآخِـرِينَ بِزَائِـدِ[6]

أَمْ لَيْتَ شِعْرِي مَا لَهُم، لَا بُلِّغُوا آمَالَهُم، غَضِبُوا عَلَى ذَلِكَ الجَامِعِ المِسْكِين، وَجَعَلُوهُ فِي قَرَارٍ غَيْرِ مَكِين[7]، وَارْتَضَوْا بالصَّنَمِ مِنْهُ خَلِيلاً، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ

لَمْ نَدْرِ مَا أَضْمَرُوا فِيهَا سِوَى أُمَمٍ ... مِنَ الأَوَائِلِ سَمَّوْهُ لَنَا صَنَمَا

كَالمِبْرَدِ الفَذِّ مَا أَخْطَا مُشَبِّهُهُ ... حَقًّا لَقَدْ بَرَدَ الأَيَّامَ وَالأُمَمَا

الروض المعطار، ص: 337، زاد المسافر، ص:342 طبعة ابن شريفة.

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾. سورة الشعراء، الآيات: 223-224-225.

(2) ود وسواع: صنمان مشهوران كانا يعبدان في الجاهلية وقد ذكرا في القرآن: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً ولاَ سُوَاعاً﴾. سورة نوح، الآية:23.

(3) الطل: هدر الدم.

(4) العتيرة: شاة كان العرب يذبحونها لآلهتهم في شهر رجب.

(5) سورة طه، الآية: 104.

(6) البيت من الطويل.

(7) مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.سورة المرسلات، الآيتان: 20-21.



بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾[1] حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتُخْفِي، فَنُفِي، أَو اسْتُثْقِل، فَنُقِلَ، أَو اسْتُبْرِدَ، فَطُرِد، أَوْ جَنَى، فَأُذِيقَ مُرَّ الجَنَى، أوْ كَأَنَّهُ ضَيْفٌ وَرَدَ لَهُمْ فِنَاءً، فَأَقْطَعُوهُ خَيْبَةً وَعَنَاءً، فَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ ارْتَكَبَ ظُلماً وَحَيْفا، مَنْ رَجَا الكَرَامَةَ مِنْ قَوْمٍ نَفَوْا جَامِعَهُمْ حِينَ حَسِبُوه ضَيْفا، أَوْلَى لَهُمْ جَزُّ النَّوَاصِي[2] وَحَزُّ الغَلَاصِم[3] هَلْ لِبَلَدِهِمُ الذَّمِيمِ مِنْ عَاصِم، مِنْ قَوْلِ الوَزِيرِ أَبِي جَعْفَر بنِ عَاصِم:

شَاطِبَةُ الشَّرْقِ شَرُّ دَارٍ ... لَيْسَ لِسُكَّانِهَا فَلَاحُ
الكَسْبُ مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَكِنْ ... أَكْثَرُ مَكْسُوبِهِمْ سُلَاحُ[4]

البَيْتُ الثَّالِثُ[5] مَوْضِعُ صَمْتٍ لَا إِفْصَاح، وَأَنَا لَكُمْ فِي السُّكُوتِ عَلَيْهِ مِنَ النُّصَاح، وَهَيْهَاتَ السَّلَامَةُ وَالأَمَان وَكَمَا قَالَ فِي شِعْرِهِ النُّعْمَان:

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ حَقّاً وَإِنْ كَذِباً ... فَمَا اعْتِذَارُكَ مِنْ قَوْلٍ إِذَا قِيلَا[6]

وَبَعْدَ هَذَا أَيُّهَا المُتَعَقِّبُ، المُتَنَقِّبُ، وَالمُبَارِي المُتَوَارِي، وَالمُسْتَهْتِرُ المُسْتَتِرُ، فَإِنَّ مِثْلَكَ فِي مَا جِئْتَ بِهِ قَوْمَكَ مِنَ الضَّيْرِ، كَالعَبْدِ الكَلِّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ [لَا يَاتِي][7] بِخَيْر. وَسَادَ عِتَابُك، عَلَى أَنِّي لَمْ يَصِلْنِي كِتَابُكَ، جَاوَبْتُكَ وَلَعَمْرِي لَا

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 187.

(2) الناصية: مقدم شعر الرأس وتجمع على نواصي وهي مذكورة في سورة العلق.

(3) الغلاصم: مفردها غلصمة وهي رأس الحلقوم وهو الموضع الناتئ في الحلق ويقال غلصمت فلانا إذا أخذت بحلقه.

(4) البيتان من مخلع البسيط وهما لأبي جعفر بن عاصم المرسي ترجمته في زاد المسافر 88، ويوجد البيتان أيضا في الروض المعطار، ص:337.

(5) البيت الثالث الذي سكت عنه صفوان بن إدريس هو:

لَهُمْ بِهِ فِي الكَنِيفِ حِفْظٌ ... وَهْوَ... مُبَاحُ

زاد المسافر، ص: 88.

(6) البيت للنعمان بن المنذر اللخمي جوابا على أبيات كان قد بعثها له الربيع بن زياد العبسي. خزانة الأدب 2/ 123، فصل المقال، ص: 91، مجمع الأمثال 2/ 1002.

(7) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه، وهو في قوله تعالى:﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾، سورة النحل الآية: 76.



أَعْرِفُك، وَلَكِنِّي إِلَى جُمْلَةِ الأَشْبَاحِ أَصِفُك، أَمَا إِنِّي لَوْ وَقَفْتُ عَلَى تِلْكَ الرِّسَالَةِ، أَو اطَّلَعْتُ على ما أُوْدِعت مِنَ البَسَالَةِ أَوِ الفَسَالَةِ، أَوَ عَلِمْتَ أَنَّكَ أَبُو[1] عُذْرِهَا، وَمُبينُ وَجْهِ غَدْرِهَا، لأَخَذَ المَجْلِسُ حَقَّهُ فِي الجَوَابِ وَاسْتَوْفَى أَعْرَاضَهَا وَكَانَ مِنْ قَوْمٍ وَقَدْ أَرَيْنَاكُمْ المِثَالَ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَال في قَضِيَّتِكُم بِقَوْلِ جَرِيرٍ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سُفَهَاءَكُمْ ... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا
أَبَنِي حَنِيفَةَ إِنَّنِي إِنْ أَهْجُكُم ... أَدَعِ اليَمَامَةَ لَا تُوَارِي أَرْنَبَا[2]

أَزِيدُكَ أَمْ كَفَاكَ، فَضَّ اللهُ فَاكَ، فَدَعِ الحَسَدَ، وَإِيَّاكَ وَالأَسَد، وَخَلِّ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَبْنِي المَنَارَ بِه، وَسَلِّمِ الأَدَبَ فَلَسْتَ مِنْ ثُمَامِهِ وَلَا غَرَبِه، وَرُبَّ مُثِيرِ حَرْبٍ عَادَتْ عَلَيْهِ بِحَرَبِه:

اللهُ أَنْفَذَ هَكَذَا أَقْدَارَهُ ... فَعَلَيَّ تَغْضَبُ أَمْ عَلَى الأَقْدَارِ[3]

وَكَتَبَ إِلَى الوَزِيرِ أَبِي عَمْرِو بْنِ حَسُّون[4] وَقَدْ كَانَ فَارَقَهُ وَهُوَ مُشْتَغِلٌ بِالطَّلَبِ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ مَالَ إِلَى الرَّاحَةِ:

أَدَامَ اللهُ مُدَّةَ الوَزِيرِ الحَسِيبِ الأَصِيل، المُحَصِّلِ لِقَوَانِينِ السُّؤْدَدِ كُلَّ التَّحْصِيل، يَخْلَعُ فِي الاجْتِهَادِ عِذَارَ البَطَالَة، وَيُسَدِّدُ إِلَى نَحْرِ التَّقْصِيرِ عَامِلَ الإِطَالَةِ، وَلَا زَالَ مُسْتَجِيراً فِي ظِلِّ الالْتِزَام مِنْ حَرُورِ التَّعْطِيل، مُسْتَطِيلاً بِفَرَاغِهِ لِلْعِلْمِ عَلَى شُغْلِهِ عَنْهُ وَأَرْبِحْ بِهِ مِنْ مُسْتَطِيل، مُطِيلاً فِي الدِّرَاسَةِ [غَيْرَ مُقَصِّرٍ][5] وَمُقَصِّراً فِي العَجْزِ غَيْرَ مُطِيل:

دُعَاءٌ لَوْ يَحُومُ عَلَى سَرَابٍ ... لَأَصْبَحَ وَهْوَ مَاءٌ سَلْسَبِيلُ

---

(1) خرم بالأصل. وأبو عذرها يقصد به أنه السابق إليها.
(2) البيتان من الكامل، ديوان جرير، ص: 50.
(3) البيت من الكامل.
(4) فقيه ووزير أندلسي مالقي نشأ بمالقة، وكان صديقا لصفوان بن إدريس، انظر: زاد المسافر، ص: 60.
(5) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.



دُعَـاءٌ مَـا امْتَطَـى الأَفْـوَاهَ إِلَّا وَتَـأْمِينُ العَـلَاءِ لَـهُ سَـبِيلُ[1]

وَإِنَّ تَحْتَ هَـذَا اللَّفْظِ -أَعَزَّكَ اللهُ- لَمَعْنَى، وَغَرَضـاً أَشَـرْنَا إِلَيْـهِ بِبَنَانِ التَّعْـرِيضِ وَالمَعْنَى، وَمَقْصداً أَثْقَلْنَا بِحُسَامِهِ جَسَدَ التَّغَافُلِ ضَرْباً وَطَعْنا؛ وَمِثْلُ الوَزِيرِ -أَعَزَّهُ اللهُ- تَصَفَّحَ هَذَا الفَصْل، فَتَلَا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا[2]، وَإِنَّ هَذِهِ الدَّعْوَة لَتُوسَمُ من الإجابَةِ بِمَعْرُوفٍ وَمَعْلُوم، لِأَنَّهَا مِنَ العُلَا فِي جَانِبِكَ دَعْوَةُ مَظْلُوم[3] لِأَنَّكَ مَلَكْتَهُ فَقَصَّرْتَ بِهِ، وَأَنْهَضْتَكَ إِلَى أَعْلَى الرُّتَبِ فَأَخَذْتَهُ عَنْ رُتَبِه، حِينَ لَمْ تُنَمْنِمْ بِفِرِنْدِ الاجْتِهَادِ صَفْحَتَهُ، وَلَا عَطَّرْتَ بِمِسْكِ الحِبْرِ وَكَافُورِ القَرَاطِيسِ صَفْحَتَه، لأنكَ عَوَّلْتَ، ثُمَّ تَحَوَّلْتَ، وَاسْتَخَرْتَ ثُمَّ تَأَخَّرْتَ، وَانْبَرَيْتَ، ثُمَّ امْتَرَيْتَ، وَقَدَّمْتَ، ثُمَّ تَنَدَّمْتَ، فَحِينَ عَقَلْتَ، انْتَقَلْتَ، وَرَيْثَمَا فَهِمْتَ، انْحَرَفْتَ فَهِمْتَ[4]، وَلَمَّا قَارَبْتَ الوِرْدَ أَصْدَرْتَ، وَعِنْدَمَا تَحَلَّيْتَ فِي أُفْقِ النَّبَاهَةِ مِلْتَ إِلَى السِّرَارِ[5] وَمَا أَبْدَرْتَ، فَأَيَّةُ بِدَايَةٍ لِلتَّتْمِيم، وَعَزْمَةٍ لَوْ قُوبِلَتْ بِجِدٍّ صَمِيم، صُدُورٌ لَوْ طَابَقَتْهَا أَعْجَازٌ، وَحَقِيقَةٌ فَغَرَ عَلَيْهَا فَمَهُ مَجَازٌ، وَإِسْهَابٌ شَرَّ ذَيْلَهُ إِيجَازٌ، وَوَعْدٌ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَهُ إِنْجَازٌ:

مُنىً إِنْ تَكُنْ حَقّاً تَكُنْ أَحْسَنَ المُنى وَإِلَّا فَقَدْ عِشْنَا بِهَا زَمَناً رَغْدَا[6]

فَمَالَكَ لَا تَضَعُ بِيَدِ الأَغْنِيَاءِ زِمامَها، وَتَجْعَلُ الجِدَّ إِمَامَهَا وَأَمَامَهَا، حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَ الحِلْيَةِ وَالسَّيْفِ، وَتَضُمَّ رَوْنَقَ الرَّبِيعِ إِلَى خِصْبِ الصَّيْفِ، وَإِنَّهَا لَخُطَّةٌ إِنْ أَنْتَ تَفَيَّأْتَ

(1) البيتان من الوافر.

(2) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. سورة المائدة، الآية: 8.

(3) فيه إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

(4) فهمت: الأولى تعني الفهم والدراية؛ والثانية تعني الهيام والوجد الشديد.

(5) السرار بالفتح والكسر الليلة التي يستتر فيها القمر، قال الشاعر:

نَحْنُ صَبَّحْنَا عَامِراً فِي دَارِهَا
جُرْداً تَعَادَى طَرَفَيْ نَهَارِهَا
عَشِيَّةَ الهِلَالِ أَوْ سِرَارِهَا

(6) البيت من الطويل، وهو لرجل من بني الحارث بن كعب، شرح الحماسة للأعلم 2/ 169.



ظِلَالَهَا، وَارْتَشَفْتَ زُلَالَهَا، فَإِنَّهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَكَ وَإِنَّكَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهَا[1]، وَإِنَّمَا تَتَزَيَّنُ الغُرَرُ بِوُجُوهِ الجِيَادِ، وَتَبِينُ فَضِيلَةُ الأَسْلَاكِ فِي غِيدِ الأَجْيَادِ[2] وَتُدَّخَرُ المَلَابِسُ السَّنِيَّةُ لِأَيَّامِ الأَعْيَادِ. فَأَثْبِتْ - أَعَانَكَ اللهُ - فِي قِرْطَاسِ الطَّلَبِ سَهْماً، وَاسْتَجْزِلْ مِنْهُ نَصِيباً وَسَهْماً، وَلَا تُصَدِّقْ لِحَسُودِكَ ظَنّاً وَلَا وَهْماً، ولو امْتَطَيْتَ الأَيَّامَ شُهْباً وَاللَّيَالِيَ دُهْماً. وَشَأْنُكَ أَنْ تَتَجَلَّدَ وَتَصْطَبِرَ، وَتَعْلَمَ أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرْ[3] وَإِنَّهَا لَطَرِيقٌ تَكِلُّ فيها رِكَابُ قَوْمٍ وَتُبْدِعُ[4] وَتَنْشَطُ رِكَابُ آخَرِينَ فتغْرقُ في قَطْعِ المَسَافَةِ وَتُبْدِعُ[5] فَمِنْ مُجِدٍّ يَبْلُغُ وَلَمْ يُثر انْحِفَازَه، وَآخَرَ يُنْشِدُ: «وَكَمْ دُونَهَا مِنْ مَهْمَهٍ وَمَفَازَةٍ»[6] وَهَلْ هِيَ إِلَّا حُظُوظٌ وَأَقْسَام، وَلِقَوْمٍ عُبُوسٌ وَلِآخَرِينَ ابْتِسَامٌ ... ... وَصَارَ الاعْتِقَادُ سِرَاراً، وعَادَ مَعَ ذلِكَ الوِدَادِ ضِرراً وَضِرَاراً ... وإِنْ نَفَرَ القَلْبُ مِنْكُمْ عَنْ قَوْمٍ يُؤْثِرُونَ الغَدْرَ وَيَسْتَحِبُّونَهُ ... وَلَشَدَّمَا اعتبت فَلَمْ أُعْتَبْ، وَلَمْ أَشُكَّ فِي تَخَيُّرِكُم وَلَمْ أَرْتَب ... أَنَّ مِنْ تِلْكَ اللِّثةِ هَذَا السِّنَان. وَلِعِلْمِي بِأَنَّ حَدِيثِي غَيْرُ مُسْتَطَاب، أُجَدِّدُ هَذَا الخِطَاب، وَأُقَدِّمُ أَكْمَامَهُ قَبْلَ الإِرْطَاب، وَالسَّلَامُ عَلَى ذَلِكَ الجَنَاب، المُؤْذِنِ بِصِفْرِ الوِطَاب، عَدَدَ [حُبِّ الرَّبَابِ] فِي خَلَدِ أَبِي الخَطَّابِ[7].

---

(1) مقتبس من قول ابن المعتز:

أَتَتْـــهُ الخِلَافَـــةُ مُنْقَـــادَةً ... إِلَيْـــهِ تُجَـــرِّرُ أَذْيَالَهَـــا

فَلَـــمْ تَـــكُ تَـــصْلُحُ إِلَّا لَـــهُ ... وَلَـــمْ يَـــكُ يَـــصْلُحُ إِلَّا لَهَـــا

(2) الجياد الأولى تعني الفرسان وغرتها بياض رؤوسها، أما الأجياد الثانية فتعني العنق وهي جمع جيد.

(3) فيه إشارة إلى قول الشاعر:

لَا تَحْسبِ المَجْدَ تَمْراً أَنْتَ آكِلُه ... لَنْ تَبْلُغَ المَجْدَ حَتَّى تَلْعَقَ الصَّبِرَا

(4) أبدعت الإبل: بركت في الطريق من هزال أو داء أو كلال.

(5) يقال؛ أبدع الركب: إذا قطع المسافة بحيوية ونشاط.

(6) صدر هذا البيت لامرئ القيس عجزه:

وَكَـــمْ أَرْضِ جَـــدْبٍ دُونَهَـــا وَلُـــصُوصُ

(7) لعله يقصد عمر بن أبي ربيعة وقوله:

ثُـــمَّ قَـــالُوا: تُحِبُّهَـــا؟ قُلْـــتُ بَهْـــرًا ... عَـــدَدَ الرَّمْـــلِ وَالحَـــصَى وَالتُّـــرَابِ



وَكَتَبَ أَيْضاً:

تَـذَكَّرْتُ عَهْـداً بِـالجَزِيرَةِ مَاضِـيَا ... فَأَنْـصَفْتُ شَـجْواً لَا يَمَـلُّ التَّقَاضِـيَا
وَزُرْتُ رُسُـوماً فِـي طَرِيـفٍ[1] كَأَنَّهَـا ... بَقِيَّـةُ أَعْمَـادٍ رُزِيـنَ المَوَاضِـيَا
أَيَـا أُفُـقَ الأُنْـسِ الـذِي قَـدْ عَهِدْتُـهُ ... بِزُهْـرٍ[2] الأُصَيْحَابِ الأَكَـارِمِ حَالِيَا
نَـأَتْ غُـرَرُ الأَيَّـامِ عَنْـكَ فَقَلَّمَـا ... يَمُـرُّ عَلَيْـكَ الـدَّهْرُ إِلَّا لَيَالِيَـا
أُرَدِّدُ فِيـكَ العَـيْنَ أَدْهَـمَ مُقْفِـراً ... فَأُبْـصِرُ صَـدْرِي خَالِيـاً مِـنْ فُؤَادِيَا
أَقُـولُ لِرَكْـبٍ بِـالجَزِيرَةِ[3] عَرِّجُـوا ... قِفُـوا نَـرْثِ آثَـارَ الهَـوَى وَالمَغَانِيَا
دِيَـارٌ بِهَـا نِلْنَـا المُنَـى ثُمَّـتَ انْقَـضَتْ ... فَلَـمْ يُبْـقِ مِنْهَـا الـدَّهْرُ إِلَّا أَمَانِيَـا
فَـوَاللهِ مَـا أَدْرِي إِذَا مَـا حَلَلْتُهَـا ... مَغَـانِيَ مَـا أَلْقَـى بِهَـا أَمْ مَعَالِيَـا
لَقَدْ صَارَ فِيهَا غَائِبُ الشَّجْوِ حَاضِراً ... وَأَضْحَى بِهَا مُسْتَقْبَلُ الأُنْسِ مَاضِيَا
فَيَـا رَبْعَهُـمْ رَاجِعْنِـيَ القَـوْلَ عَـنْهُمُ ... أَلَـيْسَ حَقِيقـاً أَنْ تَـرُدَّ جَوَابِيَـا
مَعَـالِمُهم مَـا أنـت إِلَّا مَجَاهِـلٌ ... وَلَكِنَّنِـي آثَـرْتُ حُـسْنَ خِطَابِيَـا
إِذَا لَـمْ أُحَـسِّنْ مَنْطِقِـي جُهْـدَ طَـاقَتِي ... لِرَبْـعِ أَحِبَّـائِي فَـأَيْنَ وِدَادِيَـا
أَعِنْـدَ أَبِـي عَمْـرِو بْـنِ حَـسُّونَ أَنَّنِـي ... عَلَى رَسْمِ عَهْدِي لَسْتُ أَنْفَكُّ رَاعِيَا
وَكَاسْـمِ أَبِيـهِ حُبُّـهُ فِـي جَـوَانِحِي ... فَمَـا دُمْـتُ أَبْقَـى لَـيْسَ يَفْتَـأُ بَاقِيَـا
أَتَـانِي هَـوَاهُ مُـسْتَمِيحاً[4] مَـوَدَّتِي ... فَأَعْطَيْتُـهُ مَـا شَـاءَ إِلَّا فُؤَادِيَـا
وَإِنِّـيَ لَـمْ أُمْـسِكْهُ عَنْـهُ ضَـنَانَة ... وَلَكِنَّنِـي أَخْـشَى عَلَيْـهِ التَّهَابِيَـا[5]

---

(1) طريف: مدينة وصفها الحميري فقال: «مدينة أندلسية صغيرة عليها سور وبها أسواق ومنها إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلا»، الروض المعطار، ص: 392.
(2) الزهرة: الحسن والبياض، والزهر ثلاث ليال من أول الشهر، والمعنيان يفهمان من البيت.
(3) يقصد بها الجزيرة الخضراء.
(4) يقال: استمحت الرجل إذا سألته العطاء. واستمحته عند السلطان أي طلبت منه أن يشفع لي عنده.
(5) التهابي: الاندثار ومن الهباء الغبار الذي تطيره الريح فنراه على وجوه الناس.



إِذَا هَـبَّ مِـنْ آفَـاقِيَ البَـرْقُ نَحْـوَهُ ... فَمَـا هُـوَ إِلَّا شُـعْلَةٌ مِـنْ أُوَارِيَـا[1]
وَإِنْ جَـادَ مِـنْ أَجْفَـانِيَ القَطْـرُ ربْعَـهُ ... فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يَزِيدُ الغَوَادِيَا[2]
أَلَا أَيُّهَـا الرَّكْـبُ المُطَـاوِعُ عَزْمَـهُ ... إِلَـى أَرْضِ فَـاسٍ أَدِّ فِيهَـا سَـلَامِيَا
وَحَـيِّ أَبَـا عَمْـرٍو هُنَـاكَ وَإِنَّمَـا ... أَفَدْتُكَ -فَاشْكُرْ- أَنْ تُحَيِّي المَعَالِيَا[3]

لَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ فِي عِلْمِ البَلَاغَةِ إِمَامًا، وَاسْتَهَلَّ فِكْرِي فِي تُرْبَةِ القِرْطَاسِ غَمَامًا وَتَرَنَّمَتْ يَرَاعِي فِي غُصُونِ السُّطُورِ حَمَامًا، وَأَحَاطَتْ مَهَارِقِي بِزَهَرَاتِ أَلْفَاظِي كِمَامًا؛ بِأَيِّ شَيْءٍ أَفْتَتِحُ هَـذِهِ الرِّسَالَة، وَأُصَدِّرُ هَـذِهِ النَّفْثَةَ السَّلْسَالَة، أَبِالتَّهْنِئَةِ أَمْ بِالعَزَاءِ، عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ هَذِهِ الأَجْزَاءِ، أَمْ بِمُرِّ العِتَاب، أَمْ بِحُلْوِ الإِعْتَاب، لَكِنِّي آخُذُ مِنْ هُنَا وَهُنَاكَ، كَمَا جَمَعَتْ عَلَى ضُرُوبٍ مِنَ الزَّهْرِ يُمْنَاكَ، وَأَجْمَعُ فِي هَذِهِ الرُّقْعَةِ فُنُونًا، كَمَا جَمَعَ [المُؤَمِّلُ][4] فِي صَحِيفَتِهِ مَفْرُوضًا وَمَنْدُوبًا وَمَسْنُونًا حَتَّى يَرْتَسِمَ بِاسْمِ كُلِّ أَمِيرٍ [دِينَارُهَا][5]، وَيُقَالَ: كُلُّ نَارٍ لأناسٍ نَارُهَا[6].

أَمَّا التَّهْنِئَةُ فَأُهَنِّئُ مَجْدَهُ الأَثِيلَ، وَعَلَاءَهُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَثِيلٌ عَلَى وَفْقِ اخْتِيَارِهِ، أَو يُنِيخُ جِرَانَ[7] رِحَالِه، فِي أَسْنَى رَوْحِه وَارْتِحَالِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَنْزِلُ عَلَى آل المُهَلَّبِ[8]،

(1) الأوار: شدة حر الشمس ولفح النار ووهجها.
(2) الغوادي: مفردها غادية وهي السحابة التي تنشأ غدوة. وقيل السحابة التي تنشأ غدوة، وقيل السحابة تنشأ فتمطر غدوة.
(3) الأبيات من الطويل.
(4) خرم بالأصل.
(5) خرم بالأصل
(6) جمهرة الأمثال 2/ 140.
(7) الجران: باطن العنق وقيل مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره فإذا برك البعير ومد عنقه على الأرض قيل: ألقى جرانه بالأرض.
(8) آل المهلب: وهو يشير إلى قول الشاعر:

نَزَلْتُ عَلَـى آلِ المُهَلَّـبِ شَـاتِيًا ... غَرِيبًا عَنِ الأَوْطَانِ فِي زَمَنِ المَحْلِ
فَمَـا زَالَ بِـي إِكْـرَامُهُمْ وَافْتِقَـادُهُمْ ... وَإِحْسَانُهُمْ حَتَّـى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِـي



وَيصدر ارتياد الجوارِ له جَانِب المُتَقَلَّب، في وَقْتٍ سعيد، حَتَّى كَأَنَّهُ [...] مِنْ بَنِي سَعِيد، وَيَعْقُبَ مُقَدِّمَةَ هَذَا الرَّأي نتيجة الكَيْس، حَتَّى يَحُلَّ كَمَا حَلَّتْ بِالقُرَيَّة لَبُونُ امْرِئ القَيْسِ[1] أَمَّا التَّعْزِيةُ فَلِلْجَزِيرَةِ وَأَرْبَابِهَا، تَعْزِيَةَ [الزَّهْرَاء] في فَقْدِ أربَابِهَا، وَأُفَاوِضُ المَجْدَ الأَعْلَى وَأُذَاكِرُه، بِقَوْلِ الكَفِيفِ التُّطَيْلِي حَادَه من الأُفقِ الوَسْمِيِّ بَاكِرُه:

عَفَـاءٌ عَلَـى الأَرْضِ الّتِـي لا تَحُلُّهَـا وَلَـوْ نَبَتَـتْ فِيهَـا السَّمَاحَةُ وَالبَـذْلُ[2]

وَأَمَّا العِتَابُ الَّذِي هُنَا يَنْسَابُ عُبَابُه، وَيَسْمُو حَالاً عَلَى حَالِ حَبَابُه[3] فَلِمِثْلِ هَذَا المَكَانِ يُدَّخَرُ، وَهُنَا يَجِيشُ خَضْمُهُ وَيَزْخَر، وَذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَعْتَقِدُ فِيكَ هَذَا الاعْتِقَاد، وَلَا تَخَيَّلْتُ أَنْ أَصْحَبَ فِيكَ الإِغْفَالَ وَالانْتِقَاد، إِيهِ أَيُّهَا الأَخُ السَّرِيُّ، الَّذِي هُوَ بِالمُؤَاخَذَةِ الخَلِيقُ الحَرِيُّ، فَمَا هَذَا الغَرَض المُخْتَلِف، وَبِسُوءِ المُقَابَلَةِ مَعَ حُسْنِ المُوَاخَاةِ كَيْفَ يَأْتَلِف، أَبَعْدَ إِيصَالِ الوِصَال، وَقَطْعِ أَعْمَارِ الأَسْحَارِ والآصَال، وَإِحْكَامِ أَمْرَاسِ[4] الأُخُوَّةِ وَإِبْرَامِهَا، وَتَأْمِينِهَا مِنْ أَجْلِ التَّأْسِيسِ عَلَى التَّقْوَى وَإِضْرَامِهَا تَمُرُّ اللَّيَالِي وَالدُّهُور، وَالأَعْوَامُ وَالشُّهُورُ، وَمَا لِبَارِقِ المُطَالَعَةِ ظُهُور، وَيَنْتَظِمُ فِي سِلْكِ الأَمَلِ المَشْهُور، وَدُونَ بَدْرِ إِشْعَارٍ بِهِ شُهُور، حَتَّى كَأَنَّنِي والله المُعين حَسُود، أَوْ ضَمَائِرِي بِظَهْرِ الغَيْبِ سُود، تَكَلَّمْ لَيْسَ يُؤْلِمُكَ الكَلَام، وَسَلِّمْ فَكَثِيرٌ مِنَ البَلِيغِ السَّلَام، وَمَعَ ذَلِكَ فَخَلُّكَ عِنْدِي خَمْرَة، وَجَمْرُ تَنَاسِيكَ تَمْرَة، فَلَا

---

(1) يشير بهذا إلى قول امرئ القيس:

تَبِيـتُ لَبُـونِي بِالقُرَيَّـةِ آمِنـاً وَأَسْـرَحنا غِبًّـا بِأَكْنَـافِ حَائِـلِ

(2) البيت من الطويل، هذا آخر بيت من قصيدة للتطيلي الأعمى أولها:

أَبَـى اللهُ إِلَّا أَنْ يَكُـونَ لَـكَ الفَـضْلُ وَأَنْ يَتَبَـاهَى بِاسْمِكَ القَـوْلُ وَالفِعْـلُ

(3) مقتبس من قول امرئ القيس:

سَـمَوْتُ إِلَيْهَـا بَعْـدَمَا نَـامَ أَهْلُهَـا سُمُوَّ حَبَابِ المَاءِ حَـالاً عَلَى حَـالِ

الشعر والشعراء 1/ 74.

(4) الأمراس: الحبال سميت بذلك لتمرس الأيدي بها، قال امرؤ القيس:

كَـأَنَّ الثُرَيَّـا عُلِّقَـتْ فِـي مَـصَامّهَا بِـأَمْرَاسِ كَتَّـانٍ إِلَـى صُـمِّ جَنْـدَلِ



ذَنْبَ لَكَ وَلَوْ أَصْلَيْتَنِي الجَمْرَ المُضْطَرِم، وَسَلَّطْتَ عَلَى وُجُودِي العَدَمَ المُخْتَرِم، وَهَذَا هُوَ الإِعْتَاب، الَّذِي به يُخْتَمُ الكِتَاب، والسَّلَام.

وَمِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ مُبَشِّر[1]:

إِلَى أُمَّةٍ نَجَحَتْ أَفْئِدَتُهُمْ وَقُلُوبُهُم، وَرَكَنَتْ إِلَى الخَفْضِ وَلَيَانِ العَيْشِ[2] جُنُوبُهُمْ، وَظَهَرَ عُدُولُهُم عَنْ سَنَنِ الرِّجَالِ وَالأَشِدَّاءِ وَنُكُوبُهُمْ، الَّذِينَ ارْتَسَمُوا مِنَ الجُبْنِ وَالفَشَلِ بِأَقْبَحِ النُّعُوتِ وَالأَوْصَافِ، وَتَشَبَّهُوا بِفَزَعِهِمْ وَخَوَرِهِم بِبَنَاتِ المَاءِ أَوْ حُمَّرُ لَصَافِ[3]، صَرَفَهُم اللهُ عَنْ طَرِيقِ رُعْبِهِمْ وَفَزَعِهِمْ، وَتَابَ عَلَيْهِم مِنْ سُوءِ مَحَالِّهِمُ الذَّمِيمِ وَمَنْزَعِهِم. سَلَامٌ عَلَى مَنْ جَاهَدَ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ[4] ولم ينكسْ بعد الإِسْلام إِلَى ارْتِدَادِه. أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الذي ميز بَيْنَ الرِّجَالِ والنِّسَاء، والصَّلَاة على المُصْطفى صَلَاةً نُرَدِّدُهَا عَلَيْهِ فِي الصَّبَاحِ وَالمَسَاء، مقوي الشَّرْعِ بِالتَّثْبِيتِ له والإِرْسَاءِ، الذي فَضُلَ سَائِرَ المُلُوكِ كَفَضْلِ البَحْرِ المُلْتَجِّ عَلَى الحَسَاءِ، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فِي أَنْ يَغْفِرَ اللهُ بِبَقَائِهِ ذَنْبَ الدَّهْرِ المُسْتَقْبَحِ المُسْتَسَاءِ.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ بَصَائِرَ لَا تَعْمَى عَنْ مَرَاشِدِهَا، وَسَرَائِرَ لَا يَنْحَلُّ مُبْرَمُ مَعَاقِدِهَا، ونَقلكُم مِنْ خَجَلِ الغَوَانِي وَالقِيَان، إلى مَجَالِ الضِّرَابِ وَالطِّعَان، وَأَخْرَجَ قُلُوبَ الثَّعَالِبِ مِنْ أَحْنَاءِ ضُلُوعِكُمْ، وَعَصَمَكُمْ مِنْ نُكُوصِكُمْ عَلَى الأَعْقَابِ

---

(1) أبو العباس أحمد بن مبشر بن سرور كان مولى الحماديين بالجزائر، انظر: قسم الغرباء من الذيل والتكملة 8/ 1 – 324

(2) يقال هو في لَيَانٍ من العيش إذا كان في رخاءٍ وخفض ونعيم.

(3) اللَّصاف: اللَّصَفُ واللصْفُ نبات يطبخ وتوضع عصارته في المرقة فيمرئها، وهو أيضا إذا كان على وزن قطامِ يطلق على موضع بعينه في منازل بني تميم. قال أبو المهوس الأسدي يهجوهم، وهو المقصود هنا:

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُكُمْ أُسُودَ خَفِيَّةٍ ... فَإِذَا لَصَافِ تَبِيضُ فِيهِ الحُمَّرُ

وَإِذَا تَسُرُّكَ مِنْ تَمِيمٍ خَصْلَةٌ ... فَبِمَا يَسُوءُكَ مِنْ تَمِيمٍ أَكْثَرُ

والحُمَّرُ ضرب من الطير كالعصافير.

(4) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ سورة الحج، الآية: 76.



وَرُجُوعِكُمْ، وَجَنَّبَكُمْ فِرَاراً عَنِ الزَّحْفِ وَالكِفَاحِ، وَجَعَلَ وَخزَ الإِبَرِ عِنْدَكُمْ أَهْوَنَ مِنْ طَعْنِ الرِّمَاحِ. عِنْدَمَا تَبَيَّنَ لَنَا من اللَّوْمِ الَّذِي أَوْفَضْتُمْ إِلَيَّ بِنَصْبِه، وَالعَارِ الذِي أَكْثَرْتُمْ مِنْ اقْتِنَائِهِ وَكَسْبِه، وَالذِّكْرِ الذِي طَبَّقَ الخَافِقَيْنِ سُوءُ حَدِيثِهِ، وَأَتَى سَبَبُهُ الأَقْصَى بِسَرِيعِ شَرِّهِ وَخَبِيثِهِ، وَامْتَلأَتِ المَعْمُورَةُ بِقَبِيحِهِ الذَّمِيمِ وَنَبِيثِهِ، يَعْجِزُ عَنْ حَمْلِ أَوْزَارِ الحَرْبِ انْتِهَاضكُمْ، وَيَهْزِمكُمْ وَأَنْتُمُ الكَثِيرُونَ أَبْعَاضُكُمْ، فَلَا ازْدِجَارُكُمْ يَبْعَثُهُ شَرْعُ الإِسْلَامِ وَلَا اتِّعَاظُكُمْ، وَلَا الحَمِيَّةُ يُسْتَثَارُ بِهَا ذِمَارُكُمْ وَحِفَاظُكُمْ، كَأَنَّ نِفَارَكُمْ عَنْ أَعْدَائِكُمْ يَنْسَأُ آجَالَكُمْ، وَكَأَنَّ الحَرْبَ قَدْ حَرَمَكُمْ مِنْهَا سِجَالُكُمْ، فَلِمَ تَمْسَحُونَ لِحَاكُمْ، وَقَدْ سَبَّكُمُ الوَحْيُ وَلَحَاكُمْ، وَلِمَ تَحْمِلُونَ العَمَائِمَ، وَأَنْتُمْ أَوْهَنُ مِنْ رَدادِ التَّعَاوِيذِ وَالتَّمَائِمِ، فَانْزِلُوا -حَطَّكُمُ اللهُ- مِنَ الفَرَسِ النَّهْدِ، إِلَى صَهْوَةِ المَهْدِ، وَكُونُوا كِبَاراً، فِي الخِلْقَةِ صِغَاراً، وَالْحَقُوا بِالخَوَالِفِ[1] وَالقَوَاعِدِ، واخْضبُوا بِالحِنَّاءِ بُطُونَ الأَكُفِّ وَظُهُورَ السَّوَاعِدِ، وَاتْرُكُوا الطِّعَانَ للتَّحَشِّي عِنْدَ التَّنَانِيرِ وَالمَوَائِدِ، وَلَا تَطْمَحُوا إِلى أَنْ تَحْظَوْا مِنْ سُودِ المَصَائِبِ بِبِيضِ الفَوَائِدِ ....

وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا أَنْ تَحْمَى وَطِيس، وَنَتَعَاطَى لِلْمَنِيَّةِ الكُؤُوس، وَنَحُلَّ من الحَرْبِ وَهِيَ شَمْطَاءُ عَرُوس. فَإِنْ فَعَلْتُمْ عِنْدَ ذَلِكَ كَمَا فَعَلْتُمْ أَوَّلاً، وَرَأَيْنَا لَكُم عَلَى الأَجْفَانِ ثَبْتاً وَمُعَوَّلاً، أَخَذَتْكُمْ سُيُوفُنَا إِخْذَةَ أَسَف، وَعَاقَبْنَاكُمْ عَلَى مَا حَضَرَ وَعَلَى مَا سَلَفَ، وَسُقْنَاكُمْ وَقَدْ هَرَبْتُمْ مِنَ التَّلَفِ إِلَى التَّلَف. فَاخْتَارُوا أَيَّ السَّيْفَيْنِ شِئْتُمْ أَسَيْفَ الإِقْبَالِ أَمْ سَيْفَ الإِدْبَارِ، وَاقْدِمُوا أَو انكِصُوا عَلَى الأَدْبَارِ. وَقَدْ خَيَّرْنَاكُمْ فَانْظُرُوا [بِنَظَرِ][2] العَوَاقِبِ فِي الخِيَارِ، وَهَذَا وَعِيدٌ وَإِنْذَارٌ، وَإِمْهَالٌ قَلِيلٌ وَإِنْظَارٌ، وَسَتَكْشِفُ الرَّغْوَةُ عَنِ الصَّرِيحِ[3] وَيُجَمْجِمُ مِنَ الفَرَحِ هَذَا التَّصْرِيح، وَبَعْدَ هَذَا ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ

---

(1) الخوالف: النساء المتخلفات في البيوت إذا خرج الرجال للحرب، قال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾. سورة التوبة، الآية:88.

(2) خرم بالأصل.

(3) في المثل العربي: «أبدى الصريح عن الرغوة» مثل قاله عبيد الله بن زياد لهانئ بن عروة المرادي. انظر مجمع الأمثال 1/ 68، ثم العسكري1/ 25، البكري، ص: 60.



تَسْرِيحٌ﴾[1] واللهُ تَعَالَى يَشُدُّ أَزْرَكُمْ عَلَى خُلُقِ الذُّكُور، وَيَرْجِعُ بِكُمْ عَنِ المَذْمُومِ المَمْكُورِ، وَيَجْعَلُ لَكُمْ حَنِيناً إِلَى خُلُقِ الرِّجَالِ كَحَنِينِ الطَّيْرِ إِلَى الوُكُورِ. وَسَلَامٌ عَلَى مَنْ رَبَطَ عَلَى قَلْبِهِ، وَلَمْ يَفِرَّ عَنِ الزَّحْفِ يَوْمَ حَرْبِه، وَلَا فَلَّ الرُّعْبُ حَدَّ يَدِ غَرْبِهِ، مُعَاداً مُرَدَّداً.

وَمِنْ إِنْشَاءِ شَيْخِ الكِتَابَةِ وَمَالِكِ زِمَامِ الإِجَادَةِ فِيهَا وَالإِصَابَةِ الفَقِيهِ الحَسِيبِ أَبِي بَكْرِ بْنِ الشَّيْخِ الكَاتِبِ المَرْحُومِ أَبِي الحَكَمِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ - أَدَامَ اللهُ عُلَاهُ - يُخَاطِبُ أَبَا العَبَّاسِ ابْنِ البَنْتَةِ رَحِمَهُ اللهُ.

بَرِئْتُ إِلَى المُعْتِبِ العَاتِبِ ... مِنَ الظَّنِّ وَهْوَ عَلَى الكَاذِبِ
وَنَزَّهْتُ عَنْ شُبْهَةٍ وُدَّهُ ... لِمَا صَحَّ مِنْ ثِقَةِ الصَّاحِبِ
وَجِئْتُ إِلَيْهِ بِعَهْدٍ كَرِيمٍ ... وَوُدٍّ سَلِيمٍ مِنَ العَائِبِ
وَمَا مَالَ قَلْبِي إِلَى حَاضِرٍ ... كَمَا مَالَ لِلْحَاضِرِ الغَائِبِ

كَتَبْتُهُ إِلَى الأَخِ الأَكْرَمِ، المَاجِدِ الأَزْعَم، السَّيِّدِ العَمِيمِ الَّذِي أُنَاجِي قَلْبَه مِنْ أَمَمٍ[2]، وَأُنَادِي وُدَّهُ فَأَجِدُهُ سَلِيماً مِنَ التَّصَامُمِ وَالصَّمَمِ، الفَقِيهِ النَّبِيهِ، النَّائِي عن المَعَايِبِ والشَّوَائِبِ النَّزِيهِ، الَّذِي لَمْ أُلْفِ لَهُ مِنْ نِدٍّ وَلَا شَبِيه، وَلَا جَارَاهُ مُبَارٍ فِي السِّيَادَةِ، مُمَارٍ فِي خَلْقِ الشَّهَادَةِ، إِلَّا غَبَّرَ في وَجْهِهِ مِنْهُ رَكْضُ لَاحِقٍ وَالوَجِيه[3].

أَبِي العَبَّاسِ بْنِ البَنْتَه، حَرَسَ اللهُ مَجْدَهُ وَوُدَّهُ، وَصَرَفَ بِقُرْبِهِ أُنْساً لَمْ يَزَلِ الحبُّ مُسْتَرَدَّهُ. أَخُوهُ بِغَيْرِ امْتِرَاءٍ وَلَا افْتِرَاءٍ، وَمُصَافِيهِ عَلَى مَا بِهِ مِنْ إِقْدَامٍ عَلَى العَتْبِ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 227.

(2) الأَمَمُ: القصد الذي هو الوسط، والأمم القرب يقال أخذت ذلك من «أمم» أي من قرب.

(3) لاحق: اسم فرس معروف من خيل العرب، قال النابغة:

فِيهِمْ بَنَاتُ الأَعْوَجِيِّ وَلَاحِقٍ ... وُرْقاً مَرَاكِلُهَا مِنَ المِضْمَارِ

وقيل إنه فرس كان لمعاوية بن سفيان. والوجيه: أيضا فرس نجيب من خيل العرب.



وَاجْتِرَاءٍ، وَمُشَارِكُهُ على البُعْدِ فِيمَا أَتَى بِهِ الدَّهْرُ المُتَلَوِّنُ مِنْ سَرَّاءٍ وَضَرَّاء. مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ.

وَأَنْفَذْتُ أَحْرُفِي هَذِهِ مِنَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ عَنْ نَفْسٍ لِفِرَاقِكُمْ حَسْرَى، سَارِيَةً حَتَّى الصَّبَاحِ فِي ذِكْرَاكَ ثُمَّ لَا تَحْمَدُ المَسْرَى[1] وَشَوْقٍ إِذَا سَرَى هَمُّ المَرْءِ فَهُوَ أَسْرَى، موكل ظهرهُ منكُم بِالسَّيد الأَسْرَى. هَذَا الوصفُ الَّذي لَا تَعْرِفُنِي بِسِوَاهُ، وَالَّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ عَلَانِيَةُ وُدِّي وَنَجْوَاه، وحق لِمَنْ مَلَكْتُمْ عَنَانَ هَوَاه، وَاتَّخَذَ حُبَّكُمْ قَلْبُهُ وَطَنَهُ وَمَثْوَاه.

وَأَمَّا مَا زَخْرَفْتَ فِي كِتَابِكَ إِلَى أَخِينَا الأَكْرَم أَبِي الأَصْبَغ مِنْ عَتْبٍ يَنْفِيهِ الرَّأْيُ وَيَأْبَاه، ويكثرُ على المَوَدَّةِ مَعَهَا الاشْتِبَاه، فَتَوَقَّفْ عَنْ إِنْشَادِكَ النَّاسَ مَا حرى أَنْ لَيْسَتْ لَهُ أَشْبَاه، فَقَوْلٌ نَزَحْتَ بِهِ عَنِ الجِدِّ إِلَى الهَزْلِ، وَشَبَبْتَ وَقُودَ نَارِ التَّقْرِيعِ الفَظِيعِ وَالحَطَبِ الجَزْلِ، وَأَعَدْتَ به النُّفُوسُ الرَّاتِعَةَ فِي وِدَادِكَ الخِصْبِ إِلَى الضِّيقِ وَالأَزْلِ، هَذَا أَوطَالَ عَلَيْكَ الأَمَدُ فقَسَى قَلْبُكَ وَاتَّهَمْتَ الجَمِيعَ.

فَأَمَّا وَقَدْ حَلَلْتَ حِمْصَ[2] وَهَذِهِ أَوَّلُ البُشْرَى، فَسَأُوَالِي كُتْبِي إِلَيْكَ تَتْرَى، وَمَا أُرِيكَ من آيَةٍ فِي الوُدِّ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الأُخْرَى[3]. وَلَا بُدَّ مِنْ كَيْلٍ لَكَ بِصَاعِكَ، وَمُجَازَاتِكَ فِي المُعَاتَبَةِ بَاعًا كَبَاعِكَ، أَلَمْ يَكُنْ فِي الرُّقْعَةِ فَضْلٌ تُفَضِّلُهُ لِأَخِيكَ؟ أَلَمْ يَكُنْ فِي الوَقْتِ عَرْضٌ وَسَمْحٌ فَيُسَمِّحُكَ وَيُسَخِّيكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ أَشَدَّ تَوَخِّيًا لِلْمَبَرَّةِ فتَدُومَ عَلَى تَوَخِّيكَ.

وَقَدْ وَقَفْتُ لَكَ عَلَى عِدَّةِ كُتُبٍ إِلَى أَخِينَا الفَقِيهِ أَبِي الأَصْبَغِ فَمَالَكَ لَمْ تَجْعَلْهَا بَيْنَ إِخْوَانِكَ دُولَه، أَوْ تَبْذُلَ لِجَمِيعِهِمْ مِثْلَهَا فَمَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَبْذُولَة، يَا شَدَّمَا بَدَأْتَنِي بِالتَّعَجُّبِ وَقَدْ شَارَكْتَنِي، وَسَطَوْتَ بِي سَطْوَةَ الجَائِرِ بَعْدَ أَنْ مَالَأْتَنِي حَتَّى مَلَكْتَنِي، هَذَا

(1) مقتبس من المثل العربي المشهور: «عند الصباح يحمد القوم السرى»، مجمع الأمثال.
(2) حمص هنا يقصد بها إشبيلية.
(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾. سورة الزخرف، الآية: 47.



مَعَ تَحَقُّقِكَ أَنِّي بِهَذِهِ الحَضْرَة، وَكَوْنِي مِنْ مَوْضِعِ إِقَامَتِكَ فِي شَكٍّ وَحَيْرَة، فَلَوْ تَرَكْتَنِي مَعَ السَّجِيَّةِ، وَحُسْنِ الطَّوِيَّةِ وَالنِّيَّة، لَطِبتُ بِمَا عِنْدَكَ نَفْساً، ولم أَجِدْ فيها لَبْساً، وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى هَذَا عُدْوَانُ الزَّمَانِ، وَكَثْرَةُ السَّرَابِ بِالقِيعَانِ[1] وَغُرْبَتُكَ فِي البَادِيَةِ بِالوَجْهِ وَاليَدِ واللِّسَانِ[2].

وَإِنِّي لَمِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ بَسْطاً لِعُذْرِكَ، وَتَعَجُّباً مِنْ صَبْرِكَ، عَلَى مَا فَقَدْتَ مِنْ عَدَمِ المُسَاعِدِ وَالنَّصِيرِ، وَلَقِيتَ مِنْ زَمَانِكَ مِنَ التَّقْصِيرِ وَالسَّعْيِ القَصِيرِ، وَلَا بُدَّ بِحَولِ الله مِنْ مَصِيرِكَ إِلَى الحُسْنَى خَيْر مَصِير، وَلَوْلَا التِّيهُ مَا حُبِّبَ إِلَى أَبِي جُمْعَةَ كُلُّ قَصِير. وَقَد اتَّصَلَ بِي مِنْ قِبَلِ الأَخِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ حُبَيْش[3] اتِّصَالُكَ بِالشَّيْخِ الحَافِظِ المُبَارَكِ أَبِي سُلَيْمَانَ بن دَاود وَاعْتِلَاقُكَ بِحَبْلِهِ، وَانْتِمَاؤُكَ إِلَى ذَرَاهُ وَظِلِّهِ. وَهُوَ عَلَى الدَّهْرِ أَكْرَمُ مُجِير، وَأَعَزُّ ظَهِير، وَذَلِكَ مِمَّا سَرَّنِي مَوْقِعُه، وَأَمَّنَنِي مِنْ كُلِّ مَا كُنْتُ أَتَوَقَّعُهُ فَثِقْ مَعَهُ بِإِدْرَاكِ الأَمَلِ، وَنَيْلِ الأَمَانِي بِالقَهْرِ لَا بِالحِيَلِ، واللهُ يسرك بِمَنْزِلَةٍ مَكَانُ رَجُلٍ مِنْهَا كَمَكَانِ التُّرْبِ مِنْ زُحَلْ[4].

وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْهِ كِتَاباً أُوَكِّدُ من أَمْرِكَ عِنْدَهُ - أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ - مَا يُغْنِي فَضْلُه عنه، وَأُعَرِّفُهُ من قَدْرِكَ وَفَضْلِكَ بِمَا انْتَهَى وُسْعِي مِنْهُ، فَتَكَرَّرْ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ فَهُوَ أَجْدَى مَنْ تُرْجَى لَدَيْهِ الوَسَائِل، وَتُحَطُّ إليه الرَّسَائِل، وَإِنْ سَمَحَ فِي عَرْضِ هَذِهِ الأَحْرُفِ عَلَيْهِ

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾. سورة النور، الآية: 38.

(2) فيه إشارة إلى قول المتنبي وهو يصف شعب بوان:

مَغَانِي الشِّعْبِ طِيباً فِي المَغَانِي ... بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ولَكِنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا ... غَرِيبُ الوَجْهِ وَاليَدِ وَاللِّسَانِ

ديوانه 2/ 553.

(3) في الأصل أبو القاسم بن جحيش ولعله خطأ من الناسخ لأن ابن حُبيش فقيه أندلسي مشهور. ولا نعرف اسما لشخصية أندلسية تعرف بابن جحيش.

(4) زحل: كوكب مضيء مرتفع.



فَهُوَ أَهْلُ السَّمَاحِ، وَخَيْرُ مُسْتَمَاحٍ، وَاللهُ يَصْنَعُ لَكَ أَجْمَلَ الصُّنْعِ وَأَحْفَاه، وَأَوْفَرَ السَّعْيِ وَأَوْفَاه، وَأَجْمَلَ الأَمَلِ وَأَكْفَاه. بِمَنِّه لَا رَبَّ سِوَاه. والسَّلَامُ الأَتَمُّ عَلَى سَيِّدِي وَأَخِي وَعَلَى سَائِرِ الإِخْوَانِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

وَمِنْ إِنْشَاء ابْنِ عَبْدِ الحَمِيدِ إِلَى ابْنِ تُونْدُوت:

إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَيْقَظَ اللهُ بَصِيرَتَهُ مِنْ نَوْمَةِ ضَلَالِهِ، وَفَاءَ بِهِ إِلَى كَنَفِ التَّوْحِيدِ وَظِلَالِهِ، مِنَ المُبْتَهِلِ إِلَى اللهِ فِي صَلَاحِ حَالِهِ، وَسَلَامَةِ مَآلِهِ. ابن عَبْدِ الحَمِيدِ أَمَّا بَعْدُ: فَيَا لَيْتَكَ لَمْ تُخْلَقْ بَشَراً سَوِيّاً، فَقَدْ صِرْتَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً، لَمَّا تَرَكْتَ مَا كَانَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ المَرْحُومُ مِنَ الاغْتِبَاطِ بِهَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ بِهِ حَفِيّاً، وَقَدْ مَهَّدَ فِيهِ لِعَقِبِهِ صِرَاطاً سَوِيّاً، ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1] نَكَثْتَ بَيْعَةً وَنَقَضْتَ عَهْداً، وَصِرْتَ بَعْدَ الإِمَارَةِ لِأَهْلِ اللِّثَامِ عَبْداً، وَاسْتَبْدَلْتَ مِنْ عُلُوِّ القَدْرِ وَسُمُوِّ المَكَانِ تَحْتاً، وَمِنَ الرَّشَادِ ضَلَالَةً ومن المَالِ حَرَاماً وَسُحْتاً[2] فَازْدَدْتَ مِنَ اللهِ بُعْداً وَمَقْتاً، وَمَا مَثَلُكَ إِلَّا ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[3]. وَقَدْ تَبَرَّأَتْ منكَ هَسْكُورَة[4] أَعْزِزْ بِهَا شَرَفاً وَقَبِيلاً يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا.. ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾[5]، ... مِنْ نِعَمِ الله سُبْحَانَه، ثُمَّ مِنْ نِعَمِ هَذَا الأَمْرِ العَزِيز خلده الله عريقا، وَبَوَّأَكُمْ التَّوْفِيق فِي مُنَاصَحَة هَذَا الأَمْر وَخِدْمَتِه مجداً عَالِياً وطَرِيقا، وَتلحظك بعَيْنِ الاغْتِبَاطِ الأَبْصَارُ، تَحل لِمُكَاتَبَتِكَ ثَوْب الحُبَى، وَتحْتَمِي بِكَ الجِبَالُ الشَّامِخَةُ وَالرُّبَى، تَقْصِ

---

(1) سورة مريم، الآية: 59.

(2) السحت: ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبيح الذكر، قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ﴾. سورة المائدة، الآية:64.

(3) سورة العنكبوت، الآية: 41.

(4) هسكورة:قبيلة بربرية مغربية مذكورة عند ابن خلدون.

(5) سورة فاطر، الآية: 8.



الرِّقَاب قَصّا، وَالمَهَابَةُ قَدْ بَسَطَتْ إِلَيْكَ القُلوب بَسْطًا، تُجَيِّشُ الجُيُوشَ لِلْجِهَادِ، وتُخَلِّفُهم بِخَيْرٍ في الأَهْلَيْنِ وَالأَوْلَادِ.

قَدْ نظمتك عِنَايَةُ هَذَا الأَمْرِ - خَلَّدَهُ اللهُ - فِي مَرَاتِبِ العِلْيَةِ الجِلَّةِ مِنْ أَوْلَادِ أَهْلِ الجَمَاعَةِ، لُيُوثِ البَسَالَةِ وَالشَّجَاعَةِ، الوَارِثِينَ عَنْ آبَائِهِم مَنَاهِجَ البِرِّ المُسْتَبِينَةِ، المُسْتَمْسِكِينَ بِعُرْوَةِ الحَقِّ المَتِينَةِ، المُقْتَفِينَ سُبُلَ هَذَا الأَمْرِ وَسَنَنِهِ، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[1] فَخَلَعْتَ مِنْ عُنُقِكَ رِبقَ الإِسْلَام، وَلَمَّا دَعَاكَ الشَّيْطَانُ إِلَى الضَّلَالَةِ أَظْهَرْتَ لَهُ الاسْتِسْلَام، وَمَحَوْتَ بِسَيِّئَاتِكَ مَا كُتِبَ فِي صَحِيفَتِكَ منْ إِخْلَاصٍ وَنَصِيحَة، وَخِدْمَةٍ مَشْكُورَةٍ وَآثَارٍ صَحِيحَة، فَعُوِّضَ اسْمُكَ مِنْ دِيوَانِ التَّوْحِيدِ بالشقْوَةِ وَالعِنَاد، وَآثَرْتَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِمَا أَظْهَرْتَ مِنْ طُغْيَانٍ وَفَسَاد، وَرَفَعْتَ رَايَةَ الغَدْرِ وَالارْتِدَادِ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[2] فَأَنْتَ بِأَخْبَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ الشَّيْطَانِ تَرْكُض، وَلِعُرَى الدِّينِ وَمَعَانِيهِ تَنْقُض.

كَفَرْتَ أَيَادِيَ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَآلائِهِم، وَبَسَطْتَ يَدَكَ فِي المُسْلِمِينَ تَقْتُلُهُمْ وَتُفَرِّقُ أَشْلَاءَهُمْ، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾[3] وَيَا عَجَبًا لَكَ كَيْفَ رَكَنْتَ لِأَهْلِ اللِّئَام وَالبَغْيِ وَالفُجُورِ، وَاسْتَبْدَلْتَ الفَيَافِيَ عوضًا من مَشِيدَاتِ الدُّور، وَاقْتَرَفْتَ كِبَارَ الكَبَائِرِ وَرَفَضْتَ ادِّخَارَ الأُجُورِ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾[4]، وَلَقَدْ رَكِبْتَ بِنَفْسِكَ الغَرَرَ وَالخَطَرَ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْكَ الأَشَرُ وَالبَطَر، وَآثَرْتَ العَاجِلَةَ، عَلَى الآجِلَة، فَفَاتَكَ الرَّأْيُ الحميدُ وَالوَطَر، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ [مُنْتَظَر][5] فاصْرِفْ نَفْسَكَ عَنِ الفَسَادِ وَالظُّلْمِ، وَلَا تَكُ مِمَّن اتَّخَذَ إِلَاهَهُ هَوَاهُ

(1) سورة الزمر، الآية: 17.

(2) سورة الرعد، الآية: 34.

(3) سورة محمد، الآية: 15.

(4) سورة فاطر، الآيات: 19 - 20 - 21.

(5) خرم بالأصل.



وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْم[1]. وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ بِالمِرْصَادِ، وَاقْرَأْ آخِرَ آيَةٍ من سُورَةِ صَاد[2]، وَبَادِرْ مُبَادَرَةَ مُنِيب، وَتُبْ مِنْ قَرِيب، وَسَارِعْ مُسَارَعَةَ مُخْلِصٍ بِتَوْحِيدِهِ وَمَتَابِهِ، وَأْتِ الأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، قَبْلَ أَنْ تَلْمَعَ لَكَ السُّيُوف بَوَارِقَها، وَتَبْعَثَ إِلَيْكَ الحُتُوفُ رَوَاشِقَها، فَقَدْ نَهَضَ المُوَحِّدُونَ أَيَّدَهُم اللهُ وَنُفُوسُهُمُ الزَّكِيَّةُ عَلَيْكَ وَعَلَى أُولَئِكَ الأَشْقِيَاءِ حَنِقَة، وَقُلُوبُهُمْ التَّقِيَّةُ النَّقِيةُ لِلْمَنَايَا مُعْتَنِقَة، فَكَأَنْ ضَاقَ بِكَ البَرَاح، وَنَقَضَ عَزِيمَتَكَ الكِفَاح، وَرَفَضَتْكَ الرَّوَابِي وَالبِطَاح، وَتَحَكَّمَتْ فِيكَ المَنَاهِلُ وَالرِّمَاح، فَاتَّخِذِ الرُّجُوعَ إِلَى الله سَبِيلاً، وَاحْذَرْ مِمَّنْ قَالَ الله فِيهِم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلًا﴾[3] فَعَجِّلْ بِاسْتِرْضَائِكَ الحَضْرَةَ الإمامية، قبلَ أَنْ يَفْجَأَكَ الحِمَام فتكُونَ مَيْتَتُكَ ميتةً جَاهِلِيَّة. فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون كَيْفَ أَشْمَتَّ بِنَفْسِكَ وَإِخْوَانِكِ العِدَا، وَعَرَّضْتَ لِلْمِحْنَةِ أَهْلاً وَوَلَدا، وَرَكِبْتَ هَوَى نَفْسِكَ وَكُنْتَ أَضْعَفَ نَاصِراً وَأَقَلَّ عَدَدا:

فَدَاوِ دَاءَكَ، وَالأَسْبَابُ مُمْكِنَةٌ وَإِذْ طَبِيبُكَ قَدْ أَلْقَى عَلَيْكَ يَدَا[4]

فَإِنْ بَادَرْتَ الإِنَابَة، أَلْفَيْتَ عِنْدَ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ جَمِيلَ العَفْوِ وَكَرِيمَ الاسْتِجَابَة، فَقَدْ تَقَدَّمَتْ لَكَ خِدْمَةٌ مَشْكُورَة، فَشَفِّعْهَا الآنَ بِتَوْبَةٍ مَبْرُورَة، لَكِنَّ الهَفْوَةَ بَيْنَهُمَا - بِمَشِيئَةِ اللهِ - مَغْفُورَة. فالسَّعِيدُ مَنْ بَادَرَ بِالمَتَابِ وَاعْتَرَف، وَتَرَكَ البَاطِلَ رَغْبَةً عَنْهُ وَاقْتَرَف، فَفِي قَوْلِ اللهِ النِّعَمُ السَّالِفَةُ وَالخَلَف، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[5].

بَلَّغَنِي اللهُ فِي إِنَابَتِكَ الأَمَل، وَأَصْلَحَ مِنِّي وَمِنْكَ القَوْلَ وَالعَمَل. وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي حُبِّ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ وَاسْتَدَامَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾. سورة الجاثية، الآية: 23.

(2) آخر آية من سورة ص هي: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾. الآية: 86.

(3) سورة الإنسان، الآية: 27.

(4) البيت من البسيط.

(5) سورة الأنفال، الآية: 38.



وَمِنْ إِنْشَاءِ الطَّبِيبِ أَبِي الحَجَّاج ابن عُتْبَة إلى ابنِ بَكْسَاس:

أَسْتَوْهِبُ اللهَ التَّوْفِيقَ، وَأَسْتَرْشِدُهُ أَنْ يُوضِحَ لي الطَّرِيق ... كُلّ آية، عَرَابَةُ في تَلَقِّيهِ الرَّايَة[1]، مُطْفِيءُ نِبْرَاسِهِ، بِأَنْفَاسِهِ، أَمَا كَانَ لَكَ أَيُّهَا الهَازِي، أَنْ تُصَرْصِرَ صَرِيرَةَ البَازِي، لَا تَقْتَنِصُ إِلَّا بِمِخْلَبِكَ، وَلَا تَطِلُّ إِلَّا مِنْ مَرْقَبِكَ، أَتَظُنُّكَ سَحُوقَةَ اللَّيَان، البَادِيَةُ الأَفْنَان، حِينَ بَصُرَتْ بِالبِيدِ، بِذَاتِ الهَبِيدِ[2] فَنَادَتْ يَا أُمَّ الصَّرَايَة أَنْتِ صَاحِبَةُ الرَّايَة؛ كَلَّا - لَعَمْرِي- وَلَكِنَّكَ كَابْنِ بَرِيح[3]، المُجْهِزِ عَلَى كُلِّ جَرِيحِ، سَمِعَ صَوْتَ الحَمَامَةِ فَنَعَبَ، وَحَجَلَ يَحْكِي مِشْيَتَهَا فَمَا فَعَلَ وَلَا كَرَبَ، أَوْ كَالحِرْبَاءِ انْتَصَبَ لِيَخْطُبَ فَارْتَقَى كَالخَطِيبِ، عَلَى غُصْنٍ غَيْرِ رَطِيب، وَأَعَارَ لِسَانَ الجُنْدُبِ الهَجِير، وَانبَرَى يُغَازِلُ الشَّمْسَ بِالصَّفِير، فَلَحَنَ لَا بِالخَفِيفِ وَلَا بِالثَّقِيلِ، وَحَسَدَ مَنْ حَسَدَ كُلّ لَوْنٍ يَسْتَحِيل، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ تَحْصِيل، وَرَأْيٌ أَصِيل، تَحْصِيلُ الحَمَامَة، في العُودَيْنِ مِنْ نَشَمٍ وَآخَرُ مِنْ ثُمَامَة، وَأَنَا أُقْسِمُ بِقُزَحِ السَّمَا، وَبَقِيَّةِ الذَّمَا وَأَيَّامِ الرَّضِيِّ، وَيَوْم غَابَ عُذَّالُهُ لِلْعَرْجِيِّ، وَكَوَاكِبِ الرَّاحِ، فَوْقَ أَفْلَاكِ الرَّاحِ، وَزُرْقِ النِّطَافِ، [عَلَتْ][4] كَأْسهَا الشَّفَّاف، يَمِينٌ، لَا يَمِين، وَأَلِيَّة، دُونَ مَثْنَوِيَّة، أَنَّك فِي حَلْبَةِ كُتَّابِ هَذَا الأَوَانِ، لَكَالغَمَامِ البَحْرِيِّ بَيْنَ الحِيتَانِ، [يَسْتَلْهِمُ][5] حُسْنَ الحَيَوَان، وَمَا لَهُ حَرَكَةٌ في مَكَان، تَتَلَاعَبُ بِكُرَتِهِ أَيْدِي الغَوَارِبِ، وَتَلْتَقِيهِ أَفْوَاهُ الخُلْجِ وَالمَذَانِبِ. أَفِي كَرَمِ الصَّفَاءِ وَالإِخَاء، أَنْ تَهَبَ لِي زَعْزَعًا لا رُخَاء، شَنَنْتَ عَلَيَّ غَارَاتِكَ، تَحْتَ رَايَاتِكَ، رَمَيْتَنِي بِرُجُومِكَ، مِنْ سَمَاءِ مَنْظُومِكَ، وَلَفَحَنِي حَرُّ سَمُومِكَ، لَمَّا عَزَوْتُكَ إِلَى

---

(1) مرت الإشارة إلى عرابة وأبيات قيلت فيه.

(2) الهبيد: الحنظل، وذوات الهبيد: الرئال من النعام.

(3) ابن بريح: اسم للغراب سمي بذلك لصوته، قال الشاعر:

سَلَا القَلْبُ عَنْ كُبْرَاهُمَا بَعْدَ صَبْوَةٍ ... وَلَاقَيْتُ مِنْ صُغْرَاهُنَّ ابْنَ بَرِيحِ

اللسان: برح.

(4) خرم بالأصل.

(5) خرم بالأصل.



مَخْدُومِكَ. لَطَالَمَا زَعَمْتَ، أَنَّكَ نَظَمْتَ، ومدحت بِمِلْءِ فِيك، وَطِرْتَ بِأَبَاهِرِكَ وَخَوَافِيكَ، وَغُصْتَ فِي بَحْرِ المَجَرَّة، وَأَتَيْتَ بِنَجْمِهَا عَنْ درّة، فَقَلَّدْتَ بِهَا جِيدَ قُبَّرَة، فَمِثْلُكَ كَالغُرَابِ، المُكَنَّى بِأَبِي النَّعَّابِ، هَجَرَ مَنَاخه، وَأَنْكَرَ أَفْرَاخه. بَيْدَ أَنَّ رِسَالَتَكَ الحَوْلِيَّة، العَارِيَةَ العَرِيَّة، سَهَوْت فِيهَا كُلَّ السَّهْوِ، وَجِئْتَ فِيهَا بِمَا جَاءَ بِهِ شَيْخُ مَهْو[1] مَثَّلْتَ فِيهَا بِالمِثْلِ، وَأَقْدَمْتَ عَلَيْهِ وَلَمْ تَسَل، حَتَّى قُلْتَ: «أَعْيَا مِنْ أَبِي دُلَامَة»[2]، أَجِدَّكَ وَهَلْ كَانَ فِي فِطْنَتِهِ مَلَامَة، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنَّ بَغْلَتَهُ المَقْرُوفَةَ بِالعَيْبِ، المَرْجُومَةَ بِظَهْرِ الغَيْبِ، المُنْتَجِعَةَ لَهُ كُلَّ لَهِيبٍ جَعَلَهَا وُصْلَةً لِلْمُلُوكِ، وما كان – لَعَمْرُ الله – بِعَيِيٍّ وَلَا مَفْرُوك، بَخٍّ بَخٍ[3] مَا رَأَيْتُ أَعْجَبَ مِنْكَ أَيُّهَا الأَخ، أُحَاجِيكَ وَأُنَاجِيكَ، فَتَبْعَثُ لِي جَيْشًا مِنْ أَهَاجِيكَ [تَغْزُونِي سِنِينا][4]، وَتَقْرِينِي غُثَاءً لَا سَمِينا، فَمِثْلُكَ فِي تَأَنِّيكَ وَمَا جَلَبْتَ مِنْ غَثِّ مَعَانِيكَ، كالحِدَأَةِ المُنِيف، عَلَى السباطَةِ أو الكَنِيف، توعلَ بالصَّحَاح، وَسَوَّى للصُّعُودِ خَوَافِيَ الجَنَاحِ، وَاخْتَرَقَ الهَوَاءَ، حَتَّى صَافَحَ السَّمَاء. وَحِينَ بَصُرَ بِجُرْذٍ بِهَا قَدِ اسْتَقْبَلَ، حَدَّقَ نَحْوَهُ وَأَقْبَل، وَحَامَ عَلَيْهِ وَاسْتَعْلَى، وَضَمَّ جَنَاحَيْهِ وَتَدَلَّى، وأسفَ وَاخْتَطَفَ، وَقَضْقَضَ حِينَ انْقَض، وَكَفَّ، مِلْءَ الكَفّ، وَانْتَقَى، مَا كَانَ لَقَى.

هَذِهِ – سَدَّدَهُ الله – آيَةُ رِسَالَتِك، وَآيَاتُ غَزَالَتِك، فَلَا تُبَارِ السَّوَابِقَ بِعَيْر، وَلَا تُعَارِضِ الصُّقُورَ بِخَشَاشِ الطَّيْرِ «وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْر»[5] وَالسَّلام.

---

(1) في المثل العربي: أخسر صفقة من شيخ مهو. جمهرة الأمثال 1/ 432.

(2) مثل عربي مشهور. مجمع الأمثال.

(3) بخ: كلمة معناها التعجب وفيها لغات بسكون الخاء وبكسرها مع التنوين وبتشديدها منونة وغير منونة وهي غالبا ما تأتي مكررة. قال الشاعر:

بَخٍّ بَخٍّ يَا عُتْبُ مَنْ مِثْلُكُمْ ... قَدْ قَتَلَ المَهْدِيّ فِيكُمْ قَتِيلُ

طبقات الشعراء لابن المعتز، ص: 230، الروض الأنف2/ 68.

(4) خرم بالأصل.

(5) شطر من البيت الشعري الذي يقول فيه جرير:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْر ... فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابا

العقد الفريد، ص: 329.



قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ البَلَوِيّ - عَفَا اللهُ عَنْهُ - وَمِنْ إِنْشَائِي فِي هَذَا البَابِ:

الأَخُ الأَجَلُّ الأَوْفَى، الأَبَرُّ الأَحْفَى، أَبُو فُلَان، أَبْقَاهُ اللهُ تَاجـاً عَلَى مَفْرِقِ الشَّبَابِ، وَسِرَاجـاً فِي دُجَى الأَوْلِيَاءِ وَالأَحْبَابِ، وَلَا زَالَ لُؤْلُـؤاً يَسْتَخْرِجُهُ المَجْدُ مِنْ بَحْرِهِ، فَيَنْظِمُهُ عَلَى لَبَّةِ الزَّمَانِ السَّعِيدِ وَنَحْرِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَتَحَ اللهُ لِأَلِيفِنَا أَبْوَابَ الزِّيَادَةِ، وَجَرَى لَهُ فِي ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ العَادَةِ، وَبَوَّأَنَا أَيُّهَا الخَلِيلُ الجَلِيلُ مَرَاتِبَ السَّعَادَةِ، فَإِنَّهُ وَصَلَنِي كِتَابُكُمُ الأَثِيرُ، بَلْ دُرُّكُمُ النَّثِيرُ، فَيَا لَـهُ مِنْ وَاصِلٍ مَا أَعَزَّهُ عَلَيَّ، وَأَحَبَّهُ إِلَيَّ.

وَلَمَّا شَقَقْتُ كِمَامَه عَنْ أَزْهَارِ كَلَامِكُمْ، وَفَضَضْتُ خِتَامَهُ عَنْ بَدِيعِ نَثْرِكُمُ الرَّائِعِ وَنِظَامِكُمْ، وَوَقَفْتُ مِنْهُ عَلَى تَحِيَّتِكُمُ العَطِرَةِ وَسَلَامِكُمْ، هَلَّلْتُ فِي مَوَاقِفِهِ وَكَبَّرْتُ، وَقَدَّمْتُ فِي تَعْظِيمِهِ وَأَخَّرْتُ، وَطَفِقْتُ أُقَبِّلُهُ حَرْفـاً فَحَرْفـاً، مِائَةً فَمِائَةً، وَأَلْفـاً فَأَلْفـاً، وَلَـوْلَا خَوْفِي عَلَى سُطُورِهِ أَنْ يَمْحُوَهَا التَّقْبِيلُ، وَيُبْلِيَهَا بِالطَّيِّ وَالنَّشْرِ[1] التَّعْظِيمُ المُفْرِطُ وَالتَّبْجِيلُ، لَكُنْتُ عَلَى هَذَا القَدْرِ مِنْ تَعْظِيمِهِ غَيْرَ مُقْتَصِر، وَلَمَا وَقَفْتُ مِنْ تَقْبِيلِهِ لَدَى حَدٍّ مُنْتَهٍ وَلَا عِنْدَ عَدَدٍ مُخْتَصَر، فَأَضْحَى طَرْفِي يَمْرَحُ فِيهِ وَلَا يَنْبُو، وَطِرْفُ سُرُورِي بِهِ يَحْضُرُ وَلَا يَكْبُو، وَفُؤَادِي بِوُصُولِهِ يُثْلَجُ، وَنَفْسِي بِمُضَمَّنِ فُصُولِهِ تُسَرُّ وَتُبْهَجُ، وَالفَرَحُ بِهِ قَدْ بَلَغَ غَايَتَهُ وَقَاصِيَتَهُ، وَمَلَّكَنِي زِمَامَ السُّرُورِ وَنَاصِيَتَهُ، إِذْ عَثَرَ الطِّرْفُ فِي مَدِّ شَأْوِهِ وَطَلَقِهِ، وَقَصَّرَ الطَّرْفُ مِنْ خَشْيَتِهِ عَلَى الوِدِّ وَفَرَقِهِ، وَرَأَيْتُ العِتَابَ أَبْيَنَ مِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ وَفَرقِهِ، يَخْمِشُنِي بِأَظْفَارِهِ، وَيَعَضُّنِي بِنَابِهِ وَيَحْرِقُنِي بِنَارِهِ، وَيَرْجُمُنِي بِشِهَابِهِ، وَيُبِينُ لِي مِنْ قَوْلِ العُدَاةِ مَا لَا يَكَادُ يَبِينُ، وَيُدْنِينِي مِنْ تَقَوُّلِ الوُشَاةِ بِمَا لَا يَقْبَلُهُ الحَقُّ وَلَا يُصَدِّقُهُ اليَقِينُ، فَاغْتَظْتُ عَلَى العِدَا غَيْظـاً غَيْرَ كَظِيمٍ، وَقُلْتُ

---

(1) الطي والنشر: هنالك مصطلح بلاغي يعرف باللف والنشر أيضا: انظر دلائل الإعجاز للجرجاني.



﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾[1] ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾[2] مَعَاذَ اللهِ أَيُّهَا الوَلِيُّ أَنْ تَحْكُمَ نَفْسُكُمُ النَّفِيسَةُ إِلَّا بِالإِبْطَالِ لِمَا نَقَلُوهُ والتَّكْذِيبِ[3]:

عَلَيَّ واللهِ فِيمَا لَفَّقُوا كَذَبُوا ... كَكِذْبِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَى الذِّيبِ

إِنْ هُوَ ﴿إِلَّآ إِفْكٌ إِفْتَرِيٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ـاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْماً وَزُوراً﴾[4] ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾[5]، ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِماً اَوْ كَفُوراً﴾[6]، ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[7]، ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[8]، ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾[9]، وَاسْتَعِذْ مِنْهُ اسْتِعَاذَتَكَ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. وَاذْكُرُوا مَنْ يَذْكُرُكُمْ بِخَيْرٍ ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾[10]، ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ اَلْمُسْرِفِينَ اَلذِينَ يُفْسِدُونَ فِي اِلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[11].

وَثِقْ أَيُّهَا الأَخُ بِأَنَّ الَّذِي أَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنَ الوَلَاءِ، وَأُضْمِرُ لَكُمْ عَلَيْهِ من الخُلُوصِ وَالصَّفَاءِ، لَا يَخِيسُ بِهِ المَيْنُ وَلَا يُفْسِدُهُ البَاطِلُ:

---

(1) سورة النور، الآية: 16.
(2) سورة الجاثية، الآية: 6.
(3) البيت من البسيط، وفيه إشارة إلى أبناء يعقوب الذين جاءوا بقميص أخيهم وعليه دم وقد كذبوا في ذلك على أبيهم.
(4) سورة الفرقان، الآية: 4.
(5) سورة الأنعام، الآية: 68.
(6) سورة الإنسان، الآية: 24.
(7) سورة الأنعام، الآية: 112.
(8) سورة الصافات، الآيتان: 178- 179.
(9) سورة القلم، الآيتان: 10-11.
(10) سورة الروم، الآية: 16.
(11) سورة الشعراء، الآيتان: 151- 152.



وَإِذَا أَتَتْـكَ مَـذَمَّتِي مِـنْ نَـاقِصٍ ... فَهْـيَ الـشَّهَادَةُ لِـي بِـأَنِّي فَاضِـلُ[1]

أَيَودُّ الأَعْدَاءُ أَيُّهَا الوَلِيُّ الأَحَبُّ أَنْ يُغَيِّروا بَيْنَنَا وِدّاً قَدْ رَسَخَ، أَوْ يُدَنِّسُوا مِنْهُ بُرْداً مَا دَرَنَ قَطُّ وَلَا اتَّسَخ، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ إِنَّهُ وِدٌّ لَا تُغَيِّرُهُ الشَّوَائِب، وَلَا تَطْرَأُ عَلَيْهِ يَد المسند النَّوَائِب، وَإِنِّي لَأُودِعُ تَحِيَّتَكُمْ كُلَّ صَباً وَأُسَائِلُ عَنْكُمْ كُلَّ دَبُورٍ، وَمَا أَنَا عَلَى بِعَادِكُمْ بِجَلْدٍ وَلَا صَبُورٍ. وَصَلَ اللهُ مَا بَيْنَنَا وَأَدْنَاهُ، وَمَنَحَنَا مِنَ العَيْشِ أَهْنَاهُ، وَكَفَانَا مَا يَشْتَهِيهِ العَدُوُّ الكَاشِحُ وَيَتَمَنَّاهُ. واللهُ يَضْرِبُ بِسَيْفِ الوَصْلِ عُنُقَ البَيْنِ، وَيَتَكَفَّلُ مِنَ الاجْتِمَاعِ المَرْضِيِّ بِمَا يَكُونُ فِيهِ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ وَقُرَّة العَيْنِ، [وَيَصِلُ وُدَّنَا][2] فِي ذَاتِهِ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ. بِمَنِّهِ وَالسَّلَامُ الأَوْفَى الأَحْفَى عَلَيْكُمْ مَا ذَرَّ شَارِقٌ، وَافْتَرَّ بَارِقٌ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

أَزُورُكُـمْ لَا أُجَـازِيكُمْ بِجَفْـوَتِكُمْ ... إِنَّ المُحِـبَّ إِذَا مَـا لَمْ يُـزَرْ زَارَا[3]

شَكَرَ اللهُ أَيَّتُهَا العَشِيرَةُ افْتِقَادَكُمْ، [وَحَرَسَ وُدَّكُمْ][4] وَاعْتِقَادَكُمْ، فَلَقَدْ سَلَكْتُمْ مَعِي مَسْلَكاً مَرْضِيّاً، ونَظَرْتُمْ لِي نَظَراً جَلِيّاً.

لَا يَثُوبُ لَهُ أُنْس، وَلَا تَهْدَأُ مَعَهُ نَفْسٌ، إِلَّا بِكِتَابٍ يَصِلُهُ مِنْ أَهْلِهِ، وَيُعِيذُهُ مِنْ زَقُّومِ الشَّوْقِ وَمُهْلِهِ، يَردُ عَلَيْهِ [كَالجَبْرِ لِلْكَسِيرِ][5] وَالبُشْرَى بِفَكِّ الأَسِيرِ، وَيُسْرِ العَسِيرِ، يُقربُ العَهْدَ وَإِنْ كَانَ شَاسِعاً، وَيُرِيهِ الأُنْس أَبْيَض نَاصِعاً، وَيُمَلِّكُهُ نَوَاصِيَ السُّرُورِ، وَيُعَرِّفُهُ قَوَاصِيَ الأُمُورِ، فَطَفِقْتُمْ تُوَالُونَ الكُتُبَ مُوَالَاةَ النَّفَسِ، وَتَصْحَبُونَهَا كُلَّ رَاكِضٍ بِالقَدَمِ وَرَاكِبٍ بِالفَرَسِ، وَتَقْرِنُونَهَا بِالصَّلَوَاتِ الخَمْسِ، وَتُتَابِعُونَهَا مُتَابَعَةَ مَنَازِلِ القَمَرِ

(1) البيت من الكامل وهو للمتنبي، انظر شرح ديوانه 3/ 376.
(2) خرم بالأصل.
(3) البيت من البسيط، وقد ورد دون نسبة في العقد الفريد6/ 212. وروايته «أزوركم لا أكافيكم». وهو للعباس بن الأحنف، انظر الديوان.
(4) خرم بالأصل.
(5) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.



وَالشَّمْسِ، حَتَّى إِنَّكُمْ حَمَّلْتُمُونَنِي مِنْ شُكْرِ ذَلِكَ عِبْئاً ثَقِيلاً، وَأَوْلَيْتُمُونِي اعْتِنَاءً وَاضِحاً وَوُدّاً صَقِيلاً. وَلَوْ نَطَقْتُ بِمَا أَعْتَقِدُهُ مِنَ الشُّكْرِ، وَجَمِيلِ الذِّكْرِ، عَلَى أَنْ كَانَ مِنْكُمْ هَذَا المَنْزَع، وَالاهْتِبَال الَّذِي يَزَعُ مِنَ الشَّوْقِ وَالتَّوْقِ مَا يَزَع، لاثْبَتَت البَلَاغَة والبَرَاعَة لِبِلَى، وَلعطلتْ كلَّ رَوْضٍ مِنْ زَهْرٍ وَكُلَّ جِيدٍ مِنْ حُلَى. فَمَا مِثْلُ اهْتِبَالِكُمْ بِالمُخَاطَبَةِ - وَالحَمْدُ للهِ - اهْتِبَالٌ وَلَا كَاحْتِفَالِكُمْ فِيهَا - بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ - احْتِفَالٌ، وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ كَثْرَةِ كُتُبِكُمْ إِلَيَّ، وَتَرَادُفِهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَوَقْتٍ عَلَيَّ، وَأُبَاهِي بِهَا مَنْ فَقَدَ الأَهْلَ وَالإِخْوَانَ، وَأَقُولُ سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ فِي نُفُوسِ القَرَابَةِ هَذَا الإِشْفَاقَ وَالحَنَانَ، حَيْثُ لَا شُغْلَ يَشْغَلُهُمْ عَنِّي، وَلَا بَالَ يَتَعَلَّقُ لَهُ إِلَّا بِمَا كَانَ وَيَكُونُ مِنِّي. وَأَشْكُرُ اللهَ عَلَى أَنَّ مَعِي أَهْلاً وَقَرَابَة، وَعَشِيرَةً وَعِصَابَة، وَأَنَّ وَرَائِي مَنْ يَسْأَلُ عَنِّي إِذَا غِبْتُ، وَيُعْنَى بِي إِذَا تَغَرَّبْتُ كَلَّا - واللهِ - لَوْ كَانَ هَذَا مِنْكُمْ حَقّاً، لَكَانَتْ هَذِهِ المُخَاطَبَةُ صِدْقاً، وَلَوْ كُنْتُمْ كَمَا ذَكَرْتُ أَهْلاً، لَكَانَتْ جِدّاً وَلَمْ تكُنْ هَزْلاً، وَفِي هَذَا الكَلَامِ، مَقْنَعٌ لِأُولِي الأَفْهَامِ، فَتَدَبَّرُوا الكِتَابَ، تَتَبَيَّنُوا العِتَابَ.

وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ - تَاللهِ - مَا وَصَلَنِي كِتَابٌ مِنْكُمْ مِنْ يَوْمِ تَحَمُّلِي عَنْكُم، وَهَذِهِ شُهُورٌ قَدْ سَلَفَتْ لي فِي الغُرْبَةِ، وَمَا فَرَّجَ لِي خِطَابُكُمْ مِنْ كُرْبَةٍ، وَقَدْ صَدَرَتْ إِلَيْكُمْ مُخَاطَبَاتِي عَشْرَ مِرَارٍ، وَسَلَكَ إِلَيْكُمْ بِهَا فِجَاجَ الجِبَالِ وَأَمْوَاجَ البِحَارِ. وَأَرَاهَا بِالفِطْنَةِ الإِيَاسِيَةِ[1] وَالمُخَيِّلَةِ القِيَاسِيَةِ، لَمْ يُفَضَّ لَهَا خِتَام، وصُرِفَ حَامِلُهَا سَيِّءَ الظَّنِّ وَالبَالِ عَلَيْه القَتَام، وَنُبِذَتْ بِالعَرَاءِ، وَلَمْ تُرْعَ فِيهَا حُرْمَةُ مُرْسِلِهَا مِنْ هَذِهِ الصَّحْرَاءِ. وَأَيْمُ اللهِ لَقَدْ كَانَ يَحْضُرُنِي عَلَى هَذَا مِنَ الكَلَامِ، أَنْفَذُ مِنَ السَّهْمِ، وَأَمْضَى مِنَ الحُسَامِ، يُسَرِّبُ المَدَامِعَ، وَيَسُوءُ المَسَامِعَ وَيَهْدِي العُمْيَ وَيُسْمِعُ الصُّمَّ، وَلَكِنْ هُنَا يَلْزَمُنِي الصَّمْت تَأَدُّباً مَعَ المُخَاطِبِينَ، وَإِبْقَاءً عَلَى المُكَاتِبِين، وَاسْتِدَامَةً لِلرِّضَا وَلَعَلَّهُ يَدُومُ، وَأَخْذاً بِقَوْلِهِمْ:

---

(1) فيه إشارة إلى قول الشاعر أبي تمام؛ وهو يمدح إياسا بالذكاء والفطنة:

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ... فِي حِلْمِ أَحْنَفَ فِي ذَكَاءِ إِيَاسِ

ديوان أبي تمام.



لَعَــلَّ لَــهُ عُــذْراً وَأَنْــتَ تَلُــومُ[1]

وَعُذْراً أَيُّهَا الأَحْبَابُ، فِيمَا تَضَمَّنَ هَذَا الكِتَابُ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ:

وَيَبْقَــى الــوُدُّ مَــا بَقِــيَ العِتَــابُ[2]

أَصْلَحَ اللهُ سَرَائِرَنَا، وَأَخْلَصَ فِي ذَاتِهِ ضَمَائِرَنَا، وَطَالَعَكُمْ مِنَ الأَحْوَالِ بِمَا يَحْسبُ الأمل، وَيُنْجِحُ السَّعْيَ وَالعَمَلَ. وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبْتُ لَهُ أَيْضاً:

وَقَدْ وَصَلَنِي كِتَابُكُمْ الأَثِيرُ البَرُّ الخَطِيرُ، وَصَلَ اللهُ إِكْرَامَكُمْ، وَشَكَرَ اعْتِنَاءَكُمْ بِحَقِّ الوَلَاءِ وَاهْتِمَامَكُمْ، فَتَلَقَّيْتُهُ تَلَقِّيَ المُحبِّ المُكْرَم، وَكَلفتُ بِشُكْرِ أَغْرَاضِهِ الجَمِيلَةِ كلفَ المُغْرَمِ. واللهُ يَعْلَمُ أَيُّهَا الوَلِيُّ الأَعَزُّ أَنَّ وُدِّي لَكُمْ مَرْصُوصُ البِنَاءِ، مَخْصُوصٌ بِالتَّهَمُّمِ المَوْصُولِ بِحِفْظِهِ وَالاعْتِنَاءِ، وَإِنَّ ثَنَائِي عَلَى مَعَارِفِكُمْ وَمَحَامِدِكُمْ أَجْمَلُ الثَّنَاءِ، وَأَنَّ الَّذِي عِنْدِي مِنْ ذَلِكَ لَا يَخِيسُ بِهِ تَقَادُمُ الزَّمَانِ، وَلَا بُعْدُ المَزَارِ - وَلَوْ فَرَضْنَاهُ - وَتَنَائِي المَكَانِ، بَلْ هُوَ هُوَ المَعْلُومُ قَدِيماً وَحَدِيثاً، وَالمَرْسُومُ الَّذِي أَسِيرُ إِلَى رَعْيِهِ فِي كُلِّ حِينٍ سَيْراً حَثِيثاً. وَلَقَدْ عَزَّ عَلَى مُجِلِّكُمْ أَنْ شَغَلَ تَأَوُّلَهُ لِلَفْظَةَ مَا بَالِكُمْ، وَأَوْحَشَ خِلَالِكُمْ، وَنَدِمَ عَلَى أَنْ خَاطَبَ ذَا القَوْلِ الفَصْلِ الجَزْلِ، بِشَيْءٍ مِنَ الدُّعَابَةِ وَالهَزْلِ، وَلَمْ يُفَكِّرْ فِي أَنَّ أَمْثَالَكُمْ مِنَ الكِرَامِ الفُضَلَاءِ، تَشْتَدُّ ضِنَّتُهُمْ بِالوَلَاءِ، وَيُؤْلِمُهُمْ أَدْنَى سَبَبٍ يَخَالُونَهُ قَادِحاً فِي عُودِ الصَّفَاءِ، وَحَاشَ للهِ أَنْ يُرَاعَ [لَكُمْ فِي][3] الله تَعَالَى سِرْبٌ، أَوْ يُكَدَّرَ مِنْهُ شَرْبٌ، وَالحَبْلُ أَحْصَفُ وَأَلْيَنُ، وَالسَّبَبُ أَقْوَى وَأَمْتَنُ، وَالوِدُّ أَجْمَلُ وَأَحْسَنُ. وَمَا كَانَتْ مِنْ مُحِبِّكُمْ إِلَّا عَثْرَةُ قَدَم، وَخِصَالُكُمْ تُغْضِي عَمَّا خَشنَ بِغَيْرِ قَصْدٍ مِنَ الكَلِمِ، فَقَدْ قِيلَ:

---

(1) شطره الآخر: «تَأَنَّ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِباً»، وهو للشافعي.

(2) ورد البيت دون نسبة بالعقد الفريد وصدره: «إذا ذهب العتاب فليس ود» العقد 2/ 310، وانظر بهجة المجالس نسبه لأعرابي.

(3) خرم بالأصل.



يُنْظَرُ إِلَى القَوْلِ وَقَائِلِهِ، وَخلوصِ مَنَاهِلِهِ. وَهُوَ وَالحَمْدُ للهِ نَارٌ فِي عَلَمٍ، بَلْ شَمْسٌ لَا تُبْقِي فِي آفَاقِ الصَّفَاءِ شَيْئاً مِنَ الظُّلَمِ، فَعَلَى ذَلِكَ تَقْطَعُونَ، وَإِيَّاهُ تَتَحَقَّقُونَ وَبِهِ تَتَوَفَّقُونَ. واللهُ يُعِينُ عَلَى أَدَاءِ حَقِّكُمْ، وَينهضُ بِمَا يَقَعُ بِأُفْقِكُمْ. وَقَدْ صَدَرَ الكِتَابُ الكَرِيمُ مِنْ قِبَلِ مَنْ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهمْ بِمَا تَتَعَرَّفُونَ مِنْ مُضَمِّنِهِ مَغْزَاه، وَالحَقُّ يَنْصُرُ نَفْسَهُ بَلْ يَنْصُرُهُ اللهُ. وَالظَّنُّ باللهِ جَمِيلٌ، وَعَدْلُ مَنْ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُمْ بِالنَّظَرِ السَّدِيدِ كَفِيلٌ، وَالخَيْرُ أَجْمَعُ فِيمَا يَصْنَعُ اللهُ مَأْمُولٌ. واللهُ يُعْلِي جَانِبَكُمْ، وَيَكْفِيكُمْ مُجَانِبَكُمْ وَالسَّلَام.

وَكَتَبْتُ أَيْضا:

الحُبُّ فِي ذَاتِ اللهِ - أَدَامَ اللهُ كَرَامَةَ الأَخِ الخَالِصِ الأَصْفَى أَبِي فُلَانٍ - إِذَا ثَبَتَ وَرَسَخَ، وَنُقِّيَ مِنْ دَنَسِ المَذْقِ فَمَا دَرَنَ ثَوْبُهُ وَلَا اتَّسَخ، وَاسْتَوَى فِي الخُلُوصِ وَالصِّحَّةِ سِرُّهُ وَجَهْرُه، وَجَرَى بَيْنَ شَطَّيْ الصَّفَاءِ وَالوَفَاءِ نَهْرُه، وَأَضَاءَ بَدْرُهُ وَعُرِفَ قَدْرُه، وَامْتَلَأَ بِهِ قَلْبُ المُحِبِّ وَصَدْرُه، لَمْ يَخِسْ بِهِ نَزْغُ شَيْطَانٍ، وَلَا كَانَ عَلَيْهِ لِلْفَسَادِ مِنْ سُلْطَانٍ، وَلَا قَدَحَ فِي عُودِهِ تَفَرُّقُ الأَجْسَام وَلَا تَنَازُحُ الأَوْطَانِ. وَالمَرْءُ إِذَا صَحَّ اعْتِقَادُهُ، اغْتُفِرَتْ أَحْقَادُهُ، وَاحْتُسِبَ فِي جَنْبِ الوُدِّ انْتِقَادُهُ «وَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ»[1]، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الودِّ رِضاً وَلَا سُخْطٌ فَفِي أَيِّ حَلَاوَةٍ يتصرفُ الكتَاب[2]، وَقَدْ كَانَ تقرَّرَ مِنْ وُدِّنَا - وَالحَمْدُ للهِ - مَا لَا يُخَافُ عَلَى عِقْدِهِ أَنْ يَنْحَلَّ، وَلَا عَلَى نَظْمِهِ أَنْ يَخْتَلَّ وَلَا عَلَى صَحِيحِهِ أَنْ يَعْتَلَّ. فَمَا يَضُرُّنَا أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَنَا؛ وَوُدُّنَا وَثِيقٌ، وَكِلَانَا بِرَعْيِ الذِّمَامِ حَقِيقٌ؛ أَلَا وَإِنِّي لَعَاتِبٌ عَلَيْكُمْ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَنَا عِنْدَ سَفَرِكُمْ وَدَاعٌ، وَلَا امْتَدَّتْ فِي مُصَافَحَتِكُمْ عَلَى مَا يَجِبُ ذِرَاعٌ.

---

(1) سبقت الإشارة إلى هذا البيت في صفحة متقدمة.

(2) مقتبس من قول الشاعر:

وَأَحْسَنُ أَيَّامِ الهَوَى يَوْمُكَ الَّذِي ... تُرَوَّعُ بِالهِجْرَانِ فِيهِ وَبِالعَتْبِ

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الحُبِّ سُخْطٌ وَلَا رِضَا ... فَأَيْنَ حَلَاوَاتُ الرَّسَائِلِ وَالكُتْبِ

الأغاني 22/ 230، المرقصات والمطربات، ص: 28، نصرة الثائر على المثل السائر، ص: 250، فوات الوفيات2/ 199.



وَإِنِّي مِنَ الشَّوْقِ إِلَى عَهْدِكُمْ لَعَلَى شَوْكٍ وَجَمْرٍ، وَفِي أَدْهَى شَأْنٍ وَأَعْظَمِ أَمْرٍ، وَلَئِنْ تفرَّقْنَا بِالأَشْخَاصِ، فَقَدِ اجْتَمَعْنَا بِالإِخْلَاصِ، وَإِنْ تَنَاءَيْنَا بِالأَجْسَام، فَلَقَدْ تَمَاثَلْنَا بِالأَوْهَام، وَإِنْ تَنَازَحَتِ الغُيُوبُ، فَقَدْ تَصَافَحَتِ الأَرْوَاحُ وَالقُلُوبُ، وَإِنْ أَوْدَى الزَّمَانُ بِأَيَّامِنَا النَّفَائِسِ:

فَمَا أَنَا مِنْ أَنْ يَجْمَعَ اللهُ بَيْنَنَا ... عَلَى خَيْرِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ بِآيِسِ[1]

بَلْ أَرْجُو أَنْ تَحسُدَ أَوَائِلُ أَيَّامِنَا لِلأَوَاخِرِ، وَنَعُوذ بِالوِدِّ الَّذِي بَيْنَنَا أَنْ يَفْسُدَ الأَوَّلُ بِالآخِرِ؛ وَمِثْلُكُمْ مَنْ عَرَفَ حَقَّ المَوَدَّةِ وَالمِقَة، وَكَانَ عِنْدَ الظَّنِّ بِهِ وَالثِّقَة. وَأَنَس بِكِتَابِهِ مِنْ وَحْشَةِ البَيْنِ، وَبَعَثَ مِنْ خِطَابِهِ بِقُرَّةِ العَيْنِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ الزَّمَانُ يُعْقِبُ وَيَنْزَحُ، وَيُمْسِي وَيُصْبِحُ، وَيَأْسَى وَيَجْرَحُ[2]، وَيُفْسِدُ بَيْنَ الخَلِيلَيْنِ ثُمَّ يُصْلِحُ. أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَنَا وَأَقَرَّ بِحُسْنِ اللِّقَاءِ عَنْ قَرِيبٍ عينَنَا؛ وَجَعَلَنَا مِمَّنْ اصْطَحَبَ فِي ذَاتِهِ، وَدَأَبَ عَلَى مَرْضَاتِهِ، بِمَنِّهِ وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبْتُ فَصْلاً قَصَدْتُ فِيهِ بَعْضَ إِغْرَابٍ:

أَيُّهَا السِّجِّيرُ، وَالأَفْضَلُ التَّهْجِيرُ، وَلَكِنِّي ارْتَقَبْتُ النِّدَاء، وَخِفْتُ البَيْدَاء؛ كَانَتْ بَيْنَنَا فِي التَّوَدُّدِ - خُرِسَ رَبْعُك وَلَا خُرِسَ طَبْعُكَ - مُعَاطَاةٌ جَرَتْ عَلَى الدَّوْرِ «وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الحَوْرِ بَعْدَ الكَوْرِ»[3] إِلَى أَنْ أَطَعْتَ المُبْتَشِك[4] الخَالِق، وَسُمْتَ العَاصِمَ الحَالِق، فَنَأَيْتَ ظُلْماً، كَأَنَّكَ لَمْ تَخُض بِالدُّخْلُلِ عِلْماً. وَعَلَى ذَلِكَ فَكَيْفَمَا تَقَلَّبْتَ، فَلَمْ تُبِحْ تِلَاعُكَ، وَلَا غُمِط انْطِبَاعُك، رَحَابَتُكُمْ بِالمَحَلِّ الَّذِي تَعْلَمُونَ، فَكُونُوا مِنْهَا بِالمَكَانِ

(1) البيت من الطويل.
(2) فيه إشارة إلى قول الشاعر الأندلسي ابن زيدون:

مَا عَلَى ظَنِّي بَاسُ ... قَدْ يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَاسُو

ديوانه، ص: 273.
(3) في إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «أعوذ بالله من الحور بعد الكور»؛ أي من النقصان بعد الزيادة.
(4) المبتشك: الذي يخلق الكذب على الناس.



الَّذِي تَرْتَضُونَ. وَالسَّلَامُ. وَكَتَبَهُ حَلِيفُ وِدِّكُمْ وَحَافِظُ عَهْدِكُمْ فُلَانٌ فِي النَّاحِرَةِ[1] مِنْ شَهْرِ كَذا.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

أَخِي فِي اللهِ الكَاتِبُ الذَّكِيُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ حَرَسَ اللهُ عَهْدَهُ، وَأَلْهَمَهُ رُشْدَهُ، وَحَسَّنَ مَذْهَبَهُ وَقَصْدَهُ، مُحِبُّهُ وَإِنْ أَسَاءَ، وَبَلَغَ صَبَاحُهُ المَسَاءَ، وَمُوثِرُهُ وَإِنْ آثَرَ الصَّفَاءَ فُلَانٌ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنِّي أَحْمَدُ اللهَ عَلَى أَنْ هَدَانِي لِلْوَفَاءِ، وَأُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ صَلَاةً أَسْتَوْفِيهَا أَتَمَّ الاسْتِيفَاءِ، وَأَسْأَلُ اللهَ الرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ وَعَنْ آلِهِ. وَقَدْ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ مُتَغَايِرُ الأَبْعَاضِ مُتَنَاقِضُ الأَجْزَاءِ، يَكَادُ لَا يَحْوِي شَيْئاً مِنَ الثَّوَابِ وَالجَزَاءِ، يَجْمَعُ بَيْنَ الضِّدَّيْنِ، وَيَنْظُرُ إِلَيَّ بِمُؤَخَّرِ العَيْنِ، وَيَرُدُّ عَلَى ابْنِ قُتَيْبَةَ فِي مُرَاعَاةِ المَيْنِ، وَيُجَارِي فِي الاهْتِمَامِ بِسُكَّيْتٍ[2]، وَيُعِيدُ عَلَى صُمِّ العَوَامِّ بِيَا لَيْتَ، فَعَجِبْتُ مِنْ عَهْدٍ حَالَ، وَوُدٍّ قَصُرَ بَعْدَ أَنْ طَالَ، وَمَهْمَا رُمْتُ عِرْفَانَهُ أَبَى تَصْدِيرُهُ وَتَخْطِيطُهُ، وَكُلَّمَا قَرَأْتُ عُنْوَانَهُ بَدَا تَقْصِيرُهُ وَتَفْرِيطُهُ؛ وَالمُحِبُّ إِذَا كَانَ مِثْلِي لَا يَرْضَى بِسَهْمٍ نِكْسٍ، وَلَا يَقْنَعُ مِنْ حَظِّهِ بِبَخْسٍ؛ فَإِنْ كُنْتَ غَالَبْتَ نَفْسَكَ فَسَئِمْتَ الغِلَابَ، وَكُنْتَ أَخاً بَرّاً فَآثَرْتَ الانْقِلَابَ، وَأَلْغَيْتَ [المُتَآلِفَ] المُحْكَمَ بَيْنَنَا وَالاصْطِحَابَ، وَلَمْ تُوجِبْ عَلَى النَّصِيحَةِ فِي مُجَاوَرَتِكَ، وَالخُلُوصِ فِي مُؤَازَرَتِكَ الثَّوَابَ، وَاسْتَفَزَّكَ العُجْبُ وَالزَّهْوُ حِينَ شَارَكْتَ الكُتَّابَ؛ فَقَدْ عَطَّلْتَ الآدَابَ، وَغَلَّقْتَ فِي وَجْهِ المُكَارَمَةِ البَابَ، فَلَا تَغْضَبْ إِذَا قَرَأْتَ هَذَا الجَوَابَ، فَلَمْ أَحِدْ فِيهِ عَنِ الحَقِيقَةِ وَلَا فَارَقْتُ فِي مَنْزَعِهِ الصَّوَابَ؛ وَقَصْدِي إِنْ كَانَ الاسْتِمْرَارُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ المُكَاتَبَةِ مِنْ طِبَاعِكَ، أَنْ أَكِيلَ لَكَ فِي المُجَاوَبَةِ بِمِثْلِ صَاعِكَ؛ وَإِنْ كَانَ قَوْلُكَ فِي رَعْيِ الوُدِّ حَقّاً،

---

(1) الناحرة: قال صاحب اللسان: «النحرة آخر ليلة من الشهر مع يومها لأنها تنحر الذي يدخل بعدها أي تصير في نحره فهي ناحرة».

(2) السكيت: بالتشديد والتخفيف، الذي يجيء في آخر الحلبة من الخيل.



وَفِي نَفْيِ الحِقْدِ الَّذِي كُنْتَ فِي غِنىً عَنْ ذِكْرِهِ صِدْقاً، فَصِلْ سَبَبَ الإِجَابَةِ وَالْزَمْ أَدَبَ الكِتَابَةِ، وَأَقْبِلْ عَلَى خَيْدَبَتِكَ[1] وَلَا تَنْزِلْ فِي الوَلَاءِ عَنْ مَعْهُودِ مَرْتَبَتِكَ، وَفلَّ غَرْبَ مُدْيَتِك، وَخُذْ فِي هُدْبَتِكَ وَفِدْيَتِكَ، وَتَوَاضَعْ للهِ يَرْفَعْكَ[2] وَارْضِ أَخَاكَ يَنْفَعْكَ. وَذَكَرْتَ أَنَّ لَكَ صَارَّةً فِي اسْتِعْلَامِ التَخَرُّصِ مِنْ لَدُنِي، وَأَخْذِ قِسْمٍ مِنَ الأَنْبَاءِ السُّلْطَانِيَّةِ عَنِّي، كَأَنَّكَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ كَاتِبَ السُّلْطَانِ لَا يَفُوهُ، وَلَا يَسْأَلُهُ عَنِ الأَنْبَاءِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَّا مَنْ يَجْفُوهُ؛ فَلْيَكْفِكَ مِنْهَا أَنْبَاءُ الغَيْرِ، وَحَسْبِي إِعْلَامُكَ بِأَنْ لَيْسَ - وَالحَمْدُ للهِ - إِلَّا كُلُّ خَيْرٍ.

وَلَعَلَّكَ أَيُّهَا الأَخُ إِذَا قَرَأْتَ عِتَابِي تَشْمَخُ بِأَنْفِكَ، وَتَتَلَقَّاهُ بِعُنْفِكَ، وَتَخْرُجُ عَنْ أَبْنَاءِ صِنْفِكَ، وَتَقُولُ: قَدَحَ فِي عُودِي وَقَرَعَ سَمْعِي، لَا تَقُلْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ قُلْ: قَطَّ شَمْعِي، لِيَقْوَى لَهُ لَمْعِي، وَقَصَدَ رَوْعِي، لِيَحْسنَ لَهُ طَوْعِي، وَإِنْ قُلْتَ: إِنِّي اسْتَرْسَلْتُ فِي كِتَابِي، وَرَفَعْتُ الصَّوْتَ بِعِتَابِي، فَإِنِّي أَقُولُ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا قَالَ المَأْمُونُ لابْنِهِ العَبَّاسِ حِينَ خَاصَمَتْهُ المَرْأَةُ. وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

الشَّيْخُ الكَاتِبُ الأَدِيبُ، الأَخُ الأَثِيرُ الحَبِيبُ، أَبُو عَبْدِ اللهِ ابنُ مَهِيب، لَا زَالَ يَفْعَلُ فَيُصِيبُ، وَيَدْعُوهُ الخَيْرُ فَيُجِيبُ، وَلَا بَرِحَ لِمَا يُؤْثِرُهُ مِنْ حُسْنِ الخَلِيقَةِ، وَدَمَاثَةِ السَّلِيقَةِ، يَشْتَاقُهُ البَعِيدُ وَلَا يَمَلُّهُ القَرِيبُ؛ أَخُوهُ وَمُصَافِيهِ، الشَّيِّقُ إِلَيْهِ المُحِبُّ فِيهِ، فُلَانٌ سَلَامٌ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ.

فَكَتَبْتُهُ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ طُولَ البَقَاءِ، وَحِرَاسَةِ النِّعَمِ وَدَوَامِ الارْتِقَاءِ، وَلَا مَزِيدَ عَلَى مَا تَعْلَمُونَ، وَلَا تَأْكِيدَ أَعْظَمَ مِمَّا تَتَحَقَّقُونَ، واللهُ يَنْفَعُ بِهَذِهِ الخلَّة، وَيَنْهَجُ بِكُمْ فِي رَعْيِهَا نَهْجَ الكِرَامِ الجِلَّةِ، وَالأَحْوَالُ - وَالحَمْدُ للهِ - عَلَى مَا يَسُرُّكُمْ سبوغُ نِعْمة، وَدرورُ

---

(1) الخيدبة: الطريقة الأولى قال أبو زيد يقال: أقبل على خيدبتك؛ أي على أمرك الأول وطريقتك.
(2) فيه إشارة إلى الحديث الشريف: «من تواضع لله رفعه».



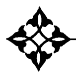
رَحْمة. وَالتَّشَوُّفُ نَحْوَكُمْ مُصَاحِبٌ، وَالجَذَلُ بِكُمْ لأَذْيَالِهِ سَاحِبٌ؛ وَالسُّؤَالُ عَنْ أَحْوَالِكُمْ جَرَتْ وَفْقَ أَمَالِكُمْ لِكَثْرَةِ الودِّ فِيكُمْ مُنَاسِبٌ؛ فَعَسَى أَنْ تَعْفُوَ مِنْ وَحْشَةِ الإِغْبَابِ، وَتُسْعِفَ مِنَ الإِعْلَامِ بِهَا بِالطِّلَابِ.

وَقَدْ وَصَلَنِي - وَصَلَ اللهُ كَرَامَتَكُمْ وَحَرَسَ مَوَدَّتَكُمْ - كِتَابُكُمُ الأَثِيرُ السَّارُّ فَأَنَّسَ وُصُولُهُ، مِقْدَارَ مَا أَوْحَشَتْ فُصُولُهُ، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا نَفْثَةُ مَصْدُورٍ، وَصَوْلَةُ قَادِرٍ بِحُكْمِ الحُبِّ عَلَى مَقْدُورٍ، وَلَمْ أَزَلْ أُطَالِبُ نَفْسِي بِالسَّبَبِ البَاعِثِ عَلَى الإِحَاشِ حَتَّى عَلِمْتُ أَنِّي لَمْ أُوتَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ أَلْفَاظٍ لُغَوِيَّةٍ [ضَمَّنْتُهَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ][1] المُجَابُ عَنْه، لِذَلِكَ قَصَدْتُ بِهَا مَا قَصَدتْ العَرَبُ فِي مَعَانِيهَا، فَلَعَلَّ أَخِي تَجَاهَلَ تَفْسِيرَهَا أَوْ قَصَّرَ فِيهَا، [فَظَنَّهَا شَرّاً][2] - وَعَلِمَ اللهُ - مَا حِدْتُ بِهَا عَنْ مَغْزَاهَا، وَلَا أَوْرَدْتُهَا إِلَّا دَالَّةً عَلَى مَعْنَاهَا، وَلَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ يُقْبِلَ عَلَى دَيْدَنِهِ الأَوَّلِ مِنْ صَمِيم، وَيَأْخُذَ فِي أَمْرِهِ الأَسْبَقِ مِنْ كَرِيم. مِنْ كِتَابِهِ الأَوَّلِ الذِي اسْتَوْجَبَ عَتبهُ وَاسْتِدْنَاءَه ... أَخِي الأَعَزّ مَا لَمْ أَظُنَّهُ مِنْكُمْ فِي زَمَنِ الصُّحْبَةِ الأَكِيدَة، وَالمُوَاصَلَة العَجِيبَة، وَالمَوَدَّاتِ الكَرِيمَةِ وَالوَسَائِلِ القَرِيبَةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُ مَا بَيْنَنَا مِنْ ذَلِكَ مَرْعِيّاً عَلَى الأَلْقَابِ، مَوْرُوثاً فِي الأَعْقَابِ، فَلَيْتَ شِعْرِي أَيُّ وُدٍّ هُوَ الّذِي يَدُومُ وَيَبْقَى، ثُمَّ إِنِّي نَزَّهْتُكَ فِي كِتَابِي إِلَيْكَ عَنْ شِيمَةٍ فَنَسَبْتَهَا إِلَيَّ، وَلَيْسَ إِلَّا أَنِّي أَعْتَقِدُ فِيكَ أَنَّكَ أَخِي الصَّدِيقُ. فَإِذَا فَرَضْتَ أَنَّكَ مِثْلِي بِالذَّاتِ وَالصِّفَاتِ، بَلْ إِنَّكَ لَكَ التَّبْرِيزُ وَالشُّفُوفُ فِي جَمِيعِ الحَالَاتِ، طَلَبْتُكَ بِأَنْ تَجْعَلَ لِي عَلَى نَفْسِكَ مَزِيَّةَ السِّنِّ خَاصَّةً حَتَّى تُعَامِلَنِي بِمَا يُعَامِلُ بِهِ الأَخُ الصَّغِيرُ سِنّاً كَبِيرَهُ. وَنَاهِيكَ مِنِّي هَذَا الخُلُوصُ وَالإِنْصَافُ فَأَيْنَ تُرِيدُ مِنَ الحِيدَةِ عَنِ التَّحْقِيقِ، وَالخُرُوجِ عَنِ الطَّرِيقِ [إِلَى مَا يَضُرُّ][3] بِالصَّدِيقِ ومَا العجبُ إِلَّا مَا أَسْقَطَ المرْءُ فِيهِ الأَدَبَ، وَأَضَاعَ الطَّلَبَ. وَحَاشَاكَ يَا أَخِي الأَعَزَّ مِنْ ذَلِكَ، مَعَ مَا وَهَبَ اللهُ لَكَ مِنْ مَحْمُودِ خِصَالِكَ؛ وَقَدْ بَرَرْتَ قَسَمك الَّذِي أَقْسَمْتَ بِهِ بِرَسْمَ مَا سَأَلْتَهُ مِنَ التَّخْطِيطِ وَالعُنْوَانِ؛

(1) خرم بالأصل.

(2) خرم بالأصل.

(3) خرم بالأصل.



مُعْرِضاً عَرْضاً عَلَيَّ فِي ذَلِكَ إِذَا تَضَمَّنَتْ بِهِ [مَسَرَّتُكُمْ وَلَا][1] غَيْرَ مُبَالٍ بما ينتقدُ فِيهِ إِذَا صَحَّ بِهِ اعْتِقَادُكُمْ.

وَطَلَبْتُمْ يَا أَخِي إِحْدَادَ الأَسَلِ لِلْمُقَارَعَةِ، مُعْرِضِينَ عَنْ عَظِيمِ مَا بَيْنَنَا نَابِذِينَ لَهُ كَأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ قَادِرٌ عَلَى الشَّرِّ وَالجَزَاء بِالسُّوءِ وَإِنِّي لَا أُقَارِعُكُمْ بِمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أُقَارِعُكُمْ بِالصَّبْرِ وَالمُرُوءَةِ وَالأَخْذِ بِفَضِيلَةِ التَّحَمُّلِ الَّتِي تَنْقَطِعُ دُونَهَا الرِّقَابُ. فَإِنْ جَدَّتْ بِكَ الهِمَّةُ فِي إِيثَارِ الفَضْلِ فَهَا أَنَا مُنْتَظِرٌ جَوَابَكَ الأَثِيرَ بِمَا أُسَرُّ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ. وَالسَّلَامُ.

كُتِبَ غُرَّةَ رَجَبَ سَنة ثَلَاثٍ وَسِتِّمِائَةٍ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَانِ[2] بْنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى مَلِكِ قَشْتَالَةَ وَطُلَيْطُلَةَ وَغَشْكُونِيَةَ. تَوَلَّى اللهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ، وَأَلْهَمَهُ إِلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ. أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ.

فَالكِتَابُ إِلَيْكُمْ وَفَّقَكُمُ اللهُ مِنْ جَيَّانَ - كَلأَهَا اللهُ تَعَالَى - وَكَلِمَةُ الحَقِّ عَالِيَةٌ، وَنِعَمُ اللهِ سُبْحَانَهُ مُتَوَالِيَةٌ، وَبَرَكَاتُ الأَمْرِ العَزِيزِ - أَدَامَهُ اللهُ - مُتَتَالِيَةٌ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَتَعْلَمُونَ مَا بَيْنَ المُوَحِّدِينَ- أَعَزَّهُمُ اللهُ - وَبَيْنَكُمْ مِنَ العُهُودِ المُبْرَمَةِ، وَالعُقُودِ المَرْبُوطَةِ المُحْكَمَةِ، الَّتِي يَجِبُ الانْتِهَاءُ إِلَيْهَا، وَالوَفَاءُ بِهَا، وَالوُقُوفَ لَدَيْهَا، وَيَحِقُّ العِقَابُ عَلَى مَنْ قَدَحَ فِيهَا مِنَ الرَّعِيَّةِ وَاعْتَدَى عَلَيْهَا. وَقَدْ طَرَأَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مَا بَرِحَ فِيهِ الخَفَاءُ[3] وَعَظُمَ فِيهِ مِنْ فَاعِلِيهِ الجَفَاءُ، وَذَلِكُمْ أَنَّ جُمْلَةً كَبِيرَةً مِنْ خَيْلِ

---

(1) خرم بالأصل.

(2) البيان المغرب، ص: 237 و257.

(3) يقال: بَرِحَ الخَفَاءُ وَبَرَحَ ظَهَرَ، قال الشاعر:

بَـــرِحَ الخَفَـــاءُ فَمَـــا لَـــدَيَّ تَجَلُّـــدُ

اللسان (برح).



النَّصَارَى وَرَجْلِهِمْ خَرَجُوا مِنْ بِلَادِكُمْ، وَضَرَبُوا أَحْوَازَ شَقُورة[1] وَغَيْرَهَا مِنَ الحُصُونِ الرَّاجِعَةِ إِلَى [عَمَلِ جَيَّانَ][2] - حَاطَ اللهُ جَمِيعَهَا - وَاحْتَمَلُوا عَدَدًا مِنْ أُسَارَى المُسْلِمِينَ وَدَوَابِّهِمْ وَاكْتَسَحُوا جُمْلَةً كُبْرَى مِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ وَسَاجَلُوا خِلَالَ هَذِهِ الجِهَاتِ مُجَاهِرِينَ بِالمُفَاتَنَةِ، مُوقِدِينَ نَارَ المُحَارَبَةِ، لَا يَسْتَتِرُونَ بِسَجْفٍ مِنَ الحَيَاءِ وَلَا يَثْنُونَ عِنَانًا مِنَ التَّبَسُّطِ فِي اعْتِدَاءٍ كَأَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى مَلِكٍ يَمْلِكُهُمْ وَلَا يَخَافُونَ مِنْ حَاكِمٍ يَحْكُمُهُمْ، طُغْيَاناً مِنْهُمْ وَعِنَاداً، وَخَتْراً لِمِيثَاقِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ - الَّذِي [...لَبْساً وَلَا يَقْبَلُ دَخلاً وَلَا يَحْتَمِلُ فَسَاداً][3]. وَمَا يُفْعَلُ أَبداً فِي حَالِ المُحَارَبَةِ وَالمُفَاتَنَةِ، أَكْثَرُ مِمَّا فُعِلَ الآنَ فِي حَالِ المُسَالَمَةِ وَالمُهَادَنَةِ. وَقَدْ عُويِنُوا وَمُيِّزُوا وَتَحَقَّقَ قُوَّادُ هَذِهِ الجِهَاتِ - أَنْجَدَهُمُ اللهُ - أَنَّهُمْ مِنْ رِجَالِكُمْ وَأَنَّهُم خَرَجُوا مِنْ بِلَادِكُمْ وَأَنَّهُ كَانَ مِنْهُمُ الدَّلِيلُ فُلَانٌ مِنْ فُلَانَةَ وَالدَّلِيلُ فُلَانٌ مِنْ فُلَانَةَ.

وَنَكْثُ العُهُودِ مَا لَا يَرْتَضِيهِ مِثْلُكُمْ، وَلَا يُمَشِّيهِ لِفَاعِلِيهِ قَوْلُكُمْ وَلَا فِعْلُكُمْ. وَقَدْ عَجِبْنَا مِنْ حُدُوثِ هَذِهِ الكَائِنَةِ الشَّنِيعَةِ فِي مُدَّةِ السَّلْمِ المَرْبُوطَةِ مَعَ المَظْنُونِ بِكُمْ مِنْ حِفْظِ العُقُودِ، وَإِيثَارِ الوَفَاءِ بِالعُهُودِ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ النَّازِلَةُ صَغِيرَةً لَعُذِرَ أَصْحَابُهَا وَلَكِنَّهَا مِنَ الكُبَرِ، وَاسْتِطَارَةِ الشَّرَرِ، بِحَيْثُ وَصَلَ خَبَرُهَا إِلَى الأَقْطَارِ النَّائِيَةِ عَنْكُمْ. وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الرِّجَالَ الفَاعِلِينَ هُمْ رِجَالُكَ، وَالبِلَادَ الَّتِي خَرَجُوا مِنْهَا بِلَادُكَ وَأَيْدِي المُسْلِمِينَ مَقْبُوضَةٌ عَنْكُمْ بِحُكْمِ مُعَاهَدَتِهِمْ وَالمُحَافَظَةِ عَلَى شُرُوطِهِمْ وَالوُقُوفِ عِنْدَ غَرَضِ إِمَامِهِمْ؛ غَيْرَ أَنَّ رِجَالَكُمْ يَتَبَسَّطُونَ هَذَا التَّبَسُّطَ فِي الاعْتِدَاءِ، وَيَنْتَهُونَ لِمِثْلِ هَذَا الانْتِهَاءِ، مِنْ ضَرْبِ البِلَادِ وَإِحَاطَةِ النَّاسِ بِالبَلَاءِ، وَمَا كَفَى ضَرَرُ اللُّصُوصِ الَّذِينَ قَلَّمَا انْقَطَعَتْ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ مَضَرَّتُهُمْ لِلْعِبَادِ، وَقَلَّمَا خَلَتْ مِنْهُمْ أَطْرَافُ البِلَادِ، حَتَّى يُتَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى المُجَاهَرَةِ بِمِثْلِ هَذِهِ الفَعْلَةِ المُنْكَرَةِ.

(1) شقورة: مدينة من أعمال جيان بالأندلس، ومنها الشاعر المفلق أبو بكر ابن مُجْبَر شاعر دولة بني عبد المؤمن، الروض المعطار، ص: 349.
(2) خرم بالأصل.
(3) خرم بالأصل.



وَفِي الإِغْضَاءِ عَنْ بَعْضِ هَذَا القَدْرِ، وَالتَّسَامُحِ فِي مِثْلِ هَذَا الغَدْرِ، مِنَ الإِخْلَالِ بِحُقُوقِ المُسَالَمَةِ، وَالانْحِلَالِ فِي رُبُوطِ المُهَادَنَةِ، مَا لَا يَلِيقُ بِوَفَائِكُمْ وَلَا يَحْسُنُ أَنْ تُقِرُّوا أَحَداً مِنْ رِجَالِكُمْ عَلَيْهِ بِوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ آرَائِكُمْ إِمَّا سِلْمٌ فَسَلْمٌ، يُحَافَظُ عَلَيْهَا، وَإِمَّا حَرْبٌ فَحَرْبٌ لَا يُجَازَى بِهَا وَيُصْرَفُ النَّظَرُ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الَّذِي عَرَّفْنَاكُمْ بِهِ لَا جَوَابَ عِنْدَ الفَاعِلِينَ عَلَيْهِ إِلَّا بَحْثُكُمْ عَنْهُمْ، وَاشْتِدَادُكُمْ فِي تَعْجِيلِ الإِنْصَافِ مِنْهُمْ؛ فَإِنَّ جَرِيمَتَهُمُ الَّتِي أَجْرَمُوهَا لَيْسَتْ مِمَّا يُدْفَعُ بِالجَحْدِ وَالإِنْكَارِ، وَلَا مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يُتَبَرَّأَ مِنْهُ وَيُعْزَى إِلَى الأَغْيَارِ. فَقَدْ مُيِّزُوا بِأَعْيُنِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ، وَعُرِفُوا بِقَائِدِهِمْ وَدَلِيلِهِمْ وَحُفِظُوا بِغُدُوِّهِمْ وَرَوَاحِهِمْ وَمَأْتَاهُمْ وَمُنْقَلَبِهِمْ.

وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ إِنَّ الفَاعِلِينَ لِهَذِهِ الكَائِنَةِ هُمْ مِنْ آرَغُونَ[1] فَمُحَالٌ مِنَ القَوْلِ، وَغَيْرُ سَائِغٍ فِي القِيَاسِ، فَإِنَّ تِلْكَ الأَرْضَ الَّتِي دَخَلُوا عَلَيْهَا أَرْضُكُمْ، وَتِلْكَ البِلَاد بِلَادُكُمْ، وَمَا يَصِحُّ أَنْ يَجْتَازَ عَلَيْهَا أَرْغُونِيٌّ إِلَّا بِتَوَاطُؤٍ مَعَ قُوَّادِهَا وَتَوَافُقٍ مِنْ رِجَالِكُمُ الَّذِينَ فِيهَا؛ وَلَوْ أَرَادَ أَهْلُ بِلَادِكُمْ - تِلْكَ - أَنْ لَا يُشَاكَ مُسْلِمٌ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الجِهَاتِ بِشَوْكَةٍ مِنْ جِهَةِ أَرَغُون لَمَا كَانَ ذَلِكَ.

وَقَدْ كُشِفَ بِالبَحْثِ عَنْ حَقِيقَةِ الفَاعِلِينَ، وَتَحَقَّقَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنْ أَرَغُونَ إِلَّا نَحْوُ خَمْسِينَ فَارِساً خَاصَّةً وَسَائِرُ المِئِينَ مِنَ الرَّجَّالَةِ وَالفُرْسَانِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ وَذَلِكَ نَحْوُ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةِ رَاجِلٍ، وَنَحْوُ مِائَة وَخَمْسِينَ فَارِساً إِنَّمَا كَانُوا مِنْ بِلَادِكُمْ؛ وَإِنَّمَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ سَمَّيْنَاهُ لَكُمْ فِي هَذَا الكِتَابِ.

وَمَا هَذَا بِجَائِزٍ فِي حَقِّ السِّلْمِ، فَإِنْ كَانَ ثَمَّ سَلْمٌ فَلْتُحْفَظْ شُرُوطهَا وَتَكُفَّ العَادِيَة فِيهَا وَيُنْصَف مِنَ المُخِلِّينَ بِهَا. وَأَنْتُمْ بِحَوْلِ اللهِ تَفْعَلُونَ فِي هَذِهِ الكَائِنَةِ، مَا يَجِبُ فِعْلُهُ فِي حُقُوقِ السَّلْمِ مِمَّا يَظْهَرُ وِلَا يَخْفَى، وَتَمْتَعِضُونَ مِنْهَا امْتِعَاضَ المَلِكِ الأَوْفَى، وَتَنْظُرُونَ فِي تَلَافِيهَا، وَجَبر جَمِيعِ مَا انْتُهِبَ فيهَا، نَظَرَ مَنْ يَغَارُ عَلَى عقْدِه أَنْ يُنْقَض،

(1) أرغون Aragón: هو اسم بلاد غرسية بن شانجة يشتمل على بلاد ومنازل وأعمال. الروض المعطار، ص: 27.





وَعَلَى عَهْده أَنْ يَنْحَلَّ بِهِ وَيَرفض، وَلِاهْتِمَام الأَمْرِ عِنْدَنَا، وَجَّهْنَا إِلَيْكُمْ فِي هَذِهِ المُخَاطَبَةِ أَرْسَالَنَا - سَلَّمَهُمُ اللهُ- لِيُشَاهِدُوا مَا يَكُونُ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ، وَيَرَوْا مَا تَفْعَلُونَ فِيهِ هُنَالِكَ، فَتُعَرِّفُونَنَا صُحْبَتَهُمْ بِمَا طَرَأَ عِنْدَكُمْ فِي السَّلْمِ المَعْقُودَةِ، وَالعُهُودِ المَعْهُودَةِ؛ وَهَلْ هِيَ بَاقِيَةٌ فَيُوقَفُ عِنْدَهَا وَيُحَافَظ عَلَيْهَا أَوْ مُخْتَلَّةٌ فنعُرِّفَ بِذَلِكَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ أَيَّدَهَا اللهُ وَيُرْفَعُ الأَمْرُ إِلَيْهَا. واللهُ يُوَفِّقُ الجَمِيعَ إِلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ، وَيُعِينُ فِي كُلِّ حَالٍ عَلَى مَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، وَيَتَوَلَّى كَرَامَتَكُمْ بِتَقْوَاهُ، بِمَنِّهِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ وَلَا إِلَهَ حَاشَاهُ.

كَتَبَ سَيِّدُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ المُصْطَفَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى مُعَاذ بْنِ جَبَلٍ يُعَزِّيهِ بِابْنِهِ[1]:

مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى مُعَاذَ بنِ جَبَل، سَلَامٌ عَلَيْكَ: فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُو، أَمَّا بَعْدُ: فَعَظَّمَ اللهُ لَكَ الأَجْرَ وَأَلْهَمَكَ الصَّبْرَ، إِنَّ أَنْفُسَنَا وَأَهْلِينَا وَأَمْوَالَنَا وَدَائِعُ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، وَعَوَارِيُّهُ المُسْتَوْدَعَةُ، يُمَتِّعُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ، وَيَقْبِضُهَا لِوَقْتٍ مَعْلُومٍ ثُمَّ افْتَرَضَ عَلَيْنَا الشُّكْرَ إِذَا أَعْطَى وَالصَّبْرَ إِذَا ابْتَلَى[2] كَانَ ابْنُكَ مِنْ مَوَاهِبِ اللهِ الهنِيئَةِ وَعَوَارِيهِ المُسْتَوْدَعَةِ. مَتَّعَكَ بِهِ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ وَقَبَضَهُ مِنْكَ بِأَجْرٍ كَبِيرٍ؛ والصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ وَالهُدَى إِنْ صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ، فَلَا تَجْمَعَنَّ عَلَيْكَ يَا مُعَاذُ خَطْأَتَيْنِ[3] أَنْ يَحْبِطَ جَزَعُكَ أَجْرَكَ فَتَنْدَمَ عَلَى مَا فَاتَكَ؛ فَلَوْ قدمت عَلَى ثَوَابِ مُصِيبَتِكَ قَدْ أَطَعْتَ[4] رَبَّكَ وَتَنَجَّزْتَ مَوْعُودَهُ وَعَرَفْتَ[5] أَنَّ المُصِيبَةَ قَدْ قصرتْ عَنْه. وَاعْلَمْ أَنَّ الجَزَعَ لَا يَرُدُّ مَيْتاً وَلَا يَدْفَعُ حُزْناً فَأَحْسِنِ العَزَاء وَتَنَجَّزِ المَوْعُود، وَلْيُذْهِبْ أَسفكَ مَا هُوَ نَازِلٌ بِكَ فَكَأَنْ قَدْ. وَالسَّلَامُ.

(1) الرسالة في التعازي والمراثي، ص: 148 وقد قدم لها بقوله«لما هلك ابن معاذ بن جبل كتب إليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». النجم الثاقب 1/ 124، المستطرف 2/ 303، فهرسة المِيرْغَنِي 3/ 659.
(2) التعازي: «فأمرنا بالشكر إذا أعطانا وبالصبر إذا ابتلانا».
(3) التعازي: «فلا تجمعن... خطأتين» ساقطة منه.
(4) التعازي: أرضيت.
(5) التعازي: وعلمت.

البَابُ السَّابِعَ عَشَرَ

في التعازي



رِجَالُهُ:

عَبْد الحَمِيد- أَبُو الفَضْل المِيكَالِي- عَمْرو بْنُ مَسْعَدَة، أَبُو الحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعِيد الأَصْفَهَانِي -الحَسَن بْنُ وَهْب- أَبُو العَبَّاس بْنُ رَشِيق أَبُو جَعْفَر اللَّمائِي -أَبُو عُمَرَ بْن البَاجِي- أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَان بْن طَاهِر- أَبُو بَكْرِ بْن عَبْدِ العَزِيزِ مِنْ رِجَالِ القَلَائِدِ -أَبُو عَبْدِ اللهِ بْن اللَّوْشِي- عِمَاد الدِّينِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَصْفَهَانِي- أَبُو بَكْرِ بْنِ مُغَاوِر- أَبُو عَبْدِ اللهِ ابْنُ عَيَّاش- أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ حَمَادُو- أَبُو الحَكَمِ بْنُ عُذْرَةَ- أَبُو عَمْرو ابنُ غَيَّاث الشَّرِيشِي- أَحْمَد بنُ مُحَمَّد البَلوِي.

مِنْ إِنْشَاءِ عَبْدِ الحَمِيد عَنْ مَرْوَان بْنِ مُحَمَّد إِلَى أَخِيهِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِاسْتِكْمَالِ الصَّبْرِ وَالحِسْبَةِ وَصِحَّةِ النِّيَّة عِنْدَ عَظِيمِ المَكْرُوهِ وَكَبِيرِ المَرْزِئَةِ وَفَادِحِ المُصِيبَة، مَنْ أَلْهَمَهُ اللهُ مِثْلَ الَّذِي بَصَّرَنَا فَعَلَّمَنَا - آلَ البَيْتِ - مِنْ أَدَاءِ الحَقِّ إِلَى اللهِ وَطَاعَتِهِ وَالرِّضَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَالتَّسْلِيم لِأَمْرِهِ مِمَّا يُرْضِي الله، وَقَدْ كَانَ مِنْ قَضَاءِ اللهِ فِي الحَكَمِ بْنِ مَرْوَانَ مَا نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَعْصِمَنَا بِمَا يُرْضِيهِ مِنَ الصَّبْرِ، وَيُبَلِّغَنَا مَحَبَّتَهُ مِنَ الخَشْيَةِ، وَقَبُولِ مَا عَلَّمَنَا مِنَ الاسْتِرْجَاعِ عِنْدَ المُصِيبَةِ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[1]، وَنَسْأَلُهُ قَبُولَ قَوْلِنَا وَطَاعَتِنَا إِيَّاهُ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ذَنْبَهُ وَيَفْسَحَ لَهُ قَبْرَهُ، وَيُلْحِقَهُ بِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَيُضْعِفَ لَهُ حَسَنَاتِهِ، وَيُحْسِنَ عَلَيْنَا الخِلَافَةَ -آلَ البَيْتِ- بَعْدَه، فَمَا كَانَ أَعْظَمَ المَرْزِئَةِ، نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُثِيبَنَا مِنْ صَلَوَاتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَهُدَاهُ أَفْضَلَ مَا وَعَدَ الصَّابِرِينَ، وَأَكْمَلَ مَا أَثَابَ المُحْسِنِينَ، وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ مِنْ عَبْدِ الحَمِيد:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ كُلُومَ الدُّنْيَا وَآفَاتِهَا وَمَصَائِبَهَا وَفَجَائِعَهَا تَجْرِي فِي قَضَايَا جَمَّة، وَأَقْدَارٍ مَحْتُومَة، عَزْمَة إِلَى مُنْتَهَى أَمْرٍ مَوْقُوت، وحَاتِمُ عِلْمٍ مِنَ اللهِ نافذٌ غيرُ مَنْقُوص، فَهِيَ

(1) سورة البقرة، الآية: 155.





لِأَهْلِ الصَّبْرِ عِبْرَةٌ فِي فَنَاءِ الدُّنْيَا، وَذِكْرٌ يَبْلُغُونَ بِهِ الكَرَامَةَ العُلْيَا، وَلِكُلِّ ذِي هَلَعٍ أَرْمَضَهُ حَادِثُهَا وَأَبْهَظَهُ مَا جَرَتْ بِهِ القَضَايَا المَكْرُوهَة عِنْدَ حُلُولِهَا فِتْنَةٌ يُمْحَقُ فِيهَا أَجْرُه وَيذهبُ فِي ضياعِهَا ذُخْرُه، وَيَصِيرُ خَسَاراً أمرُه، غيرَ رَادٍّ الجَزَعَ عَلَيْهِ فَائِت أَمْرٍ مِمَّا مَضَى، وَلَا مُوجِب له ذَخِيرَة فَضْلٍ تُقْتَنَى، فَأَعْظَمُ الأُمُورِ عِنْدَ تِلْكَ إِبْرَاء، وَأَشَدُّهَا عَزْماً، وَأَعْمَلُهَا وَأَذْهَبُهَا لِعَظِيمِ المَرْزِئَةِ وَطَوَارِقِ مَا نَجْتَوِيهِ، وَمَا عَلَا مِنْهَا، وَتَنَزَّلَ بِمُلِمٍّ مِنْ فَظَائِعِهَا، أقودُها إِلَى الصَّبْرِ وَأَوْجَبُهَا لِلْغِبْطَةِ عِنْدَ تَحْصِيلِ الأُمُورِ وَقَدْ بَلَغَنِي ...أَجلهُ وَاسْتِيفَاءِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ أَكْمَل...الذُّخْرِ، يحبوكَ [بِالثَّوَابِ] الفَاضِلِ وَالجَزَاءِ الكَامِلِ...وَيتِمَّ عَلَيْهَا نُورَهُ، وَيَكُونَ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وأَغْبَط مُرَافَقَةِ النَّبِيِّينَ...حادثٌ ... بك، واللهُ وَلِيُّ صَرْفِ السُّوءِ عَنْكَ وَالخِيَرَةُ فِي كُلِّ قَضَائِهِ لَكَ وَعَلَيْكَ ... مِنَ اللهِ، وَلُزُوم مَا مِنَ الصَّبْرِ يَحْظِيكَ، وَتَرْكِ مَا لَا يُحِيلُ مِنَ الجَزَعِ أَجْرَك وَيُؤَيِّدُكَ، وَالسَّلَامُ.

ومِنْ إِنْشَاءِ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابي عَنْ نَفْسِهِ إِلَى مُحَمَّد بْنِ العَبَّاس ابْنِ فَسَانجِس فِي وزَارَتِهِ يُعَزِّيهِ عَنْ ابْنَة كَانَتْ أَكْبَر وَلَده(1):

مَصَائِبُ الدُّنْيَا -أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الوَزِير- أَبْوَابٌ تُوصِلُ إِلَى الثَّوَابِ وَكُلَّمَا طَرَقَ مِنْهَا حَادِثٌ جَلِيلٌ، حَصَلَ بِإِزَائِهِ صُنْعٌ جَزِيلٌ، إِذْ كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ قَدْ تَوَلَّى الوَزِيرَ بِإِنَافَةِ المَحَلِّ، وَإِشَادَةِ الذِّكْرِ وَإِسْبَاغِ النِّعَمِ وَتَوَفُّرِ القِسَمِ وَلَمْ يُخلِهِ مِنْ اعْتِرَاضِ ذَلِكَ بحوادثَ تَتَطَرَّفُ وَلَا تُوغِلُ، ونَوَائِبُ تَتَحَيَّفُ وَلَا تُجْحِف، فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ - جَلَّ ثَنَاؤُه - إِنَّمَا يَرْصُدُ لَهُ اتِّصَالَ السَّعَادةِ فِي القَرَارِ، بالسَّعَادَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، لِيَجْمَعَ لَهُ حَظَّ الدُّنْيَا والدِّينِ وَفَائِدَتَيْ الآخِرة وَالأُولَى. وَهَذِهِ حَالٌ تَقْتَضِي مِنْهُ شُكْرُ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ، والصَّبْرُ لِمَا يُمْضِيهِ، وَالقَوْلُ بِمَا يُرْضِيهِ، وَالثِّقَةُ والخِيَرَةُ المُسْتَثِيرَةُ مِنْ وَرَائِهِ، وَالمَصْلَحَةُ المُنْطَوِيَةُ فِي أَثْنَائِهِ.

---

(1) ديوان رسائل الصابي، تحقيق: إحسان ذنون الثامري، ج1، ص: 605.



وَبَلَغَنِي مِنْ وَفَاةِ المُتَوَفَّاةِ مِنَ الوَلَدِ بَرَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَضْجَعَهَا، وَكَرَّمَ مَصْرَعَهَا، وَبَلَّ ثَرَاهَا، وَنَقَّعَ صَدَاهَا، مَا أَحْدَثَ بِأَوْفَرِ انْصِبَاب العَبِيدِ وَالخَدَم، وَأَدْنَى إِتْهَامَ الأَتْبَاعِ وَالحَشَم، تَأَلُّماً بِمَا ثَلَمَهُ وَانْزِعَاجاً لِمَا صَرَفَهُ وَاخْتِصَاصاً فِي كُلِّ أَمْرٍ وَكُوناً تَحْتَ ظِلٍّ فِي كُلِّ حَالٍ.

وَالوَزِيرُ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ أَحَقُّ مَنْ تَعَزَّى عَمَّا أُخِذَ مِنْهُ وَسَلَّمَ لِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى فِيهِ. وَاعْتَبَطَهُ مَا يَفِي عَلَيْهِ وَاعْتَدَّ بِالمَوْهُوبِ مِنْهُ فَإِنَّ الأَيَّامَ وَإِنْ كَانَتْ فَجَعَتْهُ مِنْ هَذِهِ السَّيِّدَةِ رَحِمَهَاللَّهُ مِنْ تَوَحُّشِ الخُدُورِ، فَقَدْ تَجَافَتْ لَهُ مِنْ ذِكْرِ الوَلَدِ مَنْ يُؤْنِسُ الصُّدُورَ. وَأَعْطَتْهُ السُّلْطَانَ القَاهِرَ، وَالعِزَّ المُتَظَاهِرَ فِي عَاجِلَتِهِ، وَوَعَدَتْهُ بِالفَوْزِ العَظِيمِ وَالمَنْهَجِ الجَسِيمِ فِي آجِلَتِهِ. وَفِي تَأَمُّلِ ذَلِكَ مَا خَفَّفَ ثِقَلَ اللَّوْعَةِ، وَسَهَّلَ مِنْ أَمْرِ السَّلْوَةِ. واللهَ تَعَالَى آمُلُ أَنْ يُسْعِدَ المَاضِيَةَ بِمَا تَرِدُ عَلَيْهِ وَيُبْهِجَهَا بِمَا تُفْضِي إِلَيْهِ وَيَفِيَهَا مَا أَعَدَّ لِأَمْثَالِهَا مِنْ أُمَّهَاتِهَا الطَّيِّبَاتِ الطَّاهِرَاتِ اللَّاتِي نَشَأْنَ فِي النَّزَاهَةِ وَالعَفَافِ، وَدَرَجْنَ فِي الصِّيَانَةِ وَالصَّلَاحِ، فَلَمْ تَعْلَقْ بِهِنَّ الأَدْنَاس وَلَمْ تَمْسَسْهُنَّ الأَدْرَان، وَلَمْ يَسْمَعْنَ وَيَعِينَ .. وَيَقُلْنَ وَيَفْعَلْنَ إِلَّا مَا يُوجِبُ لَهُنَّ عِنْدَ اللهِ زُلْفَى، يَزِيدُهُنَّ مِنْ رِضَاهُ قُرْبَى، وَأَنْ يُعِيذَ الوَزِيرَ مِنَ الرَّزَايَا، وَيُمَتِّعَهُ لِلْعَطَايَا، وَيَجْعَلَهُ مَمْنُوحاً غَيْرَ مُمْتَحَن، ومَلْمُوماً غيرَ مُشَعَّث، ومَزِيداً غَيْرَ مُنْتَقَص.

ومِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الفَضْلِ المِيكَالِي: فَصْلٌ مِنْ كِتَاب تَعْزِية بِالأَمِير نَاصِر الدَّوْلَة[1]:

أَقْدَارُ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ لَمْ تَزَلْ تَخْتَلِفُ بَيْنَ مَكْرُوهٍ وَمَحْبُوب، وَتَتَصَرَّفُ بَيْنَ مَوْهُوبٍ وَمَسْلُوب، غَادِيَةٌ أَحْكَامُهَا مَرَّةً بِالمَصَائِبِ وَالنَّوَائِبِ وَرَائِحَةٌ أَقْسَامُهَا تَارَةً لِلْعَطَايَا وَالرَّغَائِبِ، وَلَكِنَّ أَحْسَنَهَا فِي العُيُونِ أَثَراً، وَأَطْيَبَهَا فِي الأَسْمَاعِ خَبَراً، وَأَحْرَاهَا بِأَنْ تَكْسِبَ القُلُوبَ عَزَاءً[2] وَتَصَبُّراً، مَا إِذَا طُوِيَ[3] نَشَرَ، وَإِذَا نُعِيَ بَشَّرَ، وَإِذَا كُسِرَ[4] جَبَرَ، وَإِذَا أَخَذَ

(1) الرسالة في زهر الآداب 3/ 745، وفيه أنه بعثها إلى ناصر الدين يعزيه.
(2) الأصل: جزاء، وقد أثبتنا ما في الزهر.
(3) الزهر: انطوى.
(4) الزهر: انكسر.



بِيَدٍ رَدَّ بِأُخْرَى، وَإِذَا وَهَبَ بِيُمْنَى سَلَبَ بِيُسْرَى، كَالمُصِيبَةِ بِفُلَانٍ الَّتِي قَرَّحتِ الأَكْبَاد، وَأَوْهَنَتِ الأَعْضَاد، وَسَوَّدَتْ وُجُوهَ المَكَارِمِ وَالمَعَالِي، وَصَوَّرَتِ الأَيَّامَ فِي صُوَرِ اللَّيَالِي، وَغَادَرَتِ المَجْدَ [وَهُوَ يَلْبَسُ حِدَادَهُ][1]، وَالعَدْلَ وَهُوَ يَبْكِي عِمَادَهُ، وَالدِّينَ وَهُوَ يَنْدُبُ جِهَادَه، حَتَّى إِذَا كَادَ اليَأْسُ يَغْلِبُ الرَّجَاءَ، وَيَرُدُّ الظُّنُونَ مُظْلِمَةَ النَّوَاحِي وَالأَرْجَاءِ، قَيَّضَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الأَمِيرِ الجَلِيلِ مَنْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الأَهْوَاءُ، وَرَضِيَتْ بِهِ الدَّهْمَاءُ، فَأَسَى بِهِ حَادِثُ الكَلْمِ، وَسَدَّ بِمَكَانِهِ عَظِيمَ الثَّلْمِ، وَرَدَّ الآمَالَ وَالنُّفُوسُ قَدِ اسْتَبْدَلَتْ بِالحَيْرَةِ قُوَّةً وَانْتِصَاراً، وَصَارَتْ لِلدَّوْلَةِ المُبَارَكَةِ أَعْوَاناً[2] وَأَنْصَاراً.

وَلَهُ فَصْلٌ مِنْ كِتَابِ تَعْزِيَةٍ إِلَى أَبِي العَبَّاسِ بْنِ الإِمَامِ أَبِي الطَّيِّبِ[3]:

لَئِنْ كَانَتِ الرَّزِيَّةُ مُمِضَّةً مُؤْلِمَة، وَطُرُقُ العَزَاءِ والسَّلْوَةِ مُبْهَمَة، لَقَدْ حَلَّتْ بِسَاحَةِ مَنْ لَا تَنْتَقِضُ بِأَمْثَالِهَا مَرَائِرُهُ، وَلَا تَضْعُفُ عن احْتِمَالِهَا بَصَائِرُه، بَلْ يَتَلَقَّاهَا بِصَدْرٍ فَسِيحٍ يَحْمِي أَنْ يُبِيحَ الحُزْنُ جَنَابَه، وَصَبْرٍ مَشِيحٍ يَحْمِي أَنْ يَحْبِطَ الجَزَعُ أَجْرَهُ وَثَوَابَهُ، وَلِمَ لَا[4] وَآدَابُ الدِّينِ عِنْدَهُ تُلْتَمَس، وَأَحْكَامُ الشَّرْعِ مِنْ لِسَانِهِ وَبَيَانِهِ[5] تُسْتَفَادُ وَتُقْتَبَسُ، وَالعُيُون تَرْمُقُهُ فِي هَذِهِ الحَالِ لِتَجْرِيَ عَلَى سُنَنِهِ، وَتَأْخُذَ بِآدَابِهِ وَسَنَنِهِ، فَإِنْ تَعَثَّرَتِ القُلُوبُ فَلِحُسْنِ تَمَاسُكِهِ جَزَاؤُهَا[6]، وَإِنْ حسنَتِ الأَفْعَالُ فَإِلَى حَمِيدِ أَنْحَائِهِ[7] وَمَذَاهِبِهِ اعْتِزَاؤُهَا.

---

(1) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.

(2) أعوانا: ساقطة من الأصل وقد أثبتنا ما في الزهر.

(3) الرسالة في زهر الآداب 4/ 1141.

(4) الزهر: وكيف لا.

(5) الزهر: وبنانه.

(6) الزهر: فإن تعزت القلوب فبحسب تماسكه عزاؤها.

(7) الزهر: أفعاله.



وَلَهُ مِنْ كِتَابِ تَعْزِيَةٍ إِلَى أَبِي عَمْرو البُحْتُرِي قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ وَسَقَى ضَرِيحَهُ[1]:

فَلَقَدْ عَاشَ نَبِيهَ الذِّكْرِ، جَلِيلَ القَدْرِ، عَبِقَ الثَّنَاءِ وَالنَّشْرِ، يَتَجَمَّلُ بِهِ أَهْلُ بَلْدَتِهِ، وَيَتَبَاهَى بِمَكَانِهِ ذَوُو مَوَدَّتِهِ، وَيَفْتَخِرُ الأَثَرُ [وَحَامِلُوهُ][2] بِتَرَاخِي بَقَائِهِ [وَمُدَّتِهِ][3] حَتَّى إِذَا تَسَنَّمَ ذِرْوَةَ الفَضْلِ وَالمَنَاقِبِ، وَزَهَرَتْ[4] مَحَاسِنُهُ كَالنُّجُومِ الثَّوَاقِبِ، خَطَفَتْهُ[5] يَدُ المِقْدَارِ، وَمُحِيَ أَثَرُهُ بَيْنَ الآثَارِ، فَالفَضْلُ خَاشِعُ الطَّرْفِ لِفَقْدِهِ، وَالكَرَمُ خَالِي الرَّبْعِ مِنْ بَعْدِهِ، وَالحَدِيثُ يَنْدُبُ حَافِظَهُ وَدَارِسَهُ، وَحُسْنُ العَهْدِ يَبْكِي كَافِلَهُ وَحَارِسَه.

وَمِنْ إِنْشَاءِ البَدِيعِ إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ يُعَزِّيهِ عَنْ أَبِيهِ[6]:

وَصَلَتْ رُقْعَتُكَ يَا سَيِّدِي وَالمُصَابُ لَعَمْرُ اللهِ كَبِير، وَأَنْتَ بِالجَزَعِ جَدِير، وَلَكِنَّكَ بِالصَّبْرِ أَجْدَر[7]، وَالعَزَاءُ عَنِ الأَحِبَّةِ رُشْدٌ كَأَنَّهُ الغَيّ، وَقَدْ مَاتَ المَيْتُ فَلْيَحْيَ الحَي. وَالآنَ فَاشْدُدْ عَلَى مَالِكَ بِالخَمْسِ، فَأَنْتَ اليَوْمَ غَيْرُكَ بِالأَمْسِ؛ وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكِيلَكَ، تَضْحَكُ وَيَبْكِي لَكَ، وَقَدْ مَوَّلَكَ مَا أَلَّفَ فِي سَرَاهُ وَسَيْرِه، وَخَلَّفَكَ فَقِيراً إِلَى اللهِ غَنِيّاً عَنْ غَيْرِهِ، وَسَيَعْجُمُ الشَّيْطَانُ الآنَ عُودَكَ، فَإِنْ اسْتَنَا لَكَ[8] رَمَاكَ بِقَوْمٍ يَقُولُونَ: خَيْرُ المَالِ مَتْلَفَةٌ[9] بَيْنَ الشَّرَابِ وَالشَّبَابِ، وَمَنْفَقَةٌ[10] بَيْنَ الحَبَابِ وَالأَحْبَابِ، وَالعَيْشُ بَيْنَ القِدَاحِ وَالأَقْدَاحِ[11]، وَلَوْلَا الاسْتِعْمَالُ، مَا أُرِيدَ المَالُ، فَإِنْ

(1) الرسالة في زهر الآداب 4/ 1141.
(2) خرم بالأصل والتصويب من الزهر.
(3) خرم بالأصل والتصويب من الزهر
(4) الزهر: وظهرت.
(5) الزهر: اختطفته.
(6) زهر الآداب 4/ 1150.
(7) في الزهر: ولكنه بالعزاء أجدر والصبر.
(8) الزهر: استلانك.
(9) الزهر: ما أتلف.
(10) الزهر: ما أنفق.
(11) القداح الأولى: أراد بها قداح الميسر؛ أما الأقداح الثانية فأراد بها كؤوس الخمر، يعني أنه يضيع المال بين المقامرة والسكر.



أَطَعْتَهُمْ فَاليَوْمَ فِي الشَّرَابِ، وَغَداً فِي الخَرَابِ، وَاليَوْمَ وَاطَرَبَا لِلْكَاسِ، وَغَداً وَاحَرَبَا مِنَ الإِفْلَاسِ؛ يَا مَوْلَايَ ذَلِكَ المَسْمُوعُ[1] مِنَ العُودِ يُسَمِّيهِ الجَاهِلُ نَقراً، وَيُسَمِّيهُ العَاقِلُ عقراً[2]، وَذَلِكَ الخَارِجُ[3] مِنَ النَّايِ، هُوَ اليَوْمَ فِي الآذَانِ زَمْرٌ، وهو غداً فِي الأَبْوَابِ سَمْرٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدِ الشَّيْطَانُ مَغْمَزاً فِي عُودِكَ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، رَمَاكَ بِقَوْمٍ يُمَثِّلُونَ الفَقرَ حِذَاءَ عَيْنَيْكَ، فَتُجَاهِدُ قَلْبَكَ، وَتُحَاسِبُ بَطْنَكَ، وَتُنَاقِشُ عِرْسَكَ، وَتَمْنَعُ نَفْسَكَ، وَتَتَوَقَّى دُنْيَاكَ بِوِزْرِكَ، وَتَرَاهُ فِي الآخِرَةِ فِي مِيزَانِ غَيْرِكَ، لَا، وَلَكِنْ قَصْداً بَيْنَ الطَّرِيقَيْنِ، وَمَيْلاً عَنِ الفَرِيقَيْنِ، لَا مَنْعٌ وَلَا إِسْرَافٌ، وَالبُخْلُ فَقْرٌ حَاضِرٌ وَضُرٌّ عَاجِلٌ، وَإِنَّمَا يَبْخَلُ المَرْءُ خِيفَةَ مَا هُوَ فِيهِ:

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ ... مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي صَنَعَ الفَقْرُ[4]

وَلْيَكُنْ للهِ فِي مَالِكَ قِسْمٌ، وَلِلْمُرُوءَةِ قِسْمٌ؛ فَصِلِ الرَّحِمَ مَا اسْتَطَعْتَ، وَقَدِّرْ إِذَا قَطَعْتَ، فَلَأَنْ تَكُونَ فِي جَانِبِ التَّقْدِيرِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَكُونَ فِي جَانِبِ التَّبْذِيرِ، وَالعُمْرُ مَعَ هَذِهِ الآلَاتِ سَاعَةٌ، وَالقِنْطَارُ فِي هَذَا العَمَلِ بِضَاعَةٌ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ عَمْرُو بنِ مَسْعَدَةَ[5] يُعَزِّي المَأْمُونَ فِي العَبَّاسِ بنِ الفَضْلِ:

وَمَا فَضَّلَهُ اللهُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ، وَإِنَّمَا عَاتَبَ اللهُ وَوَعَظَ أُولِي الأَلْبَابِ، وَلِلْمَصَائِبِ آلامُهَا وَمَضَضُهَا وَظُلْمَتُهَا وَحُرْقَتُهَا؛ فَلَمَّا عَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَوْقِعَهَا من عبادِهِ، بَشَّرَ

(1) الزهر: ذلك الخارج.
(2) الزهر: فقرا.
(3) الزهر: ذلك المسموع.
(4) البيت من الطويل وهو للمتنبي. ديوانه 2/ 255، من قصيدته التي يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي و مطلعها:

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ ... وَحِيداً وَمَا قَوْلِي لِي كَذَا وَمَعِي الصَّبْرُ

(5) عمرو بن مسعدة توفي سنة 217هـ وهو أحد الكتاب البلغاء تجعله بعض المصادر وزيرا للمأمون وفي كتب الأدب شيء من رسائله وتوقيعاته. وفيات الأعيان3/ 145-148، تاريخ بغداد 12/ 103، أمراء البيان1/ 191، الأعلام 5/ 260.



الصَّابِرِينَ عليهَا بِمَا بَشَّرَهُمْ بِهِ مِنْ صَلَوَاتِهِ وَهُدَاهُ وَرَحْمَتِهِ، الَّتِي تَصْغُرُ مَعَهَا كُلُّ مُصِيبَةٍ وَإِنْ عَظُمَتْ، وَرَزِيَّةٍ وَإِنْ جَلَّتْ. وَلَوْ أَنَّ الدُّنْيَا وَمَا جَعَلَهُ اللهُ زِينَةً لَهَا فَإِنَّهُ يَقُولُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] جعلت بذلك...واحد فأخذهُ اللهُ منه وَاخْتبَرَهُ به وَعَوَّضَهُ مَنْزِلَةً مِنْ مَنَازِلِ الثَّوَابِ الَّذِي وَعَدَ اللهُ الصَّابِرِينَ. كَانَ حَقّاً أَنَّ مَا رُزِئَ فِي جَنْبِ مَا...هَيِّنٌ وتَجَاوَزَ مَنْزِلَةَ الصَّبْرِ عَلَى المُصِيبَةِ إِلَى مَنْزِلَةِ الشُّكْرِ لله، عَوَّضَهُ مِنَ الأَجْرِ الدَّائِمِ الَّذِي لَا فَنَاءَ له وَلَا زَوَالَ لَه وَلَا انْقِطَاعَ وَبِاللهِ التَّوْفِيق. فَعَصَمَكَ اللهُ أَيُّهَاالأَمِيرُ بِطَاعَتِهِ، وَوَفَّقَكَ بِمَا يُبْلغُكَ بِهِ رِضْوَانَهُ وَيُعْطِيكَ بِهِ مَنْزِلَةَ الصَّابِرِينَ الشَّاكِرِينَ وَثَوَابَهُمْ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ تَكُونَ بِمَا وَهَبَ اللهُ لَكَ فِي نَفْسِكَ وَفِي دِينِكَ وَعِلْمِكَ، وَفَهْمِكَ وَمَعْرِفَتِكَ، مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الثَّوَابَ مِنَ الزَّائِلِ الذِي لَا بُدَّ مِنْ مُفَارَقَتِهِ، وَالزَّوَالِ عَنْهُ، وَرَفْضِ الجَزَعِ وَالأَسَفِ عَلَيْهِ، مِنْ عِلْمِكَ وَبَصِيرَتِكَ وَتَذَكُّرِكَ،لَا يَعِظُكَ وَاعِظٌ، وَلَا يُعَزِّيكَ مُعَزٍّ إِلَّا بِدُونِ مَا عِنْدَكَ مِنَ اللهِ فِي العِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ بِمَا لَكَ وَعَلَيْكَ، وَقَدْ أَصَبْتَ فِي العَبَّاسِ بْنِ الفَضْلِ، المُسْتَغْنِي عَنِ الدُّعَاءِ بِمَا أَفْضَى اللهَ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ كَرَامَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، بَعْدَ تَعْجِيلِ السُّرُورِ، وَنَيْلِ الأَمَلِ فِيهِ، وَبُلُوغِ الشُّكْرِ فِي النِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيْكَ فِي هِبَتِهِ...إِيَّاهُ لَكَ بِالمُصِيبَةِ المُؤْلِمَةِ المُوجِعَةِ الَّتِي لَا تَحْمَدُهَا وَلَا تُوَازَى إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا، وَالرِّضَا عَنِ اللهِ فِي مَا أَصَابَكَ مِنْهَا وَالثَّوَابِ الَّذِي وَعَدَ عَلَيْهَا، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللهُ قَدْ مَنَّ عَلَيْكَ عِنْدَ الرَّزِيَّةِ مِنَ الصَّبْرِ بِمِثْلِ مَا الَّذِي مَنَّ اللهُ عَلَيْكَ، أَنْ تَكُونَ عِنْدَ هِبَتِهِ لَكَ، وَأَخْذِهِ مِنْكَ صَبُوراً شَكُوراً. فَيَالَهُمَا مِنْ مَنْزِلَتَيْنِ، مَا أَعْظَمَهُمَا وَأَشْرَفَهُمَا، وَأَكْبَرَ قَدْرَهُمَا وَأَسْنَى ذِكْرَهُمَا، وَأَعْظَمَ مِنَّةَ اللهِ عَلَى مَنْ مَنَّ بِهِمَا عَلَيْهِ فَعَظَّمَ اللهُ أَيُّهَا الأَمِيرُ أَجْرَكَ، وَأَجْزَلَ مَثُوبَتَكَ وَذُخْرَكَ، وَجَعَلَ مَا بَشَّرَ الصَّابِرِينَ بِهِ مِنْ صَلَوَاتِهِ وَهُدَاهُ وَرَحْمَتِهِ عِوَضَكَ، وَلَا نَقَصَ وَفْرَكَ، وَكَثَّرَ وَأَنْمَى عَدَدَكَ، وَجَعَلَ لَكَ مِنَ الخَلَفِ السَّارِّ مَا يُؤْنِسُ بِهِ وَحْشَتَكَ، وَيَشُدُّ بِهِ عَضُدَكَ. وَأَطَالَ بِبَقَاءِ إِمَامِكَ وَخَلِيفَتِكَ المُؤْثِرِ لَكَ، العَالِمَ الفَضْلِ الشَّاكِرِ لِمَا أَصْفَيْتَهُ

---

(1) سورة الكهف، الآية:45.





مِنْ طَاعَتِكَ، وَأَخْلَصْتَ لَهُ مِنْ نَصِيحَتِكَ، وَكَفَيْتَهُ بِرَأْيِكَ وَبَرَكَتِكَ، وَتَدْبِيرِكَ وَسِيَاسَتِكَ، وَيُمْنِ نَقِيبَتِكَ مَا حَطَّ اللهُ بِهِ قَرِيبَ النَّاسِ وَبَعِيدَهُمْ عَنْ دَرَجَتِكَ امْتِنَاعَكَ وَامْتِنَاعَهِ بِمَا مَنَحَهُ مِنْكَ وَأَعْطَاكَ فَأَمَّا الَّذِي عِنْدَنَا أَبْقَى اللهُ الأَمِيرَ بِهَذِهِ المُصِيبَةِ وَالإِجْلَالِ لَهَا وَالحُرْقَةِ لِمَا حَلَّ مِنْهَا وَالمُشَارَكَةِ فِيهَا بِمَا لَمْ يَزَلْ يُشْرِكُ الأَمِيرَ - أَصْلَحَهُ اللهُ - فِي النِّعْمَةِ وَالمُصِيبَةِ وَالمَحْبُوبِ وَالمَكْرُوهِ بِمَا قَدَّمَ اللهُ لَنَا فِي مَوَدَّتِهِ، وَجَعَلَنَا مُتَّصِلِينَ بِهِ فِيهِ، وعرَّفَنا مِنْ بِرِّهِ وَأَبْقَى عِنْدَنَا مِنْ أَثَرِهِ وَأَوْجَبَ عَلَيْنَا مِنْ شُكْرِهِ. وَقَوْلُنَا فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1]. تَنْجِيزاً بِالقَبُولِ عَنِ اللهِ مِيعَادَه، وَرَجَاءً لِمَا وَصَلَ إِلَيْنَا، وَخَصَّنَا مِنْ هَذِهِ المُصِيبَةِ بِثَوَابِ اللهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنْ رَأَى الأَمِيرُ أَكْرَمَهُ اللهُ أَنْ يُجِيبَنِي فِي كِتَابِهِ مِنْ حَالِهِ وَنِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ مَا أُسَرُّ بِهِ وَأَشْكُرُ اللهَ، فَعَل وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الحَسَنِ بْنِ وَهْب[2] إِلَى عَلِي بْنِ بَنَان الكَاتِب النَّصْرَانِي يُعَزِّيهِ بِأَخِيهِ:

أَعْطَاكَ اللهُ فِي حَالِ الفَجِيعَةِ وَالرَّزِيَّةِ، الصَّبْرَ وَالتَّسْلِيمَ، وَالاعْتِصَامَ، بِأَدَبِ اللهِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ، وَالتَّفْوِيضَ إِلَيْهِ، وَالرِّضَا بِهِ فِيمَا أَعْطَى وَأَخَذَ، وَوَهَبَ وَسَلَبَ، ثُمَّ عَوَّضَكَ مِنْ كُلِّ رُزْءٍ فَائِدَةً وَمِنْ كُلِّ مِحْنَةٍ نِعْمَةً وَأَلْهَمَكَ تَمَام الشُّكْرِ المُوجِبِ لِلزِّيَادَةِ.

هَذَا أَبْقَاكَ اللهُ حَادِثٌ مَوْقِعُهُ مِنِّي مُتَّصِلٌ بِمَوْقِعِهِ مِنْكَ لِلْحُقُوقِ الَّتِي أَوْجَبَهَا لَكُمْ أَهْلُ البَيْتِ، وَلِخَالِصِ الحَالِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِيمَا سَلَفَ مِنَ التَّرْبِيَةِ، وَمِنْ ابْتِدَاءِ الإِشَادَةِ فِي الصِّنَاعَةِ، وَمِنْ مُتَقدمِ الحِيَاطَةِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ مَحَلُّكَ فِيهَا مَحَلَّ الأُبُوَّةِ، وَمَحَلِّي فِيهَا مَحَلَّ البُنُوَّةِ، فَوَجْدِي وَجْدُ مَنْ هَذِهِ الحُقُوقُ مكتنفةٌ لَهُ وَهَذِهِ [العُهُودُ][3] مَرْعِيةٌ عِنْدَهُ وَإِلَى اللهِ المُشْتكَى.

(1) سورة البقرة، الآية: 155.
(2) كاتب عباسي مشهور: انظر الأغاني8/ 357، فوات الوفيات1/ 367.
(3) خرم بالأصل.



وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ أَلَّا يُنْقِصَ لَكُمْ عَدَداً وَلَا يَرْزَأَكُمْ نِعْمَةً وَلَا يُذِيقَكُمْ فَجْعَةً، وَأَنْ يُمَتِّعَكُمْ بِطُولِ الأَعْمَارِ، وَإِيصَالِ السَّلَامَةِ، وَدَوَامِ العَافِيَةِ فِي الأَنْفُسِ وَالأَحِبَّةِ. أَنَا بِمَكَانِي - أَبْقَاكَ اللهُ - الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ مَنْ كَانَ بِمِثْلِهِ أَنْ يُبَاشِرَ حَقّاً أَوْ يَقْضِيهِ.

وَكِتَابِي إِلَيْكَ وَإِلَى مَنْ تَخُصُّهُ هَذِهِ المُصِيبَةُ وَاحِدٌ، فَأُحِبُّ - أَكْرَمَكَ اللهُ - أَنْ تَتَحَمَّلَ عَنِّي تَعْزِيَةَ الجَمِيعِ، مِنْ أَهْلِ الحَقِّ، وَأَنْ تَخُصَّ أَبَا إِسْحَاقَ - أَبْقَاهُ اللهُ - بِمَا يُشْبِهُ سِنَّهُ وَقَدْرَهُ. وَمَوْقِعَ الأَمْرِ مِنْهُ وَأَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِمَا يُوَفِّقُكُمُ اللهُ مِنَ القَبُولِ عَنْهُ وَالتَّسْلِيمِ لِحُكْمِهِ، لأَسْكُنَ إِلَى ذَلِكَ وَأَحْمَدَ اللهَ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ إِلَى مَيْمُون الكَاتِبِ مُعَزِّياً [بِمَوْلُود]:

كَتَبَ إِلَيَّ -أَكْرَمَكَ اللهُ- فُلَانٌ يَذْكُرُ مَوْلُوداً رُزِئتَهُ فَغَمَّنِي - عَلِمَ اللهُ - مِنْ هَذَا الحَادِثِ مَا غَمَّكَ وَلَمْ أَرَ أَنِّي بَعِيداً مِنْ أَنْ أَكُونَ وَجَدْتُ بِهِ وجدكَ إِذْ كَانَتْ خِدْمَتُكَ نِعْمَةٌ تُلْبِسُنِي، وَكَانَ مَنْ خَالَفَهَا مِمَّا يُجِيرُكَ الله مِنْهُ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَعَطْفِهِ وَإِحْسَانِهِ يمسُّنِي، وَيخلي إِلَى قَلْبِي وَلَا [...] الحَادِثَة حَادِثَة، جَعَلَكَ اللهُ مُوقِناً بِالمَثُوبَةِ بعددِهَا مَعَ النِّعْمَةِ. فَلَا رَزَأَكَ الله وَلَا أَوْحَشَكَ وَلَا أَدْخَلَ نِقَماً عَلَيْكَ أَنَا - جُعِلْت فِدَاكَ - مُتَطَلِّعٌ إِلَى كِتَابِكَ بِخَبَرِ خلوَتِكَ وَرِضَاكَ عَنْ رَبِّكَ فَنَاشَدْتُكَ اللهَ أَلَّا تَتَأَخَّرَ عَنِّي بِذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَكَتَبَ أَيْضاً مُعَزِّياً:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكَ مَحْرُوساً مِنَ المَكَارِهِ وَالغِيَرِ، مُؤَيَّداً بِالصَّبْرِ وَالتَّوْفِيقِ وَالعِصْمَةِ فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ.

إِنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكَ أَعَزَّكَ اللهُ فِيمَا عَظُمَ لَكَ مِنْ دِينِكَ وَيَقِينِكَ... للهِ عَزَّ وَجَلَّ شكرها ومِحْنَتَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا وَالتَّسْلِيمِ لَهَا. وَقَدْ أَتَانَا مِنَ الخَبَرِ الحَادِث فِي أَبِي فُلَانٍ نَضَّرَ الله وَجْهَهُ وَأَصْلَحَ مَثْوَاهُ مَا جَلَّ حَتَّى اسْتَغْرَقَ الجَمِيع وَعَمَّ حتَّى شَاعَ بَيْنَ الأَقْرَبِ وَالأَبْعَدِ.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعَظِّمَ أَجْرَكَ وَأَنْ يُجْزِلَ ثَوَابَكَ وَيَرْبطَ قَلْبَكَ وَيَتَوَلَّاكَ وَيَتَوَلَّانَا فِيكَ بِمَا يَزِيدُ فِي النِّعَمِ تَمَاماً عِنْدَكَ وَالمَكَارِهِ بُعْداً عَنْكَ وَوَفَّقَكَ لِمَا أُؤمله مِنْ حُسْنِ العَزَاءِ



الذِي يُبْلِغُكَ إِلَى أَفْضَلِ الغَايَاتِ وَيُعْلِيكَ إِلَى مُنْتَهَى الكَرَامَاتِ. واللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مُشَارِكٌ لأشدكم وَجْداً وَلَوْعَةً وَأُعظمكُمْ فِي نَفْسِهِ فَجعـاً ورزيَّةً. فَإِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى غَيْرِهِ وَإِيَّاهُ أَسْأَلُ أَلَّا يُرِينَا مَكْرُوهـاً فِي شَيْءٍ مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ وَبَلَائِهِ لَدَيْكُمْ وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ جَوَابُ تَعْزِيَةٍ بِابْنَةٍ لَهُ:

فَهِمْتُ كِتَابَكَ، فَلَمْ أَعْدِمْ مِنْهُ حُسْنَ مَوْعِظَةٍ وَجَمِيلَ فَائِدَةٍ، وَبُشْرَى بِالآخِرَةِ، وَلَقَدْ مَثَلَ لِي حَالُ المُصِيبَةِ، حَتَّى ظَنَنْتُ لَقَدْ سَهَّلَ اللهُ لِي السَّبِيلَ إِلَى الجَزَعِ، وَأسهل بِهِ فِي المَوْعِظَةِ، حَتَّى ضَعُفَ عِنْدِي قَدْرُ الرَّزِيَّةِ، وَسَلَكَ بِي سَبِيلاً مِنَ القَوْلِ، وَفَّقَنِي فِيهَا بَيْنَ رَجَاءِ الثَّوَابِ عِنْدَمَا حَضَّ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ، وَخَوْفِ العِقَابِ، فَأَنَا حَذِرٌ مِنَ الإِفْرَاطِ فِي الجَزَعِ، فَلَا عَدَمَ أَوْلِيَاؤُكَ مِنْكَ رَأْيـاً يَقُودُهُمْ إِلَى الصَّوَابِ بِالمَزِيدِ، وَلَئِنْ كَانَتِ المُصِيبَةُ المَاضِيَةُ، وَقَعَتْ مَوْقِعـاً جَلِيلاً بِحَظِّ الوَلَدِ مِنَ الأُنْسِ، وَحَظِّ الفَجِيعَةِ مِنَ الأَلَمِ، إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّ بَقَاءَ الآخِرَةِ خَيْرٌ مِنْ بَقَائِهَا، وعوضُ اللهِ خَيْرٌ مِنَ السُّرُورِ بِهَا. وَإِنَّ أَوْلَى الأُمُورِ بِالحَازِمِ الرُّجُوعُ إِلَى مَا دَلَّ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ، قَوْلاً جَامِعـاً لِلإِقْرَارِ بِالهلكَةِ، والاعْتِرَافِ عَلَى النَّفْسِ، وَحَثّاً مِنَ اللهِ لِلصَّلَاةِ وَالهُدَى وَالرَّحْمَةِ. وَإِلَى اللهِ الذِي تَطَوَّلَ بِهِبَتِهَا، وَامْتَحَنَ بِارْتِجَاعِهَا، نَرْغَبُ فِي تَوْفِيرِ الثَّوَابِ عَلَيْهَا، وَتَعْوِيضِ الأَجْرِ مِنْهَا، وَجَمِيلِ الخَلَفِ بَعْدَهَا؛ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي العَبَّاسِ ابْنِ رَشِيق إِلَى المُوَفَّقِ فِي مَوْتِ القَاضِي الجَوْهَرِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي المُفَضَّل المُكَرَّم، وَمَنْ لَا قُطِعَتْ بِهِ مِنَ الأَيَّامِ قَاطِعَة، وَلَا رَاعَتْهُ مِنَ الخُطُوبِ رَائِعَةٌ، وَلَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ مَا يَخُونُ، وَلَا اعْتَنَّ لَهُ مَا لَا يَحْسُنُ. كُلُّ مُصِيبَةٍ يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي مَعَ بَقَائِكَ هَيِّنَةٌ، وَكُلُّ شَدِيدَةٍ مَعَ سَلَامَتِكَ لَيِّنَةٌ، وَكُلُّ نَازِلَةٍ فِي حَيَاتِكَ خَفِيفَةٌ، وَكُلُّ أُحْدُوثَةٍ إِبَايَتِكَ لَطِيفَةٌ [وَمَا العَزَاءُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ عَزَاءٌ][(1)] وَلَيْسَ مَا يَذْهَبُ عَنَّا - وَلَكَ الكَمَالُ بِمَعْدُودٍ، وَلَا مَنْ يُفْقَدُ مِنَّا - وَلَكَ الدَّوَامُ بِمَفْقُودٍ. وَأَبُو

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.



العَبَّاسِ القَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ وَرَدَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّأْنِ بِهُلْكِهِ، مَا خَصَّنِي بِهِ حِمْلٌ مِنَ الرَّزِيَّةِ مُثْقِلٌ، وَلَازَمَنِي عَلَيْهِ مِنَ الحَادِثَةِ دَاءٌ مُعْضِلٌ، وَجَرَحَ قَلْبِي جُرْحًا مَا إِخَالُهُ يَبْرَأُ، وَأَضْرَمَ بَيْنَ جَوَانِحِي نَاراً مَا أَظُنُّهَا تُطْفَأُ، وَأَعْدَمَنِي صِحَّةً كُنْتُ أَدَّخِرُهَا لِلشِّدَّةِ، وَأُعِدُّهَا فِي العُدَّةِ. وَفِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الأَمَلُ الَّذِي لَا تَنْفَذُ أَسْبَابُهُ، وَلَا تَنْسَدُّ أَبْوَابُهُ، ثُمَّ فِي مَوْلَايَ وَسَيِّدِي، وَفِي بَنِيهِ وَعَشِيرَتِهِ الأَكْرَمِينَ وَالطَّيِّبِينَ، فَلَهُمُ المَقَامُ المَحْمُودُ، وَهُمُ الخَيْرُ المَوْجُودُ، وَوَفَاؤُهُمُ الرِّضَا لِمَيِّتِنَا وَحَيِّنَا الَّذِي لَا تَنْقُصُ عَنْهُ فَائِدَةٌ، وَلَا تَنْقَطِعُ عَنْهُ عَائِدَة، وَلَا يَحْدُثُ مَعَهُ إِغْفَالٌ، وَلَا يَقَعُ إِهْمَالٌ، وَذَلِكَ كُلُّهُ حَسْبِي، لِلْمُتَوَفَّى رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا كَانَ فِي حَيَاتِهِ حَسْبُه، فَهِيَ رِعَايَةٌ لِمَنْ تَخَلَّفَ لَا تَبْلَى جِدَّتُهَا، وَلَا تَنْتَقِضُ عُهْدَتُهَا وَلَا تَتَرَاخَى شِدَّتُها.

ولَقَدْ كَانَ يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي، مِنْ حُسْنِ الاجْتِهَادِ فِي خِدْمَتِكَ، وَالاسْتِهْلَاكِ فِي طَاعَتِكَ، وَالتَّصَنُّعِ بِأَبْلَغِ طَاقَتِهِ لِمَسَرَّاتِكَ، وَكَانَ شَرِيكِي فِي القِيَامِ بِحُقُوقِكَ، وَلِذَلِكَ أَعُدُّهُ مِنْ جَلَائِلِ مَصَائِبِي، وَسَائِرِ نَوَائِبِي، فَعَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.........

فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَسْتَشْعِرَ الحَذَر، فَإِنَّ دُونَهُ العِبَر، وَمْن شَاءَ فَلْيَرَ أَنَّ أَمَلَهُ هُوَ غَايَةُ أَمَلِهِ، فَلَا يُدْرِجهُ فِي الغَفْلَةِ دُونَ مَهَلِهِ، إِذْ لَهُ مَا بَيْنَ الدَّارَيْنِ إِلَّا مَا بَيْنَ تَحْوِيلِ البَصَرِ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ، فِيهِ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّبَصُّرِ مِنْ زَلَّةِ القَدَمِ، وَحَسْرَةِ النَّدَمِ، وَقَدْ تَهَيَّبَ ذَلِكَ المَوْرِدَ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَأَصْفِيَاؤُهُ، وَتَمَنَّوا المَشَقَّاتِ دُونَهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ مَرْجُوٌّ، وَلَا شَفِيعٌ مَدْعُوٌّ، وَإِنَّ بِأَيْدِينَا سَبَبًا إِلَى الرَّحْمَةِ لَمْ يَنْقَطِعْ، وَأَمَامَ بَصَائِرِنَا بَابًا إِلَى الرَّاحَةِ لَمْ يَمْتَنِعْ، أَلَا وَهِيَ التَّوْبَةُ الَّتِي لَمْ يُوضَعْ دُونَهَا حِجَاب، وَلَا وَقَعَ لَهَا حَتَّى الآنَ اسْتِلَاب، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عَبِيدِهِ، فَمَا لَهَا لَا تُبْتَدَرُ بِعَزْمٍ، وَتُقْتَطَعُ بِحَزْمٍ، وَهِيَ تَمْحُو الذُّنُوبَ وَإِنْ كَبُرَتْ، وَتَعْفُو ثَارَهَا وَإِنْ كَثُرَتْ، بَلْ يُبَدِّلُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-



السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ[1]، حَتَّى تَمَنَّى بَعْضُ المُوَفَّقِينَ أَنْ تَكْثُرَ سَيِّئَاتُهُ، ثُمَّ يُرْزَقَ التَّوْبَةَ مِنْهَا، لِتَكُونَ بِكَثْرَتِهَا حَسَنَاتٍ؛ فَنَسْأَلُ بِأَوْكَدِ الرَّغَبَاتِ، وَأَلْحَنِ الطَّلَبَاتِ، أَنْ يُلْهِمَنَا مَتِينَةَ الأَسْبَابِ، سَلِيمَةً مِنَ الاضْطِرَابِ، قَائِمَةً بِالحُدُودِ وَافِيَةً بِالعُهُودِ.

وَأَسْأَلُ اللهَ بِأَتَمِّ السُّؤَالِ، أَنْ يَجْمَعَ لِمَوْلَايَ وَسَيِّدِي كَرَامَةَ المَنْزِلَتَيْنِ، وخَيْرَ الدَّارَيْنِ، وَأَنْ يُقَرِّبَ لَهُ بَيْنَ الخُطْوَتَيْنِ، وَيَصِلَ لَهُ بَيْنَ السَّلَامَتَيْنِ، وَيُهَيِّءَ لَهُ ذَلِكَ كَيْفَ شَاءَ مِنْ لُطْفِهِ، وَكَرَمِ صُنْعِهِ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَأُقْرِئُ مَوْلَايَ وَسَيِّدِي سَلَاماً كَثِيراً طَيِّباً. وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ.

وَلَهُ مُجَاوَبَةٌ عَنِ ابْنَيْهِ العَبَّاسِ وَعُبَيْدِ اللهِ إِلَى المُوَفَّقِ:

يَا مَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا الَّذِي نَبَاتُنَا فِي أُفْقِ سُلْطَانِهِ، وَحَيَاتُنَا مِنْ مَاءِ إِحْسَانِهِ، وَهِمَّتُنَا لَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَيْهِ، وَآمَالُنَا لَا تَقِفُ إِلَّا عَلَيْه، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ لَنَا وَلِلْجَمِيعِ كَنَفاً وَسِتْراً، وذخرَ لَنَا مِنْ طُولِ مُدَّتِهِ عَطْفاً وَبِرّاً، لَوْ أَغبَّتْنَا يَا مَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا نِعمُك، وَأَتَتْنَا مُتَبَدِّدَةً مِنْكَ، لَكَانَتْ مُخَاطَبَتُكَ الَّتِي لَا قَدْرَ لَنَا مَعَ أَقْدَارِهَا، وَلَا خَطَرَ مَعَ أَخْطَارِهَا، مِنَ النِّعَمِ الَّتِي تجلُّ عَنِ التَّحْصِيلِ، وَالسُّنَنِ الَّتِي تَشِذُّ عَنِ التَّمْثِيلِ، وَلَكِنَّنَا لَا تلفظُ أَلْسِنَتُنَا بِلَفْظٍ، وَلَا تَلْحَظُ أَعْيُنُنَا بِلَحْظٍ، إِلَّا وَكُلُّ ذَلِكَ تَحْتَ فَضْلٍ لَكَ جَلِيلٍ، وَمَنٍّ مِنْكَ جَزِيلٍ، فَلَا شَيْءَ أَعْوَدُ مِنَ الاعْتِرَافِ بِالانْقِطَاعِ، وَحَسْبُنَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ تَجَاوُزُكَ وَهُوَ نِعْمَ الوَكِيلِ، وبَعْدُ: يَا مَوْلَانَا وَسَيِّدَنَا، فَقَدْ تَعَزَّيْنَا بِتَعْزِيَتِكَ، وَتَسَلَّيْنَا بِتَسْلِيَتِكَ، وَرَضِينَا نَظَرَكَ إِلَيْنَا، وَحُنُوَّكَ عَلَيْنَا، عِوَضاً مِنْ كُلِّ مَفْقُود، كَمَا وَجَدْنَا خَيْرَكَ بِأَيْدِينَا وَفَضْلَكَ يَلِينَا قَبْلَ كُلِّ مَوْجُود، وَمَا نَأْلَمُ يَا مَوْلَانَا عَلَى مُصِيبَةٍ وَأَنْتَ جَابِرُهَا، وَلَا نُشْفِقُ لِحَادِثَةٍ وَأَنْتَ كَاسِرُهَا.

وَإِنَّ رَزِيَّتَنَا يَا مَوْلَانَا لَكَبِيرَةٌ، وَنَازِلَتَنَا مَعَ صِغَرِنَا عَنْ حَمْلِهَا لَغَيْرُ يَسِيرَة، وَلَكِنْ مَا أَبْقَانَا اللهُ تَحْتَ مِنَّاتِكَ، ثُمَّ أَمَاتَنَا فِي حَيَاتِكَ، لَا تَعْتَلُّ لَنَا نَفْسٌ، وَلَا يَبْطُلُ مِنَّا أُنْسٌ.

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. سورة الفرقان، الآية: 70.



فَصَنَعَ اللهُ لِمَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا المُنْعِمِ أَتَمَّ الصُّنْعِ وَأَبْقَاهُ وَكَفَاهُ. وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ مِنْ مَمْلُوكِهِ وَرَحْمَةُ اللهِ.

وَلَهُ إِلَى المُوَفَّقِ:

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الآخِذَ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ بِزِمَامٍ، المُوَالِي كُلَّ إِحْسَانٍ بِتَمَامٍ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ فِي نِعْمَةٍ لَا تُحَصِّلُ كبراً، وَرِفْعَةٍ لَا تُمَثِّلُ أثراً.

وَرَدَ عَلَيَّ يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي كِتَابُكَ الكَرِيمُ المُحْيِي لِكُلِّ هِمَّةٍ، المُجَلِّي لِكُلِّ غُمَّةٍ، الطَّالِعُ بِكُلِّ حُسْنٍ، النَّافِعُ لِكُلِّ حُزْنٍ، وَلَوْ لَمْ تُصِبْنِي - يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي مُصِيبَةٌ لَتَمَنَّيْتُهَا، تَعَرُّضاً لِكَلِمَاتِكَ الطَّيِّبَاتِ، وَدَعَوَاتِكَ الزَّاكِيَاتِ، وَلَقَدْ تَزْدَحِمُ عَلَيَّ - يَا سَيِّدِي وَمَوْلَايَ - نِعَمُكَ، وَتَتَرَادَفُ فِي كُلِّ مَقَامٍ مِنَنُكَ، حَتَّى مَا أَعْرِفُ أَيّاً أَذْكُرُ، وَلَا عَنْ أَيٍّ أَشْكُرُ، وَلِكُلِّ آثَارِكَ حَقٌّ يَجِبُ تَعْظِيمُهُ، وَلِكُلِّ أَيَادِيكَ فَضْلٌ يَحِقُّ تَقْدِيمُهُ.

وَلَوْلَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ رَضِيَ عَنْ أَتَمِّ نِعَمِهِ الحَمْدَ لَهُ، لَمَا اسْتَقَلَّ بِبَعْضِ الإِحْسَانِ جهْدٌ، وَلَا قَامَ بِحَمْلِهِ حَدٌّ، وَأَنَا - يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي - مَعَ فَضْلِكَ فِي هَذَا المَقَامِ عَنِّي صَدٌّ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ لِكُلِّ صَدْمَةٍ مِنْ لَوْعَة وَلِكُلِّ ذَوِي حُرْمَةٍ مِنْ فَجْعَة، وَمَشَاهِد المَوْتِ مِنْ رَوْعَة، فَقَدْ كَانُوا إِذَا شَهِدُوا جِنَازَةً لَمْ يُرَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ ضَاحِكاً مُدَّةً.

وَنَحْنُ نُوعَظُ بِأَمْوَالِنَا وَبِأَهْلِينَا، وَنُوصَى مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ تَلِينَا، فَالسَّهْوُ دَائِمٌ، وَاللَّهْوُ قَائِمٌ، وَكَأَنَّ مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ لَمْ يَكُنْ، فَالمُصِيبَةُ العُظْمَى وَالرَّزِيَّةُ الكُبْرَى هَذِهِ لَا غَيْرُهَا.

فَجَمَعَ اللهُ لِمَوْلَايَ وَسَيِّدِي بَيْنَ خَيْرِ الدَّارَيْنِ، وَوَصَلَ لَهُ بَيْنَ كَرَامَةِ المَنْزِلَتَيْنِ، وَلَا قَطَعَ لَهُ مُنىً، وَلَا صَرَفَ عَنْهُ وَجْهَ رِضىً، وَلَا أَرَاهُ فِي مَنْ يُحِبُّ مَا يَرْهَبُ، وَلَا تَأَخَّرَ بِهِ عَمَّا يَرْغَبُ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ، وَبِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ.

وَمَا أَنَا يَا سَيِّدِي، بَلْ مَوْلَايَ، وَمَا أَطْنَبْتُ، بِبَالِغٍ لَكَ حَقّاً، فَاجْعَلِ التَّجَاوُزَ عَنِ التَّقْصِيرِ نِعْمَةً زَائِدَةً وَاقْتَرِي سَلَاماً طَيِّباً. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي جَعْفَرَ اللَّمَّائِي يُعَزِّي أَبَا جَعْفَر بْنِ عَبَّاس فِي أَبِيهِ[1]:

إِنِّي إِنْ لَمْ أُجِد التَّأْبِينَ، فَأُجِيدُ[2] البُكَاءَ وَالحَنِينَ، وَإِنْ لَمْ أُحْسِنِ التَّمَلُّكَ وَالإِطْرَاءَ، فَأُحْسِنُ الإِخْلَاصَ وَالدُّعَاءَ. وَاتَّصَلَ بِي مَوْتُ الوَزِيرِ أَبِيكَ- لَقَاهُ اللهُ غُفْرَانَهُ - وَبَوَّأَكَ[3] بِفَضْلِ اللهِ مَكَانَهُ، فَتُرُوِّعَ[4] جَنَانُ الصَّبْرِ، وَأُخْرِسَ لِسَانُ الشُّكْرِ: بَدْرٌ أَفَل، وَهِلَالٌ اسْتَقَلَ، أُعَزِّيكَ فَأُسَلِّيك[5] قَدْرُ مُصَابِكَ، قَدْرُ ثَوَابِكَ، صَبْراً جَمِيلاً عَلَيْهِ [لِتُؤْجَرَ، وَفِعْلاً حَمِيداً][6] عَلَيْهِ لِتُذْكَرَ. أَصَابَ الغُرَّةَ فَأُصِيبَ[7]، وَأَتْعَبَ أَهْلَ زَمَانِهِ فَأُتْعِبَ، أَقُولُ مُحَقِّقاً، وَسَتَشْهَدُ لِي[8] مُصَدِّقاً: أَوْلَانِي مِنَ البِرِّ مَا لَا أَدْفَعُهُ، وَأَلْبَسَنِي مِنَ الإِكْرَامِ مَا لَا أَخْلَعُهُ:

سَتَسْفَحُ عَيْنِي عَلَيْهِ دَماً ... إِذَا مَا العُيُونُ سَفَحْنَ الدُّمُوعَا
فَقَدْ كَانَ غُصْنِي بِهِ نَاعِماً ... وَرَوْضِي أَنِيقاً وَدَهْرِي رَبِيعَا[9]

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عُمَر بن البَاجِي منْ تَعْزِية: إِلَى أَبِي عَامِرٍ فِي ابْنِه المعْتَز[10]:

بِأَيِّ لِسَانٍ -أَيَّدَكَ اللهُ- أُخَاطِبُكَ مُذَكِّراً، وَبِأَيِّ مَقَالٍ أُلَاطِفُكَ مُصَبِّراً، وَقَدْ أَذْهَلَتْنِي فَجْأَةُ الخَطْبِ، وَتَرَكَتْنِي طَائِرَ القَلْبِ وَاللُّبِّ، وَقَدْ رَمَانِي سَاعِدُ الزَّمَانِ حِينَ رَمَاكَ، وَأَصْمَانِي

(1) الرسالة: في الذخيرة 1/ 2- 618.
(2) الذخيرة: فأجد.
(3) الذخيرة: وكونك.
(4) الذخيرة: فروع.
(5) الذخيرة: وأسليك.
(6) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(7) الذخيرة: فأصب.
(8) الأصل: وستشهدني.
(9) البيتان من المتقارب.
(10) ترجمة أبي عمر الباجي في الذخيرة 2/ 1- 186، القلائد، ص: 115، المغرب في حلى المغرب 1/ 405، الخريدة3/ 88، مسالك الأبصار، ج:11، ورقة 420 (مخطوط باريز). والرسالة في الذخيرة.



سَهْمُهُ لَما أَصْمَاكَ، وَثَارَتْ إِلَيَّ فَجَائِعُهُ مِنْ حَيْثُ ثَارَتْ إِلَيْكَ، وَدَارَتْ عَلَيَّ وَقَائِعُهُ مِنْ حَيْثُ دَارَتْ عَلَيْكَ؛ وَلَوْ كَانَ مَا طَالَعَنِي خطَرُ[1] حُلُم، لَكَفَى بِهِ دَاعِيَة بَثٍّ وَأَلَم، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ [يَقِيناً][2] يَقْطَعُ أَمَلَ المُؤَمِّلِ، وَيُبْطِلُ رَجَاءَ المُرْتَجِي المُتَعَلِّلِ؟!

وَوَرَدَ كِتَابُكَ الجَلِيلُ نَاطِقاً [بِلِسَانِ الرَّزِيَّةِ][3]، مقصِداً سَهْمَ الفَجِيعَةِ فِي المُعْتَزِّ بِاللهِ ابْنِكَ، وَمُعْتَمَدِي - كَانَ - فَإِنَّا لِله، أَيُّ رُزْءٍ مَا أَفْظَعَهُ فِي القُلُوبِ، وَأَيُّ خَطْبٍ مَا أَشْنَعَهُ فِي الخُطُوبِ، وَأَيُّ مُصَابٍ مَا أَحَقَّهُ بِطُولِ الأَسَى وَنَبْذِ الأُسَى، لَوْلَا أَمْرُ اللهِ تَعَالَى وَمَا أَجِدُ -أَيَّدَكَ اللهُ- لِهَذِهِ الفَادِحَةِ قَدْراً، وَلَا أَقِيسُ بِهَا أَمْراً، وَلَا أَكَادُ أَقُولُ فِي مِثْلِهَا صَبْراً، فَإِنَّهَا سَالِبَةُ الأَذْهَانِ، وَصَانِعَةُ الأَحْزَانِ، وَخَبِيثَةُ الحَدَثَانِ، وَكَبِيرَةُ نَوَائِبِ الزَّمَانِ.

وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا[4]:

وَنَحْنُ مَأْمُورٌ فِينَا، وَمَحْكُومٌ عَلَيْنَا، يَمْلِكُنَا خَيْرُ المَالِكِينَ، وَيَحْكُمُ فِينَا أَعْدَلُ الحَاكِمِينَ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَمْ يَخْلُقْنَا، فَضْلاً عَمَّنْ خَلَقَ مِنَّا وَلَنَا، وَقَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ[5] بِنُعْمَى مَتَّعَكَ بِهَا مَا شَاءَ، ثُمَّ صَنَعَ فِي بَعْضٍ مَا شَاءَ، فَإِنْ تُقَابِلْ بِالاحْتِسَابِ قَدْرَهُ النَّازِلَ، وَبِالتَّفْوِيضِ قَضَاءَهُ العَادِلَ، [فَأَحْرِ بِحُزْنِكَ أَنْ يَعُودَ سُرُوراً، وَبِصَدْعِكَ أَنْ يَكُونَ بِثَوَابِ اللهِ مَجْبُوراً][6]:

وَلَهُ مِنْ أُخْرَى فِي مِثْلِهِ:

[كِتَابِي][7] عَنْ نَفْسٍ مُسْتَطَارَةٍ بِلَوْعَتِهَا، [وَكَبِدٍ مُذَابَةٍ بِرَوْعَتِهَا][8]، وَعَنْ قَلْبٍ شِعَارُهُ بَرْحُ الجَوَى وَأَعْشَارُهُ نَهْبُ الأَسَى [تَفَجُّعاً لِمَا فَجَعَكَ، وَاشْتِرَاكاً فِي عَظِيمِ المُصَابِ

---

(1) الذخيرة: خطرة.
(2) خرم بالأصل ومحو به والتصويب من الذخيرة.
(3) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(4) الذخيرة 2/ 1- 189.
(5) الأصل: علينا.
(6) خرم ومحو بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(7) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(8) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.



مَعَكَ][1] وَأَسَفـًا عَلَى مَنْ فَقَدْنَاهُ فُقْدَانَ السَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَرُمِينَا فِيهِ [بِأَفْظَعِ الحَوَادِثِ وَالغِيَرِ][2] «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» بِهَا يَعْتَصِمُ العَارِفُونَ وَإِلَى حَقِيقَتِهَا يَرْجِعُ المُسْلِمُونَ.

وَإِنَّ كِتَابَكَ وَرَدَ مُنْبِئـًا عَنْ صُورَةِ حَالِكَ، فِي تَوْفِيَةِ[3] رُزْئِكَ حَقَّهُ مِنَ الأَسَفِ، وَإِعْطَاءِ مُصَابِكَ بِقَدْرِهِ مِنَ اللَّهَفِ. فَسَدَّ عَلَى نَفْسِي - فَادِيَتِكَ - ثَنَايَا الصَّبْرِ، وَوَقَعَ مِنْهَا مَوْقِعَ الهَشِيمِ مِنَ الجَمْرِ، وَلَعَمْرُ اللهِ إِنَّهُ الرُّزْءُ، فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ الأَرْزَاء، الَّتِي يَحْسُنُ فِيهَا العَزَاء، وَإِنَّكَ بِالبثِّ وَالحَزَنِ لَحَقِيقٌ[4]، ثُمَّ إِنَّكَ بِالصَّبْرِ وَالاحْتِسَابِ لَخَلِيقٌ، وَلَوْلَا أَنِّي أَثِقُ بِرُجُوعِكَ إِلَيْهِ، وَتَأْيِيدِ اللهِ تَعَالَى لَكَ فِي الاحْتِمَالِ عَلَيْهِ، لَسَلَكْتُ فِي الذِّكْرَى طَرِيقَ المُحْتَشِدِ[5]، وَأَنْفَذْتُ فِيهَا وُسْعَ المُجْتَهِدِ، عَلَى أَنِّي بِاسْتِهْدَائِهَا جَدِيرٌ، وَإِلَى سَمَاعِهَا فَقِيرٌ. وَمَا اقْتِبَاسِي إِلَّا مِنْكَ، وَلَا اقْتِدَائِي إِلَّا بِكَ، جَعَلَكَ اللهُ فِي تَلَقِّي هَذَا الرُّزْءِ، وَتَحَمُّلِ هَذَا العِبْءِ، قُدْوَةَ رُشْدٍ لِلْجَازِعِينَ، وَأُسْوَةَ هُدىً لِلْغَافِلِينَ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَانِ ابْنِ طَاهِرٍ إِلَى المُعْتَصِمِ أَيَّامَ رِيَاسَتِهِ يَصِفُ العَدُوَّ العَائِثَ بِالأَنْدَلُسِ[6]:

كِتَابِي - أَعَزَّكَ اللهُ - وَقَدْ وَرَدَ كِتَابُ المَنْصُورِ مَلَاذِي المُعْتَمِدِ بِكَ أَيَّدَهُ اللهُ، وَأَوْدَعَهُ مَا أَوْدَعَ مِنْ حَيَّاتٍ، وَلَمْ يَدَعْ مَكَانـًا بِمَسْلَاة، فَإِنَّهُ لِلْقُلُوبِ مُؤْذٍ، وَلِلْعُيُونِ مُقْذٍ، وَللظُّهُورِ قَاصِم، وَلِعُرَى العَزْمِ[7] فَاصِم، فَلْيَنْدُبِ الإِسْلَامَ نَادِب، وَلْيَبْكِ لَهُ شَاهِدٌ

(1) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(2) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.
(3) الذخيرة: وتوفيت رزئك.
(4) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف، الآية: 86.
(5) المحتشد: الذي لا يدع عند نفسه شيئا من الجهد والنصرة.
(6) الرسالة في الذخيرة 3/ 1-86. القلائد، ص: 66.
(7) الذخيرة: الحزم.



وَغَائِب، فَقَدْ طُفِئَ مِصْبَاحُه، وَوُطِئَ سَاحُه، وَهِيضَ عَضُدُه، وَغِيضَ ثَمَدُه، إِلَى اللهِ يُفْزَع، وَلَدَيْهِ يُضْرَع[1]، فِي طَارِقِ الخَطْبِ وَمُنْتَابِهِ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ، نَازِعُ الكُرُوبِ[2]، وَنَاصِرُ الحُرُوبِ، وَعَالِمُ الغُيُوبِ، لَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَذَلِكَ أَنَّ فِرْدِلَنْد[3] -وَقَمَهُ اللهُ- نَزَلَ عَلَى قَلْعَةِ أَيُّوبَ مُحَاصِراً لِمَنْ فِيهَا، وَمُغِيراً عَلَى نَوَاحِيهَا، بِجُمُوعٍ يَضِيقُ عَنْهَا الفَضَا، وَتَتَسَاقَطُ عِنْدَ مُلَاحَظَتِهَا الأَعْضَا، وَأَنَّهُ قَدْ بَنَى عَلَى قَصْدِ جِهَاتِهَا، وَوَطْءِ جَنَبَاتِهَا، إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ اللهُ مِنْ شَرِّهِ، وَيَدْرَأَ فِي نَحْرِهِ[4]، وَغَرْسِيَةُ -دَمَّرَهُ اللهُ- بِسَرَقُسْطَةَ كَذَلِكَ، وَرُذْمِيرُ أَهْلَكَهُ اللهُ بِوَشْكَة، وَبِمَا وَالَاهَا يُنْكِي، بِمَا يُبْكِي، وَالمُسْلِمُونَ بَيْنَهُمْ سَوَامٍ تَرْتَعُ، وَأَمْوَالُهُمْ نُهْبٌ تُوَزَّعُ، وَالقَتْلُ آخِذٌ مِنْهُمْ فَوْقَ مَا يَدَعُ. فَأَطِلِ الفِكْرَةَ مِنْ هَذَا الخَرْمِ الدَّاخِلِ، وَالبَلَاءِ الشَّامِلِ، وَأَسْبِلِ العَبْرَةَ، وَأَطِلِ [العِبْرَةَ][5] واللهُ المَرْجُوُّ لِتَلَافِي الأُمَّةِ، وَكَشْفِ هَذِهِ الغُمَّةِ، بِمَنِّهِ لَا رَبَّ غَيْرُه.

ومِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ مِنْ رِجَالِ القَلَائِدِ إِلَى مُحَمَّد بنِ القَاسِمِ مُسَلِّياً عَنْ نَكْبَتِهِ[6]:

الوَزِيرُ الفَقِيهُ أَدَامَ اللهُ عِزَّه، وَكَفَاهُ مَا عَزَّه، أَعْلَمُ بِأَحْكَامِ الدِّيَانَةِ مِنْ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيهَا طَرْفاً، وَيُنْكِرَ لَهَا صَرْفاً، وَيَطْلُبَ فِي مَشَارِعِهَا مَشْرَباً زُلَالاً أَوْ صِرْفاً، فَشُهْدُهَا مَشُوبٌ بِعَلْقَم، وَرَوْضُهَا مَكْمَنٌ لِكُلِّ صِلٍّ أَرْقَم، وَمَا فَجَعَتْهُ الحَوَادِثُ -أَعَزَّهُ اللهُ[7]- بِنَكْبَة، وَلَا حَطَّتْهُ النَّائِبَاتُ عَنْ رُتْبَة، وَلَا كَانَتِ الأَيَّامُ قَبْلَ رِفْعَتِهِ بِوِزَارَةٍ أَوْ كِتْبَه، فَهُوَ المَرْءُ يَرْفَعُهُ دِينُهُ وَلُبُّهُ، وَيَنْفَعُهُ لِسَانُهُ وَقَلْبُه، وَيَشْفَعُ لَهُ عِلْمُهُ وَحَسَبُه، وَتَسْمُو بِهِ هِمَّتُه وَأَدَبُه، وَيَعْنُو بَيْنَ يَدَيْهِ شَانِيهِ

---

(1) الذخيرة: إلى الله نفزع ولديه نضرع.

(2) الذخيرة: فهو كاشف.

(3) القلائد: فرديناند.

(4) القلائد: «إلا أن يدرأ الله في نحره ويحمي من شره».

(5) خرم بالأصل.

(6) الرسالة في القلائد، ص: 187.

(7) القلائد: وما فجعته أعزه الله الحوادث بنكبة.



وَحَاسِدُه، وَيَثْبتُ فِي أَرْضِ الكَرَمِ حِينَ يُرِيدُ أَنْ يَجْتَثَّهُ حَاصِدُه، وَيَفْدِيهِ بِالفَضْلِ مَنْ لَا يَوَدُّه، ويَنْصُرُهُ اللهُ بِإِخْلَاصِهِ حِينَ لَا يَنْصُرُهُ سُوَاعُه[1] وَلَا وُدُّه[2]:

وَإِنَّ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ وَعَتْبَهُ ... لَكَالدَّهْرِ لَا عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ[3]

وَمَا هُوَ -أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ- إِلَّا نَصْلٌ أُغْمِدَ لِيُجَرَّدَ، وَسَهْمٌ سُدَّ طَرِيقُهُ لِيُسَدَّدَ، وَجَوَادٌ ارْتُبِطَ لِيُخَلَّى عِنَانُهُ، وَقَطْرٌ تَأَنَّى سَحَابُهُ وَسَيُرْسِلُه عَنَانُه[4]، وَإِنَّ المَهَارِقَ لَتَلْبَسُ بَعْدَهُ ثِيَابَ حِدَاد، وَإِنَّ أَلْسِنَةَ الأَقْلَامِ لَتُخَاصِمُ عَنْهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَاد، وَسَيَنْجَلِي هَذَا القَتَامُ عَنْ سَابِقٍ لَا يُدْرَكُ مَهَلُه، وَيَعْتَمِدُه المَلِكُ الهُمَامُ بِإِكْرَامٍ لَا يُكَدَّرُ مَنْهَلُهُ، وَيُؤْنِسُ رَبْعَ المَلِكِ الَّذِي أَوْحَشَ وَيُؤَهِّلُهُ، وَيُرَقِّيهِ -أَيَّدَهُ اللهُ- إِلَى أَعْلَى المَنَاهِلِ وَيُؤَهِّلُهُ، وَيُنْشِدُ فِيهِ وَفِي طَالِبِيهِ:

وَسَعَى إِلَيَّ بِهَجْرِ عَزَّةَ مَعْشَرٌ ... جَعَلَ الإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا[5]

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ - أَعَزَّهُ اللهُ - سَيَبْرَمُ بِهَذَا الكَلَامِ، وَيُولِينِي جَانِبَ المَلَامِ، وَيَعُدُّ قَوْلِي مَعَ السَّفَاهَاتِ وَالأَحْلَامِ، فَقَدْ ذَهَبَ فِي رَفْضِ الدُّنْيَا مَذْهَباً، وَجَلَا التَّوْفِيقُ عَنْ عَيْنَيْهِ غَيْهَباً، وَتَرَكَنَا عَبِيدَ الشَّهَوَاتِ نُمْسِكُ بِعِظَامِهَا، وَنَرْتَعُ فِي حُطَامِهَا. وَأَسْأَلُ اللهَ عَمَلاً صَالِحاً، وَقَلْباً مُصَالِحاً، وَيَقِيناً نَافِعاً، وَإِخْلَاصاً شَافِعاً. بِمَنِّهِ وَيُمْنِهِ[6].

---

(1) سواع: اسم صنم عبد زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ففرقه الله أيام الطوفان فاستثاره إبليس لأهل الجاهلية فعبدوه.

(2) ود: صنم كان لقوم نوح ثم صار لقبيلة كلب بدومة الجندل وفي القرآن: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾.

(3) البيت من الطويل، وهو لشاعر تغلبي سماه صاحب كتاب: «العباب في شرح أبيات الأداب» قال تكلم في مقام عبد الملك بن مروان بكلام لم يرضه فقال:

أَمِنْ جَذْبِهِ بِالرِّجْلِ مِنِّي تَبَاشَرَتْ ... عُدَاتِي وَلَا عَيْبٌ عَلَيَّ وَلَا سُخْرُ

(4) القلائد: وسيسليه.

(5) البيت لكثير عزة وهو برواية مخالفة لما ورد عندنا:

وَمَشَى إِلَيَّ بِعَيْبِ عَزَّةَ نِسْوَةٌ ... جَعَلَ الإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا

الشعر والشعراء 1/ 422. ديوانه.

(6) القلائد: بمنه إن شاء الله.



ومِنْ إنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ الله بْنِ اللَّوْشِي إِلَى أَمِيرِ المُسْلِمِينَ تَعْزِيَةً في الأَمِيرِ مَزْدَلِيٍّ[1]:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ أَمِيرِ المُسْلِمِينَ، وَنَاصِرِ الدِّينِ، الشَّائِعِ عَدْلُه، السَّائِغِ فَضْلُه[2]، العَظِيمِ سُلْطَانُه، العَلِيِّ شَأْنُه، فِي سَعْدٍ يَطْرِفُ عَنْهُ أَعْيُنَ النَّوَائِبِ، وَجِدٍّ يَصْرِفُ عَنْهُ[3] أَوْجُهَ المَصَائِبِ؛ كُلُّ رُزْءٍ - أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ - وَإِنْ عَظُمَ وَجَلَّ، حتَّى اسْتَوْلَى عَلَى النَّفْسِ[4] مِنْهُ الوَجَل، إِذَا عَدَا بَابَه، وَتَخَطَّى جَنَابَه، فَقَدْ أَخْطَأَ - بِحَمْدِ اللهِ - المَقْتَل، وَصَدَّ عَنْ سَوَاءِ الغَرَضِ فعَدَلَ، وَإِذَا كَانَتْ أَقْدَارُ اللهِ تَعَالَى لَا تُطَاوَل[5]، وَأَحْكَامُهُ لَا تُزَاوَل، فَالصَّبْرُ لِوَاقِعِهَا أَوْلَى، وَالتَّسْلِيمُ أَوْهَبُ لِرِضَى المَوْلَى[6].

وَكَتَبْتُهُ - أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ- وَالنَّفْسُ بِنَارِ زَفَرَاتِهَا مُحْتَرِقَة، وَالعَيْنُ بِمَاءِ عَبْرَتِهَا شَرِقَةٌ مُغْرَوْرِقَة. لِمَا نَفَذَ بِهِ قَدَرُ اللهِ المَقْدُورِ، وَقَضَاؤُهُ المَسْطُور، مِنْ وَفَاةِ الأَمِيرِ الأَجَلِّ أَبِي مُحَمَّدٍ مَزْدَلِّي- قَدَّسَ اللهُ رُوحَه، وَسَقَى ضَرِيحَه، فَيَا لَهُ مِنْ رُزْءٍ قَصَمَ الظَّهْر، وَوَسَمَ النُّجُومَ الزُّهْر، وَأَذْكَى الأَحْزَان، وَأَبْكَى[7] الأَجْفَان، بِمَكَانَتِهِ مِنَ الدَّوْلَةِ المُنِيفَةِ، وَمَنْزِلَتِهِ مِنَ الأُسْرَةِ الرَّفِيعَةِ الشَّرِيفَةِ؛ وَعِنْدَ اللهِ تَحْتَسِبُهُ ذَخِيرَةً عُظْمَى، وَتَسْأَلُهُ المَغْفِرَةَ وَالرُّحْمَى؛ فَإِنَّهُ كَانَ - نَوَّرَ اللهُ وَجْهَهُ- مُتَوَفِّرَ الْهِمَّةِ عَلَى الجِهَاد، مِنْ أَهْلِ الجِدِّ فِي ذَلِكَ وَالاجْتِهَادِ؛ وَحَسْبُهُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ نَحْبَه إِلَّا وَهُوَ مُتَجَبِّرٌ فِي عَسْكَرِهِ فَأَدْرَكَهُ المَوْتُ مُهَاجِراً، وَمَعَ اللهِ تَاجِراً.

---

(1) أبو عبد الله اللوشي مترجم له في القلائد وقد وردت الرسالة فيه كذلك، ص: 254، ومزدلي الذي كتبت هذه التعزية باسمه هو أحد قادة المرابطين جرت بينه وبين السيد القمبيطور مناوشات حربية في مدينة بلنسية. النفح 2/ 755.

(2) القلائد: السابغ فضله.

(3) القلائد: تصرف عنه.

(4) القلائد: النفوس.

(5) القلائد: أقدار الله غالبة لا تصاول.

(6) القلائد: به إضافة عما في أصلنا وهي: «والتزام أوامره أشرف وأعلى، وفي كل حال أجل وأولى».

(7) القلائد: وأقصى المهاد بمكانته.

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ [تَعَالَى][1] قَدْ قَرَنَ لَهُ فَاتِحَةَ السَّعَادَةِ، بِخَاتِمَةِ الشَّهَادَةِ، وَأَمِيرُ المُسْلِمِينَ أَوْرَى في الرِّيَاسَةِ زَنْداً مِنْ أَنْ تُضَعْضِعَهُ الخُطُوبُ إِذَا هَمَّتْ، وَتُوجِعَهُ الحَوَادِثُ إِذَا ادْلَهَمَّتْ. واللهُ يُحْسِنُ عَزَاءَهُ عَلَى فَجْعِه، وَلَا يُدْنِي كَارِثاً بَعْدَهُ مِنْ رَبْعِه[2].

(1) ساقطة من الأصل. والزيادة من القلائد.

(2) في القلائد زيادة: «بمنه عز وجل».



وَمِنْ إِنْشَاءِ عِمَادِ الدِّينِ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَصْفَهَانِي عَنِ المَلِكِ الأَفْضَلِ يَشْتَمِلُ عَلَى شَرْحِ مَا أَلَمَّ وَخَصَّ بِهِ الرُّزْءَ وَعَمَّ مِنْ مَوْتِ صَلَاحِ الدِّينِ[1]:

صَدَرَتْ هَذِهِ المُكَاتَبَةُ مُعْرِبَةً عَنِ النَّبَأِ العَظِيمِ، وَالخَطْبِ الجَسِيمِ وَالرُّزْءِ العَظِيمِ، وَالحَادِثِ الأَلِيمِ، وَالكَارِثِ المُقْعَدِ المُقِيمِ، وَالنَّائِبِ المُبَاغِتِ، وَالمُصَابِ السَّاحِتِ، وَالفَجِيعَةِ الفَاجِئَةِ، وَالنَّكْبَةِ النَّاكِئَةِ، والطَّارِقَةِ الطَّارِئَةِ، وَالمُلِمَّةِ المُؤْلِمَةِ، وَالبَرِيَّةِ البَارِيَةِ، وَالوَاقِعَةِ الرَّائِعَةِ، وَالصَّدْمَةِ الصَّادِعَةِ، وَالهَدْمَةِ اللَّافِحَةِ، وَالرَّوْعَةِ الفَادِحَةِ، وَالغُمَّةِ الَّتِي غَامَتْ بِهَا الأَيَّام، وَغَمَّ لَهَا الأَنَام، وَاعْتَلَّ بِهَا الإِسْلَام، وَاخْتَلَّ بِهَا النِّظَام، فَقَدْ عَدِمَتِ المَطَالِعُ ضِيَاءَهَا، وَالمَشَارِعُ صَفَاءَهَا، وَالثُّغُورُ سِدَادَهَا، وَالأُمُورُ سَدَادَهَا، وَالعُيُونُ قُرَّتَهَا، وَالنُّفُوسُ قَرَارَهَا وَالقُلُوب ثَبَاتَهَا، وَالجُفُونُ غِرَارَهَا، وَالأَيْدِي أَيْدَهَا، وَالوُجُوهُ سُفُورَهَا، وَالصُّدُورُ انْشِرَاحَهَا، وَالأَسْرَارُ سُرُورَهَا. فَقَدْ فَقَدَتِ الدُّنْيَا بَهْجَتَهَا وَضَلَّتِ العَلْيَاءُ مَحَجَّتَهَا، وَاهْتَدَى الضَّلَالُ إِلَى الهُدَى، وَأَقْوَى نَادِي النَّدَى. وَأَقْفَرَتْ مَغَانِي الغِنَى، وَاكْفَهَرَّتْ مَجَالِي السَّنَى، وَأُمِرَّتْ مَجَانِي المُنَى، وَخَفِيَتْ مَنَاهِجُ المَنَاجِح وَعُطِّلَتْ مَنَاهِلُ المَنَائِح، وَعَمِيَتْ مَذَاهِبُ المَوَاهِب، وَأَظْلَمَتْ مَطَالِعُ المَطَالِب، وَأَرْتَجَتْ لأَبْوَابِهَا الفُتُوح، وَدَجَتْ أَضْوَاءُ الوُضُوح، وَدَرَسَتْ مَعَالِمُ المَعَالِي، وَطُمِسَتْ زَوَاهِرُ اللَّيَالِي، وَاضْطَرَبَتِ الدَّهْمَاء، وَاضْطَرَمَتِ الدَّهْنَاء، وَبطلتْ مَوَاسِمُ الحَقِّ، وَأَبْهَمَتْ مَظَالِمُ الخَلْق، وَانْقَطَعَتْ مَسَالِكُ الجِهَادِ، وَتَفَجَّعَتْ مَمَالِكُ البِلَادِ، وَأَخْلَفَتْ عدَاتُ الأَعْدَاء، وَانْكَسَفَتْ أَنْوَارُ آمَالِ الأَوْلِيَاءِ وَذَلِكَ بِمَا أَجْرَى اللهُ مِنْ قَضَائِهَ المَحْتُوم، وَأَظْهَرَهُ مِنْ قَدَرِهِ المَكْتُوم، بِمُصَابِ مَوْلَانَا المَلِكِ النَّاصِرِ رَوَّحَ اللهُ رُوحَه، وَوَرَّدَ فِي جِنَانِ رِضْوَانِهِ وَغُفْرَانِ غُفْرَانِهِ ضَرِيحَه، فَقَدْ عَظُمَ الخَطْبُ وَجَلّ، وَحَلَّ عُرَى الجَلَدِ حِينَ حَلّ، وَسَلَّمَ غَرْبَ الصَّبْرِ وَفَلّ، وَأَجْرَى غَرَبَ الدُّمُوعِ، وَأَدْرَكَ

(1) كاتب مشرقي مشهور اشتهر بكتابه: «خريدة القصر وجريدة العصر»، كان كاتبا لصلاح الدين الأيوبي وله رسائل عديدة مخطوطة. انظر: مقدمة كتاب الخريدة بتحقيق محمد بهجت الأثري. والرسالة في الفتح القسي، ص: 644.



كَرَبَ الضُّلُوعِ، وَبَتَّ حَبْلَ اللَّاجِينَ، وَشَتَّ شَمْلَ الرَّاجِينَ. وَأَعْلَمَنَا أَنَّ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةَ حِبَالُهَا رَثَاثٌ، وَحبَاؤُهَا غَثَاث، وَعُقُودُهَا أَنْكَاث، وَسُهُولُهَا أَوْعَاث، وَقُصُورُهَا أَجْدَاث، وَسُرُورُهَا غُرُورٌ وَمَوَاهِبُهَا أَحْدَاثٌ، وَسُكُونُهَا قَلَقٌ، وَأَمْنُهَا فَرَقٌ، وَصِحَّتُهَا سَقَم، وَأَمَلُهَا أَلَم، وَغِبْطَتُهَا نَدَم، وَوُجُودُهَا عَدَم، وَبَقَاؤُهَا فَنَاء، وَنِعْمَتُهَا بَلَاء، وَرَاحَتُهَا عَنَاء، وَمُلْكُهَا هُلْكٌ، وَسِتْرُهَا هَتْكٌ، وَأَخْذُهَا تَرْكٌ، وَسَلْمُهَا حَرْبٌ وَصُلْحُهَا فَتْكٌ، وَوَفَاؤُهَا غَدْرٌ، وَوقَاؤُهَا مَكْرٌ، وَعُرْفُهَا نُكْرٌ، وَوَصْلُهَا هَجْرٌ، وَخَيْرُهَا شَرٌّ وَنَفْعُهَا ضُرٌّ، وَجَبْرُهَا كَسْرٌ، وَمَتَاعُهَا قَلِيلٌ، وَبَاعُهَا فِي التَّطَاوُلِ طَوِيلٌ، وَمَا لِعِثَارِهَا مَقِيلٌ، وَلَا فِي ظِلِّهَا مَقِيلٌ، وَلَا أَرَبَ فِيهَا لأَرِيبِ، وَلَا أَلْبَابَ فِيهَا لِلَبِيبِ، وَأَنَّ ظِلَّهَا قَالِصٌ، وَفَضْلَهَا نَاقِصٌ، وَعُمْرَهَا قَصِيرٌ، وَغَنِيَّهَا فَقِيرٌ، وَرِيَّهَا جَوعٌ، وَزِيَّهَا خُدَعٌ، وَحَلْيَهَا عَطَلٌ، وَسَعْيَهَا زَلَلٌ، وَأَجْدَاؤُهَا أَجْدَابٌ، وَإِعْطَاؤُهَا إِعْطَابٌ، وَإِفْضَاحُهَا إِظْلَامٌ، وَإِرْغَابُهَا إِرْغَامٌ، وَسَمَاحَتُهَا بُخْلٌ، وَسَجَاحَتُهَا خَتْلٌ، وَعَقْدُهَا مَفْسُوخٌ، وَعَهْدُهَا مَنْسُوخٌ، وَرِبْحُهَا خَسَارٌ، وَجُرْحُهَا جُبَارٌ، وَيَسَارُهَا إِعْصَارٌ، وَخِصْبُهَا إِمْحَالٌ، وَخَيْرُهَا مُحَالٌ، وَلَمُّهَا شَعَثٌ، وَشِيمَتُهَا عَيْثٌ وَعَبَثٌ، وَتُرَابُهَا تُرَاثٌ، وَمَا لِمَسْكَنِهَا أَسَاسٌ، وَلَا لِسَاكِنِهَا أَثَاثٌ، وَلِأَكِيدِهَا فِي كَيْدِهَا بَدَدٌ، وَلَا لِمَكْرِهَا فِي جَدِّ مَكْرِهَا جَدَدٌ، وَالسَّعِيدُ مَنِ اسْتَعَدَّ فِي مَعَاشِهِ لِلْمَعَاد، وَاسْتَكْثَرَ مُدَّةَ مُقَامِهِ في الدُّنْيَا لِسَفَرِ الآخِرَةِ مِنَ الإِزْوَاد. وَمَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ القِلَى، وَعَرَفَ أَنَّهَا دَارُ البَلَاءِ وَالبِلَى، وَتَقَوَّى فِيهَا بِالتَّقْوَى، وَجَدَّ فِي إِعْرَابِ عَنْ جَدْوَاهَا لِلْفَوْزِ يَوْمَ العَرْضِ بِالجَدْوَى.

وَلَقَدْ كَانَ السُّلْطَانُ السَّعِيدُ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - لِحَقِيقَتِهَا عَارِفًا، وَطَرِيقَتِهَا عَازِفًا، وَلِزُخْرُفِهَا عَائِفًا، وَمِنْ مُلْكِهَا آنِفًا، وَمِنْ مَالِهَا مُتَعَفِّفًا، وَاشْتَغَلَ عَنِ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، وَخَصَّهُ اللهُ بِتَأْيِيدِهِ في عِلْمِ اليَقِينِ، وَاقْتَدَى بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فَمَا زَاغَ بَصَرُهُ وَلَا طَغَى[1]، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى وَأَنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى[2] فَوَقَفَ حَيَاتَهُ عَلَى إِحْيَاءِ

(1) في سورة النجم الآية:17. ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾.
(2) في سورة النازعات، الآيتان: 39-40.



مَعَالِمِ الهُدَى، وَالاعْلَالِ بِشِعَارِ التُّقَى وَإِعْلَاءِ مَنَارِ الهُدَى، وَإِشَاعَةِ سُنَنِ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ فِي البِلَادِ وَالعِبَادِ، وَإِفَاضَةِ سِجَالِ الفَضْلِ وَالإِفْضَالِ، حَتَّى كَفَلَ جُودهُ بِفَيْضِ الأَرْزَاقِ وَوَفَى بِحُجَجِ الآمَالِ، وَأَخْلَصَ للهِ عَمَلَه، وَمَا مَلَكَ مُلْكاً وَلَا تَموَّلَ مَالًا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللهِ أَنْفَقَهُ وَبَذَلَهُ، وَكَانَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَنْ كَانَ للهِ كَانَ اللهُ لَهُ»[1]. فَلَا جَرَمَ أَذَلَّ اللهُ لَهُ المُلُوكَ الأَعِزَّة، وَوَهَبَ لَهُ مِنَ العَطْفِ عَلَى الدَّوْلَةِ لِيُبَاهِي بِمُلْكِهِ العِزَّة، وَمَلَّكَهُ الأَقَالِيمَ وَالأَمْصَار، وَأَجْرَى بِأَقْدَارِهِ الأَقْدَارَ، فَأَزَالَ عَنْ مَشَارِعِ الشَّرِيعَةِ الأَكْدَارَ، وَعَطَّلَ البِدْعَةَ بِمِصْرَ وَاليَمَنِ وَالشَّام، وَقَمَعَ أَعْدَاءَ الإِسْلَامِ.

وَمَدَّ اللهُ فِي عُمْرِهِ حَتَّى بَلَغَ المُرَادَ، وَفَتَحَ البِلَادَ، وَوَفَّى فِي حَقِّ الجِهَادِ الجِدَّ وَالاجْتِهَادَ، فَبَلَغَ مَا عَجَزَتْ عَنْهُ المُلُوكُ، وَنَهَجَ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ نَهْجاً أَعْوَزَ مَنْ قَبْلَهُ فِيهِ السُّلُوكُ، وَأَخْرَجَ الفِرَنْجَ عَنِ السَّاحِلِ وَأَبَادَهَا، وَمَلَكَ عَلَيْهَا دِيَارَهَا وَبِلَادَهَا، وَأَوْهَى عَلَيْهَا مَعَاقِدَ مَعَاقِلِهَا، وَطَالَ بِحَقِّهِ مِنْ بَاطِلِهَا.

وَأَقْصَى عَنِ المَسْجِدِ الأَقْصَى مُدَنِّسِيهِ، وَأَزَالَ عَنْهُ أَيْدِي غَارِبِيهِ، وَأَصْرَخَ الصَّخْرَةَ المُطَهَّرَةَ وَطَهَّرَهَا مِنَ الأَرْجَاسِ، وَأَبْعَدَهَا عَنْ أَجْنَاسِ الأَنْجَاسِ، وَقَهَرَ الكُفْرَ وَقَتَلَهُ، وَنَصَرَ الإِيمَانَ وَأَخَذَ لَهُ، وَأَحْيَى لِلْكَرَمِ كُلَّ سُنَّةٍ حَسَنَةٍ، وَاسْتَمَرَّتْ مَحَاسِنُ أَيَّامِهِ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، وَتَعَدَّلَتْ بِعَدْلِهِ الجَوَانِحُ، وَتَذَلَّلَتْ بِبَأْسِهِ الجَوَامِحُ، وَدَانَتْ وَدَنَتْ لَهُ المَمَالِيكُ القَاصِية، وَأَذْعَنَتْ وَعَنَتْ لِحُكْمِهِ الأَمَانِيُّ القَاصِية، وَمَلَكَتِ القُلُوبَ وَالقَبُولَ مَهَابَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ، وَعَمَّتِ الخَوَاصَ وَالعَوَامَ عَارِفَتُه وَعَاطِفَتُهُ، وَنفذَتْ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ مَرَاسِمُه، وَقَامَتْ بِالشُّكْرِ وَالحَمْدِ مَوَاسِمُهُ، وَوَفَتْ بِأَمَلِ الدَّانِي وَالقَاصِي وَالسَّمِيعِ وَالعَاصِي مَكَارِمُه.

وَأَسْعَدَهُ اللهُ وَأَمْهَلَهُ، حَتَّى حَقَّقَ فِي ذَوِيهِ أَمَلَه، وَوَلَّى فِي كُلِّ إِقْلِيمٍ مَنْ يَعْمَلُ للهِ لِلْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ عَمَلَه، ثُمَّ تَوَفَّاهُ حَمِيدَ الأَثَرِ كَرِيمَ الوِرْدِ وَالصَّدَرِ، ظَافِرَ الرَّجَاءِ رَابِحَ

(1) هذا الكلام ليس حديثا وقد أورده الغزالي في الإحياء ولا سند له.



الظَّفَرِ، صَالِحَ العَمَلِ، نَاجِحَ الأَمَلِ، طَاهِرَ الفِطْرَةِ، ظَاهِرَ النُّصْرَةِ، كَاسِيًا مِنَ الفَخْرِ، عَارِيًا مِنَ العَارِ، مُرْتَدِيًا بِثَوْبِ الثَّوَابِ، مُرْتَوِيًا مِنْ صَوْبِ الصَّوَابِ، مُبْتَهِجًا بِنَظْرَةِ النَّعِيمِ، مُتَأَرِّجًا بِعَرْفِ نَسِيمِ التَّسْنِيمِ.

وَمَا كَانَ أَبْهَجَ الأَيَّامِ بِأَيَامِنِهِ، وَالأَعْمَارِ بِمَزَايِنِهِ، وَالأَمْصَارِ بِمَحَاسِنِهِ، وَالإِسْلَامِ بِسُلْطَانِهِ، وَالآفَاقِ بِسَنَا إِحْسَانِهِ، وَمَا كَانَ أَسْعَدَنَا بِجُدُودِهِ، وَأَجَدَّنَا بِسُعُودِهِ، وَأَغْنَانَا بِعَدْلِهِ وَجُودِهِ، فَلَقَدْ فُقِدَ الصَّبَاحُ فَلَا سَنَا، وَدُفِنَ السَّمَاحُ فَلَا جَنْيَ وَلَا جَنَى، وَغَاضَ البَحْرُ فَلَا غِنَى، وَهَوَى الطَّوْدُ فَلَا ثَبَاتَ، وَذَوَى الرَّوْضُ فَلَا نَبَاتَ، وَهَوَى الرُّكْنُ فَلَا سَنَد، وَانْتَهَى اليُمْنُ فَلَا جَدَد، وَغَلَبَ الكَمَدُ فَلَا جَلَد، وَعَزَّ العَزَاءُ فَلَا عِزَّ وَلَا قُوَّةَ وَلَا عَضُد، فـ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[1] وَلأَمْرِهِ تَابِعُون، وَلِحُكْمِهِ طَائِعُون، لَا رَادَّ لإِرَادَتِهِ، وَلَا صَادَّ لِمَشِيئَتِهِ، وَلَا صَادِفَ لِمُصَادَفَةِ قَضَائِهِ، وَلَا صَارِفَ لِصَرْفِ بَلَائِهِ، وَلَقَدْ كَادَتِ الأَنْوَارُ تَغْرُب، وَالأَنْوَاءُ تَعْزُبُ، وَالمَنَابِعُ تَغُور، وَالصَّنَائِعُ تَبُورُ، وَالأَحْوَالُ تَحُولُ، وَالأَهْوَالُ تَهُولُ، وَأَضْوَاءُ العَوَارِفِ لَا تُضِيءُ، وَأَفْيَاءُ العَوَاطِفِ لَا تَفِيءُ، وَزُهْرُ السَّمَاءِ لَا تُشْرِق، وَأَزْهَارُ الأَرْضِ لَا تُونِقُ، وَمَعَاقِدُ الإِسْلَامِ تَهِي، وَمَيَامِنُ الأَيَّامِ تَنْتَهِي، لَوْلَا أَنَّ اللهَ تَدَارَكَ الأَرْمَاقَ بِأَلْطَافِهِ، وَتَلَافَى الآمَالَ بِإِسْعَافِهِ، وَجَلَّى وَجْهَ النُّعْمَى مِنْ خِلَالِ البُؤْسِ، وَأَهْدَى البَشَرَ بَعْدَ العُبُوسِ، وَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عِنْدَ الزِّلْزَالِ عَلَى النُّفُوسِ.

وَأَجْرَى الدَّوْلَةَ عَلَى أَحْسَنِ العَوَائِد، وَأَرْشَدَ المَقَاصِدَ وَأَثْبَتَ القَوَاعِدَ، مِنْ اسْتِمْرَارِهَا عَلَى الإِلْتِئَامِ، وَاسْتِقْرَارِهَا فِي النِّظَامِ، وَاسْتِدْرَارِهَا بِأَفَاوِيقِ الوِفَاقِ، وَإِدْلَالِ بُدُورِهَا غِبَّ المِحَاقِ، وَطُلُوعِ شُمُوسِهَا مِنَ الآفَاقِ، وَارْتِفَاعِ فُرُوعِهَا فِي سَمَاءِ السُّمُوِّ، وَامْتِدَادِ أُصُولِهَا فِي مَنَابِتِ النُّمُوِّ، وَانْفِتَاحِ أَحْدَاقِهَا النَّوَاظِرِ عَنْ نُورِ الأَبْصَارِ، وَانْفِتَاقِ حَدَائِقِهَا النَّوَاضِرِ عَنْ نَوْرِ الأَزْهَارِ، حَتَّى اجْتَمَعَتِ الكَلِمَةُ المُتَفَرِّقَةُ وَاتَّحَدَت،

(1) سورة البقرة، الآية: 155.





وَانْتَظَمَتِ الأُلْفَةُ المُتَبَدِّدَةُ وَتَأَكَّدَت، وَسَكَنَتِ القُلُوبُ الرَّاجِفَةُ وَأَنِسَتْ، وَسَكَتَتِ الأَلْسِنَةُ المُرْجِفَةُ وَخَرِسَتْ، وَأَنَارَتِ الخَوَاطِرُ المُظْلِمَة، وَأَفَاقَتِ الظُّنُونُ الرَّاجِمَةُ وَالأَفْكَارُ المُنْقَسِمَة، وَزَادَ الرَّوْنَقُ، وَزَالَ الرَّنْقُ، وَانْجَلَى الغَسَقُ، وَتَجَلَّى الفَلَقُ، وَاسْتَقَامَتِ الأُمُورُ، وَاسْتَنَامَتْ إِلَى حِفْظِهَا الثُّغُورُ.

وَوَصَلَتِ الكُتُبُ العَزِيزَةُ وَالظَّاهِرِيَّةُ مِنْ مِصْرَ وَحَلَب، بِكُلِّ مَا أَنْجَحَ الأَرَب، وَوَصَلَ السَّبَب، وَمَرَى دَرَّ النَّصْرِ وَحلَب، وَبِكُلِّ مَا أَظْهَرَ القُوَّةَ وَقَوَّى الظَّهْرَ، وَشَدَّ الأَزْر وَأَمَّرَ الأَمْرَ، وَسَرَّ السِّر، وَنَشَرَ الحَقَّ وَحَقَّقَ النَّشْر، مِنَ المُوَافَقَةِ وَالمُوَافَاةِ القَاضِيَةِ مِنَ الجِدَّةِ المُنْجِدَةِ بِالمُوَالَاةِ وَالمُتَابَعَةِ وَالمُشَايَعَةِ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُبْرَم، وَكُلِّ حُكْمٍ يُحْكَم، وَكُلِّ عَزْمٍ فِي قَمْعِ العِدَا يُصَمَّم، وَكُلِّ عَقْدٍ في نَصْرِ الهُدَى يُلْزَمُ وَيُتَمَّم.

وَوَصَلَ المَوْلَى، المَلِكُ العَادِلُ فَتَوَلَّى أَمْرَ المَمْلُوكِ بِكُلِّ مَا وَافَقَ إِيثَارَه، وَأَشَاعَ عَلَى عَادَةِ الوَالِدِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى شِعَارَه، وَرَفَعَ مَنَارَه، وَأَخْلَى مِنْ كُلِّ شَاغِلٍ بَالَه وَرَفَّهَ أَسْرَارَه، وَأَرَاحَ أَفْكَارَهُ وَمَا فِي الجَمَاعَة إِلَّا مَنْ خَطَبَ الجَمْعِيَّةَ وَخَطَبَ فِي الجُمَع، وَأَعْرَضَ عَنِ الهَوَى لِلْحَقِّ المُتَّبَع، فَالكَلِمَةُ مُتَّحِدَةٌ وَإِنْ كَانَتِ الأَنْفُسُ مُتَعَدِّدَة، وَمَا أَخْلَقَتْ هَذِهِ الدَّوْلَةُ بَل اسْتَمَرَّتْ عَلَى تَجَدُّدِ الأَيَّامِ المُتَجَدِّدَةِ، وَإِنَّمَا أَشْفَقَتْ فِي حَالَةِ الصَّدْمَةِ الأُولَى، وَالرَّزِيَّةِ الطُّولَى، عَلَى بَيْتِ اللهِ المُقَدَّسِ مِنْ غَدْرِ الفِرَنْجِ بِقَصْدِهَا، فَإِنَّ الغَدْرَ شِيمَةٌ لهُم فِي الأَنْفُسِ؛ فَوَقَى اللهُ شَرَّهُمْ، وَدَفَعَ مَكْرَهُمْ، وَأَوْهَنَ أَمْرَهُمْ، وَلَمْ يَزِلْ مِنْ قُلُوبِهِمُ الرُّعْب، وَلَمْ يُؤْثِرُوا عَلَى الصُّلْحِ الحَرْبَ، بَلْ طَلَبُوا بَقَاءَ السَّلَامَةِ بِإِبْقَاءِ السِّلْمِ، وَخَطَبُوا أُجَرَاءَهُمْ بِالوَفَاءِ بِعَقْدِ الهُدْنَةِ علَى الرَّسْمِ، وَبَرَكَاتُ نِيَّةِ المَرْحُومِ شَمَلَتْ، وَوَصَايَاهُ نُفِّذَتْ وَكَمُلَتْ.

وَتَوَجَّهَ المَلِكُ العَادِلُ إِلَى بِلَادِهِ الجَدِيرِيَّةِ شَرْقِيِّ الفُرَاتِ لإِصْلَاحِ تِلْكَ الوِلَايَاتِ، وَإِخْرَاسِ شَقَاشِقِ الصَّادِرِينَ بِالإِرْجَافِ مِنْ أَهْلِ الشَّمَات، لِيُؤْذِنَ بِهَيْبَةِ الأَسَدِ جَمْعَ النَّقَادِ بِالشَّاةِ، وَلِيُعِيدَ إِلَى الأُنْسِ شَارِدَ الوَلِيِّ الرَّاشِد، وَيَرُدَّ بِالبَأْسِ مَكَايِدَ الحَاسِدِ الحَاشِدِ.



وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي أَوْجَدَ الأَمْنَ وَقَدْ عَرَتِ المَخَافَة، وَأَنْزَلَ الرَّأْفَةَ وَقَدْ فَجَأَتِ المَخَافَة[1] وَأَبْقَى الإِسْلَامَ بِعِزِّهِ، وَالكُفْرَ بِذُلِّهِ، وَثَبَّتَ قَوَاعِدَ المَلِكِ النَّاصِرِيِّ بِجَمْعِ شَمْلِ أَهْلِهِ، وَأَحْيَى بِهِمْ سُنَّتَيْ إِحْسَانِهِ وَعَدْلِهِ، وَشِيمَتَيْ أَفْضُلِهِ وَفَضْلِه، وَفِي دَوَامِ إِقْبَالِ المَجْلِسِ السَّامِي دَوَامُ إِقْبَالِهِمْ، وَنِظَامُ أَحْوَالِهِمْ، وَسُبُوغُ ظِلَالِهِمْ وَبُلُوغُ أَمَلِهِمْ.

وَلَهُ فَصْلٌ[2]: أَيْضاً فِي ذِكْرِ وَفَاةِ صَلَاحِ الدِّينِ. وَتُوُفِّيَ بُكْرَةَ الأَرْبِعَاءِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ لِصَفَرَ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمَائَةٍ بِدِمِشْقَ.

وَتُوُفِّيَ بُكْرَةَ الأَرْبعَاءِ السَّابِعِ وَالعِشْرِينَ، وَنَقَلَهُ اللهُ فِي دَسْتِهِ العَالِي إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَمَاتَ بِمَوْتِهِ رَجَاءُ الرِّجَالِ، وَأَظْلَمَ بِغُرُوبِ شَمْسِهِ صداءُ الإِفْضَالِ، وَغَاضَتِ الأَيَادِي، وَفَاضَتِ الأَعَادِي، وَانْقَطَعَتِ الأَرْزَاقُ، وَادْلَهَمَّتِ الآفَاقُ، وَخَابَ الرَّاجُونَ، وَغَابَ اللَّاحُونَ، وَخَافَ الأَمْنُ، وَخَابَ الإِحْنُ، وَقَنَطَ السَّائِلُ، وَشَحَطَ النَّائِلُ، وَطُرِدَتِ الضُّيُوفُ، وَنكرَ المَعْرُوف، وَدُفِنَ بِالقَلْعَةِ فِي دَارِهِ، وَفُجِعَ الزَّمَانُ بِأَنْوَارِهِ، وَعَدِمَتِ الأَيَّامُ صَبَاحَهَا، وَالآمَالُ نَجَاحَهَا، وَدُفِنَ مَعَهُ الكَرَمُ، وَغُلِبَ بَعْدَ جوُدِهِ وَوُجُودِهِ العُدْمُ وَالعَدَمُ، وَبَقِيَت تِلْكَ الأَيَّام لَا أُفَرِّقُ بَيْنَ الدُّجَى بِهَا وَالضُّحَى، وَلَا أَجِدُ قَلْبِي مِنْ سَقَمِ الهَمِّ وَسُكْرِهِ صَحَا، وَحَالَتْ حَالِي، وَزَالَتْ أَمَالِي، وَزَادَ بَلْبَالِي، وبطلَ حَقِّي، وَاتَّسَعَ خَرْقِي، وَتَنَازَلَ جَاهِي، وَتَنَازَقَ أَشْبَاهِي، وَأَعْضَلَتْ أَدْوَاءُ الدَّوَاهِي، وَبَقِيَتِ المَعَارِفُ مُتَنَكِّرَة، وَالمَطَالِعُ مُكْفَهِرَّة، وَالعُيُونُ شَاخِصَةٌ وَالظِّلَالُ خَالِصَة، وَالأَيْدِي بَائِسَة، وَالوُجُوهُ عَابِسَة، وَعَادَتْ أَبْكَارُ خَوَاطِرِي عَانِسَة، وَنُجُومُ فَوَارِقِي وَشَوَارِدِهَا الأَنِسَةِ خَانِسَةً كَانِسَة، وَبَقِيَ بَابُ كُلِّ مُرْتَجٍ مُرْتجا، وَمَنْهَجُ كُلِّ مَعْرُوفٍ هَمَجَا، وَضَنَّ الغَنِيُّ عَنِّي، وَأَخْلَفَ فِي ظَنِّ الإِخْلَافِ بِهِ ظَنِّي، حَتَّى تَوَلَّى المَلِكُ الأَفْضَلُ بِدِمَشْقَ مُقَامَ أَبِيهِ، وَقَامَ بِالأَمْرِ بِعَزْمِ تَأَنِّيهِ وَحَزْمِ تَأَتِّيهِ وَعِزِّ تَأَبِّيهِ، فَتَعَرَّفَ افْتِقَارَهُ إِلَى مَعْرِفَتِي وَفَقْرِي، وَرَأَى عَطَلَ المُلْكِ وَمَحْلَهُ مِنْ غَزَارَةِ حَلَبِ دَرِّي، وَنَضَارَةَ حَلْيِ دُرِّي، فَكَتَبْتُ لَهُ

---

(1) في الفتح القسي: الآفة.

(2) وردت الرسالة في «الفتح القسي في الفتح القدسي»، ص: 627-628.



وَحَلَّيْتُ مِنَ المُلْكِ عَطَلَه، وَوَشَّيْتُ الكُتْبَ وَوَشَّعْتُهَا، وَجَلَّيْتُ الرُّتَبَ وَوَسَّعْتُهَا، وَهَزَزْتُ اليَرَاعَةَ، وَأَغْزَرْتُ البَرَاعَة، وَهَجَرْتُ الجَمَاعَة، وَلَزِمْتُ القَنَاعَة.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْر ابْنِ مُغَاوِر:

سَلَامٌ عَلَى الوَلِيِّ الحَفِيِّ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الذِي أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْما، وَجَعَلَ المَوْتَ فِي رِقَابِ عِبَادِهِ حَتْما، وَالاسْتِرْضَاء للإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُوم... ...وَلِخَلِيفَتِهِ النَّاصِرِ المَنْصُور أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ... وَالدُّعَاء لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِين ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَدَامَ اللهُ نَصْرَهُ. أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الكِتَابَ إِلَيْكُم مِنْ حَضْرَةِ الخِلَافَةِ أَدَامَ اللهُ بَسْطَةَ أَمْرِهَا وَمَا بَيْنَنَا مِنَ المُوَالَاةِ التِي نَتَسَاهَمُ بِهَا فِي البَأْسَاءِ، وَنَشْتَرِكُ فِيمَا سُرَّ وَسَاء، نُقَسِّمُ رُوحَنَا المُتَّحِدَ فِي جَسَدَيْنِ، وَإِنِّي وَإِيَّاكَ مِثْلُ اليَدَيْنِ. لَمَّا صَكَّ سَمْعِي نَبَأُ وَفَاةِ الشَّيْخ أبيك- وَمَحَلّ أَبِي كَانَ -، أَلْحَقَهُ اللهُ الغُفْرَانَ، وَبَوَّأَهُ الجِنَانَ، وَأَزْلَفَهُ الرِّضْوَانَ، فَلَشَدَّمَا هَاضَ جَنَاحِي مَوْتُهُ، وَأَفَاتَ عَنِّي حَظَّ الامْتَاعِ بِهِ - رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ - فَوتَهُ والله جَلَّ وَعَلَا يُمْتِعُكَ وَإِيَّايَ مِنْ صَالِحِ دُعَائِهِ، بِدَوَامِهِ بَعْدَهُ وَبَقَائِهِ، وَيَجْعَلُ حُسْنَ العَزَاءِ عَنْهُ، مَا نَرْجُو بِالانْتِفَاعِ مِنْه.

وَلَوْ كَانَ الجَزَعُ- أَعَزَّكُمُ الله - يَرُدُّ فَائِتـًا، وَالأَسَف يَنْشُرُ مِنْ جَدَثِهِ مَيِّتـًا، لَسَالَتِ العُيُونُ نَجِيعـًا، وَجَرَتِ القُلُوبُ مَعَ الدُّمُوعِ دُمُوعـًا لَكِنَّ المَوْتَ كَمَا قَالَ شَيْخُنَا بَدِيعُ الزَّمَانِ[1] «وَخَشُنَ حَتَّى لَانَ»، وَكَفَى بِهِ غَايَةً للإِنْسَانِ، وبِحَسْبِنَا -واللهُ الحَسبُ- أَنْ نَقُولَ مَا يُرْضِي الرَّحْمَان، وَنَتَأَدَّبَ فِي الاسْتِرْجَاع بِآدَابِ الصَّابِرِينَ مِنْ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَلَا نَغُضُّ مِنَ الأَجْرِ الجَزِيل، بِالخُرُوجِ عَنِ الصَّبْرِ الجَلِيل، واللهُ سُبْحَانَهُ يُحْسِنُ عَزَاءَنَا، وَيُضَاعِفُ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَا ثَوَابَنَا وَجَزَاءَنَا، بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ. وَالسَّلَامُ.

---

(1) يقصد بديع الزمان الهمداني وقد وردت السجعة المستشهد بها في رسالة كتبها البديع إلى أبي عامر بن عدنان بن عامر يعزيه ببعض أقاربه، انظر رسائله ص:132.



وَلَهُ تَعْزِيَةٌ بِالرَّئِيسِ أَبِي الحَجَّاجِ بْنِ عِيسَى بَعْدَ قَصِيدَةٍ:

الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا تُغَالَبُ جُنُودُهُ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] أَحْمَدُهُ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، حَمْداً أَغْدُو مِنْهُ فِي عَسْكَرٍ لَجِبٍ وَصَبَاحٍ غَيْرِ مُحْتَجِبٍ وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ صَلَاةً تُسَكِّنُ قَلْباً يَخْفُقُ وَيجب كما يجب، أَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ حُجَّةً وَبُرْهَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ فَسَمَّاهُ فُرْقَاناً، فَبَلَّغَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَبَيَّنَهُ تِبْيَاناً. وَأَنْهَاهُ شِدَّةً كَانَ أَوْ لَيَاناً، فَتَلَا عَلَيْنَا فِيمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ وَقَدْ نَعَيْتُ نَفْسَهُ وَأَمَّتَهُ إِلَيْهِ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[2]. «فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُوفَكُونَ» وَبَعْدُ:

أَيُّهَا المَلأُ المُجْتَمِعُونَ المُسْتَمِعُونَ، فَإِنَّ لَكُمْ فِي نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةً حَسَنَةً لِمَنْ هَجَرَ فِي اللهِ تَعَالَى وَسَنَّهُ، وَأَسْمَعَ القَوْلَ فَاتَّبَعَ أَحْسَنَهُ[3]. فَكُلُّ مُصَابٍ بَعْدَهُ جَلَلٌ وَإِنْ عَظُمَ وَجَلَّ، وَأَشْعَرَ النُّفُوسَ الخِيفَةَ وَالوَجَلَ.

وَإِنْ كَانَ قَائِدُنَا المُفَدَّى وَقِدْحُنَا المُعَلَّى، وَصَارِمُنَا المُحَلَّى، وَبَدْرُنَا المُنِيرُ كُلَّمَا تَجَلَّى، قَدْ كُسِفَ وَخُسِفَ، وَاقْتُطِفَ نُورُهُ وَنَوْرُهُ وَاخْتُطِفَ وَحُمَّ حمامُهُ وَأَزِفَ، وَنَضَبَ بَحْرُهُ وَنَزَفَ، وَهُدَّ طَوْدُهُ وَنُسِفَ، حِينَ بَزَلَ نَابُهُ[4] وَخَمَدَ مَنَابُهُ، وَتَوَقَّدَ شِهَابُه، وَنِيطَتْ بِسَرْحَةِ أَثْوَابُهُ وَكَانَ مِنَ الدَّوْلَةِ -خَلَّدَهَا اللهُ- رَاحَةَ كَفِّهَا، وَمَرْمَقَ طرفها، وَسَهْمَ كِنَانَتِهَا، وَعَيْبَةَ[5] سِرِّهَا وَأَمَانَتِهَا. فَهَلْ صَارَ إِلَّا مَا إِلَيْهِ مَصِيرُكُمْ؟ وَهَلْ رَكِبَ إِلَّا المَحَجَّةَ التِي عَلَيْهَا مَسِيرُكُمْ؟ مَا أَغْنَتْ عَنْهُ خَيْلُهُ وَلَا خَوَلُهُ، وَلَا دَافَعَتْ عَنْهُ بِيضُهُ وَلَا أَسَلُه وَلَا

---

(1) سورة المدثر، الآية: 31.

(2) سورة الزمر، الآيتان: 29- 30.

(3) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾. سورة الزمر، الآية: 17.

(4) بزل ناب البعير: يبزل بزلا والجمع البُزْل: أي التي طلع نابها. قال الشاعر:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ ... لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ

(5) العيبة: وعاء من جلد يكون فيها المتاع. وعيبة الرجل موضع سره.



صَحِبَهُ إِلَّا تَقْوَاهُ وَعَمَلُه، احْتُجِنَ وَطَالَمَا احْتَجْنَ[1] واخْتُزن وَطَالَمَا اخْتَزَنَ. فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَفْرَحَ بِمَا لَقِيَ أَمْ حَزِنَ؟ بَلَى قَدْ وَجَدَ -إِنْ شَاءَ اللهُ- عَمَلَهُ الصَّالِح مَذْخُوراً، فَعُوِّضَ مِنْ قَصْرِهِ قُصُوراً، وَحُوسِبَ -بِكَرَمِ اللهِ وَعَفْوِهِ- حِسَاباً يَسِيراً، وَانْقَلَبَ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً[2]. فَلَوْ غَيْرَ المَنِيَّةِ أَلَمَتْهُ أَوْ يَدُ سِوَاهَا رَمَتْهُ أَوْ رَامَتْهُ، لَقَامَتْ لِنَصْرِهِ الأَسَاوِدُ وَالأُسُودُ، وَعُقِدَتْ لِثَأْرِهِ الرَّايَاتُ السُّودُ وَاصْطَفَّتْ دُونَهُ المَوَاكِبُ، وَزَاحَمَتْهُ الأَقْمَارُ وَالكَوَاكِبُ، لَكِنَّهَا المَنُونُ، جَامِعُهَا الوَاوُ وَالنُّونُ وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون كَسَرَ الأَكَاسِرَةَ وَأَدْرَى كِبَارَ القَيَاصِرَة، وَحَدَاهُمْ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَة، فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُوَ بِالسَّاهِرَة وَالملْجأ حِينَئِذٍ إِلَى الله والمُسْتَقر وَآنَذاكَ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ فَفِيمَ تَخُوضُونَ وَلِمَ أَنْتُمْ مِنَ المَوْتِ تَعْجَبُونَ أَوْلَى لَكُمْ ثُمَّ أَوْلَى لَكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَوْ تَأَدَّبْتُمْ بِأَدَبِ اللهِ تَعَالَى فَقُلْتُمْ مُسْلِمِينَ صَابِرِينَ مُسْتَسْلِمِينَ ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3] وَإِنَّا بِكَ يَا فَقِيدَنَا الأَعَزّ عَلَيْنَا لَمَحْزُونُونَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[4]. لَقَدْ كُنْت كَمَالاً وَجَمَالاً، لَقَدْ كُنْتَ أَفْضَالاً وَإِجْمَالاً، لَقَدْ كُنْت عِصْمَةً لِلْيَتَامَى وَثِمَالاً، لَقَدْ كُنْتَ مَبْدَأً لِكُلِّ فَضِيلَةٍ وَمَآلاً. مَنْ يَعْقِدُ بَعْدَكَ العَظَائِمَ وَيَحُلُّهَا، مَنْ يُغْمِدُ الصَّوَارِمَ وَيَسُلُّهَا مَنْ يَنْهَضُ بِأَعْبَاءِ الدَّوْلَةِ فَيقلُّهَا، مَنْ يَقْدَحُ فَيُورِي، مَنْ يَمْتَحُ فيروِي، مَنْ يَجْرَحُ فَيُدْمِي، مَنْ يَنْصَحُ فَيبْرِي، مَنْ يُصِيخُ إلى الشكَاةِ أُذُناً وَاعِيَةً، مَن يَلْحَظُ سَائِمَةَ الرَّعَايَا بِعَيْنٍ مُرَاعِيَةٍ، مَنْ يَرْفَعُ المَظَالِمَ، مَنْ يزَعُ الظَّالم، مَنْ يُوجد في المهم، مَنْ يُبَيِّضُ وَجْهَ الخَطْبِ المُدْلَهِمِّ، مَنْ لِأَصْحَابِكَ وَجُنُودِكَ، مَنْ لِرَايَاتِكَ وَبُنُودِكَ، لَا مَنْ وَلَا بِمَن، وَلَوْ أُدْرِجْتَ وَالعَلْيَاء فِي كَفَن:

(1) احتجن الشيء: اختزنه لنفسه واختص به دون غيره.

(2) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾. سورة الانشقاق، الآية: 9.

(3) سورة البقرة، الآية: 155.

(4) سورة البقرة، الآية: 156.



دُفِنَ الجُودُ وَالجُنَيْدُ جَمِيعاً ... فَعَلَى الجُودِ وَالجُنَيْدِ السَّلَامُ[1]

فَاصْغُوا - رَحِمَكُمُ الله - إِلَى الذِّكْرِ وَعُوهُ، وَالبسُوا الصَّبْر وَادَّرِعُوه، وَاتْرُكُوا الأَسَفَ وَدعُوه، فَالدُّنْيَا مِحَنٌ وَآفَات، وَمَنْ مَاتَ فَقَدْ فَاتَ، وَكُلّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ[2]. فَابتَهِلُوا لَهُ بِالدُّعَاءِ وَارْفَعُوا أَيْدِيكُمْ إِلَى الخَضْرَاءِ[3]. اللَّهُمَّ تَابعْ بِالسُّقْيَا ضَرِيحَهُ، وَطَيِّبْ رُوحَهُ، وَاجْعَلْ نَفْسهُ بِرِضَاكَ طَيِّبَةً مُسْتَرِيحَةً، وَارْحَمْهُ وَسَلَفَه، وَمَنْ خَلَفَهُ، وَاحْفَظْ بِالرِّعَايَةِ مَنْ تَخَلَّفَه، مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِير، وَصَلِّ اللَّهُمَّ صَوْنَ مَنِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ خِدْره[4] مِنَ القَوَارِير[5]. اللَّهُمَّ وَانْقُل أَبْنَاءَهُ مِنَ المَهْدِ، إِلَى صَهْوَةِ الفَرَسِ النَّهْدِ، وَمِنْ صُدُورِ الدَّايَاتِ، إِلَى سُرُوجِ المُقَرَّبَات، تَحْتَ ظِلَالِ الرَّايَات. اللَّهُمَّ وَأَنِّسْ وَحْشَةَ عَمِّهِ الفَاضِلِ الدَّيَّانِ أَبِي عُثْمَانَ وابْنِ عَمِّهِ الأَوَّاه أَبِي عَبْدِ اللهِ وَأَخِيهِ شَقِيق أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الله وَأَمْتِعْنَا بِابْنِهِ أَبِي عَبْدِ اللهِ الَّذِي خَلَفَنَا بَعْدَه، وَسُدَّ به اللَّهُمَّ مَسَدَّه، وَلَا تُوجِدْنَا بِهِ فَقْدَه. وَيَا وَفْدَ العَزَاءِ نِداء يَخُصُّ الرَّئِيسَيْنِ الهُمَامَ الأَجَلَّ سَمِيَّ الفَقِيدِ، وَأَبَا عَبْدِ اللهِ، سَلِيلَ الشَّهِيدِ، وَيَعُمَّ القُوَّادَ الجِلَّةَ، النُّجُومَ بَلِ الأَهِلَّةَ، الأَخصَّ فَالأَخصَّ وَلَاءً، وَيُوقِدُ لَدَيْهِمْ مِنَ الثَّنَاءِ ثَنَاءً، أَمْضَيْتُمْ إِلَيْهِ الرِّكَابَ، وَطَوَيْتُمْ إِلَيْهِ البُعْد كَمَا طَوَى السِّجِلُّ الكِتَابَ[6]، وَمَلَأْتُم بَخَيْلِكُمْ وَرجْلِكُم الرِّحَابَ، وَبَكَيْتُمْ لَدَيْهِ حَتَّى اسْتَبْكَيْتُمُ السَّحَابَ. وَقَطَعْتُمُ المَفَاوِزَ إِلَى ضَرِيحِهِ شَداً وَوَثباً، وَنَزَلْتُم عَنِ الأَوْكَارِ كَرَاهَةَ أَنْ تُلِمُّوا بِهِ رَكْباً. لَقَدْ وَفَّيْتُم حَقَّ التَّعْزِيَةِ، وَأَخَذْتُم بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِنَ الرَّزِيَّةِ، فَوَصَلْتُم رَحِماً، وَرَعَيْتُم ذِمَماً، فَأُوبُوا بِشُكْرٍ يصوبُ عَلَيْكُمْ دِيماً، وَحَمْدٌ يَتَلَقَّاكُمْ أُمَماً، وَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ

---

(1) البيت من الخفيف، ولعله يشير بالجنيد إلى المتصوف العربي المشهور.

(2) مقتبس من خطبة مشهورة لقس بن ساعدة الإيادي. البيان والتبيين 1/ 309.

(3) الخضراء: يقصد بها السماء.

(4) الخدر: ستر يمد للجارية في ناحية البيت ثم صار يطلق على المنزل نفسه.

(5) القوارير: يكنى بها عن النساء وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأنجشة وهو يحدو الجمال بالنساء: «رفقا بالقوارير».

(6) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾. سورة الأنبياء، الآية: 103.



وَفَضْلِ رَاشِدِينَ وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ[1] وصَلَوَاتُ اللهِ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيئِينَ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ شَيْخِ الكُتَّابِ وَقُطْبِ الآدَابِ أَبِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَيَّاش أَدَامَ اللهُ عَلَاءَهُ:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُمُ اللهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُمْ بِمَعُونَتِهِ إِلَى جَمَاعَةِ المُوَحِّدِينَ الَّذِينَ بِإِشْبِيلِيَةَ وَالكَافَّةِ مِنْ أَهْلِهَا وَفَّقَهُمُ اللهُ وَأَكْرَمَهُمْ بِتَقْوَاهُ سَلَامٌ إِلَى آخِرِ الوَصِيَّةِ المَعْهُودَةِ وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ مَصَالِحَ بَلَدِكُمْ عِنْدَنَا مُقَدَّمَةٌ عَلَى كُلِّ مَا نَأَى مِنَ المَصَالِحِ وَدَنَا. وَأَنَّ مَكَانَ إِشْبِيلِيَّةَ مِنَّا مَكَانٌ لَا يَغِيبُ وَإِنْ بَعُدَتِ الشُّقَّةُ عَنَّا. إِذَا رُزِقَتِ الوَسَائِلُ كَانَتْ وَسَائِلُهَا أَرْجَح وَإِذَا عُرِضَتِ الأُمُورُ الجَلَائِلُ كَانَتْ أُمُورُهَا أَسْمَحَ وَأَنْجَحَ وَإِذَا عُرِضَتِ المُهِمَّاتُ كَانَتِ المُهِمَّ الذِي يُقَدَّم، وَالضَّرُورِيَّ الذِي يُعْتَنَى بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَيُتَمَّم، عَلَى ذَلِكَ دَرَجَةَ إِشْبِيلِيَّة ... وَلَهَا مِنَّا المَزِيدُ مِنَ الاعْتِنَاء، وَالنَّصِيبُ الأَوْفَرُ مِنَ الحُبِّ وَالثَّنَاء، وَالحَظُّ الأَكْبَرُ مِنْ مُرَاعَاةِ المَرْضَاةِ فِي كُلِّ الآنَاء.

وَقَدْ بَلَغَنَا مَا كَانَ مِنْ وَفَاةِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ الأَثِيرِ لَدَيْنَا أَبِي إِسْحَاقَ ابْنِ سَيِّدِنَا الإِمَام أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَرَّمَ مُنْقَلَبَهُ وَمَأْوَاهُ، فَلَقَدْ كَانَ الأَمِين عَلَى الغَيْبِ[2]، البَعِيد، وَرعهُ وَالمَنْزَع الذِي كَانَ يَنْزَعهُ مِنَ الرِّيب، وَكَانَ لِأَهْلِ إِشْبِيلِيَةَ إِلَيْهِ المَتَاب الَّذِي رَبَّتْهُ السِّنُون، وَأَنِسَ بِهِ الآبَاء وَالبَنُون. فَإِنَّا للهِ عَلَى ذَهَابِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون[3] وَأَنْتُمْ أَحَقّ النَّاسِ بِأَنْ تُعَزَّوْا بِهِ عَلَى البِعَاد، وَتُؤْنَسُوا بَعْدَهُ لمَا كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مِنَ الوِدَادِ، وَأَنْ يَكُون لَكُمْ مِنْ نَظَرِنَا مَا تَسْتَقْبِلُونَ بِهِ الزَّمَان جَدِيداً، وَمِنْ تَخَيُّرِنَا مَا يَسُرُّكُمْ شَيْخاً وَكَهْلاً يَافِعاً وَوَلِيدا. وَقَدْ عَيَّنَّا لَكُمْ مَنْ تَعْرِفُونَ إِيَالَتَهُ الحَمِيدَة، وَطَرِيقَتَهُ المَرْضِيَّة السَّدِيدَة، الشَّيْخَ الأَجَلَّ الأَعَزَّ

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. سورة يونس، الآية: 10.
(2) خرم بالأصل.
(3) سورة البقرة، الآية: 155.



الأَسْنَى الأَثِيرَ الأَفْضَلَ أَبَا إِسْحَاقِ بْنِ سَيِّدَنَا الإِمَام المَنْصُورِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا الإِمَام أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. جَعَلَ اللهُ مَقْدَمَهُ عَلَيْكُمْ سَعِيداً، وَعَرَّفَكُمْ بِهِ نمواً عَلَى كُلِّ حَال مَا عَهِدْتُمْ مِنَ الخَيْرِ وَمَزِيداً. فَارْتَقِبُوا قُدُومَهُ عَلَيْكُمْ فَلَنْ يَكُونَ بِحَوْلِ اللهِ بَعِيداً وَفِي أَثْنَاء هَذَا وَصَلَ اللهُ كَرَامَتَكُمْ فَلْتَحْسُن آثَارُكُمْ وَلْتَطِبْ فِي المَسَامِعِ أَخْبَارُكُمْ وَلْيَتَسَاوَ فِي العَافِيَةِ لَيْلُكم وَنَهَارُكُم. وَلْتُمَشُّوا الأُمُورَ خَيْرَ تَمْشِيَة، وَلْتُوَفُّوا أَعْمَالَ البِرِّ أَفْضَلَ تَوْفِيَة، وَلْتَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوف، وَلَا يَسْتَطِلْ قَوِيٌّ عَلَى ضَعِيف وَلَا شَرِيفٌ عَلَى مَشْرُوف. وَاسْتَعِدُّوا لِلِقَاءِ مِمَّنْ تَنْتَظِرُون، وَأَنْتُم مِنْ كُلِّ مَا يَنْقُدُه النَّاقِدُ وَيَرْتَاب بِهِ الغَائِب وَالشَّاهِد مُتَطَهِّرُون. وَاللهُ يُوزِعُكُم شُكْرَ نُعْمَاه وَيُعِينُكُمْ عَلَى مَا يُزْلِفُ مِنْ رُحْمَاه، بِمَنِّهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ. كُتِبَ فِي الحَادِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ المُعَظَّم سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشرَة وَسِتِّمِائَة (612هـ).

وَمِنْ إِنْشَاءِ القَاضِي الأَجَلِّ أَبِي عَبْدِ اللهِ بنِ حَمَادُو[1] أَعَزَّهُ اللهُ إِلَى الوَزِيرِ مُعْلِماً بِوَفَاةِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي الحَسَنِ بْنِ الشَّيْخِ المُعَظَّمِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الوَاحِدِ رَحِمَهُ اللهُ:

كَتَبَ وَصَلَ اللهُ اعْتِلَاءَكُم وَارْتِقَاءَكُم، وَمَدَّ عُمْرَكُمْ وَبَقَاءَكُم، وَأَدَامَ حِفْظَكُم بِمَا حَفِظَ بِهِ الذِّكْرَ وَوَقَاءَكُمْ مِنْ بِجَايَةَ حَرَسَهَا اللهُ عَنْ إِعْظَام قَدْرِكُمُ الأَعْظَم، وَالْتِزَام حَقِّكُمُ الأَوْجَب الأَلْزَم، وَالجَرْيِ مِنْ تَكْبِيرِكُمْ وَتَوْقِيرِكُمْ عَلَى المَنْهَجِ الأَوْضَحِ الأَقْوَم. وَلَيْسَ إِلَّا مَا اخْتَارَ اللهُ تَعَالَى لِأَوْلِيَاءِ أَمْرِهِ العَظِيم وَنَقَلَ مِنَ المُسْتَنْفَذِ مِنْهُمْ عُمْرَه، وَاسْتَوْفَى مِنَ الدُّنْيَا رِزْقَهُ وَأَثَرَهُ إِلَى النَّعِيمِ المُقِيم، وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْ يَتَغَمَّدَ بِالرَّحْمَةِ سَلَفَهُمْ وَيَتَعَمَّدَ بِالبَرَكَةِ الإِمَامِيَةِ الخِلَافِيَةِ خَلَفَهُمْ بِمَنِّهِ. وَإِنَّ مُعَظِّمَكُمْ، يُنْهِي إِلَيْكُمْ أَنَّ الشَّيْخَ الأَجَلَّ أَبَا الحَسَنِ بْنِ الشَّيْخِ المُوَقَّرِ أَبِي مُحَمَّدٍ، تُوُفِّيَ رَحِمَهُ اللهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَكَرَّمَ مَثْوَاهُ وَمَنْزِلَهُ، وَعَوَّضَهُ دَاراً خَيْراً

---

(1) هو محمد بن علي بن حماد بن عيسى أبو عبد الله الصنهاجي المعروف بابن حمادو. ترجمته في الذيل والتكملة، قسم الغرباء 8/ 1 - 323، التكملة1/ 626، عنوان الدراية، ص: 128 - 130. مفاخر البربر «مخطوط» ورقة 51-65، وفيات ابن قنفذ، ص: 70، الوافي بالوفيات 4/ 157، الأعلام7/ 169، معجم المؤلفين1/ 4، فهرس الفهارس2/ 114، دليل مؤرخ المغرب، ص: 292 - 386.



مِنْ دَارِهِ وَأَهْلاً خَيْراً مِنْ أَهْلِهِ وَأَنْزَلَهُ. «فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» تَسْلِيماً لِلْقَدَرِ، وَرِضىً بِالحَتْمِ المَقْضِيِّ عَلَى البَشَرِ. فَلَقَدْ كَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بِهَذِهِ الجِهَةِ بَقِيَّة صَالِحَة يُتَأَنَّس بِهِ لِلتَّوْحِيدِ وأَهْلِه، وَيُوجَدُ فِيهِ الَّذِي كَانَ يُوجَد فِي الصَّدْرِ الأَوَّلِ كُلِّه، وَيُتَلَقَّى عَنْهُ عُلُومُ مَنْ سَلَفَ لَه، وَمَعَارِفُ مَنِ انْقَرَضَ مِنَ الكُبَرَاءِ الجِلَّةِ قِبَلَه. فَعَظَّمَ اللهُ لِلْجَمِيعِ فِيهِ الأَجْر، وَأَجْزَلَ لِلْكُلِّ بِمُصَابِهِ المَثُوبَةَ وَالذُّخْر. وَمَنْ تَزَوَّدَ بِرِضَى الإِمَامِ وَمَاتَ عَلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَالإِسْلَامِ بَعْدَ أَنْ عَاشَ عُمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَقَدْ فَازَ بِخَيْرِ الدَّارَيْنِ.

رِسَالَةٌ لِأَبِي بَحْرٍ صَفْوَان بْن إِدْرِيس:

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[1]، وَإِذَا تَرَنَّمَ الأَوْرَقُ كَفَّ عَنْ نَعِيبِهِ الغُرَابُ، وَيَا لَيْتَ شِعْرِي إِلَى مَا تَحْتَمِلُ لِلْجَهْلِ الآلام وَعَلَى مَا تَحُلُّ الوِهَادَ وَتَتْرُكُ الأَعْلَام، وَحَتَّى مَا تَخْلَعُ الفَلَقَ وَتَلْبَسُ الأَعْتَامَ وَفِي ذَلِكَ أُنْشِدُكَ فَأُرْشِدُكَ:

أَبَا عَمْرٍو وَبَعْدَ الهَزْلِ جِدٌّ ... كَمَا ظَفِرَتْ يَدَاكَ بِعَضْبِ هِنْدِ
تَقَبَّلْهَا نَصِيحَةَ ذِي وِدَادٍ ... تُرِيكَ الصِّدْقَ فِي مِرْآةِ رُشْدِ
وَمَا هِيَ غَيْرُ تَنْبِيهٍ وَذِكْرَى ... تُطِيرُ شَرَارَةً عَنْ زَنْدِ جِدِّ
نَصَحْتُ المَجْدَ فِيهَا قَدْرَ وُسْعِي ... وَأَدَّيْتُ الَّذِي مِثْلِي يُودِي
فَإِنْ قُبِلَتْ فَذَلِكَ كَانَ قَصْدِي ... وَإِنْ رُدَّتْ فَقَدْ بَلَّغْتُ جَهْدِي[2]

وَرُبَّمَا نُقِدَ عَلَيْنَا هَذَا التَّرَدُّدُ بَيْنَ القَوْلِ وَالرَّدِّ، وَأُنْكِرَ إِيرَادُهُ إِنْكَارَ العِذَارِ عَلَى الخَدِّ، وَقِيلَ لِأَيَّةِ عِلَّةٍ تَبَوَّأَ لِلظَّنِّ ظِلًّا أَوْ فَيْئاً ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[3] إِنْ كَانَ فَسَحَ اللهُ لِلْوَزِيرِ وَغَمَرَ وَعَمَرَ مِنْ رَبْعِ جَدِّهِ مَا اعْتَمَرَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَعُذْراً إِلَيْهِ مِنْ خَوَاطِرِ أَخٍ إِلَى أَغْرَاضِهِ تَتَطَلَّع، وَشَفِيقٍ بِسُوءِ الظَّنِّ يُولَعُ[4]، وَكَأَنِّي بِكَ -أَعَزَّكَ اللهُ- قَدْ

(1) سورة ص، الآية: 41.

(2) الأبيات من الوافر، والرسالة لصفوان بن إدريس وهي موجهة إلى ابن حسون.

(3) سورة النجم، الآية: 28.

(4) هذا من المثل: «إن الشفيق بسوء الظن مولع».



وَصَلَكَ هَذَا الكِتَاب، فَاسْتَبْصَرَ مِنْ عَزْمِكَ مُرْتَاب وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(1) فَحِينَ ذَلِكَ تَلْقَى وَصِيَّتِي بِالسَّاعِدِ الأَشَدّ، وَتَقُول لِنَفْسِكَ النَّفِيسَة: هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ(2) سَاعَة ثُمَّ رَكَنْتِ مِنَ العِلْمِ إِلَى خِلٍّ صَفِيٍّ وَأَقْبَلَ كِلَاكُمَا عَلَى صَاحِبِهِ إِقْبَالَ حَفِيٍّ وَانْتَقَلْتَ بِيُمْنِ اللهِ مِنَ الحَوْرِ إِلَى الكَوْرِ(3)، وَمِنَ الهَضِيمَةِ إِلَى العَظِيمَة، وَمِنَ الوَجْدِ، إِلَى طَلَبِ المَجْد، وَنَسَخْتَ بِمُحْكَمِ الثِّقَةِ آيَةَ الخَطْرِ، وَأَطْفَأْتَ شُعْلَةَ الإِيمَاضِ وَغَيَّضْتَ مُجَاجَةَ القَطْرِ، وَرُبَّمَا نُسِقَ التَّعْرِيضُ فِي هَذِهِ الكِنَايَةِ نَسَقَ الحُرُوفِ فِي السَّطْرِ، فَقِيلَ مَا هَذَا الإِغْمَاض، وَلِمَ سِيقَ القَطْرُ وَالإِيمَاض. وَسَيَطُولُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الفَصْلِ الإِخْلَالُ وَالإِحْمَاض، إِلَى أَنْ يَقَعَ قَنِيصُهُ فِي حِبَالَةِ التَّحَيُّل، وَيَتَجَلَّى وَجْهُ القَصْدِ فِيهِ لِنَاظِرِ التَّخَيُّل، فَيُقَالُ: الإِيمَاضُ تَوَقُّدُ قَلْبٍ يَجِبُ(4)، وَالقَطْرُ دَمْعُ عَيْنٍ تَهْمِي عَلَى إِلْفِهَا كَمَا يَجِب(5). وَهَذَا تَأْوِيلٌ جَلَوْنَا فِيهِ عَنْ صَاحِبِنَا الوَزِير بِمَا ظَنَّ أَنَّهُ يحْتَجِب، وَعَسَى ذَلِكَ سَبَبٌ لِأَنْ يُقْبَلَ عُذْرُهُ فِي كَسَلِهِ عَنِ التَّعَلُّمِ وَوَنَاهُ، وَمَشْعَبٌ يُودِي مِنْ أَنَّ الحُبَّ جَرَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَجَنَاه، فَإِنَّ الكَلَفَ بِالقَدِّ الخَاطِرِ يُمِيتُ حَيَاةَ الخَاصِرِ، وَالاسْتِنَانَ فِي مَيْدَانِ عُرْوَةَ، يَفْصِمُ للذَّكَاءِ كُلَّ عُرْوَة، وَالتَّمَذْهُب بِرَأْيِ جَمِيلٍ، يَقْطَعُ بِالتَّأْمِيل، وإِنَّ فِي سِحْرِ الجُفُونِ السُّودِ، لَمَصَارِعَ لِغُلْبِ الأُسُود، وَإِنَّمَا أَعْتَذِرُ لِلْوَزِيرِ الأَجَلِّ مِمَّا عُثِرَ بِهِ القَلَم فِي هَذَا التَّزْوِيرِ المُرْتَجَل، حَتَّى حَصَلْنَا مَعَ أَخِينَا الأَكْرَمِ فِي أُنْشُوطَةِ الخَجَل، فَمِنْ حَقِّهِ إِذَا وَصَلَهُ هَذَا المَكْتُوبُ، المَعْتُوب، وَالحُرُوف، الَّتِي وَجْهُ القَبُول عَنْهَا مَصْرُوف، أَنْ يُمَزِّقَ إِهَابَهَا، وَيُطْفِئَ بِمَاءِ اعْتِرَاضِهِ الْتِهَابَهَا، وَمَا هُوَ إِلَّا كِتَابٌ، تَعُودُ كَافُهُ عَيْنًا فَيَؤُوب وَهُوَ عِتَابٌ وَيَا شَوْقَاهُ إِلَى أَنْ

---

(1) سورة الرعد، الآية: 39.

(2) مقتبس من قول الراجز: «هذا أوان الشد فاشتدي زيم». اللسان: «زيم» وشرح أدب الكاتب للجوالقي، ص: 404.

(3) مقتبس من الحديث الشريف: «أعوذ بالله من الحور بعد الكور».

(4) وجوب القلب: حرقته وتوقده.

(5) كما يجب: أي كما هو مفروض وواجب.



تَلْحقَهُ هَمْزَة فَيؤُوب وَهُوَ إعْتَاب. وَلَكِنَّ عُذْرَ الوَزِيرِ بَادٍ إنْ هُوَ غَضِبَ وَهَرَّ، وَنَثَرَ جَعْبَةَ التَّنَمُّر وَازْمَهَرَّ، وَقَالَ: يَا عَجَباً لِهَذَا المُكَاتِبِ المُعَاتِبِ، وَالمُخَاطِبِ، الحَاطِبِ، وَالنَّصِيحِ، الفَصِيحِ، أَزُوراً وَمَيْناً، مَنْ جَرَّأَهُ عَلَيْنَا، وَمَالَ إلَى تَحَقُّقٍ مِنَ الحَرَجِ وَمَضْمُون، وَتَلاَ لِهَذِهِ الرُّقْعَة ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[1]. وَتَعَجَّبَ مِنْ أَغْرَاضِ النَّاسِ وَأُسْلُوبِهِمِ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2].

كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا فِي العَرَاءِ ... وَمُلْبِسَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحا[3]

فعَلَى هَذَا القِيَاس هَذِهِ الرِّسَالَة.

وَكَتَبَ أَيْضاً إِلَيْهِ وَقَدْ أَبْطَأَ جَوَاب هَذِهِ الرِّسَالَة المُتَقَدِّمَة لِمَرَضٍ أَصَابَهُ:

بِنَا لا بِكَ الوَصَبُ المُؤْلِمُ ... وَنَفْسُكَ مِنْ صَرْفِهِ تَسْلَمُ[4]

وَالوَصَبُ بِنَا فِي جَانِبِكَ مِنْ جِهَتَيْن، وَلَا نَدْرِي مَا آلَمُ القَضِيَّتَيْنِ أَضَعْفُ وُدِّكَ أَمْ ضَعْفُ جِسْمِكَ، وَتَغَيُّرُ عَهْدِكَ، أَمْ تَغَيُّرُ وَسْمِكَ، وَلَكِنْ أَقُولُ أَبُو يُوسُفَ أَبُو حَنِيفَةَ[5]، وَإِنْ قَصَدْتُ بِذَلِكَ عَتْبَ الوَزِيرِ وَتَعْنِيفَهُ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ مَتَاب: «فَيَبْقَى الوُدُّ مَا بَقِيَ العِتَابُ»[6]، وَشَرْحُ هَذَا أَنِّي لَمْ يَصِلْنِي مِنْهُ كِتَاب، وَلَا أَدْرِي أَعَدِمَ القِرْطَاسَ وَالمِدَادَ، أَمْ عَدِمَ الجِدّ وَالوِدَاد، اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَر[7] أَدْمَنْتَ الرَّمْيَ حَتَّى أَصبْتَ

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 109.

(2) سورة آل عمران، الآية: 167.

(3) البيت لابن هرمة وهو مما يتمثل به (المتقارب).

(4) البيت من المتقارب وهو مطلع قصيدة لابن دريد، الأمالي 1/ 33.

(5) أبو يوسف: هو القاضي المعروف صاحب أبي حنيفة، والمعنى أنهما شيء واحد.

(6) عجز البيت وصدره :

إِذَا ذَهَبَ العِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ

(7) قال الرسول هذه الكلمة بعد أن نزل خيبر في السنة السابعة من الهجرة وذلك بعد أن أشرف عليها وقال لأصحابه قفوا ثم ردد قوله ﷺ: «اللهم رب السماوات وما أظللن ورب الأرضين وما أَظْلَلْنَ». واستقبله أهله لمحاربته فلما رأوه أدبروا وفروا فقال الرسول ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذن نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». السيرة النبوية 2/ 329، الروض الأنف، ص: 228.



الغِرَّة، وَغُصْتَ فِي بَحْرِ الطِّينِ حَتَى اسْتَخْرَجْتَ الآجُرَّةَ، وَلَوْلَا تَغَيُّر الوَزِيرِ لَقُلْتُ الدُّرَّة، وَلَكِنَّهُ يَنْظُرُ فِي مَقَاصِدِ هَذَا الكِتَابِ وَأَغْرَاضِهِ، فَيَزْدَرِي بِجَوَاهِرِ ودِّي وَأَعْرَاضِه، فَهَلْ عِنْدَه المِزَاحُ مِنْ خُلُقِ الأَشْرَافِ، وَأَنَّ تَوَدُّدَهُ هُنَا مِنْ خُلُقِ الإِسْرَاف، رُوَيْدَكَ فَإِنَّمَا هِيَ دُعَابَةُ أَخٍ مَازِحٍ، وَتَعْرِيضَةُ نَازِحِ الجِسْمِ وَهْوَ غَيْرُ نَازِحٍ، وَأَمَّا وُدُّنَا فَثَابِتُ الاعْتِزَاءِ، لِلصِّدْقِ وَالانْتِمَاء، ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

وَالنَّفْسُ - أَعَزَّكَ اللهُ - بِأَلَمِكَ مُتَأَلِّمَة، وبِالدُّعَاءِ فِي عَوْدَةِ صِحَّتِكَ مُتَكَلِّمَةٌ، وَلَا غَرْوَ أَنْ تُلِمَّ بِكَ شَكَاة، أَوْ تُعْمَرَ لَكَ بِمِصْبَاحِ الحِمَى مِشْكَاة، إِنَّمَا أَنْتَ كَالرَّوْضِ آوِنَةً يُونِعُه الزَّمَان وَآوِنة يذْوِيه، وَكَالبَدْرِ طَوْراً يَنْشُرُهُ السِّرَارُ وَطَوْراً يَطْوِيهِ:

وَفِي السَّمَاءِ نُجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ ... وَلَيْسَ يَكْسِفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالقَمَرُ[2]

فَبُشْرَى لَكَ وَلَنَا بِصِحَّتِكَ المُتَمَكِّنَة، وَعَافِيَتِكَ المُتَهَيِّئَة المُمْكِنَة، فَإِثْرَ الشِّدَّةِ يَكُونُ الفَرَج، وَلَا عَتْبَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - وَلَا حَرَج، فَقَدْ يَسْتَوِي الغُصْنُ بَعْدَ الانْقِصَاف، وَيُنِيرُ البَدْرُ بَعْدَ المُحَاقِ وَالانْكِسَاف. واللهُ يُضْفِي عَلَيْكَ العَافِيَةَ سَابِغَةَ المَجَاسِدِ، وَيَجْعَلُ بِحَيَاتِكَ مَوْتَ كُلِّ حَاسِدٍ، بِمَنِّهِ وكَرَمِهِ. وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

خَلِيلَيَّ عُوجَا بِالرُّسُومِ الدَّوَاثِرِ ... إِخَاءِ ابْنِ حَسُّونٍ وَعَهْدِ ابْنِ نَادِرِ[3]

وَشُنَّا عَلَى ابنِ القَاسِمِ العَتْبَ غَارَةً ... يُجَيِّشُهَا دُهْمَا كَمِينُ المَحَابِرِ

بآيَةِ مَا أَغْفَى وِدَادِي لَدَيْهِمُ ... فَلَهْفِي عَلَى تِلْكَ الجُفُونِ السَّوَاهِرِ

هُمُ عَامَلُونِي بِالعِتَابِ عَنِ الرِّضَا ... فَيَا خُسْرَ مَا آبَتْ إِلَيْهِ مَتَاجِرِي

(1) سورة إبراهيم، الآية: 26.

(2) البيت للشاعر: شمس المعالي أبي الحسن قابوس بن وشمكير أمير جرجان. انظر البديع لابن منقذ، ص: 185، يتيمة الدهر 4/ 61، جوهر الكنز، ص: 182، المرقصات والمطربات، ص: 60، الغيث المسجم 2/ 160، وفيات الأعيان 4/ 180. وهو من البسيط.

(3) انظر في ترجمته وما ورد من أخباره في كتاب «أديب الأندلس» أبو بحر التجيبي، ص: 48.



وَعِنْـدِي لَهُـمْ عَتْـبٌ كَـأَنَّ حُرُوفَـهُ تَطِيـرُ سِـهَاماً عَـن قَـصِيِّ خَـوَاطِرِي

الإِخْوَانُ الثَّلَاثَة أَدَامَ اللهُ مُدَّتَهُمْ رَافِلِينَ فِي بُرُودِ قِلَّةِ الوَفَاءِ، وَاضِعِينَ زِمَامَ جُفُونِ الجِدِّ فِي رَاحَةِ الإِغْفَاءِ، وَارِدِينَ فِي تَكْدِيرِ الوِدَادِ لَا الصَّفَاءِ، مُخْتَفِينَ بِنُفُوسِهِمْ عَنْ سِوَاهَا أَكْرَم الاكْتِفَاءِ، وَلَمْ أَمُدَّ الخَطْوَ فِي مَجَالِ هَذَا الدُّعَاء، وَلَا ضَمِنْتُ ذُخْرَهُ فِي هَذَا الوِعَاءِ، إِلَّا لِأَنِّي أَسْتَلِذُّ أَفْعَالَكُمْ وَإِنْ هَدَّتْ جَانِبِي، وَأَتَلَقَّاكُمْ بِالقَبُولِ وَإِنْ كَانَ كُلُّكُمْ مُجَانِبِي:

وَأَهَنْتَنِـي فَأَهَنْـتُ نَفْـسِي صَـاغِراً مَـا مَـنْ يَهُـونُ عَلَيْـكِ مِمَّـنْ يُكْـرَمُ[1]

السَّلَامُ عَلَى ذَلِكَ الجَانِبِ المُزْوَر والمَبْسِمِ غَيْرِ المُفْتَرِّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ أَمَّا بَعْدُ، رَاجَعَ اللهُ بِوِدَادِكُمْ وَقَّاد وَهْيَ اعْتِدَادِكُمْ وَاعْتِقَادِكُمْ، وَمَيَّزَكُمْ لَدَيَّ مِنْ أَضْدَادِكُمْ. فَإِنِّي كَتَبْتُ عَنْ نَفْسٍ مُتَقَلِّبَةٍ بِانْقِلَابِكُمْ قَدْ لُجَّتْ فِي تَرْكِكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا..............

وَكَتَبَ أَيْضاً:

كَتَبَ مُوَقِّرُكُمْ وَمُكْبِرُكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ جَمِيلَ الصَّبْرِ، وَجَزِيلَ الأَجْرِ، وَالرِّضَا بِحُكْمِ اللهِ الَّذِي لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ[2]، وَإِلَيْهِ النَّشْرُ وَالحَشْرُ، مِنْ بِجَايَةَ حَرَسَهَا اللهُ وَبَرَكَةَ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ - وَصَلَ اللهُ أَيَّامَهُمْ وَنَصَرَ أَعْلَامَهُمْ - تَقْدَحُ زِنَادَ الأَنْوَارِ بِالقُلُوبِ، وَتُمْضِي القَدَرَ المَحْتُومَ وَالأَجَلَ المَكْتُوبَ، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَمَعَ كُلِّ مَقَالٍ، عِنْدَمَا طَرَأَ الخَبَر بِمَا نَفَدَ بِهِ القَضَاءُ وَالقَدَر، وَالأَمْر الحَتْم المُنْتَظَر، مِنْ وَفَاةِ الحُرَّةِ المُتَكَبِّرَةِ المُوَقَّرَةِ المُطَهَّرَةِ، كَرَّمَ اللهُ مَحَلَّهَا، وَأَنَّس بِمَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ مَنْزِلَهَا «وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ». فَلَقَدْ ذَهَبَ لَنَا فِيهَا رُكْنٌ لَا تُقَاسُ بِهِ الأَرْكَان، وَجَانِبٌ لَا يَسْمَحُ بِمِثْلِهِ

(1) البيت من الكامل وهو لأبي الشيص الخزاعي في ديوانه، ص: 102، تحقيق عبد الله الجبوري. وانظر حماسة أبي تمام.
(2) فيه نظر إلى القرآن الكريم.



الزَّمَان، وَإِنَّ مِنْ حقِّهَا البيِّنِ، وبرِّهَا المُتعَيِّنِ، المَشْيَ [لِوَلِيِّهَا] إِلَى العَزَاءِ بِهَا، وَالوُصُولَ إِلَى المُشَارَكَةِ فِي مُصَابِهَا.

واللهُ يُلْهِم الجَمِيعَ عَظِيمَ الصَّبْرِ وَجَمِيلَ العَزَاءِ، وَيَدْفَعُ عَنْ جَوَانِبِكُمُ المَبْرُورَةِ طَوَارِقَ الأَرْزَاءِ. بِمَنِّهِ وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ الفَقِيهِ المَرْحُومِ أَبِي الحَكَمِ بْنِ عُذْرَةَ[1] رَحِمَهُ اللهُ مَا كَتَبَ بِهِ إِلَيَّ أَيَّامَ كَوْنِي مُسَدِّداً بِمَرْبِلَّةَ وَإِسْطِبُونَةَ مُعْلِماً بِوَفَاةِ أَخِيهِ الشَّيْخِ المَرْحُومِ أَبِي القَاسِمِ رَحِمَهُ اللهُ:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الفَقِيهُ القَاضِي الأَقْضَى الأَرْوَعُ الأَعْدَلُ السَّنِي السَّرِيُّ الأَكْتَبُ الأَشْرَفُ الأَفْضَلُ الوَلِيُّ العِمَادُ الذُّخْرُ الأَرْفَعُ الأَطْوَلُ أَبُو فُلَانٍ:

أَطَالَ فِي العَافِيَةِ مُدَّتَهُمْ، وَأَبْقَى بَرَكَتَهُمْ وَعُمْدَتَهُمْ، وَحَرَسَ فِي الغِيَرِ وَالحَوَادِثِ ذَاتَهُمُ الكَرِيمَةَ وَبَهْجَتَهُمْ، المُعَظِّمُونَ لِحَقِّهِم وَمِقْدَارِهِمْ، المُلْتَزِمُونَ لِإِجْلَالِهِمْ وَإِكْبَارِهِمْ، الدَّاعُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِي وِقَايَةِ أَنْوَارِهِمْ، مُحَمَّدٌ وَعَبْدُ الرَّحِيمِ وَعَبْدُ الخَالِقِ بَنُو عُمَرَ بنِ عُذْرَة. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ خَيْرِ آلٍ، وَالرِّضَا أَتَمَّ الرِّضْوَانِ عَلَى الإِمَامِ المَهْدِيِّ وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ الوَارِثِينَ لِتِلْكَ

---

(1) من أدباء الجزيرة الخضراء وفقائها النبهاء كانت له علاقة بالبَلَوِي وقد كاتبه غير مرة، وهو من أسرة مشهورة بالعلم سكن أفرادها الجزيرة الخضراء نعرف منهم عبد الرحمن بن عمر بن عذرة الأنصاري القاضي وابن أخيه أبا القاسم عبد الرحمن بن أبي الحكم، وأبا بكر محمد وأبا الحكم عبد الرحيم ولهم شعر ومكاتبات بعضه في تحفة القادم. قال أحدهم يذكر أبا الحكم هذا:

أَبَى الحُبُّ وَالوَجْدُ المُبَرِّحُ وَالجَوَى ... وَعَهْدُ الرِّضَا والذِّكْرِ إِلَّا تَمَادِيَا
لَئِنْ سَهِرَتْ لِلْبَيْنِ عَيْنُكَ لَيْلَةً ... لَقَدْ سَهِرَتْ مِنَّا عُيُونٌ لَيَالِيَا
أَبَا حَكَمٍ لَوْ كَانَ بِاليَمِّ مَا بِنَا ... لَأَصْبَحَ يَسْقِي الغَمَامَ الغَوَادِيَا

في تحفة القادم، ص: 146 ذكر لأحد بني عذرة، وفي رسائل أندلسية مخطوطة بالأسكوريال الأبيات التي ذكر فيها أحدهم أبا الحكم.



الخِلَالِ، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الإِمَامِ الخَلِيفَةِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ تَعَالَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، ابْنِ الخُلَفَاءِ الأَئِمَّةِ الهَادِينَ المُهْتَدِينَ، بِنَصْرٍ تَمْتَدُّ بِهِ الأَمَالُ، وَيَطَّرِدُ مَعَهُ الظُّهُورُ وَالإِقْبَالُ، فَكَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ حَيَاةً بَاقِيَةً، وَجُنَّةً مِنَ الحَوَادِثِ وَاقِيَةً، مِنَ الخَضْرَاءِ[1] - حَرَسَهَا اللهُ - بَعْدَ أَنْ نَفَذَ القَضَاءُ السَّابِقُ، وَالقَدَرُ اللَّاحِقُ، بِوَفَاةِ أَخِينَا وَكَبِيرِنَا أَبِي القَاسِمِ وَلِيِّكُمْ فِي اللهِ تَعَالَى كَانَ، وَشَاكِرَكُمْ بِكُلِّ لِسَانٍ. فَيَا لَهَا مِنْ رَزِيَّةٍ لَمْ تَفْتَحْ إِلَى التَّصَبُّرِ بَاباً، وَلَا حَطَّتْ لِلْجَزَعِ نِقَاباً، وَلَا أَوْجَدَتْ إِلَى التَّثَبُّتِ طِلَاباً، طَرَقَتْ كَمَا شَاءَ اللهُ فَأَرَّقَتْ، وَأَلَمَّتْ فَأَغْمَتْ، وَأَسْمَعَتْ فَأَصْمَتْ، فَعِمَادُ السُّرُورِ مَخْفُوضٌ، وَدَمْعُ الأَسَى وَالحُزْنِ مَفْضُوضٌ، وَالأَسَفُ قَدْ قَدَّ الضُّلُوعَ، وَطَرَدَ الهُجُوعَ. وَأَغْرَقَ العُيُونَ فِي فَيْضِ الدُّمُوعِ، فَلَا كَبِدَ إِلَّا مَفْطُورَة، وَلَا سلوةَ إِلَّا مَحْظُورة، وَحَقُّنَا أَلَّا تُفَارِقَنَا زَفْرَه، وَلَا تَخْمُدَ بَيْنَ ضُلُوعِنَا جَمْرَة، وَلَا تَذْهَبَ عَنَّا لَوْعَةٌ وَلَا حَسْرَة، فَمُصَابُنَا - وَقَاكُمُ اللهُ - بِهَذَا الأَخِ المَذْكُورِ لَا يَعْدِلُ بِهِ مُصَاب، ولَا يمثلُ بِمَا طَلَعَ لِلدَّهْرِ مِنَ الثَّنَايَا وَالأَنْقَاب، فَلَوْ ذَهَبْنَا أَسَفاً، وَفَنِيْنَا وَجْداً، لَكَانَ فِي حَقِّهِ حَقِيراً، وَفِي جَنْبِ عِمَادِهِ الَّذِي خَرَّ، وَنُورِهِ الَّذِي اسْتَسَرَّ، يَسِيراً، وَحَسْبُنَا اللهُ وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، تَسْلِيماً لِأَمْرِهِ وَتَفْوِيضاً لِحُكْمِهِ نَسْأَلُهُ أَنْ يُلْهِمَ الصَّبْرَ، وَيُعَظِّمَ لَدَيْنَا الأَجْرَ.

وَفِي كَرِيمِ عِلْمِكُمْ - أَبْقَاكُمُ اللهُ- مَا كَانَ عَلَيْهِ أَخُونَا - نَوَّرَ اللهُ ضَرِيحَهُ - مِنْ حُبِّكُمْ فِي اللهِ تَعَالَى...وَلِعِلْمِكُمْ بِذَلِكَ عَرَّفْنَاكُمْ بِوَفَاتِهِ [طَالِبِينَ مِنْكُمُ الدُّعَاءَ لَهُ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ] مَعَ أَنَّنَا مُتَحَقِّقُونَ أَنَّكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ مِنْ خَبَرِ هَذَا المُصَابِ مَا أَخَذْنَا، وَتَأَلَّمْتُمْ لَهُ كَمَا تَأَلَّمْنَا، وَوَجَدْتُمْ لِفَقْدِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ- مِثْلَمَا وَجَدْنَا، وَاللهُ يُعَوِّضُ الكُلَّ عَلَيْهِ الأَجْرَ الجَزِيلَ، وَالثَّوَابَ الجَمِيلَ، وَيَعْصِمُ أَيُّهَا الوَلِيُّ الأَكْرَمُ أَرْجَاءَكُمْ، وَيَحْفَظُ عَلَيْنَا عَهْدَكُمْ وَوَفَاءَكُم.

وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ المَبْرُورُ مُعَاداً مُكَرَّراً، كَثِيراً أَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكُتِبَ فِي الخَامِسِ عَشَرَ مِنْ جُمَادَى الأُخْرَى عَامَ سِتَّةٍ وَسِتِّمِائَةٍ.

---

(1) الخضراء: يقصد بها الجزيرة الخضراء، وكان بنو عذرة يقيمون في أغلب الأوقات بها.



وَكَتَبَ إِلَيَّ أَيْضاً رَحِمَهُ اللَّهُ جَوَاباً عَلَى جَوَابِي عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ:

نَشَرَتْ مَفَاخِرُكُمْ بَهِيَّ لِوَائِهَا ... وَسَقَتْ بِتَأْنِيسٍ كُؤُوسَ عَزَائِهَا
فَشَفَتْ نُفُوساً شَبَّهَا أَلَمُ النَّوَى ... لِفِرَاقِ بَدْرٍ آفِلٍ بِفِنَائِهَا
كَانَ الحَيَاةَ لَهَا وَكَانَ المُنْتَقَى ... مِنْ آلِ عُذْرَةَ فِي قَدِيمِ سَنَائِهَا
كَانَ الزَّعِيمَ لَهَا بِمَا قَدْ أَطْلَعَتْ ... آيَاتُه مِنْ حُسْنِهَا وَرُوَائِهَا
كَمْ مَدَّ فِي أُفْقِ المَحَامِدِ صِيتَهُ ... كَالشَّمْسِ قَدْ مَدَّتْ شُعَاعَ ضِيَائِهَا
أَيْنَ الرَّصَانَةُ وَالصِّيَانَةُ وَالحِجَا ... أَيْنَ الخَطَابَةُ فِي رَفِيعِ بِنَائِهَا
أَيْنَ المَعَارِفُ وَالعَوَارِفُ وَالتُّقَى ... أَيْنَ البَلَاغَةُ فِي سُمُوِّ بَهَائِهَا
لَهْفِي عَلَى تِلْكَ المَفَاخِرِ إِذْ هَوَتْ ... فِي تُرْبِ أَنْدَلُسٍ وَفِي خَضْرَائِهَا[1]
تِلْكَ الخِصَالُ كَأَنَّهَا بِمُضِيِّهِ ... ظِلٌّ مَحَاهُ الدَّهْرُ فِي بَطْحَائِهَا
لَكِنْ بَقَاءُ عِمَادِنَا بَدْرِ السَّنَا ... شَمْسِ الكِتَابَةِ فِي مَحَلِّ غَنَائِهَا
إِصْلِيتِهَا نِحْرِيرِهَا بِلَوِيِّهَا ... وَقَّادِهَا فِي صُبْحِهَا وَمَسَائِهَا
فِيهِ السُّلُوُّ بِمَا أَفَادَ مِنَ الَّتِي ... بَهَرَتْ بِزَاكِي فَضْلِهَا وَوَفَائِهَا
مَنْ ذَا يُسَاجِلُهُ، وَبَحْرُ بَنَانِهِ ... قَدْ مَدَّ لِلْعَلْيَاءِ فِي أَنْحَائِهَا
إِنْ كَانَ قُسٌّ[2] سَامِعاً أَلْفَاظَهُ ... لَغَدَا يُسَلِّمُ مُفْصِحاً بِذَكَائِهَا
أَوْ كَانَ سَحْبَانٌ[3] نَجِيَّ حُرُوفِهِ ... لَأَتَى مُرِيداً يَرْتَدِي بِرِدَائِهَا

---

(1) يقصد بخضرائها سماء الأندلس أو الجزيرة الخضراء.
(2) قس بن ساعدة الإيادي خطيب جاهلي مشهور بفصاحته وبلاغته حتى ضرب به المثل فقيل: «أبلغ من قس».
(3) سحبان وائل: خطيب عربي وأحد الفصحاء المشهورين في الجاهلية.



يَـا أَيُّهَـا المِفْـضَالُ وَالـسَّنَدُ الـذِي ... مَلَـكَ المَعَـانِيَ قَاضِـياً بِقَـضَائِهَا

يَـا أَحْمَـدُ المَـأْمُولُ إِذْ نَهَـضَتْ بِـهِ ... نَفْـسٌ أَبَـتْ إِلَّا حَمِيـدَ مَـضَائِهَا

صَـدَرَتْ فَرِيـدَتُكُمْ عَـنِ الهِمَـمِ الّتِـي ... أَبْدَتْ مِنَ الإِخْلَاصِ مَحْضَ وَلَائِهَا

بِإِجَـادَةٍ جَمَعَـتْ مَعَـارِفَ جَمَّـةً ... فَخَـرَتْ بِهَـا العَلْيَـا عَلَـى أَبْنَائِهَـا

فِـي حَـقِّ مَوْلَانَـا أَخِينَـا كَهْفِنَـا ... عِنْـدَ النَّوَائِـبِ إِذْ تَحُـلُّ بِـدَائِهَا

فَكَسَتْ مِنَ الأَوْصَـافِ أَنْفَسَ حُلَّـةٍ ... بِبَيَانِهَـا لَمَّـا أَتَـتْ وَثَنَائِهَـا

فَجَمِيعُنَـا بِالـشُّكْرِ يُعْلِـنُ دَهْـرَهُ ... مَـا مُتِّعَـتْ أَجْـسَادُنَا بِـذَمَائِهَا

واللهُ يَحْفَـظُ عَهْـدَكُمْ وَوَلَاءَكُـمْ ... مَـا ضَـاءَتِ الـدُّنْيَا بِنُـورِ ذُكَائِهَـا[1]

وَاسْلَمْ وَدُمْ يَـا أَيُّهَـا القَاضِـي الرِّضَـا ... فِـي خِطَّـةٍ تَقْـضِي لَكُـمْ بِبَقَائِهَـا

مَـا لَاحَ نَجْـمٌ أَوْ تَـرَنَّمَ طَـائِرٌ ... أَوْ حَـنَّ ذُو جَفْـنٍ إِلَـى إِغْفَائِهَـا

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الّذِي جَعَلَ المَوْتَ حَتْماً لَازِما، وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ وَسَيِّدِ هَذِهِ الأُمَّةِ الّذِي ذَخَرَتْهُ الإِرَادَةُ الإِلَهِيَّةُ لِلشَّرِيعَةِ نَاظِماً، وَأَيَّدَتْهُ بِوَحْيِهَا قَاعِداً وَقَائِماً، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الّذِي نَبَّهَ مِنْ سِنَةِ الجَهْلِ نَائِماً، وَمُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِلْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ثُمَّ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِتَأْيِيدٍ لَا يَزَالُ لِأَمْرِهِ لَازِماً، وَلِأَفْعَالِ أَعَادِيهِ جَازِماً.

فَكَتَبْنَا أَيُّهَا الوَلِيُّ المَبْرُورُ، وَالصَّفِيُّ الوَفِيُّ المَشْكُورُ، كَتَبَكُمُ اللهُ فِي جُمْلَةِ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ العِنَايَة، وَأَجَنَّتْهُ مِنْهُ الكَلَاءَةُ وَالحِمَايَة، وَآوَتْهُ مِنْ حَوَادِثِ الأَيَّامِ وَطَوَارِقِ الأَنَامِ الرِّعَايَةُ وَالوِقَايَة، مِنَ الخَضْرَاءِ -حَرَسَهَا اللهُ- بَعْدَ أَنْ وَصَلَ خِطَابُكُمُ الأَثِيرُ، بَلْ رَوْضُكُمُ النَّضِيرُ، فَوَقَفْنَا عَلَى إِشَارَاتِهِ السَّنِيَّةِ وُقُوفاً شَفَى النَّفْسَ مِنْ أَوْصَابِهَا، وَهَوَّنَ

(1) ذُكَاء: يعني بها الشمس.





عَلَيْهَا جَلِيلَ مُصَابِهَا، وَشَكَرْنَا مَنْزَعَهُ الَّذِي لَا يُنَازَعُ فِي الجَلَالَةِ، وَلَا يُدَافَعُ فِي الأَصَالَة، وَلاَ يُشَارَكُ فِي الحَسَبِ المَكِينِ، وَلَا يُسَاجَلُ في الأَدَبِ الغَمْرِ المَعِينِ، فَجَزَاكُمُ اللهُ أَيُّهَا القَاضِي الأَوْحَد خَيْرَ الجَزَاءِ، وَبَاعَدَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ حُلُولِ الأَرْزَاءِ. أَخَذْتُمْ مِنْ مُصَابِ إِخْوَتِكُمْ بِالحَظِّ الأَوْفَى، وَضَرَبْتُمْ فِيهِ مِنْ قِسْمِ المُوفَى، ثُمَّ إِنَّكُمْ بِإِرْشَادِكُمْ هَدَيْتُمْ إِلَى الصَّبْرِ حَائِراً، وَأَحْيَيْتُمْ مِنْهُ رَسْماً دَاثِراً، وَكَفْكَفْتُمْ دُمُوعاً، وَأَلْجَمْتُمْ لِلْجَلَدِ حِمىً قَدْ كَانَ مَمْنُوعاً، عَلَى أَنَّ التَّثَبُّتَ مَلُوم، وَالصَّبرَ فِي حَقِّنَا - وَنَسْتَغْفِرُ اللهَ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ - مَذْمُومٌ. فَقَدْ فَقَدْنَا مَنْ لَبِسَتْ لَهُ الشَّرِيعَةُ ثَوْبَ حِدَاد، وَأَعْقَبَ بَيَاضَهَا مِنْهُ بِسَوَاد. وَنَسْأَلُ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَيْنَا هَذَا المُصَابَ الجَلَل، وَيَمُنَّ الرَّوْعة مِنْهُ وَالوَجَل، وَأَنْتُم أَعْلَى اللهُ مَكَانَكُمْ قَدْ عَرَفْتِ قَدْر مَوْقِع هَذَا الخَطْبِ مِنْ نُفُوسِنَا وَمَحَلَّهُ مِنْ قُلُوبِنَا.

واللهُ يُؤَمِّنُ سَاحَتَكُمْ مِنْ حُلُولِ النَّوَائِبِ، وَلَا يَرْمِي غَرَضَكُمْ بِسِهَامِ المَصَائِبِ، وَيُبْقِي عِزَّكُمْ مَأْمُولاً، وَجَاهَكُمْ عَلَى أَكْمَلِ أَسْبَابِ الكَرَامَةِ مَحْمُولاً، وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ المَبْرُورُ عَلَيْكُمْ مِنْ كَاتِبِهِ مُجِلِّكُمْ عَبْدِ الرَّحِيمِ وَمِنْ أَخَوَيْهِ المَذْكُورَيْنَ وَمِنِ ابْنِ أَخِيهِ الفَقِيدِ أَبِي عَبْدِ اللهِ شَاكِرِكُمْ وَمُقَبِّلِ أَيَادِيكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ رَوْضِ الإِجَادَةِ، الَّذِي سَقَاهُ الأَدَبُ مَا شَاءَ وَجَادَه الشَّيْخ الأَدِيبِ أَبِي عَمْرِو بْنِ غَيَّاثٍ الشَّرِيشِيِّ أَكْرَمَهُ اللهُ:

أَمَّا بَعْدُ: فَأَنْتَ مَوْلَايَ السَّيِّدُ المُعظَّمُ المُوَقَّرُ الأَسْمَى الأَسْنَى الأَسْعَدُ الرَّحْبُ الصَّدْرُ المُوطَأُ الأَكْنَافِ، المُعْجِزُ لِلأَوْصَافِ وَالوُصَّافِ، عَلَى مَا فِي كَرِيمِ عِلْمِهِمْ مِنْ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى الابْتِلَاءِ بِالامْتِحَانِ وَالأَرْزَاءِ، أَعْظَمُ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى جَزِيلَ الآلَاءِ وَالنَّعْمَاءِ، وَالصَّبْر أَجْزَل فِي الثَّوَابِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] لَاسِيَمَا مُصِيبَةُ المَوْتِ التِي سَمَّاهَا اللهُ مُصِيبَةً فِي الكِتَابِ، لَكِنْ خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولاً[2]

---

(1) سورة الزمر، الآية: 11.

(2) يشير إلى قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ﴾، سورة الأنبياء، الآية: 37.



«فالصَّبْرُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّدْمَةِ الأُولَى». وَقَدْ نَبَّهَ اللهُ تَعالَى عَلَى الاسْتِرْجَاعِ لِيَقْتَدِيَ بِهِ المُتَفَجِّعُ وَيَسْتَسْلِمَ لِلْقَضَاءِ فِيهِ المُتَوَجِّعُون، فَقَدْ أَخَذَ بِذَلِكَ الأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ وَالصَّحَابَةُ أَجْمَعُونَ، وَالأَوْلِيَاءُ وَالتَّابِعُونَ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1] وَإِنَّ مِمَّا دُهِينَا بِهِ، وَرُبَّمَا بِأَصْعَبِهِ، فَقْدُ مَنْ فُقِدَ لِفَقْدِهِ جَمِيعُ الأَنَامِ، وَرَحَلَتْ لِرِحْلَتِهِ الحَيَاةُ عَنَّا بِسَلَام، فَعَلَيْهِ وَإِلَّا مَا نَاحَ الحَمَام، وَعَلَيْهِ وَإِلَّا مَا بَكَى الغَمَام، وَفِيهِ وَإِلَّا لَمَا لَبِسَتِ الآفَاقُ حِدَادَهَا حَتَّى حُجِبَتْ بَيْنَ الأَنَام، وَعَظَّمَ النَّاسُ مِقْدَارَهُ حَتَّى اخْتَفَى فِي الزِّحَام:

فَتَبًّا لِدُنْيَا إِذَا لَمْ تَكُنْ ... تُرَاعِي كَرِيماً نَمَا فِي الكِرَامْ
أَمَا هِيَ مَهْمَا تَأَمَّلْتَهَا ... مَصَارِعُ فِينَا فَيَا لَلْحِمَامْ
كَذَا فَعَلَتْ بِقُرُونٍ خَلَتْ ... بِيَافِثِهِمْ [وَبِسَامِ][2] وَحَامْ
وَمَنْ قَدْ تَنَاسَلَ مِنْهُمْ بِهَا ... وَلَمْ تَرْعَ مِنْهُمْ لِخَلْقٍ ذِمَامْ
أُعَزِّيكُمُ وَأُعَزِّي التُّقَى ... لِزَاماً كَمَا كَانَ مِنْهُ لِزَامْ
أُعَزِّي عَلَى أَنَّ قَلْبِي دَمٌ ... وَهَلْ لِلْقُلُوبِ الدَّوَامِي دَوَامْ[3]

فَصَبْراً أَيُّهَا المُصَابُونَ صَبْراً[4]، وَعَفْراً عَفْراً، وَقَهْراً لِلنُّفُوسِ الأَبِيَّةِ قَهْراً، فَمَآلُ المُعَزِّي وَالمُعَزَّى إِلَى هَذَا المَآل، وَلَا أَمَلَ فِي بَقَاءٍ بِدَارِ ارْتِحَال. واللهُ تَعَالَى يَجْعَلُ هَذَا الرُّزْءَ آخِرَ الأَرْزَاء، وَيُوَالِي لَدَيْكُمْ سَابِغَ النَّعْمَاء، وَيَخْتِمُ عَلَيْكُمْ كَمَا بَدَأَ بِصَالِحِ الأَعْمَال. بِمَنِّهِ وَالسَّلَام.

---

(1) البقرة الآيتان: 155 - 156.
(2) خرم بالأصل.
(3) الأبيات من المتقارب.
(4) ينظر فيه إلى قول الشاعر:
فَصَبْراً فِي مَجَالِ المَوْتِ صَبْراً



قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ البَلَوِي -عَفَا اللهُ عَنْهُ- وَمِنْ إِنْشَائِي فِي هَذَا البَابِ:

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ المُنْفَرِدِ بِالبَقَاءِ، الحَاكِمِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ بِالفَنَاء، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ خَاتمِ الأَنْبِيَاءِ، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُوم، وَعَنْ جَمِيعِ الأَئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ الأَعْلَام، المُرْشِدِينَ الخُلَفَاء. وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوب بن الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِتَخْلِيدِ الأَيَّامِ وَإِطَالَةِ البَقَاءِ، وَنَصْرِ الأَعْلَامِ وَحِرَاسَةِ العَلَاءِ، فَالكِتَابُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ أَمَانًا مِنَ الدَّهْرِ وَفُسْحَةً فِي العُمْرِ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ - حَرَسَهَا اللهُ -وَلِلأَمْرِ العَزِيزِ أَدَامَهُ اللهُ مَعْهُودُه مِنْ نَصْرِ اللِّوَاءِ، وَقَهْرِ الأَعْدَاءِ، وَفَيْضِ أَنْوَارِهِ عَلَى كَافَّةِ الأَرْجَاءِ، وللهِ الحَمْدُ رَبِّ العَالَمِينَ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ. وَمَا تَعْلَمُونَهُ وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ مِنْ إِيثَارِكُمْ وَإِجْلَالِكُمْ، وَشُكْرِ مَقَاصِدِكُمْ وَخِلَالِكُمْ مُسْتَمِرٌّ عَلَى مَذْهَبِهِ اللَّاحِبِ، وَمَقْصِدِهِ المُصَاحِبِ، وَصَلَهُ اللهُ فِي ذَاتِهِ وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهِ.

وَقَدِ اتَّصَلَ بِمُجِلِّكُمْ -حَرَسَ اللهُ حَوْبَاءَكُمْ- نَبَأُ الرُّزْءِ المُلِمِّ، وَالخَطْبِ الفَادِحِ المُدْلَهِمِّ، وَالحَادِثِ الفَاجِعِ الَّذِي صَدَعَ الفُؤَاد، وَضَعْضَعَ الضُّلُوعَ وَالأَكْبَادَ، وَأَوْهَنَ قُوَى التَّجَلُّدِ وَهَاضَ جَنَاحَ التَّصَبُّرِ بِمَا كَانَ مِنْ وَفَاةِ السَّيِّدِ الأَجَلِّ الهُمَامِ المُكَرَّمِ الأَمْجَدِ الأَسْنَى أَبُو إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، جَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِ رَحْمَتَهُ، وَأَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ، فَأَصَابَ مُجِلَّكُمْ أَعْظَمَ مُصِيبٍ، وَخَصَّهُ مِنَ التَّوَجُّعِ لَهُ أَوْفَر نَصِيب، وَبَلَغَ بِهِ الوَجْدُ كُلَّ مَبْلَغٍ، وَنَالَ مِنْهُ كُلَّ مَنَال، وَآلَمَهُ هَذَا الحَادِثُ أَشَدَّ إِيلَام، وَانْتَهَى بِهِ التَّأَثُّرُ لَهُ إِلَى أَبْعَدِ غَايَاتِهِ، وَأَقْصَى نِهَايَاتِهِ، فَيَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ مَا أَبْكَاهَا لِلْعُيُونِ وَأَشْجَاهَا لِلْقُلُوبِ فـ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(1) وَتِلْكُمْ -أَدَامَ اللهُ عَافِيَتَكُمْ- عَادَةُ الأَيَّامِ فِي بَنِيهَا، وَسَبِيلُهَا الَّتِي سَلَكَ الأَوَّلُونَ وَيَسْلُكُ الآخِرُونَ فِيهَا، لَا يُقْبَلُ فِدَاء، وَلَا يُجْدِي بُكَاء، وَمَنْ صَحِبَ الأَيَّامَ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 155.



قَهَرَتْهُ بِمَوَاعِظِهَا، وَوَهَنَتْهُ بِحَوَادِثِهَا. وَإِذَا كَانَ الحِمَامُ غَايَةَ كُلِّ مَوْجُودٍ ذِي رُوحٍ، وَنِهَايَةَ كُلِّ حَيٍّ مِنَ المَخْلُوقِينَ يَغْدُو أَوْ يَرُوحُ، فَإِلَى الصَّبْرِ -عَلَى كُلِّ حَالٍ- مَفْزَعُ اللَّبِيبِ، وَمَرْجِعُ الأَرِيبِ ....

واللهُ يُمَتِّعُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ بِبَقَاءِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ الَّذِي هُوَ رُوحُ العَالَمِ وَسَنَاه، وَسَيِّدُ الهُدَى وَمَعْنَاه، وَرَبْعُ الصَّلَاحِ كُلِّهِ وَمَغْنَاه، وَيَحْرُسُ مِنَ الحَوَادِثِ أَرْجَاءَهُمْ، وَيُعَظِّمُ بِالصَّالِحَاتِ ثَوَابَهُمْ وَجَزَاءَهُمْ، وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ القُدُسِيَّةُ المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورَةُ العَلِيَّةُ المُبَارَكَةُ الطَّاهِرَةُ الزَّكِيَّةُ، مَطْلَعُ الأَنْوَارِ العَاكِفَةِ، وَمَنْشَأُ الخَيْرَاتِ الوَاكِفَة. حَضْرَةُ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ الأَعْلَامِ المُرْشِدِين. خَلَّدَ اللهُ أَيَّامَهَا وَوَصَلَ بَقَاءَهَا وَدَوَامَهَا، وَأَعْلَى أَعْلَامَهَا وَحَرَسَ مَقَامَهَا، كَمَا أَصْلَحَ بِهَا فِي الحَيَاةِ وَالمَمَاتِ عَبِيدَهَا النَّاصِحِينَ وَخُدَّامَهَا، عَبْدُ خِلَالِهَا، اللَّائِذُ بِوَارِفِ ظِلَالِهَا، الدَّاعِي بِدَوَامِ أَيَّامِهَا السَّعِيدَةِ وَاتِّصَالِهَا، المُفْنِي عُمْرَهُ فِي شُكْرِ إِنْعَامِهَا العَمِيمِ وَإِفْضَالِهَا. إِبْرَاهِيمُ سَلَامٌ كَرِيمٌ طَيِّبٌ مُبَارَكٌ عَمِيمٌ يَخُصُّ حَضْرَةَ التَّمْجِيدِ وَالتَّعْظِيمِ كَثِيراً أَثِيراً. وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ المُنْفَرِدِ بِالبَقَاءِ وَالدَّوَامِ، وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ المُصْطَفَى وَالسَّلَام وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ وَأَصْحَابِهِ الكِرَام وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الذِي أَشْرَقَتْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ الآفَاقُ بَعْدَ الإِظْلَامِ وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ المُرْشِدِينَ الأَعْلَام الذِينَ مَشَّوْا أَمْرَهُ إِلَى غَايَةِ الكَمَالِ وَالتَّمَام، وَمُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِسَعْدٍ مُتَضَاعَفِ الأَقْسَامِ وَنَصْرٍ يَنُوبُ فِي الأَرْوَاحِ مَنَابَهَا فِي الأَجْسَامِ. فَكَتَبَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ كَتَبَ لَهَا اللهُ مِنْ عِنَايَتِهِ الرَّبَّانِيَّةِ مَا يَكْلَأُ مَقَامَهَا العَلِيَّ وَيَقِيهِ، وَيُخَلِّدُ أَمْرَهَا الجَلِيَّ وَيُبْقِيه، وَيَكْنُفُهُ بِضُرُوبِ الوِقَايَةِ، وَيَحْفَظُهُ الحِفْظَ المُسْتَوْلِيَ عَلَى الغَايَةِ.



مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ -حَرَسَهَا اللهُ- وَلِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- مَعْهُودُهَا مِنْ فَيْضِ الأَنْوَارِ وَعِزَّةِ الأَنْصَارِ، وَامْتِدَادُ ظِلِّهَا عَلَى كَافَّةِ الجِهَاتِ وَالأَمْصَارِ وللهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ جَزِيلاً، وَلَهُ الشُّكْرُ مَوْصُولاً. وَالذِي عِنْدَ عَبْدِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَلِيَّةِ- أَيَّدَهَا اللهُ - مِنَ الاجْتِهَادِ فِي خِدْمَتِهَا، وَالاحْتِفَالِ فِي شُكْرِ الطَّارِفِ والتَّالِدِ[1] مِنْ نِعْمَتِهَا، وَالسَّعْيِ فِي ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ اللهِ بِمَرْضَاتِهَا، وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ فِي الإِنْجَادِ عَلَى وَاجِبَاتِ حُقُوقِهَا وَمَفْرُوضَاتِهَا، حُكْمٌ مُلْتَزَم وَعَمَلٌ مُغْتَنَم، وَشَيْءٌ يَعْجِزُ عَنْ تَقْرِيرِ [الوَاجِبِ][2] فِيهِ [الطِّرْسُ][3] وَالقَلَم. واللهُ يُعِينُهُ عَلَى مَا يُزْلِفُ مِنْ رِضَاهَا وَيَحْظَى بِرُحْمَاهَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ تَأْيِيدَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَأَدَامَ أَيَّامَهَا، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ رِضَا اللهِ تَعَالَى أَغْلَى مَا تَنَافَسَ فِيهِ المُتَنَافِسُونَ، وَأَوْلَى مَا عَمِلَ لِمِثْلِهِ العَامِلُون، وَكَانَ أَقْرَبَ الطُّرُقِ المُوصِلَةِ إِلَيْهِ العُكُوفُ عَلَى خِدْمَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ أَوْ مُرَاعَاتِهَا بِالاجْتِهَادِ فِي العَمَلِ وَالإِخْلَاصِ فِي النِّيَّةِ. كَانَ مَنْ قَطَعَ فِي ذَلِكَ أَيَّامَهُ، وَجَعَلَهُ افْتِتَاحَ عَمَلِهِ وَاخْتِتَامَهُ، جَدِيراً بِإِحْرَازِ السَّعْدِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاهُ، وَخَلِيقاً بِحُسْنِ الذِّكْرِ فِي حَالَتَيْ مَمَاتِهِ وَمَحْيَاه.

وَقَدْ نُعِيَ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَمَمْلُوكُهَا الشَّيْخُ القَائِدُ الأَكْرَمُ بْنُ الشَّيْخِ القَائِدِ الأَكْرَمِ أَبِي يَحْيَى بْنِ مُثَنَّى رَحِمَهُ اللهُ وَنَفَعَه. وَقَدْ كَانَ لَهُ مِنَ الخِدْمَةِ القَدِيمَةِ، وَالسَّابِقَةِ الكَرِيمَةِ، مَا دَرَجَ بِهِ رَحِمَهُ اللهُ وَافِرَ الحَظِّ مِنْ حُسْنَاهُ، [مَقْبُوضاً][4] بِمَا خَوَّلَهُ اللهُ فِيهِ مِنْ إِرْضَاءِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَأَوْلَاهُ، وَكُل مَا يُسْعِدُ اللهُ بِهِ عَبِيدَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مِنْ [سَرَائِرِ][5] الأَحْوَالِ وَسَائِرِ الأُمُورِ، وَيَتَقَرَّبُونَ بِهِ مِنَ العَمَلِ المَبْرُورِ، وَالسَّعْيِ المَشْكُورِ، وَيَتَقَلَّبُونَ فِيهِ مِنَ المَوْتِ وَالحَيَاةِ أَوِ الأَسْرِ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ وَالشُّهُورِ

(1) الطارف والتالد: يقصد بهما القديم والجديد من النعم.
(2) خرم بالأصل.
(3) خرم بالأصل.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.



وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ القُدْسِيَّةُ المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورَةُ العَلِيَّةُ المُبَارَكَةُ الطَّاهِرَةُ الزَّكِيَّةُ. حَضْرَةُ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَالفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالامْتِنَانِ، حَضْرَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ المُرْشِدِينَ. أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهَا وَأَعْلَى أَعْلَامَهَا، وَحَرَسَ عَلَى العِبَادِ وَالبِلَادِ مَقَامَهَا، وَأَبْقَى بَرَكَتَهَا الَّتِي لَمْ تَزَلْ يَتَوَارَثُهَا الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ وَإِنْعَامَهَا.

عَبْدُهَا النَّاشِيءُ فِي ظِلِّهَا المَدِيدِ، المُتَقَلِّبُ فِي نِعَمِهَا الشَّامِلَةِ لِلْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالقَرِيبِ وَالبَعِيدِ، المُتَقَرِّبُ إِلَى مَتِينِ الانْقِطَاعِ إِلَى خِدْمَتِهَا بِمَا يَتَقَرَّبُ بِهِ نُصَحَاءُ المَمَالِيكِ وَخُلْصَانُ العَبِيدِ، المُتَسَلِّي بِوِرَاثَةِ رِضَاهَا وَاسْتِيفَاءِ رُحْمَاهَا عَنْ كُلِّ فَقِيدٍ. عَبْدُهَا عُثْمَانُ بْنُ عَبْدِهَا إِبْرَاهِيم. سَلَامُ اللهِ الكَرِيمِ المُتَوَالِي، إِلَى مَقَامِهِ الكَرِيمِ المُتَعَالِي وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الحَيِّ الدَّائِمِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلَا يَفْنَى، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ المُبْتَعَثِ إِلَى الأَبْعَدِ وَالأَدْنَى، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ، المَهْدِيِّ المَعْلُومِ، وَارِثِ شَرَفِهِ الأَسْنَى، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بالنَّصْرِ الأَغَرِّ فِي كُلِّ مَرْمَى وَالصُّنْعِ الجَمِيلِ فِي كُلِّ مَعْنَى. وَبَعْدَمَا يَجِبُ أَيْضاً فِي الإِنْتِهَاءِ وَالإِبْتِدَاءِ، مِنَ الإِيرَادِ لِوَاجِبِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَالأَدَاءِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ فِي العَمَلِ الكَفِيلِ بِالتَّقْرِيبِ إِلَيْهَا وَالإِدْنَاءِ.

فَكَتَبَ العَبْدُ المَمْلُوكُ، كَتَبَ اللهُ لِحَضْرَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا حِرَاسَةَ أَنْوَارِهَا البَاهِرَةِ، كَمَا جَعَلَ طَاعَتَهَا سَعَادَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ حَرَسَهَا اللهُ وَلِلرَّحْمَةِ الإِمَامِيَّةِ - أَدَامَهَا اللهُ - أَهْمَى مَصَاب، وَفِي الحَضْرَةِ العَالِيَةِ - خَلَّدَهَا اللهُ - العِوَضُ مِنْ كُلِّ فَائِتٍ وَبِهَا العَزَاءُ مِنْ كُلِّ مُصَاب. واللهُ يَحْرُسُ أَرْجَاءَهَا، وَيَحْفَظُ لِوَاءَهَا، وَقَدْ نَفَذ قَضَاء اللهِ وَقَدَرُه، بِوَفَاةِ عَبْدِهَا النَّاصِحِ وَمَمْلُوكِهَا المُخْلِصِ أَبِي عَبْدِهَا رَحِمَهُ اللَّهُ وَنَفَعَهُ بِمَا أَسْلَفَ مِنْ نَصِيحَةٍ وَخِدْمَةٍ خَالِصَةٍ صَحِيحَةٍ يَوْم الأَرْبِعَاءِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ شَعْبَانَ المُؤَرَّخِ بِهِ هَذَا الكِتَاب.



وَكَانَ كَتْبُ العَبْدِ لِهَذِهِ الحُرُوفِ بِدَاراً إِلَى التَّعْرِيفِ، وَاسْتِيهَابا لِلدُّعَاءِ الإِمَامِيِّ المَقْبُولِ الشَّرِيفِ، عِنْدَ الانْفِضَاضِ مِنَ الدَّفْنِ ضُحَى يَوْمِ الخَمِيسِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ. وَهَنِيئًا لَهُ أَنْ مَاتَ سَعِيداً بِمَا وَدَّى مِنَ النَّصِيحَةِ فِي خِدْمَةِ أَوَامِرِهَا العَالِيَةِ، وَبِمَا بَذَلَ فِي طَاعَتِهَا وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهَا مِنَ النِّيَّةِ الخَالِصَةِ وَالأَعْمَالِ المُتَوَالِيَةِ. فَإِنَّ مَنْ كَانَ يَجْتَهِدُ فِي تِلْكَ اجْتِهَادَه، فَقَدِ اسْتَأْثَرَ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ مِهَادَه، وَقَدْ وَدَّى رِبَاطَهُ وَجِهَادَه. وَمَنْ قَدَّمَ مِنْ رِضَا الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ زَادَه، فَقَدْ فَازَ بِالسَّعَادَةِ وَدَرَجَ عَلَى خَيْرِ عَمَلٍ يَحْظَى بِالحُسْنَى عِنْدَ اللهِ وَالزِّيَادَة[1]. وَحَسْبُ مَنْ تَرَكَ بَعْدَهُ مِنْ بَنِينَ وَكَافَّةِ ذَوِيهِ عَبِيدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَأَرْجَائِهَا، بِمَا هُوَ حَسْبُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مِنْ بَقَائِهَا. فَإِنَّ مَنْ فَقَدَ مَا عَسَى [أَنْ يَفْقِد][2] مِنْ سَادَتِهِ وَمَوَالِيهِ الأَعِزَّةِ عَلَيْهِ وَبَقِيَ لَهُ سَيِّدُنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةُ الإِمَامُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ الذِي يُرْغَبُ إِلَى اللهِ فِي طُولِ بَقَائِهِ وَتُمَدُّ أَيْدِي الضَّرَاعَةِ فِيهِ إِلَيْهِ فَقَدْ بَقِيَ لَهُ الظِّلُّ المَدِيدُ والحرمُ الآمِنُ، وَالرُّكْنُ الشَّدِيدُ، وَالمَوْلَى المُنْعِمِ العَمِيمِ، وَالمَلَاذُ الرَّؤُوفُ الرَّحِيم، وَجَنَاحُ الرَّحْمَةِ المَنْشُور، وَالمَلْجَأُ المُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ الأُمُورِ، وَأَخْلِقْ بِمَنْ بَقِيَ لَهُ مَعْهُودُ الالْتِفَاتِ الإِمَامِيِّ، وَالنَّظَرِ الكَرِيمِ العَالِي، أَلَّا يَفْنَى عَلَيْهِ طَرِيقُ السُّلْوَان، وَإِنْ قَرَأَ صَحِيفَةَ الصَّبْرِ الجَمِيلِ مِنْ هَذَا الزَّمَان.

وَسَلَامُ اللهِ الكَرِيمِ الطَّيِّبِ المُبَارَكِ العَمِيمِ يَخُصُّ حَضْرَةَ التَّمْجِيدِ وَالتَّعْظِيمِ كَثِيراً أَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الأَعَزُّ المُكْرَمُ، الأَسْنَى، الوَلِيُّ، الأَثِيرُ، الأَوَدُّ، الأَخَصُّ، الأَزْكَى، الأَفْضَلُ، الأَسْرَى، أَبُو سَعِيدِ بنِ الشَّيْخِ المَرْحُومِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المَرْحُومِ أَبِي إِسْحَاقَ، أَدَامَ اللهُ عِزَّتَهُ، وَفَسَحَ فِي السَّعَادَةِ مُدَّتَهُ، مُعَظِّمُ قَدْرِهِمْ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. سورة: يونس الآية: 26.

(2) خرم بالأصل.



[اللَّائِذُ][1] بِجَانِبِهِمْ المُؤْثِرُ لَهُمْ الحَفِيُّ بِهِمْ، المُخْلِصُ فِي حُبِّهِمْ عُثْمَانُ بن السَّيِّدِ أَبي إِسْحَاقَ بنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ سَلَامٌ كَرِيمٌ عَمِيمٌ يَخُصُّكُمْ كَثِيراً، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ فَكَتَبَ مُعَظِّمُكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ إِطَالَةَ البَقَاءِ، وَإِدَامَةَ العَلَاءِ، مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ حَرَسَهَا اللهُ [وَالبَرَكَاتُ الإِمَامِيَّةُ][2] - أَدَامَهَا اللهُ - سُوَرٌ مَتْلُوَّةٌ، وَالحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ - أَيَّدَهَا اللهُ - لِتَفْرِيجِ الغَمَّاءِ فِي كُلِّ حِينٍ مَرْجُوَّة. وَالحَمْدُ للهِ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ.

وَقَدْ حَدَثَ لِمُحِبِّكُمْ، وَمُجِلِّ قَدْرِكُمْ، وَمُعَظِّمِكُمْ الوَالِدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وَنَضَّرَ وَجْهَهُ، حَادِثُ المَوْتِ الذِي لَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَا مَحِيدَ لِمَخْلُوقٍ عَنْهُ فِي يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ.

وَكَتَبَ هَذَا الكِتَابَ مُعَظِّمُكُمْ المُجِلُّ لِقَدْرِكُمْ إِثْرَ الانْفِضَاضِ مِنْ دَفْنِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ضُحَى يَوْمِ الخَمِيسِ السَّابِعِ مِنَ الشَّهْرِ. وَخَاطَبَ مُعَظِّمُكُمْ صُحْبَةَ هَذَا مُعَرِّفاً بِذَلِكَ مَقَامَ الإِمَامَةِ العَالِيَةِ حَرَسَ اللهُ نُورَهَا وَأَنْتُمْ الرِّدَاءُ الأَكْرَمُ، وَالوَسَاطَةُ الجَمِيلَةُ وَالسَّنَدُ الأَقْوَمُ. وَتَعْلَمُونَ مَا دَرَجَ عَلَيْهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِنَ الإِخْلَاصِ فِي وُدِّكُمْ، وَالشُّكْرِ لِجَمِيلِ غَرَضِكُمْ وَقَصْدِكُمْ، وَإِنَّ مُعَظِّمَكُمُ لَعَلَى [سَنَنٍ][3] مِنْ أَبِيهِ فِي ذَلِكُمْ، وَبِالاسْتِظْهَارِ لِكَرَمِ خِلَالِكُمْ وَالاعْتِمَادِ عَلَى مَا يَكُونُ مِنْ جَمِيلِ تَهَمُّمِكُمْ وَاهْتِبَالِكُمْ.

وَإِنَّ هَذَا الرُّزْءَ - أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ - وَإِنْ جَلَّ، فَإِنَّ المَسْلَاةَ عَنْهُ كَوْنُهُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَدْ دَرَجَ عَلَى أَفْضَلِ الأَحْوَالِ مِنْ رِضَا الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ، وَعَلَى أَصْلَحِ الأَعْمَالِ مِنَ النَّصِيحَةِ فِي خِدْمَةِ الأَوَامِرِ العَلِيَّةِ، وَفِي بَقَاءِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ - أَيَّدَهَا اللهُ - مَا يُحْسِبُ العَمَلَ، وَيُكْسِبُ الصَّبْرَ الأَجْمَلَ، واللهُ لَا يُضْحِينَا مِنْ ظِلِّهَا الوَارِفِ المَدِيدِ، وَلَا يُخْلِينَا مَعْشَرَ أَرِقَّائِهَا المُتَسَلِينَ بِبَقَائِهَا مِنْ فَضْلِهَا الشَّامِلِ لِكَافَّةِ العَبِيدِ. وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ،

(1) خرم بالأصل.
(2) خرم بالأصل.
(3) خرم بالأصل.



رِضـاً بِحُلْوِ القَضَاءِ وَمُرِّهِ، وَتَفْوِيضاً لِحُكْمِ اللهِ وَتَسْلِيماً لأَمْرِهِ. واللهُ يَجْعَلُنَا مِنَ المَوْتِ عَلَى حَذَر، وَيَقْضِي لِلْجَمِيعِ فِي كُلِّ حَالٍ وَاسْتِقْبَالٍ بِأَسْعَدِ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، واللهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلاَءَكُمْ، وَيَشْكُرُ وَلاَءَكُمْ، وَيُطِيلُ فِي أَمَانٍ مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَانِ بَقَاءَكُمْ، وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً: أُعَزِّي الشَّيْخَ الفَقِيهَ الخَطِيبَ الحَسِيبَ الأَفْضَلَ أَبَا مَرْوَان البَاجِي[1] - أَدَامَ اللهُ عُلَاه - عِنْدَ وُرُودِهِ مِنْ حَضْرَةِ الإِمَامَةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- فِي أَخِيهِ الشَّيْخِ الفَقِيهِ القَاضِي الخَطِيبِ أَبِي عَبْدِ اللهِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

قُدُومُكَ أَيُّهَا الحَبْرُ الرَّفِيعُ ... أَعَادَ الأُنْسَ فَابْتَهَجَ الجَمِيعُ
وَأَضْحَتْ حِمْصُ[2] مُشْرِقَةَ النَّوَاحِي ... بِوَجْهِكَ حِينَ حَانَ لَهَا طُلُوعُ
وَفَاحَتْ أَرْضُهَا بِشَذَاكَ حَتَّى ... كَأَنَّ تُرَابَهَا مِسْكٌ يَضُوعُ
وَأَيْنَعَتِ الأَزَاهِرُ وَهْوَ صَيْفٌ ... كَأَنَّكَ إِذْ أَتَيْتَ أَتَى الرَّبِيعُ
وَحُقَّ بِأَنْ نَطِيرَ بِكُمْ سُرُوراً ... فَإِنَّكَ لِلْوَرَى الرُّكْنُ المَنِيعُ
خُلِقْتَ لِمَلْكِ أَفْئِدَةِ البَرَايَا ... فَأَنْتَ لِكُلِّ ذِي أَمَلٍ شَفِيعُ
لَكَ الذِّكْرُ الجَمِيلُ بِكُلِّ أَرْضٍ ... بِأَخْلَاقٍ لَهَا حُسْنٌ بَدِيعُ
لَكَ الدِّينُ المَتِينُ لَكَ المَعَالِي ... لَكَ التَّحْصِيلُ وَالحَسَبُ الرَّفِيعُ
وَمَا جَارَاكَ فِي شَأْوٍ خَطِيبٌ ... فَإِنَّكَ وَحْدَكَ ظَالِعٌ الظَّلِيعُ
لَكَ الصَّدْرُ الرَّقِيبُ لِكُلِّ خَطْبٍ ... إِذَا مَا ضَاقَ بِالخَطْبِ الهَلُوعُ
وَفِي مَوْتِ الرَّسُولِ لَنَا تَعَزٍّ ... إِذَا مَا نَابَنَا خَطْبٌ فَظِيعُ

---

(1) أبو مروان الباجي عالم أندلسي مشهور شرقت كتبه وغربت له مناظرات عدة مع فقهاء الأندلس وكبار علمائها.

(2) يقصد بحمص: مدينة إشبيلية التي كان الباجي ينتسب إليها.



عَلَــى أَنَّ المُــصَابَ بِــلَا امْتِــرَاءٍ ... بِفَقْــدِ أَخِــيكُمُ جَلَــلٌ شَــنِيعُ
وَأَضْـحَى النَّـاسُ يَوْمَئِـذٍ جَمِيعـًا ... وَشَـمْلُ سُـرُورِهِمْ بَـدَدٌ صَـدِيعُ
وَنَــادَى الــدِّينُ: وَالهْفِــي عَلَيْــهِ ... أَرَى التَّقْـوَى خَلَـتْ مِنْهَـا الرُّبُــوعُ
لَقَــدْ رَاعَــتْ رَزِيَّتُــهُ البَرَايَــا ... فَلَــمْ يَـسْلَمْ لِـذَاكَ الـرَّوْعِ رُوعُ
تُــذَكِّرُنَا اللَّيَــالِي ثُــمَّ نَلْهُــو ... وَنَــأْمَنُ وَالمَنُــونُ بِهَــا تَــرُوعُ
وَنَعْلَــمُ أَنَّ أَشْــرَاكَ المَنَايَــا ... لَنَــا فِيهَــا بِــلَا شَــكٍّ وُقُــوعُ
أَبُــو عَبْــدِ الإِلَــهِ مَـضَى حَمِيــداً ... وَمَــا قَــدْ فَــاتَ لَـيْسَ لَـهُ رُجُـوعُ
سَـقَى جَـدَثـًا أَقَـامَ بِـهِ مُلِـثٌّ[1] ... لِأَدْمُعِــهِ مَــدَى الــدُّنْيَا هُمُــوعُ
وَمَــا يَحْوِيــهِ مِــنْ قَبْــرٍ وَلَكِــنْ ... أَكَنَّتْــهُ مِــنَ النَّــاسِ الــضُّلُوعُ
مَضَى البَاجِي [فَنَادَى][2] آلُ حِمْصٍ: ... لَقَــدْ ذَهَــبَ التَّوَاضُــعُ وَالخُـشُوعُ
هَــدَانَا اللهُ لِلتَّقْــوَى وَإِنَّــا ... لَنَــا فِـي حَـوْضِ غَفْلَتِنَـا كُـرُوعُ[3]
وَيُوقِظُنَــا الحِمَــامُ بِكُــلِّ حِـينٍ ... وَنَحْــنُ لِطُــولِ غَفْلَتِنَــا هُجُــوعُ
إِذَا سَــهْمُ المَنِيَّــةِ سَــدَّدَتْهُ ... فَــلَا تُغْنِـي الجَوَاشِـنُ[4] وَالـدُّرُوعُ
فَكَــمْ أَبْكِــي عَلَيْــهِ بِكُــلِّ دَمْــعٍ ... وَلَا تُجْــدِي عَلَــى مَيْــتٍ دُمُــوعُ
وَصَــلَّى اللهُ فِــي مُــسْيٍ وَصُـبْحٍ ... عَلَــى قَبْــرٍ بِــهِ الــصِّنْوُ الرَّفِيــعُ

---

(1) لم يتبين لي معنى هذا الشطر!!.
(2) خرم بالأصل.
(3) يقال كرع من البئر شرب منه بنهم مرة بعد أخرى.
(4) الجواشن: مفردها جوشن وهو الدرع أوما يلبس الفارس من السلاح. قال الشاعر:
فَكَــرَّ يَمْــشُقُ طَعْنـًا فِــي جَوَاشِــنِهَا ... كَأَنَّــهُ الأَجْــرُ فِــي الإِقْبَــالِ يُحْتَــسَبُ



وَمَــدَّ اللهُ عُمْــرَكَ فِــي سُــرُورٍ ... وَدَامَ لِمَجْــدِكَ المَجْــدُ المَنِيــعُ
فَمَــا فُقِــدَتْ مَعَــالٍ أَنْــتَ فِينَــا ... خَلِيفَتُهَــا وَدَاعِيهَــا الــسَّمِيعُ[1]

يَا سَيِّدِي الأَمْجَد، وَعِمَادِيَ الأَوْحَد، أَطَالَ اللهُ بَقَاءَكُمْ وَحَفِظَ حَوْبَاءَكُمْ[2] وَحَرَسَ مِنَ الغِيَرِ أَرْجَاءَكُمْ، وَضَاعَفَ سَعْدَكُمْ وَعَلَاءَكُمْ، وَأَحْسَنَ عَلَى المُلِمِّ وَالرُّزْءِ المُدْلَهِمِّ عَزَاءَكُمْ، وَأَجْزَلَ ثَوَابَكُمْ بِالصَّبْرِ الجَمِيلِ وَجَزَاءَكُمْ، فَأَحْكَامُ اللهِ سُبْحَانَهُ تُنَفَّذُ كَمَا شَاءَ فِي القِدَم، وَتَعْدَمُ بَعْدَ الوُجُودِ كَمَا أُوجِدَتْ بَعْدَ العَدَم، فَمَنْ رَضِيَ بِالقَضَاءِ سَلِمَ مِنْ زَلَّةِ القَدَم، وَمَنْ لَمْ يُفَوِّض إِلَى اللهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعَضَّ بِنَابِهِ[3] مِنَ النَّدَمِ[4]، وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتَكُمْ بِشَأْنِهَا، وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِهَا، لَمْ تَرُعْ حَادِثَةٌ مِنَ الحَوَادِثِ سِرْبَه، وَلَمْ تُكَدِّرْ كَارِثَةٌ مِنَ الكَوَارِثِ شِرْبَه، لِعِلْمِهِ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلْفَنَاءِ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى العَنَاء، مَمَرٌّ لِمَنْ عَبَر، وَعِبْرَةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، لَا تَهَبُ، إِلَّا رَيْثَمَا تَنْهَب، وَلَا تَسُرُّ إِلَّا وَتَضُرُّ، وَلَا تَحْلُو إِلَّا وَتَمَرُّ، خَيْرُهَا إِلَى انْقِطَاعٍ وَانْقِرَاضٍ، وَشَرُّهَا لَا يُرَدُّ بِدِفَاعٍ وَلَا يُدْفَعُ بِاعْتِرَاضٍ. وَإِنْ كَانَ [درَجَ][5] أَخُوكُمْ -وَسَيِّدِي كَانَ- رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَدَّسَ رُوحَهُ، وَبَرَّدَ ضَرِيحَهُ، وَكَرَّمَ مَثْوَاهُ، وَجَعَلَ الجَنَّةَ مَأْوَاهُ، وَتِلْكُمْ رَزِيَّةٌ تَقْرِحُ القَلْبَ، وَتَمْنَعُ الصَّبْرَ وَتَمْنَحُ الكَرْبَ، وَتَحْتَدِمُ لَهَا الضُّلُوعُ بِحَسَرَاتِهَا، وَتَجُودُ لَهَا العُيُونُ بِعَبَرَاتِهَا، وَتَتَقَطَّعُ الأَكْبَادُ، وَتُفَتُّ الأَعْضَاد. فَقَدْ دَرَجَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى خَيْرِ عَمَلِهِ، مُبَلَّغًا مِنْ رِضَا اللهِ - بِفَضْلِ اللهِ - غَايَةَ أَمَلِهِ، وَقَدِ اخْتَارَ اللهُ لَهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرِّضْوَانِ، وَسُكْنَى الجِنَان، وَشَتَّانَ بَيْنَ مُجَاوَرَةِ الخَلْقِ، وَمُجَاوَرَةِ الرَّحْمَانِ. وَلَنَا فِي مَوْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُصْطَبَر، وَفِي مَنْ مَضَى مِنَ

---

(1) الأبيات من الوافر.
(2) الحوبة: كل ذي قرابة من قبل الأم، وكذلك كل ذي رحم محرم.
(3) المقصود بنابه هنا: بسنه وقد تؤول وتقرأ بنانه أي أصبعه.
(4) مقتبس من قول الشاعر:
لَتَقْــرَعَنَّ عَلَــيَّ الــسِّنَّ مِــنْ نَــدَمٍ ... إِذَا تَــذَكَّرْتَ يَوْمــاً بَعْــضَ أَخْلَاقِــي
(5) خرم بالأصل.



السَّلَفِ بَعْدَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُعْتَبَر، وَفِي البَاقِينَ آيَةٌ صَادِقَةٌ وَخَبَر، واللهُ [يَعِدُ][1] كُلَّ ذِي رُوحٍ بِالزَّوَالِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ﴾[2] وَقَدْ أَعَدَّ اللهُ للصَّابِرِينَ جَزِيلَ الثَّوَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

فَلْنَرْغَبْ فِي الجَزِيلِ وَهُوَ الأَجْرُ، وَلْنَذْهَبْ إِلَى الجَمِيلِ وَهُوَ الصَّبْر، وَلْنَقُلْ ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[4] تَسْلِيماً لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه، وَرِضا بِمَا شَاءَ سُبْحَانَهُ فِي وِرْدِ كُلِّ أَمْرٍ وَصَدَرِه، وَإِنْ كَانَ ذَهَبَ الأَكْبَرُ سِنّاً، فَقَدْ بَقِيَ مِنْكُمُ الأَكْبَرُ قَدْراً، وَالأَنْوَرُ فِي سَمَاءِ المَعَالِي شَمْساً وَبَدْراً، وَالمُقَدَّمُ فِي عِظَمِ الفَضَائِلِ، وَحُلْوِ الشَّمَائِلِ صَدْرا، وَإِنْ كَانَ رَحَلَ الأَقْدَمُ مِيلَاداً فَقَدْ أَقَامَ الأَعْظَمُ جَاهاً وَالأَرْفَعُ مِهَاداً، وَقَدْ أَسْلَى عَنْ فَقْدِ الغَارِبِ بِبَقَاءِ السَّنَام، وَعَنْ هَضَبَاتِ نَجْدٍ بِهِضَابِ شَمَام، وَقَدْ [...] اللهُ لَنَا وَالحَمْدُ للهِ سُبْحَانَهُ عَنِ الصَّمْصَام. واللهُ يُمَتِّعُ المَجْدَ بِكُمْ وَبِبَقَائِكُمْ وَيُبْقِيكُمْ لِلآمِلِينَ عِمَاداً رَفِيعاً، وَرُكْناً مَنِيعاً.

وَأَمَّا مَا عِنْدِي -أَدَامَ اللهُ عِزَّكُمْ- مِنَ المُشَاطَرَةِ لَكُمْ فِي الفَرَحِ وَالتَّرَح، وَالمُشَارَكَةِ لَكُمْ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَمَا هُوَ إِلَّا مَنْ مَلَكَتْهُ أَيَادِيكُمُ البِيضُ، وَغَمَرَهُ بَحْرُ فَضْلِكُمُ الذِي لَا يَغِيضُ، وَمَنْ قَدَرَ قَدْرَكُمُ الكَبِيرَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَعَرَفَ مَجْدَكُمُ الأَثِيرَ عَشَا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ، وَسَارَ إِلَى نُورِ أَنْوَارِه، واللهُ يُوزِعُ شُكْرَ فَضْلِكُمُ الأَوَّلِ وَالآخِرِ، وَيُهَنِّيكُمْ مَا خَوَّلَكُمْ مِنَ المَحَامِدِ وَالمَفَاخِرِ، وَيُبْقِيكُمْ زَيْناً لِلْمَحَافِلِ وَالمَحَاضِرِ، وَشَرَفاً تَطُولُ بِهِ ذُؤَابَاتُ المَنَابِرِ وَالسَّلَامُ.

---

(1) خرم بالأصل.
(2) سورة الرحمن، الآيتان: 24- 25.
(3) سورة الزمر، الآية: 11.
(4) سورة البقرة، الآية: 155.



وَكَتَبْتُ فَصْلاً مِنْ تَعْزِيَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا المُعَظَّمِ الفَاضِلِ عَلَى الإِطْلَاقِ الزَّاكِي الطِّبَاعِ وَالأَخْلَاقِ أَبِي مُوسَى بْنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَنَفَعَهُمْ بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْهُمْ:

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الأَعْلَى الذِي شُهِرَتْ ... مِنْهُ الدِّيَانَةُ فِي أَقْصَى قُرَى الصِّينِ
مَاذَا يَقُولُ المُعَزِّي وَهْوَ مُقْتَبِسٌ ... مِنْ نُورِ عِلْمِكَ يَاذَا الفَضْلِ وَالدِّينِ
لَكَ الثَّوَابُ إِذَا مَا كُنْتَ مُحْتَسِباً ... فَلَا تَكُونَنَّ فِي حَالٍ بِمَحْزُونِ
فَالصَّبْرُ لِلأَجْرِ عِنْدَ المُشْتَرِي ثَمَنٌ ... وَلَيْسَ مَنْ يَشْتَرِي الأَرْضَ بِمَغْبُونِ
وَمَنْ لَهُ السَّنَنُ الأَعْلَى الذي لَكُم ... يُحْيِي بِهِ كُلَّ مَفْرُوضٍ وَمَسْنُونِ
مَا مَاتَ مَنْ أَنْتُمُ البَاقُونَ بَعْدَهُمُ ... وَسَائِرُ السَّادَاتِ الغُرِّ المَيَامِينِ
وَإِنَّمَا ظَفِرَتْ أَيْدِي المَنُونِ بِهِ ... لِكَيْ تَفُوزَ بِأَجْرٍ غَيْرِ مَمْنُونِ[1]
واللهُ يُبْقِيكَ لِلْبَاقِينَ مُعْتَمَداً ... وَيَحْرُسُ الكُلَّ فِي عِزٍّ وَتَمْكِينِ

وَإِنَّ العَبْدَ لَيَرْثِي المَجْدَ الأَثِيل، وَيَبْكِي البُكْرَةَ وَالأَصِيلَ، مُذْ سَمِعَ أَنَّ حَضْرَتَكُمُ العَلِيَّةَ فَقَدَتْ نَجْلَهَا الكَرِيمَ وَفَرْعَهَا الجَلِيل، السَّيِّدَ المُبَارَكَ المَرْحُومَ أَبَا مُحَمَّدٍ جَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِ رَحْمَتَهُ وَرِضْوَانَه، وَأَسْكَنَهُ جِنَانَه. فَيَالَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ مَا أَوْجَعَهَا، وَأَحْزَنَ القُلُوبَ بِهَا وَأَفْجَعَهَا، أَمَا إِنَّهُ لَوْ قُبِلَ الفِدَاء [لَفُدِيَ] مِنْ أَرْوَاحِ النَّاسِ بِكُلِّ رُوح، وَلَوْ نَفَعَ البُكَاءُ لَأَحْدَثَتِ الدُّمُوعُ طُوفَاناً كَطُوفَانِ نُوح، وَلَكِنَّ الصَّبْرَ مَأْمُورٌ بِهِ، وَالأَجْرَ مَرْبُوطٌ بِسَبَبِهِ، وَالمُصِيبَةَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَزَّتِ النَّاسَ فِي مَصَائِبِهِمْ مَن بَعْدِه، فَقْدُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنْذِر بِذَهَاب كُلِّ مَحْبُوبٍ وَفَقْدِه. فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ تَسْلِيماً وَتَفْوِيضاً، وَرَجَاءً فِي أَنْ يُنْعِمَ اللهُ رُوحَه ويَحلَّها في اللَّحْدِ تَرْوِيضاً، وَيُعَوِّضَ فَاقِدِيهِ بِجَمِيلِ الصَّبْرِ جَزِيلَ الصَّبْرِ تَعْوِيضاً.

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾. سورة فصلت، الآية: 7، الانشقاق، الآية:25، التين، الآية: 6.



وَمَنْ رَزَقَهُ اللهُ مَا رَزَقَ حَضْرَتَكُمْ، لَمْ يَجْتَلِبْ فِي تَعْزِيَةِ الرَّسَائِلِ وَالأَشْعَار، وَالمَعْنَى المُتَخَيَّلِ وَاللَّفْظِ المُسْتَعَارِ، بَلْ بِهِ الاقْتِدَاءُ وَالابْتِدَاءُ، وَمِنْهُ يُتَعَلَّمُ الصَّبْرُ وَالعَزَاءُ. وَفِي بَقَاءِ سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، مَا يُحْيِي نُفُوسَ المُحِبِّينَ وَيخلفُ كُلَّ فَقِيد، فَهُوَ الجُلُّ وَالكُلُّ، وَالفَيْءُ المَمْدُودُ وَالظِّلُّ، واللهُ يَحْرُسُ أَنْوَارَكُمْ، وَيُحْسِنُ عَزَاءَكُمْ، وَيَجْعَلُ الجَنَّةَ التِي أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ[1] جَزَاءَكُمْ. وَالسَّلاَمُ.

وَلَمَّا نَفَذَ قَضَاءُ اللهِ بِوَفَاةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا المُعَظَّمِ الفَاضِلِ المَرْحُوم أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَتَيْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُمْ [وَجعَلَ الجَنَّةَ مَلاَذَهُمْ وَمَأْوَاهُمْ] وَنَفَعَهُمْ بِمَنْزَعِهِمْ الصَّالِحِ وَمَنْحَاهُمْ: قُمْتُ عَلَى قَبْرِهِمْ -رَوَّضَهُ اللهُ- يَوْمَ السَّبْتِ ثَالِثِ دَفْنِهِمْ إِذْ كَانَ دَفْنُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ضُحَى يَوْمِ الخَمِيسِ السَّابِعِ وَعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ فَأَنْشَدْتُ لِنَفْسِي[2]:

سُلِبَ العَزَاءُ فَكُلُّنَا مَحْزُونُ ... خَطْبٌ تَهُونُ لَهُ الخُطُوبُ الجُونُ
تَبْكِي السَّمَا وَالأَرْضُ فِيهِ تَفَجُّعاً ... وَيَبِيتُ يَشْكُوهُ التُّقَى وَالدِّينُ
لَبِسَتْ لَهُ سُحْبُ السَّمَاءِ حِدَادَهَا ... فَالرَّعْدُ فِيهَا زَفْرَةٌ وَأَنِينُ
وَمَتَى هَمَا صَوْبُ الغَمَامِ فَإِنَّهُ ... دمْعٌ عَلَى فَقْدِ الهُمَامِ هَتُونُ
وَمَتَى تَحَرَّكَتِ الغُصُونُ فَإِنَّمَا ... لَطَمَتْ عَلَيْهِ خُدُودَهُنَّ غُصُونُ
وَعَلَيْهِ نَاحَتْ فِي الأَرَاكِ حَمَائِمٌ ... هَاجَتْ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ شُجُونُ
سَلْ بِالبَسِيطَةِ هَلْ تَمِيدُ بِأَهْلِهَا ... تُخْبِرْكَ مِنْهَا سَهْلَةٌ وَحَزُونُ
إِنَّ البِلاَدَ تَزَلْزَلَتْ فَكَأَنَّمَا ... أَلْقَى ذُهُولاً مَا عَلَيْهِ النُّونُ[3]

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.
وقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.
وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.
(2) الأبيات من بحر الكامل.
(3) النون: الحوت أو شفرة السيف!!.



يَـا حَـسْرَةً عَظُمَـتْ فَكَانَـتْ غُمَّـةً ... أَضْـحَتْ بِهَـا الأَنْـوَارُ وَهْـيَ دُخُـونُ

بـاللهِ، هَـلْ طَلَعَـتْ لَنَـا شَـمْسُ الضُّحَى ... فِـي يَوْمِنَـا أَمْ نُورُهَـا مَخْبُـونُ(1)

يَـا أَوْحَـدَ الـسَّادَاتِ فَـضْلاً لَـمْ يَـزَلْ ... لِلنَّـاسِ فِيـكَ وَفِـي بَنِيـكَ يَبِـينُ

مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ رَضْوَى [زائل](2)

مَـا كُنْـتُ أَحْـسِبُ أَنَّ البَحْـرَ قَـبْلَكُمْ ... يَجْـرِي عَلَيْـهِ مِـنَ الـصُّخُورِ سَـفِينُ

نَادِيـكَ كَـانَ حُـضُورُهُ بِرِحَالِنَـا ... وَالآنَ [قَلْبِـيَ] مِنِّـي إِلَيْـهِ حَـزِينُ

مَـا أَنْـصَفَ الخُـدَّامُ إِذْ عَاشُـوا وَقَـدْ ... فَقَـدَتْكَ مِـنْهُمْ فِـي الوُجُـودِ عُيُـونُ

يَـا وَحْـشَةَ القَـصْرِ الـذِي أَخْلَيْتَـهُ ... وَلَطَالمـا قَـدْ كُنْـتَ فِيـهِ تَـزِينُ

أَيْـنَ التَّهَلُّـلُ فِـي المَجَـالِسِ مِـنْكُمُ ... يُبْدِيـهِ وَجْـهٌ وَاضِـحٌ وَجَبِـينُ

أَيْـنَ البَلَاغَـةُ... فِـي أَسْـمَاعِنَا ... فَكَـأَنَّ لَفْظَـكَ دُرُّنَـا المَكْنُـونُ

أَيْـنَ القِـرَاءَةُ فِـي مَقَامِـكَ سِـيرَةً ... يَحْيَـى بِهَـا المَفْـرُوضُ وَالمَـسْنُونُ

أَيْـنَ الأَوَامِـرُ مِنْـكَ تَنْفُـذُ بِالَّـذِي ... صَـلُحَتْ بِـهِ الـدُّنْيَا وَتَنَجَّـزَ الـدِّينُ

أَيْـنَ الطَّعَـامُ تُعِـدُّهُ لِجَمَاعَـةٍ ... فَبِـهِ لَهَـا الإِحْـسَانُ وَالتَّحْـسِينُ

فَقَـدُوكَ فَالأَكْبَـادُ مِـنْهُمْ تَـشْتَكِي ... ظَمَـأً وَمَـا لِلـدَّمْعِ مِنْـكَ مَعِـينُ

مَـنْ لِلـصَّلَاةِ يُطِيلُهَـا فِي لَيْلَـةٍ ... وَالنَّـوْمُ مِـنْ كُـلِّ العُيُـونِ مَكِـينُ

مَـنْ لِلنَّـوَالِ يَـسُحُّ فِينَـا غَيْثُـهُ ... حَتَّـى لَيَـسْتَغْنِي بِـهِ المِـسْكِينُ

مَـنْ لِلـصَّنَائِعِ فِـي الأَنَـامِ [تَـسُودُنَا] ... فَتَرُوقُنَـا أَبْكَارُهَـا وَالعُـونُ(3)

---

(1) المخبون: من خبن الشيء يخبنه خبنا أخفاه.

(2) رضوى: جبل معروف ومشهور.

(3) العُون: جمع عَوَان وهي النَّصَفُ من البقر وتستعار للمرأة. قال الشاعر:

تَحُـلُّ سُـهُولَها فَـإِذَا فَزَعْنَـا ... جَـرَى مِـنْهُنَّ بِالآصَـالِ عُـونُ



بُشْرَاكَ مَا قَدْ نِلْتَهُ مِنْ أَجْرِهَا ... رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحُورٌ عِينُ(1)
لَوْ كَانَ يَخْلُدُ فَاضِلٌ لِفَضِيلَةٍ ... لَبَقِيتَ لَمْ يَنْفُذْ لَكَ التَّمْكِينُ
هَيْهَاتَ لَا يَغْتَرُّ بَعْدَكَ فِي الدُّنَا ... إِلَّا الَّذِي هُوَ غَافِلٌ مَفْتُونُ
بُشْرَى لأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا رَحْمَةٌ ... يَبْقَى عَلَيْهَا مِنْ ثَرَاكَ أَمِينُ
فَالأَمْنُ فِيهَا وَالرَّخَاءُ كِلَاهُمَا ... أَبَداً بِحُرْمَةِ قَبْرِكُمْ مَضْمُونُ
يَا ابْنَ الهُمَامِ تَعَزِّياً وَتَجَمُّلاً ... مَا شَاءَ رَبُّكَ فِي الأُمُورِ يَكُونُ
المَرْءُ يَرْجُو أَنْ يَطُولَ بَقَاؤُهُ ... وَالكَافُ تَنْفُذُ حُكْمَهَا وَالنُّونُ(2)
وَمِنَ العَجَائِبِ أَنَّنَا مِنْ مَوْتِنَا ... فِي الشَّكِّ وَهْوَ كَمَا تَرَاهُ يَقِينُ
وَلَوِ البَهَائِمُ مِنْهُ تَعْلَمُ عِلْمَنَا ... مَا كَانَ مِنْهَا فِي الوُجُودِ سَمِينُ
رَصْدُ الحُتُوفِ عَلَى النُّفُوسِ مُوَكَّلٌ
مَنْ بَاعَ أُخْرَاهُ بِدُنْيَاهُ فَقَدْ ... أَضْحَى بِصَفْقَةِ بَيْعِهِ مَغْبُونُ
وَمَتَى الْتَقَى الرَّحْمَانُ فِي أَحْوَالِهِ ... فَالذِّكْرُ يَخْلُو مِنْهُ وَهْوَ دَفِينُ
وَإِذَا الرَّزَايَا لَمْ تَزَلْ مَثْبُوتَةً
مَاتَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى الإِلَـ ... ـهُ عَلَيْهِ وَهْوَ المُصْطَفَى المَيْمُونُ
وَسَبِيلُ كُلِّ تَجَمُّعٍ لِتَفَرُّقٍ ... فَمِنَ التَّحَرُّكِ أَنْ يَكُونَ سُكُونُ
وَبِكَ العَزَاءُ وَبِالهُمَامِ أَخِيكُمُ ... فَالفَضْلُ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ مُبِينُ
يُسْلِيكُمُ أَنَّ الخَلِيفَةَ عَنْكُمُ ... رَاضٍ، وَسَوْفَ تَقَرُّ فِيهِ عُيُونُ
لَا زِلْتُمُ وَالأَمْرُ يُؤْثِرُ رَعْيَكُمْ ... وَالسَّعْدُ فِيكُمْ صَاحِبٌ وَخَدِينُ(3)

---

(1) العين: تطلق على كل ذي عين واسعة ومنها قوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾. وفي الحديث: «إن في الجنة لحور عين».
(2) فيه إشارة إلى قوله تعالى:﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.
(3) الخدن والخدين: الصديق وفي اللسان: الذي يخادنك فيكون معك في كل أمر ظاهر وباطن.



مَــوْلَايَ هَــذِي نَفْثَــةٌ مَــا قُلْتُهَــا ... إِلَّا وَذِهْنِـــي بِالأَسَـــى مَجْنُـــونُ
عُـذْرِي يَلُـوحُ عَلَـى تَبَلُّـدِ خَـاطِرِي ... خَـرِسَ اللِّـسَانُ فَـلَا يَكَـادُ يُبِـينُ
يَـا قَبْـرَ سَـيِّدِنَا الكَـرِيمَ مَـزَارُهُ ... صَـلَّى الإِلَـهُ عَلَيْـكَ فَهْـوَ مَعِـينُ
[وَغَـدَتْ] مَلَائِكَـةُ الـسَّمَاءِ عَلَـيْكُمُ ... تَـصِلُ الـصَّلَاةَ يَؤُمُّهَـا جِبْـرِينُ[1]
مِنَّـا الـسَّلَامُ عَلَـيْكُمُ عَـدَدَ الحَـصَى ... مَـا فَـاحَ عِـرْقٌ [أَنْبَتَـهُ دَرِيــنُ][2]

ثُمَّ قُلْتُ «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون» وَإِنَّا بِكُمْ يَا سَيِّدَنَا لَمَحْزُونُون، وَذَلِكُمْ حُكْمٌ تَعَمَّدَ بِهِ الكَافُ وَالنُّون، مِمَّنْ ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[3] فَنَسْأَلُ اللهَ الَّذِي مَنَحَكُمْ حُبَّه، وَاخْتَارَ لَكُمْ قُرْبَه، أَنْ يُسْكِنَكُمْ جَنَّتَه، وَيُجَدِّدَ عَلَيْكُمْ رِضْوَانَهُ وَرَحْمَتَه، وَيَنْفَعَكُمْ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي العَمَلِ الصَّالِح، وَالمَتْجَرِ الرَّابِح، وَأَنْ يُجَازِيَكُمْ عَنَّا أَفْضَلَ الجَزَاء، عَلَى مَا أَوْلَيْتُمْ مِنَ النَّعْمَاء، وَيُحْسِنَ عَزَاءَ الجَمِيعِ فِيكُمْ وَيُمَتِّعَ السِّيَادَةَ بِبَقَاءِ سَادَاتِنَا الأَكْرَمِين، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

وَبَعْدَ إِنْشَاءِ هَذِهِ القَصِيدَةِ أَشَارَ عَلَيَّ الشَّيْخُ المُوَقَّرُ المُعَظَّمُ أَبُو مُوسَى ابْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المَرْحُومِ أَبِي حَفْصٍ أَدَامَ اللهُ عُلَاهُ بِتَبْدِيلِ بَعْضِ مَعَانِي الأَبْيَاتِ التِّسْعَةِ التِي بَعْدَ البَيْتِ الأَوَّلِ فَأَبْدَلْتُهَا بِهَذِهِ:

تَبْكِـي العُيُـونُ لَـهُ وَحُـقَّ لَهَـا دَمـًا ... وَيَبِيــتُ يَــشْكُوهُ التُّقَــى وَالــدِّينُ
فَجِعَـتْ بِـهِ دَمْـعُ القُلُـوبِ مِـنَ الـوَرَى ... فَلِكُــلِّ قَلْــبٍ زَفْــرَةٌ وَأَنِــينُ
وَلِكُــلِّ عَــيْنٍ زَفْــرَةٌ وَتَفَجُّــعٌ ... دَمْـعٌ عَلَـى فَقْـدِ الهُمَـامِ هَتُـونُ

---

(1) لغة في جبريل.
(2) دارين: منطقة اشتهرت بالطيب والمسك حتى ضرب المثل بها في ذلك، فقيل: «هذا كمسك دارين»، وهي هنا مخففة.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 23.



وَمَتَـى تَحَرَّكَـتِ الغُـصُونُ لِفَقْـدِهِ　　فَكَـأَنَّ أَفْئِـدَةَ الأَنَـامِ غُـصُونُ
سَـلْ بِالبَـسِيطَةِ هَـلْ بِهَـا مِـنْ خَالِـدٍ　　تُخْبِـرْكَ مِنْهَـا سَـهْلَةٌ وَحَـزُونُ
إِنَّ المَنُـونَ تَبَـدَّأَتْ لِجَمِيعِهَـا　　.......... يَمُـوتُ وَتَحْتَـهُ النُّـونُ
يَـا حَـسْرَةً عَظُمَـتْ فَكَانَـتْ عِبْـرَةً　　نَظَـرَتْ بِهَـا الأَيَّـامُ كَيْـفَ تَخُـونُ
لَـوْلَا أُولُـوا الأَمْـرِ الـذِينَ بَقَـوْا　　لَبَـدَتْ ذُكَـاءُ[1] وَنُورُهَـا مَخْبُـونُ

ثُمَّ قُمْتُ عَلَى قَبْرِهِمْ أَيْضاً رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ سَابِعَ يَوْمِ الدَّفْنِ: فَأَنْشَدْتُ لِنَفْسِي أَيْضاً وَدَمْعِي يَفِيضُ فَيْضاً[2]:

قِفُـوا لِـي نَبْـكِ مِـنْ ذِكْـرِ الهُمَـامِ　　وَنُـورِ الفَـضْلِ فِـي أَعْلَـى الـشَّمَامِ
قِفُـوا حَيُّـوا الـضَّرِيحَ مَعِـي اهْتِمَامـاً　　فَقَـدْ أَعْيَـى الـسُّلُوُّ عَلَـى غَرَامِـي
قِفُـوا قَبْـلَ التَّفَـرُّقِ [بِـي] قَلِـيلَا　　أُعَـزِّى المَجْـدَ فِـي فَقْـدِ الكِـرَامِ
أَحَقّـاً تُـسْلِمُونَ كَـذَا عُـلَاهُ　　وَجِيـداً فِي التُّـرَابِ بِـلَا احْتِـشَامِ
وَتَنْـصَرِفُونَ عَنْـهُ وَكَـانَ حَيّـاً　　يُحِـبُّكُمُ وَلَـسْتُمْ بِاللِّئَـامِ
وَلَكِـنْ كُلُّكُـمْ حُـرٌّ وَفِـيٌّ　　رَفِيـعُ القَـدْرِ مَـشْكُورُ المَـرَامِ
أَفِـيكُمْ حَـافِظٌ لِلْعَهْـدِ يَبْكِـي　　عَلَـى قَـدْرِ المَـوَدَّةِ وَالـذِّمَامِ
أَسَـيِّدَنَا، فُجِعْنَـا فِيـكَ طُـرّاً　　بِـسُلْطَانِ الأَسَـى خَلْـفَ احْتِكَـامِ
دُمُـوعُ العَـيْنِ مِنَّـا فِـي انْتِثَـارٍ　　وَحُـزْنُ القَلْـبِ مِنَّـا فِـي انْفِـصَامِ
أَسَـيِّدَنَا أَتَـسْمَعُنِي دَفِينـاً　　فَأَشْـكُو مَـا بِقَلْبِـي مِـنْ سَـقَامِ

(1) ذُكاء: الشمس.
(2) الأبيات من الوافر.



عَزِيـــزٌ إِنَّ وَجْهَـــكَ عَنَّـــا نَـــاءٍ ... بِنَـــادٍ شَـــاقَنِي فِيـــهِ قِيَـــامِي
أَقُـــومُ إِلَـــى رِثَائِـــكَ فِيـــهِ حُزْنـــاً ... فَكَـــمْ لِـــي امْتِـــدَاحِكَ مِـــنْ مَقَـــامِ
فَيَـــا قُـــرْبَ انْتِقَـــالِ الحَـــالِ عَنِّـــي ... كَـــأَنِّي قَـــدْ رَأَيْتُـــكَ فِـــي مَنَـــامِي
تَرَامَـــى الوَجْـــدُ فِـــي شَـــأْوٍ بَعِيـــداً ... وَمَـــا يُغْنِـــي التَّطَـــارُحُ وَالتَّرَامِـــي
وَأَذْكَرَنِيـــكَ كُـــلُّ ضُـــحًى وَعَـــصْرٍ ... وَمِمَّـــا هَـــاجَنِي سَـــجْعُ الحَمَـــامِ
بَكَـــتْ شَـــجْواً بِـــلَا دَمْـــعٍ مُـــرَاقٍ ... وَقَـــدْ أَغْرَقْـــتُ فِـــي دَمْعِـــي خِيَـــامِي
وَمِـــنْ عَجَـــبٍ غَرِيـــقٌ فِـــي بِحَـــارٍ ... وَيَـــشْكُو بِاحْتِـــدَامٍ وَاضْـــطِرَامِ
سَـــطَا سَـــهْمُ الرَّزِيَّـــةِ فِـــي قُلُـــوبٍ ... هِـــيَ الأَهْـــدَافُ وَالأَقْـــدَارُ رَامِـــي
فَيَـــا عَيْنِـــي وَفِـــي العَيْنَـــيْنِ سُـــهْدٌ ... حَـــرَامٌ بَعْـــدَهُ طَعْـــمُ المَنَـــامِ
سَـــلَامُ اللهِ مَوْصُـــولاً عَلَـــى مَـــنْ ... غَـــذَانَا بِالـــشَّرَابِ وَبِالطَّعَـــامِ
سَـــلَامُ اللهِ مَوْصُـــولاً عَلَـــى مَـــنْ ... تَحِيَّتُـــهُ تَزِيـــدُ مِـــنَ الـــسَّلَامِ
هُمَـــامٌ سَـــرَّنَا دُنْيَـــا وَدِينـــاً ... فَيَـــا أَسَـــفَا عَلَـــى ذَاكَ الهُمَـــامِ
وَكَـــانَ لَنَـــا نَـــدًى وَتُقـــىً رَؤُوفـــاً ... رَحِيمـــاً [مُحْـــسِناً حَـــسَنَ الكَـــلَامِ]
وَكَـــانَ بِكُـــلِّ مَـــصْلَحَةٍ وَبِـــرٍّ ... كَفِـــيلاً ذَا اعْتِنَـــاءٍ وَاهْتِمَـــامِ
وَكَـــانَ لِـــسِعْرِنَا أَبَـــداً رَخَـــاء ... وَكَـــانَ بِحِمْـــصَ[1] مِـــصْبَاحَ الظَّـــلَامِ
خَلَـــتْ مِنْـــهُ القِبَـــابُ وَكَـــانَ فِيهَـــا ... شَـــقِيقَ البَـــدْرِ فِـــي لَيْـــلِ التَّمَـــامِ[2]
فَلَـــوْ أَبْـــصَرْتَهَا لَرَأَيْـــتَ ضُـــرّاً ... لِمَـــا قَـــدْ كَـــانَ فِيهَـــا مِـــنْ قِـــسَامِ

---

(1) حمص: يعني بها مدينة إشبيلية التي كان أبو إسحاق واليا عليها.
(2) ليلُ التمام: أطول ما يكون من الليل ويكون لكل نجم هوي من الليل يطلع فيه حتى تطلع كلها فيه.



فَقَــدْنَا مَــنْ مَجَالِــسُهُ سَــمَاعَاً ... يُعَلِّمُنَــا الحَــلَالَ مِــنَ الحَــرَامِ
وَأَوْحَـشُ مِنْـهُ فِـي اللَّيْـلِ الـدَّرَارِي ... وَقَــدْ أَلِفَتْــهُ مِــنْ طُــولِ القِيَـامِ
فَمَــنْ لِلْمَجْـدِ فِــي كُــلِّ المَسَاعِي ... وَمَــنْ لِلــشُّكْرِ فِــي كُــلِّ المَـرَامِ
أَمُنْتَجِعــاً مَــسَاقِطَ كُــلِّ غَيْــثٍ ... جُفُــونِي كَحَّلَــتْ دِيَــمَ الرِّهَــامِ
لِــدَمْعِ الــسَّبْقِ فِــي الــسُّقْيَا فَـزِدْهُ ... وَدَعْ مَــا يَــدَّعِي صَــوْبُ الغَمَــامِ
أَسَــادَتَنَا يَخُــصُّكُمْ نِــدَائِي ... وَإِنْ نَادَيْــتُ عَامــاً لِلْأَنَــامِ
ثَــوَابُ الــصَّبْرِ فِـي الأُخْـرَى عَظِـيمٌ ... فَهَــلْ صَــبْرٌ عَلَــى فَقْــدِ العِظَـامِ
رَسُــولُ اللهِ مَــاتَ فَــأَيُّ حَــيٍّ ... يُخَلَّــدُ مِــنْ بَنِــي سَــامٍ وَحَــامِ
عَــزَاءً فَالتَّهَالُــكُ لَــيْسَ يُجْــدِي ... وَلَا طُــولُ الــصَّبَابَةِ وَالغَــرَامِ
هِــيَ الــدُّنْيَا وَلَيْــسَتْ دَارَ خُلْــدٍ ... وَعُمْــرُ المَــرْءِ فِيهَــا لانْــصِرَامِ
وَلَا حُــزْنٌ يَــدُومُ وَلَا سُــرُورٌ ... وَمَــنْ لِلْمَــرْءِ فِيهَــا بِالــدَّوَامِ
نَــشِيدُ لِلْبَقَــاءِ بِهَــا قُــصُوراً ... تُــرَى الأَعْمَــارُ فِيهَــا فِـي انْهِـدَامِ
تَــرَى عَــدَدَ القُبُــورِ يَزِيــدُ فِيهَــا ... وَلِلْبَــشَرِ انْتِقَــاصٌ كُــلَّ عَــامِ
عَجِبْــتُ لِلزِّحَــامِ عَلَــى المَنَايَــا ... وَغَيْــرُ العَــذْبِ لَــيْسَ بِـذِي زِحَـامِ
فَطُــوبَى لِلْأُلَــى نَظَـرُوا بِعَــيْنِ الــ ... ـبَــصِيرَةِ فَاسْــتَعَدُّوا لِلْحِمَــامِ
رَأَوْا أَنَّ المُقَــامَ بِهَــا قَــصِيرٌ ... فَطَــالَ الزُّهْــدُ فِــي قِـصَرِ المُقَـامِ
وَأَنْــتُمْ مَعْــشَرَ الــزُّوَّارِ طِبْــتُمْ ... كَطِيـبِ المِسْكِ مَفْـضُوضِ الخِتَـامِ
[وَإِنَّ] وَفَــاءَكُمْ فِــي الحُـسْنِ يُحْيِـي ... جَمَــالَ الزَّهْــرِ مَفْتُــوحَ الكِمَــامِ
قَــضَيْتُمْ سَــبْعَةَ الأَيَّــامِ حَتَّــى ... [حَظِيــتُمْ بِالإِيَــابِ مَــعَ الأَنَــامِ]



فَبُـورِكَ فِـيكُمُ مِـنْ أَهْـلِ خَيْـرٍ ... وِدَادُكُـمُ يَـصِيرُ إِلَـى انْعِـدَامِ
وَعُوِّضْـتُمْ جَمِـيلاً مِـنْ جَمِيـلٍ ... بِـذِكْرِ اللهِ مِـنْ نطْـقِ الإِمَـامِ
وَيَـا مَـنْ كَـانَ [لِـي ظِـلًّا] وَعِـزًّا ... فَكَـانَ بِـهِ وَبِـاللهِ اعْتِـصَامِي
هَنِيئـاً مَـا [انْتَقَلْـتَ إِلَيْـهِ عَنَّـا] ... مِـنَ الرِّضْـوَانِ فِـي دَارَ الـسَّلَامِ
فَلَـوْ كُـشِفَ الغِطَـاءُ لَنَـا خَصَـصْنَا ... يَمِينَـكَ بِالـسُّرُورِ وَبِالـسَّلَامِ
وَأَبْـصَرْنَاكَ فِـي الفِـرْدَوْسِ تَمْـشِي ... عَلَـى فُـرُشِ الكَرَامَـةِ ذَا ابْتِـسَامِ
وَلَكِـنَّ الفِـرَاقَ لَنَـا فِطَـامٌ ... فَكُـلٌّ يَـشْتَكِي أَلَـمَ الفِطَـامِ
عَلَـى القَبْـرِ الـذِي دَفَنُـوكَ فِيـهِ ... مِـنَ اللهِ الـصَّلَاةُ مَـعَ الـسَّلَامِ

ثُمَّ قُلْتُ: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون، وَإِنَّكُمْ لَنَا يَا سَيِّدَنَا فَاجِعُون، لَكِنَّا بِمَا أُمِرْنَا بِهِ مِنَ الصَّبْرِ صَادِعُون، وَلِدَمْعِ مَنْ سَارَ لِقَضَاءِ اللهِ مُكَفْكِفُون، وَلِلأَسَى [قَدْرَ الوُسْعِ] رَادِعُون، وَلَئِنْ بُعِدْتُمْ عَنَّا عَلَى قُرْبِ المَحَلِّ مِنَّا، فَلَقَدْ ضَرَبَتْ عَلَيْكُمُ القُلُوبُ قِبَابَهَا، وَضَمَّتْكُمْ فِي السُّوَيْدَاوَاتِ ضَمَّهَا أَحْبَابَهَا، وَلَقَدْ فَقَدَتْكُمْ بَلْدَتُنَا فَقْدَ الحَسْنَاءِ شَبَابَهَا، وَلَا أُنْسَ فِي هَذِهِ القَضِيَّةِ إِلَّا فِي بَقَاءِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ نُرِيدُ صَاحِبَ نَظَرِهَا الكَرِيمِ وَنَسْتَفْتِحُ بَابَهَا.

واللهُ يُطْلِعُ مِنْ رَحْمَتِهَا المُعْتَادَةِ، وَنِعْمَتِهَا المُرْتَادَةِ، مَا يَسْقِي عَلَيْنَا بِهِ ذَهَابُ الوِرْدِ مَاهُ، وَيَعْمُرُ لِلدُّنْيَا بِبَنِي المَجْدِ سَمَاهُ، وَهُوَ المَسْؤُولُ -سُبْحَانَهُ- أَنْ يُجَدِّدَ عَلَيْكُمْ -سَيِّدَنَا- الرَّحْمَةَ وَالرِّضْوَان، وَيُسْكِنَكُمْ كَمَا وَعَدَ مِثْلَكُمُ الجِنَان، وَيَنْفَعَكُمْ بِمَا قَدَّمْتُمُوهُ مِنَ الأَعْمَالِ وَبِمَا تُلِيَ عَلَى قَبْرِكُمْ مِنْ آيَاتِ القُرْآنِ. وَيُحَسِّنَ فِيكُمْ عَزَاءَ جَمِيعَ أَهْلِ الإِيمَان، وَيُجَدِّدَ بَعْدَكُمْ لِسَادَاتِنَا الأَكْرَمِينَ بَنِيكُمْ صَلَاحَ الزَّمَانِ، وَيُبْقِيَهُمْ مِنْ صُرُوفِهِ فِي أَمَان. آمِينَ يَا اللهُ يَا رَحْمَانُ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، حَمْداً يَتَكَفَّلُ لِلْجَمِيعِ بِالغُفْرَانِ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيئِين.



ثُمَّ قُمْتُ عَلَى القَبْرِ أَيْضاً: فِي الثَّالِثِ عَشَرَ يَوْمَ الدَّفْنِ عِنْدَ وُصُولِ ابْنِهِمُ السَّيِّدِ الأَجَلِّ الهُمَامِ الأَشْرَفِ المَاجِدِ الأَفْضَلِ أَبِي إِبْرَاهِيمَ - أَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ - مِنْ بَطَلْيَوْسَ - حَمَاهَا اللهُ - فَأَنْشَدْتُ:

خَلِيلَيَّ عُوجَا سَاعَةً بِالمَقَابِرِ ... يُقَضِّي بِهَا دَمْعِي حُقُوقَ الأَكَابِرِ
فَبَيْنَ المُنَى وَالقَصْرِ فِي حِمْصَ رَوْضَةٌ ... حَوَى تُرْبُهَا قُطْبَ العُلَا وَالمَفَاخِرِ
خَلِيلَيَّ إِنْ لَمْ تُسْعِدَانِي عَلَى الأَسَى ... فَحَسْبِيَ دَمْعِي فَهْوَ فِي الحُزْنِ نَاصِرِي
أَرَى الغَيْثَ فِي كَانُونَ[1] يَنْزِلُ عَادَةً ... فَمَالِي كَأَنِّي مِنْهُ فِي شَهْرِ آخَرِ
وَمَا هِيَ إِلَّا زَفْرَةٌ تَحْرِقُ الحَشَا ... بِجَيْشِ أَسىً فِي طَيِّهِ مُتَنَاصِرِ
قَضَى نَحْبَهُ فَالدِّينُ يَبْكِي لِفَقْدِهِ ... [بُكَاءَ مُحَارِبٍ لَهُ وَمُنَاصِرِ]
عَجِبْتُ لِقَبْرٍ فِي ثَلَاثَةِ أَذْرُعٍ ... أَحَاطَ بِهِ مِنْهُ وَلَيْسَ [بِقَاصِرِ]
أَلَا حَدِّثُونِي كَيْفَ مَاتَ وَلَمْ يَكُنْ ... عَلَى [الدَّهْرِ] بَعْدَ المَوْتِ مِنْهُ بِقَادِرِ
أَلَمْ يَحْمِهِ البَأْسُ المَحُوطُ جَنَابُهُ ... بِسُمْرِ العَوَالِي وَالرِّقَاقِ البَوَاتِرِ
أَلَمْ يَحْمِهِ مَا كَانَ يَحْمِي بِهِ الوَرَى ... مِنَ الرَّأْيِ وَالحَزْمِ المَصُونِ المُظَاهِرِ
وَكَيْفَ بِسَهْمِ المَوْتِ أَخْفَى مَرَاشِقاً ... يُدَافِعُ بِالأَبْصَارِ أَوْ بِالبَصَائِرِ
أَسَيِّدَنَا غُيِّبْتَ عَنِّيَ فِي الثَّرَى ... فَمَنْ لِي بِقَلْبٍ بَعْدَكَ مَائِرِ
وَجَدْتُكَ مَدْفُوناً وَلَوْ كُنْتُ حَاضِراً ... دَفَنْتُكَ فِي عَيْنَيَّ بَيْنَ مَحَاجِرِي
فَلَهْفاً عَلَى مَنْ لَا مَرَرْتُ بِقَبْرِهِ ... بَعِيدٌ قَرِيبٌ، غَائِبٌ فِي محَاضِرِ؟
كَفَى حَزَناً أَنِّي أَرَى القَصْرَ خَالِياً ... كَأَنِّيَ مِنْهُ فِي الرُّسُومِ الدَّوَاثِرِ
أُسَائِلُ فِيهِ عَنْكُمُ فَيُقَالُ لِي: ... تَبَدَّلَ بَعْدَ القَصْرِ سُكْنَى المَقَابِرِ

---

(1) كانون: الكانونان شهران في قلب الشتاء، لفظة رومية كانون الأول وكانون الآخر هكذا يسميهما أهل الروم. وهذان الشهران يسميهما العرب: الهراران والهباران قاله أبو منصور الثعالبي.



أَسَيِّدَنَا مَاذَا الحِجَابُ الذِي نَرَى ... وَمَا كُنْتَ تَرْضَى بِالحِجَابِ لِزَائِرِ
لَقَدْ كَانَ رَوْضُ الأُنْسِ لِي بِكَ نَاضِراً ... فَمَالِي أَرَاهُ بَعْدَكُمْ غَيْرَ نَاضِرِ
وَكَانَ زَمَانِي قَدْ وَفَى لِي بِوَجْهِكُمْ ... فَيَا قُرْبَ مَا أَضْحَى زَمَانِيَ غَادِرِي
فَمَ بَعْدَكُمْ لِلصَّوْمِ يَهْوَى وِصَالَهُ ... إِذَا اشْتكَتِ الحِرْبَاءُ حَرَّ الهَوَاجِرِ
وَمَنْ لِقِيَامِ اللَّيْلِ يَعْشَقُ طُولَهُ ... فَيَحْسِبُ أَنَّ الفَجْرَ طَلْعُهُ فَاجِرِ
فَيَا قَلْبُ، إِنَّ الحُزْنَ مَا عِشْتُ وَاصِلِي ... وَيَا عَيْنُ، إِنَّ النَّوْمَ مَا عِشْتُ هَاجِرِي
أَسَادَتَنَا صَبْراً فَفُوزُوا بِأَجْرِهِ ... فَمَا وَارِدٌ حَوْضَ المَنُونِ بِصَابِرِ
وَهَلْ بَعْدَ مَوْتِ المُصْطَفَى مِنْ تَجَلُّدٍ ... أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا سَبِيلٌ لِعَابِرِ
تَأَمَّلْتُ تَأْخِيرَ الوَفَاةِ تَعَلُّلاً ... وَلِلْمَوْتِ سُلْطَانٌ سَرِيعُ البَوَادِرِ
وَمَا مَاتَ مَنْ أَنْتُمْ لَنَا بَعْدَ مَوْتِهِ ... ذَخَائِرُ عِزٍّ دُمْتُمُ مِنْ ذَخَائِرِ
لَئِنْ كَانَ بَدْرٌ مِنْهُ فِي التُّرْبِ قَدْ هَوَى ... فَقَدْ عَوَّضُونَا بِالنُّجُومِ الزَّوَاهِرِ
وَإِنْ سَطَتْ يَاقُوتَةٌ مِنْ نِظَامِهَا ... فَحَسْبُ المُنَى فِيهِ بَقَاءُ الجَوَاهِرِ
عَلَيْكَ صَلَاةُ اللهِ، يَا سَاكِنَ الثَّرَى ... وَرُحْمَاكَ دَأْباً، إِنَّهُ خَيْرُ غَافِرِ
سَقَى جَدَثاً طَيَّبْتَ مِنْهُ تُرَابَهُ ... وَإِنْ جَادَ صَوْبٌ بِالغَمَامِ المُبَاكِرِ
وَمَا حَاجَةٌ فِي الغَيْثِ أَنْ يَسْقِيَ الثَّرَى ... فَحَسْبُ الثَّرَى صَوْبَ الجُمُوعِ المَوَاطِرِ[1]

ثُمَّ قُلْتُ: إِنَّ العَبْدَ يَاسَادَتَنَا بِالعِبَارَةِ عَزَّ التَّعْزِيَةَ، وَكُلُّ قَلْبٍ مِنْهُ بِالأَسَى فَظِيع، وَعِظَمُ المُصِيبَةِ قَدْ أَخْرَسَ أَلْسِنَةَ الجَمِيعِ، لَيْسَ إِلَّا مَقَامُكُمْ السَّنِي أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يَقَرَّ بِهِ العَبِيدُ بِإِظْهَارِ التَّفَجُّعِ وَالخُشُوعِ، وَإِنْ كَانَتْ خَرِسَتْ أَلْسِنَةٌ فَلَقَدْ أَعْرَبَتْ مَا شَاءَتِ الدُّمُوعِ، لَقَدْ عَمَّتِ الرَّزِيَّةُ يَا سَادَاتِنَا وَخَصَّتْ، وَنَصَّتْ، عَلَى الْتِهَابِ الضُّلُوعِ وَانْسِكَابِ بِالدُّمُوعِ مَا نَصَّتْ، وَلَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِدَاءٌ لَبَذَلْنَا فِي حَقِّ سَيِّدِنَا كُلَّ غَالٍ وَنَفِيسٍ، وَلَفَدَيْنَاهُ

(1) الأبيات من بحر الطويل.



بِالأَرْوَاحِ وَالنُّفُوسِ، لَكِنَّهُ المَوْتُ الذِي لَا يُقْبَلُ فِيهِ فِدَاء، [وَلَا يُطْلَبُ بِالنَّجَاةِ مِنْهُ رَجَاء]، فَعَادُ عَادَهُ الحِمَام، وَنُوحٌ نَاحَ عَلَيْهِ الحَمَام، وَسُلَيْمَانُ سَلَّمَ لِلْقَضَاءِ وَلَمْ يَحْمِهِ مُلْكُهُ، وَقَارُونُ قَرَاهُ مَمَاتُهُ وَهُلْكُه. وَهَذَا سَيِّدُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَرَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ مُحَمَّدٌ ﷺ، قَدْ جَرَى عَلَيْهِ القَدَرُ المَحْتُوم، نَفَذَ فِيهِ الحُكْمُ المَعْلُوم، فَأَيُّ النَّاسِ لَمْ يَكُنْ لِلْحِمَامِ مُلَاقِياً، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَدُومُ لِأَهْلِهَا لَكَانَ رَسُولُ اللهِ حَيّاً وَبَاقِياً، وَلَوْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَمَرَ بِالصَّبْرِ وَالنَّدْبِ إِلَيْهِ، وَحَضَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، لَذُبْنَا كَمَداً، وَلَمَا عِشْنَا بَعْدَ سَيِّدِنَا أَبَداً، لَكِنَّا بمَا أُمِرْنَا بِهِ مِنَ الصَّبْرِ صَادِعُون، فَنَقُولُ: «إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون» نُسَلِّمُ فِي الرِّضَا لِقَضَاءِ اللهِ جهْدَنَا، وَنُخَفِّفُ الحُزْنَ مَا اسْتَطَعْنَا وَإِنْ كَانَ ظَاهِراً عِنْدَنَا، نَيْأَسُ مِنَ الحَيَاةِ فِي دَفْعِ المَوْتِ، وَرَدِّ الفَائِتِ بَعْدَ الفَوْتِ، فَنَفْزَعُ إِلَى الدُّعَاءِ، وَنَتَضَرَّعُ فِي رَحْمَةِ سَيِّدِنَا، وَتَأْنِيسِنَا بَعْدَهُ إِلَى جَبَّارِ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَوْجَبْتَ فِي حَالَتَيْ السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ شُكْرَكَ وَحَمْدَكَ، وَاخْتَرْتَ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مَا عِنْدَكَ، فَنَضِّرِ اللَّهُمَّ ضَرِيحَهُ وَوَسِّعْ قَبْرَه، وَأَحْسِنْ عَزَاءَ كُلِّ مَفْجُوعٍ بِهِ وَقَوِّ صَبْرَه، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنَ الفَائِزِينَ بِرِضْوَانِك، المُنْتَقِلِينَ إِلَى إِحْسَانِك، السَّاكِنِينَ فِي جِنَانِك، وَأَبْقِ اللَّهُمَّ عَلَيْنَا بَرَكَتَهُ بِبقَاءِ بَنِيهِ الكِرَامِ سَادَاتِنَا، وَأَدِلْنَا بِدَوَامِ الأَمْرِ العَالِي - أَيَّدَهُ اللهُ - [مَا يُيَسِّرُ مِنْ عَادَاتِنَا] آمِين يَا رَبَّ العَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتِمِ النَّبِيئِينَ وَعَلَى آلِهِ الأَكْرَمِين، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

إِلَى السَّيِّدِ الأَجَلِّ الأَسْنَى وَالأَعَزِّ الأَكْرَمِ الأَزْكَى الأَثِيرِ الأَوَدِّ الأَسْرَى الأَفْضَلِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَدَامَ اللهُ عِزَّهُمْ وَعَلَاءَهُمْ، وَأَطَالَ فِي أَمَانٍ مِنْ صُرُوفِ الزَّمَانِ بَقَاءَهُمْ. أَخُوهُمُ المُوثِرُ لَهُمُ الوَادُّ فِيهِمْ الحَفِيُّ بِهِمْ عِيسَى بْنُ سَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. سَلَامٌ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ.

فَالكِتَابُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَهُمْ حُسْنَ العَزَاءِ، وَالحِرَاسَةَ مِنْ طَوَارِقِ الأَرْزَاءِ. مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش - كَلَأَهَا اللهُ - وَلِلْأَمْرِ العَزِيزِ - أَدَامَهُ اللهُ - مَعْهُودُهُ مِنْ عُلُوِّ المَقَامِ،



وَنَصْرِ الأَعْلَامِ، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى ذَلِكُمْ حَمْداً يَتَكَفَّلُ لِلنِّعَمِ بِالدَّوَامِ. وَعِنْدِي الَّذِي تَعْلَمُونَهُ - وَصَلَ عِزَّتَكُمْ مِنْ إِيثَارِكُمْ، وَاسْتِطْلَاعِ أَحْوَالِكُمْ وَأَخْبَارِكُمْ، وَحِفْظِ عَهْدِكُمْ وَإِخْلَاصِ وُدِّكُمْ وَصَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي ذَاتِهِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِ صِفَاتِهِ، وَبَعْدُ:

وَصَلَ اللهُ بَقَاءَكُمْ، وَحَرَسَ حَوْبَاءَكُمْ، وَأَحْسَنَ عَلَى الخَطْبِ الفَادِحِ عَزَاءَكُمْ. فَإِنَّ الأَيَّامَ كَمَا عَلِمْتُمْ مَظِنَّةُ الحَوَادِثِ وَالخُطُوبِ، وَمُولَعَةٌ بِمُوَالَاةِ الأَرْزَاءِ عَلَى بَنِيهَا وَالكُرُوبِ، لَا تُمَتِّعُ لِأَخٍ أَخاً، وَلَا بِخِلٍّ خِلًّا، وَلَا تَرْقُبُ فِي أَحَدٍ ذِمَّةً وَلَا إِلًّا[1]. فَطُوبَى لِمَنْ أَخَذَ فِيهَا حِذْرَهُ لِلْمَوْتِ، وَأَعَدَّ الزَّادَ قَبْلَ الفَوْتِ، وَقَدْ نَفَذَ قَضَاءُ اللهِ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَا مَحِيدَ لِمَخْلُوقٍ ذِي رُوحٍ عَنْهُ، بِمَا فَجَعَ النَّفْسَ، وَنَفَى الأُنْسَ، وَأَفَاضَ الدُّمُوعَ، وَأَخْرَمَ الضُّلُوعَ، مِنْ وَفَاةِ أَخِيكُمُ الأَجَلِّ وَصِنْوِكُمُ الأَعَزِّ الأَكْرَمِ أَبِي زَكَرِيَّاءَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَكَرَّمَ مَثْوَاهُ، وَجَعَلَ الجَنَّةَ مَنْزِلَهُ وَمَأْوَاهُ.

وَإِنَّ هَذَا الرُّزْءَ -أَدَامَ اللهُ حَيَاتَكُمْ- وَإِنْ كَانَ مَوْضِعُهُ مِنَ التَّفَجُّعِ مَوْضِعُه، وَمَوْقِعُهُ مِنَ التَّوَجُّعِ مَوْقِعُه، فَهُوَ مَعَ ذَلِكَ سَبِيلُ الأَوَّلِ وَالآخِرِ، وَمَجْرَى المُسْتَقْدِمِ وَالمُسْتَأْخِرِ. وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِالصَّبْرِ وَنَدَبَ إِلَيْهِ، وَحَضَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ، وَذَكَرَ مَا أُعِدَّ لِمُؤْثِرِهِ مِنَ الثَّوَابِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] وَمِثْلُكُمْ مَنْ رَغَّبَ فِي الجَزِيلِ وَهُوَ الأَجْر، وَأَخَذَ بِالجَمِيلِ وَهُوَ الصَّبْر.

فَعَزَاءً أَيُّهَا الأَخُ الأَكْرَمُ وَالعَزَاءُ بَيْنَنَا مُشْتَرَك، واللهُ يُلْهِمُنَا أَجْمَعِينَ التَّسْلِيمَ لِأَمْرِهِ [وَيَجْعَلُنَا] مِمَّنْ لَا يَلْحَقُهُ بِالجَزَعِ عَلَى الفَائِتِ دَرَك. وَقَدْ صَارَ أَخُوكُمُ المَذْكُورُ - وَرَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ - إِلَى اللهِ مَرْجُوّاً مَا لَدَيْهِ مِنْ رِضْوَانِهِ وَرُحْمَاه، واللهُ يُرَوِّضُ ثَرَاهُ، وَيُكْرِمُ مَثْوَاه، وَيَجْعَلُنَا عَلَى أَحْذَرَ مِمَّا نَلْقَاه، وَجَوَابُكُمْ - أَحْسَنَ اللهُ عَزَاءَكُمْ- مُرْتَقَبٌ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى في سورة التوبة الآية:8. ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾. وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾. سورة التوبة، الآية: 10.

(2) سورة الزمر، الآية: 11.



بِمَا يُسَلِّي النَّفْسَ، وَيُهْدِي الأُنْسَ، مِنْ إِيثَارِكُمْ لِلصَّبرِ وَالاحْتِسَاب، وَاخْتِيَارِكُمْ لِلْأَجْرِ وَالثَّوَابِ. واللهَ [نَدْعُوا] أَنْ يَزِيدَ مِنْ عَلَائِكُمْ، وَأَنْ يُقَرِّبَنَا مِنْ وَلَائِكُمْ وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمُ الأَثِيرُ، وَصَلَ اللهُ مُدَّةَ حَيَاتِكُمْ، وَوَصَلَ لَكُمُ الحَاجَةَ الَّتِي تَحْفَظُكُمْ مِنَ الأَهْوَاءِ وَتَقِيكُمْ مِنْ عَثَرَاتِكُمْ، وَذَكَرْتُمْ أَنَّكُمْ تَلَقَّيْتُمْ قَضَاءَ اللهِ فِي فَقْدِ أَخِيكُمُ السَّيِّدِ المُكَرَّمِ المَرْحُومِ. فَرَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوانُهُ، وَرَوْحُهُ وَرَيْحَانُهُ، بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّفْوِيضِ، عَلَى أَنَّ الحَادِثَ فِيهِ كَادَتْ لَهُ النَّفْسُ تَفِيضُ، وَالعَيْنُ لَهُ تَغِيضُ، [وَذَلِكُمُ الخَلِيلُ الأَحَقُّ بِأَمْثَالِكُمْ]، واللهُ يُبْقِيكُمْ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُم.

وَفِي عِلْمِكُمْ - أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ - أَنَّ مَقَادِيرَ الأَجْرِ عَلَى قَدْرِ التَّجَمُّلِ وَالتَّصَبُّرِ عِنْدَ حُدُوثِ فَوَادِيحِ الأُمُورِ. وَقَدْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُضَاعِفَ لَكُمْ بِفَضْلِهِ الثَّوَاب، عَلَى مَا يَكُونُ مِنْكُمْ أَيْضاً مِنَ الصَّبْرِ وَالاحْتِسَابِ، فِيمَا نَفَذَ بِهِ القَدَرُ المَحْتُومُ مِنْ وَفَاةِ أَخِيكُمْ أَبِي زَكَرِيَّاءَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَجَعَلَهُ مِمَّنْ أَسْعَدَهُ بِلِقَائِهِ، وَأَزْلَفَهُ فِي أَوْلِيَائِهِ. وَمَنْ عَلِمَ الأَيَّامَ عِلْمَكُمْ بِهَا لَمْ يرع حَادِثٌ مِنَ الحَوَادِثِ سربه، وَلَا كَدَّرَ مِنَ التَّفْوِيضِ لِأَمْرِ اللهِ شِرْبَه، بَلْ يُفَوِّضُ إِلَى اللهِ فِي الدَّقِيقِ وَالجَلِيلِ، وَيُسَلِّمُ لِأَمْرِهِ فِي الكَثِيرِ وَالقَلِيلِ.

«فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» عَلَى فَقْدِ الإِخْوَانِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ، وَمَهْمَا عَظُمَتِ المُصِيبَةُ عَزَّتْ فِيهَا المُصِيبَةُ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ لَحَدَهُ اللَّاحِد.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

مَقَامُ سَيِّدِنَا الأَعْلَى السَّيِّدِ الأَجَلِّ المُعَظَّمِ الأَسْنَى الأَرْفَعِ الأَمْجَدِ وَالأَكْمَلِ المُكَرَّمِ الأَفْضَلِ الأَرْضَى أَبِي عَلِيٍّ: حَرَسَ اللهُ أَرْجَاءَهُمْ، وَأَطَالَتِ السَّعَادَةُ بَقَاءَهُمْ، وَأَحْسَنَ عَلَى كُلِّ حَادِثٍ مُؤْلِمٍ عَزَاءَهُمْ.

مُعَظِّمُ قَدْرِهِمْ، وَمُقِرٌّ بِفَضْلِهِمْ، الكَلِفُ بِكَبِيرِ حَقِّهِمْ المحَافِظُ عَلَى مَا يَجِبُ مِنْ بِرِّهِمْ، الشَّاكِرُ لِمَجْدِهِمْ مُوسَى بْنُ السَّيِّدِ أَبِي مُوسَى.



كَتَبَ مُعظِّمُ جلالِكُمْ، وَشَاكِرُ أَفْضَالِكُمْ، كَتَبَ اللهُ لِمَكَانِكُمُ السَّنِيِّ انْفِسَاحَ الزَّمَان، وَلَا زَالَ مِنْ صُرُوفِهِ فِي أَمَان. مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش -حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى- عَنِ الوَاجِبِ مِنْ تَوْقِيرِكُمْ وَإِعْظَامِكُمْ، وَالمُفْتَرَضِ مِنَ الإِكْبَارِ وَالإِجْلَالِ لِسَنِيِّ مَقَامِكُم، وَالشُّكْرِ لاعْتِنَائِكُمْ، بِإِدْخَالِ السُّرُورِ بِمُخَاطَبَتِكُمُ الكَرِيمَةِ وَاهْتِمَامِكُم، واللهُ المُعِينُ. عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِكُمْ، وَالمُنْجِدُ عَلَى مَا يَتَعَيَّنُ لِكَرِيمِ جَانِبِكُمْ.

وَقَدْ وَرَدَ عَلَى مُلْتَزِمِ شُكْرِكُم وَتَعْظِيمِكُمْ كِتَابُكُمُ الأَشْرَفُ الأَكْرَمُ أَكْرِمْ بِهِ مِنْ وَارِدٍ مَبْرُورٍ مُجَلٍّ، وَبِأَنْوَارِ السِّيَادَةِ مُتَجَلٍّ. فَتَلَقَّاهُ بِوَاجِبِهِ مِنَ الإِكْرَامِ وَالشُّكْرِ، وَسُرَّ بِهِ سُرُورَهُ بِذَخَائِرِ الدَّهْرِ، وَتَعَلَّمَ مِنْهُ كَيْفَ يَسْلُكُ طَرِيقَ الاحْتِسَابِ، عِنْدَ حُدُوثِ المُصَابِ، فَيَحْظَى سَالِكُهُ بِالثَّوَابِ وَالأَجْرِ. فَانْتَفَعَ مُعَظِّمُكُمْ بِمَعَانِيهِ، الدَّالَّةِ عَلَى مَنَازِلِ الصَّبْرِ وَمَغَانِيهِ، انْتِفَاعًا، بَلْ شَفَى الجَزَعَ وَالوَجْد، وَأَرْشَدَ إِلَى التَّجَمُّلِ عَلَى الحَادِثِ الَّذِي عَلِمْتُمْ قَبْلُ وَالحَادِثِ الَّذِي طَرَأَ بَعْد، وَذَلِكُمْ -حَرَسَ اللهُ أَنْوَارَكُمْ- أَنَّ قَضَاءَ اللهِ نَفَذَ أَيْضًا فِي هَذِهِ الأَيَّامِ بِوَفَاةِ أَخِيكُمْ سَيِّدِي الأَجَلِّ الأَسْنَى الأَسْمَى الأَعَزِّ الأَكْرَمِ الأَفْضَلِ أَبِي زَكَرِيَاءَ. رَوَّضَ اللهُ مَسْرَاهُ، وَتَغَمَّدَهُ بِرِضْوَانِهِ وَرُحْمَاهُ، فَأَتْبَعَ الأَسَى بِالأَسَى، وَالفَرْقَ بِالفَرَقِ، وَقَضَى عَلَى مُقْلَةِ العَيْنِ بِالرُّسُوبِ فِي دَمْعِهَا وَالغَرَقِ.

«فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون» عَلَى مَا هَدَّدَ القَلْبَ مِنْ هَذَا الرُّزْءِ الَّذِي نَكَأَ القَرْحَ، وَجَدَّدَ بَعْدَ الجُرْحِ الجُرْحَ، لَكِنَّهُ المَوْتُ الَّذِي يَدْعُو فَيُلَبِّيهِ القَرِيبُ وَالبَعِيدُ، وَمَنْ رَضِيَ بِقَضَاءِ اللهِ وَأَعَدَّ الزَّادَ لِلُقْيَاهُ فَهُوَ المُفْلِحُ السَّعِيدُ؛ وَمَنْ لَا يَتَعَلَّمُ العَزَاء، مَهْمَا أَلَحَّتِ الأَرْزَاءُ.

واللهُ يُحْسِنُ عَزَاءَكُمْ، وَيَخْتِمُ بِذَا الرُّزْءِ أَرْزَاءَكُمْ. وَأَمَّا مُعَظِّمُ جَلَالِكُمْ فَكُلُّ مَا أَصَابَ جَانِبَكُمْ - حَرَسَهُ اللهُ - فَهُوَ لَهُ مُصِيب، وَلَهُ مِنَ التَّأَلُّمِ لَهُ الحَظُّ الوَافِرُ وَالنَّصِيب، إِيجَابًا لِحَقِّكُمُ الكَبِير، وَقِيَامًا بِوَاجِبِكُمُ الَّذِي [أَنْتُمْ بِهِ] فِي كُلِّ حَالٍ جَدِير.

واللهُ يُبْقِي بَرَكَتَكُمْ، وَيَحْرُسُ مَكَانَتَكُمْ، وَيُفْسِحُ فِي السَّعَادَةِ مُدَّتَكُمْ وَزَمَانَكُمْ. وَسَلَامُ اللهِ الكَرِيمِ عَلَى مَقَامِكُمُ السَّامِي وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

البَابُ الثَّامِنَ عَشَرَ

في الأوصاف على اختلاف الأنواع والتصرف في التشبيهات والإبداع



رِجَالُهُ:

عَبْدُ الحَمِيد بْنُ يَحْيَى - أَبُو مُحَمَّدٍ الحَرِيرِي - أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ الحَنَّاطِ - أَبُو عَامِر بْنُ شُهَيْدٍ - أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الغَفُورِ- الفَتْحُ ابْنُ عُبَيْدِ اللهِ - أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْن طَاهِر - أَبُو جَعْفَرَ بْن أَحْمَدَ- أَبُو القَاسِمِ بْنُ السَّقَّاطِ - أَبُو بَكْرِ بْن مُغَاوِر - أَبُو بَحْر صَفْوَان بْن ادْرِيسِ - مَجْهُول - أَحْمَد بْن مُحَمَّدٍ البَلَوِي.

مِنْ إِنْشَاءِ عَبْدِ الحَمِيدِ [فِي وَصْفِ طُغْيَانِ الفُرَاتِ]:

وَافَى كِتَابُكَ أَمِيرِ المُؤْمِنِين، وَمَوَارُ الفُرَاتِ يَجِيشُ بِأَرْجَائِهِ[1] مُطْلَخِمَّةً أَمْوَاجُهُ، مُتَزَايِلاً فِي حُجُرَاتِهِ[2]، آذيُّه صَخِبٌ وَغطَامِطُهُ لَجِبٌ[3]، وَعُلُوُّهُ مُتَوَالٍ يُسَاوِرُ الجِبَال، وَيَدُكُّ عَقَنْقَلِ التِّلَاعِ[4] قَدْ أَبَارَ أَبْيَاتَ بَنِي سَعْدٍ وَكَانُوا حُلُولاً بِوَاهِي العُمَرِي، وَصَبَّحَ آل فَلاقٍ بِذِي الرَّمِثِ، فَطَخْطَخَ مَنَازِلَهُم وَأَسَالَ عِرَاصَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ بَذوا بِبَنِي سَعْد، فَاجْتَاحَتِ السُّدُودُ أَمْوَاهَهُ بِهِم، وَلَقَدْ أَتَى عَلَى أَمْوَالِهِمُ السَّابِحَة وَخِيَامِهِمُ الزَّاهِرَة، وَعقَدِهِمُ النَّفِيسَة، ثُمَّ أُخِذَ نَحْوَ أَلْوَاذِ الخَزْرَجِ[5]، فَحَدِرَتْ مِنْ رُعْبِهِ القَبَائِل، وَزَخِرَت الهَرَج فِي وَادِ القرض فَهُمْ كَثْرَةٌ جفَاءٌ فِي أَوْدِيَة[6]، كُلٌّ تُسْتَنُّ أَمْوَاجُهُ مُتَدَارِكَة، وَتُعْتَلَجُ زَوَائِدُهُ هَائِلَة، لَا يَمُرُّ بِقَائِمٍ إِلَّا هَدَمَهُ لَجِبُه، وَلَا يَحُلُّ وَادِياً إِلَّا أَخْرَقَهُ مَسِيلُه، وَلَا يَتَحَدَّرُ مَنْصِباً إِلَّا أَبْقَى بِهِ أَخَاقِيقَ وَمُسْتَنَّ رَقْرَاقٍ[7] فَسُكُورُه وَاهِيَة[8]، وَفُتُوقُهُ مُتَدَاعِيَة، قَدْ أَجْفَلَ

---

(1) الأرجاء: النواحي، والمفرد رجاء.

(2) الحجرات: النواحي، متزايلا: متفرقا.

(3) الأذي: الموج الغطامط: صوت اضطراب الموج.

(4) العقنقل: الكثيب العظيم.

(5) لوذ الوادي: منعطفه.

(6) الجفاء: ما نفاه السيل.

(7) الأخاقيق: كسور في الأرض وشقوق: الجاري أو المضطرب، الرقراق: الماء الجاري جريا سهلا.

(8) السكور: جمع سكر، وهو المسنلة أو ما يسد به ماء النهر لئلا يندفع.



أَهْلَ جَنْبَتَيْهِ هَرَبـًا، وَأَمْسَكُوا اللِّفَاءَ[1] بِأَيْدِيهِمْ عَنْ مُعَالَجَةِ سُكُورِهِ، وَالأَنْفَاقِ مِنْ مَرَمَّةِ بَزَنْدَاتِهِ[2] لِمَا رَأَوْا مِنْ هَائِلِ مَصَبِّهِ وَإِقْبَالِ تَيَّارِه.

وَقَدْ أَصْبَحَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ مُرْتَاعـًا وَجِلاً لِمَا أَصْبَحَ بِأَهْلِ حُجُرَاتِ الفُرَاتِ مِنَ الإِشْفَاءِ عَلَى الغَرَق، عَلَى الَّذِي أَحْدَقَتْ بِهِمْ أَوْدِيَتُهُ المَخُوفَة، وَتَزَايَدَ عَلَيْهِمْ هَوْلُهُ الرَّاعِب، فَأَوْشَكَ مِمَّا تُرَادُّ أَمْوَاجُه، وَتَتَآكَلُ عَبْرَته[3]، وَتَتَدَاعَى بُثُوقُه، وَتَنْخَزِلُ سُكُورُه، إِنْ نَمَتْ غَوَالِبُ لَجِبَاتِهِ وَتَرَادَفَ سَوَائِلُ سُيُولِهِ، فَإِذَا ضِفَّتَاهُ أَضَاءٌ[4] يَمُوجُ بِهَا رَقْرَاقُهُ وَيَتَرَاجَعُ فِيهَا مُسْتَنُّهُ، وَأَهْلَهُمَا بِحَيْثُ المُرْسِلِ عَلَيْهِمُ سَيْلَ العَرِم. واللهُ [يَقِي] المَخُوفَ الهَائِل، وَالمُفْظِعَ النَّازِلَ وَيُحَقِّقُ الرَّجَاء، وَيُنْهِي الطلبَة، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

وَكَتَبَ إِلَى عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ عُمَرَ بْنِ هُبَيْرَةَ فِي ابْتِيَاعِ جَارِيَةٍ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ عِنْدَ ثِقَتِهِ بِكَ وَأَمَلهُ مِنْ مُبَالَغَتِكَ فِي أَمْرِه، أَحَبَّ أَلَّا يُشْرِكَ مَعَكَ ذَا ثِقَةٍ مِنْ أَهْلِهِ وَحَشَمِهِ فِيمَا أَرَادَ اشْتِرَاءَهُ مِنَ الجَوَارِي لِنَفْسِه، وَأَنْ يَكُونَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْهُنَّ بِرَأْيِكَ اشْترينَ وَعَنْ مَشُورَتِك قَبِلْن، فَابْتَعْ لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ جَارِيَةً مَنْبَتُهَا فِي أَهْلِ بَيْتِ صِدْقٍ مِنَ العَرَبِ، قَدْ نَجَعَ فِيهَا أَدَبُهُمْ وَنَالَهَا حُسْنُ هَدْيِهِمْ، تُقْعِدُهَا الرَّزَانَةُ وَيُسْكِتُهَا الحِلْمُ، إِنْ نَهَضَتْ أَثْقَلَتْهَا أَرْدَافُهَا، وَإِنْ تَكَلَّمَتْ تَاقَتْ إِلَيْهَا قُلُوبُ السَّامِعِينَ، مَنْطِقُهَا رَخِيمٌ، وَاسِعَةُ الصَّدْرِ، دَقِيقَةُ الخَصْرِ، قَامَتُهَا مَدِيدَة، وَأَطْرَافُهَا سِبَاط، فَرْعُهَا جَثْلٌ أَصْلُه، مُتَدَلٍّ فَرْعُه، قَدْ جَلَّلَ ظَهْرَهَا كَثْرَتُه، حَتَّى سَتَرَ بِسَوَادِهِ مُشْتَمِلَ القُلْبِ[5]، حَسَنَةُ الثَّغْرِ، لَمْيَاءُ الشَّفَةِ، وَطْفَاءُ الأَشْفَارِ[6]، جَهْمَةُ[7] المُسْتَقْبِلِ، فَعْمَةُ المُسْتَدْبِرِ، تَنُوءُ

(1) اللِّفَاء: الشيء اليسير الحقير.

(2) البزندات: الحواجز تقام على القنوات.

(3) العبرة: شاطئ الوادي.

(4) أضاء: بحيرات، والمفرد: إضاءة.

(5) القلب: جمع قلب، وهو السوار، أي أن شعرها طال حتى ستر ساقيها إذ القلب هنا كناية عن الخلخال.

(6) الوطف: كثرة شعر الأشفار مع طولها.

(7) جهمة: غليظة، وهذا ينأى بها عن الريبة.



بِعَجِيزَتِهَا مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَة، خَدْلَةُ السَّاقِ[1]، ضَخْمَةُ الرُّكْبَةِ، بَلْجَاءُ مَا بَيْنَ العَيْنَيْنِ[2]، بَعِيدَةُ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ مَضْحَكُهَا أَنِيقٌ، وَخُلُقُهَا وَثِيقٌ[3]، تَخْلِطُ الجِدَّ بِالخَنَثِ فِي الكَلَامِ، مَعْرُوفَةَ الأَبَوَيْنِ، طَوِيلَةُ الخَدَّيْنِ، قَدْ كَتَبَتْ مَا يُقْرَأ، وَقَرَأَتْ مَا يُكْتَبُ، تُنْشِدُ مِنَ الشِّعْرِ بَعْضَهُ، وَتَقُومُ مِنْ خِدْمَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا، إِنْ طَابَ وَلَدُهَا كَانَتْ مِنْ أُمَّهَاتِ أَوْلَادِ الخِلَافَة، وَإِنْ اؤْتُمِنَتْ عَلَى حَمْلِ أَسْرَارِهِ اسْتَقَلَّتْ مِنْهَا بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْه، قَبُولَةٌ لِلْكَرَامَةِ سَرِيعَةُ النَّهْضَة، مُجِيبَةٌ لِلدَّعْوَةِ، قَلِيلَةُ الأَهْلِ، إِلَّا فِي حِرْزٍ مُوضَنٍ، ثُمَّ اشْتَرِ لَهَا خَدَماً يقِينهَاويَكْفِينَهَا، وَابْعَثْ بِهَا، وَخُذْ إِلَيْهَا أَمِيناً فِي دِينِه، مَأْمُوناً عَلَى مَا اسْتُودِعَ، يُبَلِّغُهَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَالِحِي أَهْلِكَ وَأَصْحَابِكَ، وَارْفَعْ نَفَقَتَكَ فِي ثَمَنِهَا وَمَا ابْتَعْتَ لَهَا فِي مُحَاسَبَتِكَ إِلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ يَحْسِبُهُ لَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ رِسَالَةٌ تُقْرَأُ مَعْكُوسَةً:

الإِنْسَانُ صَنِيعَةُ[4] الإِحْسَانِ؛ وَرَبُّ الجَمِيلِ فِعْلُ النَّدْبِ[5]، وَشِيمَةُ الحُرِّ ذَخِيرَةُ الحَمْدِ، وَكَسْبُ الشُّكْرِ اسْتِثْمَارُ السَّعَادَةِ، وَعُنْوَانُ الكَرَمِ تَبَاشِيرُ البِشْرِ، وَاسْتِعْمَالُ المُدَارَاةِ، يُوجِبُ المُصَافَاةِ، وَعَقْدُ المَحَبَّةِ يَقْتَضِي النُّصْحَ وَصِدْقُ الحَدِيثِ حِلْيَةُ اللِّسَانِ وَفَصَاحَةُ المَنْطِقِ سِحْرُ الأَلْبَابِ، وَشَرَكُ الهَوَى آفَةُ النُّفُوسِ، وَمِلَلُ الخَلَائِقِ[6] شَيْنُ الخَلَائِقِ، وَسُوءُ الطَّمَعِ يُبَايِنُ الوَرَعَ، وَالْتِزَامُ الحَزَامَةِ زِمَامُ السَّلَامَةِ، وَتَطَلُّبُ المَثَالِبِ شَرُّ المَعَايِبِ، وَتَتَبُّعُ العَثَرَاتِ يَدْحَضُ المَوَدَّاتِ، وَخُلُوصُ النِّيَّةِ خُلَاصَةُ العَطِيَّةِ، وَتَهْنِئَةُ النَّوَالِ، ثَمَنُ السُّؤَالِ، وَتَكَلُّفُ الكُلَفِ، يُسَهِّلُ الخَلَف، وَتَيَقُّنُ المَعُونَةِ، يُسَنِّي المُؤُونَة،

---

(1) خدلة: ممتلئة.
(2) البلجة: نقاوة ما بين الحاجبين.
(3) في الأصل: وخلفها وميق.
(4) الصنيعة: ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير.
(5) الندب: السيد الخفيف.
(6) الخلائق: مفردها خليقة وهي الجبلة والطبيعة.



وَفَضْلُ الصَّدْرِ[1] سَعَةُ الصَّدْرِ وَزِينَةُ الرُّعَاةِ، مَقْتُ السُّعَاةِ، وَجَزَاءُ المَدَائِحِ، بَثُّ المَنَائِحِ، وَمَهْرُ الوَسَائِلِ، تَشْفِيعُ المَسَائِلِ، وَمَجْلَبَةُ الغَوَايَةِ، اسْتِغْرَاقُ الغَايَةِ، وَتَجَاوُزُ الحَدِّ، يُكِلُّ الحَدَّ[2]، وَتَعَدِّي الأَدَبِ، يُحْبِطُ القُرَب، وَتَنَاسِي الحُقُوق، يُنْشِئُ العُقُوق، وَتَحَاشِي الرِّيَب، يَرْفَعُ الرُّتَب، وَارْتِفَاعُ الأَخْطَارِ، بِاقْتِحَامِ الأَخْطَارِ وَتَنَوُّهُ الأَقْدَارِ، بِمُوَاتَاةِ الأَقْدَار، وَشَرَفُ الأَعْمَالِ، فِي تَقْصِيرِ الآمَالِ، وَإِطَالَةُ الفِكْرَةِ، تَنْقِيحُ الحِكْمَةِ، وَرَأْسُ الرِّيَاسَةِ، تَهَذُّبُ السِّيَاسَةِ، وَمَعَ اللَّجَاجَةِ، تُلْغَى الحَاجَة، وَعِنْدَ الأَوْجَال، تَتَفَاضَلُ الرِّجَال، وَبِتَفَاضُلِ الهِمَم، تَتَفَاوَتُ القِيَم، وَبِتَزَيُّدِ السَّفِير، يَهِنُ التَّدْبِير، وَبِخَلَلِ الأَحْوَال، تَتَبَيَّنُ الأَهْوَال، وَبِمُوجِبِ الصَّبْرِ، ثَمَرَةُ النَّصْرِ، وَاسْتِحْقَاقُ الإِحْمَادِ، بِحَسَبِ الاجْتِهَادِ، وَوُجُوهُ المُلَاحَظَةِ، كِفَاءُ المُحَافَظَةِ، وَصَفَاءُ المَوَالِي، بِتَعَهُّدِ المَوَالِي، وَتَحَلِّي المُرُوءَاتِ، بِحِفْظِ الأَمَانَاتِ، وَاخْتِبَارُ الإِخْوَانِ، بِتَخْفِيفِ الأَحْزَانِ، وَدَفْعُ الأَعْدَاءِ، بِكَفِّ الأَوِدَّاءِ، وَامْتِحَانُ العُقَلَاءِ بِمُقَارَنَةِ الجُهَلَاءِ، وَتَبَصُّرُ العَوَاقِبِ، يُؤَمِّنُ المَعَاطِب، وَاتِّقَاءُ الشُّنْعَة، يَنْشُرُ السُّمْعَة؛ وَقُبْحُ الجَفَاء، يُنَافِي الوَفَاء، وَجَوْهَرُ الأَحْرَارِ، عِنْدَ الأَسْرَارِ[3].

وَلَهُ الرِّسَالَةُ الرَّقْطَاءُ وَهِيَ هَذِهِ:

أَخْلَاقُ سَيِّدِنَا تُحَبُّ، وَبِعَقْوَتِهِ يُلَبُّ[4]، وَقُرْبُهُ تُحَف، وَنَأْيُه تَلَف، وَخُلَّتُه نَسَب، وَقَطِيعَتُهُ نَصَب، وَغَرْبُهُ ذَلِق[5]، وَشُهْبُهُ تَأْتَلِق، وَظَلْفُهُ[6] زَان، وَقَوِيمُ نَهْجِهِ بَان، وَذِهْنُهُ قَلَّبَ وَجَرَّبَ، وَنَعْتُهُ شَرَّقَ وَغَرَّبَ:

سَيِّدٌ قُلَّبٌ سَبُوقٌ مُبِرٌّ   فَطِنٌ مُغْرِبٌ عَزُوفٌ عَيُوفُ[7]

---

(1) الصدر: المتقدم في الأمور، المتصدر لها.

(2) الحد الأول: معناه الفصل بين الشيئين وأصله المنع. والحد الثاني: معناه حد السيف.

(3) الرسالة: في شرح المقامات، ص: 162-167.

(4) بعقوته يلب: أي بمنزله يقام حماية لمن يلوذ به وإكراما لمن يلجأ إليه.

(5) غرب ذلق: أي حد سيف قاطع.

(6) الظلف: المنع والكف وظلفت نفسي عن الأمر منعتها منه.

(7) العيوف: الكاره للدنايا وهو عند العرب الذي يتلف ماله كرما.



مُخْلِــفٌ مُتْلِــفٌ أَغَــرّ فَرِيــدٌ نَابِــهٌ فَاضِــلٌ ذَكِــيٌّ أَنُــوفُ
مُفْلِــقٌ إِنْ أَبَــانَ، طَــبٌّ إِذَا نَــا بَ هِيَاجٌ وَجَلَّ خَطْبٌ مَخُوفُ[1]

مَنَاظِمُ شَرَفِهِ تَأْتَلِف، وَشُؤْبُوبُ[2] حِبَائِهِ يَكِف، وَنَائِلُ يَدَيْهِ فَاض، وَشُحُّ قَلْبِهِ غَاض، وَخِلْفُ[3] سَخَائِهِ يُحْتَلَب، وَذَهَبُ عِيَابِهِ يُحْتَرَب، مَنْ لَفَّ لَفَّهُ فَلَجَ وَغَلَب، وَتَاجِرُ بَابِهِ جَلَبَ وَخَلَب، كَفَّ عَنْ هَضْمِ بَرِي؛ وَبَرِئَ مِنْ دَنَسِ غَوِي؛ وَقَرَنَ لِيَانَهُ بِعِزّ، وَنَكَّبَ عَنْ مَذْهَبِ كَزّ، لَيْسَ بِوَثَّابٍ عِنْدَ نُهْزَةِ شَرٍّ، بَلْ يَعِفُّ عِفَّةَ بَرٍّ:

فَلِــذَا يُحِــبُّ ويَــسْتَحِقُّ عَفَافُــهُ شَــغَفًا بِــهِ فَلُبَابُــهُ غَــلَّابُ
أَخْلَاقُــه غُــرٌّ تَــرِفُّ، وَفُوقُــهُ فُــوقٌ[4] إِذَا نَاضَــلْتَهُ غَــلَّابُ
سَــجِحٌ[5] يَهَــشُّ وَذُو تَــلَافٍ إِنْ هَفَـا خِــلٌّ فَلَــيْسَ بِحَقِّــهِ يُرْتَــابُ
لَا بَاخِــلٌ بَــلْ بَــاذِلٌ خــرقٌ إِذَا يُعْتَــرُّ[6] بَــرْزٌ لَا يَلِيــهِ بَــابُ
إِنْ عَــضَّ أَزْلٌ، فَــلَّ غَــرْبَ عِــضَاضِهِ بِمَنَابِــهِ، فَانْحَــتَّ مِنْــهُ نَــابُ[7]

وَجَدِيرٌ بِمَنْ لَبَّ وَفَطَن، وَقَرُبَ وَشَطَن، أَنْ أَذْعَنَ لِقَرِيعِ زَمَنْ وَجَابِرِ زَمِنْ[8] مُذْ رَضَعَ ثَدْيَ لِبَانِه، خُصَّ بِإِفَاضَةِ تَهْتَانِه، نَعَشَ وَفَرَّج، وَضَافَرَ فَأَبْهَج، وَنَافَرَ فَأَزْعَج؛ وَفَاءَ بِحَقٍّ أَبْلَج، أَتْعَبَ مَنْ سَيَلِي، وَقُرِّظَ إِذْ هُزَّ وَبُلِي، وَتَوَّجَ صِفَاتِهِ بِحُبِّ عُفَاتِه:

فَــلَا خَــلَا ذَا بَهْجَــةٍ يَمْتَــدُّ ظِــلُّ خِــصْبِهِ

(1) الأبيات من بحر الخفيف.
(2) الشؤبوب: المطر يصيب المكان ويخطئ الآخر فهو المطر المتفرق.
(3) الخِلْفُ: حَكمةُ الضرع الذي يحتلب منه اللبن، ويطلق على الضرع أيضا.
(4) الفوق الأولى: تعني السهم، والثانية طرفه الذي يلي الوتر.
(5) الساحج: الطيب الخلق اللين الجانب.
(6) المعتر: من قصده السائلون والطالبون ولجأوا إليه.
(7) الأبيات من بحر الكامل.
(8) الزمن: الفقير الذي لازمه الفقر أو المريض الذي لم يفارقه مرضه.



فَإِنَّــــهُ بَـــرٌّ بِمَـــنْ آنَـــسَ ضَــوْءَ شُــهْبِهِ
زَانَ مَزَايَـــا طَرْفِـــهِ بِلُـــبْسِ خَـــوْفِ رَبِّـــهِ[1]

فَلْيَهْنِ سَيِّدَنَا فَوْزُهُ بِمَفَاخِرَ تَأَثَّلَتْ وَجَلَّتِ، وَفَوْتُهُ بِصَنَائِعَ تَمَّتْ وَنَمَتْ، وَيُلَائِمُ قُرْبَ حَضْرَتِهِ، غَوْثُ رِقِّهِ بِحَظٍّ مِنْ حُظْوَتِهِ، فَإِنَّهُ تَلِيدُ نَدْب، وَشَرِيدُ جَدْب، وَجَرِيحُ نُوَبٍ أَثَّرَتْ، وَنَاظِمُ قَلَائِدَ تَسَيَّرَتْ، إِذَا جَاشَ لِخُطْبَةٍ فَلَا يُوجَدُ قَائِل، ثَمَّ قُسٌّ ثَمَّ بَاقِل[2]، فَإِنْ حَبَّرَ قُلْتَ حِبَرٌ نُمْنِمَتْ، وَخِلْتَ رِيَاضاً قَدْ نَمَتْ، هَذَا ثُمَّ شِرْبُهُ بَرْض[3]، وَقُوتُهُ قَرْض؛ وَفَلَقُه غَسَق، وَجِلْبَابُهُ خلق، وقد قَلِقَ لِتَوَغُّرِ غَرِيمٍ غَاشِم، يَسْتَحِثُّهُ بِحَقٍّ لَازِم، فَإِنْ مَنَّ سَيِّدُنَا بِكَفِّهِ، بِهِبَاتِ كَفِّهِ، تَوَشَّحَ بِمَجْدٍ فَاق، وَبَاءَ بِأَجْرِ فَكِّي مِنْ وَثَاق، لَا خَلَتْ سَجَايَا خُلُقِه، تَرْفِدُ شَائِمَ بَرْقِه، بمنْ رَبٌّ أَزَلِيٌّ، حَيٌّ أَبَدِيٌّ.

وَلَهُ الْخُطْبَةُ النُّخْبَة - كَمَا قَالَ - بِلَا سَقْطٍ وَالعَرُوسُ بِغَيْرِ نَقْطٍ وَهِيَ هَذِه:

الحَمْدُ للهِ المَمْدُوحِ الأَسْمَاءِ، المَحْمُودِ الآلَاءِ، الوَاسِعِ العَطَاءِ، المَدْعُوِّ لِحَسْمِ اللَّأْوَاءِ[4]، مَالِكِ الأُمَمِ، وَمُصَوِّرِ الرِّمَمِ، وَأَهْلِ السَّمَاحِ وَالكَرَمِ، وَمُهْلِكِ عَادٍ وَإِرَم[5]، أَدْرَكَ كُلَّ سِرٍّ عِلْمُه، وَوَسِعَ كُلَّ مِصْرٍ حِلْمُه، وَعَمَّ كُلَّ عَالِمٍ طَوْلُه، وَهَدَّ كُلَّ مَارِدٍ حَوْلُه، أَحْمَدُهُ حَمْدَ مُوَحِّدٍ مُسْلِم، وَأَدْعُوهُ دُعَاءَ مُؤَمِّلٍ مُسَلِّم، وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الوَاحِدُ الأَحَد، العَادِلُ الصَّمَد، لَا وَلَدَ لَهُ وَلَا وَالِد، وَلَا رِدْءَ مَعَهُ وَلَا مُسَاعِد، أَرْسَلَ مُحَمَّداً

---

(1) الأبيات من مجزوء الكامل.

(2) سحبان وباقل: خطيبان مشهوران بفصاحتهما وبلاغتهما قال الشاعر:

لَـوْ أَنَّ بَـاقِلاً المُفَهَّـهَ يَنْبَـرِي وَلِمَـدْحِهَا سَـهُلَتْ عَلَيْـهِ خُرُومُهَـا
وَلَـو اَنَّ سَـحْبَاناً يَـسْحَبُ ذَيْلَـهُ فِـي ذَمِّهَـا لَـمْ يَـدْرِ كَيْـفَ يُـدِيمُهَا

(3) البرض: القليل من كل شيء.

(4) اللأواء: الشدة والضيق.

(5) عاد وإرم: أمتان قديمتان وقيل إرم قبيلة من عاد، وهي اسم لكثير من القبائل، كَطَسْمٍ وَجَدِيس.



لِلْإِسْلَامِ مُمَهِّدا، وَلِلْمِلَّةِ مُوَطِّداً، وَلِأَدِلَّةِ الرُّسُلِ مُؤَكِّداً، وَلِلْأَسْوَدِ وَالأَحْمَرِ[1] مُسَدِّدا، وَصَلَ الأَرْحَام، وَعَلَّمَ الأَحْكَام، وَوَسَمَ الحَلَالَ وَالحَرَام، وَرَسَمَ الإِحْلَالَ وَالإِحْرَام، كَرَّمَ اللهُ مَحَلَّه، وَكَمَّلَ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ لَه، وَرَحِمَ آلَهُ الكُرَمَاء، وَأَهْلَهُ الرُّحَمَاء، مَا هَمَرَ رُكَام، وَهَدَلَ حَمَام، وَسَرَحَ سَوَام، وَسَطَا حُسَام، اعْمَلُوا رَحِمَكُمُ اللهُ عَمَلَ الصُّلَحَاء، وَاكْدَحُوا لِمَعَادِكُمْ كَدْحَ الأَصِحَّاء، وَارْدَعُوا أَهْوَاءَكُمْ رَدْعَ الأَعْدَاء، وَأَعِدُّوا لِلرِّحْلَةِ إِعْدَادَ السُّعَدَاء، وَادَّرِعُوا حُلَلَ الوَرَع، وَدَاوُوا عِلَلَ الطَّمَع، وَسَوُّوا أَوَدَ العَمَل، وَعَاصُوا وَسَاوِسَ الأَمَل، وَصَوِّرُوا لِأَوْهَامِكُمْ حُؤُولَ الأَحْوَالِ، وَحُلُولَ الأَهْوَالِ، وَمُسَاوَرَةَ الأَعْلَالِ، وَمُصَارَمَةَ المَالِ وَالآلِ، وَادَّكِرُوا الحِمَامَ وَسَكْرَةَ مَصْرَعِه، وَالرَّمْسَ وَهَوْلَ مُطَّلَعِه، وَالْمَحُوا الدَّهْرَ وَلُؤْمَ كَرِّهِ، وَسُوءَ مَحَالِهِ وَمَكْرِهِ، كَمْ طَمَسَ مَعْلَما، وَأَمَّرَ مَطْعَما، وَطَحْطَحَ[2] عَرَمْرَما، وَدَمَّرَ مَلِكاً مُكَرَّما، هَمُّهُ سَكُّ المَسَامِعِ، وَسَحُّ المَدَامِعِ، وَإِكْدَاءُ المَطَامِعِ، وَإِرْدَاءُ المَسْمَعِ وَالسَّامِعِ، عَمَّ حُكْمُهُ المُلُوكَ وَالرَّعَاع، وَالمَسُودَ وَالمُطَاع، وَالمَحْسُودَ وَالحُسَّاد، وَالأَسَاوِدَ وَالآسَاد، مَا مَوَّلَ إِلَّا مَال، وَعَكَسَ الآمَال، وَمَا وَصَلَ إِلَّا وَصَال، وَكَلَمَ الأَوْصَال، وَلَا سَرَّ إِلَّا وَأَسَاءَ، وَلَؤُمَ وَأَسَاءَ، وَلَا أَصَحَّ إِلَّا وَلَّدَ الدَّاء، وَرَوَّعَ الأَوِدَّاء، اللهَ اللهَ، رَعَاكُمُ الله، إِلَامَ مُدَاوَمَةُ اللَّهْوِ، وَمُوَاصَلَةُ السَّهْوِ، وَطُولُ الإِصْرَار، وَحَمْلُ الإِصَار، وَاطِّرَاحُ كَلَامِ الحُكَمَاءِ، وَمُعَاصَاةُ إِلَهِ السَّمَاء، أَمَا الهَرَمُ حَصَادُكُم، وَالمَدَرُ مِهَادُكُم، أَمَا الحِمَامُ مُدْرِكُكُمْ، وَالصِّرَاطُ مَسْلَكُكُم، أَمَا السَّاعَةُ مَوْعِدُكُم، وَالسَّاهِرَةُ مَوْرِدُكُم، أَمَا أَهْوَالُ الطَّامَّةِ لَكُمْ مُرْصَدَة، أَمَا دَارُ العُصَاةِ الحُطَمَةُ المُوصَدَة. حَارِسُهُمْ مَالِك، وَرُوَاؤُهُمْ حَالِك، وَطَعَامُهُمُ السُّمُوم، وَهَوَاؤُهُمُ السَّمُوم[3]، لَا مَالَ أَسْعَدَهُمْ وَلَا وَلَد، وَلَا عَدَدَ حَمَاهُمْ وَلَا عُدَد، أَلَا رَحِمَ اللهُ امْرَءاً مَلَكَ هَوَاه، وَأَمَّ مَسَالِكَ هُدَاه، وَأَحْكَمَ طَاعَةَ مَوْلَاه، وَكَدَّ وَكَدَحَ لِرُوحِ مَأْوَاه، وَعَمِلَ مَا دَامَ العُمْرُ

---

(1) الأحمر: يطلق ويراد به جميع الناس كما يراد به خاصة الروم والفُرس.

(2) طحطح: أهلك وفرق.

(3) السَّمُوم الأولى: تعني السم القاتل، والثانية: هي ريح حارة تهب من الجنوب.



مُطَاوِعا، وَالدَّهْرُ مُوَادِعا، وَالصَّحَّةُ كَامِلَة، وَالسَّلَامَةُ حَاصِلَة، وَإِلَّا دَهَمَهُ عَدَمُ المَرَام، وَحَصَرُ الكَلَام[1]، وَإِلْمَامُ الآلَام، وَحُمُومُ الحِمَام، وَمِرَاسُ الأَرْمَاس، آهاً لَهَا حَسْرَةً أَلَمُهَا مُؤَكَّد، وَأَمَدُهَا سَرْمَد، وَمُمَارِسُهَا مُكْمَد، مَا لِوَلَهِهِ حَاسِم، وَلَا لِسَدَمِهِ[2] رَاحِم، وَلَا لَهُ مِمَّا عَرَاهُ عَاصِم، أَلْهَمَكُمُ اللهُ أَحْمَدَ الإِلْهَام، وَرَدَّاكُمْ رِدَاءَ الإِكْرَام، وَأَحَلَّكُمْ دَارَ السَّلَام، وَأَسْأَلُهُ الرَّحْمَةَ لَكُمْ وَلِأَهْلِ مِلَّةِ الإِسْلَام، وَهُوَ أَسْمَحُ الكِرَام، وَالمُسَلِّمُ وَالسَّلَام.

وَلَهُ خُطْبَتُهُ البَدِيعَةُ النِّظَامِ العَرِيَّةُ مِنَ الإِعْجَامِ وَهِيَ هَذِه[3]:

الحَمْدُ للهِ المَلِكِ المَحْمُودِ، المَالِكِ الوَدُود، مُصَوِّرِ كُلِّ مَوْلُود، وَمَآلِ كُلِّ مَطْرُود، سَاطِعِ المِهَادِ، وَمُوَطِّدِ الأَطْوَادِ، وَمُرْسِلِ الأَمْطَارِ، وَمُسَهِّلِ الأَوْطَارِ، عَالِمِ الأَسْرَارِ وَمُدْرِكِهَا، وَمُدَمِّرِ الأَمْلَاكِ وَمُهْلِكِهَا، وَمُكَوِّرِ[4] الدُّهُورِ وَمُكَرِّرِهَا، وَمُورِدِ الأُمُورِ وَمُصْدِرِهَا، عَمَّ سَمَاحُهُ وَكَمَل، وَهَطَلَ رُكَامُهُ وَهَمَل، وَطَاوَعَ السُّؤْلَ وَالأَمَل، وَأَوْسَعَ المُرْمِلَ وَالأَرْمَل، أَحْمَدُهُ حَمْداً مَمْدُوداً مَدَاه، وَأُوَحِّدُهُ كَمَا وَحَّدَهُ الأَوَّاه، وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ لِلأُمَمِ سِوَاه، وَلَا صَادِعَ لِمَا عَدَّلَهُ وَسوَّاه، أَرْسَلَ مُحَمَّداً عَلَماً لِلْإِسْلَام، وَإِمَاماً لِلْحُكَّام، وَمُسَدِّداً لِلرَّعَاع، وَمُعَطِّلاً أَحْكَامَ وُدٍّ وَسُوَاع، أَعْلَمَ وَعَلَّم، وَحَكَمَ وَأَحْكَم، وَأَصَّلَ الأُصُولَ وَمَهَّد، وَأَكَّدَ الوُعُودَ وَأَوْعَدَ، وَاصَلَ اللهُ لَهُ الإِكْرَام وَأَوْدَعَ رُوحَهُ دَارَ السَّلَام، وَرَحِمَ آلَهُ وَأَهْلَهُ الكِرَام، مَا لَمَعَ آلٌ وَمَلَعَ رَالٌ[5]، وَطَلَعَ هِلَالٌ وَسُمِعَ إِهْلَال، اعْمَلُوا رَعَاكُمُ اللهُ أَصْلَحَ الأَعْمَال، وَاسْلُكُوا مَسَالِكَ الحَلَالِ وَاطَّرِحُوا الحَرَامَ وَدَعُوه، وَاسْمَعُوا أَمْرَ اللهِ وَعُوه، وَصِلُوا الأَرْحَام وَرَاعُوهَا، وَعَاصُوا الأَهْوَاءَ وَارْدَعُوهَا؛ وَصَاهِرُوا الحَم

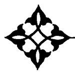
(1) الحَصَر: الحبسة التي تكون في الكلام، ورجل حصور لا يتكلم بطلاقة وبيان.

(2) السدم: الحيرة والقلق.

(3) الرسالة في شرح المقامات، ص: 302- 305. وفي شرح الشريشي3/ 101.

(4) كور: يقال كورت الشيء لويت بعضه على بعض، والتكوير إدخال الليل على النهار، والنهار على الليل.

(5) الرال: والرأل: فرخ النعامة، وملع في مشيه عدا وأسرع.



الصَّلَاحِ وَالوَرَعِ، وَصَارِمُوا رَهْطَ اللَّهْوِ وَالطَّمَعِ، وَمُصَاهِرُكُمْ أَطْهَرُ الأَحْرَارِ مَوْلِدًا، وَأَسْرَاهُمْ سُؤْدَدا، وَأَحْلَاهُمْ مَوْرِدا، وَأَصَحُّهُم مَوْعِدا، وَهَا هُوَ أَمَّكُمْ وَحَلَّ حَرَمَكُم، مُمْلِكًا عَرُوسَكُمُ المُكَرَّمَة، وَمَاهِراً لَهَا كَمَا مَهَرَ الرَّسُولُ أُمَّ سَلَمَة[1]، وَهُوَ أَكْرَمُ صِهْرًا أُودِعَ الأَوْلَاد، وَمُلِّكَ مَا أَرَاد، وَمَاسَهَا مُمَلِّكُهُ وَلَا وَهِم، وَلَا وَكَسَ مُلَاحِمُهُ وَلَا وُصِم، أَسْأَلُ اللهَ لَكُمْ إِحْمَادَ وِصَالِهِ، وَدَوَامَ إِسْعَادِهِ، وَأَلْهَمَ كُلاًّ، إِصْلَاحَ حَالِهِ وَالإِعْدَادَ لِمَعَادِهِ، وَلَهُ الحَمْدُ السَّرْمَد، وَالمَدْحُ لِرَسُولِهِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَلَهُ فَصْلٌ فِي المَقَامَةِ: السَّادِسَة عَشْرَةَ المَغْرِبِيَّة:

وَثَبنا نَحْنُ إِلَى اسْتِثَارَةِ مُلَحِ الأَدَبِ وَعُيُونِه، وَاسْتِنْبَاطِ مَعِينِهِ مِن عُيُونِه، إِلَى أَنْ جُلْنَا فِيمَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالانْعِكَاسِ، كَقَوْلِكَ: سَاكِبُ كَاس، فَتَدَاعَيْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَنْتِجَ لَهُ الأَفْكَار، وَنَفْتَرِعَ مِنْهُ الأَبْكَار، عَلَى أَنْ يَنْظِمَ البَادِي ثَلَاثَ جُمَانَاتٍ[2] فِي عِقْدِه، ثُمَّ تَتَدَرَّجَ الزِّيَادَاتُ مِنْ بَعْدِه، فَيُرَبِّعَ ذُو مَيْمَنَتِهِ فِي نَظْمِهِ، وَيُسَبِّعُ صَاحِبُ مَيْسَرَتِهِ عَلَى رَغْمِهِ.

قَالَ الرَّاوِي: وَكُنَّا قَدِ انْتَظَمْنَا عِدَةَ أَصَابِعِ الكَفّ، وَتَأَلَّفْنَا أُلْفَةَ أَصْحَابِ الكَهْف، فَابْتَدَرَ لِعِظَمِ مِحْنَتِي، صَاحِبُ مَيْمَنَتِي، وَقَالَ: «لُمَّ أَخاً مَلَّ» وَقَالَ مُيَامِنُهُ «كَبِّرْ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّك» وَقَالَ الَّذِي يَلِيهِ «مَنٌّ يَرُبُّ إِذَا بَرَّ يَنُمّ» وَقَالَ الآخَرُ: «سَكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكِسْ» وَأَفْضَتِ النَّوْبَةُ إِلَيَّ، وَقَدْ تَعَيَّنَ نَظْمُ السِّمْطِ السُّبَاعِيِّ عَلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ فِكْرِي يَصُوغُ وَيَكْسِر؛ وَيُثْرِي وَيُعْسِر، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ أَسْتَطْعِمُ فَلَا أَجِدُ مَنْ يُطْعِم، إِلَى أَنْ رَكَدَ النَّسِيم، وَحَصْحَصَ التَّسْلِيم، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي لَوْ حَضَرَ السَّرُوجِيُّ هَذَا المَقَام، لَشَفَى الدَّاءَ العُقَام، فَقَالُوا لَوْ نَزَلَتْ هَذِهِ بِإِيَاس، لَأَمْسَكَ عَلَى يَاس.

وَجَعَلْنَا نُفِيضُ فِي اسْتِصْعَابِهَا، وَاسْتِغْلَاقِ بابِهَا، وَذَلِكَ الزَّوْرُ المُعْتَرِي، يَلْحَظُنَا لَحْظَ المُزْدَرِي، وَيُؤَلِّفُ الدُّرَرَ وَنَحْنُ لَا نَدْرِي، فَلَمَّا عَثَرَ عَلَى افْتِضَاحِنَا، وَنُضُوبِ

---

(1) أم سلمة: هي هند بنت أمية بن المغيرة تزوج بها الرسول ﷺ قبل وقعة بدر.

(2) الجمانة: حبة تصنع من الفضة فتصير كالدرة وقد سمى أحد المؤلفين في الغرب الإسلامي كتابه باسم: «الجمانة في إزالة الرطانة».



ضَحْضَاحِنَا[1]، قَالَ: يَا قَوْمُ إِنَّ مِنَ العَنَاءِ العَظِيم، اسْتِيلَادَ العَقِيم، وَالاسْتِشْفَاءَ بِالسَّقِيم، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2] ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَقَالَ، سَأَنُوبُ مَنَابَكَ، وَأَكْفِيكَ مَا نَابَكَ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَنْثُرْ، وَلَا تَعْثُرْ، فَقُلْ مُخَاطِباً لِمَنْ ذَمَّ البَخَلَ وَأَكْثَرَ العَذَلَ: «لُذْ بِكُلِّ مُؤَمَّلٍ إِذَ لَمَّ وَمَلَكَ بَذَل»، وَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَنْظِم، فَقُلْ لِلَّذِي تُعْظِم:

أُسْ أَرْمَــلاً إِذَا عَــرَا ... وَارْعَ إِذَا المَــرْءُ أَسَــا
أَسْــنِدْ أَخَــا نَبَاهَــةٍ ... أَبِــنْ إِخَــاءَ دَنَّــسَا
أُسْــلُ جَنَــابَ غَاشِــمٍ ... مُــشَاغِبٍ إِنْ جَلَــسَا
اسْــرِ إِذَا هَــبَّ مِــراً ... وَارْمِ بِــهِ إِذَا رَسَــا
أُسْــكُنْ تَقَــوَّ فَعَــسَى ... يُــسْعِفُ وَقْــتٌ نَكَــسَا[3]

وَمِنْ رَسَائِلِهِ عَلَى الْتِزَامِ حَرْفِ السِّين[4]:

بِاسْمِ السَّمِيعِ القُدُّوسِ أَسْتَفْتِحُ، وَبِإِسْعَادِهِ أَسْتَنْجِحُ، سِيرَةُ سَيِّدِنَا الإِسْفِهْسِلَّارِ السَّيِّدِ النَّفِيسِ سَيِّدِ الرُّؤَسَاءِ سَيْفِ السَّلَاطِينِ حُرِسَتْ نَفْسُهُ، وَاسْتَنَارَتْ شَمْسُهُ، وَاتَّسَقَ أُنْسُهُ، وَبَسَقَ[5] غَرْسُهُ، اسْتِمَالَةُ الجَلِيسِ، وَمُسَاهَمَةُ الأَنِيسِ، وَمُسَاعَدَةُ الكَسِيرِ وَالسَّلِيبِ، وَمُوَاسَاةُ السَّحِيقِ وَالنَّسِيبِ، وَالسِّيَادَةُ تَسْتَدْعِي اسْتِدَامَةَ السَّنَن، وَحِرَاسَةَ الرَّسْمِ الحَسَنِ، وَسَمِعْتُ بِالأَمْسِ تَدَارُسَ الأَلْسُنِ سُلَافَةَ خَنْدَرِيسِه[6] فِي سَلْسَالِ كُؤُوسِه، وَمَحَاسِنَ مَجْلِسِ مَسَرَّتِه، وَإِحْسَانَ سُمْعَةِ سِيَادَتِهِ، فَاسْتَسْلَفْتُ السَّرَّاءَ، وَتَوَسَّمْتُ

(1) الضحضاح: الماء النزر القليل اليسير.
(2) سورة يوسف، الآية: 76.
(3) الأبيات من مجزوء الكامل.
(4) شرح المقامات، ص: 604.
(5) بسق: تم طوله واتساقه وفي القرآن في سورة ق، الآية: 10، قال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.
(6) الخندريس: الخمرة القديمة، وهي كلمة معربة كما نص على ذلك ابن دريد.



الاسْتِدْعَاءَ، وَسَوَّفْتُ نَفْسِي بِالاحْتِسَاءِ، وَمُؤَانَسَةِ الجُلَسَاءِ، وَجَلَسْتُ أَسْتَقْرِي السُّبُلَ، وَأَسْتَطْلِعُ الرُّسُلَ، وَأَسْتَبْعِدُ تَنَاسِيَ اسْمِي، وَأُسَاوِرُ الوَسَاوِسَ لاسْتِحَالَةِ رَسْمِي:

وَسَيْفُ السَّلَاطِينِ مُسْتَأْثِرٌ ... بِأُنْسِ السَّمَاعِ وَحَسْوِ الكُؤُوسِ
سَلَانِي وَلَيْسَ لِبَاسُ السُّلُوِّ ... يُنَاسِبُ حُسْنَ سِمَاتِ النَّفِيسِ
وَسَنَّ تَنَاسِيَ جُلَّاسِهِ ... وَأَسْوَا السَّجَايَا تَنَاسِي الجَلِيسِ
وَسَرَّ حَسُودِي بِطَمْسِ الرُّسُومِ ... وَطَمْسُ الرُّسُومِ كَرَمْسِ النُّفُوسِ
وَسَاقِي الحُسَامَ بِكَأْسِ السُّلَافِ ... وَأَسْهَمَنِي بِعُبُوسٍ وَبُوسِ[1]
وَأَسْكَرَنِي حَسْرَةً وَاسْتَعَاضَ ... لِقَسْوَتِهِ سَكْرَةَ الخَنْدَرِيسِ
سَأَكْسُوهُ لِبْسَةَ مُسْتَعْتِبٍ ... وَأُمْسِكُ إِمْسَاكَ سَالٍ يَؤُوسِ
أُسَطِّرُ سِينَاتِهِ سِيرَةً ... تَسِيرُ أَسَاطِيرُهَا كَالبَسُوسِ[2]

ولَهُ أَيْضاً عَلَى الْتِزَامِ حَرْفِ الشِّين[3]:

بِإِرْشَادِ المُنْشِي، أُنْشِي، شَغَفِي بِالشَّيْخِ شَمْسِ الشُّعَرَاءِ رِيشَ مَعَاشِه، وَفَشَا رِيَاشُه، وَأَشْرَقَ شِهَابُه، وَاعْشَوْشَبَتْ شِعَابُه، يُشَاكِلُ شَغَفَ المُنْتَشِي بِالنَّشْوَى، وَالمُرْتَشِي بِالرِّشْوَى، وَالشَّادِنِ بِشَرْخِ الشَّبَابِ، وَالعَطْشَانِ إِلَى شَبِمِ[4] الشَّرَاب، وَشُكْرِي لِتَجَشُّمِهِ وَمَشَقَّتِه، وَشَوَاهِدِ شَفَقَتِه، يُشَاكِلُ شُكْرَ النَّاشِدِ لِلْمُنْشِدِ، وَالمُسْتَرْشِدِ لِلْمُرْشِد، وَالمُسْتَشْعِرِ لِلْمُبَشِّر، وَالمُسْتَجِيشِ لِلْجَيْشِ المُشَمِّر، وَشِعَارِي إِنْشَادُ شِعْرِه، وَإِشْجَاءُ الكَاشِحِ وَالمُكَاشِرِ بِنَشْرِه، وَشُغْلِي إِشَاعَةُ وَشَائِعِه[5] وَتَشْيِيدُ شَفَائِعِه، وَالإِشَادَةُ

(1) بوس: مخففة بؤس.

(2) البسوس: امرأة كانت تعيش في الجاهلية وقد دارت بسببها حرب ضروس في الجاهلية وسميت باسمها فأصبحت كالأسطورة التي يتناقلها الناس. والأبيات من المتقارب.

(3) انظر شرح المقامات، ص: 607.

(4) الشبم: البارد وفي حديث جرير خير الماء الشبم.

(5) الوشائع: الزخارف والتحليات.



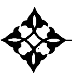
وَالإِشَادَةُ بِشُذُورِهِ وَشُنُوفِه، والمَشُورَةُ بِتَشْفِيعِه وَتَشْرِيفِه، وَأَشْهَدُ شَهَادَةَ المُشَنِّع الكَاشِف، وَالمُنْشِرِ المُكَاشِف، لإِنْشَادُهُ يُدْهِشُ الشَّائِبَ وَالنَّاشِي، وَيُلَاشِي شِعْرَ النَّاشِي[1]، وَلَمُشَاهَدَتُهُ كَاشْتِيَارِ الشَّهْدِ، وَتَبَاشِيرِ الرُّشْدِ، وَلَمُشَاحَنَتُهُ تُشْقِي المُشَاحِن، وَلَمُشَاجَرَتُهُ تَنْشُرُ المَشَاين، وَلَمُشَاغَبَتُهُ تُشْظِي الأَشْطَان، وَتُشِيطُ الشَّيْطَان، فَشَرَفًا لِلشَّيْخ شَرَفًا، وَشَغَفًا بِشِنْشِنَتِهِ شَغَفًا:

فَأَشْعَارُهُ مَشْهُورَةٌ وَمَشَاعِرُهْ ... وَعِشْرَتُهُ مَشْكُورَةٌ وَعَشَائِرُهْ
شَأَى الشُّعَرَاءَ المُشْمَعِلِّينَ شِعْرُهُ ... فَشَانِيهِ مَشْجُوُّ الحَشَا وَمُشَاغِرُهْ
وَشَوَّهَ تَرْقِيشَ المُرَقِّشِ رَقْشُه[2] ... فَأَشْيَاعُهُ يَشْكُونَهُ وَمَعَاشِرُهْ
وَشَاقَ الشَّبَابَ الشُّمَّ وَالشِّيبَ وَشْيُهُ ... فَمَنْشُورُهُ بُشْرَى المَشُوقِ وَنَاشِرُهْ
شَمَائِلُهُ مَعْشُوقَةٌ كَشَمُولِهِ ... وَشِرِّيبُهُ مُسْتَبْشِرٌ وَمُعَاشِرُهْ
شَكُورٌ وَمَشْكُورٌ وَحَشْوُ مُشَاشِهِ ... شَهَامَةُ شِمِّيرٍ يَطِيشُ مُشَاجِرُهْ
شَقَاشِقُهُ مَخْشِيَّةٌ وَشَبَاتُهُ ... شَبَا مَشْرَفِيٍّ جَاشَ لِلشَّرِّ شَاهِرُهْ
شَفَا بِالأَنَاشِيدِ النَّشَاوَى وَشَفَّهُمْ ... فَمَشْفِيُّهُ مُشْفىً وَشَاكِيهِ شَاكِرُهْ
وَيَشْدُو فَيَهْتَشُّ الشَّحِيحُ لِشَدْوِهِ ... وَيُشْغِفُهُ إِنْشَادُهُ فَيُشَاطِرُهْ
تَجَشَّمَ غِشْيَانِي فَشَرَّدَ وَحْشَتِي ... وَبَشَّرَ مَمْشَاهُ بِبِشْرٍ أُبَاشِرُهْ
سَأُنْشِدُهُ شِعْراً تُشَرِّقُ شَمْسُهُ ... وَأَشْكُرُهُ شُكْراً تَشِيعُ بَشَائِرُهْ[3]

وَأَشْهَدُ شَهَادَةَ شَاهِدِ الأَشْيَاءِ، وَمُشْبِعِ الأَحْشَاءِ، لَيُشْعِلَنَّ شُوَاظُ أَشْوَاقِي شَحْطُه، وَلَيُشْعِثَنَّ شَمْلَ نَشَاطِي نَشْطُه، فَنَاشَدْتُ الشَّيْخَ أَيَشْعُرُ بِاسْتِيحَاشِي لِشُسُوعِه،

---

(1) الناشي: هناك ناشئان الأصغر والأكبر، انظر وفيات الأعيان 1/ 263.
(2) المرقش: هناك مرقشان الأكبر والأصغر وهما شاعران جاهليان، انظر الأغاني 5/ 199. شرح المفضليات، ص: 216.
(3) الأبيات من الطويل.



وَإِجْهَاشِي لِتَشْيِيعِه، وَوِشَايَتِي لِنَشِيدِهِ المَوْشِيِّ، وَنَشِيدِ شَخْصِهِ بِالإِشْرَاقِ وَالعَشِيِّ، حَاشَاهُ حَاشَاهُ، تُغْشِيهِ شُبْهَةٌ وَتَغْشَاهُ، فَلْيَسْتَشِفَّ شَرْحَ شُجُونِي لِشُطُونِه، وَمُشَارَكَتِي لِشُجُونِه، وَاشْتِغَالِي بِتَمْشِيَةِ شُؤُونِه، لِيَشُدَّ جَاشِي، وَيُشَارِفَ انْكِمَاشِي، عَاشَ مُنْتَعِشَ الحُشَاشَة، مُسْتَشْرِيَ البَشَاشَة[1]، مَشْحُوذَ الشِّفَارِ، مُنْتَشِرَ الشَّرَارِ، شَتَّاماً لِلأَشْرَارِ، شَحَّاذاً بِالأَشْعَارِ، يَشْرَحُ وَيَجُوش، وَيُنْعِشُ المَنْقُوش، بِمَشِيئَةِ الشَّدِيدِ البَطْشِ، الشَّامِخِ العَرْشِ، وَتَشْرِيفِهِ لِبَشِيرِ البَشَر، وَشَفِيعِ المَحْشَر.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ اللهِ مُحَمَّد بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ الحَنَّاطِ المَكْفُوف فَصْلٌ لَهُ مِنْ رُقْعَةٍ خَاطَبَ بِهَا ابْنَ دُرِّي[2]:

حَنَانَيْكَ أَيُّهَا الغَيْثُ الهَطِل، وَلَبَّيْكَ أَيُّهَا الرَّوْضُ الخَضِل، فَإِنَّهُ طَلَعَ عَلَيْنَا مِنْ رُعَيْنٍ رَائِدٌ رَتَعَ بِرَوْضِك، وَكَرَعَ فِي حَوْضِك؛ هَزَّ بِكَ عِطْفَ الشِّعْر، فَمَدَّ إِلَيْكَ طَرْفَه، وَثَنَى إِلَيْكَ عِنَانَ الشُّكْرِ، فَحَثَّ نَحْوَكَ طِرْفَه.

وَكَانَ فُلَانٌ ذُو الخُلُقِ العَمِيمِ وَالخَلْقِ الكَرِيمِ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[3] يُتْحِفُنَا مِنْ ذِكْرِكَ بِنَافِجَةِ مِسْك، وَيُخْبِرُنَا بِخَبَرِكَ عَنْ وَاسِطَةِ سِلْك، وَتُعْرَفُ مَوَاقِعُ الغَيْثِ بِرُوَّادِه، وَيُوقَفُ عَلَى مَوَاضِعِ المَاءِ بِوُرَّادِه، فَعَنْ مِقَةٍ نَزَعْنَا إِلَيْك، فَاجْتَهَدْنَا، وَعَنْ ثِقَةٍ نَبَّهْنَا لَهَا عُمَراً ثُمَّ نِمْنَا[4]، وَمَا حَرَّكْنَا مِنْ أَدَبِكَ سَاكِناً، وَلَا أَثَرْنَا مِنْ كَرَمِكَ كَامِناً، وَغَيْرَ أَنَّ الجَمْرَ يُحَشُّ عَلَى ذَكَائِه، وَالنَّصْلَ يُهَزُّ

---

(1) في شرح المقامات «مستبشر الحشاشة».

(2) الذخيرة1/ 1-438.

(3) سورة الحديد، الآية: 20.

(4) فيه إشارة إلى قول بشار بن برد في عمر بن العلاء:

إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ العِدَا ... فَنَبِّهْ لَهَا عُمَرًا ثُمَّ نَمْ

دَعَانِي إِلَى عُمَرٍ جُودُهُ ... وَقَوْلُ العَشِيرَةِ بَحْرٌ خِضَمْ

المختار من شعر بشار، ص: 77، الأغاني3/ 187، الشعر والشعراء، ص: 645.



عَلَى مَضَائِه، فَدُونَكَهَا قَدْ حَبَّرَ الحَبْرُ تَطْرِيزَهَا، وَإِلَيْكَهَا قَدْ خَلَّصَ الفِكْرُ إِبْرِيزَهَا، تَتَلَفَّعُ مِنْهَا فِي حُلَّةِ ثَنَاء، وَتُتَوَّجُ مِنْهَا إِكْلِيلَ بَهَاء، يُخَالُ مِدَادُهَا مِنْ بَهِيمِ اللَّيْلِ صُنِع، وَيُحْسَبُ رَقُّهَا مِنْ أَدِيمِ الصُّبْحِ قُطِع. أَرْسَلْنَاهَا كَافُورَةً بِمِسْكٍ مَوْسُومَة، وَأَهْدَيْنَاهَا دُرَّةً بِيَاقُوتٍ مَخْتُومَة، وَأُقَدِّمُ أَوَّلاً الاعْتِرَافَ بِالتَّقْصِير، وَأَذْعَنُ فِي الكَفِّ عَنِ التَّعْبِير. إِذْ أَهْدَيْتُ الدُّرَّ إِلَى مُنَظِّمِه، وَخَلَعْتُ الوَشْيَ عَلَى مُنَمْنِمِه.

وَلَهُ:

فِي لَيْلَةٍ بِتُّهَا وَالكَفُّ الخَضِيبُ سِوَارُهَا البَدْر، وَالشِّعْرَى[1] العَبُورُ وِشَاحُهَا النَّسْر، وَكَأَنَّمَا سَمَاؤُهَا رَوْضَةٌ تَفَتَّحَتِ النُّجُومُ وَسْطَهَا زَهراً، وَتَفَجَّرَتِ المَجَرَّةُ خِلاَلَهَا نَهراً[2]، وَادٍ يَسِيلُ بِعَسْجَدِ، عَلَى رَضْرَاضٍ زَبَرْجَدِ. فَلَمَّا أَصَبْتُ الغِرَّة، وَأَقْصَدْتُ الثَّغْرَة، تَقَلَّبْتُ عَرَاراً، وَتَنَاوَمْتُ غَرَاراً، حَتَّى أَنْبَهَنِي الفَجْرُ بِبَرْدِه، وَسَرْبَلَنِي الصَّبَاحُ بِبُرْدِه، وَهَبَبْتُ مِنَ النَّوْمَةِ، وَصَحَوْتُ مِنَ النَّشْوَةِ، فَزَفَفْتُهَا إِلَيْكَ بِنْتَ لَيْلَتِهَا عَذْرَاءَ، وَجَلَوْتُهَا عَلَيْكَ كَرِيمَةً فِكْرَتُهَا حَسْنَاء، تَتَلَفَّعُ بِحُبْرَةِ حِبْرٍ، وَتَتَبَخْتَرُ فِي شِعَارِ شِعْرٍ، مُؤْتَلَفٌ بَيْنَ رِقِّهَا وَمِدَادِهَا، وَمُجْتَمَعٌ فِي بَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[3] رُقْعَتُهَا كَافُورٌ نُمْنِمَ بِمِسْك، وَخِتَامُهَا يَاقُوتٌ نُظِمَ فِي سِلْك، فَتَحْسَبُ خَطَّهَا تَيَّمَ لَفْظَهَا فَشَكَا، وَتَخَالُ القَلَمَ رَقَّ لِمَا بِهِ فَبَكَى، فَأَنْشِدْهَا أَخَاكَ الشُّهَيْدِيّ[4]، وَكَلِّفْهُ عَلَى العَرُوضِ وَالقَافِيَةِ مُعَارَضَتَهَا، وَحَمِّلْهُ عَلَى اللِّينِ وَالشِّدَّةِ مُقَارَضَتَهَا، فَسَتُوقِدُ بِقَلْبِهِ قَبَساً وَتَضْرِبُ فِي أُذْنِهِ جَرَساً، فَيَتَبَيَّنُ بِهِ حَظُّهُ، وَيَعْرِفُ لِغَيْرِهِ فَضْلَه.

---

(1) الشعرى: كوكب نير يقال له المرزم وهما شعريان العبور التي في الجوزاء والغميصاء التي في الذراع قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾. سورة النجم، الآية: 48

(2) النَّهْرُ والنَّهَر: واحد الأنهار وفي المحكم النهْر والنهَر من مجاري المياه.

(3) سورة التكوير، الآيتان: 17-18.

(4) يقصد به ابن شهيد الشاعر الأندلسي المشهور وقد كان بعث له بهذه الرسالة مع أبيات شعرية لمعارضتها. والرسالة في الذخيرة1/ 1-440، والذيل والتكملة6/ 224.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَامِرِ بْنِ شُهَيْدٍ فِي وَصْفِ بَرْغُوثٍ أَسْوَدَ[1]:

أَسْوَدُ زِنْجِيٌّ، وَأَهْلِيٌّ وَحْشِيٌّ، لَيْسَ بِوَانٍ وَلَا زُمَّيْل[2] كَأَنَّهُ جُزْءٌ لَا يَتَجَزَّأُ مِنْ لَيْل، وَشُونِيزَة[3]، وَاثَبَتْهَا غَرِيزَة، أَوْ نُقْطَةُ مِدَاد، أَوْ سُوَيْدَاءُ قَلْبِ فُؤَاد[4]، شُرْبُه عَب، وَمَشْيُهُ وَثْب، يَكْمُنُ نَهَارَه، وَيَسْرِي لَيْلَه، يُدْرِكُ بِطَعْنٍ مُؤْلِم، وَيَسْتَحِلُّ دَمَ كُلِّ مُسْلِم، مُسَاوِرٌ لِلْأَسَاوِرَة، يَجُرُّ ذَيْلَهُ عَلَى الجَبَابِرَة، يَتَكَفَّرُ بِأَرْفَعِ الثِّيَاب، وَيَهْتِكُ سِتْرَ كُلِّ حِجَاب، وَلَا يَحْفِلُ بِبَوَّاب، يَرِد مَنَاهِلَ العَيْشِ العَذْبَةِ، وَيَصِلُ إِلَى الأَحْرَاحِ الرَّطْبَة، لَا يُمْنَعُ مِنْهُ أَمِير، وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ غَيْرَةُ غَيُور، شَرُّهُ مَبْثُوث، وَعَهْدُهُ مَنْكُوث، وَهَكَذَا كُلُّ بَرْغُوث.

وَلَهُ فِي ثَعْلَب[5]:

أَدْهَى مِنْ عَمْرٍو[6] وَأَفْتَكُ مِنْ قَاتِلِ حُذَيْفَةَ بْنِ بَدْرٍ[7]، كَثِيرُ الوَقَائِعِ فِي المُسْلِمِين، مُغْرىً بِإِرَاقَةِ دِمَاءِ المُؤَذِّنِينَ، إِذَا رَأَى الفُرْصَةَ انْتَهَزَهَا، وَإِذَا طَلَبَتْهُ الكُمَاةُ أَعْجَزَهَا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ بُقْرَاطُ فِي إِدَامِهِ، وَجَالِينُوسُ[8] فِي اعْتِدَالِ طَعَامِهِ، غَذَاؤُهُ حَمَامٌ أَوْ دَجَاج، وَعَشَاؤُهُ تَدْرُجُ أَوْ دُرَّاج[9].

---

(1) الذخيرة1/ 1 - 275، المغرب في حلى المغرب1/ 83، اليتيمة2/ 46.

(2) الزُّمَّيْل: الضعيف الجبان الرذل. قال أحيحة بن الجلاح:

وَلَا وَأَبِيكَ، مَا يُغْنِي غَنَائِي ... مِنَ الفِتْيَانِ زُمَّيْلٌ كَسُولُ

(3) الشينيز: الحبة السوداء وهي كلمة فارسية الأصل. قال أبو حنيفة: والفُرس يسمون البزر: الشونيز بضم الشين لا كسرها.

(4) في الذخيرة: قُرَاد.

(5) الذخيرة1/ 1-275، اليتيمة 2/ 47.

(6) يقصد به عمرو بن العاص وكان من دهاة العرب وهو الذي ناب عن معاوية أثناء التحكيم بينه وبين علي بن أبي طالب.

(7) قاتل حذيفة بن بدر: هو قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي الأعلام 5/ 206.

(8) بقراط وجالينوس: طبيبان مشهوران عنهما أخذ الناس الطب والحكمة وكتبهما نالت شهرة واسعة.

(9) الدراج: بضم الدال ضرب من الطير يشبه الحيقطان وهو من طيور العراق، (اللسان) «درج».



وَلَهُ فِي وَصْفِ المَاءِ[1]:

أَزْرَقُ كَعَيْنِ السِّنَّوْر[2]، صَافٍ كَقَضِيبِ البِلَّوْر، انْتُخِبَ مِنَ الفُرَات، وَاسْتُعْمِلَ بَعْدَ البَيَات، فَجَاءَ كَلِسَانِ الشَّمْعَة، فِي صَفَاءِ الدَّمْعَة، انْظُرْهُ يَا سَيِّدِي كَأَنَّهُ عَصِيرُ صَبَاح، أَوْ ذَوْبُ قَمَرٍ لَيَاح، لَهُ فِي إِنَائِه، انْصِبَابُ الكَوْكَبِ مِنْ سَمَائِه، العَيْنُ حَانُوتُه، وَالفَمُ عِفْرِيتُه، كَأَنَّهُ خَيْطٌ مِنْ غَزْلٍ فُلِق، أَوْ مخصرٌ يضْرَبُ بِهِ مِنْ وَرِق، يُرْفَعُ عَنْكَ فَتَرْدَى، وَيُصْدَعُ بِهِ قَلْبُكَ فَتَحْيَا.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي مُحَمَّد عَبْدِ الغَفُورِ بْنِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الغَفُورِ[3]:

فَالمَوَدَّاتُ مَا خَلَتْ مِنْ تَهَادٍ مُكَرَّرَة، كَطَبِيخٍ خَلَا مِنَ اللَّحْمِ يُدْعَى مُزَوَّرة[4]، وَالمُهْدَى بَيْنَ يَدَيْ هَذِهِ الأَحْرُفِ عِدةٌ[5] كَذَا مِنْ سَفَرْجَل[6]، وَتَصْحِيفُهُ عِنْدِي سَفَرٌ جَلّ، وَإِذَا سَفَرَ عَنْ ثَغْرِهِ جَلَّ، فَالظَّفَرُ بِطَارِقِ الهَمِّ مُجِلّ، يُشْبِهُ صُوَرَ العَذَارَى ضُمِّخَتْ بِالعَبِير، وَثُدِيُّهُنَّ بِالتَّقْيِيسِ وَالتَّقْدِير، كَأَنَّمَا لَبِسَتْ مِنَ الحَرِيرِ سَرَقًا، أَوْشَكَتْ بِأَلْوَانِهَا وَجْداً قَدْ بَرَّحَ بِهَا وَأَرَقًا، بَلْ كَأَنَّمَا سَرَقَتِ الثُّدِيّ طَوَابِعَ مِسْكٍ أَحَم، ضَمَّتْ

(1) الذخيرة1/ 1- 276. اليتيمة2/ 46.

(2) السنور: القط.

(3) الذخيرة 2/ 1- 341، 342، وقد كرر المؤلف الرسالة بعد أن ذكرها قبلُ.

(4) المزورة: مرقة بدون لحم يطعمها المريض كي يشفى وقد نصح أحد الأطباء البحتري بشربها أثناء مرضه فلما جائته لم يستطبها فكتب يقول فيها:

وَجَدْتُ وَعْدَكَ زُورًا فِي مُزَوَّرَةٍ ... حَلَفْتَ مُجْتَهِدًا أَحْكَامَ طَاهِيهَا

فَلَا شَفَا اللهُ مَنْ يَرْجُو الشِّفَاءَ بِهَا ... وَلَا عَلَتْ كَفُّ مُلْقٍ كَفَّهُ فِيهَا

التحف والهدايا، ص: 127-128.

(5) الذخيرة: عدد.

(6) كثيرا ما يتطير الأدباء من اسم السفرجل لأن فيه اسم السفر قال الشاعر:

مُتْحَفِي بِالسَّفَرْجَلِ ... لَا أُرِيدُ السَّفَرْجَلَا

اسْمُهُ لَوْ عَرَفْتَهُ ... سَفَرٌ جَلَّ فَاعْتَلَى

الموشى للوشاء، ص: 198.



عَلَيْهِ جَوَانِحَهَا ثُمَّ خَافَتِ الذَّم، أَقْدَاحُ غَرَب، عُلَّتْ بِمَاءِ ذَهَب، طُبِعَ مِنَ العَبِيرِ نَوَاهَا، وَنَابَ عَنْ شَذَاهَا الفَائِحِ لِلشَّرْبِ سَاطِعُ شَذَاهَا، وَلَرُبَّمَا فضلَتْ شَهِيَّ التُّفَّاحِ، وَفتكَتْ بِأَدْوَاءِ المَعِدَةِ فَتْكَةَ السَّفَّاحِ، وَإِنَّ فَاكِهَةً تُشْبِهُ الثُّدِيَّ، وَتَشْرَكُ فِي بَعْضِ صِفَاتِهَا الهَدِيَّ، لَجَدِيرَةٌ بِأَنْ يَحْفَظَهَا عِنَاقاً، وَلَا يَعْدِلِ بِالوَاحِدَةِ مِنْهَا عَنَاقاً، بَلْ يَجْعَلُ فِدْيَةَ قَضْمِهَا أَنْ تُشَدَّ وِثَاقاً وَتُضْرَبَ أَعْنَاقاً.

وَإِنَّ مَحَلَّكَ مِنْ نَفْسِي لَخَصِيبُ جَنَابِ الصَّفَاءِ، نَقِيُّ جِلْبَابِ الوَفَاءِ، فَصِيحُ طَيْرِ الثَّنَاءِ [نَصِيحُ جَيْبِ الصِّنَاعَةِ وَالوَلَاءِ، وِدَاداً لَا يَبْلُغُ مَدَاه، وَلَا تُوبِسُ هَوَاجِرُ البُعْدِ ثَرَاه][1] واللهُ يُلْحِقُهُ مِنَ التَّمْهِيدِ ظِلَالاً، وَيَزِيدُ يَانِعَ رَوْضِهِ نُضْرَةً وَجَمَالاً، حَتَّى لَا تَكْرَى[2] عُيُونُ أَزْهَارِه، وَلَا تَعْيَا أَلْسِنَةُ أَطْيَارِه، وَلَا يَعْرَى مِنْ وَرَقِ عُودُه، وَلَا تَخْشَى مِنْ حَلِّ نِظَامٍ عُقُودُه.

وَلَهُ يُعَارِضُ رِسَالَتَيْ أَبِي عُمَرَ البَاجِي وَأَبِي القَاسِمِ بْنِ الجدّ فِي صِفَةِ المَطَرِ بَعْدَ القَحْطِ[3]:

وللهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ أَوَامِرُ تُحِيلُ المُنِيرَةَ عَنْ طِبَاعِهَا، وَتَسْتَلِبُ[4] مِنْ حَصَى المَعْزَاءِ[5] فَضْلَ شُعَاعِهَا، وَتَرُدُّ فِي خِلْفِ تُمْرِيهِ حَلَبَ إِرْضَاعِهَا، لَا تُلْحَقُ بِسَوَابِقِ الرِّهَانِ، فِي مَيَادِينِ الأَذْهَانِ، وَلَا تُدْرَكُ بِقِدَاحِ القِمَارِ، مِنْ مُعْلَيَاتِ الأَبْصَار، تُطْلِعُ المِنَحَ مِنْ ثَنِيَّاتِ المِحَنِ، وَتُخَوِّلُ العَاجِزَ الزَّمِنَ مِنْ مُنْفِسَاتِ الزَّمَنِ، وَقَدْ تَذْهَبُ بِمَا تَهَبُ، وَتُغِيرُ عَلَى مَا بِهِ تَغِيرُ، حِكْمَةٌ بَهَرَتْ حَقِيقَتُهَا زَوَاهِرَ الأَفْكَارِ، وَغَمَرَتْ دَقِيقَتُهَا زَوَاخِرَ بِحَارِ الاعْتِبَارِ، لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ[6] وَبِيَدِهِ النَّفْعُ وَالضَّرُّ، وَإِنَّ أَحَقَّ النِّعَمِ بِشُكْرٍ لَا تَنْضَبُ

(1) ساقطة بالأصل والزيادة من الذخيرة.
(2) تكرى: يصيرها الكرى أي النوم.
(3) الذخيرة 2/ 1 - 342 - 344.
(4) الذخيرة: وتسلب.
(5) المعزاء: بالفتح الأرض الحزنة الغليظة ذات حجارة أو التي يكثر بها الحصى.
(6) في ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. سورة الأعراف، الآية: 53.



مُدُودُه، وَحَمْدٍ تَتَجَاوَزُ حَدَّ المَعْهُودِ حُدُودُه، نُعْمَى أَحْيَتْ بِالسُّقْيَا أَرْضـاً مَوَاتـاً، وَأَنْشَرَتْ بِدَرِّ الحَيَا أَمَلاً رُفَاتـاً، وَقَدْ غَبَطَ طَيْرُ المَاءِ، ضَبَابَ اليَهْمَاءِ[1] وَحَجَبَ كَاسِفُ الدُّجَى[2] نَيِّرَاتِ النَّعْمَاءِ، وَشَابَتْ مَفَارِقُ الرِّيَاضِ، وَغَاضَتْ مُفْعَمَاتُ الحِيَاضِ، وَاقْشَعَرَّتِ الرُّبَا، وَحَلَّ نَبْتُ الحَاجِرِ عَقْدَ الحُبَا، وَبَاتَتْ أَزْهَارُ الغِيطَانِ عَلِيلَاتِ الأَجْفَانِ، تَسْتَسْقِي نُجُومَ السَّمَاءِ، وَتَتَوَسَّلُ بِالشَّبَهِ إِلَى ذَوَاتِ الأَنْوَاءِ. فَعِنْدَمَا أَمْسَتِ البَسِيطَةُ عَلَى شَفَا، وَأَجْبَلَ المُحْتَضِرُ وَلَمْ يَجِدْ مُرْتَشَفَا، أَرْسَلَ اللهُ تِلْكَ النِّعْمَة، بَيْنَ يَدَيْ الرَّحْمَة، رِيحاً لَيِّنَةَ هُبُوبِ النَّسِيمِ، فِي الرَّوْضِ الهَشِيمِ، شَدِيدَةَ حَفْزِ الغَمَائِمِ، لِتَدَارُكِ مَا فِي الكَمَائِمِ، فَنَسَجَتْ بِإِذْنِهِ مُلَاءَهَا، وَرَمَتْ أَمْرَاسَهَا وَدِلَاءَهَا، فَلَمَّا لَمَّتْ قَزَعَهَا[3]، وَوَصَلَتْ بِقُدْرَةِ الخَلَّاقِ قِطَعَهَا، سَفَحَتْ عُيُونُ تِلْكَ النُّجُومِ، بِمُكْفَهِرِّ الغُيُومِ، رَحْمَةً لِعَلِيلِ النَّبَاتِ، وَرِقَّةً لِأَلِيلِ المُهَجَاتِ، فَنُمْنِمَ وَشْيُ التِّلَاعِ، بِيَدٍ لَطِيفَةِ صَنَاعٍ، وَرُصِّعَ تِيجَانُ الأَكَامِ، بِنُطَفِ الغَمَائِمِ السِّجَامِ، فَاهْتَزَّتِ القِطَارِيَّةُ لِذَلِكَ القِطَارِ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى مُحَسِّنِهَا مِنَ الأَوْطَارِ، وَضَحِكَ ثَغْرُ الرَّوْضِ بَعْدَ عُبُوسٍ وَنُقِلَ إِلَى سَعَةِ الرَّحْمَةِ مِنْ ضَنْكِ البُؤْسِ، وَسَحَبَتْ فَوَاهِقُ[4] الأَنْهَارِ مَذَانِبَهَا، وَنَشَرَتْ عَرَائِسُ الأَزْهَارِ ذَوَائِبَهَا، نَاظِمَةً مِنْ لَآلِئِ الطَّلِّ عُقُودَهَا، مَائِلَةً لِيتَهَا[5] مِنْ جَوْهَرِهِ الرَّائِقِ

---

(1) اليهماء: المفازة التي لا ماء فيها ولا صوت، قال الشاعر:

كُلُّ يَهْمَاءَ يَقْصُرُ الطَّرْفُ عَنْهَا … أَرْقَلَتْهَا قِلَاصُنَا إِرْقَالَا

اللسان: يهم.

(2) الذخيرة: الرجاء.

(3) القزع: قطع من السحاب رقاق كأنها ظل إذا مرت من تحت السحابة الكبيرة، وفي حديث الاستسقاء: «وما في السماء قزعة» قال الشاعر:

مَقَانِبُ بَعْضُهَا يَسْرِي لِبَعْضٍ … كَأَنَّ زُهَاءَهَا قَزَعُ الظِّلَالِ

(4) الفهق: اتساع كل شيء ينبع منه ماء وأرض فيهق: واسعة.

(5) اللِّيت: بالكسر صفحة العنق، والجمع أليات وليتة وفي الحديث: «ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليته»؛ أي أمال صفحة عنقه.



وَجِيدِهَا، تَفُوحُ مَجَامِعُ أَزْهَارِهَا، وَتَلُوحُ خَفِيَّاتُ أَسْرَارِهَا فِي مَرَائِي أَنْوَارِهَا، فَتَرْمِي الذَّابِلَ بِرَيَّاهَا. وَتُحَيِّي النَّائِم وَمَا حَيَّاهَا، مُؤْذِنَةً بِإِدْرَاكِهَا، عَلَى لِسَانِ مِسْكِهَا فِي سَاحَةِ مَدَاكِهَا[1] وَقَامَ مِنْ مُتَرَنِّمِ الأَطْيَارِ، عَلَى مَنَابِرِ الأَشْجَارِ، خَطِيبٌ يَتْلُو مَا حَبَّرَ مِنَ الثَّنَاءِ، عَلَى سَابِغِ النَّعْمَاءِ، وَسَائِغِ رَحِيقِ الآلَاءِ. فَيَالَهَا نِعْمَةً مَا أَحْسَنَ مَوْقِعَهَا، وَرَحْمَةً مَا أَلْطَفَ مَحَلَّهَا مِنَ النُّفُوسِ وَمَوْضِعَهَا، لَقَدْ بَرَّدَتْ حَرَّ الأَكْبَادِ، وَشَفَتْ غَلِيلَ القُلُوبِ الصَّوَادِ، وَفُدِيَتْ بِنَفَائِسِ وَمُحَبَّبِي الأَوْلَادِ[2]، نَفَّسَتْ خِنَاقَ الآمَالِ، وَحَلَّتْ عِقَالَ الإِقْبَالِ[3]، وَكَادَتْ تُجْرِي لِأَرْوَاحَ فِي الرِّمَمِ البَوَالِي. وَالحَمْدُ للهِ كَمَا حَظَّ عَلَيْهِ مُنْتَهَى الحَمْدِ، وَمَبْلَغَ الوُسْعِ وَالجَهْدِ، وَمَا لَا يَحْصُرُهُ العَدُّ، وَمَا شَاءَ تَعَالَى مِنْ بَعْدُ[4].

وَمِنْ إِنْشَاءِ الفَتْحِ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ فِي وَصْفِ الأَدَبِ[5]:

وَبَعْدُ: فَإِنَّ الأَدَبَ أَجْمَلُ مَا الْتَحَفَتْهُ الهِمَّة، وَعَرَفَتْهُ هَذِهِ الأُمَّة، فَإِنَّهُ مُطْلِقُ اللِّسَانِ مِنْ عِقَال، وَمُنْطِقُ الإِنْسَانِ بِصَوَابِ المَقَال، وَلَهُ مِنَ النَّثْرِ وَالنَّظْمِ نَجْمَانِ صَارَتِ القُلُوبُ لَهُمَا فَلَكًا، وَالخَوَاطِرُ مَسْلَكًا، وَمَا زَالَتْ صُدُورُ المُلُوكِ لَهُمَا مَحَلًّا، وَلَبَّاتُهُمْ[6] بِهِمَا تَتَحَلَّى، وَمُجْتَمَعَاتُهُمْ مَيْدَانُ مَجَالِهِمَا، وَمَكَانُ رَوِيَّتِهِمَا وَارْتِجَالِهِمَا، تُرْشَفُ فِيهَا ثُغُورُهُمَا، وَيُقْطَفُ لَدَيْهَا نُورُهُمَا، وَكَانَ النَّدَى يَسْقِيهِمَا فَيُثْمِرَانِ بِالإِبْدَاعِ، وَيُسْفِرَانِ عَنْ مَحَاسِنَ كَالصُّبْحِ عِنْدَ الانْصِيَاعِ.

---

(1) المداك: الحجر الذي يسحق عليه المسك أو غيره.

(2) الذخيرة: بنفائس النفوس والأولاد.

(3) عقال. الأصل.

(4) الذخيرة: وما شاء تعالى من شيء بعد.

(5) مقدمة قلائد العقيان، ص:2.

(6) اللبات: جمع لبة بالفتح ما بين الرقبة والصدر وهي موضع القلادة من المرأة.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ طَاهِرٍ إِلَى المَنْصُورِ بْنِ أَبِي عَامِرٍ يُعْلِمُهُ بِخَبَرِ السَّيْلِ الَّذِي سَالَ بِمُرْسِيَةَ فَعَفَّى آثَارَهَا، وَهَدَّ أَسْوَارَهَا وَاحْتَمَلَ دِيَارَهَا[1]:

وَرَدَنِي أَيَّدَهُ اللهُ كِتَابُهُ[2] المُشَرَّفُ مُسْتَفْهِماً لِمَا طَارَ بِهِ إِلَيْهِ[3] الخَبَر، مِنَ السَّيْلِ الحَافِلِ الَّذِي عَظُمَ مِنْهُ الضَّرَر، وَقَدْ كُنْتُ آخِذاً فِي الإِعْلَامِ، بِحَوَادِثِهِ العِظَامِ، فَإِنَّهُ أَذْهَلَ الأَذْهَانَ، وَشَغَلَ البَيَانَ، إِذْ أَقْبَلَ يَمْلَأُ السَّهْلَ وَالجَبَل، وَالجُنُوبُ قَدِ اضْطَجَعَتْ، وَالعُيُونُ قَدْ هَوَّمَتْ لِلنَّوْمِ أَوْ هَجَعَتْ، فَمِنْ مَاضٍ قَدِ اسْتَلَبَه، وَنَاجٍ قَدْ حَرَبَه، وَفَازِعٍ قَدْ أَثْكَلَه، وَحَائِرٍ لَا يَدْرِي مَا حُمَّ لَه، وَالبَرْقُ يَجِفُّ فُؤَادُه، وَالوَدْقُ[4] يَنْسَرِبُ مَزَادُه، قَدِ اسْتَسْلَمَ لِلْقَدَرِ، وَاعْتَصَمَ باللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - لَيْسَ سِوَاهُ مِنْ وَزَر، حَتَّى أَرَانَا آيَةَ إِعْجَازِهِ وَبَرَاهِينِه، وَغِيضَ المَاءُ لِحِينِه[5]، وَطَلَعَ الصَّبَاحُ عَلَى مَعَالِمَ قَدْ غَيَّرَهَا، وَأَكَامٍ قَدْ حَدَّرَهَا، لَا يَنْقَضِي مِنْهَا عجبُ النَّاظِر، وَلَا يُسْمَعُ بِمِثْلِهَا فِي الزَّمَنِ الغَابِر[6]. [فَالحَمْدُ للهِ عَلَى وَافِي دَفْعِه، وَمُتَلَافِي عَوْنِهِ وَنَفْعِه، لَا إِلَهَ إِلَّا هُو][7].

---

(1) القلائد، ص: 70-71، الخريدة3/ 368- 369.

(2) القلائد: أيد الله كتابك.

(3) القلائد: إليك.

(4) الودق: المطر كله شديده وهينه وقد ودق يدق ودقا أي قطر قال زيد الخيل:

ضَرَبْنَ بِغَمْرَةٍ فَخَرَجْنَ مِنْهَا ... خُرُوجَ الوَدْقِ مِنْ خَلَلِ السَّحَابِ

واللفظة واردة في القرآن الكريم.

(5) تعبير قرآني مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾. سورة هود، الآية: 44.

(6) القلائد: بمثلها في الزمن الغابر.

(7) ساقطة من الأصل وقد أثبتنا ما في القلائد.



وَكَتَبَ إِلَيْهِ أَيْضاً مَعَ شُوذَانِقَاتٍ[1]:

وَإِنِّي لَمَّا شَيَّعْتُهُ - أَيَّدَهُ اللهُ - وَبِتُّ فِي المَحَلَّةِ الكَرِيمَةِ مَعَهُ قَصَدَنِي مَمْلُوكُهُ فِي ارْتِيَادِ أَفْرُخٍ مِنَ الشُّوذَانِقَاتِ عِنْدَ أَوَانِهَا، وَالبعْثَةِ بِهَا وَقْتَ تَهَيُّئِهَا وَإِمْكَانِهَا، فَلَمْ أُفَارِقْ لَهَا ارْتِقَاباً، وَلِمَظَانِّهَا طِلَاباً، إِلَى أَنْ حَانَ حِينُ ظُهُورِهَا، وَامْتَلَأَتْ مِنْهَا جُحُورِ وُكُورِهَا، وَبَدَا سَعْيُهَا، وَاكْتَسَى عُرْيُهَا، وَجَّهْتُ طَبًّا رَفِيقاً لاسْتِنْزَالِهَا، يَرْتَقِي إِلَى ذُرَى أَجْبَالِهَا، وَيَمِيزُ أَفْرَهَهَا، وَيَحُوزُ أَشْرَهَهَا، فَحَصَلْتُ مِنْهَا عَدَداً، جُرِّبَتْ يَداً فَيَداً، إِلَى أَنْ تَخَرَّجَ مِنْهَا ثَلَاثَةُ أَطْيَارٍ، كَأَنَّهَا شُعَلُ نَارٍ، صَيْدُهَا أَجَلُّ كُلِّ صَيْدٍ، وَقَيْدُهَا أَيُّمَا قَيْدٍ، تُقَلِّبُ حَوَادِقَ مُقَل، وَتَنْظُرُ نَظَرَ مُخْتَبَل، وَتُسْرِعُ فِي الانْقِضَاضِ، كَالوِحْيِ وَالإِيمَاضِ، وَتَرْجِعُ إِلَى يَدِ وَثَاقِهَا، كَأَنَّمَا أَشْفَقَتْ مِنْ فِرَاقِهَا، بِمِخْلَبٍ دَامٍ، وَأُبَّهَةِ مِقْدَامٍ، فَنَاهِيكَ بِهَا يَا مَوْلَايَ سَعْدٌ لَكَ ذَخَرَهَا، وَعَبْدٌ قِنٌّ لَكَ تَخَيَّرَهَا، وَهِيَ وَاصِلَةٌ مِنْ يَدَيْ حَامِلِهَا، تَحْمِلُ رَغْبَةَ نَاظِمِهَا، فِي إِلْبَاسِهِ حُلَّةَ التَّشْرِيفِ وَالتَّنْوِيهِ بِالأَمْرِ بِقَبُولِهَا، وَالمُرَاجَعَةِ مِنْ وُصُولِهَا. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ أَحْمَدَ وَقَدْ أُهْدِي إِلَيْهِ مَشْمُومُ وَرْدٍ[2]:

زَارَنَا الوَرْدُ بِأَنْفَاسِكَ، وَسَقَانَا مُدَامَةَ الأُنْسِ مِنْ كَاسِكَ، وَأَعَادَ لَنَا مَعَاهِدَ الأُنْسِ جَدِيدَة، وَزَفَّ إِلَيْنَا مِنْ فَتَيَاتِ النَّوْرِ[3] خَرِيدَة، فَاحْمَرَّ حَتَّى خِلْتَهُ شَفَقَا، وَابْيَضَّ حَتَّى أَبْصَرْتَ مِنَ النُّورِ فَلَقَا، وَأَرِجَ حَتَّى كَأَنَّهُ المِسْكُ فِي ذَكَائِهِ[4]، وَتَضَاعَفَ حَتَّى قُلْتَ تصور مِنْ حَيَائِهِ[5]، فَلْيَتَصَوَّرْ شُكْرِي فِي رُؤَاهُ، وَلْيَتَخَيَّلْهُ فِي نَفْحَتِهِ وَرَيَّاه.

---

(1) القلائد، ص: 71، الخريدة3/ 369. والشُّوذَانِقُ: صقر. والشَّيْذَقَانُ: لغة فيه قال الشاعر:

كَالشَّيْذَقَانِ خَاضِبٌ أَظْفَارُهُ ... قَدْ ضَرَبَتْهُ شَمْأَلٌ فِي يَوْمِ طَلْ

اللسان: «شذق».

(2) ترجمته في القلائد، ص: 188-190، الخريدة3/ 438-439 والرسالة مثبوتة فيهما.

(3) القلائد والخريدة: البر.

(4) ذكائه: مسك ذكي وذاك طيب الرائحة قال قيس بن الخطيم:

كَأَنَّ القَرُنْفُلَ وَالزَّنْجَبِيلَ ... وَذَاكِي العَبِيرِ بِجِلْبَابِهَا

(5) القلائد: حِبَائِه.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي القَاسِمِ بْنِ السَّقَّاطِ: فِي إِهْدَاءِ فَرَسٍ[1]:

قَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكَ - أَيَّدَكَ اللهُ - بِجَوَادٍ يَسْبِقُ الحَلْبَة وَهُوَ يَرِيثُ[2] وَيَتَمَهَّلُ، مَتَى مَا تَرِقَّ العَيْنُ فِيهِ تَسَهَّل[3]، يَزْحَمُ بِمَنْكِبِ الجَوْزَاءِ مِنْكَ مَنْكِبُه، وَتَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ تَرْكَبُه، إِنْ بَدَا قُلْتَ: ظَبْيٌ ذُو غَرَارَة، يَعْطُو إِلَى عَرَارَة[4]، أَوْ عَدَا قُلْتَ انْقِضَاضَةُ شِهَابٍ، أَوِ اعْتِرَاضَةُ بَارِقٍ ذِي الْتِهَاب، فَاضْمُمْهُ إِلَى أَرِيِّ جِيَادِكَ، وَاتَّخِذْهُ لِيَوْمَيْ رِهَانِكَ وَجِلَادِكَ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ مُغَاوِرٍ فِي وَصْفِ كَلْبِ مَاشِيَةٍ:

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ عِمَادِيَ الأَعْلَى، وَعِلْقِيَ الأَنْفَسِ الأَغْلَى، تَتَأَتَّى إِرَادَتُه، وَتَطَّرِدُ سَعَادَتُه، وَيُحْتَمَى ذَمَارُهُ وَجَنَابُه، وَلَا تَهِرُّ دُونَ طَارِقِ الأَضْيَافِ كِلَابُه، وَلَا زَالَتْ سَائِمَتُهُ رَابِعَةً فِي مَرَابِضِ الأَسَاوِدِ وَالأُسُودِ، آمِنَةً اغْتِيَالَهَا وَاخْتِيَالَهَا فِي الدَّآدِي وَاللَّيَالِي السُّود، يَمْنَعُهَا هَرِيرُ أَهْرَتُ الشِّدْقَينِ مُتَنَمِّرِ الإِهَاب، سَرِيعِ الجَيْأَةِ وَالذَّهَاب، مُعْرِقٌ عِنْدَ انْتِسَابِ الكِلَاب، هَزِجُ النُّبَاح، مَانِعٌ لِلْحَرِيمِ المُبَاح، إِنْ رَبَضَ حَمَى الرَّبَضَ، وَإِنْ سَرَحَ، قَتَلَ أَوْ جَرَح. ثَقِيلُ الوَطْأَة، خَفِيفُ الوَثْبَةِ عِنْدَ النَّبْأَةِ، يَفْتَر عَنْ مُدْرَةٍ وَيَنْظُرُ عَنْ جَمْرَة، يَمِيزُ بِأَنْفِهِ فِي اللَّيْلِ الأَلْيَلِ البَهِيمِ، بَيْنَ العَدُوِّ وَالصَّدِيقِ الحَمِيم، إِنْ شَعُرَ بِالضَّيْفِ بَصْبَصَ وَهَمَس، وَإِنْ أَحَسَّ بِاللِّصِّ أَطْرَقَ وَعَبَس، وَأَتْلَعَ جِيدَهُ وَتَوَجَّس، وَدَارَ بِالدَّارِ وَاحْتَرَس، وَهَمْهَمَ وَزَمْزَم، وَكَادَ أَنْ يَتَكَلَّم؛ وَإِذَا نَامَ الرُّعْيَانُ سَهِرَ وَتَطَوَّف، وَأَنْذَرَ بِنُبَاحِهِ وَخَوَّف، فَإِنْ أَغْفَلُوا السَّخْلَةَ حَرَسَهَا، وَقَامَ عَلَيْهَا وَلَحَسَهَا، وَرُبَّمَا انْتَزَحَ عَنْ رَبِّهِ غَيْرَ بَعِيدٍ، وَبَسَطَ ذِرَاعَيْهِ بِالوَصِيد[5].

---

(1) الرسالة في القلائد، ص: 198 وقد قدم لها بقوله: وله فصل من رسالة في إهداء فرس.

(2) القلائد: يرسف.

(3) شطر من معلقة امرئ القيس.

(4) في القلائد: عزارة.

(5) «بالوصيد» سورة الكهف، الآية: 18.



يَطَــأُ الثَّــرَى مُتَرَفِّعــاً مِــنْ تِيهِــهِ فَكَأَنَّـــهُ آسٍ يَجُـــسُّ عَلِـــيلاَ[1]

وَتَارَةً يَنْتَصِبُ مقْعِياً عَلَى ذَنَبِه، يَتَلَعَّقُ مِنْ تَعَبِهِ ونَصَبِه، مُتَزَحْزِحاً عن حَرِّ المفتأد وَلَهَبِه، ويُصْغِي بِأُذْنٍ مُؤَلَّلَةٍ إِلَى مَا يُوحَى إِلَيْهِ وَيُومَرُ بِه، يُحَدِّدُ نَحْوَ الآكِلِ نَظَرَه، وَيُذْكِي إِلَيْهِ بَصَرَه، وَيَلْتَقِفُ الأَجْوَفَ أَوِ الخِرْقَ فِي الهَدَف، وَيَزْدَرِدُ العِظَامَ ازْدِرَاداً، [وَيَتْرُكُهَا][2] وَقَدِ اسْتَحَالَتْ بِلَهَبِ أَحْشَائِهِ رَمَادا، فَإِنْ حَسَدَهُ الحَاسِدُ عَلَى مَا يَلْتَقِمُه، لَمْ يَرَ عِنْدَ خِرَاءَتِه مَا يَرْحَمُه، إِلَى فَهْمٍ وَفِطْنَةٍ بِالرَّمْزِ وَالإِشَارَة، يُمَيِّزُ بِهَا بَيْنَ النَّعْيِ وَالبِشَارَةِ، فَيَتَنَمَّرُ لِذِي الأَوْصَابِ وَيَتَدَلَّلُ لِذِي الزِّيِّ وَالشَّارَة، يُفَرِّقُ بَيْنَ دُخَانِ الكَيِّ، وَدُخَانِ الشَّيِّ، وَيَكَادُ يَعْرِفُ الرُّشْدَ مِنَ الغَيِّ، يَصِيدُ السِّرْحَانَ، وَيَقْتُلُ الثُّعْبَانَ، وَيَقْهَرُ الظَّلِيمَ، وَإِنْ بَعُدَ عَنْهُ وَبَانَ[3]، فَإِنْ عَرَضَ الصَّيْدُ، فَخِفَّةٌ وَأَيْدٌ، وَأَجَلٌ وَقَيْد، لو كان مَعَ خِراشٍ[4] لجَمَعَ مِنَ الظِّبَاءِ مَا تَفَرَّقَ عَلَيْه، أَوْ مَعَ وَاشِقٍ[5] مَا أَقْعَصَ صَاحِبَهُ لَدَيْه، فَفِي كُلِّ حَالَاتِهِ عِبَرٌ، إِذَا تَلَوَّى وَانْعَطَفَ فَحَيَّةٌ مَسَّهَا الخَمَر، وَإِذَا اعْتَدَلَ أَوْ وَقَفَ فَقَوْسٌ أَعْوَزَهَا الوَتَر، وَإِذَا جَرَى وَوَثَبَ فَسَهْمٌ أَرْسَلَهُ القَدَرُ:

عَقِـمَ الكِـلَابُ فَمَـا يَلِـدْنَ بِمِثْلِـه إِنَّ الكِـــلَابَ بِمِثْلِـــهِ عُقْـــمُ[6]

---

(1) هذا الشطر من البيت هو الذي يبدو في الأصل دون شطره الأول، وهو من الكامل من قصيدة للمتنبي في وصف الأسد ومطلعها:

في الخَـدِّ أَنْ عَـزَمَ الخَلِـيطُ رَحِـيلَا مَطَـرٌ تَزِيـدُ بِـهِ الخُـدُودُ مَحِـيلا

(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) بان: بعد واختفى.

(4) إشارة إلى البيت المعروف:

تكَـاثَرَتِ الظِّبَـاءُ عَلَـى خِـرَاشٍ فمـا يَـدْرِي خِـرَاشٌ مَـا يَـصِيدُ

(5) واشق: اسم يطلق على الكلب.

(6) البيت من الكامل.



ثُمَّ لَا تَجِدْهُ - دَامَ عِزُّكَ - إِلَّا أَمَامَ الغَنَمِ طَلِيعَةً أَوْ وَرَاءَهَا كَامِنـاً، وَكَأَنَّمَا كَانَ جَدُّهُ لِأَصْحَابِ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ثَامِناً(1).

وَقَدِ انْتَخَبْتُ لِسَيِّدِي الأَعْلَى مِنْ هَذَا النَّسْلِ جِرْواً زَاكِيَ الأَصْلِ، مُرْهَفـاً كَالنَّصْلِ، إِذَا جَرَّبَهُ وَجَدَهُ يَصِيدُ بَعْضَ الخَنَازِيرِ، بِأَسْنَانٍ كَالأَسِنَّةِ أَوِ الخَنَاجِيرِ، إِذَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ حَادَ عَنْهَا وَأَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ رَكِبَ أَعْجَازَهَا بِالعَضِّ، فَمِنْ مُجَدَّلٍ هُنَالِكَ هَالِكٍ، وَمِنْ هَارِبٍ بِجُرَيْعَةِ الذَّقَنِ ضَاقَتْ عَلَيْهِ وُجُوهُ المَسَارِحِ وَالمَسَالِكِ، أَعْجَزَهُ لِاشْتِغَالِهِ بِغَيْرِهِ لِحَاقُهُ فَأَقَامَ يَغُطُّ غَطِيطَ البَكْرِ شُدَّ خِنَاقُهُ. فَاقْتَنِه - دَامَ عِزُّكَ - لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ فَاقْتِنَاءُ مِثْلِه حَلَالٌ فِي الدِّينِ مُبَاح فِي الشَّرْعِ. واللهُ يُسَخِّرُهُ لَكَ شَرِساً لَيِّناً صَعْباً هَيِّناً، وَيُقِرُّ لَكَ أُذْناً وَعَيْناً، مَا كَانَ هَذَا الحَدِيثُ زُوراً وَمَيْناً وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ فِي وَطْوَاطٍ(2):

ائْتَمَرَتْ لَكَ - يَا عِمَادِي - الطَّيْرُ طَوْعـاً، وَلَبَّتْكَ سَمْعـاً، وَاتَّخَذَتْكَ عَوْنـاً وَدَفْعـاً، وَاعْتَمَدَتْكَ مَحَبَّةً وَنَفْعـاً، وَلَا زَالَتْ مُكَافِحَةً عَنْ ذِمَارِكَ، مُدَافِعَةً عَنْكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، لَمَّا أَدَّتْكَ - أَعَزَّكَ اللهُ - إِلَى وَطَنِكَ الأَسْفَار، وَأَلْقَيْتَ فِي عَطَنِكَ عَصَا التَّسْيَارِ، وَأَذِنَتْ بِالتَّوْدِيعِ وَالاسْتِقْرارِ. رَغِبَ فِي خِدْمَتِكَ مِنَ الطَّيْرِ، صِنْوُ الجُرْذِ وَأَخُو النُّغَيْرِ(3) يَصِفُّ مَعَ الطَّيْرِ الصَّوَافِ بِجَنَاحٍ ضَافٍ، لَيْسَ بِذِي قَوَادِمَ وَلَا خَوَافٍ، ويدر

---

(1) فيه إشارة إلى ما ورد في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، سورة الكهف، الآية: 22.

(2) قدم لها في مجموع مخطوط بخزانة الزاوية الناصرية يحمل رقم 1580 بقوله: «وكتبت إلى القائد أبي عبد الله دحنون صحبة رجل يعرف بالوطواط على وجه الاعتناء به عند قدومه من بعض أسفاره».

(3) النغر: طائر كالعصفور أحمر المنقار، قال الراجز:

عَلِـقَ حَوْضِـي نُغَـرٌ مُكِـبُّ
إِذَا غَفَلْـتُ غَفْلَـةً يَغُـبُّ
وَحُمَّـرَاتٌ شُـرْبُهُنَّ غِـبُّ



رِسْلُهُ مَعَ ذَوَاتِ الأَخْلَافِ، وَلَيْسَ بِذِي أَخْلَافٍ وَلَا أَظْلَاف، يُكَثِّرُ مَعَ السِّبَاعِ عَنْ نَاب، وَيُحَلِّقُ مَعَ الطَّيْرِ فِي إِهَاب، لَا يَلْتَقِطُ مَعَ العَصَافِيرِ حَبّاً، وَلَا يَرْعَى مَعَ السَّائِمَةِ أَبّاً[1]، لَا يَبِيضُ وَإِنْ أَفْرَخَ، وَلَا يَصْدَحُ وَرُبَّمَا نَفَخ، يُغْشِيهِ الصَّبَاحُ المُسْفِرُ، وَتُكَحِّلُهُ الدَّيَاجِي فَيُبْصِر، فَلَهُ فِي الظَّلَامِ هَجَمَات، وَفِي ذَوَاتِ الإِبَرِ الدَّاعِيَاتِ [إِلَى السَّهَرِ][2] فتكَات، وَكَأَنَّمَا يَطْلُبُهُنَّ بِذُحُولٍ[3] وَتِرَات؛ فَإِنْ رَضِيتَه - أَعَزَّكَ اللهُ - خَادِماً، وَقَبِلْتَهُ قَادِما، فَلَّ دُونَكَ جُيُوشَهَا، وَوَقَاكَ هَرْشَهَا وَتَخْمِيشَهَا، فَيَطِيبُ نَوْمُكَ، وَيَتَطَابَقُ فِي الدَّعَةِ لَيْلُكَ وَيَوْمُكَ، ثُمَّ لَا يَسْأَلُكَ أَجْراً، وَلَا يَسْأَمُ لَكَ شُكْراً وَإِلَيْهِ يسخر لَكَ أَصْنَافَ الأمم، وَيُبْقِيكَ سَامِي الذِّكْرِ، مُعْتَلِيَ الهِمَمِ، بِمَشِيئَتِهِ وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ فِي ذِئْبٍ لَمَّا أَمَرَ ابْنَ سَعْدٍ[4] بِإِخْرَاجِهِ مِنْ شَاطِبَةَ حِينَ نَمَى إِلَيْهِ أَنَّهُ خَاطَبَ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَكَتَبَ مُسْتَشْفِعاً إِلَى وَزِيرِهِ:

إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا حَقّاً بِقَوْلِهِمُ ... فَقَدْ سَجَدْت مَعَ الإِفْشِينِ لِلصَّنَمِ
وَبِعْتُ مِنْكُمْ بَيَاضَ الصُّبْحِ مُتَّسِقاً ... بِسُدْفَةٍ مِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ كَالفَحَمِ[5]

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ الوَزِيرِ الأَجَلِّ السَّيِّدِ الحَسِيبِ الأَفْضَل، وَالآمَالُ بِهِ تُنَاط، وَالأَمْوَالُ بِنَظَرِهِ تُحَاطُ، وَفُتُوقُ الأَيَّامِ بِسِيَاسَتِهِ تُرْتَقُ وَتُخَاطُ وَلَا زَالَ يَجْلُو صَدَأَ المُهَنَّدِ بِصِقَالِه، وَيُطْلِقُ يَد الجَوَادِ المُقَيَّدِ مِنْ شِدَّةِ الإِشْكَالِ وَعِقَالِه، وَيَدْحَضُ حُجَّةَ البَاطِلِ بِصَحِيحِ مَقَالِه، وَيُحْرِزُ شَأْوَ المَكَارِمِ عَفْواً دُونَ خَبَبِهِ وَإِرْقَالِه.

وفي الحديث: «يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْرُ». وهو الحديث الذي أملى عليه أحد المغاربة أربعمائة فائدة. انظر «الروض الهتون».

(1) الأَبُّ: الكلأ، وقيل إنه المرعى وفي التنزيل ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾. سورة عبس، الآية:31.

(2) خرم بالأصل.

(3) الذحول: جمع ذحل وهو الثأر.

(4) ابن سعد: يعني به ابن مردنيش.

(5) البيتان من البسيط.



كَتَبْتُهُ - أَدَامَ اللهُ رِفْعَتَهُ - وَقَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ بِشَرَكٍ[1] وَغُولِبَ الحَقُّ بِلَفْظٍ مُشْتَرَكٍ، وَأَصْبَحْتُ كَالجَمَلِ الجَرِبِ الشَّارِدِ، إِذَا ذِيدَ عَنِ الحِيَاضِ وَالمَوَارِدِ، وَفِي جَنَابِكَ الحَسِيبِ أَمْنٌ وَمُغْتَسَلٌ بَارِدٌ، وَشَرَابٌ[2] عَذْبٌ لِحَائِمٍ وَوَارِدٍ. فَأَنْتَ السَّيِّدُ الأَرْضَى وَالصَّارِمُ الأَمْضَى، تُغْمَدُ وَلَكِنْ لِتُسَلَّ يَوْمَ الحَقِيقَةِ وَتُنْتَضَى، وَلَمَّا حَمِيَ بِفُلَانَةٍ - حَرَسَهَا اللهُ - الوَطِيسُ، وَنَفَخَ فِي أُذْنِ الغَوْغَاءِ - أَصْلَحَهُمُ اللهُ - إِبْلِيسُ، وَرَدَ أَمْرُ مَنْ أَدَامَ اللهُ اعْتِلَاءَ أَمْرِهِ، وَاعْتِزَازَ نَصْرِهِ، بِأَنْ أَخْرُجَ مِنْ فُلَانَةٍ، فَلَنْ أُقِيمَ بِهَا وَلَنْ أَلْبَثَ، فَقُلْتُ لَعَلَّهَا المَدِينَةَ تَنْفِي الخَبَثَ[3]؛ فَخَرَجْتُ عَنِ الأَمْرِ المُطَاعِ، خُرُوجَ الضَّبِّ مِنْ نَافِقَائِهِ جُمُوحاً إِلَى الوِهَادِ وَالتِّلَاعِ، وَمِلْتُ أَتَغَلْغَلُ فِي الآكَامِ وَالغِيطَانِ، بَيْنَ بَارِجٍ وَبَرْجَطَانٍ، فِي زِيِّ خَاتِلٍ أَوْ فِي زِيِّ شَيْطَانٍ؛ فَلَوْ أَبْصَرْتَنِي - دَامَ عِزُّكَ - لَضَحِكْتَ مِنِّي عُجْباً، أَوْ مُلِئْتَ مِنِّي رُعْباً[4] وَوَلَّيْتَ عَنِّي هَرَباً، وَقُلْتُ لَقَدْ لَقِيَ هَذَا مِنْ سَفَرِهِ نَصَبا، وَرُبَّمَا أَشْفَقْتُ - دَامَ عِزُّكَ - لِلْمَشَقَّةِ، وَبُعْدِ الشُّقَّةِ، مِنَ المَشْيِ عَلَى القَدَمِ، فَاغْتَصَبْتُ مِنْ أَبِي الطَّيِّبِ نَاقَةً مِنْ أَدَمٍ، لَا تَكْسِبُ السَّنْدِيفَ، وَلَا تَحْمِلُ الرَّدِيفَ[5]، يَلِينُ مَسُّهَا عَلَى الامْتِهَانِ وَالهَوَانِ، وَلَا تُجْلَدُ بِالسَّوْطِ يَوْمَ السِّبَاقِ وَالرِّهَانِ. وَلَا تَعْرِفُ

---

(1) مقتبس من قول الشاعر العربي مجنون ليلى:

كَأَنَّ القَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى العَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ

ديوانه، ص: 90، الحماسة البصرية، ص: 157.

(2) من قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. سورة ص، الآية: 41.

(3) مقتبس من الحديث النبوي الشريف الذي قاله في المدينة المنورة: «المدينة كالكير تنفي خبثها وتنصح طيبها». اللسان: «نضح».

(4) مقتبس من قوله تعالى:﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِّئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾. سورة الكهف، الآية: 18.

(5) فيه إشارة إلى قول المتنبي، وكان كثيرا ما يتجشم الأسفار ولا مطية له إلا الخف أو النعل:

لَا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا ... بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُهَا
شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا ... زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

شرح ديوان المتنبي، ص: 26-27. يتيمة الدهر 1/ 115.



النِّفَارَ وَلَوْ وَطِئَتْ بِهَا رَأْسَ الحَيَّةِ وَذَنَبَ السِّرْحَانِ، لَوْ حَدَاهَا أَنْجَشَةٌ(1) وَهْيَ تَحْمِلُ القَوَارِيرَ مَا زَادَتْ فِي خُطَاهَا، وَقَالَتْ الرَّأْيُ إِلَيْكَ فِي الإِسْرَاعِ وَالإِبْطَاءِ لِمَنْ تَمَطَّاهَا وَرَكِبَ مَطَاهَا. وَرُبَّمَا قَرَأْتَ - دَامَ عِزُّكَ - كِتَابَ الاخْتِصَار، وَقَرَّبْتَ لِي مَطِيَّةً مِنْ مَرْبِطِ النَّجَّار، صَفْرَاءُ هَيْفَاءُ، وَإِنْ انْتَمَتْ فَأُمُّهَا الحَلْفَاءُ لَا الخَيْفَاء(2) رَخِيصَةَ الثَّمَن، مُشَابِهَةً لِخُلُقِ الزَّمَن، وَإِنْ رَفَهَتْكَ عَنِ العَلَف، فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ التَّلَف، لَا يُرْتَقُ فَتْقُهَا، وَلَا يُخَاطُ خِرْقُهَا، خَشِنٌ مَسُّهَا وَلَمْسُهَا، وَخَيْرُ يَوْمَيْهَا فِي الاسْتِعْمَالِ أَمْسُهَا، عَلَى أَنَّهَا رَخِيصَةٌ بِالعِرْقِ وَالعَيْن، إِذْ كانَتْ كَمَا تَقُولُ العَامَّةُ: تَقِي مِنْ آفَةِ العَيْنِ، ذَلَّ رَاكِبُهَا وَذَلَّتْ، وَحَلَّ الهَوَانُ مَعَهَا حَيْثُ حَلَّتْ، فَبُعْداً لَهَا لَقَدْ أَوْرَثَتْ قَدَمِي قَرْحاً، ثُمَّ ذَرَتْ عَلَيْهِ مِلْحاً، وَيَا عَجَباً كَيْفَ أُضَامُ وَلَمْ أَطْوِ عَلَى غِشٍّ كَشْحاً:

لَئِنْ كَانَ ذَنْبِي لِلزَّمَانِ مَحَبَّتِي ... فَذَلِكَ ذَنْبٌ لَسْتُ عَنْهُ أَتُوبُ
وَإِنِّي لَأَرْضَى بِالحَوَادِثِ تَعْتَرِي ... عَلَى حُبِّكُمْ وَالنَّائِبَاتُ تَنُوبُ(3)

فَبَيْنَا أَنَا -دَامَ عِزُّكَ - أُخَاطِبُ نَفْسِي عَاذِلاً أَوْ عَاذِراً، لَا نَاكِثاً وَلَا غَادِراً، إِذَا وَضَحَ لِي تَحْتَ الآلِ، شَخْصٌ مُكْفَهِرُّ الوَجْهِ مُمَزَّقُ الأَسْمَالِ، فَقُلْتُ مَا لِلْبِدَارِ، وَمَاذَا الزِّيُّ وَالنِّفَار، مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ(4). قَالَ: صَمِّي صَمَامِ، وَأَكْذِبْ هُنَا بِمَا قَالَتْ حَذَامِ(5) [نبأً

(1) النجش: السوق الشديد وأنجشة: رجل كان يسوق الجمال للرسول ﷺ وهو الذي قال في حقه الحديث المشهور «رفقا بالقوارير»؛ أي النساء.

(2) الخيفاء: هي الناقة أو الفرس الذي تكون إحدى عينيه سوداء كحلاء والأخرى زرقاء. ورد في ترجمة ابن عسكر المالقي صاحب «أدباء مالقة» من الذيل للمراكشي: «ومن رأى من نظمه» في صفة النعل المتخذة من الحلفاء:

رَكِبْتُ إِلَى لُقْيَاكَ كُلَّ مَطِيَّةٍ ... مُبَرَّأَةٍ أَنْ تَعْرِفَ الأَبَ وَالنَّسْلَا
إِذَا نَسَبُوهَا فَالتَّنُوفَةُ أُمُّهَا ... وَوَالِدُهَا مَاءُ الغَمَامِ إِذَا انْهَلَّا

(3) البيتان من الطويل وهما لابن عمار، الذخيرة 1/ 548.

(4) هو عصام بن الحارث كان شجاعا استخدمه النعمان بن المنذر حاجبا له وفيه يقول النابغة:

فَإِنِّي لَا أَلُومُكَ فِي دخُولٍ ... وَلَكِن مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ

العقد الفريد3/ 373.

(5) في المثل العربي: «القول ما قالت حذام» وكانوا يصدقونها فيما تقول وقد عكس الكاتب معنى المثل.



يُكْرِهُهُ] المُحَدِّثُ وَالسَّامِعُ وَيَكَادُ تَسْتَكُّ مِنْهُ المَسَامِعُ[1] فَقُلْتُ كَذِب............ ...

فَقَالَ لِي اسْبِقْ ظِلَّكَ وَأَوْغِلْ فِي هَذِهِ المَومَاةِ[2] وَالفِجَاج، وَانْجُ بِجُرَيْعَةِ الذَّقْنِ ومَا إِخَالُكَ بِنَاجٍ، فَمِنْ وَرَائِكَ مَعَ حِلْمِ مُعَاوِيَةَ سَطْوَةُ الحُجَّاج[3] فَقُلْتُ الأَمْرُ بَيْنَ الأَمْرَيْن، وَلَمْ يَغْلِبْ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ، وَتَصَفَّحْتُ صَحِيفَةَ عَمَلِي، فَأَلْفَيْتُهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، فَقُلْتُ مِمَّا الجَزَعُ وَالتَّقِيَّةُ، وَأَنَا أَقَلُّ مِنْكَ هُنَا فَمَا ظَنُّكَ بِي هُنَالِكَ، وَتِدٌ بِقَاعٍ قَرْقَرٍ، وَطَلَلُ بَالٍ مَا شُيِّدَ بِكِلْسٍ وَلَا بِمَرْمَرٍ، نَسَبٌ وَلَا نَشَب، وَأَدَبٌ وَلَا ذَهَب، فَمَا لِي أَيْنَ يَعْدِلُ بِيَ الحَاسِدُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَب، لِسَانُهُ أَفْصَحُ، وَمَيْدَانُهُ أَفْسَحُ، وَجَبِينُهُ فِي كُلِّ دُجُنَّةٍ أَوْضَحُ، وَبِمَاءٍ يَغْسِلُ دَرَنَ الشَّكِّ وَيَنْضَحُ[4] ثُمَّ رُضْتُ مَطِيَّتِي، وَنَفَذْتُ لِوِجْهَتِي وَطِيَّتِي، إِذَا غَشِيتُ أَكَمَة، أَسْمَعُ فِيهَا زَمْزَمَةً وَهَمْهَمَة، وَتَبَيَّنْتُ فَإِذَا أَنَا بِذِئْبٍ ضَار، دَامِي الشِّدْقَيْنِ وَالأَظْفَار، شَهِيرُ العَيْنِ وَالآثَارِ بِتِلْكَ الأَقْطَار، خِرِّيتُ[5] أَوْدِيَة، خَرَّابُ أَنْدِيَة، أَزَلُّ مُشْرِفُ التَّلِيلِ وَالهَادِي، مُعْضِلَةُ دَادِي، يَنْظُرُ مِنْ قَبَس، وَكَأَنَّمَا تَعَبَّدَ بِقِرَاءَةِ سُورَةِ عَبَسَ[6] طَالَمَا قَتَلَ الرُّعْيَانَ وَالْتَقَفَ الثُّعْبَان، وَأَخَافَ السَّبِيلَ، وَأَذَاقَ السَّائِمَةَ العَذَابَ الوَبِيلِ، أَجَلٌ قَدْ حَضَرَ، وَقَدَرٌ لَا يُنْجِي مِنْهُ حَذَر، فَتَلَمَّظَ وَتَمَطَّى لَا مِنْ كَسَل، كَشَّرَ عَنْ

---

(1) استك مسامعه: صمت وضاقت والقول مقتبس من بيت النابغة:

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِي ... وَتِلْكَ الَّتِي تَسْتَكُّ مِنْهَا المَسَامِعُ

(2) الموماة: المفازة الواسعة.

(3) يقصد بمعاوية ابن سفيان الخليفة المشهور وقد عرف بالحلم، أما الحجاج فهو ابن يوسف الثقفي وقد اشتهر بجبروته وسطوته.

(4) النضح: رش الماء وتفريقه.

(5) الخريت: الدليل الحاذق كأنه ينظر في خرت إبرة. قال رؤبة:

أَرْمِي بِأَيْدِي العِيسِ إِذْ هَوِيتُ ... فِي بَلْدَةٍ يَعْيَى بِهَا الخِرِّيتُ

(6) أول سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾. السورة رقم 80، الآيتان: 1-2.



مِثْلِ أَطْوَافِ الأَسَل، وَانْتَفَضَ إِلَيَّ كَمَا انْتَفَضَ إِلَى الفَرِيسَةِ أُسَامَةُ[1] وَانْتَفَضَ الصَّرِيخُ مِنَ النَّاسِ بِمُحَلِّمِ ابْنِ جُثَامَة، وَضَرَبَ بِذَنَبِهِ إِلَى الأَرْضِ فَكَادَ يَتَوَارَى مِنَ الغُبَارِ فِي عَجَاجَة، وَأَقَمْتُ كَأَنَّنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَة، فَنَظَرْتُ يَمْنَةً وَشَمْلَة، فَلَمْ أَرَ إِلَّا خِنْجِراً وَشَمْلَة، فَلَفَفْتُهَا عَلَى ذِرَاعِي، وَقُلْتُ لِنَفْسِي لَا تُرَاعِي[2]، وَوَقَفْتُ ثَبْتَ الجِنَان، وَقُلْتُ لَا نَامَتْ عَيْنُ الجَبَان، وَذَكَرْتُ مَا جَاءَ فِي الأَثَر، عَنْ أَصْحَابِ الغَارِ وَالحَجَر[3]، فَقُلْتُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ حَقّاً مَا نُسِبَ إِلَيَّ، سَلِّطْهُ عَلَيَّ، وَإِنْ كَانَ كَذِباً وَمَيْناً فَأَقَرَّ لِي بِالظَّفَرِ عَيْنا، وَصَدَقْتُ الحَمْلَة، وَأَقْدَمْتُ عَلَيْهِ إِقْدَامَ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدِ اللهِ عَلَى أَنْفِ رَمْلَة، وَأَثْبَتُّ الخِنْجَرَ فِي حَنْجَرَتِه، حَتَّى تَوَلَّى إِلَى قَبْضَتِه، فَخَرَّ كَالهَدَفِ صَرِيعاً، وَعَايَنْتُ مَنْ تَخَبَّطَهُ مَنْظَراً شَنِيعاً.

وَتَرَكْتُهُ يَلْبَسُ الرَّهَجَ[4]، وَرَكِبْتُ إِلَى الوَزِيرِ - دَامَ سَعْدُه - المَنْهَجَ، وَالفَأْلُ الصَّالِحُ قَدْ رَمَزَ بِالنُّجْحِ فِيمَا آمُلُهُ وَنَهَجَ، فَقَالَ ظَفِرْتَ - إِنْ شَاءَ اللهُ - بِعَدُوٍّ نَصَبَ لَكَ الحَبَائِلَ خَاتِلاً، وَسَدَّدَ إِلَى نَحْرِكَ سَهْماً قَاتِلاً، لَكِنِ اللهُ يَقِيكَ وَالأَجَلُ، وَمَا يُقِيمُهُ مِنْ حُجَّتِكَ الوَزِيرُ الأَجَلُّ، فَكَمْ أَعْتَقَ مِنْ رَقَبَة، وَدَمَّثَ[5] مِنْ عَقَبَة، وَفَكَّ مِنْ أَسْرٍ، وَوَضَعَ مِنْ إِصْرٍ، وَنَسَخَ مِنْ عُسْرٍ بِيُسْر. فَجِئْتُكَ - دَامَ عِزُّكَ - لَا مُسْتَقِلّاً مِنْ عِثَار، وَلَا مُنَاجِياً

---

(1) أسامة: من أسماء الأسد لا ينصرف وهو معرفة وليس بنكرة، قال زهير:

وَلأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ إِذْ ... دُعِيَتْ نَزَالِ وَلُجَّ فِي الذُّعْرِ

(2) مقتبس من قول الشاعر الخارجي، قطري بن الفجاءة:

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ لِنَفْسِي ... مِنَ الأَبْطَالِ وَيْحَكِ لَا تُرَاعِي

فَإِنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ حَيَاةَ يَوْمٍ ... سِوَى الأَجَلِ الَّذِي لَكِ لَمْ تُطَاعِي

العقد 1/ 105.

(3) تنظر قصتهم في كتاب العقد الفريد للملك السعيد، ص: 127-128.

(4) الرهج: الغبار، وفي الحديث «ما خالط قلب امرئ رهج في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار». اللسان: «رهج».

(5) دمث الشيء إذا مرسه حتى يلين، وفي المثل «دمث بجنبك».



مُنَاجِياً بِلِسَانِ اعْتِذَار، وَلَا مُذْنِباً يَلُوذُ بِحَضْرَةِ الاغْتِفَار. فَالحَقُّ أَبْلَجَ وَالبَاطِلُ لَجْلَجَ(1) وَبِالسَّيْفِ يُقَامُ المَيَلُ وَالعَوَج. أَرِدَّةٌ بَعْدَ إِيمَانٍ؟ أَنَكْثٌ بَعْدَ عُهُودٍ مُغَلَّظَةٍ وَأَيْمَانٍ؟ أَتَعَرَّضَ لِهَلَاكٍ بَعْدَ قَرَارٍ وَأَمَانٍ؟. واللهِ مَا خَاطَبْتُ ابْنَ فُلَانٍ، وَلَا أَعْرِفُ الحَقَّ إِلَّا لِمَنْ تَمَلَّكَنِي بِالإِحْسَانِ وَالامْتِنَان. وَالمَلِكُ الأَجَلُّ الهُمَامُ الأَفْضَلُ - خَلَّدَ اللهُ دَوْلَتَهُ - وَدَعْوَتَهُ وَإِنْ صَحَّ عَلَيَّ غَيْرُ هَذَا بَعْدَ الاسْتِثْبَاتِ، وَالدَّلَالَاتِ البَيِّنَاتِ.

فَالسَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ(2)

فَاصْدَعْ دَامَ عِزُّكَ مُتَأَجِّراً بِاحْتِجَاجِي، عِنْدَ احْتِيَاجِي، وَكُنِ النَّيِّرَ الأَزْهَرَ أَثْنَاءَ إِسْرَائِي وَإِدْلَاجِي:

وَتَرَاكِهَا مِنْ إِبِلٍ تَرَاكِهَا ... أَمَا تَرَى المَوْتَ لَدَى أَوْرَاكِهَا(3)

لَا زِلْتَ تُحْسِنُ صَنِيعاً، وَتُجْبِرُ صَرِيعاً، وَتُحْيِي نَفْساً مُؤْمِنَةً ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾(4) وَالسَّلَامُ.

وَلَهُ رِسَالَةٌ فِي صِبَاغِ كِسَاءٍ:

وَلِلاخْتِبَارَاتِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِالاجْتِهَادِ، وَبَذْلِ النَّصِيحَةِ فِي الانْتِقَاءِ وَالارْتِيَادِ، وَعَنَّتْ لِي مَأْرَبَةٌ هُنَاكَ بِيَدِكَ زِمَامُهَا، وَبَدْؤهَا وَتَمَامُهَا، وهي أَنْ يُصْبَغَ لِي عَنْ أَمْرِكُمْ،

---

(1) من الأمثال وهو يعني أن الحق واضح والباطل ملتبس. قال المبرد: قوله: «لجلج»؛ أي يتردد فيه صاحبه ولا يصيب منه مخرجا أما الأبلج فهو الواضح ومن قول الشاعر:

حَتَّى بَدَتْ أَعْنَاقُ صُبْحٍ أَبْلَجَا

مجمع الأمثال 1/ 207.

(2) البيت من البسيط وهو لأبي تمام من قصيدته المشهورة التي قالها لما فتح المعتصم عمورية. ديوانه، ص: 1/ 40.

(3) الورك: والجمع أوراك ما فوق الفخذ كالكتف فوق العضد. بيت شعري لطفيل بن يزيد الحارثي وهو من شواهد الكتاب لسيبويه 1/ 241.

(4) سورة المائدة، الآية: 34.



وتَحْتَ نَظَرِكُمْ، كِسَاءٌ وَجَّهْتُهُ إِلَيْكَ، وَيَرِدُ إِنْ شَاءَ الله عَلَى يَدَيْ مُوَصِّلِ أَحْرُفِي عَلَيْكَ، فَاسْتَنْبِطْ أَعَزَّكَ اللهُ بِذِهْنِكَ وَتَهَمُّمِكَ مِنْ حُمْرَةِ الخَجَلِ، وَصُفْوَةِ الوَجَلِ، لَوْنـاً ذَا اشْتِرَاكٍ، بَيْنَ حُوَّةِ اللَّعَسِ وَصُفْرَةِ المِسْوَاكِ، كَأَنَّمَا أَعَارَهُ قَوْسُ قُزَحٍ شُعَاعاً، أَوْ نَثَرَ عَلَيْهِ الوَرْدُ اليَانِعُ مِنْ بُرَادَةِ الذَّهَبِ المُودَعَةِ فِي رُؤُوسِهِ قِنَاعاً، أَوْ أَلْبَسَهُ قَمِيصاً، ثُمَّ أَهْدَى إِلَيْهِ سَفْحُ قَاعُونِكُمْ[1] مِنْ نَرْجِسِهِ الغَضِّ بَصِيصاً، فَلَا تَلْقَى إِلَّا مَنْ تَرَاهُ عَلَى الاشْتِمَالِ بِهِ حَرِيصاً، وموصّلُهُ أَعَزَّهُ اللهُ كَفِيلٌ بِأَدَاءِ مَا يَنُوبُهُ بِمِيزَانِ عَدْلٍ لَا يَخِيسُ شَعِيرَة، فَلْيَزِد الصَّانِعُ في اجْتِهَادِهِ بَصِيرَة، وَلْيُكْمِلْهُ عَلَى المُرَادِ إِنْ شَاءَ الله فِي مُدَّةٍ قَصِيرَة، واللهُ يُطِيلُ عُمْرَهُ مُتَمِّماً لِلْأَمَلِ، مُوَفَّقاً فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ، بِعِزَّتِهِ وَالسَّلَام.

وَلَهُ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ: وَكَانَ مُولَعاً بِالتِّينِ الصُّهَابِيِّ[2]:

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الّذِي كَسَا الشَّجَرَ أَوْرَاقاً، وَجَعَلَ لِعِبَادِهِ فِيهَا أَرْزَاقاً، وَرَكَّبَ فِي أَغْصَانِهَا نُهُوداً وَحِقَاقاً. فَإِنَّهُ وَلَهُ الحَمْدُ، قَبْلُ وَبَعْدُ، قَدْ هَيَّأَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً[3]، وَمَا

---

(1) يشير ابن مغاور إلى قاعون CAOUN وهو جبل ذكره الإدريسي عند حديثه على دانية، قال: «وفي الجنوب منها جبل عظيم مستدير يظهر من أعلاه جبال يابسة في البحر، ويسمى هذا الجبل جبل قاعون» النزهة: 557. وورد اسم هذا الجبل في شعر لأبي حفص العروضي قاله لما نزل بدانية وطولب بمكس (معجم السفر للسلفي ومعجم ياقوت):

مَـا وَاجِـبٌ مِثْلِـي يُمَكَّـسُ عِذْلُـه ... لَـوْ كَـانَ يَعْـدِلُ وَزْنُـهُ قاعُونَـا

وجاء ذكر «جبل دانية المعروف بقاعون» في آخر رحلة ابن جبير. ويبدو أن ابن مغاور خاطب بهذه الرسالة بعض أهل دانية التي تبعد عن شاطبة بخمسة وعشرين ميلا أو غيرها من الجهات الواقعة في سفح جبل قاعون ومنها بكيران (بيران3) التي كانت «تصنع بها ثياب بيض تباع بالأثمان الغالية ويعمر الثوب منها سنين كثيرة وهي من أبدع الثياب عتاقة ورقة حتى لا يفرق بينها وبين الكاغد في الرقة والبياض». (الإدريسي:557).

(2) أشار أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة إلى بعض أنواع التين المعروفة بالأندلس فقال: منه المالقي والشعري والإشبيلي ولم يذكر من بين هذه الأنواع «الصهابي» ولم نعثر على نص آخر يشير إليه البسطي آخر شعراء الأندلس، ص: 49.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾. سورة الكهف، الآية:10.



كَانَ لِيَدَعنَا سُدىً، أَمْتَعَنَا بِلُطْفِهِ وَعَطْفِهِ، بِأُمٍّ تُعِينُ عَلَى بِرِّهَا، وَلَا تَبْخَلُ بِدَرِّهَا، تُرْضِعُ بَعْدَ الفِطَامِ بَنِيهَا، وَتُسَاقِطُ رُطَباً جَنِيّاً عَلَى مُجْتَنِيهَا[1] تَقِينا بِظِلِّهَا البَرْدَ وَالحَرَّ، وَتَدْرَأُ عَنَّا بِشَخْصِهَا القَرَّ وَالصَّرَّ، عَجُوزٌ فَتِيَّةٌ، فَصِيحَةٌ أَعْجَمِيَّةٌ، فَإِنْ انْتُسِبَتْ فَصَهَابِيَّةٌ[2]. قَرَاهَا غَيْرُ مَمْنُونٍ، وَكَمْ تَحْتَ أَوْرَاقِهَا مِنْ بِيضٍ مَكْنُونٍ، وَكَمْ حَضَنَتْ مِنْ يَتِيمٍ، أَخْضَرِ الأَدِيمِ، مُعْرِقِ الأَدِيمِ، مَزَّقَتْ جِلْدَتَهُ الصِّبَا، فَاجْتَمَعَ وَاحْتَبَى، وَشَاخَ فِي شَرْخِ الصِّبَا، ذِي رِيقٍ سَائِلٍ، وَجِيدٍ مَائِلٍ، وَمَا شِئْتَ مِنْ ثُدِيٍّ مُلْسٍ، وَشِفَاهٍ لُعْسٍ؛ فَهَلُمَّ يَا أَخِي صِلْ خُطَاكَ، وَاشْكُرِ اللهَ فَكَثِيراً أَعْطَاكَ:

بِأَبِي اليَوْمَ وَنَفْسِي بَلَسٌ[3] ... كَثُدِيِّ الزَّنْجِ دَرَّتْ عَسَلَا
عَبَثَتْ فِي بُرْدِهِ كَفُّ الصِّبَا ... فَتَرَدَّا مِنْ جَدِيدٍ سَبَلَا[4]
سَهِرَ اللَّيْلَةَ يَرْعَى نَجْمَهَا ... ثُمَّ أَغْفَى فِي الصَّبَاحِ كَسَلَا
لَيْتَ شِعْرِي مَنْ سَقَاهُ خَمْرَةً ... شَفَقُ الصُّبْحِ فَأَضْحَى ثَمِلَا
مَائِلَ الجِيدِ عَلَتْهُ نَعْسَةٌ ... سَائِلَ الرِّيقَةِ مَهْمَا غَفَلَا
كُلَّ يَوْمٍ لِي عَلَيْهِ غَارَةٌ ... غُدَّةَ الصُّبْحِ وَأُخْرَى أُصُلَا
لَسْتُ أَرْوَى مِنْ أُوَامِي بِهِمَا ... إِنَّمَا الرِّيُّ شَرَابِي عَلَلَا[5]

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾. سورة مريم، الآية: 24.

(2) لعل هذا التين ينسب إلى «صهاب» وهي قرية فارسية وقد يكون أحد الفاتحين أدخل هذا النوع إلى الأندلس. الروض المعطار، ص: 368.

(3) البلس: التين، وقيل تمر التين.

(4) السبل: المطر المسبل وأسبل المطر والدمع إذا هطلا قال بعضهم.
السبل: المطر الذي يخرج من السحاب ولم يصل الأرض اللسان: «سبل».

(5) العلل: الشرب الثانية، وقيل الشرب بعد الشرب اتباعا ولذلك يقال علل بعد نهل. والأبيات من الخفيف.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَحْرٍ صَفْوَانَ بْنِ ادْرِيسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَصِفُ دَابَّةً سَيِّئَةً:

لَيْتَ الغُرَابَ الَّذِي غَنَّى بِبَيْنِكُمُ   هَبَّتْ عَلَيْهِ رِيَاحُ الشَّوْقِ فَاحْتَرَقَا[1]

غَنَّى فَعَنَّى وَنَعَبَ فَأَتْعَب، فَكَانَ فَصْلُ القَضِيَّةِ أَنِّي ارْتَحَلْتُ، فَامْحَلْتُ وَبِنْتُ فَغُبِنْتُ، وَانْتَقَلْتُ، فَمَا عَقُلْتُ، وَنَزَحْتُ، فَنَفَيْتُ الكَرَى عَنْ نَاظِرِي وَزَحْزَحْتُ، وَوَطَأْتُ مَرْكَبَ السَّيْرِ فَمَا نَزَحْت.

هَيَّأَ لِي القَدَرُ بَغْلاً يَحْسُدُ رَاكِبُهُ رَاكِبَ العَيْرِ، وَيَرَى الفَضْلَ إِلَيْهِ بِرُكُوبِ أَخِي بَنِي نُمَيْر، نَطَقَ لِسَانُ كَلَالِهِ فَأَفْصَحَ، وَكَادَ مِنْ طُولِ البِلَى أَنْ يُمْصَحَ[2] إِنْ وَجَدَ مَبْرَكاً قَعَدَ، وَأَنْجَزَ بِالعَجْزِ مَا وَعَدَ، وَأَنْشَدَ وَقَدْ صَوَّبَ فِي الفَشَلِ وَصَعَّدَ:

فَقُلْتُ يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِداً   وَلَوْ قَطَّعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي[3]

وَيَرْغُو عِنْدَ رُؤْيَةِ الشَّعِير، رُغَاءَ البَعِير، وَيُرْزِمُ[4] إِلَى القَصِيلِ[5] إِرْزَامَ الفَصِيلِ[6]، وَيَلِجُ فِي زَفِيرٍ وَأَنِين، وَيُنْشِدُ بِصَوْتٍ حَنِين:

وَقَفَ الهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي   مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدَّمُ[7]

---

(1) البيت من البسيط.
(2) مصح الكتاب: ذهب ومصحت الدار عفت. وهو من رجز لرؤبة ونَصُّهُ:
فَانْهَدَّ مِنْ كَرٍّ أَصِيلٍ وَضَحَّى   وَكَادَ مِنْ طُولِ البِلَى أَنْ يُمْصَحَا
(3) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه، ص: 161. وهو من الطويل.
(4) أرزم: أطلق صوتا دون أن يفتح فمه.
(5) القصيل: نبات يصلح لعلف الدواب.
(6) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.
(7) البيت لأبي الشيص وهو في الحماسة لأبي تمام، ص: 143، الزهرة، الجزء: الأول، ص: 20، شرح المقامات للشريشي 2/ 39، المرقصات والمطربات ص: 47، نفحة الريحانة 1/ 110.



إنْ أُعْجِلَ عَثَر، وَإنْ لَوِيَ انْتَشَر، وَإنْ دَبَّ فَوْقَ جِلْدِهِ مُحْولٌ مِنَ الذَّرِّ أَثَّر[1]، يَتَوَجَّعُ لِلنَّهِيم، وَهْوَ يَشْرَبُ المَاءَ شُرْبَ الهِيم[2]، وَيَتَأَلَّمُ إنْ أَحَسَّ مِنْ عَقِبَيَّ ضَمَا، وهُوَ يَأْكُلُ العَلَفَ ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾[3]، يَدِبُّ إِلَى عَلَفِهِ دَبِيبَ الحُبَاب، وَيَكَادُ يَتَفَسَّخُ بِرَاكِبِهِ تَفَسُّخَ الحَبَابِ[4] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَلْبَابِ يَسْجُدُ رَاكِبُهُ قَبْلَ الرُّكُوع، وَلَا يَتَيَمَّمُ إِذَا وَقَعَ إِلَّا إِلَى الكُوع، فَلَمَّا اقْتَعَدْتُ قَرَاه، فَطَلَبَ مِنْ سَيْرِهِ قُرَاه، أَلْفَيْتُ المَاءَ فِي دَارِ عُثْمَانَ لَهُ ثَمَن[5]، وَوَجَدْتَهُ بِأَنْوَاعِ الفَشَلِ وَالكَسَلِ قَمَن، فَكُلَّمَا رَكَضْتُهُ وَقُلْتُ:

أَحَقُّ الخَيْلِ بِالرَّكْضِ المُعَارُ[6]

كَانَ جَوَابُهُ:

وَرُبَّ قَتْلٍ عَارُ

وَلَمَّا ارْتَبَطْتُهُ وَمَا أَكْرَمْت، وَرَأَيْتَ أَنِّي أُحْسِنُ مِنْ حَيْثُ اجْتَرَمْت، قُلْتُ لَعَلِّي أُؤَدِّبُهُ فَيَنْجَحُ فِي فِعْلٍ أَوْ قَوْل، وَيَكُونَ كَنَضْلَةٍ فِي يَوْمِ غَوْل[7]، فَيُبَدِّلُ قُبْحَهُ الحَسَنَ وَيُبِيحُ:

---

(1) هذا من قول امرئ القيس:

مِنَ القَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْولٌ ... مِنَ الذَّرِّ فَوْقَ الإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

(2) تعبير مقتبس من القرآن قال تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾. سورة الواقعة، الآيتان: 57-58.

(3) سورة الفجر، الآية: 21.

(4) الحباب بالضم الحية، وبالفتح انكسار الماء مع وجود فقاقيع قال طرفة:

يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا ... كَمَا قَسَمَ التُّربَ المُفَايِلُ بِاليَدِ

والبيت من المعلقة.

(5) هذا من قول عبد الملك الحارثي:

المَاءُ فِي دَارِ عُثْمَانَ لَهُ ثَمَنٌ ... وَالخُبْزُ فِيهَا لَهُ شَأْنٌ مِنَ الشَّانِ

(6) شطر بيت من الوافر، وهو لبشر بن أبي خازم أو الطرماح، وأوله:

وَجَدْنَا فِي كِتَابِ بَنِي تَمِيمِ

(7) نضلة: هو نضلة السلمي، كان دميما ولكنه كان ذا بأس ونجدة ويوم غول من أيام العرب.



وَيَنْفَــــعُ أَهْلَـــــهُ الرَّجُـــــلُ القَبِــــيح[1]

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ فَزِعَ سُوءُ خُلُقِهِ، لِسُوءِ خَلْقِهِ وَسَبْقِه، وَأَشْبَهَ شَرْجٍ شَرْجا وَوَافَقَ شَنٌّ طَبَقَة[2]، فَرُبَّمَا كُنْتُ حِينَ أَرَى كَسَلَهُ قَدْ زَاد، تَارَةً أُلْقِي النَّعْلَ وَالصَّحِيفَةَ وَالزَّاد، وَتَارَةً أَنْفَصِلُ عَنْ طَيَّتِي، وَأَعْقِرُ لِغَيْرِ العَذَارَى مَطِيَّتِي[3] وَكُنْتُ خِلَالَ ذَلِكَ أَنْتَقِلُ إِلَى مَرْكُوبٍ لَا يَقْبَلُ الرَّدِيفَ، وَلَا يَحْتَمِلُ السَّدِيفَ[4]، لَا يُجْهَدُ بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ، وَلَا يَعْلَمُ رُكُوبَهُ إِلَّا المُهَّانُ[5] لَا يَمْشِي إِلَّا فِي قَيْد، وَلَا يَزَالُ يَضْرِبُ الأَرْضَ ضَرْبَ زَيْد، دَابَّةٌ تَغْدُو وَتَرُوح، وَمَا لِجِسْمِهَا رُوحٌ، وَتَدِبُّ عَلَى بَطْنِهَا دَبِيبَ الحَيَّة، مَيِّتَةٌ غَيْرَ حَيَّة، وَلَعَلَّكَ تَخَيَّلُ أَنَّ هَذِهِ الدَّابَّةَ عَلَى غَيْرِ قَدَم، نَعْلٌ مِنْ شِرَاكٍ أَوْ أَدَم، عَلَى رِسْلِكَ مَا هِيَ إِلَّا مَطِيَّةٌ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْض، مَا لَهَا بِطَانٌ[6] وَلَا عَرْض، وَاحِدَةٌ اجْتَمَعَتْ فِيهَا القِرَاب، أَبُوهَا المَطَرُ وَأُمُّهَا التُّرَاب.

فَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ فِي شُؤُونٍ وَأَنْبَاء، وَأَحْوَالٍ تَتَلَوَّنُ تَلَوُّنَ الحِرْبَاء، حَتَّى أَلْقَيْتُ بِهَذَا الأُفُقِ عَصَا التَّسْيَار، وَانْبَرَيْتُ أُطَارِحُ بِذِكْرَاكُمْ شَوَادِي الأَطْيَار، فَنَاهِيكَ مِنْ حَال، ذَاتِ إِمْحَال، وَبَالٍ، ذِي وَبَال، وَرَوْعَةٍ لَوْ نَفَخَتْ عَلَى الغُصْنِ مَا أَوْرَق، وَلَوْعَةٌ لَوْ لَفَحَتْ

---

(1) عجز بيت لنضلة وأوله:

رَأَوْهُ فَــــــازْدَرَوْهُ وَهْــــــوَ حُــــــرٌّ

(2) مثل عربي معروف وقد نظمه أحد الشعراء فقال:

لَقِيَــــتْ شَــــنٌّ إِيَـــــاداً بِالقَنَــــا ... وَلَقَــــدْ وَافَـــقَ شَـــنٌّ طَبَقَــــهْ

مجمع الأمثال 2/ 360، جمهرة ابن دريد1/ 99.

(3) فيه إشارة إلى قول امرئ القيس في معلقته:

وَيَــوْمَ عَقَــرْتُ لِلْعَــذَارَى مَطِيَّتِــي ... فَيَـا عَجَبًـا مِـنْ كُورِهَـا المُتَحَمَّـلِ

(4) الرَّديف: الراكب الذي يكون خلف صاحبه على برذون واحد؛ أما السديف: فهو السير بالليل. قال المتنبي:

لَا نَــــاقَتِي تَحْمِـــلُ الرَّدِيـــفَ وَلَا ... بِالـــسَّوْطِ يَـــوْمَ الرِّهَـــانِ أُجْهِـــدُهَا

(5) المُهَّان: هم أصحاب الحذق في حرفة من الحرف أو عمل من الأعمال؛ ومنه قول عائشة: «كل الناس مُهَّانُ أنفسهم».

(6) البِطَان: الحزام الذي يكون تحت بطن الدابة.



وَجْهَ المَاءِ لاحْتَرَق، وللهِ قُطْرٌ اكْتَنَفَتْ مَحَاسِنكُمْ رُبُوعَه، وَاقْتَبَسَ مِنْ أَنْوَارِكُمْ تَابِعُهُ وَمَتْبُوعُه، كَمْ أَتَرَدَّدُ بَيْنَ الضِّدَّيْن، فِي حَسَدِهِ وَوِدَادِه، وَأَنْحَازُ طَوْراً إِلَى أَوْلِيَائِهِ وَطَوْراً إِلَى أَضْدَادِه. أَمَا حَسَدِي لَهُ فَلأَنَّهُ لِهَذَا القُطْرِ فِيكُمْ غَاصِب، وَكَيْفَ يَسْتَأْثِرُ بِبَيْتِ المَالِ إِذَا حَضَرَ العَاصِب[1]. فَهَذَا القُطْرُ حَلَّ بِهِ تَمَائِمك الشَّبَاب، وَبَنَتْ لَكَ فِيهِ نَشْأَتُكَ ضَرِيحاً تَبْلُغُ بِهِ فِي سَمَاوَاتِ السُّمُوِّ أَسْبَاب، وَهَذِهِ الأَرْضُ أَوَّلَ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدَكَ تُرَابُهَا[2]، وَمَحَضْتُكَ الوُدَّ حَتَّى كَادَ يَكُونُ لَكَ مَاءً سَرَابُهَا، وَيَتَرَاءَى فِي مِسْلَاخِ البَشِيرِ غُرَابُهَا، فَإِنْ رَجَعَتْ إِلَى الحَقِّ المَظَالِم، فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَالَهَمْدَانَ ظَالِم[3]. وَعَادَ الحَدِيثُ مَا جَرَّ أَوَّلَه، وَعَلَى مَحَاسِنِكُمْ مُعْتَمَدُه وَمُعَوَّله.

أَمَا الوِدَادُ لِذَلِكَ القُطْرِ فَهُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ[4] لَا تَرْجِعُ ....
أَعَزَّكُمُ اللهُ أَحِبَّهُ فَبِأَنَّكُمْ حَلَّيْتُمْ عَاطِلَه، وَجَلَوْتُمْ لِي مَاطِلَه

أَبَا جَعْدَةَ وَلَقَدْ ذَكَّرَتْنِي هَذِهِ القَضِيَّةُ بِقَوْلِ أَخِي بَنِي جَعْدٍ ... ...:

وَأُلْقِي عَلَى جِيرَانِهَا مَسْحَةَ الهَوَى ... وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا لِي قَبِيلاً وَمَعْشَرَا[5]

وَلِأَمْرٍ مِنْ الاسْتِدْعَاءِ لِلْمَوَدَّةِ وَالأَسْبَاب، أَحَبَّ قَيْسٌ بِزَعْمِهِ السُّودَانَ حَتَّى مِنَ الكِلَاب[6]، فَلَا غَرْوَ أَنِّي أَهِيمُ بِذَلِكَ الصُّقْعِ الظَّلُوم، وَأَنْقُلُهُ إِلَى بَابِ المَحْمُودِ وَهُوَ

(1) العاصب: الذي يرث الرجل عن كلالة من غير والد ولا ولد. وفي الفرائض: كل من لم تكن له فريضة مسماة.

(2) مقتبس من قول الشاعر رقاع بن قيس الفقعسي:

بِلَادٌ بِهَا حَلَّ الشَّبَابُ تَمَائِمِي ... وَأَوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

الأمالي 1/ 83، الزهرة 2/ 300.

(3) هذا من قول مالك بن حريم:

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ ... فَهَا أَنَا فِي ذَا يَالَهَمْدَانَ ظَالِمُ

(4) مثل مشهور ومعروف.

(5) البيت من الطويل ولعله يقصد بأخي بني جعد النابغة الجعدي.

(6) هذا من قول الشاعر:



عِنْدِي فِي بَابِ المَذْمُوم. وَأُولِي مَوَاطِئَ نَعَالِكُمْ مِنْهُ بِفَمِ الوَهْمِ تَقْبِيلا، فَبِكَرْهِي لَوِ اسْتَطَعْتُ سَبِيلا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي كَرِيماً فَإِنَّهُ يَحِلُّ بِهِ شَخْصٌ ما يَزَالُ لِي غَرِيماً، وَاعْجَبْ لَهُ كَيْفَ لَا يَنْقَشِعُ غَيْمُ ظُلَمِهِ وَيَنْجَاب، أَمَا عَلِمَ أَنَّ دَعْوَةَ المَظْلُوم تُسْتَجَاب[1]؟ وَأَنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَاب، وَأُعْجِبَ مِنْهُ أَهْلُهُ كَيْفَ يَسْتَهْوِنُونَ عَظِيماً فِيكُمْ وَيَحْتَقِرُونَهُ، أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَه.

وَإِلَى هَذَا فَإِنِّي اجْتَمَعْتُ بِالوَزِيرِ أَبِي بَكْرِ بْنِ مُغَاوِرٍ مُلْقِي القِيَادِ لِفَصَاحَتِكُمْ، وَالمُعْتَرِفِ أَنَّ البَيَانَ وَهُوَ أَقَلُّ حُلاكُمْ لَمْ يُخَيِّمْ إِلَّا بِسَاحَتِكُمْ، فَطَالَبْتُهُ بِمَا كُنْتُمْ ذَكَرْتُمْ مِنَ الاسْتِيْجَاز، فَقَالَ يَاللهُ وَيَا لَلْمُسْلِمِينَ مَتَى احْتَاجَتِ الصُّدُورُ إِلَى الأَعْجَاز، وَبِأَيِّ شَيْءٍ فَضَلَتْ أَرْضُ الحَبَشَةِ أَرْضَ الحِجَاز، وَمَالَ إِلَيَّ يَقُولُ لِي لَعَلَّكَ وَهِمْت، وَمَا فَهِمْتَ، وَغَفَلْتَ فِيمَا تَكَفَّلْتَ، مَنْ جَعَلَ الوَهْدَ عَلَماً، وَالمَجْهَلَ مَعْلَماً، فَحِينَ رَأَيْتُ مَطَلَهُ وَلَيَّهْ، قُلْتُ لَهُ وَلَا كُلَّ هَذَا يَا عُلَيَّهْ، فَزَحْزِحْ عَنْ وَجْهِ الجِدِّ حَاجِبَ الجِلْبَابِ وَأَنْزِلْ بِمَنْزِلِ زَيْنَبَ وَالرَّبَاب، فَمِثْلُ هَمَذَانَ سَنَى فَتْحَةَ البَاب، فَقَالَ: أَمَّا عَلَى مَعْنَى الائْتِمَارِ لِلْمَجْدِ فَأَهْلاً وَسَهْلا، وَإِنْ لَمْ أَكُنْ لِمَا أَهَّلَنِي أَهْلا، لَكِنِّي لِمَا أَمَرَ بِهِ ذَلِكَ الجَلَالِ مِنَ المُذْعِنِين، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَابِلٌ فَمَا نَهَى عَنْهُ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ[2].

واللهُ تَعَالَى يُدِيمُ مُدَّةَ سَيِّدِي وَالزَّمَانُ يَخْدُمُ جَنَابَهُ الأَعَزّ، حَتَّى لَوْ طَالَبَهُ بِالأَبْلَقِ العَقُوقِ أَوْ بِيضِ الأَنُوقِ[3] مَا امْتَنَعَ وَلَاعَزَّ، وَالقَضَاءُ السَّعِيدُ يَجْرِي بِوَفْقِه، وَيَعْمَدُ إِلَى كَوَاكِبِ أَغْرَاضِهِ فَيُطْلِعُهَا بِأُفُقِهِ:

أُحِبُّ لِحُبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى ... أُحِبُّ لِحُبِّهَا سُودَ الكِلَابِ

(1) مقتبس من قول الرسول ﷺ في حديثه المشهور: «اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

(2) قول الرشيد لأخته علية أول قولها عندما قرأت: فإن لم يصبها وابل فما نهى عنه أمير المؤمنين.

(3) مثلان معروفان يضربان للأمر المستحيل وقد قال الشاعر في ذلك:

طَلَبَ الأَبْلَقَ العَقُوقَ فَلَمَّا ... لَمْ يَنَلْهُ أَرَادَ بَيْضَ الأَنُوقِ

الدرة الفاخرة 1/ 299، الحيوان 3/ 522، ثمار القلوب، ص: 494.



تُمْسِي الأَمَانِيُّ صَرْعَى دُونَ مَبْلَغِهِ   فَلَا يَقُولُ لِشَيْءٍ لَيْتَ ذَلِكَ لِي[1]

وَالسَّلَامُ عَلَى مَحَلِّهِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

وَلَهُ فِي وَصْفِ مَطَرٍ مَعَهُ بَرْقٌ وَرِيحٌ وَرَعْد:

السَّلَامُ الطَّيِّبُ الأَرِجُ وَالبَرَكَاتُ تَعْطِفُ وُفُوقُهَا وَتُعَرِّجُ، عَلَى مَقَامِ أَخٍ يُرْضِي بِرُّهُ حَتَّى يُحْرِجَ، وَرُبَّ بِرٍّ أَضَاعَ مِنْ إِسْقَاطِ الكُلْفَةِ حُقُوقًا، فَاسْتَحَالَ لِلتَّكَلُّفِ عُقُوقًا. أَسْتَغْفِرُ اللهَ هَذِهِ مُجَارَاتٌ شِعْرِيَّة، وَإِشَارَاتٌ بِالمَجَازِ حَرِيَّة، وَحَاشَى للهِ أَنْ تُوسَمَ بِمَا يَغُضُّ مِنْهَا تِلْكَ المَآخِذِ السَّرِيَّة، أَخُونَا أَتَمُّ كَرَمًا، وَأَحْمَى حَرَمًا، مِنْ أَنْ يَتَعَلَّقَ العَيْثُ بِغَيْثِهِ، أَوْ يُقَدِّمَ هَزْلُ النَّقْدِ عَلَى جِدِّ لَيْثِه، وَإِنَّمَا لِلأَفْكَارِ خُزَعْبِلَاتٌ مُلَفَّقَة، وَأَغْرَاضٌ إِلَى التَّزْوِيرِ مُوَفَّقَة، وَدُعَابَاتٌ مَعْرُوفَة، وَإِلَى مَآخِذِ الفُكَاهَةِ مَصْرُوفَة وَلَيْسَ هَذَا حِينَهَا، وَلَا فِي هَذَا الوَقْتِ يُطْرِبُ تَلْحِينُهَا، فَقَدْ كَانَ لَنَا فِي وَصْفِ أَحْوَالِنَا مَآرِب، وَإِشَارَةٌ إِلَى مَانَالَهُ مِنَّا الغَمَامُ السَّارِب.

فَارَقْتُكَ أَيُّهَا الوَلِيُّ الحَمِيم، وَالأَخُ الَّذِي لِبِدَايَتِهِ فِي السُّؤْدَدِ تَتْمِيم، وَالجَوُّ بِالسَّحَابِ الثِّقَالِ مُتَنَقِّبٌ، وَأَنَا مِنْ فَيْضِ جُفُونِهِ خَائِفٌ مُتَرَقِّبٌ، وَرُبَّ مَحْذُورٍ يَقَعُ، وَحَذِرٍ أَصَابَهُ مَا يُتَوَقَّع. فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى القَنَاطِرِ[2] تَحَلَّيْتُ بِلُؤْلُؤِ السَّحَابِ المَوَاطِرِ، وَمَا خَلُصْتُ إِلَّا خُلُوصَ المُخَاطِرِ، بَيْنَ بَرْقٍ كَمَا هُزَّ الحُسَامِ الدَّامِي، لَا يَصِحُّ عَلَى الأَمْنِ بِشَيْمَةٍ[3] إِقْدَامِي وَلَا تَقِفُ أَقْدَامُ صَبْرِي عَلَى خَطْفَتِهِ فَكَيْفَ بِأَقْدَامِي، وَرَعْدٍ كَمَا زَأَرَ أُسَامَةُ[4] كَأَنَّهُ يَنْعَى عَلَى البَرْقِ ابْتِسَامَهُ وَيَصِيحُ بِهِ.........

(1) البيت من البسيط وهو للمتنبي من قصيدة مطلعها:

أَجَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ   دَعَا فَلَبَّاهُ قَبْلَ الرَّكْبِ وَالإِبِلِ

ديوانه 3/ 198 برواية (فما يقول).

(2) القناطر: اسم موضع قريب من قطرال غير بعيد عنه.

(3) يقال شم فلان السحاب والبرق شيما نظر إليه أين يقصد وأين يمطر، وقيل الشيم النظر إلى البرق والسحاب من بعيد.

(4) أسامة: اسم يطلق على الأسد ويلقب به.



الأَرْضَ عِذَارَ خُضْرَتِهَا كَذَلِكَ إِلَى «قَطْرَالٍ»[1] بِتُّ بِهَا فِي جِوَارِ قَوْمٍ حَدِيثُهُمْ عَنِ القَنَا وَالقَنَابِلِ، وَرِزْقُهُمْ بَيْنَ الصَّوَارِمِ وَالذَّوَابِلِ ثُمَّ قُمْتُ مُصْبِحاً إِلَى مُرْسِيَةَ وَالمَطِيَّةُ بِالوَحَلِ تَنْعَلُ، وَالغَمَامُ يَهُمُّ وَلَا يَفْعَلُ. وَالحَمْدُ للهِ وَعِنْدَمَا وَصَلْتُهَا وَجَدْتُ أَبِي وَمَوْلَايَ عَلَى المَشْيِ عَنِّي عَازِماً فَكَانَ وُصُولِي لِحَرَكَتِهِ حَرْفاً جَازِماً، فَكَفَيْتُهُ مُؤْنَةَ المَشَقَّةِ، وَأَرَحْتُهُ مِنْ قَطْعِ الشُّقَّةِ. واللهُ يَجْعَلُ فِي هَذَا خَيْراً، وَيُخَيِّرُ لِمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ إِيَّاباً وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ سَيْراً؛ بِمَنِّهِ وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ غَيْرِهِ فِي وَصْفِ دِيكٍ:

أَمَّا بَعْدُ: رَفَعَ اللهُ فِي العَطَاءِ قَدْرَكَ، وَسَوَّغَ بِأَطْيَبِ العَرْفِ ذِكْرَكَ، وَأَرْشَدَ إِلَى مَا تَهْوَاهُ أَمْرَكَ، وَجَعَلَ قِدْحَ عِلْمِكَ عَالِياً، وَرُمْحَ فَهْمِكَ مَاضِياً. كَتَبْتُ هَذِهِ الرُّقْعَةَ كَتَبَ اللهُ لَكَ مِنْ حُسْنَاهُ بِأَوْفَرِ حَظٍّ وَأَسْنَاهُ، بَعْدَ أَنْ فَوَّقَتْ[2] إِلَيَّ صُرُوفُ الدَّهْرِ شِهَابَهَا وَانْتَضَتْ عَلَيَّ سُيُوفُ الامْتِحَانِ مُنْتَابَهَا، وَقَاتَلَتْنِي البَوَائِقُ بِكُلِّ مِحْنَةٍ، وَطَالَبَتْنِي العَوَائِقُ بِكُلِّ إِحْنَةٍ. وَذَلِكَ وَفَّقَكَ اللهُ وَسَدَّدَكَ، وَهَدَاكَ وَأَرْشَدَكَ، وَأَعَانَكَ عَلَى مَا قَلَّدَكَ، أَنَّهُ كَانَ لِي دِيكٌ، مَلِيحُ النَّهِيكِ، عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنَ الذَّهَبِ السَّبِيكِ، لَمْ يُتَوَّجْ بِمِثْلِهِ مليكٌ، لَهُ مِنَ العَرُوسِ حِلْيَتَهُ، وَمِنَ الطَّاوُوسِ حُلَّتَهُ، كَأَنَّ عَيْنَيْهِ عَلَى التَّحْقِيقِ، قَدْ قُطِعَتَا مِنَ العَقِيقِ، وَأُشْرِبَتَا بِنْتَ الدِّنَانِ، وَأُسْقِيَتَا مَاءَ الزَّعْفَرَانِ، قَدْ مُلِّحَتَا بِقِطْعَتَيْنِ مِنْ احْمِرَارِ اليَاقُوتِ، فَوُسِّعَتَا بِخَالِصِ المَنْبُوتِ، تَحْتَ مِلْقَطٍ قَدْ كُوِّنَ مِنْ عَنْبَرٍ، أَوْ أُتْقِنَ مِنْ زُمُرُّدٍ أَخْضِرٍ، ...كَأَنْ قَدْ صَوَّتَ نَحْوَ السَّمَاءِ، فَارْتَفَعَ عَنْ بَرْدِ الهَوَاءِ، وَانْعَطَفَ عَلَى مَتْنِهِ عَطْفُ الرَّاءِ، وَمَالَ كَقَوْسِ صُدْغٍ مُرَكَّبٍ، عَلَى صَحْنِ خَدٍّ مُكَتَّبٍ، بَلْ طَارَ حَتَّى طَالَ عَنْ عِطْفِهِ بِمَعْزِلٍ، وَمَالَ كَقِنْوِ[3] النَّخْلَةِ المُتَعَثْكِلِ، إِذَا شَعُرَ فِي الجَوِّ بِطَائِرٍ، أَوْ

---

(1) قطرال: موضع في جهة أوريولة.

(2) فَوَّقَ: صوَّب السهم أو غيره.

(3) القنو: بالكسر وبالضم، العذق قال امرؤ القيس:

وَفَـرْعٍ يَـزِينُ المَـتْنَ أَسْـوَدَ فَـاحِمٍ ... أَثِيـثٍ كَقِنْـوِ النَّخْلَـةِ المُتَعَثْكِـلِ

شرح المعلقات العشر، ص: 59.



خطَر لَهُ بِشَأْنِهِ خاطِرٌ، قَامَ وَاسْتَمَعَ وَرَفْرَفَ يُنْذِرُ عَشِيرَتَهُ، وَيُخْبِرُ أَهْلَهُ وَذُرِّيَتَه، خَوفًا مِنْ عُقَابٍ طَارَ، أَوْ بَازٍ بِالاقْتِنَاصِ دَارَ، يَنْظُرُ إِذَا فُتِحَ بِفَأْسٍ مِسْحَل. وَكُنْتُ أَكْلَفُ بِحُبِّهِ كَلَفَ المُحِبِّ بِحِبِّهِ، وَأُبْهَجُ بِتَغْرِيدِهِ، ابْتِهَاجَ الوَالِدِ بِمَوْلُودِهِ، وَأُعْجَبُ بِصِفَاتِهِ، إِعْجَابَ المُتَنَسِّكِ بِآيَاتِهِ، وَكَانَ يَرْجِعُ إِلَى مَحَلِّ أَمْنٍ وَأَمَانٍ، وَيَهْجَعُ فِي حُسْنٍ عَلَيْهِ وَإِحْسَانٍ، كَامِلِ الجُدْرَانِ، هَائِلِ الاتْقَانِ، وَلَا تَهُزُّهُ فِيهِ أَرْوَاحُ جَزَعٍ، وَلَا تُذْهِلُهُ ذَاهِلَة فَزَعٍ، حَتَّى إِذَا عَسْعَسَ اللَّيْلُ وَدَجَى، وَاحْلَوْلَكَ ظَلَامُهُ وَسَجَا، قَامَ عَلَى قَدَمٍ وَتَنَحَّى، كَأَنَّ اللهَ قَدْ أَوْحَى، فَاسْتَنْطَقَ بِالصِّيَاحِ، وَأَنْبَأَنَا بِقُدُومِ الصَّبَاحِ، لَا تَمْنَعُهُ العَوَاصِفُ عَنِ الانْصَافِ، وَارْتِقَابِ الأَوْقَافِ، حَتَّى إِذَا هَبَّ القَائِمُونَ مِنَ المَنَامِ، بَكَّرَ لِطَلَبِ مَعِيشَتِهِ، يَتَبَخْتَرُ فِي خَبِيبِ مِشْيَتِهِ، يَبْحَثُ الأَرْضَ بِمَخَالِبِهِ وَيَلْتَقِطُ الحَبَّ لِأَزْوَاجِهِ وَأَقَارِبِهِ، حَتَّى إِذَا أَبْصَرَ دِيكًا ثَانِيًا، شَمَّرَ ذَيْلَهُ لَيْسَ مُتَوَانِيًا، وَهَجَمَ هَجْمَةَ ضِرْغَامٍ عَلَيْهِ يُحَارِبُهُ بِبَرَاثِنِهِ وَمِنْقَارِهِ، حَتَّى يُخْرِجَهُ عِنْوَةً مِنْ دَارِهِ ....

قَالَ أَحْمَدُ البَلَوِي: وَكَتَبْتُ فِي هَذَا البَابِ: وَهِيَ أَوَّلُ مَا كَتَبْتُ وَعُدَّتِي فِي ذَلِكَ كَاتِبُ الخِلَافَةِ المُعَظَّمُ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ عَيَّاشٍ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ:

أَدَامَ اللهُ يَاسَيِّدِي سَعَادَتَكُمْ وَاعْتِلَاءَكُمْ، وَأَبْقَى تَقَدُّمَكُمْ لِلْمَعَالِي وَانْتِمَاءَكُمْ وَحَفِظَكُمْ عِمَادًا رَفِيعًا، وَرُكْنًا مَنِيعًا، وَلاَ زِلْتُ أَتَشَرَّفُ بِخِدْمَتِكُمْ دَهْرِي، كَمَا لَمْ يَخِبْ فِي أَوَّلِ القَضِيةِ فِيكُمْ زَجْرِي، وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ بِفَضَائِلِ سَيِّدِي وَأَيَادِيهِ، حَتَّى صِرْتُ الآنَ أَكْرَعُ مِنْهَا فِي وَادِيهِ، وَكُنْتُ أَرْغَبُ فِي شَرَفِ خِدْمَتِهِ أَنْ أَقْتَنِيهِ، الآنَ وَجَبَ أَنْ يَقْتَطِفَ شُكْرِي وَيَجْتَنِيَه، وَلِلَّه أَزْمَانُنَا المَوْشِيَّةِ وَحُلُولُنَا بِكَنِيسَةِ المَاءِ[1] عَشِيَّة، وَنَحْنُ، قَدْ حَطَطْنَا بِدَارِهِ، وَانْبَسَطْنَا فِي رَحْبِ دَارِهِ، فِي لَيْلَةٍ سَمَحَ الزَّمَانُ بِوَصْلِ أَسْبَابِهَا، وَفَتَحِ المُغْلَقِ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَأَرِجَ[2] زَهْرُهَا وَفَاحَ، وَبَدَا ضَوْءُ بَدْرِهَا وَلَاحَ، لَمْ يُجْهَلْ فَضْلُهَا،

---

(1) لعله يعني به متنزها كان معروفا لديهم يجتمعون فيه.

(2) أرج يأرج أرجا الطيب: فاح، قال الشاعر:

←



وَلَمْ يَخْطُرْ بِبَالٍ مِثْلُهَا، حَارَ فِي حُسْنِهَا الطَّرْفُ، وَتَأَنَّقَ فِيهَا وَفِي طَيِبِهَا النَّسِيمُ وَالعَرْفُ، ضَمَّنَا فِيهِ لِلاجْتِمَاعِ مَنْزِلٌ قَيْدَ العُيُونِ، يُزْرِي جَمَالُهُ بِالوَشْيِ المَصُونِ، عَذْبُ المَاءِ، غَذِيُّ الهَوَاءِ، يَزِيدُ الأُنْسَ اتِّسَاعًا، وَيُورِثُ النَّفْسَ انْقِيَاداً فِي زِمَامِ الارْتِيَاحِ وَانصِيَاعاً، يَهُبُّ عَلَيْنَا فِيهِ نَسِيمُ رَيْحَانِ الحَيَاةِ يَسْتَنْشِفُ نَافِحَاتِ هَوَائِهِ، وَرَوْحُهَا يَكْتَسِي بِنَفِيسِ مُلَائِهِ، وَكَأَنَّ الجَوَّ مُعطَّرٌ مِنْهُ بِخَلُوقٍ(1)، يُحْيِي القُلُوبَ بِشَمِيمٍ مُفَوَّقٍ مَعْشُوق، فَيَالَهُ مِنْ شَيْمِ رِيحٍ قَدْ دَنَتْ فِي هُبُوبِهَا، وَتَعَاقَبَ عَلَيْنَا نَسِيمُ صَبَاهَا وَجَنُوبِهَا، قَدْ نَشَرَتْ فِيهِ كَمَائِمُ المِسْكِ سَرَائِرَ أَزْهَارِهِ، وَظَفِرَتْ يَدُ غَاشِيهِ بِقَطْفِ فَائِحِ نُوَّارِه، وَأَرْبَى فِيهِ نُورُ لَيْلِهِ عَلَى ضَوْءِ نَهَارِه. فَاخْتَرْنَا مِنَ السِّلْكِ مَوْضِعَ الصَّدْرِ، وَدُرْنَا عَلَى مَائِدَةٍ كَدَارَةِ البَدْرِ، فَطَعِمْنَا طَعَامًا لَا تَبْغِي الأَمَانِيُّ عَلَيْهِ مَزِيدًا، حَتَّى كِدْتُ أَقُولُ أَيَكُونُ هَذَا عُرْسًا أَمْ عِيدًا، ثُمَّ عَمَدْنَا إِلَى عِنَبٍ كَمَخَازِنِ البِلَّوْرِ، وَظُرُوفِ النَّوْرِ، عُنْقُودُهُ كَالثُّرَيَا، وَحَبُّهُ كَالكَأْسِ فِيهِ الحُمَيَّا. فَلَمَّا قَضَيْنَا مِنَ الأَكْلِ أَرَبَنَا، وَنِلْنَا مِنْهُ طَلَبَنَا، طَفِقَ سَيِّدِي يُجَاذِبُنَا نَثْراً كَالسِّحْرِ أَوْ أَدَقّ، وَنَظْمًا كَالمَاءِ أَوْ أَرَقّ، وَحَدِيثًا كَالشَّهْدِ أَوْ أَعْذَبُ، تَنْتَفِي الهُمُومُ إِذا سَاقَطَهُ وَتَذْهَبُ، فَهُوَ مِنْ بَدِيعِ كَلَامِهِ، وَرَفِيعِ نَثْرِهِ وَنِظَامِهِ، قَدْ أَعْيَا لَبِيداً(2) حَتَّى عَادَ اسْمُهُ بَلِيداً. وَلَقَدْ كِدْتُ أَنْ أُشَبِّهَ سَيِّدِي فَمَا وَجَدْتُ لَهُ شَبِيهًا، وَلَا رَأَيْتُ مِثْلَهُ بَارِعًا وَلَا نَبِيهًا. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ضَارِبٌ فِي قِدَاحِ المَجْدِ بِمُعَلَّى السِّهَامِ، آخِذٌ مِنْ عُيُونِ الفَضْلِ بِأَوْفَى الأَقْسَام، قَدْ الْتَحَفَ الزَّمَانُ بِبُرُودِ عَلْيَاه، وَارْتَشَفَ شُعُورَ نَدَاهُ، فَقَدْ أَعْيَتِ الوَاصِفَ، وَأَزْرَتْ بِكُمَاةِ البَلَاغَةِ كُمَاتُهُ. وَنَحْنُ قَدْ اسْتَنَدْنَا إِلَى كَنَفِهِ، وَآوَيْنَا إِلَى عَمِيمِ

كَأَنَّ عَلَيْهَا بَالَةً لَطَمِيَّةً لَهَا مِنْ خِلَالِ الدَّأْبَتَيْنِ أَرِيجُ

(1) الخلوق والخلاق: ضرب من الطيب وقيل الزعفران.

قَدْ عَلِمَتْ إِنْ لَمْ أَجِدْ مُعِينَا لَتَخْلِطَنَّ بِالخَلُوقِ طِينَا

(2) لبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية وفرسانهم أدرك الإسلام وقدم على الرسول في وفد بني كلاب ويقال إنه توفي في أول خلافة معاوية كما أنه لم يقل في الاسلام سوى بيت واحد:

الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى لَبِسْتُ مِنَ الإِسْلَامِ سِرْبَالَا

الشعر والشعراء، ص: 174، الأغاني 14/ 93، طبقات ابن سلام، ص: 113.



شَرَفِهِ، تَعْضُدُنَا الوَاسِطَةُ العُظْمَى المُنْتَظِمَةُ عَلَى تِلْكَ الخَضْرَاءِ الزَّاهِرِ، وَكَنِيسَةُ المَاءِ الحِصْنُ الشَّرِيفُ المُنِيرُ البَاهِرُ، الصَّرْحُ[1] المُمَرَّدُ الأَثِير الزَّاهِرُ، الَّذِي لَهُ فُرُوعٌ قَدْ صَعِدَتْ تَبْغِي السَّمَاءَ، وَتَطْلُبُ الاعْتِزَاءَ إِلَى بُرُوجِهِ وَالانْتِمَاءَ، تَقَدَّمَتْ أَبْرَاجُهُ إِلَى السَّمَاءِ إِقْدَامَ الأَبْطَالِ يَوْمَ النِّزَالْ، وَقَالَتْ لِبُرُوجِ الكَنِيسَةِ نَزَالِ نَزَالِ، قَدْ اعْتَلَّتْ شُرُفَاتُهَا فَوْقَ الكَوَاكِبِ، وَتَقَابَلَتْ كَصُفُوفِ المَوَاكِبِ، فَكَأَنَّهُ قَدْ قَرَّ أَمَامَ الحُرُوبِ، فَلَا تَتَنَاوَلَهُ أَيْدِي الخُطُوب، فَإِذَا تَنَاوَلَهُ عَارِفٌ بِالحُرُوبِ نَبِيلٌ، يُنْشِدُ عَلَيْهِ:

وَلَيْسَ إِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ سَبِيلُ[2]

اخْتَارَهُ السُّرُورُ وَطَنًا وَاصْطَفَاهْ... فَظَلَّ كُلٌّ مَحْمِيًا بِفِنَائِهِ، وَمُغْرِيًا بِسَلَفِهِ وَعَلَائِهِ

وَكَتَبْتُ يَوْمَ دَفَعْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ إِلَيْهِ ارْتِجَالًا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي وَصْفِ رُمَّانَةٍ بِتَكْلِيفِهِ إِيَّايَ ذَلِكَ بِمَحْضَرِ جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ:

بِنَفْسِي رُمَّانَةٌ كَأَنَّهَا حُقُّ بَلُّور[3] مَمْلُوءٌ بِيَوَاقِيتَ تُشْرِقُ كَالنُّورِ، أَرْكَانُهَا نُهُودُ عَذَارَى، أَوْ خُدُودُ سُكَارَى، بَدَتْ فِي حُلَّةٍ وَرْدِيَّةٍ، يَرُوقُ جَمَالَهَا النَّاظِرُ، وَيَجُولُ فِي بَدِيعِ مِرْآتِهَا الخَاطِرُ، تُشْبِهُ فِي لَوْنِهَا لَوْنَ المَرْجَانِ الأَحْمَرِ، أَوْ لِثَاتِ حَبِيبٍ فِي رُضَابٍ وَمَنْظَرٍ، وَكَأَنَّ قِطَعَهَا وَقَد فَصَلَ بَيْنَهَا قِشْرٌ، وُجُوهُ عَذَارَى تَسْتُرُهَا بَرَاقِعُ صُفْرٌ، غَذَاهَا نَمِيرُ[4] المَاءِ، وَرَبَّاهَا نَبِيهُ الهَوَاءِ، فَجَاءَتْ كَالعَرُوسِ، أَوْ كَالرَّاشِفِ مِن مَرَاشِفِ الكُؤُوسِ، فَاللهُ يُونِعُ شَجَرَتَهَا وَيُزَكِّي ثَمْرَتَهَا وَالسَّلَام.

---

(1) الصَّرْحُ المُمرد: معناه بناء طويل مملس، ومنه قوله تعالى: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾. سورة النمل، الآية: 45.

(2) الشطر من الطويل.

(3) الحُقُّ: الصُّنَيْدِقُ الذِي تُجْمَعُ فِيهِ الحُلِيُّ وَالجَوَاهِرُ.

(4) النمر والنمير كلاهما الماء الزاكي النامي عذبا كان أو غير عذب والعبارة مقتبسة من قول امرئ القيس:

غَذَاهَا نَمِيرُ المَاءِ غَيْرُ المُحَلَّلِ

وهو هنا بمعنى الماء الكثير.



أَيُّهَا السَّائِلُ عَنْ رُمَّانَةٍ

فَإِذَا أَبْصَرْتَهَا فِي غُصْنِهَا ... خِلْتَهَا الشَّمْس بَدَتْ فِي الشَّفَقْ

دَارَةٌ حَمْرَاءُ فِي حُسْنِهَا ... بِخُطُوطٍ أَشْبَهَتْ لَوْنَ البَلَقْ

مَجْلِسٌ حَلَّتْ بِهِ [فِي فِتْيَةٍ] ... تُذْهِبُ السَّوْدَاءَ عَنْهُم وَالقَلَقْ

وَيْحَ مَنْ يَرْمُقُهَا غَادِيَةً ... يَنْثَنِي مَشْغُوفَهَا حَتَّى الغَسَقْ

لَمَّا أَنْ أَبْصَرْتُهَا عَشِقْتُهَا ... وَأَنَا لَسْتُ قَدِيمًا مَنْ عَشَقْ

كَيْفَ مُشْتَاقٌ إِذَا أَبْصَرَهَا ... يَذْكُرُ الحِبَّ الذِي كَانَ عَنَقْ

يَا كَرِيمًا جُدْ بِهَا فَإِنَّ فِي ... أَكْلِهَا الوَصْلَ وَفِيهِ المُعْتَنَقْ

وَانْتَظِرْهَا يَا فُمَيْمِي فَإِنَّهَا ... تَأْتِيكَ يَوْمًا سَرِيعًا فِي طَبَقْ

يَا ابْنَ عَيَّاشٍ أَنَا خَادِمُكُمْ ... مِنْكُمُ مُقْتَبِسٌ هَذَا النَّسَقْ

دُمْتَ فِي مَيْدَانِ سَعْدٍ دَائِمٍ ... أَحْضَرَ الطِّرْفَ بِهِ حَتَّى سَبَقْ



البَابُ التَّاسِعَ عَشَرَ

في الهزل والمداعبة والتهكم في المكاتبة



رِجَالُهُ:

أَبُو الحُسَيْن أَحْمَد بْن سَعِيد- أَبُو جَعْفَر بْن عَبَّاس - أَبُو المُغِيرَةِ بْنُ حَزْم - أَبُو مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ الغَفُور- أَبُو بَكْر بْنُ قُزْمَان - أَبُو بَحْر صَفْوان بْنُ إِدْرِيس- أَحْمَد بْنُ مُحَمّد البَلوِي.

فَمِنْ إِنْشَاءِ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ مُدَاعَبَةً رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَلَغَنِي الحَادِثُ فِي ذَنَبِ الحِمَارِ، وَكُلُّ مَا تَعَدَّى مِنَ الحَدَثِ فِي الحَيَوَانِ رَأْسَهُ وَمَوَاضِعَ مَقَاتِلِهِ فَجَلَلٌ حَدَثُهُ يَسِيرٌ خَطْبُهُ. وَلَئِنْ كُنْتَ فُجِعْتَ مِنْهُ بِذَنَبٍ ذَيَّالٍ مُتَمَكِّنِ العَجِيبِ رَائِقِ العَسِيبِ كَأَنَّهُ عَقِيصَةٌ مِنْ عَقَائِصِ العَذَارَى، لَقَدْ أَبْقَى اللهُ مِنْكَ قَلْبًا حَدِيداً وَنَفْساً شَهْمَةً وَجَوَارِحَ كَامِلَةً مِنْ عُنُقٍ قَوْدٍ أَوْ شَوى عَبْلٍ، وَوَطَاءَةَ ظَهْرٍ فِي سُرْعَةِ خَصْرٍ، وَأَمْنٍ مِنْ عِثَارٍ وَنِفَارٍ، أَقَلُّ مَا فِيهِ مِنْ مَحَاسِنِ أَعْقَابِهِ، يُعَفِّي عَلَى مَا ذَهَبَ مِنْ ذَنَبِهِ.

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهَ أَنْ لاَ يُرِيكَ سُوءاً فِي شَيْءٍ قَدْ شُغِفَ بِهِ قَلْبُكَ، وَرَمَقَتْهُ عَيْنُكَ، وَأَنْ يُدِيمَ سَلاَمَتَكَ وَسَلاَمَةَ أُخُوَّتِكَ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي جَعْفَر بْن عَبَّاس رُقْعَةٌ خَاطَبَ بِهَا أَبَا المُغِيرَةَ ابْن حَزْم قَالَ فِيهَا[1]:

أَنْهَى إِلَيَّ كتابَكَ رَجُلٌ طويلُ القَامَةِ، صَقِلُ الهَامَةِ، بِعَيْنَيْه لِيَانَه، وَعَلَى أَسْنانِه طُرَامَه[2] وفي شاشِيَّتِه[3] وَضارَة، وفي مَنْطِقه[4] لُكْنَةٌ صَعْبَة، وَعَلَى أَنْفِه عُقْدَةٌ كَالكُبَّة[5]، وفي أَطْواقِه

---

(1) أبو جعفر أحمد بن عباس: كان قد فاق أهل زمانه في أربعة أشياء كما يقول ابن بسام: «المال والعجب والبخل والكتابة». ترجم له صاحب الذخيرة في 1/ 2-643، المغرب في حلى المغرب 2/ 205، الإحاطة 1/ 267، نفح الطيب 3/ 535.

(2) طرامة: خضرة تركب الأسنان أو بقية الطعام بينها.

(3) شاشية: غطاء الرأس وما زالت تستعمل في شمال المغرب، قال الشاعر:

وَاحَرَبِي مِنْ صَاحِبِ الشَّاشِيَه   لُعْبَةُ عَاجٍ بَيْنَهَا مَاشِيَه

(4) منطقه: لغة ولسانه ومنه إصلاح المنطق لابن السكيت.

(5) الكبة: كرة من خيط أو غيره وما زالت تستعمل في لهجة المغرب.



سَعَة، يخرج مَنْكِبَاهُ من أَقْطَارِها كَأَنَّهَا ثِيابُ وَالِه، أو شَبَارِقُ[1] راهِبٍ تائِه، وفي مِشْيَتِه تَفَحُّجٌ[2] قَبِيحٌ كأنه عائمٌ في يَبَسٍ، وَعَلَيْهِ غِفارَةٌ شَفَّافَةٌ شَبَكِيَّةُ السِّيدارَةِ[3] وأَظُنُّ العَمالِقَةَ غَزَلَتْ صُوفَها زَمَنَ الفِطَحْلِ[4] والأَكَاسِرَةُ تَوَلَّتْ صِبَاغَهَا عامَ الصُّفْرِ[5]، كَأَنَّها الطَّيْلسانُ الحَرْبِيُّ أو التُّبَّانُ السَّعْدِيُّ[6]. وَلَقِيتُ الرَّجُلَ وَقَدْ أَحَاطَ بِي جَمْعٌ، وَالْتَفَّ عَلَيَّ قَوْمٌ، فَوَقَفْتُ مَعَهُ مَوْقِفاً كَفَاكَ اللهُ خِزْيَهُ وَلاَ وَقَفَكَ مِثْلَهُ. وَقَدْ عَهِدتُكَ تَجْرِي بِمَيْدَانِ الفُكَاهَةِ، وَتَنْخَرِطُ فِي سِلْكِ الدُّعَابَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمَ إِلَيَّ الكِتَابَ وَلَحَظْتُ عُنْوَانَه، وَحَيَّانِي بِلَفْظٍ لَمْ أَفْهَمْ لِسَانَه، قُلْتُ: خَبَأَهَا أَبُو المُغِيرَةِ وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَأَهْدَى إِلَيْكَ بِهَذَا الإِنْسَانِ لُعْبَة، وَرَمَاكَ عَنْ قَوْسِ فُكَاهَتِه بِهَيْأَةٍ بَاذَّة، وَدَهَاكَ مِنْ تَمَاثِيلِ خَيَالِهِ بِطَلْعَةٍ شَاذَّة، وَسَدَّ تَطْيِيبَكَ بِسِدَادٍ مِنْ ثَغْرِهِ[7]، وَطَارَ إِلَى أُفُقِ تَنْدِيرِكَ بِجَنَاحٍ مِنْ هَزْلِه.

فَتَمَاسَكْتُ وَمَا كِدْتُ، ثُمَّ تَجَلَّدْتُ؛ وَلَجَأْتُ إِلَى فَضِّ الكِتَابِ، وَابْتَغَيْتُ نَقْلَهُ لِأَسْتَتِرَ بِجُمْلَةِ أَسْبَاب، وَاعْتَصَمْتُ بِعِصْمَةِ خَطِّهِ المَوْشِيِّ، وَلَفْظِهِ البَابِلِيِّ[8] وَصَعَّدْتُ فِي الكِتَابِ وَصَوَّبْتُ لِأَعْمَلَ لِنَفْسِي شُغْلاً حَتَّى رَأَيْتُ النَّسَبَ، وَسَمِعْتُ اللَّقَبَ، فَقُلْتُ: الرَّجُلُ -لَامَحَالَةَ- عِبْرِيُّ المُنْتَمَى، وَشَاهِدُ الطَّلْعَةِ عَدْلٌ مُزَكَّى. فَوَحَقِّ الطَّرَبِ، وَحُرْمَةِ الأَدَبِ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُوَفِّيَ الشَّطَارَةَ حَقَّهَا، وَأَسِمَ الخَلاَعَةَ وَسْمَهَا، فَأَجْعَلَ فِي يَدِهِ

---

(1) شبارق: الثوب أو المقطع منه.

(2) تفحج: تباعد ما بين أوساط الساقين في الإنسان أو غيره.

(3) السيدارة: العمامة بدون أصداغ.

(4) الفطحل: زمن نوح أو دلالة على زمن قديم.

(5) عام الصفر: هو عام يؤرخ به الرومان من عمر أكتبيان، قال بن سعيد وهو يتحدث عن طليطلة «من تاريخ الروم إنها إحدى المدن الأربع التي بنيت في مدة قيصر أكتبيان الذي يؤرخ لمدته مدة الصفر» أورد هذا التعليق إحسان عباس في الذخيرة.

(6) التُّبان: سروال صغير يكون للملاحين. وطيلسان ابن حرب مشهور وهو مذكور في ثمار القلوب وما يعول عليه.

(7) فيه إشارة إلى قول العرجي:

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا ... لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

(8) لفظه البابلي: يعني به الساحر ببيانه، لاشتهار بابل بذلك.



عُكَّازَ[1] قَصَبَةٍ خَضْرَاء، وَفِي رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ بَيْضَاء، وَأَضَعَ عَلَى عَاتِقِهِ خُرْجاً[2] بِنُخَّالَة، وَأُقِيمَ مِنْ نَفْسِي وَمَنْ حَضَرَ عَرَّافَةً وَآلَة، وَآخُذَ بِهِ مِنْ طُرُقِ بَنِي مَرْدَخَاي[3] عَلَى قَارِعَةِ المَحَجَّة بَيْنَ النَّاسِ، وَأُقَلِّدَهُ سَيْفَ البَاجِيِّ أَبِي القَاسِمِ فَإِنَّهُ صَحِيفَةٌ مُقَشَّرَةٌ لاَ غِرَارَ لَهَا وَلاَ ظُبَة كَأَنَّهُ قَضِيبُ صَاحِبِ أَسْفِيرِيا[4]، أَوْ عَمُودُ نَيْزَكِيّ[5] لَمْ يُحَدِّدْ لَهُ زُجّاً، وَهَذَا شَرْطُ ذَلِكَ اللَّعِبِ، فَفِي نُفُوسِ القَوْمِ خَوَرٌ، لَا تُحْمَلُ مَعَهُ السِّلاَحُ إِلاَّ بِخَوْفٍ وَحَذَر. وَتَأَمَّلْتُ خُفَّيْهِ فَإِذَا بِهِمَا مِنْ كِيمُخْتٍ[6] بَال، مُصَدَّرَانِ تَصْدِيرَ السَّنْدَال[7]، قَدِ انْهَرَتَتْ أَشْدَاقُهُمَا، وَتَهَدَّلَتْ مَشَافِرُهُمَا، وَصَارَ عَاجُهُمَا آبِنُوساً، وَنَعْلُهُمَا خَيَالاً مَرْسُوساً[8] فَقُلْتُ: لا يزدوجُ طَيْلَسَانُ ابنِ حَرْبٍ إِلَّا بِخُفَّيْ حُنَيْن[9].

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي المُغِيرَةِ بنِ حَزْم جَوَاباً عَلَى هَذِهِ الرِّسَالَةِ[10]:

وَأَرْجِع مِنْ كِتَابِكَ إِلَى مَا رَكَضَ جَوَادَ الهَزْلِ، وَشَهَرَ سِلاَحَه، وَنَشَرَ عَلَمَه، وَشَبَّ زَبُونَ حَرْبِه، وَأَوْقَدَ وَطِيسَ فِتْنَتِه، بَلْ إِلَى مَا مَدَّ بِسَاطَه، وَفَرَشَ أَنْمَاطَه، وَأَدَارَ كُؤوسَه

(1) العكاز: العصا وما زالت تستعمل اللفظة بهذا المعنى في شمال المغرب وجنوبه.
(2) خرجا : أي وعاء يوضع فيه التبن وما أشبهه لعلف الدواب.
(3) مردخاي: لعله من أسماء العبرانيين وأسماء بعض أسرهم.
(4) الأسفيريا: أكلة وهي خليط من اللحم والبيض والبصل. انظر كتب الطبيخ في الأندلس وخاصة كتاب ابن رزين.
(5) النيزكي: نسبة إلى النيزك وهو الرمح القصير.
(6) الكيمخت: لفظة فارسية، وهو يعني بها نوعا من أنواع الجلد لا وجود لها. في «المعرب من الكلام الأعجمي» للجوالقي.
(7) السندل: ابن خالويه: السندل جورب الخف. ابن الأعرابي: سندل الرجل إذا لبس الجوربين ليصطاد الوحش في صكة عمي. اللسان (سندل) .
(8) المرسوس: الذي نسي لتطاول العهد به وتقادم الزمن عليه.
(9) في المثل العربي: «رجع بخفي حنين». مجمع الأمثال. أما طيلسان ابن حرب فإنه مشهور؛ وقد قال فيه الحمدوني الكثيرمن القصائد والمقطعات، ينظر ثمار القلوب.
(10) الرسالة في الذخيرة 1/ 2-648.



وَأَمَاطَ عَبُوسَه[1]، وَحَرَّكَ أَوْتَارَه، وَنَبَّهَ أَطْيَارَه بَلْ إِلَى مَا أَقَامَ لَعِبَه، وَحَرَّكَ لُعَبَه[2]، وَأَحْضَرَ مُجُونَه، وَاسْتَجَرَّ فُنُونَه، وَزَمَرَ فِي بُوقِه، وَنَقَرَ بَطْنَ دُفِّه، وَرَقَصَ عَلَى إِيقَاعِ لَحْنِه فَقَلْنَسَ فِي إِحَانه[3] وَطَرْطَرَ فِي قُرُونِه، وَبَرَزَ[4] فِي رَاعِي ضَانِه، وَتَرَهَّب فِي غَيْرِ خَالِقِه، وَلَمْ يَدَعْ مِنَ الجِدِّ طُرُقاً[5] وَلاَ لِلْهَزْلِ سَبَباً إِلاَّ وَتَمَسَّك بِه. القَائِمُ القَاعِد، والغَوِيُّ الرَّاشِد، فِي وَصْفِ الطَّارِئِ بِالكِتَابِ عَلَيْكَ، الَّذِي قَادَهُ الخِذْلاَن[6] وَحَمَلَهُ إِلَيْكَ مِنْ أَنْزَحِ مَكَان، لِيَكُونَ أَتَمَّ فِي إِلْهَائِك وَأَبْلَغَ فِي إِضْحَائِك[7]. فَالغَرِيبُ مِنْ كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ نَافِق، وَالمَوْجُودُ كَاسِد. وَلَمْ أُمَيِّزْ مِنْ هَيْأَتِهِ غَيْرَ القَامَة، وَأَنْكَرْتُ سَائِرَ ذَلِكَ مِنَ الهَامَة، فَعَهْدِي بِجَبِينِه كَالصَّفْحَةِ الصَّقِيلَة، وَخَدِّهِ كَمِرْآةِ الغَرِيبَة[8]، وَعَيْنَيْهِ كَنَاظِرِ صَقْرٍ طَاوٍ[9] على مَرْقَب، وَضِفْدَعٍ يَنْظُرُ مِنْ خِلاَلِ طُحْلُب، وَأَنْفٍ كَغِرَارِ[10] سَيْفٍ لَيْسَ الَّذِي قَلَّدْتَهُ بِهِ، وَأَلْقَيْتَ حَمَائِلَهُ فِي عُنُقِه، وَلِسَانٍ[11] كَمِخْرَاقِ لاَعِب، وَبِصَوْتٍ شَبِيبٍ بِهِ نَئِيماً وَزَجْرِ أَبِي عُرْوَةَ هَمْساً خَفِيّاً، وَأَثْوَابُهُ تُزْرِي عَلَى اليَمَنِ بِشَرَفِ صَنْعَةِ صَنَائِعِهَا، وَخُفُّهُ لَوْ وَطِئَ لاَبِسُهُ عَلَى الصَّمِيمِ فِي المَجْلِسِ بَيْنَ جَعْفَر وَالرَّشِيدِ وَالحَاجِبِ الفَضْلِ بنِ أَبِي الرَّبِيعِ[12] مَا أُنْكِر مَدْخَلُه، وَلاَ تُبُيِّنَ خَلَلُه. لُطْفُ تَوَصُّلِ

(1) في بعض النسخ من الذخيرة: غموسه ولعله تحريف.

(2) الذخيرة: بل ما أقامه لعبه وحرك لعبه.

(3) الذخيرة: في اختانه.

(4) الذخيرة: وبربر.

(5) الذخيرة: طرفا.

(6) الذخيرة: الذي هذبه الزمان وقاده إليك الخذلان.

(7) الذخيرة: إضحاكك.

(8) يشير في هذا إلى قول ذي الرمة الشاعر:

لَهَا ذَنَبٌ ضَافٍ وَذِفْرَى أَسِيلَة ... وَخَدٌّ كَمِرْآةِ الغَرِيبَةِ أَسْجَحُ

(9) الأصل : طارئ، وقد أثبتنا ما في الذخيرة.

(10) غرار السيف أو الرمح حدهما، ويقال إنهما غراران أي شفرتان.

(11) الذخيرة: ولسانه.

(12) الفضل بن الربيع وزير عباسي مشهور كان أبوه وزيرا لجعفر المنصور واستحجبه المنصور لما ولى أباه الوزارة فلما آل الأمر إلى هارون الرشيد كان الفضل وزيرا له . الأعلام 5/ 148.



يُوهِمُكَ أَنَّ السِّحْرَ يَمُدُّهُ، وَقُوَاهُ تَشُدُّهُ، لَوْ شَاءَ أَنْ يَجْمَعَ [بَيْنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ، وَيَضُمَّ جَمِيعَ](1) الأَنْوَاعِ تَحْتَ جِنْسٍ، مَا ارْتَقَى صُعُداً، وَلاَ لَقِيَ كَبَداً. فَكَيْفَ انْقَلَبَتْ هَذِهِ العَيْن، وَانْسَلَخَتْ مِنْ ذَلِكَ الزَّيْن، وَصَارَتْ آبِدَةً تُلْهِي، وَنَادِرَةً تجرِي، لَوْلاَ مَا هَيَّأَهُ سَعْدُكَ، وَسَبَّبَهُ جَدُّكَ؟ وَقَدْ قَامَ النَّوْرُوزُ(2) بِمَا وَجَبَ عَلَيْه، وَلَمْ يُوجِدْكَ السَّبِيلُ إِلَيْه، فَارْتَقِبْ مِنَ المِهْرَجَانِ نَعْتَهَا، وَانْتَظِرْ فِيهِ شَكْلَهَا. وَكُنْتُ أَسُومُكَ مُسَاجَلَتِي بِنَظِيرِهَا، وَمُقَابَلَتِي بِمَثِيلِهَا لَكِنْ مَنْ لِي بِمُسَاعَدَةِ الزَّمَانِ بِقِسْطِكَ، وَالأَخْذِ فِيهِ بِشَرْطِكَ؟.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ الغَفُورِ وَقَدْ وَصَفَ لَهُ أَحَدُ إِخْوَانِه امْرَأَةً مَدَحَهَا وَحَضَّهُ عَلَى أَنْ يَنْكِحَهَا وَكَانَتْ امْرَأَةً سَوْدَاءَ فَكَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ عَبْدِ الغَفُورِ(3):

بَيْنَمَا كُنْتُ نَاظِراً فِي المِرْآةِ مِنْ شَعَرٍ أَحَمَّ، وَرَأْسٍ أَجَمَّ أَخَافُ مَعَهُ الذَّمَّ، إِذْ تَقَدَّمَ رَسُولُكَ يَخْطُبُ بِنْتَ فُلاَنٍ عَلَيَّ وَيُرَغِّبُ(4) مِنْهَا فِي سَعَةِ مَالٍ، وَبَرَاعَةِ جَمَالٍ، وَيُقْسِمُ أَنَّهَا لَبَرَّةٌ بِالزَّوْجِ بَرِيكَة، لاَ تُحْوِجهُ عِنْدَ النَّوْمِ إِلَى أَرِيكَة، وَلَوْ يُسِّرْتُ - وَعِيَاذاً بِاللهِ- لِهَذَا النِّكَاح، لَرُزِقْتُ مِنْهَا قَبْلَ الوَلَدِ آلَةَ النِّطَاح، وَلاَ حَاجَةَ لِي بَعْدَ الدَّعَةِ وَالسُّكُون، إِلَى حَرْبٍ زَبُون، أَوْ قِرَاعٍ بِالقُرُون، وَلَوْ حَمَلَتْ، إِلَي تَاجَ كِسْرَى وَكُنُوزَ قَارُون(5). فَاطْلُبْ لِهَذِهِ السِّلْعَةِ المُبَارَكَةِ مُشْتَرِياً غَيْرِي، وَلاَ تُسَوِّفْهَا وَلاَ فِي النَّوْمِ عَلَى أَيْرِي، وَابْتَعْهَا وَلَوْ بِأَرْفَعِ الأَثْمَانِ لِنَفْسِك، وَأَضِفْ عَاجَهَا النَّفِيسَ إِلَى آبِنُوسِ عِرْسِك، وَلاَ عُذْرَ لَهَا فِي النُّشُوز(6) وَالإِعْرَاضِ، فَإِنَّمَا يَحْسُنُ السَّوَادُ الحَالِكُ بِالبَيَاضِ. وَاللهُ يُمِدُّكَ

(1) خرم بالأصل والتصويب من الذخيرة.

(2) النيروز والنوروز: فارسي معرب معناه يوم جديد وهو أول يوم من السنة الشمسية، قال جرير:

عَجِبْتُ لِفَخْرِ التَّغْلِبِيِّ وَتَغْلِبٌ ... تُؤَدِّي جِزَى النَّيْرُوز خُضعاً رِقَابُهَا

(3) الرسالة في الذخيرة 2/ 1-345.

(4) في الأصل: ورغب.

(5) سبق التعريف بقارون وما كان يملكه من أموال حتى اشتهر بذلك. أما ملك كسرى فيضرب به المثل.

(6) النشوز يكون بين الزوجين، وهو كراهة كل منهما للآخر، قال الشاعر:

سَرَتْ تَحْتَ أَقْطَاعٍ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّتِي ... لِخَمَّانِ بَيْتٍ فَهْيَ لاَ شَكَّ نَاشِزُ

وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ سورة النساء، الآية: 34. كما قال: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً﴾ سورة النساء، الآية: 127. ويرد الحديث عنه في كتب الفقه الإسلامي.



بِقَرْنَيْنِ قَبْلَ الحَيْنِ، وَيَصْنَعُ لَكَ صُنْعَيْنِ وَبِيلَيْنِ، فَيُسْقِطُكَ بِهَذَا النِّكَاحِ الثَّانِي لِلْفَمِ كَمَا أَسْقَطَكَ بِالأَوَّلِ لِلْيَدَيْنِ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْرِ بنِ قُزْمَانَ، وَكُلِّفَ مُخَاطَبَةَ عَرُوسٍ، فَكَتَبَ رُقْعَةً قَالَ فِيهَا[1]:

الكُلْفَةُ بَيْنَنَا - أَعَزَّكَ اللهُ - جِدُّ سَاقِطَة، والحَالُ الجَامِعَةُ لَنَا فِي أَقْصَى حَدِّ المُؤَانَسَةِ وَالمُبَاسَطَة، فَلَا نُكْرَ أَنْ نَتَبَاثَّ السِّرَّ [المُحْتَجَبَ][2] وَلاَ عَجَبَ[3] أَنْ نَتَكَاشَفَ المُغَيَّبَ. وَاتَّصَلَ بِي دُخُولُكَ بِعَقِيلَةِ أَتْرَابِهَا وَبَيْضَةِ خِدْرِهَا وَرَبَّةِ مِحْرَابِهَا، تُشَاطِرُكَ نَسْلَك، كَمَا شَاطَرَتْكَ أَصْلَك، الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ إِلاَّ لَهَا وَلَمْ تَكُنْ تَصْلُحُ إِلاَّ لَك[4] فَخَدَمَتْكَ بِالنِّيَّةِ وَحَضَرَتْكَ عَلَى بُعْدِ الشُّقَّةِ[5] وَتَقَاذُفِ الطِّيَّةِ. وَسَأَلْتُ اللهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكَ وَيُبَارِكَ عَلَيْكَ، وَيَجْمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ وَعَافِيَة، عَلَى أَسْعَدِ الجِدِّ وَأَيْمَنِ الطَّيْرِ إِلَى آخِرِ القَافِيَة؛ ثُمَّ تَرَقَّبْتُ كِتَابَكَ مُودِعاً مِنْ وَصْفِ حَالِك، مَا يُنْبِئُ فَحْوَاهُ عَن اجْتِمَاعِ شَمْلِكَ وَنِعْمَةِ بَالِك، فَرَابَنِي التِّوَاؤُه، وَقَدَحَ فِي نَشَاطِي تَوَقُّفُهُ وَإِبْطَاؤه، وَتَسَلَّطَتْ عَلَيَّ الظُّنُون، وَخِفْتُ ما عَسَى أَلَّا يَكُون، وَسَاءَنِي أَنْ تَسْتَمْطِرَ[6] مِنَ الأَمَلِ جَهَاماً وَتَسْتَنْصِرَ[7] لَدَى ذَلِكَ العَمَلِ كَهَاماً وَتَجِدَ صَاحِبَكَ مُفْرَداً عَلَى المُنَاجَزَة، لاَ يَدَ لَهُ بِالمُحَاجَزَة، مُنْقَطِعًا فِي مَوْضِعِ الحُجَجِ، مُبْدِعًا بِهِ عِنْدَمَا اسْتَقْبَلَ مَفْرِقَ الطَّرِيقِ وَلَقَمِ المَنْهَجِ:

---

(1) الرسالة في الذخيرة 2/ 2-781.

(2) ساقطة من الأصل، وقد أثبتنا ما في الذخيرة.

(3) الذخيرة: ولا غرو.

(4) مقتبس من قول أبي العتاهية الشاعر الزاهد:

أَتَتْهُ الخِلَافَةُ مُنْقَادَةً ... إِلَيْهِ تُجَرِّرُ أَذْيَالَهَا

فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ ... وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

ديوانه، ص: 612.

(5) الذخيرة: المشقة.

(6) الذخيرة: استمطر.

(7) الذخيرة: استنصر.



تُرِيدُ جَوّاً وَيُرِيدُ بَرّا كَأَنَّمَا أُسْعِطَ شَيْئاً مُرّا[1]

ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُ حَظِي بِمَا جُنِيَ لَه، فَافْتَتَحَ الحِصْنَ الذِي نَازَلَهُ قَسْرًا، وَتَخَلَّلَهُ كَيْفَ شَاءَ مَجَالاً وَمَكْرا، وَأَفْضَى بِهِ انْصِدَاعُ مَا صَدَعَهُ إِلَى التَّآم، وانْشِعَابِ مَا أَتْعَبَهُ إِلى انْتِظَامِ وَالْتِحَام، وَلُهِي بِتَوَابِعِ هَذِهِ الحَالِ التِي هِيَ أُخْتُ الإِمْرَةِ، وَجَامِعَةُ أَفَانِينِ المَسَرَّةِ، عَنْ صَدِيقٍ يصله بكِتَابٍ إِلَيْهِ يُعْلِمُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَهناكَ، وَظَفِرَتْ يَدَاكَ، وَإِنْ يَكُنْ مَا عَدَاه، وَيَكْفِي الله، فَمَعَ اليَوْم غَد، وَفِي اللَّمَمِ خلَال ذَلِكَ مُتَعَلَّل، ثُمَّ لَمْ يَشْغَلْ عَنِ الكِتَابِ جَذَلٌ ولَمْ يَحلَّ[2] دُونَهُ خَجَل.

وَلَهُ أَيْضاً جَوَابهَا مِنْ إِنْشَائِه[3]:

الكَلاَمُ مَأْثُورٌ، وَالإِفْرَاطُ في الانْبِسَاطِ حِجْرٌ مَحْجُورٌ، وَقَدِيماً جَرَّ عَلَى أَهْلِيهِ، وَأَثَارَ عَلَيْهِم التَّقَاطُعَ. مِنْ مَجَاثِمِهِ وَأَبْرَزَهُ مِنْ مَطَاوِيهِ، فَسَبِيلُ مَا وَرَدَنِي الآنَ كِتَابُكَ المُقْتَحِمُ هَذَا البَاب المُتَحَامِي، إِلَّا أَنَّ مَا عَوَّلْتَ عَلَيْه، وَأَسْنَدْتَ إِلَيْه، مِنْ تَمَكُّنِ الأُلْفَة، وَارْتِفَاعِ الكُلْفَة، سَوَّغَ بَعْضَ المَغْزَى. وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى مَقْطَعِه، وَعَجِبْتُ مِنَ التَّفَرُّغِ لِمُودَعِه، فَإِن كُنْتَ مُنْذِراً فَلْيَخِفَّ وَقْعُك، أَوْ حَذِراً عَلَى الحَقِيقَةِ فَلْيُفْرِخْ رَوْعُك. فَالحَدُّ بِحَمْدِ الله مَاضٍ، وَكِلاَ الفَرِيقَيْنِ رَاضٍ، عَلَى عُنْفِ التَّقَاضِي، ثُمَّ لاَ بَاسَ وَلاَ إِلْبَاس[4] لَوْ عَرَتْ نَبوة، وَعَدَتْ[5] دُونَ المَرَامِ كَبْوَة، فَرُبَّمَا خَانَ الثِّقَاتُ، فِي بَعْضِ الأَوْقَات:

وَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ كَانَ صَارِماً نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ[6]

---

(1) البيت من الرجز.
(2) الذخيرة: لا يشغل ...ولا يحول.
(3) الرسالة في الذخيرة 2/ 2 -783.
(4) الذخيرة: ولا إبلاس.
(5) الذخيرة: وعرضت.
(6) البيت للفرزدق يعتذر عن نبو ضربته حين أمره سليمان بن عبد الملك بقتل أحد الاصرام وورقاء هو ابن زهير بن جذيمة العبسي ضرب خالد بن جعفر وهو مكب على أبيه زهير فلم يصنع سيفه شيئا. انظر شرح النقائض ص: 383- 384. التعليق في الذخيرة من إحسان عباس. البيت من الطويل.



وَأَرْجِعُ فَأَقُولُ بِحُكْمِ الحَالِ، وَعَلَى شَرْطِ الاسْتِنَامَةِ وَالاسْتِرْسَالِ: لِلَّهِ أَخُوكَ الذِي لاَ فَرْقَ عِنْدَكُمَا بَيْنَ مَا يَعْرُوهُ وَيَعْرُوك، فَلَقَد افْتَرَّ عَنْ بَازِل، وَجَرَّد عَنْ قَاصِل، وَرَمَى بِلاَ أفْوَقَ نَاصِل، وَلَقَدْ لَقِيتَ أَعْدَاءَكَ بِمِثْلِ صَاحِبِهِ مَضَاءً وَإِقْدَاماً، وَتَسَرُّعا وَاسْتِقْدَاماً:

طَعَنْتَهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً لَفَتْكَ لأْمَيْنِ[1] عَلَى نَابِلِ[2]

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَحْرٍ صَفْوَان بْن إِدْرِيس رَحِمَهُ اللَّهُ يُهَازِلُ بَعْضَ الإِخْوَانِ، وَقَدْ زَارَهُ إِذْ ذَاكَ صَاحِبَانِ كَانَ أَحَقَّ بِزِيَارَتِهِ مِنْهُمَا فَلَمْ يَتَمَكَّنْ لِعُذْرٍ شَغَلَهُ:

سَيِّدي ولا أقَل، الَّذِي انْتَهَضَ بِعِبْءِ السُّؤْدَدِ واسْتَقَل. أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَه وَعَمَرَ بالظِّبَاءِ الغِيدِ رَامَتَه. كَتَبتَهُ أَيُّهَا العِلْقُ الخَطِير، والقَلْبُ يَهْفُو والجَوانحُ تَطير:

طَارَ فُؤادي إليكَ لمَّا زاركَ بالجِسمِ صاحِبانِ

زاراكَ لَفظاً فَزُرتُ مَعْنًى وَإنما الشَّأنُ لِلْمَعانِي[3]

زَارَا، فَعَهدِي بِكَ تَسحبُ للجَذَلِ إزَارَا، وَوَصَلاَ فَأَبْرَما حَبْل مَسَرَّتِكَ وَوَصَلاَ، وَأَلَمَّا، فَجَمَعَا شَعَثَ أُنْسِك وَلَمَّا، وَقَصَدا، فَأَتْبَعَا شَيْطَانَ تَوَحُّشِكَ شِهَاباً رَصَدا[4]، وَحَلاَّ، فَتَزَيَّنَ بِهِمَا عَاطِلُ ذَلِكَ الصَّقْعِ وَتَحَلَّى، أَحْبِبْ بِهِما مِن فَرْقَدَيْنِ زائِرِيْن، وأَسَدَيْنِ في أَجَمَةِ الأَدَبِ زَائِرَيْنِ[5] كِلاهُما إِلفٌ إِليَّ حَبِيب، وَوَجْهٌ أَبْهَى دُونَهُمَا حَالِكٌ غِرْبِيب، زَارَاكَ كَمَا زَارَ الآمِنُ الرِّعْديد، وتَرَكاني لِطِيَّاتِي عَبَادِيد، فَكُنْتُم ثَلاثَةَ الجَوْزَاء، في الرِّفْعَةِ

---

(1) يقال: سهم لأم: عليه ريش لؤام، ومنه قول امرئ القيس هذا. كما يقال: لأم السهم لأما؛ أي جعل عليه ريشا لؤاما.

(2) البيت من السريع، وهو لامرئ القيس، ديوانه ص: 120.
يقال في الأمثال: «الرأي مخلوجة وليست بسلكى» قال: قوله مخلوجة، أي تصرف مرة كذا ومرة كذا حتى يصح صوابه، والسلكى: المستقيمة.

(3) البيتان من مخلع البسيط.

(4) مقتبس من قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾. سورة الجن، الآية: 9.

(5) زائرين: الأولى من الزيارة، والثانية من الزئير.



والاجْتِزَاء، ياالَيْتَنِي كُنتُ لَهُما مُتقَدِّما أو تَابِعـًا، فَأَكُون إذْ ذَاكَ رَابِعـًا، هَذَا وَلَو عُـدِدْنا عِـدَّةَ أَصْحَابِ الكَهْفِ والرَّقيم[1] فتسهُلُ مَرارة الدَّواءِ، بِحَلاَوةِ الصِّحةِ على السَّقيم.

لِلَّه دَرُّهُما كيفَ قَصَدا الحَكَمَ حيثُ اشْتمل عليه بَيْتُه[2]، وياعَجبـًا لي كيفَ حَملتُ ضَيْمَ العَجزِ عَنْ تِلْكَ الزِّيارَةِ لمَّا أَبَيْتُه. لَقَدْ ظَفرَا مِنْكَ بِتَمْرَةِ الغُرَاب وَخَيَّما بمَنْ هُمَا عِنْدَهُ أَخَفُّ مِنَ الفَتْحَةِ في حَرَكَاتِ الإعْرَاب، فَوَافَق شَنٌّ طَبَقَه[3] وصَادَفَ العَابِدُ مُصَلَّاه والخَلِيعُ مُصْطَبَحَهُ وَمُغْتَبَقه، وَأَنَا وَإِنْ لَمْ أَحُجَّ مَعَهُمَا فَقَدْ اعْتَمَرْتُ، وَإِنْ لَمْ أُسَاعِدْ في الصُّحْبَةِ فَرُبَّمَا اسْتُشِرْتُ فَأَمَرْتُ، عَلَى أَنَّ صَاحِبَيَّ ما نَهضا لأداءِ حقّ واجِب، بل لِإِبْرَاءِ قلبٍ[4] واجِب، أو لِتُرِيَ أَحدهُما القمرَ وَيُرِيكَ السُّها[5] أَسْتَغْفِرُ اللهَ فَإِنَّ القَلَمَ قَدْ سَها. ولا يُعْتَمدُ أيضـًا بالجُمْلةِ عَلَى هَذَا القَوْلِ، فَأَنَا الَّذِي أَقُولُ: ﴿يَـٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[6]، وَأَلْتَزِمُ لِذَلِكَ الجَلالِ أو الجَمَالِ تَوْقِيرًا وتَعْظِيمـًا، فَعَلَى الحَقِيقَةِ «رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ»[7] وَعَلَى المَجَازِ نَفسُ حُرٍّ سُلِبَتْ فتَسَلَّتْ، بِذَلِك تَأْمُرُ لَوْ نُطِيعُهَا، وَبِتِلْكَ [تَنْهَى] لَوْ كُنَّا لا نَسْتَطِيعُهَا وَيُوشِكُ إِنْ تَمادَى هَذَا الفِراقُ وقَدْ فَعَل، أن تُخْمِدَ الزِّيارَةُ من ضَرَمِ أَكْبادِنَا مَا اشْتَعَل، ونَحُلَّ عن يَدِ العَزْمِ عِقَالًا، ونَنْفِرَ خِفَافـًا وثِقَالاً فحَاشا لِلَّهِ أَن نَكُونَ مِنَ المُخَالِفِينَ، أو نَقْعُدَ مَعَ الخَالِفِينَ.

وَإِلَى هَذَا فإن صَاحبيَّ لمَّا صَدَرا، حَمِدَا من لِقائِكَ وِرْدًا وذَمَّا صَدرًا، وبَشَّرا مِنْ ثَنَائِكَ، مَا يَمْلأُ بَيْنَ فِناءَيْهِما إِلَى فِنَائِك، وحَدَّثانِي مِنْ بِرِّكَ بما كُنْتُ ظَنَنْت، وحَرَّكا لِي

(1) عدد أصحاب الكهف والرقيم لا يعلمه أحد بدليل قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. الكهف، الآية: 22.

(2) يشير إلى المثل: في بيته يؤتى الحكم.

(3) مثل عربي معروف، وقد سبق التنبيه عليه والإشارة إليه.

(4) واجب الأولى من الوجوب، أي الفرض واللزوم، والثانية من الوجب وهو خفقان القلب واضطرابه.

(5) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبر وقد ورد فيه المثل التالي: «أُرِيهَا السُّهَا وَتُرِينِي القَمَرَ». اللسان: «سها».

(6) سورة النساء، الآية: 72.

(7) مثل عربي مشهور انظر: زهر الأكم 3/ 60.



إلَى زِيارَتِكَ حُوَارًا فَحَنَنْتُ[1]. وهنا حِكايَةٌ تَنْجَرُّ مَعَ هَذا الحَدِيث، وتَبْعَثُ عَلى نَشْر القَدِيمِ مِنْهُ والحَدِيث. أمَّا صاحِبُنا فُلَانٌ فأَتبعَ وَسْميَّ المَدَامِعِ بِالوَلِي، وصاحَ واحَرَّ قَلْبَاهُ مِنْ فُرْقَةِ الوَلِي، ويَاوَيْحَ الشَّجِي من الخَلِي[2] ولَوْلاَ ما أوثق لَرَجَعَ عَوْداً عَلَى بَدْءٍ إِلَيْكُمْ ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾[3]. فَسُبْحَانَ مَنْ قَضَى لَهُ بالتَّوحُّش ولَكُمْ بالإِينَاس، ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[4] وَأَمَّا أَخُونا فُلانٌ فَمُدْمِنٌ على تَأبُّطِ وَطْبِه، ومُتَفَرِّغٌ إِلى صَرْفِ تَحِيَّتِهِ وخَطْبِه، لاَ سِيمَا مُنْذُ سَعى تَيْسُ الظِّبَاءِ بَيْنَهُمَا بِدَاءِ الضَّرَائِرِ، وَنَكَثَ مَا كَانَ أَبْرَمَ مِنْ تِلْكَ المَرَائِر[5]؛ فَأَخُونا يتَلَظَّى لِأَمْرِه، ويَصْطَلِي ولا يَكَادُ بِحَرِّ جَمْرِه، وَمَا زَالَ المَذْكُورُعَلَى هَذِهِ السَّجِيَّةِ مَطْبُوعا، ومُطِيفاً بكَعْبَةِ التَّوْرِيشِ[6] أُسْبُوعـاً فَأُسْبُوعا. وَأُفٍّ لَهُ كَيْفَ يُحَاوِلُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَ الأُفْقِ وَالشَّمْس، وَيَقْتُلَ أَخَانَا كَمَا قَتَلَ نَفْساً بِالأمْس[7]، وَنَرْجُو أَنَّهُ لَا يَطِيشُ لَهُ فِي هَذِهِ النَّازِلَةِ نَبْل، وَلَا يُعْجِزُهُ أَنْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْل. وَأَخَافُ إِنْ تَمَادَى بَيْنَ المُوصِلِ والمُوصَلِ إِلَيْه الجَوَابُ وَالخِطَاب، أَنْ يَقُولَ: أَخُونا صفر الوِطَاب[8] هَذَا عَلَى أَنَّه لِلْمَذْكُورِ مُسَالِم، ومُعْتَقِدٌ أَنَّ جِلْدَةَ بَيْنَ العَيْنِ والأَنْفِ سَالِم[9] وَمَنْ عَذِيرِي مِنْ أَبِي

---

(1) مأخوذ من المثل العربي: «حرك لها حُوَارَها تحن».

(2) مثل عربي معروف، ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

وَيْـلُ الـشَّجِيِّ مِـنَ الخَلِـيِّ فَإِنَّـهُ ... نَـصِبُ الفُـؤَادِ لِـشَجْوِهِ مَغْمُـومُ

مجمع الأمثال 1/ 398.

(3) سورة النساء، الآية: 93.

(4) سورة آل عمران، الآية: 140.

(5) المرائر: الحبال المفتولة على أكثر من وجه. وتطلق مجازا على الرباط الذي يجمع بين الإخوة والأصدقاء وهو المقصود هنا.

(6) التوريش: التحريش، يقال: ورشت بين القوم، أي أفسدت بينهم.

(7) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ سورة القصص، الآية: 18.

(8) الوطاب: مفرده وطب، وهو سقاء اللبن. قال الشاعر:

وَأَفْلَـتَهُنَّ عِلْبَـاءٌ جَرِيـضاً ... وَلَـوْ أَدْرَكْنَـهُ صَـفِرَ الوِطَـابُ

(9) مقتبس من قول الشاعر:



إِسْحاق فإنه يَرْمِينِي في الهَوَى بِحِجَارِهِ، ويَأْخُذُ الجَارَ بِذَنْبِ جَارِهِ، ويُحافظُ حِفْظِي في الحُبِّ على جِوارِه، واللهُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ المِعْصَمَ لا يَنْطَبِعُ عَلَيْهِ غَيْرُ سِوَارِه، ولَعَمْرُكَ مَالِي بالمَذْكُورِ اهْتِمَام، ولا أَخَذْتُه إلا ما يَجِدُ بالهَدِيلِ الحَمَام، وقد أَلْقَيْتُ يَدي للاسْتِسْلَامِ وَرَجَعْتُ إِلَى دِينِ الإِسْلَام، وأَخُصُّكَ بَعْدُ بِأَتَمِّ السَّلَام.

وَلَهُ:

لاَ أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ عَارِفاً، وَحَلَلْتُ مِنَ البَلاَغَةِ ظِلًّا وَارِفاً، بِمَا أُفَاتِحُ وَلاَءَك، وَأُنَاجِي فِي هَذَا الكِتَابِ عَلاَءَكَ، أَأُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكَ عُذْراً، أَمْ أُوَفِّي مِنْ تَبْلِيغِ الأَمَانَةِ نَذْراً[1]، فَإِنَّ الأَمَانَةَ لَا يَحْمِلُهَا إِلَّا الإِنْسَان[2] وَقَدْ يُؤَدِّي القَلَمُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ اللِّسَان، وَهَذِهِ جُمْلَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيل، وَمُبْهَمٌ يَحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ وَتَحْصِيل. وَأَمَّا وَلاَ بُدَّ مِنْ أَدَاءِ الأَمَانَةِ بِنَصِّ الكِتَاب، فَعَسَى أَنْ يُغْمِدَ عَنِّي سَيِّدِي سَيْفَ العِتَاب، وَهَلْ هُوَ إِلاَّ حَدِيثٌ عَنْ مَحْبُوب، يستلذُّ وَلَوْ أَنَّ الإِنسانَ فِيهِ مَسْبُوب:

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ ... لَقَدْ سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكِ[3]

وَأَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ فُلاَنًا وَصَلَ خِطَابُهُ، وَقَدْ صَفِرَتْ مِنْ وُدِّكَ وِطَابُهُ؛ لِأَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْكَ سَلَاماً كُلهُ هَزْل، وَوَلَّاكَ مِنَ التَّعْظِيمِ خُطَطاً خَيرٌ مِنْهَا العَزْل، لِأَنِّي تَأَوَّلْتُهَا، فَحَوَّلْتُهَا، وَطَلَبْتُهَا

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ ... وَجِلْدَة بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

إعتاب الكُتَّاب، ص: 62، وفيات الأعيان 3/ 147.

(1) النذر: ما ينذرالإنسان على نفسه فيجعله واجبا يدفعه تبرعا، وفي القرآن: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْماً﴾. سورة مريم، الآية: 25.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾. سورة الأحزاب، الآية: 72.

(3) البيت لابن الدمينة من قصيدة مطلعها:

قِفِي يَا أُمَيْمَ القَلْبِ نَقْضِ لُبَانَةً ... وَنَشْكُ الهَوَى، ثُمَّ افعَلِي مَا بَدَا لَكِ

العقد الفريد 2/ 276. وهو من بحر الطويل.



فقَلَبْتُهَا، وَإلاَّ فَمَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوح[1]، وَكَيْفَ ارْتَقَى وَهْدُ حُبِّكَ عِنْدَهُ إِلَى اللُّوح، هَذَا وَإِنْ كُنْتَ تَحسرُ للظُّنُونِ عَنْ مَدَاك، وتَشْرِقُ الحَسَدَةُ بِمُداك، وَتُقَرِّبُكَ بالسَّبْقِ عِدَاك، فَإِنَّ عَهْدِي بِمَنْ تَعْلَمُ لاَ يَرْعَى مِقْدَارَك، وَلاَ يَعْتَقِدُ فِي فَلَكِ التَّنْوِيهِ مَدَارَك. فَلَمَّا اطلعتُ عَلَى ذَلِكَ التَّخْلِيط، وَمَا فِيهِ مِنَ التَّشْطِيط، وَرَأَيْتُهُ مِن قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ أحمد بن الحسين:

[وَلَجُدْتَ حَتَّى كِدْتَ] تَبْخَلُ حَائلاً لِلْمُنْتَهَى وَمِنَ السُّرُورِ بُكَاءُ[2]

فَأَعْمَلْتُ في طَرِيقِ تِلْكَ الخُطَطِ مَطِيَّةَ الفِكْر، إِلَى أَنْ وَقَعَ قَنَصُهَا في حِبَالَةِ الفِكْر، فَقُلْتُ: أَمَّا تَشْيِيخُهُ لِلْوَزِيرِ الجَلِيل، فَإِنَّهُ نَظَرَهُ مِن الجِدِّ بِطَرْفٍ كَلِيل، وَكَنَّى عَنْهُ كِنَايَةَ مَنْ عناهُ ارتياضُه، عَلَى يد جناهُ رياضه، فَكَسَاهُ عَلَى وَصْلِهِ ثَوْبَ مُحْرِم، وَقَالَ:

وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرِمِ[3]

---

(1) ذو طلح: اسم مكان وهو مذكور لدى الشعراء كثيرا، قال الحطيئة:

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاخٍ بِذِي مَرَخٍ حُمْرِ الحَوَاصِلِ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ

وقال الأعشى:

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ أُنَاسٍ هَلَكُوا وَرَأَيْنَا المَلْكَ عَمْرًا بِطَلَحْ

وفي شعر جرير:

مَتَى كَانَ الخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أَيَّتُهَا الخِيَامُ

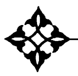
(2) شرح ديوان المتنبي 1/ 153. من قصيدة مطلعها:

أَمِنَ ازدِيَارِكَ في الدُّجى الرُّقَبَاءُ إِذْ حَيْثُ أَنْتَ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءُ

(3) دخل بعض الشراة على المنصور فقال له كلاما يوبخه فأنشد:

أَتَرُوضُ عِرْسَكَ بَعْدَمَا كَبِرَتْ وَمِنَ العَنَاءِ رِيَاضَةُ الهَرِمِ

مجمع الأمثال 2/ 356.



وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّكَ لَا تَحْظَى مِنْ وَصْلِهِ بِطَائِل، مَا تَفْهَمُهُ مِنْ قَوْلِ القَائِل:

وَإِذَا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فَإِنَّهُ ... نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالَا[1]

أَمَّا مَا عَجَّلَهُ لَكَ مِنْ دَيْنِ تَنْذِيرِهِ وَقَضَاه، حِينَ قَالَ: وَرَزَقَنِي بِرَّه وَرِضَاه، فَأُشِيرُ عَلَيْكَ بِاطِّرَاحِ هَذَا المَطْلُوب، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الكَلِمِ المَقْلُوب، وَالأَمْثِلَةُ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الأُسْلُوب، وَلِذَلِكَ أَقْيِسَةٌ يُشِيرُ إِلَيْهَا مِثْلُهُ مِمَّنْ هَجَر، كَقَوْلِهِمْ: بَلَغْتَ هَجَر[2]، وَكَانَ الحَقُّ أَنْ يَنْصِبَ حَجَر، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِمَّا يُبَيِّنُهُ لَكَ المَآل، قَوْلُهُمْ:

كَأَنَّنَا رَعْنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلَا[3]

فَهَذَا مَا حَضَرَنِي مِنَ الجَوَابِ، عَلَى هَذَا السُّؤَالِ؛ واللهُ يُدِيمُ مُدَّةَ الوَزِيرِ مَأْجُوراً، مَتْرُوكاً مَفْرُوكاً. بِمَنِّهِ وَالسَّلاَم.

وَلَهُ:

كَيْفَ اهْتِزَازُ الوَزِيرِ الحَسِيب، الَّذِي وَقَارُهُ أَرْجَحُ مِنْ عَسِيب[4]، وَأَخْلَاقُهُ آنَقُ مِنْ أَبْيَاتِ النَّسِيب، غُرَّةُ وَجْهِ المَحَامِد، أَبُو مُحَمَّدِ بنِ حَامِد[5]، أَبْقَاهُ اللهُ سَالِكاً مِنَ الجِدِّ أَوْضَحَ مِنْهَاج، نَائِباً فِي ظُلَمِ المُشْكِلاَتِ عَنْ كُلِّ سِرَاجٍ وَهَّاج، بِحَدِيثٍ جَلِيٍّ، عَنْ صَاحِبٍ وَلِيٍّ، شَجٍ غَيْرِ خَلِيٍّ، وَرُبَّمَا تَهَدَّتْ فِطْنَتُكَ لِأَنْ تَظُنَّهُ أَبَا عَلِيٍّ، اللهُ أَكْبَرُ:

---

(1) البيت من الشواهد العروضية على بحر الكامل المقطوع الممنوع إلا من الإضمار، وهو للأخطل. العقد الفريد 5/ 482، المعيار في أوزان الأشعار، ص: 62. ديوان الأخطل.

(2) هجر: هناك ثلاث مدن سميت بهذا الاسم الأولى في مأرب، والثانية في البحرين، والثالثة مدينة ملك البجاة. الروض المعطار ص: 592.

(3) عجز بيت للنابغة الجعدي وتمامه:

حَتَّى لَحِقْنَا بِهِمْ تَعْدِي فَوَارِسُنَا ... كَأَنَّنَا رَعْنُ قُفٍّ يَرْفَعُ الآلَا

(4) عسيب: اسم جبل لعله بأنقرة، قال امرؤ القيس:

أَجَارَتَنَا إِنَّ الخُطُوبَ تَنُوبُ ... وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

(5) الروض المعطار، ص: 31.



سَقَطْتَ عَلَى الخَبِيرِ[1]، وأَحَطْتَ عِلْماً: بِالقَبِيلِ وَالدَّبِيرِ[2] فَأَصِخْ لَهُ أَغْرَبَ مِنْ نَظَرِ الزَّرْقَاءِ[3]، وَأَشْهَى مِنْ حَدِيثِ العَنْقَاءِ[4]، وَأَطْرَبَ مِنْ هَدِيلِ الوَرْقَاءِ. إِنَّ صَاحِبَنَا أَبَا عَلِيٍّ لَمَّا أُنِيخَ قَلَمُ زُجَّاجِه، مَعَ أَبِي حَجَّاجِه، كَانَتْ فِي ذَلِكَ مِنْ فُلاَنٍ سِعَايَةٌ، لَمْ تَطَّرِدْ فِيهَا رِعَايَةٌ، تُقَبِّحُ فِي عَيْنِ المَنْصُورِ وَرْدَ الرَّبِيعِ[5]، وتُبَغِّضُ القَطْرَ عِنْدَ نَوْرِ الرَّبِيعِ. وَلَمَّا نُبِذَ أَبُو عَلِيِّنَا بِالعَرَاءِ، واعْتُقِدَ بِعَادُهُ وَكَذَلِكَ كَانَ مِنْ أَصْوَبِ الآرَاءِ، لَمْ آلُ أَنْ ذَلَّلْتُ لَهُ مِنْ جَانِبِ ذَلِكَ المُعْتَزِّ، وَرَضِيتُ بِأَنْ أَتَضَمَّنَ صِفَةَ اللَّيْلِ مِنْ شِعْرِ ابْنِ المُعْتَزِّ[6] حَتى تَزَحْزَحَ القَذَا عَنْ تِلْكَ المَشَارِبِ، وَأُبِيحَ لِلشَّارِبِ مَوْرِدُ الشَّارِبِ، ونَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ ذِكْرِ غَيْرِ هَذَا مِنَ المَآرِبِ، فَإِنَّ صَاحِبَنَا لاَ يُتَّهَمُ بِقَدِّ القَمِيصِ، وَلاَ مُعَانَقَةِ الخَصْرِ الخَمِيصِ وَلَمَّا سَفرَ رَأْسُهُ مِنْ صُدَاعِهِ، اسْتَدْرَجْتُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ سَاعَةَ وَدَاعِهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِهَامِي المُقْلَتَيْنِ، لُدِغَ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ[7] نَزَعَتْ بِمَحْبُوبِهِ الدَّارُ، وَفَرَّقَتْ بَيْنَ الغُصْنِ الغَضِّ وَالذَّابِلِ أَقْدَارٌ. وَعَهْدِي بِأَبِي عَلِيٍّ إِذِ النَّاسُ نَاسٌ، وَالزَّمَانُ كُلُّهُ إِينَاسٌ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ بَعْدَهُ كِنَاسٌ، يَفْتُقُ بِظُنُونِهِ مَا لاَ يُرْقَعُ، وَيَبْكِي بِمَا عَسَاهُ لاَ يَقَعُ، وَيُولَعُ بِسُوءِ الظَّنِّ فَيَجْلُبُ الحُزْنَ إِلَيْه، وَيَحسِبُ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْه[8] فَيَبْكِي وَغُصْنُهُ مَيَّادٌ نَاضِرٌ،

---

(1) صيغة المثل: على الخبير سقطت.

(2) من كلام العرب قولهم: «فلان ما يدري قبيلا من دبير»؛ أي لا يعلم من الأمر شيئا.

(3) الزرقاء: يقصد بها زرقاء اليمامة، وكانت مشهورة بجودة النظر وصحة الإدراك، قال فيها الشاعر:

وَاحْكُـمْ كَحُكْـمِ فَتَـاةِ الحَيِّ إِذْ نَظَـرَتْ ... إِلَــى حَمَــامٍ شِــرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَــدِ

الروض المعطار، ص: 620.

(4) العنقاء: طائر عظيم يرى بعضهم أنه لا وجود له إلا في خيال الناس، قال الشاعر:

وَلَــوْلَا سُــلَيْمَانُ الخَلِيفَــةُ حَلَّقَــتْ ... بِـهِ مِـنْ يَـدِ الحَجَّـاجِ عَنْقَـاءُ مُغْـرِبِ

(5) لعله يقصد بالمنصور الخليفة العباسي، وبالربيع وزيره الفضل بن الربيع. أو لعله يقصد المنصور بن أبي عامر الذي كان مولعا بالأزهار والورود.

(6) شاعر عباسي مشهور امتاز بوصفه لليل في أغلب قصائده.

(7) فيه إشارة إلى الحديث النبوي: «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين».

(8) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾. سورة المنافقون، الآية: 4.



وَيَنُوحُ وَإِلْفُهُ لَدَيْهِ حَاضِرٌ، فَكَيْفَ وَقَدْ أَكَلَ يُوسُفَهُ ذِيبُ الفِرَاقِ[1]، وَأَصَابَ سَهْمُ مَنْ بِذِي سَلَمٍ مَنْ بِالعِرَاقِ[2]، فَهَاهُوَ عَنْ ثَغْرِ الكَآبَةِ يَفْتَرُّ، وَتَلُوحُ لَهُ بُرُوقُ المُنَى فَلاَ يَغْتَرُّ، وَلاَ يَتْلُو مِنَ الكِتَابِ العَزِيزِ إِلاَّ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[3] قَدْ تَكَنَّفَهُ مِنَ النَّوَى شَجَنٌ عَظِيمٌ ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[4] فَلَكَ الفَضْلُ -أَعزَّكَ اللهُ- فِي عَزَائِهِ، وَتَسْلِيَتِهِ عَمَّنْ كَانَ يَدُورُ بِإِزَائِهِ، فَلَعَلَّكَ تَكْسِرُ غَرْبَ هَجْرِه، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: ....

بِمَنِّ اللهِ وَيُمْنِهِ وَالسَّلاَم.

وله: رَحِمَهُ اللَّهُ يُرَاجِعُ أَبَا الحَسَنِ بنَ حَرِيق[5] مُداعِباً فِي آخِرِ رِسَالَةٍ:

وَرَاءَ ضُلُوعِ الغَيْمِ قَلْبُ مَشُوقِ ... لِبَرْقٍ بِذَاتِ الأَبْرَقَيْنِ خَفُوقِ
بَدَا طَفَلاً يُزْجِي السَّحَابَ وَإِنَّمَا ... أَدَارَ عَلَى الآفَاقِ كَأْسَ غَبُوقِ
فَيَا مَنْ رَآى لَوْنِي أُصَيْلاً وَعَبْرَتِي ... غَمَاماً، وَقَلْبِي وَهْو خَفْقُ بُرُوقِ
أَلَا فَاعْجَبُوا مِنِّي وَإِنِّيَ وَاحِدٌ ... يُضَمِّنُنِي حُبِّي صِفَاتِ فَرِيقِ
وَمَنْ لِبُرَيْقٍ يَشْتَكِي مِنْهُ أُفْقُهُ ... بِجُرْحٍ كَجُرْحِ الحُبِّ غَيْرِ مُفِيقِ
قَعَدْتُ لَهُ فِي فِتْيَةٍ أَدَبِيَّةٍ ... يُقِيمُونَ لِلآدَابِ أَكْرَمَ سُوقِ
مِنَ القَوْمِ جَالَتْ فِي المَعَانِي شِفَاهُهُمْ ... مَجَالَ أَكُفٍّ فِي كُؤُوسِ رَحِيقِ

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَاسِرُونَ﴾. سورة يوسف، الآية:14.

(2) هذا من قول الشاعر:

سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ ... مَنْ بِالعِرَاقِ لَقَدْ أَبْعَدْت مَرْمَاك

(3) سورة يوسف، الآية: 88.

(4) سورة يوسف، الآية: 84.

(5) ابن حريق من الشعراء الموحدين، كان معاصرا لصفوان بن إدريس، وصديقا له، كانت وفاته سنة 622هـ انظر عن ترجمته زاد المسافر: التكملة رقم 1895، صلة الصلة، ص: 129، الذيل والتكملة 5/ 275، المغرب في حلى المغرب 2/ 318، رايات المبرزين، ص: 86، فوات الوفيات 3/ 64.



يَقُولُونَ لِي شَبِّهْ؛ فَقُلْتُ كَأَنَّمَا ... يَجُرُّ عَلَى الكَافُورِ ذَيْلَ عَقِيقِ
فَأَوْمَوْا بِأَنْ زِدْنَا، فَقُلْتُ كَأَنَّمَا ... أَفَاضَ عَلَى البِلَّوْرِ رَدْعَ خَلُوقِ
وَلَوْ حَسُنَ التَّكْرَارُ قُلْتُ كَأَنَّهُ: ... «وَرَاءَ ضُلُوعِ الغَيْمِ قَلْبُ مَشُوقِ»
فَقَالُوا: أَرَدْنَا سُرْعَةً وَتَوَقُّداً ... فَقُلْتُ: ذَكَرْتُمْ خَاطِرَ ابْنِ حَرِيقِ
وَإِنَّ سَنَا بَرْقٍ يَكُونُ شَبِيهَهُ ... لَيَزْدَادُ بِالتَّشْبِيهِ حُسْنَ بَرِيقِ
وَآيَةُ بَرْقِ الجَوِّ سَكْبُ دُمُوعِهِ ... بِأَبْطَحِ وَادٍ أَوْ سَمَاوَةِ نِيقِ[1]
لِيُطْلِعَ فِي مُلْدِ الغُصُونِ كَوَاكِباً ... مِنَ الزُّهْرِ تُعْشِي العَيْنَ لَمْعَ شُرُوقِ
وَآيَةُ ذَاكَ الخَاطِرِ الفَذِّ نَفْثَةٌ ... تَسُدُّ عَلَى الأَذْهَانِ كُلَّ طَرِيقِ
هِيَ الحُسْنُ لَا مَا تَزْدَهِي رَوْضَةُ الرُّبَى ... بِخَدٍّ أَقَاحٍ أَوْ بِثَغْرِ شَقِيقِ
مِنَ المُذْهَبَاتِ الغُرِّ تَهْوَى رِكَابُهَا ... إِلَى كُلِّ فَجٍّ فِي البَيَانِ عَمِيقِ
تَسِيرُ وَرَاءَ السَّمْعِ فِي كُلِّ فَدْفَدٍ ... إِلَى مُسْتَقَرِّ القَلْبِ سَيْرَ سَبُوقِ
أَقُولُ وَقَدْ سُقِّيتُ بَعْضَ سُلَافِهَا ... فَأَصْبَحْتُ بَيْنَ الشَّرْبِ[2] غَيْرَ مُفِيقِ
أَيَا رُقْعَةَ الحَبْرِ المُقَبَّلِ نَعْلُهُ ... سَخَا بِكِ فَارُوقُ البَيَانِ فَرُوقِي
وَيَا مُتَعَاطِيهَا مَكَانَكَ تَسْتَرِحْ[3] ... فَكَمْ مِنْ رَسِيمٍ[4] دُونَهَا وَعَتِيقِ[5]

---

(1) النيق: حرف من الجبل، وقيل هو أرفع موضع في الجبل، ونه قول الشاعر:
شَغْوَاءُ تُوطِنُ بَيْنَ الشِّيقِ وَالنِّيقِ

(2) الشرب: جماعة الشاربين، قال الشاعر الأندلسي:
وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّرْبَ أَكْدَتْ سَمَاؤُهُمْ ... تَأَبَّطْتُ زِقِّي وَاحْتَسَبْتُ عَنَائِي

(3) انظر في ذلك إلى قول الشاعر عمرو بن الإطنابة مخاطبا نفسه:
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَشَأَتْ وَجَاشَتْ ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

(4) الرسيم: ضرب من السير سريع مؤثر في الأرض.
(5) العتيق: الفرس الكريم الذي يسرع في خطوه.



يَقِــرُّ بِعَيْنِــي أَنْ تَقَهْقَــرْتُ دُونَهَــا | كَمَا يَتَحَامَى الغُصْنُ فَرْعَ سَحُوقِ[1]
وَقَــدْ سَــرَّنِي أَنْ ذَابَ عَنْهَــا حَسُودُهَا | كَــأَنَّ فَرَاشــاً حَــامَ حَــوْلَ حَرِيــقِ
لَقَــدْ رَشَــقَتْ قَلْــبَ الحَسُودِ سِــهَامُهَا | بِنَــصْلِ كَنَــصْلِ الزَّاعِبِــيِّ[2] فَتِيــقِ
ولَــمْ يَغْنِــهِ سَــرْدُ[3] الــدُّرُوعِ وَإِنَّمَــا | لِغَيْــرِ سِــهَامِ الفِكْــرِ نَــسْجُ سَــلُوقِ
وَجَاشَــتْ عَلَــى سَــمْعِي بِخَمْسَــةِ أَبْحُــرٍ | فَحَــلَّ بِهَــا ذِهْنِــي مَحَــلَّ غَرِيــقِ
بِخَمْــسَةِ أَبْيَــاتٍ تَمُــتُّ مِــنَ النُّهَــى | إِلَــى نَــسَبِ صِــنْوِ الــصَّبَاحِ عَرِيــقِ
مَــدَدْتَ بِهَــا نَحْــوِي يَمِــينَ مَــوَدَّةٍ | وَجِــدٍّ كَــصَدْرِ المَــشْرَفِيِّ وَثِيــقِ
.... بِيْعَــــــــة | وَأَلْقَيتُ عَنْ أَمْرِي [جِيَادَ رَقِيقِ][4]
أُصَرِّحُ صِدْقاً وَهْوَ فَرْضٌ عَلَى الفَتَى | وَلَيْسَ كَذُوبُ القَوْلِ مِثْلَ صَدُوقِ
يَمِينــاً لَنَــا مِــنْ خَــاطِرٍ مُتَسَلْــسِلٍ | رَتُــوقٍ[5] لِأَثْــوَابِ البَيَــانِ فَتُــوقِ
لَأَنْــتَ أَخِــي لَا مَــا تَخَيَّــلَ وَارِثِــي | فَــرُبَّ صَــدِيقٍ فَــوْقَ كُــلِّ شَــقِيقِ
تَعَــالَ أُجَاذِبْــكَ الْحَــدِيثَ هُنَيْهَــةً | عَلَــى صَــرْفِ دَهْــرٍ بِالعِتَــابِ خَلِيــقِ
بِآيَــةِ مَــا يُــضْحِي وَيُمْــسِي يَعُقُّنِــي | سَــيَعْلَمُ إِنْ حَاسَــبْتُهُ بِعُقُــوقِ
أَلَا وَلَــهُ فِــي مِــسْطَحٍ[6] شَــرُّ إِسْــوَةٍ | غَــدَاةَ ازْدَرَى جَهْــلاً بِفَــضْلِ عَتِيــقِ

---

(1) السحوق: الطويل من النخل، أو الشجر؛ ويستعار للمرأة الطويلة أحيانا، قال الشاعر:
تُطِيــفُ بِــهِ شَــدَّ النَّهَــارِ ظَعِينَــةٌ | طَوِيلَــةُ أَنْقَــاءِ اليَــدَيْنِ سَــحُوقُ

(2) الزاعبي من الرماح، الذي إذا هز، تدافع كله، كأن آخره، يجري في مقدمه. والنصل الفتيق هو الحديد الشفرتين، والسيف الفتيق الحاد. ومنه قولهم: «كنصل الزاعبي فتيق» اللسان: فتق.
(3) السرد: الثقب، والدروع المسرودة، أي المثقوبة.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) الرتق: الالتئام والالتحام وهو عكس الفتق، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾. سورة الأنبياء، الآية: 30.
(6) مسطح: كاهن من بني ذئب. اللسان: «سطح». ويشير إلى ماكان له في قصة الإفك.



إِذَا رُمْتُ أَنْ أَسْمُو هَوَتْ بِيَ رِيحُهُ ... لِكُلِّ مَكَانٍ فِي الخُضُوعِ سَحِيقِ
نُحِبُّ بَنَاتِ الفِكْرِ وَهْيَ تَعُقُّنَا ... فَمَا لِعَدُوِّي أَرْتَضِيهِ صَدِيقِي
وَتَسْرِي وَمَا عَادَتْ عَلَيْنَا بِعَائِدٍ ... وَقُبِّحَ عَانٍ فِي ثِيَابِ طَلِيقِ
كَفَى زَلَلاً لِلدَّهْرِ أَنَّ الْتِقَاءَنَا ... كَأَبْلَقَ[1] مَعْدُومِ الوُجُودِ عَقُوقِ

سَيِّدِي وَأَكْثَر، وَوَلِيِّي الأَحَبُّ الآثَر، وَمَنْ لَهُ مِنْ هَوَايَ العَيْنُ والأَثَر، ومِنَ المَكَارِمِ الدَّرَجَاتُ العُلَى وَالأَثَر، ومِنْ نَفَثَاتِهِ نَلْتَقِطُ كُلَّ مَا يُنْتَظَمُ وَيُنْتَثَرُ، وَإِلَيْهِ يُرْفَعُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَيُؤْثَر[2]. أَنَّسَ اللهُ وَلِيَّكَ بِلِقَائِكَ [وَأَتَمَّ] رَوْحَ الأُنْسِ مِنْ لِقَائِكَ. وَلَيْتَ الزَّمَانَ تَجَافَى لَنَا عَنِ التَّلاَقِي قَلِيلاً، فَنَشْحَذ بِهِ لِلنَّشَاطِ غَرْباً[3] كَلِيلاً، وَنَنْفِثَ نَفْثَةَ مَصْدُورٍ، فِي جَانِبِ هَذَا القَدَرِ المَقْدُورِ، وَنَجِدَ مِنَ الرَّوِيَّةِ لِعَتْبِهِ وَالاِسْتِعْدَاد، ونَسْلَقَهُ وَقَدْ أُمِيطَ عَنَّا خَوْفُهُ بِأَلْسِنَةٍ حِدَاد[4]، بَلْ لَيْتَهُ أَذْهَبَ عَنَّا خَوْفَهُ، وأَمِنَ أَنْ نُعِدَّ لَهُ سِينَ العِتَابِ وَسَوْفَهُ، وَلَكِنَّ أَحْوَالَهُ أَطْوَارٌ وَأَدْوَارٌ، فَمُحَاقٌ[5] وَأَنْوَارٌ، وَبِعَادٌ وَجِوَارٌ، وَغَضَارَةُ الأَيْكَةِ يَتَعَاقَبُ فِيهَا الذُّبُولُ والنُّوَّارُ، طَوْراً نَدْفَعُ صُرُوفَهُ بِيَدِ الافْتِرَاقِ فِي صُدُورِ الاتِّصَالِ، وَآوِنَةً نُضْفِي عَلَى ضَاحِي الهِجْرَانِ ظِلَّ الوِصَالِ، وَبِالجُمْلَةِ فَإِنَّهُ بَعِيد مَا بَيْنَ نَرْجِسِ الأَسْحَارِ وَبَهَارِ الآصَالِ، سَلْمُهُ عِنْدَ انْتِقَادِهَا حُرُوبٌ، وَجَانِبُهُ رِوَاقٌ بَيْنَ النُّفُوسِ وَآمَالِهَا مَضْرُوبٌ، وهَذَا حِقْدٌ لِبَنِيه وَحَسَدٌ، وَغَرَضٌ تَضَمَّنَ رُوحَهُ مِنَ البَغْيِ

---

(1) الأبلق الفرد: حصن للسموأل بن عادياء، والأبلق أيضا يطلق على حصن قصدته الزباء فلم تقدر عليه، فقالت: «تمرد مارد وعز الأبلق».

(2) ينظر في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾. سورة فاطر، الآية: 10.

(3) الغَرْبُ: حَدُّ السَّيْفِ؛ ومنه لسانٌ غَرْبٌ: أي قاطعٌ، قال الشاعر:
غَرْباً سَرِيعاً فِي العِظَامِ الخُرْسِ

(4) ينظر إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾. سورة الأحزاب، الآية: 19.

(5) المُحَاقُ: آخر الشهر عندما يختفي الهلال ولا يعاد يرى. وهي الميم المثلثة.



جَسَدٌ، لِأَنَّهُ لَمَّا عَايَنَ عِذَارَ الدُّجَى إِذَا سَجَا، يَسْتَغْرِقُ مَحَاسِنَ وَجْنَةِ الفَجْرِ، كَمَا اسْتَغْرَقَتْ ذَمَاءَ[1] الصَّبِّ لَيْلَةُ الهَجْرِ، كَرِهَ طَبْعُهُ مُسَالَمَةَ بَنِيهِ وَأَبَاهُ، وَقَالَ: «مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ أَنْ يُشْبِهَ أَبَاهُ»[2] فَأَوْفَى مِنَ التَّفْرِيقِ بِمَا نَذَر، وَفَرَّقَ أَشْيَاعَ المُتَأَلِّفِينَ شَذَرَ مَذَر، وَنَبَا عَنْ تَأْلِيفِهِ نُبُوَّ الطَّرْفِ عَنِ الخَدِّ إذا عَذَّر، خَوْفاً أَنْ يُعِينَ بَنِيهِ، عَلَى هَدْمِ مَا يَبْنِيهِ، إِذِ «التَّمْرَةُ إِلَى التَّمْرَةِ تَمْرٌ» وَمِنَ السِّقْطِ[3] وَالشِّطَاطِ يَتَوَلَّدُ الجَمْرُ، والعَضُدُ بِالعَضُدِ يَسْتَنْصِرُ، والمُنْفَرِدُ يَحْذِفُ التَّأَلُّفَ وَيَخْتَصِرُ.

-حَسْبُنَا اللهُ- مَنْ أَدَّانَا أَنْ نَتَأَوَّلَ عَلَى الزَّمَانِ أَفْعَالَهُ، وَنَحْدُوَ عَلَى قَدَمِ الظَّنِّ نِعَالَهُ فَقَدْ كَانَتْ لَنَا فِي وَصْفِ أَحْوَالِنَا مَآرِبُ أُخرَى، وَرُسُلُ أَقْوَالٍ تَجِيءُ تَتْرَى، وَمُعَيْدِيٌّ كُلُّهُ خَيْرٌ: يُشْتَهَى أَنْ يُسْمَعَ وَيُرَى[4] .

أَمَا إِنَّ كِتَابَكُمُ الأَكْرَمُ وَصَلَ أَبَرَّ وُصُولٍ، فَجَلَّى ظَلَامَ تَوَحُّشٍ لَوْ خُضِبَ بِهِ الشَّيْبُ لَمْ يَخَفْ مِنَ النُّصُولِ، فَلِلَّهِ دَرُّكَ مَا أَمَدَّ مَدَاكَ، وَأَحَدَّ مُدَاكَ، وَأَحْفَلَ دَرَّكَ وَأَنْفَسَ دُرَّكَ[5] وأَثْقَبَ كَوْكَبَكَ، وَأَنْجَدَ مَوْكِبَكَ، وأَقَلَّ فِي البَلَاغَةِ مَنَاكِبَكَ، وَأَوْرَى فِي المَعَارِفِ زَنْدَكَ، وَأَجْرَى مَا لِلَّثْمِ أَنَامِلَكَ وَزَنْدَكَ[6]، وَمَا أَبْدَى أَنْوَارَكَ، وَمَا أَشْهَى أَنْوَارَكَ، وَأَبْهَجَ أَضْوَاءَكَ، وَأَلْهَجَ بِكَ أَذْوَاءَكَ، وَأَطْيَبَ حَدِيثَكَ، وَأَغْرَبَ قَدِيمَكَ وَحَدِيثَكَ، لِأَنَّكَ

---

(1) الذَّماء: بقية الروح.

(2) يشير في ذلك إلى قول الشاعر:

بِأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ فِي الكَرَمْ ... وَمَنْ يُشَابِهِ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ

والبيت من شواهد شراح الألفية؛ انظر شرح الأشموني 1 / 70.

(3) السقط: ما يتناثر من الجمر فهو رماد ويسمى سقط الزند.

(4) فيه إشارة إلى المثل العربي: «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه»، وقد قيل هذا المثل في ضمرة بن ضمرة، عندما دخل على النعمان بن المنذر. فصل المقال، ص: 121، مجمع الأمثال1/ 86، العقد الفريد 2/ 288.

(5) الدر: اللبن، والدر بالضم: حجر كريم.

(6) الزند الأولى: معناها الخشبتان اللتان تقدح بهما النار، والزند الثانية: عظم في الساعد، ويكنى به عن الكف.



الفَيَّاضُ الطِّبَاعِ الفَضْفَاضُ الانْطِبَاعِ، النَّافِثُ بِغُرَرِ الأَسْحَارِ، العَابِثُ بِدُرَرِ البِحَارِ، الآخِذُ إِحْسَانهُ بِمَجَامِعِ القُلُوبِ، النَّابِذُ فِي الغُبَارِ كُلَّ مَنْ يُجَارِيهِ فِي أُسْلُوبِ.

أُقْسِمُ بِالَّذِي زَيَّنَكَ وَحَلاَّكَ، وَجَعَلَكَ قُدْوَةَ الآدَابِ عَلَى أَنَّهَا أَقَلُّ حُلاَكَ، لَقَدْ تَصَفَّحْتُ رُقْعَتَكَ الَّتِي أَعْطَتْ كَمَالَ الحَقِّ وَتَمَامَه، وَكَانَ أَحَقَّ بِهَا مِن اسْمِ الرُّقْعَةِ اسْمُ الكِمَامَة، فَلَشَدَّمَا خُلِعَتْ عَلَيْهَا البَرَاعَة، الَّتِي وُلِدَتْ مِنْ تِلْكَ اليَرَاعَة، خَلْعَ الخِيلاَنِ عَلَى الخُدُود، والارْتِيَاحِ عَلَى هِيفِ[1] القُدُود، والفِرِنْدِ عَلَى المُهَنَّدِ العَضْب، والزِّحَامِ عَلَى المَوْرِدِ العَذْبِ، والبِشْرِ عَلَى بَرْقِ الغَمَامَةِ، والطَّوْقِ عَلَى جِيدِ الحَمَامَةِ.

فَلِذَلِكَ تَرَكْتُ المُرَاجَعَةَ تَرْكَ الظَّبْيِ ظِلَّه، وَتَلَوْتُ وَخَوَاطِرِي بِالقُصُورِ مُسْتَظِلَّة، وَبِرَبْعِ الخَجَلِ عَمَّنْ غَلَبَهُ مِثْلُكَ مُدَلَّه، ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[2] فَقَبِلْتُ عُذْرَ فِكْرِي حِينَ انْقَادَ وَسَلَّم، وَقَالَ وَقَدْ أَشْعَرَ بِعَجْزِهِ وَأَعْلَم، مَا كَانَ لابنِ أَبِي قُحَافَةَ[3] أَنْ يَؤُمَّ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَزَلْ يَسْتَظْهِرُ عَلَيَّ مِنْ أَيْدِيهِمْ لِحِجَاج، وَيَتَشَوَّقُ إِلَى الإعفاءِ تَشَوُّقَ جَحْدَرٍ لِعَفْوِ الحَجَّاج[4]، وَلَوْلاَ التَّعْظِيمُ لِمَكَانِ سَيِّدِي لَقُلْتُ تَشَوُّقَهُ لِلِقَاءِ أَبِي الحَجَّاج، وَكَمْ هُنَا مِنْ حَدِيثٍ ذِي شُجُون[5]، وَزَهَرٍ حَسَنٍ تَفْتَرُّ عَنْهُ كَمَائِمُ المُجُون، وَمَنْ بَقَلَ عِذَارُه[6]، فَقَد انْقَطَعَتْ أَعْذَارُه، كَمْ بَيْنَ ذَاكَ الجَنَى والوَرَق، مِنْ خُدَعِ المُنَى وَلَفَحَاتِ الحُرَق، وَمَنْ نَقَدَ الغَزَلَ فِي مَحَكِّ الامْتِحَانِ، فَضَّلَ عَلَى انْتِقَالِ الوَرْدِ بَقَاءَ الرَّيْحَانِ، وَلَيْسَ فِي سُنَّة الكَلَفِ، أَنْ يُعَابَ البَدْرُ بِالكَلَفِ[7]. فَالآنَ آنَ أَنْ يَفِيضَ إِسْعَادُه، وَحَانَ أَنْ يَغِيضَ بِعَادُه،

(1) الهيف: رقة الخصر وضمور البطن، والهيف جمع هيفاء.
(2) سورة النمل، الآية: 35.
(3) ابن أبي قحافة: هو أبو بكر الصديق.
(4) اسم رجل كان لقبه فسجنه الحجاج فقال شعرا يشتاق فيه إلى أهله ويطمح في عفو الحجاج. رفع الحجب 1/ 50.
(5) مثل عربي مشهور، انظر زهر الأكم 2/ 102.
(6) بقل المكان: أي أنبت: البقل؛ وهو كناية عن الكِبَر والفتوة.
(7) الكلف: لون بين السواد والحمرة.



إذْ مُدَّةُ انْصِرَامِ حِبَالِهِ قَرِيبَة، وَجَنَّتُه منْ عَارِضِ العَارِضِ مُسْتَرِيبَة، بِأَيَّةٍ مَا يُطْلِعُ فِي أُفْقِهَا أَهِلَّةَ المُوَاسِي مَكْسُوفَه، فَيَذَرُ جَمَالَ عِذَارِهَا مَنْسُوفَة، وَيَحْذَرُ زَمَانًا يُعِيدُ سَلْمَهُ حَرْبًا، وَبُعْدَهُ فِي مُحِبِّهِ قُرْبًا، فَيَنْتَقِلُ مِنَ الهَشِيمِ إِلَى الحَمِيم، وَلاَ يَرْمِي وَرَاءَ سِتْرِ اللهِ عَنْ قَوْسِ رَمِيم[1]، فَمَا لَهُ مِنْ شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ[2] فَلِذَلِكَ يَكْسِرُ مِنْ غَرْبِ انْتِخَائِه، وَيُقَدِّمُ لِزَمَانِ بُؤْسِهِ فِي بَقِيَّةِ زَمَانِ رَجَائِه، وَيَغْتَنِمُ شَبَابَهُ قَبْلَ هَرَمِه[3]، وَلاَ يَمْنَعُ مِنَ الصَّيْدِ فِي حَرَمِهِ؛ واللهُ يُمَتِّعُكُمْ بِهِ سَلِسَ القِيَادِ، سَرِيعَ الانْصِيَاعِ والانْقِيَادِ، والسّلامُ عَلَيْكُمْ مَا نَمَّتِ الأَزْهَار، وتَبَايَنَ السِّرارُ والجِهَار وَكَانَ هَذَا الحَدِيثُ مِنْ: «كَلاَمِ اللَّيْلِ الَّذِي يَمْحُوهُ النَّهَار»[4] وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَلَهُ: مُدَاعِباً بَعْضَ إخوانِهِ وَكَانَ يُلَقَّبُ بالكَلْبَةِ فَخَرَجَ سَحْرَةَ يَوْمٍ فعضَّه كَلْبَانِ.

وظُلْـمُ ذَوِي القُرْبَـى أَشَـدُّ مَـضَاضَةً ... عَلى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ المُهَنَّدِ[5]

مَا زِلْتُ أَعَزَّ اللهُ الوَزِيرَ الحَسِيبَ وَلاَ سَلَّطَ عَلَيْهِ القَرِيبَ وَلاَ النَّسِيب، وأَقَالَ مِنْ مَوْقِفِ الجَزَعِ عَثْرَةَ قَدَمِهِ، وَلاَ جَعَلَ لِلأَنْيَابِ الفَوَارِثِ سَبِيلاً عَلَى أَدَمِه، وَلَا سَبَبًا إِلَى إِرَاقَةِ دَمِه، أَسْمَعُ بِحَسَدِ القَرِيبِ لِلْقَرِيب، وأَطْوِي عَلَى اعْتِقَادِهِ جَوَانِحَ مُسْتَرِيب، وَأَقُولُ إِنْ كَانَ فَفِي الشَّاذِ الغَرِيب، بَلْ أُصَمِّمُ عَلَى أَنَّهُ تَقَوُّلٌ مُلَفَّق، وَزُورٌ لَمْ يَفُهْ بِهِ مُوَفَّقٌ.

حَتَّى اتَّصَلَ بِي مَا دَهَمَ جَنْبَيْك، مِنْ عَضِّ كَلْبَيْك، وَقَيَّدْتُ عَنِ الأَعْدَاءِ وَالأَصَادِق، بِسَنَدٍ يَرْفَعُهُ صَادِقٌ إِلَى صَادِق، كَيْفَ فَاجَاكَ، فَوَجَاكَ[6] وَبَادَرَاكَ، فَصَادَرَاكَ،

(1) فيه نظر إلى قول أبي حَيَّةَ النُّمَيْرِي:

رَمَتْنِي وَسِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... عَشِيَّةَ آرَامِ الكِنَاسِ رَمِيمُ

(2) ينظر إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾. سورة الشعراء: 100-101.

(3) فيه إشارة إلى الحديث النبوي: «يا ابن آدم اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك».

(4) مثل عربي: يضرب للذي يكثر من إخلاف الوعد، العقد الفريد 6/ 199.

(5) البيت لعدي بن زيد العبادي وهو من الطويل. انظر ديوانه، ص: 108.

(6) وجأه: ضربه باليد أو بالسكين أو غيرهما فأصابه بطعنات تكاد تودي بحياته.



وقَصَدَاكَ، فأَقْصَدَاكَ، وَنَيَّبَاكَ[1]، وَمَا تَهَيَّبَاكَ، وَوَلَغَا فِي جِسْمِكَ، كَأَنْ لَمْ يَسْمَعاَ بِاسْمِكَ، وَنَقَدَاكَ العَضَّ نَقْداً نَاجِزًا، وَتَرَكَاكَ بِالجَدَالَةِ[2] وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَاجِزاً؛ فَتَأَلَّمْتُ - يَعْلَمُ اللهُ- لِذَلِكَ العَضِّ، وَتَلَوْتُ ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[3] أَلَمْ تَكُنْ لَكَ رُقْيَةُ مُسَيْطِرٍ، تُنْجِيكَ مِنْ طَعْنِ المُبَيْطِرِ، وَلاَ كَيْدُ مُجْتَلِب، لاسْتِنْزَالِ الكَلْبِ الكَلِبِ[4] فلمَّا صَدَّقْتُ ذَلِكَ لِصِحَّةِ النَّقْلِ، عَلِمْتُ تَحَاسُدَ القَرَابَةِ لِلْقَرَابَةِ بِضَرُورَةِ العَقْلِ، وَقُلتُ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ مِنْ صِنْفٍ حَبِيبٌ، وَلأَمْرٍ مَا يَقُولُ حَبِيبٌ:

حَسَدُ القَرَابَةِ لِلْقَرَابَةِ قُرْحَةٌ ... أَعْيَتْ زِيَادَتُهَا وَجُرْحٌ مُؤْلِمُ[5]

.... وَأُرَدِّدُ: ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[6]، وَأَتَصَرَّمُ مِنْ جَارِحٍ حَرَّكَكَ وَمَا حَرَّكْتَه، وَلاَهِثٍ حَمَلَ عَلَيْكَ وَتَرَكْتَه، إِذْ سَمِعَ أَنَّ حَبْلَ الصَّبْرِ أَقْوَى ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[7]، فَاقْتَضُوا مِنَ الصَّبْرِ دَيْنَكُمْ، ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[8] اصْبِرْ لِذَوِيكَ وَإِنْ سَاءَ مَا أَقْطَعُوكَ، وَصِلْ قَرَابَتَكَ وَإِنْ قَطَعُوكَ، وأَغْضِ وَلَوْ أَنَّهُمْ ضَاعَفُوا الطَّاءَ فَقَطَّعُوك، وَمُقَابَلَةُ الجَهْلِ بِالجَهْلِ مِنْ أَخْلاَقِ الحُمُر، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ[9]. فاحْلَمْ عَنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَعَلَّمُونَ وَقُلْ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَيَعْلَمُون»[10] وَلاَ بُدَّ مِنَ الصُّلْحِ المَعْرُوفِ، والأَقْرَبُونَ

---

(1) نيباك: يعني أنهما أصاباه بأنيابهما.
(2) الجدالة: الأرض، والمجدل الذي يسقط عليها.
(3) سورة (ص)، الآية: 23.
(4) كَلْبٌ كَلِبٌ، وكَلِبَ الكَلْبُ: إذا ضري وتعود أكل الناس.
(5) البيت لحبيب بن أوس، المعروف بأبي تمام، وهو من الكامل. من قصيدة مطلعها:

أَرْضٌ مُصَرَّدَةٌ وَأُخْرَى تَثْجُمُ ... مِنْهَا الَّتِي رُزِقَتْ وَأُخْرَى تُحْرَمُ

ديوانه 3/ 199، وفيه: أعيت عواندها.
(6) سورة الحشر، الآية: 14.
(7) سورة البقرة، الآية: 235.
(8) سورة البقرة، الآية: 235.
(9) حديث شريف.
(10) من دعاء النبي ﷺ.



والأَقْرَبُونَ أَوْلَى بِالمَعْرُوفِ[1]، فَالرَّأْيُ أَنْ تَتْرُكَ المُعَاقَبَةَ وَتَدَع، وَتَعْلَمَ «أَنَّ أَنْفَكَ مِنْكَ وإِنْ كَانَ أَجْدَع»[2] وَقُلْ لِمَنْ أَنْذَرَكَ مِنْهُمْ عَضًّا، يَابَعْضِي دَعْ بَعْضاً[3]، وَذَكِّرْهُمُ النَّسَبَ المُلْتَحِم، وَأَنْشِدْهُمُ الله وَالرَّحِم وَقُلْ تَعَزِّيًا عَنْ دَمِكَ المُطَّرِدْ:

إِحْـدَى يَـدَيَّ أَصَـابَتْنِي وَإِنْ لَـمْ تُـرِدْ[4]

وَإِنْ طَاوَعْتَ فِي الإِنْصَافِ وَهْمَكَ، وَعَصَيْتَ فِي مَحْمُودِ العَفْو فَهْمَك، رَمَيْتَ إِلَى نَحْرِكَ سَهْمَك، وَنَثَرْتَ بِيَدِكَ نَظْمَك، وَأَهَنْتَ بِسَوْطِكَ عَظْمَك، فَخُذْ فِي تَوَرُّعِكَ وَكَفِّك، وَلاَ تَسْتَجِزْ قَطْعَ كَفِّكَ بِكَفِّك، وَبَلِّغِ الجَانِينَ مَأْمُولَ الاعْتِنَاءِ تَبْلِيغاً، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾[5] وَاصْبِرْ عَلَى الإِيجَاع، وَأَطْرِقْ إِطْرَاقَ الشُّجَاع، وَاعْلَمْ أَنَّ المَرْءَ قَدْ يَتَأَذَّى بِفَرِيقِه، كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَشْرَق المَرْءُ بِرِيقِه[6]:

قَرَابَـةُ الـسُّوءِ شَـرُّ دَاءٍ ... فَاحْمِـلْ أَذَاهُـمْ تَعِـشْ حَمِيـدَا

وَمَـنْ تَكُـنْ قُرْحَـةٌ بِفِيـهِ ... يَجْـرَعْ عَلَـى مَـا بِـهِ الـصَّدِيدَا[7]

وَأَحْسَنُ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ، وَخُلُودِ الحَيَاةِ الحَبِيبَةِ، مُوَافَقَةُ القُرَبَاءِ، وَمُصَالَحَةُ النُّسَبَاءِ، وَأَقْبَحُ مِنْ صُبْحِ الشَّيْبِ، وَالغِيبَةِ بِظَهْرِ الغَيْبِ، مُشَاجَرَةُ أُولِي الأَرْحَام، وَتَنَافُرُ فُرُوعٍ تَأْوِي أُصُولُهَا إِلَى الْتِحَام، وَمَنْ يَكُفُّ الِاعْتِدَاءَ بِالِاعْتِدَاء، كَمَن يُدَاوِي الدَّاءَ بِالدَّاء، وَمَنْ يُسَكِّنُ الجَفَاءَ بِالجَفَاء، كَمَن يُطْفِئُ النَّارَ بِالحَلْفَاء. أَمَا إِنِّي لَوْ كُنْتُ بِحَيْثُ أَنْظُرُ إِلَى مَصْرَعِكَ

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾. سورة البقرة، الآية: 179.
(2) من الأمثال العربية المعروفة.
(3) من الأمثال العربية المعروفة.
(4) عجز بيت قاله أعرابي قتل أخوه ابنا له وتمامه:
أَقُـولُ لِلـنَّفْسِ تَأْسَـاءً وَتَعْزِيَـةً ... إِحْـدَى يَـدَيَّ أَصَـابَتْنِي وَإِنْ لَـمْ تُـرِد
(5) سورة النساء، الآية: 62.
(6) مثل عربي، انظر: مجمع الأمثال 1/ 457، المستقصى 2/ 132.
(7) البيتان من بحر البسيط، وهما للسميسر، الذخيرة 1/ 2-484.



المُبين، وَأَرَاكَ مَتْلُولاً لِلْجَبين[1] بَيْنَ زَعِيمَيْن مِنْ عَشِيرَتِكَ الأَقْرَبين، لأَقْذَعْتُ لَهُمَا فِي المَقَالِ وَهَجَرْتُ[2]، وَعَتَبْتُ وَزَجَرْتُ، وَثَقَّفْتُ وَسَجَرْتُ[3]، وَقُلْتُ: مَا ذَنْبُ أَخِيكَ الَّذِي حِفْتَ عَلَيْهِ أَيَّمَا حَيْف، لَكِنَّ التَّجَاوُزَ أَعْظَمُ لِأَجْرِك، وَالعَفْوُ عِنْدَ المَقْدِرَةِ أَلْيَقُ بِنَجْرِك. وَاللهُ تَعَالَى يُزِيحُ غَمَّاءَ رَوْعِك، وَيُصْلِحُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَبْنَاءِ نَوْعِك، وَهُو الكَفِيلُ بِأَنْ يُهَدِّنَ ذَاتَ بَيْنِكُم، وَيَجْعَلَ الائْتِلَافَ قُرَّةَ عَيْنِكُم، فَهُوَ الَّذِي يَجْمَعُ البَدَدَ تَجْمِيعـًا، وَيُؤَلِّفُ بَيْنَ قُلُوبٍ لاَ تُؤَلِّفُ بَيْنَهَا ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[4].

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ؛ وَإِنْ كَانَتِ الدُّعَابَةُ مِنْ شَرْطِ الجَلَال، مُوجِبَةً لِلإِدْلاَل؛ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّد البَلَوِي - عَفَا اللهُ عَنْهُ- وَمِنْ إِنْشَائِي فِي هَذَا البَابِ: مَا كَتَبْتُ بِهِ إِلَى بَعْضِ الأَحْبَابِ:

عَلِّلْهَا بِشَيْءٍ مِنَ المَزْجِ أَيُّهَا النَّوْرُ الأَجَم، فَقَدْ تَأَوَّلَهَا بَعْدَ فِرَاقِكَ الهَم، فَسَعَى بِرَبْعِ لِقَائِكَ البَدِيعِ الزَّهْو، وَلَقَدْ أَعْيَى عَلَى بُعْدِكَ طَرِيقُ السُّلْوَانِ وَاللَّهْو، أَلَمْ أَكُنْ وَادَعْتُكَ عَلَى أن تُدِيرَ دِهَاقًا[5] هَذَا الكَأْس، بَعْدَ أَنْ تَعْلَم أَنَّهُ إِذَا صَحَّ الوُدُّ فَلاَ حَرَجَ بِمِثْلِ هَذِهِ الحُلَى وَلاَ بَأْس، فَأَيْنَ مَا عَلَيْهِ بِنْتَ، أَجِبْنِي لاَ كُنْتَ:

---

(1) سورة الصافات، الآية: 103، وهو ينظر فيها إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ .ويقال تله تلا، فهو متلول: صرعه، وقيل ألقاه على عنقه. قال الشاعر:

وَتَلَّــــهُ لِلْجَبِـــينِ مُنْعَفِـــرًا ... مِنْــهُ مَنَــاطُ الــوَتِينِ مُنْقَــضِبُ

(2) هجرت: الهجر؛ الفحش من القول أو الهذيان.

(3) سجر الكلب أي وضع الساجور في عنقه.

(4) سورة الأنفال، الآية: 64.

(5) كأس دهاق: مترعة ممتلئة، وفي القرآن: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ .وقال خداش بن زهير:

أَتَانَــا عَــامِرٌ يَرْجُــو قِرَانَــا ... فَأَتْرَعْنَــا لَــهُ كَأْســًا دِهَاقَــا

اللسان: «دهق».



خـــذها علـــى .... الكُمَيْـــــتِ

مَيْـــتٌ غَـــدَا فِـــي الـــوَرَى كَحَـــيٍّ حَـــيٌّ غَـــدَا فِـــي الهَـــوَى كَمَيْـــتِ

قِنْدِيلُـــــهُ لاَ ... . شـــيئاً فَلْتُحْـــــيِ قِنْدِيلَـــــهُ بِزَيْـــتِ

قَـــدْ أَظْلَـــمَ النُّـــورُ فِـــي جُفُـــونِي مُـــذْ لَـــمْ يُنَـــرْ وَجْهُكُـــمْ بِبَيْـــتِ

إِنْ كُنْـــتُمْ تَـــدَّعُونَ شِـــعْراً زِيـــدُوا عَلَـــى الأَلْـــفِ فَـــرْدَ بَيْـــتِ[1]

لاَ يَا أَخِي أَلَا زِدْ عَلَى هَذِهِ القَوَافِي الخَمْس، وَإِلاَّ فَاسْمَعْ مَا اتَّفَقَ لِي مَعَ التُّيُوسِ أَمْسِ، خَرَجَت أَمْسِ فِي فِتْيَةٍ عَدَدَ البُرُوج[2]، نُرِيدُ التَّنَزُّهَ فِي بَعْضِ المُرُوج، فَاعْتَمَدْنَا وَهْدَةً نَشَرَ الرَّبِيعُ فِيهَا أَزْهَارَه، وَأَفْشَى أَسْرَارَه، وَطَفِقْنَا نَتَذَاكَرُ الآدَاب، وَنَتَجَاذَبُ مِنَ الغَزَلِ الأَهْدَاب، فَبَيْنَا نَحْنُ نُسَرِّحُ الطَّرْفَ فِي مَحَاسِنِ ذَلِكَ النَّبَات، إِذْ سَمِعْنَا دَوِيّاً فِي بَعْضِ الجَنَبَات، فَأَرْعَيْنَاهُ إِصْغَاءً، حَتَّى سَمِعْنَا ثُغَاءً، وَإِذَا شِيَاهٌ تَرِدُ، وَالتُّيُوسُ أَمَامَهَا تَفِدُ، فَالْتَفَتُّ مِنْهَا إِلَى تَيسٍ أَشْهَل، قَدْ صَمَّمَ نَحْوَنَا لِلْمَنْهَل، فَشَهَّدْتُ فِي نَفْسِي، ثُمَّ خِفْتُ أَنْ يَخِيبَ فِيهِ حَدْسِي، فَقُلْتُ مَرْحَباً بِكَ يَاأَبَا إِسْحَاق، كَمْ لِي أَتَمَنَّى القُرْبَ مِنْكَ وَاللِّحَاق، فَثَغَا ثُغَاءً أَوْجَسَ مِنْ صَوْتِ العَيْر، وَقَالَ: ذَكَرَ اللهُ مَنْ ذَكَرْتَ بِخَيْر، ثُمَّ إِنَّهُ وَقَف، وَأَنْشَدَ وَدَمْعُهُ قَدْ وَكَف:

إِيـــهِ عَـــنِ التَّـــيْسِ العَظِـــيمِ الأَكْبَـــرِ أَخْبِـــرْ فَـــدَيْتُكَ طالَمَـــا لَـــمْ أُخْبَـــرِ

تَـــيْسٌ أَمُـــوتُ مِـــنَ الـــضَّنَى مِـــنْ ذِكْـــرِهِ وَأَمُـــوتُ مِـــنْ شَـــوْقٍ إِذَا لَـــمْ يُـــذْكَرِ

ذُو لِحْيَـــةٍ مَـــا لِلتُّيُـــوسِ مِثَالَهَـــا أَحْـــسِنْ بِمَنْظَـــرِ وَجْهِـــهِ مِـــنْ مَنْظَـــرِ

فَارَقْتُـــهُ فَبَقِيـــتُ أَبْكِـــي بَعْـــدَهُ وَأَحِـــنُّ إِنْ ذُكِـــرَ اسْـــمُهُ فِـــي مَحْـــضَرِ[3]

---

(1) الأبيات (مخلع البسيط).

(2) عدد البروج اثنا عشر برجا، كل برج منها منزلتان، وثلث منزل للقمر، وثلاثون درجة للشمس إذا غاب منها ستة طلع ستة، ولكل برج اسم على حدة. اللسان: «برج».

(3) الأبيات من الكامل.



فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ أَلَسْتَ إِبْرَاهِيم، قَالَ: بَلْ أَنَا الَّذِي بِه أَهِيم، وَأَيْنَ مَنْ ذَكَرْتَ مِنِّي، وَقَدْ غَيَّبَهُ البَيْنُ عَنِّي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَعْرِفُ مَسْرَحَهُ وَمَراحَه، وَأَعْرِفُ غُدُوَّهُ وَرَوَاحَه، فَقَالَ لِي: فَبِعَيْشِكَ إِلَّا مَا بَلَّغْتَهُ سَلاَمِي، وَوَصَفْتَ لَهُ شَغَفِي بِهِ وَهُيَامِي، ثُمَّ إِنَّهُ نَظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنَيْهِ، وَكَرَّ عَلَى مَنْكِبَيَّ كَرَّةً بِقَرْنَيْهِ، وَانْصَرَفَ عَنِّي وَعَنِ الجُلُوسِ، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا مُصَافَحَةُ التُّيُوسِ؛ ثُمَّ رَجَعْتُ مَعَ أَصْحَابِي إِلَى المُذَاكَرَةِ فِي الهَوَى، وَقُلْنَا: - سُبْحَانَ اللهِ - حَتَّى البَهَائِمُ تَشْكُو البَيْنَ أَيْضاً وَالنَّوَى. وَحَظَّنِي القَوْمُ عَلَى مُخَاطَبَةِ أَبِي إِسْحَاق[1] بِهَذَا النَّبَإِ الغَرِيبِ، فَخَاطَبْتُهُ بِهِ عَسَى أَنْ يَتَدَارَكَ ذَلِكَ التَّيْسَ بِوَصْلٍ مِنْهُ عَنْ قَرِيبٍ، وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ إِنْ لَم يَلْقَ خِطَابِي بِالتَّثْرِيبِ.



(1) أبو إسحاق إبراهيم: هو والي إشبيلية الذي كان البلوي كاتبا له، ومن أقرب الناس إليه.

الباب الموفي عشرين
في العيون من سائر الفنون



رِجَالُهُ:

عَبْدُ الحَمِيدِ بْن يَحْيَى -سَالِم مَوْلَى سَعِيد بْن عَبْدِ المَلِكِ بْن مَرْوَان- مَعَن ابْن زَائِدَة- الحَسَن بْن وَهْب -أَبُو حَفْص بْن بُرْد- أَبُو الوَلِيد إِسْمَاعِيل ابْنِ مُحَمَّد المُلَقَّب بِحَبِيب -أَبُو مُحَمَّد بْن الحَاج- أَبُو مُحَمَّد بْن عَبْد الغَفُور-أَبُو جَعْفَر بْن صَاحِبِ الصَّلَاة الأَوْبِي- أَبُو عَمْرو عُثْمَان بْن عَلِيّ ابن عُثْمَانَ بْن الإِمَام الإِسْتِجي -أَبُو الفَضْلِ بْن عَبْد العَزِيز الحَسَنِي القُرَشِيّ العَامِرِي -ابْن مُبَشِّر- أَبُو بَكْر بْن مُغَاوِرَ الشَّاطِبِيّ -أَبُو بَحْر صَفْوَانَ بْن إِدْرِيس- أَحْمَد بْن مُحَمَّد البَلَوِيّ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ عَبْدِ الحَمِيدِ عَنْ مَرْوَانَ إِلَى نَصْر بْنِ سَيَّار فِي مِصْرِ [خُرَاسَان]:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَمْ يَبْتَعِثْ أَهْلَ فِتْنَةٍ قَطُّ هُمْ أَحَبُّ إِلَيْه أَن يَسْتَنْهِضَ إِلَيْهَا مِنْ أَهْلِ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ: إِفْرِيقِية وَالأَنْدَلُس وَمَا دَانَاهَا من الشَّام وَأَرْضِه، فَلَهُ فِي كُلِّ حِينٍ نَعْرَةٌ بِأَهلِ جَمَاعَةٍ يَسْتَخِفُّهُمْ بالأَمَانِي ويَسْتَدْعِيهِمْ إِلَى الضَّلَالَة، يَسْتَوْعِبُ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ. وَقَدْ كَانَ من نُجوم هَذِهِ النَّابِتَةِ فِي أَرْضِ خُرَاسَانَ مَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُهِينَ بِهِ أَهلَ الكُفْرِ لِنِعْمَتِهِ وَالجُحُودِ لِحَقِّه، فقَامَ بِذَلِكَ شِرِّيرٌ اسْتَجَابَ لَهُ أَشْرَارٌ عندما رَآى من تَشَاغُلِ العَرَبِ بَيْنَهَا، افْترصَ اشْتِغَالَهُمْ بِعَدَاوةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، قَدْ أَغفَلُوا بِذُحُولِ الضَّغَائِنِ بَرْدَ مُعَالَجَةِ المَعْنِيِّ مِنَ الأُمُورِ لَهُمْ، حَتَّى إِذَا غَلُظَ أَمرُهُ، واسْتَحْفَلَ شَأْنُهُ، وَاسْتَجْمَعَتْ لَهُ مَكَايِدُه وَقَوِيتْ مَنَاشِطُه[1]، وَتَمَدَّدتْ في القَبِيحِ أَطْرَافُه، بَهَتَ الكِتَابَ بِالفِرْيَةِ عَلَيه، وَالرَّسولَ بِالدُّعَاءِ إِلَى وَلَدِه، لِيجترَّ به أَهْلَ السُّخْفِ مِنَ الأَشْرَارِ، مُظَلِّمـًا لِصَالِحِي السَّلَفِ، مُبَايِنًا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى رَأْيِهِ المُبْتَدَعِ، يُعْتِقُ الأَرِقَّاءَ، وَيَدْعُو الأَشْرَارَ، وَيُكْرِمُ أَهْلَ الخُمُولِ، وَيُحَرِّفُ وِلَايَةَ الدِّينِ جَارِحـًا لَه، وَيَنْتَحِلُ وِلَايَةَ الصَّالِحِينَ مُفَارِقًا لَهُمْ، يَتَقَدَّمُ فِي الأُمُورِ بِتَرَفُّقٍ، وَيُغَطِّي مَا يُرِيدُ إِظْهَارَهُ إِلَى الأَوَانِ الذِي تُمَكِّنُهُ فِيهِ القُدْرَةُ عَلَيْهِ مِنْ طُمُوسِ مَعَالِمِ الدِّينِ، فَهُوَ وَمَنْ مَعَهُ يَنْعَى إِلَيْكُمُ الإِسْلَامَ وَشَرَائِعَهُ بِتَجْرِيدِهِم السَّيْف، وَإِظْهَارِهِم الحَيْف، وَإِدْخَالِهِمْ عَلَى النَّاسِ

(1) المناشط، جمع منشط وهو ما ينشط له الإنسان من أمر؛ (وفي الأصل: مباشظه).



الخَوْف، مَنْ أَقَرَّ لَهُمْ اسْتَذَلُّوهُ، وَمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ قَتَلُوهُ، فَالبَاقُونَ مِنَ الأَشْرَارِ وَالسِّفْلَةِ مِمَّنْ لا يَخرجُ مَعَهُم تَغْلِي صُدُورُهُمْ حَنَقاً عَلَى مَا يَلِيهِمْ بِتَقَلُّبِ عَلَيْهِمْ وَاسْتِمَالٍ إِلَيْهِم، فَإِنْ كَانَ ظُهُورُهُم اسْتِدْرَاجاً[1] من اللهِ لَهُمْ حَتَّى يَسْتَوْقِرُوا مِنَ الآثَامِ؛ فَإِنَّ ذُنُوبَهُمْ سَتُسْلِمُهُمْ إِلَى مَصَارِعِ الخِزْيِ، وَإِنْ كَانَ اللهُ ابْتَعَثَهُمْ لِتَمَامِ البَلِيَّةِ وَقَتْلِ الحُرِّيَّةِ وَضَيَاعِ الذُّرِيةِ، فَسَتَهْوِي عَلَيْهِمْ مُشَدَّدَاتُ البَلَايَا بِتَتَابُعِ المَنَايَا، وَآخِرُ أَمْرِهِمْ أَعْجَبُ مِنْ أَوَّلِهِ. فَلَا تَتْرُكُوا العَمَلَ بِالحَزْمِ لاسْتِعْلَائِهِمْ عَلَيْكُمْ، وَلِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ وَقِلَّتِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لَمَّا بَدَأْتُمُوهُمْ بِالتَّفْرِيطِ ثَرَوْا وَنَمَوْا، وَضَعِيفُ أَمْرِكُمْ أَقْوَى مِنْ عِزَّةِ جَمَاعَتِهِمْ، لِأَنَّ يَدَ اللهِ عَلَى حَقٍّ، وَالحَقُّ بِكُمْ أَوْلَى، وَأَنْتُمْ إِلَيْهِ أَقْرَبُ، وَاللهُ عَلَيْهِمْ أَغْضَبُ، فَصُولُوا عَلَيْهِمْ بِشِدَّةِ غَضَبِ اللهِ، وَمُحَاوَلَةً لِتَعْظِيمِ مَا صَغَّرُوا، فَإِنَّهُمْ لَوْلَا اجْتِرَارُهُم النَّاسَ وَتَسْكِينُهُمْ إِلَيْه، وَطَمَعُهُمْ فِيهِ؛ لأَظْهَرُوا مِنْ صُنُوفِ الكُفْرِ وَعَظِيمِ الفِرَاءِ، وَسُوءِ الأَثَرَةِ وَتَنَاوُلِ الفَوَاحِشِ مَا يَتَمَنَّى الأَحْيَاءُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَمْوَاتاً، فَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ[2] مُسْتَوْجِبِينَ لَهُ بِصِحَّةِ نِيَّاتِكُمْ، وَتَذَكَّرُوا مَا هُمْ بِهِ حَدِيثُوعَهْدٍ: مِنْ عِبَادَةِ النِّيرَانِ وَالأَوْثَانِ، فَإِنَّ ذِكْرَ الله مِمَّا يَقْوَى بِهِ عَزْمُكُمْ، وَتَصِحُّ بِهِ نِيَّاتُكُمْ، وَتُحَرِّكُ بِهِ ضَغَائِنُكُمْ عَلَيْهِمْ، وَتُشَدَّدُ بِهِ بَصَائِرَكُمْ فِيهِمْ، وَمَا الهُدَى وَالدِّينُ الَّذِي أَتَاكُمْ بِهِ نَبِيُّكُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا ذُلُّهُمْ وَقُهُورُهُمْ وَرَدُّهُمْ إِلَى مَوَاضِعِهِمُ الَّتِي مِنْهَا طَلَعُوا، وَبِهَا كَانُوا أَقَامُوا، فَقَدِ ادَّعَوْا الإِسْلَامَ جَاهِلِينَ بِهِ، وَسَأَلُوكُمْ بِحَقِّهِ تَارِكِينَ لَهُ، وَقَاتَلُوكُمْ عَلَيْهِ مُقَصِّرِينَ عَنْهُ، فَأَنْتُمْ بِمَعْرِفَتِكُمْ بِهِ أَوْلَى بِالذَّبِّ عَنْهُ، وَالغَضَبِ لَهُ، أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ المُصَدِّقُونَ بِتَنْزِيلِهِ وَالمُضَارِبُونَ عَلَى تَأْوِيلِهِ، وَهُمُ الجَاحِدُونَ لِجُمْلَتِهِ وَالمُحَرِّفُونَ لِمَا أَقَرُّوا بِهِ فَأَيْنَ يُذْهَبُ بِكُمْ؟ أَلَكُمْ مَطْمَعٌ فِي عِوَضٍ مِنَ الإِسْلَامِ يَأْمُلُهُ آمِلٌ، وَمِنَ القُرْآنِ كِتَابٌ، وَمِنْ مُحَمَّدٍ رَسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنَ المَاضِينَ مِنْ أَسْلَافِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ وَوُلَاتِكُمْ وَمَنْ تَتَوَلَّوْنَهُمْ وَتَأْتَمُّونَ بِهِمْ وَتَهْتَدُونَ بِهِدَايَتِهِمْ؟ وَاللهِ لَلْمَوْتُ فَاقِدِينَ لَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الحَيَاةِ مَعَهُم، مُسْتَقِرَّةً بِكُمُ الدَّارُ، مُطَوَّلَةً لَكُمُ الأَعْمَارُ، تَرَوْنَ ثَرْوَةَ غِنَاكُمْ فِي

---

(1) في الأصل: استدراج.

(2) لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾. سورة البقرة، الآية: 44.



أَيْدِيهِمْ، وَعِزَّةَ سُلْطَانِكُمْ يَلُونَهُ دُونكُمْ، فَقَدْ تَقَطَّعَتْ عَنْكُمْ درات الغِنَى وَخَفْضُ لِينِ المعَاشِ، إن أَقْرَرْتُمْ لَهُمْ أَقَمْتُمْ فِي ذِلَّةِ الدَّارِ، قَدْ أَوْطَئْتُم الخَسْف وَمَنَعْتُمْ النَّصَفَ، وَاسْتَأْسَرْتُمْ لِلْبلَى، فَلاَ تُحَمِّلُوا أَبْدَانكُمْ ذُلَّ سُلْطَانِهِمْ عَلَيْكُمْ، وَاخْتَارُوا فِرَاقَهُمْ مَعَهُ المَوْتُ عَلَى البَقَاءِ مَعَهُمْ، فَإِن الله لاَ يُسَلِّطُهُمْ عَلَى قَوْم لَهُ فِيهِمْ حَاجَةٌ، فَاسْتَقْبلُوا التَّوْبَةِ إِلَى الله قَبْلَ مُنَازَلَتِهِمْ لِلْقِتَالِ، وَلَا تلقوهم إِلَّا وَأَرْوَاحكُمْ طَاهِرَةٌ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى الذُّنُوب، فَإِن الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[1] مِنْ عِبَادِهِ، وَيُهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ. فَإِذَا صَحَّتْ لَكُمْ تَوْبَتُكُمْ فَتَنَظَّرُوا الفَلْجَ العَزِيزَ وَالغَلَبَةَ القَاهِرَةَ والسُّلطانَ المُؤَيَّدَ وَالخُطَى المُطَوَّلَةَ، ثُمَّ انْسُبُوا مَا أَنْعَمَ الله بِهِ عَلَيْكُمْ إِلَى الله المُتَوَلِّي مِنْكُمْ مَا لاَ عِلْم لَكُمْ بِهِ، وَالرَّادُّ عَلَيْكُمْ المُتَأَخِّرُ عَنْكُمْ، وَكَثْرَةُ القَوْلِ لَهُ بِتَرْكِ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ، وَالمَسْأَلَةِ لِلإِلْهَام لِشُكْرِهِ عَلَى النَّازِلِ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ المَحْمُودِ مِنْ آلاَئِهِ وَحُسْنَ بَلاَئِه، بِلَا اسْتِحْقَاقٍ مِنْكُمْ لَهُ إِلَّا تَطَوُّلُ بِهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ وَعَزَّ جَارُه - وَإِيَّاهُ يَسْتَوْدِعُكُم أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، وَيَسْأَلُ الله الَّذِي بِقُدْرَتِهِ - حَتَّمَ إِنْشَاءُ خَلْقِهِ - وَعِزَّةِ سُلْطَانِهِ، وَبِعَدْلِهِ جَعَلَ العَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ، أَنْ يُحْسِنَ لَكُمْ وَإِلَيكُمْ، ولا يُرِي أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِلَّا العِزَّ وَالعَفْوَ عَنْكُمْ، وَأَنْ يَرْحَمَ مِنكُمْ مَا حَمِدَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، مَعَ رَحْمَتِهِ لَكُمْ، عَافِيَةَ الأَبْدَانِ وَسَلاَمَةَ الأَدْيَانِ وَطَاعَةَ الرَّحْمَنِ ولا قُوَّة إِلَّا بِاللهِ، وَكَتَبَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةِ.

وَلَهُ إِلَى أَخٍ فِي مَوْلُود، وَهُوَ أَوَّل مَوْلُودٍ كَانَ لَهُ[2]:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي مَا أَتَعَرَّفُ مِنْ مَوَاهِبِ الله نِعْمَةً خُصِّصْتُ بِمَزِيَّتِهَا وَأُصْفِيتُ بِخِصِّيصَاهَا[3] كَانَتْ أَسْرَى[4] مِنْ هِبَةَ الله لِي وَلَدَا سَمَّيْته فُلاَنًا، وَأَمَّلْت بِبَقَائِهِ بَعْدِي حَيَاة ذِكْرِي، وَحَسَّنَ خِلاَفَتِي فِي حُرَمِي وَإِشْرَاكُهُ إِيَّايَ فِي دُعَائِهِ، شَافِعًا لِي إِلَى رَبِّهِ

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾. سورة البقرة، الآية: 220.

(2) الرسالة في اختيار المنظوم والمنثور 13/ 550، رسائل البلغاء، ص: 216، جمهرة رسائل العرب 2/ 549، أمراء البيان، 2/ 1-53.

(3) وأضيفت بخصيصتها.

(4) أسر لي.



عِنْدَ خَلَوَاتِهِ فِي صَلَوَاتِهِ وَحَجِّهِ وَكُلِّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ طَاعَتِه، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى شَخْصِه تَحَرَّكَ لِي[1] وَجْدِي، وَظَهَرَ بِهِ سُرُورِي، وَتَعَطَّفَتْ عَلَيْهِ مِنِّي[2] أُنْسَةُ الوَلَدِ وَتَوَلَّتْ عَنِّي بِهِ وَحْشَةُ الوَحَدِ[3]، فَأَنَا بِهِ جَذِلٌ فِي مَغِيبِي وَمَشْهَدِي، أُحَاوِلُ مَسَّ جَسَدِهِ[4] بِيَدِي فِي الظُّلَمِ، وَتَارَةً أُعَانِقُهُ وَأَرْشُفُه، لَيْسَ يَعْدِلُهُ عِنْدِي عَظِيمَاتُ الفَوَائِدِ وَلَا مُنْفِسَاتُ الرَّغَائِبِ، سَرَّنِي بِهِ وَاهِبُهُ لِي عَلَى حَاجَتِي، فَشَدَّ بِهِ أَزْرِي وَحَمَّلَنِي مَنْ شُكْرِهِ فِيهِ مَا قَدْ آدنِي بِثِقْلِ[5] حَمْلِ النِّعَمِ المُسَاقَةِ[6] إِلَيَّ بِهِ، المَقْرُونَةَ سَرَّاؤُهَا فِي العَجَبِ بِتَارَاتِ مَا يُدْرِكُنِي طَيُّهُ فِي رِقَّةِ الشَّفَقَةِ مَخَافَةَ مُجَاذَبَةِ[7] المنَايَا إِيَّاهُ، ووجلا مِنْ عَوَاطِفِ[8] الأَيَّامِ عَلَيْه، فِيمَا يَعتلج لِي وَعَلَيَّ بِالمَسْرُورِ وَالمَحْذُور، فَإِن يَدْفَعِ الله عَنْ حَوْبَائِهِ بِالْتِبَاسِي العَافِيَةَ فِيهِ، وَيَصْرِفْ جَوَالِبَ الأَقْدَارِ ومكاره السُّوءِ عَنْهُ فَنِعْمَةٌ رَادِفَةٌ تُشَاكِلُ البَادِيَةَ المَوْصُولَةَ بالتَّالِيَة، أَضَافَهَا المُمْتَنّ بِالمواهِبِ إِلَى مَا ابْتَدَأَ مِنْ مِنَنِهِ وَأُعْطَى مَنْ فَضْلِهِ، وَذَلِكَ أَمَلُنَا مِنْهُ فِي بُلُوغِ مَتَاوِقِ الأَنْفُسِ مِنْ طَوْلِ المُدَّةِ، مَقْرُونٌ تَوَالِيهَا بِمَوَاضِي خَوَالِيهَا[9].

أَسْأَلُ الله الَّذِي امْتَنَّ عَلَيْنَا بِحُسْنِ صَنْعَتِهِ فِي الأَرْحَامِ وَتَأْدِيَتِهِ بِالزَّكَاء، وَحَرَسَهُ بِالعَافِيَةِ أن[10] يَرْزُقَنَا شُكْرَ مَا حَمَّلْنَا فِيهِ وَفِي غَيْرِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ مَا وَهَبَ[11] لَنَا مِنْ

(1) به.
(2) الأصل: من.
(3) الأصل: الوحدة.
(4) الأصل: جسدي.
(5) يثقل.
(6) السالفة.
(7) مجاذبة.
(8) عواصف.
(9) فيما يعتلج ....خواليها: لم يرد في المنظوم والمنثور.
(10) في المنظوم والمنثور: تأديه... وأن.
(11) في المنظوم والمنثور: يهب.



سَلَامَتِهِ وَالمُدَّةِ فِي عُمْرِهِ، مَوْصُولًا بِالزِّيَادَةِ، مَقْرُونـاً بِالعَافِيَةِ، مَحُوطًا من المَكْرُوهِ، فَإِنَّهُ المَنَّانُ بِالمَوَاهِبِ، وَالوَاهِبُ لِلْمُنَى لاَ شَرِيكَ لَهُ.

حَمَلَنِي عَلَى الكِتَابِ إِلَيْكَ بِعِلْمِ(1) مَا سُرِرْتَ بِهِ عِلْمِي بِحَالِكَ فِيهِ، وَبِشِرْكَتِكَ(2) إِيَّايَ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ أَسْدَاهَا إِلَيَّ وَالِي(3) النِّعَمِ، وَأَهْلُ الشُّكْرِ أَوْلَى بِالمَزِيدِ مِنَ اللهِ، وَالسَّلَام.

وَكَتَبَ إِلَى أَخٍ لَهُ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِن مَنْ صَغُرَتْ رَغْبَتُهُ، وَقَصُرَتْ حَاجَتُه، أَرَاحَ بَدَنَهُ وَلَازَمَ أَحْبَابَهُ وَصَانَ وَجْهَه، وَسلِمَ لَهُ دِينُه، وَأَكْرَمَ عَنِ الدَّنَايَا نَفْسَهُ. وَقَدَ أَصْبَحْتَ عِنْدِي ذا غِبْطَةٍ بِاقْتِصَارِكَ عَلَى القَلِيلِ، وَرِضَاك بِهِ، وَإِقَامَتِك عَلَيْهِ، بِقَطْعِك حِبَالَ الأَمَلِ، وَرَدِّك نَفْسَك عَنْ جِمَاحِهَا إِذَا نَازَعَتْكَ مُتَطَلِّعَةً إِلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، حَتَّى اعْتَلَقْتَ خَفْضَ الدَّعَةِ وَالوَدَاعَة، وَتَمَدَّدْتَ فِي فُسَحِ سَاحَاتِ مَنَازِلِ الرَّاحَةِ، وَاسْتَقْرَعْتَ أَبْوَابَ السَّلَامَةِ، وَتَمَهَّدْتَ وَثَارَةَ الأَمْنِ، وَتَوَسَّطْتَ رِبَاعَ العِزِّ، وَاسْتَخْفَضْتَ بِذَلِكَ مَعَاشَك فَصَارَ قَلِيلُ مَا أَنْتَ فِيهِ كَثِيراً، لِمُسَاعَدَةِ السَّلَامَةِ إِيَّاكَ، لاَ تَدْخُلُكَ [مَشَقَّةُ] البُعْدِ ولا ذِلَّةُ السَّفَرِ، ولا كَآبَةُ الغُرْبَةِ ولا اغْتِرَابُ الدَّارِ، ولا سُوءُ تَجَهُّمِ الآذَانِ، ولا ضَجَرُ الطَّلَبِ، ولا تَعَبُ شَرَهِ النَّفْسِ، إِنْ صَحَّ بَدَنُك، طَابَ لَك رَغَدُ عَيْشِكَ بِمُعَاوَنَةِ الزَّوْجِ السَّارِّ لَك قُرْبُهَا وَالوَلَدِ المَضْمُومِ إِلَيْك شَخْصُهُ، وَالمُقَامُ مِنْك فِي مَنْشَئِكَ وَمَنْبِتِكَ، وَإِنْ عَرَضَ لَك عَارِضٌ مِنْ سَقَمٍ، تَكَنَّفَكَ الكُفَاةُ، وَأَحْدَقَ بِك الحَفَدَةُ، وسَاعَدَكَ اللُّطْفِ مِنْ أَهْلِ التَّعَطُّفِ عَلَيْك بِالرِّقَّةِ المُتَحَرِّكَةِ يُعَوِّدُونَكَ وَيَنْتَابُونَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَار، إِذ الضَّيْعَةُ لِمَنْ اغْتَرَبَ وَالغُرْبَةُ لِمَنْ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الهُمُومُ، وَتَشَعَّبَتْهُ الرَّغْبَةُ، فَفَارَقَ الأَحِبَّةَ وَاسْتَخْلَفَ مِنْهُمْ الغُرْبَةَ، وَكَادَحَ الأَسْفَارَ وَأَتْعَبَ البَدَنَ، وَأَقْلَقَ الشَّخْصَ وَنَابَذَ الدَّعَةَ، وَاعْتَاضَ النَّصَبَ، وَإِنَّكَ بِحَيْثُ انْعَطَفَ عَلَيْك أُنْسُهُ القَرِيبُ

---

(1) في نفس المصدر: لعلم.

(2) في نفس المصدر: وشركتك.

(3) في نفس المصدر: ولي.



وَرَاحَةُ السُّكُونِ إِلَى الطُّمَأْنِينَةِ فِي دَارِ الخَفْضِ وَمَنْزِلِ القَرَارِ وَنَحْنُ فِي تَعَبِ الدُّنْيَا: تُوجِبُ بِنَا مَطَايَا الشَّقَاءِ، نُبَاكِرُ دَلَجَهَا بِغَمِّ النَّصْبِ وَمَبْهَظِ التَّعَبِ، وَاحْتِمَالِ الجَفْوَةَ، وَذُلِّ التَّجَهُّمِ، فَالأَبْدَانُ خَاشِعَةٌ لِطُولِ الدَّأَبِ، تَتَوَقَّلُ فِي وَعُورِ المَسَالِكِ، وَتَتَدَرَّعُ هَوْلَ تِلْكَ المَخَاوِفِ، حَتَّى تُخَيِّمَ بِنَا الأَسْفَار عَلَى حُلُولِ كُلّ دَارٍ بكرْبَةِ الغُرْبَةِ، وَخُشُونَةِ الجَفْوَة، وَجِوَارِ المُتَنَكِّرِينَ، وَوَحْشَةِ مَنْ تَصِيرُ إِلَيْهِ، مَعَ تَجَبُّرِ مَنْ نُعَامَل بِاسْتِطَالَتِهِ عَلَيْنَا، فَإِنْ نِلْنَا مِنْهُمْ حَظًّا، وَأَصَبْنَا مِنْ دُنْيَاهُمْ حُطَامًا نَكْرَهُ طُولَ السَّفَرِ المُمِلِّ لَنَا مِنْ عَقْدِ الرِّحَالِ وَحَلِّهَا، إِلَى أَوَانِ الأَوْبَةَ إِلَى الأَهْلِ، ثُمَّ لَعَلَّ ذَلِكَ القَلِيلِ أَنْ تَسْتَنْفِدَهُ نَوَائِبُ الدُّهُورِ، وَيَبْتَلِعَهُ قَضَاء الحُقُوقِ، بِالتَّقْدِيمِ قَبْلَ التَّدْبِيرِ، ثُمَّ تَسْتَأْنِفَهُ مَفَاوِزُ الطَّلَبِ بِتَحْرِيكِ المضْطَرَبِ، فَإِذَا الأَسْفَارُ قَدْ تَجَدَّدَتْ بِتَكَالِيفِ المَؤُونَات، مُوجِفِينَ إِلَى نَائِي المَحَلِّ فِي دَارِ الذِّلَّةِ، قَدْ اسْتَعْجَمَتْ عَلَيْنَا أَخْبَارُ الأَحْبَابِ، وَفَقَدْنَا الأَقَارِبَ وَالأَصْحَابَ، فَالغُمُومُ مُشْتَبِكَةٌ وَالنُّفُوس بِأُمُورٍ شَتَّى مَعْنِيَة، وَأَنْت مُقِيمٌ بِدَارِ أَمْنِك، قَدْ أَظَلَّكَ السُّرُورُ، وحَالَفَكَ الأَمَلُ، وَطَابَ لَكَ المُقَامُ وَأَمِنْتَ تَرْقِيعَ الرَّحْلِ، مُتَصَبِّحًا بِأَحْبَابِكَ، يَتَعَطَّفُ عَلَيْك الرَّخَاءُ، تُحَاوِلُ قَلِيلَ مَا أَنْتَ فِيهِ وَكَثِيرَهُ بِقِصَرِ خُطْوَة، إِنْ مَشَيْتَ رِقَّةُ وَجْهِك نَاضِرٌ لَوْنُهَا وَأَوْصَالُكَ مُسْتَرِيحَةٌ أَطْرَافُهَا، أَفْرَخَ رَوْعُك وَأَمِنَ سِرْبُك، وَامْتَلأَتْ مِمَّنْ تُحِبُّ عَيْنُك، وَسَاعَدَكَ قُرْبُ أَتْرَابِك الَّذِينَ مَتَاوِقُ نَفْسك إِلَيْهِمْ، فَهَنَّاكَ الله النِّعْمَةَ ووَهَبَهَا لَك، وَزَادَكَ إِلَيْهَا مَنْ تَوَلَّاهَا مِنْك، سَائِقًا لَهَا إِلَيْك، فَاقْتَصِرْ عَلَى مَا قَرُبَتْ مِنْك جِدَّتُهُ فَلَعَلَّ طُولَ تِرْحَالِنَا وَتَنَقُّلِنَا فِي البِلَادِ أن يَجُرَّ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الحَظِّ لَك، فَتَجْتَمِعُ لَكُمْ نَاوِي نَفْسَك. ولا تَنْسَ الدُّعَاءَ لَنَا وَلَكَ فِي تَارَاتِ اللَّيْلِ والنَّهار، فَإِن العَوَارِيَ مِنَ المُنْعِمِ مُبْلِغَةٌ دُوَلَهَا بَيْنَ الطَّالِبِينَ لَهَا والخالدين عَنْهَا، فَقَدْ اسْتَطْلَقَتَ عِقَالَ الرَّاحَةِ وَجَلَسَ بِكَ التَّوَكُّل عَنْ نَصَبِ بَدَنِك، وَأَنَّكَ عِنْدَنَا مَغْبُوطٌ، إِذ نَحْنُ عَلَى أَنْفُسِنَا أَهْلُ إِزْرَاءٍ فِي طُولِ التَّطْوَافِ فِي مَهَاوِي الفَيَافِي وذُرَى قُلَلِ الجِبَالِ، بَارَكَ الله فِيمَا أَصَارَكَ إِلَيْهِ وَلَنَا فِيمَا اخْتَارَ لَنَا مِمَّا سَبَقَ فِيهِ حَتْمُهُ، وَمَضَى فِيهِ عِلْمُهُ. وَحَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَالسَّلَام.



وَكَتَبَ أَيْضاً فِي المَوْسِمِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِن الله بِحَمْدِهِ وَنِعْمَتِهِ، لَمْ يَزَلْ يَهْدِي أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فِيمَا تَوَجَّهَ لَهُ مِنْ حَجِّ بَيْتِهِ، وَحُضُورِ مَشَاهِدِهِ وَمَشَاعِرِهِ[1]، وَقَضَاءِ مَنَاسِكِهِ وَوَظَائِفِه، وما رَجا فِي ذَلِكَ مِنَ القُرْبَةِ بِهِ إِلَى الله، وَابْتِغَاءِ الوَسِيلَةِ إِلَيْهِ، وَفَضِيلَةِ الزُّلْفَى عِنْدَهُ، كُلُّ مَا كَانَ يَرْغَبُ فِيهِ إِلَى الله، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى الله فِي تَبْلِيغِهِ إِيَّاهُ وَإِتْمَامِهِ لَهُ: مِنْ حُسْنِ التَّيْسِيرِ وَالصُّحْبَةِ، وَكَفِّ المَكْرُوهِ، وَدَفْعِ المَحْذُورِ، إِلَى أَنْ قَدِمَ حَرَمَ الله وَأَمْنَهُ، فَأَلْفَى هُنَالِكَ مِنْ حَجِيجِ الآفَاقِ وَالأَمْصَارَ جَمَاعَاتٍ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا فِي الكَثْرَةِ وَالعَدَدِ، ثُمَّ فِي الاجْتِهَادِ والاحْتِشَادِ لَمَّا شَخَصُوا لَهُ مَنْ كُلِّ فَجٍّ، مِنْ بَيْنِ مُؤَدٍّ مَا افْتَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ حَجَّةِ الإِسْلاَمِ، أَوْ مُتَقَرِّبٍ إِلَى الله بِمَا يَرْجُو مِنْ نَافِلَةِ الأَجْرِ وَفَضِيلَةِ الذُّخْرِ، وَرَاغِبٍ إِلَى الله فِيمَا جَعَلَ فِي ذَلِكَ مِنْ تَضْعِيفِ الحَسَنَاتِ وَحَطِّ السَّيِّئَاتِ، فَسَرَّ اللهُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا عَايَنَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَكْثَرَ حَمْدَ الله عَلَيْهِ وَعَلَى مَا أَلْهَمَ رَعِيَّتَهُ مِنْ إِشْخَاصِ أَبْدَانِهِمْ وَإِنْفَاقِ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ الله وَحَجِّ بَيْتِهِ وَاتِّبَاعِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا نَهَجَ لَهُمْ.

ثُمَّ خَرَجَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى عَرَفَاتٍ فَلَمْ يَأْلُ نَفْسَهُ وإِيَّاكم اجْتِهَادًا وَخَيْراً فِي التَّضَرُّعِ إِلَى الله وَالابْتِهَالِ إِلَيْهِ، وَالتَّعْظِيمِ لمَّا عَظَّمَ مَنْ ذَلِكَ المَوْقِفِ، وَجَعَلَ مِنَ الخَيْرِ وَالبَرَكَةِ وَالفَضْلِ فِيهِ وَقَسَمَ مِنَ المَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ لِأَهْلِهِ، ثُمَّ أَفَاضَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ مِنْ عَرَفَاتٍ وَالمَشْعَرِ الحَرَامِ إِلَى مِنًى عَلَى أَحْسَنِ مَا تَكُونُ عَلَيْهِ الإِفَاضَةُ، مِنْ حُسْنِ الدَّعَةِ وَالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ وَالأَخْذِ بِمَا يُعْرَفُ مِنَ الهَدْيِ وَكُلِّ مَا يُتَقَرَّبُ إِلَى الله بِهِ فِي ذَلِكَ، فَأَرَى اللهُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ وَمَنْ شَهِدَ المَوْسِمَ مَعَهُ مِنَ السَّلاَمَةِ وَالعَافِيَةِ بَعْدَ الرَّغْبَةِ وَالاجْتِهَادِ وَالمُبَالَغَةِ فِيمَا يَحِقُّ لِلَّهِ عَلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَفْضَلَ الَّذِي كَانَ يَأْمُلُ، وَأَحْسَنَ الَّذِي كَانَ يَرْجُو.

---

(1) المشاعر: جمع مشعر وهي مناسك الحج.



وَلَم يَسْمَعْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ رَزَقَهُ الله حُضُورَهُ بِحَجٍّ قطُّ كَانَ أَسْلَمَ رَاكِبًا وَرَاجِلاً، وَأَحْشَدَ وَأَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُ، وَالله مَحْمُودٌ مَشْكُورٌ. فكَتَبَ إِلَيْك أَمِيرُ الْمُؤْمِنِين كِتَابه هَذَا حِينَ فَرَغَ مِنْ حَجِّهِ وَقَضَى مَنَاسِكَهُ عَلَى الحَالِ الَّتِي وَصَفَ لَك أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَعْلَمَك مِنْ حُسْنِ بَلَاءِ الله عِنْدَهُ، وما أَرَاهُ وَمَنْ حَضَرَ المَوْسِمَ مِنَ المُسْلِمِينَ، وما رَجَوْا مِنْ اسْتِجَابَةِ الله لَهُ مَعَ مَا عَرَفَهُ مِنَ العَافِيَةِ وَالسَّلَامَة، فِي نَفْسِه، وَالخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ مِنْ رَعِيَّتِهِ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ الله الَّذِي امْتَنَّ عَلَيْهِ بِمَا رَزَقَهُ مِنْ حَجِّ بَيْتِهِ، وَأَلْهَمَهُ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي ذَلِكَ، أن يَجْعَلَهُ حَجًّا مَبْرُورًا وَعَمَلاً مَقْبُولًا، وَسَعْيًا مَشْكُوراً، وَأَنْ يَسْتَجِيبَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دُعَاءَهُ فِي خَاصَّتِهِ وعَامَّتِه، وَيُوَفِّقَهُ لِلْخَيْرِ كُلِّه، وَيَكْفِيه المُهِمَّ مِنْ أَمْرِهِ، وَيُرْجِعَهُ بِخَيْرِ مَا رَجَعَ بِهِ وَافِدٌ إِلَيْهِ، مِنَ المَغْفِرَة وَالرَّحْمَةِ وَالعَفْوِ وَالمُعَافَاةِ وَالعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالسَّلَام.

وَلَهُ فِي دُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابك فِيمَا ذَكَرْت مِنْ دُخُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَحَسَنَ بَلَاءَ الله عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَبْلِيغَهُ إِيَّاهُ وَإِدْخَالَهُ عَلَيْهِ بِمَا أَدْخَلَهُ بِهِ مِنَ السَّلَامَةِ، وَالعَافِيَة، وَفَهِمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّ الَّذِي دَعَوْتَ لَهُ بِهِ فِي ذَلِكَ. وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ الله الَّذِي بَلَّغَهُ هَذَا الشَّهْرَ المُبَارَكَ وَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِ بِالعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ، أَنْ يُعِينَهُ عَلَى صِيَامِهِ، وَيَرْزُقَهُ مِنْ تَقَبُّلِ عَمَلِهِ، وَاسْتِجَابَةِ دُعَائِهِ وَتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ، وَمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ فِيهِ، مَا يُوجِب لَهُ بِهِ رِضْوَانَهُ وَدُخُولَ جَنَّتِهِ، فَإِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيْهِ وَالمَرْغُوبُ إِلَيْهِ فِي السَّلَامَةِ، وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ إِلَى هِشَامٍ فِي القَدَرِيَّةِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِن أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ وَجَّهَ مَعِي بِنَفَرٍ مِنَ القَدَرِيَّةِ فِي الجُنْدِ الَّذِي كَانَ أَمَدَّنِي بِهِمْ، وإنه قَدْ ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنَ النِّيَّة وَالقَوْلِ مُنَازَعَة لِلَّهِ فِي رِزْقِه، وَشِرْكَةٌ لِلَّهِ فِي الأَمْر، يُرْغِمُونَ مَنْ لَيسَ عَلَى رَأْيِهِمْ تَوَلِّيَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، حَتَّى ظَهَرَ ذَلِكَ وَانْتَشَرَ،



وَكَرِهْتُ القُدُومَ عَلَيْهِمْ بِالمُطَالَبَةِ دُونَ إِعْلَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ حَالَهُمْ، وَإِنَّمَا رَأْيُهُمْ الَّذِي ارْتَأَوْهُ، طَائِفَة مِنْ رَأْيِ النَّصَارَى، فَيَتَشَعَّبُ لَهُمْ فِيهِ فُنُونُ الكَلَامِ إِلَى تَوْهِينِ سُلْطَانِ الرَّبِّ وَتَضْعِيفِ قُدْرَتِهِ، وَنَقْضِهِمْ مِنْ دِينِ الإِسْلَامِ وَثَائِقَ عُرَاهُ وَقَدْ عَلَا ذَلِكَ، فَمَنَعْتُهُمْ بالتَّهَدُّدِ لَهُمْ، وَأَنَا مُعَالِجُهُمْ بالعُقُوبَةِ إِنْ عَادُوا لِتَصْغِيرِ شَيْءٍ مِمَّا عَظَّمَ اللهُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ إِنَّمَا اسْتَدْعَاهُمْ بِصِغَارِ الأُمُورِ لِيَرْفَعَهُمْ إِلَى كِبَارِهَا، وَإِنَّمَا رَغَّبَهُمْ لِيُوقِعَ بِهِمْ ثُمَّ يَقَعَ بِهِمْ وَيَتَخَلَّى عَنْهُمْ. وَأَنْتَ -أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ- مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ النَّكِيرُ عَلَيْهِمْ وَالعُقُوبَةَ لَهُمْ. وَأَرْجُو أن يُرِيَ اللهُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ فِي الإِسْلَامِ وَأَهْلَهُ أَحْسَنَ مَا عَلَيْهِ نِيَّتُهُ وَهِمَّتُهُ، وَأَلَّا يَبْتَلِيَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِمَكْرُوهٍ فِي خَاصِّ أَمْرِهِ ولا عَامِّهِ. فَإِنَّهُ وَلِيُّهُ وَوَلِيُّ مَا غَابَ عَنْهُ وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ إِلَى ابْنِ البُحْتُرِيّ فِيمَا كَانَ مِنْ سَخَطِ مَرْوَانَ عَلَيْهِ وَمَا أَعْلَمَهُ مِنْ قِيَامِهِ بِهِ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ مِنْ مُتَحَرَّكِ غَضَبِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَيْك، مَا لَمْ يَقُمْ بِهِ جُلُّنَا، وَلَمْ يَبْلُغْهُ جَاهُنَا وَمَقْدِرَتُنَا، وَلَوْ نَاهَضْنَاهُ بِالطَّلَبِ إِلَيْهِ فِي سَوْرَةِ مَوْجِدَتِهِ تَخَوَّفْنَا عَلَيْك مِنْ سَطواتِهِ نَازِلٌ عُقُوبَةٍ بِهَا أَمْرُهُ الَّذِي تَقْصُرُ أَيْدِينا عَنْ رَدِّهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَكَ حِيلَةٌ هِيَ أَقْوَى مِنْ تَرْكِهِ إِلَى أَوَانِ سُكُونِ غَضَبِهِ ثُمَّ مُحَاوَلَةِ عُذْرِكَ عِنْدَهُ، فَإِن لِغَضَبِ السُّلْطَان سَوْرَةٌ لَهَا مُتَلَهِّبُ شَرَرٍ يَحْرِقُ وَمِيضُهُ وَسَنَاهُ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ أَوْ دَنَا مِنْهُ دَمَّرَهُ، وَلَمْ نَغِبْ عَنْ حِيَاطَتِكَ، وَلَمْ نُغفِل عِنَايَتَنَا عَنْكَ، وَلَمْ نَحْتَجْ إِلَى تَكْدِيرِنا بِكَتْبِك، فَأَرْخِ حِبَالَ الثِّقَةِ طَارِحًا لَهَا، وَمَدَّ مِنْ أَمَلِكَ فِينَا، فَإِنَّ العِنَايَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ مُقْلِقَة، وَالزِّيَادَة لَاحِقَةٌ، وَالبِرَّ بِكَ وَاصِلٌ إِلَيْك إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالسَّلَامُ.



وَمِنْ إِنْشَاءِ سَالِمٍ مَوْلَى سَعِيد بْنِ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَان عَنْ هِشَام بْـنِ عَبْـدِ المَلِـكِ بْنِ مَرْوَان إِلَى عَمْرو بْنِ سَعِيد[1]:

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ كِتَابُك، وَفَهِمَ مَا ذَكَرْتَ مِنْ تَسْلِيطِ [خَالِدٍ][2] عَلَيْكَ لِسَانَهُ فِي مَجْلِسِ العَامَّةِ، مُسْتَحْقِراً[3] لِقَدْرِكَ، ومُسْتَصْغِراً لِقَرَابَتِكَ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ[4] وَإِمْسَاكِكَ عَنْهُ تَعْظِيماً لِأَمرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَسُلْطَانِهِ، وَتَمَسُّكاً بِوَثَائِقِ عِصَمِ طَاعَتِهِ، عَلَى مُؤْلِمِ[5] مَا تَدَاخَلَكَ مِنْ قَبِيحِ أَلْفَاظِهِ وَشِدَّةِ[6] مَنْطِقِهِ وَإِكْبَابِهِ[7] عَلَيْكَ عِنْدَ إِطْرَاقِكَ عَنْهُ، مُرَوِيّاً فِيمَا أَطْلَقَ أَمِيرُ المؤْمِنِينَ من لِسَانِهِ وَأَطَالَ مِنْ عِنَانِه، وَرَفَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ[8]، وَنَوَّهَ مِنْ خُمُولِهِ، وَكَذَلِكَ أَنْتُمْ - آلَ سَعِيدٍ - فِي مِثْلِهَا عندَ هَذرِ الذَّنَابَى[9] وَطَائِشَةِ أَحْلَامِهَا صَمْتٌ مِنْ غَيْرِ مَا إِفْحَام، تَنْهَضُونَ[10] بِأَحْلَام تَخِفُّ الجِبَالُ عِنْدَهَا وَزْناً[11]. وَقَدْ أَحْمَدَ[12] أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ تَعْظِيمَكَ إِيَّاهُ وَتَوْقِيرَك سُلْطَانَهُ، وَشُكْرَهُ، وَجعَلَ أَمْرَ خَالِدٍ إِلَيْكَ عَزْلُهُ وَإِقْرَارُهُ[13]، فَإِنْ عَزَلْت أَمْضَى عَزْلَك، وَإِنْ أَقْرَرْتَ[14] فَتِلْكَ مِنَّةٌ مِنْك عَلَى خَالِدٍ لاَ يَشْكُرُكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ فِيهَا.

---

(1) وردت في الطبري 2/ 1644-1646 دون نسبة، وانظر جمهرة رسائل العرب 2/ 412، والوثائق السياسية، ص: 477، ونرمز للطبري بالحرف (ط).
(2) في الأصل: تسليطه،ط: بسط خالد.
(3) ط: محتقرا.
(4) ط: من أمير.
(5) ط: مع.
(6) ط: قبائح .... وشرارة.
(7) ط: واكثابه.
(8) ط: ضعته.
(9) في الأصل: حذر الدنايا.
(10) في الأصل: ينهضون.
(11) فيه نظر إلى قول الشاعر:

أَحْلَامُنَا تَزِنُ الجِبَالَ رَزَانَةً ... وَتَخَالُنَا جِنّاً إِذَا مَا نَجْهَلُ

(12) ط: حمد.
(13) ط: في عزلك إياه وإقراره.
(14) ط: عزلته، أقررته.



وَقَدْ كَتَبَ[1] أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ بِمَا يَصُدُّ[2] عَنْهُ سِنَةَ الهَاجِعِ، قُدُومُ رَسُولِهِ عَلَيْكَ[3] ووصولُ كِتَابه إِلَيْهِ يَأْمُرُهُ بِإِتْيَانِكَ رَاجِلًا عَلَى أَيِّ[4] حَالٍ صَادَفَهُ كِتَابُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، وَأَلْفَاهُ رَسُولُهُ المُوَجَّهُ إِلَيْهِ مَنْ لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، حَتَّى يَقِفَ بِبَابِكَ[5]، أَذِنْتَ لَهُ أَوْ حَجَبْتَهُ، أَقْرَرْتَهُ أَوْ عَزَلْتَه. وَتَقَدَّمَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى رَسُولِهِ فِي ضَرْبِهِ بَيْنَ يَدَيْكَ عَلَى رَأْسِهِ عِشْرِينَ سَوْطًا، إِلَّا أن تَكُونَ تَكْرَهُ ذَلِكَ أن يَنَالَهُ بِسَبَبِك، لِحُرْمَةِ خِدْمَتِهِ، فَأَيُّهُمَا رَأَيْت إِمْضَاءَهُ كَانَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ فِي بِرِّكَ وَتَعْظِيمِ قَرَابَتِك[6] وَصِلَةِ رَحِمِك، مُوَافِقًا وَإِلِيهِ حَبِيبًا فِي مَا يَنْوِي مِنْ قَضَاء حَقِّ آلِ أَبِي العَاصِي وَسَعِيدٍ. وَكَاتِبَ[7] أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فِي مَا بَدَا لَك مُبْتَدِئًا وَمُجِيبًا، ومُحَادِثًا وَطَالِبًا، عَسَى أن يَنْزِلَ بِكَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فِي حَوَائِجِهِمْ الَّتِي تَقْعُدُ بِهِمْ الحِشْمَةُ عَنْ تَنَاوُلِها قِبَلَهُ، لِبُعْدِ دَارِهِمْ عَنْهُ، وَقِلَّةِ إِمْكَانِ الخُرُوجِ بِمَطَايَاهُمْ[8] لِإِنْزَالِهَا بِهِ، غَيْرَ مُحْتَشِمٍ مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ولا مُسْتَوْحِشٍ مِنْ تَكْرَارِهَا عَلَيْهِ، عَلَى قَدْرِ قَرَابَتِهِمْ[9] وَأَدْيَانِهِمْ وَأَسْنَانِهِمْ[10] مُسْتَمِيحًا وَمُسْتَرْفِداً وَطَالِبًا مُسْتَزِيدًا، تَجِدُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ سَرِيعًا إِلَى مَا تُحَاوِلُ[11] مِنْ صِلَةِ قَرَابَتِهِمْ وَقَضَاءِ حُقُوقِهِم، وبالله يَسْتَعِينُ أَمِيرُ المُؤْمِنِين عَلَى مَا يَتَوَلَّاه[12]، وَإِلِيه يَرْغَبُ فِي قَضَاء حَقِّ قَرَابَتِه، وعليه يَتَوَكَّل[13]، وَالله وَلِيُّه وَمَوْلَاه[14].

(1) ط: كتب إليه.
(2) ط: يطرد.
(3) ط:عند وصوله إليك .
(4) ط: أية.
(5) في الأصل: ببابه.
(6) ط: وعظم حرمتك وقرابتك.
(7) ط: فكاتب.
(8) في الأصل: إياهم، وسقطت من: ط.
(9) ط: قرابتهم .
(10) ط: وأنسابهم. وأسنانهم: أي حسب سن كل واحد.
(11) ط: إليك سريعا بالبر لما يحاول.
(12) ط: ينوي.
(13) ط: ويتوكل وبه يثق.
(14) ط: زاد في: ط والسلام.



وَمِنْ إِنْشَاءِ مَعْن بْنِ زَائِدَة إِلَى بَعْضِ مَنْ أَفْرَطَ فِي شُكْرِهِ[1]:

عَافَاكَ الله وَحَفِظَكَ. قَد قَال بَعْضُ أَهْل الأَدَب: إِفْرَاط المَرْء فِي شُكْر النِّعْمَة تَوْبِيخ. وَقَد حُزْت نِعْمَتَنَا بِشُكْرِكَ وَاسْتَوْجَبْتَ أَكْثَر مِمَّا تَسْتَطِيعُه مِن المَزِيد، وَالأَدَبُ شَفِيعِي إِلَيْكَ فِي تَرْكِ ذِكْرِ مَا وَلَّيْتُك مِن ذَلِك. فَإِن الَّذِي تَسْتَوْجِبُه مِنِّي بإخائك أَكْثَرُ مِمَّا نَالَك مِنْ إِحْسَان. وَلِذَلِكَ أَقُول:

نُهُوضُك بِالإِخَاء يَفُوت فَضْلِي ... فَحَسْبِي مِنْ مُكَافَأَةٍ وَشُكْر

فَأَجَابَهُ:

وَإِيَّاك فَحَفِظ الله وأبقى. لَو لَم يُعْجِزْنِي عَنْ شُكْرِكَ إِلَّا اسْتِصْغَارُكَ عَظِيمَ نَيْلِي واستعظامُكَ صَغِيرَ شُكْرِي لَكَان فِي ذَلِك مُعْجِز عَن نَيْلِه وَفِي ذَلِك أَقُول:

كَرِيمٌ يَرَى الإِحْسَان لَو كَان مُرْبِيًا ... عَلَى الشُّكْر أَضْعَافًا، أَقَلّ مِنَ الشُّكْر

وَإِنِّي لَأُعْطِيه مِنَ الشُّكْر طَاقَتِي ... فَيَغْمُرُ شُكْرِي بَعْضَ نَائِلِهِ الغَمْرِ[2]

وَمِنْ إِنْشَاءِ الحَسَنِ بْنِ وَهْبٍ[3] **فِي هَدْمِ دَارِ ابْنِ الخَصِيبِ:**

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّه رُفِعَ إِلَى أَمِير المُؤْمِنِين الحَالُ فِي البِنَاء الَّذِي ابْتَنَى أَحْمَدُ بن الخَصِيب بِجَرْجَرَايَا[4] فِي غَيْر حَقِّه مِنْ مَالٍ أَخذَه مِنْ غَيْرِ حِلِّه. فرأى أَمِيرُ المُؤْمِنِين أَنَّ أَوْلَى بِنَاء بِهَدْم وآثَرَ بِتَعْفِية بِنَاءٌ أُسِّس عَلَى غَيْرِ التَّقْوَى[5] وَأَمْرٌ تُخُطِّيَ فِيه إِلَى الظُّلْم والعِدَا. فَتَقَدَّمْ فِي هَدْمِه حَتَّى تُلْحِقَهُ بِقَوَاعِدِه، إِنْ شَاءَ اللهُ وَالسَّلَامُ.

---

(1) معن بن زائدة: من أشهر أجواد العرب وفصحائهم. الأعلام 7/ 273، وفيات الأعيان 2/ 108.

(2) البيتان من الطويل.

(3) كاتب متمكن وشاعر رقيق تقلب في عدة مناصب هامة، وكان كاتبا لابن الزيات، انظر: معجم الأدباء3/ 221، إعتاب الكتاب، ص: 138.

(4) جرجرايا: مدينة بالعراق على شرقي دجلة، بقربدير العاقول. الروض المعطار، ص: 157.

(5) في ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. سورة التوبة، الآية: 110.



ومِنْ إِنْشَاءِ أَبِي حَفْصِ بْنِ بُرْدٍ خَاطَبَ بِهَا ابنَ جَهْوَر[1]:

أَمَّا بَعْد، يَا سَيِّدِي وَمَنْ أَنَا أَفْدِيه، فَإِنَّه ذَكَر بَعْضُ أَهْل الأَدَب المُتَقَدِّمِين فِيه، وَذَوِي الظَّرْف المُعْتَنِين بِمُلَح مَعَانِيه، أَنَّ صُنُوفًا مِن الرَّيَاحِين وَأَجْنَاسًا مَن أَنْوَار البَسَاتِين، جَمَعَهَا فِي بَعْض الأَزْمِنَة خَاطِرٌ خطَر بنُفُوسِهَا، وَهَاجِسٌ هَجَس فِي ضَمَائِرِهَا لَم يَكُن لَهَا[2] بُدٌّ مِنَ التَّفَاوُض فِيه والتَّحَاوُر وَالتَّحَاكُم مِن أَجلِه وَالتَّنَاصُف. وَأَجْمَعَت عَلَى أَنَّ مَا ثَبَت فِي ذَلِك مِنَ العَهْد وَنَفَذَ مِنَ الحِلْفِ مَاضٍ عَلَى مَنْ غَابَ شَخْصُهُ وَلَمْ يَانِ مِنْهَا وَقْتهُ فَقَام قائمها فقَال[3]: يا معشر الشَّجَر وَعَامَّة الزَّهَرِ إن اللَّطِيف الخَبِيرَ الَّذِي خَلَق المخلُوقَاتِ وَدَرَأ البَرِيَّات بَايَن بَيْن أَشْكَالِهَا وَصِفَاتِهَا، وَبَاعَد بَيْن مِنَحِهَا وَأُعْطِيَاتِهَا، فَجَعَل عَبْدًا وَمِلْكًا، وَخَلَق قَبِيحًا وَحَسَنًا، فَضَّلَ عَلَى بَعْض بَعْضًا حَتَّى اعْتَدَل بِعَدْلِه الكُلُّ وَاتَّسَق عَلَى لُطْف قُدْرَتِه الجَمِيعُ. وَإِنَّ لِكُلّ وَاحِد مِنَّا جَمَالًا فِي صُورَتِه وَرِقَّةً فِي مَحَاسِنِه وَاعْتِدَالًا فِي قَدِّه وعبَقًا فِي نَسِيمِهِ، وَمَائِيَة فِي دِيبَاجَتِه قَد عَطَفَتْ عَلَيْنَا الأَعْيُن، وَثَنَتْ إِلَيْنَا الأَنْفُسُ، وَزَهَتْ بِمَحْضَرِنَا المجَالِسُ حَتَّى سَفَرْنَا بَيْن الأَحِبَّة وَوَصَلْنَا أَسْبَابَ القُلُوب وَتَحَمَّلْنَا لَطَائِفَ الرَّسَائِل[4]، وَصِيغَ فِينَا القَرِيضُ وَرُكِّبَتْ عَلَى مَحَاسِنِنَا الأَعَارِيضُ فَطَمح بِنَا العُجْب وَازْدَهَانَا الكِبْر وَحَمَلْنَا تَفْضِيل مَن فَضَّلْنَا إِيثَارُ مَنْ آثَرْنَا عَلَى أَنْ نَسِينَا الفِكْر فِي أَمرِنَا[5]، وَالتَّمْهِيدَ لِعَوَاقِبِنَا وَالتَّطْيِيب لأخبارنا وَادَّعَيْنَا الفَضْل بِأَسْرِه وَالكَمَالَ بِأَجْمَعِه، وَلَمْ نَعْلَم بِأَنّ فِينَا مَن لَه المزِيَّةُ عَلَيْنَا وَمَنْ هُو

---

(1) الرسالة في البديع في وصف الربيع ص: 53، وترجمة ابن برد الأصغر في الجذوة ص: 107، البغية رقم 354، المغرب في حلى المغرب 1/ 86، المطمح، ص: 24، الذخيرة 1/ 1 - 486، معجم الأدباء 2/ 106، نفح الطيب 3/ 545، نهاية الأرب 11/ 196، بلاغة العرب في الأندلس، ص: 152.

(2) الأصل: له.

(3) في البديع زيادة لم ترد في الأصل وهي: «فتخيرت من البلاد أطيبها....ثم مجالسها وانبرت على مراكبها وقام».

(4) في البديع زيادة وهي: «وحبينا اللهو واحتضنا السرور وأخذنا جعالة البشرى وأكرمنا بنزل الرفادة وأسنيت لنا صلة الزيادة وصيغ».

(5) البديع: الفكرة.



أَوْلَى بِالرِّيَاسَة مِنَّا[1] وَهْو الوَرْد الَّذِي إن بَذَلْنَا الإِنْصَاف مِنْ أَنْفُسِنَا وَلَمْ نَسْبَحْ[2] فِي بَحْر عَمَانَا وَلَمْ نَمِلْ مَع هَوَانَا دِنَّا لَه وَدَعَوْنَا إِلَيْه[3] فَمَن لَقِيَه مِنَّا حَيَّاه بِالمُلْكِ وَلَمْ يُدْرِكْ مِن سُلْطَانِه وَدَوْلَة أَوَانِه، اعْتَقَد مَا عَقد عَلَيْه وَلَبَّى مَا دَعَا إِلَيْه. فَهُو الأَكْرَم حَسَبًا وَالأَشْرَف زَمَنًا، إِنْ فَقَدَ عَيْنَهُ لَمْ يَفْقِدْ أَثَرَهُ أَو غَاب شَخْصُهُ لَم يَغِب عَرْفُهُ. وَهو أَحْمَر وَالحُمْرَةُ لَوْنُ الدَّمِ وَالدَّمُ صَدِيقُ الرُّوحِ، وَهو كَاليَاقُوت المُنَضَّدِ فِي أَطْبَاق الزَّبَرْجَد عَلَيْهَا فَرَائِدُ العَسْجَدِ. وَأَمَّا الأَشْعَار فَبِمَحَاسِنِهِ حَسُنَتْ وَبِاعْتِدَالِ جمَالِه وُزِنَتْ.

وَفِي فَصْلٍ مِنْهَا:

وكان مِمَّن حَضَر هَذَا المَجْلِسَ مِن رُؤَسَاء الأَنْوَار وَالأَزْهَار[4] النِّرْجِسُ الأَصْفَرُ، وَالبَنَفْسَجُ وَالبَهَارُ وَالخَيْرِيّ وَهو النَّمَّامُ، فَقَال النِّرْجِسُ الأَصْفَر: وَالَّذِي مَهَّد لِي حَجَر الثَّرَى وَأَرْضَعَنِي ثَدْي الحَيَا لَقَد جِئْت بِهَا أَوْضَح مِن آيَة الصَّبَاح وَأَسْطَعَ مِنْ لِسَان المِصْبَاح، ولقد كُنْتُ أُسِرُّ مِن التَّعَبُّد لَه وَالشَّغَف بِه وَالأَسَف عَلَى تَعَاقُب المَوْت دُون لِقَائِه مَا أَنْحَل جِسْمِي، وَمَكَّنَ سُقْمِي، وإذ قَد أَمْكَن البَوْحُ بِالشَّكْوَى فَقَدْ خَفَّ ثِقَلُ البَلْوَى.

ثُمّ قَامَ البَنَفْسَج فَقَال: عَلَى الخَبِير سَقَطَت، أَنَا وَالله المتَعَبِّدُ لَه وَالدَّاعِي إِلَيْه المَشْغُوف بِه، وَكَفَى مَا بِوَجْهِي مَن نَدْبٍ[5] وَلَكِن بِالتَّأَسِّي بِك آنس[6].

---

(1) في البديع زيادة وهي:«ومن يجب له علينا التحرج ومد اليد بالمبايعة، وإعطاء مجهود المحبة وبذل ذات النفس وهو الورد».

(2) البديع: نرتكض.

(3) في البديع زيادة وهي: «واعترفنا بفضله وقلنا برياسته واعتقدنا إمرته وأصفينا محبته».

(4) البديع: وكان ممن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار.

(5) البديع: من ندب وبجسمي من عدم نهوض ولكن في التأسي.

(6) البديع: وفي الاستواء معك وجدان سلو.



ثُمّ قَامَ البَهَار فقَال: لا تَنْظُرَنّ إِلَى غَضَارَةِ مَنْبِتي وَنَضَارَة وَرَقِي وَانْظُر إِلَيَّ وَقَد صِرْتُ حَدَقَةً بَاهِتةً[1] تُشِير إِلَيْه وَعَيْناً شَاخِصَةً تَنْدَى بُكَاءً عَلَيْه:

وَلَــوْلَا كَثْـرَةُ البَـاكِينَ حَـوْلِي عَلَـى إِخْـوَانِهِم لَقَتَلْـتُ نَفْـسِي[2]

ثُمّ قَامَ الخِيْرِيُّ النَّمَّام فقَال: وَالَّذِي أَعْطَاه الفَضْل دُونِي وَمَدّ لَه بِبَيْعَة يَمِينِي[3] مَا اجْتَرَأْت قَطّ إِجْلَالًا لَهُ وَاسْتِحْيَاء مِنْه. عَلَى أَنْ أَتنفَّس نَهَارًا أَوْ أُسَاعِدَ فِي لَذَّةٍ صَدِيقًا أَوْ جَارًا فَلِذَلِك جعَلْتُ اللَّيْل سِتْراً وَاتَّخَذْتُ جَوَانِحَهُ كِنًّا .

فَلَمَّا اسْتَوَت آرَاؤُهَا[4] قَالَتْ: إِنَّ لَنَا أَصْحَابًا وَأَشْكَالًا وَأَتْرَابًا لا نَلْتَقِي بِهَا فِي زَمَن وَلَا نُجَاوِرُهَا فِي وَطَن، فَهَلُمّ فَلْنَكْتُبِ بِذَلِك عَقْدًا يَنْفُذ عَلَى الأَقَاصِي وَالأَدَانِي[5] فكَتَبُوا رُقْعَة نُسْخَتُهَا[6]:

هَذَا مَا تَحَالَفَتْ عَلَيْه أَصْنَاف الشَّجَر وَضُرُوبُ الزَّهَر، وَسْمِيُّهَا وَشَتْوِيُّهَا وربيعِيُّهَا وقَيْلِيُّها حَيْث مَا نَجَمَتْ مِنْ تَلْعَةٍ أَوْ رَبْوَة وَتَفَتَّحَتْ مِن قَرَارَةٍ أَو حَدِيقَة، عِنْدَمَا رَاجَعَتْ مِن بَصَائِرِهَا وَأُلْهِمَتْ مِنْ رَشَادِهَا، وَاعْتَرَفَتْ بِمَا سَلَفَتْ مِنْ هَفَوَاتِهَا وَأَعْطَتْ لِلْوَرْد قِيَادَهَا وَمَلَّكْتُه أَمْرَهَا وَعَرَفْت أَنَّه أَمِيرُهَا المُقَدَّم بِخِصَالِه[7] فِيهَا وَالمُؤَمَّر بِسَوَابِقِهِ عَلَيْهَا، وَاعْتَقَدَتْ لَهُ السَّمْع وَالطَّاعَة، وَالْتَزَمَتْ لَه الرِّقَّ وَالعُبُودِيَّة، وَبَرِئَتْ مِن كُلِّ مَنْ نَازَعَتْه نَفْسُه المُبَاهَاة لَه وَالافْتِرَاء عَلَيْه فِي كُلّ وَطَن وَمَع كَلّ زَمَن فَأَيَّةُ زَهْرَة قَصَّ عَلَيْهَا لِسَانُ الأَيَّام هَذَا الحِلْفَ فَلْتَعْرِف أَنَّ رَشَادَهَا فِيه وَقَوَامَ أَمْرِهَا بِهِ.

---

(1) الأصل: حرقه باهية.
(2) البيت للخنساء، وهو من الوافر، انظر ديوان الخنساء، ص: 152.
(3) البديع: يمني.
(4) البديع: فلما رأت استواء آرائها على التفضيل له واعتدال مذاهبها في الدعاء إليه.
(5) البديع: عليه. نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تحالفت.
(6) في الأصل: اختصار؛ وفي البديع زيادة وخلاف.
(7) الأصل: بخالصه.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الوَلِيدِ إِسْمَاعِيل بْن مُحَمَّد المُلَقَّب بِحَبِيب: رِسَالَة خَاطَبَ بِهَا المُعْتَضِد مُنَاقِضاً لِأَبِي حَفْص بْن بُرْد فِي رِسَالَتِهِ المُتَقَدِّمَة فِي تَفْضِيلِ الوَرْدِ عَلَى سَائِرِ الأَزْهَارِ قَالَ فِيهَا[1]:

وَأَوَّلُ مَنْ رَأَى ذَلِكَ الكِتَابَ وَعَايَنَ الخِطَابَ نَوَاوِيرُ الرَّبِيع[2] التِي هِيَ خِيرَةُ الوَردِ فِي الوَطَنِ وَصَحَابَتُهُ فِي الزَّمَن. فَلَمَّا قَرَأَتْهُ أَنْكَرَتْ مَا فِيه وَبَنَتْ عَلَى هَدْمِ مَبَانِيه وَنَقْض مَعَانِيه وَعَرَّفَتِ الوَرْد بِمَا عَلَيْه فِيمَا نُسِبَ إِلَيْه مِن اسْتِحْقَاقِه مَا لا يَسْتَحِقُّه واسْتِيهَالِه[3] مَا لَا يَسْتَأْهِلُهُ. [ثُمّ قَالَتْ لَه: مَن مَدَح امْرَءًا بِمَا لَيْس فِيه، فَقَدْ بَالَغَ فِي هِجَائِه، وَبَيَّنَت ذَلِك لَه بَيَانـًا، رآى الرُّشْد فِيه عِيَانًا، وَأَجْمَعَت عَلَى مُجَاوَبَة مكاتبيها، وَمُرَاجَعَة مخاطبيها، بِمَا بَدَا لَهَا مَن سُوء تَدْبِيرِهَا، وَضُعْفِ رَأْيِهَا ثُمّ رَأَت][4] أَنَّ مُخَاطَبَة مَنْ أَخْطَأَ تِلْك الخَطِيَّة، وَأَدْنَى مِنْ نَفْسِه تِلْك الدَّنِيَّةِ تَدْبِيرٌ دَبَرِيٌّ[5] وَرَأْيٌ غَيْرُ مَرْضِي. فَكَتَبْت إِلَى الأُقْحُوَان وَالخَيْرِيّ الأَصْفَر كِتَابـًا قالت فِيهِ[6] فَلَو اسْتَحَقّ الوَرْد إِمَامَة وَاسْتَوْجَب خِلَافَة لَبَادَرَت إِلَيْهَا آبَاؤُنَا[7] وَلَعَقَدَهَا أَوَائِلُنَا الَّتِي لَم تَزَل تُجَاوِرُه لمَكَانِه وَتَجِيء مَعَه فِي أَوَانِه.

وَلَا نَدْرِي[8] لِأَيِّ شَيْء أَوْجَبَت تَقْدِيمَه، وَرَأَتْ تَأْهِيلِه، لِمَا غَيْرُه أَشْكَلُ لَه وَأَحَقُّ بِه، وَهْو نَوْرُ البَهَار، البَادِي فَضْلُه بُدُوّ النَّهَار، وَالَّذِي لَم يَزَل عِنْد عُلَمَاءِ الشُّعَرَاءِ وَحُكَمَاءِ البُلَغَاء مُشَبَّهـًا بِالعُيُون الَّتِي لا يَجُول نَظَرُهَا، ولا يَحُولُ[9] حَورُهَا. وَأَفْضَل تَشْبِيه

(1) الرسالة توجد في: البديع في وصف الربيع، ص: 58.
(2) لم يفتتح البلوي الرسالة بما افتتح به الحميري صاحب البديع؛ ففيها زيادة وخلاف.
(3) البديع: واستبهاله.
(4) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل، وقد أضفناه من البديع.
(5) الرأي الدبري: الذي لا يمعن النظر فيه، وكذلك الجواب الدبري، يقال: «شر الرأي الدبري» وهو الذي يسنح أخيرا عند فوات الحاجة.
(6) البديع: فكتب إلى الأقحوان والخير الأصفر... ذلك هو الخسران المبين ولو استحق.
(7) البديع: لبادر بها آباؤنا.
(8) البديع: وأما من عقد البيعة وكتب تلك الصحيفة ... وتعلم جلية خيره، فبأي شيء أوجبت تقديمه.
(9) البديع: ولا يحور.



تَشْبِيه لِلْوَرْد، بنَضْرَةِ الخَدّ، عِنْد مَن تَشِيع فِيه[1] وَأَشْرَف الحَوَاسّ العَيْن، إِذْ هِي عَلَى كُلّ مُتَوَلّ عَيْن[2]، وَليس الخَدّ حَاسَّة، فَكَيْف تَبْلُغُهُ رِيَاسَة:

أَيْـن الخُـدُود مِـن العُيُـون نَفَاسَـةً[3] وَرِيَاسَـةً، لَـوْلَا القِيَـاسُ الفَاسِـدُ[4]

وَمِنْ إِنْشَاءِ الكَاتِبِ أَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ الحَاجِّ اللُّورْقِي خُطْبَةً فِي نُزُولِ الغَيْثِ بَعْدَ القَحْطِ:

الحَمْد لِلَّه الوَاحِد، الدَّائِم لا البائد، القَائِم بِالقِسْط العَالِم الشَّاهِد، مُثِيب الأَكَارِم وَالفُرَط، ومشتت الجِيرَة الخَلْط، وَمُنْزِل الغَيْث بَعْد القَنَط[5]، مُرْسِل الرِّيَاح اللَّوَاقِح[6] لإبكاء السَّحَاب السَّوافح، بإضحاك وجوهِ الأَرْض الكَوَالِح، لا إِلَه إِلَّا هُو ذو النِّعْمَة الحَافِلَة، وَالعِصْمَة الكَافِيَة الكَافِلَة، لا تُعَدّ فَوَاضِلُهُ ولا تُحْصَى، ولا تُكَاثَرُ بِالحَصَى.

أَحْمَدُه حَمْدَ مَنْ بَهَضَتْهُ مِنَّتُهُ، وَأَيْقَظَتْهُ مِنْ نَوْمَة الجَهْل كُتُبُه وَسُنَّتُهُ، عَدَد مَا خَلَق، وَمَنْ رَزَق، وما اطَّرَد أَمْرُه وَاتَّسَق، وَصَلَّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّه المُتخَيَّر المُنْتَخَب، مِن أَعْلَى المنَاصِب وَأَزْكَى المُنْتَسَب، وَأَسْمَى جَمَاهِيرِ العَرَب: مُحَمَّد بن عَبْد الله بن عَبْد المطَّلِب، الهَادِي النَّاس طُرّاً وَالدَّاعِي إِلَى الله سِرّاً وَجَهْراً، الوَافِي ذِمَّةً وَبِرّاً. صَلَّى الله عَلَيْه وَعَلَى آلِه مَا انْسَكَبَ مُزْنٌ، وَاعْشَوْشَبَ حَزْنٌ، وَسَكَّن طَائِر فِي وَكَنٍ وَحَنّ مُسَافِر إِلَى سَكَنٍ، صَلَاةً رَائِحَة غَادِيَة، دَاعِيَة إِلَى النَّجَاة هَادِيَة، قائدة إِلَى الجَنَّة حَادِيَة.

يَامَعْشَرَ النَّاس مَا أَعْجَب أَمْرَنَا، وَفَضْلُ الله عِنْدَنَا وَإِن لَم نَقْضِه شُكْرَنَا، نُذْنِبُ فَيَغْفِرُ، ونَدأَبُ عَلَى المَعْصِيَة فَيُمْهِلُ وَيَنْظُرُ، ونفسقُ فَيَسْتُرُ، وَنَعْتُو فِي الكَبَائِر فَيُمْهل وَيَجْبُر،

---

(1) البديع: وعني به. وأشرف.

(2) البديع: منول عون.

(3) البديع: من العيون رياسة ونفاسة.

(4) البيت لابن الرومي وهو من الكامل. ديوانه ص: 389.

(5) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾. سورة الشورى، الآية: 26.

(6) في ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾. سورة: الحجر، الآية: 22 .



وَنَحْنُ لا يَشْغَلُنَا الاعْتِبَارُ، وَلَا يَنْتَابُنَا الإِقْصَارُ، ولا تَعِظُنَا الأَيَّام وَالأَعْصَارُ. فَلَوْلَا الاسْتِغْفَارُ، لَحَاق بِنَا البَوَارُ، فَنَحْن فِي غَيَايةِ غَوَايَةٍ نرتبك، وَإِطَالَةِ بَطَالَةٍ نَنْهَمِك، نُصِرُّ عَلَى المَآثِم، ولا نُغَيِّرُ أَثَرَ الجَرَائِم، ولا نُنْكِر شَيْئاً مِنَ الحَوَادِث وَالعَظَائِم، الرِّفَاق فِي أَفْنِيَتِنَا تُسْتَلَب، والأَعلاقُ مِن أَيْدِينا تُنْتَهَب، والآفَاق عَنَّا تَتحدثُ فَنَتَعَجَّبُ.

فَلَمَّا أَعْرَضْنَا لِحُلُول النِّقَم، وَأَعْرَضْنَا عَن شُكْر النِّعَم، وأَفَضْنَا فِي الأَشَر وَالغَمْط، أُصِبْنَا بِالجَدْبِ وَالقَحْط، فَاقْشَعَرّ النَّبْتُ بَعْد نَضَارَتِه، وَاغْبَرّ القُطْر بَعْد إِنَارَتِه، وَذَوَى الزَّرْعُ، وَطَوَى دَرَّهُ الضرعُ، وذَبُلَتِ الشِّفَاهُ، وَغَارَتِ المِيَاهُ، حَتَّى إِذَا سَاءَتِ الظُّنُون، وَدَمِعَتْ مِن الحَذَرِ العُيون، وَخِيفَ ممَّا يَكُونُ، وَتَسَاوَى فِي الضَّرَاعةِ المكِينُ وَالمِسْكِين، وَحَارَتِ السَّائِمَة، وَذهِلتْ عَن رَامِهَا الرَّائِمَةُ، نَشَر اللهُ رَحمَتَه مُمتَدَّةَ الأَطْنَاب، وَأَظْهَرَ نِعْمَتَهُ فِي أَثْنَاءِ السَّحاب، بَادِيَةً لِلْعِيَان، وَاقِفَةً عَن التَّهْتان، إِلَى أَنْ أَذِن اللهُ بِجُودِه، فِي تَلَافِي عَبِيدِه، فَسَحَّتْ وَوَبلَتْ، وسَفَحَتْ وهَطَلَتْ، وَلَبِثَتْ أَيَّاماً، وَوَالَتْ إِرْهاماً، ثُمّ [إِسْجَاماً] فَعَمَّتِ السُّهُولَ والحُزُونَ، وَالمُتُونَ وَالبُطُون، وَمَلَأَتِ الحُجْرَةَ والوُكُونَ، فَسَقَتِ الوِهَادَ واللِّصَاب، وأَسَالتِ الغِرْيانَ وَالشِّعَاب، فَالغُدُرُ مُونِعَةٌ، والسُّفُوحُ مُمْرِعَةٌ، وَالكَاسِي كَالمُرْتَاح، وَالمستكِنّ كَالمَاشِي بِقِرْوَاح[1].

وَثَغْر الرَّوْض بَاسِمٌ، وَرُوح الحَيَاة نَاسِمٌ، وَصَفَحَاتُ الرَّوْض خَفِرَة، وَوُجُوهُ الأَرْضِ مُسْتَبْشِرَة، وَالبَهَائِم رَاضِيَةٌ، والمَنَازِهُ حَالِيَةٌ.

فَاعْمَلُوا-رَحِمَكُم الله- أَلْسِنَة الاجْتِهَاد وَالجِدّ، فِي إِطَالَة الشُّكْرِ وَالحَمْدِ، فَبِهِمَا تُسْتَزَادُ السُّقْيَا، وَتُسْتَعَادُ النُّعْمَى وتُمْتَرَى الحَيَاةُ وَالحَيَا، وَأَكْثِرُوا مِنَ الاِسْتِغْفَار، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَبِهِ تُسْتَكَنُّ بَغَتَاتُ المِحَن وَفَجَآتُ الأَقْدَار.

---

(1) القرواح: الفضاء من الأرض التي ليست بها شجر، ولم يختلط بها شيء، وقيل الأرض البارزة للشمس، وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص، ومنه أخذ اللورقي «صاحب الخطبة» هذه العبارة:

فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بِعَقْوَتِهِ ... وَالمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ



وَفَّقَنَا اللهُ وإِيَّاكُم وَجَعَلَنَا مِمَّن اسْتَوْجَب رِضَاه وَرُحْمَاه، وَحَبَّبَ إِلَيْنَا آخِرَتَهُ، وَكَرَّه إِلَيْنَا دُنْيَا وَاسْتَعْمَلَنَا بِالتَّقْوَى، وَعَصَمَنَا مِنْ مُوبِقَات الهَوَى. بِمَنِّه وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عُمَرَ البَاجِي فِي نُزُولِ الغَيْثِ بَعْدَ القَحْطِ[1]:

إِنَّ لِلَّه تَعَالَى قَضَايَا وَاقِعَة بِالعَدْل، وَعَطَايَا جَامِعَة لِلْفَضْل، وَمِنَحاً يَبْسُطُهَا -إِذَا شَاء- إِنْعَامًا وَتَرْفِيهاً، وَيَقْضِيهَا -إِذَا أَرَاد- إِلْهَاماً وَتَنْبِيهاً، وَيَجْعَلَهَا لِقَوْم صَلَاحاً وَخَيْراً، وَآخَرِينَ فَسَاداً وَضَيْراً ﴿وَهُوَ ٱلذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2]، وإِنَّه كَان مِن إِمْسَاك السُّقْيَا، وَتَوَقُّف الحَيَا، مَا رِيع بِه الآمِن، وَاسْتُطِير لَه السَّاكِن، وَرَجَفَت الأَكْبَادُ فَزَعًا، وَذَهِلت الأَلْبَابُ جَزَعاً، وَأَذْكَتْ ذُكَاءُ[3] حَرَّهَا، وَمَنَعَت السَّمَاء دَرَّهَا، وَاكْتَسَتْ الأَرْض غُبْرَة بَعْد خُضْرَة، وَلَبِسَتْ شُحُوباً بَعْدَ نَضْرَة، وَكَادَتْ بُرُودُ الرِّيَاضِ تُطْوَى، وَمُدُودُ نِعَمِ الله تُزْوَى. ثُمّ نَشَرَ الله تَعَالَى رَحْمَتَه، وَبَسَطَ نِعْمَتَه، وأَتَاحَ مِنَّتَه، وَأَزَاحَ مِحْنَتَه، فَبَعَثَ الرِّيَاح لَوَاقِح، وَأَرْسَلَ الغَمَام سَوَافِح، بِمَاءٍ دَفَقٍ، وَرُوَاءٍ غَدَق، مِنْ سَمَاءٍ طَبَق، اسْتَهَلّ جَفْنُهَا فَدَمَع، وَسَحَّ دَمْعُهَا فَهَمَع، وَصَابَ وَبْلُهَا فَنَقَع، فَاسْتَوْفَتْ الأَرْض رِيّاً، وَاسْتَكْمَلَتْ مِن نَبَاتِهَا ﴿أَثَٰثاً وَرِءْياً﴾[4] فَزِينَةُ الأَرْضِ مَشْهُورَة، وَحُلَّةُ الزَّهْرِ مَنْشُورَة، وَمِنَّة الرَّبّ مَوْفُورَة، وَالقُلُوبُ نَاعِمَة بَعْدَ بُوسِها، وَالوُجُوهُ ضَاحِكَة إِثْر عَبُوسِها، وآثَارُ الجَزَعِ مَمْحُوَّة، وَسُوَرُ الشُّكْر مَتْلُوَّة. وَنَحْنُ نَسْتَزِيدُ الوَاهِبَ نِعْمَةَ التَّوْفِيق، وَنَسْتَهْدِيه فِي قَضَاء الحُقُوقِ، إِلَى سَوَاء الطَّرِيق، ونَسْتَعيذُ بِه مِن المِنَّةِ أن تَعُودَ فِتْنَة، وَمِن المِنْحَة أنْ تَعُودَ مِحْنَة.

---

(1) الرسالةفي: الذخيرة 2/ 1-196، القلائد، ص: 116، الخريدة 3/ 382.

(2) سورة الشورى، الآية: 26.

(3) ذكاء: الشمس.

(4) سورة مريم، الآية: 74.



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الغَفُورِ يُعَارِضُ رِسَالَتَيْ أَبِي عُمَرَ البَاجِي وَأَبِي القَاسِمِ ابْنِ الجَدِّ فِي صِفَةِ المَطَرِ بَعْدَ القَحْطِ[1]:

ولله جَلَّت عَظَمَتُه أَوَامرُ تُحِيلُ المُنِيرةَ عَن طِبَاعِها، وتَسْتَلِبُ مِنْ حَصَى المِعْزَاءِ[2] فَضْلَ شُعَاعِهَا، وَتَرُدُّ فِي خِلْفِ تُمْرِيهِ حَلَبَ إِرْضَاعِهَا لا تَلْحَقُ بِسَوَابِقِ الرِّهَانِ، فِي مَيَادِينِ الأَذْهَانِ، ولا تُدْرَكُ بِقِداحِ القِمَارِ، من مُعلياتِ الأَبْصارِ، تُطْلِعُ المِنَحَ من ثَنِيَّاتِ المِحَنِ، وتُخَوِّلُ العَاجِزَ الزَّمِنَ من مُنْفِسَاتِ[3] الزَّمَن، وَقَد تَذْهَبُ، بِمَا تَهَبُ، وَتُغِيرُ، عَلَى مابِهِ تَغِير[4]، حِكْمَةٌ بَهرَتْ حَقِيقَتُهَا زَوَاهِرَ الأَفْكَار، وغَمَرَتْ دَقِيقَتُهَا زَواخِرَ بِحَارِ الاعْتِبَار، لَه الخَلْق وَالأَمْر، وبيَدِه النَّفْعُ وَالضُّرُّ، وَإِنَّ أَحَقَّ النِّعَم بِشُكْرٍ لا تَنْضَبُ مُدودُه، وَحَمْدٍ تَتَجَاوَز حَدَّ المَعْهُودِ حُدودُه، نُعْمَى أَحْيَتْ بِالسُّقْيَا أَرْضًا مَوَاتًا، وَنَشرَتْ بَذْر الحَيَا أَمَلًا رُفَاتًا، وَقَد غَبَط طَيْرُ المَاءِ، ضَبَابَ اليَهْمَاءِ بِإِدْرَاكِهَا وَحَجْب كَاسِفِ الدُّجَى نَيِّرَاتِ السَّمَاء، وَشَابَت مَفَارِقُ الرِّيَاض، وَغَاضَتْ مُفْعَمَاتُ الحِيَاض، وَاقْشَعَرَّت الرُّبَا، وَحَلَّ نَبْت الحَاجِز[5] عِنْد الحُبَا، وَبَاتَتْ أَزْهَارُ الغِيطَان، عَلِيلَات الأَجْفَان، تَسْتَسْقِي نُجُوم السَّمَاء، وَتَتَوَسَّلُ بِالشَّبَه إِلَى ذَوَات الأَنْوَاء[6]، فَعِنْدَمَا أَمْسَت البَسِيطَة عَلَى شَفَا، وَأَجْبَلَ المُحْتَفِرُ وَلَمْ يَجِد مُرْتَشَفًا، أَرْسَل الله تِلْك النِّعْمَة، بَيْن يَدَي الرَّحْمَة، رِيحًا لَيِّنَة هُبُوب النَّسِيم، فِي الرَّوْض وَالهَشِيم، شَدِيدَة حَفْز الغَمَائِم، لِتَدَارُك مَا فِي الكَمَائِم، «فَنَزَعَتْ»[7] بِإِذْنِه مَلَاءَهَا، وَرَمَتْ أَمْرَاسَهَا وَدِلَاءَهَا، فَلَمَّا لَمَّتْ قَزَعَهَا[8] وَوَصَلَتْ بِقُدْرَة الخَلَّاق قِطَعَهَا، سَفَحَتْ عُيُونُ تِلْكَ النُّجُوم، بِمُكْفَهِرِّ الغُيُوم،

---

(1) الرسالة في الذخيرة، 2/ 1-342.
(2) المعزاء: المكان الصلب الكثير الحصى.
(3) الذخيرة: الزمن منفسات.
(4) تغير: أي تمنح وتعطي.
(5) الحاجر: منبت الرمث ومجتمعه.
(6) الأصل: الأضواء، ورواية الذخيرة أنسب.
(7) خرم بالأصل، والتصويب من الذخيرة.
(8) الأصل: فرعها. وقد أثبتنا ما في الذخيرة، لصعوبة قراءة الأصل.



رَحْمَةً لِعَلِيل النَّبَاتِ، وَرِقَّةً لأَلِيلِ المُهْجَاتِ، فَنُمْنِمَ وَشْيُ التِّلَاعِ، بِيَدِ لَطِيفَةِ صَنَاعٍ، ورُصِّعتْ تِيجَانُ الآكَامِ، بنُطَفِ الغَمائِمِ السِّجامِ، فَاهْتَزَّتِ القِطَارِيةُ لِتِلْكَ القِطَارِ، وَاشْتَمَلَتْ عَلَى مَحَاسِنِهَا من الأَوْطَارِ، وَضَحِكَ ثَغْرُ رَوْضٍ بَعْدَ عُبُوسٍ، ونُقِلَ إِلَى سَعَةِ النِّعْمَةِ بَعْدَضَنْكِ البُوسِ، وسَحَبَتْ فَواهِقُ الأَنْهَارِ مَذَانِبَها، وَنَشَرَتْ عَرَائِسُ الأَشْجَارِ[1] ذَوَائِبَهَا، نَاظِمَةً من لآلِئِ الطَّلِّ عُقُودَهَا، مَالِئَةً لِيتَهَا[2] مِنْ جَوْهَرِهِ الرَّائِقِ وجِيدَهَا، تَفُوحُ مَحَاسِنُ[3] أَزْهَارِهَا، وتَلُوحُ خَفِيَّاتُ أَسْرَارِهَا، فِي مَرْآى أَنْوَارِهَا، فتَرْمِي الذَّاهِلَ بريَّاها، وَتُحَيِّي النَّائِمَ وما حَيَّاهَا، مُؤْذِنًا بإِدْرَاكِهَا، عَلَى لِسَانِ مِسْكِهَا فِي سَاحَةِ مَدَاكِهَا، وَقَامَ من مُترنِّمِ الأَطْيَارِ، عَلَى مَنَابِرِ الأَشْجَارِ، خَطِيبٌ يَتْلُو مَا حَبَّرَ مِن الثَّنَاءِ، عَلَى سَابِغِ النَّعْمَاءِ، وَسَائِغِ رَحِيقِ الآلاَءِ. فَيَالَهَا نِعْمَةً مَا أَحْسَنَ مَوْقِعَهَا، وَرَحْمَةً مَا أَلْطَفَ مَحَلَّهَا مِنَ النُّفُوسِ وَمَوْضِعَهَا، لقَد بَرَّدَتْ حَرَّ الأَكْبَادِ، وشَفَتْ غَلِيلَ القُلُوبِ الصَّوَادِ، وَفُدِيَتْ بِنَفَائِسِ النُّفُوسِ وَمُحَبِّي[4] الأَوْلَادِ، نَفَّسَتْ خَنَّاقَ الآمَالِ، وَحَلَّتْ عُقَلَ الأَقْفَالِ[5]، وَكَادَت تَجْرِي الأَرْوَاحُ فِي الرِّمَمِ البَوَالِي. فَالحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا حَضَّ عَلَيْه، مُنْتَهَى الحَمْدِ، وَمَبْلَغَ الوُسْعِ وَالجَهْدِ، مَا لا يَحْصُرُه العَدّ، وما شَاءَ تَعَالَى مِن بَعْدُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي حَفْصٍ ابْنِ صَاحِبِ الصَّلَاةِ الأَوْبِيِّ فِي ذَلِكَ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِن اللهَ تَعَالَى يُخْشَى بَلَاؤُه، وَتُرْجَى آلاؤُه، وَتَنْفُذ قَضَايَاه، ولا تَنْفَدُ عَطَايَاه، وَهُوَ العَدْلُ فِي مَا قَضَى وصَنَع، وَلَهُ الفَضْلُ أَعْطَى أَو مَنَع، وَالمُنفرِدُ بِالقَبْضِ وَالبَسْط، وَالقَائِمُ عَلَى عِبَادِه بِالقِسْط، يُصَرِّفُهُم بِقُدْرَتِه بين رَغْبَةٍ وَرَهْبَة، لِيَكُونُوا من طَاعَتِه عَلَى أُهْبَة، وَيُقَلِّبُهُمْ بَيْن بُؤْسٍ وَنُعْمَى، وَرَوْحٍ وَغَمّـًا، لِيَكُونُوا بِقَبُول المَوْعِظَة أَحْرَى، وَعَلَى سَبِيل التَّذْكِرَة أَجْرَى. وَإِنَّهُ تَعَالَى أَمْسَكَ الغَيْث عَنْ عِبَادِهِ مُدَّة، حَتَّى لَقُوا مِن انْقِطَاعِه

---

(1) الذخيرة: الأزهار.

(2) الذخيرة: لبتها. والليت: العنق.

(3) الذخيرة: مجامر.

(4) الذخيرة: النفوس والأولاد.

(5) الذخيرة: عقال الأقفال.



شِدَّة، وَأَصْبَحَت الأَرْض قَد اغْبَرَّت فِجَاجُهَا، وَاسْتَطَار عَجَاجُهَا، وَغلبَ عَذْبَهَا أُجَاجُهَا، وَكَأَنَّ المَحْلَ قَد ضَرَب عَلَيْهَا قُفْلًا، وَصَيَّرهَا مِن النَّبَات غُفْلًا، وَالحَيَوانُ قَدْ أَجْدَبَ مَرْعاهَا، وَضَعَّفَ مَسْعاها، وَجَفّ رِسْلُهَا، وَضَاع نَسْلُهَا وَسَعَتِ النَّمْلُ فِي الاحْتِكَار، وَخَلَت الطُّيُور عَن الأَوْكَار، فَمَا تَدْعُو عَلَى قُضُب الأَيكهِ دِيلًا، ولا تَبْغِي بِطَلَب الرِّزْق بَدِيلًا، وصارَ النَّاس مُسْنِتِين[1]، وإلى الله مُخْبِتِين[2]. ثُمّ أَرْسَل الله الرِّيَاح مِن كِنَانَتِهَا، وَأَخرَجَهَا مِنْ خِزَانَتِهَا، فَجَرَّت ذُيُولَهَا، وَأَجرَتْ خُيولَها، خَافِقَة بنودُها، مُتَلَاحِقَة جُنُودها، فَأَثَارَت الغَمَام، وَقَادَتْه بِزِمَام، وَأَنْشَأَتْ بَحْرِيَّة مِن السَّحَاب، ذَات أَتْرَاب وَأَصْحَاب، كَثِيرًا عَدَدُهَا، غَزِيراً مَدَدُهَا، تَتَجَاذَبُ إِلَيْهَا، وتتراكبُ عَلَيْهَا، تَرَاكُب الأَزْهَار فِي الكَمَائِم، والأَكْوَارِ فِي العَمَائِم، فَبَشَّرَتْ بِالقَطْر كَلّ سَائِم، وَأَنْذَرْت بِالوُدّ كَلّ حائم، وَالرِّيح تَبُثُّهَا، وَالبَرْق يَحُثُّهَا، كأنه لِسَان مَن لَهَب، أَو [طَبَق مِنْ ذَهَب][3] يَتَلَطَّف وَيَتَثَنَّى، وَيَنْصرِف وَيَتَأَنَّى، مَع رَعْد يَصْطَكُّ السَّمْع مِنْ [بَرْقَعَتِه] وَتَرْتَجُّ الأَرْض مِنْ فَرْقَعَتِهِ، فَيَتْرُكُ الأَرْض رَاجِفَة، وَالقُلُوب واجِفَة، وللسَّحَابِ مِنْ ضَوْء البَرْق هَاد، وَمِنْ صَوْت الرَّعْد حَادٍ، وَالرِّيحُ تُوشِعُ بلُحْمَتِهَا سَدَاهَا، وَتُسْرِع فِي حياكَتِهَا يَدَاهَا، وَالسَّمَاء تَنْجَلِي مِن خَلَلِهَا[4] كتَجَلِّي السُّيُوف من خِلَلِها[5]، فَلَمَّا الْتَحَم فَتْقُهَا، وَالْتَأَم رَتْقُهَا، وَامْتَدَّت أَشطانُها[6] وَاتَّسَعَت أَعْطَانُهَا[7]، وَانْفَسَحَتْ أَجْنَابُهَا، وَانْسَدَلَتْ أَطْنَابُهَا، وَتَهَدَّأَ حَمْلهَا، وَتَمَخَّض حِمْلُهَا، وَمدَّتْ عَلَى آفَاق السَّمَاء رِوَاقَهَا،

---

(1) أسنت القوم فهم مستنون: أصابتهم سنة من القحط والجذب، قال ابن الزبعري:

عَمْـرُو العُـلَا هَـشَمَ الثَّرِيـدَ لِقَوْمِـهِ ... وَرِجَـالُ مَكَّـةَ مُـسْنِتُونَ عِجَـافُ

(2) أخبت الرجل إلى ربه: إطمأن إليه. وروي عن مجاهد أنه فسرها بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾. سورة الحج، الآية:32.

(3) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(4) الخلل: منفرج ما بين الشيئين، وخلل السحاب: مخارج الماء منه.

(5) الخلل بالكسر جفون السيوف، واحدتها خلة، وتسمي العرب من يعمل جفون السيوف خلالا، وقد سمي أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال نسبة إلى خلل السيوف.

(6) الشطن: الحبل الطويل الشديد الفتل، يستقى به، وتشد به الخيل، قال عنترة:

يَـدْعُونَ عَنْتَـرَ وَالرِّمَـاحُ كَأَنَّهَـا ... أَشْـطَانُ بِئْـرٍ فِـي لَبَـانِ الأَدْهَـمِ

(7) عطن الإبل: مبركه وموضع مبيته.



وَزَرَّتْ عَلَى أَعْنَاق الجِبَال أَطْوَاقَهَا، كَأَنَّهَا بِنَاءٌ عَلَى الجَوِّ مَقْبُوبٌ، أَوْ طَبَق عَلَى الأَرْض مَكْبُوب، تَمْشِي مِن الثِّقَل هَوْنًا، وَتَسْتَدْعِي مِنَ الرِّيح عَوْنًا، وَمَخَايِلُهَا تَقْوَى، وَعَارِضُهَا أَحْوَى، فَإِذَا أُذِن الله بالانْحِدَار، وَأَنْزَلَ مِنْه بِمِقْدَار، وَأَرْسَلَتِ الرِّيح خُيُوط القَطْر مِنْ بُرُود السَّحَائب، وَأَسْبَلَتْ إِسْبَال الذَّوَائِب، فَدَرَّت السَّمَاء مِنْ خِلْف مَصْرُور[1]، وَنَثَرت طلّها نَثَر الذُّرُور، ثُمّ انْخَرق جَيْبُهَا، وَانفَتَقَ سَيْبُهَا، فَصَارَ الطَّلُّ وَبْلًا، وَالخَيْط حَبْلًا، وَتَبَيَّنَت فِي الثَّرَى مَوَاقِع القَطْر، وَتَضَوَّعَتْ مِنْه رَوَائِح المَطَر. وَأَرْسَلَتِ السَّمَاء عَلَى الأَرْض مَجَادِيحَهَا[2]، وَعَمَّت بِالسُّقْيَا مَنَادِيحها[3] فَالسَّحَاب يَتَعَلَّق، وَالبَرْقُ يَتَأَلَّق، وَالرَّعْد يَرْتَجِس، وَالقَطْر يَنْبَجِس، مِن غُرُوب هَامِعَة، وَجُفُون دَامِعَة، تَبْكِي بِلَا حُزْن، وَتَجْرِي عَلَى وَزْن، وَالنُّقَطُ تَتَوَافَى طِبَاقًا، وَتَتَسَاوَى سِبَاقًا، فَيَرْتَدِفُ السَّابق بِالمصَلِّي، وَيَتَّصِل التَّابع بِالمُوَلِّي، وَتَقَع كَمَا يَقَع من المُنْخُل البُرُّ، وَيَنْتَثِر مِن النِّظَام الدُّرُّ، فَحُبُوبُ السَّمَاء تُسْقِطُه، وَأَكفّ الغُدْرَان تَلْتَقِطُه، فَكُلَّمَا جَاد صَوْبُهَا وَدَامَ ذَوْبُهَا، كَانَت لِغَلَّة شَوْق أَنْقَم، وَفِي حَبَّة القَلْب أَوْقَم، وَالأَرْض قَد فَتَحَت لِلسَّمَاء أَفْوَاهًا، وَجَرَعَتْ مِنْهَا أَمْوَاهًا، وَلَبَّدَ القَطْرُ ثَرَاهَا، وَأَحْسَنَ قِرَاهَا، وَسَقَاهَا عَلَى الصَّدَا فَشَفَاهَا، حَتَّى أَخَذَت رِيَّهَا مِنَ المَطَر، وَبَلَغَت مِنْه غَايَة الوَطَر، ثُمّ خَفِي مِن الرَّعْد تَسْبِيحُه، وَطُفِيَتْ مِنَ البُرُوقِ مَصَابِيحُه، وَحَسَرَت السَّمَاء نِقَابَهَا، وَوَلَّتِ السَّحَابُ أَعْقَابَهَا، وَحَكَت فِي مَرِّهَا طَلْق السَّابق[4]، وَهَرَب الآبِق[5]، وَخَلَص شُعَاع الشَّمْس إِلَى الأَرْض، فعَرَضْتهَا عَلَى القِفَار، وَقَد أَخَذَت زَخَارِفَهَا، وَنَشَرَت مَطَارِفَهَا، وَتَجلَّتْ رُبَاهَا لِلْعِيَان، وَتَزَيَّنَت تَزَيُّنَ القِيَان، وَتَحَلَّتْ بِمِثْل اللُّجَيْنِ وَالعِقْيَان، وَالْتَقَى

---

(1) الخلف المصرور: الحلمة التي تكون مملوءة بالحليب.

(2) مجاديح السماء: أنواؤها، يقال أرسلت السماء مجاديحها «وروي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه خرج للاستسقاء فصعد المنبر فلم يزد على الاستغفار حتى نزل، فقيل له إنك لم تستسق فقال لقد استسقيت بمجاديح السماء».

(3) المنادح: المفاوز والقفار، ومنادح الأرض ومناديحها أرجاؤها المتسعة، ومنه قوله: «لك منتدح في البلاد»؛ أي مذهب واسع عريض.

(4) تقول العرب للذي يسبق من الخيل سابق، وسبوق. والسبق: القدمة في الجري وفي كل شيء وهو مصدر.

(5) يقال أبق يأبق، فهو آبق استخفى وذهب وكذلك تأبق، قال الأعشى:

فَذَاكَ وَإِنْ لَمْ يُعْجِزْ إِلَى المَوْتِ رَبَّهُ   وَلَكِنْ أَتَاهُ المَوْتُ لَا يَتَأَبَّقُ



فِيهَا الثَّرَيَان[1] يُزْهَى نَجْمُهَا[2] وَشَجَرُهَا، وَيَنْدَى تُرْبُهَا وَحَجَرُهَا. فَتَرَدَّدتِ العُيُون فِي صِفَاتِهَا، وَابْتَهَجَتِ النُّفُوس بِالْتِفَاتِهَا، وَالنَّاسُ فِي الأَرْض مُنْتَشِرُون، وبالخِصْب مُسْتَبْشِرون، يَسْتَخْبِرُونَ عَن نُزُول الغَيْث، وَيُكْثِرُون مِنْ أَيْن وَحَيْث، وَقَد بَشَّرَ الزَّائِرُ أَهْلَه بِالمَرْعَى الخَصِيب، وَأَخذَ مِنْ رَغَد العَيْش أَوْفَى نَصِيب، وهَانَ عَلَى المُقِيم طُولُ السِّنِين، وَعَوزُ البَنِين، وَأَصْبَح الزَّمَان جَدِيداً، وَرَأْيُ الزَّارِع سَدِيدًا، وارتَعتِ الشَّاءُ وَالنَّعَمْ، وَكَثُرَت الآلَاءُ وَالنِّعَم، وَزَادَت الوَحْش فِي عَدْوِهَا، وَالطَّيْر فِي شَدْوِهَا.

فَالحَمْد لِلَّه عَلَى رَحْمَتِه الَّتِي أَنْزَلَهَا، وَنِعْمَتِه الَّتِي أَجْزَلَهَا، وَهَبَ الله لَنَا مِنَ الأَعْمَال أَبَرَّهَا، وَمِنَ الأَرْزَاقِ أَدَرَّهَا وَلَا أَخْلاَهُ مِن [مُرَدِّدٍ لِذِكْرِه] ولا مُرَاع لِشُكْرِه، وَحَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ.

قَالَ أَبُو عَمْرو عُثْمَان بْنِ عَلِي بْنِ عُثْمَانَ بْنِ الإِمَامِ[3] الإِسْتِجِّي وَمِمَّا كَتَبْنَا فِي هَذَا الغَرَضِ وَإِنْ كُنَّا عَارَضْنَا الجَوْهَرَ بِالعَرَضِ وَالصِّحَّةَ بِالمَرَضِ وَسَاجَلْنَا البُحُورَ بِالغُرَضِ مِنْ رِسَالَةٍ أَوَّلُهَا:

سَيِّدِي أَبَا القَاسِم، فَخْر الأَعْيَاد وَالمَوَاسِم، وَرَوْض الآدَاب النَّاسِم، وَفَجْر الثَّغْر البَاسِم، لا زَالَت تَخد بِذِكْرِك القِلَاص الرَّوَاسِم، وَتَتَعَطَّر بِنَشْر فَخْرِكَ الرِّيَاح النَّوَاسِم، وَتُعَبِّر عَن ثَنَائِك وَكَرَمٍ وَفَائِكَ الكِمَامُ البواسم:

كَتَبْتُهُ وُصِلَ جَذَلُكَ، وَأُبْرِمَ أَمَلُكَ، وَصَفَالِأَهْلِيك مَوْرِدُ الغُدُوّ وَمُنْهَلَك، فِي الدَّهْمَاء مِن رَمَضَان المعظَّم عَرَّفَنَا الله بَرَكَة اسْتِهْلَالِه، وَوَصَلَكَ مُنْتَهَى العَام مِن أَمْثَالِه، وَقَدْ كَانَت النَّوَى فَرَّقَتْنَا دُون وَدَاع نَقْضِي فِيهَا لِلنُّفُوس المَشُوقَةِ أَرَبًا، وَنَصِلُ لِلْأُخْرَى فِي حَال الانْقِطَاع سَبَبًا. وَفَارَقت الحَضْرَة الحَالِية بِحُلَاك، المُتَشَرِّفَةَ بِعُلَاك، فِي يَوْم كُلّه قَرٌّ،

(1) الثرى: يثنى، بثريان، وثروان، وثريت الأرض: لانت بعد الجدوبة.

(2) النجم من النبات: كل ما نبت على وجه الأرض؛ ونجم على غير ساق وتسطح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾. سورة الرحمن، الآية: 4.

(3) هو صاحب كتاب:«سمط الجمان وسقط الأذهان»، توفي بعد 550هـوكان ابن سعيد يعتمد عليه كثيرا. انظر ترجمته في: الذيل والتكملة 5/ 1-135. التكملة، ترجمة رقم 1833. والمغرب في مواطن متفرقة.



وَرِيحُه صِرٌّ[1]، وَالغَبْرَاء جَدِيبَة، وَالخَضْرَاء [سَجْحاً] كَمِرْآة الغَرِيبَة، وَالشِّمَال تَسْحَبُ فِي النَّبْت وَالغُبَار ذُيُولَهَا، وتَزحفُ للاكْتِبَاحِ فِي الرُّبَى والبُطْنَانِ خُيولَها، وَصَرُّهَا يَلْفَحُ الوُجُوهَ، وَيُؤْذِنُ هُنَالِك بِهَالِك [الحَرْث] وَمَنْ يَرْجُوه، وَالآكَام، تَتَلَفَّعُ بِالقَتَام والوِهَاد، لا عَهْد لَهَا بالعِهَادِ، والغِيطَانِ، تَنْبُو بالقُطَّانِ، والغُدْرَان، فِي بُحْرَان، وَالبِئَار[2]، كَالقُلُوب الحِرَار، تَلْتَهِب بِاليُبْس أَحْشَاؤُها، وَيُنْكِرُهَا دَلْوُهَا ورِشَاؤُهَا[3]، وَالقَرْم قَد سِيم الرُّغَاء، وَالبَهْم لا يُطِيقُ الثُّغَاءَ، وَاللَّيْث لا يَعْرِف النَّئِيم وَلَا المُغَاء[4]؛ فَعُقُودُ السَّوام مَنْثُورَة، وَحِبَال الرَّجَاء مَبْتُورَة، وَوُجُوهُ الأَنَام مَقْشُورَة، وَأَلْوِيَةُ الجَدْبِ [مَبْثُوثَة] مَنْشُورَة، وَبَنَات المَاء فِي حِمَى، تَكْتَحِل بِعَمَى، وَتُعَلَّل أَضْعَف دَماً، قَد أَزِفَ مَضَضُهَا، [وَرَدِفَ رَمَضُهَا] وَالْتَفَّ عَلَى أَشْلَائِهَا عَرْمَضُهَا، والأكرُ كَفَرَة، وَالحُكْر فَجَرَة. فَمِن قَانِط يَائِس، وَقَانِع بَائِس، وَمُغْتَبِطٍ بِمَا لَدَيْه حَائِس[5]، قَد بَرِم بِعِيَالِه، وَانْتَبَذ أَوْ كَادَ مِنْ أَطْفَالِه، يَلْحَظُهُم بِعَيْنٍ لا تَعْرِفُ الهُجُوع، وَيَنْطَوِي عَلَى ضُلُوع، تَحَكَّم فِيهَا سُلْطَان الجُوع، حَتَّى إِذَا عَلَت أَصْوَاتُهُم، وَاسْتَوَى فِي [الصَّدْمَة] وُلَاتُهُم وَعُفَاتُهُم، وَاتَّفَقَتْ - فِي الدُّعَاء لِلَّه عَلَى اخْتِلَافِهَا -لُغَاتُهُم؛ أَرْسَل الله الجَنُوب وَأَنْشأ من رَحْمَتِه بَحْرِيَّة فَتَشَاوَمَتْ، وَسَلَّط عَلَيْهَا حُكْم السُّبَاتِ فَتَنَاوَمَتْ، ثُمّ أَيْقَظَهَا بِحِكْمَةٍ أَبْدَعَهَا، وَقَد نَظَم وَدَاعَهَا، وَأَوْدَعَهَا مِنْ بَرَكَتِه الجَمَّة مَا أَوْدَعَهَا، وَأَمَرَ الرِّيَاح فَرَفعَتْ قِبَابَهَا، وَمَدَّتْ عَلَى الأَرْض أَطْنَابَهَا، فَأَمْسَت طَبَق الأَرْض، وَتَحَرَّتْ تَدُورُ فِي رَفْع وَخَفْض، فَمِنْ بَرْقٍ هَادٍ، وَرَعدٍ حَادٍ، وَلُجَج فِي مَحَافِلِها بَادٍ؛ حَتَّى إِذَا حَان حِينُهَا، وَأَرْزَمَ أَنِينُها، وَتَمَخَّضَ فِي بَطْنِهَا جَنِينُهَا، حَلَّتْ مِنْهُ مَزَادَهَا، وَأَسْبَلَتْ عِهَادَهَا، وَبَشَّرَتْ بِصِدْق الحَدِيث رُوادَهَا، وَاللَّيْل قَد وَقَفَ غاسقُه،

(1) الصِّرّ: بالكسر شدة البرد، ومن ذلك قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾. الآية: 117.

(2) البئر: القليب وتجمع على آبار، ومن العرب من يقلب الهمزة فيقول أبآر، وإذا كثرت فهي البئار، وإن قلت فهي أبؤر.

(3) الرشاء: الحبل الذي يستخدم لإخراج الماء من الدلو، يقال: أرشى الدلو أي جعل له رشاء.

(4) نأم الأسد ينئم نئيما: أخرج صوتا دون الزئير، ومغاؤه: صياحه.

(5) الحائس: الذي اختلط عليه الأمر فلا يدري ما يفعل، وهو مأخوذ من الحيس أي الخلط.



وَانْتَقَبَ خَانِسُهُ وَطَارِقُهُ، فَطَبَّقَتِ الآكَام وَالبِطَاح، وَأَغْدَقَت الوِهَاد والفِياح، وجَادَتْ لَيْلَهَا سَحّاً وَوَبْلا، وَهَطْلًا، مِثْل أَفْوَاه الجِرَاحِ، فَأَصْبَحَت الغِيَاضُ كَالحِيَاضِ، وَالرِّيَاضُ كالحَدَقِ المِرَاض، فللنُّبَاحِ هَرِير، ولِلتِّلَاعِ خَرِير:

وَكُــلُّ كِمَامَــةٍ فِيهَــا عَــرُوسٌ   وَكُــلُّ قَــرَارَةٍ فِيهَــا غَــدِيرُ[1]

فَلا تَرَى إِلَّا نِجَاداً، يَتَقَلَّدُ نِجَاداً[2] وَيَلْبَسُ بِجَاداً، وَغَوْرًا، يَلْتَفّ نَوْراً ويمورُ مَوْراً، وَبِسَاطًا يَنْشُر بِسَاطًا، وَيَنْفُضُ كِمَام زَهْرِه طَرَبًا وَنَشَاطًا، وأَرْسَانًا تَخْلَعُ أَرْسَانًا، وقِيَانًا تُرَدِّد أَلْحَانًا، زَرْقَاء خاماتٍ قَد نُشِرَت، وميتات نَبَات قَد حُشِرَت، وَآيَاتٌ مُمْحِلَاتٌ قَد مُحِيَتْ وَبُشِرَتْ، وَعَذَبَاتُ قَصَبَاتٍ قَدْ أُسْدِلَتْ وَنُشِرَتْ، وَنُفُوس بَعْد عَبُوس قَد اسْتَبْشَرَت، وَرَبُّ الزَّرْع مِنْهَا مُغْتَبِطًا، وَذُو الضَّرْع قَد أُكْرِمَ فَارْتَبَطَ، وَالمُدَّخِرُ قَد نَدِم عَلَى مَا احْتَجَن وَضَبَط، وَالنَّاس قَد رَامُوا أَمَلَه بَعْد القَنَط، وَالشَّحِيح بَعْد أن كَانَت يَدُهُ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِه قَد أَطْلَقَهَا وَبَسَط[3] وَجَمع الرَّعْي بالهَمَل والسَّوام بالإمام قَد الْتَقَط، يَطَأُونَ مِنَ الأَرْضِ مندسَها، وَيَسْتَنْشِقُون مُتَنَفَّسَها، وَيَسْتَشْرِفُونَ عَرُوسَ الدُّنْيَا المُقْبِلَة وَعُرْسَهَا.

الحَمْد لِلَّه الَّذِي لا يَعْسُر عَلَيْه بَعِيد، ولا يَفْعَل إِلَّا مَا يُرِيد، وَالشُّكْر العَرِيض المَدِيد، وَالثَّنَاء المُسْتَفِيض العَدِيد، عَلَى نِعَم بَسَطَهَا لِلْعَبِيد، وَدِيَم إِلَى الأَرْض الجُرُز[4] سَاقَهَا وَلَدَيْهِ المَزِيد، وَرِهَمٍ إِثْرَ رِهَمٍ[5]، أَسْقَطَهَا بِقَدَرٍ وَتَحْدِيد، فَأَنْبَت بِهَا

---

(1) البيت من الوافر.

(2) النجاد: الهضاب، والنجاد الثانية: لعلها تعني النبت الذي يزين الهضاب بعد سقوط المطر، فتكون كالبجاد الذي يلبسه الإنسان.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً﴾ سورة الإسراء، الآية: 29.

(4) الأرض الجرز: هي التي لا نبات فيها، جاء في التنزيل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعاً﴾. سورة السجدة، الآية: 27.

(5) الرهمة: المطر الضعيف الدائم الصغير القطر، وتجمع على رِهَمٍ ورِهَام.



﴿جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[1]. حَمْدًا وَشُكْرًا يَبْدَأُ بِهِمَا العَبْد وَيُعِيد، وَشُكْراً لِأَيَادِيهِ عِنْدَنَا بِالنُّمُوّ وَالتَّخْلِيد، لا رَبَّ سِوَاه، ولا مَعْبُود حَاشَاه، تَقَدَّسَت أَسْمَاؤُه، وَتَعَالَى جَلَالُه وَكِبْرِيَاؤُه. وَأَعْلَمْتُك -أَعَزَّكَ اللهُ- بِذَلِك وأنا أَرْجُو أَنَّ نِعَمَ اللهِ قَد شَمِلَت تِلْك الأَقْطَار، وَأَوْفَرَتْ حَظَّكُم مِنْ تِلْك القِطَار[2]، وَالسَّحَاب الحُفَّل الغِزَار.

وَأَمَّا تَطَلُّعِي إِلَى مَعْرِفَة ذَلِك فَتَطَلُّعُ الغَرِيق إِلَى اسْتِشْرَاف السَّاحِل، وَالصَّائِم إِلَى الهِلَال النَّاحِل، فَلَك الفَضْل فِي تَعْجِيل الإِعْلَام، وَتَسْكِين الأُوَام. إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الفَقِيهِ أَبِي الفَضْلِ ابْنِ عِيَاض رُقْعَةً حَمَلَ فِيهَا الفَتْحَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ تَحِيَّةً لِلرَّئِيسِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَاهِر[3]:

عِمَادِي أَبَا النَّصْر[4] مَثْنَى الوَزَارَة وَسَنِيَّ الإِمَارَة ووحيد العَصْر، هَل لَك فِي مِنَّة تَفُوقُ الحَصْر، تَخِفُّ مَحْمَلًا، وَتَبْلُغُ أَمَلًا، وَتَشْكُرُ قَوْلًا وَعَمَلًا، شُكْرًا تَتَرَنَّمُ بِهِ الحُدَاة ثَقِيلًا وَرملا، إِذَا بَلَغَت الحَضْرَة العَلِيَّة مُسْتَلِمًا، وَلَقِيت الطَّاهِر بن الطَّاهِر[5] فَخر الوَزَارَة مُسَلِّمًا، وَحَلَلْت فِي فِنَائِه الرَّحْب[6] حَرَمًا، وَلَمَسَت بِمُصَافَحَتِه رُكْن المَجْد يَنْدَى كَرَمًا. فَقِف شَوْقِي بِعَرَفَات تِلْك المَعَارِف، وَأَنِّسْ شُكْرِي بِمَشَاعِر تِلْك العَوَارِف[7]، وَأَبْلِغْ عَنِّي تِلْك الفَضَائِل سَلَامًا، يَلْتَئِم بِصَرِيح الحُبِّ الْتِئَاما، وَيَحْسُنُ عِنْدِي بِظَهْر الغَيْب مَقَامًا، وَيَسِيرُ بِأَرَجِ الحَمْد إِنْجَاداً واتِّهامًا.

---

(1) سورة (ق)، الآيتان: 9-10.

(2) القطار: يقصد بها الأمطار التي تسقط قطرات متفرقة.

(3) القاضي عياض شهرته طبقت الآفاق، حتى قيل: «لولا عياض ما عرف المغرب». وقد ألفت فيه مؤلفات كثيرة متنوعة، وفي جوانب متعددة من شخصيته. وأهم كتاب ترجم له هو: «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» لأبي العباس المقري. والرسالة في القلائد، ص: 255، والأزهار 4/ 1.

(4) القلائد، والأزهار: أبا نصر.

(5) القلائد والأزهار: طاهر، وترجمته في القلائد، ص: 52، المغرب 2/ 247.

(6) القلائد والأزهار: الأرحب.

(7) القلائد والأزهار: «وأطف إكباري بكعبة ذاك الجلال سبعا وبوئ لودادي في مقر ذلك الكمال ربعا»



وَلَهُ فَصْلٌ مِنَ الرِّسَالَةِ[1]:

لا بُد لِكُلّ حِين -أَعَزَّكَ الله[2]- مِن بَنِين يُحَلُّونَ عَاطِلَهُ، ويُجَلُّونَ فَضَائِلَه، وَلِكُلّ مَجَال، مِن رِجَال، يَقُومُون بِأَعْبَائِه، وَيَهِيمُونَ فِي كُلّ وَادٍ بِأَنْبَائِه، وَإِن كَانَت جَمْرَة الأَدَب هَامِدَة، وجِذْوَته خَامِدَة، وَلِسَانُه حَصِيرًا، وَإِنْسَانُه حَسِيراً، فَلَمْ يُخْلِهِ اللهُ مِن هِلَال يَطْلُع فَيُشْرِقُ فِي سَمَائِه بَدْراً، وَزُلَال يَنْبُع فَيُغْدِقُ بِفَضَائِهِ بَحْراً، وَشِبْلٍ يَشْدُو، فَيَزْأَرُ مِنْ غَابِه لَيْثاً، وَطَلٍّ يَبْدُو، فَيُمْطِرُ مِنْ رَبَابِهِ غَيْثاً.

وَمِنْ إِنْشَاءِ الكَاتِبِ أَبِي الحُسَيْنِ القُرَشِيِّ العَامِرِيِّ إِلَى قَبْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إِلَى البَشِير النَّذِير، المُبْتَعَثِ بِالتَّرْغِيب وَالتَّحْذِير، المُنْقِذِ مِنَ الحَيْرَة واقْتُبِسَ النُّورُ، وتُدُورِسَ الكِتَابُ المَسْطُورُ، وَطَاب المُعَرَّسُ[3] وَالمَقِيلُ، وَحَظِيَ الصَّفيَّانِ مَالِكٌ وَعقِيلُ، فَوَاهاً ثُمّ وَاهاً، مَا شَاقَتِ الذِّكْرَى أَوَّاهاً، يَوْمَ ظَعَنَ الزَّوْرُ، وَطُلِعَ النَّجْدُ وَهُبِطَ الغَوْرُ، وَاسْتَقَلّ الرَّائِحُ، وَاسْتَهَلّ الرَّابِحُ:

وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ[4]

وَغُودِر رَهْن الحَيّ بَائِسٌ، وقَعَدَ حِلْسَ البَيْتِ طَاعِمٌ لَابِس، لَم يَرْحَل لِبِغْيَةِ المَكَارِمِ، ولا أَنِفَ مِنْ مَقَامِ المُجْرِم الآثِم، فَيَفُوز بِإِلْقَاء النَّفَثِ، وَيَعُود مِنْ شَقَا النُّطَفِ وَالرَّفَث، أَمَا إِنَّه دَمْع جَاد، وَعَزْمٌ خَلَعَ النِّجَاد، حِينَ أَنْضَبْتِ المَزَاد، وَعَدِمَتِ الرَّاحِلَةُ وَالزَّادُ،

---

(1) الرسالة في القلائد، ص: 258، وأزهار الرياض.

(2) القلائد والأزهار: «لا بد أعزك الله لكل حين».

(3) المعرس والمعرس: مكان التعريس، وهو نزول القوم من السفر آخر الليل.

(4) الشطر ضمن أبيات، يقول فيها الشاعر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ المَهَارَى رِحَالُنَا ... وَلَا يَنْظُرِ الغَادِي الّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

الشعر والشعراء، ص: 13، سمط اللآلئ، ص: 77.



وَلَم أَسْتَطِع السَّبِيلَ، وَلَازَمْتُ المَرْتَعَ الوَبِيلَ، فَمِنْ أَرَقٍ عَلَى أَرَقٍ[1]، وَحُرَقٍ، غِبَّ حُرَق، وَمِنْ نَفَسٍ يَتَرَدَّد، وَقَبَس بَيْن الجَوَانِح يَتَوَقَّد، أَسَفاً أَلَّا أَكُون مِمَّنْ هَجَر وَسَرَى، وَعَفَّرَ خَدَّهُ فِي الثَّرَى، وَلَحِقَ بِخَيْر فَرِيق، وَشَهِدَ لَيَالِيَ التَّشْرِيق[2]، وَلَبَّى وَدَعَا، وَخَبَّ فِي بَطْن الوَادِي وَسَعَى، وَوَقَفَ بِعَرَفَهْ، وَسَأَلَ الله لَمَّا سَقَى بِطَرَفَهْ، وَدُفِعَ إِلَى المُزْدَلِفَة، وَنَقَع صَدَأَ النَّفْس الكَلِفَة، وَرَمَى وَنَحَرْ، وَاسْتَطَاب الأَصِيلَ وَالسَّحَر، وَاسْتَلَم وَصَدِعَ، وَاجْتَهَد فِيمَا اسْتُودِعَ، وَاطَّوَّف بِالبَيْت العَتِيق، وَاطَّيَّبَ بِمِسْكِهِ الفَتِيقِ، وَتَقَرَّاهَا مَسَالِك، وَتَقَصَّاهَا مَنَاسِك، وَعَاجَهَا ذُلُلًا رَوَاتِكَ[3] عَلَى المُنِيفَة العِمَاد، المَرِيعَةِ الوِهَاد، ذَات.... وَالنَّكِير، المُوقظ بِالعِظَةِ وَالتَّذْكِير، النَّافِحِ الأَرْدَان، المُنَاجِي بِه صَاحِبَ غُمْدَان[4]. نَبِيّ الرَّحْمَة وَالرَّحْمَن، وَالصَّرِيح اللّبات مِنْ عَدْنَان، عِصْمَة اللَّائِذ بِأَكْنَافِهِ، وَصَفْوَة الغَطَارِيفِ مِنْ عَبْد مَنَافِه، المُبَرَّأ مِنَ العَاب، المُرَدَّد الأَعْرَاف فِي الطِّنَابِ الطِّنَاب، دَيَّان العَرَب، وفرّاج الكُرَبِ، سُلَالَة عَبْدِ المُطَّلِب، وَمَعَادِن الزَّمَن الكَلِب، المَنْصُورِ بِالصَّبَا، المُجَهِّز البُعُوث أَيْدِي سَبَا، الصَّادِع بِمَا أُمِر، السَّافر عَمَّا يُضْمِر، الَّذِي قَامَ بِه الأود، وَتَعَبَّد بِشَرِيعَتِه الأَحْمَروالأَسْوَد، سَيِّد البَشَر، وَحَامِي أَبْنَائِه لِيَوْم المَحْشَر، المُوَقَّر المُعَزَّر، المُؤَيَّد المُؤَزَّر، المُوثِر بِالآيَات، المُؤَيَّد بِالبَيِّنَات، المُتَحَدِّي بِالآيَات، الطَّيِّب الأَزَرَة، الصَّيِّب بِالعَفْو عَن قُدْرَة، خِيرَة الله مِنْ خَلْقِه، المُنْجِي مِنَ الضَّلَال وَرِبْقِه، النَّاطِق بِالبَيَان، النَّاسِخ لِلْأَدْيَان، المُجِير مِن الرَّوْع وَالوَجَل، المُرْسَل عَلَى دُنُوٍّ مِنَ السَّاعَة وَقُرْب مِن الأَجَل، خَيْر مُوَسَّدٍ فِي الدِّيَم،

---

(1) ينظر فيه إلى قول الشاعر:

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ

(2) التشريق: صلاة العيد، وأخذ من شروق الشمس، لأن ذلك وقتها، وقال شعبة التشريق: الصلاة في الفطر والأضحى بالجَبَّان.

(3) الراتكة من النوق: التي تمشي وكأن برجليها قيدا وتضرب بيديها، ويقال: أرتكت البعير إذا حملته على السير الحثيث.

(4) صاحب غمدان: هو سيف بن ذي يزن الذي كان يعرف بالبشارة مبعث الرسول ﷺ، صبح الأعشى 5/ 40، معجم ما استعجم 3/ 1002، معجم البلدان «غمدان».



وَسِرّ الفَوَاطِمِ[1] مِنْ قُرَيْش وَالعَوَاتِكِ مِنْ سُلَيْم[2]. الَّذِي جَرَى المَاء مِنْ بَنَانَه مُتَفَجِّر، وَسَعَتْ بِه النَّاقَة الأَدْمَاءُ مُتْعَنْجِراً، وثلجتْ بِحِكْمَتِه القُلُوبُ الهِيمُ، وَبَشَّرَ بِه عِيسَى وَدَعَا لَهُ إِبْرَاهِيمُ. المُخْتَار مِن الرَّفِيق الأَعْلَى، المُمْتَارُ من الرَّحِيق الأَحْلَى، عَلَيْه أَفْضَل الصَّلَاة وَالتَّسْلِيم، مَا اشْتَدَّ صَائِب الكَلَام، وَامْتَدَّ ثَائِبُ الأَحْلَام، مِنَ الطَّلِيح المُلْقَى، المُتَمَسِّك بِعُرْوَتِه الوُثْقَى، المَهِيضِ الجَنَاح، [المُتَطَلِّع] لِلنِّزَاع والارْتِيَاح. المُقْتَفِي أَثَرَهُ، المُصَدِّق له وَلَمْ يَرَهُ، المُنْتَبِذِ مَكَاناً قَصِيّاً[3] المُدِير عَلَى الأَيَّام زَمَنًا عَصِيّاً، المُتَمَيِّز بِكَرَم صِهْرِه، المُتَحَيِّز إِلى عَامِر بن فِهْرِه، المُتَضَرِّم اللَّوْعَة، المُتَدَفِّق الدَّمْعَة، سَلِيل ابْن مُحَمَّد بن زَمْعَة. خَطَطْتَهَا يَارَسُولَ الهُدَى، وَعِلْم النَّجَاة وَالنَّاس سُدًى، أَحْرُفاً بَرَّة، أَدْمُعاً ثَرَّة، شَوْقًا إِلَى مَحَطّ ضَرِيحِك، وَوُجُودِ رِيحِك، وَشَغَفاً بِمَحَطِّ رِكَابِك، وُرُودِ كِتَابِك، حَيْث نَزَل الرُّوح الأَمِين، وَظَهَرَ السِّرُّ الكَمِينُ، الظِّلّ وَالمَاء، وَالنَّخْل وَالقَصْر والحَمَاء، دَار الهِجْرَة وَالإِيمَان، وَمَغْنَى الغِبْطَة وَالأَمَان، مَنْزَع الرِّحْلَة والتَّسْيَار، ومَنْجَع المُصْطَفَيْن الأَخْيَار، وَمَنْ لِي أَنْ أَزْجرَهَا أَيَا مِنْ، وَأَحُلَّ مِنْ طَيْبَةَ الحَرَم الآمِن، فَأَنْزِلْ إِكْرَاماً، وَأَكِبَّ اعْتِنَاقاً وَالتِزَاماً، وأَسْتَأْمِنَ مِنَ الفَزَع الأَكْبَر، وَأَزُور الرَّوْضَة بَيْن القَبْر وَالمِنْبَر، وَأُصَلِّي مِن كَثَب، عَلَى المُنْتَخَب المُنْتَجَب، وَأُسَلِّمَ عَلَى العُمَرَيْن[4]، وَأَسْرُوَ عَنْ فُؤَادِي حُجُبَ الدَّيْن، وأُفْضِي بِذَاتِ صَدْرِي، وَأَسْتَغْفِرُ الله مِمَّا يَدْرِي، وَأَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي، وَأَبْرَأ إِلَى يَوْمِي الأَغْبَط مِنْ أَمْسِي، فِي حَيْث يُمَتَّعُ السَّائِل، وَتُشَفَّعُ الوَسَائِل، وَتَنْجَاب الذُّنُوبُ، وَتَطْمَئِنُّ الجُنُوبُ.

---

(1) يقصد بسر الفواطم من قريش: أن النساء اللواتي ولدنه تسمى كل واحدة منهن فاطمة، قال ابن بري: والفواطم اللاتي ولدن النبي قرشية وقيسية ويمانية وأزدية وخزاعية. تلك هي سلسلة النساء اللواتي ينتسب الرسول إليهن.

(2) جاء في الحديث أن الرسول قال: «أنا ابن العواتك من سليم»، والعواتك من سليم ثلاثة وهن: عاتكة بنت هلال، وعاتكة بنت مرة، وعاتكة بنت الأقوص بن مرة بن هلال أم وهب بن عبد مناف، بن زهرة جد الرسول ﷺ.

(3) في ذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾. سورة مريم، الآية:21.

(4) العمران: هما أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



اللَّهُمَّ يَا مَنْ بِيَدِه القُلُوبُ، وَلَدَيْهِ المَطْلُوبُ، فَإِنِّي أَتَوَسَّلُ بِنَبِيِّكَ المُرْتَضَى، إِلَى أَدِلَّةِ فَرْضِكَ المُقْتَضَى، وَأَسْأَلُكَ ثَرْوَة تُعِينُ، وَمَرْوَةً عَلَى قَرْعِ الحَوَادِث لَا تَلِينُ؛ حَتَّى تُكْرِمَنِي هَذِه الوِفَادَة، وتَسِمَنِي بِحُظوتِها المُسْتَفَادَة، وتُقْطِعَنِي شَرَفَ تِلْكَ المَكَارِمِ، وتُطْلِعَنِي مِنْ هَاتِيكَ الرُّبَى وَالمَعَالِم. أُنَاجِيكَ يَارَبَّ العِبَادِ نَجِيَّةَ الفُؤَادِ، وَكَمِّيَّة الأَمَلِ المُرْتَادِ، ومُسْتَشْفِعاً إِلَى هَذَا القَبْرِ المُنْتَابِ، إِلَى مَا أُضْمِرُ مِنْ طِلَّابِ، وأَرْجُو مِنْ حُسْنِ مَآبٍ، وَمِنْك الإِجَادَةُ وَإِلَيْكَ المَآبُ، وَأَنْت الجَوَّادُ وَالوَهَّابُ؛ ثُمّ التَّحِيَّةُ أَرَقُّ مِن النَّسِيمِ، المُنْسَابَةُ كَالخَيْرِ العَمِيمِ، يَقْدُمُهَا وَفْدُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ، وَيَحْدُوها جُهْدُ التَّكْرِيمِ وَالتَّنْعِيمِ، عَلَى النَّبِيّ الأُمِّيِّ، نُورِ النَّدَى وَالنَّدِيّ، وَعَلَى ضَجِيعَيْهِ مِنْ تَيْمٍ وَعَدِيٍّ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ ابنِ مُبَشِّر في رَفْعِ ظُلْمٍ مِنْ أَحَدِ العُمَّالِ:

حَضْرَة سَيِّدِنَا الإِمَام الأَعْدَل المَلِك الأَعَزّ الأَفْضَل أَبِي يَعْقُوبَ[1] بن سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِير المُؤْمِنِين الَّتِي أُسِّسَت عَلَى القِسْط وَالعَدْل قَوَاعِدُهَا، وَانْهَلَّتْ بِالغُرِّ الغَوَادِي عَلَى الأُمَّةِ رَوَاعِدُهَا، وَرَمَت الجَوْر فَأَقْصَدَتْهَا يَدُهَا البَاطِشَة وَسَاعِدُهَا، أَبْقَاهَا الله يَسْتَمِرّ سَاكِنُهَا وَيَدُوم خَالِدُهَا، عَبْدُهَا العَامِلُ عِيسَهُ المَنضاةُ إِلَيْهَا، رَاجِي الفَرَج الوَشِيك مِمَّا حَلّ لَدَيْهَا، فُلَان بن فُلَان، السَّاكِن بِمَوْضِع كذا مِن بِلَاد إِفْرِيقِيَّة، سَلَامٌ عَلَى الحَضْرَة الإِمَامِيَّة، وَالنُّصْرَة الحُسَامِيَّة، وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُه.

أَمَّا بَعْد حَمْد الله خَالِق الخَلَائِق وَمُدَبِّرِ الأُمُور، حَاشِر الأَئِمَّة المُقْسِطِين عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُور، وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّد المُصْطَفَى صَلَاة تُوَلِّيهِ المَقَامَ المَحْمُودَ، وَالحَوْضَ المَوْرُودَ، يَوْمَ العَرْض الجَامِع وَالنُّشُور؛ وَعَنِ الإِمَام المَعْصُوم المَهْدِيِّ المَعْلُوم الحَاكِم عَلَى الجَوْر بِالخُمُول الخَاسِئِ وَالدُّحُورِ، والدُّعاء لِسَيِّدِنَا أَمِير المُؤْمِنِين بِالتَّأْيِيد العَزِيز لِعَلَمِهِ المُظَفَّرِ وَلِوَائِهِ المَنْصُورِ، وَلِنَجْلِهِ الأَمِير الأَجَل أَبِي يَعْقُوب فِي سُعُود تَنْتَظِم فِي مُلْكِهِ انْتِظَام السُّلُوك النَّفِيسَةَ عَلَى النُّحُور.

---

(1) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن الموحدي، المعجب، ص: 236-237-348، الحلل الموشية، ص: 157، المن بالإمامة، ص: 206-207.



فَإِن عَبْدَكُم لَقِي عُبُوساً مِن وَجْه الجَوْر وَوُجُوماً، وَأَتَاكُم بَعِيد الدَّار مَظْلُوماً، وَرَجَا مِنَ الحَضْرَة الإِمَامِيَّة أن تُرْسِلَ عَلَى مُرِيد الضَّلَالَة رُجُوماً. وَإِنَّ عَتِيقاً بن مَكْسُور[1] الجَنْبِ الَّذِي كَسْرُه أَكْذَب اسْمَه وَصَدَّقَ اسْمَ أَبِيه، وَضَجَّت الأَرْض وَعَجَّت لِقُبْح مَا ياتيه، فَإِنَّه كَان قَاضِياً فِي أَيَّام النَّصَارَى -دَمَّرَهُم الله- يَخْدُم مُكُوسَهُمْ، وَيَفْدِي بِنَفْسِه الخَائِنَة نُفُوسَهُم، قَد اتَّخَذ أَعْوَاناً وَوَزَعَة[2]، وَأَبْرَزَ شَنْعَه وَبِدَعَه، وَقَد بَعُد عَن مَعْرِفَة التَّوْحِيد وَعِلْمَه، وَلَمْ يَجْر عَلَى حَدِّه المُطَّرِد وَرَسْمِهِ، بَلْ يَحْكُم فِي النَّوَازِلِ، بِالرَّأْي الفَائِلِ، ويَقْضِي فِي الحَوَادِث، بِالنَّظَر العَابِث، يَسْلُك فِي سُبُل المَظَالِم وَطُرُقِهَا، وَيَضْرِب ظُهُورَ المُسْلِمِين بِغَيْر حَقِّهَا، وَيُعَضِّدإِلَى مَن بالمنستير مِن العِبَاد الَّذِين خفرتهم ذِمَّة سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا وَرَحْمَتُه، وَتَكَنَّفَتْهُمْ رَأْفَتُه وَمَحَبَّتُه.

وَكَتَب لَهُم كِتَاباً يَعْنُو لَه كُلُّ مَنْ قَرَأَهُ وَيُذْعِن، ويُوغِل فِي [بِرِّه] وَتَكْرِمَتِهِ وَيُمْعِن، وَمَع مَا نَال العِبَاد مِنَ الكَرَامَة الكَرِيمَة، وَالأَيَادِي الجَزِيلَة العَمِيمَة، يَضْرِبُهُم بِالسِّيَاط إِيقَاعاً، وَيَمْلأُ قُلُوبهم ذُعْراً مُخِيفاً وارْتِيَاعاً؛ وَمِنْ نَوَازِلِه القَبِيحَة، الشَّاهِدَة عَلَيْه بِالفَضِيحَة، أَنَّه رَدَّ امْرَأَةً تَسْكُن مَنْزِل الأَبَوَيْن كَان قَد طَلَّقَهَا زَوْجُهَا ثَلَاثاً، فَرَدَّهَا إِلَى زَوْجِهَا وَنَقَضَ عُرَى الشَّرعِ إِنْكَاثاً، وَأَخَذَ عَلَى ذَلِكَ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ أَكَلَهَا سُحْتاً، وَحَكَمَ بِالبَاطِلِ بَحْتاً، وَعِنْدَ عَبْدِكُمْ مِنْ قَبِيحِ قَضَايَاهُ، وَذُنُوبِهِ فِي السُّنَّةِ وخطَايَاهُ، مَا إِنْ أَذِنْتُمْ فِي شَرْحِه، أَطْلَعْتُ مُنْبَلِجَ صُبْحِه، وَأَيَّامُكُمْ - أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَكُم - [تَمْحَقُ] البَاطِلَ وَتُزْهِقُهُ، وَتَسْتَنْفِدُ شُكْرَ الشَّاكِرِ وتَسْتَغْرِقُهُ، وَعَبْدُكُمْ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَكُمْ - قَدْ طَال بِالحَضْرَة السَّامِيَةِ مُقَامُه، وَشُرِّدَ بِارْتِيَاعِه كَرَاهُ وَمَنَامُه، وَرَغِب فِي الرُّجُوع إِلَى بَلَدِه، وَاجْتِمَاع [شَمْلِه] بِأَهْلِه وَوَلَدِهِ، فَالرَّحْمَة العَمِيمَة لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الإِمَام الأَعْدَل، المَلِكِ الأَعَزِّ الأَفْضَل، عَلَى العَبْدِ الرَّاجِي فِي أَنْ يَكْتُبَ لَهُ كِتَاباً يَامَنُ بِه مِمَّنْ يَكِيدُه، وَيَصِلُ بِبَرَكَتِه

---

(1) انظر الذيل 8/ 1-286، التعليق رقم: 399.

(2) الوزعة: الأعوان، جاء في حديث الحسن البصري لما ولي القضاء قال: «لا بد للناس من وزعة»؛ أي أعوان يكفونهم عن التعدي والشر والفساد «اللسان».



إِلَى مَا يَرْغَبُهُ مِنَ الدَّعَة، [وَيُرِيدُه]. وَأَنَا -أَدَام الله تَأْيِيدَكُمْ- قَد جُبْتُهَا مَهَامِهَ وقِفَاراً، وَلَبِسْتُ تَأْمِيلَكُم النَّجِيح [دِثَاراً]، فَإِنْ مَنَنْتُمْ عَلَى عَبْدِكُم بِإِفْرَاخِ رَوْعِه، وَتَمْيِيزَهُ عَنْ نَوْعِه، وَأَصْحَبْتُمُوهُ كِتَاباً كريما، يُطَالِعُهُ بِه الأَمَل وَسِيماً، وَفَّرْتُمْ [لَهُ] عِنْد الله [ثَوَابًا] جَزِيلًا وَأَجْراً، وَبَايَعْتُمُوهُ فَأَرْبَحكُمْ تَجْراً. وَالله جَلَّ وَعَزَّ يُقِيم بِكُم لِلْعَدْل مَنَاراً لَا يَعْفُو أَثَرُه، وَيُبْقِيكُم تَحْيَا بِكُم قَضَايَا الفَارُوق وَسِيَرُه، ولا زَال لِلْحَقِّ مَا يَاتِيهِ نَظَرُكُم المُوَفَّق وما يَذَرُه، بِمَنِّه لا رَبّ غَيْرُه وَالسَّلَام.

وَكَتَبَ عَنْ رَجُلٍ قُتِلَ أَخُوهُ ظُلْماً:

حَضْرَةُ سَيِّدِنَا الإِمَام الأَعْدَل المَلِك الأَعَزِّ الأَفْضَل أَبِي يَعْقُوب أَدَامَه الله حَاقِناً لِلدِّمَاء بِالقَوَد وَالقِصَاص، حَاكِماً بِالقِسْط عَلَى ذَوِي التَّمَرُّد وَالاعْتِيَاص، عَبْدُه المُسْتَجِير بِحِمَاه، الشَّاكِي إِلَيْه سَهْماً قَصَدَهُ بِه الدَّهْر وَأَصماه [فُلَان] سَلَامٌ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُه، أَمَّا بَعْد حَمْدِ الله الَّذِي رَفَعَ بِالإِمَامَة المَهْدِيَّة ظُلْماً نَازِلاً وَعُدْوَاناً، وَجَعَلَ لِوَلِيِّ المَقْتُول المَظْلُوم عَلَى قَاتِلِه وَظَالِمِه سُلْطَاناً[1]، وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّد المُصْطَفَى صَلَاةً نُرَدِّدُهَا وَنُكَرِّرُهَا إِسْرَاراً وَإِعْلَاناً، وَنَسْأَلُه لِلْإِمَام المَهْدِيِّ رِضًى يُحِلُّهَا لله بِه فِي الفِرْدَوْس الأَعْلَى مَحَلًّا رَفِيعاً وَمَكَاناً، وَلِسَيِّدِنَا أَمِير المُؤْمِنِين فِي نَصْرٍ عَزِيزٍ وَفَتْحٍ مُبِين يَكْسِرُ نَوَاقِيس مُضَلِّلَةً وَصُلْبَاناً، وَلِنَجْلِهِ الأَمِير الأَجَلِّ فِي سُعُود [مُتَتَابِعَات] [تُسَاق] إِلَى سُدَّتِهاالمُكَرَّمَة زَرَافَاتٍ وَوِحْدَاناً.

فَإِنَّ عَبْدَكُم اللَّائِذ فُجِعَ بِحَمِيمِه، وَكَرَع مِنَ الأَسَى وَالحُزْنِ فِي [مَقْشُوبِهِ] وَمَسْمُومِهِ، وَرَجَا أَن يَأْخُذَ بِقِسْطِكُمْ وَعَدْلِكُمْ مِنْ ثَارِه [بِمُقِيمِهِ].

وَشَرْح هَذِه النَّازِلَة -أَيَّدَكُم الله- وَتَفْسِيرُهَا، وَوَضْعُهَا عَلَى كُنْهِهَا وَتَحْبِيرُهَا؛ أَنَّ أَخِي عَدَا عَلَيْه شَرِيكُه فَشَدَخَ فِي حَال نَوْمِه [بِإِرْزَبَّةٍ][2] رَاسَه، أَذْهَبَت حَيَاتَه وَأَفَاتَت

(1) مقتبس من قوله تعالى:﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾. سورة الإسراء، الآية: 33.

(2) المرزبة والإرزبة: عُصَيَّةٌ من حديد يكسر بها المدر. «اللسان».



أَنْفَاسَه، فَتَصَايَحَ النَّاس عِنْد ذَلِك، وَأَتَوْا مِنْ هُنَا وَهُنَالِك، وَوَجَدُوا أَخِي وَعَايَنُوه مُضَرَّجاً فِي دَمِه، مُصَرَّعاً بِيَدَيْه وَفَمِه، وَفَرَّ القَاتِل عِنْد ذَلِك بَيْن سَمْع الأَرْض وَبَصَرِهَا، لا يُعْرَفُ لَه مَكَان فِي بَدْوِهَا ولا حَضَرِهَا، ثُمّ رَجَعَ الآنَ وَتَوَاعَدَنِي بِالإِهْلَاك وَالقَتْل، وَقَال: سَأَفْعَل بِه مَا فَعَلْتُ بِأَخِيه مِنْ قَبْل.

وَهَا أَنَا -أَدَام الله تَأْيِيدَكُم- قَد لُذْتُ بِحِمَاكُمْ، وَتَنَسَّمْتُ رَوْحَ نُعْمَاكُم، فَعَسَى أَنْ يُنْهِي إِلَى الطَّلَبَة -أَكْرَمَهُم الله- بِمَوْضِعِ كَذَا أن يُنْفِذُوا مَن يَتَكَفَّل بِإِحْضَارِه، وَيُزْعِجه عَن أَهْلِه وَدَارِه، حَتَّى تَمْكُنَ مُحَاكَمَته، وَتَتَأَتَّى مُقَاعَدَتُهُ وَمُخَاصَمَتُه. وَالله عَزّ وَجَلّ يُبْقِيكُمْ لِحَقْن دِمَاء وَإِبْقَاء نُفُوسٍ، وَإِطْلَاع بُدُور مِن السِّيرَة العَادِلَة وَإِشْرَاق شُمُوسٍ. بِمَنِّه.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

إِلَى حَضْرَة سَيِّدِنَا الأَمِير الأَجَلِّ أَبِي يَعْقُوب مَدّ الله لَهَا فِي البَسِيطَة ضِيَاء وَنُوراً، وَجَعَل [المَطْوِيّ] مَنْ عَدْلُهَا [مُذِيلًا] مَوْفُوراً، مِن اللَّائِذ بِعَدْلِهَا وَقِسْطِهَا، وَالرَّاجِي لِإِفَاضَتِهَا الرَّحْمَة عَلَيْه وَبَسْطِهَا، فُلَان. سَلَام عَلَيْهَا وَرَحْمَة الله وَبَرَكَاتُه. أَمَّا بَعْد حَمْد الله الَّذِي جَعَل العَدْل ظِلًّا مَمْدُودًا، وَعَذْباً [نَاقِعًا] بَرُوداً وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّد المُصْطَفَى صَلَاة أُوَلِّيهَا تَكْرِيرًا وَتَرْدِيدًا، وَعَلَى الإِمَام المَهْدِي القَائِم لِإِعَادَة شِرَاع الإِسْلَام قَشِيباً جَدِيدًا، وَالدُّعَاء لِسَيِّدِنَا أَمِير المُؤْمِنِين فِي أَنْ يُولِي الله حِزْبه المَنْصُور تَظْفِيراً وَتَأْيِيدًا، ولِسَيِّدِنَا الأَمِير الأَجَلّ أَبِي يَعْقُوب[1] فِي سَعْدٍ مَكِينٍ يَبْغِي ضِعْفاً وَيَطْلُب مَزِيداً.

فَإِنَّ إِخْوتِي جَارُوا عَلَيَّ يومَ اقْتِسَامِهِم، وَسَلُّونِي كَمَا تُسَلُّ الشَّعْرَةُ مِنَ العَجِينِ مِنْ أَسْهَامِهِم، فلَمْ يَفْرِضُوا لِي مِنْ فَرِيضَة، بلْ قَدَّرُوا حِصَّتِي مِنْهَا مَنْقُوصَةً مَغِيضَة، وَقَدْ سَدَّدَتْ إِخْوَتِي نِصَالَها، وأَسَاءَتْ مَعِي......بِحَيْسِي:

---

(1) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن، وقد مرت الإشارة إليه سابقا.



وَإِذَا تَكُـــونُ كَرِيهَـــةٌ أُدْعَـــى لَهَـــا[1]

وأَنَا -أَدَامَ اللهُ تأييدَكُم- أشهد شاهدَهم، وأَنْظُرُ مَاهِدَهُم، وَيطْوُونَ عَنِّي فَوَائِدَهُم. وعَدلُكمْ -أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَكُمْ- يَحكُمُ بالسَّوَاءِ، ويَعْصِمُ بالشُّرْبِ عَلَى الإِقْذَاءِ، وَيَكُفُّ عَنِّي أَيْدِي المُؤْذينَ عَنِ الإِيذَاء، واللهُ جَلَّ وَعزَّ يَفُلُّ بِعَدْلِكُم المَبْسُوطِ شَبَاهُم، وَيُسَوِّي بالحَضِيضِ الأَوْهَدِ رُبَاهُمْ، حتىَّ نَتَسَاوَى ونَتَنَاصَف، ونَتَعَالَمَ بَعْدَ التَّنَاكُرِ ونَتَعَارَف، ونَتَذَاكرَ حُقوقَ الرَّحِمِ المُشْتَبكَةِ ونَتَواصَف. وَيُدِيمُ إِقْدَامَكُم، ويَجْعَلُ سَعْدَكُم المَكِينَ أَمَامَكُم، ويُفَرِّقُ بِسِيرةِ العُمَرَيْنِ غِشْيَانكُم وإِلْمَامَكُم. بِمَنِّه لَا رَبَّ غَيْرُه وَالسَّلامُ.

وَلَهُ:

حَضْرَةُ سَيِّدِنَا ومَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ الَّذِي بَثَّتْ فِي البَسِيطةِ عَدْلَها، ومدَّتْ على الأُمَّةِ فَيْأَهَا الوَارِفَ وَظِلَّهَا. حَكَمَ اللهُ في طُلَى الكُفَّارِ وكُلاَهُمْ سَيْفَهَا الصَّقِيلَ وَنصْلَهَا. عَبدُها اللاَّئِذُ بِحَرَمِهَا الآمِنِ، المُستجيرُ منها بِكَافلٍ يَرْفَعُ الظُّلمَ عن صَاحِبهِ وَضَامِنٍ، فُلانُ بنُ فلانٍ سَلاَمٌ عَلَى حَضْرَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ حَمْداً يَقْضِي بِهِ حَقَّ مِنَّتِهِ العَمِيمَةِ وآلَائِهِ، وَيُعَظِّمُ بِهِ مَا وَجَبَ لَهُ جَلَّ وَعزَّ مِنْ عَظَمَتِهِ وَكِبْرِيَائِه. وَالصَّلَاة عَلَى سَيِّدِنَا مُحمّدٍ المُصْطَفَى خَاتَم رُسُلِهِ وَخِيرَة أَنْبِيَائِه، وَنَرْضَى عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِّ مُحْرِزِ الفَخَارِ بِعِظَمِ مَقَامِهِ وكَرَم انْتِمَائِه، وعنِ الخَلِيفَةِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ أَمِيرِ المُؤمنينَ مُظْهِرِ الدَّعْوَةِ المُبَارَكَةِ بإشَاعَتِهِ في المَشَارِقِ والمَغَارِبِ وإِفْشَائِه، والدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَميرِ المُؤْمِنِينَ فِي غَلَبَتِهِ على مَنْ عَانَدَ أَمْرَهُ العَالِي وَاسْتِيلائِه.

---

(1) شطر بيت شعري لزرافة الباهلي، يقول فيه:

وإذا تكُـــونُ كَريهَـــةٌ أُدْعَـــى لَهَـــا   وَإِذا يُحـاسُ الحَـيْسُ يُـدْعَى جُنْـدُبُ

والبيت من الكامل. اللسان: «حيس».





فَإِنَّ عَبْدَكُمْ جَرَى عَلَيْهِ بِمَدِينَةِ كَذَا اعْتِدَاءٌ، وأُلْزِمَ قَضَاءٌ لِمَا يَلْزَمُهُ فِي السَّبِيلِ وَأَدَاءٌ، وذَلِكُمْ -أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَكُم- أَنَّهُ يَسْكُنُ بِحَارَةِ الطَّرَامِنَةِ فَأَدَّى مَا عَلَيْهِ مَعَ جِيرَانِه، وجَرَى فِي طَلْقِ التَّنَاصُفِ مَعهُم وَمَيْدَانِه. وَإِنَّ فُلاناً وفُلاناً وفُلاناً من تُجَّارِ سُوقِ السِّمَاطِ كَتَبُونِي فِي جُمْلَتِهِمْ، وأَلْحَقُونِي بِفِئَتِهِم، وأَلْزَمُونِي ثَلاَثَ مائةِ دِينارٍ وخَمْسِينَ دِيناراً. وعَبْدُكُمْ -أدامَ اللهُ تَأْيِيدَكُم- لَمْ يَصْفِقْ قطُّ في سُوق، ولاَ كَانَ له مَعَ أَهْلِ السِّمَاطِ إِقْبالٌ ولا لُصُوق، وقَدْ رَفَعَ عَبْدُكُم أَمرَهُ إِلَيكُم، وَعَرَضَهُ مُفَسَّراً عَلَيْكُم. وَأَنْتُمْ -أدامَ اللهُ تَأْيِيدَكُمْ- بِعَدْلِكُمْ الَّذِي سَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلْدَه، ونَظَرِكُمْ المُوَفَّقِ الَّذِي هُوَ عَتَادٌ لِمَنْ خِيفَ عَلَيْهِ وَعُدَّه، سَتُبْطِلُونَ البَاطِلَ وتَتَوَخَّوْنَ بِهِدَايَتِكُمْ رَدَّه. واللهُ لا يُعْدِمُ عَبْدَكُم مِنكُم نَصْراً عزيزاً تَجِدُونَه يومَ مَعَادِكُم، وتَتَّخِذُونَه عَملاً مَبْروراً مِن جِهَادِكُم، فَإِنَّ قَمْعَ الظَّلَمَةِ مِنْ أَبَرِّ الأَعْمَالِ وَأَزْكَاهَا، وأَسْيَرِهَا إِلَى رِضَا اللهِ العَزِيزِ وأَجْرَاهَا. مدَّ اللهُ سَيِّدَنَا ومَوْلاَنا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ في أَيَّامِكُم، وعَقَدَ بالنَّصرِ والظَّفَرِ مَنْشُورَ أَعْلاَمِكُم، وشَكَرَكُمْ عَلَى تَحَفِّيكُم بِرَدِّ المَظَالِمِ واهْتِمَامِكُم؛ بِمَنِّه لَا رَبَّ غَيرُه.

وَلَهُ:

حَضْرَةُ الإِمَامِ الأَعْدَلِ المَلِكِ الأَكْرَمِ الأَفْضَلِ أَبِي يَعْقُوبَ بْنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. أَقامَ اللهُ مَنارَ الحقِّ والعَدْلِ بِبَقَائِه، وأَدامَ عَلَيْنَا رُوحَ الانْتِصَافِ والانْتِصَارِ من تِلْقَائِه. مَمْلُوكةُ إِنْعَامِه، الرَّاغِبَةُ إِلى اللهِ فِي اتِّصالِ أَمْرِهِ العَزِيزِ وَدَوامِه، فلانةُ:

سَلَامٌ على الحَضْرةِ العَلِيَّةِ والسُّدَّةِ القُدْسِيةِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي يَكُفُّ بالإِمَامِ المُقْسِطِ وَيَزَع، حَمْداً يَقْتَضِي حُسْنَ الفَعَالِ وَكَرَمَ المَصْنَع، والصَّلاة عَلَى مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى المُبْتَعَثِ بِالسَّنَا الأَنورِ والضِّياءِ الأَسْطَع، ونَرْضى عن الإمامِ المَهْدِيِّ رِضًى يَجِدُ كَرامتَهُ فِي اليَومِ الأَحْفلِ والمَشْهَدِ الأَجْمَع، ونَدْعُو لِسَيِّدِنا أميرِ المُؤمنينَ في نَصرٍ عَزيزٍ يَرُدُّ الكَافِرِينَ والمَارِقِينَ وَيقْمَع، ولِسَيِّدِنا الإمامِ الأَعْدلِ المَلِكِ الأفْضلِ أَبِي يَعقُوب في سُعودٍ جَمَّةٍ تَفْتَنُّ ضُروبُها الجمَّةُ وتَتَنَوَّع.



فإنَّ أَمَتَكُمْ رُمِيتْ من زَوْجها فلانٌ بِدَاهيةِ الدَّهرِ، ومُنِيَتْ من إِضْرَارِه بِقَاصِمَةِ الظَّهْرِ، قَطَعَ من حُسْنِ العِشْرَةِ مَجَالَها، وحَشَدَ أَوْصَابَهَا المَقْطُوعةَ وأَوْجَالَهَا، وَصَيَّرَ الخَوْفَ مِنْ هَجْمَةِ الضِّرْغَامِ حِجَالَها، لَجَّ في إِصْرَارِه عَلَى إِضْرَارِه، وعَزَمَ عَلَى إِبايَتِه، تَرْكَ إِذَايَتِه. وقَدْ اضْطَرَّنِي بِمَا سامَنِي مِنَ الخَسْف، وَرَكِبَنِي بِهِ مِنَ العُنفِ وَالعَسْف، حتَّى اختَلَعتُ منهُ بِكَثِيرٍ من مَالِي، ورَضِيتُ العُدْمَ ثَمناً لِرَخاءِ حَالِي. فما أَجَابَنِي إِلَى مَطْلُوبِي، ولا أَسْعَفَنِي إلى مَرْغُوبِي.

وَعَدلُكُم - أدامَ اللهُ تَأييدَكُم - يَفُكُّنِي مِنْ إِسَارِه، ويَحُلُّ عُنُقِي مِنْ رِبْقَةِ اقْتِسَاره؛ والشَّيْخُ أَبُو فلانٍ وغَيرُه من شُيوخِ بَنِي فُلاَنٍ -وَفَّقَهمُ اللهُ- يَعْلَمونَ أَمْرَنَا، وَيَخْبُرُونَ سِرَّنَا.

واللهُ لاَ يُعْدِمُ المَلْهُوفَةَ المُضْطَهَدَةَ مِنْ نَظَرِكُم المُؤَيَّدِ بالسَّدَاد، وَرَأْيِكُم الرَّاحِمِ لكَافَّةِ العِبَاد، مَا يَكْشِفُ بَأْسَاءَهَا، وَيَرْفَعُ عَنْهَا مَا سَاءَهَا، وهو جَلَّ وعَزَّ يَعمرُ بالفُتوحاتِ النَّيرةِ صَباحَ حَضْرَتِكُم السَّاميةِ وَمَسَاءَهَا، ويُحَقِّقُ امْتِدَادَ أَيَّامِكُم السَّعيدةِ وَنَسَاءَهَا، والسَّلَام.

وَلَهُ:

الشَّيخُ الأَجَلُّ الفَقيهُ الأَعدلُ أَبُو فُلاَنٍ. أَبقاهُ اللهُ يَحفظُ على الأَيتام الضُّعَفَاءِ أَمْوَالَهُم، ويَتَجَنَّبُ إِضَاعَتَهُم وَإِهْمَالَهُم، ويَتَفَقَّدُ السَّاعَاتِ واللَّحظاتِ أَحْوَالَهُم. الشَّاكُونَ إِليهِ ما نَابَهُم من الحَيْفِ والهَضْم، المُتَمَلْمِلُونَ لأَكلِ أَمْوالِهِمْ بالخَضْمِ والقَضْم، الأَيْتامُ الصِّغارُ بَنُو فُلانٍ.

سَلَامٌ عَلَى الفَقِيهِ القَاضِي، وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه. أَنتُمْ -أدامَ اللهُ تَوْفِيقَكُم- قد مَلأَ اللهُ قُلُوبَكُم خَشْيَةً وَتَقْوَى، وجَعَلَ زَكَاءَكُم أَرْسَخَ مِنْ هِضَابِ يَذْبُل وَرَضْوَى[1]، فَبِطَرِيقَتِكُمُ المُثْلَى، نَرْفَعُ إِليكُمْ شَكَاةً مَلأَتْ نُفُوسَنَا بَلْبَالًا وخَبْلاً، وَإِنَّ فُلاناً الَّذي قَدَّمْتُمُوهُ للنَّظرِ عَلَيْنَا، وجَعْلِ المَنَافِعِ من كُلِّ الجِهَاتِ إِلَيْنَا، أَرْتَعَنَا مَرْتَعاً وَخيماً

(1) يذبل ورضوى: جبلان يقع الثاني منهما في بلاد بتهامة. الروض المعطار، ص: 269.



وَبِيلاً، وَلَمْ يَفعلْ فيمَا أَمرتَهُ بالعَدْلِ فِيهِ فَتِيلاً؛ ولاَ نَعرِفُ بَعْدُ مَبْلَغَ مَالِنَا ولا مُنْتَهَاه، ولاَ نَدْرِي أَدْنَاهُ وَلاَ أَقْصَاه؛ وإِنَّ أُمَّنا سَأَلَتْ مِيرَاثَهَا مِنَ الهَالِكِ - فُلَانٌ - أَخِينَا، فَلَمْ يُرَاجِعْهَا شَرحاً لمَبْلَغِ مِيرَاثِهَا ولا تَبْيِيناً. وأَشَدُّ ما نَخَافُه ونَحْذَرُه، ونُقَدِّمُهُ بالذِّكْرِ وَنُصْدِرُه، أنَّ المالَ الَّذِي عِنْدَه؟ لمْ يَتَقَيَّدْ مَبْلَغُهُ في زِمَام، ولا أَلَمَّ بالإِشْهَادِ عَلَيْهِ أَدْنَى إِلْمَام، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَحينَ يَوْمُه، وَيُسْلِمَهُ إِلَى رَمْسِهِ قَوْمُه، فَنَبْقَى عِندَ ذَلِكَ فِي عَمْيَاءِ مُشْكِلَة، ودَهْمَاءِ مُعْضِلَة. فانظُرْ مِنَّا بِفرَاسَتِكَ الصَّادِقَةِ والْمَعِيَّتِك، فَإِنَّكَ رَاع مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِك[1]. وَيَجِبُ عَلَيْكُم إِطَالَةَ الفِكْرِ وَتَحْدِيقَ النَّظَر، «فَلَوْ ضَاعَتْ شَاةٌ بِشَاطِئِ الفُرَاتِ لَسُئِلَ عَنْهَا عُمَر»[2]. وَنَحْنُ -أَدَامَ اللهُ تَوْفيقَكُمْ- تَحْتَ خَطَرٍ شَدِيد، وحُزْنٍ مُذِيبٍ لِلْحَدِيد، لِأَنَّ الَّذِي عِنْدَهُ المَال قَد أَوْعَدَ فِي خِدْمَةِ المَخْزَن، وسَلَكَ منهُ المَسْلَكَ الأَوْعَرَ الأَخْشَن، وما هُوَ إِلا أَنْ يُنَاقَشَ حِسَاباً، ويَنْسَابَ إِليه أَرْقَمُ المُطالبِ انْسِياباً، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَذهبُ مالُنا بِرُمَّتِه، ونُوكَلُ إِلى اتِّبَاعِ أَمَانَتِهِ أَوْ ذِمَّتِه.

وأَنتُمْ - أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكُم- أَمْتَنُ دِيناً، وَأَصْدَقُ يَقِيناً، مِنْ أَنْ يُعَرِّضَ الذُّرِّيةَ الضُّعَفاء للتَّلَف، أَوْ يُحمَلُون عَلَى الضَّيْمِ في حَالِ الوَاهِيةِ والمُؤْتَلَف. أَيَّدَ اللهُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ هَذَا المَالِ مِنْ هَذِهِ المَخَاوِفِ عَزْمَكُم، وسَدَّدَ في هذهِ النَّازِلَةِ وفي سَائِرِ النَّوازِلِ سَهْمَكُم، وقَرَنَ بالمَلِيكَيْنِ قَضَاءَكُمْ بالقِسْطِ وَحُكْمَكُم؛ بمنِّه، لا ربَّ غَيْرُه.

وَلَهُ:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الفَقيهُ القَاضِي العَدْلُ أَبُو فُلَان. أَبْقَاهُ اللهُ عُدَّةً مَذْخُورةً لِلْإِيمَان، وأَوْجَبَ لَهُ بِصِيَامِهِ المُتَقَبَّلِ بِأَبِي الدَّيَّان، وقَمَعَ بِنَظَرِهِ المُوَفَّقِ كُلَّ بَاطِلٍ بَهْتٍ وكُلَّ بُهْتَان، الرَّافِعونَ إِلى عَدْلِهِ الشَّهِيرِ شَكْوَاهُم، المُخْلِصُونَ لَهُ -زَادَهُ اللهُ تَسْدِيداً- دَعْوَاهُم؛ جَمَاعةُ أَهْلِ كَذَا. نَعْرِفُ الفَقيهَ -أَدَامَهُ اللهُ- ورَأْيُهُ نُورٌ يَأْتَلِق، وسَيفُهُ بِحَبلِ

---

(1) فيه إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته». صحيح مسلم: 6/ 8. مسند الإمامأحمد 2/ 121.

(2) قولة مشهورة للخليفة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



اللهِ المَتِينِ مُعْتَصِمٌ مُعْتَلِق. أَنَّ ... ... فُلاناً لا يَرْعَى لَنَا جِواراً، ولا يُحْسِنُ فِينَا آثاراً ... ... فَجَلَبَ إِلَيْنَا أَلِيمَ مَخُوفِنَا، وفَظِيعَ مَحْذُورِنَا، ويُخْرِجُ بِفِعْلِهِ الذَّميم بَاطِنَ صُدُورِنَا، ويَقْطعُ بالسِّيَاطِ ظَاهِرَ ظُهورِنا. وَعِنْدَ هَذَا الرَّجلِ مَعَ سُوءِ سِيرَتِهِ، وقَبيحِ سَرِيرَتِه، مَنَاكِيرُ تُوجِبُ رَفْعَ يَدِهِ عَنِ العَمَلِ، وإِلحَاقَهُ بالرَّعِيَّةِ الهَمَلِ. وَمِنْ قَبيحِ صَنيعِهِ وفِعَالِه، واسْتِصْغارِه لِلْمَشْيَخَةِ وَاسْتِرْذَالِهِ؛ أَنَّ الشَّيْخَ الفاضِلَ أَبَا فُلانٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نكَهَ عَلَيْهِ .... بِطعْمِه رَائِحَةَ المُسْكِرِ، وفَهِمَ مِنْ عَبَثَاتِ كَلَامِه، أَنَّهُ قَدْ سَكِرِ من قَهْوَتِهِ ومُدَامِه، فَأَنْكَرَ منهُ ذلكَ الفِعلَ الذَّمِيم، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ العَظِيم. وقَالَ أَتَسْكَرُ فِي يَوْمِ جَعَلَهُ اللهُ عِيدًا، وَأَوْجَبَ لَهُ حَقًّا وَكَيْدًا؛ فقالَ لَهُ غَيْرَ مُسْتَحْيِي وَلَا مُتِيب، أَنْتَ هُوَ المُدْمِنُ على شُرْبِ المُسْكِرِ المُطْرِب. وعَدْلُكُم -أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكُم- يَرْفَعُ أَذَاهُ، ويُقْصِيهِ عنَّا إلى حيثُ أَبْعَدهُ الحَقُّ وأَقْصَاهُ؛ والله جَلَّ وَعَزَّ لَا يَعْدِمُنا مِنْكُمْ نَصْراً مؤزَّرًا عَلَى مَنِ اعْتَدَى، ويُبْقيكُم لِلإِسْلام عَلَماً لِلْهُدَى. بِمَنِّهِ لاَ ربَّ غيرُه.

وَلَهُ أُخْرَى:

أَبْقَاهُ اللهُ، رَاحِماً لمَن اضطُهِد من العِبَادِ، مُؤثراً للتَّكَثُّرِ من الأَفْعَالِ البرَّةِ وَالِازْدِيَاد لِلطَّوْلِ العَمِيم، فِي النَّظَرلِغَرِيبِ وَحِيد طَالَ سَجْنُهُ وَحَبْسُه، وَضَاقَتْ - لما نَابَهُ من قَوْلِ الزُّورِ عَلَيْهِ - نَفْسُه، وأَنَا- أَدَامَ اللهُ توفيقكُم- رَجُلٌ أَعْرَفُ بِتِلَاوَة كِتَابِ الله جَلَّ وَعَزَّ وَتَعْلِيمِه، وَأَسْلُك من سَبِيلِ البرِّ فِي سَدِيدِهِ وَقَوِيمِه، وَلَمْ أَزَل فِي عَافِيَةٍ تَدْفَع عَنِّي الظِّنَن، وَأَدَّرِع مِنْهَا بِأَحْصَنِ دُرُوعٍ وَأَوْثَق جُنَن[1]. وَبَيْنَا أَنَاأَمْشِي فِي «السَّقَاطِين» لِبَعْض شَانِي، وَلِأَمْرٍ أَهَمَّنِي وَعَنَّانِي، إِذْ رَأَيْتُ المُحْتَسِبِين، أَحْدَقُوا بِرَجُلٍ مِن الحَدَّادِين، وجَدُوا عِنْدَهُ حَلَقَاتٍ[2]، زَعَمَ زَاعِمٌ أَنَّهَا لا تَصْلُحُ أَنْ تُطْبَعَ بِهَا الدَّرَاهِم. فَلَمَّا سُئِلَ ذَلِكَ الحَدَّادُ عَن صَاحِبِهَا وَكُلِّفَ بِالتَّعْرِيفِ بِسَائِلِهَا مِنْه وَطَالِبِهَا، نَسَبَهَا إِلَيَّ ظُلْمًاوَتَعَدِّيًا وَلَمْ يَتَرَفَّقْ، وكَانَ كَالغَرِيقِ بِمَا رَآى يَتَعَلَّقْ، فَسُجِنَّا جَمِيعًا، وَحُبِسْنَا عَاصِيًا

---

(1) الجُنَّةُ وتجمع على جُنَن: ما يقي به الفارس نفسه من الحرب.

(2) الحلقات: قرط تعمله النساء، ويكون من فضة وذهب أو نحاس، ولعل الأندلسيين كانوا يطبعون الدراهم من هذا النوع. وما تزال الكلمة تستعمل في المغرب بهذا المفهوم إلى يومنا هذا.



وَمُطِيعًا. ثُمّ إنَّ نَظَرَكُم اقْتَضَى أن يُطْلَقَ الحَدَّادُ المَظْنُونُ المُتَّهَم، وَقُلِبَت عَلَيّ دَعْوَاهُ الفَاجِرَةُ، وخلاَّنِي عَاتٍ فِي نَدَم.

فَأَرْغَبُ من طَوْلِكُمْ -أَعَزّكُمْ اللهُ- أَنْ تَنْظُرُوا فِي أَمْرِي نَظَرَ مَنْ يَتَوَخَّى الصَّوَابَ وَالسَّدَاد، ويَذْكُرُ إذَا قَضَى قَضِيَّةً فِي رَعِيَّتِه المَعَاد. وَاللهُ جَلَّ وَعَزَّ يَرْزُقُنِي عَلَى أَيْدِيكُم العَالِيَةِ سَرَاحًا مُعَجَّلًا، يُوجِبُ لَكُمْ ثَوَابًا مَذْخُوراً مُؤَجَّلًا. بِمَنِّه.

وَلَهُ:

لِلْفَقِيه القَاضِي أَبِي فُلَانٍ. أَبْقَاهُ اللهُ نَاظِرًا بِعَيْنِ الرَّحْمَة لِمَن تَابَ وَأَقْلَعَ، وَأَنَابَ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَزَّ وَرَجَع، الفَضْلُ فِي أَن يَنْظُرَ لِطَالِبٍ مِنَّا طَالَ فِي السِّجْنِ الضَّيقِ حَبْسُه، وَطَالَعَهُ فِيهِ شُؤْمُهُ ونَحْسُه، وهو مِمَّن يَحْفَظُ كتَابَ اللَّهِوَ يُعَلِّمُه، وَيَقْصِدُ البِرّ ويَتَيَمَّمُه، وقد رُمِيَ بِإِفْكٍ وَزُور، وَاللهُ مُطَّلِعٌ عَلَى خَبَايَا الصُّدُور. وَهُو مَعَ ذَلِكَ تَائِبٌ من الذُّنُوبِ عَلَى الجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيل، ومُسْتَغْفِرٌ اللهَ فِي كُلِّ غَدَاةٍ وَأَصِيل، وَقَدْ عِيلَ[1] فِي الحَبْسِ المُنَكِّلِ اصْطِبَارُه، وَأَسْلَمَه قُصَّادُه وَزُوَّارُه. فَارْحَمُوا رَحِمَكُم اللهُ غُرْبَتَه، وَارْعَوا لَه انْفِرَادَه وَوَحْدَتَه. وَقَد تَوَسَّلَ إِلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللهِ العَزِيزِ فَأَكْرِمُوا وَسِيلَتَه، وَلْتَكُنْ رَأْفتُكُم وَرَحْمَتُكُمْ مُجِيرَتَهُ وَمُقِيلَتَه، وَاللهُ جَلَّ وَعَزَّ يُثْقِلُ بِهَذِهِ الحَسَنَةِ مِيزَانَكُم، وَيُوجِبُ بِهَا لَكُم رِضْوَانَكُم. بِمَنِّهِ، والسَّلَام.

وَلَهُ:

الفَقِيهُ القَاضِي أَبُو فُلَانٍ؛ أَبْقَاهُ اللهُ يُقِيمُ العَدْلَمَنَارًا، وَيُبْقِي بِه لِلْقَضاء فِي الصَّالِحِين آثَارًا، يَنْظُرُ فِي مَلْهُوفَةٍ [سُبِيَتْ قَسْراً]، وَمُلِكَتْ عَنْوَة وَأَسْراً، وَذَلِكَ -أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكَ- أَنَّ بَعْلِي فُلَانًا نَالَنِي بِغِلْظَتِهِ وَقَسْوَتِه، وَخَالَفَ أَبَا زَرع[2] في حُسْن عِشْرَتِهِ

---

(1) عيل: نفد ولم يعد يحتمل شيئا.

(2) أبو زرع: ألف في حديثه القاضي عياض كتابا سماه: «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد».انظر الحديث في الكتاب المطبوع.



[يَسْتَطِيلُ][1] عَلَيَّ باليَدِ واللّسَانِ ولَا يُمْسكُ بمَعْرُوف ولَا يُسَرِّحُ بإحْسَانٍ[2]؛ أَتَقَلَّبُ مِنْ سُوءِ صُحْبَته عَلَى جَمْرِ الغَضَا .... عَلَى حَسَبِ مَا مَضَى، وأَسْأَلُهُ أَنْ يَقْضيَ بَيْني وَبَينَه بخَيْر ما قَضَى، وَقد سَأَلَني أَنْ أَتَخَلَّى لَهُ عَن أَمْر لَهُ بَالٌ، وتَرَكْتُ مَا كَانَ لي عَلَيْه مِنْ سَلَف ومَال، فَأَبَى إلَّا اشْتطَاطًا، وَلَم يَرْضَ إلَّا انْسِحَاباً عَلَى مَالي كُلّه وانْبِسَاطًا؛ والشَّيْخُ أَبُو فُلَان وأَبُو فُلَان يَعْلَمَان ما بَيننَا، ويَودَّان فِرَاقنَا وَبَيْننَا.

وأَنْتُم -أَدَامَ اللهُ تَوْفيقَكُم- وَجَعَلَ طَرِيقَ العَادلينَ المُقْسِطِين طَرِيقَكُم، تَفُكُّونَ من إسَاره، مَنْ لَاذ باسْتِنْجَاده. بكُمْ وانْتصَاره، والله جَلَّ وَعَزَّ لا يَعْدمُني فيكُم نَصْراً وَظَفْرا، ويَجْعَلَ ذَنْبَ الأَيَّام بكُمْ مَمْحُوّا مُغْتَفَرا، وأَنَا أَكْثَرُ مَالًا وأَعَزُّ نَفراً[3].

وَلَهُ:

للفَقِيهِ الأَجَلِّ القَاضِي الأَزْكَى الأَعْدَلِ أَبِي فُلَانٍ. أَبْقَاهُ الله رَفِيعَ البُنْيَانِ بنَظَرِهِ السَّدِيدِ، مَعْضُودَ القَضِيَّةِ بالمَعُونَةِ مِنَ الله جَلَّ وَعَزَّ والتَّأْيِيدِ، الثَّوَابُ المُقْتَنَى، والخَارُّ الزَّادِ الَّذِي لَا يَفْنَى فِي الرِّفْقِ بأَمْرِهَا رُمِيتُ بالعَظِيمَةِ والأَفْكِ، وأُلْغِي اليَقِينَ فِي شَأْنِهَا وأُعْمِلِ الشَّكَّ؛ وَقَدْ طَالَ سَجْنُها وحَبْسُها، حَتَّى كَانَ السِّجْنَ قَبْرُهَا وَرَسْمُهَا، وَقَدْ حَدَّدْتُمْ[4] قَاذِفِي، فَأَرِيحُوا مَحَاذِرِي وَمخَاوِفِي. وفِرَاستُكُم مِنْ أَنْوارِ اللهِ الوَاقِدَةِ تَسْتَمِدُّ، ورُكْنُكُمْ فِي العَدْلِ والقِسْطِ الرُّكْنُ الأَوْثَقُ الأَشَدُّ، فَبالله إلَّا ما عَجَّلْتُمْ سَرَاحِي، وَظَفَّرْتُم سِهَامِي وَقِدَاحِي، ورَفَقْتُمْ بِمَنْ ظُلِمتْ واهتُضِمَتْ، وجُرِحَتْ بالإفْكِ الصُّرَاحِ وكُلِمَتْ[5] واللهُ جَلَّ وَعَزَّ لاَ يُعْدِمُ المِسْكِينَةَ المَلْهُوفَةَ مِنْكُمْ، رَحْمَةً تَتَقَاضَى مِنَ اللهِ مِنَّة، وَرَحْمَةً تُورَثُ الجَنَّةَ.

---

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾. سورة البقرة، الآية: 227.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. سورة الكهف، الآية 34.

(4) تقصد بذلك أنه طبق عليهم الحد المعروف في الشرع.

(5) الكَلْمُ: الجرح.



وَلَهُ:

الفَقِيهُ القَاضِي أَبُو فُلَانٍ. سَدَّدَ اللهُ آرَاءَهُ، وتكَنَّفَهُ بالعِصْمَةِ أَمَامَهُ وَورَاءَهُ، يَنْظُرُ فِي مَمْلُوكَتِهِ فُلَانَةَ بِنْتُ فُلَانٍ الَّتِي لُوِيَتْ، بِحَظِّهَا مِنْ مِيرَاثِ أَبِيهَا ومُطِلَتْ، وسُكِبَتْ شُؤُونُ مَدَامِعِهَا الذَّارِفَةِ وَأُهْطِلَتْ، فَإِنَّ زَوْجَ أَبِيهَا قَدْ ادَّعَتْ حَمْلًا لَا تُرْجَى وِلَادَتُهُ، وتَمَلَّكَتْ بدَعْوَاهَا مَالَالَهَا وَحْدَهَا إفَادَتُهُ، فَإلى كَمْ- أَدَامَ اللهُ تَوفِيقَكُمْ- يُصْغِي إِلَى دَعْوَاهَا التِي بَعُدَتْ عَنِ الأَشْبَاه، وقَلَبَ بِهَا غَرْبُ الحَقِّ شَباه،فبالرَّغْبَةِ إِلَيْكُمْ -أَعَزَّكُمُ اللهُ- فِي أَنْ تَنْظُرُوا فِي شأْنِهَا نَظَراً يصْحَبُهُ التَّوفِيقُ، ويُنْتَهَجُ لَهُ إِلَى رضَا اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- سَبِيلٌ واضِحَةٌ وطريقٌ، وعَسَى أَنْ تَأْمُرُوا- إنْ رَأَيْتُمْ- بِتَوْجِيهِ النِّسَاءِ إِلَيْهَا والتِّكْرَارِ بالنَّظَرِ السَّدِيدِ عَلَيْهَا، ولا تُجعَلُ كَزَوْجَةِ العَجْلَانِي التِي كَانَتْ فَذَّةً فِي زَمَانِهَا، وخَارِجَةً عَنْ حُكْمِ لِذَاتِهَا وأقْرَانِهَا، وقَدْ تمَلَّكَتِ الدَّارَ عَلَيْنَا، وَسَدَّدَتْ سَهْمَ الإذَايَةِ إِلَيْنَا ونَظَرُكُمْ المُوَفَّقُ يُبْطِلُ التَّلْبِيسَ، وَيَأْبَى التَّسْوِيفَ و التَّنْفِيسَ، ويَنْظِمُ فِي سِلْكِ الإِصَابَةِ الخَطِيرَ النَّفِيسَ، واللهُ جَلَّ وَعَزَّ يُسَدِّدُ أَنْحَاءَكُم ويُوَفِّقُهَا، وَيُبْقِي أَنْوَارَكُمْ، يُعْشِي العُيُونَ اللَّامِحَةِ مشْرِقُهَا بِمَنِّهِ.

وَلَهُ:

نِعْمَةُ الفَقِيهِ القَاضِي الأَجَلِّ الأعْدَلِ أَبِي فُلَانٍ وعَبْدُه، المتكَنَّفَة عَلَاؤُهُ البَاهِر ومَجْدُه، فُلَانٌ سَلَامٌ عَلَى الفَقِيهِ. أما بَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ والصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتِمِ الرُّسُلِ المصْطَفِينَ والأنْبِيَاءِ، والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِ رِضًى يُوجِبُ اللهُ لَهُ بِهِ دَرَجَةَ الصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ، والدُّعَاءِ لِسَيِدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فِي نَصْرِهِ عَلَى جمَيعِ المُنَاوِينَ والأعْدَاءِ، وَلِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوب فِي إِصْلَاحِ أُمُورِ الكَافَّةِ وشُؤُونِ الدَّهْمَاءِ.

فَإِنَّ نِعْمَتَكُمُ قَدْ بَلَغَ بِهَا الأَدَبُ مُنْتَهَاهُ، وَعَرَفَ الآنَ مَاجَاءَهُ مِنْ سُوءِ الأَدَبِ وَأَتَاه، وَقَدْ طَالَ فِي السِّجْنِ الضَّيِّقِ حَبْسُهُ، وَعَزُبَ عَنْهُ حَرَمُهُ وأُنْسُهُ، وَقَدْ انْسَدَّ عَلَيْهِ حِصَارُهُ، وطَالَعَهُ خَوْفُه وحِذَارُه؛ فَإِنْ مَنَنْتُمْ -آدَامَ اللهُ عَلَاءَكُمْ- بِإِطْلَاقِهِ، وسَرَّحْتُمُوهُ مِنَ السِّجْنِ وَضِيقِ خِنَاقِهِ، اكْتَسَبْتُمْ أَجْراً وثَوابًا، وفَتَحْتُمْ لِلْمَأْسُورِ الحَبِيسِ إِلَى الفَرَجِ



العَاجِلِ بَاباً، وإِنِّي تُبْتُ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَزَّ تَوْبَةً نَصُوحاً[1]، وَبعُدْتُ عَنْ خُلَّتِي الأَوَّلِ هَرَبَا ونُزُوحاً. وسَأُصْلِحُ خَتَنِي[2] صُلْحاً لا يُنْوَى بَعْدَهُ فَسَاد، وأَرْجِعُ عَلَى مَا كَانَتْ تَزْعُمُ أَنَّهَا تَأْلَفُ مِنِّي قَبْلَ ذَلِكَ وتَعْتَادُ. واللهُ جَلَّ وعَزَّ يُدِيمُ لِلْكَافَّةِ نَفْعَكُم، ويَصِلُ بِوِتْرِهِ فِي الفَضَائِلِ شَفْعَكُمْ؛ بِمَنِّهِ.

وَلَهُ:

اللَّائِذُ بالفَقِيهِ القَاضِي المُسْنَدِ إِلَيْهِ، الرَّاجِي تَقْرِيبَ إِطْلَاقِهِ عَلَى الكَرِيمَةِ يَدَيْهِ؛ فُلَانٌ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي أَسْلَمَ لِقَضَائِهِ، والصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى المَبْعُوثِ لإِظْهَارِ دِينِ الإِسْلَامِ وإِبْدَائِهِ، رِضىً يُبَوِّئُهُ اللهُ بِهِ فِي ظِلَالِ الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى وأَفْيَائِهِ، والدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ فِي إِظْهَارِ أَمْرِهِ العَزِيزِ وَإِعْلَائِهِ، ولسَيِّدِنَا الأَمِيرِ الأَجَلِّ أَبِي يَعْقُوب فِي اقْتِفَائِهِ بالأَئِمَّة المُقْسِطِينَ وَاهْتِدَائِهِ.

فَإِنَّ عَبْدَكُمْ قَدْ طَالَ فِي السِّجْنِ الضَّيِّقِ مُكْثُهُ، واتَّصَلَ بَقَاؤُهُ فِيهِ ولبْثُهُ، وقَدْ بَرَّحَ بِهِ اسْتِيحَاشُهُ، وتَعَطَّلَ تَصَرُّفُهُ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ ومعَاشُهُ، وهُوَ لَمْ يَرْفَعْ عَلَيْهِ إِلَا ضَرْبَ مَمْلُوكَةٍ لِزَوْجِهِ كَانَ إِلَيْهِ تَأْدِيبُهَا، وَبِيَدِهِ تَخْصِيمُهَا لِلْخِدْمَةِ الصَّحِيحَةِ وتَهْذِيبُهَا. فَإِنْ رَأَيْتُم -أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكُمْ- أَنْ تَمُنُّوا عَلَيْهِ بِإِحْسَانِكُمْ، وَتُولُوهُ مَا يَعْهَدُ مِنْ أَفْضَالِكُمْ وامْتِنَانِكُمْ، سَرَّحْتُمْ أَخِيذاً أَسِيراً، ويَسَّرْتُمْ صَعْباً مِنْ اسْتِيحَاشِهِ وإِظْلَامِهِ عَسِيراً. واللهُ جَلَّ وعَزَّ يُبْقِيكُمُ لإِقَامَةِ حُقُوقٍ، وتَمْيِيزِ برٍّ مِنْ عُقُوقٍ، بِمَنِّهِ؛ لَا رَبَّ غَيْرُه.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي بَكْرِ بنِ مُغَاوِرٍ الشَّاطِبِيِّ:

عَرَّفَ اللهُ سَيِّدِي الأَجَلَ يُمْنَ الشَّهْرِ المُعَظَّمِ وبَرَكَتَهُ، وَوَفَّقَ إِلَى حُسْنِ عِشْرَتِهِ فِطْرَةَ طَبْعِهِ وَمَلَكَتَهُ، وَجَهَّزَ بِسُرْعَةِ مُدَّتِهِ دَوْرَ فَلَكِهِ وَحَرَكَتَهُ، وأَحْظَاهُ بالاسْتِبَاقِ فِي مِضْمَارِهِ، وَالمُسَاوَاةِ بَيْنَ إِظْهَارِ صِدْقِ القَوْلِ والعَمَلِ وَإِضْمَارِهِ، وَرَسَمَهُ فِي مَنِ اكْتَسَبَ التَّوْفِيقَ فِيهِ

---

(1) ينظر في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً﴾. سورة التحريم، الآية: 8.

(2) ختن الرجل أصهاره سواء أكانت أم زوجه أم والدها.



اكْتِسَابًا، وصَامَهُ إيمَانـًا واحْتِسَابـًا[1]، وَنَظَمَهُ فِي المُنَوِّرِينَ لِمسَاجِدِه، والانْخِرَاطِ فِي سِلْكِ رَاكِعِهِ وسَاجِدِهِ، فَشَرَعَ لَهُ مِنَ الأفْرَادِ الأَعْيَانِ، لِلْقَبُولِ بِبَابِ الدَّيَّانِ، كَمَا اخْتَصَّ بِجَزَاءِ عَمَلِهِ الرَّحْمَن[2] وشَرَّفَ مِنَ الصِّيَامِ عَلَى شَرَائِعِهِ الإيمَان، فَإنَّه سُبْحَانَه يَقُولُ: «عَمَلُ ابْنُ آدَمَ كُلُّهُ لَهُ إلَّا الصَّوْم فإنَّهُ لِي وأنَا أَجْزِي بِهِ»[3]، وفِي تَأوِيلِ هَذَا مَا تَحَدَّقَ فِيهِ العَارِفُونَ، وَخَاضَ فِي العِبَارَةِ عَنْ صِفَتِهِ الوَاصِفُونَ، واسْتَخْرَجَتِ الغَاصَّةُ فِي بِحَارِ العِلْمِ لَهُ جَوَاهِرَ الحِكَمِ وفَرَائِدِهَا، وَضَنَّتْ أَنْ تَهَبَ إلَّا آحَادَ الفُهَمَاءِ الفَذَّ فَوَائِدَهَا، فَمِنْ قَائِلٍ إنَّ هَذَا مِنْ نَزَاهَةِ الصِّيَامِ عَنِ الرِّيَاءِ، فِي تَصْفِيَةِ أَعْمَالِ الأَنْبِيَاءِ وَالأَوْلِيَاءِ، وَذَوُو التَّصَوُّفِ الأُلَى نَظَرُوا إِلَى أَرْوَاحِ المَعَانِي، واغْتَنَوا فِي أَنْفُسِهِم مِنْ شَهَوَاتِهَا بِفَكِّ الأَسِيرِ العَانِي، تَخَطَّوْا هَذِهِ المِرْقَاة، مُبَالَغَةً فِي الخَشْيَةِ والتُّقَاة، فَقَالُوا إنَّ العَبْدَ إذَا أَرْضَى بَارِيَهُ، وَضَيَّقَ مِنَ الشَّيْطَانِ فِي دَمِهِ مجَارِيَه، عَطَّلَ قِوَامَ جِسْمِه، بِصَرْمِ أَصْلِ عَيْشِهِ وَحَسْمِهِ، واعْتَلَقَ مِنَ الصَّمَدِيَّةِ، بِنِسْبَةٍ، وتَمَسَّكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى مِنَ القُرْبَةِ، رُقِيَ بِقَلْبِهِ عَنْ سَائِرِ أَعْضَائِهِ، فِيمَا بِحَضْرَةِ القُدْسِ مِنْ مَوْلَاهُ فِي موَالَاةِ إرْضَائِهِ، وهَذَا هُوَ الصَّوْمُ الَّذِي يَتَأَدَّى الصَّائِمُونَ مِنْ بَابِه، وَيَضْرِبُ لِلْفَوْزِ عَظِيمَ سُرَادِقَاتِهِ[4] وقِبَابِه.

واللهُ سُبْحَانَهُ يَنْظِمُ الوَلِيَّ الأَجَلَّ وإيَّايَ فِي هَذَا السِّلْكِ، ويُحْظِيهِ مِنْهُ بإكْسِيرِ السَّعَادَةِ وكِيمْيَاءِ المُلْكِ، بِمَنِّهِ. وَيَجْعَلُنَا فِي مَنْ اسْتَشْعَرَ هَذِهِ التَّقْوَى، واعْتَصَمَ مِنَ الحَقِيقَةِ فِيهِ بالحَبْلِ الأَقْوَى، بِجُودِهِ ولُطْفِهِ.

وهَنِيئًا لَهُ،-دَامَ سَرْوُهُ- بِتَقْرِيبِ ضَيْفٍ مِنْهُ يَسْتَقْرِيهِ تِلَاوَةَ القُرْآن، ويُبَشِّرُهُ بالرِّضْوَانِ والغُفْرَانِ، ويَصْحَبُه مَحْفُوظَ الحُرْمَةِ، مَرْعِيَّ الذِّمَّةِ [نَاصِعَ] الجَيْبِ، دَاعِيًا لَهُ إذَا تَصَرَّمَ بِظَهْرِ الغَيْبِ.

---

(1) مقتبس من الحديث الشريف: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له».

(2) يقصد بجزاء العمل ما جاء في الحديث الشريف: «عمل ابن دم كله له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»

(3) قول الكاتب «فإنه سبحانه يقول» ليس معناه أن الكلام الآتي قرآن، بل هو حديث قدسي مشهور.

(4) السرادق: ما أحاط بالبناء وجمعه سرادقات، وورد في الحديث ذكر السرادق أكثر من مرة، قال الشاعر:

هـوَ المُـدْخِلُ النُّعْمَـانَ بَيْتًـا سَـماؤُهُ ... صُـدُورُ الفُيُـولِ بَعْـدَ بيـتٍ مُـسَرْدَقِ

اللسان: سردق.



وَقَدْ اقْتَضَبْتُ هَذَا الكَلِمَ تُحْفَةً أَهْدَيْتُهَا، ونُكْتَةً لَا يَجِبُ عَلَيَّ المَلَامُ إنْ أَبْدَيتُهَا، وارْتَقَبْتُ لَهَا مَا يَقْتَضِيهِ كَرَمُ سَيِّدِي أَعَزَّهُ اللهُ مِنْ إِبْدَاءِ قَبُولٍ وإِلْمَامِ رَسُولٍ، ولا جَرَمَ أَنَّ لِلْمَواهِبِ مَرَاتِبَ فِي الحُقُوقِ ومَذَاهِبَ، تكُونُ فيها المُكَافَاةُ، ويَقْتَضِي واجِبَهَا الإِنْصَافُ والمُصَافَاةُ، واللهُ وليُّ التَّوْفِيقِ، لَا رَبَّ سِوَاهُ، والسَّلَام.

رِسَالَةٌ أُخْرَى:

وَمِنْ إِنْشَاءِ الأَدِيبِ الأَوْحَدِ أَبِي بَحْرٍ صَفْوَان بْنِ إِدْرِيس رَحِمَهُ اللَّهُ الرِّسَالَةَ الَّتِي سَمَّاهَا بِشَرَكِ العُقُولِ وَمَسْرَحِ الأُنْسِ المَعْقُولِ. وكَتَبَ بِهَا إِلَى بَعْضِ إِخْوَانِهِ بِمُرْسِية، حِينَ تَوَلَّى أَبُوهُ القَضَاءَ بِشَاطِبَة، وانْتَقَلَ إِلَيْهَا ونَقَلَهُ مَعَهُ وَذَلِكَ فِي شَعْبَان عَامَ اثْنَيْنِ وَثَمَانِينَ وَخَمْسمِائَة:

لَا يُبْعِدِ اللهُ جِيرَانًا تَرَكْتُهُمُ ... مِثْلَ المَصَابِيحِ تَجْلُوا لَيْلَةَ الظُّلَمِ[1]

مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ سَنَّ الفَضَائِلَ وَشَرَعَهَا، وَوَلَّدَ أَبْكَارَ مَعَانِي السِّيَادَةِ واخْتَرَعَهَا، مِنْهُمْ يُعَدُّ المَجْدُ التَّالِدُ والطَّارِفُ[2] وَعَلَى أَجْسَادِهِمْ خُلِعَتْ مِنْهُ المَجَاسِدُ والمَطَارِفُ[3] أَرْضَعَتْهُمُ المَعَالِي مَا أَحَبُّوا مِنْ دِرَّة وغَلَالَةٍ، وَأَخَذُوا إِخْذَهَا مِنْ غَيْرِ كَلَالَةٍ، فَطَارَ بِهِمُ الذِّكْرُ فِي الأَقْطَار، أَقْصَى المَطَار، وصَارَ وَسَارَ، فِي الآفَاقِ، عَلى الوِفَاقِ، وَهَزَّ التَّحَدُّثُ عَنْ أَنْبَائِهِم أَعْطَافَ الرُّكْبَانِ، هَزَّ النَّسِيمِ قُضْبَانَ البَانِ:

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ ... مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي[4]

نَفَرٌ بِهِمْ انْتَظَمَ سِلْكُ أُنْسِي وَإِنْ تَمَيَّزْتُ فَهُمْ جِنْسِي، وَقَوْمٌ حَلَّ الشَّبَابُ فِي أَرْضِهِمْ تَمَائِمِي، وتَبَسَّمَتْ عَنْ زَهَرَاتِ الصَّبَا كَمَائِمِي، نَشَأْتُ فِيهِمْ وَلِيدًا وَلَبِثْتُ مِنْ عُمْرِي سِنِينَ، وأَعْرَسْتُ بِعَقِيلَةِ السُّرُورِ بِمَا شِئْتُ مِنْ رَفَاءٍ وَبَنِينَ، لَم أَزَلْ بَيْنَهُمْ أَمْتَطِي صَهْوَةَ

(1) البيت من البسيط.

(2) التالد من المجد التالد: القديم وكذلك من المال. والطارف منها: الجديد المستحدث.

(3) المطارف: مفردها مطرف بالكسر، ومطرف بضم الهميم وهي أردية من خز مربعة لها أعلام.

(4) البيت من البسيط. وهو للعَرَنْدَس الكِلَابِيّ في حماسة أبي تمام وحماسة الأعلم 2/ 903.



الجَذَلِ وَمَطَاهُ، وآخُذُ مِنْ جَذَعِهِ مَا أَعْطَاهُ، إِنْ عَنَّ لِي مَرْتَعٌ فَخَصِيبٌ وَإِنْ رَمَيْتُ مِنْ غَرَضٍ فَمُصِيبُ، ظِلُّ الأَنْيِ عَلَيَّ مُمْتَدٌّ، وطَرْفُ الحَسُودِ عَنِّي كَلِيلٌ مُرْتَدٌّ، وَسِرْبِي لَا يَرُوعُهُ نُفُورٌ، وأَنَا كَأَهْلِ سَبَأٍ مِنْ غَيْرِ إِعْرَاضٍ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[1].

فَالسَّعْدُ يَخْلُقُ مَا اشْتَهَيْتُ ويَفْرِي، وأَنَا أَنْتَهِبُ الحَسُودَ بِبَنَانِي وَظُفْرِي فَفِي تِلْكَ المَيَادِينِ بَرَزْتُ شَاكًا فِي ثِيَابِ أَعْزَلِ، وَمَعَ تِلْكَ البُلَهْنِيَّاتِ عَرَفْتُ اللَّهوَ والغَزَلَ. فَكَمْ لِي بِهَا مِنْ قِيامٍ وَقُعُودٍ، ويَنْعِ ثَمَرٍ وإِيرَاقِ عُودٍ، وأَيَّامٍ طَابَتْ وَرَقَّتْ، وَتمَلَّكَتْ إِصْرَارَ الهِمَمِ واسْتَرَقَّتْ، عَثَرْتُ بِهَا فِي ذُيُولِ الزَّهْوِ، وسَهَوْتُ ولَمْ آخذْ بالسُّجُودِ مِنْ ذَلِكَ السَّهْوِ[2]، فِيهَا رَجَعَ جِدُّ الرَّقِيبِ عَاثِراً لَا يَتَعقَّبُ، وَوَلَّى خَائِفًا يَترَقَّبُ[3]، كَذَلِكَ حَتَّى جَدَّ بِالبَيْنِ جِدُّهُ، وأَبْلَى الزَّمَانُ مَا كَانَ يُجِدُّهُ، وَهدَمَ اليَأْسُ مَا شَدَّهُ الرَّجَاءُ، وأَظْلَمَتْ تِلْكَ السَّاحَاتُ والأَرْجَاءُ، ومَا أَرَى إِلَّا أَنَّ الزَّمَانَ نَظَرَ بِطَرَفٍ غَيُورٍ، فَقَدَّ تِلْكَ الخُزَعْبِلَاتِ قَدَّ السُّيُورِ، ونَفَثَ لَنَا فِي عِقْدِهِ، وصَرَّحَ بِضَمِيرِهِ ومُعْتَقَدِه، ونَاوَلَ الفَرِيسَةَ الأَسَدَ، وَنَعُوذُ باللهِ ﴿مِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[4] نَادَى عَلَى حِينَ أُجِيبَ نِدَاؤُهُ، وَحَدَا بِحَيْثُ اسْتُمِعَ حِدَاؤُهُ، وأَنْجزَ مَا لَمْ يَتَقَدَّم لَهُ بِهِ وَعْد، وَقَالَ «بِمَا أَنْكَرْتَ سَعْد»[5] خَلَا لَهُ الجَوُّ فَبَاضَ وصَفَر[6] وَأَذْنَبَ فَمَا وَجَدَ إِلَّا مَنْ اغْتَفَر، غَضَضْتُ لَهُ الطَّرْفَ ومَا أَنَا مِنْ نُمَير[7] وبُؤْتُ

(1) سورة سبأ، الآية: 15.

(2) سجود السهو: يكون قبليا وبعديا ويسمى بالسجود القبلي أو البعدي.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ﴾. سورة القصص، الآية: 17.

(4) سورة الفلق، الآية: 5.

(5) مقتبس من قول الحطيئة وقد عكسه الكاتب:

وَتَعْـذِلُنِي أَفْنَـاءُ سَـعْدٍ عَلَـيْهِمُ ... وَمَـا قُلْـتُ إِلَّا بِالَّـذِي عَلِمَتْ سَـعْدُ

وقد ضمن المثل ابن أبي الخصال في رسالة فقال: «وأنت تألوه بسروك نصحا، ولمبهم أبوابه فتحا وهو في تفضيله أمة لا يثنى ولا يجد وما قال إلا بالذي علمت سعد». رسائل ابن أبي الخصال، ص: 621.

(6) هذا تصرف في قول طرفة:

خَـلَا لَـكِ الجَـوُّ فَبِيـضِي وَاصْـفِرِي ... وَنَقِّـرِي مَـا شِـئْتِ أَنْ تُنَقِّـرِي

(7) مقتبس من قول جرير:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ ... فَـلَا كَعْبـاً بَلَغْـتَ وَلَا كِلَابـاً



ومَا أنَا بالظَّالِمِ ولَا العَادِي بِرُفْقَةِ عُمَيْرٍ، هَلْمَمَ فَلَبَّيْتُ، وأَمَرَ فَمَا وَنَيْتُ، انْقِيَاداً فِي زِمَامِهِ، وَصَمْتاً لجَهْرِ إِمَامِهِ، وَقُلْتُ:

هَلْ عَلِمْتَ يَا بَيْنُ مَنْ أَغْرَى بِي ... فَمَتَى مَاأَصِلُ الأُنْسَ قَطَعْ
قَدْ نَأَتْ دَارِيَ عَنْ مُرسِيَةٍ ... وذَوِي وِدِّي فَفِيمَ المُتَّبَعْ
يَا غُرَابَ البَيْنِ شَاكِهْ واقْتَصِدْ ... فَالَّذِي كُنْتَ تَشَكَّى قَدْ وَقَعْ
خُذْ وَدَعْ واعْرِفْ مَقَادِيرَ الجَوَى ... والتَفِتْ مَا تَحْت قَولِي خُذْ وَدَعْ[1]

وَرُبَّمَا تَبَسَّمَ بَرْقٌ لَامِعٌ، أَوْ بَكَى سَحَابٌ هَامِعٌ، فَقُلْتُ وَقَد غَصَّتْ بالمَاءِ والنَّارِ الضُّلُوعُ والمَدَامِعُ:

طَرِبْتُ كَذَاكَ المُسْتَهَامُ طَرُوبٌ ... لِبَرْقٍ بِفَوْدِ[2] اللَّيْلِ مِنْهُ مَشِيبُ
فَشَانِي نِزَاعٌ وادِّكَارٌ وأَنَّةٌ ... فجُملَةُ حَالِي فِي الزَّمَانِ ضُروبُ
تَقَسَّمَنِي مَاءٌ ونَارٌ لِمدْمَعٍ ... وقَلْبٌ، فَكُلِّي زَفْرَةٌ وَنَحِيبُ[3]
فَيَا بَرْقُ هَلْ تَرْوِي لِتُدْمِيرَ[4] بَعْدَنَا ... حَدِيثًا؟ فَيَسْتَجْدِيهِ مِنْكَ غَرِيبُ
وَإِلَّا فَلَا أَوْرَيْتَ زَنْدَكَ بَعْدَهَا ... ولَا خَفَقَتْ فِي الغَيْمِ مِنْك قُلُوبُ
أَتُدْمِيرُ هَلْ لِلْبَرقِ مِنْكِ تَطَلُّعٌ؟ ... وَهَلْ لِنَسِيمِ الرِّيحِ مِنْك هُبُوبُ؟
وَهَلْ لِلَّيَالِي عَوْدَةٌ بَعْدَ بَدْأَةٍ ... فَتُغْفَرَ عَنْهَا أَوْ تُحَطَّ ذُنُوبُ
أُعَلِّلُ نَفْسِي فِي حَدِيثِكِ بالمُنَى ... عَسَى مَا مَضَى عَنِّي عَسَاهُ يَؤُوبُ

---

(1) الأبيات من بحر المديد.
(2) الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن، وفود الرأس: جانبا.
(3) الأبيات من بحر الطويل.
(4) تُدمير: من كور الأندلس سميت باسم ملكها ويقصد بها مُرْسِية.



وأَسْـتَعْطِفُ الأَيَّـامَ فِيـكِ تَطَلُّعـاً ... فَيَـارُبَّ جَـانٍ يَرْعَـوِي[1] فَيَتُـوبُ

عَلَيْـكِ ... إِلَّا اسْـتَطَارَ جَـوَانِحِي ... غَـرَامٌ مُجِـدٌّ بِـالعُقُولِ لَعُـوبُ

وقِيـلَ كَئِيـبٌ لَـيْسَ يَثْنِـي عِنَانَـهُ ... وَقَـرَّ بِعَيْنِـي أَنْ يُقَـالَ كَئِيـبُ

لِـيَ اللهُ مَـا لِلْأُنْـسِ لَـمْ يَـدْنُ ظِلُّـهُ ... عَلَـيَّ ولَـم تَمْتَـدَّ فِيـهِ طُنُـوبُ[2]

كَـأَنَّ عَلَـيَّ أُنْـسِي رَقِيبـاً أَخَافُـهُ ... ولَـيْسَ ولَكِـنَّ الوَفَـاءَ رَقِيـبُ

وإِنْ كَـانَ عَهْـدِي بالـسُّلُوِّ كَمَـا أَرَى ... بَعِيـدًا فَعَهْـدِي بالـشُّجُونِ قَرِيـبُ

أَمَـا وأَبِـي إِسْـحَاقَ إِنَّ تَـشَوُّقِي ... إِلَيْـهِ لَيَـدْعُو عَبْرَتِـي فَتُجِيـبُ

وَمَـا كُنْـتُ أَدْرِي قَبْـلَ يَـوْمِ وَدَاعِـهِ ... حَقِيقَـةَ هَـذَا الـدَّمْعِ كَيْـفَ يَـصُوبُ

فَيَـا أَرْضَ تُـدْمِيرٍ وَأَنْـتِ احْتَمَلْتِـهِ ... حَبِيبـاً لَـهُ المَجْـدُ الـصَّرِيحُ حَبِيبُ

حُـسَامٌ بِكَـفِّ الأَرْيَحِيَّـةِ مُرْهَـفٌ ... وَسَـهْمٌ لِأَكْبَـادِ الحَـسُودِ مُـصِيبُ

فَلَـيْسَ لإِنْـسِيٍّ ولَكِـنْ لِمَـلْأَكٍ ... تَنَـزَّلَ مِـنْ جَـوِّ الـسَّمَاءِ يَـصُوبُ

فَعَلَيْهِ مِنَ السَّلَامِ مَا يَنْدَى نُدُوَّ أَزْهَارِ الكِمَامِ، بِوَاكِفِ[3] الغَمَامِ، يَغْمُرُ أَبَاطِحَهُ الكَرِيمَةَ وَرُبَاهُ، ويَخُصُّ هُنَالِكَ أَبَاهُ، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قَالَ أَبُو بَحْرٍ صَفْوَانُ بْنُ إِدْرِيس رَحِمَهُ اللَّهُ ولَمَا أَنْشَأْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ أَسْمَعْتُهَا لِلْوَزِيرِ الكَاتِبِ الأَعْلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ مُغَاوِرٍ أَكْرَمَ اللهُ مَثْوَاهُ، وجَعَلَ الجَنَّةَ نُزُلَهُ وَمَأْوَاهُ، فَتَلَقَّاهَا رَحِمَهُ اللَّهُ بِحُسْنِ الإِصْغَاءِ واسْتَقْبَلَهَا، وحِينَ فَرَغْتُ مِنْهَا تَرَامَى عَلَى يَدَيَّ فَقَبَّلَهَا، فَخَجِلْتُ خَجَلَ المُتَعَلِّمِ مِنَ المُعَلِّمِ، وسَأَلْتُهُ فِيمَا ذَلِكَ فَقَالَ: «بَيْعَةُ المُعْتَرِفِ المُسَلِّمِ، هَذِهِ واللهِ مِمَّا يَجِبُ أَنْ تُذِيعَهُ، ولَا تُضِيعَهُ، وواللهِ مَا فِي الشَّرْقِ مَنْ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا

(1) يرعوي: يرجع عن غيه وضلاله.

(2) الطنوب: مفردها طنب وهي الحبال التي تشد بها البيوت المصنوعة من الشعر وكذلك الخيام.

(3) وكف الدمع: سال غويرا وكذلك الغمام.



شَهَادَةً يَتْبَعُهَا يَمِين، مُعَقِّدُهَا لَا يَمِين»[1] وَهَذِهِ الأَرْبَعُ الفِقَرُ نَصُّ كَلَامِهِ، وَرَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وبَرَكَاتُه.

وكَتَبَ أَبُو بَحْرٍ أَيْضًا مُرَاجِعًا:

سَلَامُ اللهِ يَخْتَصُّ بِهِ الحَضْرَةَ التِي تَغْسِلُ مِيَاهُ دِرَايَتِهَا مِمَا بالدِّينِ مِنْ دَرَن، وَيَقْتَصُّ عَدْلُهَا مِنَ البَازِلِ العَوْدِ لابْنِ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرَن[2]، ويُقَيِّدُ انْتِصَارُهَا الجَمَّاءَ مِنْ مُنَاطَحَةِ الأَقْرَنِ، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وبَرَكَاتُه تتَوَالَى وبَعْدُ: فَكَتَبَهُ العَبِيدُ عَنْ نُفُوسٍ يَلْعَبُ بِهَا الجَزَعُ لَعِبَ الأَيَّام بالأَمَل[3] ويُبَشِّرُهَا بِمَا بُشِّرَ بِهِ قَاتِلُ ابْنِ صَفِيَّةَ[4] فِي يَوْم الجَمَلِ، وَتَارَةً تَرْبِطُ بِرَجَاءِ فَضْلِكُمْ كَالصِّلَةِ بالمَوْصُولِ، وَتَمِيلُ مِنْهُ إِلَى ظِلٍّ أَوْرَفَ مِنَ الشَّبَابِ وأَطْوَلَ مِنْ لَيْلِ صُول[5]، وَسَبَبُهُ أَنَّ بَيْنَ أَظْهُرِنَا نَشْأَةً مِنْ نَشَآتِ الفُضُولِ والتَّكَلُّفِ، ونَدْرَةً مِنْ نَدَرَاتِ التَّخْلِيطِ والتَّخَلُّفِ يُقْذَفُ بِسُخْنَةِ العَيْنِ، وَيُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ[6] قَدْ فُوِّقَتْ[7] مِنْ نَفَثَاتِهِ سِهَامٌ ونَبْلٌ، وحَاقَ بالأَعْرَاضِ مِنْ أَهَاجِيهِ وصَبٌّ وخَبْلٌ، ومِثْلُهُ مِنْ سَفِيهِ، تَعَاطَى اسْتِئْسَاداً، افْتَرَشَ التُّرَابَ مِهَادًا والجَنْدَلَ وِسَاداً، وأَقْطَعَ جَزَاءَ ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾[8] ومَنْ احْتَذَى حَذْوَهُ مِنْ مُبْدِئٍ فِي الفُجُورِ

(1) يمين الأولى: معناها القسم، والثانية معناها لا يحنث ولا يكذب.

(2) فيه إشارة إلى قول جرير بن عطية:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لُزَّ فِي قَرَنٍ ... لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ

شعراء الأعراب، ص: 92.

(3) مقتبس من قول الرصافي البلنسي في وصف غلام حائك:

جَذْلَانَ تَلْعَبُ بِالمِحْوَاكِ أَنْمُلُهُ ... عَلَى السَّدَى لَعِبَ الأَيَّامِ بِالدُّوَلِ

ديوانه، ص: 122.

(4) ابن صفية هو الزبير ابن العوام وقاتله هو عمرو بن جرموز، وقد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشر قاتل ابن صفية بالنار».

(5) صول: اسم مكان قال فيه الشاعر:

فِي لَيْلِ صُولٍ تَنَاهَى العَرْضُ وَالطُّولُ ... كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مَوْصُولُ

(6) يشير في ذلك إلى المثل المعروف: «المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين».

(7) الفوق: السهام الساقطات النصول.

(8) سورة المائدة، الآية: 35.



مُعِيد، جَدِيرٌ أَنْ تَشْرَقَ مِنْ دَمِهِ لَهَواتُ[1] الصَّعِيد، ويُصِيبَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ[2] أَوْ قَوْمَ هُودٍ[3] أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ[4] ومَا قَوْمُ لُوطٍ[5] مِنْهُ بِبَعِيدٍ[6]، وَمَنْ أَخْذُهُ مِنْ مُتَنَكّبِ طَرِيقَ الازْدِجَارِ، خَلِيقٌ أَنْ يُعَنِّفَ تَعْنِيفَ المَرَدَةِ الفُجَّارِ، ويُقَادَ إِلَيْهِ مَرْكَبُ الجِذْعِ مِنْ مَرْبَطِ النَّجَّارِ، وَمَنْ اقْتَفَى أَثَرَهُ مِنْ نَابِذِ عِلْقَ الإِقْصَار، مُسْتَدْعٍ أَنْ يَخْطُبَ عَلَى مِنبرِ المُثْلَةِ خُطْبَةَ الخَسَارِ، ويُمَثَّلَ فِي مَشْهَدِ نَكَالٍ يَؤُوبُ بالمُتَعَامِي إِلَى الإِبْصَارِ، وتُحَكَّمُ فِي قَذَالِهِ[7] شَفْرَةُ صَارِمٍ ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَـٰرِ﴾[8] ويَا لَهَا مِنْ بُشْرَى تَقْتَرِنُ بِقَضَاءٍ لَنَا سَعِيد، وقَدَّسَهَا اللهُ سَاعَةً نَرْقُبُهَا رِقْبَةَ هِلَالِ العِيدِ ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[9] كَيْفَ نَضْحَى وأَنْتُمْ ظِلُّ اللهِ فِي أَرْضِهِ، أَمْ كَيْفَ نَسْتَطِيلُ ذَلِكَ الوَعِيد فَلَا يُجْمَعُ لَهُ بَيْنَ تَنَقُّلِ التَّنْكِيلِ وفَرْضِهِ، حَتَّى يُحَاذِيَهُ البَوَارُ ويُوَازِيَهُ «وَمَنْ يَفْعَلِ الشَّرَّ لَا يَعْدِمْ جَوَازِيَه»[10] والسَّلَام.

---

(1) اللهوات: مفردها لهاة وهي ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم.

(2) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾. سورة الفرقان، الآية: 37.

(3) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾. سورة هود، الآية: 37.

(4) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾. سورة الأعراف، الآيتان: 76-77.

(5) سورة هود ، الآية: 89.

(6) من قوله تعالى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾. سورة هود، الآية: 89.

(7) القذال: جمال مؤخر الرأس من الإنسان.

(8) سورة النور، الآية: 42.

(9) سورة هود، الآية: 82.

(10) مقتبس من قول الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لَا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

لقد أخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة حيث قال الله فيما أنزله على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبدي». العقد 1/ 227، 3/ 106.



ولَهُ الرِّسَالَة التِي سَمَّاهَا: «عُنْوَان التَّصْرِيح عَنِ الوُدِّ الصَّرِيحِ وَمِيزَانِ التَّصْحِيحِ لِلْعَهْدِ الصَّحِيحِ»:

كَتَبَ بِهَا حِينَ صَدَرَ عَنْ مُرَّاكُش إِلَى مُرْسِيَةَ فِي صَفَرَ سِتَّةٍ وَثَمَانِينَ، وَقَدِ اجْتَازَ عَلَى إِخْوَانِهِ بِالجَزِيرَةِ فَجَدَّدَ بِهِمْ عَهْداً ثُمَّ انْفَصَلَ إِلَى مُرْسِيَةَ وَخَاطَبَهُمْ بِهَا وَجَمَعَ فِيهَا أَسْمَاءَهُمْ وَكَرَّرَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لِيَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَوَّلاً، وَسَطاً، أَخِيراً، حَتَّى يَرْتَفِعَ عَنْهُ الخَجَلُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَالَ وَهِيَ هَذِهِ:

الحَمْدُ للهِ مُقَدِّرِ الأَقْدَارِ، ومُيَسِّرَ الإِيرَادِ والإِصْدَارِ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[1]، بِيَدَيْهِ الحَرَكَةُ والسُّكُونُ، وبِأَمْرِهِ تُعْمرُ وُكُون، وتَقفرُ وُكُون، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2] حَكَمَ فَأَحْكَمَ وقَدرَ فَقَدَّرَ، وقَضَى فأَمْضَى، فبِقَضَائِهِ تَحِنُّ إلى الأَعْطَانِ، النِّيب[3]، وينقَادُ الأَبِيُّ فِي رِبْقِهِ وهو جَنِيب[4]، لَا إِلَه إِلَا هُو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[5] وصَلَّى اللهُ عَلى سَيِّدِنا مُحمدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَة، ورَسُولِ العِصْمَةِ وشَفِيعِ الأُمَّةِ، صَلاةً تَرْفَعُ دَرَجَةَ مُصَلِّيهَا لَدَيْهِ، وتَسْعَى يَوْمَ الدِّينِ نُوراً تَامًّا بَينَ يَدَيْهِ، ورَضِي عَنْ أَهْلِهِ وأَصْحَابِهِ، وَسَكَبَ عَلَيْهِمْ مَاءَ الرَّحْمَةِ مِنْ سَحَابِهِ، أَمَّا بعدُ:

فإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَرَنَ الاتِّصَالَ بالانْفِصال، وأَرْدَفَ عَلَى صُدُورِ البُكَرِ أَعْجَازَ الآصَالِ، فَبَينَا تَلمح مِنْ هَذِهِ لُجَيْناً لَمَحْتَ من هذه ذَهَبا، حَتَّى إذا كَرَّ الظَّلَامُ عَلَيهِمَا ذَهَبَا، فإِذَا كَانَ الزَّمَانُ فِي نَفْسِهِ يَتَلَوَّنُ أَلْوَانـاً، ويَبْقَى عَلَى حَالَةٍ أَوَانَا، فالمُسْتَقِرُّ فِيهِ يَقْتَفِيهِ، والمُسْتَوْطِنُ يَخْتَارُهُ ويَصْطَفِيهِ، فَلِكُلِّ لِقَاءٍ فِرَاقٌ، ولِكُلِّ الْتِئَامٍ انْفِرَاقٌ، [وَمَنْ رَامَ

---

(1) سورة الرعد، الآية: 9.
(2) سورة يس، الآية: 81.
(3) النيب: النوق المسنة وأعطانها مكان إقامتها ومبركها.
(4) فرس جنيب: الفرس الذي يقاد بجانب آخر، ويطلق أيضا على الغريب من الناس.
(5) سورة هود، الآية: 88.



التَّرْحَالَ رَحَلَ][1] ومَنْ ارْتَحَلَ حَلّ، ومَنْ شُدَّ لَنَا بَلَغْنَا بِهِ المَحَلَّ، ثُمَّ إنَّ اللهَ جَبَلَ القُلُوبَ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا[2]، وفطَرَهَا عَلَى الكَلْفِ بِمَنْ وَقَفَ عِنَانَ المُسَاعَدَةِ عَلَيْهَا، وأَنَارَ بِشَمْسِ الجِدِّ مَاءَ الوِدَادِ، وجَدَعَ بِيَدِ المُرَافَقَةِ أُنُوفَ الأَضْدَادِ، مَوَارِد التَّأَلُّف عِذَاب، والسَّمَاحَةُ رَحمةٌ والفُرقَةُ عَذَاب، ومِمَّا يُؤْذِنُ لِهَذَا الفَصْلِ بِتَصْدِيقِهِ قَوْلُهُمْ «إِنَّمَا المَرْء بِصَدِيقِهِ» و«رُبَّ أَخٍ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّك»[3]، يَعْتَمِدُكَ بِالمَبَرَّةِ وَيَؤُمُّكَ، فَجَزَى اللهُ خَيْرًا مَنْ زَرَعَ فِي أَرْضِ الأُخُوَّةِ بَذْرَ الوَفَاءِ، وَرَمَى بِمُحَصَّبِ[4] المَوَدَّةِ جِمَارَ الصَّفَاءِ، وشَكَرَ الإِخْوَانَ الَّذِينَ يُصِيخُ مِنْهُمْ إِلَى دَاعِي الجِدِّ سَمِيع، وإِنْ أَضْحَتْ أَجْسَامُهُمْ فِي الوِدِّ شَتَّى فَالقُلُوبُ جمِيعٌ، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[5] إِلَّا قَوْمًا تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ[6] ضَرَبُوا بِعَالِيَةِ السُّؤْدَدِ قِبَابًا، وارْتَقَوْا فِي صَرْحِ المَجْدِ فَبَلَغُوا مِنْ سَمَاءِ النَّبَاهَةِ أَسْبَابًا، وحلُّوا بالجَزِيرَةِ الخَضْرَاء[7] حُلُولَ النُّجُومِ بِالخَضْرَاءِ[8] فَسَارَتْ بِثَنَائِهِمْ شَوَارِدُ الأَمْثَالِ، واحْتَذَتِ المَعَانِي حُلَاهُم عَن مِثَال، سَادُوا والدِّيَارُ بِأَهْلِهَا شَرِقَة، وتأَلَّقَت بِأُفُقِ الكَمَالِ بُدُورُهم المُشْرِقَة، وعَمَّرُوا حَزْنَ[9] السِّيَادَةِ وسَهْلَهَا، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[10]، فَهَفَتْ نَوَاسِمُ

---

(1) خرم بالأصل و الصواب ما أثبتناه.

(2) مقتبس من الحديث النبوي الشريف: «جبلت النفوس على حب من أحسن إليها». وقد نظم بعض الشعراء الأندلسيين معنى هذا الحديث فقال:

أَسَاءُوا فَأَبْغَضْنَاهُمُ ثُمَّ أَحْسَنُوا ... عَلَيْنَا فَأَحْبَبْنَاهُمْ لَيْسَ ذَا بِدْعَا

تُحِبُّ القُلُوبُ المُحْسِنِينَ جِبِلَّةً ... وَتُبْغِضُ أَيْضًا مَنْ أَسَاءَ لَهَا طَبْعَا

الذيل والتكملة 6/ 295، والتعريف بالقاضي عياض، ص: 31.

(3) مثل عربي معروف، انظر زهر الأكم 3/ 36. وما قبله مثل معروف أيضا.

(4) المُحَصِّب: موضع رمي الجمار بمنى، وقيل هو الشعب الذي مخرجه إلى الأبطح بين مكة ومنى، ينام فيه ساعة من الليل ثم يخرج إلى مكة.

(5) سورة ص، الآية: 23.

(6) سورة البقرة، الآية: 272.

(7) مدينة أندلسية تسمى أيضا جزيرة أم حكيم. الروض المعطار، ص: 223.

(8) الخضراء: السماء لخضرتها، صفة غلبت الأسماء وفي الحديث: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر».

(9) الحزن: ما غلظ من الأرض فارتفع وهو عكس السهل.

(10) سورة الفتح، الآية: 26.



نَوَاسِمُ حُلَاهُم بِعِطْفِ ثَبِير[1] ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[2]، صَدَرْتُ عَنْ مَرْتَعِي لِشُؤُونٍ عَنَّتْ، فَمَا عَنَّتْ[3]، وقَضَايَا جَلَّتْ، فَجَلَّتْ[4] فَوَرَدْتُ مِنْ جَوِّهِمْ سَمَاءً هُمْ زَهْرُهَا[5]، ورَتَعْتُ فِي رِيَاضٍ أَخْلَاقُهُمْ زَهْرُهَا، فَكَأَنَّمَا فَارَقْتُ مَالِكَ بْنَ طَرِيفٍ[6] إِذْ لَمْ أَجِدْ مُوَاتِيًا، وأَقَمْتُ عَلَى آلِ المُهَلَّبِ شَاتِيًا:

فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ واهْتِبَالُهُمْ ... وإِلْطَافُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي[7]

فَكَمْ لي فِي ذُرَاهُمْ مِنْ أَصِيلٍ أَصِيلٍ[8]، وَعَشِيَّةٍ مَوْشِيَّةٍ، وَأَسْحَارٍ، كَالأَسْحَارِ، وأَيَّامٍ كالأَعْيَادِ، ولَيَالٍ نَظَمْنَا دُرَرَهَا مِنَ الدَّهْرِ على أَجْيَاد، ومَشَاهِدَ دَعْوَايَ فِي الأُنْسِ بَعْدَهَا «كَدَعْوَى آلِ حَرْبٍ فِي زِيَاد»[9] ثَكِلْتُ أَثَرَهَا وَعَينَهَا، وسَعَى الدَّهْرُ بَيْنِي وبَيْنَهَا، فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ ذَوَى ذَلِكَ الزَّهْر، واحْتَكَمَ عَلَيَّ فِي فَقْدِهِ التَّغَلُّبَ والقَهْر:

وَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْر[10]

---

(1) ثبير: هو أعلى جبال مكة وأعظمها وفيه تقول الشاعرة:

أَبُنَيَّ لَا تَظْلِمْ بِمَكَّةَ لَا الصَّغِيرَ وَلَا الكَبِيرْ
وَاحْفَظْ مَحَارِمَهَا بُنَيَّ وَلَا يَغُرَّنَّكَ الغُرُورْ
وَالله أَمَّنَ طَيْرَهَا وَالعُصْمُ تَأْمَنُ فِي ثَبِيرْ

الروض المعطار، ص: 149، معجم ما استعجم 1/ 3345.

(2) سورة فاطر، الآية: 14.

(3) عنت: الأولى: معناها ظهرت. والثانية: أتعبت.

(4) جلت الأولى: معناها كانت عظيمة، وأما الثانية: فمعناها كشفت وأوضحت.

(5) النجوم الزهر: هي البيضاء اللامعة.

(6) مالك بن طريف: من قيس عيلان وهو جد جاهلي من الأجواد المذكورين. الأعلام 5/ 262.

(7) البيت من الطويل. وهو لأبي الهندي في مصادر عديدة منها الأمالي والسِّمْط.

(8) الأصيل الأولى: معناها العشي، والجمع أصل، وأصلان. والأصيل الثانية: معناها الثابت الذي لا يفنى.

(9) شطر بيت تمامه:

حِمَارٌ فِي الكِتَابَةِ يَدَّعِيهَا ... كَدَعْوَى آلِ حَرْبٍ فِي زِيَادِ

(10) شطر البيت من الطويل، وهو لأبي صخر الهذلي وصدره:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا



فَهَا أَنَا أَطْوِي الفُؤَادَ عَلَى لَهَبِ جَمْرِهِ، وأَقْتَدِي فِي ذَلِكَ العَهْدِ وأَمْرِهِ، بِمَا سَنَّ جَحْدَرٌ فِي أُمِّ عَمْرِهِ[1]، فَعَلَيْهِ مِنْ عَهْدٍ تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ، وَللقَضَاءِ الانْقِيَادِ والاسْتِسْلَامِ، وعَلَى أُولَائِكَ الإِخْوَانِ مِنْ أَرجِ التَّحِيَّةِ ما يُنَافِحُ مِسْكَ دَارِين[2] ويُكَاثِرُ رَمْلَ يَبْرِين[3] ولله دَرُّهُم مِنْ جِلَّةٍ بِهِمْ ارتَبَطْتُ، فَاغْتَبَطْتُ، واسْتَنْصَرْتُ، فاسْتَبْصَرْتُ، وَرُبَّمَا حَرَّكَتْنِي إِلَيْهِم أَيْدِي الحَنِين، فَتَصَرَّفْتُ مِنَ الأَوْجَالِ فِي أَفَانِين، وأَنشدْتُ بَيْنَ اسْتِعْبَارٍ وَأَنِين:

وكَـمْ لـي بِـالجَزِيرَةِ مِـنْ خَلِيـلٍ ... أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِنِّـي مُجْـتَلَاهُ
نَـأَى عَنِّـي فَـلَا تَـسْأَلْ بِحَـالِي ... ومَـا طَـرَفٌ يُفَارِقُـهُ سَـنَاهُ
فَقَـدْ أَنْحَـى الفِـرَاقُ عَلَـى وُجُـودِي ... وغَيَّـرَ جُمْلَتِـي إِلَّا هَـوَاهُ
وتُدْنِيـهِ لِـيَ الأَشْـوَاقَ حَتَّـى ... كَـأَنِّي حَيْـثُ لَـم تَحْـضُر نَـوَاهُ
فَمَـا أَعْمَلْـتُ طَرفِـي فِـي مَكَـانٍ ... لِفَـرْطِ تَخَيُّلِـي إِلَّا أَرَاهُ[4]

وَرُبَّمَا نَشِطَتْ بِإِيرَادِ أَسْمَائِهِمُ الأَسْمَاع، ومَالَ ذِكْرُهَا بالأَعْطَاف كَمَا يَفْعَلُ السَّمَاع[5]، ونَاهِيكَ مِن ثَلاثَةٍ هُم أَثَافِي الرِّيَادَةِ، فَازُوا فِي المَكَارِمِ بالحُسْنَى وَزِيَادَة[6] فَهُمْ كَأَيَّامِ النَّحرِ عددًا ومِقْدَارًا، وَكَأَنْجُمِ الجَوْزَاءِ تَأَلُّقـًا ومَدَارا، فَالْفَقِيهُ أَبُو القَاسم بنُ القَاسِم، مَا شَاءَ مِن رَاقِلٍ فِي سَنَنِ العَلْيَاءِ وَرَاسِم، والفَقِيه أَبُو مُوسَى بْنُ نادِر، نَاهِيكَ مِنْ بَارِعٍ فِي المَجْدِ ونَادِرٍ، والوَزِيرُ أَبُو عَمْرِو بْنِ حَسُّون، حَسْبُكَ [مِنْ عِلْمٍ وَحَسَبٍ مَصُون] ثَلَاثَةٌ هُمْ

(1) هو جحدر بن مالك الحنفي والإشارة إلى قوله:

أَلَـيْسَ اللَّيْـلُ يَجْمَـعُ آلَ عَمْـرٍو ... وَإِيَّانَـا فَـذَاكَ لَنَـا تَـدَانِي
بَلَـى وَتَـرَى الهِـلَالَ كَمَـا أَرَاهُ ... وَيَعْلُوهَـا النَّهَـارُ كَمَـا عَلَانِـي

(2) دارين: قرية في بلاد فارس اشتهرت بالطيب والمسك قال ابن حمديس يذكر طيبها:

فَمَـا فَـازَ بِالمِـسْكِ إِلَّا فَتَـى ... تَـيَمَّمَ دَارِيـنَ أَوْ دَارِهَـا

(3) يبرين: اسم موضع يقال له رمل يبرين قال جرير:

فَقُلْـتُ لِلرَّكْـبِ إِذْ جَـدَّ المَـسِيرُ بِنَـا ... يَـا بُعْـدَ يَبْـرِينَ مِـنْ بَـابِ العَـرَادِيسِ

(4) الأبيات من الوافر.
(5) السماع: يقصد به الغناء.
(6) سورة يونس، الآية: 26.



مَدَارُ الأُنْسِ، كُلُّهم كَالدُّرِّ في صُدُورِ الحِسَانِ أو كَالرّضاب في الشِّفاه اللُّعْس أمَّا الوَزِيرُ الحسيبُ أبو عمْرو فنَبْعَةُ الشَّرفِ الصَّمِيم، وَزَهْرَةُ رَوْضَةِ الحَسَبِ العَمِيم، نَشْأَةُ رُقاةِ الأَسِرَّةِ والمَنَابِرِ، وجَذَعٌ غَبَّر فِي وُجُوهِ الشُّرَفَاءِ الأكَابر، شَرَفٌ أَشْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ فِي السَّمَاءِ، وحَسَبٌ كَاتِّسَاقِ عِقْدِ النُّجُوم فِي نَحْرِ [الظَّلْمَاءِ][1]، وخُلُقٌ أَنْدَى مِنَ الزَّهْرِ وأَسْوَغَ مِنَ المَاءِ، إلَى أَدَبٍ يَتَصَيَّدُ العُقُولَ، ويَجْمَعُ الذَّاتِي والمَقُول، وعَلَى الحَقِيقَةِ فَلِمِثْلِهِ يَسُوغُ أَنْ يَقُول:

وإِنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ ... إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ ... دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الجِزْعَ ثَاقِبُهُ[2]

وأَمَّا الفَقِيهُ القَاضِي أَبُو القَاسِم فَشَرُفَ بِقَوْمِهِ وشرُفَ به قَوْمُهُ[3] وزَادَ عَلَى أَمْسِهِ فِي الفَضَاءِ يومُهُ، لَهُ الفِطَنُ والمَعَارِفُ، التِي تَتَنكَّرُ أَمَامَهَا المَعَارِف، فَلِلَّه دَرُّهُ مِن مَالِك، لِعِنَانِ مَذْهَبِ مَالِكٍ، وأَحْسِنْ بِهِ مِنْ صَاحِب، يُزَيِّفُ بلَاغَةَ الصَّاحِب[4]، وأَكْرِمْ بِخُلَّتِهِ مِنْ خَلِيل، أَخَذَ الثَّنَايَا عَلَى أَعْلَامِ عِلْمِ الخَلِيل[5]، إِلَى وَقَارٍ لَا تُحَلُّ حُبَاه، وَصَوْنٍ لَا يَتَسَنَّمُ الدَّنَسُ رُبَاه، وَسُؤْدَدٍ عَلَى رَغْمِ مَنْ أَبَاهُ، أَشْبَه أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ[6] و مِنْ سَعَادَةِ المَرْءِ أَنْ يُشْبِهَ أَبَاهُ:

---

(1) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) البيتان للقيط بن زرارة، وينسبان لأبي الطمحان القيني، وروايتهما: «الذين عرفتهم، إذا مات منهم سيد»، الشعر والشعراء 2/ 600، الحيوان 3/ 93، أمالي المرتضى 1/ 275.

(3) عكس قول أبي الطيب المتنبي:

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي ... وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

(4) يقصد بالصاحب: الصاحب بن عباد وكان مشهورا ببلاغته وبيانه.

(5) يعني: الخليل بن أحمد الفراهيدي واضع علم العروض، وصاحب كتاب «العين» الذي اختصره العالم الأندلسي أبو بكر الزبيدي، وحققه الأستاذ صلاح الفرطوسي.

(6) فيه إشارة إلى بيت الشاعر رؤبة بن العجاج. وهو من الشواهد الشعرية لدى النحويين:

بِأَبِه اقْتَدَى عُدَيٌّ فِي الكَرَمْ ... وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَا ظَلَمْ

شرح الألفية للأشموني 1/ 70.



وَرِثُوا السُّؤْدَدَ عَنْ آبَائِهِمْ ثُمَّ سَادُوا سُؤْدَداً غَيْرَ زَمِرْ[1]

وأَمَّا الفَقِيهُ أَبُو مُوسَى فَلَهُ النَّبَاهَةُ البَارِعَةُ، والمَعَارِفُ الفَارِعَةُ، والمَكَارِمُ المُبَادِرَةُ المُسَارِعَةُ، حَسْبُ النِّدَام، بِأَخْلَاقِهِ مِنْ مُدَام، وَبِأَلْفَاظِهِ مِنْ زَهَرٍ مُدَام، إِلَى أَدَابٍ غَضَّة، وَفَضَائِلَ مُرْفَضَّه، ومَسَاعٍ كَغُرَّتِهِ مُبْيَضَّه، السَّمَوْأَلُ فِي وَفَائِهِ، لَيْسَ مِنْ أَكْفَائِهِ، والكِنَانِيُّ فِي آدَابِه، لَا يَتَعَلَّقُ بأَهْدَابِهِ، جُمْلَةٌ فِي المَحَاسِنِ تَعْمُرُ طَيْرُ الأَمَالِ وكونَهَا، ويَتَمَنَّى مُخَيِّرٌ أَنْ يَكُونَهَا:

لَوْلَا عَجَائِبُ صُنْعِ اللهِ مَا ثَبَتَتْ تِلْكَ الفَضَائِلُ فِي لَحْمٍ ولَا عَصَبِ[2]

ولَمَّا اتَّصَلْتُ بِصُحْبَتِهِمْ اتِّصَالَ ذِكْرِ اللهِ باللِّسَانِ، وتمَلَّكُونِي بِعَمِيمِ بِرِّهِمْ تَمَلُّكَ الإِنْسَانِ بالإِحْسَانِ، حَدَّقَ إِلَيَّ الدَّهْرُ حَسُوداً، فأَحَالَ بيض أَمَالِي سُوداً، ولَمْ يَزَلْ يُذْكِي فِي عِلْمِ البَغْيِ نَارَ الحِقْدِ، ويُطَارِحُ صُرُوفَهُ عَلَى نَثْرِ ذَلِكَ العِقْدِ، إِلَى أَنْ شَمَّرْتُ ذَيْلَا، وادَّرَعْتُ لَيْلَا، وَشَدَدْتُ عَنْ أَرْضِهِمْ رِحَالَ الجِدِّ، ونَشَرْتُ للطَّيَرَانِ عَنْ جَوِّهِمْ جَنَاحَ المُجِدِّ. ولما أَزِفَتْ آزِفَةُ الوَدَاعِ، وَوَضَعْتُ القَلْبَ عَلَى يَدَيْ عِدْلٍ مِنَ الانْصِدَاعِ، قُلْتُ للدُّمُوعِ «هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدِّي زِيَمْ»[3] وأَيْنَ ما كُنْتِ تَتَعَاطَيْنَ مِنْ مُسَاجَلَةِ الدِّيمِ، واقْتَعَدْتُ ظَهْرَ سَفَرِي، وقُلْتُ للحَوَادِثِ:

[خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيضِي واصْفِرِي][4]

---

(1) البيت من بحر الرمل وهو لطرفة بن العبد

(2) البيت من البسيط وهو فيه قصيدة طويلة لابن الرومي، مطلعها:

مَا أَنْسَ لَا أَنْسَ هِنْداً آخِرَ الحِقَبِ عَلَى اخْتِلَافِ صُرُوفِ الدَّهْرِ وَالعُقُبِ

ديوانه 1/ 196، تحقيق حسين نصار.

(3) مثل: قاله الحجاج على المنبر، وزعم الأصمعي أن زيم في هذا الموضع اسم فرس، ونسبه بعضهم إلى شريح بن ضبيعة من بني قيس بن ثعلبة الذي قال:

هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدِّي زِيَمْ قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ

شرح التبريزي للحماسة 1/ 118. سمط اللآلىء، ص: 729.

(4) شطر بيت لطرفة بن العبد قاله في صباه وتتمته:

يَا لَكِ مِنْ قُبَّرَةٍ بِمُعَمَّرِ خَلَا لَكِ الجَوُّ فَبِيضِي وَاصْفِرِي



وأَزْهفي سِهَامَكِ وَحَدِّي وَعِيشي جَعَارِ[1] وبَدِّي، وانْطَبَعْتُ سَهْمًا فِي قَوْسِ النَّوَى، وَنَبَذْتُ عُلَقَ ذَلِكَ الأُنْسِ نَبْذَ النَّوَى، وَوَدَّعْتُ بَعْضَ أُولَائِكَ العِلْيَةِ والدُّمُوعُ تَخْضِبُ الخَدَّ مِنَ الوُلُوعِ، ومَصَارِعُ الأَنْفَاسِ تَعْصِفُ بِالضُّلُوعِ، واتَّفَقَ أَنْ شَيَّعَ الوَزِيرُ أَبُو عَمرٍو عَلَى بَعْضِ الطَّرِيقِ، وأَمْتَعَ بِمُجَاذَبَةِ غُصْنِ أُنْسِهِ الوَرِيقِ، حَتَّى إِذَا وَدَّعَ وانْصَرَفَ، وأَقَرَّ الفِرَاقُ بِغَصْبِ قَلْبِي واعْتَرَفَ، أَنْكَرَ ذَلِكَ الخَلِيطُ مِنْ أُنْسِي مَا عَرَفَ، وقَالُوا «نَرَى المِسْمَعَ ولَا نَرَى شَنَفَهُ»[2] وَهَذَا قَصِيرٌ فَأَيُّ أَمْرٍ جَدَعَ أَنْفَه[3] مَا بَالَهُ انزَوَى إِقْبَالُهُ، أَنَبَأٌ دَهَاهُ، أَمْ عُجْبٌ ازْدَهَاهُ، فَطَوْرًا يَخْبِطُونَ فِي تَخَيُّلِ أَمْرِي العَشْوَاءَ، ويَسْتَثِيرُونَ فِي ظُلَمِ الإِبْهَامِ الأَضْوَاءَ، وتَارَةً يَحْمِلُونَنِي عَلَى عِلَّاتِي، وَيَعْتَدُّونَهَا مِنْ خُزَعْبَلَاتِي أَمَا لَوْ وَدَّعَ وَحْدَهُ الأَحْسَبُ وَكَفَى، وأَقَامَ عُذْرَ النَّاظِرِيْنِ عَلَى أَنْ وَكَفَا، فَكَيْفَ وَهُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةِ أَمْجَادٍ أَلِفْتُهُم أَلْفَةَ العَاتِقِ لِلنِّجَادِ، وتَزَمَّلْتُ[4] مِنْ بِرِّهِمْ وَحُبِّهِمْ فِي بِجَاد[5]:

إِنَّ الغَـرَامَ يُطَـاقُ غَيْـرَ مُـضَاعَفٍ ... فَـإِذَا تَـضَاعَفَ كَـانَ غَيْـرَ مُطَـاقِ[6]

فَمَازَالُوا يُخْمِدُونَ وَيُوقِدُونَ، وَيُسَلِّمُونَ وَيَنْتَقِدُونَ، وأَنَا أَسْتَهْدِي الشَّوْقَ إِمَامًا، حَتَّى صَيَّرْتُ خَلْفِي أَمَامًا:

تَرَحَّلْتُ عَنْهُمْ لِي أَمَامِيَ عَشْرَةٌ ... وَعَشْرٌ وَعَشْرٌ بَعْدَهَا مِنْ وَرَائِيَا[7]

---

(1) هذا من قول بعضهم:

فَقُلْتُ لَهَا عِيشِي جَعَارِ وَبَدِّي ... بِلَحْمِ امْرِئٍ لَمْ يَشْهَدِ القَوْمَ نَاصِرُهْ

الخزانة 2/ 424.

(2) الشنف: ما يلبس في أعلى الأذن وهو يشبه القرط. وهو مثل مذكور في كتب الأمثال.

(3) فيه إشارة إلى المثل المعروف: «لأمر ما جدع قصير أنفه». مجمع الأمثال 2/ 196.

(4) تزمل: تغطى.

(5) البجاد: الكساء.

(6) البيت من الكامل، وهو من قصيدة طويلة لابن الرومي مطلعها:

لَا تُكْثِرَنَّ مَلَامَةَ العُشَّاقِ ... فَكَفَاهُمُ بِالوَجْدِ وَالأَشْوَاقِ

ديوانه 4/ 1662.

(7) البيت من الطويل.



وَسِرْتُ أَحْمِلُ أَنْفَاسَ الصَّبَا حَقَائِبَ الوَجْدِ، وأَتَمَتَّعُ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ(1) وأَكْتَفِي بالكَرِيمَتَيْنِ مَرَادًا، وأَقْنَعُ بِزَادِ الضَّبِّ زَادًا، إِلَى وَادِ أَرُه(2) وصَلْنَاهُ والشَّمْسُ قَدْ عُصْفِرَتْ أَبْرَادُهَا، ودَنَا فِي العَيْنِ الحَمِئَةِ إِيرَادُهَا(3) ولَمَّا حَلَلْنَا بِه، بَيْنَ ظُفْرِ التَّوَحُّشِ ونَابِه، تَذَكَّرْتُ يَوْمنَا الَّذِي صَفَتْ مَنَاهِلُهُ مِنْ كَدَرِ الزَّمَانِ، وَقَرَعَ الدَّهْرُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى بَذْلِ أَعْلَاقِهِ الثّمَان، وكَيْفَ قِلْنَا فِي ظِلِّ تِلْكَ الشَّجَرِ، وَتَحَمَّلْنَا عِبْءَ الإِيَابِ مِنْ غَيْرِ ضَجَر، وكَيْفَ خَيَّمَ القَمَرَانِ بِأُفُقِ ذَلِكَ السَّيْفِ، وجَلَبَا اعْتِدَالَ الرَّبِيعِ إِلَى انْحِرَافِ الصَّيْفِ. واعْتَبَرْتُ بِأَنْ أَطْبَقَ الدَّهْرُ عَلَى أَكْمَامِهَا سُدْفَةَ الحِمَام، وتَرَكَ الآخَرَ يَعْيَى بِأَمْرِهِ عِيَّ الحَمَام، ومَا لَهُ عُودَانِ مِنْ نَشَم ولَا آخَرُ مِنْ ثُمَام(4) فَوَقَفْتُ أَنْضَحُ الكَفَّيْنِ عَلَى الجَوَانِح، وأَتَذَكَّرُ فِي هَجِيرِ البَوَارِحِ ظِلَّ السَّوَانِح، وأُكِنُّ مِنَ الوَجْدِ مَا غَايَةُ الثَّكْلَى أَنْ تُكِنَّهُ، وأَقُولُ «قُبْحًا لِوَجْهِكَ يَا زَمَانُ فإِنَّهُ»، وأَتَرَدَّدُ فِي تِلْكَ المَعَاهِدِ تَرَدُّداً هُوَ عَاقِبُ العَهْدِ بِهَا وخَاتَمُهُ، وأَقِفُ وُقُوفَ «شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرَابِ خَاتِمُه»(5) وبَيْنَا أَنَا أَتَعَهَّدُ مَوَاطِئَ تِلْكَ الآثَارِ بالتَّقْبِيل، وَأَقُولُ هَلْ إِلَى مَوَدَّتِهِ مِنْ سَبِيلٍ، سَنَحَ لِي أَنْ قُلْتُ عَلَى أَنِّي لَا أَعْرِفُ دَبِيرًا مِنْ قَبِيل(6):

أَيْـنَ أَيَّامُنَـا اللَّـوَاتِي تَقَـضَّتْ ... إِذْ زَجَرْنَـا لِلأُنْـسِ أَيْمَـنَ طَيْـرِ
وائْـتِلَافٍ عَهِدْتُـهُ مِـنْ كِـرَامٍ ... سَـارَ صَـرْفُ النَّـوَى بِـهِ أَيَّ سَيْرِ

---

(1) سبقت الإشارة إلى البيت الشعري الذي يشير إليه صفوان وهو:
تَمَتَّـعْ مِـنْ شَـمِيمِ عَـرَارِ نَجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ العَـشِيَّةِ مِـنْ عَـرَارِ

(2) وادي آره: من الأودية المشهورة في الأندلس انظر. معجم البلدان 1/ 52، العذري، ص: 120-182، وفي جذوة المقتبس رسمه «آر»، كما أن ياقوت الحموي ذكره تحت مادة: «باره» ونطقه بالإسبانية GUADIARO.

(3) سبقت الإشارة إلى ذلك.

(4) النشم: شجر جبلي تتخذ منه القسي وهو من عتق العيدان. والثمام: نبت معروف في البادية لا تشتهيه الأنعام إلا في وقت الجدب.

(5) في قول المتنبي:
بَلِيتُ بِلَى الأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا ... وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهْ

(6) سبقت الإشارة إلى ذلك؛ وشرح لا الرأي القبيل والدبير.



شَعَبَ الدَّهْرُ شَمْلَهُمْ بَعْدَ جَمْعٍ ... رُبَّ نَفْعٍ أَزَالَهُ حُكْمُ ضَيْرِ
حَكَمَ البَيْنُ فِي مُنَاهُمْ فَقَضَوْا ... لِاحْتِكَامِ الفِرَاقِ طَرْفَ نُمَيْرِ[1]
فَتَكَ الحُبُّ فِي سُلُوِّي عَنْهُمْ ... مِثْلَ فَتْكِ الحَجَّاجِ بِابْنِ جُبَيْرِ
لَيْسَ لِي غَيْرَهُمْ مِنَ الأُنْسِ إِنْسٌ ... يَا تُرَى هَلْ لَهُمْ هُنَالِكَ غَيْرِي
كُلَّمَا مَرَّ ذِكْرُهُم قَالَ قَلْبِي: ... ذَكَرَ اللهُ مَنْ ذَكَرْتَ بِخَيْرِ[2]

مَا زِلْتُ أُعِيدُ الأَبْيَاتَ وأُكَرِّرُهَا، وأُثْبِتُ سِهَامَهَا فِي قَرَاطِيسِ الأَسْمَاعِ وأُقَرِّرُهَا، حَتَّى أَيْقَظْتُ نِيَامًا، وَحَشَدْتُ لِلَوْمِي فِئَامًا[3] فَطَوْرًا يَذُمُّونَ مَعِي القَرَارَ، وآوِنَةً يُحَكِّمُونَ الإِضْرَارَ، وتَارَةً يَقُولُونَ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَار»[4].

أَهَذَا ولَمَّا تَمْضِ لِلْبَيْنِ لَيْلَةٌ ... فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ شُهُورُ[5]

فَقَطَعْتُهَا لَيْلَةً تَبَرَّأَ فِيهَا الحُبُّ مِنَ المَيْنِ، وكَأَنَّمَا عَارَضْتُ لَيْلَةَ زِياد بالجَمُومَيْنِ[6]، حَتَّى عَبَثَ الابْتِسَامُ بالوُجُوم، وَفَاضَ نَهْرُ الفَجْرِ عَلَى حَصْبَاءِ النُّجُوم، فَأَطْلَقْنَا أَيْدِيَ المَطِيِّ مِنْ سِنَةِ السُّكُونِ، وحَرَّكْنَا مِنْهَا مَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى السُّكُون، وَسِرْنَا لِدَوَاعِي الانْحِفَازِ غَيْرَ مُخَالِفِينَ، وتَرَكْنَا الكَسَلَ يَقْعُدُ مَعَ الخَالِفِينَ إِلَى مَرْبلَّة[7] وَصَلْنَاهَا والعَشِيَّةُ

---

(1) يشير إلى قول الشاعر:
فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا
وقد سبقت الإشارة إلى صاحب البيت.

(2) الأبيات من الخفيف يشير إلى ما كان من قتل الحجاج للتابعي الجليل سعيد بن جبير، ترجمته في وفيات ابن خلكان.

(3) الفئام: الجماعة من الناس قال الشاعر:
كَأَنَّ مَجَامِعَ الرَّبَلَاتِ مِنْهَا ... فِئَامٌ يَنْهَضُونَ إِلَى فِئَامِ

(4) حديث شريف مشهور ومتداول.

(5) البيت من الطويل، والبيت لأعرابي رواه الأصمعي.

(6) زياد هو النابغة الذبياني، والإشارة إلى قوله:
كَتَمْتُكَ لَيْلاً بِالجَمُومَيْنِ سَاهِرا ... وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرا

(7) مربلة: مدينة أندلسية مشهورة.



تَجُودُ بِدِمَائِهَا، وذَكَاءُ تَتَشَحَّطُ فِي دِمَائِهَا فَنَزَلْنَا بِهَانُعَالِجُ آلامَ الأشْوَاقِ، ونُصَارِحُ ذَوَاتِ الأَطْوَاقِ، وَلَمَّا طَرِبَ طَائِرُ الأسْحَارِ.......................فوَقَعَ بَيْنَ الأَكْرِيَاءِ والتُّجَّارِ، مَا يَقَعُ بَيْنَ المُنَافِسِينَ مِنَ الاشْتِجَارِ، فَذَهَبْتُ أُصْلِحُ بَيْنَهُمْ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1] فَكِدْتُ أَفُوزُ مِنْهَا بِالحِمَامِ لاَ غَيْرَ، ولَمَّا اضْطَرَمَتْ نَارُ العَجِيجِ، وَثَارَ دُخَانُ الضَّجِيجِ، انْبَرَى أَحَدُ الأَكْرِياءِ إِلَيّ وَخَرَّقَ الإِزَارُ عَلَى وَأَقْسَمَ بِقُوَّةِ فُسْقِهِ وَضَعْفِ دِينِهِ لَيَجْلَبَنَّ إِلَيَّ الردى مِن دِينِه الرَّدَى مِنْ مَيَادِينِهِ، فَأَبْرَمْتُ لِلرِّحْلَةِ أَمْرَاسِي[2] وَأَنْشَدْتُ: «إِنْ حَظِّي مِنَ الغَنِيمَةِ رَاسِي»، وَخَلَعْتُ القَوْلَ والعَمَلَ، «وقُلْتُ: لاَ نَاقَةَ لِي فِيهَا ولاَ جَمَل[3] وَنَبَذْتُ أُولاَئِكَ المُرَافِقِينَ»، إِذْ لَم يَكُونُوا مُوَافِقِينَ، وسِرْتُ لاَ حَادِيَ إِلَّا العَزِيمَةِ، ولاَ جُنَّةَ إِلَّا الهَزِيمَةِ، ولاَ دَلِيلَ إِلَّا السُّؤَالِ، ولاَ مَنْهَلَ إِلَّا الآل. واعْتَزَلْتُ عَنْ تِلْكَ الأُنْشُوطَةِ اعْتِزَالاً، وخَلَوْتُ جَبَانًا بِتِلْكَ الأَرْضِ وَلَمْ أَطْلُبْ طَعْنًا ولاَ نِزَالاً[4]، وانبَرَيْتُ أَسْتَدِرُّ النَّجَاءَ، وأَطْوِي بِقَدَمِ الرَّوْعِ تِلْكَ الأَرْجَاء:

كَذَا يَتْرُكُ الأَعْدَاءُ مَنْ يَكْرَهُ القَنَا ... ويَفْعَلُ مَنْ كَانَتْ غَنِيمَتُهُ رُعْبًا[5]

كَذَلِكَ حَتَّى فَاضَ عَلَى لُجَيْنِ ذَلِكَ اليَوْمِ نُضَارُه، وَدَنَا بِحُكْمِ اللَّيْلِ احْتِضَارُهُ، إِلَى مَالَقة[6] وَصَلْتُهَا فَمَا خَلَعْتُ نَعْلِي لِلاسْتِقْرَارِ بِطُوَاهَا، ولاَ أَصخْتُ لِسِرِّ الدِّعَةِ نَجْوَاهَا، حَتَّى نُمِيَ إِلَيَّ أَنَّ صَاحِبَهَا الفَقِيهَ أَبَا بَكْرٍ عَتِيقَ بْنَ عَمِيرَة[7] أَدَامَ اللهُ فِي السَّلاَمَةِ والكَرَامَةِ

---

(1) سورة النساء، الآية: 127.

(2) الأمراس: الحبال التي تربط بين الدواب وغيرها قال الشاعر:

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِهَا ... بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ

(3) مثل يضرب للذي ليس له في أمر ما أي دخل. وقد ذكره الراعي في شعره فقال:

وَمَا هَجَرْتُكِ حَتَّى قُلْتِ مُعْلِنَةً ... «لاَ نَاقَةَ لِي فِي هَذَا وَلاَ جَمَلُ»

(4) هذا في قوله على أنه معكوس: وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا.

(5) البيت من الطويل. وهو بيت من قصيدة للمتنبي المشهورة، «هذا من قوله أنه معكوس»:

وَإِذَا مَا خَلاَ الجَبَانُ بِأَرْضٍ ... طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالاَ

(6) مالقة: مدينة أندلسية تقع جنوب شرقها تشتهر بصناعة الفخار. الروض المعطار، ص: 517، رحلة ابن بطوطة 2/ 186-187. مشاهدات لسان الدين بن الخطيب، ص: 76.

(7) لعله عتيق بن يوسف بن عميرة التجيبي الذي روى عن ابن الفرس، الذيل والتكملة 5/ 1-131.



تَعْمِيرَهُ، خَرَجَ مِنْهَا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ مُنْحَفِزًا لَا يَسْتَثْقِلُ، ومُسْتَوْفِزًا إِلَى مُرْسِيَةٍ يَنْتَقِلُ، فَذَكَرْتُ بَرَّهُ وَوَلَاءَهُ، وَشَكَرْتُ لِلدَّهْرِ فِي قُرْبِهِ آلَاءَهُ، فَعَوَّلْتُ عَلَى الإِدْلَاجِ وَبَيَّنْتُ، وَوَجَدْتُ جِصًّا وآجُرًّا فَبَيَّنْتُ، وَبِتُّ أَسْتَطِيلُ اللَّيْلَ ولَوْ كَانَ ظِمْءَ الحِمَارِ قِصَرا[1]، وأَسْتَنْطِقُ الأَذِينَ بِالصُّبْحِ فَيَأْبَى إِلَّا حَصَرًا، إِلَى أَنْ أَصْفَقَتْ دَعْوَةُ الحَمْدَلَةِ مِنْ كُلِّ مَنَارٍ، وآنَ لِلْمَشْرِقِ أَنْ يَنْقُدَهَا شَقِيقَةَ الدِينَارِ، امْتَطَيْتُ الطَرِيقَ مُنْفَرِدًا، وَرَكِبْتُ عَزْمِي وَمُنْجَرِدًا[2] أَقْصِدُ وأَحُورُ، وأَعْدِلُ وأَجُورُ، تَارَةً أَهْدَى مِنْ قَطَاةٍ[3] إِلَى مَاء وطَوْرًا أَضَلُّ مِنْ عَمٍ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاء كَذَلِكَ حَتَّى لَمْ يُبْقِ الأَيْنُ مِنَ النَّشَاطِ بَقِيَّةً، وعَايَنْتُهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، إِلَى نَارِجَةَ[4] وصَلْتُهَا وَقَدْ انْتَهَى الحِزَامُ الطَّبْيَيْنِ[5] وبَلَغْتُ بِحَمْدِ اللهِ مِنْ صَاحِبِنَا الفَقِيهِ أَبِي بَكْرٍ إِحْدَى الحُسَنَيين، فإِنَّهُ وَلِيٌّ يُؤْثِرُ كَرِيمَ الخُلْقِ ويَسْتَحِبُّهُ، وكَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أُحُدٍ: «هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ»[6] فَبِتْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةِ نُقَلِّدُ بِشُكْرِكُمْ أَجْيَادَ الحَدِيثِ، ونُفِيضُ فِي الثَّنَاءِ عَلَى بِرِّكُمُ القَدِيمِ والحَدِيثِ، ولِمَا أَبَاحَ سَيْفُ المَشْرِقِ دَمَ الكَوَاكِبِ، وتَرَكَهَا غَرْقَى مِنْ دِمَائِهَا السَّوَاكِبِ، وَضَعْنَا سِيَاطَ الشَّوْقِ فِي أَعْنَاقِ المَطَايَا، واعْتَدَدْنَا حَسَنَاتِ الرِّفْقِ بِهَا خَطَايَا، وَسِرْنَا طَوْرًا نَرْتَفِعُ حَتَّى نَكَادُ نَشْرَبُ المَاءَ فِي السَّحَابِ، ونُفَاخِرُ النُّجُومَ بِشَرَفِكُمْ مِنْ أَصْحَابِ، وآوِنَةً نَنْخَفِضُ حَتَّى كَأَنَّا نَبْتَغِي نَفَقًا فِي الأَرْضِ[7] أَوْ نَسْتَقِرُّ فِي مُسْتَقَرٍّ إِلَى يَوْمِ العَرْضِ، إِلَى مُنَكَّبْ[8] وصَلْنَا بَعْدَ أَنْ أَظَلَّنَا دُونَهَا البَرُّ والشّق، وَقَطَعْنَا الحَزْنَ الكَؤُودَ

---

(1) في الأمثال العربية: «أقصر من ظمأ الحمار». الميداني 2/ 126.

(2) المنجرد: الفرس، قال امرؤ القيس:

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا ... بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

(3) مثل مشهور.

(4) نارجة: nerja توجد بين مالقة والمنكب، النفح 1/ 178-179.

(5) جمهرة الأمثال 1/ 220.

(6) أحد: جبل بظاهر مكة وهو أقرب الجبال إليها؛ ولعل قول الرسول كان يقصدبه أهل أحد وهم: «الأنصار». الروض المعطار، ص: 13.

(7) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾. سورة الأنعام، الآية: 36.

(8) المنكب: مرفأ ساحلي جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة، مشاهدات لسان الدين، ص: 79، الإدريسي، ص: 199، الروض المعطار: 548.



الكَؤُودَ والوَعْرَ الأَشَق، فَحطَطْنَا مِنْهَا الرِّحَالَ بِمَعْمُورٍ أَشْبَهَ شَيء بالخَرَابِ، واسْمٍ بِلَا جِسْمٍ كَمَا حَصَلْتَ عَلَى السَّرَابِ، فَأُقْسِمُ بِلَيْلِ اللَّمْحِ ومَا وَسَقَ، وقَمَرِ الأَزْرَارِ إِذَا اتَّسَقَ[1] لَوْلَا أَنَّهَا تَعَلَّقَتْ مِنْ صَاحِبِنَا الوَزِيرِ أَبِي عَمْرٍو بِذِمَّةٍ وجِوَارٍ، وأَنَّ مِعْصَمَهَا قَدْ تَحَلَّى يَوْمًا بِذَلِكَ السِّوَارِ، لَحَلَلْنَا لَهَا عَنْ يَدِ المُلَاحَاةِ عِقَالًا، وقُلْتُ فَلَم أَتْرُكْ مَقَالًا، ولَكِنْ غَفَرْتُ لِلْعَدُوِّ شَفَاعَةَ الصَّدِيقِ، وأَغْضَيْتُ عَلَى زَلَّةِ مِسْطَحٍ عَفْوَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق:

ومَـا حِبِّـي لِطِيـبِ تُـرَابِ أَرْضٍ ... ولَكِـنْ حُـبُّ مَـنْ وَطِـئَ التُّرَابَـا[2]

وقَطَعْنَا مَهَامِهَ تُطِيلُ حَيْرَةَ العَيْرِ، ومَفَاوِزَ كَأَنَّهَا جَوْفُ العَيْر، إِلَى أَرْجِبَةَ[3] وَصَلْنَاهَا والأَصِيلُ قَدْ قَضَى، وَذَلِكَ اليَوْمُ قَدْ انْقَضَى.

والشَّمْسُ تَنْثُرُ زَعْفَرَانًا فِي الرُّبَا ... وتَفُتُّ مِسْكَتَهَا عَلَى الغِيطَانِ[4]

فَخَيَّمْنَا بِمَنْزِلٍ شَدَّ النَّشَاطُ مَسَارِحَهُ، واعْتَقَلَ لِلأُنْسِ سَارِحَه، وبالجُمْلَةِ: «فَمَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بالبَارِحَةِ»[5] مِنْ مَنْزِلٍ يَأْبَى أَنْ يُوَافِقَ أَوْ يُقَارِب، ولَا يُنْبِتُ إِلَّا العَقَارِبَ، مَنْ حَلَّهُ سَلِيمًا، صَدَرَ عَنْهُ سَئِيمًا، وَمَنِ اسْتَوْطَنَهُ ضَيْفًا، ضَافَ[6] عَنْهُ الأَمْنُ ضَيْفًا؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُكْثِرَ الرُّقَى والعُوَذ، وَيَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا الَّذِي اسْتَحْوَذَ، فَسَيَكُونُ هُنَالِكَ مِنَ الآمِنِين؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِينَ﴾[7]. فَبِتْنَا بِهَا نَفْتَرِشُ الفَزَعَ، ونَلْتَحِفُ الجَزَعَ، إِلَى أَنْ قَبَضَتْ يَدُ الإِصْبَاحِ، رُوحَ المِصْبَاحِ، وفُزْنَا -والحَمْدُ للهِ- بالسَّلَامَةِ والأَرْبَاحِ، فَزَمَمْنَا الرِّحَالَ مَادِرِين، وشَدَدْنَا عَلَى بُعْدِ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اَتَّسَقَ﴾. سورة الانشقاق:17-18.

(2) البيت من الوافر، وهو لقيس بن ذريح، الأمالي 2/ 76. ويناسبه قول إياس بن الأرت الطائي:

وَمَـا دَهْـرِي بِحُـبِّ تُـرَابِ أَرْضٍ ... وَلَكِـنْ مَـنْ يَحُـلُّ بِهَـا حَبِيـبُ

شرح الحماسة للتبريزي 3/ 243.

(3) أرجبة: orgiva.

(4) البيت من الكامل وهو لأبي الحسين بن سراج، الذخيرة 1/ 2-823

(5) مثل عربي معروف، أنظر جمهرة الأمثال 2/ 247.

(6) ضاف عنه الأمن: أي مال وابتعد؛ وبهذا المعنى فسر قول ابن أبي بكر «ضفت عنك يوم بدر»؛ أي ملت عنك وعدلت.

(7) سورة الإسراء، الآية: 82.



الشُّقَّةِ مُصَادِرِينَ، وَسِرْنَا فِي هُبُوطٍ وصُعُودٍ، وكَأَنَّ سَالِكَهَا مُلَازِمٌ لِلْقُعُودِ، فَطَوْرًا نَرْتَفِعُ ارْتِفَاعَ النُّجُومِ، وآوِنَةً نَنْحَدِرُ انْحِدَارَ الرُّجُومِ.

وخُضْنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ نَهْرًا يَدَّرِعُهُ هُبُوطُ النَّسِيمِ، وَيَتَرَامَى بَيْنَ الشَّقَائِقِ كَأَنَّهُ العِذَارُ فِي الخَدِّ الوَسِيمِ، والتَحَفْنَا مِن ظِلِّ أَيْكِهِ أَبْرَدَا وَكَأَنَّا دَخَلْنَا مِنْهُ صَرْحًا مُمَرَّدًا[1] أَوْ أَوْطَانَا المَطِيِّ مِنْ أَدِيمِهِ زَرَداً، إِلَى أَجَاجَرَ[2] وصَلْنَاهَا وَظِلُّ أَحَدِنَا قَدْ صَارَ مِثْلَيْهِ، ودِينُ الصَّلَاةِ الوُسْطَى قَدْ حَلَّ عَلَيْهِ، فَحَطَطنَا مِنْهَا بِحَيْثُ نَطَّلِعُ عَلَى أَسْرَارِ الأَمْنِ أَيَّ اطِّلَاعٍ، ونُغَازِلُ زُرْقَ عُيُونِ الجَدَاوِلِ وخُضَرَ غُدُرُ التِّلَاعِ، وَحِينَ صَفِرَتْ وِطَابُ الجُفُونِ مِنَ الإِغْفَاءِ، وبَرِحَ مَا بِسِرِّ الصُّبْحِ مِنَ الخَفَاءِ، عَالَيْنَا الرِّحَالَ، وطَارَدْنَا الارْتِحَالَ، وَسِرْنَا نُنْجِزُ لِلانْحِفَازِ دُيُونًا، ونُصَوِّرُ بِحَوَافِرِ المَطِيِّ فِي وَجَنَاتِ البَيْدَاءِ عُيُونًا، إِلَى الغِيرَانِ[3] وصَلْنَاهَا وجَفْنُ الظَّلَامِ قَدِ انْطَبَقَ عَلَى عَيْنِ الشَّمْسِ، ومَضَى اليَوْمُ مُضِيَّ الأَمْسِ، فأَنَخْنَا مِنْهَا البَيْدَاءَ قَرَاراً، وَبِتْنَا لَا نَذُوقُ النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً، حَتَّى إِذَا بَقِي نِصْفُ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلَا، ادَّرَعْنَا بالسَّقْفِ المَحْفُوظِ ظِلًّا ظَلِيلًا، وسِرْنَا نُرْسِلُ الرِّيَاحَ أَعِنَّةً، ونَعْتَمِدُ الكَوَاكِبَ أَسِنَّةً، فِي ضِفَّتَيْ نَهْرِ بَجَّانَةَ[4] المُلْتَوِي كَالأَيْنِ، الذَّاهِبِ مَنْظَرُهُ بالسَّأَمِ والأَيْنِ، مِنْ نَهْرٍ قَامَتْ عَلَى ضِفَّتَيْهِ ثِمَارٌ تَرُوقُ وتَرُوع، وكَأَنَّهَا خُضْرُ أَلْوِيَةٍ بُسِطَتْ تَحْتَهَا دُرُوع، إِلَى المَرِيَّةِ[5] أَشْرَفْنَا عَلَيْهَا تُتْلِعُ إِلَيْنَا أَجْيَادَ قِصَابِهَا، وتَتَبَسَّمُ عَنْ ثُغُورِ أَسْوَارِهَا وفَلْجِ لِصَابِهَا[6] فَحَلَلْنَاهَا بَلَداً أَقْفَرَ وخَرِبَ، وأَكَلَ الدَّهْرُ عَلَى مَحَاسِنِهِ وشَرِبَ، فَمَا تَحُلُّ مِنْهُ إِلَّا رَبْعًا

---

(1) صرح ممرد: قصر ذو بناء طويل ومرتفع ومنه قوله تعالى: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾. سورة النمل، الآية: 45.

(2) أجاجر: معروفة إلى الآن بهذا الاسم وترسم بالحروف اللاتينية ugijar.

(3) الغيران: أو وادي الغيران يقع على مرحلة من المرية: الإحاطة 2/ 360، النفح 6/ 83.

(4) بجانة: نهر بجانة يقصد وادي آش، قال العذري: «ومدينة بجانة كثيرة الثمار لا يراها من أمها حتى يدخلها وكانت أشرف قرى وادي آش في القديم». العذري، ص: 86، الروض المعطار، ص: 79.

(5) المرية: مدينة محدثة، أمر ببنائها الناصر لدين الله سنة 344هـ، قال فيها أحد الشعراء:

قَالُوا المَرِيَّةَ صِفْهَا ... فَقُلْتُ مَظٌّ وَشِيحُ

الروض المعطار، ص: 537، العذري، ص: 86.

(6) اللِّصَبُ: مضيق الوادي أو شق في الجبل. قال الأصمعي: هو الشعب الصغير في الجبل، والجمع: لصاب ولصوب.



إِلَّا رَبْعًا قُدْمُوسًا[1] وطَلَلًا كَفُؤَادِ أُمِّ مُوسَى[2] وَضَحَ عُذْرَ مُؤَنِّبِهِ وَبَانَ، وقَالَتْ عَنْهُ لِسَانُ الحَالِ كَانَ فَبَانَ[3] فَلَا يَغْدُو فِيهِ الأُنْسُ ولَا يَرُوحُ، ولَا يَتَصَرَّفُ فِي جِسْمِهِ لِلْبَهْجَةِ رُوح، اللَّهُمَّ إِلَّا [بَقِيَّةُ] كِرَام عَضَدُوهُ فاسْتَنْصَرَ، وأَشَارُوا إِلَى بُغَاثِهِ فاسْتَنْسَرَ[4] مِنْ كُلِّ أَزْهَرَ مَا أَصَحَّ عَهْدَه، ومَا أَسَحَّ عَبْدَه، أَبَرُّوا فبَرُّوا[5] وعَزُّوا فَأَعَزُّوا:

إِنَّ الكَـــــرِيمَ إِذَا أَقَــــامَ بِبَلْــــدَةٍ ... سَــالَ النُّــضَارُ بِهَــا أَوْ قَــامَ المَــاءُ[6]

قِدَمًا كَـانَ بَـدْرَ هَالَـةِ بَرَاعَتِهَا، وحَـاقِنَ هَالَـةِ بَرَاعَتِهَا، الفَقِيـهُ السَّرِيُّ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ الغَزَّالِ، الذِي مَدَّ أَرْضَ البَلَاغَةِ ودَحَاهَاوأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا يَتَشَوَّقُنِي عَلَى السَّمَاعِ، وَيَنْشَطُ لِلاتِّصَالِ بِي والاجْتِمَاعِ، وبَيْنِي وَبَيْنَهُ مُخَاطَبَاتٌ أَنْدَى مِنَ الزَّهْرِ العَلِيلِ، وأَعْطَرُ مِنْ رِيحِ مَحْبُوبَةِ المَلِكِ الضَّلِيلِ[7] فَلَمَّا عَلِمَ بِوُصولي وَصَلَ فِي لِمَّةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ الأَعْلَامِ، وأَعْيَانِ البَلَدِ الَّذِينَ يَلْتَقُونَ كَالْتِقَاءِ الأَلِفِ باللَّام، فَالْتَقَيْنَا هُنَالِكَ الْتِقَـاءَ الـشَّمْسِ والآلِ، وانْتَظَمْنَـا انْتِظَـامَ الأَقَـارِبِ والأَهْـلِ، فَـأَظْهَرُوا مِـنَ الإِيثَـارِ والتَّعْظِيمِ، مَا يَقُولُ النَّاسُ مَعَهُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[8] وأَخَذُوا يُهِيبُونَ بِذِكْرِي، وَيَخْطُبُونَ لِأَبْنَاءِ مَحَابِرِهِمْ بُنَيَّاتِ فِكْرِي، وأَنَا أَقُولُ: مَنْ نَعَتَ لَكُمْ بِحُلَى الجَوَادِ عَيْرِي، وَلَعَلَّكُمْ حَدَّثْتُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ عَنْ غَيْرِي، وأَيْنَ جَالُوتُ مِنْ دَاوُدَ فِي الأَيْدِ، وأَنَّى لابْنِ المَرَاغَةِ

---

(1) القدموس: القديم البالي قال عبيد:

وَلَنَــا دَارٌ وَرِثْنَاهَـــا عَـــنِ الـــ ... أَقْـدَمِ القُـدْمُوسِ مِـنْ عَـمٍّ وَخَـالِ

(2) فيه إشارة إلى قوله تعالى:﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً﴾. سورة القصص، الآية: 9.

(3) بان: الأولى معناها ظهر؛ والثانية؛ اندثر وخرب.

(4) مقتبس من المثل المشهور:«إن البُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ»، مجمع الأمثال1/ 10، فصل المقال، ص: 129.

(5) أبروا: كثروا. وبروا: صلحوا.

(6) البيت من الكامل وهو للمتنبي في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أَمِـنْ ازْدِيَـارَكِ فِـي الـدُّجَى الرُّقَبَـاءُ ... إِذْ حَيْـثُ كُنْـتِ وَفِـي الظَّـلَامِ ضِـيَاءُ

(7) يقصد بالملك الضليل الشاعر امرأ القيس وهو من الشعراء الجاهليين المشهورين بغزله الفاحش.

(8) فيـه إشـارة إلـى قولـه تعـالى: ﴿يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.سـورة القصص، الآية: 79.



وأنَّى لابْنِ المَرَاغَةِ بِمَعِيشَةِ آل زَيْدٍ[1]؛ وأمَّا لَوْ كُنْتُ مِنَ المُوسِرِينَ فِي صِنَاعَةِ الأَدَبِ، لَنَسَلَ إِلَيْكُمْ إِسْعَافِي مِنْ كُلِّ حَدَب، كَرِيمٍ غَلَبَهُ العَدَمُ وَعَزَّهُ، ودَيْنُكُمْ هَذَا كَدَيْنِ غَرِيمِ عَزَّهُ[2] وهُمْ يَقُولُونَ: نُبْهُكَ فِي هَذَا الكَلَامِ حُلْمٌ، ومَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ، وأَنَا أَقُولُ: أَما أَنَا فَلِغَيْرِي القِدْحُ المُعَلَّى، وكَمَا حُدِّثْتُمْ عَنْ كَرَمِ المُعَلَّى:

لَعُمْرُ أَبِيكَ مَا نُسِبَ المُعَلَّى ... إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ
ولَكِنَّ البِلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ ... وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعِيَ الهَشِيمُ[3]

كَذَلِكَ حَتَّى عَزَمْنَا عَلَى الرِّحْلَةِ، وآتَيْنَا صَدُقَاتِنَا نِحْلَةً[4] ونَسَفْنَا جِبَالَ التَّعْرِيسِ، وآذَنَّا بالانْفِصَالِ عَنْ ذَلِكَ الرَّبْعِ الدَّرِيسِ. وَمَا انْفَصَلْنَا عَنْهُ إِلَّا وَالغَزَالَةُ[5] قَدْ بَرَزَتْ مِن الكِنَاسِ، وتَصَوَّبَتْ بَيْنَ قَرْنَيْهَا الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ[6] فَسِرْنَا نَسْتَجِدُّ السُّرْعَةَ عَلَى طُولِ الشُّقَّةِ نَصِيراً، ونُوسِعُ الأَكْلَ تَطْوِيلًا والصَّلَوَاتِ تَقْصِيرًا[7] وأَخْلَقْنَا فِي السَّيْرِ شَبَابَ ذَلِكَ اليَوْمِ، وبِعْنَا الدَّعَةَ مِنَ الكَلَالِ بِأَرْخَصِ سَوْمٍ إِلى الجُبِّ الأَحْمَرِ[8] وصَلْنَاهُ وَقَدْ تَضَمَّخَتْ صَفَحَاتُ الرُّبَا بِخَلُوقِ الأَصِيلِ، وأَرْزَمَتِ المَطَايَا إِلَى الدَّعَةِ إِرْزَامَ الفَصِيلِ، فَحَلَلْنَا مِنْهُ بِحَيْثُ نُجَاوِزُ الأَسَاوِدَ والأُسُودَ، ونُجَاوِزُ الدَّوَاهِيَ السُّودَ.

---

(1) ابن المراغة هو جرير، والمراغة لقب أمه والإشارة هنا إلى قوله:

تُكَلِّفُنِي مَعِيشَةَ آل زَيْدٍ ... وَمَنْ لِي بِالصَّلَائِقِ والصِّنَابِ

(2) عزه الأولى: معناها أعوزه، أي أفقره أشد الفقر. وعزه: الثانية غريمة الشاعر كثير، وقد اشتهر لقبه بها واقترن، فأصبح يعرف بالكثيرعزة وهو يشير إلى قوله:

قَضَى كُلُّ ذِي دينٍ فَوَفَّى غَرِيمَهُ ... وعَزَّةُ مَمْطُولٌ مُعَنًّى غَرِيمُهَا

(3) البيتان من الوافر. وهما لأبي علي البصير شاعر مشرقي جمع ديوانه يونس السامرائي ونشره في المورد سنة 1972. العددان 3و 4.

(4) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾. سورة النساء، الآية:4.

(5) الغزالة: يقصد بهاالشمس؛ وكناسها المكان الذي تطلع منه.

(6) سورة الناس، الآية: 4.

(7) تقصير الصلاة جائز في السفر وإلى هذا يشير الكاتب.

(8) الجب الأحمرلعلم المكان الذي يسمى اليوم «ELCHIVE».



ولَمَّا حطَطْتُ بِهِ رَحْلَ المُقِيمِ، ولَا سَميرَ إلَّا مَا بِي مِنَ الشَّوْقِ المُقْعِدِ المُقِيمِ، أَلْفَيْتُ بَهْجَتَهُ مُتَقَلِّصَةَ الأَفْيَاءِ، وَوَجَدْتُ سَاحَتَهُ كَدَارِ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ، فَنَفَضْتُ يَدَيَّ مِنْ عُلْقَةَ الجِلْدِ، وقُلْتُ: «لَا حَبَّذَا أَنْتِ يَا صَنْعَاءَ[1] منْ بَلَد» وفي خِلَالِ ذَلِكَ أَصَابَنِي أَلَمٌ حَيَّروغَيَّرَ وأَسْعَفَ، بِأَنْ أَضْعَفَ، وذَلِكَ لِمَا كَانَ فِي بَاعِ الدَّعَةِ مِنَ القُصُورِ، أَوْ لانحِرَافِ الهَوَاءَيْنِ المَمْدُودِ والمَقْصُورِ، فَحِينَ نَضَحَ مَاءُ البَيَاضِ دَمَ الحُمْرَةِ، وصَفِرَتْ كَأْسَ الأُفُقِ مِنْ تِلْكَ الجَمْرَةِ، قُمْتُ لأَقْضِي مِنْ صَلَاةِ العِشَاءِ كِتَابًا مَوْقُوتًا وأَقْرِي الجُفُونَ إِثْرَذَلِكَ مِنَ النَّوْمِ قُوتًا، فَأَصَابَنِي أَرْضٌ، ولَبِطَ بِي الأَرْضَ، فَسَقَطْتُ سرِيعًا، وَتَرَدَّيتُ صرِيعًا، وسُلِبْتُ الحِسَّ والحَرَكَةَ، وَنَصَبْتُ لِنُطْقِي مِنَ الخَرَسِ شَرَكَة، فَثَارَ النَّاسُ إِلَيَّ، وأَقَامُوا التَّأَسُّفَ عَلَيَّ، وَقَطَعُوا عَلَى أَنَّهُ طَرَقَ الحِمَامُ المُرْتَجَلَ، وتَلَوْا تَوَجُّعًا واعْتِبَارًا ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾[2] وَعزَمُوا عَلَى أَنْ يُدْرِجُونِي في أَثْوَابِ اللَّيَالِي الحَوَالِكِ، ويَقُولُوا هَالِكٌ مِنَ الهَوَالِكِ، وتَفَاوَضَ فِي ذَلِكَ سِرُّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، فَمَازَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ، حَتى اتَّقَدَ سِرَاجُ الحِسِّ مِنْ لَيْلِ ذَلِكَ التَّوَهُّمِ، وأَوْمَضَ بَرْقُ التَّبَسُّمِ فِي وَجْهِ ذَلِكَ التَّهَجُّمِ، فَثَابَتْ إِلَيْهِم العُقُولُ، إِذْ تَسَرَّحَ مِنْ قَيْدِ الهَلَكَةِ ذَمَائِيَ المَعْقُول، وَعِنْدَمَا تَمَثَّلْتُ أَقُولُ:

كَمْ قَدْ قُلْتُ وَكَمْ قَدْ مِتُّ قَبْلَكُمْ ثُمَّ انْتَفَضْت فَطَارَ القَبْرُ والكَفَنُ[3]

فالحَمْدُ للهِ عَلَى أَنْ مَنَّ بالسَّلَامَةِ عَلَى الفَوْرِ، وغَمَرَ كِمَامَةَ الجَسَدِ مِنَ الصِّحَّةِ بِأَنْضَرِ نَوْر.

---

(1) صنعاء: مدينةيمنية وهي كثيرة الخيرات ليس في بلاد اليمن أقدم منها وإليها ينسب الوشي الصنعاني، قال الشاعر:

وَشْيٌ نُضَارُ صِلَاتِهِ بِلُجَيْنِهِ أَعْجِبْ بِحُسْنِ الوَشْيِ مِنْ صَنْعَاءِ

وهو مصطلح لقصيدة زياد بن منقد العدوي وهي في معجم ياقوت الرومي.

(2) سورة الأعراف، الآية: 32.

(3) البيت من البسيط، وهو في قصيدة المتنبي:

بِمَ التَّعَلُّلُ لَا أَهْلٌ وَلَا وَطَنٌ وَلَا نَدِيمٌ وَلَا كَأْسٌ وَلَا سَكَنُ



ولَمَّا سَوَّغَنِي اللهُ العَافِيَةَ وعَمَرَ بالصِّحَّةِ رُبُوعَ الجَسَدِ العَافِيَةِ، افْتَرَشْتُ مِنْ كَفِّ السَّلَامَةِ مِهَادِي، وخَلَعْتُ عَلَى الكَوَاكِبِ سُهَادِي، حَتَّى ذَهَبَ خِطَابُ الظَّلْمَاءِ، واضْمَحَلَّ زَبَدُ النُّجُومِ عَنْ بَحْرِ السَّمَاءِ ....إلى بَيْرَةَ[1] وصَلْنَا بَعْدَ أَنْ شَكَتِ الرَّوَاحِلُ تَأَلُّمَا مَنْ أَشْكَاهَا، وأَجْهَدْنَاهَا مِنْ وَقْتِ تَذَكُّرِ الخَنْسَاءِ إِلَى وَقْتِ بُكَاهَا، فَبِتْنَا مِنْهَا بِسَاحَةِ حِصْنٍ شَمَخَ بِأَنْفٍ ونَأَى بِجَانِبٍ، وامْتَنَعَ عَلَى المُتَطَاوِلِ امْتِنَاعَ مجانب، ولمَّا بَاحَ الفَجْرُ بِسِرِّ الصُّبْحِ المَهْزُوم، ودَنَا وَقْتُ نِدَاءِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُوم، قَارَعْنَا ظُنْبُوبَ[2] الانْتِقَالِ، وَرِشْنَا جَنَاحَ الخَبِّ والإِرْقَالِ، وَسِرْنَا نَطْوِي مَسَافَةَ البَيْدَاءِ، طَيَّ الرِّدَاءِ، ونَهُزُّ لِلْجِدِّ عَطْفَ ارْتِيَاحٍ، ونَطِيرُ عَلَى الأَرْضِ بِجَنَاحِ الرِّيَاحِ، إِلَى أَنْ خَجِلَتِ الشَّمْسُ مِنْ تَعَبِهَا فَاصْفَرَّتْ، وتَخَيَّلَتْنَا نَطْلُبُهَا بِذَحْلٍ فَنَفَرَتْ إِلَى مَغْرِبِهَا وَفَرَّتْ، وحَانَتِ العَشْرُ الثَّوَانِي مِنْ تَحِيَّاتِ قَيْسِ بْنِ الذَّرِيحِ[3] وقَدْ بَرَّحْنَا بالمطِيِّ كُلَّ التَّبْرِيحِ، إِلَى لُورْقَة[4] أَحَدِ أَنْظَارِ مُرْسِيَة وأَعْمَالِهَا، وَخَالٌ فِي خَدِّ جَمَالِهَا، ذَاتِ الأَرْضِ الأَرِيضَةِ، والبِلَادِ العَرِيضَةِ، ظِلٌّ ظَلِيلٌ، وَزَهْرٌ بَلِيلٌ، وهَوَاءٌ صَحِيحٌ ونَسِيمٌ عَلِيلٌ، مِنْ بَلْدَةٍ أَقْسَمَتْ بِعُلُوِّ قِصَابِهَا، أَلَا يَفُوزَ مَبْسِمُ الثُّرَيَّا بِرَشْفِ رُضَابِهَا، فَلَا تَرْتَقِيهَا إِلَّا الظُّنُون، وكَأَنَّهَا ضَبٌّ وَمَنْ يَطْمَعُ فِيهِ نُون[5]، فَأَنَخْنَا بِهَا مِنْ عَطَنٍ، وَقَدْ أَشْرَفْنَا - بِحَمْدِ اللهِ - عَلَى ثَنَايَا الوَطَنِ:

---

(1) حصن بيرة: vera يقع في الشمال الشرقي من مملكة غرناطة وتشتهر بصعوبة مسالكها، قال الشاعر الأندلسي يصف طريقها:

بِطَرِيقِ بَيْرَةَ أَجْبُلٌ وَعِقَابُ ... لَا يَرْتَجِي فِيهَا النَّجَاةَ عُقَابُ
فَكَأَنَّمَا المَاشِي عَلَيْهَا مُذْنِبٌ ... وَكَأَنَّمَا تِلْكَ العِقَابُ عِقَابُ

(2) يقال: قرع للأمر ظنبوبه: أي تهيأ له.

(3) قيس بن الذريح شاعر من كنانة وهو من الشعراء العشاق وصاحبته لبنى ويعرف بها. الأغاني 2/ 107.

(4) لورقة lorca: مدينة أندلسية تقع في محافظة مرسية وتشتهر بعنبها وزرعها ومعادنها. العذري ص: 7، الإدريسي، ص: 196، معجم البلدان 4/ 369.

(5) يشير إلى استحالة الجمع بين الضب والنون.



وأَبْــرَحُ مَــا يكُــونُ الــشَّوْقُ يَوْمًــا إذَا دَنَــتِ الــدِّيارُ مِــنَ الــدِّيَارِ[1]

فَبِتْنَا بِهَا نَسْتَطِيلُ اللَّيْل ولَوْ كَانَ مُنْجِيًا، ونَخْلُصُ إِلَى التَّحَدُّثِ عَنِ الانْحِفَازِ نَجِيا، ونَرْكَبُ ظَهْرَ التَّأَمِ، ونَقْطَعُ عُمْرَ الكَرَى بالذَّمِيلِ، كَذَلِكَ حَتَّى سَفَرَتِ الجُونَةُ عَنْ نِقَابِهَا، ونكَصَتِ النُّجُومُ عَلَى أَعْقَابِهَا، فَفَوَّقْتُ سَهْمَ العَزْمِ، وأَطَرْتُ عَنْ زَنْدِهِ شَرَارَ الحَزْمِ وأَدْخَلْتُ عَنْ مُعْتَلِّ التَّوَانِي حَرْفَ الجَزْمِ، وانْفَصَلْتُ عَنْ صُحْبَتِي انْفِصَالَ الكَرَى عَنْ مُقْلَةِ المَهْجُورِ، وضَرَبْتُ عَلَى يَدَيْ كَسَلِي ضَرْبَ الوَصِيِّ عَلَى يَدَي المَحْجُورِ، وَسِرْتُ كَــأَنِّي لِطُــولِ المَــسَافَةِ عَلَــى كُــرَهٍ، ونَــسِيتُ الــزَّادَ ﴿وَمَآ أَنسىٰنِيهِ إِلاَّ ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾[2] ومَـا زِلْـتُ أَمْسَحُ أَرْضًـا فَأَرْضًـا، وأَصُـومُ لَا تَطَوُّعًـا ولَا فَرْضًـا، وأَطْـوِي الجَوَانِحَ عَلَى قَلْبٍ بِنَوَاكُمْ مفْجُوع، وأُعَالِجُ الأَلَمَيْنِ مِنَ الصَّبَابَةِ والجُوع:

إذَا اجْتَمَـعَ الجُـوعُ المُبَـرِّحُ والهَـوَى عَلَى العَاشِقِ المِسْكِينِ كَادَ يَمُوتُ[3]

وَبَيْنَا أَنَا أَرْكَبُ ثَبَجَ بَحْرِ السَّرَابِ، عَلَى سَفِينِ الضُّمَّرِ العِرَابِ، وأَطِيرُ فِي جَوِّ الرَّجَاءِ، بِجَنَاحِ النَّجَاءِ، أَطْلَلْتُ عَلَى مُرْسِيَةَ تَتَلَفَّعُ بِثِمَارِهَا، تَلَفُّعَ الكَاعِبِ بِخُضْرِ خِمَارِهَا، قَدْ سَلَّتْ عَلَى بِساطِ الرَّوْضِ مِنْ نَهْرِهَا حُسَامًا، وأَضْحَكَتْ ثُغُورُ شَرَفَاتِهَا ابْتِسَامًا، تُدْمِيرُ ومَا أَدْرَاكَ مَا تُدْمِيرُ، الظِّلُّ الوَارِفُ والمَاءُ النَّمِيرُ، مَنَازِهُ قَامَ السُّرُورُ فِي مِنْبَرِ دَوْحِهَا خَطِيبًا، وَمَشَاهِدُ بَذَّتْ. مَغَانِي الشِّعْبِ طَيِّبًا[4] وَصَلْتُهَا -بِعَونِ اللهِ تَعَالَى-

---

(1) البيت من الوافر يوجد دون نسبة في: مشاهدات لسان الدين وهو لإسحاق الموصلي في معجم الأدباء، ص: 605.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسىٰنِيهِ إِلاَّ ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾. سورة الكهف، الآية: 62.

(3) البيت من الطويل وهو لأحد شعراء الحماسة، انظر: زهر الأكم 1/ 357. شرح التبريزي 4/ 345.

(4) مقتبس من قول المتنبي يصف شعر بوان الموجود في فارس:

مَغَــانِي الــشِّعْبِ طِيبــًا في المَغَــانِي بِمَنْزِلَــةِ الرَّبِيــعِ مِــنَ الزَّمَــانِ

وَلَكِــنَّ الفَتَــى العَرَبِــيَّ فِيهَــا غَرِيــبُ الوَجْــهِ وَاليَــدِ وَاللِّــسَانِ

ديوانه 4/ 383، الروض المعطار، ص: 348.



تَعَالَى - والأَصِيلُ قَدْ صَبَغَ رِدَاءَهُ وَجْهُ الاحْتِشَامِ، والشَّمْسُ قَدْ مَالَتْ كَعَيْنِ هِشَام[1] ولَمَّا حَلَلْتُ بِهَا حُلُولَ الحَيَاةِ بالجِسْمِ، والإعْرَابِ فِي آخِرِ الاسْمِ، وَصَلَ إِخْوَانِي يَسْحَبونَ المَسَرَّةَ أَرْدَانًا، وطَارُوا إِلَى فِنَائِي زَرَافَاتٍ وَطِيبًا، فَخَرَجْتُ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ، وَبَادَرْتُ التَّسْلِيمَ عَلَيْهِمْ، فَجَعَلُوا يُلِحُّونَ، فَيَجْمَحُونَ، وَيَتَفَكَّرُونَ، فَيَتَنَكَّرُونَ، وَيَقُولُونَ مَتَى عَهْدُكَ بالتَّعْرِيسِ، وأَيْنَ غَادَرْتَ صَفْوَانَ بْنَ إِدْرِيسَ؟ فَأَقُولُ: أَمَّا الجِسْمُ فَبِتُدْمِير، وَأَمَّا القَلْبُ فَبِالخَضْرَاءِ فِي يَدِ التَّدْمِير. فَصَارُوا وكُلُهُمْ مُنْكِرٌ مُسْتَرِيبٌ، وقَالُوا مِنْ أَيْنَ وَفَدَ هَذَا الغَرِيب:

يَقُولُونَ مَنْ هَذَا الغَرِيبُ بأَرْضِنَا ... وأَيْدِي الهَدَايَا إِنَّنِي لَغَرِيب[2]

فَعِنْدَمَا أَرْعَيْتَهُمْ طَرْفَ الاحْتِقَارِ، وشَمَخْتُ بأَنْفِي فِي هَضْبَةِ الوَقَارِ، فَجَعَلُوا يَقُولُونَ إِنْ تَسَاوَى السِّرُّ والإعْلَانُ، فَقَدْ وَصَلَ حَبْلَ النُّسْكِ فُلَان، مَتَى انْتَقَلَ مِنْ كَيْدِ، السَّرُوجِيِّ أَبِي زَيْدٍ[3]، وانْغَمَسَ فِي دَيْرِ، سَعِيدِ بْنِ الجُبَيْرِ[4] فَأَيْنَ تَغَزُّلُهُ؟ وأَنَا أُصَحِّحُ الانْقِبَاضَ وأُحَقِّقُ، وَعَنْ صَبُوحٍ مَا أُرَقِّقُ:

صَلَّى فَأَعْجَبَنِي وَصَامَ فَرَاعَنِي ... نَحِّ القَلُوصَ عَنِ المُصَلِّي الصَّائِمِ[5]

وَعِنْدَمَا خَلَعْتُ عَلَى الحل بُرْدَةَ التِّرْحَالِ، وَبَرِئْتُ إِلَى الاسْتِقْرَارِ مِنَ العِيسِ والرِّحَالِ، قُلْتُ أَنْدُبُ مَا مَرَّ مِنْ صَالِحِ تِلْكَ الحَال، وإِنَّمَا يُعْرَفُ قَدْرُ الخِصْبِ فِي زَمَنِ الإمْحَالِ:

---

(1) يقصد به هشام بن عبد المالك، وقد عرف عنه أن عينه كان بها حول؛ قال اليربوعي: كان الفرزدق قد هجا هشام بن عبد الملك بشعر فيه قوله:

يُقَلِّبُ رَأْساً لَمْ يَكُنْ رَأْسَ سَيِّدٍ ... وَعَيْناً لَهُ حَوْلَاءَ بَادٍ عُيُوبُهَا

النقائض، ص: 984.

(2) البيت من الطويل وهو لابن الدمينة، انظر ديوانه تحقيق العالم أحمد ابن النفاخ، ص:114.

(3) أبو زيد السروجي: بطل مقامات أبي القاسم الحريري.

(4) سعيد بن جبير أسدي بالولاء وهو حبشي الأصل، انظر وفيات الأعيان1/ 204، طبقات ابن سعد6/ 178، الأعلام 3/ 93.

(5) البيت من الكامل.



سَلِ البَدْرَ عَنِّي إِنْ قَدِمْتَ عَلَى البَدْرِ ... يُخَبِّـرْكَ أَنِّـي مِثْلُـهُ أَبَـدًا أَسْـرِي
وَأَنِّـيَ أَهْفُـو بالمَطَايَـا عَلَـى الوَجَـا ... وأَحْمِلُهَـا مِـنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا تَـدْرِي
بِعَـزْمٍ يَخَـالُ البَحْـرَ شَـرْبَةَ مُرْتَـوٍ ... ويَحْسَبُ طُولَ الأَرْضِ فِي سَعَةِ الشِّبْرِ
نَـذَرْتُ عَلَيْـهِ أَنْ يُبَلِّغَنِـي المُنَـى ... فَهَلْ إِنْ بَلَغْتُ النَّجْمَ يَكْمُلُ لِي نَذْرِي
إِذَا الأُفْـقُ يَتْلُـو سُـورَةَ اللَّيْـلِ بـالفَلَا ... تَلَـوْتُ لَـهُ مِـنْ صَـارِمِي سُورَةَ الفَجْـرِ
وإِنْ خَـانَنِي خِـلٌّ أَعُـدُّ وَفَـاءَهُ ... فَـسَيْفِي وَزِيـرٌ لِـي أَشُـدُّ بِـهِ أَزْرِي[1]
سَـيَدْرِي زَمَـانِي أَيَّ عِلْـقِ مَـضِنَّةٍ ... أَضَـاعَ، وَيُفْنِـي الـسِّنَّ قَرْعًـا إِذَا يَـدْرِي
خَلِيلَـيَّ مَـا لِلـدَّهْرِ يَطْـوِي مَـآرِبِي ... أَلَا حَكَـمٌ فَـصْلٌ يُقِيـدُ مِـنَ الـدَّهْرِ
وَمَـا لِعُقَـابِ النَّائِبَـاتِ تَـصِيدُنِي ... أَمَا عَلِمَتْ فِي الأَرْضِ وَكْراً سِوَى وَكْرِي
نَعَـمْ، عَلِمَـتْ وَكْـرًا سِـوَاهُ وَإِنَّمَـا ... صُرُوفُ اللَّيَـالِي تَـسْتَطِيلُ عَلَـى الحُرِّ
خَلِيلَـيَّ قَـدْ أَفْنَيْـتُ دَمْعِـي صَـبَابَةً ... فَمَـنْ عِنْـدَهُ دَمْـعٌ أُقِيمُ بِـهِ عُـذْرِي؟
وهَـا سِـمْطُ دَمْعِـي مُـذْ نَـأَيْتُمْ كَأَنَّمَـا ... أُعَلِّمُـهُ مِـنْ بَعْـدِكُمْ صَـنْعَةَ النَّثْـرِ
فَلَمَّـا رَأَوْا دَمْعِـي تَلَاطَـمَ مَوْجُـهُ ... دَعَـوْنِي عَلَـى حُكْـمِ البُكَـا بِـأَبِي بَحْـرِ
أَخِـلَّايَ بالخَـضْرَاءِ دُومُـوا بِنِعْمَـةٍ ... فَوَا العَصْرِ إِنِّي مُذْ نَأَيْتُمْ لَفِي خُسْرِ[2]
إِذَا نَـسَمَتْ رِيـحُ الجَزِيـرَةِ هَيَّجَـتْ ... ذَمَـاءَ نُفَـيْسٍ لَا تَـرِيشُ ولَا تَبْـرِي
تَـقِ اللهَ فِيهَـا يَـا نَـسِيمُ فَإِنَّهَـا ... إِذَا فُقِدَتْ ضَاعَ الصِّبَا والهَوَى العُذْرِي
يُقِـرُّ لِعَيْنَـيْ بَانَـةِ الـسِّدْرِ أَنَّنِـي ... أَحِـنُّ عَلَـى عُفْـرٍ إِلَـى بَانَـةِ الـسِّدْرِ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾، سورة طه، الآيات:28-29-30.

(2) سورة العصر، الآية: 1.



أُغَــازِلُ بَـرْقَ الغَـرْبِ حُبًّـا لِعَهْـدِكُمْ   فَمَهْمَـا بَـدَا بَـرْقٌ أَقُـلْ كُـنْ أَبَـا ذَرِّ(1)
كَـأَنْ لَـمْ نَـرُدْ زَهْـرَ الرِّيَـاضِ وَلَـمْ نَـرِدْ   مَـشَارِعَ ذَاكَ النَّهْـرِ، بُـورِكَ مِـنْ نَهْـرِ
وَلَـــمْ نَلْتَحِــقْ ظِـلَّ الأَرَاكَـةِ بُـرْدَةً   مُنَمَّقَــةَ الأَعْطَــافِ بِــالزَّهَرِ النَّــضْرِ
وَلَــمْ نَلْــتَقِطْ دُرَّ الحَــدِيثِ عَــشِيَّةً   بِـسَاحَةِ ذَاكَ القَـصْرِ أَفْدِيـهِ مِـنْ قَـصْرِ
شَـبَابٌ وَإِخْـوَانٌ تَـوَلَّى كِلاَهُمَـا   فَـلاَ خَانَنِي دَمْعِي وَلاَ جَدَّ لِي صَبْرِي
وَكَـمْ رُمْـتُ أَلَّا يَـشْعَبَ الـدَّهْرُ شَـمْلَنَا   ولَكِـنَّ سِـحْرَ الـدَّهْرِ أَنْفَذُ مِـنْ سِـحْرِي
ثَلاَثَــةُ إِخْــوَانٍ تَــأَلَّفَ شَــمْلُهُمْ   تَــأَلُّفَ شَــمْلِ الطَّـلِّ والمَـاءِ والزَّهْـرِ
فأَمَّــا أَبُــو مُوسَــى(2) فَنَأْيُــهُ عِبْـرَةٌ   ويَـا لَيْتَنِـي أَلْقَـاهُ أَعْلَـى مِـنَ العَـصْرِ
لَــهُ أَدَبٌ سَــمْحٌ كَمَــا رَقَّــتِ الــصَّبَا   إِلَـى أَدَبٍ كَـسْبٍ كَعَهْـدِكَ بالـسِّحْرِ
أَقُــولُ خَلِيلِــي وَهُــوَ أَعْظَــمُ رُتْبَــةً   ولَكِنَّـهُ تَـأْتِي الـضَّرُورَاتُ فِـي الـشِّعْرِ
ومَا شَبَّ عَمْرُوا فِي الزَّمَانِ الَّذِي مَضَى   عَنِ الطَّوقِ لَكِنْ شَبَّ عَنْهُ أَبُو عَمْرِ(3)
وإِنْ بَنِــي حَــسُّونَ سَــادَةُ دَهْــرِهِمْ   ولَكِـنَّ هَـذَا فِـيهِمُ «بَيْـضَةُ العُقْـرِ»(4)
ولاَ عَجَــبَ أَنَّ سَــادَهُمْ وَهُــوَ مِــنْهُمُ   فَمِنْ جُمْلَةِ الأَسْيَافِ صَمْصَامَتَا عَمْرِ(5)

(1) هو أبو ذر الغفاري، وهذه القولة فيه مشهورة.
(2) هو أبو موسى بن نادر وهو الذي نسخ كتاب الكليات لابن رشد.
(3) في هذا البيت إشارة إلى المثل المعروف: «شب عمرو عن الطوق»، وعمرو: يقصد به ابن حسون، الذي كان صديقا له ووزيرا من وزراء الدولة الموحدية، وبيت بني حسون مشهور بالعلم والفضل والرياسة.
(4) من المضاف الجاري مجرى المثل، ثمار القلوب 496-497.
(5) يشير في هذا البيت إلى «الصمصامة» التي تنسب إلى عمرو بن معدي يكرب، وقيل أنه سماه بذلك عندما وهبه وقال:
خَلِيــلٌ لَــمْ أَخُنْــهُ وَلَــمْ يَخُنِّــي   عَلَــى الصَّمْــصَامَةِ الــسَّيْفِ الــسَّلاَمُ
اللسان: «صمم».



وَبِي مِنْ نَوَى ابْنِ القَاسِمِ النَّدْبِ لَوْعَةٌ — تُعْلَمُ قَلْبِي كَيْفَ يَنْزَحُ عَنْ صَدْرِي
تَنَاءَى فَمَا مَرَّ السُّلُوُّ بِخَاطِرِي — ولَا أَشْرَقَتْ فِي مُقْلَتِي غُرَّةُ البَدْرِ
وتُطْرِبُنِي ذِكْرَاهُ حَتَّى يَقُولَ مَنْ — يُعَايِنُنِي حُدُّوا فُلَانًا عَلَى السُّكْرِ[1]
أَحِبَّتَنَا قَصَّرْتُ فِي شُكْرِ مَجْدِكُمْ — ولَكِنَّنِي أَغْيَيْتُ[2] فِيهِ عَلَى قَدْرِي
فَأَنْتُمْ ظُبَا بَاسِي وأَطْوَادُ عِصْمَتِي — ومُسْتَوْطِنُوا صَدْرِي ومُسْتَوْجِبُوا شُكْرِي
ودُونَكُمُوهَا تُحْفَةً مِنْ أَخِيكُمُ — تَصُوغُ سِوَارَ الشُّكْرِ فِي مِعْصَمِ البِرِّ
عَسَى اللهُ يُدْنِينَا عَلَى بُعْدِ دَارِنَا — فَقَدْ يَلْتَقِي مَاءُ الغَمَامِ مَعَ الخَمْرِ[3]

ثُمَّ السَّلَامُ الَّذِي يَتَضَوَّعُ، فَيَتَنَوَّعُ، ويَتَكَرَّرُ فَيَتَقَرَّرُ، ويَتَرَدَّدُ، فَيَتَجَدَّدُ، بالرَّحْمَةِ والبَرَكَاتِ، مَا كَلِفْتُ بِلِقَائِكُمْ، وَوَجَدْتُ رُوحَ الأَمْنِ مِنْ تِلْقَائِكُمْ، وكُتِبَتْ فِي أَوَاخِرِ صَفرٍ عَامَ سِتَّةٍ وَثمَانِينَ.

وَكَتَبَ أَيضاً عِنْدَمَا تَحَقَّقَ أَنَّ أَصْحَابَهُ الَّذِينَ كَانَ نَوَى السَّفَرَ مَعَهُمْ إِلَى الحَجِّ قَدْ أَقْلَعُوا:

أَخِي وَسَيِّدِي، وَمُثْبِتِي فِي رِقْبَةِ إِكْرَامِهِ وَمُقَيِّدِي، الوَزِيرُ الحَسِيب، الَّذِي يَسِيحُ سَلْسَالُ بِرِّهِ وَيُسِيب، ولَوْلَا بُخْلُ الغَمَامِ لَقُلْتُ كَأَنَّهُ لِصُغْرَى أَنَامِلِهِ نَسِيب. أَدَامَهُ اللهُ حَدًّا لِحُسَامِ الوَفَاءِ، فِرِنْدًا لِصَفْحَةِ الصَّفَاءِ، أَبْقَاهُ اللهُ لِجِدٍّ يُبْرِمُ مِنْهُ مَا سَحَلَهُ الزَّمَانُ[4] وخُلُوصٍ يُمَهِّدُ لَهُ وَقَدْ خَانَهُ الآمَانُ، مَا زَالَ عِلْقًا تَتَنَافَسُ فِيهِ المَحَافِلُ والصُّدُورُ، وذِكْرُهُ مِسْكٌ تَفُضُّهُ

---

(1) اختلف الفقهاء في حد السكر فمنهم من يجعله ثمانين جلدة ومنهم من يبلغه إلى مائة، وذلك كل واحد حسب فهمه وتأويله للنصوص.

(2) أغيى: غالى وبالغ في الأمر منه الأغياء في البلاغة بمعنى: المبالغة.

(3) الأبيات من الطويل.

(4) سحل: عكس فتل فالسحل والسحيل هو الثوب الذي لا يبرم غزله ولا يفتل ومنه قول زهير:
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ

اللسان: «سحل».



الأَلْسِنَةُ وتَعِيبُهُ الصُّدُور.. والزَّمَانُ لآمَالِهِ مُطِيعٌ كَأَنَّ هَذَا إِنْسَانٌ وهَذَا قَدَرٌ مَقْدُورٌ....... الرَّامِي إِلَى هَدَفِ حَمْدِهِ بِسَهْم ابْنِ قُزعة عَنْ قَوْس حاجِب[1] المُتَخَافِض لهُ وَلَوْ شَمَخ تخافُضَ العَيْنِ لِلْحَاجِب، الَّذي لَيْس عَلَى أَمِير شُكْرِه لَهُ مِنْ مُوَارٍ وَلَا حاجِب. سَلَامٌ طَيِّبٌ أَثِير، كَأَنَّه للاسْتِحْسَانِ مُثِير، فَمَحَلّه في المعَاطِنِ وَثِير، وقَلِيلُه في الاغْتباقِ بِهِ كَثِير، فَهَلْ هذا الكَلَامُ مِسْكٌ نَثير عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه، وَبَعْدُ:

فَإِنِّي خَطَطت مِنْ تَعْظِيمِ أَنْزَلْتُهُ بِفِنَائِكُمْ وَحَطَطْت واللهَ أَسْتَعِين عَلَى مَا يَجِبُ مِنْ حَقِّكُم المتعين، وَأَسْتَوْهِبُهُ أَنْ يُنْجِدَ عَلَى شُكْرِكُمْ بِلِسَانٍ مبين، وَمِنْهُ أَسْأَلُ إِبْقَاءَكُمْ فِي كَنَفٍ كَالمُؤْمِنِ هَيِّنٍ لَيِّن، وَلَا شَكَّ في أَنَّ صَاحِبَيَّ قَدْ فَصَلا، واسْتَقَرَّا على لُجَّةِ خضارَةٍ وَحَصَلا، وَعَلِمَ اللهُ لَقَدْ أَدْرَكَنِي عَلَى فِرَاقِهِمَا نَدَم، وَكَيْفَ وَقَدْ زَلَّتِ القَدَم، وَأَصَابَنِي عَلَى الرُّجُوع مَذَل، وَقَدْ «سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل»[2] وَلَا شَكَّ أَن خَطِيَّتِي صَرَفَتْ عَن البَيْتِ الحَرَام مَطِيَّتي، وَرَدَّتْ عَلَى أَعْقَابِها طِيَّتي، كَمَا لا أَمْتَرِي أَنَّ إِجْرَامِي، نَقَض عَزِيمَة إِحْرَامِي، فَانْقَلَبْتُ بِغَيْرِ مَا طَلَبْت، وانْعَطَفْت، وَمَا قَطَفْت، وَالْتَوَيْت، وَمِنْ زَمْزَمٍ مَا ارْتَوَيْتُ، فَحَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ أَجْلِسَ لِلْعَزَاء، وأَصِيرَ غَرَضاً لِسِهام الأَرْزَاء، وَأَيّ ذلِك كان، فقَدَ وَجَدَ المَحَلَّ وَالمَكَان، ما قَيَّده العِصيان لَمْ يَنْحَلّ، وَمَنْ لَمْ يَكُنِ التُّقَى شَرْعَه لَمْ يَبْلُغْ ذَلِك المَحَل. إِلَى اللهِ أَشْكُوها أَغْرَاضاً سامِرِيَّة وَعَزَماتٍ شِعْرِيَّة، كُلَّما آنَسْت مِنْ هَذِه الإِبْساس، قالَتْ لا مساس، وإِذا نَوَيْتُ مِنْ تِلْكَ مَا البَرَرَةُ يَنْوُون، تَلَتْ عَلَيَّ: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾[3].

لَا أَشْكُو إِلَّا إِلَى الله وَحْدَه، لَعَلَّه أَنْ يُطِيرَ عَنْ مَيْتِ رَجَائِي كَفَنَه ولَحْدَه، فإِنَّما مَصْرَفُ الطّلبات إِلَيْه، وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْه؛ جعَلَنَا اللهُ وَإِيَاكُمْ مِمَّن فازَ بِخَيْرِ

---

(1) فيه إشارة إلى البيت الشعري:

لَقَوْسُ سلِيمٍ حِينَ يُرْسِلُ سَهْمَهُ ... أَشَدُّ عَلَى الآنَافِ مِنْ قَوْسِ حَاجِبِ

(2) مثل معروف، والمذل: الضجر.

(3) سورة الشعراء، الآية: 223.



الدَّارَيْنِ وَلَمْ يَغْلِبْ عُسْرُه اليُسْرَيْن، وَبَلَّغَنا مشاهِد الحَرَمَيْن، بِعَزَائِمَ لَا زَوْرٌ وَلَا مَيْن، فَهُو المُعْطِي مِنْ سَعَةٍ لَا يَنْضَبُ فَيْضُها، وَلَا يَجُورُ غَيْضُهَا، وَالسَّلام.

وَلَهُ الرِّسَالَةُ الَّتِي سَمَّاهَا: رِسَالَةُ الارْتِحَالِ وَالتَّعْرِيسِ إِنْشَاء صَفْوَان بْن إِدْرِيس وَهِيَ هَذِهِ:

الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي جَعَلَ الحُرَّ بِحِفْظِ العَهْدِ جَدِيرًا، والوَفَاء لاتِّسَاقِ الشَّمْلِ مُدِيرا، وَقَدَّرَ تَصَافِي الإِخْوَانِ بِحِكْمَتِه تَقْدِيرا ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾[1] وَمِمَّا يَجْرِي لِهذه المقدِّمَة مَجْرَى التَّفْسِيرِ قَوْل الأَعْشَى أَبِي بَصِير[2]:

فَإِنَّ القَرِيبَ مَنْ يُقَرِّبُ نَفْسَهُ ... لَعَمْرُ أَبِيكَ الخَيْرَ، لَا مَنْ تَنَسَّبَا[3]

فَنَحْمَدُ اللهَ عَلَى أَنْ أَلْحَفَنَا أَفْيَاءَ الأُنْسِ بِإِخْوَانِ الصَّفاءِ ظِلَالَه، وَسَوَّغَنَا فُرَاتَ مَنْهَلِ التَّأَلُّفِ وَزُلَاله، وَانْفَرَدَ بِالوَحْدَانِيَّةِ فَلَمْ تَنْبَغِ إِلَّا لَه. وَلَمَّا كَانَ الانْفِرَاد، مَيْدَانًا لَيْسَ لِلْبَشَرِ لَهُ طِرَاد، أَثَارَ تَعَالَى مِنْ بَعْضِ عَبِيدِهِ لِبَعْضٍ إِخْوَانا، وَجَعَلَهُمْ عَلَى مَا أَرَادَ أَعْوَانا، فَمِنْ مُنْفَرِدٍ لِطَاعَتِه، بِاسْتِطَاعَتِه، وَمُطَابِقٍ بَيْنَ أَثَرِ عِصْيَانِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَإِيَّاهُ نَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَنَا فِي شِعَابِ الطَّاعَةِ مِنَ المُتَّقِينَ، وَيَرْزُقَنَا خَاتِمَةَ التَّوْفِيقِ وَاليَقِين، وَبَرَكَةَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[4]، وَيُفِيضَ عَلَيْنَا هِدَايَةً نَكُونُ بِهَا لِرِضْوَانِهِ مُسْتَقْبِلِين، وَيَجْمَعَنَا فِي جَنَّتِهِ ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[5]، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ وَسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ إِمَامِ الهُدَى، وَغَمَامِ النَّدَى، وَحِمَامِ العِدَا وَتَمَامِ المَدَى، الدَّالِ عَلَى قَصْدِهِ إِلَى الائْتِلَافِ وَتَوَخِّيه، بِقَوْلِهِ: «المَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ»[6].

---

(1) سورة الفرقان، الآية: 54.

(2) الأعشى: هو ميمون بن قيس من الشعراء الجاهليين، انظر ترجمته في الأغاني 8/ 74، الشعر والشعراء 2/ 178، معجم الشعراء، ص: 41، خزانة الأدب 1/ 83.

(3) البيت من الطويل، ديوان الأعشى، ص:113.

(4) من قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾. سورة الزخرف، الآية:67.

(5) سورة الحجر، الآية: 47.

(6) حديث نبوي شريف ورد بنصه في العقد الفريد2/ 304.



وَقَدْ بَيَّنَ فَائِدَةَ التَّوَاخِي غَايَةَ البَيَانِ فَقَالَ: «المُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَظَمَ بِهِ بَدَدَ الإِينَاس، كَقَوْلِهِ: «رَأْسُ العقدِ بَيْنَ الإِيمَانِ وَالتَّوَدُّدِ إِلَى النَّاسِ»[1] وَلَمَّا تُؤَدِّي إِلَيْهِ الإِزْرَةُ مِنَ الاسْتِنْصَار، آخَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَار. فَقَالَ: هَذَا أَخِي يَعْنِي عَلِيّاً، فَأَحَلَّهُ بِذَلِكَ مَكَاناً عَلِيّاً، وَحَمْزَةُ أَسَدُ اللهِ فِي الحَرْبِ العَوَان، مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ أَخَوَان، وَأَنَّهُ أَوْصَى حَمْزَةَ إِذْ حَضَرَهُ القِتَال، وَخَافَ أَنْ يُقَاتِلَهُ يَوْمَ أُحُدٍ مُغْتَال، وَكَانَ حَارِثَةُ ابْنَ زَيْدٍ وَالصِّدِّيقُ أَخَوَيْنِ يَحُفُّ بِهِمَا التَّصْدِيق، وَالفَارُوقُ وَعُتْبَان، كَأَنَّهُمَا أَرْضَعَهُمَا لِبَان، وَذُو النُّورَيْنِ وَأَوْسُ بْن ثَابِت، كَأَنَّمَا يَأْوِيَانِ لِأَصْلٍ ثَابِت، وَسَعْدِ بْنِ مُعَاذَ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاح، كَامْتِزَاجِ الشَّهْدِ بِالمَاءِ القَرَاح، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَسَعْدُ بْنِ الرَّبِيع، كَمَا ائْتَلَفَ القَطْرُ مَعَ زَهْرِ الرَّبِيع، وَطَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ وَكَعْبُ بْنِ مَالِك، كَمَا حُدِّثْتَ عَنْ عَقِيلٍ وَمَالِك، وَسَعْدُ بْنِ زَيْدٍ وَأُبَيُّ بْنِ كَعْب، مَا فَوْقَ كَعْبٍ تَوَاخِيهِمَا مِنْ كَعْب، وَالزُّبَيْر بْنُ العَوَّامِ وَسَلَمَةُ بْنُ سَلَامَة، إِخَاؤُهُمَا جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ وَلَامَه[2] وَمُعَاذُ بْنِ جَبَلٍ وَجَعْفَرُ الطَّيَّارُ، سَابِقَ إِخَاءٍ لَا تُجَارِيهِمَا الأَغْيَار[3].

فَهَذِهِ نُبْذَةٌ مِمَّنْ آخَى الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَيْنَهُمْ، وَأَنْجَزَ مِنَ الائْتِلَافِ فِي ذَاتِ اللهِ دِينَهُم، إِلَى غَيْرِهِمْ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِم، مِنَ ﴿الذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾[4]، مِمَّنْ يَطُولُ بِهِمُ التَّعْدَاد، وَكُلُّهُمْ بِبَرَكَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتْرَابٌ وَأَنْدَاد. وَأَوْلَى مَنِ اقْتَفَيْنَا مُتَأَلَّفَه وَمُجْتَمَعَه، ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالذِينَ مَعَهُۥ﴾[5] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِين، وَجَعَلَنَا لِهَدْيِهِ مُتَّبِعِينَ أَمَّا بَعْدُ:

---

(1) حديث شريف معروف.
(2) أصل الكلمة «لأمة»، وخففت همزتها لأجل السجع. واللأم: الدرع الذي يقي صاحبه فهو جنة له.
(3) انظر في الأشخاص الذين آخى النبي بينهم كتاب الروض الأنف 1/ 48.
(4) سورة الحشر، الآية: 9.
(5) سورة الفتح، الآية: 29.



فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى أَطْلَعَ مِنْ صِدْقِ الإِخَاء، عَلَى حَالِكِ البُؤْسِ بَعْدَ الرَّخَاء، وَخَلَقَ لِلْإِنْسَانِ أَصْحَاباً جَعَلَهُمْ فِي مَحَلِّ النَّوَائِبِ سَحَابا، وَنَظَمَ لَهُ أَوِدَاءَ، يَكُفُّ بِهِمُ الاعْتِدَاء، فَإِنَّهُ مَنْ قَلَّ وَذَلَّ، وَلَوِ انْسَكَبَ الغَمَامُ مِنْ كَفِّهِ وَاسْتَهَلَّ، وَمَنْ عَزَّ بَزَّ[1] وَلَوِ اضْطَرَبَ البَرْقُ خَنقاً عَلَيْهِ وَاهْتَزَّ لِذَلِكَ قَالَ: الكَلِيمُ[2] عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالتَّسْلِيم، يَسْتدر الاعْتِضَادَ بِأَخِيهِ وَيَمْرِي، ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾[3]، وَقَدْ رَأَى المُتَقَدِّمُونَ انْتِخَابَ الصَّدِيقِ وَانْتِخَالَه، فَقَالَ قَائِلُهُمْ:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ[4]

وَأَطَالُوا انْتِقَاءَ الإِخْوَانِ وَاخْتِيَارَهُمْ، فَقَالُوا:

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ[5]

وَفَضَّلُوهُ فِي التَّحْقِيق، عَلَى الأَخِ الشَّقِيق، وَمُقَدَّمَةَ تَصْدِيقِي، قَوْلَهُمْ: «أَخِي إِذَا كَانَ صَدِيقِي»، فَرْعِيّاً لِإِخْوَانِ أَرْضَعَتْنَا إِيَّاهُمُ الآدَابُ دُرَرا، وَبَرْقَعَتْ بِنَا وُجُوهَ الإِخْلَاصِ غُرَرا، فَأَخَذْنَا مَعاً بِأَهْدَاب، الآدَاب، وَخَيَّمْنَا بِسَاحَةِ السَّاحَة، وَاسْتَمْسَكْنَا بِرِشَاء، الإِنْشَاء، وَنَشَأْنَا فِي أَبْيَات، الأَبْيَات، وَارْتَدَيْنَا بِمَأْثُورِ المَنْثُور، وَاغْتَدَيْنَا بِغَرِيض القَرِيض، وَتَسَابَقْنَا بِسِرَاعِ اليَرَاع، وَطِرْنَا وَقَوَافِينَا قَوَادِمُنَا وَخَوَافِينَا:

عِصَابَةٌ جَاوَزَتْ آدَابُهُمْ أَدَبِي ... فَهُمْ وَإِنْ فُرِّقُوا فِي الأَرْضِ جِيرَانِي

---

(1) بز: فاق وتقدم.

(2) الكليم: يقصد به نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(3) سورة طه، الآيتان: 30-31.

(4) هذا الشطر من بيت شعري تتردد نسبته بين مسكين الدارمي وابن هرمه وتتمته:

أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا لَهُ ... كَسَاعٍ إِلَى الهَيْجَا بِغَيْرِ سِلَاحِ

عيون الأخبار 3/ 2، مجمع الأمثال 1/ 23.

(5) صدر بيت لعدي بن زيد العبادي وعجزه:

وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي



أَرْوَاحُنَا بِمَكَانٍ وَاحِدٍ لَوْ غَدَتْ أَجْسَامُنَا بِشَآمٍ أَوْ خُرَاسَانِ[1]

وَرُبَّمَا قَرَعَتْ هَذِهِ المَقَالَةُ أَسْمَاعا، فَأَكْسَبَتْهَا فِي كَثْرَةِ الإِخْوَانِ أَطْمَاعًا حَتَّى إِذَا نَظَرَهَا النُّقَّاد، وَسَبَكَ ذَهَبَهَا الفِكْرُ الوَقَّاد، وَجَدَ مَسَاغًا يَسْلُكُهُ الانْتِقَاد، فَقَالَ: أَرَاهُ يَكْنِي عَنْ أَرْوَاحٍ وَأَجْسَام، وَيُحِيلُ عَلَى جُمُوعٍ جِسَام، فَمَا لَهُ وَمُخَالَفَةَ الجُمْهُورِ، وَإِنْكَارَ المُتَعَارَفِ المَشْهُور، أَلَيْسَ أَشْهَرَ مِنَ النَّدِّ فِي المِجْمَر، وَأَعْرَفَ مِنِ احْتِمَالِ الفَصْلِ لِلضَّمِيرِ أَنَّ الصَّاحِبَ المُخْلِصَ «أَعَزُّ مِنَ الكِبْرِيتِ الأَحْمَرِ»[2]، فَكَأَنَّهُ بِي أُفِيضُ عَلَيْهِ سَيْلَ الاحْتِجَاج، وَأُوَضِّحُ لَهُ الحَقَّ إِيضَاحَ المَنَاسِكِ لِلْحُجَّاج، فَأَقُولُ: إِنَّ العَرَبَ رُبَّمَا كَنَّتْ عَنِ الوَاحِدِ بِلَفْظِ التَّكْثِير، لِكَوْنِهِ عِنْدَهَا بِالمَحَلِّ الأَثِير، أَوَ لَا تَنْظُرُونَ وَتَسْمَعُونَ لِقَوْلِهِ تَعَالَى....وَأَحْسِبُ الرَّحْبَ ضَيْقًا، فَقَالَ: أَحَارِ تَرَى بُرَيْقًا[3] فَإِنِّي مَعَ الوَاحِدِ نَطَقْتُ، [وَبِهِ عَلَى مَذْهَبِ][4] العَرَبِ انْتَطَقْت، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقُومَ لِلْكَافَّةِ مَقَامَ جَاحِدٍ، وأَلُومُ مَنْ قَالَ باسْتِكْثَارِ صَدِيقٍ وَاحِدٍ، إِذَنْ لَأُوِّلْتُ عَلَى غَيْرِ مُتَأَوَّلٍ، وذَهَبَ عَنِّي تَصْدِيقُ الأَوَّلِ:

وإِذَا صَفَا لَكَ مِنْ زَمَانِكَ وَاحِدٌ فَهُوَ المُرَادُ، وأَيْنَ ذَاكَ الوَاحِدُ؟[5]

لاَ أَيْنَ -إِنْ شَاءَ الله- ولَا أَيْنَ[6]، وَقَدْ بَيَّنَ الأَثَرُ العَيْنَ، فَحَسْبُنَا بالوَزِيرِ الحَسِيبِ، والسَّهْمِ المُصِيبِ، إِنْسَانِ عَيْنِ المَحَامِدِ أَبِي مُحَمَّدِ بنِ حَامِدٍ، مِنْ وَلِيِّ عَلِيٍّ، وَصَفِيٍّ

(1) البيتان من البسيط وهما لأبي تمام، ديوانه 3/ 335.
(2) الدرة الفاخرة، ص: 97.
(3) مقتبس من قول امرئ القيس:

أَحَارِ تَرَى بَرْقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ كَلَمْعِ اليَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

شرح المعلقات، ص: 84.
(4) رم بالأصل.
(5) البيت من قصيدة لأحد الشعراء القدامى وهو دون نسبة في الصداقة والصديق، ص: 151، والدر الفريد،3/ 293. وهو من الكامل.
(6) الأين: الإعياء والتعب.



حَفِيٍّ، وَسَاعِدِ مُسَاعِدٍ، هُوَ مَطِيَّةُ وِدَادِي واعْتِدَادِي، ومُورِيَ زِنَادَيْ اعْتِقَادِي وانْتِقَادِي، ومَالِي لَا أَقُولُ، عَلَى مَا يَقْتَضِي المَعْقُولُ، حَدُّ صَارِمِي، وَجُنَّةٌ مِنْ سِهَامِ مَصَارِمِي، شَبَاةُ سِنَانِي، ومُسَدِّدُ عِنَانِي، ولِمَ لاَ أُثْنِي وأَمْدَحُ، وأَقُومُ غِرِّيدًا بأَيْكَةِ عُلَاهُ وأَصْدَحُ، وقَدْ أَضَاءَ فَمَا لِي لَا أَقْدَحُ؛ وكُلَّمَا اسْتَعْرَضْتُ وُدَّهُ فِي مِعْرَاضِ التَّجْرِيبِ، تَبَرَّأَ عَنِ الشَّبِيهِ وَالضَّرِيبِ[1] وأَنْسَى فِي اليَوْمِ فِعْلُ الأَمْسِ، كَمَا أَرْبَى عَلَى لَيْلَةِ البَدْرِ يَوْمُ الشَّمْسِ، وَزَادَ حُسْنًا كَمَا تَزِيدُ سَادَةُ عَبْدِ شَمْسٍ، فَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَزِيدُ بِهِ اغْتِبَاطًا، وأَسْتَوْثِقُ فِي يَدَيَّ مَحَبَّتَهُ ارْتِبَاطًا، وكَأَنِّي أَسْتَقْبِلُ مِنْهُ فِي كُلِّ بَرْدِ زَمَنٍ رِبَاطًا. فَإِذَا عَادَتْ حَلَاوَةُ الأَخْلَاقِ مَرَارَه، وغَلَبَتِ الشُّوكَةُ الحَرَارَه[2] فَهُوَ الحُلْوُ الحَلَالُ، والعَذْبُ الزُّلَالُ:

وتَأْخُذُهُ عِنْدَ المَكَارِمِ هِزَّةٌ ... كَمَا اهْتَزَّ تَحْتَ البَارِحِ الغُصْنُ الرَّطْبُ[3]

وكُنْتُ قَبْلَ أَنْ أَعْتَلِقَ بِعَلَائِهِ، وأَئْتَلِقَ بِلأْلَاءِ وَلَائِهِ، أَسْمَعُ الجِدَّ وَلَا أَرَاهُ، إِلَّا كَمَا أَطْمَعَ النَّائِمَ كَرَاهُ، وأُمَثِّلُ مَا وَرَدَ عَلَى سَمْعِي مِنَ الوَفَاءِ، وأَحَادِيثِ إِخْوَانِ الصَّفَاءِ، بِعَنْقَاءِ مُغْرِبٍ، أَوْ أَبْكَمَ مُعْرِبٍ:

حَتَّى إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ يُسْعِدُنِي ... رَأَيْتُهُ فَرَأَيْتُ النَّاسَ فِي رَجُلِ[4]

تَوَاخَيْنَا تَوَاخِيَ اليَدَيْنِ، وانْتَظَمْنَا انْتِظَامَ الفَرْقَدَيْنِ[5] مَحَوْتُ عَتْبَ الزَّمَنِ بِمَاءِ عُتْبَاءَ، وَسَلَكْتُ مِنْ حَمْدِ الدَّهْرِ فِي مَهْيَعٍ كَرِهِهِ أَكْثَرُ النَّاسِ وَأَبَاهُ، وَغَفَرْتُ لِلأَيَّامِ سُوءَ

---

(1) الضريب: المماثل والضريب.

(2) العرارة: نبتة برية طيبة الرائحة وتجمع على عرار، قال الشاعر:

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

وقال آخر:

بَيْضَاءُ غُدْوَتُهَا وَصَفْـ ... ـرَاءُ العَشِيَّةِ كَالعَرَارَه

اللسان: «عرر».

(3) البيت من الطويل، و ينسب لأبي الأشعب العبسي والأقرع بن معاذ القشيري، شرح الحماسة للتبريزي1/ 145.

(4) البيت من البسيط.

(5) الفردقان: نجمان لا يغربان ولكنهما يطوفان بالجدي وقيل هما كوكبان في بنات نعش الصغرى.



أَغْرَاضِهَا، وتَبَرَّأْتُ مِمَّنْ يُصَادِفُ حَلَاوَةً فِي أَعْرَاضِهَا؛ وَفِي خِلَالِ ذَلِكَ نَشَأَ لَنَا رَأْيٌ فِي السَّفَرِ أُيِّدَ بِالتَّوْفِيقِ، واسْتَدْعَانَا إِلَى بَلَنْسِيَةَ[1] طَرِيقٌ، التَمَسْتُ فِيهِ مِنْ عَلَائِهِ خَيْرَ رَفِيقٍ، فَأَصْفَقْنَا عَلَى الاسْتِخَارَةِ وأَجْمَعْنَا، وَعَوَّلْنَا عَلَى إِعْمَالِ قَدَمِ الحَرَكَةِ وأَزْمَعْنَا، وَلَا أَمَلَ إِلَّا أَنْ نَكُونَ مِنَ الَّذِينَ امْتَطَوْا غَارِبَ التَّفَرُّجِ وتَسَنَّمُوا واقْتَدَوْا بِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغْنَمُوا»[2] فَعُزِّزْنَا مِنْ وَلِيِّنَا أَبِي عَلِيِّنَا بِثَالِثٍ، وَمِنْ أَخِينَا أَبِي الحَسَنِ الوَرَّاقِ بِرَابِعٍ تُزْرِي حَلَاوَةُ أَغْرَاضِهِ بِالمَثَانِي والمَثَالِثِ[3] ونَاهِيكَ بِكِلَيْهِمَا مِنْ أَدِيبِ الطِّبَاعِ، قَرِيبِ الانْطِبَاعِ، أَمَّا أَبُو الحَسَنِ: فَلَوْ رَآهُ الأَمِينُ[4] مَا اسْتَحْلَى مَقَاصِدَ الحَسَنِ[5] واطَّلَعَ عَلَيْهِ المَأْمُونُ[6] مَا اسْتَكْفَى وِزَارَةَ الحَسَنِ[7] إِلَى جِدٍّ مُسْتَجِدٍ، وَوَفَاءِ ذِي اكْتِفَاءٍ، واتْتِلَافٍ كالسُّلَافِ[8].

ولَمَّا حَانَ أَنْ تَسْتَقِلَّ رِكَابُنَا، وَيَسْتَهِلَّ مِنْ جَوِّ العَزْمِ انْسِكَابُنَا، نَبَذْنَا تَوْدِيعَ مَنْ خَلَفْنَاهُ بِالعَرَاءِ[9] وفَصَلْنَا وَلَمْ نَقُلْ ضِدَّ إِخْوَانِنَا الشُّعَرَاءُ. وسِرْنَا وَيُمْنُ اللهِ تَعَالَى لَنَا حَادٍ، والزَّمَانُ يُعْرِضُ عَنْ أَنْ يُرِيدَ فِينَا بِإِلْحَادٍ[10]:

وفَارَقْنَا الحَبِيبَ بِلَا وَدَاعٍ ... وَوَدَّعْنَا بِلَادًا بِلَا سَلَامِ

---

(1) بلنسية: مدينة في شرق الأندلس بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يوما. الروض المعطار، ص: 97، معجم البلدان1/ 730، فرحة الأنفس، ص: 16.

(2) حديث نبوي شريف .

(3) المثاني والمثالث: يقصد بهما الغناء إذ تسمى أوتار العود التي بعد الأول بهذا الإسم.

(4) يقصد بالأمين: الخليفة العباسي ولد هارون الرشيد.

(5) الحسن: يقصد به أبا نواس الذي يعرف بالحسن بن هانىء وكان نديما للأمين.

(6) المأمون: أخو الأمين هارون الرشيد وهو خليفة عباسي مشهور.

(7) الحسن: يقصد به الحسن بن وهب، وكان وزيرا للخليفة السابق الذكر.

(8) سلاف الخمر: أول ما يعصر منها، وقيل هو ما سال من غير عصير وتكون من أخلص الخمر وأفضلها.

(9) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، سورة القلم، الآية: 49.

(10) البيت من الوافر، في القرآن: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، سورة الحج، الآية: 23.



[إِلَى أُرْيُولَةَ][1] وَصَلْنَاهَا وَدَيْنُ فَانِيَةِ العَجْمَاوَيْنِ[2] يَطْلُبُ الإِنْجَازَ، وإِسْهَابُ السَّبْقِ كَأَنَّهُ قَمِيصٌ فِي حُلَّةِ الإِيجَازِ[3] فَبَادَرَنَا الوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي العَبَّاسِ .... وَتَلَقَّانَا بِبِرٍّ أَوْسَعَنَا إِحْسَانًا، وأَوْدَعْنَا بِعَيْنِ التَّرْحِيبِ إِنْسَانًا، فَبِتْنَا عِنْدَهُ فِي لَيْلَةِ أُنْسٍ، لَا طَفِئَ مِصْبَاحُهَا، ولَا تَوَقَّدَ إِصْبَاحُهَا، لَوْلَا أَنَّهَا مِنْ لَيَالِي صُول[4] لَعَدَدْنَاهَا مِنْ لَيَالِي المُحِبِّ المَوْصُولِ، فَيَالَكَ إِنْسَانًا قَضَانَا مَطُولَهُ، ولَيْلاً تَقَاصَرَ طُولُهُ، قَدْ كَادَ يَنْثُرُ بِآخِرِهِ أَوْلَاهُ، ويَنْظِمُ عَلَى جِيدِ الشَّمْسِ حُلَاهُ، يَأْتِي بِأَغْرَبِ مَا اتَّفَقَ، ويَسْبِقُ فَجْرُهُ الشَّفَقُ، ولَمَّا بَرَقَتْ أَسَارِيرُ السِّرَاجِ، وغَابَتْ فِي دُمُوعِ السَّلِيطِ مُقْلَةُ السِّرَاجِ[5]، تَبَادَرْنَا إِلَى الإِلْجَامِ والإِسْرَاجِ، فَعَزَمَ المذْكورُ عَلَى أَنْ يَصِلَ كَرَامَتَهُ بِكَرَامَتِهِ، ويُقْنِصَنَا ظَبْيَ الأُنْسِ فِي رَامَتِه[6]، فَاسْتَصْحَبْنَا فِي ذَلِكَ اليَوْم، اسْتِصْحَابَ الظَّمْآنِ لِلْحَوْمِ[7] ومَا زِلْنَا نَجِفُّ فِي سَيْلِ دَلَالَتِهِ، ونَلْتَحِفُ بِظَلِيلِ جَلَالَتِهِ، عَلَى ضِفَّةِ نَهْرٍ كَأَنَّهَا سَرْحَاتُهُ المُظِلَّةُ، أَلْوِيَةٌ خُضْرٌ عَلَى الدُّرُوعِ مُطِلَّةٌ، يَتَدَفَّقُ تَدَفُّقَ الشُّجَاعِ، ويَأْتِي عَلَى نَفْسِهِ مِنْ خَرِيرِهِ بِأَسْجَاعٍ، ورُبَّمَا سَحَبَتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ أَذْيَالًا، فَاهْتَزَّتْ أَعْطَافُ مَوْجِهِ اخْتِيَالًا، وَجَرَتِ الشَّمْسُ عَلَى لُجَيْنِهِ نِيَالا، وأَعَادَتْ زُجَاجَهُ الأَزْرَقَ جِرْيَالًا[8]، والوُرْقُ تَخْطُبُ عَلَى مَنَابِرِ تِلْكَ

---

(1) أريولة: حصن بالأندلس وهو من كور تدمير وتعني باللاتينية الذهبية. الروض المعطار، ص: 34، العذري، ص: 139.

(2) يعني صلاة العصر.

(3) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه .

(4) سبق التعريف بصول وطول لياليها.

(5) السراج الأولى: يقصد بها الشمس سميت بذلك لوضوح نورها وإشعاع ضوئها.أما الثانية: فيقصد بها المصباح الزاهي الذي يسرج بالليل.

(6) رامة: اسم مكان قال زهير:

لِمَنْ طَلَلٌ بِرَامَةَ لَا يَرِيمُ ... عَفَا وَخَلَا لَهُ حُقُبٌ قَدِيمُ

اللسان: «روم».

(7) الحوم: الدوران وغالبا ما يكون بالنسبة للظمآن طلبا للماء.

(8) الجريال: الخمر الشديدة الحمرة، قال الأعشى:

وَسَبِيئَةٍ مِمَّا تُعَتِّقُ بَابِلٌ ... كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبْتُهَا جِرْيَالَهَا



الأَرَاكِ، والهَوَى يُنَادِي بالنُّفُوسِ إِلَى ذَلِكَ المَنْظَرِ والمَسْمَعِ دَرَاك دَرَاك[1]، فَمَا زِلْنَا فِي ذَلِكَ اليَوْمِ نُغَازِل قُدُودَ تِلْكَ الأَغْصَانِ، ونَعْتَدُّ مِنْ أَوْرَاقِهَا بِخِرْصَان، ونَنْظُرُ ذَلِكَ النَّهَرَ السَّلْسَالِ، فَنَذْكُرُ دَمْعَ المَهْجُورِ إذَا سَالَ، فَعَلَى تِلْكَ مِنْ حَالٍ، أَجَبْنَا دَاعِيَ التَّرْحَالِ، إِلَى المُدَوَّرِ[2] وَصَلْنَاهَا والعَشِيّ قَدْ طَفَلَ[3] وعِطْفُهُ فِي الثَّوْبِ المُعَطَّرِ قَدْ رَفَلَ، والشَّمْسُ قَدْ خَجلَتْ مِنْ فِراقِ الحَاضِرِينَ، ﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾[4] وعِنْدَما أَنَخْنَا بها، وحَلَلْنَا فَسِيحَ جَنابِهَا، قَطَعْنَا عُمُرَ تلك العَشِيَّةِ، بامتِطَاءِ العَذْراءِ الحَبَشِيَّةِ[5]، واقْتَعَدْنَا بَطْنَ تِلْكَ المَطِيَّةِ الدَّهْمَاءِ، والنَّاسِكَةِ المَاشِيَةِ عَلَى المَاءِ، وجُلْنَا مِنْ ذَلِكَ النَّهْرِ فِي صِنْوِ السَّمَاءِ، وانْبَرَيْنَا نَسْتَقْصِي عَلَى السَّمَكِ مَكَامِنَهَا، ونَقْذِفُ بالرَّوْعِ مآمِنَهَا، ونَنْتَزِعُهَا مِنْ قَعْرِ اللُّجَجِ أيَّ انْتِزَاعِ، ونأْخُذُ عَلَيْهَا ثَنَايَا المَحَانِي[6] وَالأَجْزَاع[7] ونُشْرِقُهَا بِرِيقِ الاحْتِيَالِ، ونَذْرِفُ عَلَيْهَا دُمُوعَ النَّهْرِ السَّيال، ولَمَّا طَارَدْنَا حُوتَ ذَلِكَ النَّهْرِ صَيْدًا، وأَوْثَقْنَا سَارِحَهُ فِي الشِّبَاكِ قَيْدًا، وأَثْكَلْنَا الخَلِيجَ أَبْنَاءَهُ، واسْتَفْرَغْنَا مِنْهُمْ إِنَاءَهُ، اسْتَنْجَدَ الحَمَائِمُ مِنْ تِلْكَ الدَّوْحِ، فَآسَتْهُ بِالبُكَاءِ وَالنَّوْحِ، ومَا مِنَّا إِلَّا مَنْ قَدْ بَلَغَ أَرَبًا، وأَنْشَدَ فِي ذَلِكَ المَعْنَى طَرَبًا:

وَلَابُدَّ مِنْ يَوْمٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ ... يَطُولُ اسْتِمَاعِي بَعْدَهُ لِلنَّوَادِبِ[8]

---

(1) دراك: إسم فعل بمعنى أقبل.

(2) المدور: حصن بالأندلس العذري، ص: 175، الروض المعطار، وهو غير المدور الذي في جهات قرطبة.

(3) طفل العشي: هم بالانقضاء لاصفرار شمسه.

(4) سورة البقرة: الآية، 68.

(5) يقصد بالعذراء الحبشية: السفينة السوداء لأنها تشبه في لونها لون الحبش، وكذلك يقال: «ناقة حبشية»

(6) المحنية من الوادي: منعرجه حيث ينعطف ويلتوي وتجمع على «محاني».

(7) جزع الوادي: جانبه ومنعطفه؛ وقيل هو ما اتسع من مضايقة وتجمع على «أجزاع».

(8) البيت من الطويل، وهو من قصيدة المتنبي التي مطلعها:

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهْو عِنْدَ الكَوَاعِبِ ... وَرُدُّوا رُقَادِي فَهْوَ لَحْظُ الحَبَائِبِ



كَذَلِكَ فِي أُنْسٍ غَيْرِ مُنْجَابٍ، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[1] فَعُرِّيَتْ أَفْرَاسُ المَاءِ ورَوَاحِلُهُ، وحَلَّتْ ضَفَّاتُ ذَلِكَ النَّهْرِ وسَوَاحِلُهُ؛ وَبِتْنَا وَالمَآنِسُ تُمْطِينَا أَسْنِمَةَ بُخْتِهَا[2] وعَايَنَّا لَيْلَةً أَكْبَرَ مِنْ أُخْتِهَا.

ولَمَّا وَرَدَ بَرِيدُ الفَجْرِ، واسْتَرَاحَ إلى الصُّبْحِ سَامِرُ الهَجْرِ، امْتَطَيْنَا الطَّرِيقَ، وفَارَقْنَا ذَلِكَ الفَرِيقَ، واسْتَصْحَبْنَا البَحْرَ جَاراً واقْتَحَمْنَا كَبِدَ تِلْكَ المَفَازَةِ لَااحْتِسَابًا وَلَا ائْتِجَارًا، تَارَةً نهتَدِي، وأُخْرَى نَقْتَدِي، ونَنْتَهِي ثُمَّ نَبْتَدِي، وفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ رَوْعٌ لَا يَطِيرُ لَهُ غُرَابٌ، وَلَا يُتَوهَّمُ لَهُ إِلَّا النَّجِيعَ[3] شَرَابٌ. فنَاهِيكَ مِنْ مَفَازَةٍ تُخَوِّفُ مِنَ البَسِيطَيْنِ الثَّرَى والمَاءِ، وتُذْهِلُ اللَّيْلَ إِذَا اقْتَحَمَهَا عَنْ أَنْجُمِ السَّمَاءِ، لَوْ سَلَكَهَا جَوَادُ أَبِي العَلَاءِ[4] لَمْ يَكُنْ صَهِيلُهُ قِيلًا وقَالًا، ولَم يُحِسَّ بِالخَيَالِ فَيَمِيلُ عَنْهُ مِنْ نَوْمِ ذَلِكَ الرَّكْبِ إِرْقَالا، وما لِإِضْمَارِنَا وُجُوبُ، ولَا لِنَدْبِ ذَلِكَ الرَّوْعِ وُجُوبُ، حَتَّى فَرَّجَ اللهُ ضَنْكَ ذَلِكَ الرَّوْعِ وضِيقَهُ، بِوُصُولِنَا إِلَى السَّوِيقَةِ[5]، بَعْدَ أَنْ صِرْنَا لِهَوْلِ اليَوْمِ فِي سِنِّ الاكْتِهَال، وَأَيْدِينَا مُمتَدَّةٌ بِالدُّعَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَالابْتِهَال [وَحَسْبُكَ بِنُزُولِنَا عَلَى] الوَزِيرِ أَبِي مُحمّدٍ ابنِ حَامِدٍ وَكَفَى، جِيرَانَ بَحْرَيْنِ تَدَفَّقَا وَوَكَفَا، فَبِتْنَا لَيْلَتَنَا نَصِلُ شَمْسَ الأُنْسِ كَمَا تُوصَلُ دُرَرُ السلْكِ، ونَقُولُ لِرَوْعِ ذَلِكَ اليَوْمَ المَاضِي هَذِه بِتِلْك،

---

(1) سورة ص، الآية: 31.

(2) البخت: كلمة معربة عن الفارسية معناها الإبل الخراسانية وقال بعضهم إنها كلمة عربية واستدل بقول الشاعر:

إنْ يَعِشْ مُصْعَبٌ فَإِنَّا بِخَيْرٍ ... قَدْ أَتَانَا مِنْ عَيْشِنَا مَا نُرَجِّي
يَهَبُ الأَلْفَ وَالخُيُولَ وَيَسْقِي ... لَبَنَ البُخْتِ فِي قِصَاعِ الخَلَنْجِ

(3) النجيع: الدم وقيل هو دم الجوف خاصة، قال طرفة:

عَالَيْنَ رَقْماً فَاخِراً لَوْنُهُ ... عَبْقَرِيٌّ كَنَجِيعِ الذَّبِيحْ

(4) يقصد ما قاله أبو العلاء المعري الشاعر العباسي المشهور:

وَأَيْقَظَ بِالصَّهِيلِ الرَّكْبَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ صَهِيلَهُ قِيلاً وَقَالَا

(5) السويقة: بلد يرد ذكرها في المصادر المسيحية، انظر جيشار.



ولَمَّا وُلِدَ النَّهار، وكُشِفَتْ لِلنُّجُومِ الزُّهْرِ أَزْهار، نَقَلَنَا الوَزِيرُ أَبُو مُحَمَّدٍ إِلَى المُنْيَةِ الكُبْرَى، وأَحَلَّنَا مِهَادَ كَرَامَتِهِ الأُخْرَى، فَكَانَ انْتِقَالُنَا مِنْ كَبِدٍ إِلَى قَلْبٍ، ومِنْ عَيْنٍ إِلَى قَلْبٍ، فاقْتَضَيْنَا بِهَا شَيْبَ يَوْمٍ شَبَابَ لَيْلٍ، ثُمَّ انْحَدَرْنَا إِلَى: السُّوَيقَة انْحِدَارَ السَّيْل، فاجْتَلَيْنَا مِنْ صَلَاةِ الجُمُعَةِ وَجْهًا للتَّبَرُّكِ سَافِرًا، وشَاهَدْنَاهَا وإِنْ لَمْ تَلْزَمْ مُسَافِرًا، ثُمَّ أَصْعَدْنا مُرْتَقِينَ مِنْ ذَلِكَ الحِصْنِ إلى شَقِيقِ الأَبْلَقِ ومَارِد[1]، وَمَحَلٍّ به كَانَ يَقْصِدُ مَقَاعِدَ السَّمْعِ كُلُّ مَارِد، لَا يَطْرُقُهُ الوَهْم، ولَا يَرْشقهُ سَهْم:

وَيَكَادُ مَنْ يَرْقَى إِلَيْهِ مَرَّةً ... مِنْ دَهْرِهِ يَشْكُو انْقِطَاعَ الأَبْهَرِ[2]

فَبَلَغْنَا بِهِ إِلَى حَيْثُ نُصِيخُ لأَسْرَارِ النُّجُوم، ونَطَّلِعُ عَلَى بَعْضِ الشَّيَاطِينِ فِي قُلُوبِ الرُّجُومِ[3]. ومَا حَدَرْنَا إِلَّا ونَحْنُ نَرْمِي مَنَازِلَنَا فِي الأَرْضِ رَمْيَ مُنَافِرٍ، ونَكَادُ نَتَنَاجَى مُنَاجَاةَ شِصَارٍ أو خُنَافِرٍ[4] وعنْدَ ذَلِكَ بادَرْنَا الفَقِيهُ أَبُو القَاسم بن مُنْتَال حَامِلُ لِوَاءِ المَعَارِفِ، ومُتَمَلِّكُ التَّالِدِ مِنَ المَحَاسِنِ والطَّارِف، فاقْتَدَحَ فِي تَأْنِيسِنَا زَنْدَه، وعَزَمَ عَلَيْنَا أَنْ نَكُونَ عِنْدَهُ، فَسِرْنَا إِلَيْهِ واللَّيْلُ قَدْ عَزَمَ، والنَّهَارُ قَدْ انْهَزَمَ، ومَا وصَلْنَا مَنْزِلَهُ إِلَّا والظَّلَامُ قَدْ أَعْتَمَ، وسِرُّ الشَّفَقِ قَدْ اكْتَتَمَ. فَبِتْنَا بِمَحَلِّهِ فِي أَظْرُفِ حِوَار، وأَشْرَفِ جِوَار، بحيثُ لَا يَجُوزُ على حَرَكَةِ أُنْسِنَا سُكُون، ومِنْ دُونِنَا لِعِتَاقِ الطَّيْرِ وُكون.

---

(1) فيهما يقال: تَمَرَّدَ مَارِدُ وَعَزَّ الأَبْلَقُ.

(2) البيت من الكامل، وهو في قصيدة لأبي مروان الجزيري مطلعها:

أَلْوَى بعَزْم تجلُّدِي وَتَصَبُّرِي ... نَأْيُ الأَحِبَّة وَاعْتِيَادُ تَذَكُّرِي

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. سورة الملك، الآية: 5.

(4) خنافر: إسم رجل. وشِصَار: هو خنافر بن التوأم الحمري هو اسم رئيه من الجن، قال خنافر في رأيه من الجن:

نَجَوْتُ بِحَمْدِ اللهِ مِنْ كُلِّ فَحْمَةٍ ... تُوَرِّثُ هُلْكاً يَوْمَ وَدَّعْتُ شَاصِراً

وأراد بشاصر شصار، فغير الاسم لضرورة الشعر ومثله كثير في أشعار العرب.



ولَمَّا نَشرتْ ذُكاءُ لِواءَهَا، وبَثَّتْ عَلَى الخَافِقَيْنِ[1] أَضْواءَهَا، وأَلْقى الظَّلَامُ يَدَ مُنْتَهِبٍ، وتَطَلَّعَتِ الجُونَةُ[2] كَجَحْفَةِ الذَّهَبِ، عَزَمْنَا عَلَى أَنْ نَحْفِزَ فِي السَّيْرِ، ونُجَارِي فِي الإِسْرَاعِ أَجْنِحَةِ الطَّيْرِ، فأَسْلَمْنَا ذَلِكَ المَحْضَرِ ووَدَّعْنَا مِنَ الإِخْوَانِ مَنْ حَضَرَ، وسِرْنَا بِعَزْمٍ غَيْرِ مُرْتَابٍ، وسَيْرٍ يَطْوِي البِيدَ ﴿كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[3] إِلَى فِنِشْرَاط وَصَلْنَاهَا والأَصِيلُ قدْ وَلَّى، وعَامِلُ الظَّلَامِ قَدْ تَوَلَّى، والشَّمْسُ كالعَاشِقِ الحَيْرَانِ، وجِرَابُ المَغْرِبِ يَضُمُّ مِنْهَا قُرْصَ الزَّعْفَرَانِ؛ فَخَيَّمْنَا مِنْهَا بِقَصْرٍ مُنِيفِ الاسْتِعْدَادِ، مُمْتَنِعٍ عَلَى الأَنْدَادِ:

كَالقَصْرِ ذِي الشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ[4]

لَشَدَّ مَا أَجَادَ ابْنِ سَعْدٍ[5] بِنَاءَه وَغَمَرَ بالسُّرُورِ فِنَاءَهُ، حَتَّى أَتَاهُ الدَّهْرُ بِمَا سَاءَهُ ونَاءَهُ، فَوَضَعَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ النَّقْبِ هِنَاءَهُ، فَالأَعْلَامُ طَوَامِسُ، وَوُفُودُ الأَبْوَابِ رَوَامِس، والمَأْمُورُ بالإِلْمَامِ مَزْجُورُ، والدَّارُ خَالِيَةٌ، والبَابُ مَعْجُورُ؛ فأَطَلْنَا بِهِ أَمَدَ الاعْتِبَارِ، وقُلْتُ عَلَى جِهَةِ الامْتِحَانِ لِلخَاطِرِ والاخْتِبَارِ:

يَا مَحَلَّ المُلُوكِ أَيْنَ مُلُوكٌ ... ظَافَرَتْهُمْ خِلَالَكَ النَّعْمَاءُ
نَعِمُوا والزَّمَانُ يَضْحَكُ مِنْهُمْ ... رُبَّ ضِحْكٍ يَكُونُ عَنْهُ بُكَاءُ
لَيْتَهُمْ شُيِّدُوا وهُدَّ البِنَاءُ ... هُدِمُوا والبِنَاءُ بَاقٍ مَشِيدٌ[6]

---

(1) الخافقان: المشرق والمغرب، ذلك أن المغرب يقال له الخانق وهو الغائب، فغلبوا المغرب على المشرق فقالوا: الخافقان.

(2) الجون: من الأضداد يدل على البياض كما يدل على السواد، وقصد به الكاتب المعنى الأول. انظر كتاب الأضداد .

(3) سورة الأنبياء، الآية: 103 .

(4) سنداد: اسم موضع أو نهر، وفيه قال الأسود بن يعفر هذا الشطر الشعري. «اللسان»: شطره الأول:

أَهْلِ الخَوَرْنَقِ وَالسَّدِيرِ وَبَارِقِ

(5) ابن سعد: يعني به ابن مردنيش، وفي هذا القصر يقول حازم:

وكَمْ قَصَرْنَا زَمَنًا لِلسَّعْدِ فِي ... قَصْرِ ابْنِ سَعْدٍ بِالسُّرُورِ وَالهَنَا

(6) الأبيات من الخفيف.



فَأَقَمْنَا هُنَالِكَ لَيْلَنَا ذَلِكَ، إلى أنْ غلبَ اليقَقُ الحَالِك؛ ثُمَّ امتطَيْنَا البَيْدَاءَ، وأَوْلَيْنَا المَطَايَا الاعْتِداء، فَلَمْ يَبْلُغْ عُمَرُ ذَلِكَ اليوم حَدَّ الفِطَام، ولا اسْتَمَرَّ مَقُودُ الذَّمِيل طَوْعَ الخِطَام، إلَّا ودَابَّةُ أَخِينَا أَبِي الحَسَن قَدْ اسْتَجَارَتْ، بِظِلَالِ الكَلَالِ من حَرُورِ السَّيْرِ الدَّرُور:

فأَلْقَتْ عَصَاهَا واسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى ... كَمَا قَرَّ عَيْنًا بالإِيَابِ المُسَافِرُ[1]

فكُلَّمَا طَمِعْنَا مِنْ ذَلِكَ الطِّرْفِ أَنْ يُفَارِقَ مَثْوَاه، لَمْ يُقْلِعْ مِنَ الفَشَلِ عَمَّا نَوَاهُ، لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ واتَّبَعَ هَوَاه كَمَا فَعَلَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الله ورَسُولَهُ. ومَا زِلْنَا نُرَاوِدُهُ عَلَى السَّيْرِ ونُدِيرُهُ، ولَمْ يَثْنِ عِنَانَهُ لِسَيْرِنَا وثَبَتَ تَقْدِيرُهُ، ومِسْمَعُهُ لَا يَتَحَلَّى مِنْ كَلَامِنَا بِشَنْق، ومَطَارِفُنَا مِنْهُ جِلْدَةٌ مَا بَيْنَ العَيْنِ والأَنْفِ[2] فَطَوْرًا نَحْنُ مُوعِدُونَ، وطَوْرًا وَاعِدُون، ولِسَانُ الحَالِ يَقْرَأُ عَنْهُ ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[3] حَتَّى إذَا أَنْفَضْنَا مِنْهُ يَدَ التَّأْمِيل، وقُلْنَا نَعَاءِ[4] إِلَى الخَبِّ والذَّمِيل، وكِدْنَا نُغَادِرُهُ وَلِيمَةً للسِّبَاع، ونَتْرُكُهُ عُرْسًا لِلضِّبَاعِ، فَحِينَ رَأَى مَبَانِي أَمَالِنَا فِيهِ قَدْ هُدِمَتْ، وعَلَى الاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ قَدْ قَدِمَتْ، أَسِفَتْ خَوَاطِرُهُ عَلَى فِرَاقِنَا ونَدِمَتْ، واستَقَلَّ قَائِمًا مِنْ بَعْدِمَا وَبَعْدِ مَتْ. فاسْتَصْحَبْنَاهُ عَلَى تِلْكَ الحَالَةِ، سِفْرَ الرِّحَالَةِ، وَسَايَرَنَا جَنِيبًا، لَا عَاصِيًا ولَا مُنِيبًا، كَأَنَّهُ إِنَّمَا يَخْطُو عَلَى الأَسَل، ولِسَان تَخَابُثِهِ يُنْشِدُ مُثِيرًا إِلَى الكَسَل:

وتَاللهِ مَا فَارَقْتُكُمْ قَالِيًا لَكُمْ ... ولَكِنَّ مَا يُقْضَى فَسَوْفَ يَكُونُ[5]

كَذَلِكَ حَتَّى تَضَمَّخَ جَيْبُ الأَصِيل بالعَبِير، وكَادَتِ الشَّمْسُ تَسْقُطُ مِنَ المَغْرِب عَلَى خَبِير، إِلَى قَلْب[6] وصَلْنَاهَا فَحَطَطْنَا مِنْهَا الرِّحَالَ بِقَصْرِ سَبِيلُهُ سَبِيلُ، مَا تَقَدَّمَ، قَدْ اسْتَشْعَرَ عَلَى بَانِيهِ الثُّكْلُ والنَّدَمُ، وتَهَتَّكَ حِجَابُهُ، وأَجْفَلَ زَهْوُ رَبِّهِ وَإِعْجَابُه:

---

(1) البيت من الطويل، وهو للأحمر بن سالم المزني وينسب لغيره بهجة المجالس1/ 228.

(2) يشير إلى قول الشاعر:

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ ... وَجِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

(3) سورة المائدة، الآية: 26.

(4) نعاء: اسم فعل، بمعنى أنع، والنعي إشاعة خبر الموت.

(5) البيت من الطويل، من أبيات رواها صاحب الأمالي أبو علي القالي.

(6) قلب calpe: هي قاعدة مرور بالأندلس وهي مدينة كبيرة تشتهر بكثرة الزيتون والثمار. الروض المعطار، ص: 469، بل هي التي تقع على ساحل البحر المتوسط بين لقنت ودانية.



كَــأَنَّ فِــي دَارٍ سِــوَاهَا دَارَهُ | أو عَلَّلَتْــهُ بــالمُنَى ثُــمَّ ارْتَحَــلْ[1]

فَبِتْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ أُسَاةَ ذَلِكَ الطِّرف، مُتَعَهِّدِينَ بِهِ بالتَّلَطُّفِ تَعَهُّدَ الأَدِيمِ بالصِّرْفِ، حَتَّى إذَا غَاضَ نَهْرُ المَجَرَّةِ، وَهُتِمَتْ[2] أَسْنَانَ الكَوَاكِبِ المُغْتَرَّةِ، سِرْنَا وَقَدْ خَلَعَ ذَلِكَ المُسْرَجُ سقَامَهُ، وكَأَنَّمَا وَافَقَ مِنْهُ تَلَطُّفُنَا ﴿جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾[3] ومَازِلْنَا نَخُب، وبَحْرُ الآلِ يَعُبُّ، إِلَى أَنْ أَطْلَلْنَا عَلَى دَانِيَةٍ[4] وعَايَنَّا أَعْلامَهَا الدَّانِيَةِ، ولمَّا حَلَلْنَاهَا وَوَقْتُ الظُّهْرِ قَدْ تنَامَى سَأَلْنَا أَطْلالَهَا عَنْ فَتًى نَجِيبٍ، فَأَبَتْ أَنْ تُجِيب، فَحَلَلْنَاهَا هَالَةً[5] بلاَ قَمَر، أَوْ كَمَامَةً بِلاَ ثَمَر، فَلَمْ يَسْتَقِمْ لَنَا فِي مُشْكِلِ الأُنْسِ مُتَأَوَّل، وَلَمْ يَكُنْ عَلَى ذَلِكَ الرَّسْمِ الدَّارِسِ مُعَوَّلٍ[6]، وَفِي خِلاَلِ ذَلِكَ أَعْوَزَنَا المَنْزِلُ، وتَعَذَّرَ عَلَيْنَا المُنْزُلُ، فَعَمَدْنَا لِأَحَدِ المَنَازِلِ الهِجَانِ[7] وجِئْنَا إِلَى مَوَاضِعِ الأَدَاهِمِ بالتِّيجَانِ، وَلَكِنَّا صَيَّرْنَاهُ بِحُلُولِنَا صَدْرَ مَجْلِسٍ، وأَخذنَاهَا مِنْ رَبِّهِ أَخْذَ مُخْتَلِسٍ، وقَنَعْنَا بِهِ قَنَاعَةَ ذِي النُّونِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِشجرةٍ مِنْ يَقْطِينٍ[8] واقْتَصَرْنَا عَلَيْه اقْتِصَارَ الشَّمْسِ عَلَى الغُرُوبِ فِي حَمْأَةٍ وطِينٍ[9]، فَبُعْدًا لَهُ مَنْزِلًا لَوْ نَشَأَ بِهِ ابْنُ الرُّومِي لَمْ يَكُنْ عَلَى حُبِّهِ مُقْتَصِرًا، وَلاَ قَالَ مُسْتَعْدِيًا عَلَى مَنْ يُحَاوِلُ غَصْبَهُ فِيهِ وَمُنْتَصِراً:

---

(1) البيت من الرجز.

(2) هتم فاه: ألقى مقدم أسنانه.

(3) سورة الكهف، الآية: 76.

(4) دانية: مدينة أندلسية تقع في الشرق منها على البحر، عامرة حسنة وعليها سور حصين. الروض المعطار، ص: 231. الإدريسي، ص: 192.

(5) الهالة: دارة القمر، وتجمع على هالات قال الشاعر:

فِــي هَالَــةٍ هِلاَلُهَــا كَالإِكْلِيــلِ

(6) في إشارة إلى قول امرئ القيس:

وَإِنَّ شِــفَائِي عَبْــرَةٌ مُهَرَاقَــةٌ | فَهَــلْ عِنْــدَ رَسْــمٍ دَارِسٍ مِــنْ مُعَــوَّلِ

(7) يقال: أرض هجان بيضاء لينة التربة.

(8) في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾. سورة الصافات الآيتان: 145-146.

(9) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَباً حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، سورة الكهف، الآية: 84.



وَلِـي وَطَـنٌ آلَيْـتُ أَلَّا أَبِيعَـهُ ... وأَلَّا أرَى غَيْـرِي لَـهُ الـدَّهْرَ مَالِكَـا
وحَبَّـبَ أَوْطَـانَ الرِّجَـالِ إِلَـيْهِمُ ... مَـآرِبُ قَـضَّاهَا الـشَّبَابُ هُنَالِكَـا[1]

بَيْدَ أَنَّ الوَزِيرَ أَبَا الحُسَيْن بن أبي بَكرٍ تَلَقَّانَا، فَشَعْشَعَ خَمْرَةَ الزِّيَارَةِ بِمَاءِ البِرِّ وسَقَانَا، فأَقْسَمَ بِمَنْ أَخْلَى جِسْمَ تِلْكَ القَرْيَةِ مِنْ رُوحِ المَجْدِ، ورَكَّبَ خَلَائِقَ الزُّهْدِ عَلَى ذَلِكَ النَّجْدِ، ولَوْلَا ابْنُ أَبِي بَكْرِهَا، لصَدَقَتْهَا المُلَاحَاةُ سِنَّ بَكْرِهَا[2]، لَكِنْ لِلْأُمُورِ أَسْبَابُ، وعن قَدْرٍ مَا يَنْجُو الذُّبَابُ، ومَعَ ذَلِكَ فَلَمْ نَمْكُثْ بهَا إِلَّا ثَانِي يَوْمِ الوُصُولِ، وتَهَّيأَ خِضَابُ الاسْتِقْرَارِ للنُّصول، وعندما خَفَقَ سَيرُنَا، وفَارَقَ وَكْرَ ذَلِكَ المَنْزِلِ طَيْرُنَا، قُلْتُ مُرْتَجِلًا، وخَطَّطْتُهُ عَلَى بَابِ تِلْك الدُّوَيْرَةِ عَجِلا:

يَـا مَنْـزِلًا جُـدْنَا عَلَـى رَبِّـهِ ... فِـي أَنْ حَلَلْنَـاهُ بِـلَا مَـسْأَلَه[3]
بِتْنَـا بِـهِ يَوْمـًا عَلَـى نَقْـصِهِ ... مَـنْ يَغْتَـرِبْ لَا يَحْتَقِـرْ مَنْزِلَـهْ

ثُمَّ إِنَّا نَبَذْنَا ذَلِكَ الرَّبْعَ [بِلَا تَضْيِيع][4] واسْتَصْحَبْنَا الوَزِيرُ أَبُو الحُسَيْنِ عَلَى جِهَةِ التَّشْيِيعِ، فَعِنْدَمَا عَزَمْنَا عَلَيْهِ فِي الانْصِرَافِ، وقَدْ كَادَ يَخْرُجُ فِي بِرِّنَا إِلَى حَدِّ الإِسْرَافِ، جَمَعْتُ خَاطِرِي وحَشَدْتُهُ، ثُمَّ اسْتَقْبَلْتُهُ فأَنْشَدْتُهُ:

أَأَبَـا الحُـسَيْنِ مُـصَغَّرًا ومُكَبَّـرًا ... سِـرِّي يُتَـرْجِمُ عَـنْ وَفَـاءٍ شَـامِلِ
مَـالِي بِمَـا أَوْلَيْتُمُـوهُ يَـدٌ وَمَـنْ ... بِلِـسَانِ سَـحْبَانٍ لِفَكِّـي بَاقِـلِ[5]
أَوْدَعْـتُ مَجْـدَكُمُ وقَـدْ وَدَّعْـتُكُمْ ... وُدًّا كَمَـا حَيَّـاكَ زَهْـرُ خَمَائِـلِ

(1) البيتان لابن الرومي: وهو شاعر عباسي اشتهر بالهجاء اللاذع وكان ينسج في شعره على منوال الخريمي. انظر ديوانه 5/ 1836.
(2) يشير إلى المثل العربي: «صدقني سن بكرة».
(3) البيت من السريع.
(4) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) سحبان: رجل من ربيعة، وهو من قبيلة بكر، كان بليغا، يضرب به المثل. أما باقل: فهو أيضا من ربيعة، ولكنه كان يضرب به المثل في العي، فيقال: «إنه لأعيا من باقل». الدرة الفاخرة 1/ 311.



وأَنِسْتُ بالبِرِّ الَّذِي أَوْلَيْتُمُ ... أُنْسَ المُتَيَّمِ بالرَّقِيبِ الغَافِلِ
وغَرِقْتُ مِنْ خَجَلِي بِكُمْ فِي لُجَّةٍ ... فَلْتَجْعَلُوا الإغْضَاءَ عَنِّي سَائِلِي
وشَكَرْتُكُمْ شُكْرًا يَقُولُ لِبِرِّكُمْ: ... «هَذَا السِّنَانُ لِمِثْلِ ذَاكَ العَامِلِ»
وَرَحَلْتُ عَنْكُمْ والفُؤَادُ لَدَيْكُمْ ... فَلْتَعْجَبُوا لِي مِنْ مُقِيمٍ رَاحِلِ[1]

ثُمَّ انْبَرَيْنَا نُرْقِلُ، ولَا نَعْتَقِلُ، ونَطْوِي ولَا نَلْوِي إِلَى بَيْرَان[2] وصَلْنَاهَا وتَطْوِيلُ النَّهَارِ قَدَ حَازَهُ اقْتِضَابُ، ومَهِيبُهُ قَدْ أَنْذَرَهُ الخِضَابُ؛ فِبِتْنَا بِهَا فِي بِرٍّ سَجُوم[3] إِلَى أَنْ فَارَقَ جِيدَ الخَضْرَاءِ سِلْكُ النُّجُومِ، فَانْتَحَيْنَا الفَلَاةَ نَذْرَعُهَا، ونَحْفِزُ المَطَايَا حَتَّى نَكَادَ نَصْرَعُهَا؛ وسِرْنَا بَيْنَ بَحْرٍ وَوَادٍ، فِيهِمَا طَيُّ جُودٍ وَرَيُّ جَوَادٍ، وخِلَالَ ذَلِكَ دَوْحَاتٌ وثِمَارٌ، ولَقَدْ ائْتَمَرَ لها الحُسْنُ كُلَّ ائْتِمَارٍ، فَجُسْنَا خِلَالَهَا تَفِدُ عَلَيْنَا رُسُلُ الرِّيَاحِ، فَنُعْطِيهَا مِلْءَ الأَعْطَافِ مِنَ الارْتِيَاحِ، ونَنْظُرُ إِلَى مَفَازَةٍ حَلَّتِ البَهْجَةُ فِيهَا حُبَاهَا، وَرَوْضَاتٍ تَلْطِمُ أَيْدِي الرِّيحِ أَرْدَافَ رُبَاهَا، وظِلَالُ الأَيْكِ تَخْفِقُ عَلَيْنَا ذَوَائِبُ، ونَوَاسِمُ الصَّبَا تَحُطُّ لَدَيْنَا رَكَائِبُ، إِلَى بَلَنْسِيَة وصَلْنَاهَا بَعْدَمَا عَصَمَتِ المَطِيُّ كلَالَهَا، وسَابَقَتْ ذَمِيلًا وَرَسِيمًا[4] ظِلَالَهَا، واليَوْمُ قَدْ وَلَّى شَبَابَهُ، والمَسَاءُ قَد اسْتَحْكَمَتْ أَسْبَابُهُ:

والشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةً ... واللَّيْلُ نَحْوَ مَغِيبِهَا يَتَطَلَّعُ

ولَمَّا حَطَطْنَا بِهَا رَحْلَ الإِلْهَامِ، وخَلَعْنَا عَلَى عَطْفِ الصَّلَاةِ بُرْدَ الإِتْمَامِ، سَقَطَ الخَبَرُ عَلَى إِخْوَانِنَا الأَعْيَان، وأَتْرَابِنَا أَرْبَابَ المَجْدِ والبَيَانِ، فَوَصَلُوا وُصُولَ المَاءِ إِلَى كَبِدِ

---

(1) الأبيات من الكامل.
(2) بيران: حصن من حصون الأندلس وهو في مقاطعة بلنسية قال ابن الآبار يمدح عبد الرحمن بن عبد المؤمن ويذكر الحصن:

لِلهِ قَلْعَةُ بَيْرَانٍ وَعِزَّتُهَا ... عَلَى الأَعَاصِيرِ فِي مَاضِي الأَعَاصِيرِ

ديوانه، ص: 442.
(3) سجمت العين الدمع: أسالته وصبته بغزارة فهي تسجوم.
(4) الرسيم: من سير الإبل فوق الذميل وفي هذا يقول الشاعر:

أَجَدَّتْ بِرِجْلَيْهَا النَّجَاءَ وَكَلَّفَتْ ... بَعِيرَيْ غُلَامَيَّ الرَّسِيمَ فَأَرْسَمَا



الصَّدْيَانِ، وأَهَابُوا بِبَرهِمُ الغَامِرِ، فَأَتَتْ وُفُودُهُ رِجَالًا وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[1] فأَقَمْنَا بِهَا نُطَالِبُ مِنْ قَبُولِ [البرِّ بِدُيُون]، وتَتَهَادَانَا العُيُونُ فِي المحَاجِرِ والمَحَاجِرُ فِي العُيُونِ، جِيرَانَ أَجْوَاد، عَطَّلُوا ذِكْرَ جَارِ أَبِي دُؤَادٍ[2]، ولَوْلَا الطُّولُ المُؤَدِّي إِلَى الإِمْلَالِ، الوَافِدِ بالأَسْمَاعِ عَلَى مُعَرَّسِ الكَلَالِ، لَشَرَحْتُمْ تَفْصِيلًا، وَسَمَّيْتُهُمْ تَحْصِيلًا؛ لَكِنِّي سَأُنَافِحُ زَهْرَ الرَّبِيعِ، بِذِكْرِ قَائِدِهَا الأَعْلَى أَبِي الرَّبِيعِ وأَمْضِي عَلَى الرَّسْمِ الوَاجِبِ، وَفِي شُكْرِ مُحَدِّثِهَا أَبِي الخَطَّابِ بْنِ وَاجِب[3] وأَخْلَعُ مِنَ الحَمْدِ أَسْنَى لِبَاس، عَلَى عِطْفِ فَيْلَسُوفِهَا أَبِي العَبَّاس المُنْتَمِي نَهَارُهُ إِلَى الذَّهَب[4]، السَّالِكِ مِنَ السِّيَادَةِ أَهْدَى مَذْهَب، وأَسْلُكُ مِنَ الثَّنَاءِ كُلَّ طَرِيق، عَلَى أَدِيبِهَا أَبِي الحَسَنِ بْنِ حَرِيق[5] الرَّاكِبِ ذِكْرُهُ مَطَايَا التَّغْرِيبِ والتَّشْرِيقِ، وأُخَلِّصُ التَّقْرِيضَ تَخْلِيصَ الإِبْرِيز، لِلشَّرِيفَيْنِ أَبِي عَبْدِ اللهِ وأَبِي حَرِيز، ثُمَّ عُذْرًا إِلَيْهِمْ مِمَّا أَتَيْتُ وأَقْدَمْتُ، فَأَخَّرْتُ فِي تَعْدَادِ أَسْمَائِهِمْ وقَدَّمْتُ، فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ حَازَ خُطَّةَ التَّقَاضِي اللَّهُمَّ إِلَّا مَا أَبْدَيْتُهُ سُوءَ التَّغَاضِي، مِنْ نَجْلِ ابْنِ فُلَانٍ القَاضِي، فإِنَّهُ كانَ أَيَّامَ انْتِزَائِنَا يَسْتَسْقِي مُزْنَ اعْتِنَائِنَا ويَنْتَظِمُ فِي رِبقَةِ خِدْمَتِنَا واهْتِبَالِنَا وَيَرْتَعُ فِي كَنَفِ احْتِمَالِنَا ويَتَشَرَّفُ بالارْتِقَاءِ إِلَى دَرَجَةِ أَمَالِنَا، فأَمَّا اليَوْمَ وقَدْ بَكَرَ خَزُّ بَلَنْسِيَةَ مِنْ رَوْحِهِ[6]، حَتَّى أَدَّاهُ البُكَاء إِلَى نَوْحِهِ، وعَيَّتِ المَطَارِفُ اللَّيِّنَةِ مِنْ جُدَامٍ،

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾. سورة الحج، الآية: 25.

(2) هو أبو دؤاد الإيادي اشتهر بحسن الجوار قال الشاعر:

أُطَــوِّفُ مَــا أُطَــوِّفُ ثُــمَّ آوِي ... إِلَــى جَــارٍ كَجَــارِ أَبِــي دُؤَادِ

(3) أبو الخطاب ابن واجب: هو محمد بن عمر بن واجب القيس البلنسي قتل بأريولة سنة 539هـ. انظر تحفة القادم، ص:150، التكملة، ص: 143.

(4) أحمد بن جرج الذهبي، الذيل 1/ 279.

(5) أديب لغوي نحوي من أهل بلنسية له أرجوزة بديعة: رثى بها ابن سيدة ورسالة ضمنها أبيات الجمل توفي سنة 622هـ، ترجمته في الأعلام، ج:5، بغية الوعاة 2/ 186، التكملة رقم 679، البلغة، ص: 156، فوات الوفيات 2/ 141، معجم المؤلفين 7/ 179.

(6) هذا من قول الشاعر:

نَبَــا الخَــزُّ عَــن رَوْحٍ وَأَنْكَرَجِلْــدَهُ ... وَعُجْتُ عَجِيجًا مِنْ جذَام المَطَارِفِ



وأَصْبَحَ القَوْلُ لِغَيْرِ جُذَام[1] واسْتأْسَدَتْ أَغْرَاضَ السَّخْلِ، واسْتَمَرَّ حُكْمُ اللهِ فِي كُرَبِ النَّخْلِ، فَالكِبْرُ لخَدِيمِنَا ذَلِكَ لَبُوسٌ، والعُجْبُ عَلَى أَغْرَاضِهِ مَحْبُوسٌ، وَكَأَنَّهُ أَبُوقَابُوسٌ، إلَّا أَنَّ زَمَانَهُ كُلَّهُ بُوسٌ[2]، ويَرْحَمُ اللهُ ابْنَ قَاضِي مِيلَةَ[3] فَلَقَدْ أَصَابَ المِفْصَلَ وطَبَّقَهُ، حَيْثُ يَقُولُ فِي مَنْ صَبَّحَهُ الزَّهْوُ بالوِلَايَةِ وغَبَّقَه:

أَقُولُ لَهُ إِذْ تَيَّهَتْهُ وِلَايَةٌ ... أَتَتْ عَرَضًا مَهْلًا فَقَدْ غَلِطَ الدَّهْرُ
تَرَفَّقْ يُرَاجِعْ فِيكَ دَهْرُكَ عَقْلَهُ ... فَمَا سُدْتَ إِلَّا والزَّمَانُ بِهِ سُكْرُ
فَمَا بَرِحَتْ أَيَّامُهُ أَنْ تَصَرَّمَتْ ... ومَا عِنْدَنَا شُكْرٌ ولَا عِنْدَهُ عُذْرُ[4]

فَأَلٌ إِنْ شَاءَ اللهُ جَرَى، ومَثَلٌ طَارَ وسَرَى، وكَلِمَةٌ وَافَقَتْ قَدَراً، وَرَدَّتْ وِرْدَ ذَلِكَ الزَّهْوِ صَدْرًا، أَسْتَغْفِرُ اللهَ قَدْ شُغِلْنَا بِذِكْرِ هَذَا النَّازِلِ، عَنْ وَصْفِ تِلْكَ المَعَاهِدِ والمَنَازِلِ، فَلَطَالَمَا سَحَبْنَا فِي عَشَايَا تِلْكَ الأَيَّامِ، ذُيُولَ الالْتِئَام، تَطَوُّفًا عَلَى خَارِجِ ذَلِكَ البَلَدِ الرَّفِيعِ، الوَاقِعِ حُسْنُهُ مِنْ ذَنْبِ الوَحْشَةِ مَوْقِعَ الشَّفِيعِ؛ رَوْضَاتٌ تَمْلأُ الصَّبَا فِي عِطْرِهَا حَقَائِبَهَا، فَتُورِدُ بِطِيبِ الأَرَجِ رَكَائِبَهَا، فَتَقَرُّ أَعْيُنُ العُشَّاقِ، وبالانْتِشَاقِ إِلَى أَغْصَانٍ عَقَدَتِ الجَدَاوِل خَلَاخِلَ بِسُوقِهَا، ولآلِئَ زَهْرٍ مَثَّلَتْ من الرِيَاضِ بِسُوقِهَا، إِلَى وَادٍ كَأَنَّمَا أَسْلَمَتْهُ المَحَاجِرُ نَهْرا، قَدْ كَلَّلَ الرَّبِيعُ ضِفَّتَيْهِ زَهْرًا، فَإِنْ أَعَدْتَ النَّظَرَ قُلْتَ مَجَرَّةً وَزَهْرًا، إِلَى مَا شِئْتَ مِنْ انْتِظَامِ البُحَيْرَةِ والبَحْرِ، قِلَادَتَيْنِ عَلَى ذَلِكَ النَّحْرِ، قَدْ حَلَّيَا ذَلِكَ البَلَدِ، وتَخَلَّلَاهُ كَوَالِدٍ ومَا وَلَدَ؛ قَدْ مَرَجَهَا اللهُ بَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[5] فَإِذَا ضَاحَكَتْهُمَا

---

(1) فيه إشارة إلى المثل المشهور: «القول ما قالت حذام»، ومعناه أن قولها سديد معتد به، وقد نظم أحد الشعراء ذلك فقال:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإِنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

مجمع الأمثال 2/ 106، خزانة الأدب4/ 370.

(2) يشير إلى قصة النعمان بن المنذر الذي كان له يوم نعيم ويوم بؤس.

(3) شعره في الذخيرة 4/ 2 - 533، المطرب 48. وفيات الأعيان 5/ 348، رفع الحجب في أماكن متفرقة.

(4) الأبيات من بحر الطويل، الذخيرة 4/ 2-533، المغرب، ص:48، وفيات الأعيان5/ 348.

(5) سورة الرحمن، الآية: 18.



الشَّمْسُ انْعَكَسَ الضِّيَاءُ، وزَادَ الاحْتِفَالُ فِي النُّورِ والإِغْيَاء، فَمِنْ حَيْثُ مَا اسْتَقْبَلْتَ تِلْكَ المَدِينَةِ أَشْرَقَتْ، وَكَيْفَمَا لمَحَتْ أَسَارِيرَهَا بَرَقَتْ:

وقَالُوا: هَلِ الفِرْدَوْسُ مَا قَدْ وَصَفْتَهُ ... فَقُلْتُ: ومَاالفِرْدَوْسُ فِي الجَنَّةِ الأُخْرَى
بَلَنْسِيَةٌ تِلْكَ الزَّبَرْجَدَةُ الَّتِي ... تَسِيلُ عَلَيْهَا كُلُّ لُؤْلُؤَةٍ نَهْرَا[1]

فَمَا زِلْنَا بِهَا فِي شَقَائِقِ أَيَّامِ الشَّبَابِ، وحَدَائِقِ انْتِظَامِ الأَحْبَابِ، نَحْكُمُ فِي حَزْنِ الأُنْسِ وسَهْلِهِ، حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ، والزَّمَانِ بِمُسَاعَدَتِنَا قَمَن[2] وَمَنْ يَكُنْ ضَيْفَ الأَمِيرِ يَسْمَنْ حَتَّى إذَا قَرُبَ أَمَدُ الرَّحِيلِ، وغَلَبَ وَاجِبُهُ عَلَى المُسْتَحِيلِ، عَزَمَ عَلَيْنَا الفَقِيهَانِ أَبُو جَعْفَر بن عَيْشُونْ وأَبُو الرَّبِيعِ بْن سَالِم[3] اللَّذَانِ يَقُولُ لِسَانُ الاخْتِيَارِ لِكِلَيْهِمَا أَنْتَ عِنْدِي كَسَالِم[4]، فِي أَنْ نُسَايِرَهَا لِمشَاهَدَةِ أُمّ العَجَائِبِ، ورُؤْيَةِ مَنْظَرٍ تُضْرَبُ إِلَيْهِ أَكْبَادُ النَّجَائِبِ، فَأَعْطَيْنَا القِيَادَ، وامْتَطَيْنَا الجِيَادَ، إِلَى مُرْبَاطر[5] وَصَلْنَاهَا والشَّمْسُ كَأْسٌ فِي يَدِ الاغْتِبَاقِ، والشُّهْبُ تَسْتَعِدُّ لِلسِّبَاقِ، فَبَادَرْنَا إِلَى ذَلِكَ المَنْظَرِ العَجِيبِ، ولَبَّيْنَا دَاعِيَهُ تَلْبِيَةَ مُجِيبٍ، فَأَجَلْنَا العُيُونَ فِي هَيْكَلٍ عَظِيمٍ، وشَكْلٍ قَدْ تَقَلَّدَ مِنَ الإِتْقَانِ بِحَلْيٍ نَظِيمٍ، قَدْ نُضِّدَ بِنَاؤُهُ بالفَرَاسِخِ، ومثل تَاجاً عَلَى مَفْرِقِ ذَلِكَ الطَّوْدِ الرَّاسِخِ، وكَأَنَّمَا فَرَعَ تِلْكَ الرُّبَا، يَبْتَغِي عَلَى السَّمَاءِ تَسَرُّبَا، أَوْ كَأَنَّهُ حِصْنٌ أَبْدَعَتْهُ الجِنُّ

---

(1) البيتان من الطويل، وهما لأبي حريق.

(2) قمن: حري وخليق وجدير، ويأتي بالكسر فيقال: قمِن. وله نفس المعنى.
فقال الشاعر:

مَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنَّا أَيْنَ مَنْزِلُنَا ... فَالأُقْحُوَانَةُ مِنَّا مَنْزِلٌ قَمِن

اللسان: «قمن».

(3) هو أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي عالم مشهور. انظر الرسالة الجامعية التي أنجزتها عنه ثريا الليهي تحت إشراف أستاذنا الدكتور محمد بن شريفة.

(4) يشير إلى قول الشاعر:

يُدِيرُونَنِي عَنْ سَالِمٍ وَأُدِيرُهُمْ ... وَجِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

(5) مرباطر morviedro: حصن بالأندلس قريب من طرطوشة بها مساجد وفيها آثار للأول دار ملعب وأصنام، ولعل صفوان يصف هذه الآثار التي أشار إليها الحميري. الروض المعطار، ص:540، العذري، ص: 19-145، الرازي، ص: 72.



لسُلَيْمَانَ أَوْ مَا حَدَّثَنَا الكِتَابُ العَزِيزُ مِنْ صَرْحِ هَامَانَ[1] قَدْ قُسِّمَ عَلَى مَنَازِل، يُبَارِي فِيهِ العَالِي النَّازِل، وقُدِّمَ الإِمَامُ عَلَى المَأْمُوم، ورُتْبَةُ المَخْفُوضِ عَنِ المَنْصُوب والمَجْزُوم، فَدَلَّ وَضْعُ بُنْيَانهُ المَرْصُوص، عَلَى أَنَّهُ اخْتُرِعَ لأَمْرٍ مَخْصُوصٍ، وأَشْهَدَتْ تِلْكَ الأَنْوَاعُ والأَجْنَاسُ، بأَنَّهُ كَانَ لِيَوْم مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاس[2] غَيْرَ أَنَّهُ ارْفَضَّ مِنْ جَنَادِلِهِ، وانْقَضَّ عَلَى الأَرْضِ مِنْ أَجَادِلِه، وَدَاخَلَهُ مِنَ التَّدَاعِي، وأَجَابَهُ الخَرَابُ الدَّاعِي، مَا يُنْبِئُ عَنِ اسْتِصْحَابِ أَبَد واقْتِرَابٍ مِنْ عَهْدِ لُبَد[3] فطُفْنَا مِنْهُ بِكَعْبَةِ العِبَرِ، وعَايَنَّا مَنْظَرًا لَا تَشْرَحُهُ عِبَارَةُ الخَبَرِ، لَا يُخْبِرُ عَنْهُ إِلَّا مَنْظَرُهُ، ولَا يَشْفِي مِنْ حَدِيثِهِ إِلَّا مَحْضَرُهُ، ومَا عَدَا ذَلِكَ فَنَجْمٌ مِنْ سَمَاءٍ، ونُقْطَةٌ من دَأْمَاءِ[4] وفِيهِ أَقُولُ:

يَا مَصْنَعًا قَدْ تَرَدَّى حُلَّةَ الهرم ... مَشْهُودُ حَالِهِ عُنْوَانٌ عَنِ القِدَمِ
كَمْ طَافَ حَوْلَكَ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلٍ ... بَادُوا وأَنْتَ حَبِيسُ الدَّهْرِ لَمْ تَرِمِ
وكَمْ تَأَلَّفَ فِيكَ الرُّومُ واجْتَمَعُوا ... وأَنْتَ فِي أَنْفِ ذَاكَ الجَمْعِ كالشَّمَمِ
والدَّارُ دَارُهُمْ والأَمْرُ أَمْرُهُم ... وصِيتُهُمْ فِي الوَرَى نَارٌ عَلَى عَلَمِ
حَتَّى انْتَحَتْهُمْ صُرُوفُ الدَّهْرِ فانْقَرَضُوا ... فَأَيْنَ رِمَّتُهُمْ فِي جُمْلَةِ الرِّمَمِ
يَا مُشْبِهَ القَوْسِ إِلَّا أَنَّ أَسْهُمَهُ ... قَضَتْ عَلَى مَنْ تَبَنَّاهُ مِنَ الأُمَمِ
تَاجٌ ولَكِنَّ ذَاكَ الطَّودَ مَفْرِقُهُ ... قَدْ حَلَّ فِيهِ مَحَلَّ الصَّيْدِ فِي الحَرَمِ
قَالُوا هُوَ المَلْعَبُ البَادِي فَقُلْتُ لَهُمْ ... نَعَمْ، ولَكِنْ لِخَيْلِ الرِّيحِ والدِّيَمِ
يَا هَيْكَلًا أُخْبِرَتْ عَنْهُ مَنَاظِرُهُ ... بِأَنَّهُ نُقْطَةٌ فِي أَبْحُرِ الهِمَمِ

(1) صرح هامان: ذكر في القرآن مرتين في سورة القصص، الآية: 18، وفي سورة غافر، الآية: 36.
(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. سورة هود، الآية:103.
(3) في إشارة إلى المثل العربي: «طال الأبد على لبد». جمهرة الأمثال.
(4) الدأماء: البحر.



يَا لَيْتَ شِعْرِيَ عَنْ أَهْلِيكَ كَيْفَ غَدَتْ؟ ... أَشْلَاؤُهُمْ لِلرِّضَى لحمًا عَلَى وَضَمِ[1]
فَحِينَ ذَكَّرْتُهُ أَهْلِيهِ طَارَحَنِي ... عَنْهُمْ وحَاوَرَنِي نُطْقًا بِغَيْرِ فَمِ
وقَالَ وَلَّوْا وَخَلَّوْنِي وَرَاءَهُمْ ... واسْتَوْدَعُونِي حُسْنَ الرَّعْيِ لِلذِّمَمِ
فَجَيْبُ سُورِيَ قَدْ مَزَّقْتُهُ أَسَفًا ... وَسِنُّ صَخْرِيَ مَقْرُوعٌ مِنَ النَّدَمِ[2]
آلَيْتُ أَسْلُوهُمُ رَعْيًا لِعَهْدِهِمْ ... أَلَيْسَ رَعْيِي لِذَاكَ العَهْدِ مِنْ كَرَمِ؟
فَأَوْدَعَ السَّمْعَ قُرْطًا مِنْ حَدِيثِهِمُ ... يَا مَنْ رَأَى أَعْجَماً يُنْبِي عَنِ العَجَمِ[3]

فَبِتْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ بِهَا، ولَمْ نُفَرِّقْ بَيْنَ ظُهُورِ المَطِيِّ وقَتَبِهَا، والاعْتِبَارُ يُبْدِي بِنَا وَيُعِيدُ، ولَنَا فِي سَهْلِ التَّعَجُّبِ وَحُزْنِهِ تَصْوِيبٌ وتَصْعِيدُ، كَذَلِكَ حَتَّى انْفَضَّتِ الطَّيْرُ عَنِ الوُكُون، ونَسَخَ حُكْمُ الابْتِغَاءِ حُكْمَ السُّكُونِ، وتَمَخَّضَ حَشَا اللَّيْلِ عَنْ جَنِينِ الشَّمْسِ، وَوَفَدَ عَلَيْنَا رَضِيعَ لُبَانِ الأَمْسِ، اقْتَعَدْنَا الخَيْلَ قَافِلِينَ، وفِي بَرْدِ الانْحِفَازِ رَافِلِينَ، وَفِي اليَوْمِ التَّالِي مِنْ ذَلِكَ القُفُولِ، أَذَنَّا أُفُقَ بَلَنْسِيَةَ بالأُفُولِ.

ولَمَّا عَزَمْنَا عَلَى المَسِيرِ، وطَالَبْنَا مُضْمَرُ حُبُّ الوَطَنِ بالتَّفْسِيرِ، سَايَرْنَا جَمَاعَةَ أولَائِكَ الإِخْوَانِ إِيثَارًا، وشَيَّعُونَا احْتِفَالًا فِي البِرِّ وإِكْثَاراً، حَتَّى إِذَا أَمَرَهُمُ التَّوْدِيعَ بالرُّجُوعِ، ومَا مِنَ الفَرِيقَيْنِ إِلَّا مَنِ انْقَلَبَ بِقَلْبٍ فَاجِعٍ مَفْجُوعٍ، وعَايَنْتُ حَرْبَ ذَلِكَ الوَدَاعِ سِجَالًا، وَقَدَحْتُ بَدِيعَتِي فَقُلْتُ ارْتِجَالًا:

أَحِبَّتَنَا نَزَحْنَا عَنْ ذَرَاكُمْ ... نُزُوحَ الكَاسِ عَنْ كَفِّ النَّدِيمِ

---

(1) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو غيره قال الشاعر:
لَسْتُ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمْ ... وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

(2) مقتبس من قول الشاعر:
لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ ... إِذَا تَذَكَّرْتِ يَوْماً بَعْضَ أَخْلَاقِي

(3) الأبيات من البسيط.



وَوَدَّعْتُمْ بِبِرِّكُمُ ولَكِنْ ... وداعَ البدْرِ لِلَّيْلِ البَهِيمِ
فكَانَ مَحَلُّ هَذَا البِرِّ مِنَّا ... مَحَلَّ البُرْءِ مِنْ جِسْمِ السَّقِيمِ
ومَا كَانَ الفِرَاقُ لَنَا احْتِيَاجًا ... فَإِذْ عُدْنَا فَبِالحُسْنَى ....[1]

ثُمَّ شَغَلَنِي عَنْ إِنْشَادِهَا، مَا كُنْتُ فِيهِ مِنْ تَأَجُّجِ لَوْعَةُ البَيْنِ [وإِجْهَادِهَا] [فَانْصَرَفَ عَنَّا أُولَائِكَ] الأَحْبَاب، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[2] وسِرْنَا يُنْجِدُ بِنَا العَزْمُ ويُتْهِمُ، ويَطْوِي الشُّقَّةَ جِدٌّ لِلْفَلَاةِ مُتْهِمُ إِلَى جَزِيرَةِ شُقْر[3] وَصَلْنَاهَا بَعْدَ إِجْهَادِ الوِرَادِ، والشُّقْر، ومَا حَلَلْنَاهَا إِلَّا والعَصْرُ قَدْ خَيَّمَ، واليَوْمُ مِنْ فَضْلِ عُمْرِهِ قَدْ تَأَيَّمَ، وَرَيْثَمَا نَزَلْنَا، وتَزَحْزَحْنَا، عَنِ السُّرُوجِ واعْتَزَلْنَا، وَصَلَ أَخُونَا بِنِسْبَةِ الأَدَبِ، الَّذِي نَسَلَ فِكْرُهُ إِلَى الإِبْدَاعِ مِنْ كُلِّ حَدَب[4] المفْلِقِ الَّذِي نَفَثَاتُهُ شَهْدَةٌ بِفَمِ الرَّحِيلِ والتَّعْرِيسِ، المَشْهُورُ بِمَرْجِ كُحْلِ أَبُو عَبْدِ اللهِ مُحَمَّدِ بْنُ إِدْرِيس[5] فَبَذَلَ مِنْ بِرِّهِ وبُرِّهِ، مَا لَا يُكَافَأُ عَلَيْهِ إِلَّا بِلُؤْلُؤِ كَلَامِهِ ودُرِّهِ، وعِنْدَمَا أَطَافَنَا عَلَى أَفْنَاءِ الجَزِيرَةِ وَجِهَاتِهَا، وأَشْرَفَ بِنَا عَلَى جَنَّاتِهَا وَمُنْتَزَهَاتِهَا، فَاجْتَلَيْنَاهَا لَمْعَةَ بَارِقٍ، أَوْ زَوْرَةَ طَيْفٍ طَارِقٍ، ونَظَرْنَا مِنْ مَدِينَةٍ رَفَلَتْ فِي دِرْعِ وَادِيهَا، وامْتَنَعَتْ

---

(1) الأبيات من الوافر.

(2) سورة البقرة، الآية: 165.

(3) جزيرة شقر: بالأندلس قريبة من شاطبة وتشتهر بروعة طبيعتها وأنهارها وفيها يقول ابن خفاجة:

بَيْنَ شُقْرٍ وَمُلْتَقَى نَهْرَيْهَا ... حَيْثُ أَلْقَتْ بِنَا الأَمَانِي عَصَاهَا
وَتَغَنَّى المُكَاءُ فِي شَاطِئَيْهَا ... يَسْتَخِفُّ النُّهَى فَحَلَّتْ حُبَاهَا

ديوانه، ص: 364، الروض المعطار، ص: 350، معجم البلدان 2/ 307.

(4) مقتبس من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾. سورة الأنبياء، الآية:95.

(5) هو محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم المعروف بابن مرج كحل كان شاعرا مفلقا ورقيق الغزل وله أمداح في كثير من أمراء وقته ورؤسائه، توفي سنة 634هـ ترجمته في التكملة، ص: 636 برنامج شيوخ الرعيني، ص: 208، الذيل والتكملة، ص: 208، زاد المسافر، ص: 82، المغرب في حلى المغرب 2/ 373، الإحاطة 2/ 252 وفيات الأعيان2/ 397، الوافي بالوفيات 2/ 181، نفح الطيب في صفحات متفرقة.



بِحُسَامِهَا المَسْلُولِ مِنْ غِيَرِ الأَيَّامِ وَعَوَادِيهَا، فاتَّخَذَتْ بِهِ مِنَ المَطَالِبِ مُعْتَصِمًا وتَحَلَّتْ فِي سِوَارِه مِعْصَمًا وَرُبَّمَا تَمثَّلَتْ في جَوْفِ مِرْآتِهِ صُورَةٌ تَرْتَدّ عَنْهَا أَيْدي المَكايِدِ مَقْصُورَةٌ، وَرُبَّمَا خلَتْ مَا مَدَّتْ مِنْهُ أَمَامَهَا مِبْرَدًا، قَدْ أَكَلَتْ بِهِ خُطُوبُ الدَّهْرِ وصُرُوفُ الرَّدَى، وَرُبَّمَا تَخَيَّلَتْهُ بِفنَائِهَا، كَرَمًا رَشَحَ مِنْ إِنَائِهَا، أَوْ جُودًا سَالَ مِنْ أَيْدِي أَبْنَائِهَا، أَوْ شَبَّهْتَهَا خِلَالَهُ بِمُحِبٍّ قَلَّصَ البَيْنُ ظِلَالَهُ، فَفَارَقَهُ أَحْبَاب، وأَحَاطَ بِهِ مِنْ دَمْعِهِ غُبَاب، فَبِكُلِّ مَسْقِطِ نَظْرَةٍ، مَا اشْتَهَتِ الأَنْفُسُ مِنْ نَعِيمٍ ونَضْرَة، نَهْرٌ هَتَّانٌ، يَحُفُّهُ بُسْتَانٌ، ومَرْأى لِخَوَاطِرِ الأُدَبَاءِ فَتَّان. فَبِتْنَا بِهَا فِي قِرَى نُفُوسٍ وأَجْسَامٍ، بَيْنَ نَهْرٍ لِلنَّدَى سَائِلٍ وَزَهْرٍ لِلأَدَبِ بَسَّام، كَذَلِكَ حَتَّى تَوَلَّتِ الكَوَاكِبُ لأَعِنَّتِهَا ثَانِيَةً، ونَادَيْنَاهَا يَا لَيْلَةَ شُقْرٍ أَلَا عُدْتِ ثَانِيَةً. ثُمَّ إِنَّهُ وَدَّعَنَا، وأَثْقَلَنَا بِالبِرِّ الَّذِي أَوْدَعَنَا، وسِرْنَا فِي تِلْكَ البَيْدَاءِ، لوثَ الرِّدَاءِ إِلَى شَاطِبَةَ[1]، لَا مَرْحَبًا بِهَا ولَا بِأَهْلِهَا قَاطِبَةً، فَتَعْسًا لَهَا مِنْ حُبَارَى، لَا تُجَارَى ولَا تُبَارَى، سِلَاحُهَا سُلَاحُهُمَا فَكَيْفَ يُرْجَى صَلَاحُهَا، ومَعْذِرَتُهَا عَذِرَتُهَا، فَهِيَ وبَيْئَةُ السَّاحَةِ قَذِرَتُهَا، بِآيَةِ مَا جَاءَتْ شَيْئًا فَرِيًّا، فاتَّخَذَتِ الجَامِعَ وَرَاءَهَا ظِهْرِيًّا، واعْتَلَقَتْ بالصَّنَمِ[2] اعْتِلَاقَ المُبْتَدأ بالخَبَرِ، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾[3] فَأَقَامَتْهُ لِسُوقِهَا مُشَاهِدًا، وعَلَى فُسُوقِهَا شَاهِدًا، فَمَا لِأُمِّ صَخْر، والادِّعَاءَ فِي الفَخْرِ، إنْ هِيَ إِلَّا كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلُمَ الأَدِيم[4]، فَلْتَتَأَخَّرْ فَلِغَيْرِهَا التَّقْدِيم:

---

(1) سبق التعريف بها.

(2) اشتهرت المدينة بهذا الصنم وقد وصفه كثير من الشعراء الأندلسيين من بينهم أبو عامر بن عثمان الذي يقول فيه:

بَقِيَّةٌ مِنْ بَقَايَا الرُّومِ مُعْجِبَةٌ ... أَبْدَى البُنَاةُ لَنَا مِنْ أَمْرِهَا حَكَمَا

لَمْ نَدْرِ مَا أَضْمَرُوا فِيهَا سِوَى أُمَمٍ ... تَتَابَعَتْ قَبْلُ سَمَّوْهُ لَنَا صَنَمَا

زاد المسافر، ص: 133، الروض المعطار، ص: 337.

(3) سورة المدثر، الآية: 35.

(4) هذا في قول الشاعر:

فَإِنَّكَ وَالكِتَابُ إِلَى عَلِيٍّ ... كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلُمَ الأَدِيمُ



وكُنْـتُ إِذَا غَمَـزْتُ قَنَـاةَ قَـوْمٍ كَـسَرْتُ كُعُوبَهَـا أَوْ تَـسْتَقِيمَا[1]

ولَمَّا دَنَوْنَا مِنْهَا دُنُوَّ السِّرِّ مِنَ الضَّمِيرِ، وحَلَلْنَا جِوارَهَا حُلُولَ التَّاجِ بِمِفْرَقِ الأَمِيرِ، ثَارَ بِبَعْضِ إِخْوَانِنَا حِرْصٌ عَلَى حُلُولِهَا، والتَّطَوُّفُ عَلَى رُبُوعِهَا الخَالِيَةِ وطُلُولِهَا، فَقَوَّضْتُ خِيَامَ ذَلِكَ التَّمَنِّي وَقُلْتُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾، غَيْر أَنَّ الوَزِيرَ أَبَا جَعْفَر بْنَ جُبير[2]، أَوْقَدَ قَبْلَنَا إِلَيْهَا أُلْهُوبَ السَّيْرِ، وَتَقَدَّمَ مِنْ بَلَنْسِيَةٍ مُعْتَمِدًا لإِكْرَامِنَا بِهَا، والأَخْذِ بِغَنَاءِ تِلْكَ الفِئَةِ البَلَنْسِيَةِ ومَنَابِهَا، فَلَمْ نُسَاعِدْهُ عَلَى الإِقَامَةِ بِهَا، أَكْثَرَ مِنْ مَشْقِ الحَرْفِ، أَوْ خَطْرَةِ الوَهْمِ أَوْ رَجْعِ الطَّرْفِ، وانْتَقَلْنَا إِلَى مَنْزِلِهِ بِبَنِي سوَّارٍ، انْتِقَالَ المِعْصَمِ إِلَى السِّوَارِ، فَبِتْنَا فِي بِرٍّ مُبِرٍّ، وَإِكْرَامٍ، غَيْرِ ذِي انْصِرَامٍ، ولَمَّا أَشَارَ الصُّبْحُ بِيُمْنَاهُ وَدَّعَنَا الوَزِيرُ أَبُو جَعْفَرٍ وَوَدَّعْنَاه، وقَدْ عَبَّرَ لَفْظُ اهْتِبَالِهِ عَنْ مُنَاهُ، وانْحَدَرْنَا فِي قَفْرٍ صِفْرٍ واقْتَبَلْنَا صَدْرَ فَلَاةٍ، تَرُوعُ كُلَّ سِعْلَاةٍ[3]، فَآوِنَةً نَرْتَفِعُ حَتى لَا نَتَمَيَّزَ مِنَ المَنَاكِبِ وَنُنْكِرُ أَثْنَاءَ تِلْكَ المَرَاكِبِ، ولَوْ أَضْلَلْنَا لَنَشَدْنَا الكَرَمَ عِنْدَ السُّحُبِ السَّوَاكِبِ، وآوِنَةً نَتَخَلَّقُ بِخُلُقِ المَاءِ، فَنَتَخَلَّى إِلَى المَرْكِزِ عنِ السَّمَاءِ، إِلَى قَسْطَلَّةٍ[4] وَصَلْنَاهَا بَعْدَ مَسْحِ الجَبِينِ، والانْحِفَازِ المُبِينِ، ومُنَادِي المَغْرِبِ قَدْ هَتَفَ بالتَّكْبِيرِ، والغَرْبُ يَشْرَبُ مِنَ الشَّمْسِ بالكَبِيرِ. فَحَلَلْنَا بِهَا عِنْدَ أَخِينَا الوَزِيرِ أَبِي مُحَمَّدِ بنِ حَامِدٍ[5] حُلُولَ المَعْرُوفِ عِنْدَ الشَّاكِرِ

---

(1) البيت لزياد الأعجم؛ وهو من الشواهد النحوية . المغني1/ 69، شرح شواهد المغني، ص: 74، شرح ابن عقيل 4/ 123.

(2) أحمد بن جبير والد الرحالة المشهور كان ببلنسية ثم انتقل إلى شاطبية بعد أن خلع عبد الملك بن مروان بن عبد العزيز من رئاسة بلنسية سنة 540هـ، انظر الذيل والتكملة1-1/ 79.

(3) السعلاة: الغول وقيل هي ساحرة الجن، قال جران العود:

هُمَـا الغُـولُ وَالـسِّعْلَاةُ رَأْسِـيَ مِنهُمَـا مُخَـدَّشٌ مَـا بَـيْنَ التَّرَاقِـي مُكَـدَّحُ

(4) قسطلة دراج: قرية تقع في غرب الأندلس وإليها ينسب الشاعر الفحل ابن دراج القسطلي. الروض المعطار، ص: 479، الإدريسي، ص 179.

(5) أبو محمد بن حامد شاعر موحدي كانت بينه وبين صفوان صداقة متينة، وقد مدحه بشعر أورده في زاد المسافر، ص: 82.



الشَّاكِرِ الحَامِدِ، فأَنَخْنَا بالمَحَلِّ الخَصِيبِ، وكَأَنَّا بَيْنَ مِصْرَ والخَصِيبِ[1] فَأَحْمَدْنَاهُ سَفَرًا وذَكَرْنَا قَوْلَ الغَنَوِيِّ[2]: «جَزَى الله عَنَّا جَعْفَرا».

هُـمُ أَسْـكَنُونَا فِـي ظِـلَالِ بُيُـوتِهِمْ ظِـلَالَ بُيُـوتٍ أَرْفَـأَتْ وأَظَلَّـتِ
أَبَـوْا أَنْ يَمَلُّونَـا وَلَـوْ أَنَّ أُمَّنَـا تُلَاقِـي الَّـذِي يَلْقَـوْنَ مِنَّـا لَمَلَّـتِ[3]

وثَانِي يَوْمِ عَزَمْنَا عَلَى أَنْ نُسَلِّمَ إِفْصَاحَ المُقَاوِمِ إِلَى الحَصَرِ[4] ونَنْتَقِلَ مِنْ ذَلِكَ المَوْرِدِ العَذْبِ ﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾[5]، ونَهْجُرَهُ لِلْإِفْرَاطِ فِي العُذُوبَةِ والخَصَرِ؛ ومَا سِرْنَا إِلَّا والشَّمْسُ مُسْتَوْفِيَةُ الأَلَاءِ، مُرْتَقِيَةٌ دَرَجَةَ العَلَاءِ، ﴿لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾[6] وعِنْدَمَا اكْتَنَفْنَا ذَلِكَ الرَّسِيمِ، نَافَحْنَا مِنْ بَلَنْسِيَةَ[7] نَسِيم، طَاوَعَهُ مِنَّا مَيْتٌ وَقَسِيم، فَقُلْتُ والشَّوْقُ بَيْنَ الدَّمْعِ والخَاطِرِ يَرْوِي وَيَسِيم:

تَـأَرَّجَ عَـرْفُ النَّـسِيمِ النَّـدِي فَبَـرَّحَ بالهَـائِمِ المُكْمَـدِ[8]
فَيَـا لَيْـتَ صَـدْرِيَ مَثْـوًى لَـهُ وَإِنْ هَاجَـتِ الـرِّيحُ لِلْمُوقِـدِ
وقَـدْ خطَـرَتْ بـالهَوَى خَطْـرَةٌ تُثِيـرُ الـصَّبَابَةَ فِـي الجَلْمَـدِ
فَلَيْتَـكَ أَشْـرَفْتَ مِـنْ أَضْـلُعِي تَـرَى فِـي سَـبِيلِ الهَـوَى مَقْـصَدِي
جَرَيْـتُ أُعَـانِقُ مَـسْرَى الـصَّبَا وأَعْقِـدُ فِـي الـذَّيْلِ مِنْـهُ يَـدِي

---

(1) يشير إلى قول أبي نواس:
أَنْـتَ الخَـصِيبُ وَهَـذِهِ مِـصْرُ فَتَـدَفَّقَا فَكِلَاكُمَـا بَحْـرُ

(2) هو طفيل بن كعب الغنوي وتمام البيت وبعده البيتان:
جَـزَى اللهُ عَنِّـي جَعْفَـراً حِـينَ أَزْلَقَـتْ بِنَـا نَعْلُنَـا فِـي الـوَاطِئِينَ فَزَلَّـتِ

(3) البيتان من الطويل.
(4) الحصر: ضرب من العي وعدم القدرة على الكلام والبيان.
(5) سورة النحل، الآية: 77. سورة القمر، الآية: 50.
(6) سورة النساء، الآية: 142.
(7) سبق التعريف بها.
(8) الأبيات من المتقارب.



لَعَلِّـــيَ أَظْفَــرُ مِنْــهُ بِمَـــا ... تَــرَدَّدَ فِـــي عِطْفِــكَ الأَمْلَـــدِ[1]

أُطَارِحُــــهُ نَفَثَـــاتِ الهَـــوَى ... أَنَـــا المُنْتَهِـــي وَهُـــوَ المُبْتَـــدِي

فَيَـــصْدُرُ عَـــنْ نَفَــسِي مُحْرِقًـــا ... وَعَـــنْ أَدْمُعِـــي وَهْــوَ رَطْــبٌ نَــدِي

ولَمْ نَسر بَعْدَهَا إِلَّا قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى[2] حَتَّى قَرَّبَ التَّعْرِيسُ مَنْزِلَنَا وأَدْنَى إِلَى بَطْرِير[3] وَصَلْنَاهَا عَصْراً، ونَحْنُ نُنَادِي مُشِيرِينَ إِلَى الهُدُونِ يَا نَصْرُ نَصْرٌ نَصْراً نَصْراً[4] فَبَادَرَنَا صَاحِبُنَا الوَزِيرُ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ المَدِينِي[5] مُبَادَرَةَ العَيْنِ لِلْوَسَن، واعْتَلَقَ بِنَا اعْتِلَاقَ الأَدِيبِ بالوَجْهِ الحَسَنِ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَلَى رُبَا المُتَمَنَّى، مُقَامَ مَالِكِ بْنِ أَسْمَاءَ[6] بِتَلِّ بَوَنَّى:

نَزَلْنَـــا عَلَـــى أَنَ المُقَـــامَ ثَلَاثَـــةٌ ... فَطَـابَ لَنَـا حَتَّـى أَقَمْنَـا بِهَـا عَـشْرَا[7]

ومَازِلْنَـا فِـي وَارِفِ ظِلَالِهَـا، وَوَاكِـفِ اسْـتِهْلَالِهَا، إِلَـى أَنْ آذَنَ اللهُ الرَّكَائِـبَ فِـي اسْتِقْلَالِهَا. فَأَعْمَلْنَا مِنَ الرُّجُوعِ إِلَى الوَطَنِ نَظَرَ المُعِيدِ، وَوَدَّعْنَا مِنْ ذَلِكَ المَنْزِلِ جِوَارًا كَجِوَارِ بَنِي سَعِيدٍ[8]، وَسِرْنَا يَوْمَنَا سَيْرَ الخَيَالِ، إِلَى أَنْ عَايَنَّا اليَوْمَ مُعَصْفَرَ

---

(1) الأَمْلَد: الناعم الرخص الذي استوت قامته .

(2) مقتبس من قوله تعالى:﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾.سورة النجم: 8-9.

(3) بطرير: مدينة توجد في مقاطعة لقنت إلى الجنوب الشرقي من شَجَس. الروض المعطار، ص: 339.

(4) هذا فن قول رؤبة بن العجاج:

إِنِّـــي وَأَنْـــصَارٌ سَـــطَرْنَ سَـــطْراً ... لَقَائِـــلٌ يَـــا نَـــصْرُ نَـــصْراً نَـــصْرَا

(5) انظر الذيل والتكملة 5/ 54-428.

(6) مالك بن أسماء ابن خارجة الفَزَارِيِّ ينتسب إلى غطفان، وكان شاعرا غزلا ظريفا، الأغاني16/ 40، معجم الشعراء، ص: 364.

(7) البيت من الطويل وهو لمالك بن أسماء المذكور، وتل بونى من قرى الكوفة. معجم البلدان.

(8) بنو سعيد: لعلهم أصحاب القلعة المنسوبة إليهم وقد اشتهروا بالجود أقام عندهم الحجاري عاما، وفيهم يقول الرصافي البلنسي:

إِنَّ الكِـــرَامَ بَنِـــي سَـــعِيدٍ ... وَرِثُـوا النَّـدَى وَالمَجْـدَ أَوْحَـدَ أَوْحَـدَا

قَـــسمُوا المَعَـــانِي بِالـــسَّوَاءِ وَفَـــضَّلُوا ... فِيهَـــا عِمَـــادَهُمُ الكَبِيـــرَ مُحَمَّـــدَا



الأذْيَالِ، فَوَضَعْنَا خُطَى السَّيْرِ فِي يَدِ الانْفِصَامِ، ونَزَلْنَا عَلَى اسْمِ اللهِ تَعَالَى بِقَرْيَةِ بَنِي عِصَام[1] وَصَلْنَهَا والأَصِيلُ يَقْضِي ذَمَاءَهُ، وَيُوصِي اللَّيْلَ وظَلْمَاءَهُ، فَخَيَّمْنَا مِنْهَا بِضِفَّةِ نَهْرٍ كَاللُّجَيْنِ، وخَلِيجٍ كَمِبْرَدِ القَيْنِ، عَلَى عَبْرَيْهِ[2] دُولابَانِ، بالحَنِينِ يَتَجَاوَبَانِ، يَنْدُوَانِ مِنَ الزَّهْرِ الذَّاوِي .... ويَتَوَسَّلَانِ الرَّوْض وَرَاعـًا [بكَفِّ رَاقِم]، مِنْ أَنِينٍ وانْسِيَابٍ بِزَئِيرِ أُسْد واضْطِرَابِ أَرَاقِم، وَسَبَكَا مِنَ الغَدِيرِ سَبَائِكَ اللُّجَيْنِ، فَنَقَدَا مِنْهَا بِأَيْدِي الكِمَامِ دَرَاهِمَ فِي رَأْيِ العَيْنِ، وكَأَنَّ كِلَيْهِمَا صَبٌّ أَثْقَلَ كَاهله بمَنْ يُحِبُّ عِرْفَانُهُ، وَتَمَادَى فِي قَيْدِهِ بِشْرُهُ وسِفَانُه، وكَتَمَ مِنْ دَمْعِهِ طُوفَانًا، فَتَفَتَّحَتْ ضُلُوعُهُ تَسِيلُ جِفَانًا، فَبِتْنَا بِهَا جِيرَانَ دُولَابٍ يَهْدِلُ، وأَغْصَانٍ تَنْثَنِي وَتَعْتَدِلُ، وَسِتْرٍ لِلظَّلَالِ يَنْسَدِلُ، حَتَّى إِذَا بَقِيَ مِنَ اللَّيْلِ حَدَّ الوَصِيَّةِ مِنْ المَالِ، قَضَيْنَا عَلَى مَبْذُولِ السُّرَى بالاسْتِعْمَالِ، وَسِرْنَا والظَّلَامُ مُحْتَفِل، والسَّيْرُ بِطَيِّ الشَّمْلِ مُكْتَفِلٍ إِلَى مُرْسِيَّة[3] وَصَلْنَاهَا والزَّنْجِيُّ[4] يُشِيرُ لِلتَّوْدِيعِ، وَمَاءُ الفَجْرِ يَرْشَحُ مِنْ إِنَاءِ اللَّيْلِ الصَّدِيعِ، فَقَضَيْنَاهَا سَفْرَةً لَوْلَا أَنَّ الرَّسُولَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولِأَوَامِرِهِ الانقِيَادُ والاسْتِسْلَامُ، يَقُولُ: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ»[5] لَقُلْتُ كَانَتْ جُمْلَةَ قِطَعِ النَّعِيمِ العذَابِ. لَكِنِّي أَسْلُكُ بالحَدِيثِ نَهْجَ التَّأْوِيلِ والتَّعْلِيلِ وأَقُولُ إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَعْتَدَّ بالقَلِيلِ، وأَجْعَلُ هِذِهِ السَّفَرَةَ مِنَ النَّوَادِرِ التِي لَا يُعْرَضُ إِلَيْهَا، والشَّوَاذِّ التِي تُحْفَظُ ولَا يُقَاسُ عَلَيْهَا.

---

(1) بنو عصام: ذكرها حازم في مقصورته فقال:

وَحَلَّ فِي بَنِي عِصَامٍ عصمه ... وَفَضَّ هَؤُلَاءِ المزْدَادِ وَفرَا

رفع الحجب 1/ 176.

(2) العبرين: الجانبين أو الطرفين قال النابغة:

وَمَا الفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ ... تَرْمِي أَوَاذِيُّهُ العِبْرَيْنِ بِالزَّبَدِ

يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ ... وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ

(3) مرسية: مدينة أندلسية مشهورة، قال الرندي:

فَاسْأَلْ بَلَنْسِيَةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَةٍ

(4) الزنجي: يقصد به الليل.

(5) حديث مشهور.



وَبَعْدُ: فَإِذَا شَكَرَ اللهُ مَنْ كَانَ لِخَيرٍ سَبَبًا، وأَجَالَ فِي مَيْدَانِ أَمَلِهِ جِيَّادَ التَّسْهِيلِ خَبَبًا، فَأَدَامَ اللهُ مُدَّةَ أَخِينَا الوَزِيرِ الحَسِيبِ، وحَفِظَهُ عَلَيْنَا حِفْظَ المُقَامِ عَلَى عَسِيبٍ[1]، فَإِنَّهُ الَّذِي أَثْبَتَ لَنَا فِي مَوَاقِفِ هَذِهِ النُّزْهَةِ قَدَمًا، وَأَوْجَدَ مِنْ عَزَائِمِنَا لِحُلُولِ هَذِهِ المَعَاهِدِ عَدَمًا. ولَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الرِّحْلَةَ جَرْيًا عَلَى مَا اقْتَضَاهُ رِضَاهُ، واتِّبَاعًا لِمَا نَوَاهُ هَوَاهُ؛ رَأَيْتُ أَنْ أَرْسُمَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ فِي أَوْصَافِهَا؛ وأَبْذُلُ الجُهْدَ فِي إِنْصَافِهَا؛ وَأُقَلِّدَهَا جِيدَ مَجْدِهِ عِقْدًا، وأَجْعَلَهَا لِعَقِيلَةِ بِرِّهِ نَقْدًا، وأُذِيعَهَا بِشُكْرِ أُخُوَّتِهِ الَّتِي أَحَالَتْ مُجْدِبَ الوَفَاءِ مُخْصِبا، وحَلَّتْ مِن اعْتِقَادِي مَحَلَّ أَيَّامِ الصِّبَا:

وَقَدْ تَبَدَّلْتُ مِنْ كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ ... فَمَا وَجَدْتُ بِأَيَّامِ الصِّبَا عِوَضَا[2]

ومِنَ اللهِ تَعَالَى نَسْأَلُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا، ويَجْعَلَ التَّجَاوُزَ إِلَى طَرِيقِ رَحْمَتِهِ مَطَايَانَا، ويَجْمَعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فِي رِضْوَانِهِ وَصَفْحِهِ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ الزَّهْرِ وَطِيبِ نَفْحِهِ، أَوْ بَيْنَ هَمَّامٍ والقَيْدِ، وعَبَّاسٍ والعُبَيْدِ، والنُّحَاةِ وَضَرْبِ زَيْدٍ، ثُمَّ إِذَا كَانَ الشَّأْنُ فِي الفَصْلِ، وَبِخَوَاتِمِ العَمَلِ إِحْرَازُ الفَصْلِ؛ فَلْنَخْتِمْ بِصَلَاةٍ عَاطِرَةِ الأَكْؤُسِ، وسَلَامٍ أَخَفَّ مَوْقِعًا مِنَ البُشْرَى عَلَى الأَنْفُسِ، نَخُصُّ بِهَا سَيِّدَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، وَوُسْطَى عِقْدِ المُتَفَاخِرِينَ، مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الصَّادِقِ الأَمِينِ، المَخْصُوصِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[3] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، عَدَدَ بُكَاءِ القَطْرِ وانْتِحَابِهِ، وَرَزَقَنَا التَّكْرِيمَ، بِحُبِّهِ مِنْ رَسُولٍ كَرِيمٍ:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الغَمَامُ بِكَفِّهِ ... ثِمَالُ اليَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ[4]

---

(1) عسيب: فيه إشارة إلى قول امرئ القيس:

أَجَارَتَنَا إِنَّ المَزَارَ قَرِيبُ ... وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ

(2) البيت من البسيط وهو للمعري.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 106.

(4) البيت لأبي طالب يمدح به الرسول ﷺ؛ وثمال اليتامى: غياثهم. وثملهم: أطعمهم وسقاهم. اللسان: «ثمل».



ثُمَّ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اغْتَفَرَ الكَثِيرَةَ لِلْقَلِيلَة، ونَظَرَ إِلَى مَقَالَتِنَا هَذِهِ بالعَيْنِ الكَلِيلَةِ. وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

وَلَهُ مِنْ رِحْلَةٍ:

ولمَّا قَضَى اللهُ أَنْ يُمْتَثَلَ أَمْرُ النَّوَى، ويَتِمَّ للزَّمَانِ مِنْ قَطْعِ إِيصَالِ مَا نَوَى، سَفَرَ لِي[1] عَنْ وَجْهِهِ السَّفَرَ، ونَفَرَ عَنِّي أُولَائِكَ القَوْمُ والنَّفَرَ، فَوَدَّعُونِي وَوَدَّعْتُهُمْ، وأَوْدَعُونِي أَضْعَافَ مَا أَوْدَعَتْهُمْ، ولَوْلَا مَا لَمْ يُسْتَعْمَلْ وَدَعَ لَقُلْتُ وَوَدَعُونِي لِلْمُقِيمِ المُقْعَدِ وَوَدَعْتُهُمْ، فَسِرْتُ أَمْتَطِي السُّهُولَ وَالحُزُونَ، وأُضَاهِي بِمَاءِ شُؤُونِي[2] الدُّرَّ المَخْزُونَ، إِلَى أُرْيُولَةَ وَصَلْنَاهَا، والشَّمسُ مَرْضَى أَصَائِلُها، وَالرُّبَى مُعَصْفَرَةٌ وَصَائِلُهَا، فَحَلَلْنَا بِهَا الرِّحَالَ، وبَيَّتْنَا التِّرْحَالَ، فَلَا أَدْرِي هَلْ نَقَلْتُ إِلَيْهَا صُول، أَمْ فُرِشَتْ فِي مَضَاجِعِهَا النُّصول؛ ولَا شَكَّ أَنَّ وَجْهَ الجَذَلِ تَنكَّرَ، وتَذَكَّرْتُ ومِنْ حَاجَةِ المَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَ، فَلَا غَرْوَ أَنْ جَمَعْتُ مُفْتَرِقَ خَاطِرِي وحَشَدْتُ، وطَلَبْتُ ضَوَالَّهُ ونَشَدْتُ، وَرَفَعْتُ عَقِيرَتِي[3] وأَنشَدتُ:

يَا أَرْضَ تُدْمِيرَ هَلْ حَدِيثٌ	يَخْطُرُ بِي مِنْكِ أَوْ يُلِمُّ
كَمْ فِيكِ لِي مِنْ خَلِيلِ صِدْقٍ	الشَّهْدُ إِلَّا لَدَيْهِ سُمُّ
وَمِنْ بُكُورٍ وَمِنْ رَوَاحٍ	يَخُصُّ بالبِشْرِ أَوْ يَعُمُّ
لِلَّهِ فِيمَنْ هُنَاكَ قَوْمٌ	هَمٌّ تَنَائِيهِمْ يُهِمُّ
إِنْ جَذَعَ الغَدْرُ أَنْفَ عَهْدٍ	فَعَهْدُهُمْ شَامِخٌ أَشَمُّ

(1) سفر عن وجهه: أظهره وأبداه واضحا للعيان.

(2) الشؤون: مواصل عروق الرأس وملتقاها ومنها تأتي الدموع قال الشاعر:

لَا تُحْزِنِينِي بِالفِرَاقِ فَإِنَّنِي ... لَا تَسْتَهِلُّ مِنَ الفِرَاقِ شُؤُونِي

(3) عقيرة الرجل: صوته إذا غنى أو قرأ أو بكى، قال الجوهري: قيل لك من رفع صوته عقيرة ولم يقيد بالغناء.



شَاعَتْ بِهِمْ لَوْعَتِي وَحُبِّي ... والمِسْكُ مِنْ طَبْعِهِ يَنِمُّ[1]

ومَا كَانَ إلاَّ أنْ هَتفتُ أُرَدِّدُهَا، وأُثَقِّفُ سِهَامَهَا وأُسَدِّدُهَا، فَيَالَكَ مِنْ نَفْثَةِ مَصْدُورٍ، وقَدَرٍ هُنَالِكَ مَقْدُور[2]:

رَمَيْتُ بِقَوْسٍ لَم يُصِبْ وأَصَابَنِي ... فَأَلْقَيْتُ قَوْسِي عَنْ يَدَيَّ وأَسْهُمِي

وسُقْتُ إِلَى نَفْسِي مَنِيَّةَ نَفْسِهَا ... كَمَا احْتَرَقَتْ فِي نَارِهَا كَفُّ مُضْرِمِ[3]

وَلَمْ يَزَلِ القَوْمُ ينْتَحُونَنِي بِلَوْمِهِم، ويَجْعلُونَ عَذْلِي بَدَلًا مِنْ بَقِيَّةِ نَوْمِهِمْ، وأَنَا آوِنَةً أَغُضُّ وآوِنَة أُطْرِفُ، وطَوْرًا أُنْكِرُ وطَوْرًا أَعْتَرِفُ، كَذَلِكَ حَتَّى دَعَا دَاعِي الشَّدِّ، وتَلَقَّانَا الرَّحِيلُ بسَاعِدِهِ الأَشَد.

وسِرْنَا والظَّلَامُ يُزَمِّلُنَا فِي بِجَادِهِ[4] والبَيَان يَرْفَعُنَا إلى ظُهُورِ رَوَابِيهِ مِنْ بُطُونِ نِجَادِهِ وانبَرَيْنَا نُوفِي الذَّمِيلَ[5] بِمَا نَذَرَ، ولَا نَلْوِي عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ، والكَرَى يَهْفُو بِذَوَائِبِ الرَّكْبِ ويَخْفِقُ، والنَّسِيمُ يَلْطِمُ فِي ذُيُولِ أَرْدِيَتِهِمْ ويَصْفِقُ، إِلَى أَنْ أَحْرَقَتْ فَحْمَةُ اللَّيْلِ عَنْبَر الإِصْبَاحِ، وخَبَا مِنَ النُّجُومِ الزُّهْرِ كُلُّ مِصْبَاحٍ، واسْتَخْفَى النَّجَاشِيُّ مِنْ دُعَاءِ القِبْطِيِّ[6] وكُحِلَتْ مِنْ رَمَدِ الحَيْنِ[7] أَجْفَانُ المَطِيِّ. فَسِرْنَا نَخُبُّ ونُوضِعُ، ونَسْتَدِرُّ أَحْلَامَ الوَجِيفِ[8] ونَرْتَضِع، إلى بطرير وصَلْنَاهَا ومُحَيَّا الشَّمْسِ كَوَجْهِي اصْفِرَارًا، وعَيْنُهَا كَمُقْلَةِ الرَّقِيبِ ازْوِرَارًا، فَحَلَلْنَا مِنْهَا ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾[9]، وخَيَّمْنَا بِأَصْلِ جَاءَ مِنَ الإِمْحَالِ

---

(1) الأبيات من مخلع البسيط.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾. سورة الأحزاب، الآية: 38.

(3) البيتان من الطويل.

(4) النجد: ما استوى من الأرض ولم يكن مرتفعا ومنه منطقة نجد بالقرب من مكة.

(5) الذميل: ضرب من سير الإبل وقيل السير اللين، ويقال نوق ذوامل:

تَخُبُّ إِلَيْهِ اليَعْمُلَاتُ الذَّوَامِلُ

(6) القبطي: يقصد به الديك الذي يبدأ دعاءه مع بداية الفجر، والنجاشي: هو الليل.

(7) الحين: التعب والإعياء.

(8) الوجيف:ضرب من السير.

(9) سورة إبراهيم، الآية: 39.



الإمْحَالِ بِكُلِّ فَرْعٍ، إِلَى مَا كَرِهْتَ مِنْ مَاءٍ كَضَمِيرِ المَارِقِ كَدرًا، أَوْ كَوَقْفَةٍ ودَاعِنَا وِرْدًا وصَدَرًا، إِلَى خَوْفٍ مِنَ العَامَّةِ وَهُوَ كَلَامُ لِسَانِهَا، وإِنْ عُدَّتِ المَحَاسِنُ فَنُورُ إِنْسَانِهَا، ومغْنًى يَقْرَعُ الواصِلُ إِلَيْهِ سنَّ النَّدَم[1] ولَا يَكَادُ يَشْربُ المَاءَ إِلَّا مِنْ قَلِيبِ دَم، وعَلَى ذَلِكَ فَمَا حَالَ أَلَمُ الجَرِيضِ، دُونَ القَرِيضِ[2]، بَلْ لَمَّا اتَّقَدَ للنُّجومِ الزُّهْرِ مِجْمَرُ:

ورَوَّحَ رُعْيَانٌ ونَوَّمَ سُمَّرُ[3]

وأَذِنَ اتِّصَالُ السَّمَرِ بانْفِصَالِ..

وَاسْتَعْجَلْتُ وصرَّحتُ بمَا روَّيتُ وارْتَجَلْتُ:

صَرَمْتُ مِنْ أُنْسِيَ حَبْلَ الأمَلْ ... فَسَلْ عَمَّا أَصَابَهُ أَوْ لَا تَسَلْ[4]
حَالٌ كَمَا شَاءَتْ صُرُوفُ الزَّمَنِ ... سَرَى بِهَا الرَّكْبُ وطَارَ المَثَلْ
مَدَامِعٌ تَنْحَلُّ أَسْمَاطُهَا ... ولَوْعَةٌ عُقْدَتُهَا لَا تُحَلْ
ومُهْجَةٌ مُسْتَطْرَفٌ عَيْشُهَا ... يَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ مِنْهَا الأَجَلْ
يَا لَيْتَ شِعْرِي والمُنَى جَمَّةٌ ... ويُغْبَطُ المَرْءُ بِمَا لَمْ يَنَلْ
هَلْ يَرْجِعُ الدَّهْرُ كَعَهْدِي بِه ... وقَلَّمَا تَسْتَعْطِفُ الدَّهْرَ هَلْ
جِيرَتَنَا مَالِي أَرَى قُرْبَكُمْ ... مَالَ بِهِ البَيْنُ فَهَلَّا اعْتَدَلْ
لَوْ كَانَ لِي أَمْرِي وَمَنْ لِي بِهِ ... لَمِتُّ مِنْ بَعْدِكُمُ لَا أَقَلْ

---

(1) مقتبس من قول الشاعر:

لَتَقْرَعِنَّ عَلَيَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ ... إِذَا تَذَكَّرْتِ يَوْماً بَعْضَ أَخْلَاقِي

(2) هذا من يفعل المعروف: حال الجريض دون القريض.

(3) من أبيات لعمر بن أبي ربيعة يقول فيها:

وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجُو غِيَابَهُ ... وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ وَنَوَّمَ سُمَّرُ

(4) الأبيات من بحر السريع.



لَكِــنْ يُقِــرُّ العَــيْنَ أَنَّ الجَــوَى قَــدْ حَــلَّ حَتَّــى دَقَّ فِيــهِ الأَجَــلْ

والقَلْــبُ إِلَّا مِــنْ وَجِيــبِ[1] عَــرَى والعَــيْنُ إِلَّا مِــنْ دُمُــوعٍ طَلَــلْ[2]

ولَامَنِــي قَــوْمٌ فَــرُدُّوا بِمَــا جَــاءُوا ومَلُّــوا وأَنَــا لَا أَمَــلْ

فَلَــوْ رَأَى ضَــبَّةُ عِــصْيَانَهُمْ لَـمْ يَنْسُبِ السَّيْفَ لِسَبْقِ العَـذَلْ[3]

فَشَغَلَ القَوْمَ مَا كَانُوا بِسَبِيلِهِ، عَنْ دَبِيرِ مَا جِئْتُ بِهِ أَوْ قَبِيلِهِ[4]، وَلَمْ أَزَلْ أَهْتَاجُ بِهَا تَرُنُّمًا وتَرْجِيعًا، فَمَا كُنْتُ بِقَائِلٍ إِلَّا رَجِيعًا، إِلَى أَنْ هَتَفَ هَاتِفُ الرَّحِيلِ، بِمُبْرَمٍ مِنْ أَمْرِهِ أَوْ سَحِيلٍ[5].

فَسِرْنَا والفَلَاةُ تَذُوبُ مِنْ كَدِّنَا خَجَلًا، والنَّجْمُ يَرْعُدُ مِنْ سُرَانَا وَجَلا، وَوَصَلْنَا الجَاشِرِيَّةِ[6] بالصَّبُوحِ، ولم نُصِخْ مِنْ نِدَاءِ الأَيْنِ والنَّجْدِ إِلَى تَغَمْغُمٍ[7] ولَانُبُوحٍ؛ إِلَى أُنْتُنْيَان وَصَلْنَاهَا وَوَقْتُ العَصْرِ قَدْ أَلْقَى عَصَاهُ، وبَلَغَ أَمَدُهُ المُسْتَحَبُّ أَقْصَاه، والأَمْنُ قَدْ أَلْقَى عَلَيْنَا بحَمْدِ اللهِ رِدَاءَه، وأَبْرَأَ سَقَامَ ذَلِكَ الرَّوْعِ وَدَاءَهُ، فَحَلَلْنَا مِنْهَا بِمَسْرَحٍ

---

(1) الوجيب: الخفقان والاضطراب، جاء في الحديث الذي دار بين أبي عبيدة ومعاذ بن جبل: «إنا نحذرك من يوم تجب فيه القلوب». اللسان: «وجب».

(2) دموع طلل: أي منهمرة بتواصل دون انقطاع.

(3) في المثل العربي: «سبق السف العذل»، وهو يضرب لما قد فات وقد نسب هذا المثل: لضبة بن ضامئ البرجمي. وفي الشعر تضمين للمثل؛ كما أن غير صفوان ضمنه فقال:

إِنَّمَــا احْــذَرْ أَنْ تُبْلَــى بِمَــنْ عُــذْرُهُ: سَــبَقَ الــسَّيْفُ العَــذَلَ

مجمع الأمثال 1/ 328، العسكري 1/ 329، الفاخر لابن سلمة، ص: 48، اللسان: عذل.

(4) تقول العرب: فلان لا يدري قبيلا من دبير ومعناه لا يدري شيئا. والقبيل ما وليك، والدبير ما خالفك.

(5) السحيل: الغَزْلُ الذي لم يبرم ومنه قول زهير:

عَلَــى كُــلِّ حَــالٍ سَــحِيلٌ وَمُبْــرَمُ

(6) الجاشرية: الشرب مع الصبح ويوصف به فيقال: «شربة جاشرية»، قال الفرزدق:

إِذَا مَــا شَــرِبْنَا الجَاشِــرِيَّةَ لَــمْ نُبَــلْ أَمِيــراً وَإِنْ كَــانَ الأَمِيــرُ مِــنَ الأَزْدِ

(7) التغمغم: الكلام الذي لا يبين.



بِمَسْرَحِ آمَالٍ، وَمُقْتَرَحِ أُمَالٍ، ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[1] رَوْضَاتٌ قَدْ أَيْنَعَتْ فِيهَا الأَزْهَارُ وانْبَعَثَتِ الأَعْيُنُ، وفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[2] فَبِتْنَا فِيهَا بِلَيْلَةٍ عَاطِرَةَ النَّفْحِ، تُزْرِي بِلَيْلَةِ السَّفْحِ:

يَا طِيبَهَا لَيْلَةً لَولَا تَذَكُّرُهُمُ ... مَا كُنْتُ فِيهَا أَشُقُّ الجَيْبَ مِنْ أَلَمِ
أَقُولُ إذَا أَنِسُوا فِيمَا هُنَاكَ وَبِي ... عَنْ قَوْلِهِمْ صَمَمٌ، نَاهِيكَ مِنْ صَمَمِ
رُدُّوا عَلَيَّ لَيَالِيَّ التي سَلَفَتْ ... لَمْ أَنْسَهُنَّ ولَا بالعَهْدِ مِنْ قِدَمِ[3]

فَرُبَّمَا تَحَيَّرَتْ ظُنون، وقالُوا: شَاعِرٌ مَجنُونٌ، ومَا عَلمُوا أن الحُبَّ جُنُون، كذلك حتى تَضَوَّعَ لهم عَرْفُ الخَبِّ والإِرْقَال، وحَلُّوا أَيْديهم وما كادُوا من عُرى ذَلِكَ القِيلِ والقَالِ، وسَرَتْ بنا المَهْرِيَّةُ[4] القُود، وقد انتَظَمَتْ بأَجيادِ الفَلَاةِ منَّا عُقُود؛ فَسِرْنا بِنَجدٍ فِي وَهْمِ الحَزْمِ مُتَصَوِّر، وللظَّلماءِ فوقنا عرشُ ياسمينٍ مُنوِّر، إلى شَاطِبَةَ[5] وصَلْنَاهَا واللَّيْلُ قَدْ تَضَعْضَعَ بِنَاؤُه، فَرَشَحَ عَنْ مَاءِ الصُّبْحِ إِنَاؤُهُ، وزَالَ عَنْ مَوْضِعِ النُّقَبِ هِنَاؤُهُ، والنَّجْمُ قَدْ طَفِيَ فِي نَهْرِ الفَجْرِ حَبَابُهُ، وأَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ نَصِيفُ ابنِ ذُكَاءَ[6] وَنِقَابُهُ. فَخَلَعْنَا بِهَا عَنِ العِيسِ مَقَالِيدَ الأَكْوَارِ، والوَجْدُ هُنَا وهُنَاكَ يَلطِمُ بيدِ ذَاتِ سِوَارٍ[7] واستَوْطَنَّاهَا قِرَارًا وَلَم

---

(1) سورة سبأ، الآية: 15.

(2) سورة الزخرف، الآية: 71.

(3) الأبيات من البسيط، ليلة السفح هي التي يقول فيها الرضي:

يَا لَيْلَةَ السَّفْحِ هَلَّا عُدْتِ ثَانِيَةً

(4) المهرية من الإبل: المنسوبة إلى مهرة بن حيدان، وهو أبو قبيلة وصاحب حي من أحياء العرب.

(5) شاطبة: مدينة أندلسية مشهورة ينتسب إليها كثير من العلماء من أشهرهم: أبو إسحاق الشاطبي صاحب الموافقات، الروض المعطار، ص:337، الإدريسي، ص: 192، الرازي، ص: 71، ترصيع الأخبار، ص: 145.

(6) ذكاء: بالضم إسم الشمس وابنها هو الصبح لأنه من ضوئها قال الشاعر:

فَوَرَدَتْ قَبْلَ انْبِلَاجِ الفَجْرِ ... وَابْنَ ذُكَاءٍ كَامِنٌ فِي سَفَرِ

(7) يشير إلى المثل المعروف:«لو غير ذات سوار لطمتني».مجمع الأمثال 2/ 103،الفاضل، ص: 42.



نَشُمَّ بعدَ العَشِيَّةِ مِنْ نَجْدٍ عَراراً[1] فرُبَّمَا تَسَمَّى لِي قَوْمٌ بأَخْدَانٍ، فأَقُولُ مَرْحَبًا بالأَهْلِ وأَهْلًا بالخِلَّانِ، بَلْ رُبَّمَا نَعب غُراب، وراجَعَتْ لَهُ أتراب. فَنَفَثْتُ أَوْ نَفثَ الجوَى المُبَرِّح.

وَقَالَ أَحْمَد بْن محمّد البَلَوِي- عَفَا اللهُ عَنْهُ - وَمِنْ إنْشَائِي فِي هَذَا البَابِ مَا يَأْتِي فِيهِ بَعْدَ هَذَا- بِحَوْلِ اللهِ-وَهُوَ خَاتِمَةُ الكِتَابِ:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ الوَلِيُّ الأَثِيرُ الأَوَدُّ الأَخْلَصُ الأَزْكَى الأَفْضَلُ أَبُو سَعِيدِ بْنُ الشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المَرْحُومِ أَبِي إِسْحَاقَ أَدَامَ اللهُ عِزَّتَهُ وَوَصَلَ كَرَامَتَهُ وَرِفْعَتَهُ؛ وَلِيُّهُ فِي اللهِ تَعَالَى وَمُحِبُّهُ فِي البِرِّ بِجَانِبِهِ المُؤْثِرُ لَهُ الحَفِيُّ بِهِ. إِبْرَاهِيمُ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. سَلَامٌ كَرِيمٌ يَخُصُّكُمْ كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ حَقَّ حَمْدِهِ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ:

فَالكِتَابُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ دَوَامَ السَّعَادَة، وَبُلُوغَ الأَمَلِ كُلِّهِ وَالإِرَادَةِ مِنْ إِشْبِيلِيَةَ حَرَسَهَا اللهُ، وَبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ أَيَّدَهَا اللهُ وَاضِحَةَ الأُسْلُوب، كَفِيلَةً بِالفَرَجِ العَاجِلِ لِكُلِّ مَكْرُوب، وَبِنَيْلِ كُلِّ مَرْغُوب، وَدَرَكِ كُلِّ مَطْلُوب. وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ كَثِيرا. وَالوُدُّ لَكُم -أَدَامَ اللهُ عِزَّكُمْ- مَوْصُول، وَالاعْتِقَادُ فِيكُمْ جَمِيل، وَالإِيثَارُ لَكُمْ حَسَنَ المَذْهَب، وَالشُّكْرُ لِمَقَاصِدِكُمْ الحَمِيدَةِ مُتَّصِلُ السَّبَب. واللهُ يَجْعَلُ ذَلِكَ فِي ذَاتِهِ بَاقِيا، وَفِي درجِ مَرْضَاتِهِ رَاقِيا.

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ عِزَّتكم، فَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا يُنْهِيهِ مُجِلُّكُمْ إِلَيْكُم، وَأَكَّدَ مَا تَقْتَفِي النَّصِيحَةُ [تَقْرِيرَهُ] وَتَكْرِيرَهُ لَدَيْكُم، حَالَ مِنْ هُنَا مِنْ فُلَانَة -أَصْلَحَهُمُ الله- فَإِنَّهُمْ قَدْ

---

(1) مقتبس من قول الشاعر الصمة بن عبد الله القشيري:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَالعِيسُ تَخْدِي ... بِنَا بَيْنَ المُنِيفَةِ فَالضِّمَارِ

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ ... فَمَا بَعْدَ العَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ



عَاشُوا فِي هَذِهِ الجِهَاتِ وَبَالَغُوا فِي نِكَايَةِ أَهْلِهَا وَاشْتَدَّتْ وَطْأَتُهُمْ عَلَيْهِمْ بِالقَهْرِ وَالاضْطِهَاد، وَالبَسْطِ فِي العُدْوَانِ وَالاشْتِدَادِ وَقَدْ تَوَالَى اعْتِدَاؤُهُمْ وَصَارَ مُقْلِقاً مُوحِشاً مُمِلًّا مُجْحِفاً مُكَدِّراً لِلرَّعِيَّةِ مَا تَعَوَّدَهُ الأَرِقَّاءُ مِنْ نِعْمَةِ الأَمْرِ العَزِيزِ - أَدَامَهُ اللهُ عَلَيْهَا -.

وَقَدْ كَانَ مُجِلُّكُمْ خَاطَبَ مَجْدَكُمْ قَبْلَ هَذَا بِأَفْعَالِهِم، وَمَا لَحِقَ الرَّعِيَّةَ مِنَ الخَوْفِ الشَّدِيدِ عَلَى زَرْعِهَا، الذِي هُوَ قَوَامُ حَيَاتِهَا، وَمُمْسِكُ رَمَقِهَا، وَمَلَاذُ أَقْوَاتِهَا وَأَطَلَّتِ الصَّائِفَةُ التِي صَافَتْ فَأَدْرَكَ الرَّعِيَّةَ مَا خَشِيَتْ مِنَ الضَّرَرِ فِيهَا؛ وَلَمَّا نَهَيْنَاهُم، فَإِنَّهُمْ شَحَذُوا لِلاسْتِظْلَامِ مَدَاهُم، وَمَدُّوا فِي الأَذِيَّةِ خُطَاهُم، وَتَلَمَّظُوا لِلزَّرْعِ تَلَمُّظَ المُسْتَعِدِّينَ لِانْتِهَابِه، المُتَأَهِّبِينَ لِأَنْ يَحُولُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَرْبَابِه، وَهَاهُوَ - لَعَمْرُ اللهِ - بِهِمْ إِلَّا كَالفَرِيسَةِ بَيْنَ ظُفْرِ اللَّيْثِ مِنْ نَابِه، وَقَدْ تَسَبَّبُوا إِلَى الرَّعِيَّةِ بِأَسْبَاب، وَفَتَحُوا عَلَيْهَا مِنَ المُطَالَبَةِ جُمْلَةَ أَبْوَاب، تَارَةً بِقَتِيلٍ يَدْعُونَ عَلَى مَنْ شَاءُوا بِقَتْلِه، وَتَارَةً بِتَكَالِيفَ يُلْزِمُونَهُمْ مِنْهَا مَا يَضْعُفُونَ عَنْ حَمْلِه، وَيُجَاذِبُونَهُمْ أَنْوَاعَ الغَلَّات، وَفَوَائِدَ الثَّمَرَات، فَيَكْتَسِحُونَ أَكْثَرَهَا وَلَا يَتْرُكُونَ لَهُمْ إِلَّا الجُزْءَ الأَقَلَّ مِنْهَا.

وَقَدْ كَانُوا فَعَلُوا -فِي فلَانَةٍ- مَا قَدْ بَلَغَهُمْ خَبَرَه، وَأَهْلُهَا مُزْمِعُونَ الجَلَاءَ عَنْهَا، وَالفِرَارَ أَمَامَهُمْ مِنْهَا، وَإِسْلَامَ مَا لَهُمْ بِهَا مِنَ الأَمْوَال، فِرَاراً مِنْ مُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ عَلَيْهَا وَالأَهْوَال. وَكُلُّ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ العصير فِي العَامِ الفَارِط، لَمْ يَتَحَصَّلْ لِأَرْبَابِهِ مَعَهُمْ مِنْهُ إِلَّا مَا فَضَلَ عَنْهُمْ، وَسَلَّمَ مِنْهُم، وَأَمَّا العصير المُسْتَقْبِل، فَمَا يَتَعَلَّقُ لِأَرْبَابِه - عَلَى مَا ذَكَرُوا - بِهِ أَمَل.

وَفِي هَذِهِ الأَيَّام رَمَتْ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ لَيْلاً عَلَى جِهَةٍ مِنْ جِهَاتِ فُلَانَةٍ فاسْتَغَاثَ أَهْلَهَا وَدَافَعُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِم، ثُمَّ ادَّعَى الفُلَانِيُّونَ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْهُمْ قَتِيلٌ بَيْنَ أَهْلِ الجِهَةِ المَذْكُورَة، وَوُجِدَ عِنْدَ سَانِيَةٍ[1] لِرَجُلٍ هِرغِيٍّ[2] مِنَ القُدَمَاءِ هُنَالِك، فَعَلَّقُوا دَعْوَاهُمْ فِي

(1) السانية: هي الساقية التي يستخدمها الفلاحون لري أرضهم ولعلها لفظة أندلسية وما زالت تستعمل بالمغرب بهذا المعنى.

(2) الهرغي: نسبة إلى قبيلة هرغة وهي من القبائل التي ناصرت الدعوة الموحدية. العبر لابن خلدون.



قَتْلِهِ بِالهرغِيِّ الذِي وَجَدَ القَتِيلَ بزَعْمِهِ عِنْدَ سَانِيَتِه، فَسَجَنَهُ لَهُمْ حَافِظُ المَوْضِعِ اجْتِهَاداً وَتَسْكِيناً لِلثَّائِرَة، فَبَلَغَ الاعْتِدَاءُ بِفُلَانَه، إِلَى أَن اقْتَحَمُوا سِجْنَ فُلَانَةٍ فِي وَسَطِ النَّهَارِ وَذَبَحُوا الِهرغِيَّ المَذْكُورَ بِأَيْدِيهِم، ثُمَّ أَحَالُوا عَلَى الرَّعِيَّةِ أَيْدِيهِم، وبَسَطُوا فِيهِمْ تَعَدِّيهِم، وَطَلَبُوهُمْ بِمَغَارِمَ مُثْقَلَة، وَتَوَعَّدُوهُمْ عَلَيْهَا بِإِحْرَاقِ الزَّرْعِ وَإِفْشَاءِ القَتْل، وَإِهْلَاكِ الحَرْثِ وَالنَّسْل. وَعَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ هِيَ أَفْعَالُهُمْ فِي سَائِرِ المَوَاضِعِ التِي يَنْتَابُونَهَا مِنْ هَذِهِ الجِهَات، سَوَاءٌ هِيَ فُلَانَةٌ وَفُلَانَةٌ وَفُلَانَةٌ وفُلَانَه.

وَلَمْ يَنْفَكُّوا فِي كُلِّهَا عَنِ العُدْوَانِ المُتَمَادِي وَمِزْوَارِهِمْ[1] خِلَالَ ذَلِكَ يَشْكُو النَّاسَ إِلَيْهِ فَلَا يُشْكِيهِم، وَلَا يَتَحَرَّكُ مِنْ مَكَانِهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّظَرِ فِي كَفِّ أَيْدِيهِم، وَلَا يَظْهَرُ مِنْهُ أَثَر، وَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ فِي قِطَعِ العَادِيَةِ نَظَر. وَيَظْهَرُ مِنَ القَوْمِ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مَا قَدْ أَعْلَنُوا بِهِ وَصَرَّحُوا، مِنْ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ المُبَالَغَةَ فِي الضَّرَرِ لِيُسْمَعَ خَبَرُهُمْ فَيُجَازُوا البَحْرَ وَيَسْرَحُوا، فَهُمْ يَتَبَحَّرُونَ فِي عُدْوَانِهِمْ بِغَايَةِ وُسْعِهِمْ وَجَهْدِ إِمْكَانِهِمْ.

وَقَدْ ضَجَّتِ الرَّعِيَّةُ ضَجِيجاً وَعَجَّتْ بِالشَّكْوَى عَجِيجا، وَرَجَّتْ لِلْغَمَاءِ مِنَ الالْتِفَاتِ الأَمَامِيِّ تَفْرِيجا، وَرَفَعَتْ أَصْوَاتَهَا لِلاسْتِعَانَةِ وَالاسْتِرْحَام، وَنَادَتْ حَضْرَةَ العَدْلِ التِي هِيَ نُصْرَةَ المَظْلُومِينَ وَمَلْجَأَ المَقْهُورِينَ المَلْهُوفِينَ مِنَ الأَنَام، وَانْزَعَجَتْ لِمَا نَالَهَا مِنَ الضَّرَرِ الشَّدِيدِ البَرْح، الخَارِجِ عَنِ الحَدِّ المُرْبِي عَلَى الشَّرْح، وَالفَتْكِ الذِي اقْتَضَى لَهَا ضِيقُ الذَّرْعِ، وَالقَهْرِ الَّذِي تَخَافُ أَنْ يَحُولَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ ضَمِّ الزَّرْعِ.

وَقَدْ أَقْسَمَ أَهْلُ فُلَانَةٍ أَنَّهُ لَوْلَا تَقَيُّدِهِمْ بِالحُبُوبِ التِي لَهُمْ فِيهَا وَتَعَلُّقِ نُفُوسِهِمْ بِمَا يَرْجُونَهُ مِنْ تَحْصِيلِهَا، لِمَا لَحِقَهُمْ مِنَ الضَّرَرِ الذِي لَا صَبْرَ لَهُمْ عَلَيْهِ وَلَا بَقَاءَ لَهُمْ مَعَه، حَيْثُ تَقْتَحِمُ عَلَيْهِمُ الدِّيَار، وَتَسْتَغْلِبُ بَنَاتَهُمُ الأَبْكَار، وَتَسْلُبُ أَمْوَالَهُمْ بِالقَهْرِ وَالاقْتِسَار، وَيُقْتَلُونَ عَلَيْهَا سِرّاً وَعَلَانِيَةً بِاللَّيْلِ وَالنَّهَار، وَتُخَوَّفُ قُرَاهُمْ تَخْوِيفاً يَضْطَرُّهُمْ إِلَى الجَلَاءِ عَنْهَا وَالفِرَار، وَمَا لِأَحَدٍ هُنَا طَاقَةٌ بِكَفِّ فُلَانَةٍ عَنْهُمْ وَلَا اقْتِدَار.

---

(1) سبق التعريف به.





فَإِنَّ فُلَانَةٍ قَدِ اشْتَغَلُوا بِحَصَادِ الزَّرْعِ قَهْرًا فِي جَمِيعِ الجِهَاتِ الَّتِي حَلُّوا بِهَا وَقَدْ فَشَا عَيْثُهُمْ فِي كُلِّ مَكَان، وَصَارَ حَدِيثاً لِلرُّكْبان، وَأَمْراً مُفْسِداً لِلرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَان. فَالنَّاسُ بِسَبَبِهِمْ فِي هَذِهِ الجِهَاتِ مَشْغُوفُون، وَعَلَى جَمِيلِ النَّظَرِ الأَمَامِيِّ مَوْقُوفُونَ، وَإِلَى حَنَانِ المَقَامِ القُدْسِيِّ مُتَشَوِّفُون، وَلاسْتِئْصَالِ أَمْوَالِهِمْ وَانْقِطَاعِ آمَالِهِمْ إِنْ أَبْطَأَ النَّظَرَ الكَرِيمَ عَنْهُمْ مُتَخَوِّفُونَ وَرَحْمَةَ المَقَامِ الإِمَامِيِّ - أَيَّدَهُ اللهُ - تَتَدَارَكُهُمْ - إِنْ شَاءَ اللهُ -بِتَعْجِيلِ الأَمَان، وَتَتَكَفَّلُ لَهُمْ بِصَلَاحِ الزَّمَان، وَتَرْفَعُ عَنْهُمْ مَا قَدْ اشْتَدَّ بِهِمْ مِنَ العُدْوَان، عَمَلاً عَلَى مَا عَوَّدْتَهُ مِنْ تَأْمِينِ المُرْتَاعِ وَإِغَاثَةِ اللَّهْفَان. وَقَدْ أَفْهَمَكُمْ مُجِلُّكُمُ الحَالَ بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ مِنَ الأَفْهَام، وَلَمْ يُفَرِّطْ بِالتَّعْرِيفِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَالإِعْلَام وَأَنْتُمْ - إِنْ شَاءَ اللهُ - تَغْتَنِمُونَ الأَجْرَ الجَزِيل، وَالذِّكْرَ الجَمِيلَ بِحُسْنِ الوَسَاطَةِ الَّتِي يَحْسُنُ أَثَرُهَا، وَيَسُرُّ خَبَرُهَا، بِفَضْلِ الله. وَالحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ أَيَّدَهَا اللهُ أَنْظَرَ لِعِبَادِهَا، وَأَحْوَطَ عَلَى بِلَادِهَا. واللهُ يُعِينُ الجَمِيعَ عَلَى مَا يَحْظَى بِرِضَاهَا، وَيُزْلِفُ مِنْ رُحْمَاهَا.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً فِي ذَلِكَ إِلَى القَائِدِ الأَجَلِّ أَبِي القَاسِمِ ابْنِ مُثَنَّى رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ فَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ مَا يَجِبُ تَبْلِيغَهُ وَإِنْهَاؤَهُ، وَأَوْكَدَ مَا يَتَعَيَّنُ بِحُكْمِ النَّصِيحَةِ تَقْرِيرُهُ وَتَكْرِيرَ رَفْعِهِ وَإِعَادَةَ ذِكْرِه، وَإِبْدَاؤُهُ، مَا اشْتَدَّ بِالرَّعِيَّةِ فِي هَذِهِ الجِهَاتِ مِنْ نَاسِ فُلَانَةٍ أَصْلَحَهُمُ الله، وَحَلَّ بِهَا مِنْ اسْتِطَالَتِهِمُ الشَّنِيعَةُ وَتَعَدِّيهِمْ الفَاحِش.

فَإِنَّهُمْ -أَدَامَ اللهُ حُظْوَتَكُمْ- قَدْ عَاثُوا فِي هَذِهِ الجِهَاتِ بِوُجُوهٍ مِنَ العَيْثِ كَثِير، وَبَالَغُوا فِي نِكَايَةِ أَهْلِهَا مُبَالَغَةً مُبِيدَةً مُبِيرَة، وَإِنَّ النَّاسَ مَعَهُمْ مِنَ الاضْطِهَاد، وَظُهُورِ الاخْتِلَالِ فِي أَحْوَالِهِمْ وَالفَسَاد، لَفِي مَشَقَّةٍ مُفْرِطَةٍ وَفِي شِدَّةٍ كَبِيرَة، قَدْ تَجَاوَزُوا حَدَّ النِّهَايَةِ مِنَ الظُّلْمِ وَالحَيْف، وَعَظُمَ فَسَادُهُمْ أَنْ يُحِيطَ بِهِ التَّفْسِيرُ فِي جَوَابِ كَيْفَ. وَغَادَرُوا الرَّعِيَّةَ بَيْنَ مَرْعُوبٍ مَسْلُوبٍ يَرْهَبُ الخَيَالَ مِنْهُ طَيْف، وَيَنْتَظِرُ الفَقْرَ بِانْتِهَابِ زَرْعِهِ فِي هَذَا الصَّيْف، وَبَيْنَ مُحَرَّقٍ بِالنَّارِ وَمُقَتَّلٍ بِالرُّمْحِ وَالسَّيْف. قَدْ تَفَاقَمَ أَمْرُهُمْ كُلَّ التَّفَاقُم، وَتَعَاظَمَ ضَرُّهُمْ كُلَّ التَّعَاظُم، وَتَلَاطَمَ بَحْرُهُمْ فِي العُدْوَانِ أَعْظَمَ التَّلَاطُم. فَمَا يُبْقُونَ وَلَا يَذَرُون، يَعِيثُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا يَفْتَرُون.



وَقَدْ ضَجَّتِ الرَّعِيَّةُ ضَجِيجَ السَّقِيمِ النَّاحِل، وَأَجْهَشَتْ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَادِلَةِ إِجْهَاشَ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَبْرِ رَاحِل، وَأَشَارَتْ إِلَيْهَا -أَيَّدَهَا اللهُ- بِأَيْدِي الاسْتِغَاثَةِ إِشَارَةَ الغَرْقَى بَيْنَ مَوْجِ البَحْرِ إِلَى أَهْلِ السَّاحِل، مُنَادُونَ غَوْثًا غَوْثًا، وَعَطْفًا عَطْفًا، وَيَسْتَرْحِمُونَ إِمَامَهُمْ وَمَوْلَاهُمْ -بَسَطَ اللهُ أَنْوَارَهُ- حَنَانًا وَلُطْفًا لُطْفًا.

وَقَدْ كَانَ مُجِلُّكُمْ طَالِعٌ قَبْلَ هَذَا بِأَفْعَالِ القَوْمِ ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ عَلَى نَصِّ الَّتِي قَبْلَهَا[1].

وَكَتَبْتُ فِي ذَلِكَ مِنْ أُخْرَى:

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ فَإِنَّ مُجِلَّكُمْ يُنْهِي إِلَيْكُمْ مِنْ شَرْحِ الحَالِ مَا هُوَ أَهَمُّ مَا يُنْهَى وَيُرْفَعُ مِنْ كَبِيرِ الخَطْبِ وَجَلَلِه، وَأَوْجَبَ مَا يُنْظَرُ فِي حَسْمِ عِلَلِهِ وَرَمِّ خَلَلِه.

وَذَلِكُمْ أَنَّ فلَانَة الذِينَ بِهذِهِ الجِهَاتِ قَدْ عَاشُوا فِيهَا وَتَبَسَّطُوا بِأَشْنَعِ اسْتِطَالَةٍ وَأَفْدَحِ تَعَدٍّ فِي نَوَاحِيهَا. امْتَدَّتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى سَفْكِ الدِّمَاء، وَانْتِهَابِ الأَمْوَالِ وَاسْتِغْلَابِ لِلنِّسَاءِ، وَاقْتِحَامِ الدِّيَار، وَالانْتِقَامِ مِنَ الرَّعِيَّةِ بِأَنْوَاعِ الأَضْرَار، وَالتَّقْتِيلِ بِالسِّلَاحِ وَالتَّحْرِيقِ بِالنَّارِ وَأَحَالُوا أَيْدِيهِمْ عَلَى الرَّعِيَّةِ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ العَذَابِ[2] وَيَتَسَبَّبُونَ إِلَيْهِمْ بِشَتَّى أَسْبَاب، وَيَطْلُبُونَهُمْ بِمَغَارِمَ مُجْحِفَةٍ مُقْلِقَة، وَيَتَوَعَّدُونَهُمْ بِإِحْرَاقِ الزَّرْعِ وَإِفْشَاءِ القَتْلِ أَنْ يَتَوَقَّفُوا عَنْ أَدَائِهَا، وَمِزْوَارُهُمْ خِلَالَ ذَلِكَ يُشْكَى إِلَيْهِ فَلَا يَتَحَرَّكُ بِنَظَر، وَلَا يَظْهَرُ مِنْهُ حَمِيدَ أَثَر.

وَقَدْ أَقْسَمَ أَهْلُ فُلَانَة بِأَوْكَدِ القَسَم: أَنَّهُ لَوْلَا مَا لَهُمْ مِنَ الحُبُوبِ التِي تَعَلَّقَتْ خَوَاطِرُهُمْ بِضَمِّهَا، وَكَادَتْ نُفُوسُهُمْ تَمُوتُ مِنَ الخَوْفِ عَلَى عَدَمِ لَمِّهَا لَفَرُّوا أَجْمَعِينَ مِنَ البَلَد، بِالأَهْلِ وَالوَلَدِ.

وَأَمَّا أَهْلُ فلَانَةٍ فَقَدْ لَاذُوا بِالفِرَار، وَلَمْ يَجِدُوا سَبِيلاً إِلَى القَرَار وَجَلَّ عصيرها الفَارِط؛ فُلَانَةٌ اسْتَأْصَلُوهُ. دُونَ أَرْبَابِه، أَمَّا العَصِير المُسْتَقْبِلُ فَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ - عَلَى مَا ذَكَرَ - أَمَلٌ لِأَصْحَابِه.

---

(1) يقصد أنه استمر على نص الرسالة السابقة التي بعثها إلى الحضرة.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾. سورة البقرة: 48.



وَقَدْ كَانَتِ الرَّعِيَّة شَدِيدَة الخَوْف، عَلَى زَرْعِهَا فِي هَذَا الصَّيْف، وَالآنَ قَدْ أَدْرَكَهُمْ فِيهِ مَا خَافُوهُ مِنَ الحَيْف. فَإِنَّ فُلَانَة قَدْ أَشْعَلُوا فِي جَمِيعِ الجِهَاتِ الَّتِي حَلُّوا بِهَا بِالتَّعَدِّي قَهْرًا فِي الحَصَاد، وَكَيْفَ يُخْلِصُ أَرْبَاب الزَّرْعِ إِلَيْهِ وَهُوَ فَرِيسَة فِي سَوَاعِدِ آسَاد.

وَأَمَّا الغَلَّات، وَفَوَائِدِ الثَّمَرَات، فَقَدْ وَزَّعُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَسْماً، وَلَمْ يُبْقُوا لِأَرْبَابِهَا فِيهَا حَظّاً وَلَا قِسْماً، إِلَّا مَا تَخْتَطُّهُ اليَدُ العَادِيَة، وَشَذَّ عَنْ تَلَقِّي الرَّائِحَةِ مِنْهَا وَالعَادِيَة. وَقَدْ ضَجَّتِ الرَّعِيَّةُ ضَجِيجَ الهَلْكَى، وَاسْتَغَاثَتْ اسْتِغَاثَةَ الغَرْقَى، وَاشْتَدَّ بِهَا اليَأْسُ اشْتِدَاداً كُلِّيا، وَلَحِقَهَا الحَيْفُ وَمَسَّهَا الضُّرُّ[1] مَسّاً وَاضِحاً جَلِيّا، وَأَلظَتْ بِالغَوْثِ دُعَاءً وَنِدَاء؛ وَرَفَعَتْ شَكْوَاهَا إِلَى المَقَامِ الإِمَامِيِّ مَقَامَ العَدْلِ وَالإِحْسَانِ - أَيَّدَهُ اللهُ - إِعَادَةً وَإِبْدَاء، مَلْهُوفَةً مُضْطَهَدَةً، مُؤْرِقَةً فِي دَيَاجِيِّ التَّظَلُّمِ مُسهدَة، مَقْهُورَةً مَرْعُوبَةً مُنَكَّدَة.

وَالمَقَامُ الإِمَامِيُّ -أَيَّدَهُ اللهُ - أَرْحَم بِهَا وَأَرْأَف، وَأَحْنَى عَلَيْهَا وَأَعْطَف، وَنَظَره الجَمِيلَ لِعِبَادِهِ وَبِلَادِهِ أَعْلَى وَأَشْرَف. وَأَنْتُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَسْعَوْنَ فِي حَسْمِ هَذِهِ العِلَّةِ سَعْياً جَمِيلا، مُبْتَغِينَ مِنَ اللهِ أَجْراً جَزِيلا. واللهُ يُعِينُ الجَمِيعَ عَلَى مَا يَرْضَاهُ وَيَقَع بِوُفْقِ المَقَامِ الإِمَامِيِّ -أَيَّدَهُ اللهُ- وَهُوَ تَعَالَى يُدِيمُ عِزَّتَكُم، وَيَصِلُ رِفْعَتَكُمْ. وَالسَّلَامُ.

وَكَتَبَ فِي المُوَفِّي عِشْرِينَ مِنْ مُحَرَّمٍ سَنَةَ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَة.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً فِي ذَلِكَ:

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ، فَإِنَّ مُجِلَّكُمْ يُنْهِي إِلَيْكُمْ مِنْ أَحْوَالِ الرَّعِيَّةِ مَعَ فُلَانَةٍ فِي هَذَا الوَقْت مَالَا يَسَعُهُ الكَتْمُ بَلْ يَجِبُ البَدْءُ بِهِ بِالتَّعْرِيفِ بِهِ وَالخَتْم، لَمَا يَخْشَى أَنْ يَؤُولَ إِلَيْهِ أَمْرُهُم، إِنْ لَمْ يُطْفَأْ بِالنَّظَرِ الإِمَامِيِّ الكَرِيمِ جَمْرُهُم، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ شَحَذُوا لِإِذَايَةِ الرَّعِيَّةِ مَدَّ التَّعَدِّي، وَتَوَافَقُوا عَلَى اسْتِبَاحَةِ المَحْظُورِ وَإِحَالَةِ الأَيْدِي، وَصَمُّوا

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾. سورة يوسف، الآية: 88.



عَنِ النَّاهِي وَالزَّاجِرِ، وَأَضَرُّوا بِالبِرِّ مِنْ جِيرَانِهِمْ وَالفَاجِرِ، وَتَهَاوَنُوا بِسَفْكِ الدِّمَاءِ وَاسْتِغْلَابِ النِّسَاءِ وَانْتِهَابِ الأَمْوَال، وَإِفْسَادِ الأَحْوَال، جَامِحِينَ فِي ذَلِكَ مِلْءَ العَنَان، مُنْتَهِينَ فِيهِ إِلَى أَقْصَى وُجُوهِ العُدْوَان، وَقَدْ أَخَافُوا القُرَى إِخَافَةً اضْطَرَّتْ أَهْلَهَا إِلَى الجَلَاءِ، وَالفِرَارَ مِنَ البَلَاءِ، وَبِخَاصَّةٍ قَرْيَةَ فُلانة الَّتِي عَلَى الوَادِي فَإِنَّ أَهْلَهَا قَدْ فَرُّوا عَنْهَا، وَهَرَبُوا مِنْهَا وَتَرَكُوهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا[1] لَا يَجْرُؤُ أَحَدٌ عَلَى دُخُولِهَا، خَوْفاً مِنْ فلانة وَعَلَى هَذِهِ القَرْيَةِ لَمْ يَقْرَأْ أَهْلُهَا فِي القَدِيم، إِذَا كَانَ ابْنَ الرَّنْق. يُقَاتِلُ المُسْلِمِينَ بِطَرْيَانَة[2] وَيَجُوسُ خِلَالَهَا، بَلْ كَانَتْ قَرْيَةَ «سَنْتْ بسْ» حِينَئِذٍ عَامِرَةً لَمْ يَبْلُغِ الرُّعْبُ بِأَهْلِهَا مَبْلَغَهُ الآنَ مِنْ فلانة، لَمَّا سَامُوهُمْ مِنْ سُوءِ العَذَاب، وَفَتَحُوا عَلَيْهِمْ لِلْمُطَالَبَةِ مِنَ الأَبْوَابِ وَلَقَدْ قَبَضَ أُنَاسٌ مِنْ فلانة فِي هَذِهِ الأَيَّام عَلَى رَجُلٍ فِي القَيْسَارِيَّةِ مُشْتَغِلٌ بِشُغْلِهِ، وَقَالُوا: جُرُّوا هَذَا لِنَقْتُلَه، فَإِنَّهُ مِنْ قَرْيَةِ فلانة فَأَنْقَذَتْهُ الرَّعِيَّةُ مِنْ أَيْدِيهِم، وَغَلَّقَتِ القَيْسَارِيَّة، وَخَافَ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَمَتَاعِهِم، وَامْتَنَعُوا مِنْ فَتْحِ حَوَانِيتِهِم، حَتَّى أَنِسُوا وَسَكَنُوا، وَوُعِدُوا بِقُرْبِ النَّظَرِ الإِمَامِيِّ لَهُم، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ فِي هَذِهِ الأَيَّام بِأَرْبَاضِ إِشْبِيلِيَّة، يَقْتَحِمُونَ دِيَارَهَا، وَيَقْتُلُونَ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ فِيهَا، وَيَسْلُبُونَ أَمْوَالَهُم. وَفِي الجُمُعَةِ الفَارِطَةِ قَتَلُوا شَيْخاً كَانَ خَطِيباً بِفلانة، وَسَلَبُوهُ ثِيَابَهُ عِنْدَ انْصِرَافِهِ مِنْ صَلَاةِ الجُمُعَةِ إِلَى المَدِينَة، وَقَدْ كَثُرَ مِثْل هَذِهِ الأَفْعَالِ مِنْهُمْ فِي هَذَا الوَقْتِ كَثْرَةً مَلَأَتْ قُلُوبَ الرَّعِيَّةِ خَوْفاً وَجَزَعاً، فَالنَّاسُ بِسَبَبِهِمْ مَلْهُوفُونَ [فَهُمْ] يَضُجُّونَ ضَجِيجَ الهَلْكَى، وَيَسْتَغِيثُونَ اسْتِغَاثَةَ الغَرْقَى، وَيَمُدُّونَ أَيْدِيهِمْ بِالشَّكْوَى، وَيَسْتَرْحِمُونَ المَقَامَ الإِمَامِيَّ الَّذِي عَوَّدَهُمْ الرِّفْقَ وَالرُّحْمَى، وَيَخْشَوْنَ أَنْ تَحْمِلَهُمْ الغِيرَةُ عَلَى حَرَمِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ، وَنُفُوسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، عَلَى أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ فَيَؤُولُ ذَلِكَ إِلَى مَا يَكْرَهُونَ وَالعِيَاذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِك.

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾. سورة البقرة، الآية: 258.

(2) من أمثال عامة الأندلس: «يفتك وطريانة تؤدي الجعل»، الروض المعطار: 392- 393.



وَعَلَى الجُمْلَةِ أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ، فَإِنَّ حَالَ فُلَانَة قَدْ تَفَاقَمَتْ تَفَاقُماً تَخْشَى مُعَاقَبَتَهُ وَتَقْتَضِي النَّصِيحَةَ إِنْهَاءَه، وَتُوجِبُ لِلْغِيرَةِ عَلَى حُقُوقِ الأَمْرِ العَالِي رَفْعَه. وَالمَقَامِ الإِمَامِيِّ أَيَّدَهُ الله أَرْحَمَ لِعِبَادِه، وَأَنْظَرَ لِبِلَادِه.

وَكَتَبْتُ أَيْضاً:

عَبْدُ البَابِ الكَرِيم، وَالمَقَامِ العَظِيم، فَسَحَ اللهُ زَمَانَه، وَحَاشَى مِنَ المَجَاشِمِ بِحُرْمَتِهِ أَرِقَّاءَهُ وَعُبْدَانَه، فُلَانُ بْنِ فُلَانٍ يَذْكُرُ أَمْرَهُ وَيَشْرَحُ شَأْنَه، وَيَرْجُو بِذَلِكَ عَدْلَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَفَضْلِهِ وَإِحْسَانه، وَشَأْنُهُ أَنَّهُ مُقْرِئٌ مِنَ المُقْرِئِينَ لِكِتَابِ اللهِ سُبْحَانَه، وَلِآبَائِهِ تَقَدُّمٌ فِي حُسْنِ الإِقْرَاءِ وَتَعْلِيمِ القُرَّاءِ مَلَكُوا عَنَانَهُ وَحَازُوا رِهَانَه، وَفَاتُوا بِهِ شَرِيحَ الإِقْرَاءِ وَطِحَانَه، وَالعَبْدُ قَدْ أَكْثَرَ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ إِمْعَاتَه، وحطَّ عِنْدَ لَحَاقِهِمْ شِرَاعَهُ وَأَلْقَى بِمَرْتَبَتِهِ مِنَ التَّجْوِيدِ جِرَانَه، وَجَعَلَ الإِقْرَاءَ لِكِتَابِ اللهِ العَزِيزِ حِرْفَتَهُ الَّتِي يَنْتَحِلُهَا بِكْرُ الزَّمَانِ وَأَصِيلَانِه، حَتَّى اكْتَسَبَ مِنْهُ يَسِيرَ مَالٍ بِخَارِجِ إِشْبِيلِيَّةَ يَعُولُ بِفَائِدِهِ بَنِيهِ وَوِلْدَانه. وَيَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى التَّفَرُّغِ لِلْإِقْرَاء، وَعَلَى ثِقْلِ الظَّهْرِ بِالأَبْنَاء، وَلَيْتَهُ عَلَى ذَيْنِكَ لَوْ أَعَانَهُ وَهُوَ قَدْ قَيَّضَ اللهُ إِسْكَانَه، فِي دَرْبٍ قَدْ أَضْعَفَ اللهُ سُكَّانَه، فَلَيْسَ فِيهِمْ لِضَعْفِهِمْ مَنْ يُقِيمُ قِسْطَاسَ الوَظِيفِ المَفْرُوضِ وَمِيزَانِه، فَيُمَالُ فِيهِ عَلَى العَبْدِ بَيْنَهُمْ مَيْلاً، أَضَاعَ حَقَّ الإِقْرَاءِ لِكِتَابِ اللهِ وَأَهَانَه، وَسَيِّدُنَا مَنَحَهُ اللهُ رِضْوَانَه، أَفْضَل مَنْ يَحْفَظُ لِهَذَا الصِّنْفِ مَكَانَه، وَيَعْطِفُ عَلَيْهِ حَنَانَه، وَيُنَوِّرَ جِنَانَه، واللهُ يُؤَيِّدُ سُلْطَانَه، وَيُعَمِّرُ بِهِ مَنَازِلَ السَّعْدِ وَسُلْطَانَه.

وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ الحَفِيُّ العَمِيمُ يَخُصُّ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ كَثِيراً أَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

قَالَ أَحْمَد بن مُحَمَّد البَلَوِيّ عَفَا اللهُ عَنْهُ:

ابْتَدَأْتُ جَمْعَ هَذَا الكِتَابِ فِي شَعْبَانَ سَنَةَ عَشر وَسِتِّمِائَة، وَخَتَمْتُهُ الآنَ هُنَا فِي شَعْبَانَ سَنَةَ ثَلَاث عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَة، وَلَمْ يَكُنْ اشْتِغَالِي بِهِ فِي خِلَالِ هَذِه الثَّلَاثَةِ الأَعْوَامِ



الّتِي بَيْنَ الوَقْتَيْنِ المَذْكُورَيْنِ مُتَّصِلا، بَلْ كَانَ مُنْقَطِعًا مُنْفَصِلًا، عَاقَ عَنْهَا فِي أَوْقَاتٍ مِنْهَا السَّفَرُ وَالاغْتِرَاب، وَفِي أَوْقَاتٍ أُخَرَ مَطُلَ مَنْ طُلِبَتْ مِنْهُ رِسَالَةٌ أَوْ أَسْتُعِيرَ مِنْهُ كِتَاب، وَفِي أَوْقَاتٍ أُخَرَ شِكَايَةٌ أَوْمَلَل، أَوْ هَمٌّ شَاغِلٌ أَوْ كَسَل. وَمُعْظَمُ المَجْمُوعِ فِيهِ إِنَّمَا جَمَعْتُهُ فِي الثَّمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْراً الّتِي اسْتَخْدَمَنِي فِيهَا بِرَسْمِ الكِتَابَةِ فِي إِشْبِيلِيَّةَ - حَرَسَهَا الله - مَوْلَايَ السَّيِّدِ الأَجَلِّ المُعَظَّمِ الفَاضِلِ الزَّاهِدِ المُحْسِنِ المُنْعِمِ، أَبُو إِسْحَاقَ ابْنُ سَيِّدنَا الخَلِيفَتَيْنِ الإِمَامَيْنِ أَمِيرَيْ المُؤْمِنِينَ نَضَّرَ اللهُ وَجْهَهُ وَقَدَّسَ تُرْبَه، وَأَوْجَبَ لَهُ رِضْوَانَهُ وَقُرْبَه.

وَكَانَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْه، وَرِضْوَانِهِ لَدَيْه، وَاحِد الإِرَادَةِ الّذِي إِلَيْهِ يُشَار، وَقُطْبُ السِّيَادَة الّذِي عَلَيْهِ المَدَار، وَإِنْسَانُ عَيْنِ المَجْدِ وَالدِّينِ وَوَاسِطَةَ عِقْدِ أَوْلَادِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، مِنْ رَجُلٍ بَهَرَ الوُجُودَ وُجُودَه، وطَالَ رُكُوعُهُ للهِ وَسُجُودُه، حَتَّى شَهُرَ فِي العَالَمِينَ فَضْلَهُ وَخَيْرُهُ وَكَرَمُهُ وَجُودَه، لَمْ يَخْلُ سَاعَةً فِي عُمُرِهِ مِنْ خُشُوعٍ وَاعْتِبَارٍ وَإِسْدَاءِ أَمَاد، مِنَ البِرِّ كِبَار، إِلَى أَنْ تُوُفِي علَى خَيْرِ عَمَل، مَقْضِيًّا لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ بِفَضْلِ اللهِ كُلَّ أَمَل، رَحْمَة اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانِه، وَعَفْوِهِ وَغُفْرَانِه. وَكَانَ -رَوَّضَ اللهُ قَبْرَهُ- قَدْ أَعْلَمَ بِشُرُوعِي فِي هَذَا المَجْمُوعِ، [فَحَسُنَ] لِي فِيهِ رَأْيِي، وَأَصَرَّ بِأَنْ يَقْوَى عَلَى إِنْهَائِهِ عَزْمِي وَيَتَأَكَّدُ سَعْيِي، وَأَخْرَجَ لِي مِنْ خِزَانَتِهِ، جُمْلَةً مِنَ الرَّسَائِلِ الكَبَائِرِ، المَذْكُورَةِ عِنْدَهُ فِي الأَعْلَاقِ وَالذَّخَائِرِ مَا أَمَرَنِي بِإِيرَادِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِهِ وَأَثْنَائِهِ، [وَحَتَّى تَحُلَّ لِفَرَائِد] مِنْهَا مَحَلَّ القُلُوبِ مِنْ ضُلُوعِهَا وَأَحْنَائِهَا، فَامْتَثَلْتُ أَمْرَهُ فِيمَا لَمْ يَرِدْ فِي الوَجِيزِ مِنْهَا، وَالرَّسَائِلِ التِي وَرَدَتْ مِنْهَا مِنَ الوَجِيزِ اسْتَغْنَيْتُ فِي هَذَا المَجْمُوعِ عَنْهَا وَفاءً بِالرَّبْطِ وَوُقُوفًا عِنْدَمَا ذُكِرَتْ فِي الصَّدْرِ مِنَ الشَّرْطِ.

وَانْحَفَزْتُ بَعْدُ فِي تَتْمِيمِ هَذَا الكِتَابِ انْحِفَازَ المَأْمُورِ المُطِيعِ، وَبَذَلْتُ فِي التَّعْجِيلِ بِهِ جُهْدَ المُسْتَطِيعِ، وَتَبَرَّكْتُ بِقَبُولِهِ عَلَيهِ وَاغْتَبَطْتُ بِحُسْنِ غَرَضِهِ فِيهِ وَإِشَارَتِهِ إِلَيْهِ [وَوَافَقَ أَنْ وَقَعَ هَذَا المَجْمُوعِ مِنْ خَاتِمَةِ المُسْتَخْلِصِ لَدَيْهِ وَالشَّيخِ وَالفَقِيهِ][الطَّبِيبِ] [اللَّبِيبِ] الأَدِيبِ العَالِمِ المَاهِرِ المُتَفَنِّنِ الحَسِيبِ، الفَاضِلِ الأَرِيبِ، أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ



أَبِي الحَجَّاجِ يُوسُفَ بْنِ الحَجَرِ، أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ، وَوَصَلَ عَلَاءَهُ وَارْتِقَاءَهُ، مَوْقِعَ المَعْشُوقِ مِنْ قَلْبِ العَاشِقِ، وَالمِسْكِ الفَتِيقِ مِنْ أَنْفِ النَّاشِقِ، فَحَفَّزَنِي فِيهِ حَفْزَ الظَّمْآنِ فِي إِحْضَارِ المَاءِ، وَبَاتَ يَرْعَى كَمَالَهُ شَوْقًا إِلَيهِ رَعَي الهَيْمَانِ نُجُومَ السَّمَاءِ.

وَكَانَ أَسْعَده الله مِنَ الفَضِيلَةِ الظَّاهِرَةِ، وَالمَكْرُمَةِ البَاهِرَةِ، بِحَيْثُ يَعْجِزُ الكَلَامُ عَنْ وَصْفِ فَضْلِهِ، وَيَبْخَلُ الزَّمَان أَنْ يَأْتِي بِمِثْلِهِ، دِينًا مَتِينًا، وَفَضْلًا مُبِينًا، وَمُرُوءَةً لَاحِبَةً، وَحُسْنَ وَسَاطَةٍ مُلَازِمَةٍ مُصَاحِبَةٍ، وَهِمَّةٍ رَفِيعَة عَالِيَةٍ، وَسَجِيَّةٍ فِي الكَرَمِ مُتَوَالِيَة، وَأَعْمَالًا تَشْهَدُ بِشَرَفِهِ وَتَعَيُّنِه، وَتُعْرِبُ عَنْ وُضُوحِ جَلَالِهِ وَتَبَيُّنِهِ، جَزَاهُ اللهُ حَيْثُمَا كَانَ، وَأَوْجَبَ لَهُ بِالإِحْسَانِ الإِحْسَان.

فَكَانَ مِنَ الإِحْسَانِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ إِلَيَّ وَالانْفِصَالِ مَعَ كُلِّ لَحْظَةٍ عَلَيَّ، بِحَيْثُ اسْتَرَقَّنِي مَلِكًا، وَاسْتَحَقَّنِي لِلُؤْلُؤِ شَكْره سِلْكًا، فَقَيَّدَ بِإِحْسَانِهِ خَوَاطِرِي المُطْلَقَة السَّارِحَة، وَطَفِقَ يَطْلُبُنِي اليَوْمَ بِمَا زِدْتُ فِي هَذَا المَجْمُوعِ البَارِحَة، وَاسْتَأْجَرَ لِنَسَخِهِ مِنْ مُبَيَضَاتِي نَاسِخًا، وَأَضْحَى لِعَقْدِ رَيْثِي بِحُكْمِ العَجَلِ فَاسِخًا، وَوَكَّل وَاسِطَة تَتَرَدَّد مَعَ السَّاعَاتِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، فَيَقْتَضِي مِنِّي الكَرَارِيس مُيَاوَمَة اقْتِضِاءَ الغَرِيمَ دَيْنَهُ، فَأَجْهَدْتُ نَفْسِي فِيهِ فِي تِلْكَ المُدَّة قِيَامًا بِحَقِّهِ، وَخِدْمَةً لِغَرَضِهِ وَوَفْقِهِ، وَكُنْتُ فِي تِلْكَ المُدَّةَ أَتَوَلَّى مِنْ شُغْلِ الكِتَابَة وَحْدِي، مَا انْقَسَمَ عَلَى سِتَّة كُتَّابٍ بَعْدِي، فَلَم يُخِلَّ ذِهْنِي سَاعَة مِنْ كَدِّ، وَلَا وَقَفَ شُغْلُ بَالِي عِنْدَ غَايَة وَلَاحد. فَمَهْمَا كَانَ فِي هَذَا المَجْمُوعِ شَيءٌ مِنَ الخَلَلِ، أَوْ عِلَّة مِنَ العِلَلِ، مِنْ إِعَادَةٍ أَوْ وَهْلٍ أَوْ اجْتِلَابِ شَيء قَدْ ذُكِرَ فِي الوَجِيزِ مِنَ الرَّسَائِلِ، أَو إِخْلَالٍ فِي تَرْتِيبِ أَسْمَاءَ الرِّجَالِ الأَوَاخِرِ وَالأَوَائِلِ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، مِمَّا يَلُوحُ بِالتَّصَفُّحِ وَالبَحْثِ هُنَالِكَ، فَالعِجْلُ احْتَمَلَهُ غُثَاءً فِي سَيْلِهِ، والانْحِفَازُ حَطْبِهِ فِي لَيْلِهِ، وَلِمُطَالِعِهِ الفَضْلُ فِي الإِغْضَاءِ، عَنْ كُلِّ مَا حَادَ فِيهِ عَنْ سُنَنِ الإِرْضَاءِ.

وَقَدْ كُنْتُ قَدْ سَمَّيْتُهُ فِي الصَّدْرِ: **«تَشْبِيبَ الإِبْرِيزِ وَالمَزِيدَ الأَحَقَّ بِالتَّبْرِيزِ عَلَى مَا جَاءَ مِنَ التَّرْسِيلِ فِي كِتَاب: «ابْنِ غَمْرٍ» المُسَمَّى بِالوَجِيزِ»**. وَلَمَّا كَمُلَ الآن قُدُّهُ، وَتَبَيَّنَ رُشْدُهُ، وَفَاضَ فَيْضَ الآتِيِّ عَلَى [الجَدْجَدِ] عَدُّهُ، رَأَيْتُ أَنَّهُ لِلطَّالِبِ هِبَةٌ مِنْ أَكْبَرِ



المَوَاهِبِ، وَأَنَّهُ قَدْ سَلَكَ مِنْ فَتْحِ بَابِ الصَّنْعَةِ أَوْضَحَ المَذَاهِبِ، فَزِدْتُهُ دَرَجَةً فِي التَّفْضِيلِ، وَسَمَّيْتُهُ «العَطَاءَ الجَزِيل فِي كَشْفِ غِطَاءِ التَّرْسِيل»، فَهُوَ كِتَابٌ ذُو اسْمَيْنِ كالثَّوْبِ المُطَرَّزِ بِرَسْمَيْنِ.

واللهُ يَنْفَعُ بِالنيَّةِ فِيهِ، وَيَعْفُو عَنْ جَامِعِهِ وَطَالِبِيهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ المَحْمُود عَلَى تَمَامِ الغَرَضِ فِيهِ وَكَمَالِهِ، وَأَفْضَلُ الصَّلَاة وَالتَّسْلِيمِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيمِ وَرَسُولِهِ وَعَلَى آلِهِ.

كَمُلَ الكِتَاب بِحَمْدِ اللهِ وَحُسْنِ عَوْنِهِ وَجَمِيلِ تَوْفِيقِهِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ الكَرِيمِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الهَادِينَ إِلَى سَبِيلِ الرُّشْدِ وَطَرِيقِهِ.



الزوائد التي تلحق في أبواب الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا ومولانا محمد الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين

فِي الباب الأول: فِي الفُتُوحَاتِ وَمَا إِلَيْهَا وَالأَجْوِبَةِ عَلَيْهَا بَعْدَ ابْنِ مُبَشِّر، وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الحَكَمِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ.

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللهُ وَنَصَرَهُ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ إِلَى الطَّلَبَةِ والمُوَحِّدِينَ والشُّيُوخِ والأَعْيَانِ والكَافَّةِ بِمُرَّاكُش، أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُمْ بِتَقْواه، وأَوْزَعَهُمْ شُكْرَ نُعْمَاهُ.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وبَرَكَاتُهُ أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلائِهِ وَنِعَمِهِ، والحَمْدُ لله الَّذِي جَعَلَ لِأَوْلِياءِ أَمْرِهِ وحُمَاةَ دِينِهِ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[1] وَشَرَفَ الإِيرَادِ والإِصْدَارِ، وأَيَّدَ بِهِمْ دِينَهُ المُظْهِرِ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] بِرَغْمِ المُشْرِكِينَ الكُفَّار، وشَفَى صُدُورَهُمْ مِنْ عَبَدَةِ الصُّلْبَانِ حَطَبِ النَّارِ، وأَنْجَزَ لَهُمْ وَعْدَهُ فِيهِنَّ نَأْوَى أَمْرِهِ وَأَخَذَ لَهُمْ فِيهِ بالثَّارِ، والصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ مُصْطَفَاهُ وَنَبِيِّهُ المُبْتَعَثُ بالحِكَمِ والأَنْوَارِ، والمُبَشِّرُ بأَنَّ مُلْكَ أُمَّتِهِ يَبْلُغُ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الفَسِيحَةِ المِضْمَارِ. وعَلَى آلِهِ وَصَحَابَتِهِ المُصْطَفَينَ الأَخْيَارِ الأَبْرَارِ، البَاذِلِينَ فِي اللهِ أَنْفُسَهُمْ النَّفِيسَةَ المِقْدَارِ، والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ وَارِثِ مَقَامِ النُّبُوَّةِ والعِصْمَةِ بالاسْتِحْقَاقِ والاسْتِبْشَارِ، المُتَجَرِّدِ فِي الذَّبِّ عَنْ دِينِ اللهِ سَيْفَ النَّصْرِ لَهُ [والانْتِصَارِ]، الدَّاعِي إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[3] اسْتُمِدَّتْ مِنْ مِشْكَاةِ الأَنْوَارِ، وَعَنْ صَاحِبِهِ وخَلِيفَتِهِ وَحَوَارِيِّهِ [الإِمَام] أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُنَوِّرِ البَصَائِرِ والأَبْصَارِ ومُمَشِّي أَمْرِهِ العَزِيزِ إِلَى غَايَتِهِ مِنَ الإِعْلَاءِ والإِظْهَارِ.

---

(1) سورة الرعد، الآيات: 24-25-43.

(2) سورة التوبة، الآية: 33. وكذلك سورة الفتح، الآية: 28.

(3) سورة يوسف، الآية: 108.



فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ، كَتَبَ اللهُ لَكُمْ بَشَائِرَ يَعِزُّ بِهَا جَانِبُ الإِيمَانِ، وَيُشعرُ بانْتِجَازِ وَعْدِ اللهِ الصَّادِقِ فِي عَبدَةِ الصُّلْبَانِ، وتُعْرَفُ مِنْ آيَاتِ هَذَا الأَمْرِ العَالِي مَا تَقُومُ آثَارُهُ مَقَامَ العِيَانِ. مِنْ حَضْرَةِ إِشْبِيلْيَةَ حَرَسَهَا اللهُ.

والَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى، والعَمَلَ بِطَاعَتِهِ والاسْتِعَانَةَ بِهِ والتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ؛ وأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الأَمْرَ العَظِيمَ هُوَ أَمْرُ اللهِ الَّذِي اخْتَصَّهُ بِشَرَفِ الكَمَالِ، وَوَعَدَ بالاسْتِيلَاءِ عَلَى أَهْلِ الكُفْرِ والضَّلَالِ، طَائِفَتَهُ المَنْصُورَةَ بِجُنُودٍ مِنْهُمْ تَخْدُمُهُمْ فِي جَمِيعِ الأَحْوَالِ. قَرَنَهُ بالنَّصْرِ وَحَفَّهُ بِكَرِيمِ المَنْعِ وَبَسَطَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَأَرْسَلَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ سَوَابِقَ الرُّعْبِ وَقَوَادِمَ السَّعْدِ، وَقَضَى أَنَّ لَهُمْ عَاقِبَةَ الظَّفَرِ والفَلَحِ. وَإِنْ ظَهَرَتْ لِلْكَافِرِينَ مَخِيلَةُ انْبِسَاطٍ وقَرِينَةُ إِمْهَالٍ أَوْ إِمْلَاءٍ. فَلِلَّهِ سِرٌّ ظَاهِرٌ لِأَمْرِهِ العَزِيزِ الخِيَرَةُ فِيهِ، ولِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ[1] يَبْلُغُهُ وَيَسْتَوْفِيهِ، إِنَّمَا يُمْلِي لَهُمْ سُبْحَانَهُ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِين[2].

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ آبِلَةَ مِنَ الرُّومِ -دَمَّرَهُمْ اللهُ- الشَّوْكَةَ الَّتِي لَا تُخْضَدَ، والشَّبَاةَ الَّتِي لَا تُفَلُّ والشَّرَارَةَ الَّتِي لَا تُطْفَأُ، والحَدَّ الَّذِي لَا يُكْسَرُ عُتُوًّا عَلَى اللهِ واسْتِشْرَاراً واغْتِرَاراً بِإِهْمَالِ اللهِ لَهُمْ وطُغْيَانًا، وكَانُوا لِلإِسْلَامِ وأَهْلِهِ الجَارَ المُصَاقِبَ، والعَدُوَّ المُنَاسِبَ، يَمِيلُونَ عَلَى جَوَانِبِهِ بالغَارَاتِ، فَلَا يَجِدُونَ مَنْ يَصْرِفُ تَطَاوُلَ اعْتِدَائِهِمْ، ولَا مَنْ يَرْدَعُ أَعِنَّةَ اسْتِشْرَائِهِمْ، قَدْ نَامَتْ عَنْهُمْ الحَوَادِثُ وأَهْمَلَتْهُمُ الأَقْدَارُ وأَرْخَتْ فِي طِيَلِهِمُ الأَيَّامُ، فَظَنُّوا أَنْ لَا مَطْمَعَ فِي جِلَادِهِمْ، ولَا مُقَارِعَ لِأَعْدَادِهِمْ، إِلَى أَنْ أَذِنَ اللهُ تَعَالَى فِي اسْتِئْصَالِ شَأْفَتِهِمْ، وخَضْدِ شَوْكَتِهِمْ، ونَحْتِ أَثْلَتِهِمْ، وإِجْعَافِ أَزْلَتِهِمْ، فَالْتَفُّوا عَلَى رَجِيمٍ مِنْ شَيَاطِينِهِمْ كَانَ قَدْ عَسَا[3] فِي الكُفْرِ عُودُهُ، وَطَالَ فِي الظَّلَالِ انْتِزَاؤُهُ، وجَمَعُوا مِمَّنْ

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.سورة الرعد، الآية: 39.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.سورة المجادلة، الآية: 5. أو من قوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. سورة المجادلة، الآية: 16.

(3) عسا: النبات: غلظ واشتد؛ وفيه لغة أخرى. عسي يعسى عسى؛ ومنه قوله الشاعر:

يَهْوُونَ عَنْ أَرْكَانِ عِزٍّ أَدْرَمَا ... عَنْ صَامِلٍ عَاسٍ إِذَا اصْلَخْمَمَا



انْضَافَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ أَلْبَةَ وَطَلَبِيرَةَ[1] والإِفْرِيرِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ جَمْعًا كَثِيفًا مِنَ الفُرْسَانِ والرَّجَّالَةِ، كَانَ جَمِيعُهُمْ لِلسُّيُوفِ نُهُبًا ولِلرِّمَاحِ أُهُبًا، وَقَصَدُوا هَذِهِ الجِهَاتِ - حَمَاهَا اللهُ - وهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ المُوَحِّدِينَ مُفْتَرِقُونَ فِي مَوْضِعِ إِسْكَانِهِمْ، وَمَقَرِّ اسْتِيطَانِهِمْ، وأَنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِهِمْ إِلَّا وَقَدْ تَمَّتْ فَتْكَتُهُمْ، وحَقَّتْ أَوْبَتُهُمْ، وَقَدْ كُنَّا - بِتَوْفِيقِ اللهِ- عِنْدَمَا سَمِعْنَا باقْتِرَافِهِمْ مِنْ بِلَادِ المُسْلِمِينَ. وتَحَقَّقَ فَقْدُهُمْ لَهَا طَيَّرْنَا إِلَى مَنْ خَفَّ وَقَرُبَ، من المُوَحِّدِينَ والعَرَب -أَعَانَهُمُ اللهُ- فَبَادَرُوا مُسْرِعِينَ، ولَبَّوْا مُهْطِعِينَ، وَأَرْصَدْنَا لِهَؤُلَاءِ الشِّرْذِمَةِ الذَّمِيمَةِ مُنْتَظِرِينَ عَادَةَ اللهِ لأَمْرِهِ العَزِيزِ مِنَ الفَتْحِ المَوْعُودِ، والنَّصْرِ المَوْجُودِ. وانْتَهَى أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى الوَادِي الكَبِيرِ[2] مَا بَيْنَ إِشْبِيلِيَةَ وَقُرْطُبَةَ فَأَلْفَوْا هُنَاكَ مِمَّنْ أَسَرُوهُ مَنْ أَعْلَمَهُمْ أَنَّ المُوَحِّدِينَ - أَعَانَهُمُ اللهُ - قَدْ نَذَرُوا بِقُدُومِهِمْ وأَعَدُّوا لِطُرُوقِهِمْ وَقُدُومِهِمْ؛ فانْصَرَفُوا عَنْ مَقْصَدِهِمْ، ونَكَبُوا عَنْ وِجْهَتِهِمْ وَخَافُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ[3] وَجَدَّ جِدُّهُمْ إِلَى جِهَاتِ قُرْطُبَةَ -حَمَاهَا اللهُ- فَأَجَازُوا الوَادِي الكَبِيرَ هُنَاكَ، ومَرُّوا عَلَى الحُصُونِ الَّتِي عَلَى الوَادِي مِنْ ضِفَّةَ الكَنْبَانِيَّةِ[4] واسْتَمَرُّوا إِلَى مَا بَيْنَ أَسْتِجَّةَ[5] وَقُرْطُبَةَ، فَأَلْفَوا هُنَالِكَ غَنَائِمَ مَجْمُوعَةً وَشَاءًا كَثِيرًا فَاكْتَسَحُوا جَمِيعَهَا، ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى قَبْلِيِّ قُرْطُبَةَ فِي كَنْبَانِيَّتِهَا لِيَجْعَلُوا ذَلِكَ طَرِيقَهُمْ إِلَى الجِهَاتِ الشَّرْقِيَّةِ مِنْهَا مِمَّا يَلِي مَنْتُورُ[6] فَكَانَ ذَلِكَ، وَغَنِمُوا مَا وَجَدُوا فِي طَرِيقِهِمْ وأَجَازُوا الوَادِي بِقُرْبِ مَنْتُور مُنْصَرِفِينَ، وقَدْ طَمَعُوا فِي الإِفْلَاتِ مِنْ يَدِ اللهِ المُدْرِكَةِ، وأَسْبَابِ أَخْذِهِ

---

(1) طلبيرة: TALAVERA DE LA REINA من أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض المشركين وهي قديمة توجد على نهر تاجه TAJO.

(2) الوادي الكبير: نهر مشهور بالأندلس تقع عليه مدينة قرطبة: الروض المعطار، ص: 458.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَؤُاْ الذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾. سورة التغابن، الآية: 5.

(4) ضفة الوادي: جانبه بالفتح والكسر.

(5) أستجة: مدينة أندلسية قديمة بها آثار كثيرة ورسوم تحت الأرض موجود بها خمسة أقاليم. الروض المعطار 53، ابن هشام اللخمي: المدخل إلى تقويم اللسان، ص: 248.

(6) منتور: مدينة أندلسية منها صاحب البرنامج المشهور.



المُهْلِكَةِ. وقَدْ كُنَّا عِنْدَ وُصُولِ أخْبَارِهِمْ بإجَازَةِ الوَادِي والتَّوَجُّهِ إلى قُرْطُبَةَ، قَدْ اتَّبَعْنَاهُمْ مَنْ كَانَ اسْتُنْفِرَ لِلْغَزْوِ مِنَ المُوَحِّدِينَ والعَرَبِ. صُحْبَةَ إخْوَانِنَا وأشْيَاخِ المُوَحِّدِينَ والحُفَّاظِ أكْرَمَهُمُ اللهُ، وأمَرْنَاهُمْ بالجِدِّ فِي جِهَادِهِمْ واتِّبَاعِهِمْ وَلَوْ إلَى بِلَادِهِمْ فَجَدَّ أعْدَاءُ القَوْمِ السَّيْرَ، وأجَازُوا الوَادِي الكَبِيرِ قَاصِدِينَ جِهَاتِ قُرْطُبَة وَمَنْ ... قَطَعُوا مَسَافَةً لَا يُطْمَعُ فِي مِثْلِهَا بالسَّيْرِ لَهَا إلَّا أجْنِحَةَ الطَّيْرِ. وَجَدَّ المُوَحِّدُونَ الَّذِينَ أنْفَذْنَاهُمْ لاتِّبَاعِهِمْ -أعَانَهُمُ اللهُ- جِدّاً أرَى اللهُ فِيهِ نَصْرُهُمْ، وأيَّدَ بِهِ أمْرُهُمْ. وَوَصَلُوا قُرْطُبَةَ عَلَى إثْرِ مُرُورِ العَدُوِّ -دَمَّرَهُ اللهُ- فِي قِبْلِيِّهَا مُسْتَبْصِرِينَ فِيمَا [عقَدْنَاهُ][1] مِنْ أنْ لَا يَتَرَاخَوْا فِي اتِّبَاعِهِمْ، ولَا يَفْشَلُوا عَنْ مُلَاحَقَتِهِمْ وَمَصَاعِهِمْ، حَتَّى يُنْجِزَ اللهُ فِيهِمْ وَعْدَهُ المَسْؤُول، وأخْذَهُ المَأْمُول. واتَّفَقُوا هُنَاكَ مَعَ الشَّيْخِ الأجَلِّ أبِي حَفْصٍ -أعَزَّهُ اللهُ- عَلَى سُلُوكِ طَرِيقِ غَيْرِ طَرِيقِ العَدُوِّ تُيَسِّرُ عَلَيْهِمْ لَحَاقَهُ وتَخَرُّجَهُمْ أمَامَهُ. فَكَانَ ذَلِكَ وَمَشَوْا جَمِيعًا والسَّعَادَةُ تَخْدُمُهُمْ، والخِيَرَةُ تَتَقَدَّمُهُمْ.

وَنَفَذُوا عَلَى جَبَلِ قُرْطُبَةَ يَوْمَ الإثْنَين السَّابِع عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ المُكَرَّمِ، وَوَاصَلُوا سَيْرَهُمْ يَوْمَ ذَلِكَ وَيَوْمَ الثُّلَاثَاءِ وَيَوْمَ الأرْبِعَاءِ وطَلَائِعُهُمْ عَلَى العَدُوِّ تُسَايِرُ مَمْشَاهُمْ، وَتَعْرِفُ مَغْزَاهُمْ. وَفِي يَوْمِ الأرْبِعَاءِ المَذْكُورِ تَقَارَبَ الجَمْعَانِ، وتَرَاءَتِ الفِئَتَانِ، فاعْتَصَمَ أعْدَاءُ اللهِ بِحَبْلِ هُنَاكَ فِي آخِرِ فَحْصٍ يُعْرَفُ «بِفَحْصِ هِلَالٍ»[2] مُطِلٌّ عَلَى جِهَاتِ قَلْعَةِ رَبَاح[3] لِيَلُوذُوا بِقُنَّتِهِ وَيَتَمَنَّعُوا فِي أعَالِيهِ. ومَعُونَةُ اللهِ لأوْلِيَائِهِ تُهَوِّنُ عَلَيْهِمُ الصَّعْبَ وتُيَسِّرُ لَهُمُ الوَعْرَ. فَتَسَنَّمُوا تِلْكَ القُنَنَ إلَى الأعْدَاءِ وَاثِقِينَ بِمَوْلَاهُمُ الَّذِي لَا تَزَالُ آثَارُ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ قَائِمَةً، وصَنَائِعُ رَحْمَتِهِ لَدَيْهِمْ رَاهِنَةً، وَصَعَدُوهَا عَلَيْهِمْ مُسْتَسْهِلِينَ فِي ذَاتِ اللهِ وعْرَهُ، مُسْتَشْعِرِينَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ نَصْرَهُ، وكَانَتْ لِلْأعْدَاءِ هُنَاكَ شَدَّاتٌ وَحَمَلَاتٌ كَادَتْ تُحَطِّمُ الجِبَالَ، وتُزَلْزِلُ الأبْطَالَ، لَكِنْ وَجَدُوا أوْلِيَاءَ اللهِ

(1) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) فحص هلال.

(3) قلعة رباح: من عمل حيان وهي بيت قرطبة وطليطلة، الروض المعطار، ص: 469.



أَصْدَقَ أَسِنَّة، وأَفْسَحَ فِي ضَنَكِ المَجَالِ أَعِنَّةً. وأَمَدَّ أَوْلِيَاءَهُ اللهُ بِمَا عَوَّدَهُمْ مِنْ عَوَائِدِ صُنْعِهِ وَكَرِيمِ جُنْدِهِ فَوَلَّى الأَعْدَاءُ الدُّبُرَ[1] يَتَسَاقَطُونَ فِي الأَوْعَارِ، وَيَمُوتُونَ قَعْصًا تَحْتَ ظِلَالِ الأَسِنَّةِ والشِّفَارِ، فَحُطُّوا مِنْ ذَلِكَ المُرْتَقَى مُصَغرِّينَ، وَأُنْزِلُوا مِنْهُ مُقَتَّلِينَ وَمُكَسَّرِينَ.

وتَمَشَّى القَتْلُ فِيهِمْ كَذَلِكَ من عَصْرِ يَوْمِ الأَرْبعَاءِ إِلَى نِصْفِ لَيْلَةِ الخَمِيسِ، حَتَّى قُدِّرَ أَنَّهُ لَمْ يَنْجحْ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ سَتَرَهُ اللَّيْلُ أَوْ أَخَّرَهُ لِلْحمَامِ، وَشَفَا اللهُ مِنْهُمُ الصُّدُورَ شِفَاءً أَذْهَبَ وَحَرَهَا[2] وَطَيَّبَ لَهَا ظَفَرَهَا. وَتَمَّمَ بِذَلِكَ عَلَى المُؤْمِنِينَ النِّعْمَةَ فَكَمَّلَهَا وَوَفَاهَا، وَأَطْلَقَ اللهُ أَسْرَى المُسْلِمِينَ المُضْطَهَدِينَ مِنْ يَدِ إِيسَارِهِمْ، وَقَسْرِ افْتِقَارِهُمْ. وَقَدْ عَظَّمَ مِنَّةَ هَذَا الأَمْرِ عَلَيْهِمْ، وَأَظْهَرَ آيَاته الكُبَرِ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ غَنَائِمِهِمْ تَوَفَّرَتْ لَهُمْ حَتَّى رَجَعَتْ عَلَيْهِمْ، مَحُوطَةً بِحِيَاطَةِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ، مَكْلُوَّةً بِصُنْعِ اللهِ الكَرِيمِ.

وأَخَذَ المُوَحِّدُونَ فِي الإِيَابِ، وَقَدْ وَفَّرَ اللهُ أُجُورَهُمْ، وَذَخَرَ لَهُمْ كَرِيمَ مَقَامِهِمْ فِي المَصَاعِ عَنْ دِينِهِ والجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَأَظْهَرَ سُبْحَانَهُ بَاهِرَ الآيَاتِ فِي سَلَامَةِ جَمِيعِهِمْ مَعَ لِقَاءِ هَذَا الجَمْعِ الكَبِيرِ، والجَمَّاءِ الغَفِيرِ، والشَّوْكَةِ الحَدِيدَةِ، والفِرْقَةِ الشَّدِيدَةِ، فَلَمْ يُصَبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

وطَيَّرُوا بِهَذَا الفَتْحِ الخَطِيرِ قَبْلَ اسْتِيفَاءِ جَمْعِ دَوَابِّهِمْ، وَتَحْصِيلِ أَسْلَابِهِمْ، وانْفَذُوا إِلَيْنَا رَايَتَهُمْ المَنْكُوسَةَ وَصُلْبَانَهُمْ الكَاذِبَةَ تَعْجِيلًا لِلْبُشْرَى، وَتَعْظِيمًا لِهَذِهِ المِنَّةِ الكُبْرَى، وَقَدْ عَنْوَنَ هَذَا الفَتْحُ الجَسِيمُ عَلَى أَنَّ وَرَاءَهُ لِلْمُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمْ اللهُ تَعَالَى- فُتُوحًا تَطَّرِدُ وَأَيَّامًا عَلَى الأَعْدَاءِ تَنْسَرِدُ، وَبَشَائِرُ مِنْ أَخَوَاتِهَا تَتَّحِدُ وَلَا تَنْفَرِدُ.

فَهَذِهِ كَانَتْ رَحَى الأَعْدَاءِ، وَمَوْصِلَ الدَّاءِ، وإِذْ قَدْ أَذِنَ اللهُ بِمَحْوِ أَثَرِهِمْ، وَإِطْفَاءِ شَرَرِهِمْ، فَمَا بَعْدَهُمْ -بِحَوْلِ اللهِ- أَيْسَر، وَجَانِبُ الأَعْدَاءِ عَلَى المُوَحِّدِينَ أَهْوَنُ،

---

(1) مقتبس من قوله تعالى:﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾. سورة الفتح، الآية: 22.

(2) الوحر: الغيظ والحقد وفي الحديث الشريف: «الصوم يذهب بوحر الصدور».



وَمَرَامُ الفَتْحِ فِيهِمْ بَعْدُ أَسْهَلُ وَأَقْرَبُ. والرُّومُ كُلَّ يَوْمٍ يُلْقُونَ إِلَى هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ بِيَدِ الاسْتِسْلَامِ، ويَضْرَعُونَ فِي التَّمَسُّكِ بِحَبْلٍ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ. وَسيَقْبَلُ ذَلِكَ مِمَّنْ ظَفَرَتْ مَخَايِلُ الخَيْرِ عَلَيْهِ، وَتَوَجَّهَتْ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ إِلَيْهِ، وَيَتَفَرَّغُ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَيُمَالُ عَلَيْهِمْ مَيْلَةً تُحَطِّمُ الرِّقَابَ، وتَلِجُ عَلَيْهِمُ الأَنْقَابَ، حَتَّى يُنْجِزَ اللهُ فِيهِمْ وَعْدَهُ الصَّادِقَ، «وَيُظْهِرَ دِينَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ»[1].

واللهُ سُبْحَانَه يُسْمِعُكُمْ مَسَرَّاتٍ تَتَجَدَّدُ عَلَى الآذَانِ مَعَ الأَحْيَانِ، ويُعْلِقُكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ بِمَا يُؤَدِّي إِلَى رِضَى الرَّحْمَنِ؛ بِمَنِّهِ [ولْتُقَابِلُوا][2] -وَفَّقَكُمُ اللهُ- هَذِهِ النِّعْمَةَ الخَطِيرَةَ بِوَاجِبِهَا مِنَ الحَمْدِ والشُّكْرِ، والإِذَاعَةِ والنَّشْرِ. واللهُ يَجْعَلُكُمْ مِنَ الحَامِدِينَ الشَّاكِرِينَ بِمَنِّهِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ.

والسَّلَامُ الكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

كُتِبَ فِي الرَّابِعِ والعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَكَتَبَ أَيْضا:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ، إِلَى الطَّلَبَةِ المُوَحِّدِينَ والأَشْيَاخِ وَالكَافَّةِ بِمَدِينَةِ إِشْبِيلِيَةَ أَكْرَمَهُمُ اللهُ بِتَقْوَاهُ وَعَرَّفَهُمْ عَوَائِدَ حُسْنَاهُ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ وَنِعَمِهِ، والحَمْدُ للهِ مُذَلِّلِ المُسْتَصْعَبِ، وَمُسَهِّلِ دَرَكِ المَطْلَبِ، فَاتِحِ بَابِ المَعْقِلِ الأَشِبِ، ومَانِحِ ضُرُوبِ الخَيْرِ المُحْتَسِبِ، ومُعَرِّفِ أَوْلِيَائِهِ مِنْ عَوَائِدِ النَّصْرِ وَيُسْرِهِ، مَا يَصِلُ سَبَبَهُم مِنَ الفُتُوحِ بِأَكْرَمِ السَّبَبِ، وَيُؤْذِنُ أَنَّ مُنَاوِئَ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ مَصْرُوعٌ لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ ولَوِ ابْتَغَى نَفَقًا

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. سورة الصف، الآية: 9.
(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا إِلَى الشُّهُبِ[1] والصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى مِنْ أَكْرَمِ الحَسَبِ، المُبْتَعَثِ إِلَى العَجَمِ والعَرَبِ، الآخِذِ بالحَجْزِ عَنْ مَهَاوِي الضَّلَالِ المُؤَدِّيَةِ إِلَى العَطَبِ، وعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ البَاذِلِينَ فِي نُصْرَتِهِ وَطَاعَتِهِ جِدَّ الصَّابِرِ المُحْتَسِبِ، الفَائِزِينَ مِنْ رِضَا اللهِ تَعَالَى بِأَشْرَفِ الرُّتَبِ، والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الصَّادِعِ بِنُورِ ظُلُمَاتِ الجَهْلِ المُسْدِلَةِ الطُّنُبِ، القَائِمِ بِأَمْرِ اللهِ مُجَاهِدًا أَهْلَ الكُفْرِ والزَّيْغِ والرِّيَبِ، المَالِئِ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلًا وَقَدْ مُلِئَتْ جُوْرًا إِلَى عَقْدِ الكَرَبِ، والدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الإِمَامِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ قَسِيمِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي شَرَفِ النَّسَبِ، المُمَشِّي أَمْرَ اللهِ تَعَالَى إِلَى غَايَتِهِ البَعِيدَةِ المَذْهَبِ، حَتَّى يَسْتَوْلِيَ بِمَعُونَةِ اللهِ عَلَى مَا رُوِيَ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ.

وإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ عَرَّفَكُمُ اللهُ مِنَ البَشَائِرِ المُتَتَابِعَةِ وَالمَسَرَّاتِ الجَامِعَةِ، مَا يَمْلَأُ قُلُوبَكُمْ وأَسْمَاعَكُمْ، وَيَعُمُّ بالبَشَائِرِ أَنْدِيَتَكُمْ واجْتِمَاعَكُمْ، ويَعْقِدُ عَلَى طَاعَتِهِ المُشَرَّفَةِ، وخِشْيَتِهِ المُقَرَّبَةِ إِلَيْهِ المُزْلِفَةِ إِصْفَاقَكُمْ وإِجْمَاعَكُمْ. مِنْ دَاخِلِ قَفْصَةَ[2] - حَرَسَهَا اللهُ- والَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللهِ والعَمَلَ بِطَاعَتِهِ والاسْتِعَانَةَ بِهِ والتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ، واليَقِينَ بِأَنَّ هَذَا الأَمْرَ العَظِيمِ، هُوَ أَمْرُ اللهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ الحَرَمَ الآمِنِ، لِمَنْ تَمَسَّكَ بِسَبَبِهِ المَتِينِ، وَآوَى إِلَى رُتْبَتِهِ ذَاتِ القَرَارِ والمَعِينِ، وَأَنَّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَقَدْ أَهْدَفَ نَحْرَهُ لِأَسِنَّةِ الحَقِّ المُنَاضِلَةِ عَنِ الدِّينِ، وتَبَرَّأَتْ مِنْهُ ذِمَمُ النَّجَاةِ والعِصْمَةِ والتَّأْمِينِ. واللهُ سُبْحَانَهُ يَجْعَلُكُمْ مِمَّنْ عَرَفَ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ مَعْرِفَةَ الحَقِّ اليَقِينِ، ويَمُدُّ عَلَيْكُمْ ظِلَّهُ الوَارِفَ، وَفَضْلَهُ المُتَعَارَفَ، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. وَقَدْ كُنَّا أَعْلَمْنَاكُمْ - وَفَّقَكُمُ اللهُ - بِمَا عَرَفَ اللهُ فِي هَذِهِ الحَرَكَةِ السَّعِيدَةِ مِنْ نُجْحِ المَطَالِبِ، وَيُسْرِ المَذَاهِبِ، وخَرْقِ العَوَائِدِ فِي تَقْرِيبِ البَعِيدِ مِنْ أَمَلِ الأَمَلِ وَرَغْبَةِ الرَّاغِبِ، وأَنَّ اللهَ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾. سورة الأنعام، الآية: 36.

(2) قفصة: مدينة جزائرية معروفة ومشهورة.



هَدَى بِنُورِ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ مَنْ كَانَ عَنْهُ نَفَرَ وَرَدَّ إِلَيْهِ مَنْ كَانَ عَنْ رَحْمَتِهِ الوَاسِعَةِ قَدْ أَعْرَضَ وَأَدْبَرَ، فَبَصَّرَ الجَاهِلَ وصَرَفَ إِلَى الطَّاعَةِ الشَّارِدَ، وجَمَعَ عَلَى التَّقْوَى الغَافِلَ والجَاحِدَ. وعَرَّفْنَاكُمْ بِوُصُولِ مَنْ وَصَلَ مِنْ أَشْيَاخِ العَرَبِ -وَفَّقَكُمُ اللهُ- مُلْقِينَ إِلَى هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ، بِيَدِ التَّفْوِيضِ والتَّسْلِيمِ، مَادِّينَ يَدَ الاسْتِقَالَةِ إِلَى عَادَةِ رَأْفَتِهِ وَصَفْحِهِ الكَرِيمِ، وبَعْدَ ذَلِكَ صُرِفُوا إِلَى مَنَازِلِ هَذِهِ البِلَادِ أَنْزَلُوا فِيهَا لِتَتَجَمَّعَ كَلِمَتَهُمْ، وتَنْتَظِمَ أُلْفَتَهُمْ، إِلَى أَنْ يُسْتَنْفَرُوا بِعَوْنِ اللهِ إِلَى الغَزْوِ الَّذِي يُعِزُّ بِهِ اللهُ كَلِمَةَ الإِيمَانِ، ويَنْشُرُ لِوَاءَ النَّصْرِ عَلَى عَبَدَةِ الأَوْثَانِ، وعُدَاةِ الرَّحْمَنِ، بِحَوْلِ اللهِ لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَهُوَ المُسْتَعَانَ.

وكَانَتْ هَذِهِ القَرْيَةُ الظَّالِمِ أَهْلُهَا[1] طَالَمَا صَمَّتَ عَنْ دَاعِي اللهِ فَعَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا، وَرَكِبَتِ الجَامِحَ مِنْ مَرَاكِبِ غَيِّهَا، فَلَمْ تَلْتَفِتْ إِلَى رُشْدِ مُرْشِدٍ، ولَمْ تَصْرِفْ عِنَانًا إِلَى طَاعَةِ مُهْتَدٍ، وَلَمْ تَنْتَهِ عَنْ عَمَلِ بَاغٍ مُفْسِدٍ، اغْتِرَارًا بِمَنْعَةِ مَكَانِهَا، وضَخَامَةِ شَأْنِهَا، وحَصَانَةِ بُنْيَانِهَا وَأَنَّهَا قَدْ [اكْتَنَفَتْهَا][2] صَحْرَاءُ تُعْطِشُ الضَّبَّ وتُنَشِّفُ الرَّطْبَ، فَلَا يَجِدُ مَنَازِلُهَا مُعِينًا عَلَى المُقَاوِمِ، ولَا مُرْتَفَقًا مِنْ مَرَافِقِ الأَنَامِ.

وكَانَ جُلُّ هَذِهِ الحَرَكَةِ المُبَارَكَةِ سَبَبُهَا وَقَى اللهُ هَذِهِ البِلَادَ مِنْ ضُرِّهَا وَعُرِّهَا، فَقَدْ كَانَ بَاضَ فِيهَا الشَّيْطَانُ وَفَرَّخَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى مُحَارَبَةِ اللهِ وَأَمْرِهِ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَصْرَخَ، وَتَجَمَّعَ لَهُ فِيهَا مَعَ ذَلِكَ أَشْتَاتٌ مِنْ أَهْلِ الفَسَادِ، وشُذَّاذَةٌ[3] مِنْ ذَوِي العِنَادِ، كُلٌّ قَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، وَرَأَى سَبِيلَ الغَيِّ فَاتَاهَا مِن أَقْرَبِ طُرُقِهِ، فَشَاقُّوا اللهَ والإِيمَانَ[4] وحَالَفُوا البَغْيَ والعِصْيَانِ، وصَارَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ مِنْ مُنَافِقِي العَرَبِ وَغَيْرِهِمْ، يُهَاجِمُ البِلَادَ ومَا اتَّصَلَ بِهَا، لَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَيْهَا ولَا يَعْتَضِدُ إِلَّا بِمَكَانِهَا، هِيَ مَأْوَاهُمْ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾. سورة النساء، الآية: 74.

(2) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) شذاذ: يقال في القوم إنهم شذاذ إذا لم يكونوا في منازلهم.

(4) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. سورة الحشر، الآية: 4. أو من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. سورة الأنفال، الآية: 13.



ومَوْلَاهُمْ، وَبِسَبَبِ مُفْتِنِهِمْ الَّذِي أَضَلَّهُمْ وأَغْوَاهُمْ . فَعزَمْنَا - بَعْدَ اسْتِخَارَةِ اللهِ تَعَالَى - أَنْ نَجْعَلَ إِلَيْهَا قَصْدَ الاعْتِنَاءِ، ونَجْهَدَ فِي اسْتِئْصَالِ ذَلِكَ الدَّاءِ، فَقَدَّمْنَا إِلَيْهِمْ عَسَاكِرَ هَذِهِ البِلَادِ مَعَ طَلَبَتِهِمْ -أَعَانَهُمْ اللهُ وأَنْجَدَهُمْ- وأَمَرْنَاهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِمْ بالنَّذِيرِ، ويُحَذِّرُوهُمْ مُحَادَةَ اللهِ وَأَمْرِهِ أَشَدَّ تَحْذِيرٍ، حَتَّى تَقُومَ عَلَيهم الحُجَّةَ، وَتَتَّضِحَ لَهُمُ المَحَبَّةَ. وإِذَا بِهِمْ عَنْ دَعَاوَى الرُّشْدِ مُعْرِضُونَ وَفِي الفِتْنَةِ مُسْتَنْصِرُونَ، قَدْ لَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ، وتَمَالَؤُوا عَلَى عِصْيَانِهِمْ، وَنَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ[1] مُتَمَسِّكِينَ بِالبَغْيِ بِأَدْيَانِهِمْ، مُعْتَضِدِينَ بالشَّيَاطِينِ أَخْذَانِهِمْ. وَوَصَلَ إِلَيْنَا كِتَابُ الطَّلَبَةِ المَذْكُورِينَ أَعَانَهُمُ اللهُ مُعْلِمِينَ بأَحْوَالِهِمُ المُنْكَرَةِ وبإِعْرَاضِ قُلُوبِهِمْ العَاتِيَةِ المُسْتَكْبَرَةِ وحِينَئِذٍ قَدْ انْتَهَيْنَا إِلَى القَيْرَوَانِ مِنْ طَرِيقِنَا إِلَى هَذِهِ القَرْيَةِ فَتَمَّمْنَا عَلَى عَزْمَتِنَا المُبَارَكَةِ مُسْتَعِينِينَ بِاللهِ تَعَالَى مُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ مُسْتَنْجِدِينَ فِي النَّصْرِ والعَوْنِ وَعْدَهُ وَعَادَتَهُ. وعَرَفَ المُوَحِّدُونَ أَنَّ الطُّرُقَ إِلَى المَقْصَدِ إِلَيْهِمْ مُتَعَذِّرَةَ المَسَالِكِ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ العَسَاكِرِ، لِعَدَمِ المَاءِ فِيهَا فِي مِثْلِ الفَصْلِ الَّذِي سَلَكَتْ فِيهِ، وَعَدَمِ المَرَافِقِ مِنَ الأَقْوَاتِ والمَرَاعِي لِمَا ذُكِرَ مِنْ وَضْعِ هَذَا القُطْرِ، وَلِمَا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ البِلَادِ مِنِ احْتِبَاسِ القَطْرِ[2]، وذَلِكَ مِمَّا أَطْغَى أَهْلَ هَذِهِ القَرْيَةِ، فَسَوَّلَ لَهُمْ بِذَلِكَ وَأَمْلَى، وَدَلَاهُمْ مِنَ الغُرُورِ بِمَا دَلَى، لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَسَّرَ عَلَى أَوْلِيائِهِ فَمَهَّدَ لَهُمْ السَّبِيلَ، وَعَرَّفَهُمُ العَوْنَ الجَمِيلَ، وأَوْلَاهُمْ فِي مُحَاوَلَتِهِمُ البَرَكَةَ وَالتَّسْهِيلَ. فَوَجَدُوا مِنَ المَاءِ بِمَا كَانَ تَقَدَّمَ مِنَ المَطَرِ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِمُ السَّعِيدَةِ مَا قَامَ عَلَى مُرَادِ اللهِ فِي هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ بُرْهَانًا، وَلَاحَ لِلْمُسْتَبْصِرِ عِيَانًا، غُدْرَانٌ تَفْهَقُ[3]، وصُنْعٌ كَرِيمٌ يَتَقَدَّمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ تَارَةً وتَارَةً يَلْحَقُ، وَتَسَرَّبَ إِلَيْهِمْ مِنَ الأَقْوَاتِ مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ مَا رَغَّدَ الأَسْعَارَ، ومَهَّدَ عَلَى هَذِهِ البَلْدَةِ القَرَارَ.

---

(1) لعله مقتبس من قوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾. سورة البقرة، الآية: 100.

(2) القطر الأولى الجهة والقطر الثانية المطر.

(3) تفهق: تفيض ماء.



ولَمَّا كَانَ الوُصُولُ إِلَيْهَا -عَلَى بَرَكَةِ اللهِ تَعَالَى- أُعِيدَ عَلَى أَهْلِهَا الإِنْذَارُ، وَكُرِّرَ لَهُمْ الإِعْذَارُ، وَأُفْصِحَ لَهُمْ بالتَّأْمِينِ التَّامِّ لَوْ أَصَاخَتْ مِنْهُمُ الأَسْمَاعُ أَوْ أَنَارَتْ مِنْهُمُ الأَبْصَارُ فَتَمَادَى مِنْ جَمِيعِهِمُ الإِعْرَاضُ والإِنْكَارُ، وَلَجَّ مِنْهُمُ العِصْيَانُ والإِدْبَارُ، وبَرَزُوا أَوَّلَ يَوْمٍ بِجَمْعٍ لَهُمْ ذَمِيمٍ، وجُنْدٍ مِنْهُمْ وَجِيمٍ[1]، خَارِجَ بَلَدِهِمْ، لِتَظْهَرَ قُوَّةُ بَصَائِرِهِمْ فِي الكُفْرِ وجَلَدِهِمْ. فاشْتَغَلَ جَمِيعُ المُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- بِشُغْلِ نُزُولِهِمْ، وتَرْتِيبِ حُلُولِهِمْ، وخَفَّ إِلَيْهِمْ مِنَ العَسَاكِرِ مَنْ [قَاوَمَ][2] نَازِيَهُمْ، وَرَدَّ طَاغِيَهُمْ. فَلَمَّا كَانَ فِي اليَوْمِ الثَّانِي تَرَتَّبَ المُوَحِّدُونَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- عَلَى جِهَاتِهِمْ، وأَخَذُوا مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ونَهَدُوا إِلَيْهِمْ بِعَزْمٍ كَسَرَ اللهُ بِهِ مِنْ حَدِّ الطُّغَاةِ وَشَبَاتِهِمْ، وَأَوْهَنَ كَيْدَ عَزَمَاتِهِمْ. فَانْجَحَرُوا وَرَاءَ أَسْوَارِهِمْ واشْتَمَلُوا بِخِزْيِهِمْ وَعَارِهِم. وتَمَكَّنَ المُوَحِّدُونَ -أَعَانَهم اللهُ- مِنْ حِصَارِهِمْ، واسْتَعَانُوا بِمَوْلَاهُمْ ونَصِيرِهُمْ فكَانَ وَلِّي إِنْجَادِهِمْ وانْتِصَارِهِمْ. وانْتَقَلُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى مَنَازِلَ بِقُرْبِ الأَسْوَارِ[3] [بِقَدْرِ غَلْوِ السَّهْمِ][4] لِيَأْخُذُوا بِمُخَنَّقِ مَحْصُورِهِم، ويُظْهِرُوا الجِدَّ والقُوَّةَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ. فَتَمَّ ذَلِكَ وَمَعُونَةُ اللهِ تَصْحَبُهُمْ، والتَّوْفِيقُ إِلَى كُلِّ سَعَادَةٍ يُقَرِّبُهُمْ، واشْتَغَلَ مَعَ ذَلِكَ بِعَمَلِ آلَاتٍ حَرْبِيَّةٍ يَسْتَظْهِرُ بِهَا عَلَى الحُصُونِ المَشِيدَةِ وَتَكُونُ [وَبَالًا] فِي الحَرْبِ وَالمَكِيدَةِ. مِثْلَ المَجَانِيقِ والدَّبَّابَاتِ والأَبْرَاجِ. فَيَسَّرَ اللهُ بذَلِكَ مَا ضَمِنَ دَرْكَ المَطْلَبِ، وسَهَّلَ أَحْوَالَ الغَلَبِ، ولَمَّا كَمُلَتِ الآلَاتُ، وبَلَغَتْ مِنَ الحَزْمِ الغَايَاتُ وأَشْرَفَ البُرْجُ المُبَارَكُ عَلَى جُدُرَاتِهِمْ، وَنَالَتِ المَجَانِيقُ مِنْ هَدْمِ بُيُوتِهِمْ، أَخَذَ المُوَحِّدُونَ مِنْ نِزَالِهِمْ، وبَلَغُوا

---

(1) جند وجيم: أي كثير مثل الحجارة المركومة بعضا فوق بعض، قال الشاعر:

وَهَامَةٍ كَالصَّمْدِ بَيْنَ الأَصْمَادْ ... أَوْ وَجَمِ العَادِيِّ بَيْنَ الأَجْمَادْ

(2) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(4) الغَلْوُ: الإعداء، وغلا بالسهم يغلو غَلْواً وغُلُوّاً، رفع يده يريد به أقصى الغاية وهو التجاوز. قال الشاعر:

كَالسَّهْمِ أَرْسَلَهُ فِي كَفِّهِ الغَالِي



الغَايَةَ فِي نكَالِهِمْ، فَيَسَّرَ اللهُ لَهُمْ هَدْمَ سَائِرِ السَّتَائِرِ الَّتِي أَمَامَ الأَسْوَارِ، وَقَدْ كَانَتْ مِنَ الامْتِنَاعِ فِي حَدٍّ لَا تَنَالُهُ الظُّنُونُ، ولَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ العُيُونُ. واتَّصَلَ الشُّغْلُ بِرَدْمِ الخَنْدَقِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ البُرْجِ المُبَارَكِ حَتَّى يَتَّصِلَ المُوَحِّدُونَ بالأَسْوَارِ مِنْ أَمَمٍ، وَلَا تَمْتَنِعَ عَلَى كَفٍّ مُتَنَاوِلٍ ولَا قَدَمٍ، فَلَمَّا رَأَى المَحْصُورُونَ مَا أَتَاهُمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ مِنْ فَوْقِهِم وَمِنْ تَحْتِهِم وَأَلَمِ عِقَابِهِ، وعَايَنُوا المَوْتَ قَدْ كَشَّرَ لَهُمْ عَنْ نَابِهِ، وقَدْ تَبَرَّأَ حِينَئِذٍ مِنْهُم الشَّيْطَانُ[1] وأَسْلَمَهُمْ إِلَى حِمَامِهِمْ اللَّجَاجُ والعِصْيَانُ، نَدِمُوا عَلَى مَا أَسْلَفُوا وعَرَفُوا قَدْرَ مَا وَطَّنُوا فِي جَنْبِ اللهِ وأَسْرَفُوا، فَهَتَفَ جَمِيعُهُمْ بِدُعَاء الإِسْلَامِ، وأَعْلَنُوا بالاسْتِعْطَافِ والاسْتِرْحَام، وَرَدَّدُوا أَرْسَالًا يُخْبِرُونَ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَدْ أَلْقَوْا بأَيْدِيهِمِ، وَرَجَوْا رَحْمَةً تُنْجِيهِمِ وَتَوْبَةً مِنَ اللهِ تُرْشِدُهُمْ وتَهْدِيهِمْ، فَرِحِينَ أَنْ يَتَقَبَّلَ اللهُ مَتَابَهُمْ، وَيَصِلَ بالخَيْرَاتِ أَسْبَابَهُمْ؛ وأَخَذْنَاهُمْ بِمَا ظَهَرُوا إِذْ كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ يَتَوَلَّى حِسَابَهُمْ، وبُذِلَ لَهُمُ الأَمَانُ فِي رِقَابِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وذَرَارِيهِمْ، واسْتُنْزِلُوا مِنْ صَيَاصِيهِمْ[2] وأُخْرِجَ مَعَهُمْ نَافِخُ نَارِ الفِتْنَةِ، ومُدِيرُ رَحَى المِحْنَةِ، ابْنُ الرَّنْكِ[3] صَاغِرًا ذَلِيلًا فَنُبِذَ بِالعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ[4] وذَاقَ وَبَالَ أَمْرِهِ[5] وَعَلِمَ أَنَّ مَرْتَعَ البَغْيِ وَخِيمٌ.

فَإِنْ صَحَّ مَتَابُهُ، وَكَانَ إِلَى طَاعَةِ الله مآبُهُ، فَقَدْ خَتَمَ بالحُسْنَى عَمَلَهُ، وأَدْرَكَ مَا أَمَّلَهُ. وجُمِعَ سَائِرَ مَنْ كَانَ بالمَوْضِعِ فَعَلِمُوا مَا لَا يَحِلُّ جَهْلُهُ ولَا يَسَعُ، وأُسْمِعَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يَسْمَعُ. ثُمَّ صُرِفَ جَمِيعُ الرَّعَايَا إِلَى أَوْطَانِهِمْ، وَأَخَذُوا بِعِمَارَةِ مِيَاهِهِمْ وَجِنَانِهِمْ، وَحَدَّ لِلأَجْنَادِ الانْتِقَالِ إِلَى بِلَادِ التَّوْحِيدِ، والجَرْيِ عَلَى غَرَضِ هَذَا الأَمْرِ

---

(1) اقتباس من القرآن الكريم.

(2) الصياصي: القمم الشامخة من الجبال.

(3) ابن الرنك: في الروض المعطار ورد على سد الرند صاحب قفصة الذي أمره بالانتقال إلى مراكش فولاه على سلا إلى أن توفي. ولعل المؤلف هنا ذكره باسم من أسماء النصارى.

(4) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾. سورة القلم، الآية: 49.

(5) فيه نفس قرآني.



الرَّشِيدِ، وَخَلُصَتْ لِلْمُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمْ اللهُ- هَذِهِ المَدِينَةُ العَتِيقَة، والقَاعِدَةُ الوَثِيقَةُ، الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ جَمَالِ الوَضْعِ، وحَصَانَةِ الصُّنْعِ، واتِّسَاعِ الخُطَّةِ، وَشَرَفِ البُقْعَةِ، واعْتِلَاءِ الذِّرْوَةِ، وامْتِنَاعِ الصَّهْوَةِ، مَالَا يُوجَدُ إِلَّا فِيهَا لِأَنَّهَا مَعَ عَتَاقَةِ البِنَاءِ، وَسِعَةِ الفِنَاءِ، قَدْ عَمِرَ خَارِجُهَا مِنْ جَمِيعِ الجِهَاتِ بِسَوَادٍ يَجْمَعُ النَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ والزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ، وفَوَاكِهَ ذَات أَلْوَانٍ، صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ[1]، تَتَفَجَّرُ عَلَيْهَا عُيُونٌ مُسْتَبْحِرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ دَاخِلِ البَلْدَةِ فَتَسْقِي كُلَّ جَنَّةٍ بِقِسْطٍ مَقْسُومٍ، وَشِرْبٍ مَعْلُومٍ[2] [وَأُنْبِطَتْ][3] خِلَالَ سَوَادِهَا مِيَاهٌ تَسْقِي مَا ارْتَفَعَ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى العُيُونِ. وامْتَدَّ ذَلِكَ أَمْيَالًا يَجْرِي سَوَادُهَا عَلَى هَذَا الوَزْنِ المَوْزُونِ، وَمَعَ هَذَا الحُسْنِ الجَامِعِ، فَإِنَّ هَذِهِ البَلْدَةَ بِشَرَفِ وَضْعِهَا غَدَتْ مُتَوَسِّطَةً بَيْنَ بِلَادِ إِفْرِيقِيَّةَ وَبِلَادِ الجَرِيدِ[4] جَامِعَةً بَيْنَ تَسَاوِي النِّسْبَة إِلَى القَرِيبِ والبَعِيدِ، مُطِلَّةً عَلَى عَرَبِ هَذِهِ الجِهَاتِ ومَا اتَّصَلَ بِهَا إِلَى طَرَابُلُس بالقَهْرِ الشَّدِيدِ، آخِذَةً بِحَظٍّ وَافِرٍ مِنَ الصَّحْرَاءِ والأَرْيَافِ تَجْمَعُ الأَشْتَاتَ، وَتَقْمَعُ المُفْتَاتَ[5] وَإِذْ قَدْ صَرَفَهَا اللهُ إِلَى طَاعَةِ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ ومُلْكِهِ، فَسَيُوجَدُ عَظِيمُ مَنَابِهَا فِي هَذِهِ الأَصْقَاعِ، وَشَرَفِ غَنَائِهَا فِي هَذِهِ البِقَاعِ، بِضُرُوبِ مَنَافِعِهَا الجَمَّةِ الانْتِفَاعِ، وتَنْقَطِعُ بِهَا خَوَاطِرُ المُنَافِقِينَ الَّتِي كَانَتْ قَدْ سَوَّلَتْ لَهُمْ وَسَاوِسَ مِنَ الأَطْمَاعِ، وَيَتَفَرَّغُ بَعْدَ ذَلِكَ المُوَحِّدُون-أَعَانَهُمُ اللهُ - إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ العَرَبِ، وتَرْتِيبِ أَحْوَالِ الأَبْعَدِ مِنْهُمْ والأَقْرَبِ، وَتَتْمِيمُ الغَرَضِ فِي هَذَا الغَزْوِ السَّعِيدِ والمَطْلَبِ بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى، واللهُ المُسْتَعَانُ.

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٍ وَغَيْرِ صِنْوَانٍ﴾. سورة الرعد، الآية :4.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. سورة الشعراء الآية: 155.

(3) خرم بالأصل ولعل الصواب ما أثبتناه.

(4) بلاد الجريد: تطلق على مناطق واسعة في تونس غير أن توزر تعد قاعدتها، انظر الروض المعطار، ص: 144.

(5) المفتات: يقصد بها المفتئت أي الرجل الذي يقول الباطل والزور على الناس.



وعَرَّفْنَاكُمْ وَفَّقَكُمُ اللهُ بِهَذِهِ البُشْرَى والنِّعْمَةِ الكُبْرَى، لِتَبُثُّوهَا فِي أَنْدِيَتِكُمْ وأَقْطَارِكُمْ، [وتَجْعَلُوا] حَمْدَ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهَا دَأْبَ عَلَانِيَّتِكُمْ وإِسْرَارِكُمْ، وَقُطْبَ هَوَاجِسِ خَوَاطِرِكُمْ واعْتِبَارِكُمْ، وتَتَلَقَّوْا بالشُّكْرِ للهِ تَعَالَى وَافِدَهَا الَّذِي زَارَكُمْ فِي دِيَارِكُمْ [وَعَادَ] عَلَيْكُمْ بِتَوْفِيرِ حُظُوظِكُمْ مِنَ الرِّعَايَةِ وَإِيثَارِكُمْ، بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وَهُوَ حَسْبُنَا ونِعْمَ الوَكِيلِ.

والسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ. كُتِبَ يَوْمَ الخَمِيسِ رَجَب الفَرْد سَنَةَ سِتٍّ وسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَلِيِّ بْنِ نَارَارْ فِي فَتْحِ قَفْصَةَ:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللهُ بِنَصْرِهِ وأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ إِلَى الطَّلَبَةِ المُوَحِّدِينَ والأَشْيَاخِ والأَعْيَانِ والكَافَّةِ بِإِشْبِيلْيَةَ أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَكُمْ بِتَقْوَاهُ وَعَرَّفَكُمْ عَوَارِفَ حُسْنِهِ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلَائِهِ ونِعَمِهِ وَنُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَرَسُولِهِ. والحَمْدُ للهِ الَّذِي أَيَّدَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ العَلِيَّةَ وَنَصرَهَا، وأَعَزَّهَا وأَظْهَرَهَا وَرَفَعَ مَقَامَهَا وأَعْلَى مَظْهَرَهَا، وَوَهَبَ لِطَائِفَتِهَا المَنْصُورَةِ، ومَحَابَتِهَا المَبْرُورَةِ مِنْ إِنْجَادِهِ، وإِسْعَادِهِ، مَا سَهَّلَ مَرَامَاتِهِمْ وَيَسَّرَهَا، وَأَبْهَجَ نُفُوسَهُمْ وَبَشَّرَهَا، وَسَاوَى فِي تَحَقُّقِ إِنْجَازِهِ وَوُعُودِهِ، وتَيَقَّنَ اتِّصَالُ نَصْرِهِ العَزِيزِ عَلَى أَحْسَنِ مَعْهُودِهِ، مُضْمَرَهَا وَمُظْهَرَهَا، وكَتَبَ فِي إِعْلَاءِ دِينِهِ، وتَمْهِيدِ أَمْرِهِ وتَمْكِينِهِ، أَمَدَهَا المُمْتَدَّ وَأَثَرَهَا، وجَعَلَ كَلِمَتَهَا الظَّاهِرَةَ، ومَلَكَتَهَا الغَالِبَةَ القَاهِرَةَ، فَأَسْمَاهَا وأَظْفَرَهَا، وَأَرَى الفِئَةَ المُعَانِدَةَ، والأُشَابَةَ النَّافِرَةَ عَنِ اللهِ الشَّارِدَةَ مِنْ عَزَمَاتِهَا المُظْفَرَةِ، وَمُحَاوَلَاتِهَا المُيَسَّرَةِ، مَا رَعَاهَا وَبَهَرَهَا، وأَذَلَّهَا وقَهَرَهَا، وأَدَاهَا بَعْدَ الإِبَاءِ والعِنَادِ، إِلَى الإِذْعَانِ والانْقِيَادِ، وصَيَّرَهَا؛ والصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ المُبْتَعَثِ وَقَدْ أَظْهَرَتِ الجَهَالَةُ مُنْكَرَهَا، وَعَبَدَتِ الجَهَلَةُ طَاغُوتَهَا



وصُورَهَا، وأَتْبَعَتْ فِي خَبْطِ عَشْوَائِهَا وسَحَبَ فُضُولَ أَهْوَائِهَا عَمَايَتَهَا المُضِلَّةِ وَسَدَرَهَا فَأَزْهَقَ اللهُ بِحَقٍّ بَاطِلَهَا وأَخْمَدَ شَرَرَهَا، وأَخَذَ عَلَى النَّارِ وَمَزَالِقِ العِثَارِ بِحَجْزِهَا وَبَشَّرَهَا وأَنْذَرَهَا؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ بَوَّأَتْهُمْ القَرَابَةُ مَحَلَّهَا وخَوَّلَتْهُمُ الصُّحْبَةَ أَثَرَهَا، والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ، المَهْدِيِّ المَعْلُومِ، المُظْهِرِ لِشَرِيعَةِ جَدِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَمَا أَخفَاهَا الضَّلَالُ وأَضْمَرَهَا وأَشْعرَهَا لِلْبَاطِلِ مِنْ تَبْدِيلِهِ وتَغْيِيرِهِ مَا أَشْعرَهَا، فَقَامَ بأَمْرِ اللهِ يَصْدَعُ بِنُورِهِ دَاجِيَهَا وَيَجْلُو مُعْتَرَكَهَا، وَيُوَضِّحَ سُبُلَهَا الطَّامِسَةِ فيُحْيِي دَاثِرَهَا، وَيُمِيتُ مُدَثَّرَهَا، حَتَّى أَعَادَهَا عَلَى جَدَّتِهَا اللَّاحِبَةِ البَيِّنَةِ وَقَرَّرَهَا؛ وَعَنْ مُظَاهِرِهِ وَمُؤَازِرِهِ، وخَلِيفَتِهِ وَصَاحِبِهِ وَنَاصِرِهِ، الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ الَّذِي بَثَّ كَلِمَتَهُ الهَادِيَةِ وَنَشَرَهَا، وَرَقَاهَا فِي مَرَاقِي السَّمَاءِ، وَمَدَارِجِ الاكْتِمَالِ والانْتِهَاءِ، مُبَيِّنًا أَعْرَاضَهَا وَمُظْهِرًا غُرَرَهَا، وَوَصَلَهَا إِلَى غَايَتِهَا مِنَ الارْتِقَاءِ والاعْتِلَاءِ، فأَوْضَحَ مَعَالِيَهَا وأَطْلَعَ نَيِّرَهَا.

فَإِنَّ كِتَابَنَا إِلَيْكُمْ عَرَّفَكُمُ اللهُ بَشَائِرَ هَذَا الأَمْرِ المُتَوَارِدَةَ، وَفُتُوحَهُ المُتَنَاصِرَةَ المُتَعَاضِدَةَ، مَا يَمْلَأُ أَسْمَاعَكُمْ، وَيَعْمُرُ بِوَافِرِ المَسَرَّاتِ، وَوَارِدِ المُبْهِجَاتِ المُبَشِّرَاتِ، أَرْجَاءَكُمْ وأَصْقَاعَكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي شُكْرِ نِعَمِهِ والتَّحَدُّثِ بآلَائِهِ الجَمَّةِ وَقِيَمِهِ تَلَاقِيكُمْ واجْتِمَاعَكُمْ. مِنْ دَاخِلِ قَفْصَةٍ -مَهَّدَهَا اللهُ- وَقَدْ فَرَّجَ النَّصْرُ العَزِيزُ مُبْهَمَهَا، وأَنَارَ الفَتْحُ المُبِينُ مُظْلِمَهَا، وأَعَادَهَا إِلَى مَلَكَةِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ وَنَظَمَهَا، وأَلْهَمَ أَهْلَهَا رُشْدَهُمْ وَهَدَاهُمْ، وصَرَفَهُمْ عَنْ غَيِّهِمْ الَّذِي اسْتَهْوَاهُمْ بَعْدَ أَن امْتَدَّ فِي الضَّلَالَةِ مَدَاهُمْ، واتَّخذُوا جَهْلًا وعِنَادًا إِلَهَهُمْ هَوَاهُمْ[1] فتَلَافَاهُمْ بِرَحْمَتِهِ وآوَاهُمْ، إِلَى حَرَمِ هَذَا الأَمْرِ وَعِصْمَتِهِ، وَمَدَّ عَلَيْهِمْ رِوَاقَ أَمْنِهِ وَظِلَّ أُمْنَتِهِ وانتاشَهُمْ وَقَدْ أَشْفَوْا عَلَى جُرُفِ العَطَبِ وَهُوَّتِهِ. وَقَدْ عَلِمْتُمْ -أَعْلَمَكُم اللهُ رَشَادَكُمْ- مَا كَانَ مِنَ المُتَنَزِّي فِيهَا مِنَ الإِيضَاعِ فِي الفِتْنَةِ والمروقِ مِنَ الطَّاعَةِ والوُلُوجِ فِي غَيَابَاتِ

(1) لعله مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. سورة الفرقان، الآية: 43.



الارْتِدَادِ والمَعْصِيَةِ، وأَنَّهُ اسْتَدْعَى مِنْ ذُؤْبَانِ الأَعْرَابِ وأَوْبَاشِ الأَكْرَادِ أَشْبَاهَهُ فِي الضَّلَالَةِ، ونُظَرَاءَهُ فِي الغَيِّ والجَهَالَةِ؛ فَشَنَّ الغَارَاتِ بِهِمْ، وقَطَعَ السُّبُلَ مَعَهُمْ، وَتَوَصَّلَ إِلَى السَّعْيِ فِي الأَرْضِ بالفَسَادِ بِسَبَبِهِمْ، فَتَرَاكَضُوا جَمِيعًا فِي مِيدَانِ العَيْثِ، واسْتَوْلَوْا فِي حَلْبَةِ الاعْتِدَاءِ وأَجْرَوْا مِلَاءَ أَعِنَّتِهِمْ بالخَلَاءِ(1)، وغَرَّهُمْ مُمْتَدُّ الإِمْهَالِ وَالإِمْلَاءِ، فَاقْتَرَفُوا إِثْمًا وانْهَمَكُوا فِي اسْتِحْلَالِ المَحَارِمِ [جُرْأَةً] عَلَى اللهِ وَبَغْيًا، فَتَعَيَّنَ حَسْمُ دَائِهِمْ، وَوَجَبَ تَوْجِيهُ النَّظَرِ إِلَى إِطْفَاءِ نَارِهِمْ.

وكُنَّا -وَفَّقَكُمُ اللهُ- عِنْدَ احْتِلَالِنَا بِإِفْرِيقْيَا -حَاطَهَا اللهُ- عَرَّفْنَاكُمْ بِمُوجِبِ هَذِهِ الحَرَكَةِ المُبَارَكَةِ وأَنَّهَا لَمْ يَتَقَدَّمْهَا قَصْدٌ وَلَا أُعْمِلَ فِيهَا فِكْرٌ، ولَا مُهِّدَ لَهَا بِتَعْوِيلٍ عَلَيْهَا ولَا عَزْمٍ، وأَنَّ مُحَرِّكَهَا القَدَرُ المُسْعِدُ، والبَاعِثُ عَلَيْهَا لِفَوْرِ الأَخْذِ فِيهَا صُنْعُ اللهِ المُؤَازِرُ وَعَوْنُهُ المُنْجِدُ؛ وأَعْلَمْنَاكُمْ بَعْضَ مَا انْطَوَى فِيهَا مِنَ الخَيْرَاتِ المُتَّصِلَةِ والبَرَكَاتِ التَّامَّةِ والإِرَادَاتِ المُيَسَّرَةِ، ومَا كَانَ مِنْ وُصُولِ أَشْيَاخِ العَرَبِ وأَعْيَانِهِمْ، وَإِهْطَاعِهِمْ إِلَى دَاعِي هَذَا الأَمْرِ وَبِدَارِهِمْ. وكَانَ مِنْ قَصْدِنَا فِيهَا وَإِرَادَتِهَا بِهَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ هَذِهِ المِدْرَةِ وَإِزَاحَةِ عِلَّتِهَا وَتَطْهِيرِ هَذِهِ الأَصْقَاعِ مِنْ دَرَنِهَا إِذْ كَانَتْ شَجًى فِي صُدُورِ أَهْلِهَا، وَقَذًى فِي عُيُونِ قُطَّانِهَا، لِكَوْنِهَا أَضْحَتْ مَرْكَزًا لِلْمُفْسِدِينَ، ومَأْوًى لِلْمُتَمَلِّصِينَ المُتَمَرِّدِينَ. وكُنَّا نَتَحَقَّقُ أَنَّ الدَّوَاءَ الأَنْجَعَ فِي دَائِهَا، والأَمْرَ الأَنْفَعَ فِي مُحَاوَلَتِهَا، وُصُولُ جَمِيعِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- إِلَيْهَا وَنُزُولُ جُمْلَتِهِمْ عَلَيْهَا. وَكَانَ مِمَّا خَدَعَ الفُسَّاقَ الَّذِينَ كَانُوا بِهَا وَغَرَّهُمْ واسْتَقْدَاهُمْ إِلَى التَّمَادِي عَلَى الإِضْرَارِ واسْتَجَرَّهُمْ، حَصَانَةُ بَلَدِهِمْ وَشُهُوقُ أَسْوَارِهِمْ وَوُعُورَةُ مَوَالِجِهِمْ، وَحَرَجُ مَدَاخِلِهِمْ، وإِحَاطَةُ الصَّحْرَاءِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِهِمْ وَعَدَمُ الأَقْوَاتِ فِي البِلَادِ المُجَاوِرَةِ لَهُمْ، وَتَعَذُّرُ جَلْبِهَا مِنَ المَوَاضِعِ النَّائِيَةِ عَنْهُمْ، وأَنَّ كُلَّ عَسْكَرٍ يُنَازِلُهُمْ مِنْ جَمِيعِ هَذِهِ الجِهَاتِ يَسْتَقِلُّونَ بِمُقَاوَمَتِهِ، وَيَنْهَضُونَ بِمُرَافَعَتِهِ، وَأَنَّ العَسَاكِرَ الكَبِيرَةَ والجُمَلَ العَدِيدَةَ لَا يَتَهَيَّأُ لَهَا المُقَامُ عَلَيْهِمْ، ولَا يُمْكِنُهَا مُطَاوَلَةُ حِصَارِهِمْ لِكَثْرَةِ مَا

---

(1) مقتبس من المثل العربي: «كُلُّ مُجْرٍ بِخَلَاءٍ يُسَرُّ». مجمع الأمثال 2/ 162، المثل رقم: 3007.



تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الأَقْوَاتِ ونَزَارَةِ مَا يَعُمُّهَا فِي طَرِيقِهَا إِلَيْهِمْ مِنَ المَرَافِقِ والمِيَاهِ. وهَيْهَاتَ أَنْ تُحَصِّنَ مِنْ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ الشَّوَاهِقُ، أَوْ تَحُولُ دُونَ مَرَامِهِ المَهَامِهُ الفِيحُ والسَّمَالِقُ؛ فَهُوَ أَمْرُ اللهِ العَزِيزِ جَانِبُهُ، المَكْبُوتِ مُنَاوِئُهُ وَمُجَانِبُهُ، المَأْخُوذِ بِيَدِ القَهْرِ والقَسْرِ مُقَاوِمُهُ ومُغَالِبُهُ. فَقَدَّمْنَا بَيْنَ أَيْدِينَا طَلَبَةَ بِجَايَةَ -وَفَّقَهُمُ اللهُ- مَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُمْ مِنْ عَسَاكِرِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الَّتِي بِبِجَايَةَ وَإِفْرِيقْيَةَ وَفَّرَهَا اللهُ -تَقْدِمَةً لِلْأَعْذَارِ، وأَخْذًا بالحُجَّةِ والاَسْتِظْهَارِ، لِيَنْتَبِهُوا مِنْ سِنَاتِ الاغْتِرَارِ، وَيَثُوبُوا إِلَى الإِرْعِوَاءِ والاسْتِبْصَارِ، ويَقْرَعُوا بالبُخُوعِ والطَّاعَةِ، والرُّجُوعِ والانْتِظَامِ فِي سِلْكِ الجَمَاعَةِ، بَابَ المَتَابِ والاسْتِغْفَارِ؛ فَتُقْبَلُ تَوْبَتُهُمْ، وَتُقَابَلُ بالصَّفْحِ الجَمِيلِ أَوْبَتُهُمْ، وَتُقَالُ عِثَارُهُمْ، وَتُغْفَرُ زَلَّتُهُمْ، فَأَبَى لَهُمْ شَيْطَانُهُمْ وَغَلَبَتْ عَلَيْهِمْ شِقْوَتُهُمْ، وتَمَادَوْا عَلَى بَغْيِهِمْ، واسْتَمَرُّوا عَلَى ضَلَالِهِمُ القَدِيمِ وَغَيِّهِمْ.

وكُنَّا بَعْدَ انْفِصَالِ الطَّلَبَةِ-أَعَزَّهُمُ اللهُ عَنَّا- نَهَضْنَا بِجُمْلَةِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- نَؤُمُّ القَيْرَوان-كَلَأَهَا اللهُ- لِيَكُونَ طَرِيقَنَا عَلَيْهَا. وَقَبْلَ وُصُولِنَا إِلَيْهَا وَافَتْنَا كُتُبُ الطَّلَبَةِ المَذْكُورِينَ مُعَرِّفِينَ بِأَنَّ الأَخْسَرِينَ أَوْقَدُوا لِلْعِصْيَانِ نَارَهُ، واسْتَشْعَرُوا إِشْعَارَهُ، وَرَفَعُوا لِلدِّفَاعِ أَعْلَامَهُ وَأَخَذُوا لَهُ أَوْزَارَهُ. فاسْتَخَرْنَا اللهَ تَعَالَى النُّهُودَ إِلَيْهِمْ، وأَمْضَيْنَا العَزَائِمَ المُؤَيَّدَةَ عَلَى الحُلُولِ بِسَاحَتِهِمْ والإِطْلَالِ عَلَيْهِمْ. ونَهَضْنَا مَعَ المُوَحِّدِينَ-أَعَزَّهُمُ اللهُ- ودَلَائِلُ النُّجْحِ بَادِيَةٌ، ومَخَايِلُ الفَتْحِ لائِحَةٌ، وَعَلَامَاتُ الظَّفَرِ مُتَّضِحَةٌ ظَاهِرَةٌ، وَمَعُونَةُ اللهِ تَعَالَى بِتَسْهِيلِ المَطْلَبِ وإِدْنَاءِ المَرَامِ مُتَّصِلَةٌ ضَامِنَةٌ، وَلَمْ يَعْدَمِ المُوَحِّدُونَ-أَعَزَّهُمُ اللهُ- فِي طَرِيقِهِم [مَرْفِقًا] وَلَا لَقُوا -والحَمْدُ للهِ- مِنْ سَفَرِهِمْ نَصَبًا، إِذْ غَدَوْا عَلَى طُرُقٍ بَعُدَ العَهْدُ بِسُلُوكِهَا، واسْتَبْهَمَتْ عَلَى غَمْرَةِ هَذِهِ الأَصْقَاعِ مَنَاهِجُهَا وَسُبُلُهَا، وأَلْفَوْا مِنَ المَرَافِقِ الوَاسِعَةِ والمِيَاهِ المَعِينَةِ مَا لَمْ يَحْتَسِبْهُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا خَطَرَ عَلَى بَالٍ وَلَا دَارَ فِي خَلَدٍ؛ وتَيَقَّنَ أُولُوا الأَلْبَابِ وَتحَقَّقَ أَهْلُ الاعْتِبَارِ بِأَنَّ هَذَا الأَمْرَ مَصْنُوعٌ لَهُ وَمُؤَيَّدٌ عَزْمُهُ، ومُكْتَنَفٌ بِعَوْنِ اللهِ مُرَادُهُ وَرَوْمُهُ، وَأَنَّ العِنَايَةَ الإِلَهِيَةَ والمَعُونَةَ الرَّبَّانِيَةَ تُنْجِدَانِ عَزَائِمَهُ وَتُيَسِّرَانِ أَغْرَاضَهُ وَمَطَالِبَهُ. واسْتَمَرَّ سَيْرُ المُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- عَلَى هَذِهِ الحَالَةِ المَوْصُوفَةِ والصُّورَةِ المَجْلُوَّةِ إِلَى أَنْ وَصَلُوا إِلَيْهَا



وأَنَاخُوا بِفَنَائِهَا؛ فلأَوَّلِ إِشْرَافِهِمْ عَلَيْنَا ارْتَبَكَ الأَشْقِيَاءُ فِي مَهَاوِي المَعَاطِبِ، وَأَبْدَوْا صَفْحَةَ المُنَاصِبِ المُطَالِبِ، وَكَشَفُوا عَنْ سَاقِ المُجَاهِدِ المُحَارِبِ، ظَانِّينَ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ العَظِيمَ [تَرُدُّهُ][1] سَامِقَاتُ المَعَاقِلِ وَطَامِحَاتُ [المَرَاقِبِ][2]، وَلَوْ أَحْصَنَتِ البَوَاذِخُ وأَكَنَّتْ، وَدفَعَتِ الشَّوَامِخُ عَنِ المُسْنَدِ إِلَيْهَا وَأَجَنَّتْ، لِمَنْعِهِمْ هَذَا الحِصْنَ الَّذِي تُعَاقِبُ النَّجْمَ هَضَبَاتُهُ، وَتُزِلُّ العِصْمَةَ قَذَفَاتُهُ، وَتَتَلَفَّعُ بِنَسْجِ الغَمَائِمِ بُرُوجُهُ وَشُرُفَاتُهُ، لَكِنَّ أَمْرَ اللهِ لَا تُعَدُّ عَزَمَاتُهُ، ولَا تُقَامُ بَطْشَاتُهُ وسَطْوَاتُهُ. واشْتَغَلَ المُوَحِّدُونَ بِتَرْتِيبِ نُزُولِهِمْ وَتَهْيِئَةِ مُرُوسِهِمْ، واضْطِرَابِ مَحَلَّاتِهِمْ بأَفْنِيَتِهِمْ؛ فَلَمَّا أَصْبَحُوا زَحَفُوا إِلَيْهِمْ وَنَصْرُ اللهِ يُؤَازِرُهُمْ، وصُنْعُهُ الكَرِيمُ يُظَاهِرُهُمْ؛ فَنَازَلُوهُمْ أَشَدَّ نِزَالٍ، وصَالُوا عَلَيْهِمْ أَعْظَمَ مَصَالٍ، وَأَرَوْهُمْ مِنْ هَوْلِ المَصَاعِ وَصِدْقِ القِتَالِ، مَا قَصَرَهُمْ عَنِ الاسْتِرْسَالِ، وَصَيَّرَهُمْ بَعْدَ التَّبَسُّطِ، والإِقْدَامِ إِلَى الانْقِبَاضِ والانْخِزَالِ؛ فانْكَمَشُوا فِي أَجْحَارِهِمْ، ولَاذُوا بِقُنَنِهِمْ المُنِيفَةِ وأَسْوَارِهِمْ، وأَجْرَوْا طَلَقَ شَرِّهِمْ فِي مِضْمَارِ انْخِدَاعِهِمْ بِمَعْقِلِهِمْ واغْتِرَارِهِمْ. وكَانَتْ حَوْلَ البَلَدِ غُرُوسٌ وَبِنَاءَاتٌ وعَّرَتِ المَسَالِكَ وضَيَّقَتِ المَنَافِذَ، وأَشَّبَتِ المَدَاخِلَ إِلَيْهِمْ والمَخَارِجَ؛ أَخَذَ المُوَحِّدُونَ -وَفَّقَهُمُ اللهُ- فِي هَدْمِهِمَا وَنَظَرُوا فِي إِزَالَتِهَا، وَجَدُّوا فِي تَعْفِيَةِ رُسُومِهَا؛ ونَقَلُوا مَضَارِبَهُمْ بِحَيْثُ يَسْمَعُونَ سَرَائِرَهُمْ ويَتَعَرَّفُونَ مَعَ اللَّحَظَاتِ أَحْوَالَهُمْ، وأَحْدَقُوا بِهِمْ أَتَمَّ إِحْدَاقٍ، وأَحَاطُوا بِمَدِينَتِهِمْ إِحَاطَةَ الأَطْوَاقِ بالأَعْنَاقِ، وَشَدُّوا عَلَيْهِمْ أُنْشُوطَةَ الحِصَارِ والعِتَاقِ، وسَدُّوا دُونَهُمْ خَصَاصَ الأَنْقَابِ والأَنْفَاقِ، وَلَمْ يُوجِدُوهُمْ مَنْفَسًا لِانْسِرَابٍ ولَا مَذْهَبًا لِارْتِفَاقٍ، وأَشْفَوْا بِهِمْ مِنْ ضَنْكِ النَّكَالِ وضِيقِ المَجَالِ عَلَى شَفَا الأَرْمَاقِ، وَنَصَبُوا عَلَيْهِمْ مَجَانِيقَ بَلَغَتْ فِي نِكَايَتِهِمُ المَبَالِغَ، وَأَحَلَّتْ بِهِمُ القَوَاصِمَ والدَّوَامِغَ، ونَهَكَتْ أَسْوَارَهُمْ وَهَدَمَتْ دِيَارَهُمْ، وَعَفَتْ آثَارَهُمْ، وأَصْلَتْهُمْ بَاغِتَ الحِمَامِ وَوَحِيَّ المَوْتِ الزُّؤَامِ أُمَّهُمُ الهَاوِيَةَ وَنَارَهُمْ؛ وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا تَسْعَى بِهِمْ إِلَى مَنْجَاتِهِمْ قَدَمٌ، ولَا يَهْدِيهِمْ إِلَى اسْتِنْزَالِ الأَمَانِ، وتَطَلُّبِ العَفْوِ والغُفْرَانِ، نُزُوعٌ عَنِ العِصْيَانِ، ولَا

(1) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) خرم بالأصل.



نَدَمٌ؛ ولَا [زَادَهُمْ] مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا لَجَاجًا فِي تَهَوُّرِهِمْ، وتَتَابُعًا عَلَى عَمَهِهِمْ وَتَحَيُّرِهِمْ، واسْتِيطَاءً لِمَرْكَبِ الاسْتِنَامَةِ إِلى قَرْيَتِهِمُ المُحَصَّنَةِ وجُدُرِهِمْ.

فَرَأَيْنَا -والمُسْتَعَانُ اللهُ- أَنَّ مُقَاتَلَتَهُمْ بِالآلَاتِ تَعْلُو عَلَيْهِم ويَتَعَجَّلُ مَعَهَا مَرَامُ أَخْذِهِمْ، أَصْلَحُ بالمُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- وأَصْوَنُ لَهُمْ وَأَوْفَقُ لِمَا نُوثِرُهُ مِنَ الشُّحِّ بِهِمْ، والاحْتِيَاطِ عَلَيْهِمْ، مَعَ مَا فِي ذَلِكَ لِهَذَا الأَمْرِ مِنْ فَخَامَةِ التَّنَاوُلِ وَعِزَّةِ القَهْرِ وَظُهُورِ القُوَّةِ وإِرْهَابِ العَدُوِّ. وَإِنْ كُنَّا نَتَحَقَّقُ أَنَّ وَعْدَ اللهِ لأَمْرِهِ العَزِيزِ نَاجِزٌ، وَنَصْرَهُ لِحِزْبِهِ المُفْلِحِ لَا يَحْجِزُهُ حَاجِزٌ، فَالنَّظَرُ فِي الأَسْبَابِ لَا يُنَاقِضُ هَذَا العَقْدَ المُتَمَكِّنَ، ولَا يُنَافِي الثِّقَةَ باطِّرَادِ فَتْحٍ لأَوْلِيَائِهِمْ عَلَى سَنَنِهِ اللَّاحِبِ وَنَهْجِهِ البَيِّنِ. فَأُخِذَ فِي عَمَلِ مَا يَصْلُحُ لِذَلِكَ مِنَ الآلَاتِ والأَشْكَالِ، وَصُرِفَ إِلَى التَّهَمُّمِ بِهَا والعُكُوفِ عَلَيْهَا وَجْهُ القَصْدِ والاشْتِغَالِ، فَتَيَسَّرَتْ -والمَحْمُودُ اللهُ- فِي أَقْرَبِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الآمَادِ والآجَالِ. واتَّفَقَ بِيُمْنِ هَذَا الأَمْرِ السَّعِيدِ وبَرَكَاتِهِ، وَبَرَاهِينِهِ الوَاضِحَةِ وآيَاتِهِ، أَنْ جَلَبَ النَّصَارَى العُودَ المُوَافِقَ لِذَلِكَ، وَلَمْ تَجْرِ عَادَتُهُمْ بِجَلْبِهِ ولَا سَبَقَ لَهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا العَامِ الخُرُوجُ إِلى سَوَادِ إِفْرِيقْيَةَ ومَا تَهَيَّأَ مِنْ تَوْصِيلِهِ إِلَى هَذِهِ الصَّحْرَاءَ مَعَ عِظَمِ أَجْزَائِهِ وَتَفَاوُتِ خَشَبِهِ؛ وَذَلِكَ مَعْدُودٌ مِنْ خَوَارِقِ العَادَاتِ، وَمُضَافٌ إِلَى مَا سَلَفَ لِهَذَا الأَمْرِ السَّعِيدِ مِنْ مُظَاهَرَةِ الأَقْدَارِ وَمُسَاعَدَةِ السَّعَادَاتِ، صُنْعٌ مِنَ اللهِ كَرِيمٌ، وَمَنٌّ جَسِيمٌ وَعَوْنٌ مِنْهُ سُبْحَانَهُ لَا يَبْرَحُ وَلَا يَرِيمُ. وكَانَ مِنْ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ المُحَاوَلَاتِ أَنْ يَزْدَجِرُوا وَيَدَّكِرُوا، وَيُرَاجِعُوا عُقُولَهُمُ العَازِبَةَ وَيَسْتَنْصِرُوا، وَيَكُفُّوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الغَوَايَةِ وَيُقَصِّرُوا، فَرَانَتِ الجَهَالَةُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَعْمَتِ الضَّلَالَةُ أَبْصَارَهُمْ، وأَصْمَتِ العَمَايَةُ آذَانَهُمْ، فَلَمْ يُطَوِّرُا بِجَانِبِ التَّوْبَةِ، وَلَا يُسِّرُوا لِلْفَيْئَةِ إِلَى أَمْرِ اللهِ وَالأَوْبَةِ؛ وَالمُوَحِّدُونَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ تَتَحَرَّكُ حَفَائِظُهُمْ لِغَزْوِهِمْ، وَتَلَمَّظُ شِفَارُهُمْ لإِبَادَتِهِمْ وَمَحْوِهِمْ. وَعِنْدَمَا قَرُبَ كَمَالُ الآلَاتِ وتَمَامُهَا، دَنَا اتِّسَاقُهَا عَلَى الغَرَضِ المَقْصُودِ مِنْهَا وانْتِظَامُهَا، وَكَادَ يُحْرِقُ جَوَانِبَ الغُزَاةِ -أَعَانَهُمُ اللهُ- احْتِدَامُهَا لإِبَادَتِهِمْ واضْطِرَامُهَا، رَأَيْنَا أَنْ نُكَرِّرَ الأَعْذَارَ إِلَيهِمْ وَنَزِيدَ تَمْكِينًا وَتَوْكِيدًا قِيَامُ الحُجَّةِ عَلَيْهِمْ. فَأَرْسَلْنَا إِلَيهِم أَشْيَاخًا مِنَ المُوَحِّدِينَ وَالطَّلَبَةِ وَالعَرَبِ -وَفَّقَ اللهُ جَمِيعَهُمْ- لِيُعَرِّفُوهُمْ



أَنَّا نَرْفَعُ عَنْهُمُ السَّيْفَ إِنْ تَابُوا، وَنَبْذُلُ لَهُمُ الأَمْنَ إِنْ رَجعُوا إِلَى الأَمْرِ العَزِيزِ وَأَنَابُوا؛ فَعَتَوْا واسْتكْبَرُوا، وأَشِرُوا وبَطِرُوا، وَجَحَدُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ المِنَّةِ العُظْمَى وَكَفَرُوا، وَفُتِّحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ فَنكَصُوا عَنْ دُخُولِهَا وَقَهْقَرُوا؛ فَعَرَفَ المُوَحِّدُونَ -وَفَّقَهُمُ اللهُ- بأَنَّهُمْ عَمُوا عَنِ النَّذَارَةِ وَصَمُّوا- وَتَرَدَّوْا بِرِدَاءِ جَهَالَتِهِمْ وَاعْتَمُّوا، واسْتَمَرُّوا عَلَى عِنَادِهِمْ وأَتَمُّوا؛ فازْدَادَتْ حَفَائِظُهُمْ التِظَاءً، ونِيَّاتُهُمْ خُلُوصًا فِي جِهَادِهِمْ وَصَفَاءً، وعَزَائِمُهُمْ تَصْمِيمًا عَلَى غَزْوِهِمْ وَمَضَاءً. فَأَذِنَّا لَهُمْ فِي مُنَاجَزَتِهِمْ وَحَضَضْنَاهُمْ عَلَى الجِدِّ فِي نِزَالِهِمْ واغْتِنَامِ الأُجُورِ فِي قِرَاعِهِمْ، فَنَصَبُوا لَهُمُ الحَرْبَ مُسْتَعِينِينَ باللهِ، مُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ، رَاجِينَ جَسِيمَ ثَوَابِهِ، مُنْتَجِزِينَ كَرِيمَ وَعْدِهِ، فِي مَنْ حَادَ أَمْرهُ وَعَنَدَ عَنْ سَبِيلِهِ، وأَبَاحَ مَحَارِمَهُ واتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ[1] فَشَاهَدُوا مِنْ جَدِّهِمْ وَشَدِّهِمْ مَا زَلْزَلَ أَقْدَامَهُمْ، وأَذْهَبَ جُرْأَتَهُمْ وَإِقْدَامَهُمْ، وأَظْهَرَ نُكُوصَهُمْ وإِحْجَامَهُمْ، وأَكْذَبَ أَمَلَهُمْ فِي الاحْتِمَاءِ ومَرَامَهُمْ.

وَتَمَادَى الشُّغْلُ فِي الآلَاتِ المُبَارَكَةِ إِلَى أَنْ تَمَّتْ عَلَى المُرَادِ مِنْهَا، وَتَهَيَّأَتْ حَسَبَ القَصْدِ بِهَا، ثُمَّ اسْتُخِيرَ اللهُ تعالَى فِي إِدْنَائِهَا إِلَيْهِمْ، وتَقْرِيبِهَا مِنْهُمْ، فَقُدِّمَتْ، ونَصْرُ اللهِ يَقْدُمُهَا وتَأْيِيدُهُ يَكْنفُهَا، وَعَوْنُهُ يُمَهِّدُ وَيُطْرِقُ لَهَا، فانْتَهَتْ إِلَى حَفِيرَتِهِمْ، واسْتَعْلَتْ عَلَى أَسْوَارِهِمْ، وتَضَاءَلَتْ لَهَا مُنِيفَاتُ جُذُورِهِمْ، وصَبَّتْ عَلَيْهِمْ سَوْطَ عَذَابٍ[2]، وَرَمَتْهُمْ بالصَّيْلَمِ الصَّمَّاءِ، والدَّامِيَّةِ [الدَّهْيَاءِ]، وَمَنَّاهُمُ اللهُ بِمَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ، ولَا اسْتِطَاعَةَ عَلَى مُقَاوَمَتِهِ وَدَفْعِهِ. واسْتَمَرَّتِ الحَالُ فِي التَّوْطِئَةِ لَهَا، وَرَدْمِ الخَنْدَقِ أَمَامَهَا أَيَّامًا، والحَرْبُ تَكْلَمُهُمْ، والحَيْنُ يُبْرِزُهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ وَيَقْدُمُهُمْ. وكَانُوا قَدْ بَالَغُوا فِي تَأْشِيبِ الخَنْدَقِ وَتَحْصِينِهِ، بِمُجَاوَزَةِ الحَدِّ فِي تَوْعِيرِهِ وَتَوْسِيعِهِ. فانْشَغَلَ المُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- فِي تَسْوِيَتِهِ وَرَدْمِهِ، ونَاوَشَتْهُم القِتَالَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ لَمْ يَتَوَفَّرْ اسْتِعْدَادُهَا، ولَمْ تَكْتَرِثْ بِسَبَبِ اشْتِغَالِ سَائِرِ المُوَحِّدِينَ بالخَنْدَقِ أَعْدَادُهَا، فَأَهَبَّ اللهُ

(1) هذا مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. سورة الجاثية، الآية: 22.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾. سورة الفجر، الآية: 13.



رِيحَ النَّصْرِ لأَنْصَارِ الحَقِّ وحُمَاتِه، وأَوْلِيَائِه الذَّابِّينَ عَنْ حُرُمَاتِهِ المُجَاهِدِينَ لإِعْزَازِ أَمْرِهِ وإِعْلَاءِ كَلِمَاتِهِ؛ فاقْتَحَمُوا السِّتَارَةَ عَلَيْهِمْ ودَخَلُوهَا عَنْوَةً عَنْ صُدُورِهِمْ، وَهَدَمُوا بُرْجًا مِنْ أَبْرَاجِهَا ومَسَافَةً مُمْتَدَّةً مِنْهَا؛ وقَتَلُوا عِنْدَهَا جُمْلَةً مِنْ جُلَدَائِهِمْ، وَجُمْلَةً مِنْ نُخَبِ شُجْعَانِهِمْ وَأَشِدَّائِهِمْ، وعَظَّتْهُمُ الحَرْبُ -هُنَالِكَ- بِأَنْيَابِهَا، وَمُدَّتِ الحُتُوفُ إِلَيْهِمْ بِأَسْبَابِهَا، ودَخَلَتِ المَنَايَا عَلَيْهِمْ مِنْ جَمِيعِ أَبْوَابِهَا وأَنْقَابِهَا، فَأَدْهَشَهُمْ مَا عَايَنُوهُ مِنْ ذَلِكَ وَهَالَهُمْ، وأَوْهَنَ كَيْدَهُمْ وأَضْعَفَ مُحَالَهُمْ، وأَضَاقَ عَنِ المُصَابَرَةِ ذَرْعَهُمْ وقَصَّرَ فِيهَا مَجَالَهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنْ لَا وَزَرَ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَلَا مَنْجَى لَهُمْ، وعَلِمُوا أَنَّهُمْ إِنْ تَأَخَّرُوا فُوَاقَ نَاقَةٍ، أَوْ اسْتَأْنَوْا ارْتِدَادَ لَحْظَةٍ، دَارَتْ بِهِمُ الدَّائِرَةُ، ونَزَلَتِ القَاصِمَةُ الفَاقِرَةُ، ودَخَلَ المُوَحِّدُونَ المَدِينَةَ عَلَيْهِمْ واسْتَبَاحُوهُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ. فَأَلْقَوْا يَدَ الخُضُوعِ وَالقِيَادِ، وأَلْظَوْا بالاسْتِغْفَارِ والمَتَابِ، وبَادَرُوا بِإِرْسَالِ أَشْيَاخِهِمْ وأَعْيَانِهِمْ وأَهْلِ الحَلِّ والعَقْدِ مِنْهُمْ بَاخِعِينَ بالطَّاعَةِ مُسْتَقِيلِّينَ مِنَ العَثْرَةِ مُسْتَصْفِحِينَ عَنْ سَالِفِ الجَرِيرَةِ والزَّلَّةِ، رَاغِبِينَ فِي قَبُولِ الإِنَابَةِ والتَّوْبَةِ، مَادِّينَ لِطَلَبِ الأَمَانِ أَيْدِي الاسْتِخْذَاءِ والضَّرَاعَةِ، مُسْتَنْزِلِينَ مِنْ فَضْلِ هَذَا الأَمْرِ مَا لَمْ يَزَلْ يَعْهَدُ مِنَ العَفْوِ بَعْدَ الغَلَبِ والقُدْرَةِ. فَقُبِلَ مَتَابُهُمْ، وَوُصِلَتْ بِسَبَبِ التَّجَاوُزِ أَسْبَابُهُمْ، وكَانَ إِلَى حَمِيدِ العَاقِبَةِ وَسَعِيدِ الخَاتِمَةِ مَآلُهُمْ ومَآبُهُمْ، وَبُذِلَ لَهُمْ مِنَ التَّأْمِينِ ما رَجَوْهُ، وبَلَغُوا مِنَ الصَّفْحِ الجَمِيلِ مَا أَمَّلُوهُ وبَغَوْهُ. وإِنْ كَانَتْ سَوَابِقُ ذُنُوبِهِمْ، وَسَوَالِفُ جُرْمِهِمْ وَحُوبِهِمْ، تَقْتَضِي رَدَّ رَغَبَاتِهِمْ وإِيبَاقِهِمْ بِمَا اكْتَسَبُوا مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ. لَكِنَّ رَحْمَةَ اللهِ وَسِعَتْهُمْ وَمَغْفِرَتُهُ تَغَمَّدَتْهُمْ، وَسَابِقَةُ الحُسْنَى هَدَتْهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَيَسَّرَتْهُمْ، والمِنَّةُ المَعْلُومَةُ لِهَذَاالأَمْرِعَمَّتْهُمْ وشَمِلَتْهُمْ؛ فَأَضْحَوْا لِلنِّعْمَةِ مُسْتَشْعِرِينَ، وَبِمَا وُهِبُوهُ مِنَ السَّلَامَةِ فِي الأَنْفُسِ والأَهْلِينَ مُسْتَبْشِرِينَ، وللهِ تَعَالَى عَلَى مَا تَدَارَكَهُمْ بِهِ مِنْ أَعْلَاقِ أَيْمَانِهِمْ بِحَبْلِ القَبُولِ وسَبَبِهِ حَامِدِينَ وشَاكِرِينَ. وَخَرَجَ زَعِيمُهُمْ عَنِ البَلَدِ صَاغِرًا، وَسَارَعَ إِلَى امْتِثَالِ الأَمْرِ ضَارِعًا ذَاخِرًا، جَاذِلًا بِمَا مُنِحَ مِنَ الإِبْقَاءِ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ، مُعْتَرِفًا بالنِّعْمَةِ فِي التَّجَاوُزِ عَنْ سَالِفِ ذَنْبِهِ وَقَبِيحِ فِعْلِهِ. واسْتَوْلَى المُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ تَعَالَى- عَلَى المَدِينَةِ أَتَمَّ الاسْتِيلَاءِ، وأَجَازَهُمُ اللهُ فِي إِظْهَارِ رَايَتِهِمْ



وإحْرَازِ أَمْرِهِمْ مِنَ النَّصْرِ وغَايَتَهُمْ، عَلَى مُتَعَارَفِ الأَسْمَاءِ والإِعْلَاءِ، سُنَّةً مِنْهُ سُبْحَانَهُ لَا يُنْسَخُ حُكْمُهَا، ولَا يَتَبَدَّلُ رَسْمُهَا، ولَا يَعْدِلُ عَنْ سَمْتِهِ السَّدِيدِ، وأَجْرِهِ الحَمِيدِ، قَصْدُهَا وأَمُّهَا. فَلَهُ الحَمْدُ سُبْحَانَهُ عَلَى مَا أَوْلَاهُ، والشُّكْرُ عَلَى مَا يَسَّرَهُ مِن إعْزَازِ أَمْرِهِ وسَنَّاهُ.

وكَانَ المُنْتَزِي فِيهَا قَدْ اسْتَهْوَى جَمَاعَةً مِنْ طَغَامِ الفِتْنَةِ، واسْتَغْوَى حُثَالَةً مِنْ أَرَاذِلِ العَامَّةِ، قَهَرَ بِهِمْ سِوَاهُمْ، واسْتَوْلَى بِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَتَسَبَّبَ إِلَى اسْتِمَالَةِ نُفُوسِهِمْ، وَتَوَسَّلَ إِلَى اسْتِخْلَاصِ نِيَّاتِهِمْ بِإِبَاحَةِ المُحَرَّمَاتِ لَهُمْ وَرَفَعَ الحُدُودَ فِيهَا عَنْهُمْ، يَرْتَكِبُونَ مِنَ الكَبَائِرِ مَا شَاءُوا، وَيَسْتَرْسِلُونَ مِنَ الجَرَائِمِ والمَآثِمِ فِيمَا اسْتَهْوَوْا وأَحَبُّوا، ولَا وَازِعَ يَزَعُهُمْ، ولَا مَانِعَ يَمْنَعُهُمْ، ولَا قَادِعَ يَقْدَعُهُمْ ويَزْجُرُهُمْ، فَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ لأَجْلِ ذَلِكَ دُعَّارُ اللُّصُوصِ وأُبَّاقُ العَبِيدِ، وأَخَابِثُ أَهْلِ الحِرَابَةِ والشُّرُورِ، وجَاؤُوهُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَأَتَوْهُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَنَسَلُوا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ[1] فاتَّخَذَهُم جُنْدَهُ، وصَيَّرَهُمْ بِطَانَتَهُ، وَ«وافَقَ شَنٌّ مِنْهُمْ طَبَقَةً»[2] فَأُمِرَّ بِهِم أَمْرُهُ واشْتَدَّتْ شَوْكَتُهُ، وثَقُلَتْ بِسَبَبِهِ عَلَى أَهْلِ البَلَدِ وطْأَتُهُ، وَمَلأَتْ نُفُوسَهُمْ ذُعْراً وَفَرَقًا هَيْبَتُهُ وَسَطْوَتُهُ، فَلَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ نَظَرٍ فِي مَا يُنْجِيهِمْ، ولَا تَوَسَّلُوا إِلَى إِرَاغَةِ أَمْرٍ يُقَرِّبُهُمْ مِنْ هَذَا الأَمْرِ وَيُدْنِيهِمْ، لإِذْكَائِهِ العُيُونَ عَلَيْهِم [وَأَخْذِهِ] الثَّنَايَا دُونَهُمْ، وَبَثِّهِ الأَرْصَادَ فِيهِمْ، وَبَحْثِهِ عَنْ أَخْبَارِهِمْ، وإِصَاخَتِهِ لأَنْبَائِهِمْ، فَمَنْ عَثَرَ مِنْهُ عَلَى مَا يَرِيبُهُ، أَوْ سَمِعَ عَنْهُ مَا يُنْكِرُهُ أَحَلَّ بِهِ عِقَابَهُ، وَنَهَبَ أَوْبَاشَهُ مَالَهُ، وَنَوَّعَ عُقُوبَتَهُ لَهُمْ بِحَسَبِ أَحْوَالِهِمْ وَعَلَى قَدْرِ مَرَاتِبِهِمْ؛ فَقَتِيلٌ أَوْ طَرِيدٌ أَوْ حَبِيسٌ، وَتَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى أَخْذِ الوَلِيِّ بِوَلِيِّهِ، وَقَتْلِ الحَمِيمِ بِحَمِيمِهِ، وتَعَدَّى مُعَاقَبَةَ الرِّجَالِ، إِلَى التَّنْكِيلِ بِرَبَّاتِ الحِجَالِ، فَتَحَامَى النَّاسُ شَرَّهُ، وَصَدَّهُمْ عَنْ كُلِّ مُحَاوَلَةٍ خَوْفُهُ، وَاسْتَرَابَ الإِبْنُ لأَبِيهِ، وَلَمْ يَثِقِ الأَخُ إِلَى أَخِيهِ. ولَمَّا تَقَرَّرَ ذَلِكَ عِنْدَنَا، وَتَحَقَّقَ لَدَيْنَا، أَمَّنَّاهُمْ أَمَانًا عَمَّهُمْ فَضْلُهُ، وَكَنَفَهُمْ كَهْفُهُ وَغَمَرَهُمْ إِحْسَانُهُ

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ﴾. سورة الأنبياء، الآية: 95.

(2) مثل عربي مشهور: مجمع الأمثال، المستقصى في الأمثال، اللسان. «شنن».



وأَوَاهُمْ رُكْنُهُ، فأَحْرَزُوا سَلَامَةً فِي أَنْفُسِهِمْ وأَهْلِيهِمْ، واسْتَقَرَّت الدَّعَةُ والأَمْنَةُ فِي عِرَاصِهِمْ ومَغَانِيهِمْ.

وكَانَ المُوَحِّدُونَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- طُولَ مُقَامِهِمْ عَلَيْهَا، وَمُدَّةَ حَصْرِهِمْ لَهَا، تَتَرَادَفُ الأَرْفَاقُ عَلَيْهِم، وتَنْسَاقُ الأَرْزَاق إِلَيْهِمْ، وتَعْتَمِدُهُمُ الخَيْرَاتُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وتُجْلَبُ إِلَيهِمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، عَلَى مَا كَانَ بِإِفْرِيقِيَّةَ فِي هَذَا العَام مِنْ قِلَّةِ إِصَابَتِهَا وَخُلُوِّ مَخَازِنِهَا، فَوَضَعَ اللهُ البَرَكَةَ فِيمَا سِيقَ لَهُمْ وأُوتِيَ بِهِ إِلَيْهِمْ، فَعَمَّهُمُ الخَيْرُ وَشَمِلَهُمُ الرِّفْقُ وَاليُسْرُ، عَوْنٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَه، وإِنْجَادٌ عَلَى تَتْمِيمِ مُرَادِهِمْ، وَحِفْظٌ لِعَوَائِدِه الكَرِيمَةِ عِنْدَهُمْ.

وهَذَا القُطْرُ -أَكْرَمَكُمْ اللهُ- قَدِيمُ الاشْتِهَارِ، مُعْتَرَف بِشَرَفِهِ، عَلَى هَذِهِ البِلَادِ والأَقْطَارِ، مَعْرُوفٌ فَضْلُهُ وَشُفُوفُهُ عَلَى سَالِفِ الأَزْمَانِ وَالأَعْصَارِ، وَلَهُ مِنَ المَزَايَا وَالمَحَاسِنِ مَا يُرْبِي خُبْرُهُ عَلَى الإِخْبَارِ، يَنْبَعِثُ مِنْ دَاخِلِهِ المَاءُ المَعِينُ، وَتُحِيطُ بِخَارِجِهِ الضِّيَاعُ المُغِلَّةُ والبَسَاتِينُ، وَيَرُوقُ النَّوَاظِرَ مَرْآهُ المُعْجِبُ، ولَا يَسْتَغْرِقُ الوَصْفُ مَفَاخِرَهُ وَلَا يَسْتَوْعِبُ وَوَضْعُهُ مِنَ الانْتِهَاءِ فِي الحَصَانَةِ، والتَّجَاوُزِ فِي المَنْعَةِ وَالوَثَاقَةِ، بِحَيْثُ لَا يُصْحَبُ مُصْعَبُهُ، وَلَا يُتَمَهَّدُ إِلَّا لِهَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ مَرْكَبُهُ، وَهُوَ رُوحُ هَذَا الإِقْلِيمِ وَمَعْنَاهُ، وَقُطْبُهُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْهِ رَحَاهُ، وَكَانَ شُذَّاذُ العَرَبِ وشُرَّادُهُمْ يَلُوذُونَ بِذَرَاه، وَيُسْنِدُونَ فِيمَا يُزِيغُونَ مِنْ عِنَادِهِمْ وَيُحَاوِلُونَ مِنْ إِضْرَارِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ عَلَى جَنَابِهِ، ويَأْرِزُونَ إِلَى حِمَاهُ، وَقَدْ قَمَعَ اللهُ بِأَخْذِهِ كُلَّ مُتَطَلِّعٍ إِلَى الفِتْنَةِ وفَلَّ شَبَاهُ. وكَانَ الاشْتِغَالُ بِهِ قَدْ صَرَفَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ المُحَاوَلَةَ عَلَيْهِ، وَقَدْ تَفَرَّغَ بِفَضْلِ اللهِ النَّظَرُ فِي مَصَالِحِ هَذِهِ الأَرْجَاءِ؛ وَخَلَا التَّقْوِيمُ لإِمَاطَةِ مَا ظَهَرَ فِيهَا مِنْ نَوَاةِ الاعْتِدَاءِ، وانْصِرَافِ التَّسْدِيدِ لِدَحْضِ الشَّوَائِبِ عَنْ مَشَارِبِ أَهْلِهَا وَالأَقْذَاءِ. وبِاللهِ نَسْتَعِينُ فِيمَا نُحَاوِلُهُ مِنْ إِقَامَةِ الحَقِّ وَتَمْكِينِ الدِّينِ، وإِفَاضَةِ المَعْدِلَةِ وَنَشْرِ الخَيْرِ وإِصْلَاحِ الخَلَلِ؛ وَهُوَ المُنْجِدُ والمُعِينُ لَا رَبَّ غَيْرُهُ.



وكُنَّا -وَفَّقَكُمُ اللهُ- أَعْلَمْنَاكُمْ أَنَّ العَرَبَ -أَصْلَحَهُمُ اللهُ- يُرْجَى لَهُمْ أَنْ يَتَلَافَوا زَلَلَهُمْ، وَيَسْتَدْرِكُوا خَلَلَهُمْ، بِغَزْوٍ فِي جَزِيرَةِ الأَنْدَلُسِ -حَاطَهَا اللهُ- يُكَفِّرُ اللهُ بِهَا خَطَايَاهُمْ وَيُصْلِحُ عَمَلَهُمْ. والنَّظَرُ فِي ذَلِكَ مُتَوَالٍ، وَالأَخْذُ فِيهِ مُتَّصِلٌ وَعَوْنُ اللهِ عَلَيْهِ مُرْتَقَبٌ، وَوَعْدُهُ الكَرِيمُ مُنْتَجَزٌ. وَهُوَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ مُتَمِّمٌ أَمْرَهُ وَمُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَهُوَ المُسْتَعَانُ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَظَهَرَ مِنْ نَتَائِجِ هَذِهِ الحَرَكَةِ السَّعِيدَةِ وَآثَارِهَا الحَمِيدَةِ، أَنَّ اللهَ تَدَارَكَ بِهَا هَذِهِ الجِهَاتِ بَعْدَ أَنْ أَشْفَتْ عَلَى تَلَافِهَا، وَقَبَضَتْ عُرُوقُ النِّفَاقِ فِي أَوْسَاطِهَا وَأَطْرَافِهَا، وَأَوْمَضَتْ بَوَارِقُ الفِتْنَةِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهَا وَأَكْنَافِهَا. وَكَانَتْ أَحْوَالُهَا تُنْقَلُ إِلَيْنَا عَلَى غَيْرِ صُوَرِهَا، وَتُحْكَى عَلَى غَيْرِ حَقَائِقِهَا، وَتُهَوِّنُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ المِدْرَةِ مَا لَيْسَ بِهَيِّنٍ، وَتُضْعِفُ مِنْ حَالِ غَوِيِّهَا مَا لَيْسَ بِضَعِيفٍ، فَكَذَّبَ الخُبْرُ الخَبَرَ، وَشَهِدَتِ المُشَاهَدَةُ بِتَحْرِيفِ النَّقْلِ، وَأَبَانَتِ الحَقِيقَةُ أَنَّ هَذِهِ المَدِينَةَ مِنَ الحَصَانَةِ والامْتِنَاعِ، والسُّمُوقِ والارْتِفَاعِ، بِحَيْثُ لَا تُنَالُ فِي المُدَدِ القَصِيرَةِ، ولَا يُتَسَنَّى مَرَامُهَا إِلَّا بالمُحَاوَلَةِ الصَّعْبَةِ وَالمُطَاوَلَةِ المَدِيدَةِ، وَأَنَّ تَيَسُّرَهَا عَلَى الوَجْهِ المَذْكُورِ، والمَعْنَى المَرْوِيِّ المَأْثُورِ، فِي هَذَا الأَمَدِ القَرِيبِ، لَمِنْ بَرَكَاتِ هَذَا الأَمْرِ المَعْهُودَةِ، وسُعُودِهِ المُطَّرِدَةِ وَعَوَائِدِ اللهِ لَهُ الجَمِيلَةِ. فاشْكُرُوا اللهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ الجَمَّةِ والآلَاءِ المُتَتَابِعَةِ وَعَضُّوا بالنَّوَاجِذِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعُرْوَتِهِ، واسْتَدِيمُوا الدَّعَةَ بِرُكُوبِ سَفِينَتِهِ، وتَمَلَّؤُوا النِّعْمَةَ بالإِيوَاءَ إِلَى رُكْنِهِ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُ أَمْرُهُ الَّذِي تَكَفَّلَ بِعَضْدِهِ، وأَبَى إِلَّا إِتْمَامَ نُورِهِ وإِعْلَاءِ حِزْبِهِ، وانْشُرُوا هَذِهِ الفُتُوحَ المُبِينَةَ والبَشَائِرَ المُبْهِجَةِ، وَبُثُّوهَا فِي أَمْلَائِكِمْ، وتَحَدَّثُوا بِهَا فِي نَوَادِيكم، وخَاطِبُوا بِشَرْحِهَا جَمِيعَ جِهَاتِكُمْ، وأَذِيعُوهَا فِي كَافَّةِ أَرْجَائِكُمْ، يَشْتَرِكُ جَمِيعُكُمْ فِي المَسَرَّةِ بِهَا، وَيَتَسَاهَمُ كُلُّكُمْ فِي شُكْرِ اللهِ عَلَيْهَا، وَيَتَجَدَّدُ الإِخْلَاصُ لِكَافَّتِكُمْ بِهَذَا المَسْمُوعِ السَّارِّ مِنْهَا، وَهُوَ تَعَالَى جَدُّهُ يُتَابِعُ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ، وَيُوَالِي قِبَلَكُمْ مِنَحَهُ وَمِنَنَهُ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ؛ وَالسَّلَامُ العَمِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبرَكَاتُهُ. كُتِبَ عَقِبَ رَجَبِ الفَرْدِ سَنَةَ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.



وَمَعْطُوفاً عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهِ بْن عَيَّاش وَكَتَبَ أَيْضاً فِي الظَّفَرِ بِالنَّاجِمِ بِبِلَادِ جَزُولَةَ لَهُ:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُمُ اللهُ [بِنَصْرِهِ][1] وأَمَدَّهُمْ بِمَعُونَتِهِ إِلَى الشَّيْخِ الأَعَزِّ الأَكْرَمِ أَبِي إِسْحَاقَ ابنِ سَيِّدِنَا الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا [الخَلِيفَةِ][2] أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَهُ وَكَرَامَتَهُ وَتَقْوَاهُ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُهُ.

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا نَحْمَدُ [إِلَيْكُمْ][3] اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ المَعْهُودِ.

وَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُم -كَتَبَ اللهُ لَكُم رِضَاءً- مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش [حَرَسَهَا][4] اللهُ. والَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَالعَمَلَ بِطَاعَتِهِ، والاَسْتِعَانَةَ بِهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ. وَإِلَى هَذَا -وَصَلَ [الله تَوْفِيقكُمْ][5] وَكَرَامَتكُمْ- فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ نَجَمَ هَذِهِ المُدَّةَ بِبِلَادِ جَزُولَةَ شَقِيٌّ يَدَّعِي المُحَالَ، ويَتَّبِع الخَبَالَ، والمُوَحِّدُونَ[6] فِي كُلِّ ذَلِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَآلَهُ وَمَآلَ أَمْثَالِهِ مِنْ كُلِّ مَنِ ادَّعَى دَعْوَاهُ، وَنَحَا فِي البَاطِلِ البَحْتِ مَنْحَاهُ، [وأَنَّ كُلَّ مَنْ شَايَعَهُ مِنَ الجُهَّالِ، وَكُلَّ مَنْ اغْتَرَّ][7] [بِعَمَلِهِ الخَبِيثِ][8] وَلَمْ يَعْرِفِ الفَرْقَ بَيْنَ الهُدَى والضَّلَالِ [......][9] وبَادَرُوا، أَنْجَزَ اللهُ فِيهِمْ وَعْدَهُ، واللهُ لَا يُخْلِفُ المِيعَادَ[10] وَذَلِكَ بِأَنْ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ القَبَائِلُ، وَتَقَرَّبُوا بِقَتْلِهِ وَقَتْلِ أَشْيَاعِهِ إِلَى اللهِ، وَإِلَى هَذَا الأَمْرِ الَّذِي قَامَتْ عَلَى [نَشْرِهِ][11] وظُهُورِهِ الدَّلَائِلُ. وَأَعْلَمْنَاكُمْ بِهَذَا الصُّنْعِ لِتَكُونُوا مِنْهُ

(1) خرم بالأصل.
(2) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه لأنه يناسب سياق الرسالة.
(3) خرم بالأصل.
(4) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما اثبتناه.
(6) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(7)خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(8)خرم بالاصل، لم نتمكن من قراءته.
(9)خرم بالأصل، لم نتمكن من قراءته.
(10)مقتبس من سورة آل عمران، الآية :9. سورة الرعد: الآية 32.
(11)خرم بالأصل، لعل الصواب ما أثبتناه.



عَلَى يَقِينٍ. وَبَشِّرُوا بِهِ الخَاصَّةَ والعَامَّةَ لِيَكُونُوا مِنَ المُوقِنِينَ. واللهُ يَجْزِلُ لَكُمْ عَوَارِفَ نُعْمَاهُ، ويُعِينُكُمْ عَلَى شُكْرِ مَا أَوْلَاهُ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِوَاهُ. والسَّلَامُ الكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. كُتِبَ فِي الحَادِي والعِشْرِينَ لِرَبِيعِ الآخَرِ سَنَةَ ثِنتَيْ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ.

وَبَعْدَ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي الحَكَمِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ وِمِنْ إِنْشَاءِ أَحَدِ شُيُوخِ الكِتَابَةِ المَشْهُورِينَ بالإِجَادَةِ فِيهَا والإِصَابَةِ السَّابِقِينَ مِنْ دَعْوَةِ الآدَابِ بالتَّلْبِيَةِ والإِجَابَةِ. الشَّيْخِ الفَقِيهِ الحَسِيبِ أَبِي الحُسَيْنِ القَلَنِيِّ أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُ جوَابًا عَلَى الفَتْحِ.

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ العَالِيَةُ االمُعَظَّمَةُ المُكَرَّمَةُ المُقَدَّسَةُ الطَّاهِرَةُ السَّامِيَةُ، حَضْرَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ، أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ. وَصَلَ اللهُ لَهَا مَا عَوَّدَهَا مِنَ النَّصْرِ والتَّأْيِيدِ والتَّمْكِينِ، وأَيَّدَهَا، وأَعْلَى يَدَهَا أَنَّى حَلَّتْ وَحَيْثُ تَوَجَّهَتْ بالفَتْحِ المُبِينِ والسَّعْدِ المَكِينِ. العَبِيدُ المُعْتَصِمُونَ بِحَبْلِ عِصْمَتِهَا، المُذِمُّونَ بِذِمَامِهَا، المَخْصُوصُونَ مِنْ سَابِغِ نِعْمَتِهَا بإِكْمَالِهَا عَلَيْهِمْ وإِتْمَامِهَا، الفَاخِرُونَ بِجِوَارِهَا الكَرِيمِ عَلَى عِرَاقِ البَسِيطَةِ وَيَمَنِهَا وَشَامِهَا، الدَّاعُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِنَصْرِ أَلْوِيَتِهَا وظَفَرِ أَعْلَامِهَا، المُبْتَهِلُونَ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فِي اعْتِلَاءِ جِدِّهَا وَمَجْدِهَا وَمَقَامِهَا، أَهْلُ مُرَّاكُش. سَلَامٌ كَرِيمٌ طَيِّبٌ مُبَارَكٌ عَمِيمٌ، عَلَى حَضْرَةِ الإِمَامَةِ وَمَثَابَةِ الخِلَافَةِ وَمَقَرِّ الرَّحْمَةِ ومَعْهَدِ النِّعْمَةِ مِنْ [نَدْوَتِهَا][1] القُدْسِيَّةِ الطَّاهِرَةِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وبَرَكَاتُهُ أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْنَا وَعَلَى الأُمَّةِ مِنْ جَزِيلِ إِحْسَانِهِ، وَحَفِيلِ امْتِنَانِهِ والصَّلَاةُ عَلَى نَبِيِّهِ المُبْتَعَثِ بِحُجَّتِهِ البَالِغَةِ وَبُرْهَانِهِ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ المُتَسَابِقِينَ إِلَى مِضْمَارِهِ والجَارِينَ عَلَى [سَنَنِهِ وإِحْسَانِهِ][2] والرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ بِحَسَبِهِ وَنَسَبِهِ وَمَكَانِهِ وَزَمَانِهِ، وَعَنِ الخَلِيفَتَيْنِ الإِمَامَيْنِ الرَّاشِدَيْنِ المُرْشِدَيْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرَيْ المُؤْمِنِينَ القَائِمَيْنِ بِأَمْرِهِ وَالمُعَظِّمَيْنِ لِشَأْنِهِ، ومُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ

(1) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) خرم بالاصل.



المُؤَيِّدِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، المُجَاهِدِ فِي اللهِ تَعَالَى حَقَّ جِهَادِهِ[1] مُعْتَقِدَةَ التَّثْلِيثِ وَعَبَدَةَ صُلْبَانِهِ، ولِنَجْلِهِ الأَطْهَرِ الأَزْكَى الأَمِيرِ الأَجَلِّ المُبَارَكِ المَيْمُونِ المُظَفَّرِ الأَسْعَدِ أَبِي عَبْدِ اللهِ[2] ابْنِ الخُلَفَاءِ الأَئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ بِعِزَّةِ سُلْطَانِهِ وَغَلَبَةِ جُمُوعِهِ وَظَفَرِ أَعْوانِهِ:

فَكَتَبَ العَبِيدُ الثَّاوُونَ مِنَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَدَامَ اللهُ عُلُوَّكُمْ وَسُمُوَّكُمْ- فِي الحَرَمِ الآمِنِ والبَلَدِ الأَمِينِ، الآوُونَ مِنْ نِعْمَتِهَا وذِمَّتِهَا إِلَى الرَّبْوَةِ ذَاتَ القَرَارِ المَعِينِ[3] كَتَبَ اللهُ لَهَا مِنَ الفُتُوحِ المُتَوَالِيَةِ المُتَوَاتِرَةِ، والسُّعُودِ المُتَوَافِيَةِ الوَافِرَةِ، مَا يَشْرُقُ عَلَى الأَرْضِ ذَاتِ الطُّولِ والعَرْضِ أَنْوَارُهُ، وَيَتَّضِحُ فِيهَا فَجْرُهُ السَّاطِعُ وَنَهَارُهُ، وَيُعِزُّ الإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ والتَّوْحِيدَ وَحِزْبَهُ بَسْطَتُهُ الغَالِبَةُ واقْتِدَارُهُ، وَيَرْفَعُ بِعَدْلِهَا الشَّامِلِ وَسَعْدِهَا البَاهِرِ الكَامِلِ رُكْنُهُ وَمَرْقَبُهُ وَمَنَارُهُ. مِنْ مَدِينَةِ مُرَّاكُش -حَرَسَهَا اللهُ- وأَمْرُهَا العَزِيزُ العَالِي -أَدَامَ اللهُ [رِفْعَتَهُ][4] وعَلَاءَهُ- وَمَا عَوَّدَهُ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ مِنْ إِعْزَازِ المُجَاوِرِ والمُصَاحِبِ، وإِذْلَالِ المُوَارِبِ والمُجَانِبِ، وتَعَرُّفَ الخَيْرَ والخِيرَةَ واليُمْنَ والبَرَكَةَ فِي كَافَّةِ الأَنْحَاءِ وَجَمِيعِ المَذَاهِبِ، واطِّرَادِ الفَوْزِ والنُّجْحِ والسَّعْدِ الَّذِي يأْتِي كَفَلَقِ الصُّبْحِ مِمَّا يَعِنُّ مِنَ الأَغْرَاضِ ويَسْنَحُ مِنَ المَطَالِبِ وللهِ تَعَالَى بِكُمْ -يَا سَيِّدَنَا- عِنَايَةٌ رَبَّانِيةٌ قَدْ ظَهَرَ عَلَى العَالَمِ سُعُودُهَا، وانْتُجِزَ بِيُمْنِ نَقِيبَتِكُمْ وَبَرَكَةِ سِيرَتِكُمْ وُعُودُهَا، وَوَفَدَ عَلَى البِلَادِ وأَهْلِهَا والأَقْطَارِ وَمَنْ حَلَّهَا بِنَيْلِ المَرْغُوبِ وَبُلُوغِ الأَمَلِ المَحْبُوبِ بَرِيدُهَا، وَبَدَا لَهُمْ عَلَى تَعَاقُبِ الأَزْمَانِ وَتَغَايُرِ الأَحْيَانِ نُمُوُّهَا المُتَغَنِّمِ وَمَزِيدُهَا. فالخَيْرَاتُ بِكُمْ ظَاهِرَةٌ والبَرَكَاتُ بِجَمِيلِ مَذْهَبِكِمْ شَاهِرَةٌ، وَالمَسَرَّاتُ بِعَالِي نَظَرِكُمْ رَاهِنَةٌ، والبِشَارَاتُ -بِحَمِيدِ أَثَرِكُمْ- وَاعِدَةٌ حِرَازَ الأَمَانِي طَامِنَةٌ. لَا جَرَمَ أَنَّ

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾.سورة الحج، الآية: 76.
(2) هو أبو عبد الله محمد الناصر بويع بولاية العهد في أواخر 587هـ. انظر البيان المغرب، ص: 117-136، الحلل الموشية، ص:160، روض القرطاس، ص: 231-241.
(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾. سورة المؤمنون، الآية: 51.
(4) خرم بالأصل: وقد أثبتناه ما يناسب السياق.



تِلْكَ عَادَةُ اللهِ عِنْدَكُمْ المَعْرُوفَة، وسُنَّتُهُ لَكُمُ المَعْهُودَة المَأْلُوفَة، الَّتِي بَهَرَتْ آيَتُهَا، واسْتَوَى سِرُّهَا إِلَيْكُمْ وعَلَانِيَّتُهَا، وَوَسِعَ الجُمْهُورَ فَضْلُهَا، وَأَحْسَبَهُمْ عَلَى العِلَّاتِ طَوْلُهَا وَبَذْلُهَا، وَأَرَاهُمْ عَيْنَ اليَقِينِ أَنَّ أَيَّامَكُمْ -فَسَحَهَا اللهُ- أَجْمَلُ الأَيَّام، ومُدَّتُكُمْ -مَدَّهَا اللهُ وَأَمَدَّهَا- أَطْوَلُ المَدَدِ، وَسِيَاسَتُكُمْ -حَاطَهَا اللهُ وَحَفِظَهَا- أَفْضَلُ السِّيَاسَاتِ، وَأَنَّكُمُ المَنْصُورُونَ المُغَلَّبُونَ، والمُظَفَّرُونَ الظَّافِرُونَ، بِتَأْيِيدِ اللهِ القَاهِرُونَ، بِنَصْرِ اللهِ المُعْتَلُونَ، بِمَنِّ اللهِ المُتَسَوِّلُونَ، عَلَى كُلِّ مَا عَانَدَكُمْ، وَكَايَدَكُمْ، بِفَضْلِ اللهِ [وَعِنَايَتِهِ][1] عَمَّ عَدْلُكُمْ، وَتَمَّ عَلَى الكَافَّةِ فَضْلُكُمْ، وشَهَّرَ إِحْسَانُكُمْ، وبَهَرَ امْتِنَانُكُمْ، وَظَهَرَ إِشْفَاقُكُمْ عَلَى العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ حَاطَهُمُ اللهُ[2] بِنَظَرِكُمُ المُبَارَكِ وحَنَانِكُمْ. واللهُ تَعَالَى يَجْزِيكُمْ عَنِ الأُمَّةِ أَفْضَلَ الجَزَاءِ، وَيُؤَيِّدُكُمْ وَيُعْلِي يَدَكُمْ عَلَى كَافَّةِ الأَعْدَاءِ، وَيُعِينُنَا مَعْشَرَ عَبِيدِكُمْ عَلَى الائْتِمَارِ بِهَدْيِكُمْ وَالاقْتِدَاءِ.

وَقَدْ وَصَلَ إِلَى العَبِيدِ وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مُدَّةَ التَّأْيِيدِ والنَّصْرِ، وَضَاعَفَ لَهَا مَزِيدَ الظَّفَرِ المُؤْذِنِ بِاعْتِلَاءِ الأَمْرِ، واشْتِدَادِ [الأَسْرِ][3] الكِتَابُ الإِمَامِيُّ العَزِيزُ، والخِطَابُ الَّذِي لَهُ الشُّفُوفُ عَلَى الحَقِيقَةِ والتَّبْرِيزُ، مُضَمَّنًا المَسَرَّةَ الكُبْرَى، والبِشَارَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ كُلِّ بِشَارَةٍ أَعْلَى وَأَسْمَى وَأَسْنَى، بِهَا فَتَحَ اللهُ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ عَلَى الكَرِيمَتَيْنِ يَدَيْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ المُؤَيَّدِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، ونُخْبَةِ الخُلَفَاءِ المُحْسِنِينَ.

خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ، وَصَيَّرَ سَبْعَةَ الأَقَالِيمِ مِلْكَهُ، عَلَى اللَّعِينِ المُدَبِّرِ «الأَذْفُونْش»[4] طَاغِيَةِ النَّصَارَى أَوْكَسَه اللهُ كَمَا وَكَسَهُ، وَصَلَمَهُ كَمَا وَقَمَهُ، وَأَخْزَاهُ وَأَذَلَّهُ، كَمَا أَدْحَرَهُ وأَقَلَّهُ، وَفِي شِيعَتِهِ النَّصْرَانِيَّةِ أَنْزَلَ اللهُ بِهِ وَبِهِمْ نَكَالَهُ، كَمَا أَذَاقَهُ وَإِيَّاهُمْ -بِسَعْيِكُمْ المَنْصُورِ-

(1) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(2) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(3) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(4) الأذفونش هو ألفونصو الثامن Alfonso الملقب بالنَّبِيل، حكم بين سنتي 552و612هـ وهو الذي انتصر في معركة العقاب بعد أن كان قد انهزم في معركة الأرك.



عَذَابَهُ(1) وَوَبَالَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ وَبِهِمْ هَوْنَهُ وخِزْيَهُ، كَمَا أَظَلَّ بِهَدْيِكُمْ سَعْيَهُمُ الخَاسِرَ وَسَعْيَهُ، وَمَا صَنَعَهُ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ فِي جُمُوعِهِمْ الَّتِي كَانَتْ غَصَّ بِهَا الفَضَاءُ، وَعُرِفَ مِنْهَا الغَنَاءُ، فِي المَوَاطِنِ الكَرِيمَةِ وَالمضَاءُ، [حِينَمَا جَاءُوا](2) بالعُدَّةِ والعَدِيدِ، ويَقِنَ أَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْ لَهُمْ مِثْلُهَا فِي الزَّمَنِ المُتَقَادِمِ وَالأَمَدِ البَعِيدِ، مِنَ القَتْلِ الذَّرِيعِ الشَّنِيعِ، والهَزِيمَةِ الفَاضِحَةِ لِلْجَمِيعِ، وَكَيْفَ تَقَسَّمَتْهُمُ السُّيُوفُ، وَتَوَزَّعَتْهُمُ الحُتُوفُ، وَتَحَكَّمَتْ فِي رِقَابِهِمْ(3) وطُلَاهُمْ بِيضُ الصِّفَاحِ، [وَمَشَتْ](4) فِي مَجَالِ صُدُورِهِمْ وَثُغَرِ نُحُورِهِمْ أَسِنَّةُ العَوَالِي وسُمْرُ الرِّمَاحِ، [مَا لَجَأَ](5) إِلَيْهِ رِعَالُ كُمَاتِهِمْ، وَصَنَادِيدُ حُمَاتِهِمْ، بِحُكْمِ الاضْطِرَارِ، مِنْ تَوْلِيَّةِ الأَدْبَارِ، وَرُكُوبِ العَارِ، بِإِسْلَامِ الحَوْزَةِ وإِبَاحَةِ الذِّمَارِ، وَتَسَابُقِ هَامِهِمْ مَعَ أَقْدَامِهِمْ فِي الفِرَارِ والانْتِثَارِ، ومَا اسْتَوْلَى عَلَيهِ المُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- فِي مَحَلَّتِهِمُ المَغْلُوبَةِ المَسْلُوبَةِ مِنَ الظَّهْرِ والكُرَاعِ، وَحُرِّ السَّلَبِ وفَاخِرِ المَتَاعِ، وحَصَلُوا عَلَيْهِ مِنَ الأَسْلِحَةِ وَالأَزْوَادِ وَالأَقْوَاتِ، وَالمَضَارِبِ والأَبْنِيَةِ والآلَاتِ، وَكُلُّ مَا ذَخَرُوهُ وَوَفَّرُوهُ وَضَنُّوا وَشَحُّوا عَلَيْهِ، وَتَقَدَّمُوا فِي الدِّفَاعِ عَنْهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمَا كَانَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ لِأَعْلَامِهِمُ المَنْكُوسَةِ [وَصُلْبَانِهِمْ](6) قَرَابِينَهُمْ لِلْحَادِثَةِ وَرُهْبَانِهِمْ واسْتَوَى بَطَارِقَتُهُمْ وَأَسَاقِفَتُهُمْ وأَسْخِلَّارِيَّتُهُمْ وَزَرَاوِرَتُهُمْ فِي القَتْلِ [والإِسَارِ](7) والتَّوَلِّي والإِدْبَارِ(8)، ومَا اسْتَحَرَّ بالأَفْرِيزِيِّينَ وَهُمْ ذَوُوا البَصَائِرِ فِي يَقِينِهِمْ والتَّشَدُّدِ فِي دِينِهِمْ مِنَ الدَّمَارِ والبَوَارِ، المُفْضِيِّ بِجَمِيعِهِمْ إِلَى هَاوِيَةِ النَّارِ وَسَخَطِ الجَبَّارِ. ومَا افْتُكَّ بِأَخِيذَتِهِمْ فِي الأَرْكُو -عَمَرَهُ اللهُ- مِنْ أَسْرَى المُسْلِمِينَ، وَفُقِدَ مِنَ النَاوَرْدِ وَالمُعْتَرَكِ مِنْ مَحْشُورَتِهِمْ الأَغْفَالَ وَمَشَاهِيرِهِمْ المُعَلِّمِينَ، [مَا

(1) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(2) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(3) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(4) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) خرم بالأصل.
(6) خرم بالأصل.
(7) خرم بالاصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(8) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.



عُلِمَ][1] بِهِ خَرْقُ العَادَةِ، وَفُهِمَ بِتَصَوُّرِهِ اقْتِبَالُ السَّعَادَةِ، الَّتِي أَعَزَّتِ الإِسْلَامَ، وَمَنَحَتِ الشِّرْكَ وَأَهْلَهُ الامْتِعَاضَ والإِرْغَامَ والانْثِلَامَ والاصْطِلَامَ، وَأَعْطَتْ ظُهُورَ الكَلِمَةِ واعْتِلَاءَ اللَّمَّةِ مَا عَاقَبَ الإِصْبَاحُ الإِظْلَامَ والإِحْلَالُ الإِحْرَامَ.

وإِنَّهُ، سَيِّدَنَا -وَصَلَ اللهُ ظَفَرَكُمْ- وَأَحْمَدَ فِي سَبِيلِهِ وَأَعْدَائِهِ أَيْنَمَا كَانُوا أَثَرَكُمْ- الفَتْحُ الَّذِي أَغْرَبَ، وَشَرَّقَ وَغَرَّبَ، وَأَعْرَقَ وَأَشْأَمَ، وَأَنْجَدَ فِي مَعْمُورِ الأَرْضِ وَأَتْهَمَ، وَقَضَى عِنْدَ الوُقُوفِ عَلَى كُنْهِهِ، أَنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ فِي مَا سَلَفَ بِشِبْهِهِ، وَلَا تَقَدَّمَهُ مَثِيلٌ يُقَاسُ عَلَيْهِ، وَلَا عُلِمَ نَظِيرٌ تَنْضَافُ صِفَتُهُ إِلَيْهِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى [جَلَّى][2] مِنَ الإِسْلَامِ قُوَّةَ المَرِيرَةِ[3]، وَأَبْقَى كَلِمَتَهُ عَالِيَةً فِي تِلْكَ الجَزِيرَةِ، وَقَصَمَ بِوُقُوعِهِ وَسَمَاعِهِ ظُهُورَ فِرَقِ النَّصَارَى مَا بَيْنَ حَدِّ بُرْتُقَالٍ فَأَقْصَى الأَرْضِ الكَبِيرَةِ. وَأَنَّ مِنْ أَظْهَرِ الآيَاتِ، وَأَشْهَرِ العِنَايَاتِ، حُصُولُ المَعَاقِلِ الَّتِي كَانَ الكَفَرَةُ شَدُّوا عَلَيْهَا يَدَ الضَّنَانَةِ، وَصَرَفُوا إِلَيْهَا هِمَّةَ العِنَايَةِ والصِّيانَةِ، وتَوَفَّرُوا عَلَى سَدِّ ثَغْرِهَا بِغَايَةِ جُهْدِهِمْ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى ذَلِكَ وَفِيهِ بِأَوْفَرِ تَهَمُّمِهِمْ وَأَظْهَرِ جِدِّهِمْ، وَالقَدَرُ يَضْحَكُ مِنْ وَرَائِهِمْ، [وَيُنَكِّتُ][4] باحْتِقَارِهِمْ فِي ذَلِكَ وازْدِرَائِهِمْ، وَيَدْخَرُهَا لِمُطْعَمِ النَّصْرِ، أَوْحَدِ الدَّهْرِ والعَصْرِ، ويَعِدُ الإِيمَانَ عَلَى يَدَيْهِ بِالجَبْرِ مَا كَانَ فِي تِلْكَ المَعَاقِلِ مِنَ الكَسْرِ. وَقَدْ أَصْبَحَتْ والحَمْدُ للهِ بِسَعَادَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا دَارَ إِسْلَامٍ، وَأَضْحَتْ مَعْهَدَ صَلَاةٍ وَصِيَامٍ، تُسْمَعُ مِنْ صَوَامِعِهَا نَغْمَةُ الآذَانِ، وَتُشْرِقُ جَوَامِعُهَا بِتِلَاوَةِ القُرْآنِ، وَتُقَامُ بِهَا الجَمَاعَاتُ وَالجُمَعُ، فَتُظْلِمُ بِضِيائِهَا الكَنَائِسُ المُجَاوِرَةُ لهَا وَالبِيَعُ، وَأَمْسَتْ قَذَاةً فِي عَيْنِ اللَّعِينِ وَغُصَّةً فِي قَلْبِهِ، وَحَزَازَةً فِي نَفْسِهِ وَكَمَداً فِي كَبِدِهِ، وَخِيفَتْ مِنْهَا أَصْقَاعُ الشِّرْكِ وَمَغَانِي الكُفْرِ، وَآذَنَتْ أَهْلَهَا بِالجَلَاءِ وَالتَّبَدُّدِ، وَرَمَتْهُمْ بِالتَّفَرُّقِ وَالتَّشَرُّدِ، كَمَا قَدْ أَمِنَتْ

---

(1) خرم بالأصل.

(2) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(3) المريرة: العزيمة قال الشاعر:

وَلَا أَنْثَنِي مِنْ طِيرَةٍ عَنْ مَرِيرَةٍ ... إِذَا الأَخْطَبُ الدَّاعِي عَلَى الدَّوْحِ صَرْصَرَا

(4) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.



بِهَا ثُغُورُ المُسْلِمِينَ وَبَسَائِطُهُمْ، وَوَدعَتْ أَطْرَافُهُمْ وَوَسَائِطُهُم، وَانْتَظَمَ تَأْلِيفُهُمْ، وَأَنْظَمَ شَمْلَهُمْ قَوِيُّهُمْ وَضَعِيفُهُم، وَانْصَبَّ مِنْ مُغِيرَتِهِمْ عَلَى الكُفْرِ سَوْطُ العَذَابِ، وَأَحْسَبَهُمْ مِنْ مُرَابَطَتِهِمْ ضَيْمُ تَبَارٍ وَتَبَابٍ، يُغَادُونَهُمْ وَيُرَاوِحُونَهُمْ بِالوَيْلِ، وَبغَارَةِ الصَّبَاحِ وَبَيَاتِ اللَّيْلِ دُونَ إِغْبَابٍ، وَيُدْخِلُونَ عَلَيْهِمُ المَكَارِهَ المُحْرِقَة المُغْرِقَةَ مِنْ كُلِّ بَابٍ.

فَأَمَّا مَنْ اسْتُشْهِدَ مِنَ المُسْلِمِينَ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ فِي حُمَيَّا الصَّدْمَةِ وَاحْتِدَامِ المُلاَقَاةِ فَقَدْ قَرَّتْ عُيُونُهُمْ بِمَا قَدَّمُوا مِنْ جَسِيمِ الثَّوَابِ عَلَيْه، وَارْتَاحَتْ نُفُوسُهُمْ بِمَا صَارُوا مِنْ كَرَمِ المَآبِ إِلَيْه، وَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ أُعْطُوا كَرَّةً، وَرُدُّوا إِلَى الدُّنْيَا وَلَوْ مَرَّةً أَنْ يُعَاوِدُوا بِأَنْفُسِهِمْ ثَانِيَةً، وَيُحَدِّثُوا إِخْوَانَهُمْ بِمَا رَأَوْهُ مِنَ النَّعِيمِ المُقِيمِ جَهْرَةً وَعَلاَنِيَة ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1]، الأَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ[2] أُولُوا الحَمَاسَةِ وَالبَسَالَةِ، وَالنُّفُوسِ الأَبِيَّةِ وَالمُهَجِ المُسَالَة، أُولُوا الشَّهَامَةِ وَالكَرَم، وَالمَجْدِ الأَتْلَدِ الأَقْدَم، الَّذِينَ رَبِحَ بَيْعُهُمْ وَتَجْرُهُم، وَوَقَعَ عَلَى اللهِ أَجْرُهُمْ، وَكَرُمَ مَشْهَدُهُمْ وَمَخْبَرُهُم، وَبَعُدَ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى أَثَرُهُمْ، وَبِرِضَى الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ عَنْهُم وَصَلُوا إِلَى الحُسْنَيَيْنِ، وَأَحْرَزُوا عَلَى إِحْدَى الحَسَنَتَيْنِ، وَفَازُوا بِخَيْرِ الدَّارَيْنِ، فَمَنْ أَحْسَنُ مِنْهُمْ مَقِيلاً، وَأَكْرَمُ عِندَ اللهِ تَعَالَى قِيلاً[3] وَأَوْجَدُ إِلَى نَيْلِ المَطَالِبِ وَالرَّغَائِبِ القُدْسِيَّةِ طَرِيقاً وَسَبِيلًا، وَقَائِداً هَادِياً وَدَلِيلاً.

فَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ أَوَّلاً وآخِراً، وَبَاطِناً وَظَاهِراً، كَشَفَ بِكُمْ سَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا الغَمَّاء، وَأَتَمَّ بِإِيَالَتِكُمْ وَكَفَالَتِكُمْ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ النَّعْمَاء، وَأَخْزَى بِكُمْ وَعَلَى يَدَيْكُمُ الأَعْدَاء، وأَعَادَ إِلَى مَعْهَدِهِ وَمَرْقَبِهِ بَعْدَ انْتِزَاحِهِ عَنْهُ وَتَغَيُّبِهِ الدَّعْوَةَ العَلِيَّةَ الحَقِيقِيَّةَ وَالنِّدَاء، وَذَخَرَ لَكُمْ أَجْرَ هَذَا الفَتْحِ العَظِيم، وَشَفَى صُدُورَ المُؤْمِنِينَ وَأَذْهَبَ غَيْظَ

---

(1) من سورة البقرة، الآية: 176.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. سورة آل عمران، الآية: 169.

(3) ينظر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾. سورة النساء، الآية: 121.



قُلُوبِهِمْ بِإِدْرَاكِ النَّصْرِ الجَسِيمِ، وَأَيَّدَ الإِسْلاَمَ وَحِزْبَهُ، وَرَفَعَ بِنَظَرِكُمُ المُبَارَكِ وَرَأْيِكُمُ المَيْمُونِ عَنْهُ كَرْبَهُ وَدَفَعَ حَرْبَه، وَقَرَعَ سِنُّ الكَافِرِ بِكُمْ نَدَمَه، بَلْ إِنْ شَاءَ اللهُ بَوَارَهُ وَعَدَمَه، وَعَرَّفَكُمْ أَنَّ مَحَادَّتَكُمْ وَمَشَاقَّتَكُمْ أَزَلَّتْ قَدَمَه، وَصَلَبَتْ صَلِيبَهُ وَنَكَّسَتْ عَلَمَه، وَسَتُرِيقُونَ وَإِن أَمْهَلَهُ القَدَرُ بِسَيْفِكُمُ القَاهِرِ الغَالِبِ دَمَه، وَهنأَ اللهُ الإِسْلاَمَ وَالإِيمَانَ وَسَيِّدَنَا وَمَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَامَّةَ المُسْلِمِينَ مَا مَنَحَ اللهُ تَعَالَى وَنَوَّلَ، وَأَعْطَى وَخَوَّلَ وَأَنْعَمَ فَأَجْزَلَ، وَمَنَّ فَأَكْمَلَ، وَشَفَّعَ هَذَا الفَتْحَ بِأَمْثَالِهِ وَقَرَنَهُ بِأَشْبَاهِهِ، وَجَعَلَهُ عُنْوَانًا عَلَى مَا يَتْلُوهُ وَدَلِيلاً لِمَا يَتْبَعُه وَلاَ أَعْدَمَنَا أَبَداً دَائِمًا نَصْراً أَوْ شُكْراً مُتَوَالِيًا مُتَتَابِعًا مَا يَزِيدُ عَلَيْهِ فِي السُّمْعَةِ وَيَتَقَدَّمُهُ فِي الذِّكْرِ وَينسبُهُ فِي الأَثَرِ آمِينَ آمِينَ آمِين بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ، وَالسَّلاَمُ الكَرِيمُ، الطَّيِّبُ المُبَارَكُ العَمِيمُ، عَلَى الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

رِسَالَةٌ أُخْرَى [رِسَالَة أَبِي القَاسِم القَالِمِي]:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَيَّدَهُ اللهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ إِلَى الطَّلَبَةِ الغُزَاةِ بِإِفْرِيقِيَّةَ أَدَامَ اللهُ عِزَّهُمْ وَكَرَامَتَهُم، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَمَّا بَعْدُ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ المَعْهُودِ.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ أَدَامَ اللهُ عِزَّكُمْ وَكَرَامَتَكُمْ بِتَقْوَاه مِنْ حَضْرَةِ مُرَّاكُش -حَرَسَهَا اللهُ- وَالَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللهِ وَالعَمَل بِطَاعَتِهِ وَالاِسْتِعَانَة بِهِ وَالتَّوَكُّل عَلَيه وَالدّؤُوب عَلَى المَسَاعِي الحَمِيدَةِ المُزْلفَةِ لَدَيْهِ، وَالجِدِّ فِي الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ المُقَرِّبَةِ مِنْهُ المُدْنِيَةِ إِلَيْهِ، المُقْتَضِيَةِ اسْتِصْحَابَ أَفْضَالِهِ وَامْتِنَانِه، المُدِيمَةِ مَا ارْتَهَنَ لَدَيْكُمْ مِنْ جَمِيلِ عَوَائِدِهِ وَجَزِيلِ إِحْسَانِه، المُوجِبَةِ لَكُمْ رِضَاءً عَاجِلاً وَآجِلًا، المُسْتَدِرَّةِ عِمَادَ كَرَمِهِ وَابِلاً فَوَابِلاً، المُفْضِيَةِ بِكُمْ إِلَى سَنَنِ الهُدَى وَنَهَجِهِ، الحَامِلَةِ لَكُمْ عَلَى كَاهِلِ السَّدَادِ وَثَبَجِهِ، الصَّاعِدَةِ بِكُمْ فِي مَرَاقِي النُّجْحِ وَدَرَجِهِ، واللهُ تَعَالَى يُصْحِبُكُمْ تَوْفِيقًا يهدِي وَيُرْشِد، وَيُسَنِّي لَكُم اعْتِنَاءً مِنْهُ يُعِينُ وَيُنْجِد، بِمَنِّهِ وَكَرَمِه.



وَقَدْ وَصَلَتْ مُكَاتَبَتُكُمُ الأَثِيرَةُ وَمُخَاطَبَتُكُمُ المَبْرُورَة مِنْ مَنْزِلِ المُوَحِّدِينَ بِظَاهِرِ قَسَنْطِينَةَ -حَرَسَها اللهُ- مُتَضَمِّنَةً امْتِدَادَ ظِلِّ السَّلاَمَةِ عَلَيْكُم، واتِّصَالَ البَشَائِرِ وَالمَسَرَّاتِ لَدَيْكُم، وَوُصُولَ المُخَاطَبَةِ إِلَيْكُمْ بِالفُتُوحِ الإِلَهِيَّةِ وَالتَّيْسِيرَاتِ الرَّبَّانِيةِ الَّتِي تَسَنَّتْ فِي الأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلاَدِ المُوَحِّدِينَ -حَمَاهَا اللهُ- عَلَى مَا شُرِحَ لَكُمْ، وَفُصِّلَتْ وُجُوهُهُ وَأَصْنَافُهُ لَدَيْكُمْ، وَقِرَاءَتِكُمْ مَا كُتِبَ بِهِ إِلَيْكُمْ عَلَى كَافَّةِ مَنْ قِبَلَكُمْ وَبَعْثِ الكتبِ بها إِلَى سَائِرِ أَنْظَارِكُمْ وَمَا كَانَ عِنْدَ ذَلِكَ مِنِ انْبِسَاطِ الآمَالِ وَعُمُومِ الجَذَلِ وَالاِبْتِهَاجِ إِلَى آخِرِ مَا قَرَّرْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكَ وَبَيَّنْتُمُوه، وَأَوْضَحْتُمُوهُ مِنْهُ وَشَرَحْتُمُوه، وَالحَمْدُ للهِ الوَاجِبِ لَهُ عَلَى مَا آتَى مِنْ نُجْحٍ، وَأَتَى مِنْ يُسْرٍ، وَمَنَحَ مِنْ فَتْحٍ، وَأَسْدَى مِنْ فَضْلٍ، وَهُوَ المَسْؤُولُ إِسْبَاغَ نِعَمِهِ وَإِكْمَالَ فَوَاضِلِهِ وَإِجْرَاءَ أَوْلِيَاءِ أَمْرِهِ عَلَى مَا عَوَّدَهُمْ مِنَ الإِنْجَادِ، وَعَرَّفَهُمْ مِنَ التَّوْفِيقِ وَالإِسْعَادِ، لاَ رَبَّ غَيْرُهُ.

وَذَكَرْتُمْ أَنْبَاءَ تِلْكَ الجِهَاتِ -حَاطَهَا اللهُ- وَمَا شَمِلَ أَهْلَهَا مِنَ الأَمْنَةِ وَالهُدُونِ، وَاسْتَرْسَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ، وَمَا غَمَرَهُمْ مِنْ وُفُورِ الخَيْرَاتِ، وَظُهُورِ البَرَكَاتِ، وَإِرْسَالِ الرَّحْمَةِ الَّتِي آذَنَتْ بِالإِقْبَالِ وَالخِصْبِ، وَبِانْصِرَامِ المَحْلِ وَالجَدْبِ، وَاشْتِغَالِهِم بِمَصالِحِهِمْ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى مَرَاشِدِهِمْ، وَبِمَا يَعُودُ بِصَلاَحِ عَاجِلِهِمْ وَآجِلِهِمْ فَوَالَوْا حَمْدَ اللهِ تَعالَى عَلَى مَا وَالَى مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَوْلَى مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَفَاضَ مِنْ مِنَّتِه، وَشَكَرُوهُ شُكْرَ مَنْ يَرْغَبُ فِي مَزِيدِه، وَيَحْرِصُ عَلَى دَوَامِ صُنْعِهِ الجَمِيلِ وَتَجْدِيدِه.

وَذَكَرْتُمْ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ وَكَرَامَتَكُمْ- اعْتِمَادَكُمْ عَلَى مَا رُسِمَ لَكُمْ مِنْ تَوَجُّهِ المُوَحِّدِينَ الَّذِينَ قِبَلَكُمْ -وَفَّقَهُمُ اللهُ -إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ -حَمَاهَا اللهُ- وَمُبَادَرَتُكُمْ إِلَى ذَلِكَ، وَعَمَلُكُمْ فِي حَمْلِهِمْ وَالرِّفْقِ بِهِمْ عَلَى مَا رُسِمَ لَكُمْ، وَأَنَّهُمْ انْتَقَلُوا بِجُمْلَتِهِمْ، إِلاَّ مَنْ حُدَّ لَكُمْ مُقامُهُ بِتِلْكَ البِلاَدِ، وَأَنَّهُمْ قَطَعُوا تِلْكَ الطُّرُقَ عَلَى حَالِ تَيْسِيرٍ وَتَسْهِيلٍ، وَعَوْنٍ مِنَ اللهِ تَعالَى وَتَوْفِيقٍ، مُسْتَشْعِرِينَ يُمْنَ حَرَكَتِهِمْ وَبَرَكَةَ تَنَقُّلِهِمْ، وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ حَسَنٌ مِنْ فِعْلِكُمْ، وَسَدَادٌ مِنْ قَصْدِكُم، سَتَعْرِفُونَ بَرَكَتَهُ، وَتَجْتَنُونَ ثَمَرَتَهُ



وَتَحْمَدُونَ مَغَبَّتَهُ. وَمَنِ اسْتَنَدَ إِلَى أَمْرِ اللهِ تَعالَى وَاسْتَضَاءَ بِنُورِه وَاسْتَقَامَ عَلَى طَرِيقِهِ، وَاهْتَدَى فِي إِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ بِهَدْيِهِ، فَتِجَارَتُهُ رَابِحَةٌ، وَمَسَاعِيهِ نَاجِحَةٌ، وَدَلائِلُ الرُّشْدِ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ وَاضِحَةٌ فَلْيَكُنْ [جِدُّكُمْ][1] وَدَأْبُكُمْ وَهَمُّكُمْ وَطَلَبُكُم فِي اتِّبَاعِ أَثَرِهِ وَالوُقُوفِ عِنْدَ حَدِّهِ وَالجَرْيِ عَلَى سَنَنِهِ، وَاللهُ يَتَوَلَّى عَوْنَكُمْ بِمَنِّه [وَقَدْ][2] تَقَدَّمَتِ المُكَاتَبَةُ إِلَيْكُمْ بِمَا تُرَتِّبُونَ بِهِ سُكْنَاهُمْ، وَتُمَكِّنُونَ بِهِ قَرَارَهُمْ عِنْدَ حُلُولِهِم بِإِفْرِيقِيَّةَ [إِنْ شَاءَ اللهُ][3].

وَذَكَرْتُمْ -أَعَزَّكُمُ اللهُ وَأَكْرَمَكُمْ- مَا فَعَلْتُمُوهُ فِي أَمْرِ بَنِي عَدِيٍّ وَمَا تَفْعَلُونَهُ مَعَ بَنِي رِيَاحٍ[4] إِذَا وَصَلْتُمْ إِلَيْهِمْ وَتَنْجِيزكُم كُلَّ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الاشْتِغَالِ، فَذَلِكَ كُلُّهُ مَشْكُورٌ مِنْ قَصْدِكُمْ وَمُضَافٌ إِلَى سَدِيدِ نَظَرِكُمْ، وَاللهُ تَعالَى يُجِيزُكُمْ وَيَحْمِيكُمْ، وَيُوَفِّقُكُمْ فِي الدَّقِيقِ وَالجَلِيلِ مِنْ مَقَاصِدِكُمْ وَمَنَاحِيكُم بِعِزَّتِهِ. وَالسَّلاَمُ الطَّيِّبُ المُبَارَكُ يَخُصُّكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَكُتِبَ غُرَّةَ رَجَبِ الفَرْدِ مِنْ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمائَةٍ.

وَمِنْ إِنْشَاءِ بَحْرِ الأَدَبِ الطَّامِي وَطَوْدِ الحَسَبِ السَّامِي، وَغُرَّةِ الأَكَارِمِ، المَشْهُورِ المَحَامِدِ وَالمَكَارِمِ، المُبَرِّزِ فِي حَلْبَةِ الأَفَاضِلِ قَاضِي الخِلَافَةِ المُكَرَّمِ الفَاضِلِ أَبِي مُوسَى رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ وَرِضْوَانُه لَدَيْهِ.

حَضْرَةَ سَيِّدِنَا المُعَظَّمِ الأَسْنَى أَبِي فُلاَنٍ ابنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ -أَيَّدَ اللهُ أَمْرَهُمْ وَأَعَزَّ نَصْرَهُمْ -مِنَ المُلْتَزِمِينَ لِأَمْرِهِمْ المُدِيمِينَ لِحَمْدِهِمْ وَشُكْرِهِمْ، الطَّلَبَةُ الَّذِينَ بِفُلاَنَة، سَلاَمٌ عَلَى السَّيِّدِ المُعَظَّمِ الأَسْنَى وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي يَسَّرَ الفَتْحَ الجَلِيلَ آيَةً لِأَمْرِهِ شَاهِدَه، وَنِعْمَةً لِأَعْلَى مِنْهَا وَاعِدَة، وَالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَرَسُولِه، وَعَلَى صَحَابَتِهِ الَّتِي عَكَفَتْ عَلَى إِعْلاَءِ دَعْوَتِهِ وَنَصْرِ كَلِمَتِهِ جَاهِدَة مُجَاهِدَة، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ

---

(1) خرم بالأصل.
(2) خرم بالأصل بفعل الرطوبة.
(3) خرم بالأصل بفعل الرطوبة.
(4) انظر في شأن هذه القبائل كتاب: أعمال الأعلام لابن الخطيب، والعبر لابن خلدون.



الَّذِي رَدَّ بِالسَّيْفِ وَالحُجَّةِ القَاطِعَيْنِ قُلُوباً نَافِرَةً وَأَفْئِدَةً شَارِدَة، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِإِمْدَادِ جُيُوشِهِ بِجُيُوشٍ مِنَ الرُّعْبِ تَسِيرُ بَيْنَ أَيْدِيهَا نَاهِدَة، وَتُغَادِرُ فِرَقَ الكُفْرِ وَالضَّلَالِ حَيْثُ كَانَتْ حَصِيداً خَامِدَة، وَلِلْأَمِيرِ الأَجَلِّ الأَفْضَلِ أَبِي عَبْدِ اللهِ بِإِسْعَادِهِ بِبَرَكَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ سَعَادَةً عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ مُسَاعِدَة.

فَالكِتَابُ -أَعْلَى اللهُ قَدْرَكُمْ، وَأَدَامَ تَأْيِيدَكُمْ وَنَصْرَكُمْ- وَقَدْ فَتَحَ اللهُ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَعَظُمَتْ مِنَّتُه، بِبَرَكَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ -أَيَّدَهُمُ اللهُ- فِي غَزْوَةٍ بَحْرِيَّةٍ عَظِيمَةِ الأَثَر، كَرِيمَةِ الخُبْرِ وَالخَبَرِ، قَرَّبَ اللهُ فِيهَا مَرَامَاتٍ مُتَبَعِّدَة، وَسَهَّلَ مَسَالِكَ مُتَوَعِّرَة، وَشَفَى صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ كَانَتْ عَلَى الكَافِرِينَ مُتَغَيِّظَةً مُسْتَعِرَة، وَصُورَتُها الحُسْنَى أَنَّ القِطْعَتَيْنِ المُبَارَكَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَقَدَّمَ الإِعْلَامُ بِتَوْجِيهِهِمَا لِانْتِهَازِ غَزْوٍ إِن اتُّفِقَ، وَلِتَشْيِيعِ المَرْكَبِ الَّذِي وُسِقَ فِيهِ مِنْ ثِيَابِ المَخْزَنِ المَعْمُورِ مَا وُسِق، وَكَانَتِ الجَمَاعَتَانِ اللَّتَانِ فِي القِطْعَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مِنْ أَهْلِ بِجَايَةَ[1] وَالثَّانِيَة مِنْ أَهْلِ بُونَةَ[2]- وَمُقَدَّمَاهُمَا حَسَنٌ وَأَبُو بَكْرٍ -أَكْرَمَهُمُ اللهُ- نَهَضُوا وَشِعَارُهُمُ التَّوْحِيدُ، وَاسْتِنْصَارُهُمْ بِيُمْنِ الخِلَافَةِ الَّتِي لَا يَنْجُو هَارِبُها وَلَا يَحِيدُ، فَوَافَوْا مَرْسَى: «تَنَس»[3] -حَرَسَهَا اللهُ- عِنْدَ طُلُوعِ الفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ السَّابِعِ مِنْ رَجَبِ الفَرْدِ، وَإِذَا فِيهِ غُرَابَانِ[4] اثْنَانِ

(1) بجاية: مدينة جزائرية معروفة كانت في القديم عاصمة لبني حماد الصنهاجيين، وإليها ينسب صاحب عنوان الدراية؛ وقد عرف في كتابه بجملة من علمائها وفقهائها وكتابها. انظر الروض المعطار.

(2) بونة: مدينة من بلاد إفريقية وهي على ساحل البحر تعرف ببلد العناب لكثرته بها وفيها دفن أبو زكرياء الحفصي الذي قال فيه أحدهم بعد وفاته:

لَيْتَ شِعْرِي عَنِ الخَلِيفَةِ يَحْيَى ... وَإِلَى لَيْتَ يَسْتَرِيحُ الحَزِينُ
قَفَلَ الجَيْشُ سَالِمِينَ وَيَحْيَى ... بالمُصَلَّى مِنْ بُونَةٍ مَدْفُونُ

الروض المعطار 115، الفارسية 107، البيان المغرب 3/ 393.

(3) تنس: مدينة تقع قرب مليانة وهي قديمة محصنة بسور تبعد عن البحر بميلين؛ أما تنس الحديثة فقد بناها- كما يقول صاحب الروض المعطار- البحريون من أهل الأندلس سنة 262هـ، ومنها علي بن الملثم التنسي. الروض المعطار ص: 138، الاستبصار: 133، الإدريسي 83.

(4) الغُراب: مصطلح قديم يقصد به القطع البحرية من السفن التي تستخدم للقتال أوغيره، انظر كتاب الأستاذ الجعماطي في الموضوع.



أَحَدُهُمَا مِنْ طُرْطُوشَةَ[1] والثَّانِي مِنْ بَرْشِلُونَةَ[2] -فتحهما الله- فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ الفَرِيقَيْنِ عِلْمٌ بِالثَّانِي وَإِنَّمَا كَانَتْ مُفَاجَأَةً لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهَا مُقَدِّمَةٌ إلا التَّوَكُّلُ وَالاتِّكَالُ عَلَى فَضْلِ اللهِ وَبَرَكَاتِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ العَلِيَّةِ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ المُعَايَنَةِ وَصِدْقِ المُخَالَطَةِ زَمَانٌ، وَلَاشَغَلَ قِرْنًا عَنْ مُنَازَلَةِ قِرْنٍ[3] شَانٌ، وَوَقَفَتْ كُلُّ قِطْعَةٍ بِإِزَاءِ صَاحِبَتِهَا فَتَنَاطَعَ القَوْمُ هُنَاكَ وَتَرَامَوْا بِالسِّهَامِ وَتَدَاعَسُوا بِالرِّمَاحِ وَتَمَاصَعُوا[4] بِالسُّيُوفِ، وَتَصَارَعُوا بِالأَيْدِي وَالأَيْدِ[5] وَتعَامَلُوابِمَا يُوصِلُهُمْ إِلَى الحُتُوف، وَتَضَامُّوا حَتَّى لَوْ يُلْقَى المَاءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لَمْ يَكَدْ يَتَسَرَّبْ، وَدَامَتِ الحَرْبُ، وَاخْتَلَطَ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ، إِلَى أَنْ تَحَطَّمَ كَثِيرٌ مِنَ المَجَاذِفِ وَالعِيدَان، وَتَثَلَّمَتْ أَجْزَاءٌ مِنَ المَرَاكِبِ لِفَرْطِ التَّدَانِي عَلَى سَعَةِ المَيْدَان، وَامْتَدَّ القِتَالُ مِنَ الوَقْتِ المَذْكُورِ إِلَى قُرْبِ الزَّوَالِ حَتَّى كَادَ اليَأْسُ يَحْصُل، وَخِضَابُ الرَّجَاءِ يَنْصُل، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ مِنَ البَرِّ لاَ يَقْدِرُونَ لِإِخْوَانِهِمْ إِلَّا عَلَى الابْتِهَالِ فِي الدُّعَاءِ، وَالضَّرَاعَةِ إِلَى رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَهَبَّ اللهُ رِيحَ النَّصْرِ لِأَوْلِيَائِه، وَمَكَّنَهُمْ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى أَعْدَائِه، وَحَكَّمَ فِيهِمْ سُيوفًا تَنْقَبِضُ وَتَنْبَسِطُ، وَتُقْسِطُ وَلَا تَنْقَسِطُ وَتَغَلَّبُوا عَلَى إِحْدَى القِطْعَتَيْن، وَكَانَ القَتْلَى مِن أَهْلِهَا شَطْرًا، وَالمَأْسُورُونَ شَطْرا، وَجُمْلَةُ المَأْسُورِينَ نَحْوُ ثَمَانِينَ فِيهِم مِنَ .... وَأَفْلَتَتِ القِطْعَةُ الثَّانِيَةُ بِجُرَيْعَةِ الذَّقْنِ[6] عِنْدَ الِاشْتِغَالِ بِأُخْتِهَا بَعْدَ أَنْ قُتِلَ مِنْ كُفَّارِهَا نَحْوُ الأَرْبَعِينَ .... الثَّانِيةِ فِي البَحْر، وَاسْتَنْقَذَ اللهُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُم مِنَ المُسْلِمِينَ فِي رِبْقَةِ الأَسْرِ، فَسُرِّيَ عَنْ أَهْلِ السَّوَاحِلِ، فَسُرُّوا وَفَرِحُوا وَاسْتَبْشَرُوا، وَعَايَنُوا آيَةً عَظِيمَةً فِي مُقَابَلَةِ قِطْعَتَيْنِ لَا عَهْدَ

(1) طرطوشة: مدينة أندلسية تقع في سفح جبل به خشب الصنوبر بينها وبين البحر الشامي ميلان ومنها الفقيه الطرطوشي، صاحب كتاب: «الحوادث والبدع». انظر الروض المعطار، ص: 391.

(2) برشلونة: مدينة أندلسية مشهورة قديما وحديثا.

(3) القِرْن: بالكسر كفؤك في الشجاعة، وفي حديث ثابت بن قيس: «بئسما عودتم أقرانكم»؛ أي نظراءكم في القتال. اللسان: قرن. وشان هنا: مخففة شأن.

(4) المماصعة: المقاتلة والمجالدة بالسيوف، قال الشاعر:

يَهْدِي الخَمِيسَ نِجَاداً فِي مَطَالِعِهَا ... إِمَّا المِصَاعُ، وَإِمَّا ضَرْبَةٌ رُغُبُ

(5) الأيد: القوة، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾. سورة ص، الآية: 16.

(6) مثل معروف ومشهور.



لَهُما [بمِثْلِهِمَا] مَعَ الانْفِرَادِ بِهِمَا فِي ذَلِكَ الجِهَادِ وَالجِلاَدِ، لِقِطْعَتَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا إِلا... رطة الكُفَّارِ الَّذِينَ عُرِفُوا بِالنَّجْدَةِ وَوُصِفُوا بِالشِّدَّةِ، وَاتَّخَذُوا هَذَا البَحْرَ جَمَلاً ذَلُولاً، يَرْكَبُونَ جَنابَه، وَيَضْرِبُونَ عُبَابَه، عَرْضاً وَطُولاً وَاعْتَقَدَ المُوَحِّدُونَ أَنَّ هَذَا الفَتْحَ فَرْعٌ مِنْ فُرُوعِ الفَتْحِ الأَعْلَى بِالمَهْدِيَّةِ[1] -كَلأَها اللهُ- فَقَدْ أَبْقَى بِحَمْدِ اللهِ فِي الكُفَّارِ سُنَّةً قَد اسْتَقَرَّتْ، وَاطَّرَدَتْ وَاسْتَمَرَّتْ، وَهِيَ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ مَصَارِعَهُمْ بِحَيْثُ يَرَاهَا الجَالِسُ عَلَى الشَّط، وَيُعَايِنُهَا مَنْ لَمْ يُعَايِنْها قَطّ.

وَفِي تَارِيخِهِ وَصَلَ الغُزَاةُ المَفْتُوحُ عَلَى أَيْدِيهِمْ -بَارَكَ اللهُ فِيهِمْ- بِقِطَعِهِمُ الثَّلاَثِ، مَجْمُوعاً لَهُمْ بَيْنَ الأَجْرِ وَالمَغْنَمِ، مَسْمُوعاً مِنْهُمُ الاعْتِرَافُ بِأَنَّهَا إِحْدَى بَرَكَاتِ هَذَا الأَمْرِ الأَعْظَمِ، لَيْسَ لَهُمْ فِيهَا إِلَّا الحَظُّ المُسْتَعْمَلُ المُسَخَّر، وَإِنَّهُ لَلْحَظُّ الغَبِيطُ المُقَدَّمُ غَيْرُ المُؤَخَّر، لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء، وَلَا فُقِدَ مِنْهُمْ شَخْصٌ وَاحِد، مَنْ عَرَضَ لِلنَّاسِ شَهِدَ لَهُ أَصْحَابُهُ بِحُسْنِ البَلاَءِ، وَعِظَمِ الغَنَاء، مَا تُرجَى لَهُ بِهِ الشَّهَادَة، وَتُنَالُ بِهِ السَّعَادَة، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، حَمْداً يَكُونُ كِفَاءً لِنِعَمِهِ، وَإِزَاءً لِقِسَمِهِ، وَمَدْعَاةً لِفَيْضِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَإِيَّاهُ نَسْأَلُ أَنْ يُورِدَ مَعَ السَّاعَاتِ وَالأَوْقَاتِ عَلَى حَضْرَةِ الخِلَافَةِ النَّبَوِيَّةِ المَهْدِيَّةِ فُتُوحاً تَتْرَى، وَيَدَّرِعُ ثَانِيهَا بَتْراً، وَيَمْلأُ طِيبَ أَحَادِيثِهَا بَرّاً وَبَحْراً، وَبَدْواً وَحَضَراً.

وَالرَّغْبَةُ فِي دُعَاءِ سَيِّدِنَا المُعَظَّمِ وَابْنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا المُنْعِمِ -أَيَّدَهُمُ اللهُ- تَتَأَكَّد، وَمُلَازَمَتُهُ لِلْمَجْلِسِ الأَعْلَى وَمُشَاهَدَتِهِ لِلنَّيِّرِ الأَسْمَى مِمَّا تَتَزَيَّنُ بِهِ هَذِهِ الرَّغْبَةُ وَتَتَزَيَّد، لاَ زِلْتُمْ مُسْتَمِدِّينَ مِنْ بَرَكَتِه، مَجْدُودِينَ بِسَعَادَتِه، وَالسَّلَامُ الأَبَرُّ الأَزْكَى الأَعْطَرُ الأَذْكَى عَلَى السَّيِّدِ المُعَظَّمِ الأَرْفَعِ الأَسْنَى، وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ. كُتِبَ فِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ رَجَبِ الفَرْدِ سَنَةَ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمائَةٍ.

---

(1) المهدية: مدينة بناها عبد الله الشيعي الخارج على بني الأغلب وهو الذي سماها بذلك الإسم ونسبها إلى نفسه، وبينها وبين القيروان ستون ميلا، الروض المعطار، ص: 561.



وَمِنْ إِنْشَاءِ الكَاتِبِ: المَجِيدِ أَبِي الحَسَنِ بنِ زَيْد:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ -أَيَّدَهُ اللهُ بِنَصْرِهِ وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ- إِلَى الطَّلَبَةِ وَالمُوَحِّدِينَ وَالشُّيُوخِ وَالكَافَّةِ بِمُرَاكُش -أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُمْ بِتَقْوَاه- وَأَوْزَعَهُمْ شُكْرَ نُعْمَاه - سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّا نَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلاَّ هُو وَنَشْكُرُهُ عَلَى آلاَئِهِ وَنِعَمِه، وَنُصَلِّي عَلَى نَبِيِّهِ المُصْطَفَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ، وَالحَمْدُ للهِ الذِي قَدَّمَ لِأَوْلِيَاءِ أَمْرِهِ فِيمَا يَرُومُونَهُ مِنْ كَبْتِ العَدُوِّ وَقَهْرِهِ يَوْماً عَلَى الكَافِرِينَ عَصِيباً، وَصَنَعَ لَهُمْ فِي إِبْرَازِ الكَفَرَةِ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَسَوْقِهِمْ عَلَى قَدَمِ الِاغْتِرَارِ إِلَى مَصَارِعِهِمْ صُنْعاً عَجِيباً، وَوَعَدَ القَائِمِينَ بِدَعْوَتِهِ وَالنَّاصِرِينَ لِمِلَّتِهِ فُتُوحاً آزِفَةً يَفْتَحُونَهَا، و﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَاخُذُونَهَا﴾[1]، ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[2]، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّهِ المُصْطَفَى الهَادِي إِلَى سُبُلِ السَّلاَمِ تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ لَبَّى دَعْوَتَهُ إِلَى رَبِّهِ سَامِعاً مُجِيباً، سَامِياً فِي مَقَامِ النُّصْرَةِ، وَمَحَلِّ الأَثْرَةِ أَغَرَّ نَجِيباً، وَنَسْأَلُهُ الرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ المُجَدِّدِ لِدِينِهِ عِنْدَمَا عَادَ غَرِيباً، كَمَا بَدَأَ غَرِيباً[3] وَذَهَبَتْ بِهِ الأَهْوَاءُ المُتَّبَعَةُ وَالأَضَالِيلُ المُبْتَدَعَةُ تَصْعِيداً وَتَصْوِيباً، وَعَنْ صَاحِبِهِ وَخَلِيفَتِهِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُؤَازِرِهِ، وَمُظَاهِرِهِ تَوْسِيعاً لِأَكْنَافِ الدَّعْوَةِ العَلِيَّةِ وَتَرْحِيباً، وَوَارِثِ مَقَامِهِ الكَرِيمِ وَأَهْلِيهِ القِيَامَ بِأَمْرِهِ العَظِيمِ مَنْصُوراً وَمَفْتُوحاً لَهُ وَمُصِيباً.

وَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ كَتَبَكُمُ اللهُ مِمَّنْ أَحْسَنَ تَلَقِّي البَشَائِرِ، وَوَفَّى النِّعْمَةَ حَقَّهَا مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ، وَجَعَلَكُمْ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَقَتْ بِهِمْ أَنْوَارُ الهِدَايَةِ فَائِضَةً عَلَى الأَبْصَارِ وَالبَصَائِرِ، مِنْ حَضْرَةِ إِشْبِيلِيَّةَ -حَرَسَهَا اللهُ- وَالَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَالعَمَلَ بِطَاعَتِهِ وَالاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ للهِ فِي هَذَا الأَمْرِ العَالِي وَمَا نَاطَ بِهِ مِنْ إِظْهَارِ

---

(1) سورة الفتح، الآية: 20.

(2) سورة الفتح، الآية: 27.

(3) مأخوذ من حديث نبوي شريف مضمنه: «بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء».



الدِّينِ وَنَصْرِ المِلَّةِ وَإِعْلَاءِ الكَلِمَةِ أَفْضَالاً خَافِيَةً وَعَالِنَة، وَآثاراً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة، وَأَسْرَاراً مُتَجَلِّيَةً، وَمُحْتَجِبَة، وَلَطَائِفَ مَشْهُودَةً وَمُتَغَيِّبَة، فَمَهْمَا أُنْسِيءَ لِعدَاتِهِ فِي أَمَلِ الإِمْهَالِ، وَأُرْخِيَ لَهُمْ فِي طُولِ الإِمْلَاءِ فَلِيُسَاقَ لِأَوْلِيَاءِ اللهِ الفَتْحُ فِيهِمْ بِالمَسَاقِ العَجِيب، وَلِيَتَرَتَّبَ لَهُمْ حَالُ القَطْعِ لِدَابِرِهِمْ وَالاسْتِئْصَال، لِشَأْفَتِهِمْ فِي أَجْمَلِ صُوَرِ التَّرْتِيب، إِشَارَةً لِلْعِنَايَةِ وَدَلَالَةً عَلَى الأَثَرَةِ وَتَنْبِيهاً عَلَى الارْتِقَاءِ فِي الأَسْبَابِ وَتَبْصِرَةً ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

وَقَدْ كَانَ مُقَامُنا بِهَذِهِ الجَزِيرَةِ -مَهَّدَها اللهُ- لِتَتْمِيمِ المَقْصُودِ فِيهَا مِنْ إِظْهَارِ الدِّينِ وَنَصْرِ المِلَّةِ وَمُرَابَطَةٍ فِي مُعَاقَبَةِ العَدُوِّ قَسَمَهُ اللهُ وَفِي مُهْلَةِ النَّظَرِ فِي حَسْمِ دَائِهَا، وَاجْتِيَاحِ أَعْدَائِهَا إِلَى أَنْ بَلَغَنا أَنَّ جُمَلاً ذَمِيمَةً مِنَ النَّصَارَى -لَعَنَهُمُ اللهُ- أَهْلِ آبلَة وَمَا أخذ إِخْذَها، وَمَنِ انْضَافَ إِلَيْهِم مِنَ الفِرَّيْرِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ -كَبَتَ اللهُ جَمِيعَهُمْ- قَاصِدُونَ قَصْدَ هَذِهِ الجِهَاتِ -كَلَأَهَا اللهُ- وَقَدْ وَقَعَتِ الاِسْتِفَاضَةُ وَحَصَلَ العِلْمُ بِأَنَّ أَهْلَ آبلَة[2] حُمَدُ النَّصَارَى وَحُمَاتُهُم، وَبُؤَسَاؤُهُم وَكُمَاتُهُم، وَجَمْرَتُهُمُ المُلْتَهِبَةُ، وَجَمْهَرَتُهُمُ المُتَغَلِّبَةُ، وَالشَّوْكَةُ الَّتِي لَمْ يَخْضِدْهَا مِنْ قَبْلُ خَاضِد، وَالشَّجَرَةُ المَلْعُونَةُ الَّتِي لَمْ يَعْضِدْهَا عَلَى النَّارِ عَاضِد، وَأَنَّهُمْ بِمَا خَبَأَ اللهُ مِنَ الفَتْحِ فِيهِم لِأُولِي أَمْرِهِ، وَأَوْلِيَاءِ نَصْرِهِ، سَوَّلَتْ لَهُم أَنْفُسُهُم الحَائِنَةُ الخُرُوجَ لِلْغَارَةِ بِهَذِهِ الجِهَاتِ -كَلَأَهَا اللهُ- تَخَيُّلاً مِنْهُمْ أَنَّ جُيُوشَ المُوَحِّدِينَ قَدْ تَفَرَّقَتْ ذَاهِبَةً، وَسَرَحَتْ قَافِلَةً، وَانْتِهَازاً مِنْهُمْ فِي زَعْمِهِم لِلْفُرْصَةِ قَبْلَ احْتِفَالِ الجُنُود، وَالاحْتِشَادِ لِوَقْتِ الغَزْوِ المَشْهُود. فَاسْتَمَرُّوا مُصَمِّمِينَ، وَتَهَوَّرُوا مُقْدِمِين، وَمَازَالُوا يَتَقَدَّمُونَ إِلَى حَتْفِهِم، وَتَضْرِبُ أَسْدَادُ الغَيِّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِم، مُغَالِطِينَ بِالجُرْأَة مُتَخَمِّطِينَ بِالبَسَالَة، فَارِقِينَ لِحِجَابِ المَهَابَةِ، نَاكِبِينَ عَن سَمْتِ الإِصَابَةِ، إِلَى أَنْ بَلَغُوا هَذِهِ البِلَادَ -حَماهَا اللهُ- وَأَجَازُوا الوَادِيَ الكَبِير بَيْنَ قُرْطُبَة

---

(1) مقتبس من قوله تعالى:﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. سورة ص، الآية: 42. وقوله:﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. سورة غافر، الآية: 53.

(2) آبلة avila مدينة أندلسية، الروض المعطار.

وَإِشْبِيلِيَّة، وَاكْتَسَحُوا جُمَلاً مِنَ الغَنَمِ كَثِيرَةً بِجِهَةِ إِسْتِجَّةَ[1]، ثُمَّ عَطَفُوا عَلَى المَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الكَنْبَانِيَّةُ مِنْ قِبْلِيِّ قُرْطُبَةَ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ طَرِيقَهُمْ إِلَى مِنْتُور[2].

وَلَمَّا اتَّصَلَ بِنَا نَبَؤُهُمُ الذَّمِيمُ، وَتَوَجَّهَ فِيهِمُ الصُّنْعُ الكَرِيمُ، اسْتُخِيرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى تَمْيِيزِ العَسَاكِرِ المَنْصُورَة، وَتَسْرِيبِهَا إِلَيْهِم مَعَ الطَّلَبَةِ وَأَشْيَاخِ المُوَحِّدِين -أَعَانَهُمُ اللهُ- فَأَتْبَعُوهُم مُجِدِّينَ مُسْتَعِينِينَ بِاللهِ وَمُسْتَنْجِدِين، وَاجْتَمَعُوا بِالشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي حَفْصٍ، -أَعَزَّهُ اللهُ- وَمَنْ هُنَالِكُمْ مِنَ المُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- وَعَرَّفُوا بِمُتَجَدِّدِ حَالِهِم، وَمَا انْكَشَفَ لَهُم مِنْ صُوَرِ الأَحْوَالِ فِي حَلِّهِم وَتَرْحَالِهِم، وَاسْتَمَدُّوا الأَوَامِرَ الَّتِي عَادَةُ اللهِ تَعَالَى إِسْعَادُ مُطِيعِهَا وَتَوْفِيقُ المُسْنِدِ إِلَيْهَا، فَأُمِرُوا بِصِدْقِ لِقَاءِ العَدُوِّ قَصَمَهم اللهُ وَأَخَذَهُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ الذِي سَبَقَتْ كَلِمَتُهُ أَنْ يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُ دِينَه، وَيَبْذُلُ فِي مُجَاهَدَتِهِ إِخْلاَصَهُ وَيَقِينَه. فَاسْتَمَرُّوا فِي جِدِّ الاتِّبَاعِ عَلَى وَجْهِهِمُ المَيْمُون، وَإِلَى نَصْرِهِمُ المَضْمُون، وَدَرَجَتْ أَيَّامٌ قَدْرَ مَا يَصِلُ الطَّالِبُ إِلَى المَطْلُوب، وَيَتَمَخَّضُ بِمَكْرُوهِ الكَفَرَةِ، فَهُوَ عَيْنُ المَحْبُوب، إِلَى أَنْ هَتَفَتِ البَشَائِرُ مَالِئَةً الأَسْمَاع، طَالِعَةً مِنْ أَحْسَنِ ثَنَايَا الاطِّلاَع، وَوَرَدَ الفَتْحُ الجَلِيلُ، وَالصُّنْعُ الجَمِيلُ، وَوَصَلَ مِنْ أَعْيَانِ المُوَحِّدِينَ، -أَعَانَهُمُ اللهُ- مَنْ شَهِدَ ذَلِكَ اليَوْمَ الَّذِي أُخِذَ فِيهِ لِلإِسْلاَمِ مِنْهُمُ الثَّار، وَعَرَّفَ الكَافِرِينَ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار[3]، مَعَهُمْ أَعْلاَمُ الرُّومِ المَنْكُوسَة فِيهَا تَمَاثِيلُهُمْ وَصُلْبَانُهُم، وَافْتِرَاؤُهُم عَلَى اللهِ وَطُغْيَانُهُم، وَرَأْسُ شَيْخِهِمُ الذَّمِيم، وَشَيْطَانُهُم الرَّجِيم، وَاتِرُ أَهْلِ الإِيمَانِ، وَأَشَدُّ الكَفَرَةِ عُتِيّاً عَلَى الرَّحْمَنِ، فَذَكَرَ الوَاصِلُونَ أَنَّ المُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- اتَّبَعُوهُم مُغِذِّينَ، وَأَرْهَقُوهُمْ مُشَمِّرِينَ فِي الرَّكْضِ مُجِدِّين، إِلَى آخِرِ فَحْصِ هِلَال، وَقَدْ طَمِعَ الأَعْدَاءُ بِالنَّجَاةِ، فَتَهَيَّأَ هُنَالِكُم اللِّحَاق وَالإِدْرَاك، وَتَرَاءَى الإِيمَانُ وَالإِشْرَاك، فَرَأَى الكَفَرَةُ مِنْ بَأْسِ اللهِ الَّذِي لَا يُرَدُّ، وَجُنْدِهِ الَّذِي لَا

---

(1) قرطبة CORDOBA، إشبيلية SEVILLA، إستجة ECIJA، مدن أندلسية مشهورة. ينظر الروض المعطار، معجم ما استعجم للبكري.

(2) ينسب إليها المنتوري صاحب الفهرسة المشهورة.

(3) فيه نفس قرآني.



يُصدُّ، مَا هَالَهُم وَرَاعَهُم، وَأَنْسَاهُمْ جِلاَدَهُمْ وَمَصَاعَهُم، وَعَلَى ذَلِكَ فَطَمِعُوا فِي الدِّفَاع، وَارْتَفَعُوا إِلَى اليَفَاع، وَحَمَلُوا حَمْلاَتٍ قَاصِرَة، وَكَرُّوا كَرَّاتٍ خَاسِرَة، إِلَى أَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الكِلْمَة، وَحَاقَتْ بِهِم النِّقْمَة، وَأَخَذَتْهُمُ السُّيُوفُ المُسْتَلْحمَة، وَانْصَبَّتْ عَلَيْهِمُ الجُيُوشُ مِنْ كُلِّ جَانِب، وَصَيَّرَتْهُمُ الحُمَاةُ كَأَمْسِ الذَّاهِب، وَأَوْلِيَاءُ الحَقِّ وَأَنْصَارُ اللهِ وَأَهْلُ طَاعَةِ أَمْرِهِ قَدْ هَبَّتْ لَهُمْ رِيحُ النَّصْرِ، وَطَلَعَتْ عَلَيْهِمْ شَرَاقَاتُ الفَتْحِ لَمْ يُنَلْ مِنْهُمْ نَيْلٌ، وَلَمْ يُقَمْ لِلْكَفَرَةِ فِي جَانِبِهِم مَيْلٌ، إِلَى أَنْ وَلَّى أَعْدَاءُ اللهِ الأَدْبَار، وَابْتَدَرُوا الفِرَار، وَخَلَوْا عَنْ غَنَائِمَ كَانُوا اسْتَاقُوهَا، وَأُسَارَى مِنَ المُسْلِمِينَ غَلَّ اللهُ عَنْ قَتْلِهِم أَيْدِيَهُم، وَكَفَاهُمْ تَعَدِّيَهُم، وَتَمَّتْ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ الهَزِيمَة، وَالوَقْعَةُ العَظِيمَة، وَالتُقِطُوا فِي بَقِيَّةِ تِلْكُمُ الأَنَاء، وَقُتِلُوا قَتْلَ الفَنَاء، حَتَّى عَمَّتْ حَمَاةٌ بِدَم، وَلَمْ يَكَدْ أَنْ يَبْقَى بَيْنَ القَتْلَى مَحَطُّ قَدَم، وَاقْتُصُّوا كَذَلِك تَلْفَظُهُم الشَّوَاهِق، وَتُرْدِيهِمُ المَهَاوِي، وَيَنِمُّ عَلَيهِم اللَّيْلُ وَهُوَ كَاتِم، وَيَكْلَحُ لَهُمُ الصُّبْحُ وَهُوَ بَاسِم، وَلاَ تُذِمُّ عَلَيْهِمْ غَيْضَةٌ مُلْتَفَّةٌ، وَلاَ شَجْرَاءُ مُحْتَفَّة، بَلْ يَقُولُ الحَجَرُ يَا مُومِنُ هَذَا الكَافِرُ خَلْفِي فَاقْتُلْهُ، وَإِلَى سَوَاءِ الجَحِيم فَاعْتِلْهُ[1] ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾[2] سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3] فَالحَمْدُ للهِ عَلَى هَذَا الفَتْحِ العَظِيمِ خَطَرُه، الجَلِيلِ قَدْرُه، الَّذِي لَهُ مَا بَعْدَه، وَانْسِيَاقِ مَا يُنْجِزُ اللهُ فِيهِ وَعْدَه، حَمْداً يُبَلِّغُ رِضَاه، وَيُوجِبُ زُلْفَاه، وَيمْتَرِي المَزِيدَ مِنْ نُعْمَاه.

وَهَذَا الفَتْحُ -وَفَّقَكُمُ اللهُ وَأَعَانَكُمْ- وَإِنْ كَانَ عَظِيماً فِي نَفْسِه، عَالِياً فِي جِنْسِه، فَإِنَّهُ لِلْفُتُوحِ الآزِفَةِ مِفْتَاحٌ، وَبَيْنَ يَدَيِ السَّعْيِ فِيهَا مِصْبَاحٌ، فَإِنَّهُ رَائِدُ الفُتُوحِ المُنْتَظَرَة، وَعُنْوَانُ الخَيْرَاتِ المُيَسَّرَة، وَمُثَبِّتُ السَّعَادَةِ وَإِنْ كَانَتْ ثَابِتَةً مُكَرَّرَة، وَنَازِلٌ مِنَ الفُتُوحِ الآزِفَةِ بِمَحَلِّ البَاكِرِ مِنَ الثَّمَرَة، لِمَا أُشْرِبَ فِيهِ أَوْلِيَاءُ اللهِ وَأَنْصَارُ الحَقِّ وَجُنُودُ الأَمْرِ

---

(1) قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾. سورة الدخان، الآية:44. عَتَلَه: يعتِله ويَعْتله؛ جره جرا عنيفا.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 61.

(3) سورة الفتح، الآية 23، سورة فاطر، الآية: 43.



وَحُمَاةُ الإِسْلاَمِ وَأَحْزابُ الدِّينِ مِنْ رِيحِ الظَّفَر، وَوَجَدُوا مِنْ عِزِّ الغَلَبِ وَاسْتَحْلَوْا مِنْ مَذَاقَةِ النَّصْر، وَتَوَطَّأَ لَهُمْ مِنْ طَرِيقِ الفَتْحِ المَرُومِ، وَتَذَلَّلَ لَهُمْ مِنْ مَرْكَبِ الرُّومِ، إِذْ عَرَفُوا ذَوْقَهُم، وَسَاقُوهُمْ سَوْقَهُمْ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِي نُفُوسِهِمْ قَدْر مُقَاوَمَة، وَلاَ مَحَل مُرَاقَبَة، وَلَا مَا خَامَرَ الرُّومَ -قَصَمَهُمُ اللهُ- مِنَ الرَّعَةِ[1] وَالرَّوْعِ، وَانْفَتَحَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَبْوَابِ الخُطُوبِ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْهِم مِن جُنُودِ الرُّعْبِ[2]، وَبَاءُوا بِهِ مِنْ ذُلِّ الغَلَبِ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ، وَفَقَدُوهُ مِنْ مَنْكِبِ الدِّفَاعِ، وَرِدْءِ الامْتِنَاعِ، وَفُرْسَانِ الجِلَادِ وَالمِصَاعِ، فَإِنَّهُمْ بَعْدَ أُولَئِكَ الهَلْكَى المُطَوَّحِينَ بِمَنْزِلَةِ الرُّمْحِ بَعْدَ السِّنَانِ، وَالجَسَدِ بَعْدَ الجَنَانِ؛ فَهَذَا الفَتْحُ العَظِيمُ قَدْ عَظُمَتْ بِهِ النُّعْمَى وَالمِنَّةُ العُظْمَى، وَكَثُرَتِ العَوَائِدُ، وَاسْتَمَرَّتْ مِنْهُ فِي الحَالِ وَالمَآلِ الفَوَائِدُ. فَوَفُّوهُ حَقَّهُ وَأَعْطُوهُ قِسمَهُ شُكْراً وَنَشْراً وَإِشَاعَةً وَإِذَاعَةً يَمْتَدُّ مَدَاهَا وَيَبْلُغُ أَقْصَاهَا؛ وَاللهُ تَعالَى يُشَفِّعُهُ بِأَمْثَالِه، وَيُرْدِفُه بِمُنْهَالِ الفَتْحِ وَمُنْثَالِه، وَيَتَوَلَّى تَوْفِيقَكُمْ لِمَا يُرْضِيه، وَعَوْنَكُمْ عَلَى مَا يُزْلِفُهُ لَدَيْه، بِمَنِّهِ وَيُمْنِهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ، وَلَنَا بِكُلِّ خَيْرٍ كَفِيل، وَالسَّلاَمُ الكَرِيمُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكَاته.

كُتِبَ فِي الرَّابِعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ المُكَرَّم سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

مِنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بنِ أَمِيرِ المُؤمِنِينَ أَيَّدَهُ اللهُ بِنَصْرِهِ، وَأَمَدَّهُ بِمَعُونَتِهِ إِلَى الطَّلَبَةِ وَالمُوَحِّدِينَ وَالشُّيُوخِ وَالأَعْيَانِ وَالكَافَّةِ بِمُراكُشَ -أَدَامَ اللهُ كَرامَتَهُمْ بِتَقْوَاهُ- سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ.

وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي صَنَعَ لِأَوْلِيَاءِ أَمْرِهِ وَالقَائِمِينَ بِدَعْوَتِهِ مَا كَنَفَ بِهِ حُمَاةَ الأُمَّةِ وَأَنْصَارَهَا، وَكَفَّ عَنْهَا أَيْدِي الكَافِرِينَ بَعْدَ أَنْ أَظْفَرَهَا عَلَيْهِمْ وَأَعَزَّ نَصْرَهَا وَإِظْهَارَهَا، وَالصَّلاَةُ عَلَى نَبِيِّنَا المُصْطَفَى مُحَمَّدٍ النَّاهِجِ فِي هَذِهِ المَقَامَاتِ العَظِيمَةِ وَالمَرَامَاتِ الجَسِيمَةِ سُنَنًا أَوْضَحَ لِلْمُقْتَفِينَ آثَارَها، وَرَفَعَ لَهُمْ مَنَارَها، وَعَرَّفَ مِنْهُم أُولِي الأَيْدِي

(1) الرعة: السكون والهدوء وهي عكس الروع.
(2) الرُّعْبُ والرُّعُبُ: الخوف والفزع.



وَالأَبْصارِ مُتَنَاوَلَها ومُشَارَها، وَرَضِيَ اللهُ عَنْ إِمَامِنا المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُوم مُعِيدِ المِلَّة، ومُفِيدِ الصَّحِيحِ مِنَ الأَدِلَّة، حَتَّى قَرَّتْ قَرَارَهَا، وَاسْتَمَرَّتْ عَلَى السَّنَنِ القَوِيمِ والأَمْرِ الحَكِيمِ اسْتِمْرَارَها، وَعَنْ خَلِيفَتِهِ وَوَلِيِّهِ وَصَاحِبِهِ وَحَوَارِيِّهِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُمَشِّي لِدَعْوَتِهِ العَالِيَةِ العَالِنَةِ وَالمُتَمِّمِ أَنْوَارَهـا، وَالمُمَكِّنِ لَهـا فِي الأَرْضِ حَتَّى عَمَّتْ نِجَادَها وَأَغْوَارَها.

وَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ -كَتَبَكُمُ اللهُ- مِمَّنْ عَرَفَ النِّعَمَ حَقَّ عِرْفَانِهَا، وَأَقَامَ النَّظَرَ فِي عَوَاقِبِ الأُمُورِ الحَمِيدَةِ، وَمَنَاقِلِ الأَحْوَالِ السَّعِيدَةِ مَقَامَ عِيَانِها، وَاسْتَبْشَرَ بِمَا فَتَحَ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ، وَأَفَاضَ عَلَى الخَلِيفَةِ مِنْ نِعْمَةٍ، فِي تَمْكِينِ إِيمَانِها وَأَمَانِهَا مِنْ حَضْرَةِ إِشْبِيلِيَّةَ -حَرَسَها اللهُ- وَالَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللهِ تَعَالَى وَالعَمَلِ بِطَاعَتِهِ وَالاسْتِعَانَة بِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَأَنْ تَشْكُرُوا اللهَ تَعالَى بِوَاجِبِ شُكْرِهِ عَلَى عَظِيمِ نِعْمَتِهِ بِهَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ وَمَا أَلْقَى إِلَى كَفَالَتِهِ، وَأَسْنَدَ إِلى إِيَالَتِهِ، مِنْ حِفْظِ المِلَّةِ، وَحِمَايَةِ الحَوْزَةِ، وَالحِيَاطَةِ لِلأُمَّةِ، وَالاكْتِنَافِ لِأَرْجَاءِ الدَّعْوَةِ، وَالإِحْيَاءِ لِمَيْتِ البِلَادِ، وَإِجْرَاءِ رُوحِ الأَمْنِ فِي العِبَادِ، وَالاسْتِئْصَالِ لِشَأْفَةِ أَهْلِ الكُفْرِ وَالعِنَادِ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ الصَّالِحَةِ البَاقِيَةِ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

وَقَدْ كَانَ رِبَاطُنَا -وَفَّقَكُمُ الله- بِهَذِهِ الجَزِيرَةِ -كَلَأَهَا اللهُ- بَعْدَ إِجْمَاعِهَا مِنَ التَّوْحِيدِ عَلَى كَلِمَةِ السَّوَاء، وَاسْتِقَامَةِ الأُمُورِ بِهَا بَعْدَ اعْوِجَاجِها وَأَمْتِهَا[1] عَلَى سَمْتِ الاسْتِوَاءِ، وَمَا أَلَّفَ اللهُ بِهَذِهِ الحَرَكَةِ السَّعِيدَةِ مِنَ القُلُوبِ وَجَمَعَ مِنَ الأَهْوَاءِ، وَدَأَبْنَا فِي إِعْمَالِ نَظَرٍ وَإِطَالَةِ تَأَمُّلٍ وَإِدَارَةِ مَحَالَّةٍ فِي مَا فِيهِ حَسْمُ دَائِهَا، وَاجْتِيَاحُ أَعْدَائِها وَبِمُقْتَضَى ذَلِكُمْ تُحُفِّلَ فِي امْتِدَادِ الجُنُودِ، وَاسْتُظْهِرَ عَلَى المَرَامِ المَقْصُود، وَجُمِعَ إِلَى وَقْتِ الغَزْوِ المَعْهُودِ، وَالرُّعْبُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ يَسِيرُ بَيْنَ يَدَيْ أَوْلِيَاءِ اللهِ يَصْرَعُ الأَقْتَالَ، وَيَكْفِي المُؤْمِنِينَ القِتَالَ، وَجُنُودُ اللهِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ[2] تَفْعَلُ فِي عُدَاتِهِ الأفعال، وَتَعْمَلُ فِيهِمُ الأَعْمَال، إِلَى

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لاَّ تَرَىٰ فِيهَا عِوَجاً وَلآَ أَمْتاً﴾. سورة طه، الآية: 104.
(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾. سورة المدثر، الآية: 31.



أَنْ تَسَابَقَتْ وَتَلاَحَقَتْ وُفُودُ الرُّومِ لِبَأْسِ اللهِ رَاهِبِين، وَفِي أَخْذِ حَبْلٍ مِنَ اللهِ وَمِنْ أَهْلِ دِينِهِ رَاغِبِين، قَدْ بَخَعُوا[1] بِالضَّرَاعَةِ، وَتَدَوَّخُوا بِالذِّلَّةِ وَتَيَأَّسُوا بِالصَّغَارِ، وَخَلَعُوا حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ خَلْعَ الحِذَاءِ، وَنَزَعُوا عَنِ الزَّعْمِ إِلَى الاسْتِكَانَةِ وَالاسْتِقْذَاءِ. وَكَانَ أَوَّلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَلِكَ «بُرْتُقَال» وَنَصَارَى الغَرْبِ بَاذِلِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الطَّوْعَ بِرَدِّ أُسَارَى المُسْلِمِين، وَشُرُوط أَعْطَوْهَا مُسَلِّمِينَ مُسْتَسْلِمِين، وَتَمَسَّكَ ابْنُ السُّلَيْطِين المُسَمَّى فِرَّانْدُو[2] بِعَهْدٍ مِنَّا كَانَ بُلَّتْ بِهِ يَدَاه، وَرَأَى أَنَّهُ اسْتَصْرَفَ بِهِ رِدَاه، ثُمَّ رَدِفَتْ ضَرَاعَةُ مَلِكِ طُلَيْطِلَة وَمَا وَالاَهَا وَالسَّوَادُ الأَعْظَمُ مِنْ رُومِ الجَزِيرَةِ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ مِنْ تَأَكُّدِ فُرْقَةٍ وَشَتَاتٍ، وَاخْتِلَافٍ فِي ذَاتِ بَيْنِهِم وَانْبِتَاتٍ، فَجَاءُوا مُتَطَارِحِينَ مُتَفَائِلِينَ مُفْصِحِينَ بِأَنَّ الاضْطِرَارَ أَجَاءَهُمْ، وَأَنَّ التَّأْمِيلَ فِي سَعَةِ فَضْلِ هَذَا الأَمْرِ العَظِيمِ بَعَثَ رَجَاءَهُمْ، وَذَاكِرِينَ أَنَّ لَهُمْ فِي الخِدْمَةِ المَنَابَ الحَمِيد، وَالغَنَاءَ الشَّدِيد، وَأَنَّهُمْ يَتَضَمَّنُونَ حِفْظَ مَا بَيْنَ بَطَلْيَوْسَ إِلَى قَاصِيَةِ ثُغُورِ مُرْسِيَةَ مِنْ بِلاَدِ الإِسْلاَم، وَيَخْتَدِمُونَ أَنْفُسَهُمْ فِي ذَلِكَ بِأَجْهَدِ الاسْتِخْدَام، آيَةً لِهَذَا الأَمْرِ مَا كَانَتِ الأَوْهَامُ تُسَوِّغُهَا، وَالآمَالُ تُبَلِّغُهَا، فَوَقَعَتِ المُذَاكَرَةُ فِي ذَلِكُمْ وَالمُفَاوَضَةُ مَعَ شُيُوخِ المُوَحِّدِينَ -أَعَانَهُمُ اللهُ- وَنُظِرَ بِحَسَبِ النَّصَبِ حَالُ الجَزِيرَةِ -كَلأَهَا اللهُ- وَضُعْفُ أَطْرَافِهَا، وَاسْتِيلَاءُ الضَّنْكِ وَالأَزْلِ عَلَى ثُغُورِهَا، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ هَذِهِ الحَرَكَةُ السَّعِيدَةُ فِي إِغَاثَةِ مُسْتَصْرِخِيهَا وَجَبْرِ مُضْطَهَدِيهَا، فَوَضَحَ وَبَانَ أَنَّ تِلْكُمُ الأَطْرَافُ -مَهَّدَهَا اللهُ- يُحْتَاجُ إِلَى جَبْرِهَا وَمَا يُعْمَرُ بِهِ خَرَابُهَا، وَيُسْكَنُ خَالِيهَا وَأَنَّهَا وَحَالَتُهَا تِلْكَ لَا تَحْمِلُ وَطْءَ الجُيُوشِ الحَافِلَة وَلاَ يُتَمَكَّنُ بِمُنَاوَشَةِ العَدُوِّ صَلاَحُ أَحْوَالِهَا الحَائِلَة، وَأَنَّهَا بِمُهَادَنَةِ العَدُوِّ تَصْلُحُ وَذَلِكَ لِأَمْنِ مَسَالِكِ تِجَارَتِهَا، وَمُتَصَرَّفَاتِ عِمَارَتِهَا، وَالاتِّسَاعِ فِي أَقْوَاتِهَا وَالتَّوَصُّلِ لِمَا تُخْرِجُ الأَرْضُ مِنْ ثَمَرَاتِهَا، وَأَنَّهَا بِذَلِكَ يُتَمَكَّنُ بِنَاءُ مَعَاقِلِهَا، وَيَتَرَتَّبُ الدُّخُولُ إِلَى بِلاَدِ العَدُوِّ مِنْهَا وَتَتَكَثَّفُ أَعْدَادُ حُمَاتِهَا، وَيَعُودُ

---

(1) بَخَعَ: تذلل وأطاع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾. سورة الكهف، الآية:6.
(2) فِرَّانْدُه: هو البيبوج، ويعرف بالإسبانية بـELBABOS ملك ليون حكم سنة (1157 إلى 1188م) (583- 552هـ).



إِلَيْهَا بِالأَمْنِ رُوحُ حَيَاتِهَا، وَتَقَرَّرَ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الأَنْجَحُ فِي عِلاَجِهَا وَالأَوْقَعُ فِي مُدَاوَاتِها، وَنُظِرَ فِي أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الالْتِفَاتِ إِلَى المَصَالِحِ مِمَّا سَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي صُلْحِه لِلْمُشْرِكِينَ، عَلَى حِينِ أَنْكَرَ المُنْكِرُونَ، وَأَكْثَرَ فِي ذَلِكَ المُكْثِرُونَ، فَسَمَّاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ فَتْحاً مُبِيناً[1]، وَمَكَّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ تَمْكِيناً، وَأَظْهَرَ دِينَهُ الَّذِي ارْتَضَاهُ دِيناً، وَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِم وَزَادَهُم هُدىً وَيَقِيناً، وَكَفَى بِاللهِ هَادِياً وَبِرَسُولِهِ عَلَى الغَيْبِ أَمِيناً[2].

وَلَمَّا ظَهَرَتْ -وَفَّقَكُمُ اللهُ- ظَوَاهِرُ المَصْلَحَةِ، وَكَثُرَتْ دَوَاعِي الإِصَابَةِ، وَأَضَاءَ وَجْهُ الرَّأْيِ وَشَهِدَ شَاهِدُ الشَّرْعِ، اسْتُخِيرَ اللهُ تَعَالَى عَلَى القَبُولِ لِمَا ضَرَعَ فِيهِ الرُّومُ مِنْ ذَلِكُمْ وَبَخِعُوا بِهِ، وَعُقِدَ لِكُلِّ جِهَةٍ مِنْهُمُ العَهْدُ إِلَى مُدَدٍ مُخْتَلِفَةٍ قَدْرَ مَا يَنْجَبِرُ فِيهَا مَا يَلِيهِ مِنَ الثُّغُورِ، وَيَتَّسِقُ فِيهَا نِظَامُ الأُمُورِ، فَاسْتُثْمِرَتْ بِحَمْدِ اللهِ مِنْ ذَالِكُمُ العَوَائِدُ، وَاسْتُجْزِلَتْ مِنْهُ الفَوَائِدُ، وَانْبَثَّتْ فِي الأَطْرَافِ حَيَاةُ السَّكَنِ وَالأَمْنِ، وَعَظُمَ بِذَلِكَ مِقْدَارُ الإِنْعَامِ وَالمَنِّ. وَلَمْ يَبْقَ مِنْ رُومِ الجَزِيرَةِ إِلاَّ شِرْذِمَةٌ بِإِزَاءِ «بَلَنْسِيَةَ» الخَطْبُ فِيهَا بِحَوْلِ اللهِ يَسِيرٌ، واللهُ عَلَيْها ظَهِيرٌ، وَالفَتْحُ فِيها قَرِيبٌ، وَالرَّأْيُ فِي قَطْعِ دَابِرِهَا وَاجْتِيَاحِ غَابِرِهَا مُصِيبٌ، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

طَالَعْنَاكُمْ -وَفَّقَكُمُ اللهُ- بِهَذَا الفَتْحِ الكَرِيمِ أَثَرُه، الحَمِيدِ خُبْرُه وَخَبَرُه، العَائِدِ عَلى أَهْلِ الإِسْلامِ بِالخَيْرِ العَامِّ التَّامِّ مُسْتَفَادُهُ وَمُسْتَثْمَرُه، لِتَنْظُرُوا إِلَى أَسْرَارِهِ وَحَمِيدِ آثَارِهِ بِعُيُونِ قُلُوبِكُمْ، وَتَشْكُرُوا اللهَ عَلَى صُنْعِهِ فِيهِ بِالإِخْلاَصِ مِنْ سَرَائِرِكُمْ وَغُيُوبِكُمْ، فَإِنَّهُ بِتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ، وَانْفِرَاجِ بَابِه، تَنْتَعِشُ الجَزِيرَةُ -مَهَّدَها اللهُ- بِعِمَارَةِ أَطْرَافِهَا، وَانْفِسَاحِ أَكْنَافِهَا، وَارْتِفَاعِ شَدَائِدِها، وَاتِّسَاعِ مَرَافِقِهَا وَمَرَافِدِها، وَأَمْرُ العَدُوِّ بَعْدَ ذَلِكَ أَحْقَرُ، وَشَأْنُهُ أَصْغَرُ وَأَدْحَرُ، وَوَجْهُ الاسْتِعْلاَءِ عَلَيْهِ وَالاسْتِيلاَءِ عَلَى مَا لَدَيْهِ أَجْلَى وَأَظْهَرُ، فَاسْتَبْشِرُوا بِمَا اسْتَقْبَلَكُمْ مِنْ هَذِهِ البَشَائِرِ السَّارَّةِ، وَالنِّعَمِ

(1) يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. سورة الفتح، الآيتان: 1-2.

(2) هذه العبارات كلها تمتح من القرآن الكريم.



الدَّارَّةِ، وَتَبَيَّنُوا مَوَاقِعَها الكَرِيمَة، وَخَيْرَاتِها العَمِيمَة، وَاللهُ سُبْحانَهُ يَجْعَلُكُمْ مِمَّنْ قَبِلَ البُشْرَى، وَيُسِّرَ لِلْيُسْرَى، وَيَكْتُبُكُمْ فِي الَّذِينَ لَهُمُ البُشْرَى[1] في الأُولَى وَالأُخْرَى، بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، لَا رَبَّ سِوَاهُ وَلاَ نَرْجُوا إلاَّ إِيَّاهُ. وَالسَّلامُ.

وَمَعْطُوفاً عَلَى مَا لِلْفَقِيهِ أَبِي الحَسَنِ بْنِ الفَضْلِ أَعَزَّهُ اللهُ وَكَتَبَهُ أَيْضاً:

...فَالكِتَابُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ البَشَائِرِ مَا يُجَدِّدُ آمَالَكُمْ وَأَمَانِيَكُمْ، وَيَعْمُرُ بِالمَسَرَّاتِ المُسْتَمِرَّاتِ رُبُوعَكُمْ وَمَغَانِيَكُم.... يَتَقَلَّصُ ظِلُّهَا قَاصِيَكُم وَدَانِيَكُم -مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ- حَرَسَها اللهُ عِنْدَمَا وَصَلَ كِتَابُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ النَّاصِرِيَّةِ أَبْقَى اللهُ سَعَادَتَها وَأَكْمَلَ فِي إِعْزَازِ الإِيمَانِ إِرَادَتَها، تَنْطِقُ عَمَّا سَنَّى اللهُ تَعالَى لِحِزْبِهِ المُوَحِّدِينَ أَوْلِيَاءِ حَضْرَتِهَا وَخُدَمَائِهَا.... يَخْتَبِطُ فِي هَوَاه، المُعَذَّبُ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاه، شَقِيُّ مَيُورْقَةَ -أَحَانَهُ اللهُ- عَلَى حَسَبِ مَا تَسْمَعُونَهُ مِنَ [الأنباء][2] المَنْقُولَةِ إِلَيْكُمْ الطَّالِعَةِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- لِسَماعِهَا بِأَذْهَانٍ حَاضِرَةٍ، وَنُفُوسٍ [مُتَطَلِّعَةٍ وَعُيُونٍ سَاهِرَةٍ][3]، وَأَصِيخُوا إِلَى مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ مِنْ آيَاتِهَا إِصَاخَةً تَجْمَعُ لَكُمْ بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيا وَالآخِرة، وَاجْتَهِدُوا [فِي إِرْضَاءِ الأَمِيرِ][4] المُرْتَضَى، وَسَيْفِهِ المُنْتَصِلِ المُنْتَضَى، فَطَالَ مَا أَسْهَرَ جَفْنَهُ لِيُنِيمَكُم، وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ لِيُكْمِلَ رَاحَتَكُمْ[5]..... وَلَا عَزِيزَ إِلاَّ مَنْ أَعَزَّهُ اللهُ، وَلَا ذَلِيلَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاه، واللّه تعالَى [يحملُكم عَلَى] سَنَنِ هُدَاه، وَهُوَ يَجْمَعُ قُلُوبَكُمْ عَلَى تَقْوَاه، بِمَنِّهِ لَا رَبَّ سِوَاه.

---

(1) في هذه العبارات نفس قرآني.
(2) خرم بالأصل.
(3) خرم بالأصل.
(4) خرم بالاصل.
(5) بتر في الأصل بمقدار ثلاثة أسطر بسبب الرطوبة وتآكل الأوراق.



وَبَعْد مَا لِلشَّيْخِ أَبِي الحَجَّاجِ بْنِ غَمْر رَحِمَهُ اللَّهُ وَمِنْ إِنْشَاءِ الفَقِيهِ الأَدِيبِ الكَاتِبِ الحَسِيبِ الحَمِيدِ الأَوْصَافِ المَشْكُورِ التَّحْقِيقِ وَالإِنْصَافِ السَّابِقِ فِي حَلْبَةِ العُقَلَاءِ المُقَدَّمِ فِي عِلْيَةِ الإِخْوَانِ الفُضَلَاءِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عِيسَى أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُ.

الحَضْرَة الإِمَامِيَّة الخِلَافِيَّة المُعَظَّمَة العَلِيَّة الطَّاهِرَة القُدُسِيَّة الهَادِيَة المَهْدِيَّة، السَّنِيَّة السُّنِّيَّة، حَضْرَة الخِلَافَةِ، وَمَقَرَّ الفَضْلِ البَاهِرِ وَالإِنَافَةِ، وَغِيَاث الأَنَام، وَمُعْتَمَد الإِسْلام، حَضْرَة سَيِّدِنَا وَمَوْلَانا الخَلِيفَةِ الإِمَام النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ حَرَسَ اللهُ جَلَالَها وَكَمَالَها، وَأَبْقَى بَهْجَتَها وَجَمَالَها، وَهَنَّأَ الإِسْلَام مَا خَوَّلَهَا مِنَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ وَأَنَالَها، مَمَالِيكُ طَاعَتِها، المُتَقَلِّبُونَ فِي سَابغِ نِعْمَتِها، الرَّاتِعُونَ فِي ظِلَالِ أَمْنِها، وَالمُتَنَعِّمُونَ فِي بَرَكَاتِ خِلَافَتِها السَّعِيدَةِ وَيُمْنِهَا، وَالمُتَضَرِّعُونَ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِي نَصْرِ أَعْلامِها، وَدَوَام أَيَّامِها، وَإِمْضَاءِ مُرَادِها فِي مَنْ عَانَدَ وَإِحْكَامِهَا، عَبِيدُهَا وَأَنْشَاؤُهَا الطَّلَبَةُ الَّذِينَ بِإِشْبِيلِيَّةَ، سَلَامٌ كَرِيمٌ عَمِيمٌ عَلَى حَضْرَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا، وَعِصْمَةِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي جَبَرَ بِأَمْرِكُمْ صَدْعَ الإِسْلَام، وَأَبْقَاهُ مُخَلَّداً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَجَعَلَ التَّمَسُّكَ بِهِ سَبَباً لِلنَّجَاةِ وَالفَوْزِ بِدَارِ السَّلَامِ، وَحَكَمَ فِي مَنْ عَانَدَهُ أَوْ بَاعَدَهُ مَيلَ السَّمْهَرِيِّ وَجَوْرَ الحُسَام، وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ خَيْرِ الأَنَامِ وَمُبِيدِ الأَوْثَانِ وَالأَصْنَام، الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ لِلنَّاسِ كَافَّةً بَشِيراً وَنَذِيرا[1] ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾[2]. فَبَيَّنَ شَرَائِعَه، وَحَفِظَ وَدَائِعَه، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرَام، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَام المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُوم نَاظِمِ شَمْلِ الدِّينِ أَحْسَنَ نِظَام، وَمُعِزِّهِ بَعْدَ الضَّيْمِ وَالاهْتِضَام، مُبِيرِ البُغَاةِ، وَقَامِعِ الطُّغَاةِ، النَّاطِقِ بِالحِكْمَةِ، وَالمُؤَيَّدِ بِالعِصْمَةِ فِي النَّقْضِ وَالإِبْرَام، السَّابِقِ العَزْم، المُوصِلِ لِلْحَزْم، فِي تَطْهِيرِ البِلَادِ وَإِرَاحَةِ العِبَادِ مِنْ رِجْسِ أَهْلِ اللِّئَام، وَتَنْزِيهِ الشَّرِيعَةِ عَنْ تَحَكُّمِ الطُّغَاةِ

(1) من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.سورة سبأ، الآية: 28.
(2) من سورة الأحزاب الآية: 46.



وَاللِّئَام، وَعَنْ خُلَفَائِهِ [الرَّاشِدِينَ] المُرْشِدِينَ في كُلِّ مَرَام، المُعْتَصِمِينَ بِحَبْلِهِ أَشَدَّ اعْتِصَام، المُبَلِّغِينَ سَنَنَهُ وَسُنَنَهُ إِلَى غَايَةِ الكَمَالِ وَالتَّمَام [وَالدُّعَاء] لِسَيِّدِنا وَمَوْلَانا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمنين بن أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ [دُعَاءً تَحَارُ] فِيهِ الأَوْهَامُ، وَتَعْجِزُ عَنْ إِدْرَاكِهِ الأَفْهَام، وَتُسْتَبْقَى لِلْعَالَمِ بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ [صَفْحَةٌ] زِمَامِهِ وَتُسْتَدَامُ، [فَكَتَبْنَاهُ كَتَبَ] اللهُ لَها مِنْ مُسَاعَدَةِ القَدَرِ، وَتَأْيِيدِ جَمِيعِ مُحَاوَلَاتِها الوِرْدِ وَالصَّدَرِ، وَمَا يَتَكَفَّلُ لَها فِي جَمِيعِ مُحَاوَلَاتِهَا وَكَافَّةِ مُتَصَرَّفَاتِها فِي الأَوَّلِ وَالآخر، وَتَعْجِيلِ المُرْتَقَبِ في أَعْدَائِهَا وَالمُنْتَظَرِ، مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ الَّتِي اهْتَزَّتْ أَعْطَافُها ارْتِيَاحًا، وَعَادَ لَيْلُهَا [البَهِيمُ صَبَاحًا]، وَكَادَتْ تَطِيرُ مِنَ الجَذَلِ لَوْ أُعِيرَتْ جَنَاحًا، وَأَمْرُكُمُ الرُّكْنُ الَّذِي يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ الإِيمَانُ، وَبِهِ اليُمْن [وَالإِقْبَالُ وَالأَمَانُ]، وَفِي الارْتِبَاطِ بِمَحَبَّتِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِطَاعَتِهِ الإِسْرَارُ وَالإِعْلَانُ، وَاللهُ المُعِينُ وَالمُرْشِدُ، وَالمُوَفِّقُ المُسْعِدُ، [لاَ رَبَّ سِوَاهُ يُحْمَدُ، عَلَيْهِ] المُعَوَّلُ وَإِلَيْهِ يُصْمَدُ.

وَبَعْدَ وُصُولِ الكِتَابِ الكَرِيمِ، الصَّادِرِ عَنْ مَحَلِّ التَّشْرِيفِ وَالتَّعْظِيمِ، يُبَشِّرُ بِتَنَعُّمِ الحَضْرَةِ فِي ظِلَالِ أَفْيَائِهَا، المُكْتَنِفَةِ بِأَنْوَارِ الخِلَافَةِ السَّعِيدَةِ وَأَضْوَائِها، وَبَشَائِرُ الخِلَافَةِ السَّعِيدَةِ قَدْ جَدَّدَتْ مَوَاسِمَها وَأَعْيَادَهَا، [وَنَتَائِجُ البَيْعَةِ المُؤَيَّدَةِ السَّعِيدَةِ] قَدْ أَضْحَكَتْ مَبَاهِجَها وَحَلَّتْ أَجْيَادَهَا، وَمَيَامِنُ أَيَّامِهَا، وَسَوَابغُ إِنْعَامِها، قَدْ أَلْقَتْ فِي أَيْدِي مَحَبَّتِهَا أَزِمَّةَ القُلُوبِ فَأَعْطَتْهَا قِيَادَها، وَبَرَاهِينُ السَّعْدِ قَدْ أَطْلَعَتْ مِنْ كَوَاكِبِ النَّصْرِ عَلَى مَرَاقِبِ البَصَرِ نَيِّرَهَا وَوَقَّادَها، وَنَوَّرَتْ كَافَّةَ البَصَائِرِ، بِمَا لَها مِن حُسْنِ العَوَاقِبِ وَالمَصَائِرِ، فَأَكَّدَتْ يَقِينَها وَاعْتِقَادَها، وَالبَرَكَاتُ العَمِيمَةُ وَالالْتِفَاتَاتُ الكَرِيمَةُ قَدْ عَجَزَتِ الأُمَّةُ عَنْ شُكْرِها وَلَوِ اتَّخَذَتِ الأَشْجَارَ أَقْلَامَها وَالبِحَارَ مِدَادَها[1]، فَالدَّهْرُ تَتَعَلَّلُ صَفَحَاتُهُ بِشْراً، وَالجَوُّ تَتَضَوَّعُ نَفَحَاتُهُ نَشْراً، وَالفَرَحُ يَحْشُرُ النَّاسَ لِلتَّحَدُّثِ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ في كُلِّ جِهَةٍ حَشْراً، وَكُلُّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ قَدْ بَلَغَتْ مُنَاهَا، وَنَالَتْ غَنَاءَها وَغِنَاها، وَأَشْرَقَ لَها ضَوْءُ السَّعَادَةِ الإِمَامِيَّةِ وَسَنَاها، وَشَعُرَتْ بِأَسْرَارِ العِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ وَفَهِمَتْ مَعْنَاها، وَالحَمْدُ للهِ

(1) نفس قرآني مستمد من آية مشهورة على الألسنة.



رَبِّ العَالَمينَ على هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا يَحْصُرُها العَدُّ، وَلا يَضْبِطُها الحَدُّ، حَمْداً يُكْرِمُ مَثْوَاهَا وَيَقْرِيهَا حَقَّ قِرَاها، وَيُحمدُ بَعْدَ تَبَلُّجِ صَبَاحِ المَزِيدِ وَتَأَرُّجِ نَشْرِ الصُّنْعِ الجَدِيدِ سَيرُ رَكَائِبِهِ وَسُرَاهَا[1]، وَقَدْ وَرَدَ على عَبْدِ نِعْمَتِها - [المُشْتَمِلِ] عَلى مَا أَوْجَبَ اللهُ مِنَ النَّصِيحَةِ في خِدْمَتِها- كِتَابُها المُعَظَّمُ الكَرِيمُ الَّذِي أَعَزَّ الدِّينَ وَجَدَّدَ الإيمَان، وحقق،...

... حُليَّ عَلَى مِنَصَّةِ السُّعُودِ، الصَّادِقَة بِنَصِّ الوُعُود، السَّابِقَة عَرُوسَ الفَتْحِ المُبِين، وَجَاءَ بِهِ الصُّنْعُ المُكَمَّلُ الَّذِي يبهرُ كَمَالُهُ في أَوْفَقِ سَاعَةٍ مِنَ الجُمُعَةِ وَأَفْضَلِ حِين، مُضَمِّنًا مَا صَنَعَ اللهُ لِأَمْرِها العَزِيزِ في قَتْلِ الشَّقِيِّ وَتَقْتِيلِ أَشْيَاعِهِ مِنَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ، وَمَا عَرَّفَها في ذَلِكَ مِنْ غَرَائِبِ التَّيْسِيرِ وَعَجَائِبِ التَّسْهِيلِ، الجَارِيَةِ [عَلَى تَعَلُّقِ عَبِيدِها] المُوَحِّدِينَ بِالوَاحِدِ الَّذِي أَعْلَى كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ، وَجَعَلَ مَآلَ أَعَادِيها، وَمَصِيرَ مُنَاوِيها وَمُحَادِيها ... . الحَيْنِ العَتِيدِ، فَهَزَّ الأَرْضَ بِهَذَا النَّبَأِ السَّارِّ طَرَبًا، وَأَنْطَقَ بالإِقْرَارِ بِعِزَّةِ هَذا الأَمْرِ عَجَمًا مِنَ الأُمَمِ [وَعَرَبًا، وَأَذَاقَ جُمُوعَ] النَّصْرَانِيَّةِ رَغَبًا وَرَهَبًا، فَقَالَتْ بِلِسَانِ الحَقِّ ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾[2]، وَانْحَشَرَ البَعِيدُ وَالقَرِيبُ، فَلِلَّهِ يَوْمُها العَجِيبُ، لَقَدْ شَبَّتْ فِيهِ بِبَهْجَةِ بِشَارَتِهِ الشِّيبُ، وَخُلِعَ عَلَى الأَرْضِ بُرْدُها [القَشِيبُ]، [وَأَنْطَقَ الأَلْسِنَةَ] فَكُلُّ امرِئٍ في مَقَامِهِ بِشُكْرِ اللهِ عَلَى سَعْدِ إِمَامِهِ خَطِيبُ، وَلَقَدْ عَمَّتِ الأَفْنِيَة ...وحولَها الأَبْنِية مِنَ الجَامِعِ الكَرِيمِ وَقَالَ كُلُّ سَامِعٍ إِلَيْهِ وَمُتَقَاطِرٍ عَلَيْه هَاهُنَا حَيَاتِي البَاقِيَة... .....بِمَحْضَرِ ذَلِكَ الجَمْعِ الوَافِرِ، وَالسُّرُورِ السَّافِرِ، [فَلَا يَسْمَعُ المَرءُ بِإِزَاءِ كُلِّ لَفْظَةٍ مِنَ الكِتَابِ المُعَظَّمِ إِلاَّ ضَجِيجُ تَرْدِيدِ هُتَافَات، وَلَمْ يَخَلْ نَفْسَهُ إِلاَّ بَيْنَ الحَجِيجِ في عَرَفَات، شَمِلَهُم الفَرَحُ وَعَمَّهُم، وَصَيَّرَهُمْ في أَحْفَلِ جَمْعٍ [وَلَمَّهُمْ]، [جَعَلَ اللهُ لِهَذَا الأَمْرِ] العَزِيزِ عُقْبَى الدَّارِ، وَعُلُوَّ الكَلِمَةِ في الإِيرَادِ وَالإِصْدَارِ، وَإِنَّهُ أَمْرُ اللهِ العَزِيزِ لِلأَنْصَارِ وَمَنْ لَهُ الحُكْمُ وَالمَخْصُوص بِالبَسْطَةِ وَالاقْتِدَار، وَأَنَّ مَنْ

---

(1) فيه نظر إلى المثل العربي: «عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرى». مجمع الأمثال.

(2) من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾. سورة الجن، الآية: 12.



أَطَاعَهُ فَلَهُ فِي الدَّارَيْنِ [جَزاءُ] الأَبْرَارِ، وَمَنْ [عَصَاهُ أَحَلَّهُ اللهُ دَارَ] البَوَارِ، فَهَذا فِي الأَعْلَى مِنْ شُرُفاتِ الأَسْوَارِ، وَهَذَا فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ. وَالسَّلَام.

ومن إِنْشَاءِ الكاتِبِ الأَدِيبِ المَاجِدِ الحَسِيبِ أَبِي مُحَمَّدِ بنِ حَامِدٍ:

الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ القُدْسِيَّةَ المُطَهَّرَةَ العَلِيَّةَ مَهْبِطَ الرَّحْمَةِ، وَمَلْجَأَ الأُمَّةِ وَمَعْدِنَ البَرَكَةِ، حَضْرَةَ سَيِّدِنا وَمَوْلانا الإِمَامِ الخَلِيفَةِ النَّاصِرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنا وَمَوْلانَا الإِمَامِ المَنْصُورِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بنِ سَيِّدِنا وَمَوْلانا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَيِّدِنَا وَمَوْلانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، وَصَلَ اللهُ تَأْيِيدَها وَسَعَادَتَها، تُهِيبُ بِالآمَالِ فَتُلَبِّيها مُطِيعَةً سَامِعَة، وَتَتَكَفَّلُ لَها بِالنَّصْرِ الرَّبَّانِيِّ فَتَسْتَوِي لَدَيْها المَآخِذُ الدَّانِيةُ وَالمَرَامِي الشَّاسِعَة، وَتُثِيرُ مِنْ مَكامِنِهَا سَوَاكِنَ الفُتُوحَاتِ وَالسُّيُوفُ فِي خَلَلِها وَادِعَة، وَتُنْهَضُ بِمَا قَلَّدَها اللهُ تَعالَى مِنْ أَعْبَاءِ خِلافَتِهِ قَائِمة بِالحَقِّ صَادِعَة، قَادِعَة أُنُوفَ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالفَسَاد جَادِعَة، دَامِغَة كُلَّ مَنْ عَانَدَ أَمْرَهَا العَالِي قَامِعَة، وَلا زَالَتْ بَرَكَاتُها عَلَى عَبِيدِهَا أَنْوَاءً هَامِعَةً وَأَنْوَاراً سَاطِعَة، عَبِيدُهَا الحَائِزُونَ بِمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ العُبُودِيَّةِ لَهَا شَرَفَيْ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، المُتَفَيِّؤُونَ ظِلَالَ طَاعَتِهَا المُخْرِجَةِ، إِلَى النُّورِ مِنَ الظُّلُمَاتِ، المُهْطِعُونَ إِلَى مَا يُقَرِّبُ مِنْ رِضَاها صَادِقَيِ النِّيَّاتِ وَالعَزَمَاتِ، اللَّائِذُونَ بِحَرَمِها لِيَاذَ الهَدْيِ بِمَقَامِهَا السَّامِي عِنْدَ اعْتِلاجِ الشُّبُهَاتِ المُظْلِمَاتِ، الفَارِجُونَ بِبَرَكَةِ الانْتِمَاءِ إِلَى رِقِّ وَلائِها مُبْهَمَاتِ الأَزَمَاتِ: مَمَالِيكُ مَقَامِها وَأَرِقَّاءُ إِحْسَانِهَا سَلَامٌ كَرِيمٌ عَمِيمٌ عَلى الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ القُدُسِيَّةِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعالَى الَّذِي رَفَعَ مَنَارَ الحَقِّ عَلَى أَيْدِي أَوْلِيَاءِ أَمْرِهِ العَالِي فَظَهَر، وَتَكَفَّلَ بِحِفْظِهِ إِلَى آخِرِ الزَّمَانِ فَلَا يَضُرُّهُ [مَنْ بَدَّلَهُ] أَسَرَّ أَوْ جَهَر، وَالصَّلاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى الَّذِي خَصَّهُ اللهُ مِنِ اجْتِبَائِهِ بِمَا غَلَبَ وَبَهَر، [وَرَقَّاهُ مِنْ مَعَارِجِ اخْتِصَاصِهِ] حَيْثُ يَنْقَطِعُ دُونَهُ كُلُّ أَبْهَر، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الَّذِي سَلَّ سَيْفَ الهِدَايَةِ وَشَهَر، وَقَمَعَ الزَّيْغَ وَالبَاطِلَ وَطَهَّر، وَأَطْفَأَ نَارَ الفِتْنَةِ بَعْدَ أَنْ صَخَدَ الأُمَّةَ لَفْحُهَا وَصَهَر، وَأَحَلَّهُمْ بِدَعْوَتِهِ المُنْجِيَةِ وَكَفَالَتِهِ الوَاسِعَةِ مَعَ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ



وَنَهرٍ﴾[1]. وَعَنِ الأَئِمَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المُرْشِدِينَ أَعْلَامِ الطَّهَارَةِ وَالهُدَى، وَمُتَّبِعِي سَنَنِهِ الأَلْحَبِ الأَهْدَى، وَمُقْتَبِسِي أَنْوَارِهِ الَّتِي مَلَأَتِ البَسِيطَةَ مَجْداً وَوَهْدَا، فَتَلأْلَأَ بِهِمُ الزَّمَانُ وَزَهَر، وَهَجَعَ فِي كَنَفِ عَدْلِهِمْ مِلْءَ عَيْنَيْهِ وَقَدْ [نَحلتَا] لِطُولِ السَّهَر، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الإِمَامِ الخَلِيفَةِ النَّاصِرِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ سَادَاتِنَا الأَئِمَّةِ الخُلَفَاءِ [أُمَرَاءِ] المُؤْمِنِينَ بِنُورٍ تَسِيرُ تَحْتَ لِوَائِهِ الأَقْدَار، وَيُقْضَى لَهُ [بِالفَوْزِ] فِي هَذِهِ الدَّارِ وَتِلْكَ الدَّار، وَتُنَادِيهِ [الفُتُوحَاتُ] بِأَلْسُنِ البَشَائِرِ، بَدَارِ بَدَارِ، فَتَعَاجَلَ أَنْ يُسْتَعَدَّ لَهَا وَيُسْتَظْهَر أَوْ يُسَدَّدَ نَحْوَهَا خَطِّيٌّ أَوْ يُعْطَفَ لَهَا أَبْهَر.

فَكَتَبَ عَبِيدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ المُقَدَّسَةِ كَتَبَ اللهُ لِمَقَامِهَا مِنْ ظَفَرِ الفَيَالِقِ وَنَصْرِ الأَعْلَام، مَا تَضِيقُ عَنْ وَصْفِهِ بُطُونُ المَهَارِقِ وَتَكِلُّ عَنْهُ أَلْسُنُ الأَقْلَام، وَتَكَفَّلَ لِعِزِّهَا [مَا يَجْدَعُ] أُنُوفَ الشِّرْكِ رَاغِمُه، وَيَفْتَرِسَ فِي عِرِّيسِهِ ضَرَاغِمُه، وَيعمرَ خَيْلاً وَمَنَالًا مَرَاقِبَه وَمَرَاقِدَه، وَيَنْشُرَ أَلْوِيَةَ الحِمَامِ تَحْتَ لِوَائِهِ وَالآجَالُ رَاقِدَة، وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ تُنَادِي عَبِيدَهَا وَتُرَاوِح لَا يَحْجُبُهَا [عَنِ السَّرَفِ]، وَتَلَأْلُؤُ أَنْوَارِهَا لَا تُكِنُّهُ أَغْسَاقُ الشَّرَفِ، وَآيَاتُ آثَارِهَا لَا تَحْمِلُهَا أَوْرَاقُ الصُّحُفِ، وَمُتَعَرَّفُ ... . عَوَارِفِهَا الفُرَادَى وَالتُّؤَام، وَيُمْنُ مَقَامِهَا المُقَدَّسِ مُوضِحٌ لَاحِبَاتِ المَرَاشِد، حَاشِرٌ شَوَارِدَ [مَنْ يُنَاوِيهِ] كُلَّ حَاشِد، فَلَا يَضِلُّ مُسْتَمْسِكٌ بِهَدْيِهِ [الزَّكِي وَهَدبِهِ] النَّاشِد، قَدْ أَبَانَ مَنَارَ الحَقِّ لمن يَنْقَلِبُ فِيهِ أَيَّ مُنْقَلَب، وَالسَّعَادَةَ الَّتِي مَا عَدَاهَا فَبَرْقٌ خُلَّب، وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحَلَّ العَبِيدَ مِنْ خِدْمَةِ الحَضْرَةِ المُطَهَّرَةِ بِحَيْثُ تَصْرُخُ بِشُكْرِ آلَائِهَا، وَتَنْتَسِبُ إِلَى رِقٍّ وَلَائِهَا، فَإِنَّهَا مِنَّةٌ أَضْفَى اللهُ عَلَى العَبِيدِ [رُسُوماً مَا] لِنَصِّهَا تَأْوِيل، وَأُمْنِيَةً لِأَقْلَامِ الشُّكْرِ فِي بُحُورِ مَوَاهِبِهَا سَبحٌ طَوِيل: فَحَسْبُ العَبِيدِ أَنْ يُقِرُّوا بِالعَجْزِ عَنْ شُكْرِ نَعْمَائِهَا، وَيَعْتَرِفُوا بِالتَّقْصِيرِ عَنِ القِيَامِ بِحَقِّ آلَائِهَا؛ وَإِلَى اللهِ يَضْرَعُ عَبِيدُهَا أَنْ يُجْرِيَ طَوْعَ إِرَادَتِهَا الأَقْدَار، وَيصْرِفَ وَفْقَ اخْتِيَارِهَا الإِيرَادَ وَالإِصْدَار، وَيُضْفِيَ عَلَى الزَّمَانِ

(1) من سورة القمر، الآية: 54.



بِإِيَالَتِهَا المَهْدِيَّةِ أَسْنَى لِبَاس، وَيُؤَيِّدَ بِنَصْرٍ مُؤَزَّرٍ مِنْ عِنْدِهِ ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[1]، وَيَجْعَلَ نُورَهَا السَّاطِعَ بَاقِياً فِي عَقِبِهَا لَا يُنْقِصُهُ كَثْرَةُ الاقْتِبَاس، وَإِيَّاهُ نَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَنَا جَمِيعَ العَبِيدِ مِمَّنْ عَرَفَ بِهَذِهِ النِّعَمِ فَقَدَّرَهَا قَدْرَها، وَأَطْلَعَ فِي أُفُقِ الإِخْلَاصِ بَدْرَها، وَقَابَلَهَا مِنَ الشُّكْرِ عَوْداً عَلَى بَدْءٍ بِمَا يَقْضِي لَهُ بِازْدِيَادِ الحَظِّ وَيَحْكُم، تَصْدِيقاً لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

وَإِنَّ العَبِيدَ لَمَّا وَصَلَهُمُ الكِتَابُ العَزِيزُ قَبْلُ، فَاجْتَلَوْا مِنْهُ، بَعْدَ لَثْمِ البَسْمَلَةِ المُبَارَكَةِ وَالعَلَامَةِ المَنْصُورَةِ مَا أَلْقَاهُ اللهُ فِي الرَّوْعِ الطَّاهِر، وَيَسَّرَ لَهُمُ الرَّأْيِ السَّعِيد، وَاقْتَضَاهُ الأَمْرُ العَالِي مِنَ النَّظَرِ فِي أَشْغَالِ العَرَبِ الَّذِينَ بِهَذِهِ الجِهَةِ وَمُبَاشَرَةِ أَحْوَالِها، وَالانْتِهَاءِ إِلَى مَا رسمَ مِنْ ذَلِكَ وَالوُقُوفِ عِنْدَ حَدِّه، تَضَرَّعَ العَبِيدُ إِلَى اللهِ أَنْ يُنْجِدَهُمْ وَيُرْشِدَهُمْ إِلَى مَا يُحْظِي لَدَى الحَضْرَةِ وَيُيَسِّرُ لَهُمْ مِنْ تِلْكَ المُحَاوَلَةِ مَا يُزْلِفُ عِنْدَها وَيُدْنِي مِنْها، وَيُنْهِضَهُم إِلَى القِيَامِ بِأَعْبَاءِ خِدْمَتِها وَأَدَاءِ أَمَانَتِها، وَيُثَبِّتَ لَهُمْ رَسْماً فِي دِيوَانِ أَوْلِيَائِها، وَبَادَرُوا إِلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِها العَالِيَةِ مُهْطِعِينَ مُطِيعِينَ، وَبَرَكَةُ الحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ تُرْشِدُهُم وَتُمِدُّهُمْ، وَالْتِزَامُ طَاعَتِهَا المُفْتَرَضَةِ نُورٌ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ. وَلَمَّا حَلَّ بِهَذا المَوْضِعِ -عَمَرَهُ اللهُ- حَسْبَما تَقَدَّمَتْ بِهِ مُخاطَبَةُ العَبِيدِ، شُرِعَ لِلْحِينِ فِي تَنْفِيذِ الأَوَامِرِ السَّعِيدَةِ المُؤَسَّسِ عَلَى تَقْوَى اللهِ تعالَى مَنْشَؤُهَا وَمَبْنَاهَا، المُسْتَنِدِ إِلَى مَا يُرْضِي اللهَ سُبْحَانَهُ وَيَتَكَفَّلُ بِصَلَاحِ المُسْلِمِينَ أُمَّتِهِ مَغْزَاهَا وَمَعْنَاها، المُؤَيَّدِ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَبْدَؤُها وَمُنْتَهَاها، المَخْصُوصِ بِسَعَادَةِ الجُمْهُورِ ظَاهِرُهَا وَفَحْوَاها، وَأُحْضِرَ لِذَلِكُمْ أَشْيَاخُ «جُشَم»[3] مَعَ حُفَّاظِهِمْ وَفَّقَهُمُ اللهُ وَأُنْهِيَ إِلَيْهِمْ مَا تَلَقَّاهُ العَبِيدُ مِنَ الكِتَابِ العَزِيزِ فِي شَأْنِهِم، فَحَمِدُوا اللهَ تَعالَى عَلَى مَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ عَظِيمِ النِّعْمَةِ، وَجَزِيلِ المِنَّةِ، وَذَخَرَهُ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ بِمُرُورِهِمْ عَلَى الخَاطِرِ الطَّاهِر، وَذِكْرَاهُمْ لَدَيْهِ

(1) مقتبس من سورة البقرة، الآية: 176.
(2) مقتبس في من سورة إبراهيم، الآية: 9.
(3) ينظر في تقسيم الموحدين للطلبة والأشياخ والحفاظ وغيرهم في كتاب: «المن بالإمامة»، «الحلل الموشية» و«نظم الجمان».



وَاخْتِصَاصِهِمْ بِهَذا الاعْتِنَاءِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي جَعَلَ مَصَالِحَهُم تُسْفِرُ مَا بَيْنَ يَدَيْه، وَقَدَرُوا قَدْرَ مَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ وَأَنْعَم، وَتَلَقَّوْهُ بِشُكْرِ اللهِ تعالَى لَيْسَ سِوَاهُ كِفَاءً.... وَأُمِرُوا أَنْ يَكُونُوا مَعَ مَزَاوِرَتِهِم يَداً وَاحِدَةً في مَا قُلِّدُوهُ، وَأَنْ يَتْرُكُوا الهُوَيْنَى فِيمَا اعْتَمَدُوه، وَيُولُوا [الجِلَادَ] عَلَى مُشَغِّبِي أَوْبَاشِهِمْ وَذِئَابِ هِرَاشِهِم، وَأَنْ يَأْخُذُوا عَلَيْهِم مَهَاوِيَ الوِهَادِ، وَأَعَالِي الجِبالِ، [وَيَقْتَحِمُوا] عَلَيْهِم مَكَامِنَ الأَسَاوِدِ وَأَغْيَالَ [الآسَادِ]، وَأَنْ يَقْعُدُوا لَهُمْ بِكُلِّ مَرْصَد[1]، وَيَقِفُوا لَهُمْ عَلَى كُلِّ مَقْصَد، وَيفْتَحُوا [عَلَيْهِمْ لِلْفتكَاتِ] كُلَّ بَابٍ مُوصَد، حَتَّى تَلْفِظَهُمُ البِيدُ السَّمَالِقُ، وَتَقْذِفَهُمُ الجُرْدُ الشَّواهِقُ، وَتَنْقَطِع بِهِم السُّبُلُ الفوَارِق، فَمَنْ عَثَرَ بِهِ انْتِزَاؤُهُ، وَقُبِضَ عَلَيْهِ فَهُوَ جَزَاؤُه، وَمَنْ فَرَّ بِهِ أجلُه، وَانْطَبَقَ عَلَيْهِ مَجْهَلُه، [كُسِرَ] عَظمُه لِاسْتِبَاحَةِ مَالِهِ كَسْراً لاَ يَرْجُوا لَهُ عَثْماً[2]، وَأَصْبَحَ دَاخِلًا تَحْتَ قَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً﴾[3].

وَاسْتَنْفَرَ العَبِيدُ جَمِيعَ أَشْيَاخِ جُشَمَ -أَنْجَدَهُمُ اللهُ- وَأَعْيَانِهِمْ لِيَتَعَاوَنُوا مَعَ مَزَاوِرَتِهِمْ عَلَى ... ... تَتَنَاوَلُهَا بِيضُ القَوَاضِب، وَتَنْقَصِفُ صُمُّ الأَنَابِيبِ، وَتَبَادَرُوا إِلَى المَوْضِعِ مَوَاكِبَ تَتْلُوهَا مَواكِب، وَطَلَعُوا في أُفُقِ اجْتِهَادِهِمْ كَوَاكِبَ تَرْدِفُهَا كَواكِب، وَأَوْضَعُوا إِلَى مَا يَحْمَدُونَ فِيهِ بَرَكَةَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ القُدسِيَّةِ طَرِيقَهُمُ المُثْلَى وَوَتِيرَتَهُمْ، مُتَسَارِعِينَ إِلَى اسْتِئْصَالِ شَأْفَةِ ﴿مَنْ حَآدَّ أَللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[4] ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوَ اَبْنَآءَهُمْ أَوِ اِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[5] وَنَهَدُوا صُحْبَةَ مَزَاوِرَتِهِم مَعَ مَنْ لَدَى العَبِيدِ مِنَ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- وَالأَجْنَاد، وَنُورُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ قَائِدُهُم، وَهُدَاهَا أَيَّةَ سَلَكُوا رَائِدُهُم، وَبَرَكَتُهَا تَفْتَحُ لَهُمْ مُهِمَّاتِ المَغَالِقِ، وَتُيَسِّرُ لَهُمْ مَا تَعْجِزُ عَنْهُ أَشْتَاتُ الكَتَائِبِ وَالفَيَالِقِ، وَقَدْ كَانَتْ قَبِيلَةُ الكُرَيْزِ مِنْ سُفْيَانَ

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. سورة التوبة، الآية: 5.

(2) العَثْم: إساءة الجبر حتى يبقى فيه أود كهيئة المشش.

(3) من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ سورة آل عمران، الآية: 178.

(4) من قوله تعالى: ﴿لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُومِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ اِلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ أَللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. سورة المجادلة، الآية: 22.

(5) من نفس السورة والآية.



يَتَّصِلُ عَنْهَا مَا هُمْ عَلَيْهِ شِرَارُهُمْ مِنْ بَطَرِ[1] النِّعْمَةِ، وَالتَّعَرُّضِ بِارْتِكَابِ الجَرَائِمِ بِحُلُولِ النِّقْمَةِ، فَطَالَ مَا أَوْضَعُوا فِي مَيْدَانِ الضَّلَالَةِ وَأَوْقَدُوا فِي مَجَاهِلِ الجَهَالَةِ، قَدِ اسْتَهْوَاهُمْ شَيْطَانُهُمْ، وَاسْتَغْوَاهُمْ خِذْلَانُهُم، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الغَيَّ وَإِنْ أُمْهِلَ مُجْتَثٌّ فَرْعُهُ وَأَصْلُه، وَأَنَّ البَغْيَ وَإِنْ أُهْمِلَ مَمْحُوٌّ نَوْعُهُ وَفَصْلُه، حَتَّى حَلَّ بِهِمْ مِنْ نِقْمَةِ اللهِ تَعَالَى مَا أَمْسَكَ بِمُخَنَّقِ تَنَفُّسِهِمْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2] فَقُدِّمَ النَّظَرُ فِي تَطْهِيرِ هَذِهِ القَبِيلَةِ المَذْكُورَةِ مِنْ أَدْنَاسِها، وَغَسْلِها بِجَدَاوِلِ السُّيوفِ مِنْ أَرْجَاسِهَا، وَجُعِلَ مُفْتَتَحُ الشُّغْلِ لِكَوْنِها لِرَأْسِ الفَسَادِ مَسْقِطاً، وَلِحَرْبِ الضَّلَالِ مَأْقِطاً، فَخَرَجَتِ الجُمْلَةُ النَّاهِدَةُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ وَرَّتْ عَنْها أَوَّلَ النَّهارِ بِغَيْرِها، حَتَّى إذا أَضْفَى اللَّيْلُ سُدُولَهُ ثَنَتْ إِلَيْها أَعِنَّةَ سَيْرِها، وَأَدْلَجَتْ إِلَيْهَا سَوَادَ لَيْلِهَا مَشْيَ الغَضَنْفَرِ فِي حِمَى العَرِين، وَأَشْرَفُوا عَلَى حَلالِهِمُ مَعَ الصَّبَاحِ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[3] فَتَشَظَّتْ قَنَاةُ شِقَاقِهِمْ شَقَقاً، وَسُقِطَ فِي أَيْدِي فِرَقِهِمْ فَرَقاً، وَاسْتُبِيحَ لَهُمْ حَرِيمٌ عَرَّضَتْهُ جَرَائِمُهُمْ أَنْ يُسْتَبَاح، وَتَشَاءَمُوا بِسُرَى ذَلِكَ الصَّبَاح[4] وَلَوْلَا ضَلَالُهُمْ لَحَمِدُوا سُرَى ذَلِكَ الصَّبَاح وَانْتُهِبَ جَمِيعُ مَا أُلْفِيَ لَهُمْ، وَنُسِبَ إِلَيْهِمْ، وَسُلِبُوا النِّعْمَةَ الَّتِي قَامَتْ بِهَا حُجَّة اللهِ تَعالَى فِيهِمْ وَعَلَيْهِم، وَقُبِضَ عَلَى فِئَتِهِمُ البَاغِيةِ إِلاَّ شُذَّاذاً مِنْهُمْ مَجَاهِل، وَأَفْذَاذاً أَسَافِل، هَامُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ [فَسَلَكُوا طَرِيقاً بِحَيْثُ] لَا يَسْلُكُهُ سَالِك، وَلَفَظَتْهُمُ المَهَامِهُ الفِيحُ إِلَى مَهَاوِي المَهَالِك، وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ فَقِيلَ هَالِكُ فِي الهَوَالِك[5]، وَاسْتُؤْصِلَ جَمِيعُ مَالَهُمْ فَأَضْحَتْ مَعَالِمُهُمْ بَلَاقِع[6] وَكَمْ كَانَتْ مَصَاقِع، يَمْرَحُونَ فِي ظِلَالِهَا وَيَرْتَعُون، ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ

(1) البطر: الطغيان في النعمة وطول الغنى، ومنه في الحديث: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بَطَراً».
(2) مقتبس من سورة الرعد، الآية: 12.
(3) من سورة الصافات، الآية: 177.
(4) هذا عكس المثل المعروف: «عند الصباح يحمد القوم السرى».
(5) فيه نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾. سورة البقرة، الآية: 165.
(6) البلاقع: الأرض القفراء الخالية التي لا شيء، فيها قال رؤبة:

فَأَصْبَحَتْ دَارُهُمُ بَلَاقِعَا

وفي الحديث: «شر النساء السَّلفعة البلقعة».



﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[1]، وَلِأَعْيَانِهِمْ فِي هَـٰذِهِ الحَطْمَةِ الَّتِي حُطِمَتْهَا عَشَائِرِهِمُ الأَثَرُ المَحْمُودُ، والغَنَاء المَشْهُودُ، وَحُقَّ لَهُـمْ، فَقَدْ كَانَتْ جَرَائِمُ مُفْسِدِيهِمْ طَأْطَأَتْ مِنْ رُؤُوسِهِمْ، وَسَاوَتْ في الاتِّهَام بَيْنَ رَئِيسِهِمْ وَمَرْؤُوسِهِم، حَتَّى سَهَّرَهُمُ الانْتِقَاد، وَجَلَا شُبَهَهُم مِنْ نُورِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ كَوْكَبٌ وَقَّاد، فَتَبَيَّنَ [الجَهَامُ] مِنَ الصَّيِّبِ، وَمَيَّزَ اللهُ تَعَالَى الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ[2].

وَلَمَّا فُرِغَ مِنْ وَطْءِ هَذِهِ الشِّرْذِمَةِ البَاغِيَة، وَحَلَّ بِهِمْ مَا يَحُلُّ بِالأَشْقِيَاءِ ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾[3]، طَارَ الرُّعْبُ مَطَارَه بِقُلُوبِ ذَوِي التُّهَم، وَسُقِطَ فِي أَيْدِيهِم فَخَروا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَم و﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾[4]، سَوَاءٌ التَّنُوفَةُ الفَيْفَى[5] وَالمُشْمَخِرُّ الأَبْهَم، فَرَمَتْ بِهِمْ مَرَامِيهَا أَيْدِي الصَّغَار.... وَقَذَفَتْهُمْ شَعُوبٌ في شِعَابِ كُلِّ مَتْيَهَةٍ مَضِلَّةٍ[6]، لَا جَرَمَ أَنَّ بَعْضَ عَوْفٍ مِنَ الخُلْطِ أَيْضاً كَانَتْ قَد اسْتَوْلَتْ [عَلَيْهَا حَمَاقَتُهَا] وَانْتَهَتْ بِهَا فِي الشَّقَاوَةِ غَايَتُها، فَلَا يُصِيخُونَ إِلَى مَوْعِظَةٍ سَمْعاً، وَلَا يُثِيرُونَ إِلاَّ فِي مَيْدَانِ جَهَالَةٍ [طَبْعاً] وَلَا [يَجْمَعُونَ] إِلاَّ فِي نَدِيِّ ضَلَالَةٍ جَمْعاً، وَلَمَّا تَمَرَّدَ شَيْطَانُها، وَامْتَدَّتْ فِي قَلْبِ عِصْيَانِهَا أَشْطَانُها [... تِه] بِما لَا يَسْكُنُ لَهُ رَوْعٌ وَلَا خَبْلٌ، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ، وَثنِيَتْ ....وَقَصَدَ الجُمْلَةُ مِنَ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- مَعَ مَنْ انْضَافَ إِلَيْهِمْ مِنَ العَرَبِ وَالأَجْنَادِ -أَنْجَدَهُمُ اللهُ- قَصْدَهُمْ [فِي صَحْرَاءَ] يَخُوضُونَ لُجَجَ غَيَاهِبِهَا بِسُفُنِ الرَّكَائِب، وَيَهْتَدُونَ فِي مَجَاهِلِ حَنَادِسِهَا مِنْ نُورِ الحَضْرَةِ بِالنَّجْمِ الثَّاقِب، وَهُمْ فِي مَهْمَهٍ قَفْرٍ، وَنَفْنَفٍ صِفْرٍ،

---

(1) سورة النحل، الآية: 112.

(2) من قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾. سورة آل عمران، الآية: 179.

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾. سورة الحاقة، الآية: 9.

(4) سورة التوبة، الآية: 119.

(5) الفَيْفَى: تجمع على فياف وهي المفازة.

(6) التيه: المفازة يتاه فيها والجمع أتياه وأتاويه، وفلاة تيهاء وأرض تيه وتيْهاء ومَتيهة، ومُتيهة، ومَتيهة، ومِتْيه مَضِلَّة، قال الشاعر:

يَنْـوِي اشْـتِقَاقاً في الـضَّلَالِ المِتْيَـهِ



فَوَاصَلُوا السَّيْرَ بِالسُّرَى، وَأَحَالُوا عَلَيْهِ صُدُورَ [العِيسِ] تَنْفُخُ فِي [الثَّرَى][1] إِلَى أَنْ حَلَّتِ الشَّمْسُ كَبِدَ السَّماءِ وَتَوَسَّطَتْ دَرَجَةَ الِاسْتِوَاءِ، فَهِي ﴿لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾[2] فَإِذَا شِرَارُ عَوْفٍ قَدْ نَذِرُوا بِهِمْ فَتَسَنَّمُوا بِجُمْلَتِهِمْ رُبَاوَةً[3]، وَاسْتَلْأَمُوا لِحِمَايَةِ ذِمَارِهِم جَهَالَةً وَغَبَاوَةً، وَنَعَمُهُمْ عَنْ مَسَارِحِها مَعْكُوفَة، وَهِمَمُهُمْ إِلَى الطِّعَانِ دُونَها مَصْرُوفَة، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ سَرَعَانُ الخَيْلِ مِنْ عَشِيرَتِهِمْ لِيَخْضِدُوا شَوْكَةَ انْتِزَائِهِم، وَيَكْتَسِحُوا مَا بِإِزَائِهِمْ، فَأَلْفَوْهُم قَدْ تَحَالَفُوا عَلَى البَسَالَةِ، فِي الفَسَالَةِ، وَحَاكَمُوهُمْ إِلَى البِيضِ القَوَاضِبِ وَالسُّمْرِ العَسَّالَةِ، وَشَيْطَانُهُمْ يُدَلِّيهِمْ بِغُرُورٍ، فَلاَ يَتَمَارَوْنَ ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾[4] فَلاَقَتْ هَبَّةُ رِيحِهِمْ إِعْصَاراً، وَعَادَ تَعَاطِي جُرْأَتِهِم إِقْصَارا، وَفَرُّوا عَلَى وُجُوهِهِمْ، كَالحُمُرِ المُسْتَنْفَرَةِ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ[5] فَطَارَتْ بِهِمْ أَجْنِحَةُ آجَالِهِمْ، وَنَجَتْ بِهِمْ مَنْجَى الذِّئَابِ شِعَابُ سَبَاسِبِهِمْ وَرِمَالِهِم، قَدْ وَسَمَهُمُ الرُّعْبُ بِسِمَاتٍ يُحَلَّؤُونَ بِهَا عَنِ المَوَارِدِ وَالمَنَاهِلِ، وَتَلْفِظُهُم لَها صُدُورُ المَعَالِمِ إِلَى بُطُونِ المَجَاهِلِ، فَهُمْ أَمْوَاتُ الأَحْيَاءِ، وَعُنْوَانٌ بَاقٍ لِمَا مُحِيَ مِنْ صَحِيفَةِ الأَشْقِيَاءِ، قَدِ اكْتَنَفَهُمُ الذُّلُّ والصَّغَار فَلَوِ اسْتَطَاعُوا لَابْتَغَوْا نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاءِ[6] فَسُلِبَ جَمِيعُ مَا أُلْفِيَ لَهُمْ وَحصلَ عَلَى أَتَمِّ الاسْتِيفَاءِ، إِلاَّ مَا تَطْعمهُ أَتْبَاعُ المُوَحِّدِينَ وَخُدَّامُهُم، وَأُضِيفَ ذَلِكَ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ سَلَبِ الكُرَيْزِ حَسْبَ مَا تَقَدَّمَتْ بِهِ خِدْمَةُ العَبِيدِ قَبْلَهُ.

ثُمَّ أَخَذَتِ الجَمَاعَةُ مِنَ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- وَمَنْ مَعَهُم فِي الإِيَابِ إِلَى هَذا المَوْضِعِ، وَبَرَكَةُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ القُدْسِيَّةِ قَدْ مَلأَتْ أَيْدِيَهُم، وَأَفْعَمَتْ بالخَيرَاتِ

---

(1) في الأصل: كلمتان مأروضتان.
(2) سورة النساء، الآية: 142.
(3) الرُّباوة والرَّباوة والرابية والرُّباة: كل ما ارتفع من الأرض، قال الشاعر:
عَلَوْنَ رُبَاوَةً وَهَبَطْنَ غَيْباً ... فَلَمْ يَرْجِعْنَ قَائِلَةً لِحِينِ
(4) مقتبس من سورة الأنفال، الآية: 49.
(5) مقتبس من سورة المدثر، الآيتان: 49-50.
(6) مقتبس من سورة الأنعام، الآية: 36.



وَادِيهُم، وَلَهُمْ مِنْ نُورِهَا السَّاطِعِ فِي كُلِّ مَوْمَاةٍ قَائِدٌ وَدَلِيل، وَفِي كَنَفِ سَعَادَتِها الكَامِلَةِ مُعَرَّسٌ وَمَقِيل. وَتَعَرَّفَ العَبِيدُ مِنِ اجْتِهَادِ أَعْيَانِ العَرَبِ في هَذِهِ المُحَاوَلَةِ وَحُسْنِ الغَنَاءِ، وَظُهُورِ الجِدِّ وَبَذْلِ النُّصْحِ مَا أَطْلَقَ لَهُمُ اللِّسَانَ بِالشُّكْرِ، وَعَرَّفَهُمْ بِمَا لَهُمْ بِذَلِكَ لَدَى المَقَامِ الإِمَامِيِّ المُقَدَّسِ مِنْ كَرِيمِ الصِّيتِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ. وَلَمْ يَبْقَ بَعْدَ هَذِهِ الشِّرْذِمَةِ الَّتِي اسْتُؤْصِلَتْ مِنْ «سُفْيَانَ وَالخُلْط» لِشَرٍّ مَشْعَبٌ، وَلَا لِغَوَايَةٍ مَشْغَبٌ، فَإِنَّها كَانَتْ شَوْكَةُ الفَسَادِ وَقَدْ خُضِدَتْ، وَدَاعِيَةُ الضَّلَالِ وَقَدْ بُهِظَتْ -بِبَرَكَةِ أَمْرِهِ العَالِي- وَاضْطُهِدَتْ، إِلاَّ مَا يَكُونُ فِي سَائِرِ القَبَائِلِ مِنْ أَتْبَاعٍ رُبَّمَا تَطَرَّقَ إِلَيْهِمُ اتِّهَامٌ، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ بِاقْتِرَافِ جِنَايَةٍ إِلْمَامٌ، فَضَمِنَ أَشْيَاخُهُمْ وَحُفَّاظُهُمْ كَشْفَ أَحْوَالِهِمْ، وَإِلْحَاقِهِمْ بِأَمْثَالِهِمْ، وَنَهَضُوا لِذَلِكُمْ وَقَدْ عُيِّنَ لَهُمْ مِنَ الأَجْنَادِ مَنْ يَسْتَعِينُونَ بِهِ وَعَزَائِمُهُمْ صَادِقَةٌ، وَنِيَّاتُهُمْ فِي جِيدِ الإِخْلَاصِ مُتَنَاسِقَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَقَدْ قَضَوْا مَا تَوَجَّهُوا عَنْهُ وَقَبَضُوا عَلَى مَنْ عَثَرُوا عَلَيْه، وَاجْتَمَعَ لَدَى العَبِيدِ مِنْ شِرَارِهِمْ جُمْلَةٌ عُوجِلَ بِمَشَاهِرِهِم، وَشُرِّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ، وَأُذِيقُوا وَبَالَ مَكْرِهِمْ[1] وَجرعُوا بِيَدِ الرَّدَى كُؤُوسَ غَدْرِهِم.

وَلَمَّا شَمِلَ البَحْثُ جَمِيعَ هَذِهِ القَبِيلَةِ الجُشَمِيَّةِ بَطْناً وَظَهْراً، وَاسْتُكْشِفَتْ أَحْوَالُهُمْ سِرّاً وَجَهْراً، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهَا مِنْ شُبْهَةٍ مَجَالٌ، وَلاَ لِقَائِلٍ مَكَانُ رَوِيَّةٍ وَارْتِجَالٌ، وَمَيَّزَ الانْتِقَادُ عَامَّتَهَا فَخَلَصتْ إِبْرِيزاً، وَامْتحنَ الاخْتِبَارُ أَعْيَانَهَا فِي هَذِهِ المُحَاوَلَةِ فَبَرَزُوا في مَيْدَانِ المُنَاصَحَةِ تَبْرِيزاً، وتَصَفَّتْ مِنْ أَقْذَاءِ شِرَارِهِمْ، مَشَارِبُ غُمَارِهِم، أُمِرُوا بِالانْتِقَالِ عَنْ جِهَاتِ «تَامَسْنَا» إِلى مَحَالِّهِمُ الأَوَّلِ مِنْ بِلاَدِ تَادْلَى، وَالارْتِحَالِ بِجُمْلَتِهِمْ حَسْبَما اقْتَضَاهُ الأَمْرُ العَالِي -أَدَامَهُ اللهُ-، فَبَادَرُوا إِلَى ذَلِكَ وَأَسْرعُوا لامْتِثَالِ مَا أُمِرُوا بِهِ، وَرَحَلُوا عَنْ هَذِهِ الجِهَاتِ بِقُلِّهِمْ وَكُثْرِهِمْ، وَثَاغِيَتِهِم وَرَاغِيَتِهِمْ[2]، وَصَاهِلِهِمْ وشَاحِجِهِمْ صُحْبَةَ حُفَّاظِهِمْ لِيَلُمُّوا فِي حَلِّهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ شَعَثَهُمْ، وَيَرُدُّوا مُعْتَاثَهُمْ[3] فَسَارُوا تَسِيلُ بِهِمُ الأَبَاطِحُ

---

(1) فيه نظر إلى قوله تعالى:﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾. سورة التغابن، الآية:5.

(2) تقول العرب: ما له ثاغية ولا راغية أو ما له تاغ ولا راغ؛ الثاغية للشاة، والراغية للإبل.

(3) أي الذي أثار في أرض عيثا وفسادا.



وَالرُّبَى، [وَتَقْذِفُ بِهِمُ] البَيْدَاءُ فَتعقِدُ رِعَانَ شَوَاهِقِهَا حُبّا. وَبَرَكَةُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ تكْتَنِفُهُمْ عَنِ اليَمِينِ وَالشِّمالِ، وَتُنْجِزُ لَهُمْ [مُوَاصَلَةَ الرَّغَائِبِ] وَالآمالِ، وَتُرِيهِمُ النُّجْحَ في صِنْفَيْ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ.

وَلَمَّا وَصَلُوا بِلَادَ تَادْلَى نَزَلُوا مِنْهَا بِمَوَاضِعِهِمْ قَدِيماً فَهدأَتْ غَوْغَاؤُهُم، وَسَكَنَتْ دَهْمَاؤُهُم، وَاسْتَقَرَّتْ أَحْوَالُهُم، وَانْتَقَلَ مَنْ كَانَ بِهَا مِنْ بَنِي جَابِرٍ -وَفَّقَهُمُ اللهُ- إِلَى جِهَةِ «تَافَرْدِيُون» وَنَزَحَ إِلَيْهَا كُلّ مَنْ رغب انْتِقَالَ الجُشَمِيِّينَ إِلَى هَذِهِ الجِهَاتِ، أُمِرُوا بِالتَّخَلُّصِ مِمَّا بَيْنَهُم وَبينَ جِيرَتِهِمْ أَهْلِ تَامَسْنَا مِنْ مَطَالِبِ المُعَامَلاتِ، وَسَائِرِ التَّبِعَاتِ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهُم تَشَبُّثٌ وَلَا عُلْقَة، فَتَخَلَّصَ بَعْضُهُم مِنْ بَعْض، وَانْسَدَّتْ بَيْنَهُمْ مُفَتَّحاتُ الأَبْوَاب ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[1] وَضمنت طُرُقُ هَذِهِ الجِهَاتِ -أَمَّنَهَا اللهُ- أَشْيَاخَ مَوَاضِعِهَا، وَقُطِعَتِ الأَعْذَارُ بِكَتْبِ العُقُودِ عَلَيْهِمْ بِتَلْزِيمِهِمْ لَهُمْ وَأَخْذِهِمْ بِكُلِّ مَا يَطْرَأُ فِيهَا، وَرِضَاهُمْ بِذَلِك وَضَمَانِهِمْ لَهُ، فَانْتَشَرَ الأَمْنُ وَالحَمْدُ للهِ بِبَرَكَةِ النَّظَرِ الإمامِيِّ السَّعِيدِ بِأَدَانِي هَذِهِ الجِهَاتِ وَأَقَاصِيهَا، وَانْبَتَّتِ الدَّعَةُ في غِيطَانِها وَصَيَاصِيها، وَاللهُ يُجازِي الحَضْرَةَ الإِمَامِيةَ عَنْ عَبِيدِها خَيْر مَا جَازَى بِهِ أَئِمَّتَهُ الرَّاشِدِينَ، وَخُلَفَاءَهُ المُهْتَدِينَ بِمَنِّهِ وَيُمْنِه.

وَإِنَّ أَعْيَانَ العَرَبِ مِنْ جُشَم وَمَنْ حَضَرَ بِهَذا المَوْضِعِ مِنْ أَعْيَانِ سَائِرِ هِلَالٍ[2] لِمَا دَهِمَ عَشَائِرَهُمْ مِنْ هَذا التَّمْحِيصِ مَا فِيهِ -بِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ- سَبَبُ حَيَاتِهِم، وَخَامَرَهُم مِنَ الرُّعْبِ مَا هُوَ مُوجِب نَجَاتِهِم، وَأَصَابَهُمْ مِن الاحْتِيَاجِ مَا فِيهِ ثَرَاءُ أَمْوَالِهِم، وَأُشْرِبُوا مِنَ القَنَطِ مَا فِيهِ دَرَكُ آصَلِهِم، رَغِبُوا في تَأْنِيسِ دَهْمَائِهِمْ، وَتَسْكِينِ رَوْعِ حُمَاتِهِم، وَتَلافِي بَاقِي ذَمَائِمِهِم، بِأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِم بِمَا اعْتَادُوهُ مِنْ إِحْسَانِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ القُدسِيَّةِ وَعَمِيمِ إِنْعَامِها، وَمَعْهُودِ إِفْضَالِها حَسْبَما أَلِفُوهُ مِنْ بَرَكَتِها وَعَهِدُوهُ مِنْ لُطْفِهَا وَحَنَانِهَا، لِتَتِمَّ النِّعْمَةُ بِذَلِكَ عَلَى جَمِيعِهِم، وَتَسْكُنَ لَهُ نُفُوسُ كَافَّتِهِمْ،

---

(1) سورة البقرة، الآية: 165.

(2) هلال: هو الجد الأعلى للأسر والقبائل التي استوطنت بلاد المغرب الأقصى من رياح والجشميين، ينظر: العبر لابن خلدون 6/ 27-28.



وَتَفِيضَ بِهِ المِنَّةُ عَلى خَاصَّتِهِمْ وَعَامَّتِهِم، وَلِيَكُونَ كَالتَّبَاشِيرِ لِصُبْحِ الرِّضَا عَنْهُمْ، وَعُنْوَاناً لِجَمِيلِ الغَرَضِ فِيهِمْ، وَدَلِيلاً عَلَى تَتْمِيمِ النِّعْمَةِ قِبَلَهُمْ. وَوَالَوا الرَّغْبَةَ لِلْعَبِيدِ فِي مُطَالَعَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ بِمَا أَمْلَوْهُ فِي ذَلِكَ وَاسْتِفْتَاحِ أَبْوَابِ رَحْمَتِها لِوُلُوجِهِمْ وَاسْتِمْطَارِ صَيِّبِ إِحْسَانِهَا لِظَمَإِهِمْ وَاسْتِلْطَافِ رَأْفَةِ حَنَانِهِم لِضُعْفِهِم، فَطَالَعَ العَبِيدُ بِذَلِكَ مِنْ رَغَبَاتِهِمْ رَاجِينَ لَهُمْ مِنْ بَرَكَاتِ امْتِنَانِ الحَضْرَةِ الإِمامِيةِ مَقَرِّ الرَّحْمَةِ وَيَنْبُوعِ البَرَكَةِ مَا لَا تَطْمَحُ إِلَيْهِ مُنَاهُم، وَلَا يَبْلُغُهُ مُتَمَنَّاهُم حَسْبَما اعْتَادَهُ جَمِيعُ عَبِيدِها مِنْ فَضْلِها، وَعَهِدُوهُ مِنْ بَرَكَةِ هَدْيِها. وَإِلَى اللهِ يَضْرَعُ عَبِيدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ القُدُسِيَّةِ فِي أَنْ يَبْلُغَ مُلْكُها مَا زُوِيَ لَهُ ﷺ مِنْ أَقَاصِي المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ[1] وَيُغْنِيهَا بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ عَنْ مُنَاصَبَةِ مُنَاصِب، أَوْ مُحَارَبَةِ مُحَارِب، وَأَنْ يَتَكَفَّلَ بِأَعْلَامِهَا المُؤَيَّدَةِ مِنْ تَيْسِيرِ الإِرَادَاتِ مَا لاَ يَمُرُّ بِخَاطِر، وَلاَ يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ حَاصِر. بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ العَمِيمُ عَلى الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ القُدُسيَّةِ المُطَهَّرةِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبرَكاتُه.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي الحَسَنِ القَلَنِي:

مِنْ مُحَمَّدِ[2] بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤمنِينَ بْنِ سَيدنا أَمِيرِ المُؤْمنِينَ -أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَ أَمْرِهِمْ- إِلَى الطَّلَبَةِ وَالشُّيُوخِ وَالأَعْيَانِ وَالكَافَّةِ مِنْ أَهْلِ مُرْسِيَةَ وَجِهَاتِهَا، أَطْلَعَ اللهُ عَلَيْهِمْ كَوَاكِبَ الفُتُوحِ نَيِّرَةَ الإِشْرَاقِ، وَأَجْنَاهُمْ ثَمَرَ البَشَائِرِ المَعْسُولَةِ حُلْوَ المَذَاقِ، وَهَزَّ أَعْطَافَهُمْ سُرُوراً مِنِ اهْتِزَازِ السُّمْرِ وَالبِيضِ الرِّقَاقِ، سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبرَكَاتُه.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي جَعَلَ أَمْرَهُ عَالِيـاً، وَضَاعَفَ النَّصْرَ لَهُ مُتَتَابِعاً مُتَوَالِياً، وَجَعَلَ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ فَيَابُشْرَى مَنْ كَانَ عَنِ الإِسْلَامِ ذَابّاً وَلِحَوْزَتِهِ حَامِياً،

---

(1) هذا مأخوذ من الحديث الشريف: إن الله تعالى زَوَى لي الأرض فَأُرِيتُ مشارق الأرض ومغاربها؛ أي جمع لهاالأرض كاملة ﷺ.

(2) كانت ولاية محمد بن يوسف بن عبد المومن على مرسية سنة 579هـ، وذلك عندما خلف عمه أبا يوسف بن عبد المومن. انظر البيان المغرب، ص: 141. والحلل الموشية لابن سماك، ص: 159.



وَالصَّلاَةِ عَلى مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ لِدِينِهِ الحَنِيفِيِّ دَاعِياً، وَجعَلَهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عِنْدَ تَكَاثُفِ الظُّلْمَةِ نُوراً هَادِياً، وَبَعَثَهُ إِلَى الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ وَالأَدْنَى وَالأَبْعَدِ بِقَوْلِهِ الفَصْلِ وَحُكْمِهِ العَدْلِ آمِراً وَنَاهِياً، وَسَمَّاهُ لِفَضْلِ كَرَامَتِهِ عَلَيْهِ عَاقِباً وَحَاشِراً وَمَاحِياً[1] صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ صَلاَةً تُوَفِّرُ لَهُ مِنَ الكَرَامَةِ [وَالنُّبْلِ] حَظّاً جَسِيماً وَافِياً، وَحَيَّاهُ تَحِيَّةً طَيِّبَةً تَرْفَعُ لَهُ فِي المَقَامِ المَحْمُودِ عَلَى حُكْمِ انْتِجَازِ الوُعُودِ مَحَلاًّ [رَاقِياً] وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الَّذِي أَعْلَنَ بِتَوْحِيدِ الله مُنَادِياً، وَأَخَذَ بِحجْرِ مَنْ كَانَ فِي [حَاجِبِ] التَّجْسِيمِ مُتَهَافِتاً وَفِي هُوَّتِهِ هَاوِياً، وَجَاهَدَ فِي اللهِ تَعَالَى حَقَّ جِهَادِهِ[2] لِيُعِزَّ كَلِمَةَ الحَقِّ وَيُذِلَّ مَنْ كَانَ لَهُ قَالِياً وَشَانِياً، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رِضىً يُورِدُهُ مَنْهَلَ الكَرَامَةِ نَمِيراً صَافِياً، وَيلْبِسُهُ بُرْدَ الأَمْنَةِ سَبُوغَ الأَذْيَالِ ضَافِياً، وَيَلْقَاهُ، وَفيرَ العِصْمَةِ وَبِرِدَاءِ الرَّحْمَةِ مُطَالِعاً لَهُ مُوَافِياً، وَعَنْ صَاحِبِهِ الأَكْرَمِ وَعَاضِدِهِ الأَلْزَمِ، وَمُؤَازِرِهِ الأَقْدَمِ، وَخَلِيفَتِهِ المُقَدَّمِ، سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُسْتَوْدعِ مِنْ بَرَاهِينِ حِكَمِهِ وَأَنْوَارِ عُلُومِهِ، مَا لَمْ يَزَلْ أَبَداً لِرَثِّ ثَوْبِ الجَهَلَةِ[3] صَاقِلاً حَالِياً، وَالمُعِيدِ شَرْعَ الإِسْلاَمِ إِلَى شَرْخِهِ القَشِيبِ الجَدِيدِ وَقَدْ كَانَ بَالِياً، وَالمُصَيِّرِ لَهُ بَعْدَ العَطَلِ [مُزْدَاناً] بِالعَوْدِ الأَحْمَدِ[4] حَالِياً، وَمُوَالاَةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنا أَمِيرِ المُؤْمنِينَ بنِ سَيِّدِنا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِعِزٍّ وَنَصْرٍ يدرُّ صَيِّبُهُ عَلى أَكْنَافِ البَسِيطَةِ هَامِراً هَامِياً، وَتَوَالَى فَتْحٌ يَنْظِمُ لَهُ آفَاقَ الأَرْضِ مِنْهَا قَاصِياً أَوْ دَانِياً.

فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ بَشَائِرَ تَتَنَاسَقُ تَنَاسُقَ الجُمَانِ، وَتَجْمَعُ بَيْنَ نَيْلِ الأَمَانِي وَالأَمَانِ، وَتَتَكَفَّلُ بِعِزَّةِ التَّوْحِيدِ وَبِكَسْرِ مَضْرُوبِ النَّوَاقِيسِ وَمَعْبُودِ الصُّلْبَانِ [مِنْ مَنْزِلِ] المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- بِظَاهِرِ «يَابُرَة» -فتَحَهَا اللهُ- وَكَوَاكِبُ النَّصْرِ

---

(1) قال النبي ﷺ في حديث: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، والماحي يمحو الله بي الكفر، والحاشر أحشر الناس على قَدَمَيَّ، والعاقب أي آخر الأنبياء».

(2) مقتبس من سورة الحج، الآية: 76.

(3) خرم بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(4) من أمثال العرب: «عُدنا والعَودُ أحمدُ».



العَزِيزِ تشرقُ وَتَزْهَر، [وَآيَاتُ سَعْدِهِ] تَأْتَلِقُ وَتَبْهَر، وَسُعُودُ التَّأْيِيدِ المُقْتَرَنِ بِالتَّأْيِيدِ تَعْتَلِي وَتَظْهَر، وَللهِ فِي سِرِّ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ مِنَ المثْلاَتِ، وَصُرُوفِ العِبَرِ وَالآيَاتِ، مَا طَارَ مَثَلُهُ السَّابِقُ فِي الآفَاقِ، وَجَرَتْ لَطَائِفُهُ لِطَائِفَةِ الحَقِّ عَلَى المُرَادِ وَغَايَةِ الوِفَاقِ، وَأَبْدَى شَمْسَهُ ضَاحِيَةً فِي غَايَةِ الإِنَارَةِ وَالإِشْرَاقِ، وَأَطْلَعَ قَمَرَهُ التِّمَامَ [يَسْتَحِثُّ] بِالإِبْدَارِ وَالاتِّسَاقِ. لاَ جَرَمَ أَنَّهُ أَمْرُه العَالِي الَّذِي عَزَّتْ أَنْصَارُهُ وَأَشْيَاعُهُ، وَطَبَّقَ الخَافِقَيْنِ نُورُهُ السَّاطِعُ وَشُعَاعُهُ، وَغَمَرَ القُلُوبَ المُوقِنَةَ وَالأَنْفُسَ المُؤْمِنَةَ تَصَوُّرُه فِيهَا وَانْطِبَاعُه، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى ذَلِكَ كَثِيراً حَمْداً يَقْتَضِي المَزِيدَ مِنْ آلاَئِهِ وَالتَّحَدُّثَ بِبَاهِرِ نَعْمَائِهِ.

وَإِلَى هَذَا أَدَامَ اللهُ تَوْفِيقَكُمْ، وَنَهَجَ إِلَى مَا يَعُودُ عَلَيْكُمْ بِالعَارِفَةِ الحُسْنَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ سَنَنَكُمْ وَطَرِيقَكُمْ فَإِنَّهُ لَمَّا فَارَقْنَا ذَلِكَ الصُّقْعَ عَلَى مَا كَانَ الأَمْرُ العَالِي -أَدَامَ اللهُ عَلاَءَهُ وَأَنَارَ بِنُجُومِ السَّعْدِ سَمَاءَهُ- حَدَّهُ لَنَا مِنَ التَّأَهُّبِ لِلْجِهَادِ، وَالنَّظَرِ فِي ضَمِّ الأَجْنَادِ، رَحَلْنَا عَنْ تِلْكُمُ المَحَلَّةِ بِمَنْ صَحِبْنَا مِنَ الكُمَاةِ، وَمَشَاهِيرِ الحُمَاةِ، وَذِكْرُ اللهِ تَعَالَى شِعَارُ أَلْسِنَتِنَا، وَاسْتِشْعَارُ خَوْفِهِ -جَلَّ جَلاَلُهُ- مُنَفِّرُ سِنَتِنَا، وَلَمْ نَزَلْ نُنْضِي الرَّوَاحِلَ، وَنَطْوِي المَرَاحِلَ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ تَعَالَى وَنَسْتَرْفِدُهُ، وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَسْتَرْشِدُهُ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ يُوَفِّرَ كَلِمَتَهُ العَالِيَة، وَأَنْ يَجْعَلَ طَائِفَتَهُ الغَالِبَةَ البَاقِيَة، وَأَنْ يُحِلَّ بِالكَافِرِينَ نِقْمَتَه، وَيَهَبَ لِطَائِفَةِ التَّوْحِيدِ عِصْمَتَه، حَتَّى التَحَقْنَا بِالمُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- وَبِالسَّوَادِ الأَعْظَمِ وَالجَمَّاءِ الغَفِيرِ مِنْ جَمَاهِيرِ العَسَاكِرِ المُؤَيَّدَةِ المَنْصُورَةِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ وَادِي «تَاجُه»[1] فَانْتَظَمْنَا بِهِمْ وَوَصَلْنَا سَبَبَنَا بِالمَتِينِ مِنْ سَبَبِهِمْ، وَارْتَحَلَ الجَمِيعُ وَالوَعْدُ الصَّادِقُ يُخْبِرُ عَنْ وَشِيكِ انْتِجَازِه، وَيُنْبِئُ أَنَّ عَلَى مُتَقَدِّمِ صُدُورِهِ مُتَأَخِّرِ أَعْجَازِه، وَسَارَ المُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- بِجِدٍّ عَازِمٍ، وَسَعْدٍ مُحَالِفٍ مُلاَزِمٍ، يَقْطَعُونَ السَّبَاسِبَ[2] وَالمَوَامِي، وَيُسَدِّدُونَ إِلَى أَعْدَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِمُ المَرَامِي، وَيَدُسُّونَ لَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ الدَّوَامِي، حَتَّى احْتَلُّوا بَحْبُوحَةَ بِلاَدِهِم، وَوَطِئُوا عَلَى رَغْمِ الكَفَرَةِ عَالِيَ شُرَفِهِمْ وَمُنْخَفَضِ وِهَادِهِمْ، مِنْ أَرْضٍ طَالَمَا بَاضَ الشَّيْطَانُ فِيهَا وَفَرَّخ، وَمُذْ أَلْقَى

(1) تاجه TAJo: نهر أندلسي مشهور.
(2) السباسب: القفار والفيافي.



كَلْكَلَهُ عَلَيْهَا مَا أَفْرَجَ عَنْهَا وَلَا أَفْرَخ، وَحَفَائِظُ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- تغُور، وَنُفُوسُهُمْ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ تَكَادُ تَتَمَيَّزُ وَتَفُور[1]، وَعُيُونُهُمْ إِلَى إِرَاقَةِ دِمَائِهِمُ المَطْلُولَةِ تَتَطَلَّعُ وَتمُور، وَكُلَّمَا دَنَا المُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- مِنَ الكَفَرَةِ -أَحَانَهُمُ اللهُ- تَقَدَّمَ الرُّعْبُ إِلَيْهِمْ نَذِيراً، وَأَوْسَعَهُمْ مِنْ مُقَاوَمَةِ حِزْبِ اللهِ تَعَالَى تَخْوِيفاً وَتَحْذِيراً، وَأَوْمَأَ النَّصْرُ إِلَى غَلَبَةِ طَائِفَةِ الحَقِّ مُعْلِماً وَمُشِيراً، وَأَطْلَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ طَوَالِعِ السَّعْدِ مَا كَانَ دَلِيلاً عَلَى الفَتْحِ المُبِينِ وَبَشِيراً. وَلَمْ يَزَلْ أَعْدَاءُ اللهِ تَعَالَى [يَأْرِزُونَ] إِلَى المَعَاقِلِ وَالقُنَن، وَيُفْضُونَ إِلَى الكُهُوفِ المُؤْذِنَةِ مِنْهُمْ بِضَعْفِ المُؤَنِ، وَيَتَسَرْبَلُونَ الخَوْفَ بَدَلاً مِنْ وَاقِي الجُنَن، وَالمُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ تَعَالَى-، يَصِلُونَ فِي بِلَادِهِم اللَّيْلَ بِالنَّهَارِ القَرِيبِ، وَيَجْمَعُونَ السَّيْرَ الحَثِيثَ إِلَى مَظَانِّهِمْ بَيْنَ الخَبِّ وَالتَّقْرِيب، وَمَهْمَا نَزَلُوا بِسَاحَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَاءَ صَبَاحُه[2] وَبَدَا بِحَزَازَةِ قَلْبِهِ، وَسُخْنَةِ عَيْنِهِ عَلَيْهِ إِمْسَاؤُهُ وَإِصْبَاحُه، فَلَمْ يَزَالُوا يُوسِعُونَ عَامِرَهُمْ وَغَامِرَهُمْ إِقَامَةً وَتَنَقُّلاً، وَيَجُوسُونَ خِلَالَ دِيَارِهِمْ [حَيّاً حَيّاً] وَمَعْقِلاً مَعْقِلَا، يُحِيطُونَ بِهِمْ إِحَاطَةَ الدَّائِرِ بِالمَرْكَزِ، فَيُصَيِّرُونَهُمْ إِلَى حَالِ الأَوْهَنِ الأَعْجَزِ، يَكْتَنِفُونَهُمْ نَهباً وَيُوسِعُونَهُمْ ضَرْباً وَقَتْلاً وَأَسْرا، فَيَتَمَلَّكُونَ أَقْوَاتَهُمْ تَغَلُّباً عَلَيْهَا وَقَسْرا، وَإِذَا سَرَوْا إِلَى قَرْيَةٍ مِنْ قُرَاهُمْ وَنَالُوا مَا ابْتَغَوْا مِنْ قِرَاهُمْ، وَفَصَمُوا لِلْكَفَرَةِ مِنْهَا مَوْثِقَ عُرَاهُمْ، وَلَمْ يَرْتَحِلُوا عَنْهَا إِلاَّ وَقَدْ خَسَفُوهَا خَسْفاً، وَأَوْسَعُوا الأَعْدَاءَ الكَفَرَةَ بَعْدَ الاغْتِرَارِ هَدْماً وَنَسْفاً، وَأَضْرَمُوا النِّيرَانَ فِي كُلِّ سُوَيْحَةٍ كَالغُوَيْر، غَادَرُوهَا كَحَرِيقٍ مُسْتَطِيرٍ بِالبُوَيْرِ، تَنْعِقُ فِيهَا نَاعِبَاتُ الطَّيْرِ، وَتُوحِشُ إِيحَاشَ .... الَّذِينَ طَغَوْا فَتَعَقَّبُوا عَامَّةَ دِيَارِ أَعْدَاءِ اللهِ ... عَلَى غَيْرِ تَرَاضِيهِم، وَخَيَّمُوا بِسَيْفِ الهَجْرِ فِي أَرَاضِيهِم، وَالغَارَاتُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ .... فِيمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِن ... وَالمُوَحِّدُونَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ-... ... عَيْنُ اللهِ تَعَالَى تَرْعَاهُمْ وَتَلْحَظُهُم، وَكَلَاءَتُهُ الوَاقِيَةُ تَصُونُهُمْ وَتَحْفَظُهُم، حَتَّى احْتَلُّوا فِي قُفُولِهِم بِالعُدْوَةِ القُصْوَى مِنْ وَادِي «تَاجُه».

---

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾. سورة الملك، الآية: 8.

(2) في إشارة إلى قوله تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾. سورة الصافات، الآية: 177.



وَعِنْدَمَا ارْتَحَلَ المُوَحِّدُونَ- أَعَزَّهُمُ اللهُ تَعالَى- مِنْ مَضْرِبِ مُعَسْكَرِهِم المُبَارَكِ بِه، ذَمِرَ الكَفَرَةُ- أَعْدَاءُ اللهِ- نُفُوسَهُم، وَاعْتَقَلُوا ذَوَابِلَهُم وَاجْتَابُوا لُبُوسَهُم، وَاجْتَمَعُوا بِالقَضِّ وَالقَضِيضِ، وَنَزَلُوا عَنْ عَرْعَرَةِ مَعْقِلِهِمُ الَّذِي أَبْقَى عَلَيْهِم دِمَاءَهُم إِلَى الحَضِيضِ، وَتَأَلَّبُوا وَتَكَتَّبُوا وَذَهَبُوا إِلَى مُقَاتَلَةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَبِئْسَمَا ذَهَبُو، وَرَامُوا أَنْ يَنْتَهِزُوا فِي المُوَحِّدِينَ - أَعَزَّهُمُ اللهُ تَعالَى- مِنَ الفُرْصَةِ، مَا يُذْهِبُ عَنْهُمْ بَعْضَ مَغَصِ الغُصَّة، وَأَنْ يُصِيبُوا مِنْ شِدَادِهِمْ وَمُفْتَرِقِ أَفْذَاذِهِم، مَا يَجِدُونَ بِهِ إِلَى العَزَاءِ سَبِيلاً، وَيُقِيمُونَهُ عِنْدَ رُهْبَانِهِمُ الضَّعَفَةِ الوُهُنِ عَلى جَلَدِهِمْ وَأَيْدِهِمْ دَلِيلاً، وَهَيْهَاتَ لَا تُعَارَضُ صَوْلَةُ الأَسَدِ بِانْتِفَاخِ الهِرِّ[1] وَلَا يُقَاسُ خَيْطُ العَنْكَبُوتِ بِالحَبْلِ المَشْدُودِ المُمَرِّ، فَوَشْكَانَ مَا نَذر بِهِمْ مِنْ حِزْبِ اللهِ تَعالَى -وَهُوَ المُفْلِحُ[2]- مِقْنَبٌ فِيهِ إِخْوَانكُمْ أَهْلُ الشَّرْقِ وَسَرِيَّةٌ مِنَ الغَرْبِ كَانُوا فِي سَاقَةِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- عَطَفُوا عَلَيْهِم، وَأَشْرَعُوا قَبْلَ رِمَاحهُمْ إِلَيْهِم، وَتَرَاءَى الجَمْعَانِ وَسَقَطَ العشَاءُ بِأَعْدَاءِ اللهِ تَعالَى عَلَى سِرْحَان[3]، فَشَدُّوا عَلَيْهِمْ شِدَّةً وَجَدُوا رِيحَ المَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهَا، وقَضَتْ بِذَهَابِ نُفُوسِهِمُ الخَبِيثَة مِنْ إِبْقَائِهَا، وَأَرْدَوْهُمْ حِيَاضَ المَنَايَا والحُتُوفِ، وَأَتَوْا عَلَيْهِمْ قَعْصاً بِالرِّمَاحِ وَهَبْراً بِالسُّيُوفِ، فَلَاذَتِ الشِّرْذِمَةُ الذَّمِيمَةُ، وَالأَشَابَةُ اللَّئِيمَةُ مِنْ فُرْسَانِهِمْ بِالفِرَارِ وَالإِحْجَام، وَنَجَوْا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَام[4] بَعْدَ أَنْ عُرِكُوا عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا[5]، وَتُرِكُوا أَشْرَدَ مِنَ النَّعَامِ فِي

---

(1) فيه إشارة إلى قول الشاعر الأندلسي:

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

(2) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. سورة المجادلة، الآية: 21.

(3) السِّرْحَانُ: الذئب، وفي المثل: «سقط العشاء به على سرحان»: قال أبو عبيد في تفسيره، وأصله أن رجلا خرج يلتمس العشاء فوقع على ذئب فأكله والمثل في مجمع الأمثال واللسان «سرح».

(4) من قول حسان:

تَرَكَ الأَحِبَّةَ أَنْ يُقَاتِلَ دُونَهُمْ ... وَنَجَا بِرَأْسِ طِمِرَّةٍ وَلِجَامِ

(5) نثر لزهير بن أبي سلمى في معلقته.



إجْفَالِها[1]، وَانْصَاعَ إِلَى الحِصْنِ مِنْهُمْ مَنْ نَجا، وَمَا كَانَ طَمِعَ في الحَيَاةِ وَلَا رَجا، فَكَمْ مِنِ ابْنٍ هُناكَ أَسْلَمَهُ أَبُوهُ، وَأَخٍ لَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ أَخُوه، وَذِي صَافِيَةٍ وَحَاشِيَةٍ فَرَّ عَنْهُ ذَوُوهُ، خَرَجَ في غَيْرِ ضِمْنَ الكَلَاءَة، فَخَرَّ وَلَمْ يُوَسَّدْ عَلَى الأَلَاءَة، وَكَانَ لَهُمْ يَوْمٌ كَيَوْمِ جَفْرٍ عِنْدَ الهَبَاءَة، وَفقد في ذَلِكَ المُعْتَرَكِ من أعيانهم، وَذَوِي آرَائِهِمْ وَأَسْنَانِهِمْ، عُصْبَةً كَأَنَّهَا مِائَةٌ أَوْ حَدُّهَا، وَرُبَّما تَجَاوَز القَدْرَ عَدُّهَا، وَأَمَّا مَا لَا يُعْرَفُ مِنْ لَفِيفِهِمْ، وَمَنْ ضَمَّهُ إِلَى مَصْرَعِهِ خَوْفُ لَوْمِهِم وَتَعْنِيفِهِم، فَالعَدَدُ الجَمُّ، وَالجُمْهُورُ الأَعَمُّ، طَوَائِفُ طَالَمَا ضَلَّتْ وَأَضَلَّتْ، وَأُذِلَّتْ بَعْدَهَا رِقَابُ المُشْرِكِينَ فَذَلَّتْ، وَآبَ المُوَحِّدُونَ - أَعَزَّهُمُ اللهُ تَعالَى - بَعْدَ هَذِهِ الوَقْعَةِ أَحْسَنَ إِيَابٍ، وَأَحَلُّوا بِأَعْدَائِهِمْ دَارَ البَوَار، وَآذَنُوهُمْ عَلى غَابِرِ الدَّهْرِ بِمُوبِقِ [الشَّنَارِ]، وَوَسَمُوهُمْ يَدَ المُسندِ بِمِيسَمِ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ، وَأَقَرُّوا عُيُونَهُم بِإِدْرَاكِ المُقِيمِ مِنَ [الفِرَارِ]. فَالحَمْدُ للهِ الَّذِي قَهَرَ الشِّرْكَ وَأَذَلَّهُ، وَحَمَلَهُ عِبْءَ هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ وَكَلَّهُ، وَشَهَرَ عَلَيْهِ سَيْفَهُ وَسَلَّهُ، وَأَرَاقَ بِهِ دَمَ أَهْلِ التَّثْلِيثِ فَهَدَرَهُ وَطَلَّه.

وَخَاطَبْنَاكُمْ -وَفَّقَكُمُ اللهُ- بِهَذِهِ الفُتُوحِ، لِتَأْخُذُوا [العِبْرَة] مِنْ هَذَا الخَيْرِ المَمْنُوحِ، وَلِتَعْلَمُوا أَنَّ هَذا الصُّنْعَ الجَمِيلَ في خَرْقِ العَوَائِدِ مَحْسُوبٌ، وَأَنَّ هَذا الأَمْرَ العَزِيزَ إِلَيْهِ مَعْزُوٌّ وَمَنْسُوبٌ. وَأَنَّ هَذا الشَّرَفَ المُبَارَكَ قَدْ أَمَدَّ لِأَهْلِ الشِّرْكِ وَالصَّلِيبِ ما .... مَنْ خَالَفَ هَذَا الأَمْرَ العَزِيزَ وَشقَاقَه، وَابْتَهَجَ لِسَمَاعِهِ شَامُ المَعْمُورِ وَعِرَاقُه، فَخَاطِبُوا جُلَّ بِلَادِكُمْ بِهَذَا [الخَبَرِ] وَأَصْقَاعِكُم، وَاجْعَلُوا عَلَى التَّحَدثِ بِهِ مُجْتَمَعَ تَفَرُّقِكُمْ وَمُفْتَرَق اجْتِمَاعِكُمْ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ [يُقَيِّضُ لَكُمْ مَا كَانَ] مِثَالَه، وَيُبَوِّئُكُمْ فَيْءَ الأَمْنِ وَظِلَالَه، وَيُتْحِفُكُمْ بُرْدَ الخَفْضِ وَالسَّعَة، وَيُسَرْبِلُكُم سِرْبَالَ [الأَمْنِ وَالدَّعَة]، لَا رَبَّ غَيْرُهُ وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الوَكِيلُ. وَالسَّلَامُ الطَّيِّبُ المُبَارَكُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه؛ فِي الحَادِي وَالعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الآخِرَة سَنَةَ ثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ.

---

(1) مثل عربي مشهور.





بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ صَلَّى الله عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيما.

كَتَبَ عَنِ السَّيِّدِ الأَجَلِّ الأَعْلَى أَبِي العَلاَءِ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ -أَعزَّ اللهُ نَصْرَهُمْ- إِلَى الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُعَظَّمِ أَبِي عِمْرَانَ بْنِ الشَّيْخِ المَرْحُوم أَبِي حَفْصٍ، أَبْقَى اللهُ بَرَكَتَهُمْ الكَاتِبُ الأَفْضَلُ أَبُو زَيدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ يَخْلَفْتَن الفَازَارِي، أَعَزَّهُ اللهُ.

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ الأَسْنَى المَبْرُورُ المُعَظَّمُ المُكَرَّمُ الأَسْمَى الأَسْرَى، أَبُوعِمْرَانَ ابن الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُعَظَّمِ المُكَرَّمِ أَبِي حَفْصٍ؛ مَكَّنَ اللهُ عَلاءَهُمْ، وَأَحْسَنَ فِي رُزْئِهِمُ الفَاجِعِ الفَادِحِ عَزَاءَهُمْ؛ مُسَاهِمُهُمْ فِي مُصَابِهِم الأَفْظَعِ، وَمُشَارِكُهُمْ بِخَفْقِ الفُؤَادِ وَدَفْعِ المَدْفَعِ، المُرْتَمِضُ أَشَدَّ الارْتِمَاضِ لِرُزْئِهِ الَّذِي فَتَقَ المَجْدَ فَأَوْسَعَ، وَشَغَلَ التَّصَوُّرُ لَهُ وَالتَّحَدُّثُ كُلَّ مَرْأَى وَمَسْمَعٍ؛ إِدْرِيسُ ابنُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ:

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكَاتُهُ؛ وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلاَ يَفْنَى، المُقَدِّرِ لِوَفَاةِ كُلِّ شَخْصٍ وَخَرَابِ كُلِّ مَغْنَى، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ المُصْطَفَى الكَرِيمِ أَقْرَبِ مَن اسْتُدْنِيَ فَاسْتَدْنَى المُعَزَّى لِلْمُصَابِ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ كُلِّ نَفْسٍ وَإِنْ سَرَّ نَفْساً وَأَقَرَّ عَيْنا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرَامِ المُكَافِحِينَ عَنْ مِلَّتِهِ الغَرَّاءِ ضَرْباً وَطَعْنا، وَالمُغْنِينَ فِي تَمْهِيدِ شَعَائِرِهِ الكَرِيمَةِ وَشَرَائِعِهِ العَظِيمَةِ كُلَّ مَغْنَى؛ وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ مُجَدِّدِ مَا دَثَرَ لِلشَّرْعِ مِنْ رَسْمٍ وَمَشِيدِ مَا دَرَسَ لِلْحَقِّ مِنْ مَبْنَى، وَمُثْبِتِ الحَقَائِقِ عَلَى أَوْثَقِ القَوَاعِدِ بَعْدَ أَنْ قَلَبَهَا البَاطِلُ ظَهْراً وَبَطْناً، وَعَنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ المُقْتَفِينَ آثَارَهُ العَلِيَّةَ لَفْظاً وَمَعْنى، وَالمُتَمِّمِيهِ لِبَدْأَتِهِ المُبَارَكَةِ فَنّاً فَفَنّا، وَالدُّعاءِ لِسَيِّدِنا وَمَوْلانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الأَئِمَّةِ الخُلَفَاءِ أُمَرَاءِ المُؤْمِنِينَ بِنَصْرٍ يَمْلأُ الدُّنْيا وَأَهْلَها مَنّاً وَأَمْنا، وَفَتْحٍ يَسْتَتْبِعُ الأَعْدَاءَ أُمَّةً فَأُمَّةً وَيَهُدُّ مَعَاقِلَها حِصْناً فَحِصْنا.

فَكَتَبَ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ صَبْراً لَا تُكَدِّرُ بَحْرَهُ دِلَاءُ النَّوَائِبِ، وَشُكْراً لَا يُغَيِّرُ بَدْرَهُ وَلَاءُ المَصَائِبِ. مِنْ «قُرْطُبَة» -حَرَسَها اللهُ- وَالأَحْوَالُ صَالِحَةٌ وَالحَمْدُ للهِ كَثِيراً؛ عَلَى أَنَّ



النَّفْسَ لِلاِكْتِئَابِ شَدِيدَةُ الارْتِمَاضِ، وَالعَيْنُ لِلاِنْتِحَابِ بَعِيدَةٌ مِنَ الاغْتِمَاضِ، وَالقَلْبُ قَدْ وَجَبَ حَتَّى انْفَطَرَ، [وَالخلقُ] قَدِ احْتَدَمَ حَتَّى اسْتَعَرَ، وَالنَّفْسُ قَدِ ارْتَفَعَ حَتَّى خَفَتَ، وَاللِّسَانُ قَدْ ضَجَّ حَتَّى صَمَتَ؛ أَسَفاً لمَا نَفَذَ بِهِ القَدَرُ الَّذِي لَا يُغَالَبُ، وَالحَكَمُ الَّذِي لَا يُطَالَبُ. مِنْ وَفَاةِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُكَرَّمِ المُعَظَّمِ، صِنْوِكُمُ الأَسْنَى الأَسْرَى، وَالتَّارِكِ الآمَالَ ظُلَّعاً وَالنُّفُوسَ حَسْرَى، لَيْثِ الحُرُوبِ، وَغَيْثِ الجُدُوبِ[1] وَالذُّكْرِ المُعَدِّ لِكُلِّ نَائِبَةٍ تَنُوبُ؛ أَبِي مُحَمَّدٍ نَوَّرَ اللهُ مَضْجِعَهُ، وَكَرَّمَ لَدَيْهِ مَرْجِعَهُ، وَكَانَ فِي وَحْشَةِ اللَّحْدِ وَوَحْدَةِ الفَقْدِ لَهُ وَمَعَهُ. فَـ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2]، تَسْلِيماً لِلْقَدَرِ، وَاسْتِرَاحَةً فِي عَدَمِ المُصْطَبَرِ، وَوَا أَسَفاً لَهُ صَارِماً أُغْمِدَ بَعْدَمَا هَالَتْ آثَارُهُ، [ومُبَارِزاً] فُقِدَ بَعْدَمَا سَارَتْ شَرْقاً وَغَرْباً أَخْبَارُهُ. لَقَدْ فُجِعَتْ لِفَقْدِهِ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ، وَشَجِيَتْ مِنْ بَعْدِهِ حِيَاضُ البِيضِ الرِّقَاقِ، وَجِيَادُ الجُرْدِ العِتَاقِ؛ وَمَا كَانَ إِلَّا الغَمَامَ انْقَشَعَ، وَقَدْ تَرَكَ البَسِيطَةَ [مُسْرِعَةً]، وَالحُسَامَ انْقَطَعَ، وَقَدْ غَادَرَ الأَحْشَاءَ لِلأَعْدَاءِ مُنْقَطِعَةً.

وَاللهُ تَعَالَى يُجْبِرُ بِكُمْ مَكَانَهُ، وَيُعِزُّ بِمَنْ تَخَلَّفَهُ مِنْ سَرَاةِ الأُسْرَةِ بَأْسَهُ وَإِحْسَانَهُ؛ بِمَنِّهِ.

وَلَوْلَا أَنَّ التَّعْزِيَاتِ مِنَ السُّنَنِ المَشْرُوعَةِ، وَالآثَارِ المَتْبُوعَةِ، لَصَدَّ وَلِيُّكُمْ عَنْهَا لِعِلْمِهِ بِما لَدَيْكُمْ مِنَ الصَّبْرِ وَالاحْتِسَابِ، وَكَوْنِهِ فِي هَذِهِ المُصِيبَةِ الفَاجِعَةِ الجَامِعَةِ شَرِيكِكُم المُبِرِ فِي الأَسَفِ وَالاِكْتِئَابِ. وَاللهُ تَعَالَى يَجْعَلُنَا -جَمِيعاً- فِيمَنْ أَصَاخَ لِهَذَا النَّبَأِ الَّذِي لَا يَسْتَطِيعُ لَهُ دَفْعاً أَوْ سَمْعاً وَأُعِدَّ لِهَذَا الخَطْبِ الَّذِي لَا نُطِيقُ لَهُ رَدّاً حَدّاً.

وَإِلَى اللهِ تَعَالَى أَضْرَعُ فِي أَنْ يُبْقِيَكُم أَطْوَلَ البَقَاءِ، وَيُرَقِّيَكُمْ أَحْسَنَ الارْتِقَاءِ، وَيُحْسِنَ عَزَاءَكُمْ عَمَّا لَابُدَّ مِنْهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ مِنْ مُغِيرَاتِ الحَوَادِثِ وَمُكَدِّرَاتِ الأَرْزَاءِ. بِمَنِّهِ؛ وَالسَّلَامُ.

---

(1) بالأصل: «المحروب». والتصويب بالهامش.

(2) سورة البقرة، الآية: 155.



جَوابُها: وَكَتَبَ بِهِ عَنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُعَظَّمِ أَبِي عِمْرَانَ المَذْكُور. الكَاتِبُ الأَجَلُّ الأَفْضَلُ أَبُو بَكْرٍ يَزِيدُ بن أَبِي عَبدِ اللهِ بْنِ صِقْلَاب -أَكْرَمَهُ اللهُ-

السَّيِّدُ الأَجَلُّ الهُمامُ المُبارَكُ الأَعْلَى المَاجِدُ الزَّعِيمُ السَّرِيُّ الأَسْمَى، الفَاضِلُ المَالِكُ السَّعِيدُ الأَوْحَدُ الأَنْجَدُ الأَسْنَى أَبُو العَلاَءِ ابن الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين، أَئِمَّةِ الطَّهَارَةِ وَالهُدَى أُمَراءِ المُؤْمِنِينَ، أَيَّدَ اللهُ كَلِمَةَ الإِسْلاَمِ بِسَعْدِ لِوَائِهِم، وَشَدَّ لَبِنَةَ الكَمَالِ وَالتَّمامِ بِأَيْدِ عَلاَئِهِم، لاَثِمُ تِلْكُمُ السَّاحَاتِ الطَّاهِرَةِ وَالأَرْبُعِ، المُنْجَذِبُ إِلَى سُلْطَانِها وَشَرَفِ أَوْطَانِها بِجُنُوحِ الجَوَانِحِ الدَّانِيَةِ وَالأَضْلُعِ الهَاتِفَةِ بِذِكْرِها الطَّيِّبِ وَثَنَائِهَا الصَّيِّبِ عَنْ طَبْعٍ لاَ عَنْ تَطَبُّعٍ، النَّاطِقُ فِي شُكْرِ إِحْسَانها وَفَضْلِ زَمَانِها بِلِسَانِ ابْنِ القُرِّيَّةِ وَبَيَانِ ابْنِ المُقَفَّعِ. «مُوسىَ بْنُ أَبِي حَفْصٍ»:

سَلاَمٌ كَرِيمٌ عَلَى مَكَانِكُمُ السَّامِي وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ المَحْمُودِ بِكُلِّ فَضْلٍ وَمَعْنَى المُرْسِلِ سَوَافِحَ الرَّحْمِةِ مُزْنا، الجَاعِلِ فِي الرِّضَا بِمَا قَدَّرَ اللهُ وَقَضَى مَعْقِلاً آشِباً لِلْعُقُولِ وَحِصْنا. وَالصَّلاَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي وَفَّى بِالذِّمَّة، وَوُزِنَ بِالأُمَّة، فَرَجَحَ وَزْنا، المُهَوِّنِ بِمُصَابِهِ كُلَّ مُصَاب، وَقَدْ كَادَتِ القُلُوبُ بِتَبَارِيحِ الأَوْصَابِ تَذُوبُ حُزْنا، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ، المَهْدِيِّ المَعْلُوم، الوَارِثِ مَقَامَهُ الأَشْرَفَ وَمَثَابَهُ الحُسْنَى، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المُقِيمِي شَرَائِعَ الإِسْلاَمِ حَتَّى أَعَادُوا خَشِنَ الأَيَّامِ لَدْنا، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الإِمَامِ الخَلِيفَةِ المُرْتَضَى بْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِالنَّصْرِ الأَغَرِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

فَكَتَبَهُ الشَّاكِرُ الصَّابِرُ كَتَبَ اللهُ لِحَضْرَةِ سَيِّدِنَا سَعْداً يُغْنِيهَا عَنْ قَوْدِ الكَتَائِب، وَرُشْداً يُدْنِيهَا مِنْ وِرْدِ المُنَى وَالرَّغَائِبِ مِنْ «أَلْمِرِيَّةَ» -حَرَسَهَا اللهُ- وَالآمَالُ إِلَى مَقَرِّكُمُ الكَرِيمِ طَامِحَةٌ، وَالأَعْمَالُ بِبَرَكَةِ أَمْرِكُمْ العَظِيمِ زَاكِيَةٌ رَاجِحَةٌ، -وَالحَمْدُ للهِ- وَالنَّفْسُ تَرْتَعُ مِنْ حَضْرَتِكُمْ العَلِيَّةِ فِي أَبْهَى رِيَاض، وَتَكْرَعُ مِنْ آدَابِهَا الشَّرْعِيَّةِ فِي أَرْوَى حِيَاض، وتَلِينُ مَعَ الدَّهْرِ وَتُهَوِّنُ فَتْكَةَ البَرَّاضِ، وَوَصَلَ الكِتَابُ العَالِي فَكَانَ كَالصَّبَاحِ أَسْفَرَ، أَوْ وَجْهِ النَّهَار سَفَر، أَهَانَ طَوَارِقَ الأَرْزَاءِ فَهَانَتْ، وَأَبَانَ طَرَائِقَ الضَّرَّاءِ فَبَانَت،



وَانْتَحَى سُمُومَ الكُرُوبِ، حَتَّى مَحَا رُسُومَ النُّدُوبِ مِنْ خَبَايَا القُلُوبِ، فَلِلَّهِ هُوَ مِنْ كِتَابٍ كَرِيمِ الأَثَرِ، مُبَارَكِ النَّظَرِ، نَمَا فِي تُرْبَةِ العَلْيَاءِ إِيثَارُه، وَسَمَا عَلَى تَرْعَةِ العَلْيَاءِ مَنَارُهُ، أَوْقَفَ الدَّمْعَ فِي المَآقِي، وَوَرَدَ النَّفْسَ وَقَدْ نَزَلَ فِي التَّرَاقِي، وَمَدَّ جَنَاحَ الحَنَانِ وَالرَّحْمَةِ عَلَى الذَّمَاءِ البَاقِي، فَلِلَّهِ مَوْعِظُه الصَّادِقُ، لَقَدْ دَعَا فَأَسْمَعَ، وَضَمَّ نَشْرَ الأُنْسِ وَجَمَعَ، وَرَتَقَ الفَتْقَ وَرَقَّعَ، وَالقُلُوبُ عَلَى الأَحْزَانِ مُصْفِقَةٌ مُجمِعَة تَولَّى اللهُ فَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ وَثَقَّلَ بِالأَجْرِ وَفَضْلِ التَّجْرِ مِيزَانَه، وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَحْرُسُ بِيَدِهِ ذَلِكَ البَابَ، وَالحَسَبَ اللُّبَابَ، صَرِيحَ الصَّرِيحِ مِنْ بَنِى العَلْيَاءِ، وَأَطْفَالَ الوَقَائِعِ وَكُمَاةَ الهَيْجَاءِ، وَيَبْسُطَ لِسَنَابِكِ خَيْلِهَا رَائِدَ الأَعْدَاء. بِمَنِّه، وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

رِسَالَةٌ أُخْرَى:

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الشَّفِيقُ الحَبِيبُ وَالأَخُ المُبَارَكُ النَّجِيبُ الذِي كَانَ مَخَايِلُ نَجَابَتِهِ ظَاهِرَة، وَدَلَائِلُ طَهَارَتِهِ سَافِرَة، وَشَمَائِلُ هِدَايَتِهِ وَاضِحَةٌ بَاهِرَةٌ، وَسُؤْدَدُهُ مُتيَقَّنـًا، وَذَكَاؤُهُ فِي المَهْدِ مُتَحَقَّقـًا مُتَبَيِّنًا، فَقَدْ صَحَّتْ شَوَاهِدُكَ، وَوَضَحَتْ مَقَاصِدُكَ، وَوَجَبَ قَبُولُك، وَتَعَيَّنَ عَلَيْنَا بِمَا عَايَنَّاهُ تَفْضِيلُك. وَالحَمْدُ للهِ مِنْ شَرَفِ هِمَّتِك، وَتَوَقُّرِ فِطْنَتِك، وَمَضَاءِ جِدِّكَ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَعَزْمَتِك، وَاسْتِقَامَتِكَ عَلَى الطَّرِيقَةِ المُثْلَى، وَارْتِيَاحِكَ لِلْفَضْلِ الّذِي أَنْتَ بِإِدْرَاكِهِ لَاحِقُ الأُولَى، عَلَى حِينِ زَهْرُكَ لَمْ تُفَتَّحْ كِمَامُه، وَمِسْكُكَ لَمْ يُفَضَّ عَنْهُ خِتَامُه، وَبَدْرُكَ لَمْ تَكْمُلْ لَيَالِيهِ وَأَيَّامُه، فَلِلَّهِ أَنْتَ لَقَدْ أَقْمَرْتَ هِلَالا، وَلَقَدْ خَلُصْتَ عَلَى قَدْرِ الشَّبِيبَةِ عَذْبـًا زُلَالا، حَاشَاكَ إِلَّا أَنْ يَشِفَّ عَلَى اليَاقُوتِ جَوْهَرُكَ، وَيَزِيدَ عَلَى المِسْكِ خُبْرُكَ وَمَخْبَرُكَ، فَارْبَعْ عَلَى مَكَانِك، وَزِدْنَا مِنْ إِحْسَانِك، وَاسْقِنَا صَافِيَةً مُعَتَّقَةً مِنْ دِنَانِك، وَإِيَّاكَ نُقْصَانَ فَضْلِهَا، وَإِعْجَالَهَا عَنْ تَمَامِ حَوْلِهَا، فَإِنَّ بِاسْتِكْمَالِهِ يَتِمُّ كَمَالُها، وَتَعْظُمُ جُرْأَتُهَا وَصِيَالُهَا، وَقَدْ جَمَحَ القَلَمُ هَاهُنَا بِمَا تَرَى، وَسَرَى إِلَى فَهْمِكَ وَذِهْنِكَ مِنْهُ مَا سَرَى، فَالْزَمْ مَعْنَاه، وَتَوَشَّحْ مَا اسْتَطَعْتَ بِحُسْنَاه. وَقَدْ وَفَّى كِتَابُكَ الكَرِيمُ رَافِعـًا بِذِرْوَةِ العَلَاءِ عَلَمَه، وَاضِعـًا عَلَى قِمَّةِ الجَوْزَاءِ قَدَمَه،



آخِذاً عَلَى السَّوَابِقِ مَدَاهَا، ضَامِناً لِلشُّهُبِ الأَرْضِيَّةِ رِدَاهَا، فَفَضَضْنَاهُ عَنْ أَنْفَاسِ الوَرْدِ وَالنَّد، وَاسْتَطْعَمْنَا مِنْهُ حَلَاوَةَ الوَصْلِ وَمَرَارَةَ الصَّدِّ، وَرَأَيْنَا ظَنَّكَ حَيْثُ غَارَ، وَرَجْمَكَ إِلَّا مَا أَشَارَ، فَقُلْنَا سُبْحَانَ اللهِ مَا أَبْعَدَ عَنَّا النِّسْيَانَ وَأَقْرَبَ مِنَّا التَّذْكَار.

أَبَى الحُبُّ وَالوَجْدُ المُبَرِّحُ وَالجَوَى ... وَعَهْدُ الرِّضَا فِي الذِّكْرِ إِلَّا تَمَادِيَا

لَئِنْ سَهِرَتْ لِلْبَيْنِ عَيْنُكَ لَيْلَةً ... لَقَدْ سَهِرَتْ مِنَّا عُيُونٌ لَيَالِيَا

أَبَا حَكَمٍ لَوْ كَانَ بِاليَمِّ مَا بِنَا ... لَأَصْبَحَ يَسْتَسْقِي الغَمَامَ الغَوَادِيَا

فَمَا لَكَ أَسْعَدَكَ اللهُ تَرْمِينَا بِالجَفَاء، وَقِلَّةِ الاحْتِفَاءِ، كَأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ شَوْقَنَا إِلَيْكَ، وإِشْفَاقَنَا فِي القَدِيمِ وَالحَدِيثِ عَلَيْك، وَإِنَّا لَوْ قَدِرْنَا عَلَى صِيَانَةٍ فِي الجُفُونِ لَصُنَّاك، وَأَنْ نَفْدِيَكَ مِنْ تِلْكَ الغُرْبَة بِالنُّفُوسِ لَفَدَيْنَاكَ، لكِنَّكَ وَالحَمْدُ للهِ أَنِفْتَ عَنْ مُجَانَسَةِ البَهَائِم، وَأَبَيْتَ إِلَّا حَمْلَ العُلَا وَالمَكَارِم، وَإِذْ قَدْ فَعَلْتَ فَالْبَس لِلْغُرْبَةِ لَبُوسَهَا، وَاجْرَعْ عَلَى الرُّغْمِ كُوسَها، وَاصْبِرْ عَلَى لَأْوَائِهَا، وَدَاوِ نَفْسَكَ مِنْ أَدْوَائِهَا، وَلَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا التَّنَاسِي، وَالقَلْبَ القَاسِي. وَمَا أَضْرَبْنَا عَنْ مُطَالَعَتِكَ بُخْلاً بِالكَلَام، وَلَا نِسْيَانا - وَعِيَاذاً بِاللهِ- لِوَاجِبِ الذِّمَام، وَلَكِنْ أَرَدْنَا أَنْ تُقْبِلَ عَلَى بَابِكَ وَشَانِك، وَتَشْتَغِلَ عَنْ إِخْوَانِكَ وَأَخْدَانِكَ، إِلَى أَنْ يَتَّضِحَ نَهَارُكَ، وَتُشْرِقَ شُمُوسُكَ وَأَقْمَارُك، وَتَكْمُلَ عَلَى المُرَادِ آمَالُكَ وَأَوْطَارُكَ، وَتَأْتِيَ بِحَوْلِ اللهِ مُفْعَمَ العِيَاب، مُتَمَّمَ الآدَاب، بِعَوْنِ مُبَلِّغِ الوَطَرِ مِنْ دَقَائِقِ الإِعْرَاب، وَأَمَّا لَوْ أَقْبَلْنَا عَلَى زِنَادِ الشَّوْقِ نَقْدَحُه، وَعَلَى بَابِ التَّفَكُّرِ وَالتَّفَجُّعِ نَفْتَحُه، وَعَلَى القَلْبِ الشَّجِيِّ نَصْدَعُهُ بِالتَّشَوُّقِ وَنَجْرَحُه، لَنَبَا بِكَ مِهَادُك، وَأَضَرَّ بِكَ سُهَادُك، وَقَلَّ فِي طَلَبِ العِلْمِ حِرْصُكَ وَاجْتِهَادُكَ، وَلَقَذَفَ بِكَ الشَّوْقُ فِي لُجَّةِ تَضْلِيلِهِ، وَأَعْمَاكَ عَنْ سنَنِ الهَدْيِ وَسَبِيلِهِ، فَإِيَّاكَ وَخَوَرَ الضُّعَفَاء، وَلِينِ السُّفَهَاء:

وَصَبْراً عَلَى فَقْدِ الحَبِيبِ لِرِحْلَةٍ ... كَسَتْكَ مِنَ الذِّكْرِ الجَمِيلِ وِشَاحَا

فَلَوْلَا النَّوَى لَمْ يَظْفَرِ النَّاسُ بِالمُنَى ... وَلَمْ تَبْدُ فِي أُفْقِ الذُّكَاءِ صَبَاحَا

عَلَيْكَ سَلَامُ الأَحِبَّةِ كُلِّهِم ... يُحَيِّكَ مَا نَمَّ الرِّيَاضُ وَفَاحَا



وَصُنْعُ اللهِ سُبْحَانَهُ يَتَكَفَّلُ بِوِقَايَتِكَ، وَيَمُنُّ عَلَيْنَا بِرِعَايَتِكَ وَحِمَايَتِك، وَيُوَاصِلُكَ مَبِيتًا وَمَقِيلا، وَيَكُونُ عَلَيْكَ مِنَ الحَادِثَاتِ ظِلًّا ظَلِيلاً وَسِتْراً جَمِيلاً، بِمَنِّهِ وَكَرَمِه. وَالسَّلَامُ الجَزِيلُ الحَفِيلُ المُرَدَّدُ عَلَيْكَ مِنْ إِخْوَتِكَ وَأَوْلِيَائِكَ بِقَدْرِ تَشَوُّقِهِمْ إِلَيْكَ.

رِسَالَةٌ أُخْرَى:

أَبُنَيَّ إِنْ وَافَتْ شُهُورُكَ سَبْعَةٌ ... وَمِنَ التَّغَرُّبِ أَنَّ شَهْرِيَ ثَامِنُ

وَلَئِنْ أَكُنْ أُبْدِي التَّجَلُّدَ فِي النَّوَى ... فَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّ وَجْدِيَ كَامِنُ[1]

كَتَبْتُهُ كَتَبَ اللهُ أَمَلَكُم وَهَوَاكُمْ، وَقَرَّبَ عَلَى الخَيْرِ المُعْتَادِ وَالأَمَلِ المُرْتَادِ بُعْدَكُمْ وَنَوَاكُمْ، وَجَعَلَكُمْ مِمَّنْ شَرَحَ بِالعِلْمِ صَدْرَهُ، وَرَفَعَ بِهِ لِلْعَاجِلَةِ وَالآجَالَةِ قَدْرَه، وَأَعْلَى بِهِ مِنَ المَلأ الأَعْلَى صِيتَهُ وَذِكْرَه، وَالقَلْبُ يُسَاعِدُكُمْ فِي الهَوَى، وَالعَقْلُ يُبَاعِدُكُمْ فِي اخْتِيَارِ النَّوَى؛ فَهُمَا كَمَا قَالَ الحَكِيمُ، فِي المَثَلِ القَدِيمِ: «الوَالِدُ يُكْوَى وَالأُمُّ تَبْكِي» فَالأُمُّ تَبْكِي لِحُرْقَةِ الدَّوَاء، والوَالِدُ يُكْوَى[2] خَوْفَ عُقُوبَةِ الدَّاء، فَهَذِهِ لِقُصُورِ عَقْلِهَا تَنْظُرُ فِي العَاجِل، وَهَذَا لِوُفُورِ عَقْلِهِ وَحَزْمِهِ يَنْظُرُ فِي الآجِل؛ وَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَبْكِي لِحُرْقَةِ النَّوَائِب، وَبَيْنَ مَنْ يَبْكِي لِلنَّظَرِ فِي العَوَاقِب. وَأَيُّ دَاءٍ -وَلَكُمُ العَافِيَة- أَدْوَى من الجَهَالَةِ، أَوْأَيُّ أَلَم أَعْدَى مِنَ البَطَالَة؛ فَالقَلْبُ -عَلِمَ الله- يُشْفِقُ مِنْ نُزُوحِكُمْ وَغُرْبَتِكُم، وَالعَقْلُ يَخْشَى مِنْ رُجُوعِكُمْ لِإِهْمَالِكُمْ وَغَفْلَتِكُم، فَإِنَّ المُقِيمَ لَا مَحَالَةَ سَاكِنٌ إِلَى أَهْلِهِ وَسَكَنِه، مُسْتَقِلٌّ لِمَالِهِ وَآلِهِ وَوَطَنِه؛ وَإِنَّ الغَرِيبَ مُقْبِلٌ عَلَى غَرَضِهِ وَمَقْصِدِه، وَطَالِبٌ لَمَّا يَرْجِعْ بِهِ إِلَى بَلَدِه. وَأَرْجُو بِحَمْدِ اللهِ أَنَّهُ لَمْ تَضِعْ رِحْلَتُكُم، وَلَمْ تَخِبْ غُرْبَتُكُمْ وَوَحْشَتُكُمْ؛ فَإِنَّ بَيْنَ حَالَتِكُمْ اليَوْمَ وَأَمْسِهَا كَثِير، وَجِدُّكُمْ بِعَوْنِ اللهِ خَلِيقٌ بِذَلِكَ وَجَدِير. فَاسْتَعِينُوا -وَفَّقَكُمُ الله- عَلَى طَلَبِ العِلْمِ بِتَقْوَاه، و﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3] وَرِضَاهُ، فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ وَعَدَ عَلَى ذَلِكَ بِالتَّعْلِيم،

---

(1) البيتان من الكامل.

(2) في الأصل يكوى ويبكي، والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(3) سورة آل عمران، الآية: 133.



وَهَدَى بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ إِلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيم؛ وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِل: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. وَقَدْ عَلِمْتُ صُورَةَ حَالِكُمْ عَلَى الجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيل، وَالبَيَانِ وَالتَّحْصِيل؛ فَاسْتَمِرُّوا عَلَى مَا أَنْتُمْ بِسَبِيلِه -إِنْ شَاءَ الله- إِلَى تَمَامِ العَام، وَلَا أَقَلَّ مِنَ العَام؛ فَقَدْ جَعَلَهُ أَهْلُ الأَدَبِ وَالعِلْمِ أَجَلاً فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْكَام، قَالَ الأَوَّلُ نَعُوذُ باللهِ مِنْه:

إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمُ ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ[2]

وَقَالَ آخَرُ[3]:

لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلٍ ثَوَاءٍ ثَوَيْتُهُ ... تُقَضَّى لُبَانَاتٌ، وَيَسْأَمُ سَائِمُ

وَمِثْلُهُ فِي المَعْنَى كَثِير وَجَعَلَهُ أَهْلُ الفِقْهِ أَجَلاً فِي العُهْدَةِ والعنة وَالعُذْرَة؛ وَمِثْل ذَلِكَ فَاعْمَلُوا بِحَوْلِ اللهِ بِحَسَبِه، وَتَعَلَّقُوا مِنَ العِلْمِ بِأَقْوَى سَبَبِه، وَقَدِّمُوا الأَهَمَّ فَالأَهَمَّ مِن اقْتِبَاسِهِ وَطَلَبِه، وَاشْتَغِلُوا مَعَ مُطَالَعَةِ النَّحْوِ بِدَرْسِ اللُّغَة، وَلَا تَتَّكِلُوا إِلَّا عَلَى المَحْفُوظِ مِنْهَا ظَاهِرا، وَاعْلَمُوا أَنَّ النَّحْوَ وَاللُّغَةَ رَضِيعَا لِبَان، وَبِهِمَا يَتَمَيَّزُ الإِنْسَانُ مِنْ جِنْسِ الحَيَوَان، وَهُمَا أُسُّ عُلُومِ الشَّرِيعَةِ وَالطَّبِيعَة، وَقُطْبُ المَعَارِفِ الجَلِيلَةِ الرَّفِيعَة، فَخُذُوا بِحَظِّكُمْ مِنْهُمَا، وَكُلُّ عِلْمٍ يَسْهُل -إِنْ شَاءَ اللهُ- بَعْدَهُمَا. واللهُ يُحْسِنُ عَلَى مَا أَنْتُمْ بِسَبِيلِهِ عَوْنَكُم، وَيَصِلُ فِي طَاعَتِهِ هِدَايَتَكُمْ وَصَوْنَكُمْ. وَالسَّلَامُ العَمِيمُ البَرُّ الكَرِيم.



(1) سورة البقرة، الآية: 281.

(2) البيت للبيد بن ربيعة الشاعر الجاهلي المعروف، انظر التعازي والمراثي، ص: 270 ديوانه.

(3) البيت للأعشى في ديوانه 127، الأغاني 2/ 206، وهو من الشواهد النحوية، ويروى: «تَقَضِّي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمُ سَائِمُ».



وَمِنْ رِسَالَةٍ أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ، الحَافِظُ العَلَمُ الحَافِلُ الأَكْمَل، الأَخُ في اللهِ الأَبَرُّ الأَوْصَلُ فُلَان أَطَالَ اللهُ مُدَّتَه، وَأَبْقَى لِطَالِبِ العِلْمِ عُمْدَتَه، وَحَرَسَ عَلَى الأَنَامِ وَالأَيَّامِ بَهْجَتَه؛ مُعَظِّمُ مِقْدَارِه، وَمُقَدِّمُ إِيثَارِه، وَمُلْتَزِمُ إِجْلَالِهِ وَإِكْبَارِه؛ أَخُوهُ في اللهِ «عُمَرُ بْنُ عُذْرَة»:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَبعْدَ حَمْدِ اللهِ حَقَّ حَمْدِهِ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الأَكْرَمِ وَرَسُولِه، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الدَّاعِي عَلَى بَصِيرَةٍ إِلَى سَبِيلِه، وَعَنْ خَلِيفَتِهِ المُرْتَضَى سَيِّدِنا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ المُهْتَدِي بِوَاضِحِ دَلِيلِه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الإِمَامِ الأَعْدَلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُمَشِّي أَمْرَهُم العَزِيزِ إِلَى غَايَةِ تَتْمِيمِهِ وَتَكْمِيلِه.

فَكَتَبْتُهُ مِنَ «الخَضْرَاءِ» -حَرَسَها اللهُ- وَقَدْ أَحْكَمَ اللهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَنَا بِتَنَاجِي الضَّمَائِر، وَتَلَاقِي الخَوَاطِر، من المُصَافاةِ وَالمُوَاخَاةِ مَا لَوْ كَانَتِ المُشَاهَدَةُ تُحْكِمُه، وَالمُشَافَهَةُ تَعْقِدُهُ مَعَ الأَيَّامِ وَتُبْرِمُه، لَمْ تَزِدْهُ إِحْكَاماً، وَلَمْ تُجَدِّدْ عِنْدَنَا سِوَى ذَلِكَ الذِّمَام ذِمَاماً؛ فَأَنْتُمْ -أَعَزَّكُمُ اللهُ- الوَلِيُّ الكَرِيم، وَالصَّفِيُّ الحَمِيم، الَّذِي بَرَّزَ فِي إِحْسَانِه، وَحَازَ قَصَبَ السَّبْقِ فِي سَنَنِ العَلَاءِ وَمَيْدَانِه، وَأَصْبَحَ -وَاللهُ يُبَارِكُ لَهُ وَفِيهِ- وَاحِدَ عَصْرِهِ وَزَمَانِه، فَالأَئِمَّةُ تَسْتَهْدِيهِ، وَالهِمَمُ تَتَنَافَسُ فِيهِ، وَالكُلُّ مُحْتَاجٌ لِأَخْذِ مَا أَخَذَهُ وَرِوَايَةِ مَا يَرْوِيه.

وَلَمَّا لَمْ يُمَتِّعِ الزَّمَانُ بِمُلَاقَاتِهِ، وَلاَ أَسْعَفَ بِمُنَاجَاتِه، رَأَيْتُ الخُلُوَّ مِنْ ذَلِكَ وَجْهاً قَدْ أُغْفِل، وَوَاجِباً مِنَ الوَاجِبَاتِ قَدْ أُهْمِل؛ فَرَمَيْتُ إِلَى جَلَالِهِ -صَانَهُ اللهُ وَأَبْقَاهُ- بِثَمَرَةِ الأُنْس، وَرَيْحَانَةِ النَّفْس، وَنُورِ النَّاظِر، وَرُوحِ القَلْبِ وَالخَاطِر؛ ابْنِي وَعَبْدِه -أَبِي الحَكَم- هَدَاهُ اللهُ وَأَسْعَدَه، الوَاصِلِ -عَلَى بَرَكَةِ اللهِ- إِلَيْه، المُطِلِّ بِمَحَبَّتِي وَمَوَدَّتِي عَلَيْه، المَاثِلِ فِي مَقَامِه، المُلْتَمِسِ بَرَكَةَ تَعْلِيمِهِ وَإِفْهَامِه، المُرْتَقِي إِلَى مَحَلِّ عَلَائِه، الرَّاغِبِ فِي الامْتِزَاجِ بِنُجُومِ سَمَائِه، النَّابِذِ لِوَسَنِه، المُخْتَارِ لِذَلِكَ الوَطَنِ الكَرِيمِ عَلَى وَطَنِه؛ حَسَّنَ اللهُ سِيرَتَه، وَأَكَّدَ فِي طَلَبِ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ بَصِيرَتَه؛ وَمَا سَمَحْتُ بِهِ يَا عِمَادِي طَيَّبَ اللهُ ذِكْرَكُم، وَأَعْلَى قَدْرَكُم فِي هَذا عَنْ عَزْمَةٍ هِيَ تَقَدَّمَتْ، وَلَا نِيَّةٍ فِي



نَفْسِي انْبَعَثَتْ، لِأَنَّ حَالَهُ مِنَ الغَرَارَةِ وَالغُمَارَةِ تَقْتَضِي مُلَازَمَةَ كِنِّه، وَمُدَاوَمَةَ صَوْنِه، لَكِنَّهُ أَكَّدَ الرَّغْبَةَ فِي ذلِكَ مِرَاراً، وَاسْتَظْهَرَ بِشَفَاعَةِ الأَوْلِيَاءِ اسْتِظْهَاراً؛ وَلَمَّا وَضَحَتْ مَقَاصِدُه، وَصَحَّتْ دَلَائِلُ حُبِّهِ لِذَلِكَ وَشَوَاهِدُه، لَبَّيْتُ مُنَادِيَهُ، وَأَجَبْتُ دَاعِيَ الخَيْرِ دَاعِيَه، وَاسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى -وَهُوَ المُسْتَخَارُ- عَلَى إِنْفَاذِهِ إِلَيْكُم، وَإِلْقَاءِ زِمَامِهِ فِي الكَرِيمَتَيْنِ يَدَيْكُمْ.

وَهَا هُوَ قَدْ أَمَّ دَارَكُمْ، وَاخْتَارَ عَلَى هَذَا الجِوَارِ جُوَارَكُمْ، وَسَارَ وَاللهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ يَكْنُفُهُ فِي مَسِيرِه، وَيَقْضِي لَهُ بِتَسْهِيلِ مَا يَطْلُبُ وَتَيْسِيرِه؛ وَقَدْ أَنْزَلْتُهُ بِذِمَامِكُم، وَوَضَعْتُهُ فِي يَدَيْ تَهَمُّمِكُمْ وَإِكْرَامِكُم؛ فَانْظُرُوا -أَدَامَ اللهُ عِزَّكُمْ- بِعَيْنِ مَبَرَّتِكُمْ إِلَيْه، وَاخْلَعُوا مِنْ مَحَبَّتِكُمْ مَا يَخْلَعُ وَالِدُهُ عَلَيه، وَأَبِرُّوهُ بِالإِينَاس، لِيَدِرَّ فَهْمُهُ عَلَى الإِبْسَاس[1]؛ وَابْذُلُوا لَهُ بِمِقْدَارِه، وَإِذَا اشْتَدَّ فَاسْتَوْدِعُوهُ مِنَ العِلْمِ نُكَتَ أَسْرَارِه، وَرَبُّوهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «بِصِغَارِ العِلْمِ قَبْلَ كِبَارِه» وَاسْعَوْا لَهُ يَاسَيِّدِي وَعِمَادِي خَيْرَ سِعَايَتِكُم، وَاجْرُوا مِنَ الفَضْلِ وَالبِرِّ عَلَى عَادَتِكُم، وَارْشُدُوهُ -بِحَوْلِ اللهِ- إِلَى طُرُقِ مَعَالِيكُم، وَأَقِرُّوا بِتَأْدِيبِه -إِنْ شَاءَ اللهُ- عَيْنَ مُوَاخِيكُمْ وَمُصَافِيكُم.

واللهُ -بِعِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ- يُبَلِّغُهُ وَيُبَلِّغُ فِيهِ الأَمَل، وَيُنْجِحُ لَهُ السَّعْيَ وَالعَمَل، وَيَجْعَلُ لِوَجْهِهِ وَفِي ذَاتِهِ مَا أَمَّل؛ وَهُوَ المُسْتَمْنَحُ المَرْغُوبُ إِلَيْهِ أَنْ يُبْقِيَ هَدْيَكُمْ مَأْمُولاً، وَرَعْيَكُمْ مَوْصُولاً، وَفِنَاءَكُمْ بِنُجُومِ طَالِبِي العِلْمِ مَأْهُولاً؛ وَمَا أَكَّدْتُ عَلَى جَلَالِكُمْ بِالتَّوْصِيَةِ بِهِ إِلاَّ وَعِنْدِي أَنَّ اشْتِمَالَكُمْ عَلَيْهِ يَفُوقُ اشْتِمَالِي، وَاحْتِمَالَكُمْ لَهُ يَزِيدُ وَيُرْبِي عَلَى احْتِمَالِي.

وَاللهُ يُدِيمُ بِكُمُ الإِمْتَاع، وَيُطْلِعُ مِنْهُ وَمِنْكُم مَا تَقَرُّ بِهِ العُيُونُ وَالأَسْمَاع. وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ البَرُّ العَمِيمُ عَلَى أَخِي فِي اللهِ وَمُعَظِّمِي، وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه.

---

(1) الإبساس: يقال بس بساً وأَبَسَّ بالناقة: دعاها للحلب متلطفا بها.



وَلَهُ أَيْضاً:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ العَلَمُ، السَّرِيُّ السَّنِيُّ الأَمْجَدُ الأَكْرَمُ، إِمَامُ الخُطَبَاءِ، وَتَاجُ الأُدَبَاءِ، وَسِراجُ الدَّهْرِ إِنْ أَظْلَمَ أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي الحُسَيْنِ. نَفَّسَ اللهُ فِي أَمَدِه، وَبَارَكَ فِي وَلَائِهِ وَمُعْتَقَدِه، وَلَا زَالَتْ أَزَاهِيرُ الأَدَبِ الغَضِّ تُجْتَنَى مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِه. أَخُوهُ فِي اللهِ وَمُكْبِرُه، وَمُقَدِّمُهُ فِي صَدْرِ الأَوْلِيَاءِ وَمُؤْثِرُهُ «عُمَرُ بْنُ عُذْرَة»[1]:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي انْفَرَدَ بِتَصْوِيرِه، وَاتَّحَدَ بِتَقْدِيرِهِ وَتَخْيِيرِه، وَتَعَالَى فِي حُكْمِهِ وَتَدْبِيرِه، وَالصَّلَاةِ عَلَى رَسُولِهِ الأَكْرَمِ، وَنَبِيِّهِ المَخْصُوصِ بِشَرَفِ المَقَامِ الأَعْظَمِ مُحَمَّد بَشِيرِهِ وَنَذِيرِه، وَصَفْوَتِهِ المُنْتَخَبِ لِبَثِّ حِكْمَتِهِ وَإِفْشَاءِ نُورِه، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ، مُحْيِي رَسْمِ الهُدَى عِنْدَمَا كَادَ العَمَى يَسْحَبُ عَلَيْهِ ذَيْلَ دُثُورِه، وَيُرْسِلُ عَلَيْهِ عَاصِفَ تَغْيِيرِه، وَعَنْ خَلِيفَتِهِ وَمُوَازِيهِ وَمُؤَازِرِهِ وَمُضَاهِيهِ فِي اطلاع الحَقِّ بِمَرْقَبِ تَفَشِّيهِ وَتَشْهِيرِه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الإِمَامِ الأَعْدَلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بنِ أَميرِ المؤمنينَ بِدَوامِ أَمْرِهِمُ العَزِيزِ وَظُهُورِهِ.

فَكَتَبْتُهُ كَتَبَ اللهُ لَكُمُ الحُسْنَى، وَأَنَافَ بِكُمْ عَلَى المَحَلِّ الأَرْفَعِ الأَسْنَى. «مِنَ الجَزِيرَةِ الخَضْرَاءِ» -حَرَسَها اللهُ- عَنْ وُدٍّ مُتَزَيِّد، وَذِكْرٍ لِبِرِّكُمْ وَفَضْلِكُمْ مُتَجَدِّد، وَغَرَامٍ بِمَحَاسِنِكُمْ مُتَرَدِّدٍ فِي الجَوَانِحِ مُتَوَقِّد، أَوْجَبَهُ كِتَابُكُمُ الوَارِد، وَجَوَابُكُمُ الَّذِي حَلَّ مِنِّي مَا يَحُلُّ مِنَ الظَّمْآنِ الزُّلَالُ البَارِد، بَلْ مَا يَحُلُّ مِنَ الهَيْمَانِ الحَرَّانِ الحَبِيبُ الوَافِد، لَا بَلْ مَا يَحُلُّ -إِنْ شَاءَ اللهُ- مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ القَلِقَة، وَالقُلُوبِ المُحْتَرِقَة، الغمام الوَاكِفُ الرَّاكِد؛ طَلَعَ كَمَا طَلَعَ البَدْرُ الأَتَمّ وَفَاحَ عِنْدَ الفَضِّ كَمَا فَاحَ المِسْكُ الأَنَم، فَنَظَرْنا إِلَى الحَدَائِقِ مَمْطُورَة، وَالخَمَائِلِ مَنْشُورَة، واللَّآلِئِ مَنْظُومَةً وَمَنْثُورَة، وَالحِكَمِ البَارِعَةِ جَائِلَةً فِي عِنَانِهَا، زَاهِيَةً بِإِحْسَانِهَا، مُفْتَرَّةً عَنْ مَبَاسِمِ إِتْقَانِهَا وَافْتِنَانِهَا،

---

(1) هو عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن عبد العزيز بن حسين بن عذرة الأنصاري من الجزيرة الخضراء، كان من فقهائها وقضاتها، توفي سنة 576هـ. انظر الذيل والتكملة، 5-2/ 448. التكملة، ترجمة رقم: 1826.



شَاهِدَةً لِذَلِكَ الذِّهْنِ بِذَكَائِه، وَلِذَلِكَ الحُسْنِ بِاسْتِوَائِهِ وَانْتِهَائِه، دَالَّةً عَلَى ذَلِكَ القَدْرِ بِاعْتِلَائِه، وَذلكَ البَحْرِ الغَمْرِ بِجَمَامِ مَائِه، صَادِرَةً عَنْ صَدْرٍ مُنْشَرِح، وَلُبٍّ مُشْتَعِلٍ مُنْقَدِح، وَأَدَبٍ وَافِرٍ مُمْتِعٍ مُنْفَسِح، وَقَلْبٍ مُشْتَمِلٍ على بَيَانِه، مُنْعَكِسٍ إِلَيْهِ نُورُ إِنْسَانِه، لَمْ تقلّبْهُ عَنِ الطَّاعَةِ نَظْرَة، وَلاَ شَغَلَتْهُ عَنِ الوَاجِبَاتِ خَطْرَة، فَهُوَ عَلَى الحَقِيقَةِ النَّاظِرُ المُبْصِرُ، المُعَايِنُ مِنَ الفَضْلِ العَلِيِّ وَالقَدْرِ السَّنِيِّ مَا أُضْمِرُ، الَّذِي لَمْ يُسَرَّحْ نَاظِرُه، فَيَتَقَيَّدْ خَاطِرُه، وَلَمْ يُشهدْ ظَاهِرُه، فَيَغِبْ بَاطِنُه وَسَائِرُه، بَل انْدَرَجَ فِي أَنْوارِه، وَانْدَمَجَ مِنَ العِلْمِ فِي أَسْرَارِه، وَصَارَ يُخْبِرُنَا مِنْهُ بِالغَيْب، وَيَكْشِفُ لَنا عَنِ العَيْب، وَيَأْتِي بِمَا لَيْسَ فِي القُصُورِ عَنْهُ شَكٌّ وَلَا رَيْب؛ فَأَهْلاً بِهِ -أَبْقَاهُ اللهُ- مِنْ سَائِرٍ مُبرِّز، وَوَاحِدٍ مُنْفَرِدٍ بِمَكَانِهِ مُتَحَيِّز، قُصِرَ عَن جَلَدِ الأَذْهَان، وَزَفِّ الأَبْكَارِ الحِسَان.

وَصَلَ كِتَابُهُ البَرُّ المُفَدَّى، طَيَّبَ اللهُ ذِكْرَه، وَأَعْلَى قَدْرَه، فَتَلَقَّاهُ وَلِيُّهُ وَأَخُوهُ فِي اللهِ تَعالَى مَعَ جُمْلَةٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ بِمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ القَبُولِ وَالتَّعْظِيم، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّفْخِيم، وَاسْتَوْضَحُوا مِنْ حِكَمِهِ البَاهِرَة، وَأَمْثَالِهِ السَّائِرَة، ما أَطَالَ النَّظَر، وَأَنْسَى النَّاظِرَ فِي الزَّهْرِ الزَّهَر، وَمَلَأَ القُلوبَ بِالوِدَاد، وَقَصَرَ الأَلْسُنَ عَنِ الانْبِسَاطِ عَلَيْكُمْ وَالامْتِدَاد، وَأَغْرَى الأَنْفُسَ بِالاسْتِكْثَارِ مِنْكُمْ وَالازْدِيَاد، وَلَقَدْ حَسَدَ المُقِيمُ الرَّاحِل، وَالقَاطِنُ الظَّاعِن، حَتَّى لَقَدْ خِفْتُ مِنْ سَرَيَانِ الأَرْيَحِيَّةِ تَشَتُّتَ الأَهْواء، وَهَجْرَ هَذِه البَلْدَةِ الخَضْرَاء. وَبِحَقٍّ -أَعَزَّكُمُ اللهُ- فَإِنَّ اتِّسَاعَكُمْ لَمْ يَتْرُكْ لِمُجْرٍ فِي الحُسْنِ مَجَالاً، وَلَا غَادَرَ لِمُتَيَقِّنٍ فِي البَلاَغَةِ رَوِيَّةً وَلَا ارْتِجَالاً، وَقَدْ أَحْرَزْتُمُ الغَايَة، وَأَدْرَكْتُمُ النِّهَايَة، وَأَطْلَعْتُمْ فِي الآيَةِ الآيَة. وَاللهُ يَحْرُسُ جَلَالَكُمْ وَيَصُونُ مَجْدَكُمْ وَكَمَالَكُم.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ وُصُولِ وَلَدِكُم وَعَبْدِكُمْ أَبِي الحَكَمِ -هَدَاهُ اللهُ- إِلَى مَحَلِّكُمُ الأَرْفَع، وَجُوَارِكُمُ الأَمْنَع، وَالْتِفَاتِكُمْ إِلَيْه، وَإِقْبَالِكُمْ بِفَضْلِكُمْ وَطَوْلِكُمْ عَلَيْه، فَذَلِكَ الظَّنُّ بِأَخْلَاقِكُمْ، وَالمَرْجُوُّ مِنْ شَرَفِ أَعْرَاقِكُم، وَما تُقَصِّرُونَ بِهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- عَنْ دَرَجَةٍ رَفِيعَةٍ مِنَ العِلْمِ تَرْفَعُونَهُ إِلَى عَالِيَتِهَا، وَحُرَّةٍ بِكْرٍ مِنَ المَعَانِي وَالمَعَارِفِ تُمَكِّنُونَهُ مِنْ نَاصِيَتِها. وَمُنْذُ اعْتَلَقَ بِأَيْمانِكُم، وَاسْتَنَدَ إِلَى إِيمَانِكُم، وَاسْتَفْتَحَ بَابَكُم، وَاسْتَسْقَى



غمامَكُمُ المُغْدِقَ وَسَحابَكُم، فَانْتِفَاعُهُ مَأْمُولٌ، وَتَرَى ذِهْنِهِ وَفَهْمِهِ مَطْلُولٌ، وَالسَّبَبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَعَارِفِ -بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ- مَوْصُولٌ؛ أَرْهَفَ اللهُ شَباه، وَتَكَفَّلَ بِهُداه، وَلَا أَسْلَمَهُ فِي يَدَيْ هَوَاه. وَأَنْتُمْ أَدامَ اللهُ عِزَّكُم فِيهِ رَبُّ النِّعْمَةِ يُولِيها، وَالمِنَّةِ يُهْدِيهَا، وَاليَدِ البَيْضاءِ يَمْنَحُها وَيُسْدِيها؛ صَنَعَ اللهُ لَكُمْ أَجْمَلَ الصُّنْعِ وَأَسْناه، وَأَتَمَّهُ وَأَبْهاه؛ وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ البَرُّ العَمِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَاتِبُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَرَ بْنِ عُذْرَة[1]، يَخُصُّ حَضْرَتَكُمُ الكَرِيمَةَ وَنُجُومَها بِأَتَمِّ سَلَامِه، وَأَطْيَبِ ثَنَائِه؛ وَيُخْبِرُها عَنْ صَدْرٍ عَلَى حُبِّها مُنْطَبِق، وَدَمْعٍ عَلى الخُلُوِّ مِنْهَا مُطَّرِدٍ مُسْتَبِق، وَشَوْقٍ إِلَى رُؤْيَتِها مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ بِجَمْرَتِهِ مُحْتَرِق؛ أَسْعَدَهُ اللهُ بِلِقَائِها، وَرَشَّ عَلى حَرِّها مِنْ أَنْوَارِهَا. وَالسَّلَامُ الطَّيِّبُ المُعَادُ عَلَيْها وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَلَهُ أَيْضاً:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ، الحَافِظُ الحَافِلُ الأَكْمَلُ، الوَلِيُّ الأَبَرُّ الأَكْرَمُ الأَوْصَلُ. أَبُو زَيْدٍ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ أَبِي الحَسَن. أَخِي فِي اللهِ وَمُعَظِّمِي. أَمْتَعَ اللهُ بِنَفَاسَتِه، وَتَكَفَّلَ بِوِقَايَتِهِ وَحِرَاسَتِه، وَجَعَلَ أَنْفَاسَ الأَيَّامِ تَنْقَطِعُ دُونَ نِهَايَتِه. وَلِيُّهُ وَمُصَافِيه، الكَلِفُ بِمَنَاقِبِهِ الحَالِيَةِ وَمَعَالِيه. «عُمَرُ بْنُ عُذْرَةَ»:

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبرَكَاتُه؛ وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَالصَّلاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُوم، المُنْقِذِ مِنْ أَعْمَالِ الجَهْلِ وَتَضْلِيلِه، وَعَن خَلِيفَتِهِ وَصَاحِبِهِ الإِمَامِ العَدْلِ مُوَضِحِ أَثَرِهِ وَسَالِكِ سَبِيلِه، وَالدُّعاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِسَنِيِّ الصُّنْعِ وَجَمِيلِه، وَعَلِيِّ الفَتْحِ وَكَفِيلِه.

(1) هو عبد الرحمن بن عمر بن عذرة الأنصاري من الجزيرة الخضراء كان خطيبا مفوها نبيها ذكيا توفي سنة 606هـ. انظر: تحفة القادم، ص: 146، التكملة، ترجمة رقم: 1631.



فَكَتَبْتُهُ مِنَ الخَضْراءِ -حَرَسَها اللهُ- عَنِ العَهْدِ الكَرِيم، وَالعَقْدِ وَالتَّسْلِيم، وَالشُّكْرِ لِبِرِّكُمُ الحَفِيلِ العَمِيم، وَالرَّسْمِ الثَّابِتِ لَكُمْ مِنَ التَّبْجِيلِ وَالتَّعْظِيم، بَعْدَ وُصُولِ كِتَابِكُمُ الأَثِير، وَوُقُوفِي مِنْهُ عَلى مَا أَثَّرَ بِجَنْبِ إِشْفاقِي كُلَّ التَّأْثِير:

وَلَـدَيَّ مِـنْ شَكْوٍ أَلَـمَّ بِمَجْدِكُمْ ... أَلَـمٌ يُقَطِّـعُ زَفْرَتِـي تَقْطِيعَـا

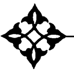
يُخْفِي لِمُجْتَمَعِ الحَشَى مِنْ حَرِّهِ ... قَيْظـاً، وَيُبْـدِي في الجُفُـونِ رَبِيعَـا

عَمْرِي لَقَدْ أَظْلَمَ لِوَصَبِك نَهارِي، وَتَكَدَّرَ صَفْوُ أَمَالِي وَأَوْطَارِي، فَلَا أَعْدَمَكَ الزَّمَان، وَلاَ اشْتَكَى مِثْلُكَ مِنَ الجِلَّةِ الأَعْيَان، وَأَهَبَّ اللهُ عَلَيْكَ نَسِيمَ الرَّاحَة، وَعَمَرَ بِطُولِ بَقائِكَ وَبَاهِرِ أَضْوَائِكَ جَمَالَ السَّاحَة، وَصَرَفَ إِلَيْكَ وَجْهَ الصِّحةِ قَسِيماً، وَعَقَدَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ العَافِيَةِ عَقْداً كَرِيماً.

تَصَفَّحْتُ - أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ- كِتَابَكَ الكَرِيم إِلَى آخِرِه، وَأَتَيْتُ عَلَى جُمْلَةِ بَدَائِعِهِ وَنَوادِرِه. فَرَأَيْتُ الفَضْلَ مَنْصُوصاً، وَالسُّؤْدَدَ مَنْظُوماً بِجَلَالِكَ مَخْصُوصاً، وَوَقَفْتُ عَلى إِجَازَتِكَ المَنْصُوصَةِ[1] لابْنِكَ وَعَبْدِكَ أَبِي الحَكَمِ -هَدَاهُ اللهُ- عَلى الجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيل، وَتَشْرِيفِكَ لَهُ بِذَلِكَ القَدْرِ النَّبِيهِ الجَلِيل، فَشَكَرْتُ اللهَ عَلى إِسْعَادِهِ بِلِقَائِك، وَإِمْتَاعِهِ بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِنْ مُشَافَهَةِ عَلْيَائِك، وَسَأَلْتُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَفْسَحَ لَهُ في حَيَاتِك، وَيَنْفَعَهُ بِآيَاتِك، وَيَجْعَلَهُ مِنَ الفَائِزِينَ بِعِنَايَتِك وَكَرَامَتِك، ثُمَّ عَطَفْتُ عَلَيْهِ -أَرْشَدَهُ اللهُ- سَائِلاً عَنْ حَالِه، وَمُسْتَفْهِماً عَمَّا لَقِيَ في حَلِّهِ وَتَرْحَالِه، فَقَدَّمَ الحَدِيثَ عَنْكُمْ أَوَّلا، وَأَتَى بِه مُفَصَّلاً وَمُجْمَلاً، وَأَوْرَدَ عَلَى مَسَامِعِ القَبُولِ، مِنْ ذَلِكَ البِرِّ المَبْذُولِ، مَا خَفَّ سَمَاعاً وَثَقُلَ مَحْمَلاً، فَقُلْتُ لَهُ -هَدَاكَ اللهُ- مَا تَجاوَزْتَ في الإِخْبَار، وَلاَ أَثْنَيْتَ إِلَّا عَلَى شَمْسِ النَّهَار، ذَلِكَ المَعْلُومُ مِنْ جَلَالِهِ، وَالمَشْهُورُ مِنْ كَرَمِ خِلَالِهِ:

وَهَـلْ يَمْلِـكُ المِسْكُ الفَتِيـقُ لِنَاشِـقٍ ... سِـوَى نَفْحَـةٍ مَوْجُـودَةٍ في طِبَاعِـهِ

(1) بالأصل «المنهوصة» وهي كلمة غير واضحة المعنى.



أَقَرَّ اللهُ -يَا أَخِي- بِكَ عَيْنَ المَجْدِ وَالذَّكَاء، وَوَقَاكَ سِهَامَ الأَرْزَاء، وَأَبْقَاكَ مَمْدُودَ رِوَاقِ السَّنَاء، مَطْلُولَ الأَرْجَاءِ بِالنَّعْمَاء. فَقَدْ أَقْرَرْتَ عَيْنا، وَأَوْلَيْتَ بِتَدْرِيبِ وَلَدِكَ فَضْلاً جَزِيلاً وَمَنّاً؛ وَقَدِ اسْتَصْفَى بِرُّكَ لَهُ وِدَادَه، وَاسْتَخْلَصَ لِمَحَبَّتِكَ وَأَلْفَتِكَ خَاطِرَهُ وَفُؤَادَه؛ وَبِحُكْمِ ذَلِكَ مَا كَادَ أَنْ يَكْحلَ العَيْنَ بِمَرْآه، وَلَا يَشْفِي النَّفْسَ مِنْ أَلَمِ نَوَاه، حَتَّى اشْتَدَّ رِكَاباً، وَأَجْمَعَ عَلى المُقَامِ عِنْدَكَ إِرَادَةً وَاسْتِحْبَاباً؛ وَقَدْ جَاذَبْنَاهُ المُقَامَ -طَرْفَةَ عَيْنٍ- فَأَبَى، وَاسْتَدْعَيْنَاهُ الثَّوَاءَ- وَمْضَةَ بَرْقٍ- فَشَرَدَ وَنَبَا؛ فَآثَرْنَا هَوَاه، وَغَلَّبْنَا فِي الحُكْمِ مُنَاه، وَأَلْقَيْنَاهُ -بِأَمَانَةِ اللهِ- فِي كَنَفِ ذَلِكَ النُّهَى وَحِمَاه. وَجَلَالُكُمْ صَانَهُ اللهُ وَأَبْقَاهُ يَرْعَى لَهُ ذِمَامَ الانْقِطَاعِ وَالانْتِدَاب، وَيُؤْنِسُهُ فِي وَحْشَةِ الاغْتِرَاب، وَيَقْطَعُه جَانِباً مِنْ دُعَائِهِ النَّافِعِ المُجَاب، بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ. صَنَعَ اللهُ لِأَخِي وَيَدِي أَفْضَلَ الصُّنْعِ وَأَسْنَاه، وَبَلَّغَهُ فِي الدَّارَيْنِ غَايَةَ مَا يَتَمَنَّاه، وَأَوْجَبَ لَهُ وَلَنَا -بِرَحْمَتِهِ- زُلْفَاه؛ وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ الأَوْفَى، المُعَادُ المَوْصُولُ المُسْتَوْفَى، عَلَيْهِ وَعَلَى كَافَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَلَهُ:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ: الحَافِظُ العَالِمُ الأَكْمَلُ، أَبُو زَيْدٍ عَبْد الرَّحمنِ بْن أَبِي الحَسَنِ شَيْخُنَا وَمُعَظَّمُنا. وَصَلَ اللهُ عِزَّتَهُ وَعَلَاءَه، وَشَكَرَ بِرَّهُ وَتَهَمُّمَهُ وَثَنَاءَه. المُسْتَشْفِيَانِ بِنَسِيمِ أَنْجَادِه، المُسْتَسْقِيَانِ صَوْبَ عِهَادِه، المُنْقَادَانِ فِي أَزِمَّةِ حُبِّهِ وَوِدَادِه، عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَمُحَمَّدٌ ابْنَا عُذْرَة؛ سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه:

حَرَسَ الرَّحْمَنُ أَلْسِنَةً ... بِجَمِيلِ القَوْلِ قد نَطَقُوا
أَنْكَرُوا شَنْعَاءَ من كَذِبٍ ... لَيْسَ فِي ظَلْمَائِهَا فَلَقُ
وانْبَرَوْا لِلدَّفْعِ عَنْ قَمَرٍ ... فِي سَمَاءِ المَجْدِ يَأْتَلِقُ
كُلَّمَا ضَاءَتْ مَشَارِقُهُ ... قَلِقَ الحُسَّادُ أَوْ شَرِقُوا
أَنْفُ مَنْ أَجْرَى لِيَسْبِقَهُ ... بِرُغَامِ العَجْزِ مُلْتَصِقُ
يَا إِمَامَ الوَقْتِ مِثْلُكُمُ ... نَمَّ مِنْهُ ذَلِكَ العَبَقُ



غَضِبَتْ عَلْيَاؤُكُمْ لِفَتىً ... نَالَ مِنْهُ الكَاشِحُ الحَنِقُ
فَرَمَيْتُمْ عَيْنَ حَاسِدِهِ ... بِالَّتِي تُزْوَى لَهَا الحُرَقُ
وَفَضَحْتُمْ زُورَ مُؤْتَفِكٍ ... لِمَعَانِي الذَّمِّ يَخْتَلِقُ
وَرَفَعْتُمْ ذِكْرَ ذِي هِمَمٍ ... أَنْهَضَتْهُ النَّفْسُ وَالخُلُقُ
عَانَقَتْكم كُلُّ مَنْزِلَةٍ ... لَمْ تَزَلْ لِلسَّعْدِ تَعْتَنِقُ
وَأَنَامَتْ عَنْكُم زَمَناً ... بَاتَ فِي أَجْفَانِهِ الأَرَقُ

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّها الفَقِيهُ الأُسْتاذُ الإِمَام، وَالعَلَمُ الفَرْدُ الَّذِي بَذَّ الأَعْلاَم. فَإِنَّا نَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكُمْ حَقَّ حَمْدِه، وَنُصَلِّي عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ وَعَبْدِه، وَنَسْتَوْهِبُهُ الرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِّ وَعَنْ خَلِيفَتِهِ القَائِمِ بِالأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنْ يَمُدَّ سَيِّدنا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ ابْن أَمِير المُؤْمِنِينَ بِتَأْيِيدٍ وَنَصْرٍ مِنْ عِنْده. وَنَسْأَلُهُ تَعالَى وَجَلَّ أَنْ يَسْقِيَ حَضْرَتَكُمُ العَالِيَةَ مِنْ غُرِّ دِيَمِه، وَمَثَابَتَكُمُ الحَالِيَةَ مِنْ سُبُلِ فَضْلِهِ وَكَرَمِه. فَإِنَّها حَضْرَةُ العُلُوم، وَمَقَرُّ السُّؤْدَدِ المَعْلُوم، وَمَشْرَعُ البِرِّ وَوَادِيه، وَمُجْتَمَعُ الفَضْلِ وَنَادِيه، وَزَهْرَةُ الأَدَبِ وَرَوْضَتُه، وَغَدِيرُهُ وَأَيْكَتُه، حَرَسَ اللهُ مَكَانَها، وَنَصَرَ لِلآمِلِينَ أَفْنَانَها، وَأَوْدَعَ القُلُوبَ حِكْمَتَها وَإِيمَانَها.

وَخَطَطْنَاهُ[1] -أَدَامَ اللهُ عِزَّكُمْ- مِنَ «الخَضْراءِ» -حَرَسَها اللهُ- عَنْ أَلْسِنَةٍ مُفْصِحَةٍ بِحَمْدِكُم، وَصُدُورٍ مُنْطَبِقَةٍ عَلَى وُدِّكُم، وَنُفُوس مُشْرَبَةٍ عَلاَقَةَ فَخْرِكُمْ وَمَجْدِكُم؛ عَظِيمٌ أَمَلِهَا أَنْ تَدْنُوَ قَلِيلًا، وَتَرِدَ مِنكُم عَيْناً سَلْسَبِيلاً[2]، وَتَأْخُذَ عَنْكُمْ فُرُوعاً وَأُصُولاً، وَتُنَشِّطَ بِكُمْ مِنْ عِقَالِ الغَفْلَةِ خَاطِراً لَمْ يَزَلْ مَعْقُولاً؛ وَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ يُنْهِجُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، وَيَشْفِي بِلِقَائِكُمْ مِنْ بَرْحَائِهِ عَلِيلًا.

---

(1) في الأصل: وحططناه، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(2) سورة الإنسان، الآية: 18.



وَإِلَى هَذا -دَامَ سَعْدُكُمْ- فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمُ الأَثِيرُ الكَرِيم، كَمَا هَبَّ النَّسِيم، وَطَلَعَ عَلى المَشْغُوفِ وَجْهٌ قَسِيم، فَأَحْلَلْنَاهُ بِمَحَلِّ التَّكْرِيم، وَتَلَقَّيْنَاهُ بِمَا يَجِبُ لَهُ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالتَّعْظِيم، وَنَظَرْنَا إِلَى أَلْفَاظِكُمْ الغُرِّ، وَأَغْرَاضِكُمْ الَّتِي لَا تُعْدَلُ بِنَفِيسِ الدُّرِّ، وَمَا حَمَلَتْكُمْ عَلَيْهِ الهِمَّةُ العَالِيَةُ وَالأَنَفَةُ الحَامِيَةُ مِنَ التَّشَيُّعِ وَالانْتِصَارِ، وَالأَخْذِ لِعَبْدِكَ وَمَحَلِّ ابْنِكَ أَبِي الحَكَمِ -وَفَّقَهُ اللهُ- مِنْ عَدُوِّهِ بِالثَّارِ، وَمَا خَلَعْتُمْ عَلَى عِرْضِهِ مِنَ الحَلْيِ وَالحُلَلِ، وَأَشْرَعْتُمْ نَحْوَ مُنَغِّمِهِ مِنْ أَلْفَاظٍ قَامَتْ مَقَامَ البِيضِ وَالأَسَل. فَرَأَيْنَا مَا قَرَّتْ بِهِ النَّفْسُ وَالعَيْنُ، وَتَمَيَّزَ بِهِ الصِّدْقُ مِنَ المَيْن، وَلَاحَ بِهِ ذَكَاءُ ذَلِكَ الجَانِبِ لِذِي عَيْنَيْنِ، وَشَكَرْنَا -عَلِمَ اللهُ- تِلْكَ الأَنْفَاس، وَلَثَمْنَا فِي تِلْكَ الأَنْقَاس[1] وَقُلْنَا سُبْحَانَ اللهِ كَأَنَّهَا نَطَقَتْ بِاللِّسَانِ، أَوْ عَلِمَتْ بِمَا فِي الجِنَان. فَبَارَكَ اللهُ فِيكُمْ مِنْ عَالِمٍ عَلَم، وَفَاضِلٍ وَقَفَ وُقُوفَ الثَّنَاءِ وَالمَدْحِ عَلَى قَدَم، وَتَرَكَ الحَاسِدَ الكَاشِحَ يَعَضُّ بَنَانَهُ مِنْ نَدَمٍ[2]. أَسْكَتَ اللهُ نَأْمَتَهُ، وَاسْتَأْمَلَ شَأْفَتَهُ، أَرَادَ أَنْ يَطْمِسَ فَجَلَّى، وَيَهْدِمَ فَبَنَى وَأَعْلَى، وَيَبْخَسَ الجَوَاهِرَ فِي أَثْمَانِهَا، فَزَادَ -عَلَى رَغْمِهِ- وَأَغْلَى، بِفِيهِ الإِثْلِبُ[3] مَا ضَرَّ نَبْحُهُ، وَلَا أَثَّرَ -بِحَمْدِ اللهِ- جُرْحُهُ، وَقَوْلُهُ مَرْدُودٌ عَلَيْه، وَإِفْكُهُ مَصْرُوفٌ إِلَيْه.

وَأَمَّا إِشَارَةُ الأُسْتَاذِ عِمَادِنَا -أَبْقَاهُ اللهُ- كَيْفَ تَمَكَّنَ مِنَّا حَتَّى تَقَرَّرَتْ عِنْدَنَا تِلْكَ الأَفِيكَة، فَيَعْلَمُ اللهُ أَنَّ الأَسْمَاعَ التِي سَمِعَتْهَا مَا قَبِلَتْهَا، وَأَنَّ الطِّبَاعَ التِي أُشْرِبَتْهَا قَذَفَتْهَا فِي الحِينِ وَمَجَّتْهَا. وَصِنْوُنَا -صَانَهُ اللهُ- أَرْجَحُ مِنْ ذَلِكَ عَقْلاً، وَأَوْفَى فَضْلاً، وَأَشَفُّ جَوْهَرًا، وَأَعْلَى فِي سَاحَةِ التَّنَزُّهِ وَالعَفَافِ مِنْبَرًا، وَمَا خُوطِبَ عَنَّا فِي ذَلِكَ إِلاَّ لِيَفْتَضِحَ هَذَا الكَاذِب، وَيَتَّضِحَ بَرْءُ ذَلِكَ الجَانِب، فَقَدْ كَانَ -وَالحَمْدُ للهِ- وَلِيَّ الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ، وَالأُسْتَاذُ المُعَظَّمُ -شَرَّفَ اللهُ ذِكْرَهُ- مَشْكُور لَهُ المَقَام، مَحْمُودٌ لَهُ الانْتِصَارُ لِوَلِيِّهِ وَالانْتِقَامُ، مَذْكُورٌ لِكُلِّ صَالِحَةٍ مَا بَقِيَتِ الأَيَّامُ. وَرَغْبَةُ مُجِلِّهِ وَمُحِبِّهِ

---

(1) الأنقاس: جمع «نقس» وهو المداد الذي يخط به الكتاب.

(2) مقتبس من قول الشاعر:

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ ... إِذَا تَذَكَّرْتَ يَوْماً بَعْضَ أَخْلَاقِي

(3) الإثلب: التراب والحجارة. ويقال: «بفيه الإثلب». انظر: اللسان.



«عَبْدِ الرَّحْمَنِ» إِلَى سَابِقِ عِلْمِهِ، وَسَائِقِ فَهْمِهِ، فِي إِجَازَةٍ يُقَلِّدُهُ دُرَّهَا وَيَخْلَعُ عَلَيْهِ شَرَفَهَا وَفَضْلَهَا، وَيَمْلِكُ بِذِكْرِهَا نَجْدَ الأَرْضِ وَغَوْرَهَا، وَهُوَ يَرْجُو -بِفَضْلِ اللهِ- أَنْ يَكُونَ عَلَى الغَيْبِ أَبَرَّ شَاهِد، وَأَنْ يَأْتِيَ عَلَى ذَلِكَ الحَوْضِ أَوْلَى وَارِد. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مَنْ بَهَرَ بِالحُجَجِ القَوَاطِعِ، وَصَدَعَ القُلُوبَ بِالبَيَانِ الصَّادِعِ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْلَى مِنْ سَامِعٍ»[1]. فَلْيَمُنَّ الأُسْتَاذُ -وَفَّقَهُ اللهُ- بِإِسْعَافِي، وَلْيَعْلَم قَدْرَ تَشَوُّفِي وَاسْتِشْرَافِي، وَلْيَجْرِ عَلَى عَادَتِهِ فِي الوَفَاءِ فَإِنَّهُ الرَّاجِحُ الوَافِي. وَأُهْدِيهِ مِنَ السَّلَامِ أَلْطَفَهُ سِرًّا وَأَفْرَحَهُ نَشْراً وَأَحْسَنَهُ تَأَلُّقاً وَبِشْراً، وَالسَّلَامُ الكَرِيمُ يَعُودُ عَلَيْهِ وَعَلَى حَضْرَتِهِ، وَرَحْمَةُ اللهِ.

أُخْرَى:

الشُّيُوخُ الفُقَهَاءُ الجِلَّةُ الأَوْلِيَاءُ البَرَرَةُ الأَصْفِيَاءُ، أَبُو فُلَانٍ وَأَبُو فُلَانٍ وَأَبُو فُلَانٍ. بَنُو أَبِي العَبَّاسِ[2] جَبَرَ اللهُ مُصَابَهُمْ وَخَتَمَ بِهِ أَوْصَابَهُمْ. مُلْتَزِمُ بِرِّهِمْ وَإِجْلَالِهِمْ، وَمُسَاهِمُهُمْ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِمْ -عُمَرُ بْنُ عُذْرَةَ-.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى المَكْرُوهِ سِوَاه، وَلَا يُشْكَرُ عِنْدَ نُزُولِ الفَجَائِعِ إِلَّا إِيَّاه، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ وَمُجْتَبَاه، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الَّذِي هَدَى بِهِ وَهَدَاه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَارِثِ عِلْمِهِ وَحِلْمِهِ وَنُهَاه، وَلِلإِمَامِ الأَجَلِّ المَلِكِ الأَعْدَلِ الأَكْمَلِ «أَبِي يَعْقُوب»[3] حَامِلِ رَايَةِ المَجْدِ وَعُلَاه.

فَكَتَبْتُهُ مِنْ «سَبْتَة» -حَرَسَهَا اللهُ- وَالنَّوْمُ -عَلِمَ اللهُ- غِرَار، وَالقُلُوبُ أَعْشَار، وَالأَنْوَارُ كُلُّهَا فِي العُيُونِ ظُلَمٌ وَأَكْدَار، أَسَفاً عَلَى مَا جَاءَ بِهِ القَدَرُ السَّابِق، وَالقَضَاءُ اللَّاحِق، مِنْ وَفَاةِ الشَّيْخِ الحَافِظِ الكَاتِبِ الأَجَلِّ الأَوْحَدِ الأَمْجَدِ الأَكْمَلِ، عَلَمِ

---

(1) حديث نبوي شريف.
(2) يعني ببني أبي العباس أبناء أحمد بن عذرة.
(3) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن وقد سبق التعريف به.



الأَعْلَام، وَسِرَاجِ الأَيَّام، وَتَاجِ الكَمَالِ وَالتَّمَامِ، أَبِي مُحَمَّدٍ أَخِيكُمْ وَأَبِيكُمْ، وَوَلِيِّي وَأَخِي وَصَفِيِّي وَنَجِيِّي كَانَ، بَرَّدَ الله ثَرَاه، وَقَدَّسَ مَثْوَاه، وَجَعَلَ الجَنَّةَ مَآلَهُ وَمُنْتَهَاه.

فَيَالَهُ مُصَابٌ تَرَكَ القُلُوبَ مَفْطُورَة، وَالآذَانَ مَوْقُورَة[1]، وَالنُّفُوسَ هَامِدَة، وَالعُقُولَ ذَاهِلَةً خَامِدَة، فَعَلَى مِثْلِهِ تَبْكِي المَجَالِسُ وَالمَحَاضِرُ، وَتَنْدُبُ المَحَافِلُ وَالمَنَابِرُ، وَتَرْثِي الدَّفَاتِرُ وَالمَحَابِرُ، وَتَنُوحُ المَآثِرُ وَالمَفَاخِر، فَلَقَدْ أَصْبَحَتْ آثَارُهَا بَعْدَهُ دَارِسَة، وَأَعْلَامُهَا طَامِسَة، وَأَيَّامُهَا مِنْ خَلَفِ مِثْلِهِ يَائِسَة، وَبُطُونُ الثَّرَى فِي ضَمِّهِ وَشَمِّهِ -كَمَا حَكَمَ الله- مُتَنَافِسَة، وَعِنْدَ الله تَعَالَى نَحْتَسِبُهُ مِنْ وَلِيٍّ كَرِيم، وَصَفِيٍّ حَمِيم، وَحَبِيبٍ -فَارَقَنَا- غَيْرَ مَلُوم وَلَا مُلِيم. وَأَنَا أَقُولُ عَلَى خَلَاءِ الفَضَائِلِ وَالمَكَارِمِ مِنْ مَكَانِه، وَعَرَاءِ المَعَارِفِ وَالآدَابِ مِنْ مَحَاسِنِهِ وَإِحْسَانِه، «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون» ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2]. وَمِثْلُكُمْ -يَا أَوْلِيَاءَنَا وَآبَاءَنَا- صَبَرَ عَلَى لَوْعَةِ الحَمِيم، وَرَجَعَ إِلَى التَّفْوِيضِ وَالتَّسْلِيم، وَلَقِيَ الله فِي حُسْنِ العَزَاءِ فِيهِ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]. أَقُولُ هَذَا وَالصَّبْرُ -عَلِمَ الله- مَعْدُوم، وَالجَزَعُ مَعْلُوم، وَالتَّجَلُّدُ خَلْفَ شَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ مَفْهُوم. فَلَقَدْ كُنْتُ أُكَاثِرُ بِهِ أَوْلِيَائِي، وَأُفَاخِرُ بِهِ أَصْفِيَائِي، وَأُعِدُّهُ لِنَفْسِي وَزَمَنِي وَأَبْنَائِي.

والله -بِعِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ- يُحْسِنُ فِيهِ عَزَاءَنَا وَعَزَاءَكُمْ، وَيَخْتِمُ بِهَذَا الرُّزْءِ الشَّامِلِ أَرْزَاءَنَا وَأَرْزَاءَكُمْ، وَيَجْعَلُ فِيهِ الأَجْرَ الجَزِيلَ، وَالثَّوَابَ الحَفِيلَ، جَزَاءَنَا وَجَزَاءَكُمْ، وَعِنْدِي مِنَ التَّطَلُّعِ لِحَالِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَتَعَرُّفِ حُسْنِ عَزَائِكُمْ وَصَبْرِكُمْ عَلَى فَقْدِهِ، مَا يَكُونُ عِنْدَ مَنْ فَقَدَ وَاسِطَةَ عِقْدِهِ[4]، وَسَاهَمَكُمْ بِالحَظِّ الأَوْفَرِ فِي مُصَابِهِ وَحُزْنِهِ وَوَجْدِهِ. وَالسَّلَامُ العَمِيمُ المُعَادُ الكَرِيمُ عَلَى جَمِيعِكُمْ، وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُه.

---

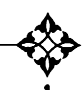
(1) موقورة: أي فيها وقر بحيث لا تسمع وقد ذكر القرآن الكريم ذلك حيث قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾. سورة فصلت، الآية:4.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 35.

(3) سورة الشعراء، الآية: 89.

(4) فيه نظر إلى قول ابن الرومي:

تَوَخَّى حِمَامُ المَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي ... فَلِلَّهِ كَيْفَ اخْتَار وَاسِطَةَ العِقْدِ



أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ الأَوْرَعُ الأَذْكَى الأَفْضَلُ الوَلِيُّ الأَخْلَصُ الأَوْصَلُ «أَبُو القَاسِمِ ابْن أَبِي الحَسَن» أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُ، وَفَسَحَ مُدَّتَهُ، مُوثِرُهُ المُخْلِصُ لَهُ المُحِبُّ فِيهِ فُلاَنٌ.

سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ، وَبَعْدَ حَمْدِ الله تَعَالَى حَقَّ حَمْدِهِ وَالصَّلاَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَعَبْدِهِ، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُوم المَهْدِيِّ المَعْلُوم مِنْ بَعْدِهِ، وَعَنْ خَلِيفَتِهِ الأَكْرَمِ وَلِيِّ عَهْدِهِ، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ العَمِيمِ مِنْ عِنْدِهِ.

فَكَتَبَهُ مُوثِرُكُمْ وَالبَرُّ بِكُمْ، عَنِ العَهْدِ الَّذِي لَا يَذْبُلُ نَاضِرُه، وَلَا يَغْمُضُ عَنْ حِفْظِ الوِدَادِ نَاظِرُه. وَإِنَّهُ كَانَ وَصَلَ كِتَابُكُم الكَرِيم، مُعْرِبًا عَنْ خُلُوصِكُم الَّذِي لَا يَبْرَحُ وَلَا يَرِيم، وَأَصْحَبْتُمْ مَعَهُ مِنَ الدُّرِّ النَّظِيم، مَا تَلَقَّيْتُهُ بِيَدِ التَّرْفِيعِ وَالتَّعْظِيم، وَصَرَفْتُهُ بَيْنَ النَّاظِرِ وَالفُؤَادِ، فَتَارَةً فِي السُّوَيْدَاءِ وَتَارَةً فِي السَّوَادِ، وَلَا نَكِيرَ فِي جُودِ البَحْرِ بِالدُّرَرِ، وَالغَمَامِ بِوَاكِنِ الدُّرَرِ، وَالرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ بِالنَّفِيسِ العَطِيرِ، وَالأَخ المُخْلِصِ بِالعِلْقِ الخَطِير. والله تَعَالَى يُبْقِيكُمْ لإِخَاءٍ تَرْفَعُونَ عُمَدَهُ وَتَصِلُونَ فِي ذَاتِ اللهِ أَمَدَهُ. وَحَالُ وَلِيِّكُمْ الوَادُّ لَكُمْ أَنْ ذَهَبْتُمْ إِلَى مَعْرِفَتِهَا، عَلَى مَا يُسِرُّ مِن اتِّصَالِ العَافِيَة، وَالنِّعْمَةِ الكَافِيَة، وَالحَمْدُ لله، وَالسَّلاَمُ الأَتَمُّ الأَكْرَمُ الأَعْظَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الأَكْرَمُ الأَعَزُّ الأَفْضَلُ، سَيِّدِي وَمُعَظِّمِي الفَقِيه الأُسْتَاذُ الإِمَامُ الحَافِظ «أَبُو القَاسم» أَكْرَمَهُ الله كَرَامَةَ أَوْلِيَائِهِ، وَأَمْتَعَ المُسْلِمِينَ بِبَقَائِهِ، ذَاكِر عَلْيَائِهِ وَنَاشِر بُرْدِ فَخْرِهِ وَلِوَائِهِ، عَبْدُهُ المُتَقَلِّبُ فِي ظِلَالِ نَعْمَائِهِ، فُلاَن سَلاَمٌ كَثِيرٌ أَثِيرٌ عَمِيمٌ عَلَى سَيِّدِي وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبرَكَاتُه.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ الله عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَالصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ فِي الحَلِّ وَالتِّرْحَال، فَإِنِّي كَتَبْتُ وَلَا حَادِثَ إِلَّا عَوَارِفَ الله سُبْحَانَهُ وَ امْتِنَانَهُ، وَعَمِيمَ بَرَكَتِهِ وَإِحْسَانَهُ، والله تَعَالَى هُوَ المَسْؤُولُ أَنْ يُعِينَ عَلَى شُكْرِ مَا أَسْدَى مِنْ نِعَمِهِ الكَامِلَة، وَخَيْرَاتِهِ الشَّامِلَة.



وَقَدْ كَانَ أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَيّ، وَأَعْظَمَهَا خَطَراً لَدَيَّ العَوْدُ إِلَيْكُم، وَالوُفُودُ عَلَيْكُم. فَأَسْتَضِيء بِتِلْكَ الأَنْوَار، وَأَقْتَطِف مِنْ تِلْكَ الأَزْهَار، لَوْ سَاعَدَ الزَّمَان، وَلَمْ يُعِقْ عَنِ المُرَادِ الحَدَثَان، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ، فَأَنَا أَمْتَطِي صَهْوَةَ الجِدِّ، وَأَسْتَمْطِرُ غَمَامَةَ الجِدِّ، لَعَلَّ الله يُقَرِّبُ المَأْمُولَ، وَيَمْنَحَ المَسْؤُولَ، فَأَشْهَدُ ذَلِكَ المَشْهَد، وَأَرِدُ ذَلِكَ المَوْرِد، وَأَرْغَبُ إِلَى سَيِّدِي -أَدَامَ الله- عَلَاءَهُ، وَكَبَتَ أَعْدَاءَهُ أَنْ يَدْعُوَ الله فِي تَيْسِيرِ ذَلِك، وَالظَّفَرِ بِمَا هُنَالِكَ. وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَى سَيِّدِي بِالمَسْأَلَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَر، وَلَمْ آلُ جُهْداً فِي أَمْرِهِمَا وَإِنْ كَانَ مِنِّي فِي ذَلِكَ مَا يُشْبِهُ التَّقْصِيرَ إِذْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ تَعْجِيل، وَمِثْلُ سَيِّدِي -أَعَزَّهُ اللهُ- يَقْضِي وَيَسْمَح، وَيَهَبُ الرِّضَا وَيَمْنَح، والله تَعَالَى يُعِينُ عَلَى أَدَاءِ حَقِّهِ وَشُكْرِ أَيَادِيهِ بِمَنِّهِ، وَالسَّلَامُ الأَزْكَى الأَخْطَرُ الأَذْكَى الأَعْطَرُ عَلَى سَيِّدِي وَرَحْمَةُ الله تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الفَقِيهُ الأُسْتَاذُ الأَفْضَلُ المُتَكَلِّمُ الأَجْمَعُ الأَحْفَلُ فُلَان، الَّذِي أَضَاءَ زَمَاناً بَهِيماً رَوَّقَتْ ظُلَمَاؤُهُ، وَشَرَّفَ سُهَيْل[1] حِينَ اعْتِزَاؤُهُ إِلَيْهِ وَانْتِمَاؤُهُ. أَبْقَاهُ الله وَالعَالِمُ الحِبْرُ وَالنِّحْرِيرُ أَسْمَاؤُهُ، وَهَدَفُ الإِصَابَةِ يُقَرْطِسُهُ نِصَالَهُ السَّدِيد وَرِمَاؤُهُ، مُصَافِيهِ الوُدَّ الصَّرِيح بِمُقْلَةِ السَّوَاء، المُفْتَخِرِ بِدُخُولِهِ تَحْتَ تِلْكَ الرَّائِيَةِ وَاللِّوَاء، العَالِمِ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ الاحْتِشَادِ الحَافِلِ وَالاحْتِوَاءِ، مُجِلِّهِ وَمُعَظِّمِهِ المُكْبِرِ لَه« فُلَان».

سَلَامٌ طَيِّبٌ عَلَيْكُم يَأْخُذُ مِنَ الصُّبْحِ النَّيِّرِ فَلَقَه، وَمِنَ المِسْكِ الفَتِيقِ أَرَجَهُ وَعَبَقَهُ، وَرَحْمَةُ الله تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ، أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ الله الَّذِي جَعَلَ القُلُوبَ تَعْرِفُ أَمْثَالَهَا وَتُنْكِرُ أَضْدَادَهَا[2] وَتَتَجَازَى عَلَى البُعْدِ بُغْضَهَا الحَاصِلِ أَوْ وِدَادَهَا، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ المُصْطَفَى صَلَاةً مُكَرَّرَةً يَكُونُ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامِهَا وَالسَّبْعَةِ الأَبْحُرِ

(1) يقصد به الكاتب الإمام السهيلي المشهور بكتابه: «الروض الأنف» وهو من كبار المحدثين وشراح السيرة في الأندلس.

(2) فيه نظر إلى قوله ﷺ: «القلوب جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف».



مِدَادَهَا[1]؛ وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ الكَاشِفِ عَنْ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ ظُلْمَتَهَا بالتَّجْسِيمِ المُضَلِّلِ وَارْبِدَادَهَا، وَعَنِ الخَلِيفَةِ المَنْصُورِ النَّاصِرِ الَّذِي أَذَاعَ الدَّعْوَةَ الآخِذَةَ مِنَ النُّورِ النَّبَوِي اسْتِنْصَارَهَا وَ اسْتِمْدَادَهَا، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِين ابْنِ أُمَرَاءِ المُؤْمِنِين، فِي فُتُوحٍ جَمَّةٍ لَا نُحْصِي حُسْبَانَهَا وَ لَا نَحْصِرُ تَعْدَادَهَا.

فَإِنَّ كِتَابَكُمُ الكَرِيم وَرَدَ وُرُودَ البَدْرِ المُنِيرِ وَطَلَعَ، وَقَارَنَ وُرُودَهُ أَسْعَدَ السُّعُودِ أَوْ سَعد بُلع[2]، فَلِلَّهِ دَرُّهُ مِنْ كِتَابٍ كَرِيمٍ تَمَتَّعْتُ مِنْهُ بِالرَّوْضَةِ الأَنِيقَةِ الغَنَّاء، وَتَرَنَّحْتُ لِمَا اسْتَوْدَعَهَا مِنْ جَمِّ المَدِيحِ وَعَمِيمِ الثَّنَاءِ، وَصُنْتُهُ كَمَا يُصَانُ دُرُّ الاخْتِزَانِ وَيَاقُوتُ الاقْتِنَاء، وَأَمَّا الحُلِيُّ الَّتِي حَلَّيْتُمْ وَلِيَّكُم المُعَظَّم بِنَفِيسِهَا وَخَطِيرِهَا، وَذِكْرَاهُ الَّتِي غَنِيتم وَلَكُمُ الطُّولُ بِتَطْيِيبِهَا وَتَعْطِيرِهَا، فَمَا ذَلِكُمْ إِلَّا خَيْمٌ كَرِيمٌ يُغْرِي بِالفَضْلِ المُبَرَّرِ وَيُولِعُ، وَيَخْلَعُ عَلَى مُجِلِّهِ صِفَاتِ نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَتْ صِفَاتُ النَّفْسِ لَا تُخْلَع، وَلْيُهَنِّئ رَئِيسِي المُعَظَّم وَإِمَامِيَ المُقَدَّمُ، مَا سَارَ لَهُ مِنَ الذِّكْرِ الأَرِيجِ بِسَيْرِ الشَّمْسِ، وَتَحْدِيثِ الرُّكْبَانِ عَنْ فَضْلِهِ بِالجَهْرِ لَا بِالهَمْس، فَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ مِنَ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ وَكَرِيمِ الغَرْضِ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمُتَّقِي: «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله فِي الأَرْض».

وَأَمَّا الفَقِيهُ النَّبِيهُ ذُو الشَّرَفِ وَالحَسَبِ وَالفَضْلِ المَوْرُوثِ وَالمُكْتَسَبِ «فُلَان» فَجَمَعَ خِصَالَ الإِيمَانِ وَشُعَبَهُ وَذَلَّلَ لَهُ مَقرمَ المَجْدِ وَمُصْعَبَهُ، فَإِنِّي تَلَقَّيْتُهُ كَمَا يَتَلَقَّى الأَبُ الرَّؤُومُ وَاحِدَهُ، وَعَرَفْتُ فِي لَأْلَائِهِ وَلَوْذَعِيَتِهِ مَنَابَتَهُ الشَّرِيفَة وَمَحَاتِدَهُ. وَجَدِيرٌ بِمَنْ خَلَّصَهُ تَخْرِيجُكُمْ، وَصَرَفَهُ فِي سُنَنِ المَعَارِفِ تَدْرِيجُكُمْ، وَعَرَفَهُ تَعْطِيرُكُمْ وَتَأْرِيجُكُمْ، أَنْ يَتَلَقَّى رَايَةَ المَجْدِ كَمَا تَلَقَّاهَا عَرَابَة[3]، وَيَأْتِي بِمَا شَاءَ مِنْ نَبَاهَةٍ وَغَرَابَة. وَوَلِيُّكُمْ -أَعَزَّكُمْ اللهُ- الكَفِيلُ بِبِرِّهِ، الضَّامِنُ بِخَزْنِ دُرِّه. واللهُ يُعِينُ عَلَى مَا يَتَقَاضَى رِضَاكُمْ وَيَصْقُلَ مُرْهَفَكُمْ وَمُنْتَضَاكُمْ، وَيَجْرِيَ فِيهِ عَلَى دَيْدَنِكُمْ فِي كَرِيمِ المُعَاشَرَةِ

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾. سورة لقمان، الآية: 26.

(2) هناك برجان مشهوران هما: سعد السعود وسعد بلع.

(3) فيه إشارة إلى قول الشاعر العربي:



وَمُقْتَفَاكُم بِمَنِّهِ لَا رَبَّ غَيْرُه. وَالسَّلَامُ الطَّيِّبُ المُبَارَكُ تُقْصَدُ بِهِ حَضْرَتكُمْ وَتُصْمَدُ، وَيُعَادُ عَلَيْكُمْ وَالعَوْدُ أَحْمَد[1]. وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أُخْرَى[2]:

وَمَا سَرَّ قَلْبِي مُنْذُ شَطَّتْ بِكَ النَّوَى ... نَعِيمٌ وَلَا أُنْسٌ وَلَا مُتَصَرَّفُ
وَلَا ذُقْتُ طَعْمَ المَاءِ إِلَّا وَجَدْتُهُ ... سِوَى ذَلِكَ المَاءِ الّذِي كُنْتُ أَعْرِفُ

كَتَبْتُهُ أَيُّها الأَخُ الوَدُود، وَالصَّفِيُّ المَوْدُود، الّذِي بَذَّ النَّاسَ جمَالا، وَفَاتَهُمْ تَمَاماً وَكَمَالا، وَطَالَهُمْ أَصْلا، وَمَحْتِداً وَجَلَالا. وَحَلَّ مِنْ شَرَفِ آبَائِهِ الكِرَام، وَأَسْلَافِهِ السَّادَة الفُضَلَاءِ الأَعْلَام، بِحَيْثُ حَسَدَتْهُ دَرَارِي النُّجُوم، وَأَصْبَحَتْ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ المَرَاتِبِ المَنِيعَة، وَالرُّتَبِ الرَّفِيعَةِ تَدُورُ وَتَحُوم. وَسَلَّمَ لَهُ نُظَرَاؤُهُ فِي مَا هُوَ بِسَبِيلِه، وَقَضَوْا بِتَقْدِيمِهِ وَتَفْضِيلِه، وَخَلَّوْا لَهُ فِي مَجَالِ العُلَا بَيْنَ عَرِيضِهِ وَطَوِيلِهِ، وَتَنَحَّوْا لَهُ عَنْ تِلْكَ المَنَاهِجِ وَالمَسَالِك، وَتَحَامَوْا مَكَانَهُ فِي الوَفَاءِ تَحَامِيَ البَرَاءِ بْنِ مَالِك[3]. وَتَبَرَّأُوا إِلَيْهِ مِنْ شِيمَةٍ طُبِعَتْ فِي بَنِي أَبِي العَبَّاس، وَتَمَيَّزُوا بِحُسْنِ صِفَاتِهِ تَمَيُّزَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاس، فَقَبِلَ -وَفَّقَهُ اللهُ- تِلْكَ الخَطَابَةَ، وَتَلَقَّاهَا مِنْهُمْ كَمَا تَلَقَّى رَايَةَ المَجْدِ عَرَابَه. وَأَصْبَحَ وَاضِحَ الجَبِينِ، مُنْقَطِعَ القَرِين، نَاهِضاً إِلَى كُلِّ مَجْدٍ وَشَرَفٍ بِأَحْكَمِ بَصِيرَةٍ وَأَبْرَمِ يَقِين[4]:

فَتىً لَوْ يُبَارِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا ... أَوِ القَمَرَ السَّارِي لَأَلْقَى المَقَالِدَا

كَتَبَ وَصَلَ اللهُ جَلَالَه، وَقَارَضَ بِرَّه وَإِجْمَالَه، يَشْكُو مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ مَا أَخُوهُ وَمُعَظِّمُهُ أَحَقُّ بِشَكْوَاه، وَأَجْدَرُ بِذِكْرَاهُ، وَأَبْلَى أَنْ يَغْلُبَهُ عَلَى حُسْنِ العَزَاءِ وَإِظْهَارِ التَّحَمُّلِ هَوَاهُ،

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِاليَمِينِ

(1) مثل عربي مشهور، انظر مجمع الأمثال2/ 41. المثل رقم 2543.
(2) البيتان لابن زريق البغدادي صاحب العينية المشهورة. انظر كتاب: بغداديون في الأندلس. وهو من الطويل.
(3) البراء بن مالك: صحابي جليل قتل سنة 20هـ في فتح تُسْتُر.
(4) البيت للأعشى، ديوانه، ص: 115.



لِأَنَّهُ - جَبَرَ اللهُ مُصَابَهُ - فَارَقَ بَهْجَةَ سَنَاء، وَعُمْدَةَ وَفَاء، وَنُخْبَةَ جَلَالَةٍ وَنَبَاهَةٍ وَذَكَاء، وَجُمْلَةَ عَذُبَتْ مَوَارِدُهُمْ وَحِيَاضُهُمْ، وَحَمِدَتْ مَقَاصِدَهُمْ وَأَغْرَاضُهُمْ، وَأَشْرَقَتْ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ وُجُوهُهُمْ وَأَعْرَاضُهُمْ، رَعَوْا أَكْنَافَ المَجْدِ وَسَادُوا وَهُمْ فِي المَهْد، وَشَادُوا مَنَاقِبَ أَتْعَبَتْ مَنْ فِي الغَوْرِ وَالنَّجْد، وَوَصَلُوا إِلَى كُلِّ غَايَة، وَنَشَرُوا عَلَى رَبْوَةِ البَيَانِ وَثَنِيَّةَ الإِبْدَاعِ وَالإِحْسَانِ رَايَةً جَنْبَ رَايَة، وَتَرَكُوا مِنْ آثَارِهِمْ وَأَنْوَارِهِمْ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَان آيَةً تَقْصِدُهَا آيَة. فَمَا شِئْتَ مِنْ لِسَانٍ قَدْ غُذِّيَ بِالصَّوَاب، وَأُيِّدَ بِالحِكْمَةِ وَفَصْلِ الخِطَابِ، إِنْ لَانَ فَرَوْضٌ مَمْطُورٌ أَوْ لُؤْلُؤٌ مَنْثُورٌ، أَوْ لَيْلَةُ وَصْلٍ نُجُومِ سَعْدِهَا لَا تَغُور، وَإِنْ خَشُنَ فَعَضْبٌ مَطْرُور، أَوْ أَسَدٌ مَوْتُور، أَوْ كَتِيبَةَ حَرْبٍ رَحَى مَوْتِهَا تَدُور. يُبِيحُ حِمَى الآسَاد، وَيُذِيبُ المَنَاصِلَ فِي الأَغْمَاد، وَمَا أَحْبَبْتَ مِنْ خُلُقٍ كَرِيمٍ يُغْنِيكَ عَنِ الرَّوْضَةِ الغَنَّاءِ، وَيُنْسِيكَ مَحَاسِنَ الوَشْيِ فِي يَدِ الحَسْنَاء، يَغْمُرُكَ بِنَوَالِهِ، وَيَخْرُجُ إِلَيْكَ عَنْ جَمِيعِ حَالِه، وَيَأْنَفُ مِنْ فِعْلِ الفَزَارِيِّ فِي قِسْمَةِ مَالِهِ. أَهْلاً بِكُمْ يَابَنِي أَبِي العَبَّاسِ لَقَدْ جَلَّتْ أَقْدَارُكُمْ وَكَرُمَتْ آثَارُكُم، وَفَاحَ فِي زَهْرِ الآدَابِ رَنْدُكُمْ وَعَرَارُكُمْ[1].

واللهِ أَنْتُمْ لَقَدْ أَخَذْتُم بِمَجَامِعِ القُلُوبِ، وَأَتَيْتُمْ فِي اطِّرَادِ الشَّرَفِ كَكُعُوبِ الرُّمْحِ أُنْبُوبًا عَلَى أُنْبُوب.

وَأَمَّا كِتَابُكُمُ الحَسَن، وَخِطَابُكُمُ الأَغْرَبُ الأَبْيَن، الَّذِي فَتَنَ بِإِحْسَانِه، وَنَظَمَ السِّيَادَةَ فِي طَرِيقِ بَيَانِه. فَقَدْ مَلأَ عَيْنَ مُحِبِّكُمْ جَمَالا، وَضَاعَفَ لَكُمْ فِي نَفْسِ وَلِيِّكُمْ إِعْظَامًا وَإِجْلَالا. وَسَقَاهُ مِنَ الكَلَامِ الرَّفِيع، وَالنَّثْرِ البَدِيع، سُلَافَةً لَا جِرْيَالا، شِيمَةً عَرَفْتُمُوهَا مِنْ أَخْزَم. وَسَجِيَّةً عَهِدْتُمُوهَا وَأَحْرَزْتُمُوهَا مُنْذُ الزَّمَانِ الأَقْدَم، أَبَتْ أَنْ تُحْسَبَ إِلَّا فِي خِصَالِكُمْ، وَتَسْكُنَ إِلَّا إِلَى وِصَالِكُمْ، وَتُوجَزَ عَلَى الحَقِيقَةِ إِلَّا فِي بُزْلِكُمْ وَفِصَالِكُمْ[2]. بَارَكَ اللهُ لَكُمْ فِي إِحْسَانِكُمْ، وَزَادَ فِي عُلُوِّ قَدْرِكُمْ وَمَكَانِكُم، وَلَا أَخْلَاكُمْ مِنْ حَاسِدٍ يَحْسُدُ فَضْلَكُمْ فَلَا يُدْرِكُه، وَيَرُومُ شَأْوَكُمْ فِي المَعَارِفِ فَلَا يَعْبُرُهُ وَلَا يَسْلُكُه. وَلَا

(1) عرار: نبت بري رائحته طيبة.
(2) بزل البعير يبزل بزولا: فطر نابه أي انشق. والفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.



زَالَتْ حَالُكُمْ الَّتِي سَرَّنِي سَمَاعُهَا، وَأَبْهَجَنِي تَعَرُّفُهَا وَاسْتِطْلَاعُهَا، حَالاً تَسْتَبِقُ إِلَيْهَا الآمَال، وَيَزْدَحِمُ عَلَيْهَا الظُّهُورُ وَالإِقْبَال، بِفَضْلِ اللهِ وَكَرَمِهِ. وَالسَّلَامُ الأَبَرُّ الأَوْفَى المُعَادُ المَوْصُولُ المُسْتَوْفَى عَلَى الشَّيْخِ الفَقِيهِ الأَجَلِّ الحَافِظِ الحَافِلِ الأَكْمَلِ وَالِدِكُمْ وَمَحَلِّ أَبِي وَعَلَيْكُمْ يَا أَخِي وَظَهِيرِي وَعَلَى الفَقِيهِ أَبِي بَكْرٍ ابْنِ عَمِّكُمْ وَمُعَادَهُ عَلَيْكُم. وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الفَقِيهُ الحَافِظُ الأَكْمَلُ الأَخُ المُكَرَّمُ المُوَقَّرُ الأَبَرُّ الأَوْصَلُ «فُلَان». بَلَّغَهُ اللهُ وَبَلَّغَ فِيهِ مُنْتَهَى الأَمَلِ، مُوَقِّرُهُ العَلِيمَ بِحَقِّهِ، المُخْلِصِ فِي وُدِّهِ، الحَافِظِ لِكَرِيمِ عَهْدِهِ أَخُوهُ «فُلَان» سَلَامٌ كَرِيمٌ يَخُصُّكُمْ أَخِي المُوَقَّرُ المُكْبَرُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى كُلِّ حَال، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَرَسُولِهِ وَعَلَى آلِهِ خَيْرِ آل، وَرَضِيَ اللهُ عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ مُعِيدِ الدِّينِ بَعْدَ الاضْمِحْلَال، وَعَنْ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ مُمَشِّي أَمْرِهِ العَزِيزِ إِلَى غَايَةِ الكَمَالِ والاكْمَال. وَمُوَالَاةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنَينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِاتِّصَالِ النَّصْرِ وَالإِقْبَال .

فَكَتَبْتُهُ كَتبَكُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَه، كَمَا جَعَلَكُمْ مِمَّنْ أَخْلَصَ فِي مُوَالَاةِ الحَقِّ قَصْدَهُ مِنْ «سَبْتَةَ» -حَرَسَهَا اللهُ- وَوُدِّي غَضُّ الحَدَائِقِ، مُتَجَلٍّ فِي مَطْلَعِ الوَفَاءِ بِمَنْظَرٍ رَائِق، لَا يُحِيلُهُ عَنْ مَرْكَزِ الثُّبُوتِ مِنْ عَائِق، وَحَقِيقٌ بِمَوَدَّةٍ ارْتَبَطَتْ فِي الحَقِّ وَلِلْحَق مَعَاقِدُهَا، وَأَسَّسَتْ عَلَى المَحَبَّةِ فِي اللهِ قَوَاعِدُهَا، أَنْ يَزِيدَ عَقْدَهَا عَلَى مَرِّ الأَيَّامِ شِدَّة، وَعَهْدَهَا وَإِنْ شَحَطَ[1] المَزَارُ جِدَّه، وَأَنْ تَدَّخِرَ لِلأُخْرَى عُدَّة.

وَإِنِّي -عَلِمَ اللهُ- لَمَنْ يَعْتَقِدُ مَحَبَّتَكُمْ وَمُوَالَاتَكُمْ عَمَلاً صَالِحاً يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ وَيُزْلِفُ إِلَيْه، وَيَعْتَمِدُهَا وَزَراً يَعُودُ فِي الآخِرَةِ «يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّه»[2] عَلَيْهِ، فَإِنَّكُمْ

---

(1) شحط المزار: بعد ونأى.

(2) من حديثه ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».



وَالْيُتْمِ فَأَخْلَصْتُمْ فِي الوَلَاءِ، وَعَرَفْتُمُ اللهَ فَقُمْتُمْ بِحُقُوقِ الصُّحْبَةِ عَلَى الوَلَاءِ، مُعْرِضِينَ فِي ذَلِكَ الأُخُوَّةَ عَنْ غَرَضِ الدُّنْيَا وَعَرَضِهَا مُوَفِّينَ بِشُرُوطِ نَقْلِهَا وَمُفْتَرَضِهَا، إِلَى أَنْ قَضَى اللهُ بِافْتِرَاقِنَا، وَحُقُوقُكُمُ المُتَأَكِّدَةُ دُيُونٌ عَلَيْنَا، وَالأَيَّامُ تَمْطُلُ بِقَضَائِهَا عَنَّا، فَآوِنَةً أَقِفُ فَأَقْرَعُ السِّنَّ عَلَى التَّقْصِيرِ السَّابِقِ نَدَماً[1]، وَآوِنَةً أَسْتَنِيمُ إِلَى فَضْلِكُمْ فَأَتَقَدَّمُ قُدُماً. وَفِي أَثْنَاءِ هَذَا لَا يَخْطُرُ بِالبَالِ حَقٌّ لَكُمْ سَابِق، إِلَّا وَقَدْ كَرَّ عَلَيْهِ مِنْكُمْ آخَرُ لَهُ لَاحِق. حَتَّى وَقَفْتُ مَوْقِفَ العَجْز، وَضَاقَتْ عَلَيَّ العِبَارَةُ عَنْ حَقِيقَةِ مَقَامِكُمْ فِي النَّفْسِ فَكِدْتُ لَا أَتَكَلَّمُ فِيهِ إِلَّا بِالرَّمْز، إِجْلَالاً لِحَقِّكُمْ الرَّفِيع، وَإِشْفَاقاً مِنَ التَّقْصِيرِ المَمْنُوع، وَهَذَا الخَاطِرُ هُوَ الَّذِي وَقَفَنِي عَنِ المُخَاطَبَةِ مَعَ الوَارِدِ وَالصَّادِر. وَلَوْ أَجْرَى اللهُ العَادَةَ بِكَشْفِ مَافِي النَّفْس، لَأَغْنَى شَهِيدُ الحِسِّ عَنْ تَعْرِيفِ القِرْطَاسِ وَالنِّقْس. فَعُذْراً -أَعَزَّكُمُ اللهُ- وَنَفَعَ بِإِيخَائِكُمْ عَنْ إِغْبَابِ المُرَاسَلَةِ بِالمُكَاتَبَةِ عُذْراً وَصَبْراً عَلَى بُعْدِ اللِّقَاءِ صَبْراً. فَإِنْ يُقَدَّرُ فِي هَذِهِ الدَّارِ الدُّنْيَا نِلْنَا فِيهَا مَا نَتَمَنَّى، وَإِلَّا فَلَنْ نَعْدَمَ بِفَضْلِ اللهِ جَزَاءَ الحُسْنَى، وَلِقَاءً لَا يَبِيدُ وَلَا يَفْنَى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقاً﴾[2] إِيقَاناً بِالوَعْدِ وَتَحْقِيقاً. فَمَنْ أَوْجَبَ لَهُ مَحَبَّتَهُ، أَدْخَلَهُ جَنَّتَهُ وَأَحْضَرَهُ مَأْدُبَتَه، وَكَمَّلَ لَهُ أُمْنِيَتَه.

جَعَلَنَا اللهُ مِنَ المُتَحَابِّينَ لِجَلَالِهِ بِكَرَمِهِ وَإِفْضَالِهِ إِنَّهُ مُنْعِمٌ كَرِيم، وَالسَّلَامُ البَرُّ الكَرِيم.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ السَّرِيُّ المَاجِدُ الحَسِيبُ الأَبِيُّ الفَاضِلُ البَرُّ التَّقِيُّ الأُسْتَاذُ الزَّكِيُّ الأَلْمَعِيُّ «أَبُو زَيْدٍ السُّهَيْلِي»[3].

---

(1) مقتبس من قول الشاعر:

لَتَقْرَعَنَّ عَلَيَّ السِّنَّ مِنْ نَدَمٍ ... إِذَا تَذَكَّرْتَ يَوْماً بَعْضَ أَخْلَاقِي

(2) سورة النساء، الآية: 68.

(3) أبو زيد السهيلي: عالم أندلسي مشهور له كتاب: «الروض الأنف» و«نتائج الفكر» وغيرهما.



سَيِّدِي وَعِمَادِي وَبَصِيرَتِي وَعَتَادِي الّذِي أُوَقِّرُهُ وَأُجِلُّه، وَأَسْنِدُ إِلَيْهِ وَأُؤَمِّلُه. وَمَنْ أَبْقَاهُ اللهُ مُعَاناً عَلَى مَايَتَوَلَّاه، مُبَلَّغاً مِنْ أَمَلِهِ مُنْتَهَاه، مَخْتُوماً لَهُ بِالسَّعَادَةِ فِي دُنْيَاهُ وَأُخْرَاه. وَجَعَلَ عَلَيْهِ وَعَلَى المَكَارِمِ فِيه، وَاقِيَةً مِنْ صُرُوفِ الزَّمَانِ وَفَوَارِقِ الحَدَثَانِ تَحْرُسُهُ وَتَقِيه.

مُجِلُّ قَدْرِكُمْ وَمُعْتَقِدُ إِيثَارِكُمْ وَبِرِّكُمْ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى نَعْمَائِه، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِه، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِّ أَكْرَمِ أَوْلِيَائِه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ثُمَّ لابْنِهِ الأَمِيرِ الأَجَلِّ أَبِي يَعْقُوبَ[1] مِنْ بَعْدِهِ بِالنَّصْرِ عَلَى أَعْدَائِه.

فَكِتَابِي إِلَيْكَ يَا مَوْلَايَ كَتَبَ اللهُ لَكَ السَّلَامَة، وَمَدَّ عَلَيْكَ ظِلَّ النِّعْمَةِ وَالكَرَامَة، وَأَنَا أَسْتَوْهِبُ اللهَ لَكَ العَافِيَة، وَأَنْ يُسْبِغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ الضَّافِيَة وَأَسْأَلُهُ الإِطَالَةَ فِي بَقَائِكَ وَالمُرَافَعَةَ عَنْ حَوْبَائِك. وَبَعْدَ أَنْ وَرَدَنِي -أَوْرَدَ اللهُ عَلَيْكَ السُّرُورَ وَجَنَّبَكَ المَحْذُورَ- كِتَابُكَ الكَرِيمُ فَقَرَأْتُهُ وَفَهِمْتُه، وَوَقَفْتُ عَلَى مَا أَوْدَعْتَهُ فِيه، وَضَمَّنْتَهُ مِنْ خَالِصِ مَوَدَّتِك، وَكَثْرَةِ وَحْشَتِكَ، فَلَعَمْرِي لَقَدْ وَرَدَ عَلَيَّ مِنْهُ أَكْرَمَ وَارِد، وَوَفَدَ عَلَيَّ مِنْهُ أَجَلَّ وَافِد، مَلأَ قَلْبِي سُرُوراً وَبَهْجَة، وَفَرَّجَ عَنِّي - بِلُطْفِ مَوْقِعِهِ مِنِّي- كُلَّ كُرْبَة، وَزَادَنِي رَغْبَةً فِيكَ، وَمُحَافَظَةً عَلَيْكَ وَعَلَى ذَوِيكَ. وَآنَسْتُ بِمُشَاهَدَتِهِ أُنْسِي بِمُشَاهَدَتِك، وَارْتَحْتُ إِلَى مُشَافَهَتِهِ ارْتِيَاحِي إِلَى مُشَافَهَتِكَ، وَنَزَّهْتُ طَرْفِي فِي حَدَائِقَ مِنْ بِرِّهِ نَاطِقَة، وَأَجَلْتُ فِكْرِي فِي بَدَائِعِ لَفْظِهِ رَائِقَة، مَلَكَ اسْتِحْسَانُهَا نَفْسِي، وَأَحْيَى الاسْتِمَاعُ بِهَا مَيِّتَ أُنْسِي. وَوَقَفْتُ عَلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ إِيمَائِكَ الّذِي حَضَضْتَنِي عَلَيْه، وَنَدَبْتَنِي بِفَضْلِكَ إِلَيْهِ، مِنَ التَّفَقُّهِ فِي عِلْمِ الدِّينِ وَالأَثَر، وَالنَّظَرِ فِي الصَّحِيحِ مِنَ الحَضَر،

(1) هو يوسف بن عبد المومن الخليفة الموحدي المشهور، انظر: البيان المغرب في صفحات، الحلل الموشية في صفحات.



وَالآدَابِ المُسْتَعَانِ بِهَا عَلَى فَهْمِ الآيَاتِ الكُبَر، وَمَا تَضَمَّنَهُ الكِتَابُ العَزِيزُ مِنَ الأَنْبَاءِ وَالعِبَر. فَجَعَلْتُ وَصِيَّتَكَ بَيْنَ عَيْنِي وَأَمَامِي، وَصَيَّرْتُهَا عُمْرَتِي وَإِمَامِي. أَمْتَعَنِي اللهُ يَا سَيِّدِي -وَعَامَّةِ مُتَوَلِّيكَ- بِكَ، أَرَانَا غَايَةَ آمَالِنَا لَنَا وَفِيك، وَأَعَانَنَا عَلَى أَدَاءِ مَاافْتَرَضَ عَلَيْنَا مِنْ حَقِّكَ، وَقَضَاءِ شُكْرِكَ وَبِرِّك، حَتَّى نَبْلُغَ الغَايَةَ مِنْ ذَلِكَ بِمَنِّهِ وَفَضْلِه. وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ الأَكْرَمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

أُخْرَى:

سَلَامُ اللهِ يَعْبَقُ نَشْرا، وَيَطِيبُ تَنَسُّماً وَمَسَرّاً، عَلَى الأَخِ فِي اللهِ تَعَالَى الوَفِيِّ وَالحَبِيب، الصَّفِيِّ الفَقِيهِ الأَجَلِّ الأَرِيب، الأَطْوَلِ الأَدِيبِ الأَكْمَل، الأَخْلَصِ الزَّكِيِّ الأَرْوَع[1] الأَحْفَل فُلَانٌ أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ وَتَوَلَّى رِعَايَتَهُ وَحِرْزَهُ سَلَاماً كَعَرْفِ الرَّوْضِ فَاحَ نَسِيمُه، وَطَابَ عَرْفَهُ الذَّكِيُّ وَشَمِيمُهُ، لَايَزَالُ يَتَجَدَّدُ مَدَى الدَّهْرِ وَيَتَوَالَى، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى.

وَبَعْدُ يَا سَيِّدِي وَمُعَظِّمِي فَكَتَبَهُ أَخُوكَ فِي اللهِ وَمُعَظِّمِ قَدْرِكَ «حَسَن بْنِ إِبْرَاهِيمَ» وَرَوْضِ الوِدَاد يَعْبَقُ ثَرَاه، وَنَسِيمُ اعْتِقَادِي يَطِيبُ مَسْرَاه، وَشَوْقِي إِلَى شَرَفِ لُقْيَاكُم، وَشَمِّ رَيَّاكُمْ، شَوْقَ القَارِضَيْنِ إِلَى سُكُونٍ وَسُكْنَى، وَالقَيْسِيَّيْنِ إِلَى لَيْلَى وَلُبْنَى. وَذَلِكَ -أَعَزَّكُمُ اللهُ- لَمَّا انْفَصَلَتْ مِنْ هَضَبَتِكُمْ العَلِيَّة، وَمَعَاهِدِكُمْ المُكَرَّمَةِ السَّنِيَّة. وَلَمْ يَكُ إِلَّا رَيْثَ وَدَاعِكُم، وَحِينَ أَذِنَ قَلْبِي عَنْهُ بِانْقِطَاعِكُم، وَلَمْ أَجِدْ إِلَّا البَيْنَ سَبِيلا، وَلَمْ أَسْتَطِعْ عَنْهُ مُنْقَلَباً وَلَا تَحْوِيلا، كَادَ أَنْ يَقْضِي عَلَيَّ الأَسَى، وَجَعَلْتُ أَتَعَلَّلُ بِلَعَلَّ وَعَسَى. فَلِلَّهِ أَيَّامُكُمُ العَلِيَّةُ مَاكَانَ أَحْلَاهَا بِعَيْنِي أَيَّاماً، وَأَعْظَمَهَا بِقَلْبِي ذِمَاما، مَا كَانَتْ إِلَّا كَلَمْحَةِ طَيْفٍ أَوْ كَإِبْهَامِ الخُطَا قِصَرا. تَاللهِ مَا بَيَّضَ بِالفَرَجِ جُنْحُهَا، حَتَّى اعْتَكَرَ بِالفِرَاقِ صُبْحُهَا، وَلَا جَرَى بِالسَّائِحِ السَّعِيدِ رِكَابُهَا حَتَّى نَعَبَ بِالفِرَاقِ غُرَابُهَا. وَالسَّلَامُ.

(1) في الأصل: «الأرع».



أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ الأَوْرَعُ الأَبْرَعُ، السَّرِيُّ الأَفْضَلُ الوَلِيُّ الأَسْنَى الأَعَزُّ الأَكْمَلُ «أَبُو زَيْدٍ السُّهَيْلِيِّ» فَسَحَ اللهُ مُدَّتَهُ وَوَاصَلَ بِالتَّقْوَى كَرَامَتَه. مُلْتَزِمُ بِرِّهِ، المُحَافِظُ عَلَى رِعَايَةِ عَهْدِهِ المُغْتَبِطِ بِخُلُوصِ وُدِّه، مُحَمَّد بْنُ يُوسُفَ. سَلَامٌ عَمِيمٌ كَرِيمٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى حَقَّ حَمْدِه، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَعَبْدِهِ وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْلُومِ مِنْ بَعْدِهِ وَعَنْ خَلِيفَتِهِ الأَكْرَمِ وَلِيِّ عَهْدِه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بْنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ العَمِيمِ مِنْ عِنْدِه.

فَكَتَبْتُهُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ أَفْضَلَ العَمَلِ وَأَسْنَاه، وَيَسَّرَ أَمَلَكُمْ بِإِنْجَاحِ السَّعْيِ وَسَنَّاهُ، مِنْ «قُرْطَبَةَ» -حَرَسَهَا اللهُ- عَنِ الوُدِّ الَّذِي تُشْرِقُ صَفَحَاتُه، وَتَعْبَقُ مَعَ الأَيَّامِ نَفَحَاتُه، وَتَتَزَيَّدُ مَعَ السَّاعَاتِ نَضَارَتُهُ، وَتَشْهَدُ بِخُلُوصِ الضَّمِيرِ شَهَارَتُه. وَحُقَّ لِمَنْ عَلَقَ بِإِيخَائِكُمْ بِالحَبْلِ الأَقْوَى، وَاغْتَبَطَ بِوَلِيٍّ مِثْلَكُمْ جُبِلَ عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى، وَوَثِقَ بِكَرَمِ مُعْتَقَدِكُمْ فِي المَشْهَدِ وَالمَغِيبِ، أَنْ يَرْغَبَ وَيُرَغِّبَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْكُمْ كُلَّ التَّرْغِيبِ، واللهُ تَعَالَى يَصِلُ مَابَيْنَنَا ثَابِتَ الأَسْبَابِ، مُمْتَدَّ الأَطْنَابِ، سَرِيعَ الجَنَابِ. وَلَكُمُ الفَضْلُ فِي إِهْدَاءِ المُرَاجَعَة، وَالتَّهَمُّمِ بِالمُطَالَعَة، حَسْبَمَا تَتَحَقَّقُونَ مِنْ شَرْحِي إِلَى سَمَاعِ أَنْبَائِكُمْ، وَالتَّطَلُّعِ إِلَى مَايَرِدُ مِنْ تِلْقَائِكُمْ، واللهُ تَعَالَى يَسْمَعُ السَّارَّ مِنْ قِبَلِكُمْ، وَيَصِلُ دَوَامَ جَذَلِكُم، وَيُدِيمُ تَأَتِّيَ أَمَلِكُمْ، وَيَنْفَعُ وَلِيَّكُمْ بِصَالِحِ دُعَائِكُمْ، وَخُلُوصِ وَلَائِكُم، وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ الأَكْرَمُ الأَعْطَرُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ الأَبْرَعُ الأَرْوَعُ الأَحْفَلُ الوَلِيُّ الأَزْكَى الأَفْضَل. «فُلَانٌ» أَدَامَ اللهُ بِالتَّقْوَى عِزَّتَه، وَفَسَحَ فِي غَبْطَةٍ مُتَّصِلَةٍ مُدَّتَه. مُلْتَزِمُ بِرِّهِ الحَافِظُ عَلَى رِعَايَةِ عَهْدِه، المُغْتَبِطُ بِوَلَائِهِ وَوُدِّهِ «فُلَانٌ» سَلَامٌ عَلَى الشَّيْخِ الفَقِيهِ الأَجَلِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ.



وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَهْدِي المُرْتَضَى، وَعَنْ خَلِيفَتِهِ وَلِيِّ عَهْدِهِ الأَكْرَمِ الأَهْدَى، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ الأَعَمِّ الأَسْنَى.

فَكَتَبْتُهُ إِلَيْكُم مِنْ قُرْطُبَة -حَرَسَهَا اللهُ عَنْ نَفْسٍ لَهَا إِلَيْكُمْ أَكْرَمُ نِزَاعٍ- وَمَوَدَّة مُجْتَمِعَة عَلَى هَوَاكُمْ غَيْر أَوْزَاعٍ وَعَهْدٍ تَشْحَذُ الأَيَّامُ جَوْهَرَه وَتَصْقُلُه، وَتُقِرُّهُ فِي مَعْدَنِ الوَفَاءِ وَلَا تَنْقُلُه. عِلْماً بِمَا حُزْتُمْ مِنْ فَضَائِلَ أَحْرَزَ العِلْمُ رِعَايَتَهَا، وَرَفَعَتْ يَدُ الوَرَعِ رَايَتَهَا، وَأَحْكَمَتِ النِّيَّةُ الخَاصَّةُ آيَتَهَا، فَظَهَرَتْ بَاهِرَةَ المَحَاسِنِ سَافِرَةَ القِنَاعِ، وَارْتَفَعَتْ بِوُضُوحِ بُرْهَانِهَا عَنْ دَوْحَةِ الإِقْنَاعِ.

وَأَنَّهُ وَصَلَ كِتَابَكُمُ البَرُّ الأَكْرَمُ وَالنَّفْسُ نَحْوَهُ مُتَطَلِّعَة، وَاليَدُ إِلَى قَبُولِهِ مُتَسَرِّعَة، صُحْبَةَ الطَّائِرِ الغَرِيد، وَالصَّادِحِ المُنْشِد الَّذِي جَعَلَ شَهَوَاتِه، عِيَالاً عَلَى نَغَمَاتِه، فَمَتَى عُرِّيَ أَوْ جَاعَ، أَعْمَلَ الأَلْحَانَ وَالأَسْجَاع، فَعَادَ بَطِيناً بَعْدَ أَنْ كَانَ خَمِيصا[1] وَلَبِسَ مِنَ الرِّيشِ لِلُّوَّامِ قَمِيصا. وَإِنَّ مِنْ أَكْرَمِ مَايَمُتُّ بِهِ وَيُرَاشُ بِسَبَبِهِ مَا يَنْثُرُهُ مِنْ مَحَاسِنِكُمْ وَيَسْرُدُه، وَيُكَرِّرُهُ مِنْ إِطَابَةِ ذِكْرِكُمْ وَيُرَدِّدُه. وَإِنِّي وَقَفْتُ مِنْ كِتَابِكُم البَرِّ عَلَى مَا شَرَحَ النَّفْسَ، وَأَتَاحَ الأُنْس، فَإِنَّكَ ضَمَّنْتَهُ فُصُولا، أَصْبَحَتْ لِلْحِكْمَةِ أُصُولاً، وَأَرَتْ مَفْصُولَ البَلَاغَةِ مَوْصُولا، جَلَتِ البَصَائِرَ وَأَذْكَتْهَا، وَتَصَدَّتْ لِمَرْضَى النُّفُوسِ وَأَشْكَتْهَا.

وَمِنْ قَبْلِهِ وَصَلَ أَيْضاً مِنْكُمْ كِتَابٌ اخْتَلَسَتْهُ يَدُ الضَّيَاعِ مِنْ يَدِي، قَبْلَ أَنْ يَرْتَسِمَ مَعْنَاهُ فِي خَلَدِي، وَالضَّيَاعِ إِلَى الذَّخَائِرِ النَّفَائِسِ، أَسْرَعِ مِنَ النَّسِيمِ إِلَى الغُصْنِ المَائِس. فَوَا أَسَفا عَلَى أَنْ لَمْ أَفُضَّ خِتَامَه، وَأَحُطَّ لِثَامَه، وَأَقِفَ عَلَى حِلْيَةِ مَعْنَاهُ وَأَلْقُطَ جَوْهَرَ الحِكْمَةِ مِنْ بَحْرِه، وَأَسْقُطَ عَلَى الخَبِيرِ مِنْ سِرِّهِ[2]، وَالنَّفْسُ حَتَّى الآنَ بِمَا تَضْمَنُهُ عَلِقَةٌ، وَإِلَى مَعْرِفَةِ مَا حَوَاهُ قَلِقَة، فَلَكُمُ الفَضْلُ بِالإِعْلَامِ بِمَا كَانَ اقْتَضَاه، وَاسْتِيعَابِ الغَرَضِ الَّذِي

---

(1) الخميص: الجائع وهو ضد البطين وعكسه.

(2) مثل معروف.



أَوْدَعْتُمْ فِيهِ إِلَى أَقْصَاه، وَعَرَّفُوا مَعَ ذَلِكُم، بِمُقْتَضَى حَالِكُم هُنَالِكُم. وَعَلِمَ اللهُ حِرْصِي عَلَى سَمَاعِ أَنْبَائِكُم، وَاسْتِطْلَاعِ السَّارِّ مِنْ تِلْقَائِكُم. وَهَذَا شَأْنٌ مِنْ وُدِّكُمْ فِي صَدْرِهِ مَسْطُور، وَفُؤَادهُ عَلَى رِعَايَةِ عَهْدِكُمْ مَفْطُور. واللهُ تَعَالَى يَصِلُ مَا بَيْنَنَا فِي ذَاتِهِ وَيَقِيهِ مِنْ غِيَرِ الدَّهْرِ وَأَذَاتِه، وَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ سَلَامًا جَزِيلا، مُرَدَّداً عَاطِراً حَفِيلا. وَرَحْمَةُ اللهِ.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ الأُسْتَاذُ العَلَمُ الأَوْرَعُ الأَوْحَدُ الأَفْضَلُ «أَبُو زَيْدٍ» أَدَامَ اللهُ رِفْعَتَهُ وَأَبْقَى بَرَكَتَه، مُعَظِّمُ عَلَائِه، الرَّاجِي بَرَكَةَ دُعَائِهِ «مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ» سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه.

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ المُصْطَفَى وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِّ المُرْتَضَى وَعَنْ خَلِيفَتِهِ الإِمَامِ الأَكْرَمِ الأَهْدَى وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِمُوَالَاةِ النَّصْرِ عَلَى الأَعْدَاءِ.

فَكَتَبَ مُعَظِّمُكُمْ العَارِفُ بِحَقِّكُمْ مِنْ «قُرْطُبَة» وَلَا جَدِيدَ إِلَّا الخَيْرَ وَالحَمْدُ للهِ مَعَ تَشَوُّفِ النَّفْسِ إِلَى مَعْرِفَةِ أَنْبَائِكُمْ، وَتَطَلُّعِهَا إِلَى مَا يَسُرُّ مِنْ تِلْقَائِكُمْ، وَبِوُدِّهَا لَوْ مَنَحَتْ مَا تَتَمَنَّاهُ مِنْ لِقَائِكُمْ، وتَجْنَحُ إِلَيْهِ مِنْ مُشَافَهَةِ مَجْدِكُمْ، وَمُحَاوَرَةِ سَنَائِكُمْ، فَإِنَّكُمْ بَقِيَّةُ السَّلَفِ الَّتِي تُلْتَمَسُ البَرَكَةَ فِي مُجَاوَرَتِهَا، وَتُسْتَفَادُ الحِكْمَةُ مِنْ مُحَاوَرَتِهَا، وَتَرْضَى النَّجَاةَ لِمَنِ اقْتَدَى بِآثَارِهَا، وَاقْتَبَسَ مِنَ أَنْوَارِهَا، وَاللهُ يُمَتِّعُ العِلْمَ وَذَوِيهِ بِانْفِسَاحِ عَهْدِكُمْ وَالزِّيَادَةِ فِيهِ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَإِنَّ كُتُبُكُم الكَرِيمَة -أَدَامَ اللهُ رِفْعَتَكُمْ- كَانَتْ تَرِدُ مُضَمَّنَةً مِنَ الحِكَمِ مَا يَهْدِي إِلَى المَنْهَجِ الأَهَمِّ، وَيُرْشِدُ فَيَسْتَضِيءُ مُعَظِّمُ عَلَائِكُمْ بِنُورِهَا، وَيَتَبَيَّنُ الرُّشْدُ أَثْنَاءَ سُطُورِهَا. فَلَا يَزَالُ كُلَّ حِينٍ يَتَشَوَّفُ إِلَى إِيرَادِهَا، وَيَتَشَوَّقُ إِلَى إِرْشَادِهَا وَلَمَّا أَغَبَّتْهُ الآنَ عَرَاهُ نِزَاعٌ إِلَيْهَا، وَحَرِصَ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهَا، فَخَاطَبَ بِهَذِهِ مُذَكِّراً كَرِيمَ خِلَالِكُمْ، وَمُتَطَلِّعاً سَنِيَّ أَحْوَالِكُمْ، وَاللهُ يُطْلِعُ عَلَى السَّارِ مِنْهَا، وَيُسْمِعُ المُبْهِجَ عَنْهَا. وَحَالُ مُعَظِّمُ



عَلَائِكُمْ إِنْ تَشَوَّفَ فَضْلُكُمْ إِلَى مَعْرِفَتِهَا، وَشَرْحِ صِفَتِهَا، فَهِيَ بِحَمْدِ اللهِ جَارِيَة عَلَى مَا عَوَّدَ سُبْحَانَهُ، مِنِ اتِّصَالِ نَعْمَائِهِ، وَتَوَالِي آلَائِهِ، وَالشُّكْرُ عَلَى ذَلِك، وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ الأَعَمُّ عَلَيْكُمْ دَامَتْ رِفْعَتُكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

أُخْرَى:

الشَّيْخُ الفَقِيهُ الأَجَلُّ المُعَظَّمُ المُبَجَّلُ الوَلِيُّ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ المُقْرِئُ الرَّفِيعُ نَسِيج وَحْدِهِ، وَشَمْس نَظَائِرِهِ فِي سُرُوِّهِ وَمَجْدِهِ. «أَبُو القَاسم ابْنُ أَبِي الحَسَنِ» أَنَامَ اللهُ عَيْنَهُ بِالمَسَرَّات، كَمَا أَيْقَظَ بَصِيرَتَهُ لِبَيَانِ المُشْكِلات. مِنْ مَحَلِّ عَبْدِك، القَائِلِ بِشُكْرِكَ وَحَمْدِك. الفَقِيرِ إِلَى اللهِ تَعَالَى «أَيُّوب» المُتَطَلِّعِ إِلَى مَايَرِدُ عَلَيَّ مِنْ تَحِيَّاتِهِ وَأَخْبَارِه، المُقْتَبِسِ مِنْ بَرَكَاتِهِ وَأَنْوَارِه.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنِّي كَثِيراًوَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ تَحِيَّةً رَضِيَهَا اللهُ سُبْحَانَهُ مِفْتَاحـًا لِحَقِّهِ، وَأَمَانـًا بَيْنَ عِبَادِهِ وَخَلْقِه. وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي قَامَتْ لَهُ الحُجَّةُ بَعْدَ ثُبُوتِ القُدْرَةِ عَلَى عَبْدِه، وَانْدِرَاجِ غَضَبِهِ وَرِضَاهُ فِي حَقِيقَةِ حَمْدِه، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّفِيقُ بِمَنْ أَطَاعَهُ وَعَصَاه، العَادِلُ فِيمَنْ أَدْنَاهُ وَأَقْصَاهُ، وَإِلَى اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ يَلْجَأُ الضَّعِيفُ، وَبِلُطْفِهِ يَسْتَمْسِكُ اللَّهِيفُ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا المُصْطَفَى صَلَاةً تَحْجُبُ عَنِ الخِلَاف، وَتَقُودُ إِلَى مَحَلِّ النَّجَاةِ يَوْمَ التَّلَاف، وَعَلَى آلِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ الأَبْرَارِ المُصْطَفَيْنِ الأَخْيَارِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَان.

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ عِمَادِي الأَعْصَم، وَعَتَادِي الأَعْظَم، فِي رِفْعَةٍ لَا يُعْوِزُهَا أَمَل زِيَادَة، وَلَا يُعْجِزُهَا عَمَل سَعَادَة. حَتَّى لَايَبْقَى لِلشَّرْحِ حَاسِد، وَلَا لِلزَّرْعِ حَاصِد، وَرَدَ كِتَابُ سَيِّدِي الكَرِيم وَحَاجَتِي إِلَيْهِ وَإِلَى الوُقُوفِ عَلَيْهِ حَاجَةَ المَادِّي إِلَى الوَلِيِّ، وَالقَافِيَةِ إِلَى الرَّوِيِّ. فَوَقَفْتُ مِنْهُ عَلَى الرِّيَاضِ العَبِقَة، وَالحِيَاضِ الغَدِقَة. وَعِنْدِي مِنْ آثَارِهِ المُطْرِبَة، وَأَخْبَارِهِ المُغْرَبَةِ أَنْوَارٌ تَنْكَشِفُ بِضِيَائِهَا الظُّلَم، وَتَسْتَبِينُ بِحَقَائِقِهَا الحِكَم، فَلِلَّهِ دَرُّهُ مِنْ كَلَامٍ حُرٍّ، كَأَنَّهُ قِلَادَةَ دُرٍّ. فَالحَمْدُ للهِ الَّذِي أَبْقَى فِي هَذَا العَالَمِ الغَافِلِ،



وَالزَّمَانِ المَائِلِ، مَنْ يُرْجَى وَلَوْ بَعْدَ حِين. واللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ يَاسَيِّدِي أَنِّي ذَاكِرُكَ فِي أَغْلَبِ الأَوْقَاتِ، وَشَاكِرُكَ عَلَى مَمَرِّ السَّاعَاتِ. وَمَا شَاهَدْتُهُ فِي مَجْلِسِهِ الشَّرِيف، الأَغَرِّ المُنِيف، مِنْ بَسْطِ العُلُومِ بِالجُمْلَةِ وَالتَّفْصِيلِ، وَتَأْيِيدِهَا بِالشَّاهِدِ وَالدَّلِيلِ، فَلَوْلَا أَنَّ النَّفْسَ طَامِعَةٌ بِالأَوْبَة إِلَيْكَ، وَرَاجِيَةٌ فِي الجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْكَ، لَطَارَتْ غَرَامًا وَشَوْقًا، وَلَذَابَتْ تَأَسُّفًا وَتَوْقًا[1]:

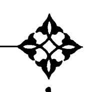
لَوْلَا الرَّجَاءُ لَمِتُّ مِنْ أَلَمِ الهَوَى ... لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلُ

وَكَيْفَ لَا يَكُونُ ذَلِكَ كَذَلِكَ وَلَيْسَ فِي جِسْمِي عُضْوٌ وَلَا جَارِحَة إِلَّا وَلِذِكْرِهِ فِيهَا مَجَال، وَحَنِينٌ إِلَيْهِ حَنِين الظَّمْآنِ إِلَى المَاءِ الزُّلَال. قَرَّبَ اللهُ الاجْتِمَاعَ بِحَضْرَتِهِ، وَأَدَامَ الإِمْتَاعَ بِسَنَى مُهْجَتِهِ، وَ أَدَامَ بَقَاءَهُ لِلدِّينِ يَذُبُّ عَنْهُ وَيَحْمِيهِ، وَ لِلضَّالِ يُرْشِدُهُ وَيَهْدِيه، وَجعَلَ ذَلِكَ زَادَهُ إِلَى المِيعَادِ، وَأَنَالَهُ فِيهِ غَايَةَ مَا يَتَمَنَّاهُ مِنَ الأَمَلِ وَالمُرَادِ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ مَنَّان، وَعَلَيْهِ فِيهِ التُّكْلَان.

وَغير خَفِيٍّ عَنْ شَيْخِي وَسَيِّدِي مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ إِلَيْهِ مَا لَوْ ذَهَبْتُ إِلَى شَرْحِهِ وَبَسْطِهِ، وَبَيَانِ عَقْدِهِ وَرَبْطِهِ، لاسْتَنْفَذْتُ المِدَادَ وَالأَقْلَام، وَلَقَصُرَ عَنْهُ النَّثْرُ وَالنِّظَام، وَلَوْلَا خِيفَةَ الإِطْنَاب، لَكَتَبْتُ بِبَعْضِ مَا أَجِدُهُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْقِ وَالأَوْصَاب، لَكِنِّي أَبُثُّ بَعْضَ مَنْ طَوَتْ عَلَيْهِ نَفْسِي، وَخَامَرَ عَقْلِي وَحِسِّي، وَلَوْ أَنِّي عَرَفْتُ الدُّرَّ مِنْ مَعَادِنِه، وَجَوْهَرَ الكَلِمِ وَالأَلْفَاظِ مِنْ مَوَاطِنِهِ، حِرْصًا عَلَى نَشْرِ مَحَاسِنِ شَيْخِي وَسَيِّدِي لَمَّا كُنْتُ فِي ذَلِكَ إِلَّا حَلَبَةَ التَّقْصِير، وَلَمَّا أَفَدْتُ مِنْهُ إِلَّا النَّزْر اليَسِير. وَمَنْ لَمْ يَنَلْ مَا بَعُدَ مِنْهُ رَضِيَ بِالقُرْب، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ مَاء تَيَمَّمَ بِالتُّرْب. فَالرَّغْبَةُ إِلَى سَيِّدِي وَشَيْخِي أَلَّا أَخْلُوَ مِنْ بَرَكَةِ دُعَائِه، فَسَحَ اللهُ لِي فِي مُدَّتِه، وَنَفَعَنِي بِمَعْرِفَتِه. وَمَا أَرَدْتَ مِنْ مَعْرِفَةِ حَالِي فَحَالُ عَبْدٍ عَبَدَ نَوْمَهُ، وَضَيَّعَ يَوْمَهُ، لَا بِتَصَرُّفِ الأَيَّام زَادَ عِلْمُهُ، وَلَا بِتَصَارِيفِ الأَحْكَام بَقِيَ حِلْمُهُ. وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ الأَعَمُّ الأَكْمَلُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله.

---

(1) البيت للبحتري وهو من الكامل، انظر ديوانه.



أُخْرَى:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الفَقِيهُ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ الأَرْفَعُ الأَسْنَى الأَخَصُّ الأَكْمَلُ «أَبُو زَيْدٍ» سَيِّدِي وَمَوْلَايَ أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْهِ لَبُوسَ نُعْمَاه، مِنْ عَبْدِهِ المُتَفَيِّءِ فِي ظِلَالِ نَعْمَائِهِ، الدَّاعِي إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي إِطَالَةِ بَقَائِهِ «مُوسَى بْنِ أَحْمَدَ» سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ مَهْدِيِّه، وَالدُّعَاءِ لِخَلِيفَتِهِ الأَهْدَى وَلِوَلِيِّهِ بِعَزِيزِ النَّصْرِ وَعَلَيْه.

فَكَتَبْتُهُ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الخَيْرَاتِ أَمْرَعَهَا نِصَاباً، وَأَخْصَبَهَا فِي كُلِّ صَالِحَةٍ جَنَاباً، مِنْ «رُنْدَةَ» -حَرَسَهَا اللهُ- وَلَا جَدِيدَ إِلَّا نِعَمُ اللهِ المُتَوَاتِرَة، وَخَيْرَاتِهِ الجِهَام الَّتِي أَوْلَاهَا بَاطِنَةً وَظَاهِرَة. وَلَهُ الحَمْدُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ وَاصِبا، وَالشُّكْرُ دَائِبا، وَعَنْ نَفْسٍ تَنْقَطِعُ أَنْفَاساً شَوْقاً إِلَيْكُم، وَلِسَانٌ لَا يَنِي فِي نَشْرِ الثَّنَاءِ عَلَيْكُم، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ آخِرُ ثَنَائِي ابْتِدَاءَهُ، وَأَوَّلُ شُكْرِي انْتِهَاءَه. وَقَدْ مَلَكْتُمْ رِقِّي بِصَنَائِعِكُمْ المُتْرَعَةِ الحِيَاضِ، وَأَيَادِيكُمُ الغُرَرِ النَّاصِعَةِ البَيَاض. وَأَنَّى يَسْتَقِلُّ لِي كَاهِلٌ بِشُكْرِ أَيَادِيكُم، أَوْ يَنْهَضَ لِي عَاتِقٌ بِعِبْءِ مَا حَمَلَ بَنَادِيكُمْ حَسْبِي أَنْ أَخْلُدَ إِلَى الأَرْض، وأَتَوَلَّى بَعْضَ الوَاجِبِ الفَرْض، وَأُسَلِّمَ لِإِحْسَانِكُمْ ذِي الطُّولِ وَالعَرْض. وَالرَّب تَعَالَى يَجْعَلُنِي لَكُمُ الفِدَاء، وَيُسْبِغَ عَلَيْكُمُ النَّعْمَاء، وَيُجْزِلَ لَكُمُ الحَظَّ الأَوْفَى وَالثَّنَاء. بِمَنِّهِ وَطَوْلِه. وَمِنْهُ تَعَالَى أَسْأَلُ أَنْ يُمَتِّعَنِي بِكُمْ طَوِيلا، وَيَمُدَّ عَلَيْنَا مِنْ كَنَفِهِ ظِلًّا ظَلِيلا، وَأَلَّا يَجْعَلَ لِمَا عَقَدَهُ بَيْنَنَا صَرْفاً وَلَا تَحْوِيلاً، وَأَنْ يَمُنَّ بِالعَوْدَة، عَلَى أَقْرَبِ مُدَّة، حَتَّى نَرْتَعَ فِي رَوْضٍ مِنَ الأَمْنِ لَا يَذْوَى نَوْرُهُ، ونَغْنَى فِي رَبْعٍ مِنَ العِزِّ مَمْنُوعٌ مِنَ الذُّلِّ طَوْرُهُ، فَمَا ذَلِكَ عَلَيْهِ بِعَزِيزٍ وَلَا لَهُ بِمُعْجِز.

وَالَّذِي وَقَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَاحِبِي -دَامَ عِزكُمْ- فِي مَجْلِسِكُمُ الكَرِيمِ مِنَ المُكَابَرَة، وَثَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنَ التَّقَاطُعِ وَالمُهَاجَرَة، فَأَمْرٌ لَا يَنْتَسِبُ شَيْءٌ مِنْهُ إِلَيْكُمْ. وَحَاشَاكُمْ أَنْ يعد سِوَى الإِيلَافِ وَالائْتِلَاف. وَالَّذِي تَحَامَلَ فِي ذَلِكَ عَلَي، وَاسْتَهْدَفَ إِلَيّ، عِنْدِي -عَلِمَ اللهُ- لَهُ الصَّفْحُ الجَمِيل، وَحُسْنُ التَّأْوِيل، فَكُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ، وَيَجْرِي عَلَى



سَجِيَّتِهِ فِي مُوَاصَلَتِهِ. أَصْلَحَ اللهُ كِلَانَا بِفَضْلِهِ، وَوَفَّقَ جَمِيعَنَا بِطَوْلِهِ إِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِير وَبِالإِجَابَةِ جَدِير. وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ الأَطْوَلُ عَلَى الشَّيْخِ الفَقِيهِ الأَعَزِّ الأَكْرَم سَيِّدِي وَرَحْمَةُ اللهِ، وَعَلَى الفَقِيهِ الجَلِيلِ الأَوْحَدِ الأَصِيل «أَبِي جَعْفَر» أَخِي وَصَفِيِّي، أَبْقَاهُ اللهُ وَسَلَّمَهُ، وَأَثْبَتَ فِي المَكْرُومَاتِ قَدَمَه. وَهُوَ المَعْهُودُ مِنْهُ تَعَالَى فِيمَنْ رَضَعَ أَخْلَافَ الآدَابِ، وَاسْتَنَدَ إِلَى ذَوِي الأَفْهَامِ المُتَيَقِّظَةِ وَالأَلْبَابِ، وَأَمْتَعَنِي الله بِوَلَائِهِ، وَلَا عَرَفَنِي نَقْصاً فِي إِخَائِهِ، بِعِزَّتِهِ لَا رَبَّ سِوَاهْ، وَالرَّغْبَةُ إِلَيْكُمْ -أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَكُمْ- أَنْ تَخُصُّوا بِسَلَامِي الفُقَهَاءَ النُّبَهَاءَ، جَمِيعَ طَلَبَتِكُمْ إِخْوَانِي وَأَوْلِيَائِي. وَصَلَ اللهُ كَرَامَتَهُمْ وَأَوْصَلَ بِطَاعَتِهِ كَلَاءَتَهُمْ وَحِمَايَتَهُمْ، بِمَنِّه وَطَوْلِهِ، وَإِنْ شَرَهَتْ نُفُوسُكُمْ -نَفَّسَ اللهُ مُدَّتَهَا- إِلَى اسْتِطْلَاعِ حَالِ عَبْدِكُمْ، وَنَاشِرِ فَقْرِكُمْ وَمَجْدِكُمْ، فَهِيَ بِحَمْدِ اللهِ عَلَى مَا يُرْضِيكُمْ، وَيَقَعُ وَفْقَ تَمَنِّيكُمْ، واللهُ تَعَالَى يَقِيكُمْ وَيُبْقِيكُمْ، وَيَدْرَأُ المَحْذُورَ عَنْ نَوَاحِيكُمْ، ومُعَادُ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه.

أُخْرَى:

الفَقِيهُ الإِمَامُ الأَوْحَدُ المُحَدِّثُ الأَوْرَعُ الأَمْجَدُ مَعْنَى الزَّمَان، وَرُوحُ جَسَدِ الأَمَان، سِرَاجُ الدِّينِ وَنَاظِرُهُ، وَ مُظْهِرالحَقِّ فِي جَمِيعِ العِلْمِ وَنَاصِرُه، السَّابِقِ فِي الدِّينِ وَالعِلْمِ لِلْأَوَائِلِ الَّذِي طَرَّزَ زَمَانَهُ بِالبَهَاء، وَتَاهَتْ بِهِ الأَرْضُ عَلَى السَّمَاءِ، المُحْيِي لِكُلِّ عِلْمٍ وَمَا انْدَرَسَ لَهُ مِنَ السَّنَنْ، وَالمُجَدِّدِ لَهُ مَا رَثَّ مِنَ السُّنن. الفَقِيهُ الأَجَلُّ «أَبُو القَاسِمِ بْنُ أَبِي الحَسَن» لَازَالَ بَدْرُهُ بِأَفَاقِ العُلُومِ طَالِعا، وَدهرُهُ سَامِعاً لَهُ وَطَائِعا، حَتَّى تُلْحَظَ آمَالُهُ صُوراً، وَتُتْلَى عَلَى أُخْرَيَاتِ الزَّمَانِ آلَاؤهُ سُوَراً.

عَبْدُ إِنْعَامِكُمْ، وَمُلْتَزِمُ تَوْقِيرِكُمْ وَإِعْظَامِكُمْ «حَاجِز بْنَ حَسَن» المُعْتَرِفُ بِالتَّقْصِيرِ فِيمَا يَجِبُ لِجَلَالِكُم، وَمَا خَوَّلْتُمُوهُ مِنْ آلَائِكُم. وَعُذْراً فَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ عُقُوقٍ، وَلَكِنْ مَنْ ذَا يُطِيقُ، مَا يَجِبُ لَكُمْ مِنَ الحُقُوق. والله تَعَالَى يُعِينُ عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهَا وَسُنَنِهَا، وَيَحْمِلُنَا مَدَى الحَيَاةِ عَلَى سَنَنِهَا. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.



وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ العَظِيم، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الكَرِيم. كَتَبْتُهُ عَنْ فُؤَادٍ ظَمْآنٍ إِلَى وِرْدِ ذَلِكَ العُلُوم، وَحِرْصٍ عَلَيْهَا مَدَى الأَيَّام مَوْجُودٍ وَوِرْدٍ مَعْدُوم. وَإِنْ تَكُنِ الأَقْدَارُ قَدْ حَسَمَتِ الاخْتِيَار، فَإِنِّي مُعِيرُكُمْ ضَمِيرا كَمُنْبَلَجِ النَّهَار. وَشُكْراً كَمَا أَرِجَ النُّوَّارُ. وَلَوْ وُفِّقَ أَهْلُ الطَّلَبِ كَهْلاً وَشَبَاباً، لاسْتَحَثُّوا الرَّكَائِبَ إِلَى مَشْرِقِ أَنْوَارِ عُلُومِكُمْ وَجَابُوا اليَبَاب. وَمَنْ دَنَا مِنْهُمْ وَمَنْ كَانَ قَصِيّا، وَبَسَطُوا خُدُودَهُمْ إِلَى مَوْقِعِ أَقْدَامِكُمْ وَلَاذُوابِهَا مَلِيّا، وَمَا عَسَى أَنْ يَقُولَ اللِّسَانُ، أَوْ يُحَصِّلَهُ[1] الإِنْسَان. وَفَضَائِلُكُمْ تَلُوحُ شُمُوساً لِلْوَرَى، وَتُخْرِجُنَا مِنَ العَدَمِ إِلَى الوُجُودِ بِلَا امْتِرَاءٍ، وَإِلَى اللهِ نَرْغَبُ كَمَا جَمَعَ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا بَيْنَ الأَشْرَفَيْنِ العِلْمُ وَالدِّين، أَنْ يَجْعَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ مِنَ الفَائِزِين. وَالَّذِي أَرْغَبُهُ مِنْ شَيْخِنَا -أَكْرَمَهُ اللهُ- أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِصَالِحِ دُعَائِه. فَقِدْمًا نَفَعَنَا وَعَهِدْنَا مِنْهُ الاسْتِجَابَة. والله تَعَالَى يخلِّدُ عَلَى الدُّنْيَا بَهْجَةَ أَنْوَارِكُم، وَيُطِيل لِلْعَالَمِينَ فِي أَعْمَارِهِم. وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِي وَمُعَظَّمِي وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه.

وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي زَيْدٍ عَبْدِ الرَّحْمَانِ بْنِ يَخْلَفْتَن الفَازَازِي، رِسَالَةٌ كَتَبَ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

يَاسَيِّدَ الرُّسُلِ المَكِين مَكَانُهُ ... وَمُقَدَّماً وَهُوَ الأَخِيرُ زَمَانُهُ
وَالمُصْطَفَى المُخْتَارُ مِنْ هَذَا الوَرَى ... فَمَحَلُّهُ عَالِي المَحَلِّ وَشَانُهُ
وَمِنَ النُّبُوءَةِ وَالطَّهَارَةِ وَالهُدَى ... شَرَفٌ حَوَاهُ فُؤَادُهُ وَلِسَانُهُ
عُنْوَانُ طِرْسِ[2] الأَنْبِيَاءِ وَخَتْمُهُ ... وَالطِّرْسُ يُكْمِلُ حُسْنَهُ عُنْوَانُهُ
فَالدَّهْرُ أُفْقٌ أَحْمَرٌ إِصْبَاحُهُ ... وَالخُلْقُ جَفْنٌ أَحْمَرٌ إِنْسَانُهُ
نَادَاكَ عَبْدٌ أَخَّرَتْهُ ذُنُوبُهُ ... وَالشَّوْقُ تَلْفَحُ قَلْبَهُ نِيرَانُهُ
وَفَدَتْ عَلَيْكَ رِكَابُ أَرْبَابِ التُّقَى ... وَالمُذْنِبُ الخَطَّاءُ كُفَّ عِنَانُهُ

(1) في الأصل: «يخلصه» والتصويب بالهامش.
(2) قصيدة الفازازي توجد منها بعض الأبيات في أزها ر الرياض للمقري4/ 18. وقد وردت رسائل الفازازي في مخطوط ليدن رقم: 30. والطِّرْسُ هو الكتاب أو الصحيفة التي محيت ثم كتبت.



لَمَّــا تَخلَّــفَ لِلتَّخلُّــفِ مُــذْنِبًا ... فِــي المُــذْنِبِينَ وَعَــزَّهُ إِمْكَانُــهُ
كَتَــبَ الكِتَــابَ لَعَلَّــهُ إِنْ لَــمْ يَــزُرْ ... بِــاللَّحْظِ قَبْــرَكَ أَنْ تَــزُورَ بَنَانُــهُ
وَوَرَاءَ أَضْـــلَاعِي فُـــؤَادٌ قَيْـــدُهُ ... إِلْــفُ الــذُّنُوبِ وَسِــجْنُهُ أَشْــجَانُهُ
لَكِــنَّ حُبَّــكَ شَــافِعٌ وَمُــشَفِّعٌ ... يَغْــشَى مُحِبَّــكَ يُمْنُــهُ وَأَمَانُــهُ
وَعَلَيْــكَ يَــاخَيْرَ الأَنَــامِ تَحِيَّــةٌ ... كَــالرَّوْضِ صَــافَحَ رَوْحَــهُ رَيْحَانُــهُ
مِمَّــنْ يَــزُورُكَ خَطُّــهُ وَكَلَامُــهُ ... إِذْ لَــمْ يَــزُرْكَ لِذَنْبِــهِ جُثْمَانُــهُ

السَّلَامُ الكَرِيمُ العَمِيمُ، والرَّحْمَةُ التِي لَا تَبْرُح وَلاَ تَرِيمُ، وَالبَرَكَةُ الَّتِي أَوَّلُها الصَّلَاةُ وآخِرُهَا التَّسْلِيمُ، عَلَى حَضْرَةِ الرِّسَالَةِ العَامَّةِ الدَّعْوَةِ، والنُّبُوَّةِ المُؤَيَّدَةِ بِالعِصْمَةِ، وَالأَيْدِ وَالقُوَّةِ وَمَثَابَةِ البِرِّ وَالتَّقْوَى فَهِيَ لِقُلُوبِ الطيِّبِينَ صَفاً وَمَرْوَة، مَقَامَ سَيِّدِ العَالَمِين طُرّاً وَهَادِيهِمُ عَبْداً وَحُراً، وَمُنْقِذِهِمْ مِنْ أَشْرَاكِ الهَلاَكِ وَقَدْ طَالمَا أَلِفُوا العَيْشَ ضَنْكاً وَالدَّهْرَ مُرّاً، وَمَقَر الأَنْوَارِ المُحَمَّدِيَّةِ، وَالبَرَكَاتِ السَّرْمَدِيَّةِ، مَتَّعَ اللهُ الإِسْلَامَ وَالمُسْلِمِينَ بِحِرَاسَةِ أَضْوَائِهَا، وَكَلَاءَةِ ظِلَالِها العَلِيَّة وَأَفْيَائِهَا، وَأَقَرَّ عَيْنَ عَبْدِهَا بِلَثْمِ ثَرَاهَا، وَالانْخِرَاطِ فِي سِلْكِ مَنْ يَرَاهَا. السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّد السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا القَاسِمِ، سَلَامُ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْكَ يَدَ الغَرِيقِ، وَيَرْجُو الإِنْقَاذَ بِبَرَكَتِكَ مِنْ نَكَدِ المَضِيقِ، وَيَنْقَطِعُ أَسَفاً وَيَتَنَفَّسُ صُعُداً كُلَّمَا ازْدَلَفَ إِلَيْكَ فَرِيق، وَعَمَرَتْ نَحْوَكَ طَرِيق، وَلَا يَفْتُر صَلَاةً عَلَيْكَ لَهُ لِسَانٌ وَلَا يَجِفُّ رِيق. كَتَبْتُهُ يَا رَسُولَ الله وَقَدْ رَحَلَ المُجِدُّونَ وَأَقَمْتُ، وَاسْتَقَامَ المُسْتَعِدُّونَ وَمَا اسْتَقَمْتُ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ لَثْمِ ثَرَاكَ النَّبَوِيِّ، وَلَمْحِ سَنَاكَ المُحَمَّدِيِّ، مَفَاوِزُ لاَ يَفُوزُ بِقَطْعِهَا إِلَّا مَنْ طَهَّرَ دَنَسَ ثَوْبِهِ بِمَاءِ تَوْبِه، وَسَتَرَ وَصْمَ عَيْبِهِ، بِطُهْرِ غَيْبِه، فَكُلَّمَا رُمْتُ المَتَابَةَ رُدِدْتُ، وَكُلَّمَا يَمَّمْتُ البَابَ صُدِدْتُ، وَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى بِالمَجِيءِ إِلَيْكَ وَالوِفَادَةِ عَلَيْكَ، وَمَنْ لِي بِذَلِكَ يَا رَسولَ الله والآثَامُ تُثْنِي وَتُبْعِد، وَالأَيَّامُ لَا تُدْنِي وَلَا تُسْعِد، وَبَيْنَ جَنْبَيَّ أَشْوَاقٌ لاَ يَزَالُ يَهُزُّنِي مِنْهَا المُقِيمُ المُقْعِدُ. وَلَئِنْ كُنْتُ مِمَّنْ خَلَّفَتْهُ عُيُوبُهُ، وَأَوْبَقَتْهُ ذُنُوبُه، وَلَمْ يَرْضَ لِلْوِفَادَةِ وَهُوَ مُدَنَّس، عَلَى ذَلِكَ المَقَامِ وَهُوَ المُطَهَّرُ المُقَدَّس، فَعِنْدِي مِنْ صِدْقِ مَحَبَّتِكَ،



وَحُبِّ صُحْبَتِكَ، وَالاعْتِلَاقِ بِذِمَّتِكَ، مَا يُقَدِّمُنِي وَإِنْ كُنْتُ مُبْطِئًا، وَيُدْنِينِي وَإِنْ لَمْ أَزَلْ مُخْطِئًا. فَاشْفَع لِي يَا رَسُولَ اللهِ فِي زِيَارَتِكَ فَهِيَ أَفْضَلُ المُنَى، وَتَوَسَّلْ لِي إِلَى مَوْلَى بَيَّنَ فَضِيلَتَكَ وَتَقَبَّلَ وَسِيلَتَكَ فِي النُّقْلَةِ إِلَى هُنَاكَ مِنْ هُنَا، وَاقْبَلْنِي وَإِنْ كُنْتُ زَائِفًا[1] وَاقْبِل عَلَيَّ وَإِن أَصْبَحْتُ إِلَى الإِثْمِ مُتَجَانِفًا، فَأَنْتَ عِمَادُ أُمَّتِكَ جَمِيعًا وَأَشْتَاتًا، وَشَفِيعُهُمْ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، وَمَنْ نَأَتْ بِهِ الدَّار، وَقَعَدَتْ بِعَزْمِهِ الأَقْدَار، ثُمَّ زَارَ خَطُّهُ وَلَفْظُهُ، فَقَدْ عَظُمَ نَصِيبُهُ مِنَ الخَيْرِ وَحَظُّهُ، وَإِنْ لَم أَكُنْ سَابِقًا فَعَسَى أَنْ أَكُونَ مُصَلِّيًا[2]، وَإِن لَمْ أَعُدْ مُقْبِلًا فَلَعَلِّي لَا أُعَدُّ مُوَلِّيًا. وَوَحَقِّكَ وَهُوَ الحَقُّ الأَكِيدُ، وَالقَسَمُ الذِي يَبْلُغُ بِهِ المُقْسِمُ مَا يُرِيدُ، مَا وَخَدَتْ إِلَيْكَ رِكَابٌ، إِلَّا وَلِلْقَلْبِ إِثْرَهَا التِهَابٌ، وَلِلدَّمْعِ بَعْدَهَا سَحٌّ وَانْسِكَابٌ، وَيَالَيْتَنِي مِمَّنْ يَزُورُكَ مَعَهَا وَلَوْ عَلَى الوَجْنَتَيْنِ، وَيُحَيِّيكَ وَلَوْ بَيْنَ رَكْبِهَا وَلَوْ بِالمُقْلَتَيْنِ، وَمَا الغِنَى دُونَكَ إِلَّا بُؤْسٌ وإِقْلَال[3] وَلَا الدُّنْيَا وَلَوْ طَالَتْ وَعَرُضَتْ إِلَّا سُجُونٌ وَأَغْلَالْ، واللهُ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ يَمُنُّ عَلَى كِتَابِي بِالوُصُولِ وَالقُبُولِ، وَعَلَيَّ بِلِحَاقِهِ بِبَرَكَتِكَ وَلَوْ بَعْدَ طُول، ثُمَّ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه عَلَيْكَ يَا سَيِّدَ الخَلْقِ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنَ الحَقِّ، وَأَوْلَاهُمْ بِإِحْرَازِ قَصَبِ السَّبْقِ، وَمَنْ طَهَّرَ اللهُ مَثْوَاه وَقَدَّسَهُ وَبَنَاه.عَلَى التَّقْوَى وَالرِّضْوَانْ وَأَسَّسَهُ، وَأَتَاهُ مِنْ كُلِّ فَضْل نبَوِيٍّ أَعَلَاهُ وَأَسْنَاهُ، وَأَنْفَسَه، وَعَلَى ضَجِيعَيْكِ السَّابِقِين لِمُهَاجِرِيكِ وَأَنْصَارِكِ، الفَائِزِينَ بِصُحْبَتِكَ العَلِيَّة وَجِوَارِكِ، وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ المُطَهَّرِين، أَوَائِلَ وَأَوَاخِر، المُشَهَّرِينَ مَنَاقِبَ وَمَفَاخِرَ، وَصَحَابَتِكَ الَّذِينَ عَزَّرُوكَ[4] وَوَقَّرُوكَ، وَأَوَوْكَ وَنَصَرُوكَ، وَقَدَّمُوكَ عَلَى الأَنْفُسِ وَالأَهْلِ وَالأَمْوَالِ وَآثَرُوكَ، وَأَقْرَءُوكَ سَلَامًا يَنَالُ بَرَكَتَهُ مَن مَضَى مِنْ أُمَّتِكَ وَغَبَّر، وَيَخُصُّ بِفَضْلِ اللهِ تَعَالَى وَجَاهِكَ مَنْ كَتَبَ وَسَطَّر، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(1) في الأصل: «ز» وقد أضفنا ما يناسب السياق.
(2) الفرس المُصَلِّي الذي يأتي بعد المُجَلِّي.
(3) في الأصل: «وأما الغنى دونك لا بؤس» وقد صححناها بما يناسب السياق.
(4) عزره: فخمه وعظمه وآزره.



وَكَتَبَ عَبْدُكَ المُسْتَمْسِكُ بِعُرْوَتِكَ الوُثْقَى، اللَّائِذُ بِحَرَمِكَ الأَمْنَع الأَوْقَى، المُتَأَخِّرُ جِسْمًا المُتَقَدِّمُ نُطْقًا، عَبْدُ الرَّحمَانِ ابن يَخْلَفْتَن بن أَحْمَدَ الفَازَازِي. عفَا اللهُ عَنْهُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَارَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيراً.

وَكَتَبَ إِلَى بَعْضِ المَشْهُورِينَ بِالعِلْمِ وَالدِّينِ:

رَأَيْتُ بَنِي الدُّنْيَا يُؤَمَّلُ نَفْعُهُمْ ... عَلَى بُخْلِ أَيْدٍ وَاخْتِلَالِ مَكَاسِبِ
وَأَجْدَرُ بِالتَّأْمِيلِ فِي كُلِّ مُعْضِلٍ ... بَنُو الدِّينِ وَالرَّاجُونَ حُسْنَ العَوَاقِبِ
هُمُ القَوْمُ لاَ يَنْفَكُّ رَاجِي نَوَالِهِمْ ... لَدَى ظِلِّ أَدْوَاحٍ وَطَلِّ سَحَائِبِ
غُيُوثُ جُدُوبٍ أَوْ شُمُوسُ مَعَارِفٍ ... هِضَابُ حُلُومٍ أَوْ نُجُومُ غَيَاهِبِ
وَإِنَّ بِأَكْنَافِ المَرِيَّةِ مِنْهُمُ ... لَفَذُّ السَّجَايَا والحُلَى وَالمَنَاقِبِ
بَقِيَّةُ مَنْ فِي الكُتْبِ دِينًا وَسُنَّةً ... فَشَاهِدُهُ قَدْ نَابَ عَنْ كُلِّ غَائِبِ
تَكَسَّبَ مِنْ عِلْمَيْ كِتَابٍ وَسُنَّةٍ ... كَرِيمَ المَسَاعِي فِي سَدِيدِ المَذَاهِبِ
وَلَمْ يَبْتَدِعْ فِي الدِّينِ بِدْعَةَ غَيْرِهِ ... وَلاَ شَذَّ عَنْ بَادٍ مِنَ الحَقِّ لَاحِبِ[1]
وَمَا قُلْتُ إِلاَّ بِالَّذِي قَدْ أَفَادَنِي ... تَوَاتُرَ نَقْلٍ مِنْ ثِقَاتِ الأَصَاحِبِ
وَلَوْلاَ اتِّقَاءُ المَدْحِ أَطْنَبْتُ مُثْنِيًا ... عَلَى فَضْلِهِ قِيلُ امْرِئٍ غير كاذبِ
إِذَا كَانَ مَدْحُ المُتَّقِينَ فَضِيلَةً ... فَمَدْحُ أَبِي إِسْحَاقَ آكَدُ وَاجِبِ
وَمَنْ يَسْتَرِبْ فِيمَا ذَكَرْتُ فَإِنَّهُ ... بِرُؤْيَتِهِ يَدْرِيهِ بَعْدَ التَّجَارِبِ
تَشَوَّقْتُ فِيهِ فَاسْتَنَبْتُ صَحِيفَتِي ... وَرُبَّ كِتَابٍ نَائِبٍ عَنْ مُكَاتِبِ

السَّلَامُ عَلَى إِمَامِ المَعَارِفِ العَارِف، وَغَمَامِ العَوَارِفِ الوَاكِف، وَشَيْخِ الطَّرِيقَةِ المُثْلَى، وَالأَحَقِّ بِالحَقِيقَةِ وَالأَوْلَى، وَالمُقْتَفِي لِسَنَنِ السُّنَنِ والمُقْتَفَى مِنْ خُدَعِ البِدَعِ وَالغَيْثِ المُنْهَلِّ عَلَى أُوَامِ المُتَّبِعِين، وَالسَّيْفِ المُنْسَلِّ عَلَى هَامِ المُبْتَدِعِين، أَبْقَاهُ اللهُ

(1) لاحب: واضح بين وظاهر.



وَحُجَّتُهُ قَاطِعَة، وَمَحَجَّتُهُ عِلْماً وَعَمَلاً نَاصِعَة، وَالنُّفُوسُ الصَّدِئَةُ بِتَذْكِيرِهِ مُجَلَّات، وَالأَنْفَاسُ العَاطِلَةُ بِتَبْصِيرِهِ مُحَلَّاة.

كَتَبَ العَارِفُ بِمِقْدَارِه، الشَّيِّقُ لأَجلِهِ إِلَى جِيرَتِهِ وَدَارِه، المُشْتَمِلُ عَلَى تَعْظِيمِه وَإِيثَارِه، المُجْتَهِدُ فِي اقْتِفَاءِ سُنَنِهِ وَاتِّبَاعِ آثَارِه، العَازِمُ عَلَى زِيَارَتِهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- مُتَبَرِّكا، الحَرِيصُ عَلَى مُجَاوَرَتِهِ -بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى- مُتَلَافِياً لِعُمْرِهِ الضَّائِعِ مُسْتَدْرِكا، فُلَانٌ. وَحَمْدُ اللهِ تَعَالَى وَاجِبُ التَّقْدِيمِ فِي كُلِّ أَمْرٍ مُهِمٍّ، وَأَمَامَ كُلِّ مُبْتَدأ يَجِبُ أَنْ يَتِم، وَشَوْقِي إِلَى سَيِّدِي وَأُسْتَاذِي، وَمَلْجَئِي فِي الاقْتِدَاءِ وَمَلَاذِي، لَا يَزالُ زَنْدُهُ يُقْدَح، وَوُرْقُهُ أَثْنَاءَ الضُّلُوعِ تَصْدَح. وَلَوْ كَانَتْ مُخَاطَبَتِي إِيَّاهُ بِحَسَبِ حُبِّي، وَعَلَى مُقْتَضَى مَحَلِّهِ الأَثِيرِ مِنْ قَلْبِي، لَكَانَتِ المُهْجَةُ طِرْساً، وَالمُقْلَةُ نِقْساً[1]، وَلأَصْبَحَتِ الأَنْفَاسُ كَلَاماً، والجَوَارِحُ أَقْلَاماً. فَقَدْرُكَ أَيُّهَا الأُسْتَاذُ غَيْرُ خَافٍ عَلَى مَنْ مُنِحَ تَوْفِيقاً، وَرُزِقَ قَلْباً مُفِيقاً.

نَفَعَ اللهُ بِرُؤَاكَ السَّالِكِين، وَنَبَّهَ بِآرَائِكَ التَّارِكِين، بِمَنِّهِ.

وَالأَخُ فُلَانٌ عَبَّدَ اللهُ لَهُ الطَّرِيقَ عَلَى يَدَيْك، وَسَنَّ لَهُ أَسْبَابَ الإِقَامَةِ [وَالسَّعَادَةِ][2] لَدَيْك، قِطْعَةٌ يُصْلِحُهَا عِلَاجُك، وَفَائِدَةٌ يَنَالُهَا[3]، اسْتِدْرَاجُك. وَبِهِ رَغْبَةٌ فِي السُّلُوكِ وَالطُّرُقُ شَتَّى، وَأَمَلٌ قَوِيٌّ فِي الاقْتِدَاءِ بِكَ إِنْ أَمْكَنَ وَتَأَتَّى، وَهُوَ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ هِمَّةٍ تُرْقِيهِ إِلَى الدَّرَجَةِ العُلْيَا، وَحَالَةٍ تُحَرِّكُهُ حِيناً بَعْدَ الحِينِ لِطَلَبِ الدُّنْيَا. وَمَنْ كَثُرَتْ عِلَلُه، وَأَثَّرَتْ غُلَلُه، فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا طَبِيبٌ يَتَعَهَّدُهُ بِبُلَال، وَيُعِيدُ عَلَيْهِ مَا فَقِدَ مِنَ الإِبْلَال، وَقَدْ أَمَّكَ وَالنُّجْحُ يَقْدُمُه، وَالتَّوْفِيقُ يُقَدِّمُه، وَزَادُهُ حُبُّهُ وَمَرْكُوبُهُ قَدَمُه. فَإِذَا وَصَلَ -بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى وَمَعُونَتِهِ- وَرُزِقَ مِنْكَ قَبُولاً، وَإِلَيْكَ وُصُولاً، فَقَدْ أَوْدَعْتُهُ مَقْصَدِي مِنَ الإِلْمَامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَالاعْتِذَارِ بِالأَعْذَارِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ خَافِيَة. وَمَا أَحْوَجَنِي إِلَى

---

(1) النِّقْسُ: المداد.

(2) بياض بالأصل. وقد أضفنا ما يناسب السياق.

(3) بياض بالأصل.



الطِّبِّ وَالدَّاءُ قَدْ تَمكَّن، وَأَوْلَانِي بِالإِقْلَاعِ وَالفَرْضُ قَدْ تَعيَّن، وَأَحَقَّنِي بِالاسْتِبْصَارِ وَقَدْ وَضَحَ الصُّبْحُ لِذِي عَيْنَيْنِ وَتبيَّن[1]، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يُيَسِّرُ لِي وَلِهَذَا الصَّاحِبِ حَالاً تُيَسِّر خِدْمَتَه، وَتُكْسِبُ حِكْمَتَه، حَتَّى نكُونَ أَحَدَ حَسَنَاتِهِ المَشْهُورَة، وَبَعْضَ قُرُبَاتِهِ المُدَوَّنَةِ المَسْطُورَة، فَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيز. وَاللهُ تَعَالَى يُبْقِيهِ لِغَرِيقٍ يَأْخُذُ بِيَدِه، وَمَائِلٍ يُقِيمُ مِنْ أَوَدِه، وَلَا يُعْدِمُهُ مِنَ التَّوَّابِينَ المُتَطَهِّرِينَ زِيَادَةً فِي عَدَدِهِ وَعُدَدِه بِمَنِّه:

خُذْهَا إِلَيْكَ أَبَا إِسْحَاقَ عَنْ عَجَلٍ ... عُنْوَانَ وُدٍّ كَرِيمِ الخُبْرِ وَالخَبَرِ
صَحِيفَةً صَدَرَتْ، وَالشَّوْقُ يَحْفِزُهَا، ... وَالقَلْبُ يَتْبَعُهَا، وَالجِسْمُ بِالأَثَرِ
أَمَّتْ فِنَاءَكَ تَسْتَسْقِيكَ مِنْ ظَمَأٍ ... أَضْنَى الفُؤَادَ وَتَسْتَشْفِيكَ مِنْ ضَرَرِ
وَفِي لِقَائِكَ بُرْءٌ عَاجِلٌ وَرؤىً ... إِنْ كَانَ فِي الغَيْبِ إِنْسَاءٌ مِنَ العُمُرِ
مَنْ أَخْطَأَ السَّمْتَ وَالظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ ... لَمْ يَهْدِ مُقْلَتَهُ إِلَّا سَنَى القَمَرِ

وَكَتَبَ لِشَيْخِنَا الزَّاهِدِ أَبِي بَكْرٍ بْنِ قَسُّوم[2] وَقَرَأْتُهُ عَلَيْهِ:

السَّلَامُ الكَرِيمُ العَمِيمُ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى، وَبَرَكَاتُهُ، عَلَى مَنْ أَعْتَقِدُ حُبَّهُ قُرْبَة، وَأَرَى لِقَاءَ الأَهْلِ دُونَهُ غُرْبَة، وَأَوَدُّهُ ذَاتاً وَجِيرَةً وَتُرْبَة. أَخِي فِي اللهِ تَعَالَى الشَّيْخِ الفَقِيهِ الفَاضِلِ المُبَارَكِ المُوَفَّقِ وَكُنْتُ أَزِيد، لَوْلَا أَنَّهُ لَا يُرِيد، أَمَّا بَعْدُ:

يَاسَيِّدِي أَرَاكَ اللهُ أَمَلَك، وَخَتَمَ بِالخَيْرَاتِ عَمَلَك، فَإِنِّي كَتَبْتُهُ وَحَالِي فِي نَفْسِي وَبَنِيَّ وَأَهْلِي صَالِحَةٌ وَالحَمْدُ لِلَّه رَبِّ العَالَمِينَ كَثِيراً. وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا فُرْقَةُ أَمْثَالِك، وَالبَيْنُ عَنِ المُنْتَحِلِينَ لانْتِحَالِك. فَاللهُ تَعَالَى يَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ تِلْكَ الطَّرِيقَةَ السَّنِيَّةَ وَإِنْ لَمْ أَسْلُكْهَا، وَأَكْرَهُ هَذِهِ الحَالَةَ الدَّنِيَّةَ وَإِنْ لَمْ أَتْرُكْهَا، وَإِنَّ التَّوْبَةَ لَمَنْوِيَّة، وَإِنَّ الثِّقَةَ بِلُطْفِ

---

(1) من الأمثال العربية المشهورة.

(2) ابن قسوم: زاهد أندلسي اقتصر في شعره على غرض الزهد وأحاط به مجموعة من المريدين. التكملة 2/ 364، الذيل والتكملة 6/ 43، برنامج شيوخ الرعيني، ص: 92.



اللهِ تعَالَى لَقَوِيَّة، وَمَا أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُقِيلَ عِثَارِي، وَيَفُكَّ مِنْ رِبْقَةِ المَعَاصِي إِسَارِي، وَيَنْقُلَنِي مِنْ سُمُومِ الإِعْرَاضِ إِلَى نَسِيمِ الإِقْبَال، وَيُفَرِّغَنِي لِلنَّظَرِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ وَشِيكِ الانْتِقَال، وَيلطفَ لِي فِيمَا امْتُحِنْتُ بِهِ مِنْ ضَعَائِفِ أَيَامَى وَأَصَاغِرِ أُطَيْفَال؛ حَتَّى يُعَاوِدَنِي رَوْحٌ مِنَ الخَيْرِ كُنْتُ تَنَسَّمْتُه، وَيُرَاجِعَنِي دَوْحٌ مِنَ البِرِّ كُنْتُ تَوَسَّمْتُه؛ ثُمَّ رَكَدَ ذَاكَ وَقَدْ كَادَ أَنْ يُمْطِر، وَصَوَّحَ[1] هَذَا وَقَدْ قَارَبَ أَنْ يُزْهِر، وَالعَبْدُ بِحِكْمَةِ القَدَرِ محْكُوم، وَإِلَى مَظنَّةِ النَّصْرِ مَضْمُوم، وَلَوْ أَنِّي مَلَكْتُ يَدِي وَنَفْسِي، وَصَرَفْتُ بِاخْتِيَارِي عَقْلِي وَحِسِّي، لَمَا نَقَلْتُ قَدَماً، فِيمَا يُعقِبُ نَدَماً، وَلَا قَضَيْتُ وَطَراً، مِمَّا يُرْكِبُ خَطَراً؛ وَعَلَى ذَلِكَ فَلَا يَأْسَ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَلَا مَفَرَّ إِلَّا إِلَى اللهِ. فَأَعِنِّي يَاأَخِي أَعَانَكَ اللهُ عَلَى الخَيْرِ، وَوَقَاكَ الحَاجَةَ إِلَى الغَيرِ، بِذِكْرِي مَا تَنَبَّهْتَ مِنْ غَفْوَة، وَتَلَهَّفْتَ لِهَفْوَة، وَأَمِدَّنِي بِدَعْوَةٍ يُخْلِصُهَا القَلْبُ الحَاضِر، وَثُلُث اللَّيْلِ الآخِر، وَلَا تَجْعَلْ دُعَاءَكَ بَيْضَةَ العُقْرِ[2]، وَلْتَكُنْ حَاجَتِي مِنْكَ عَلَى ذِكْر، فَالغَرِيقُ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ آخِذٍ بِيَدِه، وَإِنْ كَانَ سَابِحاً، وَالمُذْنِبُ لَا يَسْتَبِدُّ دُونَ مُسْتَغْفِرٍ لِذَنْبِه وَلَوْ عَادَ صَالِحاً؛ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيه»[3] وَمَنْ كَانَ بِمِثْلِكَ كَثِيراً زَاحَمَ بِعَوْد[4]، وَاسْتَسْقَى وَابِلَ مَطَرِ جَوْد، وَانْتَظَرَ النَّجَاحَ لِطِبِّه، وَالصَّلَاحَ مِنْ قَلْبِه، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَقَدْ وَصَلَ فُلَانٌ وَأَدَّى مَا حَمَّلْتُمُوه مِنْ قَوْلٍ حَسَن، وَتَرْجِيَةٍ تَلَقَّاهَا قَلْبِي بِسَمَاعٍ وَأُذْن، فَجَزَاكُمُ اللهُ فِي ذَلِكَ القَوْلِ وَجَزَاهُ فِي هَذَا النَّقْلِ جَزَاءً لَا تُعْدِمُونَ بَرَكَتَهُ مَحْيا وَمَمَاتاً، وَلَا تَفْقِدُونَ يُمْنَهُ جَمِيعاً وَأَشْتَاتاً. بِمَنِّهِ وَكَرَمِه.

---

(1) صوح يقال: صوح البقل، وتصوح يبس، ومنه قول أبي علي البصير:

وَلَكِنَّ البِلَادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ ... وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعِيَ الهَشِيمُ

(2) بيضة العقر: فيها اختلاف لغوي كبير ملخصها أنها توضع مرة واحدة.

(3) حديث نبوي شريف. انظر كشف الخفاء للعجلوني. 2/ 204.

(4) مثل عربي قديم، مجمع الأمثال 1/ 320.



وَكَتَبَ لِلزَّاهِدِ أَبِي عِمْرَانَ بْن أَبِي عِمْرَان[1]:

السَّلَامُ الكَرِيمُ العَمِيمُ، وَالرَّحْمَةُ الَّتِي لَا تَبْرَحُ وَلَا تَرِيمُ، والبَرَكَاتُ المُتَّصِلَةُ الإِلْمَامِ الدَّائِمَةُ التَّخْيِيم، عَلَى حَضْرَةِ البَقِيَّةِ الصَّالِحَة، والخَتْمِ المَوْجُودِ فِيهِ مَعْنَى الفَاتِحَة، قُطْبِ المُجَاهِدِين، وَعَلَمِ المُشَاهِدِين، وَالخَيْرِ الجَامِعِ عِلْماً وَعَمَلاً بَيْنَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَالرَّغْبَةِ فِي الدِّين. نَفَّسَ اللهُ لِلْمُسْلِمِينَ عُمْرَه، وَنَفَعَهُمْ بِهِ إِذْ لَمْ يُبْقِ لَهُمْ غَيْرَه. كِتَاب مُلْتَزِمِ الفَرْضِ مِنْ تَعْظِيمِه، وَمُغْتَنِمِ الحَظِّ مِنْ وُصَاتِهِ وَتَعْلِيمِه، المُعِدِّ فَخْراً لِلأُخْرَى بَرَكَتَيْ دُعَائِهِ وَتَسْلِيمِه. مُحِبُّهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فُلَانٌ. وَهُوَ يَحْمَدُ إِلَيْهِ اللهَ سُبْحَانَهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي لَا يَكِثُّ[2] عَدَدُهَا، وَلَا يَقْطَعُ بَشِيرَ الشُّكْرِ أَبَداً أَمَدُهَا. وَإِنَّ مِنْ أَجَلِّهَا بَعْدَ الإِسْلَام، ذِكْرِي بِالجَمِيلِ لِذَلِكُم المَقَام، عَلَى هَفَواتٍ عِنْدِي وَهَنَوَاتٍ، وَتَضْيِيعِ شُهُورٍ جَمَّةٍ وَسَنَواتٍ، وَقِلَّةِ اكْتِرَاثٍ لِكُلِّ مَاضٍ وَعَدَمِ إِعْدَادٍ لِكُلِّ آتٍ. فَسُبْحَانَ مَنْ أَظْهَرَ يَسِيرَ الجَمِيلِ وَسَتَرَ كَثِيرَ القَبِيح، وَخَصَّنِي مِنِ اعْتِقَادِ ذَلِكُم الجَنَان الطَّاهر وَذِكْرِ ذَلِكُمُ اللِّسَان الشَّاكِرِ بِالتَّجْرِ الرَّبِيح، وَجَزاكُمُ اللهُ عَنِّي أَيُّهَا العَلَمُ الأَهْدَى، وَالقُدْوَةُ عِلْماً وَزُهْدا، والخَلَفُ المَحْمُودُ صَدَراً وَوِرْدا، جَزَاءَ مَنْ أَحْسَنَ لِنَفْسِهِ وَلِغَيْرِه، وَنَاطَ بِالخَيْرِ الأُخْرَوِيِّ هِمَّةَ قَصْدِهِ وَسَيْرِه، وَنَفَعَنِي بِالبَاعِثِ عَلَى مَحَبَّتِكُم، وَالرَّغْبَةِ فِي المُثُولِ بِحَضْرَتِكُم. وَيَعْلَمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَهُوَ أَعْظَمُ الشَّاهِدِين، وَأَكْرَمُ المُشَاهِدِين، أَنِّي أُوثِرُ الأَنْدَلُسَ كُلَّهَا، وَأُحِبُّهَا وَأُحِبُّ مَنْ حَلَّهَا، إِجْلَالًا لَكُمْ وَلِأَمْثَالِكُمْ، وَرَغْبَةً فِي الاقْتِدَاءِ بِعُلُومِكُمْ وَأَعْمَالِكُم. فَأَمَّا وَاللِّقَاءُ لَمْ يُقْضَ، وَإِبْرَامُ العَزِيمَةِ لَا يُعْدَمُ النَّقْض؛ فَإِنِّي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكُمْ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أَنْ تُفْرِدُوا لِي مِنْكُمْ سَحَراً تُجَرِّدُونَ فِيهِ النِّيَّةَ، وَتُخْلِصُونَ الطَّوِيَّةَ، وَتقصرونَ الرَّغْبَةَ عَلَى تَيْسِيرِ أَسْبَابِ المَثَاب، فَقَدْ تَعَذَّرَتْ عَلَيَّ،

---

(1) أبو عمران الميرتلي: موسى بن حسين بن عمران كان من الزهاد في عصره، صاحب فضل وصلاح. انظر تحفة القادم، ص: 132، التكملة: 678، المغرب 1/ 406، الغصون اليانعة، ص: 135. وله شعر كثير في أماكن متفرقة من شرح المقامات للشريشي. برنامج الرعيني، ص: 95.

(2) كث يكث: بمعنى قل العدد ونقص.



وَعُدِمَتْ لَدَيَّ، فَكُلَّمَا أَبْرَمْتُ أَمْراً انْحَلَّ، وَكُلَّمَا أَضْمَرْتُ عَقْداً اخْتَلَّ. وَهَذِهِ حَالَتِي قَدْ شَرَحْتُهَا، وَحَاجَتِي عَلَى فِنَاءِ تِلْكُمُ الحَضْرَةِ قَدْ طَرَحْتُهَا. وَأَرْجُو أَنْ يَرْزُقَنِي اللهُ مِنْ سَيِّدِي قَبُولاً فَيُسْعِف، وَيُعِينَ بِدُعَائِهِ الصَّالِحِ هَذَا المُذْنِبِ المُتَخَلِّف، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالى؛ فَقَدْ نَفِذَ عُمْرهُ لَهْواً وَلَعِباً، وَقَطَعَ ظَهْرَهُ دَعْوىً وَكَذِباً. وَاللهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يَقْبَلُ المُتَبَهْرِج، وَلَا يَسْتَعْمِلُ إِلَّا المُتَحَرِّج. وَأَنَا مُنْتَظِرٌ تَبَدُّلَ هَذَا الاخْتِلَال عَلَى يَدَيْكُم، وَنَاظِرٌ بِعَيْنِ الاضْطِرَارِ فِيهِ إِلَيْكُم. فَاجْعَلُونِي يَاسَيِّدِي مِنْ بَعْضِ حَسَنَاتِكُمْ، وَأَعِدُّوا مَعُونَتِي فِي جُمْلَةِ إِعْدَادَاتِكُم. وَاللهُ تَعَالَى يَنْفَعُكُمْ وَيَنْفَعُ بِكُمْ، وَيجْزِيكُمْ بَعْضَ الجَزَاءِ عَنْ سَنَنِكُمُ القَوِيمِ وَمَذْهَبِكُمْ بِمَنِّهِ وَعِزَّتِهِ.

وَكَتَبَ يُخَاطِبُ صَاحِباً وَيَذُمُّ لَهُ الدُّنْيَا وَأَحْوَالَهَا وَيَصِفُ تَقَلُّبَهَا وَاخْتِلَالَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ أَكْرَمَهُ اللهُ بِتَقْوَاه، وَأَبْقَاهُ بَقَاءً يَرْضَاه، وَحَفِظَهُ وَرَعَاهُ وَتَوَلَّاهُ، وَلَا أَعْدَمَهُ عَلَى تَغَيُّرِ الزَّمَنِ تَوْفِيقاً يَعْصِمُ دِينَهُ وَجَاهاً يَعْضُدُ دُنْيَاه. كَتَبْتُه وَلَا جَدِيدَ إِلَّا الرَّحمة الوَاسِعَة والأَلْطَاف المُتَتَابِعَة. وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً وَوُدِّي عَبِقُ الرَّيَّا، أَنِيقُ المُحَيَّا، لَمْ تُحْدِثِ النَّوَى لِنَشْرِهِ طَيّا، وَلَا انْتَقَصَتْ مِنْ قُوَاهُ وَالحَمْدُ لِلَّهِ غَرْماً شيّا وإِنَّ زَمَناً[1] يُنْبِئُ أَمْثَالَكَ وَيُعْدِمُ مِثَالَك لَجَدِيرٌ بِأَنْ يَطُولَ عِقَابُه، وَيُنْتَظَرَ إِقْلَاعُهُ وَمَتَابُه، فَأَنْتَ السَّرِيُّ الفَعَال، الكَرِيمُ العَمِّ وَالخَال، المَخْصُوصُ بِخُلُقٍ كَالخَمْرِ مَمْزُوجَةٍ بِمَاءِ زُلَال. وَإِنَّكَ لَمَنْ يُعْتَدُّ بِمَعْرِفَتِه، وَيُعْدَمُ المُتَّصِفُ بِصِفَتِه، وَيُوثَقُ بِنَزَاهَتِهِ وَأَنَفَتِه، وَإِنْ حَلَلْتَ مَحلًّا لَا يَحُلُّ الأَحْرَار، وَلَا يُرْعَى فِيهِمُ الآلُ وَالجِوَار؛ فَأَنْتَ كَالمِسْكِ إِن قُصد كَتْمُه، ذَاعَ شَمُّه، لَا بَلْ كَالسَّيْفِ إِنْ حَوَاهُ غِمْدُه، خُرِقَ حَدُّه، وَالحَقُّ عَالٍ وَإِنْ نُوِيَ حَطُّه، وَالطِّرْسُ حَالٍ وَإِن سُتِرَ خَطُّه، وَالزَّمَنُ وَإِنْ كَانَتْ عَادَتُهُ إِخْمَال أَهْلِ الكَمَالِ، وَقَسَمَ حُظُوظَهُم الوَاجِبِ لَهَا اليَمِينُ بِالشِّمَالِ، فَرُبَّمَا خَرَقَ العَادَة، وَتَدَارَكَ مَا ضَيَّعَ بِالإِعَادَة.

---

(1) في الأصل: «وان رمنا». ولم نتمكن من قراءتها.



وَالقَاضِـي فُـلَانٌ ممَّـنْ يَـصْدُقُ نَظـرُه، وَيَظْفَـرُ بالأَمَـلِ مُنْتَظِـرُه، وَإِنْ رَابَ مِنْـه أَوَّلُ فَسَيحمد آخِراً، وَإِن غَفَلَ لَهُ سَمْعٌ فَسَيَكْلأُ نَاظِراً، فَهُوَ حُرٌّ وَابْنُ أَحْرَارٍ وَقَدْ خَبَرْتُه[1] فَحَيَّ هَـلَّا بِـذَلِكَ الاخْتِبَار، وَلَـنْ يَـضِيقَ صَـدْرُكَ المُتَّسِعُ عَمَّا كُنْتُ ذَكَرْتُـهُ لَـكَ مِـنَ الأَعْذَار؛ فَالحَاكِمُ مُمْتَحَن وَبِإِسْعَافِ فُلٌّ وَفُلَانٍ مُرْتَهَن، وَالقُلُوبُ كَمَا تَعْلَمُ دَخَن كُلُّهَا وَإِحَن. أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى صَلَاحَ ذَاتِ البَيْن، وَالمَعُونَـةَ عَلَى إِصْلَاحِ الجَانِبَيْن، فَالـدُّنْيَا أَنْذَرُ مِنْ أَنْ يَقُودَ العُقُولَ خِطامُهَا، أَوْ يَـرُوقَ العُيُـونَ حُطَامُهَـا، فَتَقَلُّبُهَـا طَبَعِيٌّ، وَالمَـرْءُ فِيهَا إِمَّا نَاعٍ أَوْ مَنْعِيٌّ، وَالحَالُ هَـذِه فَـالتَّزَاحُمُ عَلَيْهَـا غَـيٌّ أَوْ عِيٌّ، وَلَـسْتُ أَعْنِيك، وَلَا أُشِيرُ إِلَى أَلْفَاظِكَ وَمَعَانِيك. فَاخْفِضْ قَلِيلاً مِنْ جَنَاحِـك، وَاصْبِرْ عَلَـى مَـا أَعْهَـدُهُ مِـنْ رِفْقِكَ وَسَـمَاحِك. فَكَـأَنْ قَـدْ وَقَـعَ الفِـرَاقُ بِمَـوْتٍ أَوْ نَـوى، وغَـادَرَ المَـرْءُ أَوْ غُـودِرَ الهَوَى[2] الفَقِيهُ أَبُو فُلَانٍ جَابَ وَجَال، وَدَخَـلَ الأَمْصَارَ وَلَقِي الرِّجَال، وَقَيَّـدَ الإِسْـنَادَ خَطّـاً وَحِفْظـاً وَالأَرْسَـال، وَأَفْنَـى عُمْـرَهُ بَـيْنَ فِعْـلِ رَسُـولِ اللهِ ﷺ وَمَـا قَـال، وَبِالأَمْسِ كُنَّا دَائِرِينَ بِمَرْكَزِه، مُسَلِّمِينَ لِمَيْزِهِ وَتَمَيُّزِه، فَهَا هُوَ قَدْ أَضْحَى رَهِـينَ اللَّحْد، كَأَبِي الزَّنْد، صَرِيعـاً لِصَفِيحَةِ الرَّدَى عَلَى صَفْحَةِ الخَد، كَـأَنْ لَـمْ يَعْمُـرْ جِـسْمَهُ الـرُّوح، وَلَا كَانَ فِي طَلَبِ العِلْمِ يَغْدُو وَيَرُوح؛ وَاللهُ تَعَـالَى يُغْمِـدُهُ بِرِضَـاه، وَيَنْفَعُـهُ بِـالعِلْمِ فَقَـدْ رَوَاه، وَيَجْعَلُنَا مِمَّن اعْتَبَرَ وَانْتَظَرَ فَكَأَنَّ المَوْتَ قَدْ أَتَاه.

وَإِنَّ دَاراً مَآلُها المَمَاتُ، وَغَايَةُ جَمْعِهَا الشَّتَاتُ، لَأَهْلٌ أَنْ تُتْـرَكَ ذَمِيمَـة، وَيُزْهَـدَ فِيهَـا فَلَا قَـدْرَ لَهَـا وَلَا قِيمَـة. وَقَـدْ وُعِظْنَـا لَـوْ نَـتَّعِظُ، وَاخْتَلَفَـتْ بَيْنَنَـا سِـهَامُ المَنِيَّـةِ وَنَحْـنُ لَا نَحْتَفِظُ. وَإِنَّا للهِ عَلَى قُلُوبٍ عَمِيَـتْ بَـصَائِرُهَا، وَخَبُثَـتْ سَـرَائِرُهَا، وَوَقَـفَ عَلَـى الـدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ سَمْعُهَا وَنَاظِرُهَا. أَسْأَلُ اللهَ تَعَـالَى صَـلَاحـاً عَـاجِلاً، وَتَوْفِيقـاً لَا يُغَـادِرُ حَقَّـهُ فِـي الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ بَاطِلاً، فَهُوَ عَلَى ذَلِكَ قَدِير، وَالمَوْلَى الَّذِي لَـمْ يُعْـدَمْ مَـعَ لُطْفِـهِ تَـسْهِيلٌ وَتَيْسِير، وَإِلَيْه سُبْحَانَهُ أَضْرَعُ أَنْ يُعْلِيَ كَعْبَك، وَيَسُوءَ شَانِيكَ وَيَـسُرَّ مُحِبَّـك. وَلَا زِلْـتَ مَحْرُوسَ المَكَانِ وَالمَكَانَة، مَجْزِيّـاً بِمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الدِّيَانَةِ وَالأَمَانَة.

(1) في الأصل: جبرته.

(2) بياض بالأصل.



وَكَتَبَ لِلشَّيْخِ الفَقِيهِ أَبِي عَبْدِ اللهِ رُكْنِ الدِّينِ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الفَقِيهُ العَالِمُ الأَوْحَدُ عَلَّامَةُ العُلَمَاء، وَقُدْوَةُ الأَتْقِيَاء، وَالعَضْبُ الَّذِي لَا يُعَارِضُ حَدَّهُ شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاء، أَبُو فُلَانٍ رُكْنُ الدِّينِ وَقُطْبُ المُوَحِّدِين، وَالشَّجَى المُعْتَرِضُ فِي صُدُورِ المُلْحِدِين. حَرَسَ اللهُ مُهْجَتَه، وَأَعْلَى حُجَّتَه، وَنَهَجَ إِلَى دَارِ السَّلَامِ -بِذَبِّهِ عَنِ الإِسْلَامِ- مَحَجَّتَه.

كَتَبَ مُعَظِّمُ مِقْدَارِهِ، الحَرِيصُ عَلَى الِاقْتِدَاءِ بِآثَارِه، المُقَدِّمُ لِزِيَارَتِه، لَوْلَا تَأْخِيرُ أَعْذَارِه، فُلَانٌ وَلَا جَدِيدَ إِلَّا فَضْلَ اللهِ تَعَالَى السَّابِغُ[2] وَمَنِّهِ السَّائِغُ[3]. وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً وَأَنَا عَلَى مَا يَتَعَيَّنُ مِنْ إِجْلَالِكُمْ مُقِيمٌ، وَتَشْيِيعِي[4] فِيكُمْ حَدِيثٌ وَقَدِيمٌ، وَتَقْدِيمِي لَكُمْ عَلَى تَقْدِيمِ مَنْ لَمْ يَدُلَّهُ عَلَى سِوَاكُمْ سَبْرٌ وَتَقْسِيم. وَكُنْتُ أَخَذْتُ عَنْ طَلَبَةِ تُونُسَ -جَبَرَهَا اللهُ- مَنَاقِبَكُمْ تَقْلِيداً، وَأَوْدَعْتُهَا خَلَدِي صَوْناً لَهَا وَتَخْلِيداً، وَأَضْمَرْتُ لَهَا الرِّحْلَةَ إِلَيْكُمْ وَإِنْ كَانَ المَزَارُ بَعِيداً؛ فَلَمْ تَزَلِ السُّنُونَ تَنْقَرِض، وَالقَوَاطِعُ تَعْتَرِض، وَالحَاجَةُ إِلَى مُشَافَهَتِكُمْ فِي الغَوَامِضِ العَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ تَسْتَنْهِض؛ إِلَى أَنْ بَانَ الآنَ أَنَّ الزَّمَنَ غَيْرُ مُوَاتٍ، وَأَنَّ بَنِيهِ -حَاشَاكُمْ- أَحْيَاءٌ كَأَمْوَاتٍ؛ وَصَحَّ أَنَّ مُنْتَحِلِي العُلُومَ أَدْعِيَاء، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكْتَسِبُوا مِنْ حُلَى العُلَمَاءِ إِلَّا الأَسْمَاء. فَاسْتَخَرْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ أُوَجِّهَ إِلَى حَضْرَتِكُمُ الَّتِي هِيَ حَضْرَةُ المَعَارِف، وَمَقَرُّ العِلْمِ التَّالِدِ وَالطَّارِف، مَسَائِلَ طَالَمَا صَافَحْتُ[5] بِهَا الفُحُول، وَذَاكَرْتُ مَنْ يُحْسِنُ فِيمَا يَقُولُ أَنْ يَقُول؛ فَكُلُّهُمْ يَرُوعُهُ مُجْتَلَاهَا، وَيَوَدُّ أَنَّ غَيْرَهُ تَوَلَّاهَا؛ وَرُبَّمَا سُطِّرَتْ فِيهَا أَوْرَاق، وَكَانَ فِي الجَوَابِ عَنْهَا

(1) عالم متكلم مشهور بين الأندلسيين، التكملة، ص: 868، الذيل 6/ 364. برنامج شيوخ الرعيني، ص: 73.
(2) في الأصل: «السابع».
(3) في الأصل: «السائع».
(4) في الأصل: «وتشبيعي».
(5) في الأصل: «صفحت» وقد تكون: شافهت.



خِلافٌ وَوِفَاق؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَمْ أَعْثُرْ عَلَى بَارِقَةِ صَوَاب، وَلَا ظَفِرْتُ بِنُكْتَةٍ أَرْتَضِيهَا فِي جَوَاب، وَالإِبْدَاعُ[1] مِنكُمْ يُنَادِي هَلُمَّ هَلُمَّ، إِلَى كَمْ تَسْتَنْطِقُ الصُّمَّ، وَتُودِعُ الوِهَادَ وَتَدَعُ الشَّمَارِيخَ الشُّمَّ؛ هَاكَ رَوْضَ البَلَاغَةِ مُزْهِراً، وَوِرْدَ البَرَاعَةِ مُتَفَجِّراً؛ فَقُلْتُ بِلِسَانِ الحَالِ لَيْسَ قَدْرُكَ بِخَافٍ، وَلَا تَأْخِيرُكَ لِانْكِفَافٍ، بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يَجْتَمِعَ النُّورُ وَالظَّلْمَاءُ، «وَبِضِدِّهَا تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ»[2]، وَقَدْ قَدَّمْتُ الوَسَائِل، وَأَخَّرْتُ الرَّسَائِل، لِتَرِدَ عَلَى مَحَلٍّ قَابِل، وَتَحْظَى بِوِرْدِ بَحْرٍ مَا لَهُ مِنْ سَاحِل.

وَقَدِ اتَّفَقَ أَرْبَابُ الحَلِّ وَالعَقْدِ، وَجَهَابِذَةُ الخِبْرَةِ وَالنَّقْدِ، عَلَى أَنَّكُمْ مِفْتَاحُ مُقْفَلِهَا، وَإِيضَاحُ مُغْفَلِهَا؛ وَأَنَا مُنْتَظِرٌ مِنْ جَوَابِكُمُ القَاطِع، وَتَحْقِيقِكُمُ الحَالَّ مِنَ الصَّوَابِ بِأَشْرَفِ المَوَاضِع، مَا يُقَرِّبُ لِي بِهِ البُعْدُ، وَلَا أَشْكُو مَعَهُ مُشْكِلاً مِنْ بَعْدُ. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَهُوَ يُبْقِيكُمْ لِلْعِلْمِ تَقْبِسُونَ نُورَه، وَالحَقِّ تَحْمُونَ أَعْجَازَهُ وَصُدُورَه، وَلَا يُعْدِمُكُمْ مُسْتَرْشِداً تَمُدُّونَ قُصُورَه، وَمُسْتَرْفِداً تَتَوَلَّوْنَ أُمُورَه. بِمَنِّه. وَلَهُ الفَضْلُ فِي الإِغْضَاءِ عَنْ خَلَلٍ يَمُرُّ بِهِ فِي هَذَا المَكْتُوبِ، أَوْ عَيْبٍ يَرَاهُ مِنْهُ فِي مَعْنىً أَوْ أُسْلُوبٍ. فَإِنِّي كَتَبْتُهُ وَالمَحَلُّ بِالفِكْرِ مَغْمُورٌ، وَدُونَ المُرْتَضَى مِنَ الكَلَامِ خُطُوبٌ وَأُمُورٌ، وَالمُتَحَمِّلُ لَهُ فِي الحَفْزِ وَالانْحِفَازِ مَعْذُورٌ.

وَكَتَبَ لِلْأُسْتَاذِ العَالِمِ أَبِي مُحَمَّدٍ القُرْطُبِيِّ[3] رَحِمَهُ اللهُ:

السَّلَامُ عَلَى الشَّيْخِ الفَقِيهِ العَالِمِ الحَافِظِ الأَوْحَدِ قُدوَةِ أَهْلِ السُّنَّة، وَعَلَمِ عُلُومِهَا المُفْتَنَّة، وَالذَّابِّ عَنْ حِمَاهَا مِنْ فُهُومِ أَفْكَارِه، وَرُسُومِ أَسْطَارِه، بِأَمْضَى مِنَ الظُّبَاتِ، وَأَنْفَذِ مِنَ الأَسِنَّةِ؛ أَبْقَاهُ اللهُ وَبَحْرُ عِلْمِهِ زَاخِر، وَأَوْصَافُهُ كُلُّهَا مَعَالٍ وَمَفَاخِر.

---

(1) في الأصل: «ولا يداع».

(2) شطر بيت شعري.

(3) هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيي بن عبد الله الأنصاري، كان صدرا في المقرئين ورئيسا للمحدثين في عصره. انظر: الذيل والتكملة 4/ 191. ترجمة: 363، التكملة، ترجمة رقم: 879.



كَتَبَ مُعظِّمُهُ [فِي اللهِ][1] وَمُقَدِّمُهُ لِمَكَانِهِ مِنَ التَّبْصِيرِ وَالتَّفْهِيم، الشَّيِّقُ إلى [لِقَائِهِ][2] شَوْقَ الرَّوْضِ المَاحِلِ إِلَى وَكْفِ الغَمامِ وَهُبوبِ النَّسِيم، المُلْقِي إِلَيْهِ يَدَ التَّسْليم، بِضَرُورَتَيْ السَّبْرِ وَالتَّقْسِيم؛ فُلانٌ: وَالحَالُ صَالِحَةٌ وَالحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيراً وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ لِحَقِّكُمْ مِنَ الإِجْلَال، وَلِذِكْرِكُمْ مِنَ الإِطْنَابِ وَالاحْتِفَال، أَنا مِنْ أَقْوَمِ النَّاسِ بِه، وَأَشَدِّهِمْ مُثابَرَةً عَلَيْه، مُعْتَقِداً أَنَّ ذَلِكَ عَمَلٌ صالِحٌ، وَمَتْجَرٌ -إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى- رَابِحٌ؛ وَيَشْهَدُ اللهُ تَعالَى «وَكَفى بِهِ شَهِيداً»[3] أَنَّ لِقاءَكُمْ أَحْلَى مُقْتَرَحَاتِي، وَأَجْلَى مُلْتَمَحَاتِي؛ وَلَوْلَا أَنَّ البَحْرَ مَرْكُوبٌ جَمُوحٌ، وَطِرْفُ سَرْجِه لَوْحٌ، وَعِنانُهُ نَوْحٌ، لَسَعَيْتُ نَحْوَكُمْ وَلَوْ عَلَى الوَجْنَة، وَلَجَعَلْتُ وِفَادَتِي عَلَيْكُم قَرْعاً لِبَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّة؛ وَلِمَ لا وَأَنْتُمْ لِلْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَم، وَرُكْنٌ بِأَفْواهِ الخَوَاطِرِ وَأَنَامِلِ الضَّمائِرِ مُقَبَّلٌ مُسْتَلَم، وَحَلقَتُكُمْ لَا يُنَافِرُهَا إِلَّا مَغْمُوصٌ[4] عَلَيْهِ فِي دِينِه وَعقدِه مُتَّهَم، وَقَدْ سَارَتِ الرُّكْبَانُ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ المُنَابَذَةِ لِكُلِّ أَعْوَجِ الطَّرِيقَةِ، مُنكَّبٍ عَنْ أَنْوَارِ الحَقِّ وَالحَقِيقَةِ؛ وَذَلِكُمْ مِمَّا يُوجِبُ لَكُمْ مَزِيدَ الشُّفُوفِ وَالتَّبْرِيز، وَيُقِيمُكُمْ فِي الزَّمَنِ المُبَهْرَجِ مَقَامَ الذَّهَبِ الإِبْرِيز؛ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى حَاجَةٌ تَهُمُّه، وَطِلْبَةٌ يَكْثُرُ بِهَا هَمُّه، فَمَا أَجْدَرَهُ بِأَنْ يَجْعَلَ دُعاءَكُمْ مِفْتَاحاً لِغلقِها، وَبَرِيداً لِطُرقِها، فَلا وَسيلَةَ أَنْجح مِنْ عَالِمٍ عَامِلٍ، مُشَارٍ إِلَيْهِ مِنْ شَتَّى أَنَامِلِ. وَلِي عِنْدَ اللهِ تَعَالَى حَوَائِجُ يَمْنَعُنِي مِنْ سُؤَالِهَا ...[5] الَّذِي لَا تَمْتَدُّ مَعَهُ الكَفّ، وَأَنَا أَرْغَبُ إِلَيْكُم رَغْبَةَ...[6] وَأَتَعَلَّقُ بِكُمْ تَعَلُّقَ غَرِيقٍ بِبَرّ، فِي أَنْ تَذْكُرُونِي أَعْقَابَ الصَّلَواتِ، وَأَوْقَاتَ الخَلَوَاتِ، وَتَسْأَلُوا لِيَ الإِقْلَاعَ عَنْ مُوبِقِ الهَفَواتِ؛ فَقَدْ غَمَرَ المَشِيب، وَلَمْ يَصلحِ القلبُ المَعِيب، وَآنَ الحُضُورُ وَمَا بِيَدَيَّ إِلَّا المَغِيب. وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَمُنُّ بِفَتْحِ البَاب، وَتَعْجِيلِ المَتَاب، وَلَا يَكِلُنَا إِلَى أَنْفُسِنَا فِي سَبَبٍ مِنَ الأَسْبَاب.

---

(1) بياض بالأصل وقد أثبتنا ما يناسب السياق.

(2) بياض بالأصل وقد أثبتنا ما يناسب السياق.

(3) آية قرآنية.

(4) غمص: يقال رجل مغموص عليه في دينه وحسبه أي مطعون فيه.

(5) بياض بالأصل.

(6) بياض بالأصل.



وَلَمَّا تَوَجَّهَ مُتَحَمِّلُهَا حَمَّلْتُهُ أَمَانَةَ السَّلَام، واسْتَنَبْتُه بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ في اسْتِلام ذَلِكُمُ المَقَام. فَإِنْ أَسْعَفَتِ الأَيَّامُ بِمَرامِي، فَاللِّقَاءُ أَمامِي، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى. أَبْقَاكُمُ اللهُ في نِعَمٍ وَافِيَةٍ، وَعِصَمٍ كَافِيَةٍ، وَلَا أَخْلاَكُمْ فِي أُمُورِ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ مِنْ سَلَامَةٍ وَعَافِيَةٍ.

وَكَتَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُرَاجِعاً بَعْضَ الأَصْحَابِ وَمُتَشَكِّياً خِلَالَ مُرَاجَعَتِهِ التَّسْوِيفَ بِالمَتَابِ:

وَهِيَ رِسَالَةٌ جَمَعَتْ نَثْراً وَنَظْماً، وَأَطْلَعت فِي أُفْقِ البَيَانِ لِلإِجَادَةِ نَجْماً، أَوَّلُهَا:

أَصْفَيْتُكَ الوُدَّ مُضْطَرّاً وَمُخْتَارَا ... وَلَمْ أُخاطِبْكَ، إِجْلَالاً وَإِكْبَارَا
وَصُنْتُ سَمْعَكَ عَنْ قَوْلٍ أُجَشِّمُهُ ... وَهْو الدُّجَى، أَنْ يُعِيرَ الشَّمْسَ أَنْوارَا
وَقُلْتُ أَيُّ كَلَامٍ أَرْتَضِيهِ لَهُ ... وَهْو المُقَدَّمُ تَرْسِيلاً وَأَشْعارَا
يَخْفَى الأَصِيلُ أَصِيلاً مِنْ رَوِيَّتِهِ ... لِذاكَ يَظْهَرُ بِالأَسْحَارِ أَسْحَارَا
وَيَقْذِفُ القَوْلَ مَعْدُومٌ مُعارِضُهُ ... وَمَنْ يُسَاجِل طَامِي المَوْجِ إِبْحَارَا[1]
قَدْ عَافَ عُونَ المعانِي وَهْيَ مُعْرِضَةٌ ... لَهُ فَسَيَّرَهَا فِي النَّاسِ أَبْكَارَا
سَارَتْ بِهَا العِيسُ مَرَّ الطَّيْرِ مُسْرِعَةً ... حَتَّى حَسِبْتَ لَهَا الأَكْوَارَ أَوْكَارَا
يَأْتِيكَ عَفْواً بِمَا تُعْيِي رَوِيَّتُهُ ... عَبْدَ الحَمِيدِ وَيَكْسُو العِيَّ بَشَّارَا[2]
وَلَوْ جَعَلْتُ كَلامِي رَوْضَةً أُنُفاً ... وَصُغْتُ أَحْرُفَ خَطِّي فِيهِ أَزْهارَا
وَهَبْهُ يُغْضِي عَنِ العَوْراتِ يَسْتُرُهَا ... فَضْلاً، فَفِي النَّاسِ مَنْ لَا يَكْتُمُ العَارَا
وَهَبْهُ كانَ -أَدامَ اللهُ بَهْجَتَهُ- ... حُرّاً، فَلَيْسَ جَمِيعُ النَّاسِ أَحْرَارَا
تَكْفِيهِ مِنِّي مُوالَاةٌ مُخَلَّصَةٌ ... مِنَ الشَّوائِبِ إِعْلَاناً وَإِسْرَارَا
وَإِنَّنِي لَا أَرَى فِي النَّاسِ كُلِّهِمُ ... خِلاًّ يُوازِيهِ أَخْلَاقاً وَمِقْدَارَا
وَإِنَّ إِيثَارَهُ لِلْخَيْرِ يَفْعَلُهُ ... لَمْ يُبْقِ لِلنَّاسِ فِي دَعْوَاهُ آثَارَا

---

(1) بياض بالأصل.

(2) يقصد بعبد الحميد الناثر العربي المعروف. أما بشار فهو شاعر عباسي من دعاة التجديد.



وَإِنَّنِي قَبْلَ مَرْآهُ وَخِبْرَتِهِ ... وَبَعْدَهَا كَمُضِيمٍ أَدْرَكَ الثَّارَا
وَقَدْ أَتَانِي كِتَابٌ مِنْهُ حَمَّلَهُ ... كَتَائِبَ اللَّوْمِ إِيرَاداً وَإِصْدَارَا
فَقُمْتُ أَلْثُمُ آثَارَ الرَّسُولِ بِهِ ... وَقُلْتُ: أَهلاً وَسَهْلاً كَيْفَمَا زَارَا
وَأَسْتَمْطِرُ الشَّوْقَ لَمَّا فُضَّ خَاتَمُهُ ... مَدَامِعاً صِرْنَ لِلأَسْطَارِ أَسْطَارَا
وَلَمْ أَمُرَّ بِحَرْفٍ مِنْهُ أَقْرَأُهُ ... إِلَّا تَأَخَّرْتُ إِنْصَافاً وَإِقْرَارَا
وَصُنْتُهُ بَعْدَمَا وَفَّيْتُ وَاجِبَهُ ... بِالسَّمْعِ أُوسِعُهُ حِفْظاً وَتَكْرَارَا
وَكُنْتُ أُخْفِيهِ فِي جَفْنِي وَفِي خَلَدِي ... لَكِنْ خَشِيتُ عَلَيْهِ المَاءَ وَالنَّارَا

أَفْوَحُ السَّلَامِ وَأَعْطَرُه، وَأَنَمُّهُ نَوْراً وَأَنْضَرُه، عَلَى السَّيِّدِ الَّذِي لَا أَزَالُ أَتَذَكَّرُه، وَأُوثِرُهُ، وَأَشْكُرُهُ وَأُكْبِرُه، وَالفَاضِلِ الَّذِي طابَ خُبْرُهُ وَمَخْبَرُه، وَسَما فِي قُنَّةِ المَجْدِ حَيْثُ لَا يُقْتَفَى أَثَرُه.

كَتَبْتُهُ كَتبَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ مِمَّنْ أَسْعَدَ مَمَاتَهُ وَمَحْيَاه، وَلَم يَرْجُ لِمُهِمَّاتِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلَّا إِيَّاه، وَأَنا أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَى نِعَمِهِ وَعِصَمِه، أُعَوِّلُ فِي صَلَاحِ حَالِي عَلَى فَضْلِهِ وَكَرَمِه. فَإِنِّي سَلِيمٌ إِلَّا مِنَ العُيُوب، وَمُقْلِعٌ إِلَّا عَنِ الذُّنُوب، رَاكِبٌ مِنْ هَوَى نَفْسِي شَرَّ مَرْكُوب، أَقْتَصِرُ عَلَى التَّمَنِّي وَالتَّسْوِيف، وَأُعَلِّقُ تَوْبَتِي بِالأَمَلِ الضَّعِيف، وَلِلْمَنِيَّةِ كُلَّ يَوْمٍ سَهْمٌ صَائِب، وَالدُّنْيا مَكَارِه كُلُّهَا وَمَصَائِب[1]:

حَالٌ يَقِلُّ لِمِثْلِهَا ... حَلَّ العِقَابُ بِأَهْلِهَا
وَمُصِيبَةٌ عَظُمَتْ عَلَيَّ ... فَمَا أَقُومُ بِثِقْلِهَا
لَهْفِي لِأَيَّامِي الَّتِي ... مِنْ غَفْلَةٍ لَمْ أُخْلِهَا
مَرَّتْ وَمَا حَلَّتْ لَدَيَّ ... دَقِيقَةٌ فِي حِلِّهَا

(1) من مجزوء الكامل.



لَـــمْ أَسْـــتَفِقْ مِـــنْ بَعْـــضِهَا[1] حَتَّـــى أُصِـــبْتُ بِكُلِّهَـــا
لَهْفِـــي عَلَـــى الـــنَّفْسِ الَّتِـــي لَا تَرْعَـــوِي عَـــنْ جَهْلِهَـــا
تَلْهُـــو وَقَـــوْسُ المَـــوْتِ تَـــنْـ ـــزِعُ النُّفُـــوسَ بِنَبْلِهَـــا
وَكَأَنَّهَـــا قَـــدْ أَلْحَقَـــتْ بِمَـــنِ انْقَـــضَى[2] مِـــنْ قَبْلِهَـــا
يَاأَيُّهَـــا الخِـــلُّ المُنَـــا دَى مِثْلَـــهُ فِـــي مِثْلِهَـــا
أَسْـــعِدْ أَخَـــاكَ بِـــدَعْوَةٍ تَـــسْقِي ثَـــرَاهُ بِوَبْلِهَـــا
فَعَلَيْـــهِ مِـــنْ نَـــسْجِ الـــذُّنو بِ مَـــدَارِعٌ لَـــمْ يُبْلِهَـــا
وَاللهُ يَـــــشْهَدُ أَنَّنِـــــي فِـــي حَيْـــرَةٍ[3] مِـــنْ أَجْلِهَـــا

أَسْتَغْفِرُ اللهَ مِنْ قَوْلٍ لَا يُصَدِّقُهُ الفِعْل، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يَفعَلَ بِي مَا هُوَ لَهُ أَهْل، فَمَا حَقُّ مِثْلِي أَنْ يَتَحَلَّى بِهَذَا المَقَال، وَهُوَ مُخَالِفٌ[4] لَهُ بِالحَال. لَكِنْ أَنَا مَصْدُورٌ، وَفِي طُولِ التَّفَجُّعِ مَعْذُورٌ، وَقَدْ فُقِدَ الشَّبَاب، وَلَيْسَ إِلَّا العَارُ وَالعَاب:

وَأَتَتْنِـــي الأَرْبَعُـــونَ وَمَـــا ثَقَّلْـــتُ عَـــنْ زَلَّـــةٍ قَـــدَمَا
كُلَّمَـــا جَـــدَّدْتُ عُـــدَّتَهَا جَـــدَّدَتْ لِـــي عُـــدَّتِي أَلَمَـــا
كُنْـــتُ أَرْجُـــو أَنْ أُوافِيَهَـــا قاطِنـــاً مِـــنْ تَوْبَـــةٍ حَرَمَـــا
مُـــصْغِياً لِلنُّـــصْحِ أَسْـــمِعُهُ أُذْ نـــاً قَـــدْ أُوقِـــرَتْ صَـــمَمَا
فَأَبَـــتْ نَفْـــسٌ قَـــدِ اتَّخَـــذَتْ خَـــصْمَهَا مِـــنْ جَهْلِهَـــا حَكَمَـــا[5]

---

(1) في الأصل: «من بغضها»، ولعل الصواب ما أثبتناه حيث يناسب ما ورد في آخر البيت.
(2) في الأصل: «بهن انقض»، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(3) في الأصل: «في حبرة»، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(4) في الأصل: «وهو محالف»، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) فيه إشارة إلى قول المتنبي:
يَـا أَعْـدَلَ النَّـاسِ إِلَّا فِـي مُعَـامَلَتِي فِيكَ الخِصَامُ وَأَنْتَ الخَصْمُ وَالحَكَمُ



تَرْكَبُ الآثَامَ دائِبَةً ... ثُمَّ لَا تَسْتَشْعِرُ النَّدَمَا
يَقْظَاتٌ كُلُّهَا حُلُمٌ ... وَوُجُودٌ يُشْبِهُ العَدَمَا
لَوْ رَأَيْتُ الذَّنْبَ مُنْصَرِماً ... لَمْ أَعُدَّ العُمْرَ مُنْصَرِمَا
خالَفَتْ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمَتْ ... وَجَنَى قَلْبِي وَقَدْ عَلِمَا
وَعَلَى هَذَا فَلِي أَمَلٌ ... يَرْقُبُ الإِحْسانَ وَالكَرَمَا

وَأَمَّا مَا أَجِدُهُ لِبَيْنِكَ أَيُّهَا الأَخُ الأَوْحَد، وَالوَلِيُّ الَّذِي آثَارُهُ الكَرِيمَةَ لَا تُجْحَد[1]، فَأَمْرٌ إِمْرٌ، وَخَطْبٌ مَا لِي عَلَى تَحَمُّلِهِ صَبْرٌ[2]. أُشْهِدُ اللهَ تَعالَى وَهُوَ خَيْرُ الشَّاهِدِين، وَأَعْلَى المُطَّلِعِينَ وَالمُشاهِدِين، إِذْ أَعُدُّكَ أَوَّلَ الخُلْصَان، وَأَرْبأُ بِكَمالِ خِلالِكَ عَنِ النُّقْصَان، وَأَتَمَنَّى قُرْبَكَ فِي جُمْلَةِ مَا أَتَمَنَّاه، وَأَعْجَبُ مِنْ حُسْنِ لَفْظِكَ وَصِدْقِ [مَعْنَاه][3] وَأَقْطَعُ أَنِّي لَمْ أَرَ فِي أَبْناءِ الرِّيَاسَةِ وَذَوِي النَّفاسَةِ أَشَدَّ مِنْكَ انْجِذاباً إِلَى الخَيْر وَلاَ أَكْثَرَ كِبراً عَنِ الكِبْرِ تَمِيلُ بِطَبْعِكَ السَّرِيِّ إِلَى الفُقَرَاء، وَتَنْبُذُ النَّابِذِينَ لَهُمْ وَإِنْ عَزُّوا بِالعَرَاء، وَتُجَدِّدُ بِمُجالَسَتِكَ ذِكْرَ الصُّلَحاءِ الرُّفَقَاء، وَتَرْغَبُ لِصَلاحِكَ فِي صَلَاحِ الفُقَراء، وَتُحْسِنُ الظَّنَّ حَتَّى بِالمُخَلِّطِين، وَتَتَواضَعُ حَتَّى لِلْغَالِطِينَ وَالمُغَلِّطِين[4]. هَا أَنْتَ تُحَلِّينِي بِالزُّهْدِ وَالفَضْل، وَتَنْسُبُنِي إِلَى سَدَادِ القَوْلِ وَالفِعْل، وَتُخاطِبُنِي مُخاطَبَةَ مَنْ نَبَذَ الدُّنْيَا وَانْتَبَذ، وَهَجَرَ أَهْلَهَا فَمَا أَعْطَى وَلاَ أَخَذ، حَسَّنَتَ الظَّنَّ بِكُتُبٍ صَفَفْتَها[5]، وَأَقْوالٍ فِي ذَمِّ الدُّنْيا بِلِسانِ السَّهْوِ صَرَفْتَها، وَالباطِنُ بِالمُهْلِكاتِ مَشْحُون، وَالأَخْلاقُ كُلُّهَا دُون، وَالمانِعُ مِنَ الخَوْضِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدُّنْيا عَجْزٌ وَهُون. وَاللهِ ما أَكْتُمُكَ حَرْفاً مِنْ حَالِي وَانْتِحَالِي، وَأَمَّا الفَضْلُ فَكَيْفَ وَأَنَّى لِي[6].

---

(1) في الأصل: «يجحد».
(2) في الأصل: «صبرا».
(3) في الأصل: «مع».
(4) في الأصل: «المعلطين».
(5) في الأصل: «صفمتها».
(6) من الكامل.



بَيْنِـي وَبَـيْنَ الفَـضْلِ كُـلُّ تَنُوفَـةٍ[1] ... لِلــذَّنْبِ لَـمْ تَقْطَـعْ بِـصِدْقِ إِنـابَتِي

وَمَهالِــكٍ لَاجُنَّـــةٌ تُلْفَــى بِهَـــا ... وَثِقَـتْ بِغَيْـرِ إِصَـابَتِي[2] فَأَصَـابَتِ

وَلَقَــدْ عَلِمْــتُ بِــأَنَّنِي مُـسْتَهْدَفٌ ... حَتَّــى أُبَــدِّلَ حـالَتِي وَعِـصَابَتِي

أَنْشُدُكَ اللهَ أَيُرْمَى قَوْلِي هَذا بِإِزْرَاءٍ وَأُنْسَبُ فِيهِ إِلَى تَمَلُّقٍ وَطِرَاء. كَلَّا وَحَقِّكَ بَل اخْتَصَرْتُ، وَأَشَرْتُ وَمَا فَسَّرْت. أَفَأُلَامُ أَنْ أَنْجَذِبَ إِلَيْكَ بِالكُلِّيَةِ، وَأُولِي عَلَى تَقْدِيمِكَ كُلَّ أَلِيَّة. وَأُرَدِّدُ المَثَلَ الَّذِي[3] قَالَ: «حَسُودُكَ فِيهَا مَنْ يَسُودك».

قُــلْ لِمَــنْ يَحْــسُدُكُمْ ... يَــضْرِبُ فِيــهِ أَصْــدَرَيْهِ

أَبْــصَرَتْ عَيْنـــاهُ مَـــا ... كَذبــهُ عَـــنْ أُذنَيْــهِ

وَرَأَى أَوْسَـــطَ مَجْـــدٍ ... قَــدْ نَبَــا عَــنْ طَرَفَيْــهِ

قَـــالَ كَـــمْ ذَا تُفْرِغُـــو ... نَ[4] الــشُّكْرَ وَالــذِّكْرَ عَلَيْــهِ

قُلْــتُ: كُــلُّ الــشُّكْرِ مِنَّــا ... بَعْــضُ آثَــارِ يَدَيْــهِ

فَلَـــهُ فَـــضْلٌ عَلَيْنَـــا ... وَبِنَــا شَــوْقٌ إِلَيْــهِ

وَأَمَّا مَا أَجْرَى إِلَيْهِ سَيِّدِي مِنَ المُعاتَبَة، فِي تَرْكِ المكاتَبَة، مَعَ أَنَّهُ يَسْتَعْمِلُها كَثِيراً، وَلَا يَرَى تَأْثِيراً؛ فَقَدْ فَرَغْتُ الآنَ مِنْ أَنَّهُ سَبَّاقُ الفَضَائِل، وَهَذِهِ إِحْدَى الدَّلَائِل؛ صَدَقَ -أَعَزَّهُ اللهُ- فِيمَا قالَ، وَهُوَ أَوْلَى مَنْ أَغْضَى[5] وَأَقَال. أَمَا واللّهِ مَا تَرَكْتُ ذَلِكَ إِخْلَالاً لَهُ بِقَدْر، وَلَا لِأَنَّهُ لَيْسَ مُتَرَدِّداً بَيْنَ لِسانٍ وَصَدْر؛ وَلَكِنْ لَمْ أَعْلَمْ لَهُ عَلَى الحَقِيقَةِ مَكانـاً، وَلاَ وَجَدْتُ لِواجِبِ مُخاطَبَتِهِ إِمْكَانـاً؛ فَأَمَّا الآنَ وَقَدْ عَلِمْتُ المُسْتَقَر، وَتيَقَّنْتُ أَنَّهُ اسْتَقَر، فَسَأُورِدُها عَلَيْهِ -إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى- رِيَاضـاً تُزْهِرُ بِذِكْرِه، وَتَقْتَصِرُ عَلَى شُكْرِه، وَأَخُصُّهُ

(1) التنوفة: المفازة القفراء.

(2) العبارة غامضة لم تترجح قراءتها لدي.

(3) في الأصل: «بياض»، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(4) في الأصل: «تفرعون».

(5) في الأصل: «من أعضى».



-وَلَا فخر- بِكُلِّ مُخْتَرَعِ الكَلَامِ بِكْرِه، وَلِمَ لَا وَنَظْمِي وَنَثْرِي مُسْتَرَقٌ مِنْ نَظْمِهِ وَنَثْرِه. هَذِهِ كُتُبُهُ الأَنِيقَةُ بِمَرْآى مِنِّي وَمَسْمَع، وَأَلْفاظُهُ البَدِيعَةُ مَصْرُوفٌ إِلَيْها حِفْظِي أَجْمَع، صَيَّرَتْنِي مُحْسِناً وَقَدْ كُنْتُ مُسِيئاً، وَتَرَكْتَنِي سَابِقاً وَمَا زِلْتُ بَطِيئاً[1]:

فَالآنَ أُحْسِنُ إِنْ نَثَرْتُ ... وَإِنْ نَظَمْتُ عَلَى البَدِيهَهْ
وَأَحُوكُ كُلَّ قَصِيدَةٍ ... عَذْراءَ تَكْبُرُ عَنْ شَبِيهَهْ
أَنْطَقْتُها مِلْءَ اللِّسانِ ... وَطَالَمَا كانَتْ فَهِيهَهْ
مَا إِنْ تُحاذِرُ حَيْثُ سَارَتْ ... نَاقِداً إِلَّا العَضِيهَهْ
آثَارُ مَا أَوْدَعْتَهُ ال ... كُتُبَ المُوَجَّهَةَ الوَجِيهَهْ

وَهُوَ أَعَزَّهُ اللهُ يَصِلُ عَادَةَ إِمْتاعِهِ بِرِقَاعِه، وَيُعْفِي خَطِّي وَلَفْظِي مِنْ نَقْدَيْ عِيَانِهِ وَسَماعِه، وَلَا يَقِيسُ ضِيقَ فِتْرِي فِي البَلاغَةِ عَلَى سَعَةِ بَاعِه، وَيَتَلَقَّى مَا أَشَارَ بِرَسْمِهِ بِيَدِ قَبُولِه، وَيُغْضِي عَنْ قِصَرِ أُصُولِهِ وَقُصورِ فُصُولِه، فَإِنِّي كَتَبْتُهُ وَالمُتَحَمِّلُ حَافِز، وَبَيْنِي وَبَيْنَ الإِصَابَةِ مِنَ العِيِّ حَاجِز، وَقَدْ عَجَزْتُ أَعْجِزُ عَجْزاً فَأَنَا عَاجِز. جَعَلَنِي اللهُ مِمَّنْ لَا يُرِيدُ سِوَاه، فِيمَا قالَهُ أَوْنَوَاه، وَمِمَّنْ وَقَى دُرَرَ دِينِهِ بِأَصْدافِ دُنْيَاه، فَعَلَيْهِ قَصْدُ السَّبِيل، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيل:

وَلَا تَزَلْ فِي سُعُودٍ مَوْصُولَةٍ وَجُدُودِ
وَنِلْتَ قَصْدَكَ مَا بَيْنَ رَاحَةٍ وَقُعُودِ
وَزُرْتَ عَمَّا قَرِيبٍ لِلأُنْسِ بَابَ البُنُودِ
وَقَدْ وَعَدْتَ وَلَا بُدَّ مِنْ وَفَاءِ العُهُودِ
وَصَانَ رَبُّكَ مَا فِيكَ مِنْ عَفَافٍ وَجُودِ

---

(1) مجزوء الكامل.



وَكَتَبَ أَيْضاً فِي مِثْلِ ذَلِكَ المَعْنَى:

حُرُوبُ النَّوَى وَالقُرْبِ فِيكَ سِجَالُ ... يُـدَالُ عَلَيْنَا تَارَةً وَنُدَالُ
أَلَمْ يَانِ أَنْ تُلْفَى لِبَيْنِكَ غَايَةٌ ... فَتُدْرَكَ آمَالٌ وَيَحْسُنَ حَالُ
لَقَدْ حَلَّ قَلْبِي مِنْ وِصَالِكَ جَنَّةً ... نَعِمْتُ عَلَيْهَا لَوْ يَدُومُ وِصَالُ
وَلَوْ خَفَّ شَجْوِي لَمْحَةً طِرْتُ نَحْوَكُمْ ... وَلَكِنَّ أَعْبَاءَ الفِرَاقِ ثِقَالُ
وَإِنِّي وَقَدْ بِنْتُمْ لَفِي كَفِّ حَادِثٍ ... قَضَى رَمَقٌ مِنْهُ وَضَاقَ مَجَالُ
فَحَلَّلَ[1] حُزْنِي فِيكَ وَهْوَ مُحَرَّمٌ ... وَحَرَّمَ صَبْرِي عَنْكَ وَهْوَ حَلَالُ
إِذَا عَمِيَتْ أَنْبَاؤُكُمْ فَتَنَفُّسِي ... جَوابٌ، وَدَمْعُ المُقْلَتَيْنِ سُؤَالُ
أَبَعْدَكَ -وَالإِينَاسُ قُرْبُكَ وَحْدَهُ- ... تَرُوقُ رِيَاضٌ أَوْ تَرِقُّ شَمالُ
وَأَنْتَ الَّذِي قَدْ فُقْتَ بَذْلاً وَفِطْنَةً ... وَحَسْبُ المَعَالِي فِطْنَةٌ وَنَوالُ
رَحَلْتَ إِلَى مَثْوَى النُّبُوَّةِ وَالهُدَى ... فَبُورِكَ مَقْصُودٌ وَبَرَّ فَعَالُ
وَأَدَّيْتَ فَرْضَ الحَجِّ حَزْماً وَلَمْ تَكُنْ ... كَمَنْ أَغْفَلَتْهُ شِرَّةٌ وَصِيَالُ
وَمَنْ خَانَهُ فِي مَقْصَدِ الخَيْرِ عَقْلُهُ ... فَفِي رِجْلِهِ مِمَّا جَنَاهُ عِقَالُ
إِذَا جَالَ فِي عِلْمِ العَقَائِدِ خَاطِرٌ ... تَرَكْتَ يَمِينَ الخَصْمِ وَهْيَ شِمالُ
وَصَرَّفْتَ فِكْراً يَقْذِفُ الدُّرَّ بَحْرُهُ ... وَأَقْصَى فِكْرِ غَيْرِكَ آلُ
إِذَا بَهَرَتْ شَمْسُ الظَّهِيرَةِ نَاظِراً ... فَلَيْسَ يُبَالَى أَنْ يَغِيبَ هِلَالُ
أَعَرْتَ[2] دَلِيلَ الحَقِّ حُسْنَ إِبَانَةٍ ... فَصُلْتَ بِسَيْفٍ قَدْ عَلاهُ صِقَالُ

(1) في الأصل: «فخلل» وهو خطأ، ولعل الصواب ما أثبتناه؛ لأن السياق يقتضيه.
(2) في الأصل: «أعدت».



فَكُــلُّ كَــلامٍ رائِــقٍ وَمُحَقَّــقٍ ... إِلَيْــكَ مُمَــالٌ أَوْ عَلَيْــكَ مُحــالُ
وَلَا غَــرْوَ أَنْ حُـزْتَ الـسِّبَاقَ دِيَانَــةً ... فَلِلــدِّينِ وَالــدُّنْيَا مـدىً وَرِجَــالُ
يُــذَكِّرُنِيكَ الفَــضْلُ مَهْمــا ذَكَرْتُــهُ ... وَفِي كُــلِّ شَــيْءٍ مُــشْبِهٌ وَمِثَــالُ
وَلَــمْ يُـسْلِنِي شَـيْءٌ فَأَنْـساكَ عِنْـدَهُ ... وَإِنْ بَــرَّ آلٌ أَوْ تَــوَفَّرَ مَــالُ
وَلَـوْ جازَ لِـي دَعْـوَى الـسُّلُوِّ ادَّعَيْتُـهُ ... عَــزاءً، وَلَكِــنَّ الــسُّلُوَّ مُحــالُ
فَفــي كُــلِّ وُدٍّ غَيْــرِ وُدِّكَ رِيبَــةٌ ... وَفِي كُـلِّ خِـلٍّ مَـا خَـلاكَ مَقَـالُ

كَتَبْتُهُ كَتَبَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ مِمَّنْ رَضِيَ عَنْهُ مِنْ عِبادِه، وَنَظَرَ فِي الإِصْلَاحِ مِنْ عَمَلِهِ وَالتَّسْدِيدِ مِنْ اعْتِقادِه، وَجعَلَ فِي المُنْتَظَرِ مِنْ رَمْسِهِ وَمَعَادِه، غَايَةَ تَهَمُّمِهِ وَأَقْصَى اسْتِعْدَادِه. وَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ إِلَيْكَ سُبْحانَه وَأَشْكُرُه، وَأُقِرُّ بِفَضْلِهِ المُكْتَنِفِ لِي فِيمَا آتِيهِ وَأَذَرُه، وَأَسْتَغْفِرُهُ مِنْ مُنْكَرٍ لَا أَزالُ أَحْضُرُهُ وَأَسْتَحْضِرُه، وَذَنْبٍ لَا أَبْرَحُ أُورِدُهُ بِيَدِ الخِذْلَانِ وَلَا أُصْدِرُه. وَإِلَى اللهِ المُشْتَكَى مِنْ أَوْقاتٍ ذَهَبَتْ ضَياعاً، وَتَقَلُّبَاتٍ لَمْ أَجِدْ مَعَ الإِنْصَافِ فِيهَا انْتِفاعاً، وَأَنْفاسٍ فَنِيَتْ أَوْكادَتْ وَلَمْ أَحْتَقِبْ فِيها غَيْرَ مُوبِقاتِ الجَرائِمِ مَتاعاً. وَيَالَهَا حَسْرَةً إِنْ لَمْ يَتَدارَكْنِي المَوْلَى سُبْحانَهُ بِعَفْوِه الوَاسِعِ، وَيَرْشُدَنِي إِلَى العَمَلِ الصَّالِحِ وَالعِلْمِ النَّافِعِ.

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِمَّنْ وَاخَذْتَهُ بِذَنْبِه، وَطَبَعْتَ بِمَا قَدَّمَتْ يَداهُ عَلَى قَلْبِه. بِمَنِّكَ. أَمَّا بَعْدُ أَيُّها الأَخُ الَّذِي أَنَا بِإِخَائِهِ مَسْرُور، وَالوَلِيُّ الَّذِي مَحَلُّهُ لَدَيَّ مُكَرَّمٌ مَبْرُور؛ فَقَدْ خاطَبْتُكَ مُجْملاً وَمُفصلاً، وَكَاتَبْتُكَ مَرْوِيّاً وَمُرْتَجلاً؛ فَلَمْ أَقِفْ لَكَ عَلَى غَيْرِ الكِتَابِ المُضَمَّنِ القِطْعَةَ الفَرِيدَة، والفِقَرِ المُحَسَّنَةِ الجَيِّدَة، وَهُوَ وَإِنْ كانَ نَسِيجَ وَحْدِه، وَمُسْتَرَقَّ أَوْصافَ البَلاغَةِ بِحَدِّه، ومُعَبِّراً عَنْ صِدْقِ وَلَاءِ مُهْدِيهِ وَخُلُوصِ عَقْدِه، فَقَدْ أَضْرَبَ عَنْ ذِكْرِ مَا اسْتَفْهَمْتُهُ عَنْهُ صَفْحاً، وَلَمْ يُبْدِ لِي فِي لَيْلِ السُّؤَالِ مِنْ نُورِ الجَوابِ صُبْحاً، وَزادَنِي عَلَى الإِضْرابِ عَنْ هَذَا البابِ وَصْفِي بِصِفاتٍ لَمْ أَسْتَحِقَّها، وَلَا رَعَيْتُ مُنْذُ وَعَيْتُ حَقَّهَا، حَتَّى كَأَنِّي فَوَّزْتُ وَلَجَّجْتُ، وَلَجَجْتُ حَتَّى حَجَجْتُ،



وَرَافَقْتُ الأَغْزَارَ وَالأَعْرَاب، وَأَعْمَلْتُ المَراكِبَ وَالرِّكَاب، وَوَقَفْتُ بَيْنَ زَمْزَم وَالحَطِيم، وَلَثَمْتُ قَائِماً مَقَامَ إِبْراهِيم، وَاقْتَصَرْتُ فِي الأَلِيَّة، عَلَى رَدِّ هَذِهِ البَنِيَّة، وَشَهِدْتُ لَيالِيَ التَّشْرِيق، وَعايَنْتُ النُّورَ النَّبَوِيَّ مِنْ ثَنِيَّةِ العَقِيق، وَأَقْرَرْتُ عَيْنِي بِالسَّلَام، عَلَى سَيِّدِ الأَنَام، وَحَطَطْتُ عَنْ ظَهْرِي بِلَثْمِ تُرْبَتِهِ الكَرِيمَةِ أَجْرامَ الإِجْرام، وَزُرْتُ مَشاهِدَ صَحابَتِهِ الكِرام أَعْلَامِ الإِسْلام، وَانْثَنَيْتُ عَنِ الذُّنوبِ مُتَجانِفاً، وَلِلأَعْمالِ مُسْتَأْنِفاً؛ فَأَمَّا وَأَنا لِلْبَيْتِ حِلْسٌ، وَلَيْسَ بِيَدَيَّ مِنْ أَثْمانِ الدِّينِ وَالدُّنْيا فِلْسٌ؛ فَما أَجْدَرَنِي بِالذَّمِّ وَالشَّيْن، وَأَحْوَجَنِي إِلَى الخَفْضِ مِنَ اللِّسانِ وَالغَضِّ مِنَ العَيْن. أَمَّا تِلْكَ الأَوْصافُ فَهِيَ عَلَيْكَ رَدٌّ، وَما لَكَ مِنْ قَبُولِها بُدٌّ؛ وَأَمَّا أَنا فَإِنِّي أَخْتِمُ بِهَذِهِ الأَبْياتِ الثَّلاثَة، عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الغَثاثَة:

أَعِدْ نَظَراً فِي نِسْبَةِ الفَضْلِ وَالنُّسْكِ ... وَعُدْ لِيَقِينِ الذَّم عَنْ مِدْحَةِ الشَّكِّ
وَلَا تُكْسِنِي تِلْكَ الحُلَى فَهِيَ كُلُّهَا ... حُلَاكَ عَلَى مَا صَحَّ بِالسَّيْرِ وَالسَّبْكِ
وَإِنْ جَمَعَتْنَا فِي الظَّوَاهِرِ نِسْبَةٌ ... تُخِيلُ، فَإِنَّ القَارَ فِي اللَّوْنِ كَالمِسْكِ

وَمِنْ رَسَائِلِهِ الإِخْوَانِيةِ رِسَالَة رَفِيعَة جِدًّا سَمِعَهَا مِنْ لَفْظِهِ تِلْمِيذُهُ ابْنُ سَيِّدِ النَّاسِ[1] وَهِيَ:

يَانَازِحاً عَنِّي وَلَوْ ... أَسْطِيعُ مَا فَارَقْتُهُ
وَمُؤَلِّفاً مِنِّي هَوىً ... لِسِوَاهُ قَدْ فَرَّقْتُهُ
وَمُعَلِّقاً أَمَلِي بِهِ ... مِنْ بَعْدِ مَا عُلِّقْتُهُ
اللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِي ... فُتُّ الغَرامَ وَفُقْتُهُ
وَجَهِلْتُ مَا فَعَلَ الهَوَى ... فِي النَّأْيِ حَتَّى ذُقْتُهُ
وَظَنَنْتُ أَنِّي شَيِّقٌ ... فَالآنَ قَدْ حَقَّقْتُهُ

(1) انظر عنه أطروحة الدكتور محمد الراوندي «أبو الفتح اليعمري حياته وآثاره».



وَمَلَكْـــتُ أُنْـــسِي بَعْـــدَكُمْ لَكِنَّنِــــــي أَعْتَقْتُـــــــهُ
كَـــمْ أَوْرَقٍ جارَيْتُـــهُ شَـــأْوَ الأَسَـــــى فَـــــسَبَقْتُهُ
مَـــا زِلْـــتُ أَسْـــكُبُ مَـــدْمَعي حَتَّـــى العِـــذارَ نَطَقْتُـــهُ
لَـــمْ أَدْرِ إِذْ غَنَّـــى وَنَـــا حَ[1] أَشَـــاقَنِي أَمْ شُـــقْتُهُ
إِنْ كـــانَ صَـــبْرِي بَائِـــداً يَوْمـــاً فَهَـــذا وَقْتُـــهُ
فَالقَلْـــبُ قَـــدْ أَحْرَقْتُـــهُ، وَالجَفْـــنُ قَـــدْ أَغْرَقْتُـــهُ
وَفَنَيْـــتُ غَيْـــرَ صُـــبابَةٍ مِـــنْ مَـــدْمَعٍ رَقْرَقْتُـــهُ
لَـــوْلَا رَجـــاءُ لِقـــائِكُمْ مِـــنْ بَعْـــدِها لَأَرَقْتُـــهُ

***

أَغِيــبُ وَعِنْــدِي بِالوَفــاءِ حُـضُور وَيَنْــأَى مَــزَارِي وَالكِتــابُ يَــزُور
وَأَغْـدُو وَلِلتَّـذْكارِ بَـيْنَ جَـوَانِحِي لَهِيــبٌ لِـدَمْعِ العَـيْنِ عَنْـهُ صُـدُور
وَأَدْعُـوكَ وَالأَشْـواقُ تَفْعَـلُ فِعْلَهـا دُعـاءً لَـهُ فَـوْقَ الخَـلاصِ عُبُـور
أُعَلِّـلُ نَفْـسِي بِالكِتَـاب وَقَلَّمـا شِـمْتُ دَاءَ بَـيْنٍ أَحْـرُفٌ وَسُـطُورُ
وَإِنِّي[2] وَصَبْرِي عَنْكَ فِي النَّأْيِ لَيْلَةَ فَكَيْـفَ لَيَـالِ عِـدَّةٍ لَـصَبورُ
وَكَيْـفَ اصْـطِبَارِي عَـنْ سَـنِيٍّ سَناؤُهُ لِأَنْفِـيَ نَـوْرٌ أَوْ لِطَرْفِـيَ نُـورُ
وَمـا كُنْـتُ مِمَّـنْ ضَـيَّعَ الحَـزْمَ قَلْبـه وَلَكِـنَّ حَزْمِـي في القَـضاءِ قُـصورُ
أَبَعْـدَكَ وَالعَلْيـاءُ فِيـكَ سَـجِيَّةٌ يَطِيــبُ[3] نعِـيمٌ أَوْ يَـتِمُّ سُـرُورُ

(1) في الأصل: «لم أدر ذغني ونحث»، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(2) في الأصل: «وان صبري». ولا يستقيم معها الوزن.
(3) في الأصل: «بطيب».



أَبَـى اللهُ إلاَّ أَنَّـكَ الفَـضْلُ كُلُّـهُ ... وَإِنْ حَرِجَـتْ مِمَّـا أَقُـولُ صُـدُورُ
فَكَـمْ لَـكَ عِنْـدِي مِـنْ مَعـانٍ أَنِيقَـةٍ ... تَـسِيرُ وَمَعْنـىً مِـنْ سِـواكَ أَسِيرُ
وَمِـنْ فِقَـرٍ لَـوْ أَلَّـفَ الـنَّظْمُ بَيْنَهـا ... تَحَلَّـتْ صُـدورٌ دُرَّهـا وَنُحُـورُ
يُقَـصِّرُ عَنْهَـا جَـرْولٌ[1] وَمُهَلْهِـلٌ ... وَيَحْـذُو عَلَيْهـا أَخْطَـلٌ وَجَرِيـرُ[2]
فَفِـي كُـلِّ خِـلٍّ -مَـا خَـلاكَ- مَقالَـةٌ ... وَفِـي كُـلِّ وُدٍّ -غَيْـرِ وُدِّكَ-زُورُ
أَلاَ لَيْـتَ شِـعْرِي هَـلْ لِلُقْيـاكَ كَـرَّةٌ ... فَيَعْـدِلُ دَهْـرٌ لاَ يَـزالُ يَجُـورُ
وَلَا يَـأْسَ مِـنْ رَوْحِ الإِلَـهِ وَلُطْفِـهِ ... فَـإِنَّ تَـصارِيفَ القَـضاءِ تَـدُورُ
«فَتُـدْرَكُ آمـالٌ وَتُقْـضَى مَـآرِبٌ ... وَتَحْـدُثُ مِـنْ بَعْـدِ الأُمُـورِ أُمُـورُ»
تَغَيَّـرتَ وَالأَيَّـامُ تَـصْفُو وَتَكْـدُرُ ... وَمَـنْ ذا الَّـذِي يَنْـأَى وَلَا يَتَغَيَّـرُ
وَعامَلْـتَ بِالـسُّلْوَانِ خِـلاًّ فُـؤَادُهُ[3] ... وَمَنْطِقُـهُ ذِكْـرٌ لَكُـمْ وَتَـذَكُّرُ
طَـوَى لَـكَ وَالأَيَّـامُ تَبْلَـى مَـوَدَّةً ... تَكَـادُ لِإِفْـراطِ الغَـضَاضَةِ تَقْطُـرُ
أَبَـى اللهُ أَنْ أَنْـسَى إِخـاءَكَ لَمْحَـةً ... وَإِنْ بَعُـدَتْ مِنَّـا دِيَـارٌ وَأَعْـصُرُ
وَكَيْـفَ تَناسِـي مَـنْ هَـواهُ وَشَخْـصُهُ ... لِقَلْبِـيَ فِكْـرٌ أَوْ لِعَيْنِـيَ مَنْظَـرُ
إِذَا غـابَ عَـنْ طَرْفِـي تَلَقَّـاهُ نـاظِرِي ... فَمِـنْ لُقْيَـةٍ تُمْحَـى وَأُخْـرَى تُـصَوَّرُ
وَقَـدْ طـالَ وَجْـدِي فِـي لَيَـالٍ طَوِيلَـةٍ ... لِبُعْـدِكَ كانَـتْ حِـينَ قُرْبِـكَ تَقْـصُرُ
وَقَـدْ أَصْـمَتَتْنِي عَنْـكَ لِلْبَـيْنِ رَوْعَـةٌ ... وَلَكِـنْ لِـسَانُ الحـالِ عَنْـكَ يُعَبِّـرُ
فَفِـي طَـيِّ أَحْـشائِي لِـذِكْرِكَ مِجْمَـرٌ ... وَفِي نَـشْرِ أَلْفـاظِي[4] بِـذِكْرِكَ عَنْبَـرُ

(1) في الأصل: «جدول» ولا معنى له، لأنه يقصد الشاعر العربي المعروف بالحطيئة ويلقب بجرول.
(2) الأخطل وجرير من شعراء النقائض ثالثهما الفرزدق.
(3) في الأصل: «فؤده».
(4) في الأصل: «الفاضي».



أَحبُّ الكَلامِ إِلَيّ، وَأَصْعَبُهُ عَلَيّ، مَا مَثَّلْتُهُ بِمِثَالِك، وَنَسَجْتُهُ عَلَى مِنْوالِك، مَا الوَشْيُ وَقَدْ أَنَّقْتَ صَنائِعَه، وَتَأَنَّقْتَ صَوانِعَه، وَقَيَّدْتَ أَوابِدَ الأَلْحاظِ طَرائِقَهُ وَوَشَائِعَه:

وَشْيٌ حَكَى رَوْضَةَ الآدابِ[1] مُودَعَةً ... نَـوْر البَـدِيعَيْنِ تَتْمِـيم وَتَجْنِـيس
تَـرَى بِـهِ حَيَـوانَ البَـرِّ مُـصْطَلِحًا ... ظَبْيُ الكِنَاسِ يُوازِي ضَيْغَمَ الخِيسِ
كَأَنَّـهُ وَضِـيَاءُ الـشَّمْسِ تَنْـشُرُهُ ... وَالكَـفُّ تَطْوِيـهِ، أَذْنـابُ الطَّـواوِيسِ
كَـأَنَّ لَابِـسَهُ وَالتِّيـهُ يَعْطِفُـهُ ... نَشْوانُ يَخْتَالُ بَيْنَ الكَاسِ وَالكِيسِ

مَرَّتْ لِتَخْيِيرِهِ أَعْصَارٌ وَأَعْصَار، وَكَلَّتْ في اسْتِخْراجِهِ قُوَّةً وَفِعْلاً قُلُوبٌ وَأَبْصَار، فَلَمَّا دانَتِ القِطَافَ أَزْهَارُه، وَقَارَبَتِ الإِفْصَاحَ أَطْيارُه، وَأَخَذَتْ بِمَجامِعِ القُلُوبِ خُطُوطُهُ المُتَقاطِعَةُ وَأَلْوانُه، وَمَثَلَ فِي علمَيْهِ ذُو يَزَنٍ[2] وَغُمْدَانُه[3]، وَكِسْرَى وَإِيوانُه[4]، وَنَمَّقَتْ يَدُ الصَّابِغِ وَالصَّابِغَةِ صَفْحَتَه النَّاصِعَة، وَحَارَتْ فِي بَدائِعِ رُقُومِهِ العَيْنُ المُبْصِرَةُ والآذَانُ السَّامِعَة، وَأَرْبَى حُسْنًا على الدِّينارِ المَنقُوش، وَالرَّوْضِ المَعْرُوش، وَصَحَّ بَعْدَ نَقْدِهِ، أَنَّهُ نَسِيجُ وَحْدِهِ، وَأَصْبَحَ يَشْكُو الحَرَّ وَالقَرَّ مُظَاهِرُه، وَيَشِفُّ رِقَّةً عَنْ بَاطِنِهِ ظاهِرُه، سَامَهُ نَدْبٌ يُهِينُ المَالَ وَهُوَ مُكَرَّم، وَيَرُدُّ الجَيْشَ وَهُوَ عَرَمْرَم، وَيَحُوزُ سَبْقَ المَجْدِ بِخُلُقَيْ ابْنِ مَامَةَ وَابْنِ مُكَرَّم[5] غَذَتْهُ[6] المَمْلَكَةُ بِلِبَانِهَا وَأَطْلَعَتْهُ السِّيَادَةُ في إِبَّانِها، فَكَساهُ مَعاطِفَ رِيمِيَّةً رُومِيَّةً تَسْتَخْشِنُ الخَزَّ حِينَ تَلْمَسُه، وَتَسْتَهْجِنُ القَزَّ وَهِيَ تَلْبَسُه، فَشَفَّ عَنْ حُسْنِها حُسْنُه، وَدَلَّ عَنْ نَهْدِها وَخَصْرِهَا زِرُّهُ وَرُدْنُه، وَانْثَنَتْ فِيهِ فَكانَ القَضِيبَ المَيَّالَ فَوْقَ الكَثِيبِ[7] المُذَال[8] وَأَقْبَلَتْ وَأَدْبَرَتْ فَكانَ المَوْتُ وَالحَياةُ

(1) في الأصل: «الأدب».
(2) ذو يزن: من ملوك اليمن المشهورين.
(3) غمدان: قصر من قصور صنعاء باليمن وقد اشتهر لدى الناس وارتبط اسمه بذي يزن.
(4) يقصد به كسرى أنوشروان، وإيوانه مشهور وقد وصفه الشاعر البحتري في قصيدته السينية المشهورة.
(5) ابن مكرم: من كبار الكتاب المشارقة، وابن مامة جواد من أجواد العرب.
(6) في الأصل: «غدته».
(7) في الأصل: «الكتيب».
(8) بياض بالأصل.



في ذَلِكَ الإِدْبارِ والإِقْبَال. وَلاَ اليَمَّ وَقَدْ سَمَحَ رِكابُه، وَسَنَّحَ رُكَّابُه، هَبَّتْ رِيحُهُ بَلِيلاً، وَأَعَادَتْ هَجِيرَهُ أَصِيلاً، وَقَرَنَتْ رُباهُ بِوِهَادِهِ تَسْوِيَةً وَتَعْدِيلاً، وَأَقامَتْهُ لِلطَّرْفِ النَّاظِرِ، وَالذِّهْنِ الحَاضِر، سَماءُ مَوْجِهِ «مَوْجُهَا»[1]، وَفُلْكُهُ فُلْكُها، فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ جَوانِبُه، وَاسْتَوَتْ أَخْصارُهُ وَمَناكِبُه، وَتَنافَقَتْ في أَعِنَّةِ الشَّمالِ وَالجَنوبِ مَراكِبُه، وَسافَرَتْ بِالنَّواظِرِ فِيهِ مَسارِحُهُ المُمْتَدَّة وَمَسارِبُه، وَافاهُ الآلُ صُنْعَ مُبْدِعٍ بِهِ، منقطع يَسْتَحِثُّهُ الإِقْلاَل، وَيَسْتَعْجِلُهُ المَسْكَنَ الَّذِي لَا مَالَ بِهِ وَلَا آل، وَلَامَاءَ عِنْدَهُ وَلَا آل، فَأَلْفاهُ وَدِينارُ[2] العَشِيِّ قَدْ رَجَح، وَغُرَابُ الغُروبِ قَدْ سَنَح، وَطَرْفُ النَّجْمِ إِلَى حَملِ الغَزالَةِ[3] قَدْ طَمَح، فَرَكِبَهُ عَجِلاً، وَأَرَاغَ مَطْلَبُهُ مُسْتَعْجِلاً، وَمَا زالَ يَحُلُّ وَيَعْقِد، وَيَرُومُ الوجدَانَ فَيَفْقِد، إِلَى أَنْ تَجَهَّمَ وَجْهُ الشَّمْسِ بِالنَّوءِ، وَبَقَلَ عَارِضُ الظَّلامِ في خَدِّ الضَّوْءِ، فَلَمَّا عايَنَ دَوائِرَ السُّفُنِ إِلَى مَرْكَزِ الشَّطِّ تَغْفِل، وَأَبْوابَ البَحْرِ بِيَدِ السَّماءِ تقْفِل، وَرَآى الشَّمْسَ إِلَى الأُفُقِ الغَرْبِي[4] تَأْرِز[5]، وَأَلْوِيَةَ اللَّيْلِ في كُلِّ مَرْقَبَةٍ تُرْكِز، ضَمَّ مَرْساهُ، وَذَمَّ مَمْسَاه، وَعَزَمَ عَلَى العَوْدَةِ وَقَدْ أَلْقَى بِيَدِ الخَيْبَةِ زِمامَه، وَرَأَى غَنِيمَةَ عَيْبَتِهِ تِلْكَ السَّلاَمَة، فَأَنِسَ وَقَدْ وَلَّى، وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهِ الأَسَفُ وَاسْتَوْلَى، ثُمَّ قادَ عِنَانَ نَظَرِهِ إِلَى اقْتِصاصِ أَثَرِه، فَأَهَلَّ وَسَجَد، وَأَيْقَنَ أَنْ قَدْ وَجَد، وَعَلَتْهُ الأَرْيَحِيَّة، وَعَاوَدَتْهُ هِزَّةُ الطَّمَعِ الوَحِيَّة، وَوَدَّ أَنْ تُعِيرَهُ الشَّمسُ وَلَوْ وِقْفَةَ التَّحِيَّة، وَأَرْسَى سُكَّانَه، وَلَم يَعْدُ مَكَانَه، وَأَدْلَى رِشَاءَه، حَيْثُ شَاءَه، ثُمَّ غَاصَ وَقَدْ أَوْثَقَ أَسْبابَه، وَتَأَبَّطَ جِرابَه، فَعَثَرَ عَلَى أَعْلاَقٍ لَمْ تَسْبِقْ إِلَيْها يَدٌ[6] وَلَا دُلَّ عَلَيْها قَبْلَهُ أَحَدٌ، فَظَفِرَ مِنَ الغِنَى بِعَاثِرَة عَيْنَيْن، وَطَفِقَ يَحْثُو في الجِرابِ بِكِلْتَا اليَدَيْن، حَتَّى أَفْعَمَ ما تَأَبَّط، وَعَجِلَ وَقَدْ كَادَ أَنْ يَتَثَبَّط، فَصَعِدَ، وَقَدْ سَعِدَ، وَشَدَّ على تِلْكَ الغَنِيمَةِ كَفَّ الضَّنانَة، وَأَدَّاهَا إِلَى مَحَلِّهِ المُقْفِرِ

(1) بياض بالأصل: وقد أثبتنا ما يناسب السياق.
(2) في الأصل: «دنر».
(3) الغزالة: الشمس.
(4) في الأصل: «الغزي».
(5) تأرز: يقال أرز يأرز أرزا: تقبض وتجمع.
(6) في الأصل: «بد».



بِالأَمانَة. فلَمَّا مَدَّ غُرابُ الجُنْحِ جَنَاحَه، وَأَطْفَأَ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِصْبَاحَه، فَضَّ الأَغْلاَق، عَنِ الأَعْلاَق[1]، وَمَا زالَ يُمَيِّزُ الدُّرَّ مِنَ المُخَشْلَب، وَيطْلُبُ الذُّخْرَ الأَنْفَس فَيُلِحُّ فِي الطَّلَب، إِلَى أَنْ خلصَ اللُّؤْلُؤَ وَالدُّر، وَاسْتَخْلَصَ المَتَاعَ الحُرّ، فَمِنْ يَاقُوتٍ كَحَلَماتِ النُّهُودِ، وَجَوْهَرٍ كَالثَّغْرِ البَرُودِ، وَزُمُرُّدٍ وَعَقِيقٍ حَكَيَا الأَصْداغَ على الخُدُودِ، إِلَى بَلَّوْرٍ كَالأَجْيَادِ وَالجِبَاه، وَمَرْجانٍ كَاللِّثَاتِ وَالشِّفَاه، فَنَظَمَ مِنْهُ عُقُوداً وَسُلُوكـًا، وَأَمَّ بِهَا رُؤَسَاءَ وَمُلُوكـًا، فَبَاعَهَا بَيْعَ المُغَالِي، بِالثَّمَنِ الغالِي. فَعُوِّضَتْ مِنْ بُطُونِ البُحُور، بِنُحُورِ الحُور[2] وَنُقِلَتْ مِنَ الصَّدَفِ المَقْصُور، إِلَى ضِيَاءِ القُصُور؛ وَلَا الرَّبِيعُ وَقَدْ نُمِّقَتْ رِيَاضُه، وَأَفْهَقَتْ حِيَاضُه، وَقَيَّدَ العُيونَ وَأَطْلَقَها خُضْرَتُه وَبَيَاضُه، يُضاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهُ كَوْكَبٌ شَرِق، وَيُغازِلُ[3] خَدَّ الوَرْدِ فِيهِ جَفْنٌ لِلنَّرْجِسِ أَرِق، وَيَهْفُو على نُوَّارِهِ حَشىً لِلصَّبَا بِالصَّبابَةِ قَلِق، وَيَلُفُّ أَغْصَانَهُ النَّسِيمُ العَلِيل، بِالسَّحَرِ وَالأَصِيل، فَتَعْتَنِقُ ثُمَّ تَفْتَرِق، وَجادَتْ عَلَيْه كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّة، وَعَاهَدَتْهُ العِهَاد مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، حَتَّى لَمْ تُبْقِ لَهُ صَدَأً فِي صَفِيحَة، وَلَا لَحقـًا في صَحِيفَة؛ فَأَصْبَحَ قَدْ مَجَّ المَاءَ رِيّـًا، وَأَنْبَطَ فِي كُلِّ مَحْمِيَّةٍ سَرِيّـًا، وَافْتَرَّتْ عَنْ شَقَائِقِ البَوارِقِ كَمائِمُ عَمائِمِه، وَانْحَلَّتْ عَنْ أَنَاشِيدِ الأَغارِيدِ تَمائِمُ حَمَائِمِه، وَاخْتَالَ فِي مُفَوَّفَاتِ البُرُود، وَمَرْصُوفاتِ العُقُود، وَأَبْدَى مِنْ نَرْجِسِهِ وَوَرْدِهِ مَا أَنْسَى مَرْضَى العُيُونِ وَصِحَاحَ الخُدُود، وَأَضْحَى مِنْ خَرِيرِ الجَداوِلِ، وَالغُصُونِ المَوَائِل، في خُضْرِ الغَلَائِل، بَيْنَ طُبُولٍ وَرَايَات، وَأَقَامَ مَعْرَكَةً لِلَّهْوِ فِي سَفْكِ دَمِ المُدَامِ وَنِيَاحِ النَّايَات، عصرَتْ في نَهْرِهِ الصَّبَا فَدَرَجَتْه، وَنثرتْ دُرَّ طَلِّهِ في حُجْرِ ظِلِّهِ فَدَحْرَجَتْه، وَتَوَلَّعَتْ بِسِرِّ زَهْرِه، فِي ضَمِيرِ سِحْرِه، فَأَخْرَجَتْه، حَتَّى أَخْرَجَتْه، فَكُلُّ رِيقٍ رَوْح، وَبِكُلِّ مَحْنِيَّةٍ دَوْح، وَبِكُلِّ وَرْقَاء، فِي كُلِّ رَوْضَةٍ غَنَّاءَ غَنَاء، وَنَزَحَ فَأَحْسَنَ مَرْئِيـًّا وَمَسْمُوعـًا، وَأَحْلَى فِي أُذُنِ الفُؤَادِ وُقُوعـًا، مِنْ كِتابٍ فِيهِ كَتَائِبُ لِلظَّرْف، وَمَذاهِبُ لِلسَّمْعِ وَالطَّرْف، وَغَرائِبُ مُودَعَةٌ مِنْهُ فِي قَوالِبِ الاسْمِ وَالفِعْلِ وَالحَرْف، خَطٌّ حَكَى الوَشْيَ

---

(1) في الأصل: «الأغلاق».

(2) في الأصل: «الخور».

(3) في الأصل: «ويعازل».



المُحبَّر، وَالرَّوْضِ المُنَوَّر، وَلَفْظٌ [وَجَدَ البَلاغَةَ صُورَةً فَتَشَكَّلَ وَتَصَوَّر]، شَقَّتْ عَلَيْهِ المُقَلُ جِلْبابَ الطَّرَب، وَمَدَّتْ إِلَيْهِ الأَسْماعُ أَسْبابَ الطَّلَب:

«فكأنَّــهُ شَــجَرٌ بَــدَا لَكِنَّهَــا ... شَـجَرٌ جَنَيْتُ الظَّرْفَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا»

* * *

قَـسَماً بِـهِ وَهُـوَ النِّهَايَـةْ ... فِـي الجَلَالَـةِ وَالجَزالَـهْ

وَلَـهُ الإِطَابَـةُ وَالإِطالَـةْ ... وَالإِصَـابَةُ وَالأَصـالَهْ

لَقَـدِ اغْتَـدَى فِـي حُـسْنِهِ ... فَـوْقَ الغَزَالَـةِ وَالغَزالَـهْ[1]

وَكَتَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قُـلْ لِلْفَقِيـهِ المُحَـدِّثِ الـصُّوفِي ... مِـنْ مُغْـرَمٍ بِالكَمَـالِ مَـشْغُوفِ

أَنْـتَ الَّـذي إِنْ وُصِـفَتْ شِـيمَتُهُ ... فَهِمْـتُ مِنْهَـا أَجَـلَّ مَوْصُـوفِ

عِلْـمٌ وَدِيـنٌ يَعُـمُّ نُورُهُمَـا ... كُـلَّ بَـصِيرٍ وَكُـلَّ مَكْفُـوفِ

إِنْ كُنْـتُ عَنْـهُ بِالـشَّخْصِ مُنْصَرِفاً ... فَخـاطِرِي عَنْـهُ غَيْـرُ مَـصْرُوفِ

وَإِنْ أَشَـاعَ الـصِّحَابُ حُـبَّهُم ... قَـصَرْتُ حُبِّـي عَلـى ابْـنِ مَعْـرُوفِ

فُلَانٌ أَدَامَ اللهُ عِزَّتَهُ وَأَنْمَاهَا، وَحَرَسَ مَكَانَتَهُ وَحَمَاهَا، وَلَا أَعْدَمَهُ نِعْمَةً يَتَطابَقُ اسْمُهَا وَمُسَمَّاهَا، وَفِطْنَةً يَقْرُبُ تَناوُلُهَا وَيَبْعُدُ مَرْمَاهَا. كَتَبَ مُحِبُّهُ وَمُتَمَنِّيهِ، الرَّاغِبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي حَالِ تَقَرُّبِهِ مِنْهُ وَتَدَنِّيهِ، المُعْتَذِرُ إِلَيْهِ عَنْ إِبْطائِهِ فِي مُخاطَبَتِهِ وَتَأَنِّيهِ، الَّذي إِنْ مَدَحَ خِلاً سِواهُ أَوْ أَشارَ إِلَى وَلِيٍّ بِهَواهُ فَإِنَّمَا يَعْنِيه. فُلانٌ وَلا جَدِيدَ إِلَّا فَضْلُ اللهِ السَّابغ الأَثْوَاب، وَلُطفه المُفَتِّح الأَبْوَاب، وَرَحْمَةُ اللهِ الَّتِي لَا تُحْوِجُ -وَلَهُ الحَمْدُ كَثِيراً- إِلَى وَساطَةِ الأَسْبَاب، وَأَنا لِذِكْرِكَ نَدِيم، وَبِي مِنْ بُعْدِكَ مُقْعَدٌ مُقِيم، وَمُضْمَرُ جَنَانِي وَمَظْهرهُ[2] تَبْجِيلٌ لَكَ وَتَعْظِيم؛ وَشَوْقِي إِلَيْكَ شَوْق الأَرِقِ إِلَى إِصْبَاحِه،

---

(1) الغزالة الأولى: يقصد بها الظبي، والثانية: يعني بها الشمس.

(2) في الأصل: «ومظهر».



والمَشُوقِ[1] إِلَى نَغْمَةِ مُمْتَاحِه؛ وَأُنْسِي بِذِكْرِكَ أُنْس المُحِبِّ بِمَعَالِمِ أَحْبَابِه[2] وَابْنُ الثَّمانِينَ يَتَذَكَّرُ أَيَّامَ شَبَابِه، وَثَنَائِي عَلَيْكَ ثَناءَ الرِّيَاضِ على مُدَّةِ حَيَاهَا، وَالجُسُومِ على مُدَّةِ مَحْياهَا؛ فَأَنْتَ كُنْتَ لِلرُّوحِ رُوحـًا، وَخِـلاًّ لَمْ يَزَلْ وَلا يَزالُ مَحْمُوداً مَمْدُوحًا، وَالحَبِيبَ الَّذِي سَرَّنِي مَسْمُوعًا وَمَلْمُوحًا. قَسَمًا بِاللّهِ العَظِيمِ وَهُوَ أَجَلُّ الأَقْسَام، وَالحَلِفُ الَّذِي لَا يُبِيحُ غَيْرَهُ الإِسْلَام، إِنِّي لَأَحِنُّ[3] إِلَى لِقَائِكَ حَنِينَ الوَالِه، وَأُوَالِي ذِكْرَكَ وَلَوْلَا الحُبُّ لَمْ أُوَالِه، وَأَتَمَنَّى مِثَالَ أُنْسِكَ وَمَنْ لِي بِمِثالِه، وَمَتَى أَظْفَرُ بِشَخْصٍ تَلْقَى بِهِ النَّفْسُ مُناهَا، وَتَرَى مِنْهُ غَايَةَ القُرَّةِ عَيْناهَا، تَفَنُّنٌ أَلْقَتِ المَعارِفُ في يُمْنَاهُ يُمْنَاهَا، وَتَدَيُّنٌ شَهِدَتْ لَهُ الكَعْبَةُ المُقَدَّسَةُ وَعَرَفَتُها وَمِنَاهَا، وَمَوَدَّةٌ تَفْهَمُ مِن صِدْقِ أَلْفَاظِهَا صِدْقَ مَعْنَاهَا؛ أَفْنَى الشَّبِيبَةَ عَالِمًا أَوْ عَامِلا، وَرَأَى في حِجَّتِهِ المَبْرُورَةِ وَزِيَارَتِهِ المَشْكُورَةِ كُلَّ ما كانَ آمِلا، وَحُلِّيَ مِنْ تِلْكَ المَواضِعِ الشَّوْقِيَّةِ، وَالمَطالِعِ الشَّرْقِيَّةِ، بِكُلِّ طائِلٍ، وَقَضَى أَرَبًا مِنْ لِقاءِ كُلِّ عَالِمٍ فِيها وَعامِلٍ، وَشارَكَ أَشْياخَهُ عِلْمًا وَعَمَلاً فِيما لَدَيْهِمْ مِنَ المَعَارِفِ وَالفَضائِلِ؛ إِلَى ما امْتَازَ بِهِ مِنْ مُجالَسَةٍ تَفْضَحُ الرَّوْضَ وَهُوَ أَنِيق، وَمُحادَثَةٍ تُبْهِرُجُ المِسْكَ وَهُوَ فَتِيق؛ إِنْ عَايَنْتَهُ رَأَيْتَ طَرْفًا مَمْلُوءً ظَرْفًا، أَوْ بَاحَثْتَهُ لَمْ تَفْقِدْ مِن تِلْكَ المَعالِمِ المُطَهَّرَةِ حَرْفًا؛ فَكَأَنَّكَ تُعايِنُ الإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَمَنارَها، وَمِصْرَ وَعِيسَهَا[4] وَإِدْلَاجَهَا وتَعْرِيسَها، وَدُمْيَاطَ وَتِنِّيسَهَا، وَالنِّيلَ وَمَدَّه، وَابْنَ أَيُّوب وَجُنْدَه، وَعِيذَابَ وَصَحْرَاءَها، وَالقُدْسَ وَإِسْراءَهَا، وَجَدَّةَ وَلجَّتَها، وَمَكَّةَ وَبَهْجَتَهَا، وَالعُمْرَةَ وَحِجَّتَها، وَالتَّلْبِيَةَ وَضَجَّتَها، وَالكَعْبَةَ وَنَثَاءَهَا، وَزَمْزَمَ وَماءَهَا، وَالرُّكْنَ وَمِيزَابَه، وَالحَرَمَ وَأَبْوَابَه، وَالطَّوافَ وَأَسْبَاعَه، وَأَبَا قُبَيس وَارْتِفَاعَه، وَالبابَ وَعِرْوَتَه، وَالصَّفا وَمَرْوَتَه، وَالكِسْوةَ وَجَلْوَتَهَا، وَالدَّارَ وَنَدْوَتَها، وَعَرَفَةَ وَمِشْعَرَها،

(1) في الأصل: «وا».
(2) في الأصل: «أحبا».
(3) في الأصل: «لاحل».
(4) في الأصل: «وعي».



وَمِنىً وَمَنْحَرَهَا، وَالمَوْقِفَ وَأَرِيجَه، وَالحَجِيجَ وَعَجِيجَه، وَالدُّموعَ وَانْسِكابَها، وَالضُّلُوعَ وَالْتِهَابَهَا، وَالعقَبَةَ وَجَمْرَتَهَا، وَالبَطْحَاءَ وَعُمْرَتَها، وَالعِرَاقَ وَجُموعَهَا، وَالعَجَمَ وَشُمُوعَها، وَبَدْراً وَكَثِيبَه، وَالمَشْهَدَ وَقَلِيبَه، وَالعَقِيقَ وَالإشْرافَه، وَالنَّخِيلَ وَالْتِفَافَه، وَطِيبَةَ وَطِيبَهَا، وَقَاضِيهَا وَخَطِيبَها، وَالرَّوْضَةَ وَنُورَها، وَالمَدِينَةَ وَدُورَهَا، وَالمَسْجِدَ وَزَوَايَاه، وَالمِنْبَرَ وَبَقَايَاه، وَقُبَاءَ وَقُبَّتَه، وَسَيِّدَ الشُّهَداءِ وَتُرْبَتَه، وَالبَقِيعَ وَسُكَّانَه، وَأُحُدَ وَأَرْكَانَه:

مَعَالِمُ يَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ وَإِنَّهَا[1] ... مُجَدَّدَةٌ في قَلْبِ كُلِّ مُوَحِّدِ

نَلُوذُ بِهَا حِسّاً وَمَعْنىً فَتَنْثَنِي ... بِمَا نَشْتَهِيهِ بَيْنَ قَبْرٍ وَمَسجِدِ

وَمَنْ ذَا الَّذي تُعْيِيهِ أَوْجُهُ مَطْلَبٍ ... تَنَاوَلَهَا مُسْتَشْفِعاً[2] بِمُحَمَّدِ

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَلِلَّهِ أَيَّامِي بِجُوَارِه، وَمَسَرَّتِي بِالعِلْقِ الخَطِيرِ مِنْ جِوَارِه، آهٍ لِفُقْدانِهَا، وَمَنْ لِي بِهَا تَعَلُّلاً بِنُشْدانِها. وَعَسَى اللهُ أَنْ يُعِيدَهَا، وَيُقَرِّبَ لِي في عَافِيَةٍ بَعِيدَهَا، أَمَا إِنِّي لَمْ أُطِقْ بُعْدَكَ أَيُّها الوَلِيُّ الحَمِيم، وَالخِلُّ الَّذِي وُدُّهُ الوُدُّ الصَّمِيم، بِمَنْ تُشْجِي النَّفْسَ لُقْيَاهُ، وَيُقْذِي العَيْنَ مَرْآهُ، وَيَجْعَلُ دِينَهُ وِقايَةً لِدُنْياهُ؛ لاَ هِمَّةَ لَهُ إِلَّا فِي الحُطامِ وَجَمْعِهِ، وَلاَ حَدِيثَ إِلَّا فِي الضُّرِّ الدُّنْيَوِيِّ وَنَفْعِهِ، طُوِيَ ذِكْرُ الدِّينِ بَتَاتاً وَأَصْبَحَ الجُمْهورُ فِي طُرُقِ الحَقِيقَةِ وَهُمُ الأَحْيَاءُ أَمْوَاتاً، فَقَدْ قَلَّ المُفْلِح، وَاللهُ المُصْلِح؛ أَسْأَلُ اللهَ تَعالَى جَمْعَ الشَّمْلِ بِكَ فِي تِلْكَ العَرَصاتِ الكَرِيمَة، وَالحُلُولَ مِنْ كَنَفِ الرَّحْمَةِ فِي أَنْضَرِ رَوْضٍ تَحْتَ أَغْزَرِ دِيمَة، وَالمَنَّ بِتَوْبَةٍ لَا مَثْنَوِيَّةَ فِيهَا، وَإِنَابَةٍ تتكَفَّلُ بِجَبْرِ هَذِهِ الحَالِ المُخْتَلَّةِ وَتَلَافِيهَا، حَتَّى نَنْفُضَ بَقَايَا الدُّنْيَا فِي وُجُوهِ بَنِيهَا، وَنَتْرُكَ أَطْلَالَها فِي يَدَيْ مَنْ يَبْنِيهَا؛ فما ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ. أُوثِرُ مِنْكَ تَعْجِيلَ جَوابِك، وَالتَّعْلِيلَ بِكِتَابِك، وَمُعامَلَتِي فِي الخُرُوجِ عَنِ العُجَرِ وَالبُجَرِ مُعَامَلَةَ أَحْبَابِك، وَإِعْلامِي

(1) في الأصل: «وأيها».
(2) في الأصل: «مستشفيعا».



كَيفَ ذَلِكَ القُطْرُ الأَنِيقُ وَانْفِسَاحُه، وَتِلَاعُهُ المَوْشِيَّةُ وَبِطَاحُه، وَبَحْرُهُ اللُّجِيُّ، وَمَوْجُهُ الزَّنْجِيُّ، وَبَابُ البُنُودِ وَرَابِطَتُه، وَطَرَفَا الرَّوْضِ الأَمَامِيِّ وَوَاسِطَتُه، وَحَظُّ النَّهرِ السِّلْكِي، وَتُرْبُهُ المِسْكِي، وَالجَوُّ المُشْرِق، وَالنَّسِيمُ العَبِق، والأَزَاهِرُ الَّتِي هِيَ لَوْ ... رِيحًا تَخْتَلِفُ وَتَتَّفِق؛ هَلْ حَالُهَا حَالُها، أَمْ غَيَّرَهَا وَاللهِ ... محالُها، فَالزَّمَنُ خَوَّان، وَسِيرَتُهُ فِي الزَّمَانِ نُقْصَان:

مَنَازِلُ قَدْ كَانَتْ لِلْمَسَرَّةِ مَعْهَداً ... فَبَانَتْ فَلِي مِنْ غَيْرِهَا الحَزْنُ وَالحُزْنُ
يَصُبُّ الحَيَا مَا دَامَ حَيّاً خَيَالُها ... سِجَالاً يَكِلُّ الكَيْلُ عَنْهُنَّ وَالوَزْنُ
إِذَا المُزْنُ لَمْ يُضْحِكْ عَلَيْهَا بَوارِقاً ... وَلَمْ يُبْكِ أَجْفاناً فَلاَ طَلَعَ المُزْنُ

طَالَمَا أَلْمَمْتُ بِذَلِكَ السَّاحِل، وَأَسْلَفْتُ فِيهِ أَيَّاماً طَوَيْتُهَا طَيَّ المَراحِل، وَهَا أَنَا الآنَ حِلْسُ[1] البَيْتِ، وَحَيّ فِي مَعْنَى المَيْتِ[2]، عَاقَتْنِي مِنْ لُجَجِ الطِّينِ عَوائِق، وَحَالَتْ[3] بَيْنِي وَبَيْنَ الحَدَائِقِ وَأَيْنَ الحَدَائِق؟ وَأَمَّا النَّاسُ فَالجِنْسِيَّةُ مَعْدُومَة، وَوَرَاءَ هَذِهِ الإِشَارَةِ أُمُورٌ مَكْتُومَة:

أَطَلْتُ وَحَقِّي أَنْ أُطِيلَ لِأَنَّنِي ... أُخاطِبُ طَوْداً مُشْرِفاً هَضَبَاتُهُ[4]

وَكَتَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ شَافِعاً لِبَعْضِ الطَّلَبَةِ أَبَرَّهُمُ الله:

الفَقِيهُ أَبُو فُلَانٍ كاتِبُ الإِمَامَة، المَخْصُوصُ بِالحُظْوَةِ وَالكَرَامَة، أَبْقَاهُ اللهُ فِي عِصْمَةٍ لَا يَنْبَتِرُ عِقْدُهَا، وَنِعْمَةٍ لَا يَنْتَثِرُ عِقْدُهَا. كَتَبَ وَلِيُّهُ المَسْرُورُ بِمَا لَا يَزالُ يَسْمَعُهُ عَنْهُ مِنَ الأَفْضالِ مَعَ التِّكْرَار، وَالاشْتِمَالِ مَعَ الأَحْرَار، وَاللُّطْفُ مُتَعَهِّدٌ، وَالفَضْلُ مَعَ السَّاعاتِ مُتَجَدِّدٌ، وَقَدْ وَشَجَ بَيْنَنَا مِنْ ذِمَّةِ الصَّحابَةِ، مَا يَزِيدُ عَلى حُرْمَةِ القَرَابَةِ، فَلَا غَرْوَ أَنْ

(1) في الأصل: «جلس».
(2) في الأصل: «البيت».
(3) في الأصل: «وحالة».
(4) يبدو أن هذه الرسالة مبتورة ينقصها بعض الشيء من خاتمتها.



يَحْمِلَ بَعْضُنَا بَعْضاً كُلَّه، وَيُجشِّمَهُ[1]، بَعْضَ مُهِمِّهِ أَوْ كَلَّهْ، فَاليَدُ تُعِينُ أُخْتَهَا، وَالضُّلُوعُ تَصُونُ مَا تَحْتَهَا. وَقَدْ كُنْتُ اسْتَدْعَيْتُ إِحْسَانَكَ لِفُلاَنٍ فَأَجَاب، وَوَالَى قِبَلَهُ الأَيَادِي الرِّغَاب، فَهُوَ الآنَ يَهْصِرُ أَفْنانَ الإِحْسَان، وَيَحْضُرُ فِي مَيْدَانِ[2] الامْتِنَان، قَدْ كَثُرَتْ فَاشِيَتُه، وَأَدَّى الزَّكَاء عَيْنُهُ وَحَرْثُهُ وَمَاشِيَتُه. واللهُ تَعالَى يَنْفَعُكَ بِها يَداً قَلَّ مُسْدِيهَا، وَعُدِمَتْ يَدٌ تُؤْذِيهَا[3].

وَإِنَّ فُلَاناً حَامِلُ رَايَةِ الفَضْلِ بِاليَمِين، وَالسَّامِي إِلَى البَرَاعَةِ وَالبَلاغَةِ مُنْقَطِعِ القَرِين، وَاخْتِبَارُهُ يُغْنِي دَعْوَاهُ عَنْ تَكَلُّفِ شاهِدٍ عَلَيْها أَوْ يَمِين؛ وَكُنْتُ صَحِبْتُهُ بِفُلَانَةَ فَأَلْفَيْتُه فِي المُعامَلَةِ بَرّاً، وَعَلى المُباحَثَةِ حُرّاً. وَكَانَ يَنْتَحِلُ حِرْفَةَ التَّوْثِيقِ وَهِيَ غَيْرُ وَثِيقَة، وَيُحاوِلُ تَنْبِيهَ الحَالِ بِهَا وَهِيَ غَيْرُ مُفِيقَة؛ وَلَمَّا رَأَى الكَفَّ لَا تَزْدادُ إِلَّا صِفْراً أَخَذَتْ سِفْراً، وَقالَ لَعَلِّي أَجِدُ لِلْعَيْنِ عَيْناً أَوْ أَثَراً؛ ثُمَّ رَمَى بِهِمَّتِه «ذَلِكَ البَلَدَ»[4] القَصِيّ، وَاعْتَامَ بِأَوامِهِ السَّرِيِّ السَّرِي، وَقَالَ: غَرْنَاطَةُ مَبْرَكٌ[5]، لَيْسَ لَهُ مَتْرَكٌ، وَقَاضِيهَا مفْضِلٌ، لَيْسَ عَنْهُ مَعْدِل، وَلَا نُكْرَ أَنْ يُلْفِيَ المَوْرِدَ عَذْباً، وَقَدْ يَمَّمَ حُرّاً نَدْباً، وَلَا غَرْوَ أَنْ يَجِدَ الأَرْبَ سَهْلًا، وَقَدِ اعْتَمَدَ مُسْتَحِقّاً لِلإِحْسَانِ وَأَهْلًا؛ وَسَتَسْمَعُ مِنْ نَظْمِهِ لِمَحاسِنِكَ مَا يُكْسِبُكَ أَرْيَحِيَّةً وَحِيَّةً، وَيُحَرِّكُ مِنْكَ عَصَبِيَّةً أَدَبِيَّة، وَالطَّالِبُ يُقْنِعُهُ البِشْرُ، وَيَكْفِيهِ مِنَ اللُّبِّ القِشْرُ.

لاَ زِلْتَ وَقَدْرُكَ مَرْقَى، وَذِكْرُكَ بِالدُّعَاءِ لَهُ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ مُوقَى؛ وَلِأَهْلِ الحُقُوقِ عَلى النَّاسِ يُوجِبُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ فَضْلاً وَحقّاً. إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(1) في الأصل: «ومجشمه».
(2) في الأصل: «في مديان».
(3) في الأصل: «تؤديها».
(4) بياض بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(5) بياض بالأصل، ولعل الصواب ما أثبتناه.



وَكَتَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في ذَلِكَ المَعْنَى:

السَّلَامُ عَلَى ذِي المَوَاهِبِ الَّتِي لَا يَكِتُّ حِسَابُهَا، وَالمَنَاقِبِ الَّتِي لَا تَنْبَتُّ أَسْبَابُها؛ أَبْقَاهُ اللهُ مُعْتَزّاً بالدِّين، مُهْتَزّاً لِمَطَالِبِ القَاصِدِين. كَتَبَ مُحِبُّهُ لِكَرَمِ خِلَالِه، الشَّاكِرُ لَهُ عَلَى تَجَاوُزِهِ في الإِحْسَانِ وَالإِيثَارِ طَوْراً لِحَالَتِهِ وَطَوْراً لِحَالِه، المَسْرُورُ بِالمسْمُوعِ مِنْ صَنائِعِهِ الجَمِيلَةِ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِه، المُتَمَنِّي لِقَاءَهُ لِيَرَى الشَّخْصَ المُجْمعَ عَلَى فَضْلِهِ وَأَفْضَالِه؛ وَهُوَ يَعْتَرِفُ لِلَّهِ سُبْحانَهُ بِاللُّطْفِ الدَّائِب، وَعَلى نَفْسِهِ بِالتَّقْصِيرِ في الواجِب، وَعِنْدَهُ أَيُّهَا العَلَمُ المُحْتَرَم، وَالسَّرِيُّ الَّذي سَجايَاهُ الفَضْلُ وَالكَرَم، مِنَ التَّشَيُّعِ لَك، وَالمُشايَعَةِ لِمَنْ آثَرَكَ وَفَضَّلَك، وَالمُكَاثَرَةِ وَالمُفاخَرَةِ بِالمَحاسِنِ الَّتِي قِبَلَكَ ما عِنْدَ مَنْ عَرَفَ الحَقَّ فَآثَرَه، يُصَدِّقُ بِعَدَمِ الجُودِ وَقَدْ عَايَنَ أَثَرَه.

وَقَدْ كانَ فُلانٌ أَلْقَى مِنْ ... تِلْكَ المَنَازِع، وَشَرَفِ ذَلِكَ الخُلُقِ البَارِع، مَا انْقَادَتْ لَهُ النَّفْسُ انْقِيَادَ السَّامِعِ الطَّائِع؛ وَعَزَمْتُ عَلى التَّبَرُّكِ بِرُؤْيَتِهِ لَوْلَا إِباءُ الأَعْذارِ وَغَلَبَةُ المَوانِع، وَإِلَى هَلُمَّ جَرّا؛ فَفِي كُلِّ يَوْمٍ يُهْدَى عَنْكَ خَبَرٌ سَرِيّ، وَيَبْدُو مِنْكَ أَثَرٌ بِالشُّكْرِ حَرِيّ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ الأَفْئِدَةَ مَفْطُورَةٌ عَلى وَلَائِك، وَالأَلْسِنَةَ مَقْصُورَةٌ عَلى شُكْرِكَ وَثَنَائِك. أَمْتَعَكَ اللهُ بِالعُلَى، وَلَا سَلَبَكَ هَذِهِ الحُلَى، وَفُلانٌ فَرْدٌ مُلِيءُ مَحاسِن، وَشُخَيْصٌ يَرُوقُ الأُذُنَ وَالمُعَايِن. مَا شِئْتَ مِنْ خَطٍّ يَبْهَرُ الحَمَائِلَ المُنَوَّرَة، وَشَدْوٍ يُخْجِلُ العَنادِلَ المُصَرْصِرَة، وَأَدَبٍ يَسْتَجْلِبُ النُّفوسَ الأَبِيَّة، وَيَسْتَحْضِرُ القُلوبَ النَّائِيَة، وَقَدْ أَصابَهُ الزَّمَنُ بِأَرْزَائِه، وَخَامَرَ الزَّمَنُ كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أَجْزائِه، فَأَصْبَحَ ذَا كَفٍّ صِفْرٍ، وَطَرْفٍ لَا يَجُولُ[1] في بَيْضٍ وَلَا صُفْرٍ، وَقَدْ أَمَّكَ لِمَا تُؤَمُّ لَهُ الأَكَارِم، وَاعْتَامَكَ كَما تُعْتَامُ البُحورُ الخَضَارِمِ[2]، وَسَيَرِدُ مِنْكَ عَلى حُرٍّ يَأْسُو كَلْمَه[3]، وَيُسَرِّي بِجَمِيلِ اللِّقَاءِ هَمَّه، وَلَا يُخْلِيهِ مِنْ نَظَرٍ لَهُ وَإِلَيْه، وَرِفْقٍ بِهِ وَعَطْفٍ عَلَيْهِ. لَا زِلْتَ لِلْآمالِ مُنْتَجَعاً، وَلِلسُّؤَالِ مُصْطَافاً وَمُرْتَبَعاً.

---

(1) في الأصل: «لا يحول».
(2) في الأصل: «الخصارم».
(3) الكلم: الجرح.



وَكَتَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ المَعْنَى:

فُلَانٌ أَبْقَى اللهُ رِفْعَتَهُ عَالِيَةَ المَرَاقِي، حَالِيَةَ التَّرَاقِي. كَتَبْتُهُ وَنِعْمَةُ اللهِ السَّابِغَةُ تَتَجَدَّدُ، وَرَحْمَتُهُ السَّابِقَةُ لَا تَزَالُ تَتَغَمَّدُ؛ وَاللهُ تَعَالَى يُعِينُ عَلَى شُكْرِ نِعْمَتِهِ، وَيَمُنُّ عَاجِلاً بِالعَوْدَةِ إِلَى عِزِّ خِدْمَتِهِ، بِمَنِّهِ. وَعِنْدِي أَيُّهَا الشَّيْخُ المُحْتَرَمُ الجَانِبِ، المُلْتَزَمُ الوَاجِبِ[1]، مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى فَضْلِكَ وَالاعْتِرَافِ بِأَنِّي لَمْ أَظْفَرْ فِي أَبْنَاءِ الرِّيَاسَةِ بِمِثْلِكَ، مَا عِنْدَ مَنْ عَلِمَ تَصَرُّفَكَ فِي كَرَمِ المَنَاحِي وَالمَنَازِعِ، وَتَوَقُّفَكَ فِي المُشْكِلَاتِ مَعَ أَفْضَلِ صَارِفٍ مِنَ الدِّينِ وَأَنْصَحِ وَازِعٍ، نَفَعَكَ اللهُ بِمَا خَصَّكَ بِهِ مِنْ صَدْرٍ سَلِيمٍ مِنَ الحِقْدِ، وَطَبْعٍ بَعِيدٍ عَنْ تَعَقُّبِ النَّقْدِ.

وَفُلَانٌ صَحِبْتُهُ مُدَّةً، وَخَبَرْتُ مِنْهُ حُسْنَ أَدَبٍ وَصِدْقَ مَوَدَّةٍ، وَلَهُ رَغْبَةٌ فِي أَنْ يَكُونَ مِنْ آكَدِ عُدَدِهِ، وَأَقْوَى الأَسْبَابِ -بَعْدَ اللهِ تَعَالَى- فِي إِقَامَةِ أَوَدِهِ؛ وَأَنْ تَأْخُذَهُ مُحْسِناً بِيَدِهِ، وَتُعِينَهُ عَلَى مَا يَبْغِيهِ مِنَ العَوْدَةِ إِلَى بَلَدِهِ وَوَلَدِهِ.

جَعَلَكَ اللهُ مِمَّنْ صَانَ مَالَهُ بِبَذْلِهِ، وَتَوَسَّلَ بِالمُوَاسَاةِ بِفَضْلِهِ إِلَى جُودِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ، وَلَا أَعْدَمَكَ لِإِسْدَاءِ مَعْرُوفٍ وَإِجْزَالِ إِحْسَانٍ إِلَى مُسْتَحِقٍّ لَهُ وَلِأَهْلِهِ.

وَكَتَبَ فِي ذَلِكَ المَعْنَى أَيْضًا:

كَتَبَ مُلْتَزِمُ بِرِّهِ، المُعْتَرِفُ بِما رَآهُ مِنْ سَماحِ كَفِّهِ وَانْشِراحِ صَدْرِه. وَلُطْفُ اللهِ تَعَالَى طَلٌّ مُنْهَمِلٌ، وَظِلٌّ غَيْرُ مُنْتَقِلٍ؛ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يُجَدِّدُ نِعْمَتَهُ، وَيُخَلِّدُ رَحْمَتَهُ؛ وَعِنْدِي مِنْ تَعْظِيمِكَ، وَالثَّنَاءِ عَلَى حَدِيثِكَ وَقَدِيمِكَ مَا عِنْدَ مَنْ تَحَقَّقَ سَرْوَكَ، وَرَأَى وُجُوهَ الآمَالِ مُتَوَجِّهَةً نَحْوَكَ.

وَاللهُ تَعَالَى يُدِيمُ لَكَ النِّعَمَ الَّتِي لَهَا تُقْصَدُ، وَيُبْقِي عَلَيْكَ الشِّيَمَ الَّتِي عَلَيْها تُحْسَدُ.

وَفُلَانٌ صَحِبْتُهُ فَوَجَبَ لِصُحْبَتِهِ ذِمَامٌ، وَتَعَيَّنَ لِمَعْرِفَتِهِ حُسْنٌ وَإِكْرَامٌ؛ وَإِنْ لَمْ يَتَّفِقْ فِي المَعُونَةِ فِعْلٌ، فَلاَ بَأْسَ أَنْ يَتَّفِقَ كَلَامٌ، وَلَا أَكْسَدَ مِنْ بِضَاعَةِ الشَّفَاعَةِ إِلَّا عِنْدَ مِثْلِكَ

(1) في الأصل: «الواح».



مِنْ كَرِيمٍ وَابْنِ كِرَامٍ. وَحاجَةُ هَذا الصَّاحِبِ اسْتِمْطَارٌ لِهَضَبَةِ فَضْلِكَ، وَاسْتِنْصارٌ بِهَضَبَةِ طَوْلِكَ، وَفِي مَجْدِكَ الشَّهِيرِ مَا يُورِدُهُ الطَّلَّ صَافِياً، وَيَصْبَغُ عَلَيْهِ الظِّلَّ وَافِياً. أَبْقاكَ اللهُ لِتَكْرِيمِ الوِفَادَةِ، وَتَفْخِيمِ الإِفَادَةِ، وَنَفَعَكَ بِمَا حَلَّاكَ بِهِ مِنْ شَمائِلِ السُّرُورِ وَالسِّيَادَةِ. بِمَنِّهِ.

وَكَتَبَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُرَاجِعًا:

سَلامٌ عَلَى فُلانٍ أَبْقَاهُ اللهُ فِي كَرَامَةٍ جَدِيدَةِ المَعَاهِدِ، وَسَعَادَةٍ شَدِيدَةِ المَعَاقِدِ؛ وَفَضْلُهُ قَذىً فِي عَيْنِ النَّاقِمِ وَشَجىً لِصَدْرِ النَّاقِدِ.

كَتَبَ الشَّاكِرُ لَهُ حِلًّا وَارْتِحالاً، المُجَدِّدُ مَعَ كُلِّ بَرْقٍ يَخْفُو وَنَسِيمٍ يَهْفُو لَهُ ذِكْراً وَعَنْهُ سُؤَالاً، وَالأَلْطَافُ تَبْهَرُ الغَمَائِمَ انْسِكَاباً، وَتَمْلَأُ الأَنَامِلَ حِسَاباً، وَتَعُدُّ لِكُلِّ حاجَةٍ قَضَاءً وَلِكُلِّ مَسْأَلَةٍ جَوَاباً.

وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يَفْتَحُ لِلْقَبُولِ أَبْوَاباً، وَيَجْعَلُ مُضاعَفَةَ النَّعْماءِ وَمُتَابَعَةَ الآلَاءِ أَجْراً وَثَواباً؛ وَوُدُّكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ، البَيِّنُ صِدْقُهُ، المُتَعَيَّنُ حَقُّهُ، المُتَشَوِّقُ لِأَجْلِهِ نَاسُهُ وَأُفْقُهُ، غَالِبٌ عَلَى الفِكْرِ، مَالِئٌ مَا بَيْنَ الجَوانِحِ وَالصَّدْرِ. وَاللهُ تَعَالَى يَنْفَعُ بِهَا أُخُوَّةً صَافِيَةً، وَيَزِينُهَا بِلَذَّتَيْ المُجَاوَرَةِ وَالمُحَاوَرَةِ فِي عَافِيَةٍ؛ بِمَنِّهِ.

وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكَ المَبْرُورِ فَنَعَّمَ بَالِي، وَجَدَّدَ أُنْسِيَ البَالِي، وَقَدَّرَ عِنْدِي مِنْ صَفَائِكَ وَوَفَائِكَ -مَا لَمْ أَزَلْ أَتَعَرَّفُهُ- المُتَّصِلَ المُتَوَالِي. فَلَوْ أَنَّ السُّطُورَ تَسْتَحِيلُ شُذُوراً وَالفِقَرَ تَصِيرُ دُرَراً لَمَا نَفَقَتْ لِلسُّلُوكِ عِنْدَ المُلُوكِ سُوقٌ، وَلَا تَحَلَّتْ سِوَاهَا سَوَالِفُ وَمَعَاصِمُ وَسُوقٌ، أَحْرِ بِكَلَامٍ أَسَّسَتْهُ وَثَاقَةُ الصَّدَاقَةِ وَحَسَّنَتْهُ جِدَّةُ المَوَدَّةِ أَنْ تَلْتَقِطَ العُيُونُ عُيُونَهُ، وَتَعْتَقِدَ القُلُوبُ كُلَّ سِحْرٍ دُونَهُ؛ فَلَوْ أَنَّ الصَّادَيْنِ رَأَيَاهُ لَفَدَّيَاهُ، وَلَوْ أَنَّ الدَّالَيْنِ سَمِعَاهُ لَمَا تَعَدَّيَاهُ.

وَاللهُ تَعَالَى يُبْقِيكَ وَرَوْضُ فَهْمِكَ أَنِيقٌ، وَنَسِيمُ ذِهْنِكَ رَقِيقٌ، وَكَلَامُ بُلَغَاءِ عَصْرِكَ لِنَثْرِكَ رَقِيقٌ، بِمَنِّ اللهِ تَعَالَى. وَحَالِي عَقِبَ تَرْحَالِي، عَلَى مَا يُرْضِيكَ لَمْ أَعْدِمْ مَحْبُوباً إِلَّا مَرْآكَ، وَلَا وَجَدْتُ مَكْرُوهاً إِلَّا مَنْآكَ، وَمِثْلُكَ يَكْفِيهِ تَعْرِيضُ لَفْظِهِ، وَيُغْنِيهِ أَيْمَا لَحْظَهُ.



وَالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كُلُّ يُسْرٍ بِتَيْسِيرِه، وَكُلُّ خَيْرٍ بِتَقْدِيرِه؛ وَتَفْصِيلُ هَذَا التَّجْمِيلِ يَمْنَعُ مِنْهُ شُغْلٌ اسْتَحَقَّ اليَدَ وَالخَلَد، وَمُتَحَمَّلٌ أَطَالَ الحَفْزَ وَقَصَّرَ الأَمَد؛ وَفَضْلُكَ يُغْضِي عَنْ خَطَلِي، وَلَا يَقِيسُ حَلْيَهُ عَلَى عَطَلِي؛ فَمَا أَصْبَحْتُ مِنْ أَصْبَح، وَلَا سَبَحْتُ مِنْ بَحْرِ البَلاغَةِ حَيْثُ يَسْبَحُ. أَبَتْ لِي ذَلِكَ نِسْبَةٌ بَرْبَرِيَّةٌ، وَفِكْرَةٌ مِنْ دَعْوَى الأَدَبِ بَرِيَّةٌ وَاللهُ تَعَالَى يَرْزُقُنَا رَاحَةً مِنَ العِلَلِ، وَفَصَاحَةً فِي العَمَلِ؛ بِمَنِّهِ:

رَحَلْتُ وَقَدْ وَجَدْتُ العَيْشَ مُرّاً ... بِسَعْيِ البَغْيِ، وَالمَرْعَى وَخِيمَا
فَسَنَّى اللهُ لِي بِرّاً حَدِيثاً ... نَسِيتُ بِطِيبِهِ البِرَّ القَدِيمَا
فَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي ... وَجَدْتُ اللهَ رَحْمَاناً رَحِيمَا

وَكَتَبَ إِلَى الفَقِيهِ أَبِي العَبَّاسِ الشَّرِيشِي[1]:

لَاخَطْبُ[2] فُرْقَتِكُمْ لَدَيَّ قَلِيلَا ... كَلاَّ وَلَا الصَّبْرُ الجَمِيلُ جَمِيلَا
يَانَازِحاً عَنْ غَيْرِ قَلْبِي إِنَّهُ ... مُذْ بَانَ[3] عَنْهُ، أَقَامَهُ تَمْثِيلَا
كَيْفَ السُّلُوُّ وَبَيْنَنَا مِنْ رَغْبَةٍ ... أُسْدٌ، تَكُونُ لَهَا الأَسِنَّةُ غِيلَا
وَسَبَاسِبٌ تَذَرُ الدَّلِيلَ مُرَدِّداً ... نَظَراً إِلَى أَثَرِ المَطِيِّ كَلِيلَا
لِلَّهِ أَنْتَ، فَقَدْ وَجَدْتُكَ عُدَّةً ... سَمَحَ الزَّمَانُ بِهَا، وَكَانَ بَخِيلَا
وَبَلَوْتُ مِنْكَ شَمَائِلاً، مِنْ دُونِهَا ... صَفْوَ الشَّمُولِ، فَمَا أَرَدْتُ بَدِيلَا[4]
أَبْلِغْ رِبَاطَ التُّونِسِيِّ تَحِيَّةً ... عَنِّي، وَأَوْسِعْ قَبْرَهُ تَقْبِيلَا
وَاقْرَأْ بِهِ الذِّكْرَ الحَكِيمَ مُوَفِّياً ... آيَاتِهِ، التَّجْوِيدَ وَالتَّرْتِيلَا

(1) لعله أحمد بن عبد المومن الشريشي شارح المقامات اشتهر بعلمه وأدبه وتبحره في الأدب واللغة، انظر: التكملة 1/ 111، الذيل والتكملة 11/ 268. برنامج شيوخ الرعيني، ص: 90.
(2) في الأصل: «أخطب».
(3) في الأصل: «مذيان».
(4) في الأصل: «يديلا».



وَاذْكُـرْ أَخَـاكَ بِـدَعْوَةٍ مَبْـرُورَةٍ   تَطْـرَحْ بِهَـا عِبْئـاً عَلَيْـهِ ثَقِـيلَا
وَاعْطِـفْ عَلَـى صَـفِّ البُـصَيْلَةِ إِنَّـهُ   قَـدْ كَـانَ لِـي مَـأْوىً وَكَـانَ مَقِـيلَا
وَالْمَـحْ بِقِبْلِـيِّ المَدِينَـةِ مَنْظَـراً   أَضْـحَى بِمُـشْتَبَكِ النُّجـومِ عَـدِيلَا
لَبِـسَتْ مُلَوَّنَـةَ الأَزَاهِـرِ أَرْضُـهُ   وَخَطَـا بِـهِ رِيـحُ الـشَّمالِ بَلِـيلاَ
وَانْـسَابَ فِي تِلْـكَ الأَبَـاطِحِ نَهْـرُهُ   فَهَجَـرْتُ دِجْلَـةَ عِنْـدَهُ وَالنِّـيلَا
وَكَأَنَّمَـا الجَبَـلُ المُنَمَّـقُ فَوْقَـهُ   أَضْـحَى لِمَبْـرَقِ رَأْسِـهِ إِكْلِـيلَا
نَـشَقَ الهَـواءُ بِـهِ صَـحِيحاً عِنْـدَمَا   هَـبَّ النَّـسِيمُ بِـصَخْرَتَيْهِ عَلِـيلاَ
لَا أَنْـسَى أَيَّامـاً قِـصاراً فِيـهِ لِـي   أَضْـحَى تَـذَكُّرُ مـا عَلَـيَّ طَـوِيلاَ
سَـدَّ الـسَّبِيلَ عَـنِ اللِّقَـاءِ فَلَـمْ أَجِـدْ   لَمَّـا نَأَيْـتُ إِلَـى الـسُّلُوِّ سَـبِيلَا
أَعْـزِزْ عَلَـيَّ بِـأَنْ أَكُـونَ مُحَمـلاً   شَـوْقَ الـدُّنُوِّ إِلَـيْكُمُ تَرْسِـيلَا
كُـنْ كَيْـفَ شِـئْتَ أَخَـا الوَفَـاءِ فَـإِنَّنِي   أُثْنِـي عَلَيْـكَ إِمَامَـةً وَرَحِـيلَا
دَعْـوَايَ حُبّـكَ بِالـضَّرُورَةِ لَاحِـقٌ   وَعَلَـى الـضَّرُورَةِ لَا تُرِيـدُ دَلِـيلَا
أَفْـتَنُّ فِـي فَـنِّ الثَّنَـاءِ عَلَـيْكُمُ   وَأُوَاصِـلُ التَّعْظِـيمَ وَالتَّبْجِـيلَا
خُـذْهَا إِلَيْـكَ قَـصِيدَةً حملتهـا   فَتَحَمَّلَـتْ شَـوْقاً إِلَيْـكَ دَخِـيلَا
وَلَقَـدْ أَرَدْتُ زِيَـادَةً فِـي نَظْمِهَـا   لَكِـنْ كَرِهْـتُ -وَحَقِّـكَ- التَّثْقِـيلَا
لَا وَالَّـذِي كَـانَ الفِـرَاقُ بِحُكْمِـهِ   مَـا خَطْـبُ فُـرْقَتِكُمْ لَـدَيَّ قَلِـيلَا

كَتَبْتُ دَامَتْ كَرَامَةُ سَيِّدِي الفَقِيهِ، وَالأَخِ الَّذِي أَفْدِيهِ بِالنَّفَائِسِ وَأَقِيهِ، وَلَا زَالَ غَنِيًّا بِوِقَايَةِ السَّعادَةِ عَنْ تَوَقِّيهِ، مُتَعَرِّفاً عَلَى الدَّوَام عَادَةَ تَرَفُّعِهِ وَتَرَقِّيهِ؛ مِنْ حَضْرَةِ فَاس -حَرَسَهَا اللهُ- وَالحَالُ جَمِيلَةٌ صَالِحَةٌ، وَأَلْطَافُ المَوْلَى سُبْحانَهُ غَادِيَةٌ رَائِحَةٌ؛ وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ وَجَدِيدُ الأُنْسِ بَعْدَكَ بَالٍ، وَفِكْرُ الشَّوْقِ مُتَتَابِعٌ مُتَوَالٍ، وَالنَّفْسُ حَنَّانَةٌ إِلَى أَيَّام مَاضِيَةٍ لَنَا وَلَيَالٍ، فَمَا كُثَيِّرٌ وَقَدْ غَلَبَهُ الشَّوْقُ وَعَزَّهُ، وَاسْتَدْعَى البُكَاءَ مِنْ خَلِيلَيْهِ حَيْثُ حَلَّتْ عَزَّةُ، وَلَا سَمِيُّهُ مَعْنىً وَقَدْ فَارَقَ الجَزِيرَةَ، وَتَيَّمَتْهُ عَزَّةُ الأَخِيرَة، وَكَانَ فِي



مِضْمَارِ المَحَبَّةِ، وَذِكْرِ الأَحِبَّةِ عَدِيلَ سَمِيِّهِ المَعْنَوِيِّ وَنَظِيرَهُ، وَإِيَّاكِ أَعْنِي يَاجارَةَ فَاسْمَعِي[1]، وَخُذِي فِي اللَّوْمِ إِنْ شِئْتِ أَوْدَعِي:

بِأَوْحَدَ مِنِّي مُذْ نَأَيْتُ وَإِنَّمَا ... أُعَلِّلُ نَفْسِي بِالتَّجَلُّدِ وَالصَّبْرِ
وَإِلَّا فَأَنْفَاسِي أَحَرُّ مِنَ الغَضَى ... عَلَيْكِ وَأَجْفَانِي أَدَرُّ مِنَ القَطْرِ
فَيَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ لِقُرْبِك كَرَّةٌ ... وَهَيْهَاتَ، كَمْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ قَفْرِ
لَعَلَّ الَّذِي كَانَ الفِراقُ بِحُكْمِهِ ... يُعِيدُ لَنَا عَيْشاً تَوَلَّى وَمَا نَدْرِي
فَنَسْرَحُ فِي تِلْكَ البِطَاحِ نَوَاظِراً ... تَنَقَّلُ مِنْ رَوْضٍ نَضِيرٍ إِلَى نَهْرِ
وَنَرْقَى وَبَيْنَ الصَّخْرَتَيْنِ مَناظِرٌ ... تمثلُ مَا بَيْنَ الغَدِيرِ إِلَى البَحْرِ
وَنَنْشَقُ أَنْفَاسَ النَّسِيمِ بَلِيلَةً ... مُعَطَّرَةً بَيْنَ المَذَانِبِ وَالزَّهْرِ
تَذَكَّرْتُهَا وَالبَيْنُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ... وَلَا بُدَّ لِلْمُشْتاقِ مِنْ لَوْعَةِ الذِّكْرِ
أَمَا وَهَوَاهَا بَلْ هَوَاك فَإِنَّهُ ... تَمَكَّنَ مَا بَيْنَ الجَوانِحِ وَالصَّدْرِ
فَمَا لَبِسَتْ إِلَّا بِحُسْنِكَ حُسْنَهَا ... وَلَا بُدَّ لِلْحَسْناءِ مِنْ نَفْحَةِ العِطْرِ
وَإِيهِ وَقَدْ وَفَّيْتُ شَوْقِيَ حَقَّهُ ... أعد نظراً فِي البَدْرِ وَالغُصْنِ النَّضْرِ
فَهَلْ طَلَعَتْ فِي الغُصْنِ لِلْبِشْرِ نَوْرُهُ ... وَهَلْ وَضَحَتْ مِنْ غَيْمِهَا صَفْحَةُالبَدْرِ؟
وَهَلْ لِلْجِيَادِ القُبِّ فِي القُبِّ مَسْرَحٌ ... بِأُسْدِ هِيَاجِ غِيلُهَا أَجَمُ السُّمْرِ
وَمَا كَانَ نَذْرٌ نَذَرْتُ صِيَامَهُ ... مَعَ الوَصْلِ مِنْ عَشْرٍ تُضَافُ إِلَى شَهْرِ

كَمْ ذَا أُطِيل، وَيَكْثُرُ مِنِّي القَالُ وَالقِيلَ، وَأَخْرُجُ عَنْ حَدِّ انْتِزَاح، إِلَى وَجْدِ مِزَاح، وَقَدْ نَفِدَ السِّجِلُّ، وَكَلَّ أَخُوكَ المُجِلّ، وَلَمْ يَبْقَ الآنَ إِلَّا أَنْ أَخْتِمَ الرُّقْعَة، بِهَذِهِ القِطْعَة:

أَنَا مُذْ بِنْتَ يَاأَبَا العَبَّاسِ ... فِي رَجاءٍ مِنَ اللِّقَاءِ وَيَاسِ

(1) من الأقوا ل المشهورة على الألسنة.



وَدُمُــوعٍ لِلْبَــيْنِ تَهْمِــي وَلَكِــنْ نَــشَّفَتْهَا حَــرَارَةُ الأَنْفَــاسِ
كَيْــفَ حَــالُ امْــرِئٍ تَــشِطُّ تِلِمْــسَا نُ عَلَيْــهِ وَقَــدْ أَقَــامَ بِفَــاسِ
لَــمْ يَكُــنْ مَــا لَقِيتُــه مُــذْ نَــأَيْ تَ، مِــنَ الوَجْــدِ جَارِيــاً بِقِيَــاسِ
لَا وَرِيــمٍ يَــصُونُ خَــدّاً بِــصُدْغٍ فَيَــصُونُ الــوَرْدَ الجَنِــيَّ بِــآسِ
وَجُفُــونٍ تَعَلَّمَــتْ صَــنْعَةَ الــسِّحـ ــرِ، فَــضَلَّتْ بِهَــا حُلُــومُ النَّــاسِ
مَــا مُقَــامِي وَقَــدْ فَقَــدْتُكَ إِلاَّ كَمُقَــامِ الــذِّرَاعِ فِــي المِقْيَــاسِ

قَدْ حُلَّ بَابُ الْهَوَى، وَتَمَّ الآنَ وَاسْتَوَى؛ وَكُنْتُ أَحْتَفِلُ فِيهِ وَأُطْنِبُ، لَوْ وَجَدْتُ أَيْنَ أَكْتُبُ. وَهَبَ اللهُ لِي وَلَكَ تَوْبَةً نَصُوحًا، وَبَابَ عَمَلٍ إِلَى قِبْلَةِ الرِّضَا[1] مَفْتُوحًا؛ بِمَنِّه.

وَمِنْ مُخَاطَبَاتِهِ الصَّادِرَةِ عَنِ الأُمَرَاءِ وَمَا تَعَلَّقَ بِذَلِكَ قَوْلُهُ فِي رِسَالَةٍ صَادِرَةٍ عَنْهُ لِلْحَضْرَةِ:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيةُ مَقَامُ الفَضْلِ المُتَتَابِعِ المُتَوَالِي، وَنِظَامُ الإِحْسانِ المُتَنَاسِقِ المُتَتَالِي؛ أَدَامَ اللهُ عُلُوَّهَا وَظُهُورَهَا، وَأَجْرَى وَفْقَ إِرَادَتِهَا أَوَامِرَهَا وَأُمُورَهَا، وَوَصَلَ بِبَرَكَتِهَا لِلأُمَّةِ جَذَلَهَا وَسُرُورَهَا؛ عَبْدُ مِنَنِهَا الوَاضِحَةِ الحُجُولِ وَالغُرَر، وَمُسْتَرَقُّ أَيَادِيهَا الكَرِيمَة الأَثَرِ والأُثُر، المُتَقَلِّبُ مِنْ تَعَهُّدَاتِهَا المُتَلَاحِقَة، وَتَفَقُّدَاتِها المُتَنَاسِقَة، بَيْنَ غَيْمٍ سَحَّاحِ المَطَرِ، وَدَوْحٍ نَفَّاحِ الزَّهَرِ، الشَّاكِرُ لَهَا بِأَلْسِنَةِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ وَغَايَتُهُ العَجْزُ وَالحَصَر؛ وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي جَعَلَ المَقامَ العَلِيَّ ظِلًّا يَكْنفُ الأَنَامَ وَيَكْفِيهِمْ، وَغَيْثًا يُغِيثُهُمْ مَظَانَّ الأَوَامِ وَيَرْوِيهِمْ؛ وَالصَّلَاةِ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الكَرِيمِ مُنْقِذِ العِبَادِ مِنْ أَشْرَاكِ الإِشْرَاك وَمُنْجِيهِم، المَخْصُوصِ وَحْدَهُ بِمَزِيَّةِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[2] وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ الكِرامِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَوَّلِيهِم، البَاذِلِينَ في

---

(1) في الأصل: «الرصى».
(2) سورة الأنفال، الآية: 33.



الذَّبِّ عَنْهُ عَلَيْهِالسَّلَامُ أَتَمَّ احْتِفَالِهِمْ وَأَعَمَّ تَحَفِّيهِمْ، وَالرِّضَى عَنِ الإِمَامِ المَهْدِيِّ مُبِيدِ المُبْطِلِينَ بَعْدَ اشْتِدَادِ هَوَائِهِمْ وَامْتِدَادِ مَهَاوِيهِمْ، وَمُعِيدِ الحَقَائِقِ عَلَى أَهْلِهَا حِينَ اجْتِيَاحِ مَنَايَاهُمْ وَانْتِزَاحِ أَمَانِيهِمْ[1]، وَالدُّعَاءِ لِسَادَتِنَا المُتَمِّمِينَ لِدَعْوَتِهِ طَعْناً بِأَسِنَّتِهِمْ وَضَرْباً بِمَوَاضِيهِمْ، المُقْتَفِينَ مِنْ سَنَنِهِ الوَاضِحِ بِعَمَلِهِمْ وَنِيَّتِهِمْ وَتَوَخِّيهِمْ، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ بِسَعْدٍ يَحْمِي أَوْلِيَاءَهُ وَيَقِيهِمْ، وَنَصْرٍ يَذَرُ عِدَاهُ نُهْبَةً لِأَوَّلِ يَدٍ تُلاقِيهِمْ.

فَكَتَبَ العَبْدُ المُسْتَرَقُّ السِّرَّ وَالعَلَنِ، المُسْتَحَقُّ بِتَرادُفِ الآلَاءِ وَتَضاعُفِ المِنَنِ، كَتَبَ اللهُ لِلْمَقامِ جُنُوداً مِنَ الجِدِّ لَا تَزالُ غالِبَةً مَنْصُورَةً، وَبُنُوداً مِنَ السَّعْدِ لا تَنْفَكُّ عالِيَةً مَنْشُورَةً، وَلُطْفُ اللهِ تَعالَى يُؤَمِّنُ كُلَّ شَعْبٍ، وَيُسَهِّلُ كُلَّ صَعْبٍ، وَيُذَلِّلُ كُلَّ جامِحٍ، وَيُقَرِّبُ كُلَّ نَازِحٍ؛ وَالحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَ اليُمْنَ لَدَيْهَا، وَأَجْرَى الخَيْرَ عَلى يَدَيْهَا؛ وَعِنْدَ العَبْدِ مِنَ الالْتِزَامِ لِلرَّسْمِ الَّذِي رُسِمَ لَهُ، وَالاسْتِعْمالِ لِلْقانُونِ الَّذي فُسِّرَ لَهُ، الصَّوَابُ قَوْلاً وَعَمَلاً، وَفَصْلُهُ مَا حَسَّنَ الأَثَرَ، وَعَمَّ بِالأَمْنَةِ وَالصَّلَاحِ مَنْ بَدَا وَحَضَرَ؛ فَالعَافِيَةُ شامِلَةٌ، وَالطُّرُقُ سابِلَةٌ، وَالرَّعِيَّةُ إِلى المُقْتَرَحاتِ النَّازِحَةِ، وَالمُبْتَغَياتِ الطَّامِحَةِ واصِلَةٌ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِلُطْفِ اللهِ تَعالَى وَيُمْنِ مَقامٍ أَقَامَهُ اللهُ لِلْمَصالِحِ فَبَثَّهَا[2]، وَأَمَدَّهُ بِتَمْشِيَةِ النَّصائِحِ فَنَثَّهَا[3]. فَلَا مِصْرَ إِلَّا وَقَدْ تَبَلَّجَ إِنَارَةً، وَتَأَرَّجَ عَطَارَةً، وَلا فِئَةَ إِلَّا وَقَدْ وَجَدَتْ تَمَنِّيهَا، وَفَقَدَتْ بِالنَّظَرِ الأَصْلَحِ تَعَنِّيهَا؛ مَدَّ اللهُ لِلْجَمِيعِ ظِلَالَ الحَضْرَةِ العُلْيَا، وَوَصَلَ لِلْكافَّةِ بَقاءَهَا الَّذي هُوَ عِزَّةُ الدِّينِ وَبَهْجَةُ الدُّنْيَا.

وَقَدْ وَصَلَتْ لِلْعَبْدِ المِنَّةُ العُظْمَى، وَالمِنَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ وَرَاءَهَا لِآمِلٍ مِنْ آمَالِ الدُّنْيَا مَرْمَى[4]؛ فَتَمَّمَتِ الأَيَادِي المُتَقَدِّمَةِ، وَجَدَّدَتِ المَواهِبَ المُتَصَرِّمَةِ؛ وَكانَتْ كَالطَّلِّ

---

(1) في الأصل: « أمانهم».

(2) في الأصل: «فبتها».

(3) في الأصل: «فنتها». نت الشيء: نشره وأفشاه. قال الشاعر:

إِذَا جَاوَزَ الإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ ... بِنَثٍّ وَتَكْثِيرِ الوُشَاةِ قَمِينُ

(4) في الأصل: « مري ».



المُنْسَكِبِ بَعْدَ طَلَالٍ، وَالظِّلِ المُنْسَحِبِ فَوْقَ ظِلَالٍ، فَمَدَّ العَبْدُ إِلَيْها يَداً مَلأَتْهَا المِنَنُ، وَأَحَالَ فِي شُكْرِهَا لِسَاناً أَنْطَقَهُ الصُّنْعُ الحَسَنُ، وَأَعَدَّ لِمَوْقِعِهَا قَلْباً تَشَرَّفَ بِطُلُولِهَا هُوَ وَالبَدَن، وَلَمْ تَبْقَ لَهُ جارِحَةٌ[1] إِلَّا اسْتَجَدَّتْ عَزْمَةً فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ، وَلاَ جانِحَةٌ[2] إِلاَّ اسْتَعَدَّتْ هِمَّةً لِمُسْتَقْبَلِ الخِدْمَةِ؛ عَلَى أَنَّ العَبْدَ لَوْ أَبَانَ[3]، بِمِقْوَلِ سَحْبَان[4] لَقَصَّرَ عَنِ الحَدِّ، وَلَمَا كَانَ إِلَّا سُكَّيْتَ حَلَبَةِ الحَمْدِ؛ بَحْرُ المِنَنِ الإِمَامِيَّةِ مَنْ حَاوَلَ قَطْعَهُ سَبْحاً، لَقِيَ بَرْحاً، وَمَنْ تَعَاطَى اسْتِنْفَادَهُ عَبّاً، رَكِبَ مَرْكَباً صَعْباً، وَحَسْبُ القُوَى البَشَرِيَّةِ اسْتِكْدَادَ طَبْعِهَا، وَاسْتِنْفَادَ جَهْدِهَا وَوُسْعِهَا. ثُمَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى المَفْزَعُ فِي مُكافَأَةِ مَقَامٍ لَا يُكَافِيهِ سِوَاهُ، وَلَا يُؤَملُ لِمُجَازاةِ نُعْمَاهُ إِلاَّ رُحْمَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ أَيَادِي المَقَامِ قَدْ أَكْمَلَتِ الرَّغائِبَ، وَشَمَلَتِ الحاضِرَ وَالغَائِبَ، فَالعَبْدُ أَرْحَبُهُمْ مَذاهِبَ مَواهِبَ، وَأَمْرَعُهُمْ مَسَارِحَ مَنَائِحَ، كَما أَنَّهُ أَصْدَقُ العَبِيدِ ظَاهِراً فِي الشُّكْرِ وَأَخْلَصُهُمْ ضَمِيراً، وَأَمَدُّهُمْ فِي الخِدْمَةِ بَاعاً وَأَشَدُّهُمْ تَشْمِيراً؛ جازَى اللهُ عَنْهُ المَقَامَ أَفْضَلَ ماجَازَى بِهِ مَقَامَا شَرُفَ بالاِسْتِخْدَامِ، وَتَعَهَّدَ بِالمِنَنِ الفُرَادَى وَالتُّؤَامِ؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ المَسْؤُولُ أَنْ يُدِيمَ لِلْمَقَامِ أَفْضَلَ مَا عَوَّدَهُ، وَيَصِلَ لَهُ وَعَلى يَدَيْهِ مَنْصُورِ العَزْمِ وَمُؤَيَّدَهُ، وَيُعَرِّفَهُ عَلَى الدَّوَامِ فَتْحاً يُعْلِي كَعْبَ الإِسْلَامِ وَيَبْسُطَ يَدَهُ، بِمَنِّهِ.

وَكَتَبَ أَيْضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

السَّيِّدُ أَبُو فُلانٍ أَدَامَ اللهُ مَجْدَهُ جَدِيدَ المَعَالِمِ، وَوَصَلَ سَعْدَهُ حَدِيدَ الصَّوَارِمِ؛ أَخُوهُ السَّابِقُ فِي مِضْمَارِ وُدِّهِ، المُتَطَابِقُ الحَالِ وَالمَقَالِ فِي الإِفْصَاحِ بِحَمْدِهِ، البَرُّ بِهِ المُجِلُّ

---

(1) في الأصل: «جارجة».
(2) في الأصل: «مانحة».
(3) في الأصل: «لو أيان».
(4) سحبان: من أشهر خطباء العرب وأفصحهم، ويضرب به المثل في البيان. إذ يقال: «أبلغ من سحبان»، وسحبان هوالذي يقول:

لَقَدْ عَلِمَ الحَيُّ اليَمَانُونَ أَنَّنِي ... إِذَا قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ أَنِّي خَطِيبُهَا

انظر: الدرة الفاخرة، ص: 91.



لَهُ لِعِظَمِ حَقِّهِ وَكَرَمِ عَهْدِهِ، المُتَرَقِّبُ لِمَا يُنَفِّسُ عَنْ نَفْسِهِ وَيُرَوِّحُ عَنْ رُوحِهِ مِنْ نبأٍ سَارٍّ، مِنْ عِنْدِهِ فُلاَن.

أَمَّا بَعْدُ فَكُتِبَ كَتَبَ اللهُ لَكَ مَجْداً لَا تَهِي أَرْكَانُه، وَسَعْداً لَا يَنْتَهِي إِمْكَانُه؛ وَأَلْطَافُ اللهِ تعالَى مُتَّصِلَةُ الوُفُود، طَالِعَةٌ بِمَعْهُودِ الفَضْلِ وَالجُود، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ حَمْداً لَا زَالَتْ بِهِ دِيَمُ النِّعَمِ ثَرَّةً تَجُودُ، وَلا تَبرَحُ مَعَهُ قِسَمُ العِصَمِ كُلَّمَا وَلَّتْ تَعُودُ، وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ لِجَانِبِكَ مِنَ التَّكْرِيمِ، وَلِوَاجِبِكَ مِنَ التَّقْدِيمِ، سَنَنٌ أَسْلُكُهُ مُتَدَيِّنا، وَدَيْدَنٌ أَعْتَقِدُهُ فَرْضاً مُتَعَيِّنا؛ وَاللهُ تَعَالَى يَنْفَعُ بِهَا أُخُوَّةً كَرِيمَةَ الأَوَاصِرِ، سَلِيمَةَ البَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ، لَا تُويسُ[1] النَّوَى ثَرَاهَا، وَلَا يَطْوِي النُّزُوحُ مَغْدَاهَا وَمَسْرَاهَا؛ وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ النَّفْسَ بِأَنْبَائِكَ مُتَوَلِّعَة، وَإِلَى مَا يَتَزَيَّدُ بِأَرْجَائِكَ مُتَطَلِّعَة، وَبِحَسْبِ ذَلِكَ أُوثِرُ مِنْكَ التَّعْرِيفَ بِمَآلِ الحَرَكَةِ الَّتِي اسْتَعْمَلْتَهَا، وَأَحْوالِ الجِهَةِ الَّتِي اسْتَقْبَلْتَهَا؛ فَإِنِّي مُذْ انْفِصَالِكَ عَنْ فُلَانَة إِلَى إِيَّابِكَ إِلَيْهَا لَمْ أَزَلْ أَسْتَبْطِئُ الرَّواحِلَ، وَأَسْتَطِيلُ المَرَاحِلَ، وَأَنْتَظِرُ بما يَسُرُّكَ وَيَسُرُّ عَنْكَ الإِيَابَ العَاجِلِ، إِلَى أَنِ اسْتَفَاضَ إِيَّابُكَ عَلَى الإِجْمَالِ، وَبَقِيَ المُوجِبُ لَهُ تَحْتَ احْتِمَال، فَمِنْ قَائِلٍ خَيْراً وَقَائِلٍ ضِدَّهُ، وَكُلٌّ بِحَسَبِ الهَوَى الغَالِبِ يُنْفِقُ مِمَّا عِنْدَهُ؛ وَفِي النَّوَى يَكْذُبُكَ الصَّادِقُ، وَيَخُونُكَ الأَصَادِقُ، وَلَمْ أَرَ لِدَفْعِ هَذا الإِبْهَامِ، وَقَطْعِ أَطْماعِ أَهْلِ اتِّهَام، إِلَّا البِدَارَ بِخِطَابِكَ، وَالانْتِظَارَ لِجَوابِكَ؛ وَأَنْتَ تَعرِفُ سَبَبَ سُرْعَةِ المُنْقَلَبِ وَتُبَشِّرُ بِمَرْجُوِّ الظَّفَرِ وَمَأْمُولِ الغَلَب، وَتُشْرِفُ عَلى الوَفاءِ بما سَفَرَتْ عَنْهُ تِلْكَ السَّفْرَة، وَأَنْتَجَتْهُ مُقَدِّمَتَا السِّنَانِ وَالشَّفْرَةِ، وَتُهْدِي ذَلِكَ إِلَى مَنْ يُشْرِكُ فِي نَعِيمِ الأَوْقَاتِ وَبُؤْسِهَا وَيَلْقَى كُلَّ حَالَةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ بِلَبُوسِهَا. وَالَّذِي بَيْنَنَا مِنْ تَلَاصُقِ الاشْتِبَاكِ، يَقْضِي بِتَطَابُقِ الِاشْتِرَاكِ، وَنَرْجُو اللهَ تَعالَى لِوُصُولِ كِتَابِكَ الأَثِير، مُتَقَدِّمًا[2] بِالبَشِيرِ، نَاطِقاً بِنُجْحِ ذَلِكَ المَسِيرِ، وَذَلِكَ عَلَى اللهِ تَعالَى يَسِير؛ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُبْقِيكَ وَصُدُورُ الصُّدُورِ عَلَى حُبِّكَ مُنْطَبِقَة، وَأَلْسِنَةُ الجُمْهُورِ في شُكْرِكَ

(1) هذه لغة في «يئس» ولعلها هي الأصل، فقد وقع القلب في كلمة «أيس» فأصبحت «يئس».
(2) في الأصل: «متق».



وَجَمِيلِ ذِكْرِكَ مُتَّفِقَة، وَحَرَكَاتُكَ وَسَكَنَاتُكَ فِي سِلْكِ المَصْلَحَةِ مُنْتَظِمَةٌ مُتَّسِقَة؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَكَتَبَ بِرَغْبَةِ إِنْسَانٍ:

أَهْــــلاً بِغُرَّتِــــكَ الــــسَّعِيدَةْ ... وَبِقُمــــرْبِ غَزْوَتِـــكَ البَعِيــــدَهْ
وَبِمَـــا خُصِـصْتَ بِـــهِ مِـــنَ ال ... شِّــيَمِ الطَّرِيفَـــةِ وَالتَّلِيـــدَهْ
يَـــابْنَ الإِمَامَـــةِ وَالخَلِـــي ... فَـــةِ نِـــسْبَةَ الـــشَّرَفِ المَجِيـــدَهْ
وَأَخَـــا النَّـــدَى وَالبَـــاسِ وَال ... مِـــنَنِ العَرِيـــضَةِ وَالمَدِيـــدَهْ
لَــــكَ فِي الجِهَـــادِ مَزِيَّـــةٌ ... قَامَـــتْ بِهَـــا نَفْـــسٌ جَلِيـــدَهْ
وَنِكَايَـــةٌ ذُلَّ العَـــدُوُّ لَهـــا ... وَوَطْأَتـــــهُ شَــــدِيدَهْ
قَــدَّمْتُ بَــيْنَ يَــدَيْكَ قَــبْ ... لَ الغَــــزْوِ آرَاءً سَــــدِيدَهْ
وَازَرْتَ إِفْرِيقِيَّـــــةَ قَطْعـــــاً ... قَطَعْـــتَ بِهـــا وَرِيـــدَهْ
وَتَرَكْتَـــهُ مُتَرَقِّبـــاً بَأْســـاً ... بِكَرَّتِــــكَ المُبِيـــــدَهْ
صَــادَ الكُمَـــاةَ مُخَـــاتِلاً ... وَالـــسَّعْدُ يَقْـــضِي أَنْ تَـــصِيدَهْ
وَلَكَـــمْ أَعَـــدَّ مَكِيـــدَةً ... لَكُــم فَلَــمْ تُغْــنِ المَكِيـــدَهْ
قَــدْ ذَاقَ حَطْمَـــةَ عَزْمَـــةٍ ... بَـــدَأَتْ، وَسَــوْفَ تُــرَى مُعِيــدَهْ
آثَـــارَ مِـــنْ هَجْـــرِ الحِفَـــا ... ظِ قُـــصُورُهُ أُنُفـــاً وَغِيـــدَهْ
وَرَأَى عَلَـــى القَعْـــدِيِّ عَـــنْ ... حَـــرِّ الـــوَغَى سِـــيَما القَعِيـــدَهْ
يَاضَـــيْغَمَ الحَـــرْبِ الَّـــذِي ... صَـــارَ الهِزَبْـــرُ لَـــهُ طَرِيـــدَهْ
أَحْيَيْـــتَ تُـــونُسَ بَعْـــدَمَا ... أَوْدَتْ بِهـــا مِحَـــنٌ عَتِيـــدَهْ
وَمَحَـــوْتَ إِذْ كَلِـــبَ العَـــدُ ... وُّ بِـــصِدْقِ وَعْـــدِكُمُ وَعِيـــدَهْ
وَتَرَكْتَهَـــا كَـــالرَّوْضِ جِـــي ... دَ بِجُـــودِ رَاحَتِـــكَ المَجِيـــدَهْ



يُثْنِــــــي عَلَيــــــكَ مُــــــسَوَّمٌ | بِــدَمِ العُــــلَا حَلَّيْــــتَ جِيــــدَهْ
وَمُقَـــــوَّمٍ لَــــدْنِ المَهــــزِّ | وَصَــــارِمٍ صَــــافِي الحَدِيــــدَهْ
وَغَـــدَتْ[1] رُسُــومُ الــدِّينِ بَــع | دَ دُرُوسِــــها بِكُــــمُ مَــــشِيدَهْ
نَفَّقْـــتَ مِـــنْ سُـــوقِ التُّقَـــى | فَكَأَنَّهــــا بِــــكَ مُــــسْتَفِيدَهْ
وَاخْتَالَـــتِ الـــدُّنْيا بِكُـــمْ | تِيهــــاً فَهَــــاهِيَ كَالخَرِيــــدَهْ
وَغَـــدَوْتَ فِي دَسْـــتِ العُلُـــو | مِ، وَلَا عَمِيــــدَ لَــــهُ عَمِيــــدَه
وَنَـــشَرْتَ مَــــا بَـــيْنَ الخَلِـــي | لِ مِــنَ الأَئِمَّـــةِ وَابْـــنِ سِــيدَهْ[2]
شَــــيَّدْتَ أَرْجَــــاءَ العَــــلَا | ءِ أَبَــا العَــلا ءِ[3] وَعَمــرت بيــدهْ
المَلِــــك نَــــاسٍ ذِكْــــرُهُ | مَأْمُونَـــةٌ بِـــكَ بَـــلْ رَشِـــيدهْ
إِنِّــي بَعِيــــدٌ وَأَنْــــتَ أَنْ | تَ مُلُوكُـــهُ وَيَعُـــدُّ صِـــيدَهْ
وَإِذَا أَرَدْتَ مِــــنَ الخَلِــــي | فَــةِ لَمْحَــةً فَــانْظُرْ حَفِيــدَهْ
مَلِــــكٌ لَــــهُ طَعْمَــــانِ لِــــل | فِئَــــة المُحِبَــــةِ وَالعَنِيــــدَهْ
هُــــوَ لِلْمُــــسَالِمِ شُــــهدَةً | وَعَلَــى الأَعَــادِي كَالهَبِيــدَهْ[4]
وُجِــدَتْ بِــهِ شِــيَمُ الــسِّيَا | دَةِ بَعْــدَ أَنْ كانَــتْ فَقِيــدَهْ
يَهْنِــــي الأَكَــــارِمَ إِنْ غَــــدَا | مَلِكــاً لَهُــمْ وَعُــدُّوا عَبِيــدَه
وَإِلَيْـــكَ، يانَجْـــلَ الإِمَـــا | مِ وَشِـــبْهَهُ، مِنِّـــي قَـــصِيدَهْ
حَـسُنَتْ وَلِـمْ لَا وَهــيَ مِــنْ | إِمْـــلَاءِ وَصْـــفِكَ مُـــسْتَفِيدَهْ

---

(1) في الأصل: « وعدت».

(2) يقصد بالخليل: الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب كتاب:«العين» ومؤسس علم العروض. أما ابن سيده فهو العالم اللغوي المشهور صاحب كتاب: «المُخَصّص» .

(3) في الأصل: «أن يستريده» .

(4) الهبيدة: الحنظل وقيل حبه وتجمع على هبيد.



إِنْــــشَاءُ مَجْبُـــولِ الــــضَّمِي ... رِ عَلَــــى مَحَبَّتِــــكَ الوَكِيــــدَهْ
دَاعٍ لِمُلْكِـــــكَ بِالـــــدَّوَا ... مِ، وَحَظُّـــــهُ أَنْ يَــــسْتَزِيدَه[1]
فَبَقَـــاءُ مُلْكِـــكَ مُـــؤْذِنٌ ... بِبَقَـــاءِ عُـــصْبَتِكَ المُرِيـــدَهْ
أَنَـــا وَاحِـــدٌ فِي نَـــشْرِ مَـــا ... تَطْـــوِي سِـــيَادَتُكَ الوَحِيـــدَهْ
قَـــدْ صَـــارَ شُـــكْرُكُمُ لَـــدَيَّ ... سَـــجِيَّةً لَا بَـــلْ عَقِيـــدَهْ
يَبْلَـــى الزَّمَـــانُ وَأَهْلُـــهُ ... وَمَحَبَّتِـــي أَبَـــداً جَدِيـــدَه
وَافَـــى البَـــشِيرُ بِقُـــرْبِكُمْ ... فَـــسَجَدْتُ مَـــرَّاتٍ عَدِيـــدَهْ
وَوَهَبْتُـــهُ نَفْـــسِي وَمِـــنْ ... حَـــقِّ البِـــشَارَةِ أَنْ أَزِيـــدَهْ
فَلْيُهْنِـــكَ العِيـــدُ الـــسَّعِي ... دُ وَيُهْنِـــه، إِنْ كُنْـــتَ عِيـــدَهْ
وَاخْلُـــدْ لِمُلْـــكٍ لَا تَـــزَا ... لُ فَرِيـــدَ بَهْجَتِـــهِ الفَرِيـــدَهْ
وَالـــسَّعْدُ يُنْـــشِدُ دَائِبـــاً ... أَهْـــلاً بِغُرَّتِـــكَ الـــسَّعِيدَهْ

حَضْرَةَ السَّيِدِ الأَرْفَعِ الأَجَلّ، وَعَلَمَ العَقْدِ فِي هَذَا العَصْرِ وَالحَلّ، وَتَارِكِ العَدُوِّ مُحامِياً بِالحَدِّ الأَفَل آوِياً إِلَى العَدَدِ الأَقَل، فِي ذُرَى الشِّيَمِ الجَمِيلَةِ، وَالمِنَنِ الجَزِيلَةِ، وَالهِمَّةِ السَّامِيَةِ إِلَى نَيْلِ كُلِّ مَنْقَبَةٍ وَإِحْرَازِ كُلِّ فَضِيلَةٍ؛ أَعْلَى اللهُ يَدَهُ وَعَضُدَهَا، وَأَقَامَ بِعَدْلِهِ مَيْلَ المَكَارِمِ وَأَوَدَهَا، وَأَمْتَعَ بِبَقَائِهِ الكَافَّةَ فَقَدِ اسْتَرَقَّهَا بِالإِحْسَانِ وَاسْتَعْبَدَهَا.

عَبْدُ حَضْرَتِهِ السَّامِيَةِ، وَشَاكِرُ أَيَادِيهِ الهَامِيَةِ، المُنْطَوِي عَلَى كَمَدٍ إِلَى تَقْبِيلِ كَفِّهِ العَالِيَه، فُلانٌ؛ أَمَّا بَعْدُ:

فَكَتَبْتُهُ كَتَبَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ العَالِيَةِ أَسْنَى المَوَاهِبِ، وَأَرْبَأَ بِالفَتْحِ الآتِي عَلَى الفَتْحِ الذَّاهِبِ، وَلَا أَعْدَمَهَا لِتَحَمُّلِهِ غَرْبَ القَنَا وَنَوَاصِي السَّلاَهِبِ؛ وَلَا جَدِيدَ بَعْدَ الاعْتِرَافِ بِمِنَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَاللُّطْفِ الَّذِي لَا أَزَالُ أَرَى ظَاهِراً وَبَاطِناً مَكَانَهُ، إِلاَّ مَا أَنَا عَلَيْهِ مِنْ

---

(1) في الأصل: «أن يستريده».



برٌّ ذَلِكُمُ الجَنَابِ الأَرْفَعِ، وَشُكْرِ إِحْسَانِهِ الأَنْجَعِ الأَنْفَعِ، وَالقَوْلِ بِكَمَالِهِ الجَائِزِ أَمَدَيْ المَرْأَى وَالمَسْمَعِ؛ فَهُوَ حَضْرَةُ كَمَالٍ، وَقِبْلَةُ آمَالٍ وَجاهٍ وَمَالٍ، لِمَنْ لَيْسَ بِذِي جَاهٍ وَلا مَالٍ، أَقَامَهَا اللهُ لِلْفُقَراءِ عَلَماً يَقْصِدُونَهُ، وَيَمْحُونَ بِأُنْسِ رُؤْيَتِهِ الوَحْشَةَ المُعْتَرِضَةَ دُونَهُ، فَأَجْيَادُهُمْ حَالِيَةٌ بِنَدَاهَا، وَخَواطِرُهُمْ عَلى كَثْرَتِهَا لَا تَتَعَدَّاهَا، وَلَهَا مِنْ دَعَوَاتِهِمُ الخَالِصَةِ الحَظُّ الأَجْزَلُ، وَالقِسْمُ الَّذِي يَحُلُّ مَحَلَّ البِدَايَةِ وَيُنَزَّلُ، ذَلِكَ لِنِسْبَةِ التَّقْوَى الَّتِي اكْتَسَبَهَا وَمُجَاهَدَاتِهِ الَّتِي أَخْلَصَهَا لِلَّهِ تَعَالَى وَاحْتَسَبَهَا، وَانْجِذَابِهِ بِطَبْعِهِ الفَاضِلِ إِلَى مُمَازَحَةِ الفُقَرَاءِ، وَسُمُوِّهِ بِهِمَّتِهِ عَنْ مُلْكِ الأَرْضِ إِلَى مَلَكُوتِ[1] السَّمَاءِ؛ وَاللهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ عُلاَهُ بِحُلاَهُ، وَيَجْمَعُ لَهُ خَيْرَ أُخْرَاهُ وَأُولَاه، وَمَا أَحَقَّهُ بِهَذَا الدُّعَاءِ وَأَمْثَالِهِ وَمَا أَوْلَاه.

وَلَمَّا يَسَّرَ اللهُ تَعَالَى وِجْهَتَكُمُ السَّعِيدَة، وَغَزْوَتَكُمُ الَّتِي تَرَكَتِ الجِهَاتِ الإِفْرِيقِيَّةَ غَضَّةً جَدِيدَة[2]، وَحَرَّكَتْكُمْ بَواعِثُ الإِشْفَاقِ وَالدِّينِ، لِجَبْرِ[3] أَهْلِهَا المُضْطَهَدِينَ، لَمْ يَزَلِ العَبْدُ بَاسِطاً يَدَ الدُّعَاءِ، مُسْتَشْفِعاً بِمَنْ يُرْجَى كَوْنُهُ مِنَ الشُّفَعَاءِ، مُسْتَدِيماً لِلْحَضْرَةِ العَلِيَّةِ دَوَامَ العُلَا وَالبقَاء، وَالإِمْتَاعِ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ مَقام الاتِّقَاءِ، مُسْتَوْهِباً لَهُ الأَوَّلِيَّةَ بِمَسَارِّ الأَوْلِيَاءِ، وَمَسَاءَاتِ الأَعْدَاءِ، مُسْتَفْهِماً جَوَابَ التَّنَائِفِ، وَرِكَابَ اللُّجِّ المُتَقَاذِفِ، سَائِلاً سُؤَالَ المُشْفِقِ الخَائِف، مُتَنَسِّماً نَسِيمَ الإِيَابِ، مُتَمَلْمِلاً لِحُرَقِ الغَيْبَةِ وَالإِغْبَاب، إِلَى أَنْ وَافَى البَشِير، وَالأَكُفُّ إِلَيْهِ تُشِيرُ، فَأَهْدَى إِلَى النَّفْسِ شِفَاهَا، وَقَدْ قَارَبَتْ أَشْفَاهَا، وَأَوْرَدَ عَلَيْهَا مِنَ المَسَرَّةِ كِفَاءَهَا[4]، وَقَدْ شَارَفَتِ انْكِفَاءَهَا، فَالحَمْدُ للهِ عَلى نِعْمَةٍ وَأَيِّ نِعْمَة، وَخُرُوجٍ إِلَى فُسْحَةٍ مِنْ غُمَّة، وَسَلَامَةِ مُلْكٍ تَمَلَّكَهُ البَاسُ وَالجُودُ، وَنُورٍ طَابَقَ مَعْناهُ مِنْهُ حِسٌّ هَذَا الوُجُود. وَأَمَّا العَبْدُ -خُصُوصاً- فَلَوْ

(1) في الأصل: «ملكوة».
(2) في الأصل: «غضت حديده».
(3) في الأصل: «بحبر».
(4) في الأصل: «كفاها».



يَسْتَطِيعُ لَطَار، وَفَارَقَ هَذِهِ الأَقْطَار، فَبَقَاؤُهُ لَا يَقْبَلُ الكَفَّ العُلْيَا، مِنْ مَصائِبِ الدُّنْيَا، وَهُوَ يَنْتَظِرُ حَالاً تُسْعِدُهُ، وَأَقْدَاراً تَعْتَلِقُ بِها يَدُهُ، فَيَصِلُ التَّأْوِيبَ بِالسُّرَى، فَيَؤُمُّ حَضْرَةَ المَلِكِ الأَسْنَى الأَسْرَى، فَيَرَى الفَضَائِلَ مَجْمُوعَةً شَخْصاً، وَيَسْمَعُ مَنْقُولَاتِ المَحَامِدِ نَصّاً، وَيَظْفَرُ بِمَقَامٍ يَزِيدُ مَرْآهُ البَصِيرَةَ صِقَالاً، وَيُكْسِبُها تَدَرُّجاً في مَرَاقِي السُّلُوكِ وَانْتِقَالاً، وَيَحُطُّ عَنْ ظَهْرِهِ مِنْ أَلَمِ الغَيْبَةِ عَنْ تِلْكَ الحَضْرَةِ أَعْبَاءً ثِقَالاً.

وَاللهُ تَعَالَى يُبْقِي السَّيِّدَ الأَجَلَّ فِي مِنَحٍ تَتَّسِقُ دُرَرُهَا وَمَعَالٍ تَأْتَلِقُ غُرَرُهَا، وَلَا يُعْدِمُهَا سَعَادَةً تَكُونُ عَلَى النُّجْحِ مَوْرِدُهَا وَإِلَى الفَتْحِ مَصْدَرُهَا؛ بِمَنِّهِ.



الملحق:

رسائل أخرى للبلوي الموجودة في مخطوط المنوني



وَمِنْ إِنْشَاءِ أَبِي القَاسِمِ البَلَوِي مِمَّا كَتَبَهُ عَنْ وَالِي إِشْبِيلِيَةَ إِبْرَاهِيمَ إِلَى الحَضْرَةِ:

الحَضْرَةُ العَلِيَّةُ الإِمَامِيَّةُ المُعَظَّمَةُ المُكَرَّمَةُ القُدْسِيَّةُ، المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورَةُ الزَّكِيَّةُ، مَطْلَعُ الأَنْوارِ السَّامِيَة، وَمَنْشَأُ الخَيْراتِ النَّامِيَة، وَمَثَابَةُ البَرَكَاتِ الهَامِيَة. أَدامَ اللهُ تَأْييدَها، وَحَرَسَ جَلالَهَا، كَمَا مَدَّ على العِبَادِ وَالبِلادِ ظِلَالَهَا، وَوَصَلَ لَهَا مَا عَوَّدَها مِنْ عُلُوِّ المَقَام، وَنَصْرِ الأَعْلَام، كَمَا أَعْلَى بِهَا كَلِمَةَ الإِسْلَام، وَعَرَّفَها في كُلِّ حَالٍ وَاسْتِقْبَالٍ عَوَارِفَ المَسَرَّاتِ وَالبِشَر، كَما أَفَاضَ أَنْوَارَ عَدْلِهَا وَإِحْسَانِهَا على البَشَر.

عَبْدُ مَقَامِهَا، وَمَمْلُوكُ أَنْسَامِها، المُحَافِظُ عَلى مَا أَوْجَبَ اللهُ مِنْ حُقُوقِ إِعْظَامِها، الوَاعِي بِمُضَاعَفَةِ سُعُودِهَا وَدَوَامِ أَيَّامِها، إِبْراهِيمُ: سَلَامٌ كَرِيمٌ، طَيِّبٌ مُبارَكٌ عَمِيمٌ، يَخُصُّ مَقَامَهَا الأَسْنَى، المَخْصوصِ بِالحُسْنَى، كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ؛ فَكَتَبَ عَبْدُ إِحْسَانِهَا كَتَبَ اللهُ لَهُ عُلُوَّ المِقْدَار، وَمُطَاوَعَةَ الأَقْدَار، وَنَجَاحَ الإِيرَادِ في كُلِّ مَقْصُودٍ والإِصْدَار، وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ أَيَّدَها اللهُ عَمِيمَةٌ عَلَى العِبَادِ بِانْسِكَابِ غَمَامِهَا، وَسَعَادَتُهَا كَفِيلَةٌ بِمَصَالِحِ البِلَادِ بِكَمَالِهَا وَتَمَامِهَا، وَأَيَّامُهَا السَّعِيدَةُ تَرُوقُ الأُمَّةَ بِافْتِرَارِها عَنْ ثُغُورِ السُّرُورِ وَابْتِسَامِها، وَنِعَمُها المُتَوَالِيَة -شَكَرَهَا اللهُ- تَسْتَغْرِقُ حَمْدَ الحَامِدِينَ وَشُكْرَ الشَّاكِرِينَ بِتَرَادُفِهَا وَتَضَاعُفِ أَقْسَامِها، وَلِلَّهِ عَلى ذَلِك الخَيْرُ الَّذِي يَقْضِي بِمَزِيدِ النِّعَمِ وَدَوَامِها؛ وَأَحْوَالُ هَذِهِ الجِهَاتِ -وَصَلَ اللهُ تَأْييدَ الحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ- جَارِيَةٌ مِنَ الصَّلَاحِ الشَّامِلِ عَلى مَا اقْتَضَتْهُ البَرَكَةُ الإِمَامِيَّة؛ فَالبَلَدُ -وَالحَمْدُ للهِ- في تَمْهِيدٍ وَسُكُون، وَالرَّعِيَّةُ في اسْتِبْشَارٍ وَهُدُون، وَالمَصَالِحُ مُنْتَظَمَةٌ، وَالأَنْوَاعُ وَالفُنُون؛ وَسَعَادَةُ الخِلَافَةِ المُبَارَكَةِ قَدْ اتَّضَحَ دَلِيلُهَا، وَاسْتَبَانَ جَلِيلُها، لِلْقُلُوبِ وَالعُيُون، فَسَحَابُ النِّعَمِ بِهَا عَلى البِلَادِ تَصُوب، وَثَمَرَاتُ المَصالِحِ بِها لِلْعِبادِ تَطِيب، وَشَمْسُ البَهْجَةِ وَالمَسَرَّةِ في كُلِّ مَكَانٍ تَشْرُقُ وَلَا تَغِيب. وَأَمَّا الزَّرْعُ فَالآمَالُ بِكَثْرَتِهِ وَصَلَاحِهِ في هَذَا العَامِ مَبْسُوطَة، وَهَذِهِ الجِهَاتُ فِيما أَعْطَاهَا اللهُ مِنْهُ مَغْبُوطَة؛ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا قَدْ بَذَلُوا مِنَ الازْدِرَاعِ في الثُّغُورِ وَغَيْرِها جُهْدَهُم، وَأَنْفَقُوا فِيهِ مُتَنَافِسِينَ مَا عَزَّ وَهَانَ عِنْدَهُم، وَوَثِقُوا مِنَ السَّعَادَةِ



الإِمَامِيَّةِ بِمَا يُسَوِّغُهُمْ بِفَضْلِ اللهِ أَمْنَهُمْ وَيُنْجِحُ لَهُمْ قَصْدَهُم؛ فَامْتَلَأَ بِهِ البَسِيطُ غَوْراً وَنَجْداً، وَاتَّسَعَ الأَمَلُ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ جِدّاً، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ أَخْلَافُ السَّحَاب، بِجَمِيلِ صُنْعِ العَزِيزِ الوَهَّاب، فَقَرَّتِ العُيُونُ بِحُسْنِ صِفَاتِه، وَامْتَدَّتِ الأَيْدِي ضَارِعَةً إِلَى اللهِ فِي أَنْ يُخَلِّصَهُ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ جَمِيعِ آفَاتِه. وَذَلِكَ كُلُّهُ -وَالحَمْدُ للهِ- بِبَرَكَةِ الخِلَافَةِ المَيْمُونَةِ أَدَامَ اللهُ أَيَّامَهَا، وَحَرَسَ مَقَامَها، فَبِبَرَكَتِها يُؤَمِّنُ اللهُ البَرِيَّةَ، وَيُصْلِحُ نِظَامَها، وَبِسَعادَتِها يُسْعِدُ اللهُ الرَّعِيَّةَ وَيُيَسِّرُ مَرَامَها. وَبَعْد:

وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرةِ الإِمَامِيّةِ ما عَوَّدَها مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ، وَأَنْجَزَ لَهَا مَا وَعَدَها مِنَ الفَتْحِ المُبين. فَإِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ بِمَا لَهُ بِهَا مِنَ العِنايَةِ المُطَّرِدَةِ العَادَة، الجَارِيَةِ عَلَى وَفْقِ السَّعادَة، لَا يَزَالُ يُسَبِّبُ لَها أَسْبابَ المَسَرَّةِ تَسْبِيباً، وَيُشَبِّبُ لَها عَلى النَّصْرِ تَشْبِيباً، وَيُسْمِعُها مِنْ غَرائِبِ التَّكْيِيفِ وَبَدائِعِ الصُّنْعِ اللَّطِيفِ[1] عَجِيباً فَعَجِيباً.

وَمِنْ ذَلِكَ وَصَلَ اللهُ إِعْلَاءَ أَمْرِهَا، وَإِعْزَازَ نَصْرِهَا، كَما بَاهَى العُصُورَ بِسَعادَةِ عَصْرِهَا، أَنَّ الوَارِدِينَ مِنَ الثُّغُورِ فِي هَذِهِ الأَيَّام قَدْ كَانُوا يَتَقَوَّلُونَ بِارْتِباطِ صُلْحٍ بَيْنَ النَّصْرَانِيَيْنِ -خَانَهُما اللهُ- صَاحِبِ قَشْتَالَةَ وَصاحِبِ لِيُون [وَأَمْرُ] اللهِ فِي نَقْضِ عَزائِمِهِمَا الخَبِيثَةِ بَيْنَ الكَافِ وَالنُّون، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

وَوَرَدَ الآنَ عَلى العَبْدِ كِتابُ المُقَدَّم بِمَارِدَة[3] يَذْكُرُ أَنَّ ابْنَ صَاحِبِ لِيُون وَابْنَ صَاحِبِ قَشْتَالَة اجْتَمَعَا وَقَعَدَا فِي مَوْضِعٍ واحِدٍ، فَظَهَرَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما مِنَ الآخَرِ ما يَظْهَرُ مِنَ المُبْغِضِ الشَّانِي، وَادَّعَى كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما الشُّفُوفَ لِنَفْسِهِ وَلِأَبِيهِ عَلى الثَّاني. ثُمَّ آلَ بِهِمَا التَّفاخُرُ إِلَى أَنْ تَلاطَمَا، وَارْتَفَعَ بَيْنَهُما عُبَابُ الشِّقَاقِ وَطَمَا، وَانْتَصَرَ لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما فَرِيقُه الحَاضِرُونَ فَاقْتَتَلَ الفَرِيقَانِ لِلْحِينِ وَالحِين، وَعَجَّلَ اللهُ مِنْ

(1) في الأصل: «اللطف».
(2) سورة يس، الآية: 81.
(3) ماردة: مدينة أندلسية تقع بجوفي قرطبة وتميل إلى الغرب قليلا. الروض المعطار، ص: 518.



أَرْواحِهِمْ إِلى النَّارِ بِنَحْوِ خَمْسِين؛ وَهَذِهِ مَسَرَّةٌ كَبِيرَة، وَداعِيَةٌ مُبِيدَةٌ لِجَمْعِهِما الذَّمِيمِ -بِفَضْلِ اللهِ- وَمُبِيرَه، تُنْتِجُ بِفَضْلِ اللهِ مَسَرَّاتٍ كَثِيرَة، وَالمَسَرَّاتُ -وَالحَمْدُ للهِ- بِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمامِيَّةِ- أَيَّدَها اللهُ- تَنْساقُ في أَحْسَنِ نِظَام، وَتَنْقَادُ في أَسْمَحِ[1] زِمَام. وَاللهُ يُوَالِي مِنْها مَا يَقْضِي بِذِلَّةِ الكُفْرِ وَعِزَّةِ الإِسْلَام، وَيُطْلِعُ مِنْ أَنْبائِها المُبَشِّرَاتِ مَا تَتَهَلَّلُ بِهِ أَسِرَّةُ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَتَخْطُبُ بِهِ عَلى مَنَابِرِ الأَنَامِلِ أَلْسِنَةُ الأَقْلَام، وَيُطِيلُ بَقَاءَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مَنْصُورَةَ الأَعْلَام، مَصْنُوعاً لَها الصُّنْعُ الجَمِيلُ في كُلِّ مَرَام، وَيَجْعَلُ دَعْوَتَهَا رَاقِيَة، وَكَلِمَتَهَا بَاقِيَة، إِلَى يَوْمِ الدِّينِ إِنَّهُ وَلِيُّ الإِحْسَانِ وَالإِنْعَام.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمامِيَّةُ القُدْسِيَّةُ المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورَةُ العَلِيَّةُ. خَلَّدَ اللهُ أَيَّامَهَا، وَنَصَرَ أَنْصارَها وَأَعْلَى أَعْلَامَها، وَوَصَلَ إِعْلَاءَهَا وَإِظْهَارَهَا وَإِعْظَامَها، وَأَمَدَّ بِمَوادِّ التَّمْكِينِ وَالفَتْحِ المُبِينِ مَقَامَها، وَأَجْرَى عَلَى ما يُقِرُّ عُيونَ البَشَرِ وَيَقْضِي بِالمَسَرَّاتِ وَالبِشْرِ أُمُورَها كُلَّهَا وَأَحْكامَهَا. عَبْدُها الطَّائِفُ بِحَرَمِ جَلَالِهَا، العَاكِفُ في مُعْتَصِمِ ظِلَالِها، العَارِفُ بِحَقِّ ما تَعَهَّدَهُ مِنْ كَرِيمِ الْتِفَاتِها وَشَرِيفِ اهْتِبَالِهَا، المُتَضَرِّعُ إِلى اللهِ في شُكْرِ ما غَمَرَهُ مِن صَفْوِ نِعَمِهِ العَمِيمَةِ وَزُلَالِها، الدَّاعِي بِحِراسَةِ ما مَلَأَ الأَرْضَ نُوراً وَالقُلُوبَ سُرُوراً مِنْ كَمالِهَا وَجَمالِها، المُعْتَصِمُ بِرَفِيعِ سَنَدِهَا وَمَتِينِ حِبَالِهَا؛ عَبْدُها إِبْرَاهِيمُ:

سَلَامُ اللهِ الكَرِيم، الطَّيِّبُ المُبَارَكُ العَمِيم، يَخُصُّ الحَضْرَةَ الإِمَامِيةَ المُؤَيَّدَةَ المُكَرَّمَةَ العَالِيَةَ المُمَجَّدَةَ كَثِيراً أَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكاتُهُ. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ العَمِيمِ عَلى آلَائِهِ العَمِيمَةِ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ؛ فَكَتَبَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَلِيَّةِ، كَتَبَ اللهُ لَهَا مَا عَوَّدَهَا مِنَ اطِّرَادِ السُّعود، وَازْدِيَادِ السُّمُوِّ في كُلِّ مُسْتَقْبَلٍ وَالصُّعُود، وَأَنْجَزَ لَها في المَشَارِقِ وَالمَغَارِبِ مَا عَوَّدَها بِهِ مِنْ كَرِيمِ الوُعُود. وَبَرَكَاتُ الحَضْرةِ الإِمَامِيةِ -أَعَزَّها اللهُ- مُشْرِقَةُ الآيَات، ظَاهِرَةُ الآيَات، مُسْتَوْلِيَةٌ مِنْ أَنْهارِ سَحَابِهَا وَاقْتِبَالِ شَبابِها

---

(1) في الأصل: «في أحسن»، والتصويب بهامش النسخة.



عَلى الآمَادِ وَالغَايَات، مُعْرِبٌ فِيهَا التَّكْمِيلُ وَالصُّنْعُ الجَمِيل، عَمَّا لَها مِنَ الكَرَاماتِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالعِنَايَات؛ وَالحَمْدُ للهِ عَلى ذَلِكَ يَمْتَرِي أَخْلَافَ النِّعَم، وَيُضَاعِفُ آلَافَ القِسَم، وَالشُّكْرُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ -أَيَّدَها اللهُ- وَاجِبٌ فَرْضٌ، وَالنَّصِيحَةُ فِي خِدْمَتِها أَوْكَدُ الأَعْمالِ المُوصِلَةِ إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالتَّمْشِيَةُ لِأَغْرَاضِهَا السَّنِيَّة، وَالامْتِثَالُ لِأَوَامِرِهَا العَلِيَّة، أَنْجَحُ ما الْتُمِسَ بِهِ الفَوْزُ بِالنَّجَاةِ يَوْمَ يَكُونُ الجَزَاءُ وَالعَرْضُ. وَعِنْدَ عَبْدِ جَلَالِها، وَمَمْلُوكِ أَفْضَالِهَا مِنَ المُحافَظَةِ عَلى ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْفَى مَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ مَمَالِيكِ إِحْسَانِها، وَخُلْصَانِ عُبْدَانِهَا، الشَّاكِرِينَ لِعَطْفِها وَحَنَانِها، المُتَقَرِّبِينَ إِلَى اللهِ سُبْحانَهُ بِتَوْفِيَةِ ما أَوْجَبَهُ لِعَلِيِّ مَكَانِها. وَاللهُ يُعِينُ عَلى أَدَاءِ وَاجِبَاتِها وَشُكْرِ مِنَحِهَا المُتَرادِفَةِ وَهِبَاتِها، وَيُبْقِي بَرَكَةَ أَمْرِها العَزِيزِ سِلْكاً عَلَى نُحُورِ الأَيَّامِ السَّعِيدَةِ وَلَبَّاتِهَا، وَيَنْشُرُ عَلَى العَبْدِ جَناحَ رَحْمَتِها الَّتِي سَكَنَتْ مِنَ القُلُوبِ فِي جَنَّاتِهَا.

وَإِلَى هَذا وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ عَادَةَ حُضُورِهَا وَاسْتِيلَائِها، وَحَرَسَ عَلى البِلَادِ وَالعِبَادِ كَرِيمَ عَلَائِها، وَعَظِيمَ آلَائِها؛ فَإِنَّ مِمَّا وَجَبَ بِهِ إِعْلَاءُ مَقَامِها الأَعْلَى -أَيَّدَهَا اللهُ- أَنَّ أَحْوَالَ هَذِهِ الجِهَاتِ بِبَرَكَتِها -وَالحَمْدُ لِلَّهِ- جَارِيَةٌ عَلَى الصَّلاحِ المُسْتَدَام، وَالعَافِيَةِ الشَّامِلَةِ وَالخَيْرِ العَام، وَالرَّخاءِ الَّذِي ظَهَرَتْ مَبَادِيه، وَقَوِيَ الرَّجاءُ بِفَضْلِ اللهِ وَبِالبَرَكَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَدَامَها اللهُ- فِي تَزَيُّدِهِ وَتَمَادِيه؛ وَالسُّرُورُ بِالالْتِفَاتِ الإِمَامِيِّ الَّذِي أَبْهَجَ رَائِحَهُ الكَرِيمَ وَغَادِيه؛ فَالزَّمانُ -وَالحَمْدُ للهِ- بِالبَرَكَةِ الإِمَامِيةِ فِي صُعُود، وَالخَيْرُ فِي مَزِيدٍ وَالإِسْلَامُ فِي ظُهُورٍ وَالكُفْرُ فِي خُمُود، وَمِيَاهُ الاسْتِبْشَارِ قَدْ جَرَتْ فِي الأَبْشَارِ جَرْيَ المَاءِ فِي العُود، وَالنَّاسُ فِي تَخْلِيدِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ إِلَى اللهِ ضَارِعُون، وَإِلَى طَاعَتِهَا مُسَارِعُون، وَفِي مَلَابِسِ إِحْسَانِهَا رَافِلُون، وَفِي مَشَارِعِ حَنَانِها شَارِعُون، وَاللهُ يُوزِعُ الجَمِيعَ شُكْرَ نِعَمِها الَّتِي لَمْ تَزَلْ عَوَائِدُهَا مَعْرُوفَة، وَفَوائِدُهَا مَعْهُودَةٌ مَأْلُوفَة، وَلَمْ تَبْرَحْ دَانِيةً قُطُوفُها، مُتَعَدِّدَةً ضُرُوبُها الجَمِيلَة وَصُنُوفُهَا.

وَإِنَّهُ وَرَدَ عَلى عَبْدِ إِحْسَانِهَا وَمَمْلُوكِ امْتِنَانِها كِتَابُهَا الكَرِيمُ المُعَظَّم، المُبَارَكُ المُكَرَّم، تَلُوحُ الهِدايَةُ فِي أَثْنائِه، وَتَعْشُو البَصَائِرُ وَالأَبْصَارُ إِلَى أَشِعَّةِ سَناهُ وَسَنائِه،



وَيَبْتَهِجُ الدِّينُ وَالدُّنْيَا بِتَهَمُّمِهِ بِمَصَالِحِهَا وَاعْتِنَائِه، فَعَظُمَ بِهِ السُّرُورُ عُموماً وَالابْتِهَاج، وَسُلِكَتْ مِنْ تَعْظِيمِهِ السُّبُلُ الواضِحَةُ وَالمِنْهَاج؛ فَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ وَارِدٍ[1] هَادٍ، فَضْلُهُ وَاضِحٌ وَعَدْلُهُ بَادٍ؛ وَكُلُّ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الأَوَامِرِ المُطَاعَة، تَلَقَّاهُ العَبْدُ بِالسَّمعِ وَالطَّاعَة؛ وَأَمَّا مَا اقْتَضَاهُ الكِتابُ الكَرِيمُ مِنَ الأَمْرِ بِتَأْكِيدِ أَسْبَابِ الهُدْنَةِ وَتَمْهِيدِهَا، فَتِلْكَ نِعْمَةٌ مِنْ نِعَمِهِا المَعْهُودَةِ على بِلَادِهَا وَعَبِيدِها، وَمِنَّةٌ لَمْ تَزَلِ البَرَكَةُ الإِمَامِيَّةُ تَتَكَفَّلُ فِي كُلِّ زَمانٍ بِتَجْدِيدِها؛ وَاللهُ يُعِينُ فِي ذَلِكَ وَفِي سِوَاهُ عَلى تَمْشِيَةِ مَنْوِيِّهَا الكَرِيمِ وَمَقْصُودِهَا.

وَأَمَّا مَا أَمَرَتْ بِهِ -أَعْلَى اللهُ أَمْرَهَا- مِنْ مُباشَرَةِ أُمُورِ النَّاسِ مَعَ الأَيَّام، وَتَخْوِيفِهِمْ بِالمَواعِظِ الحَسَنَةِ عَلَى الدَّوَام، وَإِنْصَافِ المَظْلُومِين، وَتَأْمِينِ الطُّرقِ أَعَمَّ تَأْمِين؛ فَالعَبْدُ مُسْتَنْفِدٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مِنَ الامْتِثَالِ جُهْدَه، جَارٍ فِيهِ مِنَ النَّصِيحَةِ عَلى مَا هُوَ وَالحَمْدُ لِلَّهِ عِنْدَه؛ وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الدَّعَارةِ وَالفَسَادِ قَدِ اجْتَمَعَتْ مِنهُمْ جَمَاعَات، فَعَاثَتْ أَيَّاماً فِي هَذِهِ الجِهَات؛ فَأَنْفَذَ العَبْدُ جُمْلَةً مِنَ الأَجْنَادِ فِي طَلَبِهِمْ وَخَاطَبَ أَهْلَ الجِهَاتِ بِالخُرُوجِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ إِلَيْهِم، وَالتَّعَاوُنِ عَلَيْهِم، حَتَّى فَرَّقَ اللهُ جُمُوعَهَمْ وَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ وَأَحَلَّ نَظْمَهُم وَاسْتَنْفَدَتْ أَكثرَهُمُ البَرَكَةُ الإِمَاميةُ الظَّاهِرة، الَّتِي هِيَ لِكُلِّ مُحَارِبٍ -بِحَوْلِ اللهِ- قَاهِرَة، بَيْنَ قَتِيلٍ ذَاهِب، وَطَرِيدٍ هَارِب، وَنَازِلٍ عَلى الأَمَانِ تَائِب؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ الحَضْرةِ الإِمَامِيةِ العَالِيَة، وَبِخُلُوصِ النِّيَّةِ فِي خِدْمَتِهَا وَالطَّوِيَّة.

وَاقْتَرَنَ بِالكِتَابِ المُعَظَّمِ الإِمَامِيِّ الكَرِيم، وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرةِ الإِماميةِ أَسْبَابَ التَّقْدِيسِ وَالتَّعْظِيم، ما وَصَلَ بِهِ أَمْرُهَا المُطَاع، وَنَفَذَ بِهِ نَظَرُهَا الجَمِيل الَّذِي لَا يُطَاقُ شُكْرُهُ وَلا يُسْتَطَاع، مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ الَّتِي شَمِلَتْ الخَاصَّ وَالعَام، وَأَوْرَدَتْ عَلى أَرِقَّائِهَا النَّاصِحِينَ وَعَبِيدِهَا المُوَحِّدِينَ وَالأَنْدَلُسِيِّينَ الفَرَحَ العَظِيمَ وَالسُّرُورَ التَّام، بِمَا خَصَّ كُلّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ فِي مَطْلُوبِه، مِنْ إِسْعَافِ مَرْغُوبِه.

(1) في الأصل: «واضح». والتصويب من الهامش.



أَمَّا عَبْدُ عَلائِهَا، فِيمَا أَوْلَتْهُ مِنْ كَرَمِ الْتِفَاتِها، وَشَرَفِ اعْتِنَائِهَا، وَالإِنْعَامِ بِرَسْمِ التَّضْيِيفِ الَّذِي ضَاعَفَتْ بِهِ مَا قَبْلَهُ مِنْ نِعَمِهَا الجَزِيلَةِ وَآلائِهَا، وَغَمَرَتْ فِي الإِحْسَانِ بِهِ- شَكَرَ اللهُ إِحْسَانَهَا- عَلى مَقَاصِدِهَا المَعْهُودَةِ المَحْمُودَةِ وَأَنْحَائِهَا. وَإِنَّهَا لَنِعْمَةٌ يَتَرَدَّدُ الشُّكْرُ فِي أَثْنَائِهَا، وَلَا يَفِي الاحْتِفَالُ فِيهِ وَلَوْ أَمَدَّتْهُ كُلُّ يَرَاعَةٍ بِأَقَلِّ جُزْءٍ مِن أَجْزَائِها؛ وَاللهُ الكَفِيلُ بِثَوَابِهَا عَلَيْهِ وَحُسْنِ جَزَائِهَا.

وَأَمَّا عَبِيدُهَا الحَاضِرُونَ المُوَحِّدُونَ فِيمَا أَنْعَمَتْ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِجْرَاءِ الطَّعَامِ لَهُمْ فَصُنِعَ لَهُمْ كُلُّ مَا أُمِرَ بِه، وَكَثُرَ فَرَحُهُمْ وَعَظُمَ شُكْرُهُمْ وَدُعَاؤُهُمْ بِسَبَبِه؛ وَتِلْكَ النِّعَمُ الَّتِي أَلِفُوهَا، وَعَهِدُوهَا فِي الحَضْرةِ الإِمَامِيَّةِ وَعَرَفُوهَا؛ أَوْزَعَ اللهُ شُكْرَ سَحَابِها المُنْهَمِرِ مَاؤُهَا، المُتَعَارَفِ نَمَاؤُهَا.

وَأَمَّا عَبِيدُها الأَنْدَلُسِيُّونَ فَما جَهِمُوا مِمَّا قُرِئَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْرِهـا النَّافِذِ المُطَاعِ مِنْ قَطْعِ شِرَاءِ دِيَارِهِمْ المُنَزَّلَةِ الآنَ مِنْ بَرَكَةِ سَاكِنِيهَا حَتَّى يَقْتَصِرُوا عَلى الضَّرُورِيِّ الَّذِي لَا بُدَّ مِنْه؛ وَإِنَّها لَنِعْمَةٌ لَا يُقَدَّرُ فَرَحُهُمْ بِهَا وَلا يُحْصَرُ شُكْرُهُمْ عَلَيْها؛ ارْتَفَعَ ضَجِيجُهُمْ فِيهَا بِالدُّعَاءِ لِلْحَضْرةِ الإِمَامِيَّةِ الَّتِي أَنْعَمَتْ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ بِحُسْنِ الجَزَاء، وَعَلَتْ أَصْوَاتُهِمْ بِالحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالثَّنَاء، وَعَلِمُوا أَنَّ دِيَارَهُم إِنَّما هِيَ مِلْكُهُم حَيْثُ أُمِرَ لَهُمْ فِيهَا بِأَخْذِ الكِرَاء، وَظَفِرُوا بَعْدَ القُنُوطِ وَاليَأْسِ مِنْهَا بِالطَّمَعِ فِيهَا وَالرَّجَاء، وَأَكْثَرُهَا إِنَّما هِيَ دِيَارُ الضُّعَفَاءِ، وَتِلْكَ عَادَةُ الحَضْرةِ الإِمَامِيَّةِ فِي الرِّفْقِ بِالضُّعَفَاء. فَكُلُّ فَرِيقٍ مِنْ عُبْدَانِهَا، يَضِجُّ بِشُكْرِ ما جَاءَهُ مِنْ إِحْسَانِهَا، وَشَمَلَهُ مِنْ إِشْفَاقِهَا وَحَنَانِها. وَاللهُ يُجَازِيها بِأَفْضَلِ الجَزَاءِ عَلَى حُسْنِ نَظَرِهَا لِعُبْدَانِهَا وَبُلْدَانِها، فَما زَالَتْ أَيَادِيهَا تَلُوحُ فِي أَعْنَاقِ الأَنَام، أَطْواقاً كَأَطْوَاقِ الحَمَام، وَمَا بَرِحَتْ تُورِدُ مَوَارِدَهـا، وَتَلْبَسُ مَلابِسَها وَتَعْهَدُ مَعَاهِدَها. وَاللهُ يَحْرُسُ مِنْهَا مَا أُلِف، وَيُبْقِي مَا عُرِف، وَيُوزِعُ مِنْ شُكْرِها مَا يَسْتَحْفِظُ مَأْلُوفَهَا، وَيَسْتَزِيدُ مَعْرُوفَهَا، وَهُوَ تَعالَى يُدِيمُ لِلْحَضْرةِ الإِمَامِيَّةِ مَا عَوَّدَهَا مِنْ نَصْرِ الأَعْلَام، وَتَيْسِيرِ المَرَام، وَمُسَاعَدَةِ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، وَيُعِينُ عَلى وَاجِباتِ خِدْمَتِها، وَشُكْرِ نِعْمَتِهَا جَمِيعَ العَبِيدِ وَالخُدَّام؛ بِمَنِّه.



وَكَتَبَ أَيْضاً:

مَطْلِعُ الأَنْوارِ الهَادِيَة، وَمَنْشَأُ البَرَكَاتِ المُتَضَاعِفَةِ المُتَمَادِيَة، وَمَصَابُّ الرَّحْمَةِ الهَامِعَة، وَمَثَابَةُ الخَيْراتِ الجَامِعَة، أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهَا وَخَلَّدَ أَيَّامَها، وَنَصَرَ أَنْصَارَها وَعَلَا أَعْلَامَها، وَقَرَنَ بِمُطَاوَعَةِ الأَقْدَار وَيُمْنِ الإِيرَادِ وَالإِصْدَارِ مَرَامَهَا، كَما وَهَبَ لِلْبِلَادِ اعْتِنَاءَهَا الكَرِيمِ وَاهْتِمامَها، وَكَما أَصْدَرَ عَلى العِبادِ إِحْسَانَها العَمِيم وَإِنْعَامَها. عَبْدُهَا المُجْتَهِدُ فِي خِدْمَةِ عَلَائِهَا، المُعْتَصِمُ بِظِلِّ لِوَائِهَا، المُعْتَكِفُ عَلَى شُكْرِ نِعَمِهَا المُتَتَابِعَةِ وَآلَائِها، الدَّاعِي بِحِرَاسَةِ مَا مَلَأَ الأَرَضِينَ مِنْ أَشِعَّةِ سَنَاهَا وَسَنَائِهَا. إِبْرَاهِيمُ:

سَلَامٌ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ. فَكَتَبَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ كَتَبَ اللهُ لَها مُضاعَفَةَ السُّعُودِ وَمُصاحَبَةَ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيد، وَخَصَّهَا مِنْ إِعْلَائِهِ وَتَوَالِي آلَائِهِ بِالمَزِيد؛ وَبَرَكَاتُ الحَضْرةِ الإِمَامِيَةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- قَدْ عَمَّتِ الأَنَام، وَسَاجَلَتِ الغَمَام، وَوَاصَلَتِ الإِنْجَادَ فِي طَيِّ البِلَادِ وَالإِتْهَام، وَأَسْعَدَتِ اللَّيَالِيَ وَالأَيَّام، وَأَعْجَزَتْ فِي شُكْرِهَا الأَلْسِنَةَ وَالأَقْلَام، وَالحَمْدُ للهِ عَلى هَذِهِ النِّعَم حَمْداً يَتَكَفَّلُ لَهَا بِالمَزِيدِ وَالدَّوَام؛ وَعَبْدُ عَلَائِهَا عَلَى أَوْفَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ النَّاصِحُونَ مِنْ عَبِيدِهَا وَأَرِقَّائِها، مِنَ النَّصِيحَةِ فِي خِدْمَتِها وَالشُّكْرِ لِنِعْمَتِها، وَاللهُ يَنْشُرُ عَلَيْهِ جَنَاحَ رُحْمَاهَا، كَمَا أَعْلَى مِصْعَدَها فِي أَعْلَاهَا وَمَسْمَاهَا. وَأَحْوَالُ هَذِهِ الجِهَاتِ بِبَرَكَةِ خِلَافَتِهَا المَيْمُونَة، وَسَعَادَةِ إِمَامَتِهَا المُبَارَكَةِ المَأْمُونَة، فِي صَلَاحٍ يُقْتَبَلُ -وَالحَمْدُ للهِ- شَبَابُهُ، وَيَتَفَتَّحُ بِبَرَكَةِ عِنَايَتِهَا الكَرِيمَةِ بَابُه، وَتَمْتَدُّ بِهِ ظِلَالُ الأَمْنِ وَيَتَّسِعُ جَنَابُه فَالسَّعْدُ الإِمَامِيُّ -وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ- كَامِل، وَالخَيْرُ بِه- بِفَضْلِ اللهِ- هَام هَامِل، وَالكُلُّ بِالأَوَامِرِ الإِمَامِيَةِ عَامِل، وَالنَّاسُ لِمَوْلَاهُمْ وَإِمَامِهِمْ دَاعُون، وَفِي مَرْضَاتِهِ سَارِعُون.

وَكَانَ لِلْمطَرِ إِغْبَابٌ تَمَادَى أَيَّاماً ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ الغَيْثَ الآنَ فِي هَذِهِ الجِهَاتِ فَجَادَ الأَرْضَ وَبَسَطَ النُّفُوسَ، وَكَانَ لِلثُّغُورِ الجَوْفِيَّةِ مِنهُ الحَظُّ الأَوْفَرُ بِالبَرَكَةِ الإِمَامِيَةِ- أَدَامَهَا اللهُ- وَاللهُ يُهَنِّئُ العِبَادَ وَالبِلَادَ مَا شَمِلَها مِنَ الالْتِفَاتِ الإِمَامِيِّ الكَرِيم، وَيَصِلُ لَها مَا عَوَّدَهَا بِهِ مِنَ الخَيْرِ العَمِيم.



وَبَعْدُ: وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ أَسْبَابَ نَصْرِهَا، وَعَرَّفَهَا يُمْنَ نَقِيبَتِهَا وَسَعَادَةَ عَصْرِهَا؛ فَإِنَّهُ وَرَدَ عَلى عَبْدِ مَقَامِها العَلِيِّ كِتَابُها المُعَظَّمُ الكَرِيم، الصَّادِرُ عَنِ الالْتِفَاتِ المَعْهُودِ وَالفَضْلِ العَظِيم، المُضَمَّنُ مَا لَمْ تَزَلْ تَنْعَمُ بِهِ -شَكَرَ اللهُ إِنْعَامَها- مِنْ سَنِيِّ التَّشْرِيفِ وَالتَّنْوِيه، وَحَمِيدِ الغَرَضِ الجَمِيلِ وَالقَصْدِ النَّبِيه، المُشْتَمِلُ عَلى مَا اقْتَضَاهُ النَّظَرُ الكَرِيمُ مِنْ إِضَافَةِ «بَطَلْيَوسَ» وَثُغُورِهَا الجَوْفِيَّة، وَمَا اقْتَرَنَ بِذَلِكَ مِنَ الأَوَامِرِ المُطَاعَةِ وَالمَقَاصِدِ العَلِيَّة؛ وَتِلْكَ عَوَائِدُهَا الجَمِيلَةُ فِي مَوَاطِنِ الالْتِفَاتِ وَالاعْتِنَاء، وَمُضَاعَفَةِ النِّعَمِ وَالآلَاء، وَاهْتِدَائِها عَلى التَّتَابُعِ وَالوَلَاء؛ وَاللهُ يُجَازِيهَا عَنْ قَدِيمِ نِعَمِهَا وَحَدِيثِها بِأَفْضَلِ الجَزَاء. وَإِنَّ لَحْظَهَا الكَرِيمَ الَّذِي كَسَت العَبْدَ -بِمِنَّتِهَا- جِلْبَابُه، وَعَطْفِها الَّذِي وُصِلَتْ لَهُ -بِرَحْمَتِهَا- أَسْبَابُه، لَيُعْجِزُ شُكْرَهُمَا إِسْهَابُ البَلِيغِ وَإِطْنَابُه، وَلَوْ أُرْسِلَ عِنَانُ الكَلَامِ وَمُدَّ أَطْنَابُه، فَلَا سَبِيلَ لِلْعِبَارَةِ إِلَى اسْتِيفَاءِ المُعَبَّرِ عَنْهُ مِنَ الشُّكْرِ وَلَوْ طَاوَلَتْ فِيهِ الأَوَانَ بَعْدَ الأَوَان، وَاسْتَظْهَرَتْ عَلَيْهِ بِكُلِّ بِكْرٍ مِنَ المَعَانِي وَكُلِّ عَوَان؛ إِنَّمَا قُصَارَاهَا الاعْتِرَافُ بِالعَجْزِ عَنِ الإِدْرَاك، وَالحَنِينِ إِلَى غَايَتِهِ المَطْلُوبَةِ كَدُعَاءِ الهَدِيلِ عَلَى الأَرَاك؛ فَمَتَى يُؤَدِّي العَبْدُ شُكْرَ هَذا الإِنْعَامِ وَالإِحْسَان، وَأَيُّ بَيَانٍ يُعَبِّرُ عَنْهُ أَوْ أَيُّ لِسَان، كَلَّا لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لِبَشَرٍ بِشُكْرِهِ إِلَّا بِمَنْ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير، فَلَيْسَ إِلَّا التَّضَرُّعُ إِلَى اللهِ فِي تَوَلِّي جَزَائِهِ وَاللهُ بِالإِجَابَةِ جَدِير.

وَقَدْ تَلَقَّى العَبْدُ كِتَابَهَا الكَرِيم بِوَاجِبِهِ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلَال، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَالامْتِثَال، وَالاجْتِهَادِ فِي شُكْرِهِ وَالاحْتِفَال، وَاللهُ تَعَالَى يُعِينُهُ عَلَى تَمْشِيَةِ أَغْرَاضِهَا الكَرِيمَةِ عَلَى التَّمَامِ وَالكَمَال؛ وَتَضَمَّنَ الكِتَابُ الكَرِيمُ أَنْ يَتَفَاوَضَ العَبْدُ فِي تَعْيِينِ مَنْ يُنْفَذُ إِلَى الجِهَاتِ المَذْكُورَةِ مَعَ الشَّيْخِ أَبِي عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ -أَكْرَمَهُ اللهُ- لِمَا جُرِّبَ مِنْ اجْتِهَادِه، وَسَدَادِ ارْتِيَادِه. وَاللهُ يَشْكُرُ الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ وَيَصِلُ أَسْبَابَ حِرَاسَتِها، وَيَحْفَظُ عَلى نَظَرِهَا وَنُورٍ مِنْ فِرَاسَتِها، فَإِنَّ الَّذِي عِنْدَ المَذْكُورِ فِي حَقِّ الأَمْرِ العَالِي -أَدَامَهُ اللهُ- مِنَ الجِدِّ وَالنَّصِيحَة، وَالخِدْمَةِ الخَالِصَةِ الصَّحِيحَة، وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي ذَاتِهِ مِنْ مَحْمُودِ الشِّيمَةِ وَالخَلِيقَة، وَمَشْكُورِ السِّيرَةِ وَالطَّرِيقَة، وَالأَعْمَالِ المُسْتَقِيمَةِ عَلَى الحَقِيقَة، وَسَدَادِ الرَّوِيَّةِ فِيمَا يَقْصِدُهُ وَيَنْتَحِيه، وَصِدْقِ النِّيَّةِ فِيمَا يَنْظُرُ فِيهِ، يَقْتَضِي الاغْتِبَاطَ بِمُذَاكَرَتِه وَيَسْتَدْعِي النَّشَاطَ لِمُفَاوَضَتِه. وَمَا زَالَ العَبْدُ لِهَذِهِ



الصِّفَاتِ الَّتِي ظَهَرَتْ لَهُ مِنَ المَذْكُورِ، يُفَاوِضُهُ فِي الكُلِّيَاتِ وَالجُزْئِيَاتِ مِنَ الأُمُور، وَبِهَذِهِ الإِشَارَةِ الإِمَامِيَّةِ الكَرِيمَةِ الوَارِدَةِ الآنَ يَزْدَادُ العَبْدُ بِمُفَاوَضَتِهِ اغْتِبَاطـًا، وَبِحَبْلِ مُوَافَقَتِهِ عَلَى المَصالِحِ ارْتِبَاطـًا.

وَاللهُ يُجَازِي الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ عَلَى مَا يُوثِرُهُ لِنُصَّاحِ خُدَّامِهَا وَخُلْصَانِ عُبْدَانِها مِنْ نَبِيهِ اللَّحْظِ وَالرِّعَايَة، وَكَرَمِ الالْتِفَاتِ وَشَرَفِ العِنَايَة.

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ الأَوَامِرُ المُطَاعَةُ مِنَ الاحْتِيَاطِ عَلَى المَخَازِنِ، -أَنْمَاهَا اللهُ- يُعْتَنَى بِهِ كُلَّ الاعْتِنَاء، وَيُحَافَظُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ الآنَاء، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا تَضَمَّنَهُ الكِتَابُ الكَرِيمُ مِنَ الفُصُولِ يَحْصُلُ فَهْمُهُ كُلَّ التَّحْصِيل، وَيُمَادَى إِلَى امْتِثَالِه عَلَى الجُمَلِ وَالتَّفْصِيل؛ وَيَبْذُلُ العَبْدُ جُهْدَهُ فِي مَا نِيطَ بِهِ وَأُسْنِدَ إِلَيْه، وَيَتَوَخَّى فِيهِ الغَرَضَ الكَرِيمَ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْه؛ وَالبَرَكَةُ الإِمَامِيَّةُ -أَدَامَهَا اللهُ- هِيَ السَّبَبُ المُوصِلُ إِلَى نَجَاحِ الأَمَل، وَالظَّهِيرُ المُعِينُ عَلى صَلَاحِ القَوْلِ وَالعَمَل، إِنْ شاءَ اللهُ يَكُونُ التَّوْفِيقُ وَالتَّسْدِيد، وَعَلَيْهَا يَنْبَنِي التَّسْكِينُ وَالتَّمْهِيد، بِأَنْوَارِهَا السَّاطِعَةِ يَسْتَضِيءُ فِي كُلِّ مُحَاوَلَةِ العَبِيد؛ وَاللهُ يُوَفِّقُ فِي كُلِّ مُنْتَحَى إِلَى مَا يَقَعُ بِوفْقِ الحَضْرةِ الإِمَامِيةِ وَيَحْظَى بِرِضَاهَا، وَيُعِينُ فِي كُلِّ حَالٍ عَلى مَا يُزْلِفُ مِنْ رُحْمَاها. وَاللهُ تَعَالَى يُدِيمُ لَهَا النَّصْرَ وَالتَّمْكِين، وَيَفْتَحُ لَهَا الفَتْحَ المُبِين، وَيَجْعَلُ كَلِمَتَهَا بَاقِية، وَدَعْوَتَها رَاقِيَة، إِلَى يَوْمِ الدِّين، وَيُنْجِزُ بِهَا مَا وَعَدَهَا مِنَ الاسْتِيلَاءِ عَلَى مَا رَوَى نَبِيُّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الأَرَضِين؛ وَيُعِينُ عَلَى ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِها، وَأَدَاءِ مُفْتَرَضَاتِها.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

أَمْضَى اللهُ حُدُودَهَا، وَأَدَامَ تَأْيِيدَهَا، وَظَاهَرَ سُعُودَهَا، وَوَالَى سُمُوَّهَا فِي ذُرَى العِزِّ وَالتَّمْكِينِ وَصُعُودَهَا، وَضَاعَفَ بَهْجَتَهَا وَسُرُورَهَا، كَمَا ضَاعَفَ كَرَمَهَا وَجُودَهَا، وَأَجْرَى لَهَا مِنْ قُرَّةِ العُيُونِ، وَصِدْقِ الآمَالِ وَالظُّنُونِ مُعْتَادَهَا وَمَعْهُودَهَا. عَبْدُهَا اللَّائِذُ بِظِلِّ لِوَائِهَا، العَائِذُ بِحَرَمِ عَلَائِهَا، العَارِفُ بِحَقِّ مَا فَاضَ عَلَيْهِ مِنْ جَزِيلِ نِعَمِهَا وَآلَائِهَا، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ فِي شُكْرِها وَإِحْسَانِ جَزَائِهَا، الدَّاعِي بِإِدَامَةِ أَيَّامِهَا وَإِطَالَةِ بَقَائِهَا، المُعْتَصِمُ بِالاسْتِنَادِ إِلَى ظِلَالِهَا الوَارِفَةِ وَأَفْيَائِها.



سَلامٌ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ؛ كَتَبَ اللهُ لَهَا ظُهُوراً لَا يُضَاهَى، وَعِزّاً لَا يَنْبَغِي لِسِوَاهَا، وَسُعُوداً تَتَضَاعَفُ أَعْدَادُهَا إِلَى مَا لَا يَتَنَاهَى، وَأَمْرُهَا العَزِيزُ أَدَامَهُ اللهُ مِنْ إِفَاضَةِ أَنْوَارِه، عَلَى أَنْجَادِ البَسِيطِ وَأَغْوَارِه، وَظُهُورُ بَرَكَاتِه، فِي سَكَنَاتِهِ كُلِّهَا وَحَرَكَاتِه، وَالصُّنْعُ الَّذِي لَا يَزَالُ في كُلِّ قَضِيَّةٍ جَمِيلاً، وَالعِنَايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتِي تُكْمِلُ لَهُ صِفَاتِ السَّعَادَةِ تَكْمِيلاً. وَللهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ الَّذِي تَدِرُّ بِهِ مِنَ النِّعَمِ أَخْلَافُهَا، وَتَتْبَعُ بِهِ آحَادُ القِسَمِ آلَافُهَا. وَالشُّكْرُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ أَيَّدَهَا اللهُ فَرْضٌ مِنْ فُرُوضِ الأَعْيَان، وَالنَّصِيحَةُ فِي خِدْمَتِهَا أَوْكَدُ الأَعْمَالِ الَّتِي تَعَبَّدَ بِهَا الإِنْسَان، وَالتَّمْشِيَةُ لِأَغْرَاضِهَا السَّنِيَّة، وَالامْتِثَالُ لِأَوامِرِهَا العَلِيَّةِ أَنْجَحُ مَا الْتُمِسَ بِهِ نَيْلُ الرِّضْوَان، وَأَصَحُّ مَا اعْتُمِدَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ أَوَان؛ وَعَبْدُهَا مِنَ المُحَافَظَةِ على ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى أَوْفَى مَا يَكُونُ عَلَيْه الإِحْسَان، وَنُصَّاحُ الخُدَّامِ وَخُلْصَانُ العُبْدَان، العَارِفُونَ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ لَهَا مِنْ تَعْظِيمِ الشَّانِ وَخِدْمَةِ المَكَان؛ وَاللّهُ يُعِينُهُ على مَا يُحْظِيهِ بِرِضَاهَا المُوصِلِ إِلَى إِرْضَاءِ الرَّحْمَن، وَيَنْشُرُ عَلَيْهِ جَنَاحَ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالعَطْفِ وَالحَنَان، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ مَا أَضْفَتْ عَلَيْهِ مِنْ بُرُودِ النُّعْمَى وَالامْتِنَان. وَإِلَى هَذا وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ مَا عَوَّدَهَا مِنْ عُلُوِّ المِقْدَار، وَمُطَاوَعَةِ الأَقْدَار، وَتَعَرُّفِ الصُّنْعِ الجَمِيلِ في الإِيرَادِ وَالإِصْدَار؛ فَمِمَّا وَجَبَ بِهِ إِعْلَامُ مَقَامِهَا الأَسْمَى أَيَّدَها اللهُ أَنَّ أَحْوَالَ هَذِهِ الجِهَاتِ بِبَرَكَتِهَا جَارِيَةٌ- وَالحَمْدُ للهِ- عَلى الصَّلَاحِ الشَّامِلِ، وَالعَافِيَةِ المُتَّصِلَةِ وَالأَمْنِ الكَامِلِ، وَالنَّاسُ مُسْتَبْشِرُونَ بِالرَّخَاء، آمِنونَ لَيْلاً وَنَهاراً حَيْثُ كَانُوا مِنَ الأَرْجَاء، دَاعُونَ في مَظَانِّ القَبُولِ لِخَلِيفَتِهِمْ وَإِمَامِهِمْ وَسَيِّدِهِمُ الَّذِي خَوَّلَهُمُ اللهُ بِبَرَكَةِ خِلَافَتِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا خَوَّلَهُمْ، وَأَوْلَاهُمْ بِسَعَادَةِ إِمَامَتِهِ مِنَ اليُسْرِ مَا أَوْلَاهُمْ، قَدْ فَاضَتْ عَلَيْهِمُ البَرَكَاتُ الإِمَامِيةُ فَيْضَ النَّهَار، وَوَثِقُوا بِمَا وَعَدَ اللهُ دِينَهُ القَيِّمَ مِنَ الإِعْلاَءِ على الدِّينِ كُلِّهِ وَالإِظْهَار.

وَاللهُ يَصِلُ النِّعَمَ بِتَخْلِيدِ الحَضْرةِ العُظْمَى، وَيُجْرِي الأَحْوَالَ في كُلِّ حَالٍ وَاسْتِقْبَال على مَا يُرْضِي المَقَامَ الأَسْمَى، وَلَقَدْ وَرَدَ على عَبْدِ إِحْسَانِهَا، وَمَمْلُوكِ امْتِنَانِهَا كِتَابُهَا الكَرِيمُ المُعَظَّم، المُبَارَكُ المُكَرَّمُ يُشْرِقُ نُورُه، وَتَنْطِقُ بِالفَضْلِ المُبِينِ وَالهَدْيِ المَبْنِيِّ عَلَى قَوَاعِدِ الدِّينِ سُطُورُه، فَعَظُمَ بِهِ ابْتِهَاجُ العَبْدِ وَسُرُورُه، وَتَلَقَّتْهُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ أَعْجَازُ الامْتِثَالِ وَصُدُورُه، وَاشْتَمَلَ عَلَامَتَهُ المُبَارَكَةَ الَّتِي هِيَ القُطْبُ الَّذِي يُحَرِّكُ فَلَكَ



المَصَالِحِ وَيُدِيرُه؛ فَيَالَهُ مِنْ وَارِدٍ كَرِيمٍ مَا أَعْظَمَه، وَوَاصِلٍ عَظِيمٍ مَا أَجَلَّهُ وَأَكْرَمَه، لَقَدْ بَلَغَ العَبْدُ غَايَةَ سُولِه، مِنَ التَّبَرُّكِ بِوُصُولِه، وَبَادَرَ لِلْفَوْرِ إِلَى امْتِثَالِ مَعَانِيهِ الكَرِيمَةِ وَفُصُولِه.

فَأَمَّا الإِشَارَةُ الكَرِيمَةُ فِي حَقِّ رَعْيِ السَّلْمِ مَعَ صَاحِبِ قَشْتَالَةَ فَقَدْ نَبَّهَ العَبْدُ أَهْلَ هَذِهِ الجِهَاتِ عَلَيْهَا، وَبَثَّهَا فِيهَا وَأَنْهَاهَا إِلَيْهَا، وَلَنْ يَزَالَ يُؤَكِّدُ فِيمَا يَجِبُ مِنْ حِفْظِ العُهُودِ وَالوُقُوفِ عِنْدَ الحُدُود، وَيُمَشِّي فِي ذَلِكَ الغَرَضَ الإِمَامِيَّ الكَرِيم، عَلَى التَّكْمِيلِ بِحَوْلِ اللهِ تَعَالَى وَالتَّتْمِيم، حَتَّى تَقُومَ عَلَى صَاحِبِ قَشْتَالَةَ فِيمَا يُطْلَبُ بِهِ مِنَ النَّصِيحَةِ الحُجَّة، وَتَتَّضِحَ لَهُ مِنَ الإِنْصَافِ وَالمَعْدَلَةِ السَّبِيلُ الوَاضِحَةُ وَالمَحَجَّة، بِرُشْدِ اللهِ.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

مَطْلِعُ الأَنْوَارِ الهَادِيَة، وَمَنْشَأُ البَرَكَاتِ الرَّائِحَةِ الغَادِيَة، وَمَجْمَعُ الرَّحْمَةِ الهَامِعَة، وَمَثَابَةُ الخَيْرَاتِ الجَامِعَة، خَلَّدَ اللهُ بَقَاءَهَا دَائِماً وَتَأْيِيدَها مُتَضَاعِفَةً سُعُودُهَا، مَنْصُورَةً عَلَى عِدَاهَا، كَما شَرَّفَها بِالسَّعْدِ المُسْتَبِينِ وَلَحَفَهَا بِرِدَاءِ الفَضْلِ المُبِينِ وَرِدَاهَا؛ عَبْدُ فَضْلِهَا العَمِيمِ وَنُعْمَاها، المُعْتَكِفُ عَلَى شُكْرِ مَا فَاضَ عَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِ عَطْفِهَا الكَرِيمِ وَرُحْمَاها، المُجْتَهِدُ فِي خِدْمَةِ عَلَائِهَا وَابْتِغَاءِ رِضَاهَا، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ فِي تَقْلِيدِ أَمْرِهَا العَزِيزِ وَانْفِسَاحِ مَدَاهَا.

سَلَامُ اللهِ الكَرِيمُ، الطَّيِّبُ المُبَارَكُ العَمِيمُ، يَخُصُّ مَقَامَهَا الأَعْظَم، وَمَحَلَّها الأَشْرَفَ الأَكْرَم، كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه.

كَتَبَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ، وَشَاكِرُ نِعْمَتِهَا المُتَوَالِيَةِ، كَتَبَ اللهُ لَهَا مِنْ مُضَاعَفَةِ السَّعْدِ وَمُصَاحَبَةِ النَّصْرِ، مَا لَا يُحْصَرُ بِالإِحْصَاءِ وَلَا يُحْصَى بِالحَصْرِ؛ وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ سَامِيَةٌ أَضْوَاؤُها، هَامِيَةٌ عَلَى العِبَادِ وَالبِلَادِ أَنْوَاؤُهَا، مَبْسُوطٌ بِهَا أَمَلُ كُلِّ نَفْسٍ مُؤْمِنَةٍ وَرَجَاؤُهَا، عَاجِزٌ عَنِ اسْتِيفَاءِ حُقُوقِ القِيَامِ بِشُكْرِهَا فُصَحَاءُ البَلَاغَةِ وَخُطَبَاؤُهَا. وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً تَتَضَاعَفُ بِهِ أَقْسَامُ النِّعَمِ وَأَجْزَاؤُهَا، وَشُكْرُ عَبْدِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ لِنِعْمَتِهَا بَحْرٌ لَا يُلْحَقُ قَعْرُه، وَلَا يُدْرَكُ شَطُّه، وَنَصِيحَتُهُ فِي خِدْمَتِهَا عَمَلٌ مَحْفُوظٌ رَسْمهُ مُوفَّىً شَرْطُه، وَافِرٌ حَظُّ العَبْدِ مِنْهُ وَقِسْطُه؛ وَاسْتِنْفَاذُه



الوُسْعَ في امْتِثَالِ أَوَامِرِهَا العَلِيَّة، وَتَمْشِيَّةِ أَغْرَاضِهَا الجَلِيَّة، مُتَقَرِّبٌ إِلَى الله بِالمُحَافَظَةِ الجَمِيلَةِ عَلَيْه، وَصَرْفِ وُجُوهِ المُلَاحَظَةِ المَوْصُولَةِ إِلَيْه. وَاللهُ يُعِينُهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا يَلْزَمُهُ فَرْضًا وَيَسْلُكُهُ سَنَنًا، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ الْتِفَاتِهَا الَّذِي مَنْ نَالَهُ فَقَدْ نَالَ المُنَى، وَيَرْزُقُهُ رِضَاهَا الَّذِي مَنْ أَحْرَزَهُ فَقَدْ أَحْرَزَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ سَنَاءً وَسَنا.

وَبَعْدُ: وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ أَسْبَابَ النَّصْرِ المَعْهُودِ، وَعَرَّفَهَا بِإِحْرَازِ الرَّغَائِبِ إِنْجَازَ المَوْعُودِ؛ فَإِنَّ كِتَابَهَا الكَرِيمَ وَصَلَ العَبْدَ فَوَصَلَهُ بِالمُعْتَادِ مِنْ كَرِيمِ الالْتِفَاتِ، وَجَزِيلِ الصِّلَاتِ، بِما تَضَمَّنَهُ عَرْضُهُ الكَرِيمُ وَطَوْلُهُ العَمِيم، مِنَ الإِنْعَامِ عَلَى عَبْدِهَا ابْنِ عَبْدِهَا بِتَقْدِيمِهِ في بَطَلْيَوْس وَسَائِرِ ثَغْرِهَا الجَوْفِيِّ -كَلَأَهُ اللهُ- وَإِنَّهُ لَنَشْأَةٌ مِنْ نَشَآتِ إِنْعَامِهَا وَمَمْلُوكٌ مِنْ مَمَالِيكِ اعْتِنَائِهَا الكَرِيمِ وَاهْتِمَامِهَا، المُتَنَافِسِينَ فِي الاقْتِدَاءِ فِي خِدْمَتِهَا وَشُكْرِ نِعْمَتِهَا بِنُصَحَاءِ خُدَّامِهَا، السَّاعِينَ فِيمَا يَهَبُ لَهُمُ الرِّضَا مِنْ عَلِيِّ مَقَامِهَا، الحُرَّاسِ عَلَى أَنْ يُنْفِقُوا في طَاعَتِهَا فَتَاءَهُمْ وَشَبَابَهُمْ، وَيَمُدُّوا إِلَى الحُظْوَةِ لَدَيْهَا وَالتَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهَا أَسْبَابَهُم، وَيُدْرِجُ عَلَى الاسْتِقَامَةِ وَالاجْتِهَادِ فِي أَغْرَاضِ الإِمَامَةِ أَلْبَابَهُم؛ وَقَدْ أَوْلَتْهُ -شَكَرَهَا اللهُ- مِنَ التَّنْوِيه، والإِنْهَاضِ مَا تَعْجِزُ الأَقْلَامُ عَنْ شَرْحِ الشُّكْرِ عَلَيْهِ فَلَا يَسْتَوْعِبُهُ الوَصْفُ وَلَا يَسْتَوْفِيه، وَنَهَجَتْ لَهُ بِوَصَايَاهَا الكَرِيمَةِ مِنْ جَمِيلِ الأَغْرَاضِ مَا يُرْشِدُهُ إِلَى الصَّوابِ وَيَهْدِيه؛ وَلَيْسَتْ بِأَوَّلِ بَرَكَةٍ مِنْ بَرَكَاتِ المَقَامِ الإِمَامِيِّ وَلَا بِيَدٍ مِنْ عَمِيمِ أَيَادِيه، تِلْكَ عَادَةُ إِحْسَانِهَا المَعْرُوفَة، وَشِيمَةُ امْتِنَانِهِ المَأْلُوفَة. لِلْفَضْلِ خُلُقٌ عَلَى كَافَّةِ العُبْدَان، وَيَمْتَلِكُ القُلُوبَ بِالإِنْعَامِ وَالإِحْسَانِ، فَهُوَ يَتَفَضَّلُ عَلى البَعِيدِ وَالقَرِيب، وَلَا يَزَالُ يَتَمَلَّكُ قُلُوبَ الشَّابِّ وَالشِّيب، وَتَعُمُّ نِعَمُهُ الآبَاءَ وَالبَنِين، وَيَشْمَلُ كَرَمُهُ الخَلْقَ أَجْمَعِين. تَوَلَّى اللهُ جَزَاءَ فَضْلِه الجَزِيل، وَشُكْرَ فِعْلِهِ الجَمِيل، وَإِنَّ لِلْأَقْلَامِ فِي شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ سَبْحًا طَوِيلاً، وَإِن لِلْحَمْدِ فِيهِ مُعَرَّسًا وَمَقِيلاً، وَإِنَّ القِيَامَ بِوَاجِبِ هَذَا الإِحْسَانِ، لَيْسَ فِي وُسْعِ المَخْلُوقِ وَلَا فِي اسْتِطَاعَةِ الإِنْسَان؛ فَلَيْسَ إِلَّا أَنَّ العَبْدَ لَا يَزَالُ إِلَى اللهِ في شُكْرِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ مُتَضَرِّعًا، وَبِطَاعَتِهَا مُغْتَبِطًا وَإِلَى النَّصِيحَةِ في خِدْمَتِهَا مُتَسَرِّعًا، وَقَدْ وَادَعَ العَبْدُ عَبْدَهَا المَذْكُور، عَلَى تَوَخِّي الغَرَضِ الإِمَامِيِّ في تِلْكَ الثُّغُور، وَأَلْقَى إِلَيْهِ

مِنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّشْدِيدِ مَا أُمِرَ بِهِ فِي جَمِيعِ الأُمُور، وَأَعْلَمَهُ بِأَنَّ هَذَا التَّقْدِيمَ تَجْرِيبٌ لَهُ وَاخْتِبَار، وَمِحَكٌّ - كَمَا جَاءَ فِي الكِتَابِ الكَرِيمِ - وَمِسْبَار؛ فَشَمَّرَ تَشْمِيرَ البَاذِلِ جُهْدَه المُسْتَطِيع وَانْفَصَلَ وَنُورُ الغَرَضِ الإِمَامِيِّ -شَكَرَهُ اللهُ- دَلِيلُهُ وَهَادِيه، وَسَعْدُ المَقَامِ الإِمَامِيِّ - نَصَرَهُ اللهُ- قَائِدُهُ وَحَادِيه، وَمَنْ حَسُنَ الغَرَضُ الإِمَامِيُّ فِيهِ فَالصُّنْعُ الجَمِيلُ وَالخَيْرُ الجَزِيلُ مَقْرُونَانِ -بِفَضْلِ اللهِ- بِخَوَاتِمِ عَمَلِه، وَمَوَاسِطِهِ وَمَبَادِيه، بِفَضْلِ اللهِ؛ وَلَا يَزَالُ العَبْدُ كَمَا أُمِرَ نَاظِراً مِنْ وَرَائِهِ، مُتَطَلِّعاً لِأَحْوَالِهِ وَمُتَسَمِّعاً لِأَنْبَائِهِ.

وَاللهُ يَشْكُرُ الالْتِفَاتَ الإِمَامِيَّ الَّذِي يُنْشِئُ العَبِيدَ إِنْشَاءً، وَيُقَيِّدُهُمْ بِقُيُودِ إِحْسَانِهِ، فَلَا يَزالُونَ يَطْوُونَ عَلَى حُبِّهِ جَوَانِحَ وَأَحْشَاءً.

وَأَمَّا أَحْوَالُ هَذِهِ الجِهَةِ الآنَ -وَصَلَ اللهُ تَأْيِيدَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ- فَعَلَى مَا تَقْتَضِيهِ سَعَادَةُ الإِمَامَةِ العَلِيَّةِ، وَبَرَكَةُ الخِلَافَةِ السَّنِيَّةِ، مِنَ الابْتِهَاجِ وَالاسْتِبْشَار، وَحَيَاةُ الحَرْثِ وَالنَّسْلِ بِمَا تَوَالَى مِنَ الغَيْثِ المِدْرَار، وَاسْتِقْبَالِ الطُّمَأْنِينَةِ وَتَمَهُّدِ القَرَار، بِمَا مَنَّ اللهُ بِهِ -بِسَعَادَةِ أَيَّامِهَا- مِنْ إِذْعَانِ الأَعْدَاءِ وَاسْتِلَامِ الكُفَّار. وَالثِّقَةُ بِمَا عَوَّدَ اللهُ أَمْرَهُ العَزِيزَ مِنْ حِفْظِ الأَمْصَار، وَعِزَّةِ الأَنْصَار، وَاللهُ يُجْزِيءُ الأُمُورَ كُلَّهَا عَلَى اخْتِيَارِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ الَّذِي هُوَ خَيْرُ اخْتِيَار، وَيُعِينُ عَلَى مَا يَحْظَى بِرِضَاهَا، وَيُجْزِلُ الحَظَّ مِنْ نُعْمَاهَا، وَيُوزِعُ الخَاصَّ وَالعَامَّ وَالوَالِدَ وَالوَلَدَ شُكْرَ فَضْلِهَا وَنُعْمَاهَا.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

حَضْرَةُ الخِلَافَةِ العَلِيَّة، وَالإِمَامَةِ السَّعِيدَةِ السَّنِيَّة، مَطْلَعُ الأَنْوَارِ العَاكِفَة، وَمَنْبَعُ البَرَكَاتِ الدَّارَّةِ الوَاكِفَة، وَصَلَ اللهُ تَأْيِيدَهَا، وَخَلَّدَ أَيَّامَهَا وَضَاعَفَ سُعُودَهَا، وَأَعْلَى أَعْلَامَهَا، وَشَكَرَ إِحْسَانَهَا المُتَرَادِفَ المُتَضَاعِفَ وَإِنْعَامَهَا، وَأَبْقَى بَرَكَتَهَا العَظِيمَةَ الجَسِيمَةَ وَأَدَامَهَا. عَبْدُ مَقَامِهَا الكَرِيم، وَمَمْلُوكُ فَضْلِهَا العَظِيم، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ فِي شُكْرِ إِحْسَانِهَا المُتَتَابِعِ وَإِنْعَامِهَا الجَسِيم، الدَّاعِي بِدَوَامِ أَيَّامِهَا الَّتِي سَفَرَتِ السُّعُودُ فِيهَا عَنْ كُلِّ وَجْهٍ وَسِيم، غَذِيُّ نِعَمِهَا وَرَهِينُ شُكْرِهَا إِبْرَاهِيم:



سَلَامٌ كَرِيمٌ، طَيِّبٌ مُبارَكٌ عَمِيمٌ، عَلَى حَضْرَةِ التَّقْدِيسِ وَالتَّكْرِيم كَثِيراً، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه؛ وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ كَمَا يَجِبُ لِجَلَالِه، وَالصَّلَاة عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ المُصْطَفَى وَعَلى آلِه، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُوم، المَهْدِيِّ المَعْلُوم، وَارِثِ شِيَمِهِ النَّبَوِيَّةِ وَخِلالِه، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين، الأئِمَّةِ المُرْشِدِين الَّذِينَ مَشَّوْا أَمْرَهُ العَزِيز إِلَى غَايَةِ كَمَالِه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوبَ[1] ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِبُلُوغِ آمَالِهِ وَدَوَامِ سَعْدِهِ وَتَمْكِينِهِ وَيُمْنِهِ وَإِقْبَالِه، وَبِالصُّنْعِ الأَجْمَلِ، وَالنَّصْرِ الأَعَزِّ الأَكْمَلِ، فِي كَافَّةِ أَحْوَالِه.

فَكَتَبَ عَبْدُ إِحْسَانِهَا، وَمُسْتَرَقُّ عَطْفِها وَامْتِنَانِها، كَتَبَ اللهُ لَها صِلَةَ مَا عَوَّدَها مِنْ إِفَاضَةِ النُّور، وَمُسَاعَدَةِ القَدَرِ فِي جَمِيعِ الأُمُور، وَبَرَكَاتُها -وَصَلَ اللهُ عُلُوَّهَا- طَامِيَةُ العُبَاب، وَنِعَمُها عَلَى القَرِيبِ وَالبَعِيدِ وَالكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ هَامِيَةُ العُبَاب، وَالْتِفَاتَاتُها الكَرِيمَة مُدْخِلَةٌ عَلَى الجُمْهُورِ وُفُودَ السُّرُورِ مِنْ كُلِّ بَاب. وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يَسْتَخْرِجُ مِنَ المَزِيدِ كُلَّ لُبَاب، وَالشُّكْرُ لِآلَائِها الجِسَام وَأَيَادِيهَا الجَمَّة، مِنْ أَوْكَدِ الفُرُوضِ الوَاجِبَةِ المُهِمَّة، وَأَوْجَبِ الحُقُوقِ الَّتِي تَتَعَيَّنُ فِي كُلِّ حِينٍ عَلَى العِنَايَةِ وَالهِمَّة، وَكَذَلِكَ فِي وُجُوبِ الامْتِثَالِ بِأَوَامِرِها المُطَاعَةِ وَبَذْلِ النَّصِيحَةِ لَها فِي الخِدْمة؛ وَعِنْدَ العَبْدِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَوْفَى مَا يَكُونُ مِثْلُهُ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ كُنْهَ مَا أَوْجَبَ اللهُ لَها مِنْ عَظِيمِ الحَقِّ وَيُقَدِّرُ قَدْرَمَا أَسْبَغَتْ عَلَيْهِ مِنَ النِّعْمَة، وَاللهُ يُعِينُهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى المُوجِبِ المُفْتَرَض، وَيُنْهِضُهُ مِنْ تَمْشِيَةِ أَغْرَاضِهَا الكَرِيمَةِ، وَالمُحَافَظَةِ مِنْها عَلَى كُلِّ غَرَض، بِمَا يُحْظِيهِ بِرِضَاها الَّذِي هُوَ خَيْرُ أَمَلٍ عَزَّ وَأَشْرَفُ مَطْلُوبٍ عَرَض.

وَقَدْ وَرَدَ عَلَى عَبْدِ مَقَامِهَا الشَّاكِرِ لِجَزِيلِ إِنْعَامِها، أَوْرَدَ اللهُ عَلَيْها وُفُودَ السُّرُور، وَبَلَّغَهَا الأَمَلَ فِي جَمِيعِ الأُمُور، كِتَابُها الكَرِيمُ الأَفْخَمُ، الأَشْرَفُ الأَعْظَمُ، الَّذِي كَمَّلَتْ

(1) هو يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، انظر ترجمته في المعجب، ص: 236، والبيان المغرب، ص: 171- 172-175- 274.



بِهِ الإِنْعَامَ وَجَدَّدَتْه، وَأَوْلَتْ فِيهِ مِنْ كَرِيمِ الالْتِفَاتِ مَا عَوَّدَتْه، وَمَنَحَتْ بِهِ مِنَ التَّشْرِيفِ وَالتَّنْوِيه، وَالحَظِّ الكَرِيمِ النَّبِيه، مَا لَمْ تَزَلْ -بِفَضْلِهَا وَرَحْمَتِهَا- تُضَاعِفُهُ وَتُنْمِيه، فَتَلَقَّاهُ العَبْدُ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ لَهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلَال، وَاحْتَفَلَ فِي شُكْرِ مَقَاصِدِهِ الكَرِيمَةِ أَتَمَّ احْتِفَال، وَابْتَدَرَ الشُّكْرَ لَهُ بِلِسَانٍ إِلَى اللهِ فِي المَعُونَةِ عَلَيْهِ ضَارِع، وَأَمْرُهُ المُطَاعِ بِاجْتِهَادٍ مُبَادِرٍ إِلَى امْتِثَالِهِ مُسَارِع.

فَأَمَّا مَا اقْتَضَاهُ المُطَاعُ -أَمْضَاهُ اللهُ- مِنَ التَّأْكِيدِ فِي تَعَرُّفِ أَنْبَاءِ الكَفَرَةِ أَحَانَهُمُ اللهُ مَعَ السَّاعَات، وَتَكْلِيفِ أَهْلِ الثُّغُورِ وَتَعْمِيمِهَا وَالإِعْلَامِ بِهَا فِي كُلِّ الأَوْقَات، وَمُوَاصَلَةِ الإِعْلَامِ بِمَا يَرِدُ مِنْ حَقِيقَةِ الأَنْبَاء، يُعْلِمُ بِهِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- عَلَى الوَلَاء، وَلَمْ يَرِدِ الآنَ مِنْ حَقِيقَةِ أَنْبَائِهِم إِلَّا مَا هُمْ بِهِ مِنَ المُفَاتَنَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ مُشْتَغِلُون، وَاللهُ لَا يُعْدِمُهُمْ بِذَلِكَ اشْتِغَالاً، حَتَّى يُبِيدَهُمُ اللهُ وَيُدَمِّرَ أَعْدَادَهُم، وَيُخَرِّبَ -بِالبَرَكَةِ الإِمَامِيَّةِ- بِلَادَهُمْ.

وَأَمَّا مَا اقْتَضَاهُ الكِتَابُ الكَرِيمُ فِي أَمْرِ «كُومِيَةَ» -وَفَّقَهُمُ اللهُ- مِنْ أَنْ يُحْضِرَ العَبْدُ مِزْوَارَهُمْ وَجَمَاعَتَهُمْ وَيُحَذِّرُوا عَاقِبَةَ الاعْتِدَاء، وَيُخَوَّفُوا مِنَ الجَزَاء، وَيُسْتَوْفَى فِي الإِلْقَاءِ إِلَيْهِمْ كُلُّ مَا اقْتَضَاهُ الكِتَابُ الكَرِيمُ فَذَلِكُمْ مِنَ الفَضْلِ الإِمَامِيِّ الَّذِي عَمَّ البِلَادَ، وَشَمَلَ العِبَاد، وَمِنَ النَّظَرِ الجَمِيلِ الَّذِي بِهِ يُغَيَّرُ المُنْكَرُ حَيْثُ كَانَ وَالفَسَاد. وَوَجَبَ الإِعْلَامُ -أَدامَ اللهُ تَأْيِيدَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ- بِأَنَّهُ قَدْ أَلْقَى إِلَيْهِمْ مِنْ مُقْتَضَى الأَغْرَاضِ الإِمَامِيَّةِ، وَالوَصَايَا الهَادِيَةِ العَلِيَّةِ مَا أُمِرَ بِإِلْقَائِهِ إِلَيْهِم، وَأَكَّدَ ذَلِكَ جُهْدَهُ عَلَيْهِم، وَبِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ تَظْهَرُ المَصْلَحَةُ وَيُحْمَدُ الأَثَر، وَيَتَّصِلُ[1] النَّفْعُ وَيَنْقَطِعُ الضَّرَر؛ إِنْ شَاءَ اللهُ.

وَاللَّهُ يُجازِي المَقَامَ الإِمَامِيَّ عَلَى عَطْفِهِ عَلى الرَّعَايَا عَبِيدِهِ، وَتَشْدِيدِهِ فِي مَصَالِحِهِمْ وَتَأْكِيدِه، وَيُعِينُ عَلى تَمْشِيَةِ غَرَضِهِ الكَرِيمِ فِيهِمْ وَمَقْصُودِهِ؛ فَمَا زَالَ الْتِفَاتُهُ الكَرِيم يَرْفَعُ المَظَالِمِ وَيُؤَمِّنُ الخَائِفَ وَيُبَشِّرُ بِالفَرَجِ القَرِيب، وَيُلَبِّي دُعَاءَ المُضْطَرِّ تَلْبِيَةَ المُجِيبِ[2].

(1) في الأصل: «ويصلح» والتصويب بالهامش.
(2) فيه نظر إلى القرآن الكريم.



وَأَمَّا مَا اقْتَضَاهُ النَّظَرُ الكَرِيمُ، وَالفَضْلُ العَظِيم، وَالالْتِفَاتُ العَلِيُّ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ التَّكْمِيلُ لِلنِّعَمِ وَالتَّتْمِيم، مِنْ تَقْدِيمِ عَبْدِ الحَضْرَةِ العَالِيَةِ ابْنِ عَبْدِهَا عَلَى «بَنِي رِيَاحٍ» وَقُرَّةِ مَنَافٍ، وَإِلْزَامِهِ سُكْنَى «شَرِيش»[1]، وَأَخْذِهِ بِرُكُوبِ الطَّرِيقَةِ الحَمِيدَة، وَاتِّبَاعِ المَنَاحِي السَّدِيدَة؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي جَلَّتْ أَنْ يُحِيطَ شُكْرُ المَخْلُوقِ بِأَجْزَائِهَا، فَإِنَّ الَّذِي أَوْلَتْهُ بِذَلِكَ مِنَ التَّنْوِيهِ وَالتَّشْرِيفِ يُعْجِزُ الاسْتِطَاعَةَ الإِنْسَانِيَةَ عَنْ اسْتِيعَابِ وَاجِبَاتِ شُكْرِهِ وَاسْتِيفَائِها، فَلَيْسَ إِلاَّ الدُّعَاءُ إِلَى اللهِ فِي تَوَلِّي جَزَائِهَا، فَهُوَ القَدِيرُ- سُبْحَانَهُ- عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الشُّكْرَ المُوفَى بِإِزَائِهَا، وَلَيْسَتْ بِأُولَى مِنْ بَرَكَاتِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ شَكَرَ اللهُ عَمِيمَ الْتِفَاتِها، وَلَا بِفَاتِحَةٍ مِنْ مِنَحِهَا العَظِيمَةِ وَهِبَاتِها؛ فَتِلْكَ عَادَتُها فِي تَمَلُّكِ قُلُوبِ الشُّبانِ مِنْ عَبِيدِها وَالشِّيب، وَإِسْبَاغِ النِّعَمِ عَلى البَعِيدِ مِنْهُمْ وَالقَرِيب؛ وَمَا زَالَتْ نِعَمُها تَسُحُّ غَمَائِم، وَتَتَفَتَّحُ عَنْ زَهْرِ الآمالِ كَمَائِم، وَتَصْفُوا وَدِيَّة، وَتَطْمُوا بِحَاراً وَتَسِيلُ أَوْدِيَّة، وَمَا بَرِحَ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ بِفَضْلِها العَظِيم، وَطَوْلِها العَمِيم، تَعُمُّ الأُمَمُ بِهِمَا المَحَافِلَ فِي كُلِّ قُطْرٍ وَالأَنْدِيَة. وَلَوْ وَصَفَ العَبْدُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الشُّكْرِ عَلى تَوَالِي بَعْضِ الْتِفَاتِهَا، وَتَضَاعُفِ بَرَكَاتِها، لأَنْفَدَ الأَوْرَاقَ وَالأَقْلاَمَ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ الكَلَام؛ لَكِنَّهُ يَعْتَرِفُ بِأَنَّ هَذِهِ النِّعَم إِنَّمَا تُشْكَرُ بِالعَجْزِ عَنْ شُكْرِهَا، فَقُصَارَى العَبْدِ أَنْ يَتَغَنَّى[2] بِحَمْدِها عَلَى الدَّوَامِ وَذِكْرِهَا. وَقَدْ تَلَقَّى العَبْدُ النَّظَرَ الكَرِيمَ فِي ذَلِكَ بِالامْتِثَال، وَأَلْقَى إِلَيْهِ مِنَ الوَصَايا الإِمَامِيَّةِ الكَرِيمَةِ مَا يَحْتَوِي مِنْه -بِحَوْلِ اللهِ- أَكْرَمَ مِثَال، وَيَسْتَعِينُ بِاللهِ تَعَالَى وَبِالبَرَكَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَدَامَهَا اللهُ- عَلَى الانْتِهَاضِ بِهِ وَالاسْتِقْلَال. وَاللهُ يُوزِعُ شُكْرَ ما أَفْضَلَتْ بِهِ الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ مِنْ جَزِيلِ الأَفْضَال، وَيَسْتَعْمِلُ عَلى مَا يَحْظَى بِرِضَاهَا فِي كُلِّ حَال، وَيُوزِعُ الخَاصَّ وَالعَامَّ وَالوَالِدَ وَالوَلَدَ بِشُكْرِ مَا عَمَّمَهُمْ مِنْ كَرِيمِ الالْتِفَاتِ وَالاهْتِبَال.

---

(1) مدينة أندلسية مشهورة ومنها شارح المقامات أبو العباس الشريشي. وشهرتها بالمُجَبَّنَاتِ مبسوطة في كتب الأندلسيين.

(2) في الأصل: «يتغذى».



وَكَتَبَ أَيْضاً:

مَطْلَعُ الأَنْوَارِ الهَادِيَةِ، وَمَنْشَأُ البَرَكَاتِ الرَّائِحَةِ وَالغَادِيَةِ، وَمَثَابَةُ البِشْرِ المُتَوَالِيَةِ المُتَمَادِيَةِ؛ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهَا وَإِعْزَازَ نَصْرِهَا وَهَنَّأَهَا مَا أَوْضَحَ مِنْ بَرَاهِينِ السُّعُودِ في عَصْرِهَا، وَوَالَى لَهَا مِنَ التَّمْكِينِ، وَالفَتْحِ المُبِينِ، مَا يُعَرِّفُهَا فِي كُلِّ إِرَادَةٍ عَوَارِفَ يُسْرِهَا. عَبْدُ مَقَامِهَا السَّامِي، وَمَمْلُوكُ إِنْعَامِهَا الهَامِي، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ في شُكْرِ إِحْسَانِهَا المُتَضَاعِفِ وَإِدَامَةِ سَعْدِهَا النَّامِي، اللَّائِذُ بِظِلِّهَا الوَافِي وَكَهْفِهَا الحَامِي. إِبْرَاهِيم:

سَلَامُ اللهِ الكَرِيم، وَبعْدَ حَمْدِ اللهِ مُعْلِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَمُظْهِرِهَا عَلى كُلِّ جَبَّارٍ أَثِيمٍ وَكَفَّارٍ عَنِيد، وَالصَّلاة عَلى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ بِالوَعْدِ وَالوَعِيد، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُوم، المَهْدِيِّ المَعْلُوم بِالدَّلِيلِ الصَّادِقِ وَالشَّهِيد، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ المُرْشِدينَ إِلَى سَنَنِهِ القَوِيم وَصِرَاطِهِ الحَمِيد، وَالدُّعاءِ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَام أَمِيرِ المُؤْمِنِين ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِدَوَام مَا عَوَّدَهُ مِنَ النَّصْرِ وَالتَّأْيِيد، وَإِنْجَازِ مَا ذَخَرَ مِنَ الفُتُوحِ لِزَمَنِهِ السَّعِيد. فَكَتَبَ عَبْدُ عَلَائِهَا، وَرَهْنُ شُكْرِ آلَائِهَا، كَتَبَ اللهُ لَهَا مِنَ السُّعُودِ أَعْظَمَهَا مِقْدَاراً، وَأَلْزَمَهَا إِيرَاداً وَإِنْجَازاً لِوُعُودٍ وَإِصْدَاراً، وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- قَدْ تَدَفَّقَتْ شَآبِيبُهَا، وَأُضْفِيَتْ عَلَى العُبْدَانِ في كَافَةِ البُلْدَانِ جَلَابِيبُهَا؛ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يَدْعُو النِّعَمَ فَيُلَبِّيهِ مُجِيبُهَا، وَعَبْدُ جَلَالِهَا -وَصَلَ اللهُ حِرَاسَةَ كَمَالِهَا- عَلى أَوْفَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ عُبْدَانُهَا المُخْلِصُونَ وَأَرِقَّاؤُهَا النَّاصِحُون، مِنَ النَّصِيحَةِ في خِدْمَتِهَا، وَالاجْتِهَادِ في شُكْرِ نِعْمَتِهَا، وَبَذْلِ الجُهْدِ في ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهَا، وَاسْتِنْفَادِ الوُسْعِ في أَدَاءِ مُفْتَرَضَاتِهَا، وَاللهُ يُوزِعُهُ شُكْرَ نُعْمَاهَا، وَيَنْشُرُ عَلَيْهِ جَنَاحَ رُحْمَاهَا.

وَقَدْ وَرَدَ عَلى عَبْدِ إِحْسَانِهَا، أَوْرَدَ اللهُ وُفُودَ السُّرُورِ عَلَى عَلِيِّ مَكَانِهَا، كِتَابُهَا الكَرِيم، المُعَظَّمُ بِوَاجِبَاتِ التَّعْظِيم، يُشْرِقُ نُورُه، وَتَنْطِقُ بِالهُدَى وَالإِرْشَادِ سُطُورُه، وَتَشْتَمِلُ عَلى مَا فِيهِ صَلَاحُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا أَعْجَازُهُ الكَرِيمَةُ وَصُدُورُه؛ فَعَظُمَ بِوُصُولِهِ فَرَحُ العَبْدِ وَسُرُورُه، وَاقْتَبَسَ المَصَالِحَ وَالمَرَاشِدَ مِنْ ضَوْءِ سِرَاجِه، وَاقْتَفَى بِالامْتِثَالِ لِأَوَامِرِهِ المُطَاعَةِ وَاضِحَ مِنْهَاجِه؛ وَكُلُّ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الأَغْرَاضِ العَلِيَّة، وَالإِشَارَاتِ



الكَرِيمَةِ الجَلِيَّة، فِي حِفْظِ المُهَادَنَةِ وَالإِعْلَامِ بِالأَنْبَاءِ وَتَأْمِينِ الرَّعِيَّة، يُبَادِرُ العَبْدُ إِلَيْه، وَيَعْمَلُ بِهِ وَيُحافِظُ -بِحَوْلِ اللهِ- عَلَيْه.

وَاللهُ يُجَازِي الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ عَلَى اعْتِنَائِها بِمَصَالِحِ العِبَادِ وَالبِلَادِ، وَتَأْكِيدِهَا فِي وَصْلِ مَا يَعُودُ بِالصَّلَاحِ، وَقَطْعِ مَا يُؤَدِّي إِلَى الفَسَاد، بِأَفْضَلِ جَزَاءِ الخُلَفَاءِ المُحْسِنِين، وَالأَئِمَّةِ السُّعَدَاءِ المُفَضَّلِينَ المُنَعَّمِين.

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مَا عَوَّدَهَا مِنْ نَصْرِ الأَعْلَام، كَما حَفَظَ بِدَعْوَتِهَا العَالِيَةِ كَلِمَةَ الإِسْلَام؛ فَإِنَّ اللهَ تَعالَى بِمَا لَهُ مِنَ العِنَايَةِ الرَّبَّانِيةِ بِأَمْرِهَا العَزِيزِ قَدْ جَعَلَ اللهُ سَعْدَهَا فِي الاشْتِهَار، أَوْضَحَ مِنَ النَّهَار، وَفِي البَيَان، أَصْدَقَ مِنَ العِيَان، وَإِذَا كَانَ هَذا الأَصْلُ، يَعْضُدُهُ النَّقْلُ، وَيَشْهَدُ بِهِ الحِسُّ وَالعَقْلُ، فَيَحِقُّ لِلْبَشَائِرِ أَنْ تَتَرَدَّدَ في أَيَّامِهَا تَرَدُّدَ الأَنْفَاس، وَتتَنَاسَقَ تَنَاسُقَ وَرَقِ الآس.

وَقَدْ بَلَغَ الآنَ الخَبَرُ العَمِيمُ -وَالحَمْدُ للهِ- بِمَا كَيَّفَهُ السَّعْدُ المُطَّرِدُ الأَنْوَاعِ وَالأَجْنَاس، وَهَيَّأَهُ فَضْلُ اللهِ عَلَيْهَا وَعَلَى النَّاس، مِنْ قَتْلِ الشَّقِيِّ الَّذِي نَجَمَ بِالقِبْلَةِ وَكَتَمَ الحَقَّ الَّذِي لَا يَضُرُّهُ كَتْمُ كَاتِم، وَأَرَادَ أَنْ يُعَارِضَ النُّورَ المُبِينَ بِالظَّلَامِ العَاتِم، وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ أَمْرَهَا العَزِيزَ هُوَ أَمْرُ اللهِ الَّذِي لَا يَصُدُّهُ صَاد، وَلَا يَضُرُّهُ مُخَالِفٌ وَلَا مُضَاد؛ فَاهْتَزَّتْ أَرْضُ الأَنْدَلُسِ طَرَبًا بِهَذِهِ البِشَارَةِ العَظِيمَةِ اهْتِزَازًا، وَاعْتَزَّتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ اعْتِزَازًا، وَشَمَلَ السُّرُورُ الأَئِمَّةَ قَاطِبَةً وَعَمَّهُم، وَقَصَدَهُمُ الحُبُورُ فِي كُلِّ جِهَةٍ وَأَمَّهُم، وَارْتَفَعَ الضَّجِيجُ بِشُكْرِ اللهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ العَمِيمَة، وَامْتَلَأَتِ القُلُوبُ بَهْجَةً بِهَذِهِ المِنَّةِ الجَسِيمَة، وَحَسَدَتِ العُيُونُ عَلَيْهَا الآذَان، وَازْدَادَ المُسْلِمُونَ يَقِينًا بِأَنَّ سَعْدَ هَذِهِ الخِلَافَةِ العَلِيَّةِ كَالشَّمْسِ لاَ تَخْفَى بِكُلِّ مَكَان.

وَأَمَّا الَّذِي خُصَّ العَبْدُ بِهِ مِنَ السُّرُورِ بِهَذِهِ البُشْرَى، وَالمِنَّةِ الكُبْرَى، فَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ الوَصْفُ بِتَحْصِيلِه، أَوْ يَشْتَمِلَ عَلى حَصْرِ جُمْلَتِهِ وَتَفْصِيلِه، وَإِنَّهُ لَفَتْحٌ مِنَ الفُتُوحِ الَّتِي يَأْتِي بِهَا أَسْعَدُ الأَزْمَان، وَيُقِرُّ اللهُ بِهَا عَيْنَ الإِيمَان. وَتِلْكَ عَادَةُ اللهِ لِهَذا الأَمْرِ العَزِيزِ فِي إِظْهَارِ أَمْرِهِ عَلى كُلِّ مُنَاوٍ، وَإِعْزَازِ نَصْرِهِ عَلى كُلِّ شَقِيٍّ غَاوٍ. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ



وَعْدَهُۥ ﴾[1]. وَسَعْدٌ قَضَى بِهِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَاللهُ يُضَاعِفُ تَمْكِينَهُ وَسَعْدَه، وَيُتْبِعُ لَهُ كُلَّ فَتْحٍ بِأَكْبَرَ مِنْهُ بَعْدَه، وَيُنْجِزُ لَهُ مَا وَعَدَهُ مِنَ الاسْتِيلَاءِ وَالظُّهُورِ، إِلَى يَوْمِ النَّفْخِ فِي الصُّور. وَإِنَّ مِنْ سَعْدِ أَيَّامِهِ السَّعِيدَة، وَمِنْ بَرَكَةِ خِلَافَتِهِ المُبَارَكَةِ الحَمِيدَة، مَا أَلْقَى اللهُ فِي هَذَا الوَقْتِ بَيْنَ رُؤُوسِ الكَفَرَةِ -أَحَانَهُمُ اللهُ- مِنَ المُفَاتَنَةِ فِيمَا بَيْنَ فِرَقِهِمْ الذَّمِيمَة، وَالشَّتَاتِ الَّذِي عَلَا كُلاًّ مِنْهُمْ جَحِيمَه؛ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَسْرَجَ لِحَرْبِ الآخَرِينَ مِنْهُمْ وَأَلْجَم، وَأَنْجَدَ فِي ضَرْبِ بِلَادِهِمْ وَأَتْهَم. وَاللهُ يَمْحَقُ جَمِيعَهُمْ مَحْقَ الدَّبَا[2]، وَيُبِيدُ جُمُوعَهُمْ حَيْثُ كَانَتْ بَيْنَ مَهَبِّ الجَنُوبِ وَالشَّمَالِ وَمَهَبِّ الدَّبُورِ وَالصَّبَا، وَيَزِيدُ الخِلَافَةَ العَلِيَّةَ سُعُوداً تَقْضِي لَهَا فِي كُلِّ مَرَامٍ بِالتَّسْهِيل، وَيُعَرِّفُهَا فِي كُلِّ مَقَامٍ عَوَارِفَ الصُّنْعِ الجَمِيل؛ بِمَنِّه.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ العَلِيَّةُ المَقَام، القُدْسِيَّةُ التَّمْجِيدِ والإِعْظَام، السَّعِيدَةُ اللَّيَالِي وَالأَيَّام، المَحْفُوفَةُ بِالتَّأْيِيدِ الدَّائِمِ الاسْتِمرارِ وَالتَّسْدِيدِ المُسْتَمِرِّ الدَّوَام، الطَّيِّبَةُ بِذِكْرِهَا أَنْفَاسُ الرِّيَاح، والخَافِقَةُ بِنَصْرِها عَذَبُ الأَعْلَام، والمَفْتُوحُ لَهَا فِي كُلِّ مَرْمَى وَالمُيَسَّرُ لَهَا فِي كُلِّ مَرَام، والمَيْمُونَةُ المَطَالِعِ عَلَى أَهْلِ الإِسْلَام، والمَقْضِيُّ بِهَا عَلَى كُلِّ عَدُوٍّ فِي كُلِّ رَوَاحٍ وَغُدُوٍّ بِالاصْطِلَام. حَضْرَةُ سَيِّدِنا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ المُرْشِدِينَ الكِرَام. خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَهَا، وَعَمَرَ بِوُفُودِ البَشَائِرِ أَوْطَانَهَا، وَمَدَّ لَها أَسْبَابَ الفُتُوحِ وَأَشْطَانَهَا، وَأَيَّدَ بِإِنْجازِ المَوْعُودِ أَمْرَهَا وَأَعْظَمَ فِي إِظْهارِ السُّعُودِ شَانَهَا، كَمَا جَعَلَ أَيْمَنَ الدُّوَلِ دَوْلَتَهَا وَأَسْعَدَ الأَزْمَانِ زَمَانَها؛ وَكَمَا جَعَلَ حَيَاةَ الأَرْوَاحِ طَاعَتَها وَقَيْدَ القُلُوبِ إِحْسَانَهَا.

عَبْدُ سَنَائِها، وَمَمْلُوكُ عَلَائِها فِي بَحْرِ الشُّكْرِ لِآلَائِهَا، البَاذِلُ جُهْدَهُ فِي شُكْرِ اللهِ عَلَى تَيْسِيرِ ظَفَرِها وَاسْتِيلَائِها، الفَرِحُ بِنَصْرِ البُشْرَى وَالمِنَّةِ الكُبْرَى مِنْ كَرِيمِ إِمْلَائِهَا،

(1) سورة الروم، الآية: 5.
(2) غير واضحة في الأصل. والدبا: صغار النمل.



المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ فِي إِدَامَةِ مَا عَوَّدهَا مِنْ نَصْرِ كَلِمَتِها وَإِعْلَائِها، المُقْتَطِفُ ثَمَرَ المُنَى طَيِّبَ الجَنَى مِنْ بَيَانِ سُعُودِهَا وَوُضُوحِ جَلَائِها؛ إِبْرَاهِيمُ:

سَلَامُ اللهِ العَبِقُ النَّفَحَات، المُشْرِقُ الصَّفَحاتِ المَقْرُونُ بِالرَّحْمةِ العَامَّةِ وَالبَرَكَات، المَوْصُولُ فِي آناءِ السَّكَنَاتِ كُلِّها وَالحَرَكَات.

يَخُصُّ حَضْرَةَ السُّعُودِ، المَقْضِيّ لَها بِالسُّمُوِّ وَالصُّعُود، مَا شَرَحَتْ بِدَوْلَتِهَا الصُّدُور، وَتَتَابَعَ بِسَعَادَتِها السُّرُور، وَذَلِكَ أَجَلٌ مُسْتَأْخِر، وَأَمَدٌ لَيْسَ لَهُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ آخِر. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي أَنْجَزَ لِلأُمَّةِ العَزِيزَةِ المَحْفُوظَةِ فِي حِرْزِهِ الحَرِيزِ صَادِقَ عِدَاتِه، وَأَجْزَاهُ عَلَى أَوْضَحِ أُسْلُوبٍ مِنَ الظُّهُورِ فِي كُلِّ مَطْلُوبٍ عَلَى عُدَاتِه، وَأَطْلَعَ بَشَائِرَهُ الغُرَّ الاطِّلَاعَ المُستَمِرَّ عَلَى حَضْرةِ الإِسْلَامِ وَبُدَاتِه؛ وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ الَّذِي بِشَارَتُهُ لِهَذِهِ الطَّائِفَةِ بِالفَتْحِ لَهَا وَشَهِدَتْ أَنهُ لا يَضُرُّهُ مَنْ خَالَفَهَا وَلَا مَنْ خَذَلَها مِنْ مَعْلُومٍ بَشَائِرِهِ وَشَهَادَاتِه، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُوم، المَهْدِيِّ المَعْلُوم، عَتَادِ الدِّينِ القَيِّمِ وَأَدَاتِه، وَطَبِيبِ الإِسْلَامِ، حِينَ تَضَاءَلَ فِي أَسْمَالِ السَّقَامِ لَا يَعْرِفُ عَشِيَّةً مِنْ غَدَاتِه، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ المُرْشِدِينَ قَادَةِ هُدَى رَكْبِهِ وَحُدَاتِه، وَمُكَمِلِي أَمْرِهِ العَلِيِّ وَمُوَضِّحِي مَنْهَجِهِ الجَلِيِّ وَهُدَاتِه، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنا وَمَوْلانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِاطِّرَادِ عَوَارِفِه فِي النَّصْرِ وَعَادَاتِه، وَمُضَاعَفَةِ حُظوظِهِ مِنَ الدَّهْرِ وَسَعَادَاتِه، وَتَيْسِيرِ مَقاصِدِهِ كُلِّها وَإِيرَادَاتِه.

فَالكِتَابُ إِلَى حَضْرَةِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا، وَعِصْمَةِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا، كَتَبَ اللهُ لَها مِنَ الفُتُوحِ مَا يَخْرِقُ مُعْتَادَهَا، وَيَتَجَاوَزُ مَبْغَاهَا وَمُرْتَادَهَا، وَمَلَّكَهَا مَا زُوِيَ لِنَبِيِّنَا عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ المَشَارِقِ وَالمَغَارِب، وَوَصَلَ لَها مَا عَوَّدَها مِنَ الظُّهُورِ عَلى كُلِّ مُنَاوٍ وَمُحَارِب، وَهَنَّأَها مَا خَوَّلَهَا مِنْ تَيْسِيرِ الأَغْرَاضِ، وَالأُمْنِيةُ بِفَضْلِ اللهِ كَامِلَة، والعَافِيَةُ شَامِلَة.

وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ مِنْ رَحْمَتِه مَا بَسَطَ القُلُوب، وَأَرْبَى عَلى المَطْلُوب؛ فَالنَّاسُ مُنْتَشِرُونَ فِي الأَرْضِ لِزِرَاعَتِهِم، وَمُسْتَكْثِرُونَ مِنْهَا جُهْدَ اسْتِطَاعَتِهِمْ؛ وَالرُّومُ بِالسَّلْمِ مُغْتَبِطُون وَلِلصُّلْحِ مُرْتَبِطُون؛ وَكُلُّ نِعْمَةٍ تُنَال، وَرَحْمَةٍ تَنْثَال، فَمِنَ الحَضْرةِ



الإِمَامِيةِ انْبِعَاثُ أَسْبَابِها، وَنُشُوءُ سَحَابِهَا؛ وَاللهُ يُهَنِّئُ الجَمِيعَ مَا شَمِلَهُمْ مِنْ نِعَمِهَا، وَعَمَّهُمْ مِنْ عَطْفِهَا وَكَرَمِهَا. وَقَدْ وَرَدَ عَلى عَبْدِ جَلَالِهَا، وَمَمْلُوكِ أَفْضَالِها، كِتَابُهَا المُعَظَّمُ المُكَرَّمُ الَّذِي بِوُرُودِهِ تَنْبَعِثُ المَسَرَّات، وَبِمَقْصُودِهِ تُنَالُ البَرَكَاتُ وَالخَيْرَات؛ فَأَوْرَدَ جُمْلَةَ السُّرُور، وأَرْشَدَ إِلَى مَصَالِحِ الأَحْوالِ وَمَنَاجِحِ الأُمُور؛ فَتَلَقَّاهُ العَبْدُ تَلَقِّيَ مَنْ ظَفِرَ مِنْهُ بِأَمَلِه، وَأَخْلَصَ لَهُ فِي الطَّاعَةِ بِنِيَّتِهِ وَعَمَلِه، وَتَفَهَّمَ فُصُولَهُ تَفَهُّمَ الوَاقِفِ عِنْدَهَا المُنْتَهِي إِلَيْهَا، المُتَضَرِّعِ إِلَى اللهِ فِي الإِعَانَةِ عَلَيْهَا، وَعَرَفَ قَدْرَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الوَصَايَا الجَامِعَةِ لِضُرُوبِ المَنَافِعِ فِي الدَّارَيْن، وَالإِشَارَاتِ المُوصِلَةِ إِلَى نَيْلِ الحُسْنَيَيْن، وَالأَغْرَاضِ الَّتِي لَا يَضِلُّ مَنْ سَلَكَ وَاضِحَ سَبِيلِهَا، وَاتَّبَعَ صَالِحَ دَلِيلِهَا، وَلَا يَزِلُّ مَنِ اسْتَنَدَ إِلَيْهَا، وَاعْتَمَدَ عَلَيْهَا، وَطَفِقَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَها اللهُ- لَا يُدَبِّرُ أَمْراً إِلَّا اتَّخذَ وَصَايَاهَا الكَرِيمَةَ فِيهِ إِمَامَه، وَلَا يُحَاوِلُ شُغْلاً إِلاَّ اسْتَشْعَرَها أَمَامَه.

وَاللهُ تَعالَى يَشْكُرُ الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ عَلَى تَوْصِيَتِهَا المُرْشِدَة، وَإِشَارَتِهَا المُعِينَةِ عَلى الخَيْرِ المُنْجِدَة، وَمَوَاعِظِهَا الَّتِي لَا تَزَالُ تَشْحَذُ الأَفْكَارَ وَالضَّمَائِر، وَتُنَوِّرُ الأَبْصَارَ وَالبَصَائِر، وَتَحْمِلُ عَلَى الْتِمَاسِ الأَنْفَع، وَاكْتِسَابِ العَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَرْفَع؛ واللهُ العَلِيمُ سُبْحَانَهُ بِمَا عِنْدَ العَبْدِ مِنْ بَذْلِ الجِدِّ فِي طَاعَتِهَا وَالاجْتِهَاد، وَالاسْتِعَانَةِ بِاللهِ فِي أَدَاءِ حُقُوقِها وَالاسْتِنْجَاد، واسْتِغْرَاقِ إِمْكَانِهِ وَاسْتِنْفَاذِ وُسْعِهِ فِي تَفَقُّدِ جُزْئِيَاتِ الأُمُورِ بِأَتَمِّ وُجُوهِ الاسْتِغْرَاقِ وَالاسْتِنْفَاد، وَالسَّعْيِ المُتَّصِلِ فِي العَمَلِ الأَصْلَحِ وَالرَّأْيِ الأَصْوَب، وَالمُلَازَمَةِ لِابْتِغَاءِ الأَدْنَى إِلَى المَرامِي الإِمَامِيةِ وَالأَقْرَب، والتَّمْشِيَةِ لِمَقْصُودِها مِنَ العَدْلِ وَالإِحْسَان، وَالامْتِثَالِ لِأَوَامِرِهَا المُطَاعَةِ فِي كلِّ مَعْنىً وَكُلِّ أَوَان؛ وَإِنَّهُ لَا يَغْفُلُ عَنْ مَصْلَحَةٍ بِحَسَبِ وُسْعِهِ سَاعَةً مِنَ السَّاعَات، وَلَا وَقْتاً مِنَ الأَوْقَات؛ وَاللهُ يُعِينُهُ عَلى مَا يَحْظَى بِرِضَاها، وَيُزْلِفُ مِنْ رُحْمَاهَا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الإِعْلَامُ بِأَحْوَالِ الثُّغُورِ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَشَرَحَ العَبِيدُ مَا مَسَّها مِنَ الضِّيقِ وَالضَّعْفِ، وَغَلَاءِ السِّعْرِ، وَعَدَمِ الطَّعَامِ، وَكَثْرَةِ التَّشَكِّي بِقِلَّةِ الإِنْصَافِ، وَاحْتِيَاجِهَا إِلَى النَّظَرِ الكَرِيمِ الَّذِي يُصْلِحُ أَحْوَالَها، وَيَبْسُطُ آمَالَها، وَأَحْوَالُها الآنَ بَاقِيَةٌ عَلَى ذَلِك؛ وَكَانَ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِ اللهِ وفَضْلِهِ الَّذِي لَا تَنْحَصِرُ أَسْبابُه، وَلُطْفِهِ الَّذِي لَا يُغْلَقُ فِي وَجْهِ



مُسْتَفْتِحِ بَابُه؛ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَغَاثَ أَهْلَهَا في هَذَا العَامِ بِالبَلُّوط، فَإِنَّ شَجَرَهَا حَمَلَتْ حِمْلاً كَثِيراً فاتَّخذَهَا أَهْلُهَا قُوتاً لِأَنفُسِهِمْ وَلِدوابِّهِمْ وَسَدَّتْ لَهُمْ مَسداً كَبِيراً، حَتَّى لَا يَكَادُ يُوجدُ عِنْدَهُمْ دَقِيقٌ إِلاَّ مِنْها؛ فَعَظُمَتْ بها عندَ أَهْلِ الثُّغُورِ النِّعْمَة، وَظَهَرَ فِيهَا مَنٌّ اللهِ بِعِبادِهِ وَالرَّحْمَة، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- وَبِجَمِيلِ يُمْنِهَا وَبَرَكَةِ دَعْوَتِهَا. وَالحَمْدُ للهِ عَلى مَا خَوَّلَ أَمْرَهَا العَزِيزَ مِنَ السُّعُودِ الَّتِي تَظْهَرُ آثَارُهَا في كَافَّةِ الأُمُورِ وَعَامَّةِ الأَرْجَاء، وَيَغْنَى المُجْدِبُونَ بِبَرَكَتِها عَنِ الأَنْوَاءِ وَالأَنْدَاء.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَبعْدَ حَمْدِ اللهِ مُعْلِي كَلِمَةِ التَّوْحِيد، الفَاتِحِ لَهَا الفَتْحَ القَرِيبَ في المَكَانِ البَعِيد، وَ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1] وَالصَّلاةِ عَلى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ بالوَعْدِ وَالوَعِيد، وَالمُبْدِي في تَبْيِينِ الشَّرِيعَةِ وَالمُعِيد، وَالهَادِي بِإِذْنِ اللهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم[2]، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُوم، المَهْدِيِّ المَعْلُوم، بِالدَّلِيلِ الوَاضِحِ وَالشَّهِيد، مُؤْنِسِ الدِّينِ حِينَ اسْتَوْحَشَ اسْتِيحَاشَ الغَرِيبِ الوَحِيد، وَطَبِيبِهِ حِينَ تَضَاءَلَ في أَسْمَالٍ سَقِيمٍ وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ القَائِمِينَ بِأَمْرِهِ الحَمِيد، وَالقَاصِمِينَ مِنْ عُدَاتِهِ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيد، حَتَّى وَضَحَتْ مَعَالِمُ الحَقِّ بَعْدَ طُسُومِ الرُّسُوم، وَالدُّعاءِ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ النَّاصِرِ لِدِينِ اللهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المُرْشِدِينَ بِنَصْرٍ عَتِيد، وَفُتُوحٍ لَا تَزَالُ في مَزِيد، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيم.

فكَتَبَ عَبْدُ جَلَالِهَا، وَشَاكِرُ أَفْضَالِهَا، كَتَبَ اللهُ لَها الظُّهُورَ عَلَى كُلِّ عَدُوٍّ مُسَالِمٍ أَوْ مُحَارِب، وَفتَحَ لَهَا الفَتْحَ المَوْعُودَ في المَشَارِقِ وَالمَغَارِب. مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ-حَرَسَهَا اللهُ- وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- يَبْهَرُ الأَلْبَابَ ظُهُورُهَا، وَتَزْخَرُ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ عَذْبَةً بُحُورُهَا، وَيَفِيضُ عَلَى كَافَّةِ البَلَدِ فَيْضَ الشَّمْسِ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ نُورُهَا،

---

(1) سورة الحديد، الآية: 20. وسورة الجمعة، الآية: 4.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، سورة المائدة، الآية: 18.



وَبَشَائِرُهَا الكُبَرُ يُبْهِجُ سُفُورُهَا وَتَرُوقُ أَعْجَازُهَا كَما تَرُوقُ صُدُورُهَا؛ وَلِلَّهِ عَلَيْهَا الحَمْدُ الَّذِي تُنْمَى بِهِ أَقْسَامُها وَتُشْرِقُ بُدُورُها. وَالَّذِي يَعْتكِفُ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ عَلَيْهِ وَيَنْصَرِفُ بِأَخْلَصِ العَمَلِ وَأَبْلَغِ النِّيةِ إِلَيْهِ مِنَ النَّصِيحَةِ فِي خِدْمتِهَا وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ فِي شُكْرِ نِعْمَتِهَا، وَالعِلْمِ بِقَدْرِ عَطْفِهَا الكَرِيمِ، وَالْتِفَاتِها العَمِيمِ وَرَحْمَتِها، وَبَذْلِ الجُهْدِ فِي ابْتِغاءِ مَرْضَاتِهَا، وَاسْتِنْفَادِ الوُسْعِ فِي أَدَاءِ مُفْتَرَضَاتِهَا، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى تَمْشِيَةِ أَوَامِرِهَا العَلِيَّةِ، وَالسُّرُورِ بِمَا صَنَعَ اللهُ لَها مِنَ المَصْنُوعَاتِ السَّنِيَّة، لَا يَزَالُ يَنْمُو وَيَزِيد، وَيَنْشَأُ كَمَا يَنْشَأُ الوَلِيد، وَلا يَبْرَحُ يَنْتَابُهُ التَّقْرِيرُ وَالتَّكْرِيرُ وَالتَّرْدِيدُ والتَّوْكِيد، تَقَرُّباً إِلَى اللهِ بِأَدَاءِ الوَاجِبِ مِنْ ذَلِكَ وَالفَرْض، أَوْ عَمَلاً بِحَدِّهِ مُحْضِراً يَوْمَ الجَزاءِ وَالعَرْض؛ وَاللهُ يُنْهِضُهُ بِوَاجِبَاتِهَا، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ مِنَحِها العَظِيمَةِ وَهِبَاتِها.

وَمِمَّا وَجَبَ بِهِ إِعْلَامُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَها اللهُ- أَنَّ أَحْوَالَ هَذِهِ الجِهَاتِ- بِبَرَكَتِها- جَارِيَةٌ على الصَّلاحِ المُتَّصِل، وَالهُدْنَةِ المُسْتَمِرَّةِ وَالخَيْرِ المُشْتَمِل؛ وَقَد امْتَدَّ ظِلُّ الأَمَان، وَاقْتَبَلَ شَبَابُ الزَّمَان، وَتَمَكَّنَتْ طُمَأْنِينَةُ القُلُوب، وَقَضَى بِالمُؤْمِنِينَ لِلْحُسْنَيَيْنِ الإِيَابُ الكَرِيمُ، وَالالْتِفَاتُ العَمِيمُ، كُلَّ مَرْغُوبٍ وَمَطْلُوب. وَالنِّعَمُ وَافِيَةٌ وَالغِبْطَةُ ظَاهِرَة، وَآيَاتُ الظُّهورِ عَلى الأَعْدَاءِ بَاهِرَة، وَالنَّاسُ مُشْتَغِلُونَ بِضَمِّ زَرْعِهِم شَاكِرُونَ للهِ عَلى الخَيْرِ الَّذِي اسْتَقْبَلَهُم، وَالاعْتِزَازِ الَّذِي أَظَلَّهُم. وَالرُّومُ مُغْتَبِطُونَ بِسَلْمِهِمْ لمَا تَقَرَّرَ- مِنْ نَصْرِ اللهِ لِأَمْرِهِ العَزِيزِ عَلَى مَنْ يُنَاوِيهِمْ- فِي عِلْمِهِم؛ غَيْرَ أَنَّ أَمَدَ الصُّلْحِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ نَحْوُ شَهْرَيْنِ. واللهُ يُجْرِي الأَحْوَالَ- بِبَرَكَتِهَا- فِي كُلِّ مُسْتَقْبَلٍ عَلى أَفْضَلِ مَعْهُود، وَيُعَرِّفُها الخَيْرَ وَالخِيرَةَ وَاليُمْنَ وَالبَرَكَةَ فِي كُلِّ مَنْوِيٍّ مَعْقُود.

وَقَدْ وَرَدَ عَلَى عَبْدِ إِحْسَانِها، وَشَاكِرِ امْتِنَانِها، كِتَابُها العَظِيمُ الكَرِيمُ المُتَضَمِّنُ مِنْ عَظِيمِ البِشَارَات، وَكَرِيمِ الإِشَارَات، مَا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الآمَال، وَيُصْلِحُ بِهِ المَسَاعِيَ كُلَّها وَالأَعْمَال؛ فَتَلَقَّاهُ تَلَقِّيَ أَمْثَالِه، وَتَضَرَّعَ إِلَى اللهِ فِي أَنْ يُجَازِيَ المَقَامَ الإِمَامِيَّ بِأَفْضَلِ الجَزَاءِ عَلَى كَرِيمِ الْتِفَاتِهِ وَاهْتِبَالِه، وَأَنْ يُعِينَ عَلَى تَمْشِيَةِ غَرَضِهِ الكَرِيمِ وَتَنْفِيذِ أَمْرِهِ المُطَاعِ وَامْتِثَالِه.



فَأَمَّا مَا تَضَمَّنَ مِنْ مُشَارَفَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ ثَنَايَا البِلَادِ، وَوَعْدِهَا بِالخَيْرِ الَّذِي اسْتَقْبَلَ كَافَّةَ العِبَادِ؛ فَتِلْكُمْ نِعْمَةٌ لَا يُحْصَرُ السُّرُورُ بِهَا وَلَا يُحْصَى، وَلَا يَزَالُ الشُّكْرُ عَلَيْهَا يَنْتَهِي فِي الاحْتِفَالِ وَالاتِّصَالِ إِلَى الأَمَدِ الأَقْصَى؛ فَيَالَهَا مِنْ مَسَرَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَمِنَّةٍ جَسِيمَةٍ، وَبِشَارَةٍ كَامِلَةٍ عَمِيمَةٍ، تُشْرِقُ بِهَا كُلُّ جِهَةٍ نُوراً، وَتَكَادُ تَهَشُّ إِلَيْهَا المَغَانِي فَضْلاً عَنْ أَهْلِهَا بَهْجَةً وسُرُوراً، وَتَشْمَخُ بِهَا كُلُّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي المُسْلِمِينَ عِزَّةً وَظُهُوراً، وَيَدْعُو لَهَا الكَافِرُونَ حَيْثُ كَانُوا ثُبُوراً. وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا صَنَعَ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ فِي هَذِهِ الحَرَكَةِ السَّنِيَّةِ مِنَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا عَرَّفَهَا فِيهَا مِنَ التَّمْكِينِ وَالتَّكْرِيمِ وَالتَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ.

وَلِعَبْدِ الحَضْرةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- صَبَابَةٌ إِلَى لِقَائِهَا وَحِرْصٌ عَلَيْه، وَرَغْبَةٌ أَكِيدَةٌ فِيهِ وَتَشَوُّقٌ إِلَيْه، وَلَوْلَا أَنَّهُ لَا يُمْكِنُه الإِقْدَامُ عَلَى حَرَكَةٍ إِلَّا بِإِذْنِهَا الكَرِيمِ لَطَوَى المَرَاحِلَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَسَابَقَ الأَرْوَاحَ فِي الوِفَادَةِ عَلَيْهَا؛ وَلَكِنَّهُ يَتَحَمَّلُ بَرْحَ الشَّوْقِ فِي انْتِظَارِ الإِذْنِ الكَرِيمِ وَلَوْ أَقَامَ عَلَى الجَمْر، وَلَا يُقْدِمُ عَلَى القُدُومِ بِغَيْرِ أَمْر؛ وَفَضْلُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ- أَيَّدَهَا اللهُ- يُسْعِفُهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَرْغُوبِه، وَيُيَسِّرُ عَلَيْهِ فِي مَطْلُوبِه؛ بِفَضْلِ اللهِ.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَبَعْدُ؛ وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مَا عَوَّدَهَا مِنْ نَصْرِ أَعْلَامِهَا، وَإِعْلَاءِ مَقَامِهَا، وَأَوْزَعَ شُكْرَ إِحْسَانِهَا العَمِيمِ وَإِنْعَامِهَا. فَإِنَّ عَبْدَ نِعَمِهَا وَآلَائِهَا، لَمْ يَزَلْ يَشْتَدُّ بِهِ الحِرْص عَلَى لِقَائِهَا، وَيَتَّصِلُ مِنْهُ التَّشَوُّفُ إِلَى إِحْيَاءِ النَّفْسِ وَتَمْكِينِ الأُنْسِ بِرُؤْيَةِ عَلَائِهَا، وَيَنْتَهِي بِهِ الشَّوْقُ إِلَيْهَا إِلَى غَايَةِ مُنْتَهَاه، وَيَتَجَاوَزُ بِهِ الكَلَفُ بِمُشَاهَدَتِهَا حَدَّهُ وَمَدَاه؛ وَلَمْ تَزَلْ رَغْبَتُهُ إِلَى اللهِ فِي تَعْجِيلِ لِقَائِهَا شَدِيدَة، وَيَدُ ضَرَاعَتِهِ فِي تَيْسِيرِ ذَلِكَ مَمْدُودَة، وَثِقَتُهُ بِالإِسْعَافِ فِي ذَلِكَ بِعَظِيمِ فَضَائِلِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ وَعَمِيمِ أَيَادِيهَا لَمَعْهُودَة؛ إِلَى أَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُهَا المُعَظَّمُ الكَرِيمُ، بِمَا اقْتَضَاهُ إِنْعَامُهَا السَّابِغُ وَفَضْلُهَا العَظِيم، مِنْ إِسْعَافِ الرَّغْبَةِ فِي الحَرَكَةِ إِلَيْهَا، وَقَبُولِ الضَّرَاعَةِ فِي الإِذْنِ بِالوُرُودِ عَلَيْهَا،



فكَانَ لَهُ وُرُودَ المَاءِ عَلَى الغَلِيل وَالشِّفَاءِ عَلَى العَلِيل، وَنَزَلَتْ بِهِ عَلَى العَبْدِ الرَّحْمَة، وَكَبُرَتْ لَدَيْهِ بِوُرُودِهِ النِّعْمَة، وَعَظُمَ بِهِ السُّرُورُ، وَسُرَّ بِهِ البَشِير، وَمَا عَسَى أَنْ يُقَرِّرَ العَبْدُ مِنْ سُرُورِهِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَشُكْرِهِ عَلَيْهَا؛ وَسُرُورُهُ بِهَا لَا يُحِيطُ بِهِ حَدّ، وَشُكْرُهُ عَلَيْهَا لَا يَأْخُذُه حَصْرٌ وَلَا يَضْبطُهُ عَدّ؛ واللهُ يُجازِيهَا عَلَى أَيَادِيهَا المُتَظَاهِرَة، وَمَلَابِسِ نِعَمِهَا الفَاخِرَة، وَيُبَلِّغُهَا كَافَّةَ أَمَلِهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَبَعْدُ. وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ أَسْبَابَ السُّعُود، ويَسَّرَ لَهَا إِنْجَازَ الفَتْحِ المَوْعُود. فَإِنَّ عَبْدَ نِعْمَتِها البَاذِل جُهْدَهُ فِي خِدْمَتِهَا، قَدْ وَصَلَ عَلَى هَذَا المَوْضِعِ المُكَرَّم كَلَأَهُ اللهُ مُسْتَبْشِراً بِالقُرْبِ مِنْ رَحْمَتِهَا، مُتَبَرِّكاً بِالدُّنُوِّ مِنْ كَرَمِ لَحْظَتِهَا، وَاثِقاً مِنَ الخَيْرِ العَظِيم، وَالالْتِفَاتِ الكَرِيم، بِمَا يَثِقُ بِهِ مَنْ كَانَ فِي الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- غَايَتُهُ المَقْصُودَة، وَحَرَمُه المُيَمَّمُ وشَرِيعَتُه المَوْرُودَة، وَعَلِمَ اللهُ مَا عِنْدَهُ مِنَ التَّشَوُّقِ إِلَى لِقَائِهَا الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ البَرَكَات، وَمِنْ شُكْرِ اللهِ على تَأَتّي الحَرَكَةِ نَحْوهَا الَّتِي هِيَ أَسْعَدُ الحَرَكَات، وَمِنَ الحِرْصِ عَلَى تَعْجِيلِ الوُصُول، وَالعَمَلِ عَلَى الجِدِّ فِي السَّيرِ مُسَارَعَةً إِلَى المَرْجُوِّ مِنْ لِقَائِهَا وَالمَأْمُول.

وَالعَبْدُ الآنَ مُتَوَجِّهٌ فِي إِثْرِ هَذَا المَكْتُوب، وَمُنْحَفِزٌ جُهْدَهُ -إِنْ شَاءَ اللهُ- فِي بُلُوغِ المَطْلُوبِ مِنْ رُؤْيَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ وَنَيْلِ المَرْغُوب؛ وَمُتَضَرِّعٌ إِلى اللهِ في أن يَجْعَلَ تَضَرُّعَهُ فِي كُلِّ حَالِهِ وَاقِعاً بِوَفْقِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَة، جَارِياً عَلَى حَسَبِ أَنْحَائِهَا الكَرِيمَةِ وَأَغْرَاضِهَا العَلِيَّة، مُحْتَفِياً فِي الحَالَيْنِ الدُّنْيَوِيَةِ وَالأُخْرَوِيَة؛ واللهُ يَنْفَعُهُ بِمَا يَسْتَصْحِبُهُ فِي حَقِّهَا مِنَ العَمَلِ وَيُخْلِصُهُ فِي مَرْضَاتِهَا مِنَ النِّيَّة.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَإِلَى هَذا. وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ القُدْسِيَّةِ مَا عَوَّدَهَا مِنْ نَصْرِ أَعْلَامِهَا الخَوَافِق، وَإِمْضَاءِ سُيُوفِهَا البَوَارِق، وَفَتَحَ لَها الفَتْحَ المَوْعُودَ فِي المَغَارِبِ وَالمَشَارِق؛ فَإِنَّ بَرَكَتَها لَا تَزَالُ تتكَفَّلُ لِبِلَادِهَا بِالأَمْرِ في سِرْبِهَا، وَتُولِجُ أَهْلَهَا بِالسَّلْمِ المُسْتَوْثَقِ مِنْ



سَوْرَةِ حَرْبِهَا؛ وَحَظُّ هَذِهِ الجِهَاتِ مِنْ ذَلِكَ- وَالحَمْدُ لِلَّهِ- حَظٌّ كُبَار، وَالسَّلْمُ قَدْ ضَمِنَتْ لَها أَلَّا يَرْتَفِعَ فِيهَا عَلَى فِئَتَيْنِ مُتَقَاتِلَتَيْنِ قَتَامٌ وَلَا غُبَار، وَلَا يُرَاعُ لَها سِرْبٌ وَلَا صُوَار، وَلَا يَضِيرُهَا دُنُوٌّ مِنْ بِلَادِ العَدُوِّ وَلَا جُوَار.

وَقَدْ كَانَ نَشَأَ بِهَذِهِ الجِهَاتِ فِي هَذِهِ الأَيَّام نَاكِثٌ غَادِرٌ، مُجْرِمٌ فَاجِرٌ، ظَهَرَ فَسَادُهُ لِكُلِّ إِنْسَان، وَابْتَدَرَ الشَّكْوَى مِنْهُ بِكُلِّ لِسَان؛ وَكَانَ يَهْتَصِرُ أَفْنَانَ الفِتْنَةِ اهْتِصَاراً وَلَا يُحاشِي مِنَ الإِذَايَةِ مُسْلِمِينَ وَلَا نَصَارَى؛ فَتُقُدِّمَ إِلَيْهِ بِالنَّهْيِ اعْتِذَاراً وَإِنْذَاراً، وَدُعِيَ لِمَا يُحْيِيهِ فَلَمْ يَزِدْهُ الدُّعَاءُ إِلَّا فِرَاراً[1]، ثُمَّ اجْتَرَأَ عَلى أَنْ نَهَدَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ رِعَاءِ النَّصَارَى قَدْ أَظَلَّهُمُ السَّلْمُ بِسِتَارَتِه، وَأَدْخَلَهُمُ العَهْدُ فِي خِفَارَتِه؛ فَرَمَاهُمْ وَغَنَمَهُم؛ وَأَتَى بَطَلْيَوْس بِأَحَدٍ وَعِشْرِينَ أَسِيراً مِنْهُمْ وَالصُّلْحُ قَدْ عَلَاهُمْ فُسْطَاطُه، وَوَسِعَتْهُمْ عُهُودُهُ اللَّازِمَةُ وَأَشْرَاطُه؛ فَأَخَذَهُ اللهُ بِذُنُوبِهِ أَخْذاً وَبِيلاً[2]، وَجَاءَ أَجَلُهُ فَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ إِلَى الاسْتِيخَارِ سَبِيلًا؛ وَحَكَمَتِ المُحَافَظَةُ عَلَى السَّلْمِ بِتَعْجِيلِ إِطْلَاقِهِمْ، وَحَلِّ وَثَاقِهِمْ، حَذَراً مِنْ نَكْثِ العَهْدِ وَالمِيثَاق، وَخَوْفاً أَنْ يَنْجُمَ نَاجِمُ فِتْنَةٍ أَوْ نِفَاق، أَوْ يَسْتَوِيَ ضَرَرُ الكَفَرَةِ عَلَى سَاق. فَانْصَرَفَ القَوْمُ وَصَدَرَ الرِّعَاء[3]، وَهُنَالِكَ ارْتَفَعَ النِّدَاءُ إِلَى اللهِ بِتَخْلِيدِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَالدُّعَاء. وَعَلِمَ النَّاسُ أَنَّ عَدُوَّهُمُ المُفْسِد قَدْ اسْتُؤْصِلَتْ مِنْهُ شَأْفَة، وَلَمْ تَأْخُذْ بِهِ فِي دِينِ اللهِ وَصَلَاحِ المُسْلِمِينَ رَأْفَة؛ فَهُمْ لِخَلِيفَتِهِمْ دَاعُون، وَلِأَمَانَتِهِ وَعَهْدِهِ رَاعُون[4].

وَعَلِمَ حِزْبُ الرُّوم أَيْضاً أَنَّ النَّاكِثَ الَّذِي كَانَ يَقْدَحُ فِي سَلْمِهِ، قَدْ أَخَذَهُ اللهُ بِظُلْمِه، وَرَأَوْا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُجْرِمِين[5]، وَكَيْفَ يُحْفَظُ المِيثَاقُ عِنْدَ المُسْلِمِينَ. فَالرُّومُ بِذَلِكَ مُغْتَبِطُون، وَبِحَبْلِ السَّلْمِ مُعْتَصِمُونَ جَمِيعاً مُرْتَبِطُون؛ وَقَدِ اتَّصَلَتْ رِجَالُهُمْ

(1) فيه نفس قرآني.
(2) فيه إشارة إلى القرآن الكريم.
(3) فيه اقتباس.
(4) فيه إشارة قرآنية.
(5) فيه إشارة إلى القرآن الكريم.



بِرِجَالِ المُسْلِمِينَ وَغَنَمُهُمْ بِغَنَمِ المُسْلِمِينَ؛ فَالكُلُّ في هَذِهِ الأَحْوَازِ مُخْتَلِطُون، كِلاَ الفَرِيقَيْنِ يَرْتَعِي في المَرْعَى الوَاحِد، وَيَلْتَقِي بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ وَهُوَ لِآياتِ السَّلْمِ غَيْرُ جَاحِد؛ وَالبِلَادُ خِلَالَ ذَلِكَ تَرْتَضِعُ ثَدْيَ هَذَا الأَمْرِ الشَّامِل، وَتَثِقُ بِمَا يَصْنَعُ اللهُ لِخَلِيفَتِهِ في الأَرْضِ مِنَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ الكَامِل.

وَقَدْ وَصَلَ مُتَجَسِّسُونَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ فَأَعْلَمُوا بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الاغْتِبَاطِ بِسَلْمِهِم، وَبِما قَدْ تَقَرَّرَ مِنْ نَصْرِ اللهِ لِأَمْرِهِ العَزِيزِ عَلى خَالِقِهِ فِي عِلْمِهِمْ؛ وَأَنْبَأُوا أَنَّ ابْنَ الرِّيق، وَصَاحِب لِيُونَ تَعَاقَدَا وَتَعَاهَدَا بَيْنَهُمَا سَلْماً؛ اخْتَلَفَ النَّاقِلُونَ في أَمَدِهَا فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهَا لِأَمَدٍ طَوِيل، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّها لِعَدَدٍ قَلِيل.

وَأَمَّا مَا كَانَ مِن «ابْنِ الرِّيق» بِزَعْمِهِ مِنْ تَوْجِيهِ القُمْطِ إِلَى الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- فَإِنَّما كَانَ رَامَ ذَلِكَ إِذْ كَانَ «إِذْفُونْش» يَرُومُ تَوْجِيهَ ابْنِ حَرِيقٍ إِلَيْهَا، وَإِشْخَاصِهِ لِلْوِفَادَةِ عَلَيْهَا؛ فَلَمَّا لَمْ يُوَجِّهْ «إِذْ فُونْش» رَسُولَه، بَلَغَ «ابنُ الرِّيقِ» في نَقْضِ تِلْكَ العَزِيمَةِ سُولَه. وَذَلِكَ مِنْ خِدَاعِ المُشْرِكِينَ، وَمَكْرِ الكَافِرِينَ ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾(1).

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ القُدْسِيَّةُ المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورَةُ العَلِيَّةُ الطَّاهِرَةُ الزَّكِيَّة. حَضْرَةُ سَيِّدِنا الخَلِيفَةِ الأَهْدَى الإِمَامِ المُبارَكِ الأَزْكَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الأَئِمَّةِ الهَادِين، الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ سَادَاتِنَا أُمَرَاءِ المُؤْمِنِين، رضي الله عنهم أَجْمَعِين، وَأَدَامَ تَأْيِيدَ أَمْرِهَا، وَإِعْزَازَ نَصْرِها، وَوَصَلَ تَمْكِينَ عِزِّهَا وَإِسْعَادَ عَصْرِهَا، وَوَالَى عُلُوَّهَا وَظُهُورَهَا، وَضَاعَفَ بَهْجَتَها وَسُرُورَها، وَأَجْرَى مَا يُقِرُّ العُيُون، وَيُصَدِّقُ الآمالُ فِيهَا الظُّنُون، أَحْوَالَهَا كُلَّهَا وَأُمُورَهَا. عَبْدُها الطَّائِف بِحَرَمِهَا، العَارِف بِحَقِّ فَضْلِهَا العَظِيمِ وَكَرَمِها، المُتَضَرِّع إِلَى اللهِ في شُكْرِ مَا فَاضَ عَلَيْهِ مِنْ جَزِيلِ نِعَمِها، اللَّائِذ بِظِلِّ أَعْلاَمِهَا، الدَّاعِي بِدَوَامِ أَيَّامِهَا وَالحِفْظِ لِعَلِيِّ مَقَامِها، المُعْتَصِم بِمَتْنِ حَبْلِهَا، المُسْتَنِد إِلَى وَارِفِ ظِلِّهَا عَبْدُهَا، إِبْرَاهِيمُ:

(1) سورة الأنفال، الآية: 30.





سَلامُ اللهِ الكَرِيم، الطَّيِّبُ المُبَارَكُ العَمِيم، يَخُصُّ الحَضْرَةَ العُظْمَى، وَالمَقَامَ الأَشْرَفَ الأَسْمَى، كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى آلائِهِ العَمِيمَة، وَنِعَمِهِ الجَسِيمَة، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِه المَخْصُوصِ بِالدَّرَجَةِ العَظِيمَة، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُوم، المَهْدِيِّ المَعْلُوم، بِالدَّلَائِلِ الوَاضِحَةِ وَالخِلَالِ الكَرِيمَة، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الهَادِينَ المُرْشِدِينَ، الَّذِينَ صَمَّمُوا في نَصْرِ الدِّينِ تَصْمِيمَه، وَرَامُوا تَكْمِيلَ أَمْرِهِ العَزِيزِ وَتَتْمِيمَه، وَمُوَالاَةِ الدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الخَلِيفَةِ السَّعِيد، المُبارَكِ الحَمِيد، أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بِنَصْرٍ يَصِلُ بِحَدِيثِهِ قَدِيمَه، وَفَتْحٍ يُعْجِزُ الأَقْلَامَ وَالأَفْهَامَ أَنْ تَصِفَ عَظِيمَه.

فَكَتَبَ عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ العَالِيَة، كَتَبَ اللهُ لَها سُعُوداً مُتَضَاعِفَةً مُتَنَاصِرَة، وَعِزَّةً لَا تَزَالُ الأَفْهَامُ عَنْهَا قَاصِرَة، مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ -حَرَسَهَا اللهُ- وَلِأَمْرِهَا العَزِيزِ- أَدَامَها اللهُ- مَا عَوَّدَ مِنْ وُفُورِ الخَيْرَات، وَظُهُورِ البَرَكَات، وَتَعَرُّفِ الصُّنْعِ الجَمِيل، وَالتَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيل، في السَّكَناتِ كُلِّهَا وَالحَرَكَات، وَوُجُوبِ التَّعْظِيمِ المَفْرُوضِ لَهُ عَلَى الأُمَّةِ فَرْضَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاة، وَللهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ الَّذِي يَقْتَضِي مَزِيدَ النِّعَمِ وَدَوَامَهَا، وَيَسْتَدْعِي جَدِيدَ القِسَمِ وَيُضَاعِفُ أَقْسَامَهَا. وَشُكْرُ الحَضْرةِ الإِمَاميةِ -أَيَّدَها اللهُ- أَوْجَبُ مَا يُبْدَأُ بِهِ الذِّكْرُ وَيُخْتَم، وَالنَّصِيحَةُ في خِدْمَتِها أَوْكَدُ مَا يُكَمَّلُ مِنَ الأَعْمَالِ وَيُتَمَّم، وَالتَّمْشِيَةُ لِأَغْرَاضِها السَّنِيَّة، وَالامْتِثَالُ لِأَوَامِرِهَا العَلِيَّة، أَهَمُّ مَا يُعْتَنَى بِهِ وَيُتَهَمَّم، وَبَابُ رِضَاهَا أَسْعَدُ مَا يُقْصَدُ مِنَ الأَبْوابِ وَيُتَيَمَّم؛ وَعَبْدُهَا مِنْ ذَلِكَ عَلَى أَوْفَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ مَمَالِيكُ إِحْسَانِهَا، وَأَرِقَّاءُ امْتِنَانِها، الشَّاكِرُونَ لِعَطْفِها وَحَنَانِها، العَارِفُونَ بِمَا أَوْجَبَ اللهُ لِعَظِيمِ شَانِهَا وَعَلِيِّ مَكَانِهَا؛ وَاللهُ يُعِينُهُ عَلَى مَا يُحْظِيهِ بِرِضَاهَا، وَيَنْشُرُ عَلَيْهِ جَنَاحَ رُحْمَاهَا، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ فَضْلِهَا وَنُعْمَاهَا.

وَقَدْ كَانَ الوُصُولُ إِلَى هَذَا المَوْضِعِ بِبَرَكَةِ الحَضْرةِ الإِمَامِيةِ أَفَاضَ اللهُ أَنْوَارَهَا، كَما مَلأَ بِبَهْجَةِ الْتِفَاتِهَا الكَرِيمِ نُجُودَ الأَرْضِ وَأَغْوَارَهَا، عَلى أَحْسَنِ حَالٍ مِنَ التَّيْسِير، فِي حَالَتَيِ الحُلُولِ وَالمَسِير؛ تَلُوحُ لَهُ وَلِمَنْ مَعَهُ البَرَكَةُ الإِمَامِيَةُ بِكُلِّ سَبِيل، وَيَجِدُ بِهِ



الخَيْرَ أَجْمَعَهُ في كُلِّ مُعَرَّسٍ وَمَقِيل. وَاللهُ يَحْرُسُ الحَضْرَةَ الإِمَامِيَةَ وَيَحْفَظُ مَا وَهَبَ لَهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَالبَرَكَةِ الخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، الَّتي هِيَ -بِفَضْلِ اللهِ- كُلَّ يَوْمٍ في زِيَادَة؛ فَقَدْ كانَتْ أَصَابَتِ النَّاسَ شِدَّةٌ ظَاهِرَةٌ فِي العَام، بِمَا كَانَ مِنْ غَلَاءِ السِّعْرِ وَعَدَمِ الطَّعَام؛ إِلَى أَنْ تَدَارَكَ اللهُ المُسْلِمِينَ بِبَرَكَةِ كَفَالَتِها الحَمِيدَة، وَإِيَالَتِهَا السَّعِيدَة، فَظَهَرَتْ عَلَى هَذِهِ البِلَادِ عُمُوماً وَعَلَى هَذِه الجِهَةِ خُصُوصاً بَرَكَةُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ وَسَعَادَتُها، وَاطَّرَدَتْ لَهَا -وَالحَمْدُ للهِ- طَرِيقَتُها في الالْتِفَاتِ الإِمَامِيِّ وَالنَّظَرِ العَلِيِّ وَعَادَتُها؛ فَالرَّخَاءُ هُنَا الآنَ -وَالحَمْدُ للهِ- كَائِنٌ مَوْجُود، وَالمَقَامُ الإِمَامِيُّ مَشْكُورٌ بِكُلِّ لِسَانٍ عَلى الْتِفَاتِهِ الجَمِيلِ وَمَحْمُود؛ وَالنَّاسُ لِخَلِيفَتِهِمْ وَإِمَامِهِمْ دَاعُون، وَلِأَمَانَتِهِ وَعَهْدِهِ رَاعُون، وَفِي مَرْضَاةِ اللهِ وَمَرْضَاتِهِ سَارِعُون.

وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ جُمْلَةِ بَرَكَاتِها بِالهُدْنَةِ وَالعَافِيَة، وَمَوَارِدِ الأَمْنَةِ الصَّافِيَة، فَجَمِيعُهُمْ مُسْتَبْشِرُون، وَفي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي مُنْتَشِرُون، يَشْكُرُونَ اللهَ عَلَى النِّعَمِ سِرّاً وَجِهَاراً، وَيَشْتَغِلُونَ بِضَمِّ زَرْعِهِمْ آمِنِينَ حَيْثُ كَانُوا لَيْلاً وَنَهَاراً، مَبْسُوطَةٌ لَهُم الآمَالُ مُنْشَرِحَةٌ مِنْهُمُ الصُّدُور، صَالِحَةٌ لَهُمْ بِفَضْلِ اللهِ وَبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- الأَحْوالُ كُلُّهَا وَالأُمُور، وَمُتَسَاوِيَةٌ في الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ المَوَاسِطُ مِنْ أَوْطَانِهِمْ وَالثُّغُور، وَقَدْ فَاضَ مِنَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ عَلَى جَمِيعِهِمُ النُّور، وَعَمَّهُمْ بِبَرَكَتِهَا الفَرَحُ المُقْتَبَلُ وَالسُّرُور. وَاللهُ تَعالَى يَصِلُ النِّعَمَ بِتَخْلِيدِها وَيُبْقِيها، وَيُجْرِي الأَحْوَالَ في كُلِّ حَالٍ وَاسْتِقْبَالٍ عَلى مَا يُرْضِيهَا.

وَعَبْدُها الآنَ مُشَمِّرٌ عَنْ سَاعِدِ الاجْتِهَادِ جُهْدَ الاسْتِطَاعة، في تَمْشِيَةِ أَغْرَاضِها الكَرِيمَةِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهَا المُطَاعَة، لَا يَغْفُلُ عَنْ أَدَاءِ وَاجِبَاتِها، وَشُكْرِ هِبَاتِها بِحَوْلِ اللهِ سَاعَة؛ وَاللهُ يُوزِعُهُ شُكْرَ نِعْمَتِها، وَيُنْجِدُهُ عَلى مَا يُزْلِفُهُ مِنْ رَحْمَتِهَا. وَلِلْمَقَامِ الإِمَامِي -أَيَّدَهُ اللهُ- الفَضْلُ العَظِيم، وَالطَّوْلُ العَمِيم، فِي الإِمْدَادِ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ الَّذِي هُوَ المُوصِلُ بِفَضْلِ اللهِ إِلَى خَيْرِ الدَّارَيْن، وَالكَفِيلُ مِنَ اللهِ بِنَيْلِ الحُسْنَيَيْن. وَاللهُ يُدِيمُ أَيَّامَه، وَيَنْصُرُ أَعْلَامَه، وَيَشْكُرُ إِحْسَانَهُ العَمِيم وَإِنْعَامَه، وَيَمُدُّهُ بِمَوادِّ النَّصْرِ وَالتَّمْكِين، وَالفَتْحِ



المُبين، بِمَنِّهِ وَنُعْمَاه، لَا رَبَّ سِواه. وَسَلامُ اللهِ الكَرِيمُ العَمِيمُ الأَحْفَلُ، الأَحْفَى عَلَى الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ القُدْسِيَّةِ كَثِيراً أَثِيراً، وَرَحْمَةُ اللهِ تَعالَى وَبَرَكَاتُه. كُتِبَ في المُوفَى عِشْرِينَ لِصَفَر سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَسِتِّ مِائَة.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَةُ القُدْسِيَّةُ المُعَظَّمَةُ المُكَرَّمَةُ المُبَارَكَةُ العَلِيَّةُ، المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورةُ الطَّاهِرَةُ الزَّكِيَّةُ. مَطْلَعُ الأَنْوارِ وَالأَضْوَاء، وَيَنْبُوعُ الخَيْرَاتِ المُنْسَكِبَةِ الأَنْوَاء. حَضْرَةُ سَيِّدِنا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الأَئِمَّةِ المُرْشِدِينَ، أَفَاضَ اللهُ أَنْوَارَهَا، وَنَصرَ أَنْصَارَهَا، وَشَكَرَ إِيرَادَها في الإِنْعامِ وَإِصْدَارَها، وَبَلَّغَها في الدَّارَيْنِ بِنَيْلِ الحُسْنيَيْن آمَالَهَا وَأَوْطَارَهَا، كَمَا عَمَّ بِمَوَادِّ فَضْلِهَا العَظِيمِ، وَطَوْلِهَا العَمِيمِ، أَصْقَاعَ الأَرْضِ وَأَقْطَارَها؛ عَبْدُ جَلَالِهَا، وَمَمْلُوكُ أَفْضَالِها، المُعْتَصِمُ بِوَافِرِ ظِلَالِها، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ في شُكْرِ الْتِفَاتِهَا الكَرِيمِ وَاهْتِبَالِها، الدَّاعِي لِحِرَاسَةِ ما بَهَرَ مِنْ كَمَالِها؛ إِبْرَاهِيمُ:

سَلَامُ اللهِ الكَرِيمِ وَتَحِيَّتُه، عَلَى الحَضْرَةِ العَلِيَّةِ القُدْسِيَّةِ وَرَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُه؛ وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى آلَائِهِ العَمِيمَةِ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ؛ فَكَتَبَ عَبْدُ نُعْمَاهَا، وَمُسْتَرَقُّ عَطْفِهَا وَرُحْمَاهَا، كَتَبَ اللهُ لَها عُلُوَّ المَقَام، وَمُطَاوَعَةَ اللَّيَالِي وَالأَيَّام؛ مِنْ إِشْبِيلِيَّةَ- حَرَسَهَا اللهُ- وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ خَلَّدَ اللهُ أَيَّامَهَا، وَأَعْلَى مَقَامَهَا، تَتَدَفَّقُ شَآبِيبُهَا، وَتَصْفُو بُرُودُهَا وَجَلَابِيبُها؛ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً تَدْعُو الأَلْسِنَةُ المَزِيدَ فَيُلَبِّيها وَيُجِيبُها. وَمَا يَنْطَوِي عَبْدُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ عَلَيْهِ وَيَرْجِعُ إِلَيْهِ مِنَ النَّصِيحَةِ في خِدْمَتِهَا، وَالاحْتِفَالِ في شُكْرِ الطَّارِفِ وَالتَّالِدِ مِنْ نِعَمِها، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى تَمْشِيَةِ أَغْرَاضِهَا الكَرِيمَةِ وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهَا المُطَاعَة، بِغَايَةِ الوُسْعِ وَجَهْدِ الاسْتِطَاعَة، حُكْمٌ يُلْتَزَمُ التِزَاماً، وَعَمَلٌ يُغْتَنَمُ البِدَارُ إِلَيْهِ اغْتِنَاماً، وَاللهُ يُعِينُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ عَلَى الوَاجِبِ الفَرْض، المَحْظِيِّ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الجَزاءِ وَالعَرْض.



وَقَدْ وَرَدَ عَلَى عَبْدِ إِحْسَانِها، أَوْرَدَ اللهُ عَلَيْهَا وُفُودَ السَّعْدِ البَاهِرِ، وَالصُّنْعِ الجَمِيلِ المُتَظاهِرِ، مَا أَنْعَمَتْ بِهِ؛ شَكَرَ اللهُ إِنْعَامَهَا الهَامِي، وَنَصَرَ مَقَامَهَا السَّامِي، مِنَ الظَّهِيرِ الكَرِيمِ المُبارَكِ الَّذِي أَسْبَغَتْ بِهِ النِّعْمَةَ عَلَيْه، وَضَاعفَتِ المِنَّةَ لَدَيْه، وَجَرَتْ فِيهِ عَلَى عَوَائِدِهَا الكَرِيمَةِ فِي التَّنْوِيهِ بِهِ وَحُسْنِ الالْتِفَاتِ إِلَيْه، وَضَمَّنَتْهُ مِنَ التَّشْرِيفِ، وَالإِحْسَانِ المُنِيفِ، مَا لَمْ تَزَلْ بِعَطْفِهَا وَرَحْمَتِهَا.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- تَغْدُو كَمَا عُرِفَتْ فِي حُلَّةِ الجَمَالِ وَتَرُوح، وَتَبْدُو عَلَى مَا أُلِفَتْ مِنَ الكَمَالِ وَتَلُوح؛ وَلِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ الَّذِي بِهِ يَتَضَاعَفُ الخَيْرُ المَمْنُوح؛ وَمَمْلُوكُ إِحْسَانِها عَلَى أَوْفَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ المُخْلِصُونَ النَّاصِحُونَ مِنْ عُبْدَانِها مِنَ الجِدِّ فِي خِدْمَتِهَا، وَالتَّضَرُّعِ إِلَى اللهِ فِي شُكْرِ نِعْمَتِها، وَالمُحَافَظَةِ عَلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِهَا المُطَاعَة، وَالاجْتِهادِ فِي تَمْشِيَةِ أَغْرَاضِها الكَرِيمَةِ جُهْدَ الاسْتِطَاعَة؛ وَاللهُ يُعِينُهُ عَلَى ابْتِغَاءِ مَرْضَاتِهَا، وَأَدَاءِ مُفْتَرَضَاتِها، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ نِعْمَتِها، وَيَنْشُرُ عَلَيْهِ جَنَاحَ رَحْمَتِها.

وَأَحْوَالُ هَذِهِ الجِهَةِ بِبَرَكَتِها -وَالحَمْدُ لِلَّهِ- فِي صَلَاحٍ يَتَفَتَّحُ بَابُه، وَنَجَاحٍ تَتَأَكَّدُ أَسْبَابُه، وَأَمْنٍ يَتَمَهَّدُ بِالسَّعادَةِ الإِمَامِيَّةِ -وَالحَمْدُ لِلَّهِ- جَنَابُه؛ وَبَعْدُ:

وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مَا عَوَّدَهَا مِنَ السَّعَادَةِ وَأَجْرَاهَا مِنَ العِنَايَةِ الرَّبَّانِيَةِ عَلَى حُسْنِ العِمَادَة فَإِنَّهُ وَرَدَ عَلَى عَبْدِ عَلائِهَا كِتَابُهُ المُعَظَّمُ الكَرِيمُ أَعْظِمْ بِهِ مِنْ وَارِدٍ بِالسُّرُور، وَأَكْرِمْ بِهِ مِنْ وَاصِلٍ لِمَا فِيهِ صَلَاحُ الأُمُور؛ فَتَلَقَّاهُ العَبْدُ بِمَا يَجِبُ لِمِثْلِهِ، مِنْ تَعْظِيمِ قَدْرِهِ وَشُكْرِ فَضْلِه؛ وَالنَّصِيحَةُ فِي خِدْمَتِها عَقِيدَةٌ دِينِيَّة، وَقَاعِدَةٌ شَرْعِيَّة، بِهَا يَصِحُّ كَمَالُ الإِيمَان، وَيُنَالُ رِضَا الرَّحْمن؛ وَالَّذِي عِنْدَ عَبْدِ نِعَمِهَا، وَمَمْلُوكِ كَرَمِهَا، مِنَ المُوَاصَلَةِ لِهَذا الاِعْتِقَاد، وَمُوَالَاة الجِدِّ فِي طَاعَتِهَا وَالاجْتِهَاد، لَا يَزَالُ مَعَ الأَيَّامِ فِي ازْدِيَاد، وَلَا يَنْفَكُّ عَلَى مَا يَرْجُو بِهِ الفَوْزَ بِالنَّجَاةِ فِي المِيعَاد؛ وَاللهُ يُوزِعُ الجَمِيعَ شُكْرَ نِعْمَتِهَا، وَيَنْشُرُ عَلَى الكُلِّ هَنَاءَ رَحْمَتِهَا، وَيَنْهَضُ بِوَاجِبَاتِ خِدْمَتِها؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. وَبَعْدُ:



وَصَلَ اللهُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ أَسْبَابَ الظُّهُور، وَجَعَلَ عَلى وَفْقِ اخْتِيَارِها جَرْيَ الأُمُور.

فَإِنَّهُ وَرَدَ عَلَى عَبْدِ إِحْسَانِهَا، وَمُسْتَرَقِّ لَحْظِهَا وَامْتِنَانِها، كِتَابُها المُعَظَّمُ الكَرِيمُ بِمَا اقْتَضَتْهُ نِعْمَتُها، وَتَضَمَّنَهُ فَضْلُهَا وَرَحْمَتُهَا، مِنَ الإِنْعامِ وَالتَّنْوِيه، وَالالْتِفَاتِ المُتَنَاهَى فِيه، وَالغَرَضِ الكَرِيمِ الَّذِي يَسْتَوْعِبُ جَمِيعَ الخَيْرِ وَيَسْتَوْفِيه؛ فَطَارَتْ بِالعَبْدِ عِنْدَ وُصُولِهِ أَجْنِحَةُ السُّرُورِ وَالجَذَلِ، وَبَلَغَ بِمُضَمَّنِ فُصُولِهِ غَايَةَ المُتَمَنَّى وَنِهَايَةَ الأَمَل، وَتَضَرَّعَ إِلَى اللهِ فِي أَنْ يَتَوَلَّى مِنْ شُكْرِهِ مَا لَيْسَ لِمَخْلُوقٍ بِهِ مِنْ قِبَل، وَجَعَلَ التَّعْظِيمَ لَهُ وَالعِلْمَ بِقَدْرِهِ شِعَارَه، وَطَفِقَ يَقْطَعُ بِشُكْرِ مُتَضَمَّنِهِ لَيْلَهُ وَنَهَارَه، وَيَرَى أَنَّهُ إِذَا بَذَلَ فِي الإِعْلاَمِ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ شُكْرِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الوُسْعَ وَالجُهْد، وَحَمَلَ نَفْسَهُ مِنَ التَّوَغُّلِ فِي شَرْحِهِ الجَهْد، وَتَجَاهَدَ فِي الاحْتِفَالِ فِي وَصْفِهِ الجِد، فَلَمْ يُوفِ مَعَ ذَلِكَ حَقَّ الإِعْلاَمِ بِكُنْهِ مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ شُكْرِ مَا غَمَرَهُ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي يَتَفَيَّأُ ظِلاَلَهَا، وَيَسِيغُ زُلاَلَها؛ وَمَا خَصَّهُ مِنَ العِنَايَةِ الكَرِيمَةِ الَّتِي يَلْتَحِفُ بُرُودَ إِحْسَانِها، وَيَقْتَطِفُ ثَمَرَ عَطْفِها وَحَنَانِهَا؛ فَقُصَارَاهُ أَنْ يَعْتَرِفَ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ بِالعَجْزِ عَنْ شُكْرِهَا، وَيَتَضَرَّعُ إِلَى اللهِ فِي تَأْيِيدِهَا وَنَصْرِهَا، وَمُجَازَاتِها عَلَى نِعَمِهَا الَّتِي تَعْجِزُ الأَلْسِنَةُ عَنْ حَصْرِهَا.

وَأَمَّا مَا اقْتَضَاهُ الكِتَابُ المُعَظَّمُ الكَرِيمُ مِنْ كَفِّ أُولاَئِكُمُ الَّذِينَ تَأَلَّمَ العَبْدُ مِنْهُم، وَمِمَّا صَدَرَ عَنْهُم؛ فَذَلِكُمْ نَظَرٌ كَرِيمٌ مُحْسِب، وَتَنْوِيهٌ عَظِيمٌ مُطْنِب، وَفَضْلٌ فِيهِ المَقْنَع، وَفِي نَظَرِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ الخَيْرُ أَجْمَع. وَلَيْسَ الآنَ إِلاَّ الهُدْنَةُ وَالسُّكُون، وَالخَيْرُ الَّذِي هُوَ مِنْ بَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ مَضْمُون، وَبِبَرَكَتِهَا كَانَ وَيَكُون.

وَاللَّهُ تَعالَى يُجَازِيها عَنْ عَبْدِ إِحْسَانِها بِأَفْضَلِ الجَزَاء، وَيَسْتَجِيبُ فِيها صَالِحَ الدُّعَاء، وَيُوزِعُ شُكْرَ نِعْمَتِها الَّتِي لَوْ اسْتُعِيرَتْ لَهُ أَلْسِنَةُ البُلَغَاء، وَبُلَغَاءُ الفُصَحَاء، لَمْ يَأْتِ مِنْهُ عَلَى الجُهدِ إِلاَّ بِأَقَلِّ جُزْءٍ مِنَ الأَجْزَاء.

وَأَمَّا مَا اقْتَضَاهُ الكَرِيمُ مِنَ الوَعِيدِ بِالنَّظَرِ الَّذِي يَعُمُّ -بِرُشْدِ اللهِ- صَلاَحُه، وَيَظْهَرُ -بِفَضْلِ اللهِ- نَجَاحُه؛ فَتِلْكُمْ نِعْمَةٌ قَضَتْ بِبَسْطِ الآمَالِ وَبَهْجَةِ النُّفُوس، وَأَهْدَتْ إِلَى



الجَمِيعِ أَعْظَمَ التَّأْنِيس؛ واللهُ يُقَرِّبُ إِنْجازَ المَوْعُود، وَيَقْضِي بِالإِيَابِ الحَمِيدِ بَعْدَ الفَوْزِ المَقْصُود، وَالاسْتِيفَاءِ لِجُمْلَةِ السُّعُود.

وَأَمَّا مَا أَنْعَمَتْ بِهِ الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ عَلى عَبْدِ أَنْعُمِها مِنَ التَّأْنِيسِ في كِتَابِها الكَرِيمِ الصَّادِرِ عَنْ عَظِيمِ عَطْفِهَا وكَرَمِها، فَلَيْسَتْ بِأَوَّلِ نِعْمَةٍ وَصَلَتْ لَهُ أَسْبَابَها، وَأَضْفَتْ عَلَيْهِ جِلْبَابَها، وَلَا بِأَوَّلِ مِنَّةٍ مِنْ مِنَنِها الَّتِي تَتَمَلَّكُ القُلُوب، وَتَمْنَحُ المَطْلُوب؛ كَلَّا، إِنَّهَا عَادَتُهَا فِي الإِحْسَان، وَبَرَكَتُها الَّتِي تَفِيضُ عَلَى نُصَحَاءِ العُبْدَان، وَنِعْمَتُهَا الَّتِي لَيْسَ شُكْرُهَا في اسْتِطَاعَةِ الإِنْسَان. تَوَلَّى اللهُ جَزاءَها وَشَكَرَ نَعْمَاءَها كَمَا نَصَرَ أَعْلَامَهَا، وَأَعْلَى مَقَامَهَا، وَجَعَلَ الأَرْوَاحَ مَمَالِيكَهَا وَالقُلُوبَ خُدَّامَهَا، وَلاَ زَالَتِ السُّعُودُ تَسِيرُ خَلْفَها وَأَمَامَهَا.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَإِنَّهُ وَرَدَ عَلى عَبْدِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَلِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- كِتَابُهَا المُعَظَّمُ المُكَرَّم؛ فَيَالَهُ مِنْ وَارِدٍ سَرَّ وَأَبْهَج، وَهَدَى السَّبِيلَ وَأَوْضَحَ المَنْهَج، وَبَسَطَ الأَمَلَ وَفَسَحَ الرَّجَاء، وَبَشَّرَ بِالصَّلاَحِ التَّامِّ، وَالخَيْرِ المُسْتَقْبَلِ العَام، هَذِهِ النَّوَاحِي وَالأَرْجَاء؛ فَتَلَقَّاهُ العَبْدُ تَلَقِّيَ أَمْثَالِهِ مِنْ مَوادِّ نِعَمِهَا، وَنَتَائِجِ عَطْفِهَا وَكَرَمِهَا، وَشَكَرَ اللهَ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ البِشَارَاتِ العَظِيمَة، وَالإِشَارَاتِ الكَرِيمَة.

وَعَلى مَا اقْتَضَاهُ مِنَ الاعْتِنَاءِ الكَرِيمِ وَالإِنْعَامِ العَمِيم، وَالفَضْلِ الدَّائِمِ المُقِيم، وَسُرَّ بِهِ سُرُورَ مَنْ عَرَفَ فِيهِ حُسْنَ الغَرَض، وَاعْتَكَفَ لَهُ عَلَى الحَمْدِ المُلْتَزَمِ وَالشُّكْرِ المُفْتَرَض؛ وَتَعَرَّفَ مِنْ كَرِيمِ مُضَمَّنِهِ نِعْمَةَ اللهِ عَلى الغَرْبِ الأَوْسَطِ -كَلَأَهُ اللهُ- بِمَا كَانَ اقْتَضَاهُ النَّظَرُ العَلِيُّ وَالرَّأْيُ الكَرِيمُ الإِمَامِيُّ مِنْ تَرَدُّدِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- فِيهِ لِتَأْنِيسِ رَعَايَاه، وَالفَحْصِ عَنْ شُؤُونِهِ وَقَضَايَاه؛ وَتِلْكَ عَادَةُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَها اللهُ- فِي العِنَايَةِ بِمَنَاجِحِ الأُمُور، وَالرِّعَايَةِ لِمَصَالِحِ الجُمْهُور، وَالتَّفَقُّدِ لِأَحْوَالِ البِلَاد، وَالالْتِفَاتِ لِمَنافِعِ العِبَاد. وَمَا اسْتَرْعَاها اللهُ هَذَا العَالَمَ إِلَّا وَقَدْ خَصَّهَا مِنَ العَدْلِ وَالإِحْسَان، وَالفَضْلِ وَالجُودِ وَالامْتِنَان، وَالنَّظَرِ المَبْنِيِّ عَلَى السُّنَّةِ وَالقُرْآن، بِمَا تَحُوطُ



بِهِ رَعِيَّتَها المُسْندةِ إِلَيْهَا، وَتكْلأُ بِهِ البَرِيَّةَ الَّتِي هِيَ أَمَانَةُ اللهِ لَدَيْها؛ فَهَنَّأَ اللهُ البِلَادَ وَالعِبادَ حُسْنَ رَعْيِهَا، وَجَمِيلَ مَذْهَبِها فِي ذَاتِ اللهِ وَحَمِيدَ رَأْيِها، وَجَزَى اللهُ الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ أَفْضَلَ مَا جَزَى بِهِ خُلَفَاءَهُ الرَّاشِدِينَ المُرْشِدِين، المُجَاهِدِينَ في حِيَاطَةِ المُسْلِمِين، العَامِلِينَ عَلَى مَا يَعُودُ في البَسِيطَيْنِ بِمَصْلَحَةِ الدُّنْيَا وَالدِّين.

وَتَعَرَّفَ العَبْدُ أَيْضاً مِنْ مُضَمَّنِ الكِتَابِ الكَرِيمِ مَا صَنَعَ اللهُ مِنْ تَيْسِيرِ أَسْبَابِ رِحْلَةِ المُوَحِّدِينَ -أَعَزَّهُمُ اللهُ- إِلَى أَوْطَانِهِم، وَإِمْكَانِ الاقْتِرَابِ مِنْ أَوْلِيَائِهِمْ المُشْتَاقِينَ إِلَيْهِم وَإِخْوَانِهِم؛ فَهَنِيئاً لِتِلْكُمُ الأَوْطَانِ الَّتِي طَالَتْ بِهَا إِلَى المُوَحِّدِينَ الأَشْوَاق، وَكَادَتْ تُزْعِجُها نَحْوَهُمْ فَتَنْزَعِجُ وَتَسُوقُها إِلَيْهِم فَتَنْسَاق، لَقَدْ دَنَتْ مِنْهُمْ إِلَيْها أَرْوَاحُهَا، وَاسْتَقْبَلَتْهَا مَسَرَّاتُ العَظَائِمِ وَأَفْرَاحُها، وَأَظَلَّتْها البَرَكَاتُ الإِمَامِيَّة، وَطَلَعَ عَلَيْها صَبَاحُهَا.

وَتِلْكُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ يَسَّرَ أَسْبَابَها وَفَتَحَ أَبْوابَها، وَمَدَّ على عَبِيدِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ أَطْنَابَها، وَشُكْرُ اللهِ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الكُبْرَى مُتَعَيِّن، وَفَضْلُ اللهِ فِيها على العِبَادِ وَالبِلَادِ بَيِّن.

وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ على مَا عَرَّفَ الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ في هَذِهِ الحَرَكَةِ السَّعِيدَةِ مِنَ التَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيل، وَالعَاقِبَةِ الحَسَنَةِ وَالصُّنْعِ الجَمِيل؛ وَعَلَى السَّلامَةِ الَّتِي آتَاها، وَالظَّفَرِ الَّذِي صَاحَبَها وَالسَّعْدِ الَّذِي وَاتَاهَا؛ وَتِلْكَ عَادَةُ اللهِ الَّتِي عَوَّدَها، وَفَضْلُهُ الَّذِي أَمَدَّها بِهِ وَأَسْعَدَها. وَاللهُ يُعَرِّفُها في كُلِّ مُحاوَلَةٍ سَعَادَةَ المُبْتَدَأِ وَالخِتَام، وَتَيْسِيرَ المُحَاوَلِ وَالمُرَام، وَيَصِلُ لَها في كُلِّ وِرْدٍ وَصَدَرٍ مَا عَوَّدَها مِنَ العِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّة، وَالكَرَامَةِ الرِّضْوَانِية.

وَمَا أَوْرَدَتْهُ الحَضْرَةُ الإِمَامِيةُ -أَيَّدَها اللهُ- مِنَ الإِنْبَاءِ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَالإِعْلَامِ بِهِ، فَمِنَّةٌ مِنْهَا -شَكَرَها اللهُ- وَنُعْمَى، وَالْتِفَاتٌ كَرِيمٌ وَإِحْسَانٌ عَمِيمٌ وَنِعْمَةٌ عُظْمَى، وَأَيَّةُ سَاعَةٍ مِنَ السَّاعَاتِ أَغَبَّتْ بَرَكَاتُهَا، وَمَتَى لَمْ يَتَمَلَّكِ القُلُوبَ اعْتِنَاؤُهَا المُسْتَصْحِبِ وَالْتِفَاتُها. إِنْ هِيَ إِلَّا تُوَالِي سَوَابِغَ الإِنْعَامِ مُخْتَلِفَةَ الأَنْواعِ وَالأَجْنَاس، وَتَوَابِعُهَا مَعَ الأَيَّامِ بَلْ مَعَ السَّاعِ مُتَتَابِعَةُ الأَنْفَاس، وَتَجُودُ مِنْها بِمَا لَيْسَ شُكْرُهُ بِالمُسْتَطَاعِ قَبْلَ



السُّؤَالِ وَالالْتِمَاس. فَجَازَاهَا اللهُ عَنْ كَافَّةِ عَبِيدِهَا بِأَفْضَلِ الجَزَاء، وَتَوَلَّى شُكْرَهَا عَنِ الخَاصَّةِ وَالدَّهْمَاء.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَأَحْوَالُ هَذِهِ الجِهَاتِ بِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- صَالِحَةٌ، وَنِعَمُ اللهِ بِحُسْنِ الْتِفَاتِها غَادِيَةٌ عَلَيْهَا وَرَائِحَةٌ، وَيَخُوضُونَ مِنْ شُكْرِ اللهِ عَلَيْهَا فِي بِحَارٍ غَيْرِ مُتَناهِيةٍ لَيْسَتْ كَذَاتِ السَّوَاحِلِ وَيَتَمَسَّكُونَ بِأَسْبابِ البَيْعَةِ السَّعِيدَةِ[1] الَّتِي تَعَرَّفُوا يُمْنَهَا فَهُمْ بِها مُغْتَبِطُون، وَبِحِبَالِها المُحْكَمَةِ المَعَاقِدِ مُرْتَبِطُون، يَدْعُونَ لِخَلِيفَتِهِمْ وَمَوْلاَهُم، الَّذِي خَوَّلَهُمْ بِسَعَادَتِهِ مَا خَوَّلَهُمْ، وَأَوْلاَهُمْ بِيُمْنِ خِلاَفَتِهِ مَا أَوْلاَهُمْ، وَيَتَضَرَّعُونَ إِلَى اللهِ فِي إِدَامَةِ أَيَّامِهِ وَتَخْلِيدِها، وَنَصْرِ حَضْرَتِهِ العَلِيَّةِ وَتَأْيِيدِهَا، وَيُوقِنُونَ بِأَنَّهَا رَحْمَةُ اللهِ المُنَزَّلَةُ عَلَى عَبِيدِها. وَالعَجَبُ مِنَ الشَّقِيِّ المَذْكُورِ، كَيْفَ جَمَحَ فِي شَأْوِ الغُرُور، فَرَامَ أَنْ يُغَطِّيَ صَفْحَةَ الشَّمْس، وَطَمِعَ فِي إِدْرَاكِ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بِحَاسَّةِ اللَّمْس؛ وَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ هَذا الأَمْرَ العَزِيزَ هُوَ أَمْرُ اللهِ المَصْنُوعِ لَهُ فِي عَقِبِ الزَّمَان، وَأَنَّهُ لاَ يَزَالُ -إِلَى يَوْمِ الدِّينِ- مِنْ كَيْدِ الكَائِدِينَ فِي أَمَان؛ وَلَمْ يَعْتَبِرْ بِمَا لِهَذا الأَمْرِ العَزِيزِ مِنَ الآيَاتِ الوَاضِحَةِ سِمَاتُهَا، وَالعِنَايَاتِ الفَاضِحَةِ لِشَمْسِ الضُّحَى قَسَماتُهَا ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلأُمُورُ﴾[2] ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُوراً فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3]. وَلِلَّهِ قَبَائِلُ قَرَّبَتْ رَأْسَهُ قُرْبَانًا، وَغَادَرَتْهُ مِنْ جَسَدِهِ مُبَانًا، وَعَاقَتْ مِنَ النُّمُوِّ نَجْمَهُ الذَّمِيم، وَأَتَتْ فِيهِ مِنَ الزُّلْفَى بِمَا يَقْضِي لَهَا فِي الدَّارَيْنِ بِالأَجْرِ العَظِيمِ وَالثَّوَابِ الجَسِيم؛ فَلاَ أَخْلَفَتْ بِلاَدَها الغَمَائِم، وَلاَ أَغَبَّها الإِحْسَانُ الإِمَامِيُّ الدَّائِم؛ وَاللهُ يُلْحِقُ بِهَذا الشَّقِيِّ أَمْثَالَهُ مِنَ الضُّلاَّل، كَمَا أَلْحَقَهُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنْ أَهْلِ المُحَالِ وَالضَّلاَل.

وَقَدْ بَثَّ العَبْدُ هَذِهِ البُشْرَى فِي أَرْجَاءِ هَذِهِ البِلاَدِ كُلِّهَا وَنَوَاحِيهَا، لِتَعُمَّ المَسَرَّةُ كَافَّةَ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا، وَيَأْخُذَ الجَمِيعُ بِالحَظِّ الأَوْفَرِ مِنْ فَهْمِ مَعَانِيهَا، وَالابْتِهَاجِ بِمَا ضَمِنَهُ

(1) في الأصل: «السعي».
(2) سورة الأنفال، الآية: 45.
(3) سورة النور، الآية: 39.



سَعْدُ الخِلَافَةِ أَدَامَهُ اللهُ مِنَ الخَيْرِ الجَزِيلِ فِيهَا لِيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانـاً[1] وَيَرَوْا نُورَ الحَقِّ عِيَانـاً، وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ بِهَذَا الصُّنْعِ الجَمِيلِ اطْمِئْنَانـاً؛ وَإِنْ كَانَ العِلْمُ بِسَعَادَةِ الخِلَافَةِ -وَالحَمْدُ للهِ- عَلَى يَقِينٍ، وَالإِيمَانُ بِهِ فِي كُلِّ قَلْبٍ ثَابِتٍ مَكِينٍ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُومِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ﴾[2]، حِكَايَـةً عَـنْ خَلِيلِهِ مِنَ النَّبِيئِين، صَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِين.

وَأَعْلَمَ العَبْدُ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ بِأَنَّ الَّذِي تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ البُشْرَى مِنَ النِّعَمِ لَا يُحْصَى لَها عَدَد، وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوفِيَ حَقَّهُ مِنَ الشُّكْرِ أَحَد؛ فَلَوِ اسْتَمَدَّ البَلِيغُ القَوَافِيَ كُلَّها وَالأَسْجَاع؛ وَاجْتَلَبَ الأَجْنَاسَ مِنَ البَلَاغَةِ وَالأَنْوَاع، لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِقَدْرِها كِفَاءً، وَلَا لِشُكْرِهَا وَفَاءً؛ فَقُصَارَى الشَّاكِرِينَ التَّنَعُّمُ مَدَى الدَّهْرِ بِذِكْرِها، وَالتَّحَدُّثُ غَابِرَ العُمْرِ بِإِعْجَازِ شُكْرِها؛ فَعَمَّتِ البُشْرَى مَوَاسِطَ هَذِهِ الجِهَاتِ وَأَطْرَافَهَا، وَطَفِقَتِ البِلَادُ تَرْتَضِعُ ثُدِيَّ الأَمْنَةِ وَأَخْلَافَها، وَتَنْتَجِعُ مِنْهَا حَيّاً تَرْوَى بِهِ وَتَسِيم، وَتَسْتَقْبِلُ بِهِ وَجْهَ الزَّمَانِ الوَسِيم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اُ۬للَّهِ يُوتِيهِ مَن يَّشَآءُۖ وَاللَّهُ ذُو اُ۬لْفَضْلِ اِ۬لْعَظِيمِ﴾[3].

وَاللهُ يَصِلُ لِلْحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ عَادَةَ نَصْرِهَا، وَيُهَنِّيهَا سَعَادَتَها وَسَعَادَةَ عَصْرِها، وَيُبَارِكُ فِيمَا وَهَبَ لَها مِنَ اليُمْنِ وَالإِقْبَال، وَالبَرَكَاتِ العَامَّةِ لِأَقْسَامِ زَمَانِها السَّعِيدِ مِنَ المَاضِي وَالحَالِ وَالاسْتِقْبَال، وَيُجْرِي أَقْدَارَهُ عَلى وَفْقِها، وَيُطْلِعُ عَلَى الوُلَاةِ شُمُوسَ السُّرُورِ وَأَقْمَارَهُ المُعْتَادَةِ مِنْ أُفْقِها، وَيُعِينُ كَافَّةَ أَرِقَّائِها، مِنْ شُكْرِ الْتِفَاتِها وَاعْتِنَائِهَا، عَلى مَا يُؤَدُّونَ بِهِ وَلَوْ بَعْضَ البَعْضِ مِنْ عَظِيمِ حَقِّهَا، وَيُتَابِعُ لَها إِنْجَازَ الوُعُودِ المَوْثُوقِ بِصِدْقِهَا، وَيُدِيمُ بِبَرَكَتِها تَوَالِيَ البُشَرِ، كَمَا جَمَعَ عَلَى طَاعَتِها وَمَحَبَّتِها قُلُوبَ البَشَرِ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهَا مِنَ النَّصْرِ جَزِيلَ مَوَاهِبِها، وَيَجْلُبُ المَسَارَ إِلَيْهَا مِنْ جَمِيعِ طُرُقِهَا

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿هُوَ أَلذِے أَنزَلَ أَلسَّكِينَةَ فِے قُلُوبِ اِ۬لْمُومِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰناً﴾. سورة الفتح، الآية: 4.

(2) سورة البقرة، الآية: 259.

(3) سورة الحديد، الآية: 20، سورة الجمعة، الآية: 4.



وَمَذَاهِبِها، وَيَجْعَلُ كَلِمَتَها بَاقِيَةَ النُّور، رَاقِيَةَ الظُّهُور، مَنْصُورَةَ الأَحْزَابِ إِلَى يَوْمِ النُّشُور، بِمَنِّهِ وَرُحْمَاهُ لَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ القُدْسِيَّةُ المُؤَيَّدَةُ المَنْصُورَةُ العَلِيَّةُ، المُبارَكَةُ الطَّاهِرَةُ الزَّكِيَّةُ. مَطْلِعُ الأَنْوَارِ البَاهِرَةِ لِلْبَشَر، وَمَنْشأُ السُّعُودِ الضَّامِنَةِ لِأَنْوَاعِ البُشَر. حَضْرَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا الخَلِيفَةِ الإِمَام أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين، الأَئِمَّةِ الهَادِينَ المُرْشِدِينَ. أَدَامَ اللهُ تَمْكِينَها وَتَأْيِيدَهَا، وَوَصَلَ بِسَعْدِهَا المُتَضَاعَفِ لِلْبِلاَدِ تَأْمِينَهَا وَتَمْهِيدَها، وَحَرَسَ عَلَى الدُّنْيا وَالدِّينِ سُعُودَهَا، وَأَنْجَزَ لَها مِنَ الفَتْحِ المُبينِ وُعُودَهَا؛ كَمَا مَلأَ بِأَنْوَارِهَا السَّاطِعَة، وَبَرَاهِينِ سَعْدِها القَاطِعَة، أَغْوَارَ البَسِيطَةِ وَنُجُودَها. مَمْلُوكُ نِعَمِها الهَامِيَة، وَرَهِينٌ بِشُكْرِ مَقَامِها النَّامِية، المُعْتَصِمُ بِظِلِّها المَمْدُود، الدَّاعِي بِحِرَاسَةِ مَا خَوَّلَها اللهُ مِنَ السُّعُود، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ في شُكْرِ فَضْلِها العَظِيم، عَبْدُهَا؛ إِبْرَاهِيم:

سَلَامُ اللهِ وَأَفْضَلُ تَحِيَّاتِه، عَلى الحَضْرَةِ العَالِيةِ السَّعِيدَةِ وَأَكْمَلُ رَحْمَتِهِ تَعالَى وَأَوْفَى بَرَكَاتِه؛ وَبَعْدُ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ. وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- وَخَلَّدَ أَيَّامَها وَأَعْلَى أَعْلَامَهَا، تُشْرِقُ أَنْوَارُهَا وَأَضْوَاؤُها، وَتَنْسَكِبُ عَلى بِلَادِ الإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ أَنْوَاؤُهَا، وَتُبْسَطُ بِهَا في كُلِّ آوِنَةٍ أَمَلُ البَرَكَةِ وَرَجَاؤُهَا، وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً تَتَضَاعَفُ بِهِ أَقْسَامُ النِّعَمِ وَأَجْزَاؤُهَا؛ وَعَبْدُ إِحْسَانِهَا، وَصَلَ اللهُ عُلُوَّ مَكَانِهَا، عَلى أَوْفَى مَا يَكُونُ عَلَيْهِ النُّصَحَاءُ المُخْلِصُونَ مِنْ عُبْدَانِها، مِنَ النَّصِيحَةِ في خِدْمَتِها، وَالتَّغَذِّي بِشُكْرِ نِعْمَتِها، وَاللهُ يُنْهِضُهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا يَعْتَقِدُهُ دِيناً وَيَلْتَزِمُهُ شَرْعا وَيُحافِظُ عَلى أُصُولِهِ الوَاجِبَةِ وَفُرُوعِهِ الرَّاتِبَةِ أَصْلاً أَصْلاً وَفَرْعاً فَرْعاً.

وَهَذِهِ الجِهَاتُ بِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيةِ -أَيَّدَها اللهُ- تَرْتَعُ مِنَ الخَيْراتِ في جَمِيم، وَتَتَعَرَّفُ مِنَ المَسَرَّاتِ كُلَّ شَامِلٍ عَمِيم، وَتَسْنَدُ مِنْ سَعْدِ الخِلَافَةِ المَيْمُونَةِ إِلَى صَمِيم، وَيَضِجُّ أَهْلُها بِشُكْرِ اللهِ تَعالَى عَلَى مَا خَوَّلَهُمْ بِسَعَادَةِ مَوْلَاهُمْ وَإِمَامِهِمْ مِنَ الفَضْلِ العَظِيم؛ وَالأَمْنَةُ -وَالحَمْدُ للهِ- تَضْرِبُ بِجِرَانِهَا، وَالهُدْنَةُ تَمُدُّ بِأَسْبَابِهَا



وَأَشْطَانِها، وَالسَّعَادَةُ الإِمَامِيةُ -حَرَسَها اللهُ- تُدْلِي بِحُجَّتِها وَبُرْهَانِها، وَتُظِلُّ المُؤْمِنِينَ دَوْحَتُهَا الزَّاكِيَةُ وَتُقْطِفُهُمْ ثَمَرَ السُّرُورِ مِنْ أَغْصَانِهَا. وَمِمَّا أَثْمَرَهُ سَعْدُ الخِلَافَةِ العَلِيَّةِ -وَصَلَهُ اللهُ- مِنَ الثَّمَرِ الشَّافِي لِلصُّدُورِ، المُوَافِي بِالبَهْجَةِ وَالسُّرورِ، مَا جَعَلَ اللهُ في هَذا الوَقْتِ بَيْنَ فِرَقِ الكَفَرَةِ -أَبَادَهُمُ اللهُ- مِنَ الفِتْنَةِ المُضْطَرِمَةِ نَارُهَا، العَائِدَةِ عَلَى مِلَّتِهِمْ الدَّائِرَةِ بِمَا فِيهِ تَبَارُهَا وَخَسَارُهَا؛ حَيْثُ شَغَلَهُمْ بِنُفُوسِهِمْ، وَجَعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ لِبُؤْسِهِمْ، وَجَعَلَ سُعُودَ الخِلافَةِ المُبارَكَةِ كَفِيلَةً بِنُحُوسِهِمْ.

وَمِمَّا وَجَبَ بِهِ إِعْلَامُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- مِنْ أَنْبَاءِ الأَعْدَاء، الوَارِدَةِ بِالسَّرَّاء؛ أَنَّهُ وَرَدَ عَلَى العَبْدِ كِتَابٌ مِنْ «بَطَلْيَوْسَ»[1] -حَمَاها اللهُ- يَتَضَمَّنُ مِنَ المَسَرَّةِ الَّتِي سَاقَتْها سَعَادَةُ الخِلَافَةِ العَلِيَّةِ -أَدَامَها اللهُ- مَا نُسْخَتُهُ مَسْطُورَةٌ في المُدْرَجِ طَيَّ هَذَا الكِتَاب؛ وَإِنَّها لَمَسَرَّةٌ عَظِيمَة، وَنِعْمَةٌ مِنَ اللهِ جَسِيمَة، وَبِشَارَةٌ شَامِلَةٌ عَمِيمَة، تُؤْذِنُ كَلِمَةَ الكُفْرِ بِزِيَال، وَتَقْضِي عَلَيْهَا بِالهُونِ وَالإِذْعَانِ بَعْدَ التَّخَمُّطِ وَالصِّيَال. وَإِنَّهُ لَفَتْحٌ مِنَ الفُتُوحِ المَذْكُورَةِ لِهَذا الأَمْرِ العَالِي، وَصُنْعٌ جَمِيلٌ مِنْ بَدائِعِ صُنْعِ اللهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِي؛ وَلَا نُكْرَ عَلَى مَا وَهَبَ اللهُ لِلْخِلَافَةِ السَّعِيدَة -أَدَامَها اللهُ- مِنَ السَّعْدِ اللَّاحِبِ السَّبِيل، الوَاضِحِ الدَّلِيل، يَتَيَسَّرُ بِهِ أَسْبَابُ المَسَرَّةِ لِلْإِسْلَام، وَتَدُورُ بِهِ عَلَى الكَافِرِينَ دَوَائِرُ التَّدْمِيرِ وَالاصْطِلَام. وَاللهُ يَصِلُ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِنْ سَعَادَةِ الخِلَافَةِ العَلِيَّةِ مَا يَشْرَحُ الصُّدُورَ وَيُقِرُّ العُيُون، وَيُصَدِّقُ الآمَالَ وَالظُّنُون، وَيُطْلِعُ البَشَائِرَ عَلَيْهِمْ في كُلِّ حِين، وَيزِيدُ الكَافِرينَ اشْتِدَادَ فَرَق، وَشَتَاتَ فِرَق، وَقَطْعاً بِهِمْ في جَمِيعِ الطُّرُق، وَيُرِيهِمْ أَنَّ لِهَذا الأَمْرِ العَزِيزِ عِنَايَةٌ رَبَّانِيَّةٌ تُشَمِّتُهُ بِالأَعْدَاء، وَتُعَرِّفُهُ عَوَارِفَ الصُّنْعِ الجَمِيلِ مُتَتَابِعَةَ الإِعَادَةِ وَالإِبْدَاء.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَبَرَكَاتُها أَيَّدَها اللهُ تُشْرِقُ أَنْوَارُهَا، وَتَبْرُقُ ابْتِسَامُ الأَيَّامِ السَّعِيدَةِ عَنْها وَافْتِرَارُهَا، وَنِعَمُهَا يَنْسَكِبُ مِدْرَارُهَا، وَيَفُوتُ الحَدَّ وَالعَدَّ مِقْدَارُها، وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ

(1) مدينة أندلسية مشهورة ومنها ابن السِّيد العالم المشهور.



حَمْدَ اسْتِزَادَةِ النِّعَمِ وَاسْتِكْثَارِهَا. وَصَلَاحُ هَذِهِ الجِهَاتِ بِبَرَكَتِهَا -وَالحَمْدُ لله- جَدِيدٌ فَجَدِيد، وَظِلُّ الالْتِفَاتِ الكَرِيمِ عَلَى أَرْجَائِهَا مَزِيد، وَزَمَانُ خِلَافَتِهَا المَيْمُونَةِ -وَالحَمْدُ لِلَّه- زَمَانٌ سَعِيد، فَكُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ كَأَنَّهُ عِيد، وَقَدْ ابْتَهَجَ بِالالْتِفَاتِ الإِمَامِيِّ -شَكَرَهُ اللهُ- القَرِيبُ وَالبَعِيد.

وَقَدْ وَرَدَ عَلى عَبْدِ عَلَائِهَا أَوْرَدَ اللهُ عَلَيْها السُّعُودَ مُتَعَاقِبَةً، وَعَرَّفَها الخِيرَةَ المُطَّرِدَةَ فِي كُلِّ الأَوْقَاتِ حَالاً وَعَاقِبَةً؛ كِتَابُها الكَرِيمُ المُعَظَّمُ المُثِيرُ السُّرُور، المُبْهِجُ لِلْجُمْهُور، المُصْلِحُ لِلأَحْوَالِ وَالأُمُور، وَالمُتَضَمِّنُ مِنْ مَصَالِحِ الرَّعِيَّة، وَنَقْلِ العَرَبِ إِلَى الأَمَاكِنِ الخَالِيَةِ القَصِيَّة؛ مَا لَمْ يَزَلْ مِثْلُهُ مِنْ وُجُوهِ النَّظَرِ النُّورِيَّة، يَصْدُرُ عَنْ فَضْلِ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَلِيَّة، وَتِلْكَ عَادَتُها -دَامَتْ سَعَادَتُها- فِي الاعْتِنَاءِ بِمَنَافِعِ البَرِيَّة، وَاللهُ يُجَازِيهَا عَلَى جَمِيلِ الغَرَضِ وَصَلَاحِ النَّظَرِ وَحُسْنِ النِّيَّة؛ فَمَا زَالَتْ تَحُوطُ البِلَادَ بِالصَّارِمِ وَالسِّنَان، وَتَعُمُّ البِلَادَ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَان، وَتَبْسُطُ بِجَوَازِ رَأْفَتِهَا وَرَحْمَتِهَا عَلَى كُلِّ مَكَان، وَفِي كُلِّ زَمَان، تَوَلَّى اللهُ جَزَاءَهَا عَنْ كَافَّةِ البُلْدَانِ وَالعُبْدَان.

وَلَمَّا وَرَدَ الكِتَابُ الكَرِيمُ -أَكْرِمْ بِهِ مِنْ وَارِدٍ خَطِير- تَلَقَّاهُ العَبْدُ بِوَاجِبِهِ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالشُّكْر، وَجَعَلَ البِدَارَ إِلَى امْتِثَالِهِ أَهَمَّ مَا يَمُرُّ عَلَى البَالِ وَأَوْكَدَ مَا يَسْبِقُ لِلْفِكْر، وَرَأَى أَنَّ كُلَّ مَا تُشِيرُ بِهِ الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّةُ -أَيَّدَها اللهُ- بِالتَّوْفِيقِ مِنَ اللهِ يَسُوقُهُ وَيَحْدُوه، وَلَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَعْدُوه، وَفِي الحِينِ أَنْفَذَ العَبْدُ مُخَاطَبَتَهُ إِلَى الشَّيْخِ الأَجَلِّ الأَكْرَمِ أَبِي العَبَّاسِ بْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ المُكَرَّمِ أَبِي حَفْصٍ[1]، أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَه، بِمُقْتَضَى مَا وَصَلَهُ مِنَ الأَمْرِ المُطَاع، وَسَأَلَهُ مَتَى يَكُونُ خُرُوجُهُ لِمَا أُمِرَ بِهِ فِي هَذِهِ المُحَاوَلَةِ المُهِمَّةِ مِنَ الاجْتِمَاع.

وَشَمَّرَ العَبْدُ عَنْ سَاعِدِ السَّامِعِ المُطِيع، البَاذِلِ فِي مَا أُمِرَ بِهِ جُهْدَ المُسْتَطِيع؛ فَرَاجَعَهُ المَذْكُورُ بِكِتَابٍ أَنْفَذَهُ العَبْدُ صُحْبَةَ هَذَا إِلَى المَقَامِ الإِمَامِيِّ العَلِيِّ -أَيَّدَهُ اللهُ- لِيَقِفَ

(1) هو أبو حفص عمر الصنهاجي. انظر حوله: البيان المغرب، ص: 222، المعجب ص: 333. وأبو العباس المذكور ولده.



أَمْرُهُ العَالِي عَلى مُقْتَضَاه؛ وَكُلُّ مَا يَنْفُذُ بِهِ الأَمْرُ المُطَاعُ أَمْضَى اللهُ حُدُودَه، وَأَسْمَى جُدُودَه، فَإِلَيْهِ يُبَادَرُ وَعَلَيْهِ يُعْتَمَد، وَبِحَسَبِهِ يُعْمَلُ وَفِي تَمْشِيَتِهِ يُجْتَهَد. وَالعَبْدُ يَسْتَنْفِذُ فِي امْتِثَالِ مَا يُؤْمَرُ بِهِ فِي كُلِّ شَان، نِهَايَةَ الوُسْعِ وَجَهْدَ الإِمْكَان؛ وَيَسْتَعِينُ عَلى ذَلِكَ بِاللهِ تَعَالَى وَهُوَ خَيْرُ مُسْتَعَان، وَبِبَرَكَةِ الأَمْرِ العَزِيزِ الَّتِي المُسْتَعِينُ بِهَا أَبَرُّ مُعَان.

وَكَتَبَ مِنْ كُتُبِ وُزَرَاءِ الخِلَافَةِ المُعَظَّمِينَ المُكْرَمِينَ الأَبْرَارِ أَدَامَ اللهُ سُعُودَهُمْ:

فَصْلٌ:

وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَلِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- تَنْسَكِبُ انْسِكَابَ الغَمَام، وَسَعَادَتُهَا تَتَكَفَّلُ بِمَصَالِحِ العِبَادِ بِالكَمَالِ وَالتَّمَام، وَللهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ الَّذِي يَرْضَاه، وَيَقْتَضِي مَزِيدَ نُعْمَاه؛ وَمَا تَعْلَمُونَ مُجِلُّكُمْ عَلَيْهِ -وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مِنْ إِجْلَالِكُمْ وَإِخْلَاصِ الوُدِّ فِيكُمْ، وَالشُّكْرِ لِحَمِيدِ مَقَاصِدِكُمْ وَجَمِيلِ مَنَاحِيكُمْ، فَمَهْيَعُهُ لَاحِب، وَمَنْزَعُهُ عَلى الدَّوَامِ مُصَاحِب، وَاللهُ يَصِلُهُ فِي ذَاتِهِ وَيُبْقِيه، وَيَجْعَلُهُ خَالِصًا لِمَا يُرْضِيه.

وَأَحْوَالُ هَذِهِ الجِهَةِ -وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- قَدْ ظَهَرَ صَلَاحُهَا، وَتَسَاوَى فِي الأَمْنَةِ وَالدَّعَةِ لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا وَغُدُوُّهَا وَرَوَاحُهَا، وَالبِلَادُ وَالحَمْدُ للهِ مُمَهَّدَةٌ سَاكِنَة، وَالرَّعِيَّةُ هَادِئَةٌ هَادِنَة، وَالمَصَالِحُ مُنْتَظَمَةٌ مُتَنَاسِقَة، وَأُصُولُ البَرَكَةِ الإِمَامِيَّةِ -حَرَسَهَا اللهُ- فِي كُلِّ مَكَانٍ ثَابِتَةٌ وَفُرُوعُهَا بَاسِقَة، وَسَعَادَةُ الخِلَافَةِ العَلِيَّةِ -أَدَامَهَا اللهُ- تُرْسِلُ عَلَى العِبَادِ مِنْ سَمَاءِ النِّعَمِ كُلَّ صَيِّب، وَأَغْرَاضُهَا الكَرِيمَةُ -شَكَرَهَا اللهُ- تُثْمِرُ فِي البِلَادِ مِنْ ثَمَرَاتِ الخَيْرَاتِ وَالبَرَكَاتِ كُلَّ طَيِّب؛ فَلَا عَيْنَ لِعَبِيدِهَا المُؤْمِنِينَ إِلَّا وَهِيَ بِفَضْلِهَا وَإِحْسَانِهَا قَرِيرَة، وَلَا نَفْسَ لِأَرِقَّائِهَا المُسْلِمِينَ إِلَّا وَهِيَ بِسَعَادَةِ زَمَانِهَا مُبْتَهِجَةٌ مَسْرُورَة.

وَأَمَّا الزَّرْعُ فَقَدْ بَسَطَ اللهُ الآمَالَ بِكَثْرَتِهِ وَصَلَاحِهِ فِي هَذَا العَامِ بَسْطًا، وَأَعْطَى هَذِهِ الجِهَاتِ مِنْهُ حَظًّا وَافِرًا وَقِسْطًا؛ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا قَدِ اسْتَكْثَرُوا مِنْهُ فِي كُلِّ مَكَان، وَأَنْفَقُوا فِيهِ مَا عَزَّ وَهَان؛ وَاعْتَنَى أَهْلُ الثُّغُورِ أَيْضًا بِالازْدِرَاعِ اعْتِنَاءَ الغَيْر، وَتَنَافَسُوا فِي الإِكْثَارِ مِنْهُ تَنَافُسَ الوَاثِقِينَ بِمَا تَكَفَّلَتْ بِهِ السَّعَادَةُ الإِمَامِيَّةُ مِنَ اليُمْنِ وَالأَمْنِ وَاليُسْرِ وَالخَيْر؛ فَتَمَلَّأَ بِهِ السَّهْلُ وَالجَبَل، وَاتَّسَعَ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ الرَّجَاءُ وَالأَمَل، وَعَظُمَ بِهِ



السُّرُورُ وَالجَذَل؛ وَكَانَ مِنْ صُنْعِ اللهِ الجَمِيل، الجَارِي عَلَى وَفقِ التَّأْمِيل، أَنْ جَادَهُمْ فِي هَذَا العَامِ مِنَ الغَيْثِ كُلُّ مِدْرَار، وَأَعَادَهُ عَلَيْهِ فِي أَوْقَاتِ احْتِيَاجِهِ إِلَيْهِ مَنْ بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير[1] وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار[2]؛ فَبَدَتِ الأَرْضُ مِنْهُ فِي مُلَاءَةِ حُسْنٍ يَسُرُّ النَّاظِرِينَ جَمَالُها، وَوَعَدَتْ فِيهِ بِفَوائِدَ يُرْجَى مِنَ اللهِ تَمَامُها عَلى جُمْلَةِ السَّلَامَةِ وَكَمَالُها.

وَذَلِكَ كُلُّهُ -وَالحَمْدُ للهِ- بِبَرَكَةِ الخِلَافَةِ السَّعِيدَةِ -أَدَامَهَا اللهُ- وَيُمْنِ أَيَّامِهَا، وَسَعَادَةِ مَقَامِها؛ وَمَا وَهَبَهُ اللهُ لِلرَّعِيَّةِ مِنْ بَرَكَةِ مَوْلَاهَا وَإِمَامِها، حَرَسَ اللهُ حَضْرَتَهُ القُدْسِيَّةَ وَتَكَفَّلَ بِنَصْرِ أَعْلَامِها، فَبِبَرَكَةِ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ وَإِحْسَانِهِ يَأْمَنُ سِرْبُها، وَبِرَحْمَتِهِ وَعَطْفِهِ وَحَنَانِهِ يَصْفُو -إِنْ شَاءَ اللهُ- مِنْ كُلِّ كَدَرٍ شِرْبُها.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الشَّيْخُ الأَجَلُّ الأَعَزُّ الأَكْرَمُ الأَسْنَى الوَلِيُّ الأَثِيرُ الأَوَدُّ الأَخْلَصُ الأَزْكَى الأَفْضَلُ؛ أَبُو سَعِيدِ ابْنِ الشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي مُحَمَّدٍ ابْنِ الشَّيخِ الأَجَلِّ المَرْحُومِ أَبِي إِسْحَاقَ، أَدَامَ اللهُ عِزَّتَه، وَوَصَلَ كَرَامَتَهُ وَرِفْعَتَه، وَلِيُّهُ فِي اللهِ تَعالَى وَمُحِبُّهُ فِيهِ البَرُّ بِجَانِبِه، المُوثِرُ لَهُ الحَفِيُّ بِه؛ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيِّدِنا أَمِيرِ المُؤْمِنينَ بْنِ سَيِّدِنَا أَمِيرِ المُؤْمِنِين.

سَلَامٌ كَرِيمٌ يَخُصُّكُمْ كَثِيراً وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه؛ أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعالَى، وَالصَّلَاةِ عَلى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ المُصْطَفَى، وَالرِّضَا عَنِ الإِمامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المُجْتَبَى، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المُرْشِدِينَ أَئِمَّةِ الهُدَى، وَالدُّعاءِ لِسَيِّدِنا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَبِي يَعْقُوب[3] بْنِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِينَ بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الأَسْنَى.

---

(1) مقتبس من قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة آل عمران، الآية: 26.

(2) فيه إشارة قرآنية.

(3) هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المومن الموحدي. انظر: البيان المغرب، والحلل الموشية لابن سماك العاملي.



فَالكِتابُ إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ الكَرَامَةِ أَمَدَّها ظِلَالاً، وَمِنَ السَّعَادَةِ أَدْوَمَها اتِّصَالا؛ مِنْ -إِشْبِيلِيَّةَ- حَرَسَها اللهُ، وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَها اللهُ- تَنْمُو وَتَزِيد، وَيُتَعَرَّفُ مِنْهَا الجَدِيدُ فَالجَدِيد؛ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يَسُوقُ النِّعَمَ وَيَقُودُهَا، وَيُنَمِّيها بِفَضْلِ اللهِ وَيَزِيدُها، وَعَنِ الَّذِي يُوَالِيهِ مُجِلُّكُمْ مِنْ شُكْرِكُم، وَجَمِيلِ ذِكْرِكُم، وَيُخْلِصُ فِيهِ مِنْ وُدِّكُم، وَيَتَحَقَّقُهُ مِنْ جَمِيلِ غَرَضِكُمْ وَقَصْدِكُم، وَيُوثِرُهُ مِنْ إِيثَارِكُم، وَيَعْتَنِي بِهِ مِنِ اسْتِطْلَاعِ السَّارِّ مِنْ أَخْبَارِكُم، وَصَلَ اللهُ ذَلِكَ فِي ذَاتِهِ، وَقَرَنَهُ بِمَرْضَاتِه، بِمَنِّهِ وَكَرَمِه.

وَقَدْ وَصَلَتْ مُخاطَبَتُكُمُ الأَثِيرَةُ السَّارَّةُ الخَطِيرَة، وَصَلَ اللهُ سَعَادَتَكُمْ، وَسَنَّى أَمَلَكُمْ كُلَّهُ وَإِرَادَتَكُم؛ مُتَضَمِّنَةً مِنَ الأَوَامِرِ العَلِيَّة، وَالأَغْرَاضِ الكَرِيمَةِ الإِمَامِيَّة، مَا انْفَسَحَ فِيهِ مُتَرَدَّدُ الشُّكْرِ وَمَجَالُه، وَعَجَزَتْ عَنِ اسْتِيفَاءِ شُكْرِهِ رَوِيَّةُ الفِكْرِ وَارْتِجَالُه، وَتِلْكَ العَوَائِدُ الإِمَامِيَّةُ المُعْتَادَة، وَالفَضَائِلُ الَّتِي لَمْ تَزَلْ نَنَالُ المُبْتَغَاة مِنْهَا وَالمُرْتَادَة؛ وَاللهُ يُجَازِي الإِنْعَامَ الإِمَامِيَّ العَمِيم، وَالفَضْلَ المُتَرَادِفَ العَظِيم؛ وَتَضَمَّنت مُخَاطَبَتُكُمُ الأَثِيرَة -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مَا اقْتَضَاهُ النَّظَرُ الكَرِيمُ مِنْ مُخَاطَبَةِ «كُومِيةَ» بِكِتَابٍ عَزِيزٍ، وَأَنْ يُحْضَرُوا لِقِرَاءَتِهِ، وَيُتَّبَعَ مِنَ القَوْلِ مَا يُحَمِّلُهُمْ عَلَى المَقْصُود؛ فَلَمْ يَصِلْ لِمُجِلِّكُمُ الكِتَابَ العَزِيزَ المَذْكُورَ الَّذِي خُوطِبُوا بِهِ إِلَّا مَفْضُوضَ الخِتَامِ دَفَعَهُ إِلَيْهِمْ مِزْوَارُهُمْ؛ بَعْدَ أَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ وَزَعَمَ أَنَّهُ قَدْ قَرَأَهُ عَلَيْهِم؛ فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَةِ قِرَاءَتِهِ عَلَيْهِم؛ وَأَلْقَى إِلَيْهِ -مُجِلُّكُمْ- مِنَ القَوْلِ مَا أُمِرَ بِإِلْقَائِه، وَأَوْضَحَ لَهُ مُقْتَضَى الغَرَضِ الإِمَامِيِّ- شَكَرَهُ اللهُ- فِي جَمِيعِ أَنْحَائِه.

وَاللهُ يُعِينُ عَلَى امْتِثَالِه، وَيُجَازِي المَقَامَ الإِمَامِيَّ عَلَى الْتِفَاتِهِ الكَرِيم وَاهْتِبَالِه. وَأَشَرْتُمْ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- عَلَى اسْتِحْسَانِ مَا بَيْنَ الشَّيْخِ الأَجَلِّ الأَكْرَمِ أَبِي عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَن -أَدَامَ اللهُ كَرَامَتَهُ- وَبَيْنَ مُجِلِّكُمْ مِنَ المُسَاعَدَةِ وَالمُعَاضَدَة؛ وَذَلِكُمْ عَمَلٌ مُحافَظٌ عَلَى اسْتِصْحَابِه، مُجْتَهَدٌ فِي وَصْلِ أَسْبَابِه، تَوَخِّياً لِمُقْتَضَى الغَرَضِ الإِمَامِيِّ الكَرِيم، وَاغْتِبَاطاً بِمَا عِنْدَ المَذْكُورِ مِنَ النَّصِيحَةِ الصَّحِيحَةِ وَالمَنْزَعِ



القَوِيم؛ أَعَانَ اللهُ الجَمِيعَ عَلَى وَاجِبَاتِ الخِدْمَة، وَأَوْزَعَ شُكْرَ مَا شَمِلَ مِنْ كَرِيمِ الالْتِفَاتِ وَعَمِيمِ النِّعْمَة.

وَذَكَرْتُم -أَدامَ اللهُ سَعَادَتَكُمْ- مَا اقْتَضَاهُ الإِنْعَامُ الإِمَامِيُّ الَّذِي صَفَتْ أَدْوِيَتُه، وَسَالَتْ -وَالحَمْدُ لله- أَوْدِيَتُهُ، مِنَ الأَمْرِ لِمُجِلِّكُمْ بِاقْتِضَاءِ فَائِدَةِ السَّهْمِ المُنْعَمِ عَلَيْهِ بِهِ الَّذِي «بِرَجْرَاجَةَ» مِنْ مَخْزَنِ «إِشْبِيلِيَّةَ»، وَأَنَّهُ قَدْ خُوطِبَ بِذَلِكَ الشَّيْخُ الأَجَلُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ؛ وَذَلِكُمْ -أَدَامَ اللهُ سَعْدَكُمْ- مِنْ جُمْلَةِ مَا تَعَوَّدَ مِنْ فَضْلِ المَقَامِ الإِمَامِيِّ أَعْلَى اللهُ ذِكْرَه، وَأَوْزَعَ العَبِيدَ شُكْرَه؛ وَاللهُ يُجازِي النَّظَرَ الكَرِيمَ خَيْرَ جَزَاءِ الإِحْسَان، وَيَتَوَلَّى مِنْ شُكْرِهِ مَا لَيْسَ فِي وُسْعِ الإِنْسَان.

وَأَعْلَمْتُمْ -وَصَلَ اللهُ رِفْعَتَكَمْ- بِتَعْيِينِ القَاضِي أَبِي الحَسَنِ بْنِ الفَقِيهِ أَبِي القَاسِمِ ابنِ المَالَقِي لِشَرِيش. وَالشُّكْرُ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ مُطَّرِدُ الوُجُوبِ كَثِيرُ الاحْتِفَال، فَسِيحُ المَجَال؛ وَوِسَاطَتُكُمْ الجَمِيلَةُ -أَدامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مَشْكُورَةٌ فِي جَمِيعِ الأَنْحَاء، وَتَمْشِيَتُكُم الحَمِيدَة مَذْكُورَةٌ بِأَجْمَلِ الذِّكْرِ وَأَحْسَنِ الثَّنَاء؛ وَمُجِلُّكُمْ يَشْكُرُ تَهَمُّمَكُمْ الَّذِي مَا زَالَ يَتَعَرَّفُهُ -وَالحَمْدُ لله- عَلَى الوَلاَء؛ فَقَدْ غَمَرَهُ الإِحْسَانُ بِإِسْعَافِكُمْ فِي مَسَالِبِه، وَقَدْ أَوْلَيْتُمُوهُ مَا يَقْصُرُ اللِّسَانُ عَنْ شُكْرِهِ مِنْ مُوَاصَلَةِ التَّهَمُّمِ بِجَانِبِه؛ وَلاَ نُكْرَ فِي مَا فَعَلْتُمُوهُ مِنْ ذَلِكُمْ، عَلَى فَضِيلَةِ سَجَايَاكُمْ وَكَرَمِ خِلاَلِكُمْ، فَما زِلْتُمْ أَهْلاً لِلْجَمِيلِ، وَمَكَاناً لِلشُّكْرِ الحَفِيل؛ بَارَكَ اللهُ فِيكُمْ وَشَكَرَكُمْ، وَبَلَّغَكُمْ فِي الدَّارَيْنِ أَمَلَكُم، وَضَاعَفَ النِّعَمَ قِبَلَكُمْ، وَوَصَلَ السَّعَادَةَ لَكُمْ، وَأَبْقَاكُمْ لاسْتِحْقَاقِ الشُّكْرِ وَالحَمْدِ، وَلِلْقَصْدِ لِقَضَاءِ اللُّبَانَاتِ وَالعَهْدِ.

وَذَكَرْتُمْ -أَدامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- إِقامَةَ أَبِي الحَسَنِ بْنِ وَزِيرٍ مَكَانَهُ بِسَبَبِ الخَبَرِ اللِّيُونِي الَّذِي كَانَ بَلَغ. وَأَنَّ الَّذِي كَانَ رَآهُ مُجِلُّكُمْ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الحَزْمُ؛ وَلِلَّهِ الحَمْدُ عَلى التَّوْفِيقِ لِمَا وَافَقَ الغَرَضَ الكَرِيمَ الَّذِي مُوافَقَتُهُ نِعْمَةٌ كُبْرَى مِنْ نِعَمِ اللهِ الَّتِي لَا تُحْصَى.

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ أَنْ يُتَفَاوَضَ مَعَ الشَّيْخِ الأَجَلِّ أَبِي عَبْدِ اللهِ فِي مَنْ يَسِيرُ بَدَلاً مِنْهُ فَقَدْ كَانَ ذَلِكُمْ كَذَلِكَ حَسْبَمَا صَدَرَ إِلَيْكُمُ الإِعْلَامُ بِهِ قَبْلَ هَذَا. وَمَا يَفْعَلُ مُجِلُّكُمْ شَيْئاً



مِنَ الأَشْيَاءِ إِلَّا مَا صَدَرَ عَنِ المُفَاوَضَةِ مَعَهُ وَالاتِّفَاقِ وَالمُذَاكَرَةِ وَالاجْتِمَاعِ هَـذَا حُكْـمٌ مُلْتَزَمٌ وَعَمَلٌ مُغْتَنَم. وَاللهُ يُعِينُ الجَمِيعَ عَلى مَا يَحْظَى بِرِضَى المَقَامِ الإِمَامِيِّ، وَمُوَافَقَةِ غَرَضِهِ الكَرِيمِ الجَلِيِّ.

وَوَرَدَ عَلَى مُجِلِّكُـمْ -أَدَامَ اللهُ عُلُـوَّكُمْ- الكِتَابُ الإِمَامِيُّ الكَرِيمُ الَّذِي أَشَرْتُ إِلَيْهِ بِتَقْدِيمِ عَبْدِ المَقَامِ الإِمَامِيِّ ابْنِ عَبْدِهِ عَلى «بَنِي رِيَاحٍ» وَقُرَّةِ مَنَافٍ وَإِلْزَامِهِ سُكْنَى «شَرِيش» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَضَمَّنَهُ الكِتَابُ الكَرِيمُ مِنَ الوَصَايَا المُنِيرَة، وَالأَغْرَاضِ المَحْمُودَةِ بِكُلِّ لِسَانٍ وَالمَشْكُورَة. وَذَلِكُـمْ -حَفِظَ اللهُ مَكَانَكُمْ- مِمَّا عَـوَّدَهُ المَقَـامُ الإِمَـامِيُّ -أَيَّدَهُ اللهُ- عُبْدَانَـهُ مِـنْ مُضَاعَفَةِ الإِنْعَـامِ وَإِسْبَاغِ بُـرُودِ الإِحْسَان، وَتَجْدِيـدِ العَطْفِ وَالالْتِفَاتِ وَالامْتِنَان، عَلى القَرِيبِ وَالبَعِيدِ وَالشِّيبِ وَالشُّبَّان. وَاللهُ يُجَازِي المَقَامَ الإِمَامِيَّ جَزَاءَ المُحْسِنِينَ المُنْعِمِين، وَيُوزِعُ شُكْرَ فَضْلِهِ العَظِيمِ وَطَوْلِهِ المُبِين. وَالَّذِي عِنْدَ مُجِلِّكُـمْ مِنْ شُكْرِ هَـذِهِ النِّعَمِ العَدِيـدَةِ، وَالأَيَـادِي الجَدِيـدة، هُـوَ بَحْـرٌ لَا تُمْتَطَى أَثْبَاجُه، وَلَا يَـزَالُ وَاضِحـاً مِنْهَاجُه، وَقَـدْ عَظُمَـتِ النِّعْمَـةُ مُتَوَالِيَـةً مِـنَ المَقَـامِ الإِمَامِيِّ -شَكَرَهُ اللهُ- عَنْ أَنْ يَقُـومَ بِشُكْرِهَا الإِنْـسَان، وَمِـنَ اللهِ الجَـزاءُ الَّـذِي يَـسْتَحِقُّهُ هَذَا الإِحْسَان.

وَقَدْ تَوَجَّهَ العَبْدُ المَذْكُورُ إِلَى «شَرِيش» بَعْدَ الوَصِيَّةِ المُؤَكَّدَةِ كَمـا أُمِر؛ وَاللهُ يُعِينُ عَلَى امْتِثَالِ الأَوَامِرِ، وَشُكْرِ النِّعَمِ الهَوَامِرِ؛ وَهُوَ تَعَالى يُدِيمُ عِزَّتَكُمْ، وَيَصِلُ رِفْعَتَكُمْ؛ وَالسَّلاَم.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

الحَضْرَةُ الإِمَامِيَّـةُ القُدْسِيَّةُ العَالِيَـة، الَّتِي أَنْوَارُهـا مَبْسُوطَةٌ وَنِعَمُهـا مُتَوَالِيَـة، وَمَقَامَاتُهـا بِحُلَى النَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ حَالِيَة، وَالأَيَّامُ لِآيَاتِ سَعْدِها وَسُوَرِ شُكْرِها وَحَمْدِها تَالِيَـة. حَضْرَةُ الهِدَايَـةِ المَوْرُوثَـة[1] المَـأْثُورَة، وَالبَرَكَـاتِ المَبْثُوثَـةِ المَنْشُورَة، قَـرَنَ اللهُ سُـعُودَها بِالـدَّوامِ

(1) الموروثة: وردت في هامش الأصل وفوقها صح.



وَالاتِّصَال، وَضَاعَفَ مِنَ النَّصْرِ مَزِيدَهَا مَدَى البُكَرِ وَالآصَال، وَعَرَّفَهَا عَوَارِفَ التَّمْكِين ثَرَّةَ الغَمَام، وَقَادَ لَهَا نَجَائِبَ الفَتْحِ المُبِينِ السَّمْحَة الزِّمَام.

عَبْدُهَا المُعْتَصِمُ مِنْها بِوَارِفِ الظِّلاَل، المُتَضَرِّعُ إِلَى اللهِ في الشُّكْرِ عَلى مَا خَوَّلَتْهُ مِنَ الإِنْعَامِ السَّابِغِ والإِفْضَال، الدَّاعِي بِحِرَاسَةِ مَا وَهَبَ اللهُ لَها مِنَ العِزَّةِ وَالجَلاَل؛ إِبْرَاهِيمُ:

سَلاَمٌ إِلَى آخِرِ الصَّدْرِ؛ فَكَتَبَ عَبْدُ إِنْعَامِها الدَّارِّ، وَمُسْتَرَقُّ الْتِفَاتِهَا المُبْهِجِ السَّارِّ؛ كَتَبَ اللهُ لَها إِحْرَازَ السُّعُودِ، وَإِنْجَازَ مَا وَعَدَ لَها فِي المَشَارِقِ والمَغَارِبِ مِنْ صَادِقِ الوُعُودِ، وبَرَكَاتُها -أَيَّدَ اللهُ نَصْرَهَا وَأَسْعَدَ عَصْرَهَا- تَلُوحُ بُدُوراً، وَتَمْلأُ بِالسُّرُورِ أَفْئِدَةً وَصُدُوراً، وَتَسْتَوْجِبُ مِنَ اللهِ جَزَاءً وَشُكُوراً؛ وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يَقْتَضِي لِلْمَزِيدِ مِنْها وُفُوراً، وَالَّذِي يُوَالِيهِ العَبْدُ في خِدْمَتِها -أَيَّدَها اللهُ- مِنَ النَّصِيحَةِ المُبَادَرِ إِلَيْهَا، وَيَلْتَزِمُهُ مِنَ الامْتِثَالِ لِلأَوَامِرِ المُطَاعَةِ وَالمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا حُكْمٌ مُسْتَصْحَبُ العَمَل، وَالمَعُونَةُ مِنَ اللهِ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ مَا يَرْغَبُ إِلَيْهِ فِيهِ مِنَ الأَمَل، واللهُ يُعِينُ عَلى مَا أَوْجَبَ لَها وَافْتَرَض، وَيُوَفِّقُ لِمَا يُوَافِقُ مِنْ أَغْرَاضِهِ الكَرِيمَةِ كُلَّ غَرَض. وَأَمَّا شُكْرُ العَبْدِ لِنِعَمِها المُخْتَلِفَةِ الأَجْنَاسِ المُتَضَاعِفَةِ الأَقْسَام، وَالْتِفَاتَاتِها الكَرِيمَةِ المُتَعَارَفَةِ مَعَ الأَيَّام؛ فَشُكْرُ العَارِفِ بِقَدْرِ النِّعْمَة، البَاذِلِ جُهْدَهُ في حَوْلِ الخِدْمَة، المُتَضَرِّعِ إِلَى اللهِ لَيْلاً وَنَهاراً في مُجَازَاتِ مَا لَها مِنَ الإِحْسَان، إِذْ لَيْسَ القِيَامُ بِشُكْرِهَا في وُسْعِ الإِمْكَان، لَكِنْ ما عَجَزَ المَرْءُ عَنْ أَدَائِه، فَاللهُ كَفِيلٌ بِجَزَائِه.

وَقَدْ وَصَلَ الأَرْسَالُ الصَّادِرُونَ مِنَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ العَلِيَّةِ أَفَاضَ اللهُ نُورَهَا، وَضَاعَفَ بَهْجَتَها وَسُرُورَهَا، فِي بُرُودِ إِحْسَانِهَا رَافِلِين، وَبِجَدِيدِ امْتِنَانِهَا نَافِلِين، وَلآلاَئِها شَاكِرِين، وَلِمَا شَاهَدُوهُ مِنْ أَنْوَارِ عَلاَئِها ذَاكِرِين؛ وَتِلْكَ عَادَتُها -دَامَتْ سَعَادَتُها- في إِسْبَاغِ النِّعَم عَلَى كُلِّ مَنْ قَصَدَ لِبَابِها، وَتَعَلَّقَ مِنْ أَهْلِ المِلَلِ بِسَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِها، الفَضْلُ -وَالحَمْدُ للهِ- شِيمَتُها، وَدِيمَةُ الجُودِ العَمِيمَةُ عَلى أَهْلِ الوُجُودِ دِيمَتُها؛ أَوْزَعَ اللهُ شُكْرَها، كَما أَحْسَنَ في أَلْسِنَةِ العَرَبِ وَالعَجَمِ ذِكْرَها.



وَقَدْ أَخَذَ الأَرْسَالُ المَذْكُورُونَ في الانْفِصَالِ مِنْ هُنا إِلَى صَاحِبِهِمْ عَلى الوَجْهِ الَّذِي اقْتَضَاهُ النَّظَرُ الكَرِيمُ وَنفذَ بِهِ الأَمْرُ المُطَاعُ أَمْضَى اللهُ حَدَّه، وَأَسْمَى جَدَّه، مُتَوَخّىً في ذَلِكَ كُلَّ مَا أُمِرَ بِهِ، مَعْمُولاً جَهْدَ الإِمْكَانِ في تَوَجُّهِهِمْ وَتَوَجُّهِ مَنْ صَحِبَهُمْ بِحَسَبِه، مُتَحَدِّثِينَ مِنْ عَظَمَةِ الأَمْرِ العَزِيزِ -أَدَامَهُ اللهُ- بِمَا يُبَلِّغُهُ الشَّاهِدُ مِنْهُمُ الغَائِب، وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْهِ الحَقَائِب[1].

وَبِبَرَكَةِ الحَضْرَةِ الإِمامِيَّةِ -أَيَّدَها اللهُ- يَتَسَنَّى مِنْ مَصَالِحِ العِبَادِ وَالبِلَادِ كُلُّ مَطْلُوب، وَيَتَمَشَّى فِي كُلِّ مَا يَعُودُ بِالأَمْنِ الشَّامِلِ وَالخَيْرِ الكَامِلِ كُلُّ مَرْغُوب، إِنْ شَاءَ الله تعالَى. واللهُ يُجَازِي الحَضْرَةَ الإِمَامِيَّةَ بِأَحْسَنِ الجَزاءِ، عَلى حُسْنِ نَظَرِهَا لِلْجِهَاتِ وَالأَرْجَاءِ، وَعَلَى مَا لَمْ تَزَلْ تُوَالِيهِ مِنْ كَرِيمِ الاعْتِنَاءِ، العَائِدِ بِبَسْطِ السَّرَّاءِ وَكَفِّ الضَّرَّاءِ، وَتَشْتَرِطُهُ لِلإِسْلامِ وَأَهْلِهِ بِحَسَبِ مَا لَهَا -وَالحَمْدُ للهِ- مِنْ عُلُوِّ الكَلِمَةِ وَنَصْرِ اللِّوَاءِ؛ وَهُوَ تَعَالَى يَحْرُسُ عَلَى العِبَادِ أَنْوَارَهَا، وَيَحْفَظُ سُعُودَهَا الَّتِي عَدَتْ حَوَائِطَ البِلَادِ وَأَسْوَارَها، وَيَصِلُ لَها مِنَ الإِمْدَادِ الرَّبَّانِيِّ وَالإِنْجَازِ السَّمَاوِيِّ مَا يَقْضِي أَغْرَاضَها كُلَّها وَأَوْطَارَهَا، وَيُطَبِّقُ ذِكْرُهُ آفاقَ الأَرَضِينَ وَأَقْطارَهَا؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ لَا رَبَّ سِواهُ.

وَكَتَبَ أَيْضاً مِنْ أُخْرَى:

وَبَرَكَاتُ الحَضْرةِ الإِمامِيَّةِ -أَيَّدَها اللهُ- يَتَوالَى إِلْمَامُها، وَنِعَمُهَا يَسُحُّ عَلَى العِبَادِ وَالبِلَادِ غَمَامُهَا؛ وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ حَمْداً يَسْتَدِيمُهَا وَيَسْتَزِيدُهَا، وَيَنْمَى بِهِ مَزِيدُهَا. وَمَا تَعْلَمُونَهُ -وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مِنْ كَمَالِ الوِدَادِ، وَجَمَالِ الاعْتِقَادِ، وَاحْتِفَالِ الشُّكْرِ، وَإِجْلَالِ القَدْرِ، فَرِيَاضُهُ زَاهِرَة، وَمَحاسِنُهُ ظَاهِرَة، وَأَسْبَابُهُ مُبْرَمَة، وَالنَّفْسُ بِاسْتِصْحَابِهِ مُغْرَمَة، وَاللهُ يَصِلُ ذَلِكَ فِي ذَاتِهِ وَيُبْقِيه، وَيَحْرُسُهُ وَيَقِيه.

---

(1) هذا شطر بيت شعري من الطويل وهو منسوب لنصيب الشاعر برواية:

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ ... وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ



وَمِنْ صِفَاتِ أَحْوَالِ هَذِهِ الجِهَاتِ اقْتِبَالُ الصَّلَاح، وَانْثِيَالُ النَّجَاح، وَتَمَهُّدُ القَرَار، وَاسْتِسْلَامُ الكُفَّار، وَامْتِدَادُ ظِلِّ الأَمَان، وَالاسْتِبْشَارُ بِسَعْدِ الزَّمَان، وَالانْبِسَاطُ فِي الرَّجَاء، بِحُسْنِ مَوَاقِعِ الغَيْثِ المُتَتَابِعِ الغَنَاء، المُؤْذِنِ فِي الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ بِالبَرَكَةِ وَالنَّمَاء؛ كُلُّ ذَلِكَ بِسَعَادَةِ الخِلَافَةِ وَبَرَكَةِ الإِمَامَةِ الَّتِي قَضَى اللهُ فِي الأَزَلِ بِأَنْ تَنْبَنِيَ عَلَيْهَا مَصَالِحُ الجُمْهُور، وَتَكُونَ بِهَا مَنَاجِحُ الأُمُور، وَتَتَّصِلَ بِهَا أَسْبَابُ الجِهَةِ وَالسُّرُور.

وَالحَمْدُ لِلَّهِ وَقَدْ وَصَلَ -وَصَلَ اللهُ سَعَادَتَكُمْ وَيَسَّرَ فِي كُلِّ أَمَلٍ إِرَادَتَكُمْ- كِتَابُكُمُ الأَثِير، السَّارُّ الخَطِير، صُحْبَةَ الكِتَابِ الإِمَامِيِّ الكَرِيمِ السَّنِيِّ المُضَمَّنِ مِنْ جَزِيلِ الفَضْلِ وَجَلِيلِه، وَخَفِيِّ التَّنْوِيهِ وَحَفِيلِه، مَا يَزْدَحِمُ الشُّكْرُ عَلَى فُصُولِه، وَيَتَفَرَّعُ الحَمْدُ مِنْ أُصُولِه، وَيَتَحَصَّلُ السَّعْدُ بِقُدُومِ مِثْلِهِ وَوُصُولِه، وَالمَشْحُونُ مِنْ أَنْوَارِ الالْتِفَاتِ الكَرِيمِ بِمَا جَرَى عَلَى مُتَعَارَفِهِ وَمُعْتَادِه، وَحَسَبَ أَمَلِ آمِلِهِ وَارْتِيَادِ مُرْتَادِه، بِمَا اقْتَضَاهُ مِنْ إِنْعَامِ المَقَامِ الإِمَامِيِّ -أَيَّدَهُ اللهُ- عَلَى عَبْدِهِ ابْنِ عَبْدِهِ بِالأَمْرِ بِتَقْدِيمِهِ فِي «بَطَلْيَوْس» وَسَائِرِ ثَغْرِهَا الجَوْفِي، وَإِنْفَاذِهِ إِلَيْهَا عَلَى الوَجْهِ المَرْضِيِّ الحَفِي. وَتِلْكَ عَادَةُ المَقَامِ الإِمَامِيِّ -شَكَرَهُ اللهُ- فِي إِنْشَاءِ العُبْدَان، وَالاعْتِنَاءِ بِمَصَالِحِهِمْ وَإِسْبَاغِ بُرُودِ الإِنْعَامِ عَلَيْهِم وَالإِحْسَان، وَتَمَلُّكِ قُلُوبِ الشِّيبِ مِنْهُمْ وَالشُّبَّان؛ تَوَلَّى اللهُ جَزَاءَهُ، وَشَكَرَ تَهَمُّمَهُ الكَرِيمِ بِعَبِيدِهِ وَاعْتِنَاءَه.

وَمُجِلُّكُمْ مُتَلَقٍّ لِهَذِهِ النِّعْمَةِ بِمُسْتَوْجَبِهَا مِنَ الشُّكْرِ وَمُسْتَحَقِّهَا، وَمُبَالِغٌ فِي ذَلِكَ مُبَالَغَةَ العَارِفِ لِحَقِّهَا. وَقَدْ أَلْقَى إِلَيْهِ مِنَ الوَصَايَا الوَاجِبَةِ فِيمَا قُلِّد، مَا اقْتَضَاهُ الغَرَضُ الإِمَامِيُّ الكَرِيمُ، وَهُوَ الآنَ آخِذٌ فِي الحَرَكَةِ مُسْتَعِيناً بِاللهِ تَعَالَى عَلَى مَا أُمِرَ بِه، عَامِلاً -بِحَوْلِ اللهِ- فِيمَا يُورِدُهُ وَيُصْدِرُهُ بِحَسَبِه؛ وَالبَرَكَةُ الإِمَامِيَّةُ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- تُعِينُهُ وَتُنْجِدُه، وَيُوَفِّقُهُ اللهُ بِهَا وَيُسَدِّدُه. وَمَا يُقَصِّرُ مُجِلُّكُمْ فِي التَّضَرُّعِ لِأَحْوَالِهِ وَالتَّسَمُّعِ لِأَنْبَائِهِ حَسْبَمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ ذَلِكُمْ إِنْ شَاءَ اللهُ؛ وَاللهُ يُجَازِي المَقَامَ الإِمَامِيَّ عَلَى غَرَضِهِ الجَمِيلِ، وَفَضْلِهِ الشَّامِلِ الجَزِيل.



وَتَضَمَّنَ كِتَابُكُمُ الأَثِيرُ المَشْكُورُ مَا شَفَعَ الإِنْعَامَ بِالإِنْعَام، فَقَرَنَ المِنَّةَ بِالإِكْمَالِ وَالإِتْمَام؛ مِنْ أَفْضَالِ المَقَام الإِمَامِيِّ -شَكَرَهُ اللهُ- بِإِكْمَالِ مُرَتَّبِهِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مُرَتَّبُ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَهُ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ؛ بِأَوَّلِ أَيَادِيهِ وَنِعَمِه، بَلْ هُوَ المَعْرُوفُ المَأْلُوفُ مِنْ جُودِهِ وَكَرَمِه؛ وَالَّذِي عِنْدَ مُجِلِّكُمْ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَحْوِيَهُ الكِتَاب، وَلَوْ أَطْنَبَ فِيهِ كُلَّ الإِطْنَاب.

وَكَذَلِكَ تَضَمَّنَ كِتَابُكُمُ الأَثِيرُ الإِعْلَامَ بِالوُقُوفِ عَلى النَّصِيحَةِ الَّتِي كَانَ العَبْدُ أَشَارَ إِلَيْهَا، وَالتَّقْرِيبِ لِرَأْيِهِ فِي التَّنْبِيهِ عَلَيْها؛ وَإِنَّ الشُّرُوعَ فِي النَّظَرِ فِيهَا يَكُونُ عِنْدَ إِكْمَال مَا يُحَاوِلُ مِنَ المُهَادَنَةِ -إِنْ شَاءَ اللهُ- وَمُوَافَقَةُ الغَرَضِ الكَرِيمِ فِي ذَلِكُمْ وَفِي أَمْثَالِهِ نِعْمَةٌ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي تَرْتَبِطُ نَفَائِسُهَا بِالشُّكْرِ، وَتُقَيَّدُ حَبَائِسُهَا بِالحَمْدِ وَالذِّكْر؛ فَالحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مُوَافَقَةِ الغَرَضِ الكَرِيم، حَمْدَ المُسْتَزِيدِ لِلنِّعْمَةِ في ذَلِكَ وَالمُسْتَدِيم؛ وَكُلُّ مَا تَمَشَّى -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مِنْ فَضْلِ المَقَامِ الإِمَامِيِّ فَهُوَ أَهْلُهُ. وَمُجِلُّكُمْ يَعْلَمُ مِنْ حُسْنِ وِسَاطَتِكُمْ فِيهِ وَجَمِيلِ سَعْيِكُمْ فِي نَسَبِهِ مَا لَا يَسَعُ جَهْلُه، وَشُكْرُهُ كَثِيرٌ لِمَا يَتَحَقَّقُ مِنْ جَمِيلِ مَقَاصِدِكُم، وَحَمِيدِ مَصَادِرِكُمْ فِي الجِدِّ وَمَوْرِدِكُم؛ وَاللهُ يُبْقِيكُمْ لِشُكْرٍ تَسْتَحِقُّونَهُ بِكَرَمِ خِلَالِكُم، وَجَمِيلِ فَضْلِكُمْ وَاهْتِبَالِكُم، وَبِحُسْنِ تَمْشِيَتِكُمْ وَحَمِيدِ فِعَالِكُم، وَيُبَلِّغُكُمْ فِي كُلِّ حَالٍ جَمِيعَ آمَالِكُمْ.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللهُ سَرَّاءَكُمْ وَضَاعَفَ نَعْمَاءَكُمْ؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَفْصَحَ لِسَانُ الزَّمَان، وَنَطَقَتْ شَوَاهِدُ البُرْهَان؛ فَإِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَمْرِهِ العَزِيزِ -أَدَامَهُ اللهُ- عِنَايَةً تَعْلُو بِهَا مَقَامَاتُه، وَتَبْدُو فِي كُلِّ زَمَانٍ كَرَامَاتُه، وَتَتَّضِحُ بِنَتَائِجِ مُقَدِّمَاتِهَا دَلَائِلُ سَعْدِهِ وَعَلَامَاتُه.

وَإِنَّ سَعَادَةَ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ، وَصَلَ اللهُ تَأْيِيدَهَا وَنَصْرَهَا، كَمَا أَسْعَدَ بِهَا عَبِيدَهَا وَعَصْرَهَا، قَدْ ثَبَتَتْ أُصُولُها وَبَسَقَتْ فُرُوعُها، وَاطَّرَدَ فِي الجَمَالِ وَالكَمَالِ مَقْدُورُها الإِلَهِيُّ وَمَصْنُوعُها، وَامْتَدَّ شَأْوُها وَاتَّسَعَ بَاعُها، وَرَسَخَ انْتِعَاشُها فِي صَفَحَاتِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ انْطِبَاعُها؛ فَأَثَرُهَا وَاضِحٌ وَنُورُهَا مُبِين، وَالعِلْمُ بِاطِّرَادِها وَاتِّصَالِهَا مَعْنَاهُمَا



يَقِين، وَمِثْلُها فِي عُكُوفِ فَوَائِدِها وَتَجَدُّدِ مَأْلُوفِ عَوَائِدِهَا ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾[1]. وَعَلَى الجُمْلَةِ فَإِنَّ البَلَاغَةَ تَعْجِزُ عَنْ وَصْفِ السَّعَادَةِ الإِمَامِيَّةِ وَلَوْ أَغْرَبَتْ إِغْرَاباً، فَلَيْسَ إِلَّا أَنَّ لِسَانَ الحَالِ بِهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ أَقْوَمُ قِيلاً وَأَفْصَحُ إِعْرَاباً؛ وَمَا زَالَتِ البَشَائِرُ -بِبَرَكَةِ الخِلَافَةِ- وَالسَّعَادَةُ تَطْلُعُ شُمُوساً فِي سَمَاءِ سَعْدِها، وَكُلَّمَا جَاءَتْ أَيَّامُهَا المُبَارَكَةُ بِبُشْرَى جَاءَتْ بِأُخْتِهَا الكُبْرَى مِنْ بَعْدِها.

وَالحَمْد لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ وَقَدْ طَلَعَتِ الآنَ فِي سَمَاءِ السَّعَادَةِ الإِمَامِيَّةِ بُشْرَى مِنْ أَعْظَمِ البُشَر، وَأَكْبَرِ نِعَمِ اللهِ عَلَى البَشَر، تُؤْذِنُ الكُفْرَ بِانْتِثَارِ كَوَاكِبِهِ وَتَبَدُّدِ شَمْلِهِ وَتَفَرُّقِ جُمُوعِه، وَاجْتِثَاثِ أُصُولِهِ الخَبِيثَةِ وَفُرُوعِه، وَقَذْفِ الرُّعْبِ[2] فِي قَلْبِهِ وَنَفْثِ الرَّوْعِ فِي رُوعِه؛ كَمَا تُؤْذِنُ الإِسْلَامَ بِنَصْرِ لِوَائِه، وَاعْتِزَازِ أَوْلِيَائِهِ عَلَى أَعْدَائه، وَتَمَكُّنِ الأَمْنِ فِي ثُبُوتِهِ وَاسْتِوَائِه، وَتَفَيُّءِ مَا مَدَّ اللهُ عَلَى المُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الجَزِيرَةِ مِنْ ظِلٍّ وَارِف، وَعَرَّفَهُمْ بِبَرَكَةِ الخِلَافَةِ السَّعِيدَةِ مِنْ جَمِيلِ العَوَارِف. وَذَلِكُمْ بِمَا كَانَ مِنَ الفَتْحِ المُبِين، وَالصُّنْعِ الَّذِي أَشْرَقَ بِهِ وَجْهُ الدِّين، بِمَوْتِ طَاغِيَةِ الكُفَّارِ المُعَجَّلِ بِرُوحِهِ إِلَى النَّار، صَاحِبِ «قَشْتَالَةَ» لا سَقَى اللهُ لَهُ قَبْراً، وَلَا أَعْقَبَ صَدْعَ أَهْلِ مِلَّتِهِ بَعْدَهُ جَبْراً. وَإِنَّ ذَلِكَ لَنِعْمَةٌ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي ذَخَرَهَا اللهُ لِأَيَّامِ خَلِيفَتِهِ المَيْمُونَةِ السَّعِيد، وَاخْتَصَّ بِهَا دَوْلَتَهُ الَّتِي قَضَى فِيهَا لِلْإِسْلَامِ بِإِنْجَازِ الوَعْدِ وَعَلَى الكُفْرِ بِإِنْجَازِ الوَعِيد، فَبِسَعَادَةِ خِلَافَتِهِ يُدَمِّرُ اللهُ الكُفْرَ تَدْمِيراً، وَبِبَرَكَةِ إِمَامَتِهِ يُتَبِّرُ أَهْلَ الشِّرْكِ تَتْبِيراً.

وَقَدْ -كَانَ- تَقَدَّمَتْ هَذِهِ البُشْرَى مَسَرَّةٌ أُخْرَى كَانَتْ لِصَحِيفَتِهِ هَذِهِ كَالعُنْوَان، وَكَالفَجْرِ الدَّالِّ عَلَى مَا بَيْنَ طُلُوعِهِ وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ قُرْبِ الأَوَان. بِهَلَاكِ «دِيَاقَهْ لُبسْ»[3] الَّذِي كَانَ عِنْدَ الطَّاغِيَةِ المَذْكُورِ رَئِيسَ الخُدَّام، وَزَعِيمَ الأَقْوَام، وَالَّذِي كَانَتْ

(1) سورة: إبراهيم، الآيتان: 26-27.
(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾. سورة الأحزاب، الآية: 26.
(3) DIEGO LOPEZ أحد دهاقنة قشتالة.



أَكْثَرُ أُمُورِ الطَّاغِيةِ بِيَدِه، وَكَانَ الكَافِرُ يَعْتَدُّ بِهِ اعْتِدَادَهُ بِسَاعِدِهِ وَعَضُدِه، وَيَسْتَظْهِرُ بِكِفَايَتِهِ اسْتِظْهَارَهُ بِالقَوِيِّ عِنْدَهُ مِنْ عُدَدِه؛ فَلَمْ يُبْقِ اللهُ مِنْهُمْ بِسَعَادَةِ الخِلَافَةِ المُبَارَكَةِ رَئِيساً وَلاَ مَرْؤُوساً، وَلَا تَرَكَ لِلْكُفَّارِ عَلَماً بَعْدَهُ إِلاَّ مَنْكُوساً، وَكُلَّمَا ضَاعَفَ لِلْخِلَافَةِ المُبَارَكَةِ سُعُوداً، ضَاعَفَ لِلْكُفَّارِ أَعْدَادَها نُحُوساً. وَكَأَنِّي بِكَلِمَةِ الأَعْدَاءِ قَدْ تَفَرَّقَتْ، وَبِأَصْنَافِ الرَّزَايَا إِلَيْهِمْ قَدْ تَطَرَّقَتْ، وَبِالأَيَّامِ قَدْ قَلَبَتْ لَهُمْ ظَهْرَ المِجَن، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ بِالفَضْلِ مِنَ اللهِ وَالمِحَن، وَبِسَعَادَةِ الخِلَافَةِ المَصْنُوعِ لَهَا، وبَرَكَةِ الإِمَامَةِ الَّتِي بَسَطَ اللهُ بِهَا لِلأُمَّةِ أَمَلَهَا؛ فَسَعَادَةُ الخِلَافَةِ هِيَ الَّتِي أَهْدَتْ هَذِهِ البَشَائِرَ وَأَقْطَفَتْ ثَمَرَهَا، وبَرَكَةُ الإِمَامَةِ السَّعِيدَةِ هِيَ الَّتِي أَطْلَعَتْ شَمْسَ هَذِهِ الأَفْرَاحِ وَقَمَرَهَا. وَكَذَلِكَ تَتَوَالَى الفُتُوحُ فِي أَيَّامِهَا وَتَتَنَاصَر، وَتَأْتِي الأَقْدَارُ المُسْعِدَةُ مِنْهَا بِمَا تَتَضَاءَلُ لِوَصْفِهِ الأَذْهَانُ وَتَتَقَاصَر. بِفَضْلِ اللهِ سُبْحَانَهُ يُعْلِمُكُمْ مُجِلُّكُمْ -أَدَامَ اللهُ سَعْدَكُمْ- بِمَا تَوَاتَرَ مِنْ هَذَا الخَبَرِ السَّارِّ عِنْدَهُ؛ وَهُوَ خَبَرٌ قَدْ اسْتَفَاضَ بِحَيْثُ لَا يُشَكُّ فِي صِدْقِهِ وَلَا يُمْتَرَى فِي صِحَّتِه؛ وَقَدْ وَصَلَتْ بِهِ المُخَاطَبَات، مِنْ حُصُونٍ شَتَّى وَجِهَات. فَالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَّ غَارِبَ الكُفْرِ وَسَنَامَه، وَأَعَزَّ الإِسْلَامَ وَأَعْلَى مَقَامَه، وَأَظْهَرَ بَرَكَةَ إِمَامَةِ خَلِيفَتِهِ وَأَسْعَدَ أَيَّامَه. وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي تَرَكَ سَائِمَةَ الشِّرْكِ هَمَلاً، وَلَمْ يَبْنِ لَهَا فِي الفَلَاحِ وَلَا فِي الصَّلَاحِ أَمَلاً؛ وَالحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذَلَّ كَلِمَةَ الكُفْرِ وَأَعَزَّ كَلِمَةَ الإِيمَان، وَجَعَلَ البَشَائِرَ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا مِنَ الأَمَامِ وَالوَرَاءِ وَعَنِ الشَّمَائِلِ وَالأَيْمَان.

فَالأَحْوَالُ فِي هَذِهِ الجِهَةِ مُعْتَمِلَةٌ -والحَمْدُ لِلَّهِ- فِي مَنَاهِجِ الصَّلَاح، مُقْتَرِنَةٌ بِالأَمْنَةِ المُقْتَبَلَةِ الشَّبَابِ وَالعَافِيَةِ المُتَبَلِّجَةِ الصَّبَاح؛ وَالنَّاسُ بِمَا جَادَ الأَرْضَ مِنَ الحَيَا أَيْضاً فِي اسْتِبْشَار، وَلِلْحِرَاثَةِ انْبِسَاطٌ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَانْتِشَار؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِبَرَكَةِ الخِلَافَةِ السَّعِيدَةِ وَسَعَادَتِهَا، وَصَلَ اللهُ لَها فِي السُّعُودِ بِاطِّرَادِ عَادَتِها. وَقَدْ وَثِقُوا بِأَنَّ سَعَادَةَ الخِلَافَةِ وَثِيقَةُ المَبَانِي، ظَاهِرَةٌ فِي كُلِّ مَعْنىً مِنَ المَعَانِي، لَائِحَةٌ لِلْقَاصِي وَالدَّانِي؛ وَإِنَّ اللهَ لَا يَزَالُ يَنْشُرُ أَنْوَارَها، وَيُجْرِي الأُمُورَ عَلَى مَا يُوَافِقُ اخْتِيَارَها، وَيَمْلَأُ بِالسُّرُورِ فِي أَيَّامِهَا السَّعِيدَةِ بِلَادَها وَأَمْصَارَها؛ واللهُ يُوزِعُ شُكْرَ مَا أَوْلَى فِي أَيَّامِهَا مِنَ المَسَرَّات، وَجَزِيلِ الخَيْرَات، وَيَجْعَلُ سَعْدَها كَالعِلْمِ الضَّرُورِيِّ وَالمَثَلِ السَّائِر.



وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَبَرَكَاتُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- صَافِيَةُ البُرُود، دَائِمَةُ الوُرُود، جَارِيَةٌ مِنَ التَّرَادُفِ وَالتَّضَاعُفِ عَلَى أَكْرَمِ مَعْهُود، كَفِيلَةٌ لِلْعِبَادِ وَالبِلَادِ بِالتَّأْمِينِ وَالتَّمْهِيد؛ وَالحَمْدُ للهِ وَالوُدُّ لَكُمْ مُمْتَدُّ الأَمْرَاسِ[1]، وَثِيقُ الأَسَاسِ، وَالشُّكْرُ لِجَمِيلِ مَقَاصِدِكُمْ مَغْمُورُ المَغَانِي، حَفِيلُ المَعَانِي، وَالتَّطَلُّعُ لِسَمَاعِ أَنْبَائِكُمْ، وَتَلَقِّي المَسَرَّاتِ مِنْ تِلْقَائِكُمْ، مُسْتَصْحَبٌ فِي جَمِيعِ الآنَاء، مُعْتَنىً بِهِ كُلَّ الاعْتِنَاء؛ واللهُ يَبْسُطُ جَذَلَكُمْ، وَيُضَاعِفُ النِّعَمَ قِبَلَكُم.

وَالأَحْوَالُ فِي هَذِهِ الجِهَاتِ- أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- جَارِيَةٌ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ سَعَادَةُ الخِلَافَةِ المُبَارَكَةِ -أَدَامَهَا اللهُ- مِنْ عُمُومِ المَسَرَّاتِ وَالأَفْرَاح، وَانْشِرَاحِ الصُّدُورِ وَتَنَعُّمِ الأَرْوَاح، وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا عَوَّدَ أَمْرَهُ العَزِيز مِنَ الظُّهُور، وَتَمَامِ النُّور.

وَقَدْ وَصَلَ الكِتَابُ الإِمَامِيُّ المُعَظَّمُ الكَرِيمُ -وَصَلَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مُضَمَّناً مِنَ التَّشْرِيفِ وَالتَّنْوِيه، وَالالْتِفَاتِ الكَرِيمِ النَّبِيه، مَا لَمْ يَزَلِ المَقَامُ الإِمَامِيُّ- شَكَرَهُ اللهُ- يُولِيه؛ وَاللهُ يُوزِعُ شُكْرَ مِنَنِهِ الجَسِيمَةِ وَأَيَادِيه.

وَوَصَلَ أَيْضاً صُحْبَةَ الكِتَابِ الكَرِيمِ كِتَابُكُمُ الأَثِير، المُبْهِجُ الخَطِير، فَسُرَّ مُحِبُّكُمْ بِوُصُولِه، وَشَكَرَ جُمْلَةَ فُصُولِه؛ وَذَكَرْتُمْ نُفُوذَ الإِنْعَامِ الإِمَامِيِّ -شَكَرَهُ اللهُ- بِمُرَتَّبٍ لِلْمُحَاسِبِ الَّذِي قَدِمَ هُنَا مُحِبُّكُمْ يَسْتَعِينُ بِهِ؛ وَتِلْكُمْ عَادَةُ المَقَامِ الإِمَامِيِّ -أَيَّدَهُ اللهُ- فِي الإِحْسَان، وَقَصْدِ الإِنْعَامِ عَلَى كُلِّ إِنْسَان؛ وَاللهُ يُجَازِي الإِنْعَامَ الإِمَامِيَّ وَالنَّظَرَ الكَرِيمَ العَلِيَّ؛ وِسَاطَتَكُمْ فِي ذَلِكُمْ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- مَشْكُورَة، وَبِكُلِّ جَمِيلٍ مِنَ الذِّكْرِ مَذْكُورَة، واللهُ يَشْكُرُ اهْتِبَالَكُمْ بِجَمِيعِ المَسَائِلِ، وَيُبْقِيكُمْ لِلْمَحَامِدِ وَالفَضَائِلِ.

---

(1) الأمراس هي الجبال. قال الشاعر:

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِهَا ... بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ



وَكَتَبَ أَيْضاً:

وَإِلَى هَـذَا أَوْرَدَ اللهُ عَلَى المَقَامِ الإِمَامِيِّ مِنَ البَشَائِرِ أَصْدَقَهَا بَيَانَـا، وَأَوْضَحَهَا لِلأَبْصَارِ وَالبَصَائِرِ عِيانَـا، وَأَعْوَدَها بِمَا يَكُونُ عَلَى سَعْدِ الخِلَافَةِ المُبَارَكَةِ بُرْهَانَـا. فَإِنَّهُ قَدْ أَوْضَحَ الحسن، وَأَفْصَح اللّسن، وَعَلِمَ مَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى بِأَمْرِهِ العَزِيزِ - أَدَامَـهُ اللهُ - عِنَايَـةً لَا يَـزَالُ يَـصِلُ لَـهُ أَسْـبَابَها، وَكَرَامَـةً لَا يَبْرَحُ يَفْـتَحُ لَـهُ في كُـلِّ حَـالٍ وَاسْتِقْبَالٍ أَبْوَابَها؛ وَقَدْ قَضَى اللهُ سُبْحَانَهُ بِأَنْ عَـوَّدَ هَـذَا الأَمْرَ العَزِيزَ أَجْمَلَ العَوَائِد، وَتَكَفَّلَ لَـهُ بِأَحْفَلِ البَشَائِرِ وَأَكْمَلِ الفَوَائِد، و.... إِلَيْهِ مُخْتَلِفَاتِ القُلُوب، وَأَجْرَاهُ فِي حَالَتَيْ السَّلْمِ وَالحَرْب، وَالبُعْدِ وَالقُرْبِ مِنَ التَّيْسِيرِ وَالتَّسْهِيلِ وَالصُّنْعِ الجَمِيلِ عَلَى أَوْضَحِ أُسْلُوب.

وَالحَمْـدُ للهِ رَبِّ العَـالَمِينَ؛ وَقَـدْ وَرَدَ الآنَ مِـنْ سَـارِّ الأَنْبَـاءِ، مَـا تَجِـبُ بِـهِ مُطَالَعَـةُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ المَنْصُورَةِ اللِّوَاءِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ وَصَلَ نَصْرَانِيٌّ فَأَخبرَ بِكَذَا وَكَذا؛ وَهَذِهِ بَشَائِرُ بِبَرَكَةِ مَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا جعَلَ اللهُ بَأْسَ أَعْدَائِهِ بَيْنَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ بِآرَائِهِمْ وَجعَلَ فِي تَدْبِيرِهِمْ، عَاجِلَ تَدْمِيرِهِمْ. فَأَعْلَمَ العَبْدُ بِمَا تَجَدَّدَ عِنْدَهُ مِنْ أَخْبَارِ الأَعْدَاء. وَاللهُ يَحْفَظُهُ وَيُدِيمُ تَأْيِيدَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا وَيُخَلِّدُ مُلْكَهُ فَبِسَعْدِهِ تَطْمَئِنُّ البِلَادُ وَتَمْتَدُّ الأَمْنَةُ وَيَمْحَقُ اللهُ الكُفْرَ وَشِيعَتَه. وَكُلُّ مَا يَرِدُ مِنَ البَشَائِرِ وَالمَسَرَّاتِ، وَيَتَوَالَى مِنَ الصَّنَائِعِ الجَمِيلَةِ وَالخَيْرَات، فَذَلِكَ كُلُّهُ بِبَرَكَةِ الخِلَافَةِ السَّعِيدَةِ، وَبِسَعَادَةِ الإِمَامَةِ المُبَارَكَةِ الحَمِيدَةِ. وَتِلْكَ عَوَائِدُ اللهِ الجَمِيلَةَ الَّتِي هِيَ بِكُلِّ مَصْلَحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ الأَمْرِ العَزِيزِ كَفِيلَة، وَاللهُ يُوَالِي المَسَرَّاتِ تِبَاعـا، وَيُطْلِعُ مِنْهَا أَجْنَاسـاً مُتَوَالِيَةً وَأَنْوَاعـاً.

وَكَتَبَ أَيْضاً:

إِلَى وَزِيرِ الخِلَافَةِ العَالِيَةِ أَسْعَدَها اللهُ وَإِيَّاه. وَبَعْدَ حَمْدِ اللهِ مُعَوِّدِ أَمْرِهِ العَزِيزِ كُلَّ فَتْح جَلِيلٍ، المُجَدِّدِ لَهُ كُلَّ صُنْعٍ جَمِيلٍ، المُقِيمِ مَا وَهَبَ لَهُ مِنَ التَّيْسِيرِ فِي كُلِّ مَرَامٍ وَالتَّسْهِيل، مَقَامَ البُرْهَانِ عَلَى سَعْدِهِ وَالدَّلِيل، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الهَادِي إِلَى



خَيْرِ سَبِيل، وَالرِّضَا عَنِ الإِمَامِ المَعْصُومِ المَهْدِيِّ المَعْلُومِ ظِلِّ اللهِ المَمْدُودِ الظَّلِيل، وَطَيبِ الدِّينِ حِينَ تَضَاءَلَ فِي أَسْمَالِ عَلِيل، وَعَنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المُرْشِدِينَ الَّذِينَ مَشَّوْا أَمْرَهُ العَزِيزَ إِلَى غَايَةِ التَّتْمِيمِ وَالتَّكْمِيل، وَالدُّعَاءِ لِسَيِّدِنَا وَمَوْلاَنَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ابْنِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين، بِالنَّصْرِ الأَعَزِّ وَالفَتْحِ الحَفِيل، عَلَى وَفْقِ التَّأْمِيل.

فَالكِتَابُ إِلَيْكُمْ -كَتَبَ اللهُ لَكُمْ مِنَ السَّرَّاءِ مَا يَفِيضُ سَنَاه، وَبِحَسَبِ أَمَلِ الآمِلِ وَمُنَاه- مِنْ «إِشْبِيلِيَّة» -حَرَسَهَا اللهُ- وَسَعَادَةُ الحَضْرَةِ الإِمَامِيَّةِ -أَيَّدَهَا اللهُ- كَبِيرَة، وَبَشَائِرُهَا لِأَوْلِيَائِهَا المُؤْمِنِينَ سَارَّةٌ وَلِأَعْدَائِهَا الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ مُبِيرَةٌ؛ وَيُمْنُ خِلاَفَتِهَا قَدِ اتَّضَحَ دَلِيلُهُ وَبُرْهَانُه، وَسَوَابِقُ كَرَامَاتِها قَدْ غَصَّ بِهِ مِضْمَارُ السُّرُورِ وَرِهَانُه، وَأَيَّامُهَا السَّعِيدَةُ -أَدَامَهَا اللهُ- أَعْيَادٌ كُلُّهَا وَمَوَاسِم، وَثُغُورُ المَوَاسِطِ وَالثُّغُور[1] بِمَا وَهَبَ اللهُ لَها مِنَ الظُّهُورِ بَوَاسِم؛ وَبَيْعَتُها المَيْمُونَةُ قَدْ أَثْمَرَتْ لِلْمُؤْمِنِينَ أَطْيَبَ الثَّمَر، وَأَبْدَتْ آيَةَ سَعْدِها أَبْيَنَ مِنَ الشَّمْسِ وَالقَمَر؛ فَنُورُ الحَقِّ بِهَا بَاهِر، وَرَوْضُ العَدْلِ زَاهِر، وَجِيدُ الدَّهْرِ بِمَحَامِدِهَا حَالٍ، وَكَعْبُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ عَالٍ، وَغَيْثُ نِعَمِهَا وَابِل، ومثلُ مَا غَرَسَ اللهُ مِنْ مَحَبَّةِ أَمْرِهَا العَزِيزِ فِي كُلِّ قَلْبٍ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾[2] وَحَبْلُ اليَقِينِ بِصِدْقِ دَعْوَتِهَا العَالِيَةِ مُغَار[3]، وَنُطْقُ النَّاطِقِينَ كُلُّهُ اعْتِرَافٌ بِعِزَّتِهَا وَإِقْرَار.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ عَلى هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى بِالحُسْبَان، وَلاَ يَخْطُرُ حَصْرُهَا فِي الحُسْبَان، حَمْداً يَكُونُ بِفَضْلِ اللهِ لَها قَيْدا، وَيَقْتَنِصُ بِهِ المَزِيدُ وَالصُّنْعُ الجَدِيدُ صَيْدا.

وَقَدْ تَقَدَّمَ الخِطَابُ إِلَيْكُمْ، أَسْبَغَ اللهُ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً عَلَيْكُم، بِمَا كَانَ قَدْ طَلَعَ بِهِ فِي هَذَا الأُفُقِ فَجْرُ البُشْرَى، مِنَ الأَخْبَارِ بِمَا يَسَّرَهُ اللهُ لِأَمْرِهِ العَزِيزِ مِنَ البُشْرَى، وَسَنَّاهُ

(1) الثغور الأولى: يقصد بها الأفواه، جمع ثغر. أما الثانية فيعني بها الأراضي المتاخمة للحدود النصرانية.
(2) سورة البقرة، الآية: 260.
(3) مغار: شديد الفتل، وقد أشار الشاعر الجاهلي إلى ذلك بقوله:
بِكُلِّ مُغَارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُل



سَعْدُهُ مِنَ النِّعْمَةِ الكُبْرى، فِي قَتْلِ الشَّقِيِّ الَّذِي كَانَ نَجَمَ «بِجَزُولَةَ» لِحَيْنِه، فَاسْتَوَى سَيْفُ اللهِ مِنْ نَاصِيَتِهِ الكَاذِبَةِ الخَاطِئَةِ[1] اقْتِضَاءَ دَيْنِه. وَكَانَ حُكْمَ اليَقِين، بِمَا لِلْأَمْرِ العَزِيزِ مِنَ السَّعْدِ المُبِين؛ -يَعْلَمُ اللهُ- بِضَرُورَةِ العَقْل، صِحَّةُ هَذَا الخَبَرِ مِنْ طَرِيقِ المَعْنَى وَيُتَشَوَّقُ إِلَى صِحَّةِ تَأَكُّدِهِ مِنْ طَرِيقِ النَّقْل. فَكَانَ السُّرُورُ وَقَدْ مَدَّ لِلنَّسْجِ سَدَاه، وَأَخَذَتْ بِطَرَفَيْ مِنْوَالِهِ يَدَاه، وَوَضَعَ قَدَمَهُ فِي الدُّرَج، لِيَصْعَدَ بِالخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ إِلَى غُرُفَاتِ الفَرَج؛ ثُمَّ لَمْ يَدَعِ الأُمَّةَ المُبْتَهِجَةَ بِأَنْ أَسْعَدَ اللهُ مَوْلَاهَا وَإِمَامَها إِلَّا طُلُوعُ شَمْسِ كِتَابِهِ الكَرِيمِ أَمَامَهَا، مُضَمناً مِنْ صِحَّةِ الخَبَر وَتَحْقِيقِ الفَتْحِ الَّذِي مِنْ أُمَّهاتِ العَبْدِ مَا أَعَزَّ دِينَهَا وَأَكَّدَ يَقِينَهَا وَزَادَهَا إِيمَاناً لِإِيمَانِهَا، وَغِبْطَةً لِغِبْطَتِهَا؛ بِالبَيْعَةِ المَيْمُونَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ أَعْطَتْ بِهَا صَفْقَةَ أَيْمَانِها، فَغَدَا كُلُّ لِسَانٍ وَهُوَ بِعِظَمِ هَذِهِ النِّعَمِ مُفْعَم، وَأَضْحَى السُّرُورُ وَغُفْلُه مُعْلَم، وَسَرَى كَالمُتَقَدِّمِ الَّذِي كَرَّ مُلْجَم، وَعَلَا فِي ذِرْوَةِ الاسْتِبْشَارِ مِصْعَدُهُ وَمُسَمَّاه، وَانْتَهَى إِلَى الارْتِفَاعِ مِنْ شَرَفِ الانْتِفَاعِ إِلَى أَسْمَاه.

وَكَانَ مِنَ السَّعْدِ الَّذِي أَشْرَقَتْ آيَاتُه، وَالصُّنْعِ الَّذِي اطَّرَدَتْ فِي الجَمَالِ وَالكَمَالِ جُزْئِيَاتُه وَكُلِّيَاتُه، أَنْ وَافَقَ وُصُولُ الكِتَابِ الكَرِيمِ لَيْلَةَ الجُمُعَة، فَتَمَّمَ اللهُ بِذَلِكَ فَضْلَ اليَوْمِ وَجَمْعَه. وَأَعْرَبَتْ مُوَافَقَةٌ عَرُوبَة عَنْ تَأَنُّقِ العِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بِمَصَالِحِ الأَمْرِ العَزِيزِ أَفْصَحَ إِعْرَاب، وَأَغْرَبَتْ لَطَائِفُ التَّكْيِيفَاتِ بِمَا كَانَ فِي ذَلِكَ مِنَ الحَشْرِ لِلْإِذَاعَةِ بِهِ وَالنَّشْرِ أَوْضَحَ إِغْرَاب، حَيْثُ جَمَعَ اللهُ الأُمَّةَ مِنَ الحَاضِرَةِ وَالبَادِيَةِ لِسَمَاعِ البُشْرَى، وَحَشَرَهَا فِي الجَامِعِ الكَرِيمِ، فِي يَوْمٍ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَيَوْمٍ مَشْهُودٍ حَشْراً[2]؛ فَفَرِحَ بِهِ المِنْبَرُ المُبَارَكُ بَعْدَ صَلَاةِ الجُمُعَةِ فِي حَفْلٍ سَاعَدَهُ القَضَاء، وَضَاقَتْ مِنْهُ الأَرْضُ وَغَصَّ بِهِ الفَضَاء، فَكَانَ فِعْلُ اللهِ فِي جَمْعِ مَنْ جَمَعَ فِيهِ وَحَشْرِ مَنْ حَشَر، أَجْمَلَ وَأَكْمَلَ مِنْ كُلِّ احْتِفَالٍ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي ذَلِكَ البَشَر، فَضَجَّ النَّاسُ بِالدُّعَاءِ

(1) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾. سورة العلق، الآيتان: 16-17.

(2) مقتبس من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، سورة هود، الآية: 103.



وَالشُّكْر، عِنْدَ سَمَاعِ مَا تَضَمَّنَ مِنَ الذِّكر، ضَجِيجَ مَنِ اسْتَخَفَّ الفَرَحُ وَقَارَه، وَطَارَ بِهِ السُّرُورُ مَطَارَه، وَتَيَقَّنَ الجَمِيعُ أَنَّ الأَمْرَ العَزِيزَ اللهُ الَّذِي يَنْصُرُ أَنْصارَه، وَيَخْدُمُ أَقْدَارَه، وَيَكْشِفُ لَهُ مِنْ خَبَايَا الفَتْحِ المُبِينِ أَسْرَارَه. فَلَوْ رَأَيْتُمْ -أَدَامَ اللهُ عِزَّتَكُمْ- ارْتِيَاحَ الخَلْقِ وَاهْتِزَازَهُم، وَافْتِخَارَهُمْ بِمَا وَهَبَ اللهُ لَهُمْ مِنْ سَعْدِ أَيْمَانِهِمْ وَاعْتِزَازَهُم، وَإِعَادَتَهُمْ فِي شُكْرِ اللهِ تَعَالَى وَإِبْدَاءَهُم، وَدُعَاءَهُمْ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ بِتَخْلِيدِ هَذَا الأَمْرِ وَنِدَاءَهُم، وَخَتْمَهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّحْمِيد، وَالتَّعْظِيمِ لِأَمْرِ اللهِ وَالتَّمْجِيد، وَابْتِدَاءَهُمْ، لَرَأَيْتُمْ مَا يُقِرُّ عَيْنَ الإِيمَان، وَيَشْهَدُ تَصْرِيحاً وَتَلْوِيحاً بِسَعَادَةِ هَذَا الزَّمَان. وَلَقَدِ اسْتَفَزَّ الطَّرَبُ الخَاصَّةَ وَالعَامَّةَ فَحَكَمُوا بِحُكْمِ الأَعْيَادِ لِلأَيَّام، وَأَجْرَوْهَا مَجْرَاهَا فِي إِفْشَاءِ السَّلَامِ فِيهَا وَإِطْعَامِ الطَّعَام، وَاحْتَفَلُوا فِي حَقِّهَا احْتِفَالَ ذَوِي الاهْتِمَام؛ وَبَدَا بِذَلِكَ «المُوَحِّدُونَ» -أَعَزَّهُمُ اللهُ- عَلَى عَادَةٍ بِدَارِهِمْ، ثُمَّ تَلاَهُمْ أَهْلُ البَلَدِ عَلَى أَطْوَارِهِمْ، يَنْتَشِرُونَ لِإِظْهَارِ مَا عَمَّهُمْ مِنَ الفَرَحِ فِي أَنْجَادِهِمْ وَأَغْوَارِهِم، وَيُقِيمُونَ أَعْرَاساً فِي كُلِّ مَكَان، وَيَحْسِبُونَ كُلَّ يَوْمٍ يَوْمَ مَوْسِمٍ وَمِهْرَجَان؛ فَدَرَّتِ النِّعَمُ دُرُوراً، وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ سُرُوراً، وَعَادَ الفَضَاءُ كُلُّهُ مَأْلَفَ لِلشُّكْرِ وَمَعَاهِد، وَمَجَالِسَ لِلذِّكْرِ وَمَسَاجِد؛ وَيَحِقُّ ذَلِكَ لِهَذَا الفَتْحِ فَإِنَّهُ لَفَتْحٌ مِنَ الفُتُوحِ الَّتِي يَتَعَدَّدُ إِثْمَارُهَا، وَتَصْلُحُ بِهَا أَحْوَالُ الأُمَّةِ وَتَشِبُّ أَعْمَارُهَا، وَتَتَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِأَمْثَالِهَا[1]، وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي حُلَلِ جَمَالِهَا، وَتَنْصَرِفُ المُنَى عَنْهَا حُفَّلاً مَشْمُولَةَ الحَلَب[2]، وَلاَ تَتْرُكُ لِأَحَدٍ مَطْلَباً إِلاَّ تَقْضِيهِ فَيُصْحَبُ الدُّنْيَا بَعْدَهَا بِلاَ طَلَب، إِلاَّ طَلَبَ إِطَالَةِ بَقَاءِ الخِلاَفَةِ الَّذِي يَعْضُدُهُ الوَعْدُ، وَتَخْلِيدَ دَعْوَتِهَا الَّذِي سَبَقَتْ بِهِ كَلِمَةُ مَنْ لَهُ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ[3].

---

(1) مقتبس من قول الشاعر العباسي:

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ ... وَتَبْرُزُ الأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا القُشُبِ

(2) مقتبس من قول أبي تمام:

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ ... مِنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

(3) مقتبس من قوله تعالى: ﴿لِلهِ اِ۬لَامْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٖ يَفْرَحُ اُ۬لْمُومِنُونَ﴾. سورة: الروم، الآية: 3.



فَالحَمْدُ للهِ الَّذِي ضَاعَفَ لِعِبَادِهِ أَقْسَامَ الفَرَحِ وَالجَذَل، وَبَلَّغَهُمْ مِنْ سَعْدِهَا خَلِيفَتَهُ غَايَةَ الأَمَل، وَعَرَّفَهُمْ أَنَّ لَهُمْ مِنْ قِبَلِ اللهِ أَنْصَاراً فِي كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَل، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الكَائِدِينَ يَكِيدُهُمْ -وَالحَمْدُ للهِ- مِنْ قِبَل؛ وَيَاعَجَباً لِذَلِكَ الشَّقِيِّ المَغْرُور، كَيْفَ عَمِيَ عَنِ النُّور، الَّذِي يَتَسَاوَى فِي إِدْرَاكِهِ عُقَلَاءُ الجُمْهُور، ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾[1]؛ وَلَقَدْ قَابَلَ البَحْرَ الزَّخَّارَ بِالوَشَل، وَالقُدْرَةَ الإِلَهِيَّةَ بِالعَجْزِ وَالفَشَل، وَزَاحَمَ الحَدِيدَ بِالزُّجَاج، وَلَمْ يَعْرِفْ الفَرْقَ بَيْنَ الأَسِنَّةِ وَالزِّجَاج، وَدَفَعَ العُلُومَ الضَّرُورِيَّةَ بِدَوَاحِضِ الحِجَاج؛ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ مَنْ شَكَّ فِي هَذَا الأَمْرِ العَزِيزِ فَقَدْ شَكَّ فِي وَحْدَانِيَّةِ الجَلِيل، وَمَنْ طَلَبَ الدَّلِيلَ عَلَى ظُهُورِهِ فَقَدِ احْتَاجَ النَّهَارُ عِنْدَهُ[2] إِلَى دَلِيل[3].

فَالحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْجَزَ فِيهِ وَفِي أَشْيَاعِهِ وَعْدَه، وَأَوْضَحَ بِصُنْعِهِ فِيهِمْ يُمْنَ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الخَلِيفَةِ الإِمَامِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَبَيَّنَ سَعْدَه، وَبَشَّرَ قِيَاساً وَسَمَاعاً بِأَنَّ لِهَذَا الفَتْحِ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- مَا بَعْدَه. وَمَا لَبِثَ مُجِلُّكُمْ أَنْ أَنْفَذَ نُسَخَ الكِتَابِ الكَرِيمِ إِلَى جَمِيعِ هَذِهِ الجِهَاتِ، وَعَمَّ بِبَثِّهَا جَمِيعَ الأُمَّهَاتِ مِنْهَا وَالبَنَات، حَتَّى عَمَّتِ البُشْرَى كُلَّ ثَغْرٍ وَحِصْن، وَحَلَّتْ عَلَى القَرِيبِ وَالبَعِيد، بِبَرَكَةِ الأَمْرِ السَّعِيد، عَرُوسُ النَّصْرِ المُؤَزَّر، وَالفَتْحِ المُيَسَّر، فِي أَكْمَلِ حُسْن فَالأَلْسِنَةُ فِي كُلِّ غَوْرٍ وَنَجْدٍ بِشُكْرِ اللهِ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ نَاطِقَة، وَالقُلُوبُ مُوقِنَةٌ بِأَنَّ الدَّعْوَةَ المَهْدِيَّةَ فِي الظُّهُورِ إِلَى يَوْمِ النُّشُورِ صَادِقَة؛ وَالأَمْنَةُ قَدْ مَدَّتْ عَلَى البِلَادِ جَنَاحا، وَأَرْضُ النَّصْرَانِيَةِ قَدْ زُلْزِلَتْ زِلْزَالَهَا[4] وَهَيَّجَتْ هَذِهِ المَسَرَّةُ بَلْبَالَها، وَأَذِنَتْ بِذُلِّها وَصَغَارِهَا وَعدمَتْ تَخَمُّطَهَا وَصِيَالَهَا.

---

(1) سورة: فاطر، الآيات: 19-20-21.

(2) وردت بهامش الأصل؛ وفوقها «كلمة صح».

(3) فيه إشارة إلى قول الشاعر العربي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس:

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الأَفْهَامِ شَيْءٌ ... إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

(4) فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾.



وَاللهُ يَصِلُ لِلْحَضْرَةِ الإمَامِيَّةِ يُمْنَهَا وَإِقْبَالَهَا، وَيُضَاعِفُ لَهَا مَا خَوَّلَها مِنَ السُّعُودِ وَأَوْلَاها، وَيُوَرِّثُها الأَعْمَارَ حَتَّى تَسْتَأْصِلَ مِنَ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ كَافَّةَ عِدَاهَا، وَيَحْرُسَ عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَا أَشْرَقَ عَلَيْهِمَا مِنْ نُورِ هُدَاها، وَيُهَنِّيهَا مَا وَهَبَ لَهَا مِنْ عُلاَهَا، وَيَرْزُقَنَا أَجْمَعِينَ حُسْنَ رِضَاهَا وَيُعِينُنَا فِي كُلِّ حالٍ عَلَى مَا يُزْلِفُ مِنْ رُحْمَاهَا.



الفهارس العامة



فهرس الآيات القرآنية

الصفحة	الرقم	السورة	الآية
247	23	البقرة	﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾
236	43	البقرة	﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾
509	68	البقرة	﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾
247	73	البقرة	﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾
244	89	البقرة	﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾
241	136	البقرة	﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾
327	-155 156	البقرة	﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾
285	155	البقرة	﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾
-337-292 611-328	155	البقرة	﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾
603-522	165	البقرة	﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾
597	176	البقرة	﴿فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾
576	176	البقرة	﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾
198	217	البقرة	﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾
261	227	البقرة	﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ﴾



﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾	البقرة	235	422
﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾	البقرة	235	422
﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾	البقرة	247	524
﴿قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ﴾	البقرة	259	728
﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾	البقرة	260	745
﴿تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ﴾	البقرة	272	480
﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾	البقرة	281	616
﴿سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾	آل عمران	133	615
﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾	آل عمران	140	410
﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾	آل عمران	167	319
﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ﴾	آل عمران	178	598
﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾	آل عمران	185	234
﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾	آل عمران	187	251
﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾	النساء	58	232
﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا﴾	النساء	62	423
﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾	النساء	68	634
﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾	النساء	72	409
﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾	النساء	93	410
﴿فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا﴾	النساء	112	168
﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ﴾	النساء	127	488
﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ﴾	النساء	135	233





﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	هود	88	479
﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾	يوسف	23	185
﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾	يوسف	44	239
﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾	يوسف	76	364-245
﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾	يوسف	84	415
﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾	يوسف	88	415
﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾	يوسف	92	185
﴿اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾	يوسف	97	185
﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾	يوسف	108	547
﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾	الرعد	9	479
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾	الرعد	12	599
﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾	الرعد	-24 43-25	547
﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾	الرعد	34	265
﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾	الرعد	39	318
﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾	إبراهيم	9	597
﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾	إبراهيم	26	320
﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾	إبراهيم	27-26	741
﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾	إبراهيم	39	530
﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾	الحجر	47	502
﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾	النحل	8	168





﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَٰرِ﴾	النور	42	478
﴿إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾	الفرقان	4	270
﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾	الفرقان	54	502
﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾	الشعراء	89	627
﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾	الشعراء	128-129	203
﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾	الشعراء	151-152	270
﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾	الشعراء	223	501
﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾	الشعراء	226	218
﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾	النمل	35	420
﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾	القصص	79	492
﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾	العنكبوت	41	264
﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾	العنكبوت	41	243
﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾	الروم	5	710
﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾	الروم	16	270
﴿حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾	الأحزاب	19	240
﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾	الأحزاب	19-20	240
﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾	الأحزاب	46	592
﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾	الأحزاب	61	586
﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾	سبأ	15	533
﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾	سبأ	15	474-244



﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾	فاطر	8	264
﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾	فاطر	12	233
﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾	فاطر	14	481
﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾	فاطر	-19 21-20	748-265
﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	فاطر	43	586
﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾	يس	81	694-479
﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾	الصافات	177	599-235
﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾	الصافات	-178 179	270
﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾	ص	23	422
﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾	ص	23	480
﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾	ص	31	510
﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾	ص	41	317
﴿وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾	ص	42	584
﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾	الزمر	11	-326 350-337
﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾	الزمر	17	265
﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾	فصلت	5	239
﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾	الشورى	25	217
﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾	الشورى	26	447
﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾	الزخرف	22	234



﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾	الزخرف	67	502
﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾	الزخرف	71	183
﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾	الزخرف	71	533
﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾	الجاثية	6	270
﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾	محمد	15	265
﴿مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾	الفتح	20	583
﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	الفتح	23	586
﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾	الفتح	26	480
﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾	الفتح	27	583
﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾	الفتح	28	547
﴿جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾	ق	10-9	455
﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾	الذاريات	42	235
﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾	النجم	28	317
﴿كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾	القمر	50	525
﴿ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾	القمر	54	595
﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾	الرحمن	18	518
﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾	الرحمن	25-24	337
﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾	الحديد	19	234
﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾	الحديد	20	-367 728-714
﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾	المجادلة	21	598
﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾	المجادلة	21	598



﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾	الحشر	9	503
﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾	الحشر	14	422
﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾	الصف	3	236
﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾	الطلاق	9	237
﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾	التحريم	6	247
﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾	القلم	11-10	270
﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾	الحاقة	9	600
﴿لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾	الجن	12	594
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾	المدثر	31	312
﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾	المدثر	35	523
﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾	الإنسان	24	270
﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾	الإنسان	27	266
﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾	التكوير	18-17	368
﴿أَكْلاً لَّمّاً﴾	الفجر	21	388
﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾	العلق	7-6	217
﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾	الفيل	4	247
﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾	الفلق	5	474

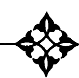




فهرس الأحاديث النبوية



فهرس الأشعار















فهرس الأعلام

















فهرس الأمثال







جريدة المصادر والمراجع

❖ الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبد الله عنان، طبعة الخانجي مصر 1974.

❖ اختصار القدح المعلى، ابن سعيد المغربي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط: القاهرة، بيروت 1980.

❖ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أبو العباس المقري التلمساني، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وشلبي، ط: القاهرة 1939.

❖ إعتاب الكتاب، ابن الأبار، تحقيق: الدكتور صالح الأشتر، ط: دمشق 1961.

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي، ط: بيروت 1986.

❖ الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، العباس بن إبراهيم السملالي، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط: الملكية، المغرب.

❖ أعلام المغرب العربي (الجزء الرابع)، عبد الوهاب بن منصور، ط: الملكية، الرباط، 1986.

❖ أعمال الأعلام، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: ليڤي بروڤنسال، ط: بيروت 1956.

❖ الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، ط: دار الكتب المصرية.

❖ الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، ط: بيروت، لبنان (دون تاريخ).

❖ أمثال العرب، المفضل الضبي، ط: الجوائب 1300.

❖ أمثال العوام في الأندلس، أبو عبيد الله بن أحمد الزجالي القرطبي، تحقيق: الدكتور محمد بن شريفة، ط: المغرب 1971.

❖ أمراء البيان، محمد كرد علي، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

❖ الأمالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، ط: بيروت- لبنان (دون تاريخ).

❖ البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ، تحقيق: أحمد بدوي، حامد عبد المجيد، ط: وزارة الثقافة، مصر، 1960.

❖ البديع في وصف الربيع، أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، تحقيق: هنري بيريس، ط: الرباط 1940- 1359.



❖ برنامج شيوخ الرعيني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي، تحقيق: إبراهيم ثبوح، ط: دمشق 1962.

❖ البسطي آخر شعراء الأندلس، د: محمد بن شريفة، ط: دار الغرب الإسلامي، لبنان 1935 .

❖ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، ابن عميرة الضبي، ط: مدريد 1884.

❖ بغية الوعاة، السيوطي، ط: مصر 1926.

❖ البيان المغرب (قسم الموحدين) تحقيق: إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت التطواني، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، ط: الرباط، 1985.

❖ البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن أبي بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط: 4، بيروت، لبنان.

❖ تحفة القادم، ابن الأبار القضاعي، أعاد بناءه الدكتور: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي 1986.

❖ التحف والهدايا، أبو بكر محمد، وأبو عثمان سعيد الخالديين، تحقيق: سامي الدهان، ط: دار المعارف، مصر 1956.

❖ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي. ط: القاهرة 1931.

❖ التعازي والمراثي، أبو العباس المبرد، تحقيق: محمد الديباجي، ط: دمشق- سوريا 1976.

❖ التكملة، ابن الأبار القضاعي، نشره عزت العطار، ط: مصر 1956.

❖ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، ابن القاضي، ط: المغرب.

❖ جذوة المقتبس، أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، ط: مصر 1952.

❖ الجمهرة، ابن دريد (الأجزاء: 1-4) ط: الهند.

❖ جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، عبد المجيد قطامش، ط: بيروت- لبنان 1988.

❖ جوهر الكنز، نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبي، تحقيق: الدكتور زغلول سلام، ط: الإسكندرية- مصر (دون تاريخ).

❖ الحلة السيراء، ابن الأبار القضاعي، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، ط: مصر1963.

❖ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط: دار الرشاد- المغرب 1979.



❖ الحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج البصري، ط: حيدر آباد 1964.

❖ الحيوان، أبو عثمان عمرو بن أبي بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، ط: القاهرة 1938 - 1945.

❖ خريدة القصر وجريدة العصر، عماد الدين الأصفهاني، تحقيق: «جماعة»، ط: تونس 1971.

❖ خزانة الأدب، البغدادي، ط: بولاق1299.

❖ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، حمزة الأصفهاني، تحقيق: عبد المجيد قطامش، ط: دار المعارف 1976.

❖ ديوان أبي تمام (1-4) ط: دار المعارف، القاهرة.

❖ ديوان ابن الرومي (1-2) تحقيق: د. حسين نصار 1973- 1974.

❖ ديوان ابن زيدون، تحقيق: علي عبد العظيم، ط: مصر.

❖ ديوان ابن المعتز، تحقيق: ب.لوين، ط: المعارف، اسطنبول1950.

❖ ديوان بشار بن برد، تحقيق: الطاهر بن عاشور، ط: تونس.

❖ ديوان الخنساء، ط: بيروت- لبنان.

❖ ديوان الشماخ، تحقيق: صلاح الدين الهادي، ط: دار المعارف المصرية.

❖ ديوان الفرزدق، ط: دار صادر، بيروت- لبنان.

❖ ديوان المتنبي، تحقيق: عبد الوهاب عزام، ط: مصر 1944.

❖ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: د. إحسان عباس، ط: الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس1975.

❖ الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي (الأجزاء: 4-5-6) تحقيق: الدكتور إحسان عباس (والأجزاء: 1-8) تحقيق: د. محمد بن شريفة، طبعات: بيروت والمغرب.

❖ رسائل ابن أبي الخصال، تحقيق: الدكتور محمد رضوان الداية، ط: دار الفكر، دمشق- سوريا 1987.

❖ مقامات بديع الزمان الهمذاني، تقديم وشرح الإمام العلامة الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

❖ رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة، أبو القاسم محمد بن أحمد الغرناطي السبتي، ط: السعادة مصر1344.



❖ الروض الأنف، أبو زيد السهيلي، ط: الجمالية مصر 1914.

❖ الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق: الدكتور

❖ إحسان عباس، ط: بيروت-لبنان 1975.

❖ زهر الآداب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، تحقيق: زكي مبارك، (ط:4) بيروت- لبنان 1972.

❖ زاد المسافر، أبو بحر صفوان بن إدريس، تحقيق: عبد القادر محداد، ط: بيروت- لبنان1970.

❖ الزهرة، ابن داود الأصفهاني، تحقيق: لويس نيكل، إبراهيم طوقان، ط: 1932، والجزء الثاني من تحقيق: إبراهيم السامرائي ونوري حمودي القيسي، ط: العراق 1974.

❖ شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، ط: القاهرة 1350- 1351.

❖ شرح أدب الكاتب، أبو منصور موهوب بن أحمد الجوالقي، ط: مكتبة القدسي، طهران 1350.

❖ شرح ديوان جرير، تحقيق: محمد عبد الله إسماعيل الصاوي، ط: دار الأندلس، بيروت- لبنان (دون تاريخ).

❖ شرح ديوان الفرزدق، ط: الصاوي، مصر 1936.

❖ شرح ديوان امرئ القيس، للسندوبي، ط: مصر 1953.

❖ شرح المعلقات العشر، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط: دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان 1980.

❖ شعراء الأعراب، خليل مردوم بك، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط: الأولى 1973.

❖ شعراء بصريون، تأليف محمد جابر المعيبد، ط: الإرشاد، بغداد 1977.

❖ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، ط: مصورة.

❖ الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي، تحقيق: إبراهيم كيلاني، ط: دمشق 1964.

❖ الصلة، ابن بشكوال (1-2) ط: مصر 1955.

❖ صلة الصلة، ابن الزبير، تحقيق: ليڤي بروڤنسال، ط: الرباط 1938.

❖ طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق: العلامة محمود شاكر ط: 1952.

❖ عبد الحميد الكاتب وما تبقى من رسائله، تأليف: د. إحسان عباس، ط: الأردن.



❖ العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، تحقيق: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، ط: مصر 1965.

❖ العقد الفريد للملك السعيد، أبو سالم محمد بن طلحة القرشي النصيبي الوزير، ط: مصر (دون تاريخ).

❖ عنوان المرقصات والمطربات، ابن سعيد المغربي، ط: بيروت 1973.

❖ الغصون اليانعة، ابن سعيد المغربي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط: دار المعارف، مصر (دون تاريخ).

❖ الغيث المسجم في شرح لامية العجم، صلاح الدين الصفدي، ط: 1مصر 1305.

❖ الفاخر، المفضل بن سلمة، ط: الحلبي 1380.

❖ الفاضل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: عبد العزيز الميمني، ط: دار الكتب، القاهرة 1956.

❖ فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، أبو عبيد البكري، تحقيق: د. إحسان عباس، عبد المجيد عابدين، ط: مؤسسة الرسالة 1983.

❖ فهرس الفهارس، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، باعتناء: إحسان عباس، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان 1982.

❖ فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي، تحقيق: د. إحسان عباس، ط: بيروت 1973- 1974.

❖ قلائد العقيان، الفتح بن خاقان، تحقيق: محمد العنابي، ط: تونس 1966.

❖ الكامل، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: الحلبي.

❖ 1937.

❖ مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري الميداني، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، ط: دار القلم، بيروت (دون تاريخ) ط: مصر 1310.

❖ المحمدون من الشعراء، جمال الدين علي بن يوسف القفطي، تحقيق: رياض عبد الحميد مراد، ط: دمشق 1975.

❖ المختار من شعر بشار، اختيار: الخالديين، وشرح التجيبي، ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة- مصر.

❖ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، العمري، (مخطوط باريس الجزء 17).



❖ المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي، تحقيق: إبراهيم الأبياري وجماعة، ط: بيروت- لبنان 1955.

❖ مطمح الأنفس، الفتح بن خاقان، ط: الجوائب 1302.

❖ المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: محمد سعيد العريان، ط: القاهرة 1963.

❖ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ط: القاهرة 1936-1938.

❖ معجم البلدان، ياقوت الحموي، تحقيق: وستنفلد، ط: بيروت-لبنان.

❖ معجم ما استعجم، أبو عبيد البكري، تحقيق: مصطفى السقا، ط: القاهرة 1945.

❖ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار الفكر، بيروت- لبنان 1987.

❖ معالم الكتابة ومغانم الإصابة، عبد الرحيم بن علي بن شيث القرشي، تحقيق: محمد حسين علي شمس الدين، ط: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان 1988.

❖ المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق: د. شوقي ضيف، ط: 2، دار المعارف، القاهرة، مصر 1964.

❖ مفاخر البربر، مؤلف مجهول، ط: الرباط 1934.

❖ المقاصد النحوية، العيني، (على هامش خزانة الأدب للبغدادي)، ط: بولاق.

❖ المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، تحقيق: عبد الهادي التازي، ط: بيروت- لبنان 1964.

❖ المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، المقريزي، ط: بولاق، مصر (دون تاريخ).

❖ نظم الجمان، ابن القطان، تحقيق: د. علي مكي، ط: معهد مولاي الحسن، المغرب.

❖ نفح الطيب، أبو العباس المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، ط: بيروت- لبنان 1968.

❖ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (1-4)، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد 1357- 1377.

❖ ❖ ❖





فهرس الموضوعات






































تم بحمد الله